


المنهل
AL MANHAL
مجلة العرب الأدبية
العدد (٥٣٢) المجلد (٥٨) العام [٦٢] المحرم ١٤١٧ هـ / مايو / يونيو ١٩٩٦ م
الجميل في حوار
الشاعر سعد صائب
تأملات حضارية معاصرة لجماليات الفن الإسلامي
بين إرهاصات
المستقبل
بين الغزل

المنهل
ALMANHAL

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٨ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال



مما قل

محطة الاذاعة

حُلم ذهبي تحقق .. وحقاً سمعنا وسمع بنو الدنيا صوت «محطتنا السعودية» ، يخترق اجواز الفضاء، مجلجلا، مبشراً بالانبعاث الحثيث العظيم، لهذا الوطن الكريم.. وإننا لنرجوا - من قلوب مخلصة - لمحطة اذاعتنا الحديثة، نجاحاً حافلا واستمراراً وتوسعاً عميقاً سامقا؛ حتى تضاهي أكبر محطات العالم، اذاعة، وموضوعات، وبرامج.. فالدعاية اليوم قوة ادبية كبيرة لمن يريدون التقدم، فى عالم يعج بشتى القوى والقوات؛ وهى سلاح سياسي ماض يحسب له العالم الف حساب وحساب، ولحسن الحظ كانت إذاعتنا أحدث إذاعة فى العالم، فينبغى أن تقتبس من كل شيء أحسنه فتكون «مدرسة شعبية» مفيدة فى توجيه الشعب الى الاصلاح وتفتيح اذهانه وشد بنيانه وتثقيفه وتعريفه بواجباته، والنهوض بمرافقه على اساس النهوض بصحته وعمرانه ومجتمعه، وذلك رهن بتنظيم شؤنها الفنية والمادية والادبية على خير منوال؛ بتقديم الاهم على المهم، والاحتفال بمراعاة تقاليد البلاد الصالحة واستحثاث هذا الشعب النبيل، ببعث مجده التليد، وابتناء مجد يضاف الى ذخر الماضي العظيم، وما ذلك على ولاة الامور - ان شاء الله - بعزيز.

«عبدالقدوس الأنصاري»

المحرم ١٣٦٩/ نوفمبر ١٩٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطة الشهر



هذه الطفلة «البراءة» هل تتعامل بقانون «التكامل الحتمي» بين المخلوقات، أم أن هذه القطة مجرد لعبة جميلة شدت انتباهها.. القطة والطفلة يتعاملان بوداعة وبراءة متناهية.. إنها فطرة الخلق.. قبل أن يشينها التوحش المفتعل.

اللقطة من تصوير الفنان (الطايفي) المنصورة..

الشارة

- تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر
جدة - تليفون : ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس : ٦٦٠٤٦٧٦



صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د/ عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد



العدد: (٥٣٢)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)

منهليات



«القارئ.. العطاء المتجدد.. المحافظة على الهوية» مثلث متساوي الأضلاع في تناسق تام تقوم عليه منهجية المنهل..

«القارئ» مرتكز العطاء، إنه النابه الطُلعة، الذكي اللمّاح.. والعين الباصرة لمنهله، تبادله تقديراً بتقدير، وإكباراً بإكبار، ووفاء بوفاء.. أما «العطاء المتجدد» فهو واحد من سنن التطور والرقي، إذ الخمود موت، والتجدد حياة، أما «المحافظة على الهوية» فتمثل القيمة العليا التي تظل المنهل ترعاها وتضم عليها جوانبها. ثلاث نقاط أساسية تمثل محطات ارتكاز كبرى في مسيرة المنهل، وهي «في ثلاثتها» دائماً الحاضة على مواصلة المشوار وانتظام المسيرة.

المجلة التي تفقد قارءها - حتما - غير جديرة بالبقاء.. والقارئ ذكي بطبعه، يعرف الجيد من الردئ، ويذهب مع الجيد مذاهبه، ولا يرضى به بدلا.. وإن تستمر مطبوعة ستة عقود متتالية، ولا تزال، فهذا فضل من الله سبحانه نقابله بالشكر، وهي استمرارية يدعمها من ورائها أنموذج عطاء رائع في ميادينه، خَبِرتْهُ العقول النيِّرة الناضجة وظلت تتابعه في اهتمام طوال تلك العقود، وهي باقية عليه ببقائه..

«مجلات السوق» ما أقصر عمرها.. ذلك لانها لا هوية لها.. إنها «حاطب ليل» يجمع ما بين يديه من غير تفحص أو تدبر.

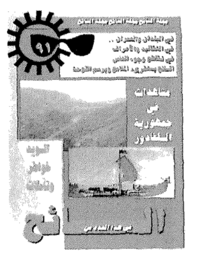
والمطبوعة التي تقوم على «لا شيء» تنتهي إلى «لا شيء» ولا أحسبني بحاجة إلى تعداد تلك النماذج إذ أنها فوق العد والاحصاء.

و«البقاء للأصلح» قول حق لا مراء فيه.. والاستمرارية على الأصلح هذا دونها «خرت القتاد».

والمنهل إذ يسلك الطريق الصعب الوعر في زماننا هذا يبغي تأصيل الذات، وتحقيق الهوية التي كادت تضيع بين الركام.. ركام الغثاثات الذي طغى على كثير من مطبوعات عالمنا العربي، ذلك لان هذه المطبوعات قامت على قانون «الربح والخسارة» فقط.. لذا فهي تركب الموجة، والموجة الهائجة لا أمان لها.

ورغم كل العقبات فأملنا كبير في أن «لا يصح إلا الصحيح».. والله من وراء القصد

«رئيس التحرير»





وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٧٦ - وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ - الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ - الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ - شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ - دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ - وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ - دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

فهرس العدد ٥٢٣ المجلد: ٥٨ العام: ٦٢

في هذا العدد

الفهرس

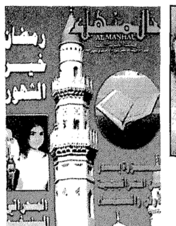
أقلام:

(د. محمد عماره ـ د. حسن محمد باجوده ـ د. راتب الغوثاني ـ د. عمر بن قينة ـ د. محمد أبو بكر حميد ـ د. محمد رجب البيومي ـ د. سالم عبد الجبار آل عبد الرحمن ـ أ. مصطفى بو هلال ـ الشاعر عمر بهاء الدين الأميري ـ الأستاذ محمد العربي الخطابي ـ د. مريم البغدادي ـ د. شاكر خصباك)



رسالة ناقدة، وأخرى شاكرة، مراجعات وتعليقات، نادرة وطرفة، أخبار ومتابعات، كلها وغيرها تمثل نسيج هذه الصفحات. قارىء المنهل - فيما بدا لنا من رسائله - قوي الملاحظة، دقيق الرأي، حسن النية. أحب منهله، وأحببنا نحن ما يصدر منه في إطار - حسن النية هذا - ويجدنا القارىء أكثر حرصاً وأسعد بالرأي الناصح.

المنهل



ما بين المشْرقَيْن:

كثير من القراء له ملاحظات دقيقة وطريفة، غاية فى الروعة، وهى من جانب آخر تدل على متابعة القارىء الكريم لمنهله وعشقه له، وهذا ما يسعدنا..

وملاحظات القراء فى كل جوانبها هي مكان تقديرنا واحترامنا.. وهذه واحدة من (قفشات القراء وطرائفهم).

* * *

حضرة المكرم/ رئيس تحرير مجلة المنهل - حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد..

ان العدد رقم ٥٢١ من مجلة المنهل كان يحتوي على موضوعات قيمة وخاصة انه كان لشهر رمضان المبارك.

ولكن لاحظت ان هناك هفوة قد حصلت في هذا العدد، فقد طبعت صورة لابن زيدون في صفحة المقالة المعنونة (ابن زيدون شاعر عذبه الحب) ص٦٨ في مجلة المنهل. ونفس الصورة ولكن بشكل اصغر قد طبعت للشاعر البحتري فى صفحة ١٤٦ المقالة (ألا ليت الشباب يعود يوماً) فى مجلة «هن».

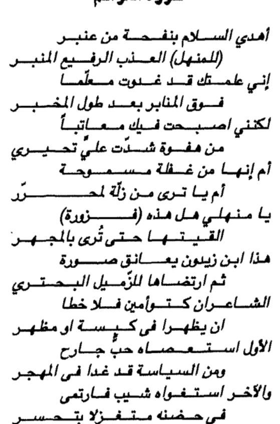
ولأن الصورة مثلت شاعرين فقد أوحت لي بتعقيب ببعض ابيات من الشعر مرفقة طيه، آملا ان تتقبلوها بصدر رحب، راجيا للمجلة «المنهل» كل تقدم وازدهار.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.

المخلص

محمد صالح درويش - الاردن -

صورة التوائم



أهدي السلام بنفحة من عنبر
(للمنهل) العذب الرفيع المنبر
إني علمتك قد غدوت معلّما
فوق المنابر بعد طول المخبر
لكنني اصبحت فيك معاتباً
من هفوة شدّت عليَّ تحيري
أم إنها من غفلة مسموحة
أم يا ترى من زلّة لمحرّر
يا منهلي هل هذه (فزورة)
القيتها حتى تُرى بالمجهر
هذا ابن زيدون يعانق صورة
ثم ارتضاها للزّميل البحتري
الشاعران كتوأمين فلا خطا
ان يظهرا فى كيسة او مظهر
الأول استعصاه حبٌ جارح
ومن السياسة قد غدا فى المهجر
والآخر استغواه شيب فارتمى
في حضنه متغزلا بتحسر
الصورتان كبيرة وصغيرة
كلتاهما للشاعر المتحيّر
ولادة جعلت هواه معنبا
لما النوى اضحى بعيد المعبر
احداهما فى (منهل) مستعذب
أخراهما في (هن) رهن البحتري
هذا جرى زمن الصيام وشهره
يسمو بنا، رمضان خير الأشهر

المربي الكبير الاستاذ الشيخ عثمان الصالح، على يديه تخرجت أجيال وأجيال، هم الآن ملء العين والسمع.



تابع المنهل منذ عددها الأول وكان صديقاً شخصياً لمؤسسها الشيخ عبد القدوس الأنصارى - رحمه الله رحمة الأبرار - وهو من المحبين لها المتابعين لحركتها ومسيرتها.. و(دارة مجلة المنهل) ظلت هاجسه، وكم تمنى أن يراها الآن قائمة، صرحاً من صروح العطاء الفكرى فى هذا البلد المعطاء.. ونحن معه نتمنى ان يتم هذا الحلم فى أسرع وقت ممكن.

وهذه الأبيات للشيخ الأستاذ/ عثمان الصالح نبض قلب محبٍّ، يهديها لمجلته المنهل ولصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ نبيه الأنصارى..

إشرب غذاً من منهل الأنصاري
للعلم والآداب، للأفكار
لكنّ منهلنا تفوّق بالحجى
بمقالة وبحثه المختار
حتى بدت موسوعة مضمونها
من كل مأثور لنا مشتار
سر يا (نبيه) الى الأمام بهمة
فلأنت فينا عالي المقدار
(أنبيه) أين (الدار) (دارة منهل)
طال انتظارى يا أخي للدار
ما دمت تصدرها كتاباً غالياً
أغلى من الدولار والدينار
فالدار أسهل في البناء لمنهل
للعلم والآداب والأخبار

●●●

مراجعات :

التقيت فلاناً!!

قال الأديب الراحل الأستاذ احمد محمد جمال فى مقال له سنة ١٤٠٥هـ في زاويته المعتادة «سقط الزند» في مجلة المنهل العدد ٤٣٢ مصوباً بعض الأخطاء اللغوية الشائعة ما نصّه: «محررو الصحف لدينا من الإخوة اللبنانيين يستخدمون فعل (التقى) دون الاستعانة بحرف الجر (به) فيقولون في أخبارهم ومقالاتهم: (التقى فلاناً) أو (التقاه) والصواب فى ذلك هو الاستعانة بحرف الجر في ما كان فعله على وزن (افتعل) كاصطدم وانتقل واعتدى، والتقى مثلها، فيقال: اصطدم به وانتقل إليه واعتدى عليه والتقى به، أى: اجتمع به».

والحق أن ما ذهب إليه الأستاذ احمد محمد جمال خلاف الصواب، ويبدو أنه وهم - رحمه الله - لعدم المراجعة، فخطّأ الصواب وصوّب الخطأ فاختاره، لما رآه شائعاً على ألسنة العامة والخاصة في بلادنا، إذ يقولون: التقيت بفلان والتقى بصديقه، فيعدّون الفعل «التقى» بحرف الجر، وهذا هو الخطأ.

والاستعمال اللغوى الصحيح لهذا الفعل أن يقال: التقيتُ فلانا، والتقاه، ونحوه، فيتعدّى بنفسه، ومنه قول الشاعر:

لمّا التقيتُ عُميراً في كتيبته
عاينتُ كأس المنايا بيننا بددا

والتقاه مثل: لقِيَه ولاقاه وتلقاه، قال ابن سيده: «وتلقاه والتقاه» (المحكم ٦/٣١٢) وكذا في اللسان (١٥/٢٥٤) والقاموس (١٧١٦) والتاج (١٠/٣٣٠) وأقرب الموارد (١١٥٦/٢) ونصّ عليه العدناني في «معجم الأخطاء الشائعة» (ص٢٣٠)

والتقى على صيغة (افتعل) وتأتي هذه الصيغة لمعان ذكرها الصرفيون، منها:

١ - المطاوعة، نحو: جمعته فاجتمع، ومزجته فامتزج.

٢ - الاتخاذ، نحو شويت اللحم، أي اتخذته شواء، واختبزت الخبز: جعلته خبزاً.

٣ - المشاركة، نحو اختصم القوم واشتركوا؛ أي: تخاصموا وتشاركوا.

٤ - ويجيء افتعل بمعنى الفعل المجرد، نحو: خطف واختطف، وقلع واقتلع وجذب واجتذب، كما قال سيبويه في الكتاب ٧٤/٤، وكذلك التقى فهو من هذا النوع؛ أي بمعنى المجرد لقي، في قولهم: لقيه، ولا يقولون: لقي به.

وقول الاستاذ: «والصواب في ذلك هو الاستعانة بحرف الجرّ في ما كان فعله على وزن افتعل كاصطدم وانتقل واعتدى والتقى، فيقال: اصطدم به وانتقل إليه واعتدى عليه والتقى به» يوهم بأن (افتعل) لا يتعدى بنفسه، والصواب أن (افتعل) يكون لازما ويكون متعدياً، ويتعدى المتعدى منه بنفسه أو بحرف الجر.

ومما يتعدّى بنفسه: اكتسب المال، وامتطى الفرس، وارتجل الخطبة، واتخذه خليلا، واستلم الركن. ومنه في القرآن الكريم {ثمَّ اتخذتم العجل من بعده} (البقرة/٥١)

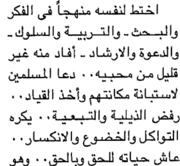
وقـوله عـز وجل: {فـاعـتـزلوا النســاء في المحـيض} (البقرة/٢٢٢)٠
ولهذا كله قُلْ: التقاه ولا تقل: التقى به٠

د٠ عبد الرازق فراج الصاعدي
ـ المدينة المنورة ـ

●●●

وفاء بوفاء :

الأسـتـاذ الدكتور يوسف عـز الدين، أحـد أعـلام الفكر والأدب واللغـة في عـالمنا العربي، وهو من المتـابعين للمنهل، بل يُعَدّ أحــد روادهـا ومحبيها٠٠ ومن هذا المنطلق تأتي رسالته هذه:



أخي الاديب الكبيـر/ نبيه الانصارى ـ حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

ارجـو ان تقـبل مني خـالص التهـانى واعطر الامـانـي بدخـول المنهل الزاهرة عـامـهـا الحـادي والسـتين٠٠ إنهـا مرحلة من مراحل الكفاح والاصرار والعزيمة على مواصلة خـدمـة الحـرف العربى المعطاء٠٠ والفكر الاصـيل والمعنى السـامى٠٠ فقد جمعت عدداً كبيرا من الرواد وقادة الرأي وربابنة الادب والمعرفة بانواعهـا المخـتلفـة فـهي مـوسـوعـة فكرية وعلمـيـة وثقـافـيـة شـملت مناحي الحـضـارة القـديمة والجديدة بما كـتـبـه الكتـاب ومـا نظمـه الشـعـراء وسطره العلماء٠

وقـد كـان للمنهل فـضل ظهـور بعض الكتـاب والمفكرين والاسـاتذة ممن ندر ان نجـد لـهم ابحـاثاً فـى السـابق:٠ فجزاك الله اكرم الجزاء٠

اخوك / أ٠د٠ يوسف عز الدين ـ الطائف

●●●

وقف الكلمة الطيبة ٠٠ ظاهرة تستحق الإعجاب:

عمل الخير متعدد الأنحاء واضح السمات، «بناء مسجد ـ إنشاء مركز علمي إسلامي ـ تأسيس جمعية خيرية ـ نشر كتاب فيه الخير للمسلمين٠٠»

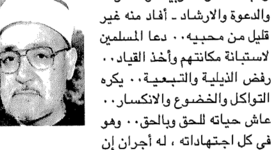
هكذا مناحي الخير متعددة لا تنقضي، وكل خيِّر يختار من هذا الخير الوفير ما يراه اكثر فائدة ونفعاً للمسلمين٠

وفي إطار الخير هذا، تفرد عطاء فضيلة الشيخ عبد الحـميد بن الشيخ عبـد العزيز بن مـحـمد السلمـان٠٠ إذ اختار جانب نشر «الكلمة الطيبة» يفيد منها المسلمون، فعمد إلى نشر مؤلفات والده (الشيخ عبد العزيز) ٠٠ وقد امتد هذا العطاء الخيِّر إلى اكثر من عشرة آلاف مكتبة في انحاء العالم الاسلامي، نسأل الله سبحانه أن ينفع بها عباده٠

بين السطور

الإمـام الشيـخ مـحـمد الغـزالي ـ رحـمـه الله رحـمـة الابرار الخيرين ـ كان من العلماء الاخيار المعدودين في عـالمنا الاسـلامـي ـ وكـان قـمـة لا تضـاهى، ومنارة من منارات الفكر الاسلامي الجريء الصادق٠٠ لا يهاب ولا يخاف ولا يجامل فى الحق٠٠





اختط لنفسه منهجاً فى الفكر والبـحث ـ والتـربيـة والسلوك ـ والدعوة والارشاد ـ أفاد منه غير قليل من محبيه٠٠ دعا المسلمين لاستبانة مكانتهم وأخذ القياد٠٠ رفض الذيلية والتبعية٠٠ يكره التواكل والخضوع والانكسار٠٠ عاش حياته للحق وبالحق٠٠ وهو فى كل اجتهاداته ، له أجران إن أصاب، وله أجر المجتهد إن اخطأ٠٠ لقد أسكت الشيخ مـحـمد الغزالي أصـواتاً كانت تملأ السـاحـة ضـجـيجـاً ونعيقاً، أصوات سوء وشرٍ فتح لها الاعلام ذراعيه٠

والآن فـالتـحـفظ للشـيخ مكانتـه، إذ العلمـاء ورثة الانبياء٠٠ وموت قبيلة أيسر من موت عالم٠

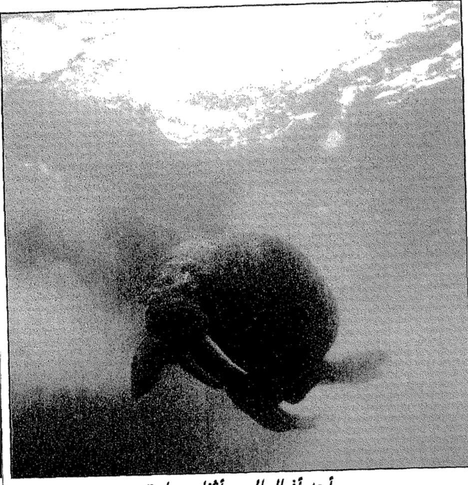
لقد كشفت وفاة الإمام (محمد الغزالي) رحمه الله تعـالى وجـعـل الفـردوس مـثـواه ـ مـا تناسـيناه نحن المسلمين من وجوب حفظ حق العالم ومكانته، لقد رأيت أفواها تأبى أن تقول كلمة الرحمة عليه ولا تأنف من حمل التـهـم والمسـاس بمكانتـه كـعـالم ومـفكر اسـلامي وتراهم يشيحون بوجوههم بعيدا اذا ذُكِر أو تُرُحِّم عليه والغـريب أنك لا ترى لهـؤلاء أى صلة بكَتب الغـزالي أو اطلاع على جهده وانما هم كببغاء تردد دون أن تعي ما تنطق٠٠

ونقـول لهـؤلاء ان كـان مـا حـملتـمـوه على الامـام صـحـيحـا فان وجود القضـايا الفقهية والاختلاف فيها على نحـو يؤدى الى الخطأ في الرأى قد عرف على مـر عصور الأمة الاسلامية ومع ذلك لم نسمع من يقدح في شخص أى عالم أو يرفض علمه لكن كان علينا أن نكون أصـحـاب تفكير واسع فما عرض علينا من خير أخذناه وما رأيناه مخالفا لما هو صحيح لدينا بعدنا عنه دون أن نحمل على العالم ونرفض كل علمه٠

غادة عبد الله العمودى ـ جدة ـ

استطلاع مصور:

غموض وغرابة حياة أفيال البحر


- أحد أفيال البحر أثناء سباحته.

أفيال البحر من الثدييات حارة الدماء التى عادت إلى البحر منذ أكثر من ٥٠ مليون سنة، وهذه الثدييات البحرية على حافة الانقراض فالإنسان لها دائما بالمرصاد فهي تحوي الكثير مما يشكل مصدر دخل رئيسي وهام له فمنها يأخذ اللحم والفراء والزيت والدهن ومكونات الأدوية والعاج بل وتستخدم عظامها أيضا.

الانقراض يهدد هذه الحيوانات البحرية لكثافة الصيد بالإضافة إلى أن تكاثرها بطيء نسبيا بالقياس بالأسماك.

والثدييات البحرية نوعان رئيسيان وهما الفقمة والحوت:

والفقمة نوعان:

الفقمة ذات الآذان ومنها سباع البحر.. الفقمة ذات الفراء.

محمد محسن محمد حافظ

- مصر -

القمة الأصيلة ومنها أفيال البحر والفقمة المزركشة وبقر البحر.

أما الحيتان فمنها الكثير مثل الحوت القاتل والحوت الأزرق والحوت الأبيض والدرفيل والحوت المنان والحوت الأحدب.

وتعتبر الفقمة الأصيلة هى أكثر الأنواع انتشارا وحيواناتها تتميز بالضخامة.

تعيش أفيال البحر فى المحيط المتجمد الشمالى وفى هذا المحيط يمكن أن نشاهد أكبر تجميع ممكن للثدييات البحرية فهناك سباع البحر والحيتان وأيضا دب القطب الشمالي الذى يعتبر العدو الأول لأفيال البحر.

وفيل البحر البالغ يبلغ طوله حوالى ٥ - ٦ أمتار ومحيط وسطه حوالى ٤ أمتار وطول خطمه ٤٠سم أما أنيابه فيبلغ طولها ٦٠ - ٧٠ سم ويبلغ وزنه ٥ر١ - ٢ طن وله على خطمه كمية كبيرة من الشوارب، كما أن ذيلة عبارة عن ذعنفتين.

وأفيال البحر من الحيوانات الكسولة، فنشاطها الرئيسي هو الأكل والإسترخاء والنوم.

تعيش أفيال البحر صيفا فى المحيط المتجمد الشمالي أما فى الشتاء فهى تعيش في أقصى شمال المحيط الباسيفيكى فى المنطقة المعروفة باسم Gering Sea ويوجد من أفيال البحر نوعان:

النوع الأطلنطى والنوع الباسيفيكى:

ويتميز النوع الباسيفيكى بأنه أكبر حجما وأنيابه أطول وذو خطم أعرض وذكوره أكبر حجما.

وتعتبر منطقة شمال المحيط الباسيفيكى والمحيط المتجمد الشمالى من المناطق الحسنة الحظ - بالرغم من أى شيء - فحيواناتها خلال القرنين الماضيين أقل الحيوانات عرضة للقتل والاستغلال بالصيد الجائر نظرا لطبيعة المنطقة الصعبة مناخيا فمازال بها نمو كثيف ومتنوع من الحيوانات البحرية والطيور كما أن بها ثروة سمكية كبيرة خاصة أسماك السالمون.

ولقد اكتشف فيها فى النصف الأخير من القرن العشرين مخزون بترولي كبير وكميات كبيرة من الغاز الطبيعي.

يقول راى كارلتون أحد الباحثين المتخصصين فى أفيال البحر بجامعة آلاسكا: «إن المعلوم عن سلوك أفيال البحر قليل وغير مفهوم فهى مثل جبال الجليد نراها على السطح وعلينا استنتاج الباقى!!»

فى منطقة Bering Sea فى الربيع وبالتحديد فى الفترة من أبريل إلى أوائل يونيو يمكن مشاهدة واحدة من أكبر هجرات البحر والطيور على الأرض، الآلاف من المخلوقات الحية تتجه شمالا من أجل الغذاء الوفير والتكاثر. فتهاجر أفيال البحر وخنازير البحر والحيتان وبط العيدر وطائر الأويك وطائر الغلمار البحرى وطائر المور البحري.

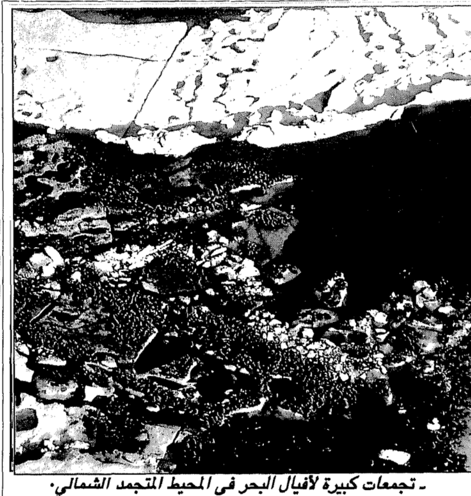
فى ديسمبر ويناير تعود أفيال البحر إلى منطقة Bering Sea وقد لاحظ الباحثون أن بعض ذكور أفيال البحر لا تهاجر مع الإناث بعد التزواج ولكنها تقضي الصيف فى جنوب سيبريا فى خليج أنادير Gulf Of

. Anadyr

ولقد اعتمد الباحثون فى جامعة آلاسكا على أفيال البحر فى دراسة ومعرفة تأثير التغييرات البحرية على الحيوانات والكائنات التى تعيش فى منطقة المحيط المتجمد الشمالى.

تعيش أفيال البحر حياة مزدوجة متأقلمة مع الحياة على الأرض المغطاة بالجليد والحياة فى الماء شبه المتجمدة خاصة وأن درجة المياه تنخفض عن درجة حرارة الهواء على الأرض بمقدار ٢٠ درجة فهرنهيت وتقوم طبقة الدهن الموجودة بين الجلد والعضلات والتى يبلغ سمكها من ٧ر٥ - ١٠ سم بتوفير عزل كاف للحيوانات يساعدها على تحمل درجات الحرارة المنخفضة ويتم ذلك باندفاع الدم عند الغوص من الطبقات الدهنية إلى العضلات بتدفئتها وهذا يفسر لماذا يكون لون أفيال البحر عند صعودها من الغوص بني فاتح! وبعد فترة من بقائها على الأرض تبدأ تدريجيا فى اكتساب لونها البني نتيجة لعودة الدم مرة أخرى إلى الطبقة الدهنية.

ولقد فسر الباحثون ذلك بأن لأفيال البحر نظاماً خاصاً للتنظيم الحرارى للتحكم فى درجة حرارة جسمه يعتمد على توسيع أوعيته الدموية للتخلص من الدماء الساخنة فى



- تجمعات كبيرة لأفيال البحر فى المحيط المتجمد الشمالي.

العضلات بخروجها إلى الطبقة الدهنية فتبرد بفعل الهواء الخارجي وهذا ما يحدث بعد الصعود من الماء.

أما عند الغوص فى الماء فيحدث انقباض فى الأوعية الدموية فى الطبقة الدهنية فيندفع الدم منها إلى العضلات فيدفئها ويساعدها على احتمال برودة المياه الشديدة ويتم ذلك بشكل ميكانيكى لا إرادى فبمجرد الإحساس بقلة الرطوبة على جسدها تتم عملية توسيع الأوعية الدموية لأن قلة الرطوبة تعني ارتفاع درجة حرارة الطبقة الدهنية عن صفر فهرنهيت.

فى أوقات الاسترخاء على البر تقوم أفيال

البحر بالعراك مع بعضها مستخدمة أنيابها الطويلة ولولا طبقة الدهن السميكة التى تغطي أجسامها لمات الكثير منها من طعن الأنياب لذا نشاهد الكثير من أفيال البحر بناب واحد أو مكسورة الناب.

وأنياب أفيال البحر من الأشياء الهامة لغرض السيطرة ففي كل قطيع يكون القائد فيه هو فيل البحر الذى له أطول أنياب لأن طول أنيابه يجعله أكثر عدوانية وفوزه فى العراك مضمون.

ولقد كانت هناك خرافة سائدة لمدة قرنين ونصف من الزمان أن أفيال البحر تستخدم أنيابها فى تناول الطعام بالرغم من أن أحدا للآن لم ير أفيال البحر أثناء تناولها الطعام حيث إنها تحصل على طعامها من قاع البحر.

ولكن الاكتشافات والمعارف الحديثة قالت أن أفيال البحر مثل الإنسان وزنها فى الماء أقل من وزنها على الأرض وبالتالى فإن استخدام الأنياب فى التغذية تحت الماء يكون أمرا بالغ الصعوبة هذا بالإضافة إلى أفيال البحر التى فقدت أحد أنيابها تكون فى نفس حجم ووزن الأفراد التى لها نابان.

ويقال أن كل فرد بالغ من أفيال البحر يحتاج يوميا إلى حوالى ١٠٠ رطل من الطعام ولكن هذه النتيجة غير مؤكدة لأن ذلك يعنى أن يتغذى الحيوان على حوالى ٨٠٠ رطل من الرخويات الكبيرة الحجم لينة القشرة وعلى حوالى ١٠ آلاف رطل من الرخويات الصغيرة صلبة القشرة وقد أكد ضعف هذا الاستنتاج أنه بفحص أمعاء أفيال البحر وجد أنه من النادر العثور فيها على بقايا قشور الرخويات مما يؤكد أنها تقوم بنزعها قبل التغذية عليها.

ولقد قام الباحثون فى جامعة آلاسكا بدراسة كيفية حصول أفيال البحر على غذائها وذلك بمراقبة أفيال البحر فى الأسر فى بيئة مماثلة للبيئة الطبيعية ووجدوا أنه يستخدم خطمه العريض وشواربه فى البحث عن الطعام وعندما يجد الرخويات يضم شفتيه على قشرتها ويشفط بقوة مستخدما لسانه فيمتص الحيوان الموجود داخل القشرة.

وغذاء أفيال البحر المفضل هو الرخويات مثل محار Mollusk والمحار الحلزونى ويتغذى أيضا على القشريات وفى بعض الأحيان تصطاد أفيال البحر الأسماك وقد تبتلع بالصدفة بعض النباتات الموجودة فى البحر.

ولقد قال الباحث راى كارلتون فى تفسير طريقة حصول أفيال البحر على غذائها أنه بالإضافة إلى استخدامها الشوارب الموجودة على خطمه إلا أن هناك شيئا ما فى تركيب رأس أفيال البحر يساعدها فى الحصول على غذائها.

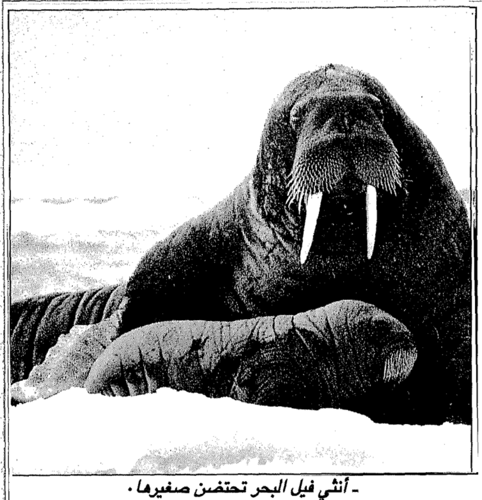
وفى أحد المحاولات للغوص فى البيئة التى تعيش فيها أفيال البحر لمشاهدتها أثناء البحث عن غذائها غاص الباحثون فى غواصة خاصة حتى أصبحت المسافة بينهم وبين قاع البحر حوالى ١٢٥ قدماً ولكنهم لم يروا شيئا حيث أن الحركة الشديدة لأفيال البحر فى بحثها عن الطعام أثارت الكثير من الرمال مما تعذر معه الرؤية.

ومن المعروف أن أفيال البحر يمكن أن تغوص إلى عمق ٣٠٠ قدم وتظل تحت الماء لمدة

نصف ساعة.

أما فيما يتعلق بالتزاوج والتناسل عند أفيال البحر فالمعلومات المتوفرة عنه قليلة ولكن التزاوج يتم في شهر مارس ويتم إلتقاء الذكر بالأنثى تحت الماء، ولكل ذكر مجموعة خاصة به من الإناث.

وقد تتبع الباحثون قطيعاً من أفيال البحر ووجدوا أن أثناء موسم التزواج تغوص إحدى الإناث في الماء ويبقى الباقى خارج الماء ثم ينزل الذكر وراءها وقد قام الباحثون بإنزال أجهزة سمعية سجلت تحت الماء أثناء وجود الذكر والأنثى أصوات ضربات مميزة تبدو مثل الدق بقبضة اليد على باب خشبى وسجلوا أيضا صوت صفارة رقيقة وأصوات غريبة تبدو مثل كورس يضرب الأجراس.



- أنثي فيل البحر تحتضن صغيرها.

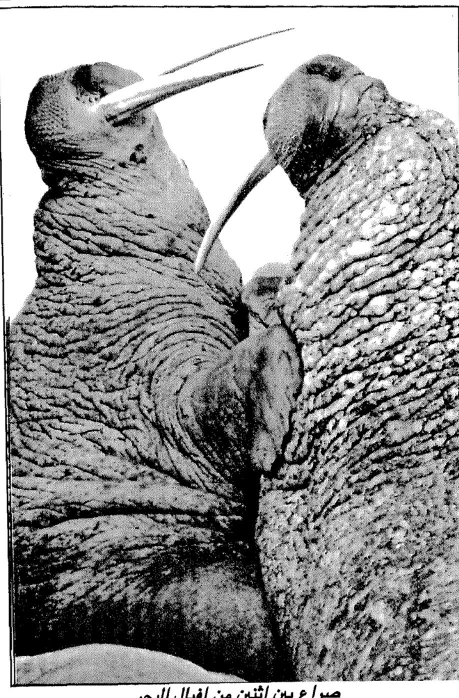
وبعد دقيقتين إلى أربع دقائق يندفع الذكر خارجا من الماء مفتوح الفم على اتساعه، يوجد على جانبى رقبة ذكر فيل البحر بالقرب من البلعوم أكياس هوائية بعد أن ينتهى الذكر من الجماع ويخرج من الماء تكون هذه الأكياس منتفخة بالهواء دليلا على زهوه بما أنجز ثم يرفع زعانفه الخلفية عاليا في الهواء وأثناء ذلك تكون الأنثى خرجت من الماء وتغطس أنثى آخرى ويعاود الذكر الكره.

ولقد لاحظ الباحثون أن سلوك الذكر يكون دائما ثابتاً بعد كل مرة يغطس فيها الذكر فلقد كانت تسمع نفس الأصوات وتظل في الماء لمدة ٢ ـ ٤ دقائق ثم يخرج إلى سطح الماء لمدة ١/٢ دقيقة ويغطس مرة أخرى مع أنثى أخرى.

وبمتابعة الدراسة توصل الباحثون إلى أن صوت الصفارة الرقيقة والأصوات التى تبدو مثل أصوات الدق بقبضة اليد على باب خشبي وكورس ضرب الأجراس هى أصوات موسمية مميزة ومرتبطة بالانتعاش الجنسى وكذلك انتفاخ الأكياس الى جانبي رقبة الذكر ومن معرفة سلوك أفيال البحر يفرض سؤال نفسه كم من الوقت تقضيه أفيال البحر في الماء؟ وكم

على اليابسة؟ وكيف تقضي يومها؟

ولقد وجد أن أفيال البحر لا تخرج من الماء إلى الأرض كل يوم وهى تخرج فى النهار أو فى الليل أى ليس لها وقت محدد وهى تخرج بشكل منفصل متتابع وليس على شكل قطعان وهى تظل خارج الماء حوالى ٤٠ ساعة فى مقابل يومين إلى ٣ أيام فى الماء وأنها تقضى وقتها فى الاسترخاء والنوم والبحث على الطعام.



صراع بين اثنين من افيال البحر

وبالرغم من صعوبة ووعورة الأرض الثلجية التى تعيش عليها أفيال البحر إلا أنها تتحرك عليها برشاقة لأنها لينة العضلات وفى الماء يعوم فيل البحر مندفعا بخفة من جانب إلى الآخر مستخدما زعانفه الخلفية - زعنفتين - بالتبادل ويقوم سكان المحيط المتجمد الشمالى - الإسكيمو - بصيد أفيال البحر فهى كل حياتهم منذ قرون طويلة ويستخدمون كل جزء منها فى حياتهم فيستخدمون الجلود بعد دبغها فى صناعة القوارب والأحبال والملابس والنعال ويأكلون لحمها ويستخدمون دهنها فى الإنارة حتى الشوارب تستخدم فى صناعة فرش الأسنان أما العاج فيصنعون منه التحف الكثيرة ويقوم الإسكيمو بصيد حوالى ٣ آلاف حيوان سنويا.

ولقد صدرت فى عام ١٩٧٢ إتفاقية بين أمريكا والإتحاد السوفيتى سابقا لحماية أفيال

البحر التى تعيش فى أراضى الدولتين من الانقراض وقامت جامعة الاسكا بعمل برامج دراسية حول أفيال البحر لدراسة سلوكياتها المختلفة والحفاظ عليها وإكثار البقية الباقية منها.



- احد أفراد فيل البحر يبحث عن غذائه فى قاع البحر.

ولقد قدر عدد أفيال البحر فى كلا الجانبي الأمريكى والسوفيتى بحوالى ١٤٠ - ٢٠٠ ألف حيوان فقط ونظرا لأن الصيد فى الأراضى الأمريكية لأفيال البحر اكثر من الأراضى السوفيتية أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٧٥ قانون حماية فيدرالية لأفيال البحر وباقى الثدييات البحرية الموجودة فى المياه الأمريكية وبخلاف الإنسان فإن الدب القطبي يعتبر العدو الأول لأفيال البحر فهي تفزع من مجرد رؤيته لأنه يهاجم الصغار ويقوم الدب القطبى بالترصد لقطيع أفيال البحر أثناء خروجه من الماء ويهجم عليه بشكل مجنون وسريع خوفا من أنيابه وينقض على الصغير من رقبته ويحدث بأسنانه فجوة فى الرقبة ويقوم بسحب الصغير منها وأثناء ذلك يكون قد قام بسلخه تاركا جلده كاملا كما لو كان أحد الأشخاص خلع عباءته الخاصة به.

أما الإنسان فهو يصطاد الحيوانات البالغة ويستعين فى ذلك بالصغار فعند الصيد يمسك الصيادون بأحد صغار أفيال البحر ويظلون يضربونه حتى يصيح من الألم ولأن الأبوين شديدا الحنان فإنهما يندفعان لمساعدة الصغير ويكون مصيرهم شباك الصيادين.

إن كل قوانين الحماية التى تُسَن تظل قاصرة طالما أن الإنسان لم يدرك ويقتنع بأهمية هذه المخلوقات فى موطنها الأصلي من أجل الحفاظ على التوازن الطبيعي والتباين الحيوي الذى هو هام وضروري لأرضنا.

ربٌّ وحُبٌّ

شعر: الشاعر الراحل/
عمر بهاء الدين الأميري

صبراً على الأيام أنهرُها
نكد ولغو .. والدُّجى أرق
ولتذكري يا نفس مِن نِعم
الرحمن ما يُنسَى به الرَّهق
ولتشكري الآلاء غامرة
تسعى إليك تكاد تستبق
فالصبر .. والذكرى.. وشكر جدا
الرَّبِّ الكريم .. ونوره اليققُ
في القلب يسطع كلما خفق
اسم الله والتمعت به الحدق
بث السكينة ذكره وزكا
منه الهوى والوجد والومق
رب نداه الفذُّ ليس له
ند .. ولا حدّ.. ولا أفق
برأ الوجود بقدرة عجب
يعنو لدقة خلقها العُنق
قد أحكمت ما أبدعت وسمت
فوق التصور كلها ألق
والحب بدع من صنائعها
فيه تُرَدّ الروح والرمق

سـرّ لـه حـرّ لـواعـجـه
بلهـيـبـهـا يـبـدد الـوهـق
لا نـار تحـرق فـيـه بـل نفس
يحـي النـفـوس كـأنـه فـلـق
فـرج مـن الأزمـات مُنْبَلِج
فـجـرٌ من الظـلـمـات منبـثق
حـرّ ٠٠ سـلام ٠٠ كلمـا اتقـدت
جـنواتـه تـطـفـى بـه الحُرق

* * *

صـبـراً على الأيام، بل ثقـة
يـا نـفـس لا ريـب ولا قـلـق
وتـفـكـر وتـذكـر ورضـا
حـتـام هـذا الضـيـق والنـزق
واسـتـشـعـري بالله أمنك في
الأعـمـاق ، لا ضـنك ولا فـرق
مـن كـان بـاسـم الـلـه منطـلقـا
بـدءاً سـيـمـضـى وهـو منطـلق
رب ٠٠ وحـب؛ وأعـنـى أمـل
وتـفـاؤل ٠٠ روض لـه عـبـق

(*) الانهر: جمع نهار/ اليقق: الشديد البياض/ الجدا: العطاء/ الوهق: الفل في العنق.

أفكار مثيرة للجدل (٦)

الشريعة الاسلامية والشرائع الأخرى

بقلم المفكر الاسلامي:
أ.د. محمد عمارة

مقدمة:

«أفكار مثيرة للجدل» تحت هذا العنوان، يناقش الأستاذ الدكتور محمد عمارة قضية إسلامية هامة تتعلق بالتشريع الإسلامي، وحاكمية شرع الله.. ويتصدى للأباطيل والترهات التى يقول بها المستشار محمد سعيد العشماوي في محاربته الحادة لتقنين الشريعة الاسلامية والعمل بالقوانين الإسلامية.

في العام المنصرم ١٤١٦هـ نشرت المنهل خمس حلقات من هذه السلسلة العلمية والفكرية القيمة ونواصل فى أعداد عامنا هذا - بإذن الله تعالى - نشر بقية هذه الدراسات.

لقد علل المستشار محمد سعيد العشماوى تحوله الفكرى، الذي جعله يتخصص فى الكتابة بالإسلاميات، بعزمه على التصدى للدعوة الى تطبيق الشريعة الإسلامية التي صَحِبَتْ - كما يقول - «تزايد حركات الإسلام السياسى.. ففي السبعينيات، كانت دعوى تطبيق الشريعة قد أوشكت ان تقنع الناس بضرورة تقنين الشريعة، وإلغاء كافة القوانين القائمة»(١).

ومنذ ذلك التاريخ، مثَّل الطعن فى الإسلام، وكتابه ، ورسوله ، وخلافته، وفقهه.. ومثلت محاولاته فك الارتباط بين الاسلام والسياسة والدولة.. وبين الاسلام والشريعة والقانون - مما سبقت إشارتنا إليه - مثلت السبل والآليات لوقف الدعوة الى تطبيق الشريعة الإسلامية فى واقع المجتمعات الاسلامية.

ولقد استعان الرجل على ذلك - ضمن ما استعان - بتمييع خصوصية الشريعة الإسلامية وتميزها عن الشرائع الدينية الأخرى.. وبتمييع تميّزها عن المنظومات القانونية الوضعية الغربية.. وذلك لتتكرس سيطرة القانون الغربي فى بلادنا، وتسقط مبررات الدعوة إلى تقنين الشريعة الإسلامية وتطبيقها.

العشماوي عمل جاهداً لتمييز الشريعة الإسلامية عن الشرائع الدينية الأخرى

فهو يدعو إلى تجاوز الاختلاف بين الشريعة الاسلامية وبين اليهودية والنصرانية، فيقول: «إن الخلاف بين شريعة محمد وغيرها من الشرائع يمكن تجاوزه بالعقل والحوار»٠

وكأنما الطبيعي، والهدف هو تجاوز الخلاف والاختلاف بين الشرائع الدينية٠٠ وليس التعايش بين الشرائع المختلفة٠٠ والتحلي بآداب الاختلاف بين علمائها وجمهورها؟٠٠ وكأن الطبيعي هو وحدة الشريعة لكل الناس٠٠ وليس التعددية في الشرائع، كما شاءت حكمة الله {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة}(٢)٠

وفي تهوينه من شأن الاختلاف بين الشريعة الاسلامية واليهودية يقول: «فالخلاف الأساسي بين شريعة محمد وشريعة موسى، ان اليهودية مقصورة على جنس واحد أو عنصر بذاته او جماعة بعينها، بينما دعوة الاسلام ذات نزعة إنسانية عامة»٠

وينسى انه قد سبق له وادعى أن شريعة الاسلام «رحمة» لا قانون فيها، وأن اليهودية هي شريعة القانون الصارم؟!٠٠ ثم كيف تتفق شريعة «عنصرية» مع اخرى «إنسانية»؟!

وفي حديثه عن الخلاف بين الشريعة الاسلامية والنصرانية يقول: «والخلاف الرئيسي بين الاسلام والمسيحية يقوم في تقدير بعض فرق المسيحية لشخص السيد المسيح٠ وقد وجد مفكرون وعلماء وباحثون، بل وفرق كثيرة تقول عن السيد المسيح ما يقوله القرآن، من أنه كلمة الله، وقد تجسدت لتكون رسولا للخلاص والبذل والعطاء والفداء»(٣)٠

وينسى العشماوى ما سبق وكتبه عن المسيحية٠٠ وكيف أنها دين جديد صنعه بولس، ولا علاقة لها بالنصرانية التى جاء بها المسيح عليه السلام؟!(٤)

ثم، هو هنا - في المقارنة بين الاسلام والمسيحية - قد تحدث عن «العقيدة» وليس عن «الشريعة»!. ومن الذى قال إن فى القرآن ما يشهد «لتجسد الكلمة» بالمعنى المتعارف عليه - عند النصارى - لمصطلح «التجسد»؟!٠٠ وأن المسيح هو «المخلص» بالمعنى المتعارف عليه «للخلاص» من الخطيئة؟!٠٠ و«بالفداء»، بالمعنى المتعارف عليه لهذا المصطلح؟!٠

لكن العشماوى، حرصا منه على تمييع تميّز الشريعة الاسلامية عن الشرائع الدينية الأخرى، يذهب الى طمس معالم الاختلاف٠٠ ولو كان الرجل باحثا عن التعايش السلمى بين أمم هذه الشرائع، لتوجه بحثه إلى المنهاج الاسلامى في آداب الاختلاف، التى يجب أن تحكم علاقات الأمم المتمايزة فى المناهج والشرائع٠٠ والذين شاء الله لهم ان يكونوا مختلفين {ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين٠ إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم}(٥)٠

أما تمييع التمايز بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى والغربى فكان الميدان الذى «قاتل» فيه العشماوى بكل ما ملك من دعاوى

وادعاءات!.

لقد أراد ان يقرر وحدة القواعد القانونية عالميا، بدعوى وحدة العقل الانسانى.. ووحدة منطق العلاقات الانسانية.

وأن يقرر إمامة الرومان وريادتهم فى التقنين لكل الأعراف والعوائد والتقاليد.. وذلك وصولا إلى دعواه أن الفقه الاسلامى مأخوذ عن الرومانى.. والقانون المصرى الوضعى - الذى دخل مصر مع الاستعمار الانجليزى سنة ١٨٨٣م - مأخوذ عن القانون الفرنسى، الذى هو مأخوذ عن القانون الرومانى.. فهو متفق مع الشريعة الاسلامية، لأن المصدر الرومانى قد سبق وقنن - انطلاقا من وحدة العقل والمنطق - لكل الأعراف والعادات والتقاليد.. فلا مبرر إذا لهذه الدعوة إلى تقنين الشريعة الاسلامية وتطبيقها بدلا من القانون الوضعى؟!.

تلك هى دعوى المستشار عشماوى التى قدمها فى صياغات عديدة، وطويلة.. والتى نقدمها بألفاظه، قبل أن نتناولها بالتفنيد.

يقول: «إن القواعد القانونية تكاد تكون واحدة فى جميع النظم القانونية، سواء كانت لاتينية (رومانية أو فرنسية أو إيطالية الخ) او انجلوسكسونية (فى انجلترا أو الولايات المتحدة) أو فى الفقه الاسلامى.

والاختلاف إنما يكون فى التطبيقات(٦).. والشريعة الاسلامية ليست مختلفة اختلافا جذريا عن أى نظام قانونى آخر، سواء كان هذا النظام مصريا أم فرنسيا أم رومانيا. فالقانون هو منطق العلاقات الانسانية، وكما أن العقل الانساني - فى جوهره - واحد فى كل مكان.. فإن أسس ونظام الفكر القانونى واحد(٧).

ومدونة «جستنيان» [٥٢٧ - ٥٦٥] - [فى القانون الرومانى] - تتضمن كافة الأسس التى تقوم عليها النظم القانونية العالمية اللاتينية والانجلوسكسونية، كما تتضمن مشابهات كثيرة مع القواعد الفقهية الاسلامية، وترجع علة ذلك إلى أن حركة العقل الانسانى متشابهة، كما أن أفعال الناس وعوائدهم متقاربة.. فأرسطو وصل إلى أساس حركة العقل، فوضع المنطق الصورى.. ولا يجوز لعاقل أن يقول إن منطق أرسطو عمل إغريقى محلى مؤقت، ولا يخص الانسانية ولا يستمر مع الناس.. ولقد وصل واضعوا القانون الرومانى إلى تقنين لكل الأعراف والعوائد والتقاليد.. كما أنهم وضعوا أساس النظام القانونى، بل أغلب تعبيراته واصطلاحاته .. وترجع علة ذلك إلى أن النظام المصرى القديم، لم يكن يقوم على أساس القانون، بل الضمير.. وهو أساس مغاير لشريعة القانون الرومانى، الذى أصبح هو النظام العالمى.

وترجع المشابهة بين أسس القانون الرومانى وأسس النظم القانونية جميعا الى أن هذه الأسس واحدة متشابهة بوحدة الطبيعة الإنسانية وتشابه العلاقات الاجتماعية، فإذا سبقت حضارة إلى اكتشاف هذه الاسس.. يسير الكل عليها، ولا يستطيع أحد تجاهلها.

أما المشابهة بين الفقه الرومانى والفقه الاسلامى، فتعود إلى أن هذا الفقه الاسلامى نشأ ابتداء فى دمشق.. أقرب مكان فى الدولة الأموية إلى بيزنطة، التى أصدر «جستنيان» فيها مدونته، هذا فضلا عن أن القانون الرومانى كان يطبق فى سوريا ذاتها قبل الاسلام.. والاسلام يتشرب الماضى بأكمله.. لا ينكر دعوة، ولا يعرض عن رسالة.. ووراثة الدين تعنى: وراثة كل حضارة وكل ثقافة وأى علم(٨)..»

تلك هى ألفاظ العشماوى التى لا إبداع له فى أفكارها.. فكلها مأخوذة من النظرية العنصرية للمركزية الثقافية والحضارية

بدعوى وحدة العقل الإنساني، ووحدة منطق العلاقات الإنسانية، يقرر العشماوي بضرورة وحدة القواعد القانونية عالميا،

الغربية، التي يرى أصحابها - وهم غربيون أساسا - أن الغرب هو مركز الحضارة الكونية، ومن عداه من الأمم والشعوب نقلة ومقلدون ومستهلكون.. وهي نظرية في «العنصرية الثقافية» تم نقدها وتفنيدها من كثير من المفكرين - الغربيين وغير الغربيين(٩).. ومع هذا، فإن لنا مع هذه الدعاوى وقفات:

* هل صحيح أن منطق العلاقات الانسانية واحد، في كل الفلسفات والأمم والحضارات؟.. إذن فيم اختلاف الشرائع والمناهج، كسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل؟!.. وهل منطق العلاقات الانسانية الذي يجعل الدنيا «الغاية»؟ هو ذاته منطق العلاقات الانسانية الذي يجعل الدنيا «المعبر» إلى الآخرة، التي هي خير وأبقى؟!.. وألا يترك اختلاف هذا المنطق آثاره في فلسفة التشريع وقواعد القانون؟!.

وهل منطق العلاقات الانسانية، الذي يجعل الإباحة الجنسية الاختيارية حقا من حقوق الانسان، الجسدية والنفسية، هو ذاته منطق العلاقات الانسانية الذي يضبط حقوق الانسان بحقوق الله، ويحكم سلوكه بالشرائع والقيم والأخلاق الدينية؟!.. وألا يترك هذا الاختلاف آثارا في القانون؟..

وهل منطق العلاقات الانسانية، الذي «يحرم الملكية، هو ذاته المنطق الذي «يبيحها بإطلاق» أو «يبيحها بضوابط»؟.. وألا يترك هذا الاختلاف، أيضا، آثاره في فلسفة التشريع وقواعد القانون؟..

إن العشماوي، الذي تحدث هنا عن وحدة العقل الانساني.. هو ذاته الذي تحدث - في كتاب آخر - عن **«نهوض العقل الإغريقي والحضارة الغربية.. على أشلاء الروح.. وعلى أنقاض المعاني(١٠)»**.. **كما تحدث - في كتاب ثالث - عن «الأخلاق الإغريقية التي اعتبرت الحياة فنا متحررا من كل حس بالمسئولية، ففقد الفرد فيها اهتمامه بأمور الدين(١١)».. كما تحدث - في كتاب رابع - عن «أن المفهوم الجنسي عند الغرب، قد تطور، فلم يعد الجنس وظيفة مادية (جسمانية)، وإنما صار يعد حاجة طبيعية ونفسية تتطلب إشباعا.. وهذا السلوك الجنسي هو ثمرة لتطور الحضارة الغربية، صادر عن تقاليد الغرب ذاته.. فكل حضارة تتميز بخصائص سلوكية.. وأغلب المسلمين يرفضون هذه الاتجاهات الغربية(١٢)».**

فأين هو المنطق الواحد للعلاقات الإنسانية، الموحد للقانون عالميا، والذي جعل القانون الروماني تقنينا لكل العادات والتقاليد والأعراف في العالم؟!.

بل.. وأي «العشماويين» يدعونا المستشار عشماوي ان نصدق؟!..

والعشماوي الذي يسخر من القائلين بأن منطق أرسطو - الصوري - ليس المنطق الوحيد العالمي المستمر مع الانسانية، وإنما هو إغريقي، محلي، مؤقت.. هو نفسه الذي قال - بل في

ذات الكتاب - **«والعقل الاسلامي سار على منطق أرسطو زمنا، حتى قدم منهجه الخاص، وهو المنهج التجريبي، الذي نقل بعد ذلك إلى أوربا فأحدث النهضة العلمية الكبرى»(١٣)**.

فهو يقر بوجود «عقل إسلامي» و«منطق اسلامي»!.. ثم .. أيدعو العشماوي إلى «توقيت الشريعة والشرعية الالهية» بزمن لا تتعداه!.. ويستنكر «توقيت المنطق الأرسطي - الصوري - » بزمن، فيريده عالميا خالدا.. وبعبارته «يخص الانسانية .. ومستمرا مع الناس»؟! وأيدعو إلى «توقيت» الشريعة الاسلامية بزمن؟.. وإلى «خلود» القانون الروماني، و«مدونة» جستنيان»؟! ثم .. إن القانون الروماني قد فرض بالسيف على العالم القديم - وتحديدا على المستعمرات التي فتحها الرومان - ولم يكن تقنينا لكل عادات وأعراف وعوائد العالم القديم - كما يدعى عشماوي - و«جستنيان»، الذي يقول عشماوي أن «مدونته» قد قننت لأعراف كل العالم، هو الذي اضطهد مصر - وطن العشماوي - وقتل من اهل الاسكندرية وحدها مائتى ألف.. ومن نجا من الذبح من أهلها، فر إلى الصحراء(١٤)؟!.. بل لقد كانت للمستعمرات الرومانية، وللعبيد، قوانين خاصة، أدنى وأقسى من قوانين الأحرار الرومان؟!.. فأين هي وحدة العقل والمنطق، اللذين وحدا القانون، الذي قنن كل أعراف وعوائد وتقاليد العالم؟!.

بل إن العشماوي يكذب نفسه بنفسه، في ذات النص!.. فبعد أن ادعى «تشابه حركة العقل الانساني، وتقارب الأفعال والعادات الإنسانية، ووحدة القواعد التي تحكم كل العقل الإنساني وكل فعل للناس» واستمرار ذلك مع الزمن .. عاد ليتحدث عن الخلاف الجوهري بين النظام القانوني المصري القديم - الذي قام - برأيه - على الضمير، وليس على القانون - على عكس النظام الروماني - الذي قام على القانون.. عاد العشماوي فتحدث عن هذا الخلاف الجوهري بينهما .. ثم هو، في نصوص اخرى - سبق نقاشنا لها - يجعل النظام الاسلامي - الشريعة - قريبة من النظام المصري القديم - فهي - عنده - «أخلاق» و«رحمة» وليست نظاما قانونيا .. يقول كل ذلك ويتحدث عن هذا الاختلاف والتنوع في المنظومات التشريعية والقانونية - منظومة أخلاق ورحمة .. ومنظومة ضمير .. ومنظومة قانون - في ذات الوقت - وذات النص - الذي يتحدث فيه عن وحدة القواعد القانونية، عالميا، ومنذ الرومان؟!.. كل ذلك ليسوغ لنا استعارة القانون الفرنسي، ذي الأصول الرومانية، بحجة مشابهته لفقهنا الاسلامي؟!.

ومن قال بأن التمايز بين المنظومات القانونية وبين الشرائع هو مقابلة بين نظام يقوم على **«الضمير»** وآخر يقوم على **«القانون»**؟!.. إن المقابلة والمقارنة هي بين **«قانون يدخل الضمير والجزاء الأخروى علة من علل أحكامه ومقصدا من مقاصد إقامته وتطبيقه»، وبين «قانون يتغيا تحقيق المصالح الدنيوية»، بصرف النظر عن البعد الخلقي والجزاء الديني .. فالقانون لازم من لوازم كل نظام**. والعشماوي يريد قسر الإنسانية - والمسلمين خاصة - على الاقتداء بالرومان، بحجة أنهم الذين «أرسوا أسس الفكر البشري .. الممثل للتعبير الصادق عن الطبيعة الانسانية والعلاقات الاجتماعية»، وعلى كل اللاحقين لهم «السير عليها، وعدم تجاهلها».

ولم يقل لنا: إذا كان المصريون القدماء - أجداده - قد أقاموا نظاما على أسس مخالفة أو متميزة عن الأسس الرومانية - وهم أسبق - فلم لم يلتزم بها الرومان - وهم لاحقون، وتالون للمصريين؟! أم أن الأسس لا تكون عالمية، ولا

«العقل الروماني» هو «العقل الغالب» في أباطيل العشماوي

قدوة إلا إذا كانت رومانية؟!٠٠ والقيادة لا تكون ملزمة إلا إذا كانت غربية؟!

وكذلك ـ يرد هذا التساؤل ـ مع سبق الصينيين للرومان؟!٠٠

وفى دعوى العشماوى تأثر الفقه الإسلامى بالقانون الرومانى ٠٠ فلقد سبقت إشارتنا إلى أن الفقه الاسلامى الذى نشأ فى دمشق ـ حيث كان الفقه الرومانى قبل الاسلام ـ قد اندثر ٠٠ فليس هو الفقه الاسلامى الذى عاش، وانتشرت مذاهبه، ولازالت مستقطبة لجماهير الأمة حتى الآن٠٠ فلا اثر لفقه دمشق الأموية فى الفقه الاسلامى الذى عاش وساد٠٠ ومن ثم ـ فحتى مع صحة دعوى تأثر فقه دمشق بالفقه الرومانى ـ لا أثر لتأثير رومانى فى فقه المسلمين ٠٠ ثم إن فقهاء الشام ـ وإمامهم الأوزاعى (٨٨ ـ ١٥٧هـ ـ ٧٠٧ ـ ٧٧٤م) ـ كانوا شديدى المحافظة، من أهل «الأثر» لا «الرأى ـ الاسلامى» فرفضهم لفقه غير المسلمين لا يمكن ان يكون موضوع خلاف!٠

ومدارس الفقه الاسلامى ـ الذى عاش وانتشر ـ قد نشأت فى الحجاز والعراق، بعيدا عن مواطن القانون الرومانى٠

ولم يكن طبيعيا أن يأخذ الغالبون حاكمية التشريع وفلسفة القانون ـ وهى من أبرز سمات السيادة فى الأمم ـ عن المغلوبين٠٠ فذلك مناقض للقانون الذى حكم علاقة الغالبين بالمغلوبين٠ واللغة، كانت حاجزا بين المسلمين وبين القانون الرومانى ٠٠ وأول كتاب فى القانون الرومانى ترجم إلى السريانية، كان فى أواخر القرن الثامن الميلادى٠٠ أى بعد اكتمال قواعد الفقه الاسلامى، وتبلور مدارسه، بل وبعد وفاة أبي حنيفة ومالك وأبي يوسف والأوزاعى جميعا ـ وهم ـ أيضا ـ لم يكونوا يعرفون السريانية؟!٠

أما أول ترجمة عربية لكتاب فى القانون الرومانى، فكانت سنة ١١٠٠م٠٠ أى بعد أن اكتمل ازدهار الفقه الاسلامى، بل واتجه إلى عصر التقليد(١٥)؟! ثم ٠٠ هل يقول عاقل ـ ما يقوله العشماوى ـ من أن الاسلام «يتشرب الماضى بأكمله» وأنه «تَقَبَّل كل رسالة ٠٠ وكل حضارة٠٠ وكل ثقافة٠٠ وأى علم»؟!

إذن فيم تعدد الشرائع والمناهج؟٠ وفيم نسخ الشرائع اللاحقة للسابقة؟٠٠ وأين حديث العشماوى عن توقيت قوانين المعاملات ـ حتى لقد عمَّمه على الشرعية الالهية٠٠ والأحكام القرآنية الثوابت، فى الحرابة، والشورى، والميراث ـ وعلى قواعد التشريع؟!

إن تمايز الحضارات فى فلسفات التشريع وقواعد التقنين، مؤسس على السنة الالهية فى خلق الناس مختلفين فى الشرائع والمناهج ـ وهو اختلاف لا ينقصه المشابهات فى بعض الأحكام ـ فالتمايز واقع أساسا فى فلسفات التشريع وفى مقاصد القانون وغايات الأحكام٠

والمستشرقون الذين خبروا شريعتنا الاسلامية والشرائع الغربية، أعلنوا ذلك بجلاء ووضوح٠٠ والمستشرق «سانتيلانا» (١٨٤٥ ـ ١٩٣١م) وهو حجة فى الشريعتين ـ **يقول: «إن الخضوع للقانون الإسلامى إنما هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته أو يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعى، بل يقترف خطيئة دينية أيضا، لأنه «لا حقّ ثمّ لما ليس لله فيه نصيب»٠ والنظام القضائى والدين، القانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك**

الإرادة التى يستمد منها المجتمع الاسلامى وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنما هى مسألة ضمير وتحكيم عقلى بذاتها.. إن آيات القرآن فصلت للناس بمعرفة خبير حكيم لتكون شريعة للحرية وقانونا للرحمة التى أنعم الله بها على الجنس البشرى.

إن الصبغة الأخلاقية تسود القانون، والعلاقة تقترب غالبا لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما.. والأحكام والعلاقات القانونية ذات صبغة أخلاقية، وليست محض منفعة.. والأخلاق والآداب ترسم، فى كل مسألة، حدود القانون.. وهكذا نجد أنفسنا، أخيرا، وقد بلغنا مرحلة «الحق المطلق» الذى هو أساس المجتمعات المتمدنة قاطبة».

وبعد أن قدم «سانتيلانا» هذا الحديث عن الطابع الذى ميز الشريعة الاسلامية وقانونها.. تحدث عن الطابع المميز للقانون الرومانى والغربى.. فقال: «إن معنى الفقه والقانون بالنظر إلينا وإلى الأسلاف: هو مجموعة من القواعد السائدة التى أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليه وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم».

واستطرد، محددا اختلاف الشريعتين (الاسلامية والرومانية) فقال: **«إلا أن التفسير الإسلامى للقانون، هو خلاف ذلك. وعبثا نحاول أن نجد أصولا واحدة تلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية الاسلامية والرومانية) كما استقر الرأى على ذلك. إن الشريعة الاسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادىء الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا، لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلا»(١٦).**

لكن العشماوى - ويا للأسف: قد كرس مشروعه الفكرى، وأنفق حياته، فى هذا الذى سماه المستشرق العلامة «سانتيلانا»: «عبثا»؟!.. فلا حول ولا قوة إلا بالله!..

بل لقد أمعن المستشار عشماوى فى هذا «العبث» بتعبير المستشرق «سانتيلانا» حتى بلغ مرحلة التخبط فيه!..

* فمرة يقول: **«فالقانون المصرى مأخوذ عن القانون الفرنسى، والقانون الفرنسى مأخوذ عن القانون الرومانى»(١٧).**

* ثم يعود فيقول: **«فالقوانين المصرية - عندما أخذت عن القوانين الفرنسية سنة ١٨٨٣م - إنما أخذت الشكل والصياغة فقط. أما القواعد الموضوعية فهى بذاتها القواعد التى كانت واردة فى الفقه الاسلامى بشتى مذاهبه ومدارسه»(١٨).. «فالإطار القانونى الذى استخدم فى مصر - استعارة من فرنسا ومن القانون الرومانى - هو مجرد شكل وصياغة لقواعد قانونية كانت فى مصر وضمن الفقه الاسلامى»(١٩).**

ولم يقف هذا «العبث» بالمستشار عشماوى عند حد التجريح لدعاة تقنين وتطبيق الشريعة الاسلامية من الذين سماهم «حركات الإسلام السياسى» والذين وصفهم «بالجهل» و«خلط المفاهيم» و«اضطراب المعانى» و«عدم الدراية» «لأنهم تخصصوا فى اللغة أو التاريخ او فى الوعظ والإرشاد أو فى تلاوة القرآن - [؟؟!!] - ولم يدرسوا الفقه الإسلامى دراسة واعية مقارنة بالقانون المصرى، وغيره، ومع ذلك فإنهم يريدون فرض وصاية على الحكومة وعلى المجتمع»(٢٠).

لم يكتف العشماوى بتجريح هذا القطاع من دعاة تقنين الشريعة الاسلامية وتطبيقها..

الرومان الذين اضطهدوا العالم، جعل العشماوي قوانينهم السابقة عالمية تُتبع

وإنما امتد تجريحه - وهو القاضى - إلى قضاة مصر، وإلى «مؤتمر العدالة» الذى عقدوه(٢١)، وأوصوا فيه **«بإصدار مشروعات القوانين مستمدة من الشريعة الاسلامية، ومراجعة سائر التشريعات لتتفق أحكامها مع مبادىء الشريعة»**.

فوصف العشماوى قضاة مصر، الذين عقدوا «مؤتمر العدالة» الذى اصدر هذه التوصية بأنهم «لم يسبقوها بدراسة جادة محايدة»؟! وبأن هذه التوصية هى «رجع الصدى»؟! وأن رجال القضاء - بهذه التوصية - «قد دلفوا إلى الصراع المحتدم فى حلبة السياسة»؟! وأن القضاء المصرى - بالدعوة إلى **إصدار مشروعات القوانين مستمدة من الشريعة الاسلامية** ومراجعة سائر التشريعات لتتفق أحكامها مع مبادىء الشريعة - أن القضاء المصرى - بهذه التوصية - «قد تخلى عن تراثه العظيم»؟!(٢٢).

لقد بلغ «العبث» بالرجل إلى أن يرى فى التراث القانونى «الفرنسى - الرومانى»: التراث العظيم لقضاة مصر الاسلامية!.. فلا حول ولا قوة إلا بالله!..

الهوامش :

(١) معالم الاسلام ص٠٧ و الاسلام السياسى ص٢١١.

(٢) المائدة / ٤٨.

(٣) جوهر الإسلام ص ١٤٢ ، ١٤٣.

(٤) حصاد العقل ص ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦- ١٢٩، ١٣١ - ١٣٤، طبعة القاهرة ١٩٩٢م.

(٥) هود: ١١٨، ١١٩.

(٦) الشريعة الإسلامية والقانون المصرى ص٥٩.

(٧) الإسلام السياسى ص٨٤.

(٨) الشريعة الاسلامية والقانون المصرى ص٢٥ - ٢٩ وانظر كذلك (معالم الاسلام) ص١٠٧، ١٠٨، ١٦٨.

(٩) انظر كتابنا (الغزو الفكرى: وهم أم حقيقة؟) طبعة دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩م. وكتابنا (الاستقلال الحضارى) طبعة القاهرة ١٩٩٣م. ومنير شفيق (الإسلام فى معركة الحضارة) طبعة بيروت ١٩٨١م.

(١٠) تاريخ الوجودية ص٦٣.

(١١) حصاد العقل ص١٤١.

(١٢) الإسلام السياسى ص٨١.

(١٣) الشريعة الاسلامية والقانون المصرى ص٣١.

(١٤) ارنولد (الدعوة إلى الاسلام) ص١٢٣. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

(١٥) د. صوفى أبو طالب (بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى) ص٧٩ - ٨١ طبعة القاهرة مكتبة نهضة مصر.

(١٦) القانون والمجتمع ص٤١١ ، ٤٣٨، ٤٣١. وانظر كذلك آراء المستشرق السويسرى «مارسيل بوازار» فى كتاب (الاسلام فى الفكر الغربى) ص٨١ - ٨٣.

(١٧) الشريعة الاسلامية والقانون المصرى ص٢٥.

(١٨) الاسلام السياسى ص٥٢.

(١٩) الشريعة الاسلامية والقانون المصرى ص ٣٣. وانظر كذلك ص٣٢.

(٢٠) الاسلام السياسى ص١٦٩.

(٢١) عقد المؤتمر الأول للعدالة فى ٢٠ إبريل ١٩٨٦م.

(٢٢) الإسلام السياسى ص١٧٧.

القرآن الكريم
رسالة ثابتة وأبدية

بقلم: د. حسن محمد باجوده
استاذ الدراسات القرآنية
البيانية جامعة ام القرى - مكة

تمهيد:

جعل الله سبحانه وتعالى أبانا آدم خليفة في الأرض، وكان الناس أمة واحدة على دين الإسلام لله رب العالمين، ثم اختلفوا وتفرّقت بهم السبل وظهرت الحاجة لإرسال رسول كي يعيد الناس إلى سواء السبيل، وكان هذا الرسول الأول هو الأب الثاني للبشر، نوحاً عليه السلام، أحد أولي العزم الخمسة من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. وكلما انحرف الناس عن الصراط المستقيم كان معنى ذلك الحاجة لبعث النبيين وإرسال المرسلين وإنزال الوحي، وكان محمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} خاتم النبيين وأشرف المرسلين، وكان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأشرفها والمصدّق لها والمهيمن عليها.

وقد أشار القرآن الكريم في العديد من المواضع إلى هذه الحقائق، ومن ذلك قوله عزّ من قائل: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم} (البقرة/٢١٣)، وقال تعالى: {إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك. وكلم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وكان الله عزيزاً حكيماً. لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله



بعلمه والملائكة يشهدون. وكفى بالله شهيدا} (النساء/ ١٦٣ ـ ١٦٦) وقال تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين. وكان الله بكل شيء عليما} (الاحزاب/ ٤٠) وقال تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} (المائدة/٤٨).

وإذا كان نوح عليه السلام الأب الثاني للبشر فإن إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، فكل الأنبياء بعده عليهم السلام من ذريته عليه الصلاة والسلام. وإذا كان كل أنبياء بنى إسرائيل من ذرية إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، فإن سيدنا محمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} هو النبي الوحيد من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وإن سيدنا محمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} هو دعوة إبراهيم عليه السلام، التى أشار إليها القرآن الكريم في أثناء حديثه عن رفع إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام القواعد من البيت العتيق فى مكة المكرمة والكعبة المشرفة. جاء فى سورة البقرة قوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. إنك أنت العزيز الحكيم} (البقرة/ ١٢٧ ـ ١٢٩).

وها هو ذا المصطفى {صلى الله عليه وسلم}

يتلو على الناس آيات الله تعالى ويعلمهم معنى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ويزكي المؤمنين ويطهرهم. وها نحن أولاء نخص بالحديث القرآن الكريم، الرسالة الثابتة والأبدية.

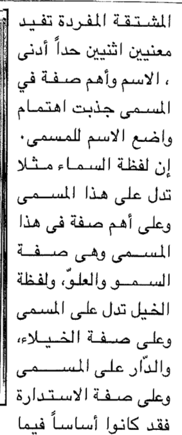
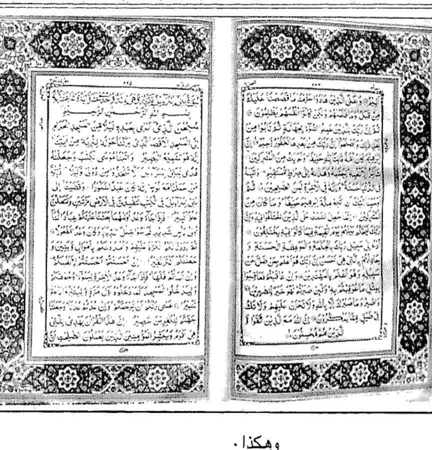
القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين:

شاء الله سبحانه وتعالى أن يبعث رسله من أهل القرى الذين لهم ذوق حضاري معين يستطيعون معه أن يتفاعلوا مع الرسالة ويؤمنوا بالرسول وأن يكون المرسلون رجالا. وإلى ذلك أشار قوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا. أفلا تعقلون} (يوسف/ ١٠٩) كما شاء الله تعالى ألا يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم ولتقوم الحجة على المكذبين منهم وإلى ذلك أشار قوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم} (ابراهيم/٤)، ولما كان خاتم النبيين وأشرف المرسلين قد اصطفاه الله تعالى من العرب الأميين فقد كان هذا المصطفى عربيا وكان لسانه اللغة العربية. ولما كان الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يؤيد أنبياءه بمعجزات وآيات بيّنات يؤمن على مثلها البشر وكان العرب آنذاك أئمة البيان وفرسان الكلمة فقد كانت آية المصطفى {صلى الله عليه وسلم} الكبرى ومعجزته العظمى كلامية بيانية بلسان عربى مبين. وإلى لسان القرآن الكريم العربى المبين الموحى به إلى النبي المبعوث فى الأميين أشار القرآن الكريم فى العديد من المواضع ومن ذلك قوله تعالى: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} (يوسف/٢) وقوله تعالى: {إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون} (الزخرف/٣)، وقوله تعالى: {وإنه لتنزيل ربّ العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين} (الشعراء/ ١٩١ - ١٩٥) ، وقوله تعالى: {هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} (الجمعة/ ٢ - ٤).

ونرى لزاما علينا أن نشير إلى بعض مميزات اللغة العربية التي هيأتها كي تكون بإرادة الله تعالى لسان هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

إن اللغة العربية التى نمت وترعرعت فى شبه جزيرة العرب التى تعتبر أكبر شبه جزيرة فى الدنيا فاجأت الإنسانية لغة كاملة النضج فى شعرها ونثرها وقواعدها. ومع أنها فيما يقال، صغرى اللغات السامية التى تعود إلى أرومة واحدة وأم واحدة فإنها تفوّقت على سائر اللغات السامية، بما فى ذلك اللغة السامية الأم، فى كل المجالات ، بما فى ذلك أهم خاصتين للغات السامية، الاشتقاق وظاهرة الإعراب. إن كلا منهما أشد اطراداً فى اللغة العربية منه فى سائر اللغات السامية. وقد أفادت اللغة العربية كثيراً من هاتين الظاهرتين معنوياً وصوتيا.

إنّ ظاهرة الاشتقاق أفادت اللغة العربية معنوياً على مستوى اللفظة المفردة وعلى مستوى الجملة أو العبارة. إنّ اللفظة العربية

المشتقة المفردة تفيد معنيين اثنيين حداً أدنى ، الاسم وأهم صفة في المسمى جذبت اهتمام واضع الاسم للمسمى. إن لفظة السماء مثلا تدل على هذا المسمى وعلى أهم صفة فى هذا المسمى وهى صفة السمو والعلوّ، ولفظة الخيل تدل على المسمى وعلى صفة الخيلاء، والدّار على المسمى وعلى صفة الاستدارة فقد كانوا أساساً فيما يقال يتحاشون فى بيوتهم الشكل المربع للكعبة هذا إلى غلبة الاستدارة على بيوت الشعر التى يصنعونها والتى يستخفونها يوم ظعنهم وسفرهم، ويوم إقامتهم واستقرارهم. وقل الشيء نفسه عن البيت مثلا وهو المكان المعدّ للإقامة ليلاً[١] والمنزل وهو المكان المعد للنزول وسط الرحال[٢] وقد قال تعالى: {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول. وكان الله بما يعملون محيطا} (النساء/ ١٠٨)، يقال: بيّت أمراً إذا دبّره ليلا[٣] وقال تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين} (الصافات/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، وقل الشيء ذاته عن القرارة، وهي المكان المنخفض الذى يستقر فيه الماء، والقارورة، وهي الزجاجة التى يستقرّ فيها السائل، والمصران، وهو الجزء من البطن الذى يصير إليه الطعام.

وهكذا.

ويصح أن تفيد اللفظة المشتقة العربية ثلاثة أنواع من المعانى، المعنيين السابقين إضافة إلى الاسم الاصطلاحي أو الشرعي.

إن لفظة الكتاب تدلّ على المسمّى وتدلّ على أهم صفة روعيت فى إطلاق هذا الاسم بالذات وهي صفة الكتابة. فإذا جاء لفظ الكتاب فى قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} (البقرة/٢) فُهِم أن المراد بالكتاب القرآن الكريم بالذات. وإذا كان الكلام يدور فى النحو وجاء ذكر الكتاب فُهِم أن المراد بالكتاب كتاب سيبويه. وهكذا.

إن هذه الحيوية المعنوية التى تعرف بها اللفظة العربية المشتقة أفادت منها الجملة فى اللغة العربية في مجال الفصاحة، وفى مجال البلاغة عن طريق الوصول الى المعنى بطريق مباشر ومَيْدان هذا الفن ما يسمى فى البلاغة بعلم المعانى، وعن طريق الوصول إلى المعنى

بطريق غير مباشر، ومَيْدان هذا الفن ما يسمى فى البلاغة بعلم البيان، ويلحق بهذين العلمين علم البديع الذى يضيف إلى الجمال العنوي حلية صوتية.

وإن ظاهرة الاشتقاق أفادت اللغة العربية كذلك صوتيا. إن الألفاظ المشتقة فى اللغة عبارة عن قوالب صوتية متماثلة صيغت لأداء معان متماثلة. خذ اسم الفاعل من الثلاثي مثلا. إن صيغة «فاعل» يصاغ وفقها اسم الفاعل من الثلاثي دائماً. وقل الشيء نفسه عن الصيغ الأخرى. لقد ساعدت هذه القوالب الصوتية التى تصاغ وَفْقَها الألفاظ المشتقة وأسعفت اللغة العربية على أن تكون لغة تتلاءم فيها الأصوات.

وكما تفوّقت اللغة العربية على سائر اللغات السامية فى مجال الاشتقاق تفوقت فى مجال ظاهرة الإعراب أو النحو. إن الفاعل مرفوع فى الجملة الفعلية سواء جاء فى موضعه أو تأخر عنه. وإن المفعول به منصوب سواء جاء فى موضعه أو تقدم عنه، وهكذا لقد أفادت هذه الحقيقة اللغة العربية معنويا وصوتيا بسبب حرّية حركة الألفاظ فى الجملة بسبب ظاهرة الإعراب هذه ووضوح المعنى وأمن اللبس. إن إكبارك لهذه اللغة الشريفة وإعجابك بمهارتها لا يكادان يقفان عند حدّ وأنت تقف مشدوها أمام إعجاز هذه الجزئية من الآية الكريمة فى سورة الأنعام {يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا} (الانعام/١٥٨) إن العقل يملكه فصوص حكم المعانى، وإنّ النفس يأسرها جميل تركيب المبانى، فى كلّ جزئيات آى الذكر الحكيم.

وإن ممّا بوأ اللغة العربية هذه المنزلة الرفيعة، إضافة إلى ظاهرتى الاشتقاق والإعراب، معنويا وصوتياً، وفرة المفردات، فاللغة العربية أغنى لغات الإنسانية فى هذا المجال، وقلة حروف اللفظة العربية اسماً وفعلاً وحرفاً ، فاللفظة العربية لا تزيد على سبعة أحرف، مع حروف الزيادة، وتقل الحروف حتى تكون اللفظة كلها حرفاً واحدا.

هذا إلى صفاء اللغة العربية ونقائها وهى التى عكست صفاء نفس العربي وصفاء البيئة العربية ذاتها.

إن بيان اللغة العربية المتفوق قبل الإسلام، قد أفاد من مميزات هذه اللغة الشريفة فحلّق فى أسمى الآفاق. وحينما كانت هذه اللغة قبل الإسلام فى أعلى قفزة مباركة لها، نزل فيها القرآن الكريم، الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فسمى بهذه اللغة إلى أعلى الآفاق وأرحبها فكانت لغة الخلود، لأنها اللغة الشريفة التى نزل فيها أشرف الكتب السماوية وآخرها، الكتاب العزيز المعجز بنظمه ومبناه، بمضمونه ومعناه.

القرآن الكريم معجزة كبرى خالدة:

ذكر القرآن الكريم أسماء أربعة كتب سماوية سابقة هي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السلام. ولا نكاد نعرف عن صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السلام شيئا. وينص القرآن الكريم حرّف اليهود والنصارى التوراة والإنجيل. وإنما حصل لهذه الكتب السماوية الأربعة ولسواها ممّا لم يذكر القرآن الكريم لأن الله سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظ واحد

منها، فقد جاء عن التوراة مثلا قوله تعالى: {إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والرّبّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} (المائدة/٤٤) وانظر إلى القول «بما استُحفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» العائد إلى الأحبار فى المقام الأول وهم علماء اليهود الذين لم يحفظوا التوراة وخانوا أمانة العلم واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً. وقس على موقف علماء اليهود من التوراة موقف غيرهم من كتاب الله تعالى إلى نبيهم.

وإنّ الكتاب الوحيد الذى تكفل الله تعالى بحفظه ويسّر سبل حفظه هو القرآن الكريم. قال تعالى: {إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون} (الحجر/٩) وقال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم. وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون} (العنكبوت/ ٤٨، ٤٩) وقال تعالى: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر} (القمر/١٧)، وحينما كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن الكريم ويتلوه على المصطفى {صلى الله عليه وسلم } كان عليه الصلاة والسلام يقرأ مع جبريل ويحرّك بالقرآن الكريم لسانه حرصاً على القرآن الكريم أن يثبت فى صدره وخوفاً عليه أن يتفلت فنهاه رب العزة عن تحريك لسانه عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم فى تلك الأثناء وطمأنه إلى أنه سيرسخ فى قلبه وبشَّره بأنه جل وعلا سيوحي إليه معنى القرآن الكريم وسيبينه له. قال تعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جَمْعَه وقرآنه فإذا قرأناه فاتَّبع قُرآنه. ثم إنّ علينا بيانه} (القيامة/ ١٦ - ١٩) وإلى رسوخ القرآن الكريم فى قلب المصطفى {صلى الله عليه وسلم} منذ اللحظة الأولى أشار قوله تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الرّوح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين} (الشعراء/ ١٩٢ - ١٩٥)، وقال تعالى: {سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله. إنه يعلم الجهر وما يخفى} (الأعلى/ ٦، ٧)، والمعنى أنّا سنقرئك ، القرآن ، فلا تنسى، ما تقرؤه. إلا ما شاء الله، أن تنساه بنسخ تلاوته وحكمه، وكان {صلى الله عليه وسلم} يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل خوف النسيان فكأنه قيل له لا تعجل بها إنك لا تنسى فلا تتعب نفسك بالجهر بها، إنه تعالى، يعلم الجهر من القول والفعل وما يخفى، منهما[٤].

وكلنا على علم بأن المصطفى {صلى الله عليه وسلم} أول الجمّاع للقرآن الكريم فى صدورهم وسيدهم، وأن عدداً من الصحابة كان يحفظ القرآن الكريم كاملا على عهد المصطفى {صلى الله عليه وسلم}، وأن عدد الحفاظ يزداد بازدياد الليالى والأيام، وأن كلا من الصّدر والسّطر تعاونا جنباً إلى جنب فى حفظ القرآن الكريم تبعاً لنزوله، وعهد أبى بكر رضي الله عنه الخليفة الراشد الأول الذى كان فيه الجمع الأول للقرآن الكريم، وعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد الثالث الذى كان فيه الجمع الثانى والأخير للقرآن الكريم، والذى كان فيه الاكتفاء بحرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن

الكريم. وكلنا على علم كذلك بهذه المكتبة القرآنية الضخمة المكتوبة في علوم القرآن الكريم، وأضيف إليها أخيراً المكتبة القرآنية المسموعة. إن هذا كله من مظاهر حفظ الله تعالى لهذا الكتاب العزيز.

وإن هذه مناسبة طيبة كي أشير إلى لطيفتين في مجال حفظ الله تعالى هذا الكتاب العزيزنعيشهما هذه الأيام ونسعد بهما في المملكة العربية السعودية وفي العالم كله. أما اللطيفة الأولى فهي ما نشاهده في المسابقات العالمية التي تعقدها في مكة المكرمة وزارة الحج والأوقاف بالمملكة العربية السعودية من تفوق إخواننا المسلمين، أطفالا وشبابا، في حفظ القرآن الكريم وتجويده، بل وفي تفسيره، من قبل الشباب الحافظ للقرآن الكريم. وهؤلاء هم الذين ينتمون إلى بلاد غير عربية، بل إلى بلاد غير إسلامية، وهم الذين لا يكاد الواحد منهم في غير مجال القرآن الكريم، ينطق جملة واحدة نطقا صحيحاً باللغة العربية. وإن كثيراً من هؤلاء في مجال حفظ القرآن الكريم كاملا من لا يقع في خطأ واحد في مجال الحفظ وفي مجال التجويد في أثناء التسابق وقد يبلغ مجموع ما يتلوه المتسابق زهاء النصف الجزء الواحد من القرآن الكريم. ولله وحده لا شريك له الحمد والمنة.

وأما اللطيفة الثانية فهي التي تعيشها هذه الأيام الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة التي تلقى كل تأييد ودعم من حكومة خادم الحرمين الشريفين حفظه الله تعالى كما يلقى غيرها من الجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم في سائر مدن المملكة العربية السعودية وقراها من تأييد ودعم. وهذه اللطيفة ذات شقين:

- **أما الشق الأول** فيتمثل فيما يزيد على ألفي حافظ لكامل القرآن الكريم سجلوا أسماءهم لدى الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة كي توزعهم الجمعية لإمامة المصلين في صلاتي التراويح والقيام في مساجد مكة المكرمة وفي بعض مساجد أمريكا وأوربا وبريطانيا وغيرها من البلدان.

- **وأمّا الشق الآخر** فيتمثل في تسجيل ما يزيد على ألفي طفل وشاب أسماءهم لدى الجمعية من أجل الدّخول في الامتحان الذي تعقده في المسجد الحرام الجمعية في غرّة شهر رمضان المبارك في حفظ كامل القرآن الكريم وحفظ عشرين جزءا وحفظ عشرة أجزاء. ولله وحده لا شريك له الحمد والمنة.

إن مسابقة القرآن الكريم التي تعقد في مكة المكرّمة رمز لمسابقات القرآن الكريم العالمية التي تعقد في أجزاء كثيرة من الكرة الأرضية. وفي مقدمة هذه المسابقات العالمية مسابقة القرآن الكريم العالمية التي تعقدها في كوالالمبور حكومة ماليزيا التي لها فضل الرّيادة وسن هذه السنة الحسنة. وإن الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم في مكة المكرمة رمز للجمعيات الخيرية المماثلة وللكتاتيب والخلاوى والدّوكسيات وغيرها من المؤسسات التي تعمل على تحفيظ القرآن الكريم ورعايته وخدمته.

إن هذه الجهود كلها، ما أشرنا إليه منها وما لم نُشِر، تشملها هذه الآية الكريمة التاسعة من سورة الحِجْر: {إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون}.

التحدى بالقرآن الكريم:

عجز العرب، أرباب الفصاحة وأئمة البيان،

وفى مقدّمتهم كفّار مكة، عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، وعن الإتيان بعشر سور مثله، وعن الإتيان بسورة واحدة مثله أو من مثله وإلى هذه الصّور الأربع من التحدى أشار القرآن الكريم. قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} (الاسراء/٨٨)، وقال تعالى: {أم يقولون افتراه. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} (هود/١٣)، وقال تعالى: {أم يقولون افتراه. قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين} (يونس/٣٨) ، وقال تعالى: {وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين} (البقرة/٢٣).

لقد هجر كفار مكة وكفار العرب ميدان الفصاحة المتفوقين فيه عجزاً عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن الكريم ولجأوا إلى ميدان القتال. وكما هزموا فى مجال البيان هزموا فى مجال الطعان.

وإن التحدى بالقرآن الكريم قائم إلى يوم الدين وإنّ عجز البشرية عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن الكريم قائم كذلك إلى يوم الدين.

القرآن الكريم معجز بما يمنح ومعجز بما يمنع:

إن جوانب إعجاز القرآن الكريم لا يكاد يأتى عليها الحصر، وكما لا يعرف الناس من أسرار السّماوات والأرض إلا القليل كذلك لا يعرفون من أسرار القرآن الكريم إلا القليل. وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى: {وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السّماوات والأرض. إنّه كان غفوراً رحيما} (الفرقان/ ٥ ، ٦).

ومن بين مظاهر إعجاز القرآن الكريم التى لا يأتى عليها الحصر نشير الى إعجاز القرآن الكريم فيما منح وفيما منع. إنّ الحقّ كلّ الحق فيما منح القرآن الكريم وأعطى وفيما منع القرآن الكريم واستبقى. إنّ مما أعطى القرآن الكريم ومنح الإشارة إلى آيات الله تعالى فى الآفاق ومن هذه الآفاق هذا الفضاء الذى يتسابق إلى ارتياده واستكشافه المتسابقون. لقد نص القرآن الكريم على أن الله سبحانه وتعالى سيري عباده آياته فى الآفاق وفى أنفسهم كذلك حتى يتبين لهم أن القرآن الكريم هو الحق وهو كلام رب العالمين. قال تعالى {سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} (فصلت/ ٣٥) ، وفى مجال النفس الإنسانية إليك هذه الآية الكريمة الرابعة من سورة الحج التى تتحدث عن المراحل التى يمرّ بها الجنين فى بطن أمه والتى لم يعرفها على حقيقتها العلم الحديث إلا أخيرا. قال تعالى: {يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج}. وكما كان القرآن الكريم

معجزاً بما منح كان معجزاً بما منع، فعلى الإنسانية أن تتمثل لتوجيهات القرآن الكريم وألا تضيع جهودها فيما بيّن القرآن الكريم أنه من علم الله تعالى. ومن ذلك الروح وإلى ذلك أشار قوله تعالى: {ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} (الإسراء/٨٥)، ومن ذلك مفاتح الغيب الخمسة. وإلى ذلك أشار قوله تعالى: {إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأي أرض تموت. إنّ الله عليم خبير} (لقمان/ ٣٤).

رسالة القرآن الكريم خالدة:

تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز لأنه رسالة خالدة إلى يوم الدين ولأنه معجزة خاتم النبيين وأشرف المرسلين محمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} وآيته الكبرى الخالدة. إنّ المصطفى {صلى الله عليه وسلم} خاتم النبيين، وإلى ذلك أشار قوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما} (الأحزاب/٤٠)، ويلاحظ أن الآية الكريمة تنص على أن محمدا {صلى الله عليه وسلم} خاتم النبيين، وفى إغلاق باب النبوة الطريق الوحيد المؤدي إلى الرسالة، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، إغلاق لباب الرّسالة من باب الأولى والأحرى، فمحمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} خاتم النبيين وخاتم المرسلين. وإن المصطفى {صلى الله عليه وسلم} قد انفرد من بين سائر النبيين بأن رسالته عليه الصلاة والسلام عامة للناس أجمعين، بينما رسالات كل النبيين السابقين خاصة بأقوامهم. وقد نص الحديث النبوي الشريف على الخصال الخمس التى خُصّ بها عليه الصلاة من بين سائر النبيين ومنها خصلة ختم النبوة[٥].

إنّ دين الإسلام الذى بعث الله تعالى به محمداً {صلى الله عليه وسلم} رسالة عالمية منذ فجر الدعوة، وقد نص على هذه الحقيقة المكى من القرآن الذى نزل قبل الهجرة ومن ذلك قوله تعالى فى سورة سبأ الآية/٢٨ {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون} وقوله تعالى فى سورة الأعراف الآية/ ١٥٨ {قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}، وقوله تعالى فى سورة الفرقان الآية/١ {تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}.

ولمّا كانت رسالة محمد بن عبد الله {صلى الله عليه وسلم} تنفرد بكونها الرّسالة الوحيدة التى تغطّي كل زمان ومكان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها فقد اقترن بهذا الانفراد حفظ الله تعالى كبرى آيات هذه الرّسالة الخالدة، وهذه الآية الكبرى هي القرآن الكريم. لقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز، وسخر كلا من الصدر والسطر لحفظه على نحو ما تبين من ذى قبل.

بقى علينا أن نتبين أن حفظ الله تعالى لهذا الكتاب العزيز معناه حفظ الله تعالى لسنة المصطفى {صلى الله عليه وسلم} المطهرة لأن القرآن الكريم أول مصادر حياة المصطفى {صلى الله عليه وسلم} وأهمها، فقد كان خُلُق

المصطفى {صلى الله عليه وسلم} القرآن الكريم على نحو ما بينت السيدة عائشة رضى الله عنها زوج المصطفى {صلى الله عليه وسلم}، وقد قال تعالى مخاطباً المصطفى {صلى الله عليه وسلم} فى سورة القلم الآية/٤ {وإنك لعلى خلق عظيم}.

ولما كان ربّ العزّة الذى بيّن للمصطفى {صلى الله عليه وسلم} معنى القرآن الكريم كلّفه بأن يبين للناس معنى القرآن الكريم وقد قال تعالى: {وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون} (النحل/٤٤)، فقد بيّن المصطفى {صلى الله عليه وسلم} للناس معنى القرآن الكريم بسنته المطهرة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والمراد بالسنة أقواله {صلى الله عليه وسلم} وأفعاله وشمائله وتقريراته. لقد جمع الإمام أبو عيسى محمد سورة الترمذى فى كتاب الشمائل المحمدية[٦] ثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثاً فى شمائله {صلى الله عليه وسلم}[٧] كما حفظت كتب الحديث من أقوال النبي {صلى الله عليه وسلم} وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث[٨].

إن عناية المسلمين الفائقة بسنة المصطفى {صلى الله عليه وسلم} مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى قوله تعالى: {لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} (الأحزاب/٢١)، إن المصطفى {صلى الله عليه وسلم} هو الشخص الوحيد الذى يمكن لكل إنسان أن يتخذه أسوته الحسنة لأنا نعرف كل شيء وكل صغيرة وكبيرة عن المصطفى {صلى الله عليه وسلم} لدرجة أنّا نعرف أن فى رأسه عليه الصلاة والسلام وفى لحيته أربع عشرة شعرة بيضاء فقط!.

إنّ اتخاذ المصطفى {صلى الله عليه وسلم} أسوة حسنة أمر ممكن لأن ربّ العزة تكفل بحفظ هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدين فسخر جل وعلا جيشا من العلماء الغيورين فى كل زمان ومكان للعناية بهذا الكتاب العزيز معجزة الإسلام الكبرى الخالدة، وجيشاً من العلماء للعناية بسنة المصطفى {صلى الله عليه وسلم} المبيّنة لمعانى القرآن الكريم.

إنّ علينا نحن المسلمين أن نعض بالنواجذ على القرآن الكريم وعلى سنّة المصطفى {صلى الله عليه وسلم} فبهذا سنظل مهتدين هادين، وبهذا أمرنا المصطفى {صلى الله عليه وسلم} فى خطبته بحجة الوداع، وقد تكفّل الله تعالى لمن تمسك بهذا الكتاب العزيز الذى بينته سنّة المصطفى {صلى الله عليه وسلم} ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. قال تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى} (طه/ ١٢٣).

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني «بيت» ٦٤.

(٢) انظر مفردات الراغب «نزل» ٤٨٨.

(٣) مختار الصحاح «بيت» ومفردات الراغب «بيت» ٦٥.

(٤) الجلالين.

(٥) انظر مثلا تفسير ابن كثير ٢/٢٥٥.

(٦) إخراج وتعليق محمد عفيف الزعبي.

(٧) الشمائل المحمدية ٣.

(٨) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي ٩٣.

(*) هذه الدراسة المميزة قدمت فى الندوة العالمية عن القرآن الكريم التى عقدت فى كوالالمبور بماليزيا خلال الفترة ٢٢ ، ٢٣ شعبان ١٤١٠هـ.

الدلالة بين الغزل والرثاء عند ابن سناء الملك

الدكتورة مريم البغدادي أستاذة الأدب، ولها دراساتها وبحوثها فى مجال الأدب، وهي من الأقلام العلمية ذات التفرد والتميز في مجالات عطاءاتها الثقافية والفكرية.. هذه الدراسة القيمة آثرت بها الدكتورة مجلتها المنهل وقراءها.. ونحن نسعد بهذا التواصل الفكري والأدبي.

بقلم: د./ **مريم البغدادى**
كلية الآداب والعلوم الانسانية - جدة -

لا شك ان للمبدع مقدرة كبيرة على إدراك الروابط بين أطراف الحياة والأشياء المختلفة، وبإبداعه يستطيع إعادة ترتيب هذه الأطراف والأشياء فى صياغة جديدة وإن كانت قديمة العناصر ونمطية الرؤى، إلا أن هذه الصياغة لخبرته فى الحياة بالإضافة إلى معرفته وعلمه بتجارب الآخرين وخبراتهم، تضفي عليها كلها رؤية محددة فى شكل جديد وصور تتلون بألوان ثقافة المبدع وقدرته على سبك هذه الألوان والأشكال بصور خصيبة ثرة، تحتوي كثيرا من الأصالة وتجاوز الذات إلى ذوات الآخرين والى نسيج الجماعة الإنسانية، ذات المضمون العميق المتنوع، ذلك النسيج الجماعى الذى يعبر عنه المبدع وفق نظام يضم الأفكار التي تطرأ على الذهن حيال موضوع معين بعد أن يصنفها ويلبسها كلمات وعبارات ذات نسق جديد محدد ملائم لهذه الأفكار،

والتى تميز مبدعا من آخر من حيث نشاطه الفكرى وأسلوبه فى تأطير هذا الفكر وطرحه أمام المتلقي. وكلما كان المبدع مصنفا مستدلا مستنتجا كلما ساهم فى بناء لبنات الفكر الإنسانى، وهو فى هذا على غير نهج المبدع المبتكر الذي يرفض أن يكون مستودعا للمعلومات بل إنه كثيرا ما يلجأ إلى الحدس، فإذا لجأ إلى المنطق فإنما يلجأ ليدعم نتائج إبداعه فقط.

ولعل ابن سناء الملك العميق المعرفة الواسع الثقافة، يشير إلى هذا من خلال شعره الذي يتراوح

الحب والموت قضيتان وجدانيتان عميقتان لهما نفس العمق العاطفي

بين المدح والهجاء والغزل والرثاء، وليس يهمنا هنا سوى النوعين الآخيرين اللذين يمثلان مظهرا واحداً لتجربة واحدة - كما يقول عناد غزوان - إنهما «غرضان متحدان لا يمكن الفصل بينهما»[١] لاشتراكهما فى كثير من الملامح النفسية والدلالات والنتائج. ولا شك فى أن الحب والموت قضيتان وجدانيتان عميقتان لهما فى المقام الأول العمق العاطفي نفسه وينطلقان من عمق الإحساس الإنسانى والمشاعر البشرية لأنهما متعلقان بمصير الإنسان وحياته. وما دام الشعر فى عمقه تحية كبرى للجمال وصرخة مكتومة ضد الموت فإنه أجمل وأقدر قالب فني على رسم هذه الأعماق النفسية التى تحتضن أبعادا عاطفية تتدخل فى سلوكيات الفرد، تلك السلوكيات الذاتية التى لا تنفصل عن المجتمع والجماعة، وذلك لأن المرء من خلال دائرته الذاتية يمتد إلى الدائرة الإنسانية الأشمل والأوسع. وعليه تكون اللغة الشعرية أقدر على إبراز عنصر الصراع فى هذه الدوائر بإبداع رمزي متعدد الدلالة من حيث توليد المعانى المختلفة فى الاستعمالات المختلفة التى تضم عذابات الإنسان وتستوعب واقعه الشعوري فى درجات تأججه وفتوره وثورته وهدوئه طبقا للمواقف والتفاعل ورد الفعل.

ولقد استطاع ابن سناء الملك بريشته المبدعة رسم واقعه الشعورى فى مواقف الحب والموت سواء أكان الشاعر قد اختفى خلف قناع عمله الفني فأخفى بذلك شخصه الحقيقي وسيرته الذاتية، أم أنه جسد بعمله الفني هذا حلمه المخالف لواقعه وحياته كما هو حال الفنان الذى يقول فيه فرويد إنه فى الأصل «رجل تحوّل عن الواقع لأنه لم يستطع أن يتلاءم مع مطلب نبذ الإشباع الغريزى كما وضع أولا، وبعد ذلك أطلق العنان فى حياة الخيال لكامل رغباته الغرامية ومطامحه» ونحن هنا لا نستطيع الجزم، إذ إن ابن سناء الملك كان قاضيا وابن قاض وعليه تكون خطوط حياته ملونة بألوان دينية ملتزمة تحسب عليه خطواته وتتدخل فى سلوكياته المنبثقة من مواقفه الشعورية ولقد ظهرت هذه المسحة الدينية على فنه الشعري فكانت هناك التضمينات والاقتباسات القرآنية والفقهية وغيرها من لمحات دينية تشير إلى ثقافته بوضوح كما تشير إلى شاعريته التى أهلته لأن يكون أكبر شاعر عرفته مصر فى القرن السادس للهجرة، وها هو ياقوت الحموي يصف منزلته الشعرية مأخوذا بها قائلا «هذا والله السحر الحلال والسهل الممتنع الذى لا ينال»[٢]. ومهما يكن من أمر، فإن هبة الله ابن سناء الملك (٥٥٠ - ٦٠٨هـ) بموهبته

الشعرية التى تعتمد السهولة والمبالغة واستغلال المعارف العلمية فى التصوير الشعورى قد استطاع أن يمثل عصره روحا وفنا. وليس يهمنا فى هذا المقام أن يمثل عصره بقدر ما يهمنا ما يكمن فى شعره من دلالات حضارية يضرب بعضها فى باطن الماضى البعيد، وبعضها الآخر يحمل بين طياته مختزنات لا وعي الشاعر على صفحة من المشاعر والانفعالات التي تتفجر فى المواقف الوجدانية التي تتزيا بأزياء وألوان توهم بالفروق والاختلافات وإن كانت تتحد فى العمق الشعوري الذى يرسف فى أغلال الحزن ويتجرع كؤوس الحرمان والبعد فى حالتى الحب والموت. ويبدأ التشابه فى القضية الوجدانية هذه بين الحب والموت عند ابن سناء الملك بأن كليهما يجسد حتمية القدر:

وأيقنت أنى ميت وابن ميت
فللموت ترداد إلينا وتكرار

وتلك حتمية تنفى كل احتمال لغيرها فإن كان الموت كانت الحتمية قضاء لا يرد مهما بذل الإنسان من محاولة.

وكيف ولِم لا رددت القضاء
وهيهات ليس يرد القضاء

حتى وإن حاول المرء دفعه بوسائله المتعددة:

ودافعت عنك الموت بالطب جاهدا
وذا غلط هل يدفع الموت بالطب[٣]

وعليه فإن حتمية الموت تؤكد للمرء أنه الطرف الثانى فى المعادلة الإنسانية (الموت والحياة) ذلك لأنه رصد وقدر يؤكد مقولة عربية بابلية قديمة تشير إلى هذا القدر المحتم وإن كانت على شكل مثل يفيد بأنه «كتب علينا الموت فلنتفق»[٤].

ولعل هذه القناعة والتسليم بالحتمية تقود ابن سناء الملك إلى الإحساس بامتدادها إلى ركن آخر من حياته الوجدانية فيدرك أن الحب قدر وحتمية لا يستطيع المرء مجابهتها كما هى الحال بالنسبة لحتمية الموت، لذا نراه يقول ليؤكد هذا التشابه والالتقاء بين حتميتين قاهرتين:

عشقت ومن ذا الذى ليس يعشق
ولم لا وقد هام الحمامُ المطوّقُ

أليست هذه الحتمية هي ما أشار إليها عنترة أيضا حينما أقر بأن الحب سرى في جسده منذ سريان الروح فيه وهو نطفة:

يا عبل ، حبك فى عظامي مع دمي
لما جرت روحي بجسمى قد جرى

ويقول:

خلقنا لهذا الحب من قبل يومنا
فما يدخل التفنيد فيه مسامعي

وحتمية الفراق كحتمية الموت عند شاعرنا، ألم يقل فى هذا:

كم كنت أحذر من فراقهم
وإذا دهى قدر فلا حذر[٥]

ولا شك فى أن هذه النمطية التي تشير إلى أزلية الأقدار تكمن فى لا وعي شاعرنا أبى القاسم ابن سناء الملك الذى ما ان وجد السبيل إلى إبرازها حتى أطلقها فى موقف

الحب والموت كلاهما يجسد حتمية القدر عند ابن سناء الملك

عاطفى تمتزج الذاتية فيه بالغيرية والفردية بالجماعية وبهما خرج من الدائرة الخاصة الى دائرة الإنسانية العامة الشاملة وكأنه فى هذا يحس بالانتماء الى الجماعة ويستشرف الحس الجماعي فيما يتعلق بالوجود الإنساني ولهذا فإن المبدع مهما كان ذاتيا فإنه فى النهاية يصدر عن ضمير المجموع ولا يكون عظيما إلا إذا كان ذاتيا أولا ومنها ينبثق الشمول، أو ليس الحب والموت عالمين يشدان الإنسان إلى حوض يرده بنو جنسه جميعا؟

إن الوجدان الجماعي حيال هذين العالمين يتدفق من الافئدة لينبت الزفرات الحارة والدموع المترقرقة التي تفيض فتسقي المرء اللوعة بكأس ذات لونين مختلفين وإن كان الطعم واحدا.

وها نحن نرى مصداقية هذا القول فى صور ابن سناء الملك الفنية حين رثى جماعة من أهله فقال:

كرام سُقُوا كأس المنية والردى
فيا ليت من أسقاهم كان أسقانى

وهذه الكأس الحزينة الباكية تلتفت إلى كأس الوصال فترى فيها الشبيه يقول:

ورشفت ريقته على رغم الطلا
من كأس مرشفه على غيظ القدح[٦]

وكأس الحب والموت فى عصر وفن ابن سناء الملك لهما مثيلان فى التراث الحضارى للعرب القدماء وإن دخل عليهما بعض التطور الفني بحكم اختلاف العصور، فإذا تصفحنا صفحات هذه الحضارة فى هذا الجانب النمطي يقابلنا نبت بن مالك الشاعر الجاهلي ليرينا الكأس الذى شرب منها أيمن بن الهميسع فيقول:

وكل امرىء لا شك يقضى قضاءه
ويسقى بحوض المنهل المتدارك

ويقول بشر بن أبى حازم فى مقتل عدوه:

حتى سقيناهم بكأس مرة
مكروهة حسواتها كالعلقم[٧]

وظاهرة التفجع على فراق الحبيب أو الصاحب نتيجة الموت أو البعد والسفر الى مكان بعيد المنال يبرز فيها عنصر الأسى الشديد والأسف والتلهف كذلك استعظام الأمر والنوى بشكليه، وذلك لأن البين حتمى لا لقاء بعده فى كليهما، ففى بُعد الحبيب يقول:

ولابد من أن يدخل البين بيننا
فليس له من بيننا أبدا بد

* ويقول فى رثاء أبى الحسن على بن حسان الحسينى مشيرا إلى حتمية البين بالموت:

والمرء بالدهر لا ينفك منكسرا
قهرا وغير عجيب كسر فخار

* وطبع الدهر تفريق الأحبة والأهل دائما ولا من عوض غير الهم والأسى، يقول:

عــوضني الدهر بعــده بتــأريق
دهر رمى جــمــعنا بتــفــريق

* وفى هذه الحال فإنه لا فرق بين الموت والعشق:

وما العشق إلا موت نفس إذا دعا
فإن نفوس العاشقين جواب

* وكثيرا ما يؤكد ابن سناء الملك هذه الدلالة فى شعره وكأن العشق والموت وُلِدَا توأمين يحملان نفس الصفات القدرية الحزينة الباكية[٨]. وواضح أنه كلما فاضت النفسُ بالقلق والقلب بالإحساس والعواطف والانفعالات كلما بحثا عن مسرب لكل هذا الفيض الشعوري وليس سوى الكلمات والتراكيب اللغوية لها منفذا ووعاء يضمها، ثم تتسرب من خلاله بإشارات ودلالات تومىء إلى هذه الحالات النفسية المعقدة المتخفية وراء تنميقات أسلوبية تكاد تشي بمكنوناتها وإشعاعاتها المظللة بتراكيب لغوية تلقي على ما وراءها من أحاسيس إنسانية، ضبابية ناعمة ذات آفاق وجدانية فسيحة مركبة لا تدرك إلا بسبر غورها وفض أسرارها. ولابن سناء الملك طاقة خلاقة متعددة الجوانب والملاحة فى هذا المضمار وملكة شعرية خصيبة قادرة على استغلال المعارف الإنسانية والحضارية لبناء الصور ورسم خلجات الفؤاد ورصد الأفكار وبواطن الحس والشعور، ولقد سخرها كلها لإبراز قدراته الفنية فى الإشارة إلى مراميه البعيدة والقريبة على حد سواء ولقد ظهرت هذه المقدرة العجيبة فى استخدامه الألفاظ الواحدة فى موضوعين يبدوان على طرفي نقيض، هما الغزل والرثاء. ولو مثلنا لهذا نجده يجعل من الموت داء وكذلك الحب، وفيهما يقول:

أعيى دواء الطب فى سقمه
والموت داء ما له من دواء

ويقول:

واعتل منه الجسم بعد الخصر والألحاظ والعشاق والميعاد

وهما يشتركان معا فى صفة أخرى وهى أن كليهما يسبى: وهنا يقول:

وكيف اعتدى ذاك الحمَامُ على الحمى
وكيف سباك الموتُ جهراً بلا حرب

ويقول فى الحب:

وكم حُمّ منها من حمام لذى الهوى
وكم من عذاب صب منها على الصب
تغير فتسبى باللحاظ عقولنا
وكم من شجاع قد أغار ولم يسب[٩]

* ولئن كان الزمان يرمى بسهم الموت فإن الحب يرمى بسهم اللحاظ والنتيجة فى كليهما واحدة وهى إصابة الشاعر بالاثنين معا فى موقفيه مع أمه وحبيبته.

يقول راثيا أمه:

قد رماني الزمان منه بخطب
أفحِمَتْ عنه ألسُن الخطباء

ويقول فى حبيبته:

ضربت الحشا من ناظريك بصارم
وكسرة ذاك الجفن من ذلك الضرب

* ولعل كليهما يقود الى الجنون أيضا فجاريته أذهبت عقله بموتها وحبيبته أذهبت

اللغة الشعرية اقدر على إبراز عنصر الصراع بإبداع رمزي متعدد الدلالة

عقله بحبها وهو فى كلا الحالتين المصاب الوحيد: يقول فى رثاء الأولى:

وأيسر ما بى أننى من تدلهي
أروح بلا ذهن وأغدو بلا لُبّ
أغيب ذهولا ثم أحضر فكرة
وأعلم من بى ثم أسألهم من بى

ويقول فى رثاء صديق له:

والعقل فى هذا المصاب
من اللبيب هو الجنون

ويقول فى جنون حبه:

وقد نقلتني من طباع كثيرة
وقد قلبت قلبى وقد خلبت لبي

ويقول أيضا:

يا جامعا بينى وبين ضلالتي
ومفرقا بيني وبين رشادي

وفى ثالثة:

ومسني مس بمن ثغره
فى فمه الألعس ميم وسين

* وفى أثر وداع الحبيب عند رحيله يقول:

وقد كنت أجزع يوم اللقاء
فكيف ترانى يوم الرحيل
رعى الله بدرا مع الظاعنين
ضللت به عن سواء السبيل

[١٠]

* فانظر إلى الشاعر كيف تناول الفكرة فى الرثاء والغزل وسبك المترادفات والمعانى نفسها فى أزياء مختلفة تخدم الغرضين وتتناسب مع كلا الموقفين وتشير إلى حسن تصرفه فى بناء الإشارات الدالة الذكية ذاتها والإيماءات الرامية إلى المعنى المراد.

ولعل لخياله قيمة رمزية تمثل عمق شعوره وتشير إلى لا وعيه الذى يختزن بعض ملامح الماضى الذى تسيطر عليه الصبغة الأسطورية وخاصة فى مجال الغزل. ومن ذلك الرمز الكامن فى تعبيره «نقلتني عن طباع كثيرة» وفى «خلبت لبى» وكلا التعبيرين يشير الى اعتقاد قديم يصور المرأة على أن لها قدرة عجيبة فى السيطرة على عقل الرجل وذلك لأنها تمثل نجم السماء أو الزهرة التى كانت فى الأصل امرأة أغوت الملكين هاروت وماروت، وتعلمت منهما من العلوم ما أصعدها إلى السماء فأصبحت ذلك النجم الجميل الذى عبد فى جزيرة العرب والذى يؤثر فى تصرف الناس كما يؤثر القمر وقد شبهت به، وللقمر ما له من مقدرة على إخراج الناس عن جادة التعقل، والتدخل فى سلوكهم[١١] حسب المعتقد القديم.

وليس من الصعب أن نكتشف ما اختزن لاوعى ابن سناء الملك من تلك الموروثات الحضارية القديمة التى ستظهر فيما سيأتى

من شواهد شعرية سواء فى الغزل أو الرثاء ومن ذلك تشبيه الميت أو الحبيب بالبدر من ضمن الصفات المحببة الى النفوس وخاصة فى البيئة العربية على امتداد رقعتها الجغرافية والتاريخية وكما أشرنا فإن البدر أو القمر كان رمزا للخصوبة والخير، ومعبودا حكيما عند العرب قبل الإسلام ضمن الثالوث المقدس: الشمس والقمر والزهرة، ولئن أصبح فيما بعد رمزا للسمو والإشراق والفتنة والتأثير، عند المرثى الممدوح او الحبيب ذلك لأن وجود الميت قبل موته بين ذويه ومحبيه ومواطنيه هو بمثابة النور الذى يضيء لهم حوالك الليل إذ انه يجسد المثال والنموذج الذى يمثل رمز الجماعة والذات العامة أمام العدو المشترك وهو المدافع عن كرامة الجماعة كما أنه مصدر خيرها وعليه فإن المرثى هو المحور الذى كانت تدور عليه حياة الناس، فإذا كنا عرفنا - كما أشرنا - ما للقمر من منزلة عند العرب قديما، تلك المنزلة القدسية التى تطورت مع الزمن فأصبحت رمزا لقيمة الممدوح أو المرثى أقول إذا كنا عرفنا ذلك فإنه من الطبيعى أن يمتد المعنى الرمزى إلى الخلف من المبدعين فيتحول مع الزمن قليلا ويكون من بين الصفات المحببة التى تميز هذا النموذج عن غيره من الناس، ذلك النموذج الذى يضمن للجماعة كرامتها وهناءها وسعادتها. فإذا عدنا إلى هذه الرمزية المتطورة عند ابن سناء الملك بحكم العصر واختلاف المعتقد وتطور العقلية نجده يسبغ على مرثيه صفات الإشراق والتأثير الفعال المتمثل بالقمر أو البدر ومن ذلك قوله فى رثاء الشريف أبى الحسن على حسان الحسيني:

وأنت يا بدر لما أن سريت سرى
عنا هداك ويا شوقا إلى السارى

وفى رثاء جده يقول:

جليت ظلمة قبر أنت ساكنه
والبدر مازال يجلى ظلمة العتم

* وإذن، فإن المرثى بدر له ما له من الإشراق الذى يغشى الظلمة فيبددها سواء أكانت هذه الظلمة ظلمة حقيقية أم غيرها وهو كذلك هاد فى أوقات التيه والضلال فى دروب الحياة وكلا الوصفين يحمل معنى تأثير المرثى فى حياة الناس والأخذ بأيديهم إلى بر الأمان والسلامة.

فإذا رصدنا هذه الصفة فى رثاء المحبوبة - وما زلنا فى الركن الباكي - نجده يقول باكيا أمه الفقيدة:

فاحتفظ أيها الضريح ببدر
صرت من أجله كمثل السماء

ويرثى جاريته فيقول:

وما وجهك الوجه الذى غاب فى الثرى
ولكنه البدر الذى غاب فى الغرب

ويقول:

ثكلتك بدرا فى فؤادى شروقه
وفاكهة فى جنة الخلد نبتها

* ففقدان أمه أفقده إشراق حياته ونورها وخيرها، وفقد جاريته أفقده جمالها المشرق وحيويتها فى إدخال السعادة على بيته وقلبه وكلا الفقدين أفقده الدفء والضياء والراحة النفسية لما لأمه وجاريته من تأثير فى حياته

الشعر فى عمقه تحية كبرى للجمال وصرخة مكتـــــومـــــة ضـــــد الموت

الخاصة.

فإذا انتقلنا إلى ركن الغزل - وكثيرا ما كان يأتى فى مدائحه، فعْلَ الشعراء الجاهليين - نجده يقول فى مدح القاضى الفاضل فى المقدمة الغزلية للقصيدة:

وذلك بدر والهلال لثامه
فلا تحسبوا ان الهلال نقابه

ويقول فى قصيدة غزلية:

تطلع من بدر السماء إلى أخ
وتنظر من ريم الفلاة إلى ترب

وفى أخرى:

كالورد خدا والهلال تباعدا
والظبي جيدا والقضيب تأودا

وفى ثالثة:

وأنت الهلال وأنت الهلاكُ
بقتلى تفتى ولا تفتر[١٢]

* ولا تخفى هنا القيمة الرمزية لربط القمر بالسمو والهلاك ووصف المحبوبة بكل هذا معا، فقد سبق وأن أشرنا إلى اعتقاد العرب قبل الإسلام بقدسية القمر وسطوته وأثره فى سلوك الناس وعقلهم كأثر ابنته الزهرة - حسب اعتقادهم - والتى كانت معبودة دموية[١٣]. كما نلاحظ الجناس الذى كان الشاعر مولعا به فى كل ما كتب من شعر، ذلك الجناس الذى أضفى جمالا ورقة على الصورة الفنية عنده.

ولا يزال شاعرنا يغرف من الموروث الحضارى والميثولوجي فيجعل للموت يدا فيقول باكيا أهله:

وما حكمت فيهم فشُلّت يد البلى
فيا ليت من أبلاهم كان أبلانى

* وهل شيء يبلي غير الدهر عنده وهذا ما يشير إليه بقوله فى القصيدة نفسها:

طوى الدهر عني معشرى وأحبتى
وأهلى وجيراني وأسدى وغزلاني

* وطبيعي أن اليد هى التى تطوي وعليه يكون لا وعي الشاعر قد أبحر فى الماضى البعيد ليغرف من فكر العرب الأسطورى الذى كان يرى للدهر والموت يدا كما يتصورهما مخلوقين مفترسين يأكلان المخلوقات جميعا ولقد كان ذلك شائعا فى الفكر العربى الأسطورى فى بابل وكنعان وفنيقية والجزيرة العربية علي امتدادها. وفى الشعر الجاهلى والآثار الأدبية البابلية والكنعانية والفنيقية - وكلها عربية أصيلة - كثير من هذه التصورات التى لونت الأدب العربى القديم بألوان فنية ورمزية جذابة[١٤].

ولا شك في أن الرمز من الأدوات الجمالية ذات القدرة على تقريب المعنويات الى الفهم فى صورة لا تخرج عن الحدود الإنسانية، ذلك لأنه حافل بالانفعالات والأخيلة التي تتخذ

من اللغة وعاء لصياغتها، فتفيض بعدها بدلالات تومىء إلى الوعي الإنساني للوجود في مراحله الأسطورية البدائية وفي مراحل الفكر المتطورة وإن احتفظ بجعبته اللاواعية برواسب الماضي البعيد فرصدها في تشكيلات جديدة تتسم بالإبداع والحيوية.

والدهر عند ابن سناء الملك أكول كما كان عند أسلافه من الأدباء العرب قبل الإسلام وها هو ذا يشير إلى هذه الصفة حين يبكي الشريف الحسيني فيقول:

يا دهر تأكل أحبابي وتفرسهم
ما أنت يا دهر إلا ضيغم ضارى

* وفى الغزل يحمل الدهر الصفة نفسها إذ يقول شاعرنا فى فراق حبيبه:

ضايقتني يا دهر فى قمرى
فأخذته وتركتنى وحدى

* ولجفن الحبيب وحبه مخلب كالدهر ايضا:

وكاسر الجفن الذى هدبه
قلبى به فى مخلبي كاسر

* وله حبائل ايضا:

ألقى حبائل صيد من ذوائبه
فصاد قلبى بأشراك من الشعر

[١٥]

* أوليس الموروث الأسطورى يتغلغل فى صور ابن سناء الملك فيلونها بألوان ميثولوجية جذابة متحركة تتكلم عن تشابه كبير فى الدلالات بين الغزل والرثاء عنده؟

وعليه فإن عملية الإبداع عنده تمزج بين الوعى واللاوعى لتبرز المعاناة او التجربة الشعرية في صورة مطبوعة بطابعه الشخصى الذى يميزه عن غيره من شعراء عصره عامة وإن كان كثير من الخطوط العريضة فى الملامح الفنية آنذاك متشابها كتشابه الموضوعات عند شعراء ذلك العصر.

وبديهي أن النصوص الشعرية عامة تحتاج فى تحليلها إلى معرفة الفكر العام فى عصر الشاعر، ذلك لأن هذا الفكر يتغلغل - بشكل غير مباشر - فيها، ولا شك ان كل فكر فى أى عصر يرتكز على ماضى الفكر الانساني الذى يسبقه ومن هنا كان علينا استقراء النصوص استقراءا معتمدا على هذه الركيزة على أن تسبر أغوار التعابير والرموز للوصول إلى الدلالات التى تفض غموض هذه التعابير وتلقى الضوء على الموروث الحضارى الذى يضم فى طياته درجات وصور تطور الفكر والتصور فى بيئة معينة. ومن هنا نستطيع التأصيل لهذه النصوص ورصد ما دخلها من عوامل التطور الفكرى والفنى رصدا يحفظ للمبدع تفرده وتجديده.

وعودة إلى دلالات ابن سناء الملك فى غزله ورثائه نجده يربط بين الفقد والموت المعنوي فى كليهما، فهو حين يرثى أمه يقول مصورا حاله:

فهو فى الميتين يحسب حقا
ومجازا يعد فى الأحياء

* ثم يربط بين حياته ووجود أمه:

والتى بعض جودها لى وجودي
والتى من حبائها حوبائى

المسحة الدينية ظهرت بوضوح على الفن الشعري لابن سناء الملك

* ويرثى العفيف التلمسانى فيقول لائما نفسه على البقاء على قيد الحياة بعده:

وان بقائى من بعده
قبيح وان حياتى جفاء

* ثم يرى أن الحياة داء والموت دواء لأنه يقربه ممن مات من الأحبة والأهل فيقول:

عجل الله راحتى من حياتى
إنها فى الزمان أعظم دائى
وإذا ما الحياة كانت كمثل الداء
كان الممات مثل الدواء

* ولا يبعد الربط فى مضمار الغزل بين موت المحب وبعد الحبيب وكذلك الحياة بقربه عنه فى ميدان الرثاء، ولئن اختلفت المواقف بين الفقدين إلا أن النتيجة والأثر هما واحد فى الاثنين، ولذا نراه يقول:

وسكرانة الأعطاف صاحبة الصبا
تميت وتحيى بالبعاد وبالقرب

ويقول:

أتمنحنى بالبعد والهجر مهلكى
وحسبك لى بين البرية مطلب

وفى ثالثة يقول:

أموت بمن قد مر ذيل قميصه
على ميت أحياه بعد مماته

وفى أخرى:

تمنى فؤادى وصل من هو قاتلى
فما هو إلا مُنْيَتى او مَنِيَّتى

* ولعله يموت من الصد فى بعد ومن الحرمان فى وصل وفيهما يقول:

بالصد تقتل فى الهوى وقتلتنى
بالوصل فاقتلنى بغير جناح

والإحياء والإماتة التى تسببها المحبوبة فى قربها وبعدها يغرف الشاعر دلالاتهما من باطن التصور البابلى القديم الذى كان يرى فى عشتار ملكة للجمال والجلال، فالجمال يفيض بوسائل الحب والوصال والرحمة واللين والرقة، والجلال يفجر بركان الغضب والحزم والشدة والقسوة، وكلا الوصفين - بجانبهما السلبى والإيجابى - كانا من أهم صفات عشتار ملكة السماء المعشوقة آلهة الحب والحرب عند البابليين، وها نحن نلمس من هنا أعماق الفن عند ابن سناء الملك فدلالاته تغرف من عمق الفكر الحضارى العربى البابلى دون وعى بهذا المخزون الحضارى العريق، ذلك المخزون الذى اصبحنا نسميه الشعر التقليدى من حيث الفنية والنمطية، وإن كان يحكي لنا قصة اللاوعى الفنى الغائر فى الماضى البعيد[١٦].

ومن الملاحظ فى الأبيات السابقة لشاعرنا استغلاله لمعرفته البلاغية، ومن هنا يبرز الجناس دائما كما يبرز الأثر الدينى ليضفي جمالا فنيا على صوره الحية، ولئن كان الاثر الديني فى صوره هنا يتعارض من حيث

المضمون أحيانا مع مضمون الإسلام من حيث ان الشعائر كلها لله ولا احد سواه ولا شك ان هذا المنحى يؤخذ عليه خاصة وهو قاض وابن قاض عاش فى عصر اسلامى خالص ولا تفسير لهذا إلا أن صوره الفنية قد تحكمت فى تعابيره ومعانيه فأوقعته فى المحظور. ولا يقتصر التشابه فى الدلالة عند ابن سناء الملك فى الرثاء والغزل على الملمح الدينى فى هذه الزاوية فقط، بل ان هناك بعض الدلالات المتشابهة الاخرى والتى يكمن فيها. الفكر الأسطورى والميثولوجي بشكل ملموس يشير إلى المخزون الثقافى الكبير لدى شاعرنا، ومن ذلك تصويره لفراق الميت والحبيب اثر تدخل غراب البين والنجوم فى هذه الفرقة القاتلة، فهو إن رثى جسّد هذا المنظور وكذلك إن تغزل وهاك أمثلة لكل منهما فى هذا الجانب من الموروث الحضارى: يقول فى رثاء جارية له جامعا بين هذه التصورات الميثولوجية كلها:

عدت هذه الدنيا على وأسرت
بفجع على فجع وندب على ندب
وساعاتها الغربان إذ كان ساعة
تبشرنى بالنعي فيها وبالتعب
لقد قل قلب المرء وانحط سمكه
ولو أنه بين السماكين والقلب
وقد قيل إن الشهب ينفذ حكمها
على ذا الورى بالخفض منها وبالنصب
وإن صح هذا أن ثورا وعقربا
ألحا على ذا الجنس بالنطح والسلب

وواضح ما فى الأبيات من رموز ودلالات تشير إلى العمق الأسطورى وكذلك الرفد الثقافى المعرفى الذى يمد صور الشاعر بكثير من الإيحاءات والإشارات الدالة، فهناك المأثورات العربية القديمة والميثولوجية التى تشير الى نمط التفكير العربى فى عصر الشاعر والذى يتكىء على أصول قديمة تجعل من الغراب رمزا للشئوم ونذيرا لكارثة ما، وارتباطه بالبين له دلالته الأسطورية، إذ كان «يابين» الذى تحول لفظه إلى «بين» فيما بعد، ملكا شاميا قبل الميلاد وقد فتك باليهود واستعبدهم حسب ما ترويه المأثورات الشعبية، وقد اكتسب مع الزمن مزايا وصفات تظهره كائنا خرافيا محترقا فى الهواء يدخل للناس من كل منفذ، وشرا مستطيرا أزليا. ولقد «تناثرت رموزه ، وحيواناته وطيوره - ومنها - غراب البين»[١٧] فى التراث الأدبى عند العرب فيما بعد.

ويقال الشىء نفسه بالنسبة للصور الأخرى ومنها الشهب والثور والعقرب. وللعرب فى المعرفة الفلكية باع طويل منذ عهدهم بها فى بابل قبل الميلاد الى ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية، وقد تطورت هذه المعرفة من مراحلها الاسطورية التى كانت ترى للشهب والنجوم تأثيرا يتدخل فى الخلق إلى العصور التالية ، وبقيت من هذه الدلالات بقية فى اللاوعي العربي، وها هو ذا ابن سناء الملك يشير الى هذا الأثر أيضا.

وقد سبق وأن أشرنا إلى أن العرب فى جاهليتهم قد عبدوا بعض النجوم ومنها الدبران أو ثور «عين الثور». ويعتقد المنجمون

أن الدبران أو الثور بشير بيمن الطالع لمن يولدون فى برجه وبغض النظر عن عبادته عند الهنود وبعض الدول الاسكندنافية قديما - حسبما يقول عبد الحميد يونس - فإن دلالته فى النص الشعرى السابق يحمل صورة أخرى متسللة من رواسب عربية بابلية وكنعانية قديمة مفادها أن الإله (بعلا) عند الكنعانيين قد ولد له ثور مقدس وكان الثور عند هؤلاء يرمز إلى القوة والفحولة، كما كان عند البابليين يحمل معنى قدسيا إذ خلقه إيل الإله عندهم فكان ثورا سماويا، ليقضى على بطل المعلقة العربية الأولى «جلجامش» الأكادي[١٨]. وقد كان الأخير رمزا للبطش والرعب والفزع. ولئن كان الثور يحمل هذه الصفات المهلكة فإن عقربا - وهو برج من بروج السماء وله منازل هى الشولة والقلب والزُبالى كما يقول الأزهرى - يرمز إلى العدوان والغدر فى الأدب العربي، كما يرمز للهجاء اللاذع ونهش الأعراض[١٩]، وعليه فقد جمع ابن سناء الملك اقسى صورة للموت، وقد جسدت دلالاته أثر المصيبة ووطأها الشديد على الشاعر حتى زعزعت أركانه كما يقول فى أبيات أخرى من القصيدة البكائية:

فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لصوره الرثائية فإنه قد جاء بأثر مماثل فى رصد صورة أحزانه على فراق الحبيبة وها هو ذا يرسم الصورة بقوله:

سرى طيف لا بل سرى بى سرابه
وقد طار من وكر الظلام غرابه
لئن سر نفسى قربه ودنوه
لقد ساءها تشتيته واغترابه

ويقول فى أخرى:

أساءت بى الأفلاك غارت نجومها
ولا نزعت من ملبس الحزن غيهبا
ويا ليت شعرى من لمن اشتكى لها
أخاطب ثورا أم أعاتب عقربا
.[٢٠]

إن الألم العميق فى حالتي النوى: بالموت أو الفراق، والذى كابد منه ابن سناء الملك فى الموقفيين الوجدانيين قد فجر طاقته الفنية المبدعة تفجيرا ركب صهوة الخيال فصهر جميع أحاسيسه وملكاته الإنسانية فى صور ساحرة أضفت على قصيدتى الغزل والرثاء وحدة فنية خلابة ، التحمت فيها الصورة بالفكر بالإحساس بالموسيقى، فأصبحت التجربة الشعورية كلا متكاملا يمثل وحدة عضوية ذات قوة دلالية مؤثرة، وكان كولردج قد سار فى هذا على هديه حين قال: «إن الخيال هو القوة التى بواسطتها تستطيع صورة معينة أو إحساس واحد أن يهيمن على عدة صور أو أحاسيس فى القصيدة، فيحقق الوحدة فيما بينها بطريقة أشبه بالصهر»[٢١]. وإذا كانت المعرفة الفلكية للنجوم والشهب والقمر والبروج السماوية أسطورية الأصل ذات شعائر تعبدية، فإنها قد أصبحت مع تطور الفكر الإنسانى أداة من أدوات الخيال التى أفرزت كثيرا من الصور الفنية عند الأدباء العرب ومن هؤلاء شاعرنا هذا. ولكم كانت استفادته كبيرة من هذه التصورات القديمة والمأثورات الحضارية

والشعبية حين عالج موضوعاته الشعرية فاستغلها أحسن وأكبر استغلال.

وترتبط رحلة الموت - مثلها مثل ارتحال الحبيبة - بالدمع وهروب الصبر، ويتجسد ذلك فى رثائه لصديقه ابن النصير إذ يقول:

فيا أسفى إذ كنت قبلى ماضيا
ويا خجلى إذ صرت بعدك باقيا
أقل اكتئابى أن أرى القلب جازعا
وأيسر وجدى أن أرى الطرف باكيا
ولست براض أن أرى الطرف دامعا
إلى أن أراه من دم القلب داميا
لصيرت قلبى من حلى الصبر عاريا
وصيرت خدى من حلى الدمع كاسيا

* ورب موت قتل صبره دون دية:

قلبى أسير عليه ما له فرج
صبرى عليه قتيل ما له وادى

* كما تتجسد الدلالة المشتركة هذه فى غزله إذ يقول فى رحيل الحبيبة:

ومر يسبق دمعى وهو يلحقه
كالسيل شيع فى مسراه بالمطر
سحبت ذيل دموعى اثره وغدا
سواى يسحب اذيالا على الأثر

* ومن الطبيعى أنه يفقد صبره فى هذه الحال إذ يقول:

فشوقى أدنى من دموعي لناظري
وصبرى أنأى من فراشى إلى جنبي

* إن هذه التراكيب الفنية تمثل الوحدة الحية المرتكزة على العاطفة والصورة الناشئة من معاناة شاعرنا فى مواقفه النفسية المختلفة، وإذن فإنها تجسيد للحظات الشعورية التى يسيطر عليها ابن سناء الملك ويخضعها لصوره وفنه وريشته المبدعة ولذا فإن وحدة الإحساس بالألم والإحباط عنده خلقت هذا التقارب فى الدلالات والتشابه فى العلاج والرصد مما أدى إلى نتيجة واحدة وهى تصوير العواطف الباكية المكلومة إثر محنة الموت ونوى الحبيب على مستوى شعوري واحد. ولقد حاول الإنسان ومازال يحاول محاربة الموت وإبعاد شبحه عن الحياة والأحياء بشتى الوسائل ومختلف الأساليب منذ بدء الخليقة، فمن المواجهة المباشرة كما كان الحال مع عناة الكنعانية الى التداوى بالأعشاب كما كان من أمر المرضة عشتقة لإزالة الموت عن الملك الكنعاني كارت أو الحصول على نبات الحياة كما كان من أمر جلجامش او بالرقى والتعاويذ كما كان عند الأدباء العرب البابليين[٢٣].

ولقد شغلت مسألة محاربة النوى والفراق والانقطاع عن الأهل والأحباب - مع استحالة الوصول فى غالب الأحيان - محاربة انفعالية، صفحات عديدة من صفحات الأدب العربى ولونتها بألوان متعددة من الصراع والحزن وصبغتها بالهموم الباكية والأحاسيس المكلومة والعواطف الإنسانية التى تحكى قصة المودة والصداقة والألفة بين الناس كما تحكي سطوة القدر ودوره فى هذه الفرقة الحتمية. ولقد اعتمد الأدب فى هذا على كثير من الرموز كأدوات جمالية مفعمة بالإشارات المجازية التى تدمجنا بالتجربة وكأننا نعيشها من خلال نظرات متعددة مليئة بالدلالات

والصور الذهنية التى تصلنا بالاشياء على نحو جديد، وبهذا يكون استقبال الأديب وخاصة الشاعر للإشارات تلك عطاء جديدا يكمن فيه انتماؤه للجماعة والوجود الإنساني.

(للبحث صلة)

الهوامش :

(١) المرثاة الغزلية فى الشعر العربي، ص١١، مطبعة الاهراء بغداد ١٩٧٤.

(٢) انظر: معجم الادباء ١٩/٢٦٥ وما بعدها، ط. اخيرة، القاهرة، والفن ومذاهب فى الشعر العربى ، شوقى ضيف ص:٤٩٤ وما بعدها ط. سابقة دار المعارف بمصر ومن الجدير بالذكر ان عصر ابن سناء الملك ينتمي الى اواخر العصر العباسى الثانى كما يراه كثير من الدارسين ولكن د. شوقى ضيف يحمله اسما آخر هو «عصر الدول والامارات» الذى يضم حسب رأيه العصر المغولى والعثماني ايضا وبهذا يكون امتداده من ٣٣٤هـ. وحتى مطلع العصر الحديث، انظر كتابه: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، ص:١٣٢ دار المعارف ١٩٧٧م ، القاهرة، وانظر ايضا عن طبيعة الفنان وفنه عامة كتاب: نظرية الأدب، اوستن وارن، رينيه ويليك ، ترجمة محيى الدين صبحى ص: ١٠٣/ ١٩٧٢م.

(٣) ديوان ابن سناء الملك ، ص: ٦ ، ٦٤ دار الجيل ، بيروت.

(٤) انظر: اصول الحضارات ، عبد العزيز عبد الغنى ١/١٣٩، ط. اولى ١٩٧١ دار الفكر ، بيروت.

(٥) ديوانه ٥١٣ ديوان عنترة ص: ٢٨، ٥٨، ٣٠٩، ط. اولى ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٨.

(٦) ديوانه ص: ١٤١ ، ٨٣٧.

(٧) انظر: ملوك حمير واقيال اليمن، قصيدة نشوان بن سعيد الحميرى ص:٢٧، تحقيق اسماعيل بن احمد الجرافى وعلى بن اسماعيل المؤيد، ط. ثانية ١٩٧٨ دار العودة بيروت، وجمهرة اشعار العرب لابى زيد القريشى ص: ١٨٤ دار صادر بيروت.

(٨) ديوانه ٢٢٧، ٣١٧، ٥٠٢ وكذلك الصفحات ٤٥، ٦٢، ١٢٥، ١٣٩، ٣٩٩.

(٩) ديوانه ١٦٤، ٨٧٤، ٦٣، ٧١.

(١٠) ديوانه ١، ٣٥، ٦٢، ٦٦، ٧٦٩، ٧٩٢، ١٦٤، ٥٥٥.

(١١) انظر فى هذا: فى طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت ٧٠ - ٧٦، ط. ثانية ١٩٧٩، دار النهار للنشر، بيروت ، ودفاع عن الفلكور لعبد الحميد يونس ٨٥ - ٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ مصر، ومن الاساطير العربية والخرافات ، مصطفى الجوزو ، ١٠٢ ط. اولى ١٩٧٧، دار الطليعة بيروت.

(١٢) ديوانه ٥، ٤٠، ٦١، ٦٣، ١٢٢، ٢٧٥، ٢٩٩، ٣١٤، ٦٧٠.

(١٣) انظر: الحوت ٧٠ - ٧٦، ١٥٢ وعبد الحميد يونس ٨٥ - ٩٠ وموسوعة الفلكلور والاساطير العربية، شوقى عبد الحكيم ٤٨٥ وما بعدها، ط. اولى ١٩٨٢ دار العودة بيروت، اذ كان العرب يضحون عند ظهورها صباحا وكانت الضحية - احيانا - من البشر.

(١٤) ديوانه ٣١ - ٣٦ - ٨٣٧ كذلك: عقائد ما بعد الموت فى حضارة وادى الرافدين القديمة لنائل حنون ٢٩٥ ط. اولى ١٩٧٨ دار السلام بغداد، وجمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشى ٢٧١ ، ٢٧٢، ط. ثانية ١٩٧٨ دار المسيرة ببيروت، وملامح واساطير من رأس شمرا لانيس فريحه ١٧٦ دار النهار، بيروت ١٩٨٠، والمفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد على ٥ : ١٤٩ ط. اولى ١٩٧٠ دار العلم للملايين بيروت.

(١٥) ديوانه ٢٧٢، ٢٧٥، ٣١٦، ٢٣٤.

(١٦) ديوانه ٢، ٤، ٦، ٣٥، ١١٢، ١٢٤، ١٢٥، وانظر ايضا ملحمة جلجامش: حققها ونقلها الى الانجليزية ن.ك. ساندرز، ترجمة محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضى، ص : ٢٥ دار المعارف بمصر.

(١٧) السمك: السقف والقامة من كل شيء، السماكان: نجمان نيران احدهما فى الشمال وهو السماك الرامح، والآخر فى الجنوب وهو السماك الاعزل (معجم وسيط: مادة: سمك) ديوانه ٦٧ وكذلك موسوعة الفلكلور: الصفحات ١٣٥ - ١٤١ ، ٦٣٠ - ٦٣٣.

(١٨) انظر: معجم الفلكلور لعبد الحميد يونس، ص: ١٠١، ١٢٠، ط. اولى ١٩٨٣ مكتبة لبنان، بيروت ، كذلك: ملاحم واساطير من رأس شمرا لانيس فريحه ٤٢ دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٠ وفى طريق الميثولوجيا ٩٧ وما بعدها، ملحمة جلجامش لطه باقر، ١١٢، ١١٤ ط. رابعة، سلسلة دراسات (٢٠٢) منشورات وزارة الاعلام العراقية دار الحرية، بغداد ١٩٨٠.

(١٩) انظر معجم الفلكلور ١٦٦ ولسان العرب لابن منظور ٢ : ١١٦ مادة عرب.

(٢٠) ديوانه ٣٩ ، ٧٤.

(٢١) فلسفة الجمال فى الفكر المعاصر، د. محمد زكى العشماوى ١٢٠ دار النهضة العربية ١٩٨٠ بيروت.

(٢٢) ديوانه ٣٥ ، ٢١٥ ، ٣٣٨، ٧٦٩، ٨٧٧.

(٢٣) انظر فى ذلك: ملاحم واساطير ١٧٧، ٢٨٨ - ٢٩٠ وملحمة جلجامش ١٦٥ وعقائد ما بعد الموت ، ١٢٧ وما بعدها

المياه في الشعر العربي

{وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ} .. الماء، سر الحياة النضرة الزاهية المخضرة .. وليس بمستغرب أن يكون ثلثا الكرة الارضية ماء، وثلثها يابسة.

والشعراء بما لهم من حسّ رفيع، وعاطفة جياشه، تنبّهوا إلى هذا السر العظيم، وفاضت به خواطرهم، وضموا عليه جوانحهم .. فكان كثير من شعرهم حداء ناعماً رقيقاً بالانهار والبحار، والسحب والأمطار .. وكل مساقط الماء ومنابت الخضرة.. وهذه الدراسة الشيقة تتناول الماء في الشعر العربي، في ثلاث حلقات متتاليات.. نأمل ان يسعد بها قارئ المنهل.

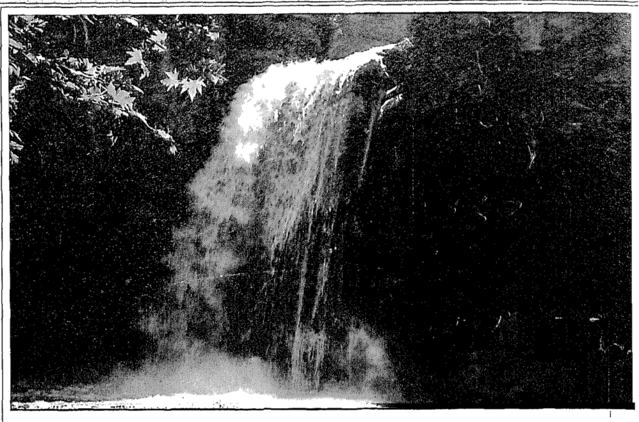
شعر المطر:

«شعر المياه» طرف طريف من أطراف «أدب الماء» الدفاق .. و«أدب المياه» نمط أدبيّ لا يختص بإنتاجه شعب دون شعب، وليس بالحديث المستحدث إنما هو إحساس وتمل ، وحبور، وانتشاء، واستبشار بمستقبل زاهر، وحلم بسبحات في (الماء) من لحظة ولادة (السحابة) الى حين نزول القطر فالغيث إلى جريان الساقية وخرير الوادي وارعاد الفوّار وازباد الشلال وامتلاء الغدير وتموج البحيرة وزحف النهر المتهادي وهيجان ثورته، وسكون البحر وتلاطم أمواجه.

وبذا تقدر على القول بأن الماء مورد فتّق وربَّ ألواناً من (الإنتاج الأدبي) - مثلا، قصة ، حكمة، رواية، حكاية .. وشعرا - فهو بهذا الدفع والعطاء ماء الأدب ومُحْيِيه بحق..!

قصص أخاذة عن الطوفان، واساطير غريبة - بابلية وعربية ورومانية وفينيقية ويونانية .. عن ماء السحاب، وروايات عن نوء البحر وخيراته ومغالبته من (همنجواي) إلى (حنّامينه) وآيات عن الطفل موسى - عليه السلام - والنيل، وأخبار مدهشة عن بئر زمزم وأحاديث معجزة عن نبع الماء من بين أصابع النبي {صلى الله عليه وسلم} وجوامع كلم عن ماء بدر.. وتلكم هي الجذور، هي الوشوم المحفورة في الذاكرة، من يوم ان خلق الله سبحانه السماوات والأرض .. قال جل جلاله: {وجعلنا من الماء

بقلم:
مصطفى بو هلال - تونس -



كل شيء حي أفلا يؤمنون} (الأنبياء/٣٠).

فالماء نعمة النعم وأصلها: بالأرض جعله المولى تعالى الفارق المميز بين الموت والحياة، وبالجنّات أوجده المنعم جلّ عزّه أنهارا مصفّاة.. ولما حان لرسول الله {صلى الله عليه وسلم} إتحاف أفاضل من الصحابة - رضوان الله عليهم - ببشرى إكرام الله تبارك إياهم بالجنة ، اختار مجلسه في اخضرار وماء يبعثان ببرودة هانئة، ببستان بئر أريس: (عن سعيد بن المسيب: أخبرني أبو موسى الأشعري أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال: لألزمن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ولأكونن معه يومي هذا. قال فجاء المسجد فسأل عن النبي {صلى الله عليه وسلم} فقالوا خرج وجّه ها هنا [قصد هذه الجهة] قال: فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، قال: فإذا هو قد جلس على بئر أريس وتوسط قفّها [حافتها] وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر قال: فسلمت عليه ثم انصرفت، فجلست عند الباب، فقلت: لأكونن بوّاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رسلك. قال: ثم ذهبت فقلت يارسول الله هذا أبو بكر يستأذن. فقال: ائذن له وبشّره بالجنه. قال: فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله

الماء مورد فتّق وربّ ألوانا من الانتاج الأدبي

{صلى الله عليه وسلم} يبشرك بالجنة. قال: فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله {صلى الله عليه وسلم} معه في القفّ ودلّى رجليه في البئر كما صنع النبي {صلى الله عليه وسلم} وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست)[١]. وهكذا حرك الباب عمر، ثم عثمان - رضي الله عنهما - وأذن لهما مع البشرى بالجنة والجلوس بهذا البستان تهيئة لمزيد انشراح ببشرى الفردوس، وانتعاشا بهبات الواهب سبحانه {إن المتقين في جنات ونهر} (القمر/٥٤). الماء ذروة العطاء والنعيم، ولا وجود بلا تذوّق وارتشاف، ولا شعور بالتنعم بلا تطهر وعرفان حامد للموجد، فإذا تزاوج الماء والشّعر صفت المناجاة، وحلّت المودة والرحمة، واستتب الاطمئنان.. !وسياحة واعية في روضات الشعر، بواحة الديوان العربي، ستحيي فيك نبع الأمل والطرب، وادراك آفاق التسخير والمتعة ودلائل قدرة البارئ المبدع تعالى عزّه.! وبين يديك انطلاقة جائلة بين الرّياض، تلوّح بإضمامة - بتنوع باقاتها - لا أزعم أنها من أبدع عيون الشعر والمعلقات، ولا أرضى لها أن تُغمز بـ (الخليط المسفّ).. إنها انتقاء لم يتقيد بإمارة شعرية أو بمدرسة معيّنة أو مكان محدد.. وليست مسحا متقصيا للروائع، ولا تقوقعا متخاذ لا عند النماذج القريبة، كما أنها لم تتكلف تسلطا أو تعسفا يضغطان على النصوص التي بين يدي وهي النزر القليل - أو يهملان بعض بدائع النماذج إهمالا إقصائيا مقصوداً لداع ما غير دواعي إجادة الفن الرّاقي.. وفي هذا احترام لكل الظواهر الشعرية وتفتح على التجارب التعبيرية.. ولعل في التحرر من «التزمين» المنبني عليه منهج التاريخ للأدب شيء من تيسير ملاحقة التجديف في كل الاتجاهات في أغوار «الموضوع» الواحد في آن، دون نسيان التحليق في رحاب التطور في الصياغة وأدوات الحضارة وضروب السلوك المدني.

وأول ما يهبّ النسيم رُخاء، وتجري الرّياح بعد اختفاء، يتحسس الجسم حرارتها وبرودتها ورطوبتها، ويتشمم الأنف، بل كل خلية: نداوتها وعبقها.. ويحال البصر ليراها تحمل غيوما من الأقاصي، وتدفع سحبا تساق إليه حيث هو، وإلى ماوراءه وأمامه، فتنبثق الحياة، وينهض الرّجاء، ويموت العوز وينبعث الاغتناء.. قال الله تعالى: {وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سُقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون} (الاعراف/ ٥٧).

وإن إبصار الشاعر سحابة حبلى، تتهادى في السماء ليهز كيانه هزا، مثلما تنتشر البهجة والاسبتشار بكل أجزاء بدن الفلاح وأزيد، لأن الشاعر يلمحها بمهجة الزارع، وبروح الفنان المتيقظ أيضا.. وعندها تلتهب اللواعج حارة، والخواطر متداعية، والرجاء متأججا، والمناظر مراودة، والتشابكات الجمالية مداعبة هامسة.. أسمعت اروع من وصف ابن شهيد - شاعر قرطبة الأرض المسطيرة واكتناز الطبيعة - لعاصفة أطلسية واعدة، لا نقع فيها ولا عقم.. أطلت في

«شعر المياه» طرف طريف من أطراف «أدب الماء» الدفّاق

الوقت الحرج، حين التوعد بطلائع الذبول والاصفرار.. ببدايات الظمأ.. فيا لأسى زهرات قرطبة وقد طال بها الاشتياق الى ارتضاع أثداء سحابة مدرارة.. تلمحها فاتحة الأشداق في خفض تنتظر - في تحفز بالغ - إلى التقام ضرع غمامة ممتلئة ماء شافيا.. وها هي لحظة الإسعاف تأتي متعجلة كما تتعجل المرضعة بضم رضيعها.. تسري جحافل سحب بيضاء سريا رفيقا نحوكا هيّنا غير قاصف ولا مزلزل، هي سحائب تخالطها دكنة تجللها فتضفي عليها مهابة وكأنها فرقة جنود زنج متراصة في استعراض بديع مشهرة سيوفها المجلوّة اللماعة لتبعث أشعة تتقاطر خيوطا ذهبية وكذلك القطر لمّا انهمر!.

وقد فغرت فاها دُجى كلُّ زهرة
إلى كل ضرع للغمامة حافل
ومرت جيوش المزن رهوا كأنها
عساكر زنج مُذهبات المناصل[٢]

بسلاسة لطيفة ورشاقة خيالية وحبكة تصويرية ألفى ابن شهيد على المشهد روعة فنية هي من روعة استغاثة النباتات وترحابها بالغمامة الماطرة.. وإذ جعل هذا الشاعر الأندلسي السحابة الساقية ضرعاً مكتنزا يدر شرابا للزهرات - وفي هذا إشارة رقيقة الى الغيوث التي تدر الضرع .. - فإن الشاعر الخليفة ابن المعتز (ت ٩٠٨هـ) يجعل من سحابة مارة عيونا دامعة، في جود ودون كلل، لكن أتراها تُسيل دموعها تأثرا من اغبرار الأرض الكالحة؟ على كلٍّ ، هي تحركت لا حزنا ولا جزعا إنما للمعانقة، معانقة خدّ هاته الأرض، في مهرجان سارّ من بروق برّاقة كأنها سيوف أخرجت من أغمادها وضيئة وهاجة، فتحيل حلكة الظلام ضياء، وتقهر الليل بإشراقات باهرة، ومن أزيز هزاز هائل لا ينقطع، فيرج الأرجاء مجلجلا بقصف يضارع قرع طبول أو رحي طواحين.. إنها السحابة ترسل من مآقيها دموعا ودموعا على الساحات فتغطّيها بكساء ضاف موحّد هو الماء!! إنها لاحتفالية متأنقة تلك التي تلهف إليها كل نبت وشجر وذرة تراب ، قد أتيحت - وبكرم - فحُقّ للكائنات الحية - بهذا اللقاء والتمازج - أن تستفيق وتينع وتخضر.. فلها - إذن - أن تصحو منتشية بإكسير الحياة الساحر! واستمع لابن المعتز، يرصع قصيدته (السحابة الباكية) بجميل زخرف، وطريف تشخيص، فهو شاعر الوصف الجامع (إلى دقة الملاحظة خلق التشابيه والصور الجميلة.. وصورة تمتاز بعمق الخيال وطرافته)[٣]:

وسارية لا تملّ البكا
جرى دمعها في خدود الثرى
سرت تقدح الصبح في ليلها
ببرق كهندية تُنتضى

فلمّا دنت جلجلت في السـمـا
رعـداً أجشّ كـحـجـر الرحى
فـمـازال مـدمـعـهـا باكـيـا
على التّرب، حتى اكتسى ما اكتسى
فـأضـحـت سـواء وجـوه البـلاد
وجُنّ النبـاتُ بهـا والتـقى..![٤]

أبو تمام (ت ٢٢٨هـ/ ٨٤٣م) صـادفه ـ لما حط رحله ليلا بمحطة سفر ـ أن أخذت بلُبّه كوكبة سحب دكناء ممطرة تبرق من أطرافها بروق مـتكاثرة، وتنزل المطر أغـزر مـا تكون الغزارة .. خفّ أبو تمام ليطرفنا بتـصـوير هذا المشـهد الذي لم يغب عنه شذاه فأحياه في احساسنا بأحسن أداء، وأسمى عبارة: «سـقيُ مـسك الطّل» الحـدائق بـ «كـافـور الندى».! وغاب هذا عن غيره من الشعراء لما يمتلكه من (دقـة الملاحظة والتـوفـر على اسـتـقـراء أخـفى دقـائق الموصـوفـات.. فـأوصافه نقل للواقع المحسوس مسـتوف لجميع التفاصيل الى حد بعيد)[٥].

ومـعـرّس للغـيث تخـفق فـوقـه
رايـات كـل دُجُنّة وطـفـاء
نُشـرت حـدائقـه فـصـرن مـآلفـا
لـطـرائـف الأنـواء والأنـداء
فـسقـاه مـسك الطل كـافـور الندى
وانـحلّ فـيـه خـيط كل سـمـاء

(ولكن .. ماذا يريد أبو تمام بمسك الطّل؟ وماذا يريد بكافور النّدى؟.

أمـا مـسك الطل فـإنه يريد به الرائحـة العطرية التي تعـبق من الروض إثر الطل والمطر الخفيف، وأما كـافور الندى فإنه ذلك الرشـاش الذي تعـقـد قطراته بيـضـاء على أوراق الروض كـالكافـور، وليس من شك في أن هذه صـورة مركبـة، ولكنهـا تعبق بالمسك والطيب)[٦].

ولننتقل الى المغرب الأقصى لنتعرف على الشاعر القديم محمد المكلاتي ينقش مـلامح مشهد مشوق، بتشابيه جديدة وطريفة، تجعل الرعد سائق السحاب الحازم، ومطاياه هي السحب فإن هي تراخت متوانية عن الإسراع الى المتلمظين ظمـأ أرعـد وأرغى مـزمـجـراً لتعجّل بالإنجاد.. وإن سطت عليها الظلمة سـارعت البـروق تكاد تخطف الأبصـار فـأضـاءت لهـا المسرى وعـبّدت أمـامـهـا المسلك.. فم يبق لهـا إذن إلا أن تفـتـح منافذها فتنزل على المرتفعات والمنخفضات ماء غدقا يولّد ربيعا مزخرفا مزدهيا.!

وكـأن صـوت الرعـد خلف سـحـابة
حـاد إذا ونَت الركـائب صـاحـا
أخـفى مـسـالكهـا الظلام فـأوقـدت
من برقـهـا كي تهـتـدي مـصـبـاحـا
جادت على التّلعات فاكتست الربى
حُللا أقـام لهـا الربيع وشـاحـا[٧]

مغاني الغيث:

ما أحلى توقيع القطر بعد قحط.! بالغيث يعود للأحواض بهاؤها وللمناهل حيويتها، وللسـواقي أنسـهـا الآسـر.. الغيث عـرس البلابل والفراشات والنّحل فتلقاها مرفـرفة رائحـة قـادمـة، مـحـوّمـة مـاصّة، راقـصـة مـشـقـشـقـة .. الربيع .. الربيع يُبْعَث مع جريان الجداول، بعـد صـمـتـهـا الكئيب.. الهضاب والسهول والسفوح والشطآن تبتسم جذلانة وقد أسعفها الله بغيوث منهمرة أنجدة

إذا تزاوج الماء والشعر صفت المناجاة، وحلّت المودة والرحمة، واستتب الاطمئنان!

الطبيعة من تجهم وانكسار الى حفل حافل سبى الشاعرالدكتور/ نور الدين أبو ريشة وأهاج شاعريته، فأسبى وأهاج في قصيدته: (مع الطبيعة في ربيعها الضاحك):

وجرى الماء - بعد طول احتباس
في حنايا ينبوعه غدرانا
واستحمت عرائس الفجر فيه
طمعا في لجينه وافتتانا
ليتني أغتدي كما الطير فيه
يغتدي حالم الرؤى هيمانا
ومع الجدول المسلسل يجري
ناعما في مسيره جذلانا
حالما بالربيع، أغنية خضراء
تطوي السهول والوديانا
شاق زهر الرّبى فخفّ إليه
وشجا الصخر ماؤه فاستلانا
وعلى جانبيه حفّ به اللوح
وأحنى من فرعه أغصانا
كم سقى وردة.. وقبّل طيراً
وسبى مقلة.. وهاج جنانا[٨]

بتساقط المطر غزيرا وبانتظام تعمر المنتزهات الزاهية وتزدهي الطبيعة بكساء مزركش جذاب، ويعبق الفضاء بنسيم نقي عاطر، ويهنأ القوم بأشهى الثمار وأجمل الورود والياسمين.. وهذا أبو الطيب المتنبي يسير الهوينى - عام ٩٦٥م - بمنخفض بين جبلين، على مشارف شيراز بفارس، لا يتأخر عنه تلاحق القطر، فاغتنى بمياه زلال، وتجمّل بأشجار كثيفة، وتزيّن بنباتات بهيجة مختلفات. أبو الطيب هنا، وهذا هو المغنى الذي حرّك فيه السواكن فعبّر لسانه عمّا ساح فيه خاطره وانبلج في قلبه من تحويمات أنوار:

مغاني الشِّعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
طبتُ فرساننا، والخيل حتى
خشيتُ ، وإن كرُمْن من الحران
غدونا، تنفض الأغصان، فيها
على أعرافها، مثل الجُمان
فسرتُ ، وقد حجبن الحرّ عنّي
وجئن من الضياء بما كفاني
لها ثمر تشير إليك منه
بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواه تصلّ بها حصاها
صليل الحلي في أيدي الغواني
يقول بشعب بوّان حصاني:
«أعن هذا يُسارُ إلى الطّعان؟!»[٩]

منظر مريح ممتع، يلاعب المشدوه الذواق، فيبحر به في فسيح خيالات، وحبور راقص.. لم لا وهو بساتين غناء أروع الروعة، وأعمر ما عرف الشاعر من منازل. فهي الجوهرة

الفائقة، كما الربيع زينة الفصول مراتع نعيم مقيم، يطيب فيها العيش، لروعتها تستهوي الزائر الى النزول الدائم، تستدرجه - في اغواء لذيذ - إلى تمديد الإقامة، وقد كادت تسحرنا فتشدنا إليها، حتى جيادنا، لو لم تكن كريمة مطيعة لتوهمنا منها التوقف - خائفين - عن المسير ٠٠ لقد كانت وهي تشق الميدان المطرب مضمخة الأعناق، مزينة الشعر بما تنفضه الأغصان البليلة من ندى كأنه اللؤلؤ فيجعل رقاب الخيول وكأنها رقبات حسان تجملن بأنصع العقيق والمرجان٠٠ فما أهنأ التجوال هنا في هذا المغنى الظليل الفواح٠! لا حر يسيل العرق، ولا لظى يلفح الأبدان، ولا حلكة توحش، ولا شمس صيف قائظ في في فيافي فروع الشجر المتطاولة المخضرة المتشابكة هي المظلة الواقية، وهي الطاعمة بأثمارها اليانعة الريانة وكأنها أكواب أشربة صافية تدعوك أن هيت لك! وحيثما خطوت، أو خطا بك جوادك لا - ولن - يفارقك النغم الهادىء الرقراق٠٠ ذاك انسكاب المياه المنزلقة تداعب الحصى المرمر، تحسبه رنة أسورة ذهبية بمعاصم فاتنات٠! نعم، كل ما بمنتزه بوّان جميل جميل ومُسْبٍ، فلا تعجب من حصاني حين استغرب مني كيف أغادر هذا الروض الأريض حيث الطيبات والسلام، الى شعاب المشقة والنّزال!؟

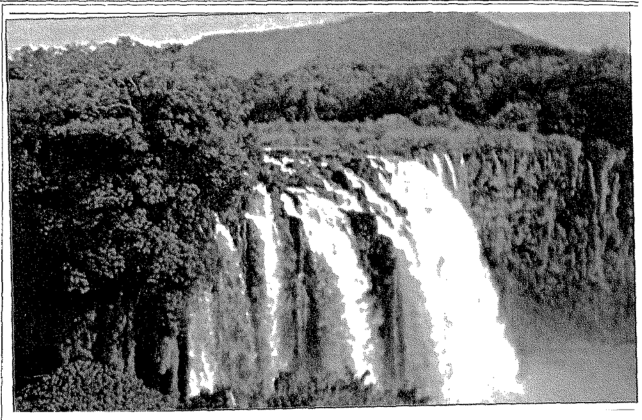
وبالأندلس يستدعيك الشاعر القرطبي الشريف الأصم لمتنزه «فحص السُّرادق» فستغذي الفكر بمرآه الشّيق، وستكحّل العين بغدرانه المائجة، وستُطرف الأنف باستنشاق عطر القرنفل والفل والآس٠٠ وستشنّف الأذن بزقزقة العصافير وهديل الحمام٠٠ ولك - هناك - أن تسرح التخيل والتشبيهات، أما أنا:

قعدتُ عليه اللحظ ما دمتُ حاضرا
وفكري في غيب لمرآه سائقي
أيا طيب أيام تقضّت بروضة
على لمح غدران وشمّ حدائق
إذا غردت فيها حمائم نوحها
تخيّلتها الكتاب بين المهارق

وبتيسير لغوي متساند غير مفكك ولا هزيل المقصد أنشد محمد الهراوي (١٨٨٥ - ١٩٣٩م) للأطفال ليحمد الجميع الله على بديع صنعه:

انظر الى البستان ذي الأزهار
والماء تحت الأيك والأطيار
الماء يجري في الجداول سلسلا
يسقي جذور النخل والأشجار
والزهر أشكال على أفنانه
والغض نضر يانع الأثمار
والطير يصدح بينها متنقلا
ويعود عند الليل في الأوكار
هذا صنيع الله بين عباده
فتبارك الله القدير الباري

«صنع الله» هذا جذب الأدباء لجماله - من قديم - وكان الشعراء سبّاقين إلى مواطن الخصب الخصيب، والماء الجليل، والتغريد الأصيل٠٠ يصف الأديب محمد السّنوسي (ت ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م) ملتقى شاعري على حافة واد:



مـــاء فـــرات صـــفـــوه من فـــضـــة
في سيله ينساب كالثعبان
ولفاعل النسمات في حركاته
طي ونشر راق للأعيان
وخريره إذ ذاك أحسن موقعا
من رنة العيدان في الآذان
وعلى جوانبه المنابت عممت
تلك الوهاد بأبهج الأغصان
والمؤنسون البارعون جميعهم
قد زانهم أدب بحسن بيان
يتناولون معارفا ولطائفا
هي للأريب مثالث ومثاني[١٠]

وليته لم يسفل إلى «انسياب الثعبان» وكأنه أحس بالكبوة فعاد للركض السليم قال مستدركا:

أو كالبساط بأبيض الديباج قد
نسجوه والحصباء كالعقيان

وأنشد الكاتب الرّحالة محمد بن علي التجاني (ت ٧١٧هـ) واصفا إحدى عشياته بواحة قابس بالساحل الجنوبي التونسي حيث يأتي الوادي من عين خرارة ومما تذوقه مستمتعا برؤى وحسيات في تلك الساحة الفيحاء ساحة «عنبر» ساحة الأنس والاستراحة والأشعار، فجاءت جمله ندية ومفرداته سمحة وعاطفته رهيفة أبيّة:

أنكر عشيتنا بساحة عنبر
والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس بسط الحيا
بُسُطا لها من أخضر أو أصفر
والشمس تستحيي فتستر وجهها
عنا بستر للعروس محبّر
والنور بين مفضّض ومذهّب
والنور بين مدرهم ومُدَنّر
والنهر، والغُدُر ادّرعن تحصّنا

إذ صفّقت الغابات صفّ معسكر
في جنّة لو نلتَ من خلد بها
قصدي بلغت إلى النعيم الأكبر
ومحلُّ أنس قلتُ بين رياضه
برياضة قادت لأبهى منظر
وجرى لنا فيه حديث كله
لطف حضرنا منه أطيب محضر
نُجري أحاديث الصبابة والصِّبا
بأرقّ من مسرى الصبا المتعطر
ونُدير كاسات المحبّة بيننا
فنميل منها بالحلال المسكر[١١]

لم يخن التجاني رصيده الثقافي ورفيع ذوقه في الاقتدار على نسج تركيبه المعبّر عن ألوان الزهر وإلقاء الشمس أشعتها من خلال سعف جريد النخل وأوراق الأغصان بتشبيهات متحضرة قاربت بلوغ رونق بيت المتنبي التي نعت فيها الشمس في شعب بوّان بقوله:

وألقى الشرق منها، في ثيابي
دنانيراً تفرّ من البنان

ومفادها: (ألقت الشمس من خلال الأغصان الملتفة أضواء مستديرة كالدنانير، ولكنها لا تمسك باليد)[١٢] وقد يكون التجاني استفاد من هذا البيت إلا أن ذهنه لم يشرد الى (المال) حقيقة ليحرك بنانه للاختيار دون وعي، كصنيع المتنبي الشارد في (جائزة) عضد الدولة بن بويه صاحب فارس الذي هو في الطريق إليه لمدحه.!

وليس ببعيد جدا عن وادي قابس نهر واحة توزر - قديما يطلقون النهر على الوادي الجاري وإن قل ماؤه - فهذا رسم له الشاعر أبو علي بن إبراهيم (القرن الحادي عشر الهجري) صورة شعرية لو لم يكثر فيها من أداة التشبيه (كأنّ) لأجاد:

والأرض عاطرة تزف كأنما
غشّى نواحيها عبير ينشر
وتأرجت أرجاؤها فكأنها
مسك يضوع خلالها أو عنبر
وكأن ريحان الحياة وروحها
مستنشق من عرفها ومعطر
فكأنما كُسيت بساط زبرجد
نُشرت يواقيت عليه وجوهر
والماء تُتبعه إليك جداول
قد مدها النهر الزلال الأكبر
صاف على صفة المها يجري على
رمل النقا، عذب قُراح، كوثر
وكأنما حصباؤها في رونق الماء
الذي يجري عليه جوهر
وخلاله سمك كصبغة خنجر
وكأنه من فضة متصور
ومسارح ومزارع ومباقل
وفواكه من كل نوع يُنكر[١٣]

وليته لم يكرر (على) في بيت واحد، ولم يتكلف التقليد الذي اضطره إلى (جوهر) مرة ثانية. أعد قراءة بيت المتنبي في مياه بوّان لتلحظ استكمال أدوات الفن الراقي لديه، وتخلفها لدى غيره:

وأمواه تصلّ بها حصاها
صليل الحلي في أيدي الغواني

وأحكم من قطعة ابن ابراهيم وأعلا، ما أورده الأديب المغربي محمد المكلاتي، منذ

بمهجة الزارع وبروح الفنان المتيقظ يلمح الشاعر السحاب يتهادى في السماء

عهود، لشاعر يتفيأ ظلالا بواد:

وقانا لفحة الرّمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميمي
يصدّ الشمس أنّى قابلتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
وأسقانا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية الغواني
فتلمس جانب العقد النظيم[١٤]

لقد قارب المتنبي إن لم أقل ساواه لمّا ساوى حصى الوادي - من طيب مائه - الصّاقل له صقل الصائغ القدير- بجواهر المتبردات، حتى أنهن لمّا نظرن في قاع الوادي حسبن حصاه لآلئهن انفرطت من عقودهن فجزعن معجّلات بتفقد حليّهن، وفي هذا الوصف أكثر من صورة رائعة وحركة وتصورات حسان.! شاعر رقيق آخر من المغرب، هو محمد غريط يعرض علينا لوحة نابضة عن وادي الجواهر:

وادي الجواهر متحف الأحداق
ومكلل الأفكار والأنواق
واد جرى وسط البسيط مسلسلا
يروي غليل الوجد والأشواق
واد له لون اللجين، ونفحة الـ
ـعطر النفيس، وخفّة الترياق
نشر الربيع بضفّتيه غلائلا
ذهبية الأذيال والأطواق
فكأنما قطع السقيف عساكر
هزت قلانسها بيوم تلاق
تشدو البلابل حوله فتخالها
تروي لذيذ الصوت عن إسحاق
ناهيك من واد يضاف لبلدة الـ
ـتأديب والتمييز والإرفاق
فاس التي بجمالها وخصالها
فاقت بلاد الغرب بالإطلاق
من ذا يفاخر صافي العين التي
كل العيون لها من العشاق!؟
رقّت طبيعته، وراق جماله
فغدا يتيه على (أبي رقراق)[١٥]

هنا نلمح تطعيم المعمار الوصفي بإدخال مظاهر مدنية مستجدة كـ (هز القلانس للتحية) وموسيقى إسحاق الموصلي، ويتضح هذا أكثر في اللوحة التي زانها أحمد بن يحيى الشفشاوني (ت ١٠٠١م) بروضة ابن رضوان الكاتب بفاس لمّا تجول فيها:

أجنة الخلد هذي يا ابن رضوان
أم حسنُ روضك فيه حار تبياني
أما ترى الطير بالأدواح ساجعة
أدمت أناملها أوتارُ عيدان
تحكي مزامير من لان الحديد له
تشدو بالأجزال في رصد وميزان
تنفي عن الصب ما بالقلب من كُرب
بل تترك الصب في تيه الهوى عان

فـالبـان يرقص من ترجيـعـهـا طربا
والزهر يفـتـرّ عن أثغـار مـرجـان
والماء منسكب والظل منســـــحب
والنسـيم هـبـوب ينعش الفـاني[١٦]

وبأحـضـــان غـــابات «عين دراهم» بشـمـال تونس صـور أبو القـاسم الشـابي (١٩٠٩ ـ ١٩٣٤م) صورا حالمة بفتنة الطبيعة الخـلابة، وسّعت دائرة التـفـاؤل والانشـراح وأثرت أفق الاســتــشــراف والرّيادة، وأروت الأنياط وشحذت الذهن وصقلت الرّؤى وعجّل الشاعر الخطى مع انبلاج الفجر ليتملى بهاء الشـروق ويرحب بالأكـمـام وهي تتـفـتـح مع انتشار عبير الصبح، وليصفق للأطيار مجريا شـعـره مع جـريان أمـواج الجـداول مـوقظا قطعان الغنم لتبكر فـتـصـحـبـه في تجلياته بضفاف الوادي قاضمة ـ في ثغاء حبيب ونط لطيف وقفز بريء ـ ما اكتشفه لها من عشب طري ٠٠ فـهـيـا ٠٠ هيا إلى مرعى أرحب٠٠ هيا إلى موسيقى السّواقي الناعمـة، وأريج النوار الشـذي وكـوكـبـة الضـبـاب الأبيض الخفيف تلف الوادي الوديع إرهاصا لأحيائه باقـتـراب لحظة الميـلاد، وإعداداً لـهـا لنفض الظلمة ومعانقة زمن الإستنارة:

أقبل الصبح جميلا، يملأ الأفق بهاه
فتمطى الزهر، والطير، وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحي وغنّى للحياه
فأفيقي يا خرافي، وهلمي يا شياه

* * *

واتبعيني ياشياهي، بين أسراب الطيور
واملئي الوادي ثغاء، ومراحا وحبور
واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي ، يغشيه الضباب المستنير[١٧]

إن إقبال الصباح الخير، وبدو أفق البـهـاء، وبزوغ الزهور، وانتـفاضة الطير، واسـتـمرار انسـيـــاب الموج، لحـركـات تُوحي بأن كل العناصـر تغني للحـيـاة مـتـجـاهلة الركـود والموات٠٠ وهي رمز (للعالم الحي) المستفيق من حولنا منذ عقود، فلا اعتذار لنا بالقعود والرضا بالدون والاستعباد الفرنسي بعد أن أضــاء تنوير المصلحين لنا الســبـيل، وأرانا أصـحـاب الشـعـور الحي منا والفكر، والحـيـاة ذاتها: بصيص الأمل٠٠ فنحن كقطيع خرفان بريئة ونعاج وديعة غافلة ساذجة مستسلمة لذئاب مفترسة في وادينا الخصيب، ولا ينقذنا منها إلا (الاستفاقة) وانتهاج مسلك الشاعر في نشدان الحرية والانعتاق وسمو التفكير ونبل العاطفة وغرس الخير والذب عن الحق وعشق الجمال والإنشاد لرقي الوطن٠!

صـدر هذا النداء الحـفي من الشـابي عـام ١٩٣٣م أيام قمـة الضغط الاستعماري على المغـرب العـربي بخـاصـة فلزمـه سلوك هذا الإنشـاد (المتستر) الرامزتقية وتحسبا، فـأتى شعرا متأنقا جميلا تملأ القلب رؤاه!٠

بذا تبصـر مـعي أن الشّابي يرتقي بصوره المحـسـوسـة التي أحـاطت به في وادي الماء والشعور ليثري ما ينبض بلبه ويرتئيه عقله من أمان عسلية ومعان راقية مجردة، فيسدل على قصيدته هالة فخمة مشعة هينة لينة لمن أراد الاكتفاء بالسبح في بساطها، ولكنها ـ في الأخـيـر ـ مـحـدثة دويا لذيذا في العـمـق، وحوارية داخلية تدفق نُسغا مـحرّكا للعزيمة،

مزكيا للإرادة٠٠!

ومن وحي جدول روض الغاب وأمواجه التي هي مثال السعي، والتجدد، والتدفق، والصفاء٠٠ وبمنطق «الوسط الطبيعي الحي» أهاب ويهيب الشابي بشعبه العربي - من أعمق أعماق الفؤاد - ليستيقظ - الاستيقاظ المتواصل الفاعل - فيثور على الخنوع والجهل والجبروت وكل أشكال التبعية٠٠ غير أن هذا الشعب بقيت به بعض لوثة من جاهلية ٠٠ شيء من «التوجس» من تيار الوادي٠٠ سبة من الانهزام الداخلي واحتقار الذات٠٠ ويتمرد على الشاعر منقلبا عليه ساخرا٠٠

أيها الشعب ! أنت طفل صغير
لاعب بالتراب والليل مُغْس
هكذا قال شاعر، ناول الناس
رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها، ومروا غضابا
واستخفوا به، وقالوا بيأس:
«قد أضاع الرشاد في ملعب الجن
فيا بؤسه، أصيب بمسّ
طالما حدث الشياطين في الوادي
وغنى مع الرياح بجرس»
هكذا قال، ثم سار الى الغاب
ليحيا حياة شعر وقدس
وتراه عند الأصيل، لدى الجدول
يرنو للطائر المتحسي
فإذا أقبل الظلام ، وأمست
ظلمات الوجود في الأرض تُغسي
كان في كوخه الجميل، مقيما
يسأل الكون في خشوع وهمس:
عن مصب الحياة، أين مداه؟
وصميم الوجود، أيان يُرسي؟
وأريج الورود في كل واد
ونشيد الطيور، حين تمُسي٠٠!
هكذا يصرف الحياة، ويفني
حلقات السنين حرسا بحرس
يالها من معيشة، لم تدنسها
نفوس الورى بخبث ورجس[١٨]

أنشد الشابي - بإتقان - أغاني الإشادة ببساتين مياه وادي الخير والاخضرار والنماء والحبور والابتكار والانطلاق، مستلهما - مما سباه - قيم القوة، والعزة والأنفة، والاعتماد على الذات، والذوق المترفع، وأمن المنزل ورقيّه وعزيز العطاء٠٠ إلا أن «الخفافيش» نعتته - لورود هذا المورد - بأخس نعت:

«قد أضاع الرشاد في ملعب الجن
فيا بؤسه، أصيب بمس»

وما «ملعب الجن» إلا الروض الأنُف المستروض، وإن قُصِد بجلبه هنا غمز الشانئين المتقاعسين من ذيول الرجعية المتطرفة وأذناب الاستعمار للشاعر بالجنون، فإنه يبدو أن أبا القاسم قد اقتبسه من بيت أبي الطيب، حين وصف رياض بوّان بأنها مغان فريدة الحسن كأن الجن هي التي فلحتها ورعتها لتكون ملاعب تلهو فيها وتعبث وتجنّح٠٠ (والعرب تضيف كل بناء رائع إلى الجن تعظيما له)[١٩] ، يقول المتنبي:

ملاعب جِنّة ، لو سار فيها
سليمان ، لسار بترجمان!

ولكن المسألة تختلف مع الشابي فشانئوه يرون الهول والشر والهلاك في وادي الشاعر

العامر بالجنّيات توسوس له بتطلعات وهتافات غير مألوفة.! وما دام الواقع كذلك، فليلتفت الشابي بـ «نشيد الأسى»[٢٠] باثا شكواه وآهات قلبه - الى موج الجدول وسحابة الأفق والشمس المنيرة.. لماذا كل هذا التعطيل، تعطيل منافذ الإحساس وأدوات الإدراك والتمييز .. ما هذا التراجع المعيب وتقمص العجز والنظر إلى الجدول الجاري بسوداوية.؟

ما هذا الوجوم المتجهم، والكنود الحاقد!؟ ألأن الشاعر تفانى في مغازلة عرائس الربيع؟ ألأنه أحب نسائم الحرية وألويتها المزهرة؟ ألأنه مجد المياه النقية وأنشد لأغصان الزيتون والسنديان أصدق القصائد؟ ألأنه تفرس في السحاب بروح متعالية آملة؟ ألأنه يحتسي مع العصافير رقراق ماء الساقية المنطلقة عذبة في مأمن من تلويث أي دخيل؟ ألأنه جنّح طائرا مغردا تغريد الطيور لليانبيع!؟

وليس عبثا يحاول الشابي اسقاط حاله على الطبيعة لتندب الحظ معه أو تلبس الكآبة مثله وتعرض بوجهها الباسم عن المتجاهلين جمالها، فإنما هي شكاة عاتبة لا يأس فيها، وبوح صريح ورقيق حداء، إذ هي الطبيعة ماضية في تبرجها لا تلوي على شيء ولن يلويها حادث، والليل - وإن طال - فصبحه قريب قدومه، والنبع - وإن شحّ - فالغيث عميم هطوله، والقيد - وإن أدمى - فحتما انكساره، وجلمود الصّخر - وإن سدّ عيونا - فالسيل يسرّح منبعا عذبة أمواجه..!

يا جدول الوادي الطروب .. ألم يرنّقك القطوب؟

يا غيمة الأفق الخضيب.. ألم تمزقك الخطوب؟

يا كوكب الشفق الضحوك .. أما ألمّ بك الشحوب؟

وها أنتِ ذا في الأفق تضحك، لا تُهمُّ ، ولا تخيب

تُلقي على قُنن الجبال رداء لألاء قشيب

لتنام أوراد الجبال الشّم في مهد عجيب

ولكي تغنيك الجداول لحنها العذب الحبيب

ما للمياه نقية حولي، وينبوعي مشوب؟

مالي شقيت، وكل ما في الكون أخاذ عجيب

في الأرض أقدام الربيع تلامس السهل الجديب

فإذا به يحيا، وينبت رائق الزهر الرطيب

وهناك أنوار النهار تُطلّ من خلف الغروب

فتخضب الأمواج، والآفاق، والجبل الخصيب

ولما يقوى به الضجر والضيق من طول الغطيط، ينتفض الشابي متذمرا من قبح رقدة الغاطين، فيحزم أمره على العودة إلى «البستان الطبيعي» حيث سيول الماء هي الطهر والتطهير، وهي الغاسلة لكل رواسب الركود والأدران، فإلى هناك إلى أن يحفر السيل القبر، فحفره خير وأحبّ من حفير أعداء الحياة، وليسق السيل يقظة إحساسي حيا، وليُروّ الغيث روحي وشعري ميتا:

إنـني ذاهـب إلى الغـــــاب علّي
في صــمـيم الغـابات أدفن بؤسي
سـوف أتلو على الطيـور أناشـيـدي
وأفــضـي لهـــا بأشــواق نفــسي
فـــهي تدري مــعنى الحـيــاة وتدري
أن مـــجـــد النفـــوس يقظة حسّ
ثم تحت الصنوبر الناضـــر، الحلو
تخط السـيـول حـفـرة رمـسي[٢١]

وعلى بساط الشعر الوثير، يطير بنا عاشق آخر من عشاق الكلمة الطيبة، نحو غرب السودان. وبالجهة وديان عديدة منها وادي كفوت الجاري باتجاه مدينة «كُتُم» زارها الشاعر المجيد مبارك المغربي مستريحا فناجاها أخلص المناجاة بأحلى القصائد «كُتُم» عذراء دارفور:

هاله السـحــر، فـأبدى مـا كـتـم
حين حـــيّت بمحـــيّاها «كُتُم»
إنـهـــا الجنـة من لاذ بهـــا
عـاش في فـيض من الحـسن عـمم
يرقـد «الوادي» على أعطافــهـا
لم يطق فُرقـتـهـا منذ القـدم
يتـثنى في التـيــاع حـولهـا
دافـقـا بالخـيـر فـيـهـا والنّعم
ضَمّهـا، والوجـد في أعـمـاقـه
عــاشق أودى به طول السـقـم
جـئـتـهـا آوى إلى أفـيـائهـا
في خـريف سـاحـر عـذب الدِّيم
سـحــر «لبنان» على فـتنتـه
لا يداني روعـة سـحـر «كُتم»[٢٢]

«للموضوع صلة»

الهوامش :

(١) البخاري بشرح السندي - ج٢ ص٢٩٢ ومسلم بشرح النووي ج١٦ ص١٧١

(٢) أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيد: الأديب الوزير ولد بقرطبة سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م وتوفي سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م له «التوابع والزوابع».

(٣) تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري ط١٢ ص٥٤٩ عام ١٩٨٧م.

(٤) بِركن: جمال العربية بمجلة العربي ع٤٤٠ صفر ١٤١٦هـ يوليو ١٩٩٥م ص١٧٤ حلل الشاعر الناقد فاروق شوشة هاته القصيدة تحليلا أدبيا مكتملا.

(٥) تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري ص٤٩١.

(٦) الفن ومذاهبه في الشعر العربي. د/ شوقي ضيف. دار المعارف بمصر ، ط٦ ص٢٤٥.

(٧) النبوغ المغربي في الأدب العربي ، عبد الله كنون ج٢ ط٣ عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م ص ٢١٧ دار الكتاب اللبناني.

(٨) مجلة العربي ع ١١٢، ص٨٨.

(٩) منتقيات أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البستاني. ط عام ١٩٤٨م ص ٣٤٤ مكتبة صادر - بيروت.

(١٠) الرحلة الحجازية ، محمد السنوسي ، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ص ٢٧٠.

(١١) الرحلة الحجازية ص ٨٨ - والحلل السندسية للوزير السراج ج١ قسم٢ ص٣٤٦ تحقيق محمد الحبيب الهيلة.

(١٢) منتقيات أدباء العرب ص ٣٤٥

(١٣) الحلل السندسية ج١ ق٢ ص٤٣٥ وما بعدها.

(١٤) النبوغ المغربي ج٢ ص٢١٠: المقامة الزهرية.

(١٥) مجلة «دعوة الحق» المغربية ع٩ س٢٠ شوال ١٣٩٩هـ ص٨٦ جولة في كتاب الأدب العربي في المغرب الأقصى، تأليف محمد القباج وعرض محمد العلمي.

(١٦) النبوغ المغربي ج٣ ص١٣٧.

(١٧) أغاني الحياة - ديوان: أبو القاسم الشابي ص٢١٧، قصيدة من أغاني الرّعاة ط٨ سنة ١٩٩٣م الدار التونسية للنشر.

(١٨) أغاني الحياة ، قصيدة النبي المجهول ص١٤٧.

(١٩) منتقيات أدباء العرب - بطرس البستاني ص٢٤٤.

(٢٠) أغاني الحياة ص١٢١.

(٢١) نفسه ص ١٤٦.

(٢٢) مجلة العربي ع ١٨٣ المحرم ١٣٩٤ فبراير ١٩٧٤م ص ١٧٩.

سموم وهموم

المخدرات آفة العصر

(١)

عندما تطلق كلمة «المخدرات» فإنها تعنى الكثير من الأخطاء والزلات والمصائب والكوارث.

والصحف السيارة تحمل لنا كل صباح من مصائب وكوارث المخدرات مالا يحصى عددا.. طالب جامعي متفوق في دراسته، يترقب أهله «المعدمون» لحظة تخرجه يدمن المخدرات، ويموت الأمل الجميل على شفاه أهله المعدمين.. زوج يدمن المخدرات، وتتشرد الأسرة بكاملها، ويصبح ماضيها الجميل أثراً بعد عين.. ضياع الأسرة، ضياع المجتمع، ضياع الأمة بكاملها.

«المخدرات» ضياع كامل، وانهيار كامل، لكل مقومات الحياة الكريمة النظيفة من كل جوانبها.. في الشوارع والأزقة، وعلى الأرصفة، في المقاهى والأسواق والحدائق فى المستشفيات والمصحات والسجون، أشلاء كفاءات طوّح بها إدمان المخدرات. «المخدرات» تحطم الانسان بكامله الذى هو الثروة الحقيقية لكل المجتمعات، العمود الفقري في تأسيس الحضارات، باختصار، المخدرات المفاعل النووي المعد لتدمير كلّ البشرية، قال علماء الدين، وقال علماء الطب، وقال خبراء المخدرات، وقال الإعلام، ولا يزال صباح - مساء «المخدرات .. دمار .. دمار .. دمار..»

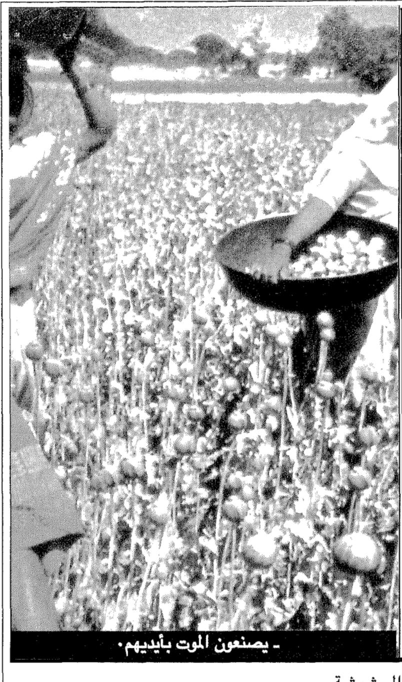
وها نحن نعيد القول، ألف مرة ومرة .. «المخدرات .. دمار .. دمار .. دمار ..» ترى هل نسمع ونبتعد .. أم نعد الأمر هذرا.

«المنهل»

بقلم:
احمد اسماعيل عبد الكريم

الحشيش بدأ يغزو الدول العربية والمنطقة الاسلامية سنة ١٠٩٠ من الميلاد. فى أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجرى، اما الدول الافريقية فقد عرفت القنب فى القرن الثالث عشر الميلادى واكتشفوا الأثر المخدر لأبخرته وقد شهدت أفريقيا اختراع النارجيلة التى يدخنون عليها بعد حرق النبات واستنشاق بخاره(١).

ويرجع البعض انتشار الحشيش الى الشيخ حيدر وذلك عن طريق المصادفة التى قادته الى أن يأكل منها دون معرفة بكنهها فحلّت فى نفسه الراحة والسكينة فظن أنها جائزة امتن الله بها عليه وجماعتهم واختصهم الله بها دوناً عن الخلائق ليروحوا عن أنفسهم ويتخلصوا من الكبت والكآبة وقد ورد ذلك فى كتاب علم الدين للشيخ على مبارك باشا نقلا عن المقريزى أن العالم الاسلامى عرف الحشيشة على يد شيخ من المتصوفه يدعى حيدر عام ٦٥٨هـ(٢)، وكان هذا الشيخ يتعبد فى زاوية بصحراء خراسان، وفى يوم قائظ أحس بكآبة، فخرج يروِّح عن نفسه فى الخلاء فشاهد نبتة خضراء تتمايل أوراقها، فأعجبه منظرها، فأكل أوراقها، فحلّت فى نفسه السكينة وحصلت لديه نشوة، وذهب عنه الهم، فلما قال ذلك لأصحابه وأتباعه ذهبوا معه إلى مكان هذه النبتة، فلما



ـ يصنعون الموت بأيديهم.

المخدرات .. المفاعل النووي المعد لتدمير كلّ البشرية

الوراثة تلعب دورا محدودا فى الادمان

شاهدوها قال بعضهم ومن بينهم الشيخ محمد الشيرازى الحيدرى من بلدة «تستر» إن هذا النبات يسمى القنب، فلما أكل اصحابه منها، انتابهم السرور وطلب منهم الشيخ ان يحتفظوا بهذا السر لأنفسهم، لأن الله سبحانه وتعالى قد اختص هذه الطائفة الحيدرية به ليذهب أكله بهمومهم الكثيفة ويجلو فعله افكارهم الشريفة، وقبيل وفاته طلب من اتباعه إذاعة سر الشجرة فوصل خبرها إلى مصر، فأقبل عليها الفقراء ثم انتشر تعاطيها بين جميع الطبقات، ولكن شيخاً يدعى القلندرئ نفى ان الشيخ حيدر قد أكل الحشيشة ولكنه ينسبها إلى شيخ هندى يدعى بيررطن هو الذى أظهر لأهل الهند أكلها، ثم انتقلت الى البلاد المجاورة ومنها مصر وقد سمى القنب الهندى نسبة إلى الشيخ الهندى الذى اكتشفه، وقد علق المقريزى على ذلك بأن نبات القنب «الحشيش» قديم ومعروف من قبل الشيخ حيدر ودلل على ذلك بما نقله من كتب الأطباء عن بقراط وجالينوس وغيرهم عن هذا العقار، ويذكر البعض ان انتشار الحشيش يرجع الى الطائفة المعروفة فى التاريخ باسم الحشاشين، وأطلق عليهم الفدائيين أو الفداوية كما أطلق عليهم ابن خلدون، وقد كان قادتهم الروحيون يعطون الحشيش لأتباعهم حتى يقوموا بقتل واغتيال خصومهم وهم فى غير وعيهم[٣]. وقد جاء فى كتاب «الخطط» للمؤرخ العربى المقريزى: «وجاء إلى القاهرة أشخاص من ملاحدة العجم صنعوا الحشيشة وخلطوها بالعسل وبعدة أجزاء مجففة كعرق اللقاح وسموها العقدة وباعوها خفية، فشاع أكلها بين كثير من العوام، ثم زاد التجاهر بها، فظهر أمرها، واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام عن الكلام بها حتى كادت تكون من تحف المترفين[٤]. ويروى الطبيب ابن البيطار فى كتابه «المفردات»: من القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندى وهو يزرع فى مصر ويقال له «الحشيشة» وهو يسكر جدا إذا تناول الانسان منه قدر درهم أو درهمين أخرجه إلى حد الرعونة وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم وأدى بهم الحال إلى الجنون وربما قتلهم، ثم يستطرد ابن البيطار فى كتابه «ولم تكن الحشيشة معروفة فى الشام الى أن قدمها سلطان بغداد فاراً من تيمورلنك، فتظاهر أصحابه بأكلها، فتعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها، وهكذا نجد أن أول من نشر المخدرات وتظاهر بها بين المسلمين يرجع الى أهل السوء والطوائف الدينية مختلفة المذاهب والأهداف، وعلى رأسهم السلاطين الفسقة الملحدون والمنحلون واصدقاؤهم من ملاحدة العجم.

ولما كانت هذه المخدرات تفقد الوعى والارادة، فقد رأى أصحاب النفوذ والسلطة أن يستفيدوا بهذا الجانب منها بتجنيد بعض السذج للقيام بقتل خصومهم، ففى سنة ١٠٢٤ من الميلاد ظهرت طائفة الاسماعيلية التى كونها «حسن الصباح» وهو فارس ملحد وكانوا يسمون طائفة الحشاشين لأنهم كانوا

يؤمنون بأن قتل خصومهم واجب ديني وكانوا يعطون أتباعهم الحشيش في حفل ديني أشبه بطقوس المجوس، ثم يطلقونهم في حالة من فقدان الوعي والإرادة، لكي ينفذوا الأوامر التي يكلفون بها من قبل زعمائهم لاغتيال خصومهم، وقد قتلوا الكثير من أئمة المسلمين، وحاولوا قتل صلاح الدين اكثر من مرة، وقد تغنى كثير من الشعراء الملحدين بالحشيش اعتقاداً منهم بأن الاسلام لا يحرمه ولم ينزل نص قاطع بتحريمه، فنجد مثلا محمد بن دانيال الموصلي يتمرد على الدين فيقول في الحشيش:

قل للذي ترك الحشيشة جاهلا
وله بكاسات المدام ولوع
ان المدامة لو أردت تطوعاً
لهي المحرّم والحشيش ربيع[٥]

ويقول فيه محمد بن علي بن الاعمى الدمشقي وقد غلبه شيطان الشعر، وأخذ يتغنى فيها ممجداً في حقها مقارناً بينها وبين الخمر:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة مثل الزبرجد

هي البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يوماً برجل ولا يد
ولا عبس القسيس يوماً بكأسها
ولا قربوا من دنها كل مقعد

ويتمرد هذا الاعمى الدمشقي بجهالة ما يقول دون علم أو سابق معرفة بما قاله فيها أي أحد من الائمة الأربعة فيكمل الأبيات كما يسوقه شيطانه

ولا نص في تحريمها عند مالك
ولا حد عند الشافعي واحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها
فخذها بحد المشرفي المهند

تلكم النصوص والآراء والأفكار الهابطة التي يختلقها السفهاء الجهلة ويروجون لها دون وعي أو معرفة وفهم لأصول الدين، وهم يتسترون في الاسلام، تلك الآراء والنظرات السطحية التي سار في ركبها بعض الشعراء ، وقد نبه الى خطورة ذلك العلماء المخلصون وفطن له العقلاء ونوه اليه الحكماء والشعراء، يقول احدهم:

قل لمن أكل الحشيشة جهلا
يا جهولا قد عشت شر معيشة
نعمة العقل جوهرة فلماذا
يا خسيساً قد بعتها بحشيشة[٦]

الأسباب التي تؤدي الى انتشار المخدرات:

لا شك أن ترويج المخدرات وادمانها بهذا الكم الرهيب باصرار وعناد وتحدي المروجين في هذا الجو الملبد باللاحرية وتعقب المهربين وايداعهم في السجون وتوقيع اشد الجزاءات عليهم أو اعدامهم، لهو أمر يثير الشك والرعب من خطورة وجسامة وفداحة هذه القضية إذ الاسئلة التي تباغتنا كثيرة وملحة، من هذه الاسئلة. ما هي العوامل التي تؤدي الى زيادة مساحة ترويج المخدرات مع زيادة الإقبال على ادمانها وما هي الدوافع التي تدفع بعاقل أن يضيّع جُلّ ماله على نشوة هيروين أو سيجارة حشيش أو أن يخرق إهابه بإبر الماكسفورت؟!! فعلا إن هذا الأمر غاية في الغرابة والعجب، ولا اختلاف على أن هناك أسباباً كثيرة يمكن أن نقسمها الى ثلاثة أقسام:

أ ـ أسبابا سياسية عدائية وهي التي تتمثل في الاستعمار.

ب ـ اسباباً اجتماعية وتتمثل الى المجتمع المحيط والظروف البيئية والحياتية التي تواجه

خمسون فى المائة من أبناء المدمنين مدمنون أو لديهم قابليــــة للادمــــان

الفرد فى حياته والملمات التى يستعصى علاجها.

جـ- اسباباً نفسية وهى خاصة بالشخص نفسه وقوة شخصيته وعلى رأس هذه الأسباب الجهل بالحقائق، وعدم المعرفة الكاملة بماهية الشىء وما يسببه، ولذلك قيل معرفة الشيء خير من الجهل به فمن أهم دوافع الناس على تعاطى المخدرات اعتقادهم - بجهالة - أن المخدرات تقوى الجنس ولكنها قد تفعل ذلك فى بادىء الأمر والتعليل العلمى لذلك يرجع إلى أنها تخدر العقل الواعى فتزيل الخوف ولكن مع تكرار استعمالها تؤثر على الجهاز العصبى، فتسبب الفتور والضعف الجنسى.

الأسباب النفسية:

وهذه الأسباب ترجع الى الشخص نفسه ومدى تقبله لآراء الآخرين ودرجة تفهمه لها وقوة شخصيته ودرجة استقطابه وانقياده خلف أهوائهم وتقبل تصرفاتهم وفوق هذا كله مدى قناعته بحرمة هذا الشيء ومدى اقتناعه بالاضرار التى تجلبها هذه المواد المخدرة. وللوراثة دور فى حدوث الادمان إذ أشارت بعض الدراسات العلمية أن الوراثة قد تلعب دوراً محدوداً فى حدوث الإدمان، فقد بلغت نسبة ادمان الخمور ما بين أشقّاء مدمن الخمر نسبة تتراوح بين ٢١ - ٣٠٪[٧]

وقد ثبت كذلك أن ٥٠٪ من ابناء المدمنين مدمنون[٨] أو لديهم قابلية للادمان وبالتالى فإن الآباء الذين يشربون الخمور لا يجنون على أنفسهم فحسب ولكن على ابنائهم وبناتهم من بعدهم وقد تبين أن المصابين بالإدمان لهم صفات معينة مثل التقيد بأفكار وآراء الآخرين - أى معدوموا الشخصية - وقد حط الاسلام من شأن هؤلاء فى حديث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} المشهور الذى ينهى المسلم أن يكون إمعه « إذا أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء» كما تبين أن المصابين بالادمان يعتمدون على غيرهم ويندفعون فى تحقيق رغباتهم دون تبصر مع عدم القدرة على تحمل المسئولية فى مواجهة مصاعب الحياة مع كثير من الإنحرافات، ولعل من الأسباب الشخصية التى تساعد على حدوث الإدمان الأمراض العصبية والنفسية، فنجد أن المريض بالاكتئاب يحاول التخلص منه بمعاقرة الخمور والمخدرات وتناول العقاقير المنشطة.

والمريض بمرض عضال مصحوب بآلام مبرحة فإنه يتناول العقاقير المهدئة والحبوب المسكنة للآلام؛ ليشعر بالراحة دونما يكلف نفسه سؤال الطبيب فيستمر فترة على هذا الحال، فيجد نفسه فى نادى الادمان وتؤكد شعبة المخدرات التابعة لهيئة الامم المتحدة فى كتابها الذى نشرته سنة ١٩٨٢م عن «الامم المتحدة ومراقبة العقاقير»

ان الأسباب التى تؤدى إلى استعمال المواد المخدرة كثيرة ومتباينة، ولعل اكثرها تأثيرا حب الاستطلاع لدى الشباب وتأثير الشبان

الآخرين عليهم وضغط الجماعة وسوء الصحبة والأفكار الخادعة بقدرة المخدرات على زيادة الإشباع الجنسي كما اسلفنا، واتاحة المتعة والسرور والانشراح الى قلب المدمن وتشعره بأنه يعيش فى عالم آخر بعيداً عن المشكلات الاجتماعية اليومية، كما أن الهجرة والتحضر السريع والبطالة ونمو الأحياء الشعبية الفقيرة العشوائية التى كان يعوزها النظام تمثل مجموعة عوامل متشابكة مؤدية الى اختلال النظام الاجتماعى وتفشي المشاكل الاجتماعية.

وقد يؤدي الإحساس بأن الفرد غير المرغوب فيه والاستلاب والفقر والتوترات التى تخلقها البيئة أيضاً الى إساءة استعمال المواد المخدرة كوسيلة للهروب من واقع الحياة نتيجة الفشل وعدم الشعور بالأمان والشعور بالضياع والحرمان والاغتراب والمذلة والمهانة والشعور بالدونية والعجز عن الكفاية والشعور بالسخط والغضب كل هذه الصفات والمشاعر التى يحس بها المرء تجعل منه شخصاً متمرداً عاصياً كما تجلب له التوتر والقلق والألم مما يدفعه إلى الفرار من هذه الامراض بمعالجتها بمعاقرة الخمور أو تعاطى المخدرات.

وتجدر الإشارة إلى أن حاجات الانسان النفسية وتوازنه النفسي والروحى لا يقل بأية حال عن حاجاته وطلباته المادية والعضوية وتتلخص الحاجات النفسية والإجتماعية فى الحاجة الى الشعور بالقيمة والكرامة الانسانية والحاجة إلى الحرية والحاجة الى الهوية واثبات الذات والحاجة الى أيديولوجيا متكاملة واضحة



ـ المخدرات دمار للروح والجسد.

الحدود والمعالم والقيم والانتماء.

ثانيا: الاسباب الاجتماعية:

فضلا عما تقدم فإن العامة فى المجتمع يزعمون أن تناول العقاقير المخدرة ليس بحرام لعدم ذكر اسمها صراحة فى القرآن الكريم او الكتب السماوية، فيزين لهم الشيطان، ويغلبهم هواهم فتسول لهم انفسهم تناولها وتلك أخطاء كبرى يقع فيها بعض الناس الذين لا يستقون العلم من منبعه ولا ينظرون البته فى امهات الفقه.

وقد اشارت بعض الدراسات العلمية والعملية أن معظم المدمنين ينحدرون من أسر

مضطربة منهارة بسبب الانفصال أو بسبب الطلاق أو حتى بسبب الوفاة، فالأب غائب عن أسرته معظم الوقت إما لكونه سلبيا فى سلوكياته فلا تكون هناك القدوة كما تبين وربما تكون الأم من النوع المسيطر، واما أن تكون من النوع المفرط فى التدليل، او الحماية الزائدة لطفلها أو تنبذه تماماً وفى كلٍّ شر مستطير حيث لا رقابة ولا مبادىء.

وقد يتحول بعض المحافظين على المبادىء والمثل إلى مجرمين أو مدمنى مخدرات نتيجة للظروف الصعبة التى تصادفهم فى حياتهم يقول أحد ضحايا المخدرات ملقيا العبء على الحياة والظروف التى جعلت منه هذه الشخصية المدمنة وأدت به إلى السجن:

«لا تلوموني ولوموا الظروف التى قادتنى إلى عالم الاجرام واصبحت انتظر السجن لأقضى فيه طفولتي» فهو برغم صغر سنه أصبح متهماً بعد أن كان يحلم أن يعيش مع والديه حياة سعيدة، لكن الظروف كانت تقف له بالمرصاد، وكان الطريق إلى عالم المخدرات أمامه سهلا بعد أن توفى والده وتزوجت والدته برجل آخر كان قاسياً عليه فكم وسعه ضرباً ولم تتح له فرصة الدخول للمدرسة، فتعلم تدخين السجائر وشرب المخدرات وأصبح يوزعها لحساب أحد التجار ومرت الأيام والليالى وهو يوزع المخدرات فى أحد المقاهى حتى تم القبض عليه وها هو الآن يقضي بعضاً من سنوات شبابه خلف القضبان[٩].

كما أن عدم الاهتمام والعناية بذوى الحاجة الملحة يدفع أولئك الفقراء والمحتاجين إلى أقرب الطرق وأيسرها وأسرعها كسباً وهذه الحكاية سأكتبها دون ايجاز أو اقتضاب ولكنى سأكتبها كما قالتها تلك الفتاة التى اودعت مؤسسة الاحداث. كى تكون عبرة لمن يخشى وتكون درساً لنا نرجو ألا يتكرر إذ يعتبر نتيجة من تراكمات الروتين وعدم الاهتمام وعدم رعاية اليتامى والأرامل واليكم هذه القصة:

حكاية «سماح»[١٠] أصغر تاجرة مخدرات فى مصر، عمرها ١٥ سنة كانت تخطو خطواتها الأولى فى الحياة بثبات حتى اليوم المشئوم الذى فقدت والديها فى حادث.

ورغم انها أصغر اشقائها إلا أنها قررت أن تكون الأكبر فى التضحية بمستقبلها، تركت المدرسة وقررت العمل كخادمة فى البيوت من أجل الحصول على بضعة جنيهات تعينها على استكمال مشوار الحياة. ولكن ظروف الحياة الصعبة لم تتحملها البنت الصغيرة، ولم تقو على مواصلة مشوارها، وذات يوم عادت فيه منهكة من عملها وسوس لها الشيطان بالمضى فى طريق آخر طريق سهل يحقق هدفها المرجو دون عناء، وكان هذا الطريق آخر طريق سهل يحقق هدفها المرجو دون عناء، وكان هذا الطريق هو الاتجار فى المخدرات. ولم تجد ما يعوق تنفيذ الفكرة الشيطانية فاشترت فى البداية كميات قليلة من الأقراص المخدرة وباعتها للمدمنين من راغبى الموت ومرت الأيام حتي تكونت امام «سماح» ثروة لا بأس بها، وامتد نشاطها ليشمل العديد من أحياء القاهرة وتحولت فى تجارتها المحرمة إلى الاتجار بالأفيون وبدأت تجنى ثمار هذه التجارة المدمرة حتى جاءت النهاية.

فإننى أتساءل إلى من نوجه اللوم فى حالة مثل هذه التى لا أظن أنها الوحيدة أو الفريدة من نوعها.

المشاكل العائلية والاجتماعية طريق يؤدي إلى الادمان

ولعل من الأسباب التى وإن بدت بسيطة إلا أنها من أشد الأسباب خطراً فى تلك القضية تناول أحد الأبوين للعقاقير الطبية يومياً ولمدة طويلة مثل الفيتامينات أو المسكنات أو التدخين[١١] مما يكون له أثر كبير وواضح فى سلوك الطفل وتربيته .

المشاكل العائلية والإجتماعية كالحزن والإنفصال والقلق كل ذلك يؤدى إلى محاولة الهروب من هذه المشاكل الى الإدمان أو الاتجار فى المخدرات أو غيرها بغية الانفاق على الأسرة وتحقيق السعادة الأسرية.

وقد أجرى بحث فى الجمعية المركزية بمنع المسكرات ومكافحة المخدرات عام ١٩٨٤م على مائتين من المدمنين على تعاطى الأفيون ويهدف البحث إلى دراسة شخصية هؤلاء المدمنين قبل لجوئهم للإدمان وقد تم إعداد إستبيان يبين حالة المدمن قبل لجوئهم للإدمان وقد تم إعداد إستبيان يبين حالة المدمن قبل التعاطى وعلاقاته بوالده ووالدته واخوته وأصدقائه وزوجته وابنائه ورفاقه فى العمل والبيئة التى يعيش فيها وحالة نومه وانفعالاته المختلفة وشهيته للطعام والجنس وطاقاته العملية وانتاجه وتغيبه عن عمله واحترامه للمحيطين به ونظافته الشخصية ونظافة ملبسه ومسكنه وطاقات حفظه وحالته الدراسية وعلاقته مع زملائه فى الدرس واساتذته ودرجة انطوائه وانطلاقه وسرعة حساسيته وازدياد افراز العرق من بدنه ومشكلته الجنسية وغير ذلك من مقاييس تبين بعض سمات القلق أو الاكتئاب.

وقد تبين من ذلك الفحص أن ٨٥٪ من المدمنين الذين فحصوا الاستبيان السابق كانوا يعانون هماً دفعهم إلى تجربة التعاطى لفترة ما ثم الوقوع فريسة الإدمان ويدل ذلك على أن المشاكل الاجتماعية ومشاكل الأسرة غير المترابطة التى تضطرب فيها سمات شخصية الوالدين الأم الجافة المندفعة مع الأب المستسلم الوديع، أو الأب الجاف المندفع مع الأم الخائفة الهادئة أو الأسرة التى يعيش فيها أب جاف مندفع مع أم جافية قاسية عدوانية هذه النماذج الثلاثة ينشأ فتيانها تنشئة خاطئة قلقة غير مستقرة، وكل هذه بذور قلق واكتئاب يحاول أصحابها الهروب من هذا التوتر إلى المتع الكاذبة أو تناول الحبوب المهدئة أو المسكنة أو تناول العلاج لخفض التوتر من المخدرات أو محاولة الإنتحار بها وهنا يستسلم الهارب القلق المكتئب المريض إلى مهاوى الإدمان يوماً بعد يوم، وهو يفقد يومياً آلاف الخلايا المركزية العصبية التى تتآكل وتتليف وتموت ولا تعوض، فالقلق والإكتئاب الناتج من المجتمعات الضالة هو السبب الذى يؤدى إلى ٨٥٪ من أفراده إلى الادمان.

- الكبت الجنسي وعدم وجود العمل الكافى لاستغلال وقت الفراغ مما دفع الشباب الى الخروج إلى الملاهى وصالات الفيديو ودور السينما لمشاهدة الأفلام الفاحشة الخارجة عن القيم والأخلاق[١٢].

ضعف الوازع الديني والتربوي سبب رئيسي لتعاطي المخدرات

ضعف الوازع الديني والتربوي

وعدم وجود الرعاية الكافية في المدارس والمنشآت التعليمية عموماً والمنازل وهذا يعتبر سبباً رئيسياً يؤدي الى الادمان ذلك ان اغفلنا الاسباب الاخرى - حيث ان ضعيف الوازع الديني يحس بأن فراغاً نفسياً يتملكه فلا يجد شيئاً يسد هذا الفراغ يلجأ إليه إلا محاولة ادمان المخدرات اعتقاداً منه أن فيها الخلاص من التوترات النفسية التي تنهشه من داخله وقد عبر القرآن عن ذلك في أجمل تصويره: {ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا} (طه/١٢٤). وقال تعالى أيضاً: {ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً} (الكهف/٢٨).

لأن الطبيعة البشرية تحتم على الانسان أن يتمسك بشيء يهتدى به ويسير على نهجه ويكون له نبراساً فمن آمن بالله واهتدى بهديه فإنه يأمن من الوقوع في براثن الشبهات أو المهانات أو يقع في مواطن الذلل لأنه متمسك بأشد ما يتمسك به الخلائق وهي أوثق العرى حيث عبر القرآن عن ذلك: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم(*) الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} (البقرة/٢٥٦ - ٢٥٧).

- أصدقاء السوء يشكلون السبب الأول[١٣] في دفع اصدقائهم إلى الادمان وذلك حين يكون الآخر ضعيف الشخصية، لعبة سحرية في يد صديقه يحركه كيفما شاء ومتى أراد وقد اخبر المولى عز وجل في كتابه الكريم ان القرين ينسب إلى قرينه يرتفع بارتفاعه وينحدر بانحداره وتهبط كرامته بدناءة من يجالسهم وتنحط مرتباتهم الاخلاقية بمرتبة من يصاحبهم {ومن يكن الشيطان له قريناً، فساء قريناً} (النساء/٣٨) وقال عز وجل أيضا: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين} (الزخرف/٣٦).

وقد قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل»، لأن مصاحبة المارقين عن الدين من أهل البدع والفجار الذين يرتكبون المنكرات ويجاهرون بها بلاء عظيم لأن في مصاحبتهم ومجالستهم عداء ظاهر للمولى عز وجل {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} (المجادلة/٢٢).

- ويرى بعض العلماء - سواء الاطباء أو الاجتماعيين - أن ثمة علاقة وثيقة بين انتشار المخدرات في مصر وبين عادة ختان البنات،

وأنهم يستبعدون القضاء على ظاهرة المخدرات فى ظل تواجد هذه العادة(١٤).

واذا كان من الضرورى اعتبار هذه العادة سبباً من الأسباب التى تؤدى الى الادمان سواء أكان مباشراً أو غير مباشر، فانه فى اعتقادنا لا تزيد على أن تكون سبباً عارضاً وليس مقوماً رئيسياً، واذا كانت هذه العادة تؤدى الى البرود الجنسى، والبرود الجنسى عند المرأة يدفع الرجال لادمان المخدرات فما السبب الذى يدفع بعض النساء الى الادمان إذاً. حيث الكثير منهن مدمنات.

ومن جهة ثانية فان معاقرة المخدرات ليست حلا لتلك المشكلة فى ظل التشريع الاسلامى الدقيق الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ووضع لها حلا منطقياً حيث اباح للزوج ان يتزوج من النساء وقيده بأربعة، وربما يتجرأ أحد ويقول أنّى لى بالأموال كى اتزوج؟ نقول له: ان انضمامك لفئة ادمان المخدرات والأموال التى تدفعها فى سبيل شراء المخدر كافياً جداً أن يحل هذه المشكلة.

- خروج المرأة إلى العمل بهذا الشكل الرهيب

وهذا الكم الكبير وتهاونها فى حق تربية الأولاد، وتركها لشئون المنزل لخادمة لا تهتم برعاية الأولاد الصغار ولا تفهم واجب الأمومة، ولا متطلبات الطفولة، فتتركهم بلا رعاية، فيلجأون إلى الشوارع، والحوارى، يتقاذفهم أصدقاء السوء، ولما كانت المرأة العاملة لا توفق بأى حال من الأحوال فى وظيفتها الاساسية التى كلفها الله بها وأناطها اياها ووأم طبيعتها عليها، والعمل الآخر الذى تضطلع به خارجاً عن نطاق ما كلفها الله به، فالمجتمع الذى تعمل فيه المرأة بهذا الكم وبهذه الكيفية نراه قد تأثر تأثراً كبيراً فأدى إلى اختلال القيم والمعايير وتهشم القيم والأخلاقيات، وتفكك الأواصر الأسرية منذ الطفولة وقد قامت فى الولايات المتحدة الأمريكية خبيرة اجتماعية هى الدكتورة «ايدالين» تحمل على اشتغال المرأة بالأعمال الحرة تاركة بيتها وأبناءها لتساعد زوجها لرفع مستواهم المعيشي فارتفع مستوى المعيشة، وانحط مستوى التربية والخلق وأضافت تقول: «ان التجارب اثبتت ضرورة لزوم الأم لبيتها واشرافها على تربية أولادها وأرجعت الدكتورة إيدالين الفارق بين المستوى الخلقى لهذا الجيل والأجيال السابقة إلى أن الأم هجرت بيتها وأهملت طفلها وتركته لمن لا يحسن تربيته»[١٥].

الهوامش:

(١) مجدى محمد الرفاعي - النصر العسكرية ع ٦٠٤ ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) المخدرات فى رأى الاسلام د/ حامد جامع، عقيد/ محمد فتحى عيد والخطط المقريزية. وكتاب علم الدين على مبارك.

(٣) مرجع سابق ص٧.

(٤) المقريزى - الخطط .

(٥) الضوء اللامع للسخاوى.

(٦) المخدرات فى رأى الاسلام ص٩ وكتاب الكبائر للذهبى ص٦٥.

(٧) مجدى محمد الرفاعى - النصر العدد ٦٠٦.

(٨) مرجع سابق.

(٩) جريدة المساء القاهرية الصادرة فى يوم ١٩٩٤/٣/٢٥م بتصرف.

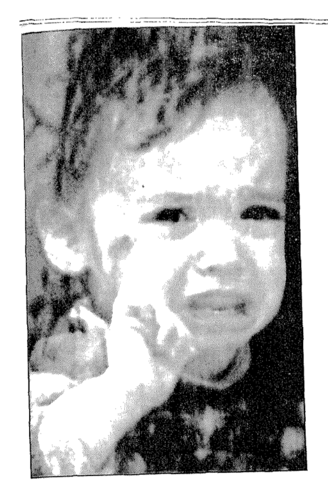
(١٠) أخبار الحوادث القاهرية ، عدد صادر فى يوم ١٩٩٤/٣/١٧م بتصرف يسير.

(١١) النفس المطمئنة - مجلة الطب النفسى العدد ٢١.

(١٢) د/ احمد شوقى الفنجرى - المخدرات فى الطب والدين الوعى الاسلامى العدد ١٢٢

(١٣) سعد المغربى ظاهرة تعاطى المخدرات.

(١٤) مجلة هو وهى العدد ١٥٩ ختان الاناث/ ليلى أمين ص٤٦



لحظتان

شعر : د. عبده بدوى

كلية الآداب ـ جامعة الكويت

وطفل كوجه الصباح الوديع
وأول نوارة فى الربيع
تمطى ، وغرَّد فى فرحة
ومد جناحيه فوق الربوع
ولما رأى لغة فظَّة
وأبصر في الأرض روح القطيع
وكفاً تشير بلا غاية
فتمضي وراء الهوان الجموع
وفى جانب قد رأى محبسا
تموت على جانبيه الشموع

تهاوى، وقرَّب في الحاجبين
وحدثه قلبه بالرجوع
وعاش كما أطرقت مُقلة
تضُمُّ على الخوف بعض الدموع!

* * *

ومَرَّ الزمان بأوجاعه
يحاول تحت الركام الطلوع
ويملأ كأساً بماء الهوان
ويزرع ورْداً بماء الخضوع
ويطرح من صدره حُزنَه
فتذبُل ليلكة في الصقيع
ولما مشى الشيب في روحه
وأجهش قلب وراء الضلوع
وناداه «قبطان» بحر الزوال
ليرفع مرساة عُمْر وجيع
وقيل له «قد بلغت القطاف
وآن الحصاد لكُلِّ الزروع»
بكى، واستجار ، ومدّ اليدين
ليحيا دقائق بعد النزوع
وسار وفى نفسه لو يعيش
ولو لحظتين.. قُبَيْل القلوع!!

حوار

الحديث عن الكبار صعب مسلكه فكيف يكون الحوار معهم؟ كنت راسماً صورة مبهرجة للأديب سعد صائب وعندما حاورته زالت كلّ الزركشات والأبراج العاجية وبقيت صورة سعد صائب الإنسان والأديب والمكافح والمثقف أبهرني حديثه لثلاث ساعات متواصلة بالفصحى دون أيّ لكنة وأبهرتني ذاكرته وكلماته.

النثر الفنى.. مسمّى أفضلِّه عن قصيدة النثر

أجراه:
أحمد جاسم الحسين

* الأستاذ سعد صائب: أديب موسوعي الثقافة، متعدّد الاهتمامات، متنوّع الكتابات، نبدأ حوارنا عن ما يدعى (قصيدة النثر) ما رأيك فيها؟!

**** لست أدري كيف يطلقون على النثر قصيدة: النثر نثر، والقصيدة لا تطلق إلا على الشعر، فلماذا لا يقولون (النثر الفني) وهو أجدى وأقرب إلى النثر: فالقصيدة خاصة بالشعر ولا يمكن أن نجريها على النثر.**

* ها هنا أصل معك إلى سؤال عنّ لي كثيرا وهو ما سمعته من أحدهم حين قال: إنّ الأديب سعد صائب من أوائل الذين كتبوا ما يدعى (بقصيدة النثر) فى الوطن العربي وكان ينشر فى المجلات باسم مستعار.. ما صحة هذه المقولة؟ لماذا الاسم المستعار ألأنكم تخشون آراء الآخرين أم ثمة أمور أخرى؟!

**** هذا صحيح لقد بدأت بكتابة النثر الفني (وأؤكد على**

الأديب الشاعر / سعد صائب

الترجمة

إبداع من إبداع

معاناة الشاعر نفسه

إضاءة:

الأستاذ الأديب سعد صائب:

- من مواليد محافظة دير الشرور ١٩١٤م سوريا ،
- بدأ ينشر نتاجه الأدبي في الصحف والمجلات العربية عام ١٩٣٦.
- صدر له أول كتاب مترجم عن الفرنسية بعنوان (طريق الخلاص) سنة ١٩٤٢م.
- شغل وظائف عديدة واهتم بدراسة الريف العربي،
- من مؤسسي رابطة الأدباء في سوريه سنة ١٩٥٨ ثم جمعية الأدباء العرب حيث شغل أمانة السر حتى عام ١٩٦٣.
- من مؤسسي اتحاد الكتاب العرب في سورية.
- عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منذ عام ١٩٥٨ .
- عضو مؤتمر الشعر العالمي ببلجيكا .
- حصل على أكثر من درجة دكتوراه فخرية.
- عضو شرف في الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية،
- شارك منذ عام ١٩٤٧ في مؤتمرات ثقافية وأدبية عربية وأجنبية وزار أكثر بلدان العالم.
- له ثمانون كتاباً مطبوعاً وأربعون كتاباً مخطوطاً شعراً وقصة وترجمة.

هذه التسمية) في بداياتي، ولي مقطوعات أثبتها في كتابي (آن الأوان) وقد سبقت المقالات والبحوث التي دبجها يراعي بزمن طويل ولن أغالي إذا قلت إنني من الداعين إلى هذه الكتابة عندما تكون أصيلة ومبتكرة بأن واحد لا أن تكون تقليداً أعمى ورصف كلمات.. أنا مع الإبداع أياً كان شكله وضد التقليد الأعمى من الجميع!

أمّا عن اسمي وتاريخ كتابتي فقد كان من سوء حظي أن أسماني أبي (سعاد) ذكرى صديق له.. وبقي هذا الاسم لصيقاً بي، لم أستطع محوه وحين بدأت الكتابة لم أجد هذا الاسم لائقاً بما سأمهر به كتاباتي وكنت أوقع باسم (فتى الفرات) حتى أواخر الأربعينيات وقد نشرت أنئذ بمجلات كثيرة منها (الأحد والدنيا بدمشق) و(الجمهور والمكشوف ببيروت) وهذا ابتداء من ١٩٣٧م.

وصدف أن كان أخي الأكبر محامياً فأقمت دعوة بتغيير الاسم بسعد بدلا من سعاد.. ورحت أمهر كتاباتي منذ أوائل الخمسينيات باسم (سعد).

وها هنا اسمح لي بهذا التعليق حول مسألة (النثر الفني) إذ ظن كثير من أدبائنا الشباب أن هذا اللون سهل يمكنهم الكتابة فيه وما دروا أنه من أصعب فنون الأدب لأنه يتطلب ثقافة واسعة وموهبة يستطيع بهما الكاتب أن يعطي نتاجاً جديداً له طابعه ونكهته وجماله.. وأركز على الثقافة لأنني ومن خلال تجربتي الخاصة وصلت إلى نتيجة تتلخص في كون الموهبة لها دور في الكتابة لا يتجاوز ١٠٪ في حين أن ٩٠٪ قراءة وعمل ومثابرة وسعة أفق وموسوعية ثقافة وتواضع.

* سنترك (قصيدة النثر) جانباً وننتقل الى موضوع آخر هو مسألة ترجمة الشعر فقد قمتم بترجمة عشرات الكتب ومن مختلف أصقاع الأرض.. ثمة رأي للجاحظ لا يحبذ فيه ترجمة الشعر وتابعه أكثر النقاد والدارسين حديثاً حتى إن بعضهم عدّ ترجمة الشعر خيانة؟ فما الذي تقولونه وأنتم أصحاب تجربة طويلة؟!

** أنا لا أجاري الجاحظ بصعوبة ترجمة الشعر لأن ترجمته واجبة شأن أي لون من ألوان الأدب وإلا كيف يمكننا أن نطلع على نتاج الأمم في الشعر.. نعم أنا لا أنكر صعوبته على من لا يقوى على الانسجام مع الشاعر والتعاطف معه والإيناس بأثره والتجاوب معه ولذلك لا يمكن ترجمة الشعر إلا من خلال هذا النوع من الانسجام مع الشاعر نفسه.. ولا يمكن ترجمته إلا إن أحس إحساساً صادقا بأن ما يقرؤه يتمثله تمثلا صحيحا.. وأما طريقتي في ترجمة الشعر فهي تكمن بالتعاطف مع الشاعر والانسجام معه، ولم يسبق لي أن قمت بترجمة قصيدة لم تدخل في نفسي وتمتزج بعواطفي؛ وكلّ ما ترجمته كأنه صادر عني ولذلك أحس بتجاوب داخلي بيني وبينها أحاول بعد ذلك أن يكون المتلقي متجاوباً كذلك معي.. وهذا التجاوب هو نتيجة حتمية لما أقرؤه من شعر وينعكس جزالة أحاول إضفاءها عليه.. نعم قد يقال إن ترجمة الشعر خيانة؟ ولكن من الخائن؟ هل المترجم هو الخائن؟! نعم إن الخائن هو الذي يُقبِل على الترجمة وهو خال من كل ما يحيطه بالترجمة من فهم ومحبة للنص وإظهاره على نحو فني لغوي يعجب القارىء ويطربه! وأنا لم أترجم قصيدة قط إلا وكنت متجاوبا مع كاتبها في عواطفه ومشاعره وفكره!.

* الملاحظ لترجماتكم يجد أنها غالباً ما تكون مستقاة من الدول الاسكندنافية وأمريكا اللاتينية وشرق آسيا.. لماذا تحاولون التركيز في الترجمة على شعر أمم لم تأخذ حقها قياساً للإنكليزية والفرنسية؟!

** لعل اطلاعي على ما ترجم من آثار الأمم أو الدول الكبرى كفرنسا وإنكلترا وأمريكا وروسيا وسواها حتى امتلأت المكتبات قد أعطاني دافعاً للتنبيه إلى شعر الأمم الأخرى (الصغيره) لأنه نالها من الحيف الكثير فالأمم الصغيرة غنية بالشعر وشعرها قوي ومتين ورائع؛ ورأيت أنه من واجبي نقل بعضه إلى لغتنا وهذا ما حفزني إلى قراءة نتاج أغلب شعراء هذه الأمم (فنلندا، السويد، بلجيكا، هولندا ، دول إفريقيا، شرقي آسيا، أمريكا الجنوبية) ولقد

الامتزاج النفسي والعاطفي مع القصيدة الأصل يولّد الإبداع

بهرت من وقوعي على ألوان رائعة من الشعر لا تقل إبداعاً وسمواً وعاطفة عن شعر الأمم الكبرى.. ولذا فقد أقبلت على ترجمة هذا الشعر وصدرت لي عدة كتب تتناول شعراء هذه الدول الصغيرة أذكر منها (في رياض الشعر العالمي/ من روائع الشعر العالمي) ولدي أكثر من عشرين ديواناً مخطوطاً ونشأت علاقات اجتماعية بيني وبينهم ولايزالون يرسلون لي الرسائل معربين عن إعجابهم باللغة العربية وعن فخرهم بترجمة أشعارهم إلى لغة يتكلمها أكثر من ربع مليون إنسان.

إنني بكل هذا أردت أن أعطي نماذج حية للشعر في هذه الدول الصغيرة ومنها دول العالم الثالث حيث استنتجت بعد هذه التجربة التي تتجاوز نصف قرن أن شعراء هذه الأمم لا يقلون قوة وإبداعاً ونكهة عن بقية الشعراء من مختلف دول العالم الأخرى!

* كثير من الكتّاب يبتعدون عن علاقاتهم الاجتماعية بحجّة إضاعة الوقت أم أن الجلوس مع الآخرين لا يجدي أمام قراءة الكتب فما قولكم؟!

** كلما دنوت من الآخرين أو خالطتهم أحسست بسعادة عامرة تملأ كياني؛ ولشد ما أتساءل بيني وبين نفسي: ترى ما مبعث هذا الإحساس وما مصدره ومأتاه؟! هل مبعثه حاجتي الملحة إلى مخالطتهم إثباتاً لوجودي ونشدانا لسعادة أم مصدره خشيتي من أنني لن أقوى على العثور على السعادة والحياة الرائعة بعيداً عن حياتهم؛ أم بعد كل هذا يعود السبب إلى عادتي التي ألفتها وشببت عليها، وتجيبني نفسي إنها عادتك فحسب التي كونت ميلك ومتعتك بسعادتك محققة قول الذي قال (إن أجمل ما وُهِبْناه هو القدرة على ملامسة قلوب الآخرين!) إن اللقاء مع الآخرين والاجتماع بهم هو عيد حقيقي لي؟!

* طالما أنكم تقولون (إن اللقاء مع الآخرين والاجتماع بهم هو عيد حقيقي لي) فما مفهومكم للعيد؟!

** ما العيد - ياصديقي - إلا الاحتفاء بعظمة الدين وقدسيته توطيداً لدعائم قيمة المثلى فى قلوب المؤمنين به وإلا إعرابهم إعراباً صادقاً مخلصاً عن عظمة الله وعزّته وجلاله وتمجيده في حياتهم كيما ينالوا قسطهم الأوفى من البرّ ويخبوا الثواب

الأسمى في الدنيا والآخرة ويحظوا بنصيبهم الأوفر من العفو والمغفرة.

في العيد تتجلى أفراح الناس في أبهى صورها وتنتفي أتراحهم بكل ما تحمل من الآلام، في العيد ترتسم علامات البهجة على وجوههم وتبدو دلائل الغبطة في أساريرهم وتسود المحبة حنايا صدورهم؛ فلا يعود ثمة حقد مقيم وعداء مستحكم يضمرونه في نفوسهم ولا بغضاء طارئة أو شحناء مستحوذة يطوون عليها جوانحهم - العيد - في خاتمة المطاف، شطر متميز من شعائر العبادة الصادقة المخلصة الذي يبدو فيه المؤمن أشدّ ما يكون إشراقاً وتوهجاً وسمواً وأكثر ما يكون أريحيّة وسماحة وبذلا وعطاء لإخوته المعوزين الذين آدهم الفقر وأضرّت بهم الحاجة والفاقة.. في العيد تقيم الأمم والشعوب عبادتها مستجيبة لربها مؤمنة به فترى أفرادها جميعاً ينصرفون عن أعمالهم فلا يزاولونها وينقطعون للعبادة ويقدمون الأضاحي ويقيمون الولائم ويتبادلون التهاني، مؤثرين الفرح البريء، ميالين إلى البهجة المستملحة ولقد قيل: إن العيد ما سمي عيداً إلا لأنه يعود كل عام بفرح جديد وغبطة متجددة يدعمها إيمان الإنسان بدينه وإنسانيته الذين يكفلان له الهناءة التى ينشدها ويوفران له الطمأنينة التي يصبو إليها في حياته!

* ألفتم كتاباً بعنوان (قاموس الحب) هل ترون أن ثمة قاموساً يستطيع احتواء الحب؟ ألا توافقني أن الحب غزال نافر يرفض القيود والحدود؟!.

** في مقدّمتي لكتابي (قاموس الحب) طرحت على نفسي سؤالا هو (ما هو الحب؟!) هل هو ميل النفس ونزوعها نحو الجمال والخير والحق فتأمل النفس فيه ماهيتها أم هو العلاقة والانسجام والتآلف بين جميع الكائنات أم هو إحساس يقودنا نحو ما يبدو لنا أنّه محبّ لنفوسنا؟!

لسنا بمغالين إذا قلنا أنّ القلب يجمع شتى هذه الأقانيم ويفصح عنها ويدلّ عليها لأنها في حقيقتها لغته التي يتحدّث الناس بها إلى بعضهم بعض إنه عاطفة تغاير الانفعالات والتأثيرات العادية فيما ستحدثه للمتأثر بها من ظواهر نفسية إضافة إلى ظواهر فيزيقية ولا سيما أن الانفعال النفسي قد يكون شعوراً سالباً أو جامحاً أو هوى أم هو طاقة روحيّة غنية تهز المشاعر وتثير الانفعال أم هو تجربة روحية كذلك تنفتح على تجربة روحية ثانية تماثلها فتتحدان وتتآلفان وتمسيان كياناً واحداً يغدو عناق الروحين فيه بمثابة دفء يعكس واقعهما فيفرحهما ببهجته وروائه؟ أم هو ما يأخذ بمجامع قلب المحبّ العاطفي للحساسية المرهفة ويستولي على نفسه التي لا يملك السيطرة عليها أو يملكها بصعوبة مضفياً على حياته قيمة جمالية وإشراقة وجدانية خاصة تجعلانها تتوهج سعادة وغبطة، وثمة ألوان من الحبّ جمة تجري داخل الكائن؛ معتلجة بين جوانحه، كامنة في لا شعوره دون وعي منه تتجلىّ أروع جلا في (الحبّ الإلهي) وهو حبّ نابع

الحب قيثارة الحياة ونغمها الجميل

مي زيادة لم تحب أحداً لشخصه

من فيض القلب يبلغ فيه المحب الغاية في السمو؛ وحبّ الوطن الذي يلهب أحاسيسه ويوقظ مشاعره ويقوده وجدانه اعترافاً بما للوطن من حقوق وواجبات هادفاً الى الذود عن حمى وطنه، رامياً إلى تغيير أوضاعه متصديا للمآسي الاجتماعية التي تلمّ به مؤمناً إيماناً راسخاً بأنّ عليه تقع تبعة إنسانيته واستكمال مقوماته وإيقاظ وعيه كيما يستطيع بلوغ مرحلة السعادة الخالصة وثمة حبّ أفلاطوني وهو الحبّ العذري المثالي الذي أقام عليه أفلاطون مذهبه، وهذا المذهب يقوم أولا على أساس الدافع الذي يدفع إلى الفلسفة وهذا الدافع هو ما يسميه افلاطون (الأيروس)!



مي زياده

عباس العقاد

* طالما وصلنا إلى الحبّ فبالتأكيد سمعتم عن إسراف الباحثين في ذكر الحب الذي تقاسمته الكاتبة مي زيادة مع بعض الأدباء، وقد أفاض بعضهم بذلك فما رأيك أنت في هذا الحبّ الذي يؤكدونه؟!

** من معرفتي لمي زيادة أنها لم تحب أحداً لشخصه وإنما أحبت فكراً وأدباً، وإذا قيل إنها أحبت محمود عباس العقاد فهذا لا يعدو حبها لأدبه وفكره لا لشخصه وهو لم يحبها لذاتها بل أحبّ أدبها وفنها ودليلنا أنه تغاضى عن مأساتها حين اتهمت بالجنون وأعرض عنها مما حداها إلى لومه والعتب عليه.

ولم تحب جبران إذ لم تره، الأمور الشخصية لا تتجاوز الإعجاب وأعلنها بصراحة: إنّ من يؤكد حبّ مي زيادة لبعض الأدباء إنما يكشف عن جهل بطبيعتها الأدبية التي فطرت عليها وما إعجاب الكثير من الأدباء بها إلا لقيامها بدور نسائي ثقافي فعّال أبدت فيه نبوغها وحماستها للنهوض بالمرأة العربية.

فنون إسلامية:

تأملات حضارية معاصرة لجماليات الفن الاسلامي

بقلم:
د. راتب الغوثاني
باحث، ناقد جمالي - سورية -

حين نتحدث عن إرث عربي وإسلامي في المجال الابداعي والفني وفى مجال التشكيل فإن الأمر يتطلب من أن نعود - كما يقول د. فضل زيادة - أربعة عشر قرنا إلى الوراء مع ما شهده هذا التاريخ الطويل في التطورات العميقة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر.

ويؤكد الدكتور زيادة: أن هذه العملية التي تتطلب جهداً مستقلا لم تنجر بعد. فحتى الآن لم نعثر إلا على دراسات جزئية حول جانب من الجوانب. أو دراسات عامة وأحيانا مشوهة. وليس هناك ما يؤكد أن مثل هذا العمل - معرفة كافة جوانب الفن الاسلامي بعد تطوره التاريخي - عمل يمكن انجازه في المدى المنظور.

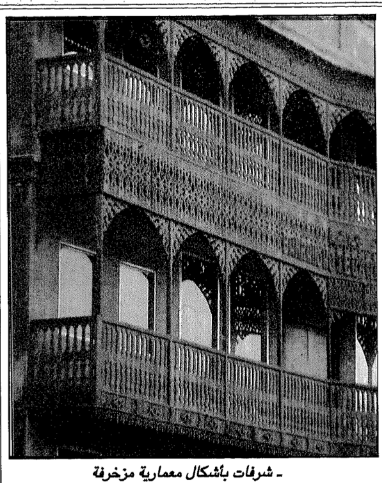
والاحاطة به من جميع جوانبه شيء من قبيل الاستحالة. إذ أن ما نسميه (فنا إسلاميا) خضع بدوره ومنذ نشأته الى عوامل ومؤثرات متنوعة.

إن تعبير (فن اسلامي) هو تعبير غير محدد بشكل واضح كما يقول (بكسيم برودنستون) في كتابه (العرب) لأنه يشمل أشكالا مختلفة ويمتد عبر مراحل متطاولة. وأبسط تعريف نسوقه هنا على حد قول (د. زيادة) هو أن الفن الاسلامى يشمل أشكالا تعبيرية وتقنية متفق عليها وظهرت بارزة في العمارة والزخرفة والخط والتصوير.

لنأخذ على سبيل المثال الزخرفة العربية الاسلامية والتي عرفتها المساجد كآثار عمرانية عربية وإسلامية. وأصبحت هذه الزخرفة ميزة لها تعرف بها ولاتكون من دونها. فنحن نجد بشكل واضح أن هذه المساجد التي حُرِّمت فيها الصور والتماثيل

عرفت واسعاً الزخرفة التي لم تقتصر على التزيين كالآيات القرآنية المزخرفة والمحفورة والمخطوطة التي لا غنى عنها في محاريب الصلاة بل إننا نجد أن الزخرفة شملت المآذن القباب والأعمدة والجدران الداخلية والخارجية على حد سواء.

لذا فإننا نستطيع أن نقود الحديث بناء على ذلك إلى تناول مسألة انتشار الزخرفة في العمارة العامة (القصور والمنازل) منطلقين من مبدأ عدم تعميم مسألة/ دينية الزخرفة الاسلامية/ ومحاولة حصرها (من قبل البعض) في تزيين ما هو ديني فقط. والحديث قد يطول كذلك إذا ما أردنا التنويه إلى أن الزخرفة العربية قد امتدت لتطال المتداولات التطبيقية الحياتية الأخرى. كالأشغال الجلدية ، الخشبية، البلورية والمعدنية التي وسمت بسمات الفن العربي الاسلامي بشكل كامل دون أية اختلاطات دينية أو لا دينية.



ـ شرفات بأشكال معمارية مزخرفة

ـ نلجأ هنا إلى تلخيص د. زكي محمد حسن فى كتابه (الفنون الاسلامية) لخصائص الزخرفة الاسلامية لنتبين دورها في صنع الطابع المستقل للفن الاسلامي. هذه الخصائص هي:

أ ـ كراهية الفراغ:
حيث يظهر الفنان ميله إلى تغطية مساحات واسعة من الفراغ بالزخارف والعناصر الزخرفية المساعدة.

ب ـ التسطيح: وهو البعد عن التجسيم والميل إلى اعتماد البعد الواحد المساحي.

جـ ـ البعد عن الطبيعة: البعد عن تمثيل الطبيعة بشكل مباشر وجامد وحرفي.

د ـ التكرار: يمكن للوحدة الزخرفية أن تتكرر بشكل لا نهائي.

ـ أعتقد أن الملاحظ لهذه الخصائص قد اكتشف ودون عناء بحث، أن علاقة وطيدة

تربط بين مفهوم المطلق في الدين الاسلامي وبين هذه الخصائص التي رأيناها. وهي تعطي بدورها فكرة عن أن الفنان المسلم طوَّع وبتقنية عالية العمل الابداعي والزخرف لقواعد فلسفية وفكرية وحضارية خاصة به. ولم يتعامل مع الخلق الفني كشيء جامد يجب نقله بحرفية. ليس هذا فحسب، بل يمكن القول أن الزخرف العربي جاء نتيجة منطقية للتطور العلمي والرياضي الذي عرفه العرب. فالتصوير الاسلامي إنطلاقاً من هذا وفي وقت لاحق كما نعرف زمن العباسيين عبر عن ضرورات العصر (في التزيين والفن) واتخذ منحى مختلفا عما كان مألوفا. فقد ظهر كأعمال شرح وتفسير لبعض المؤلفات العلمية والطبية والفلكية وأحد هذه الأعمال المبكرة نجدها في كتاب الصوفي (صور الكواكب الثابتة) الذي يعود إلى عام ١٠٠٩م.

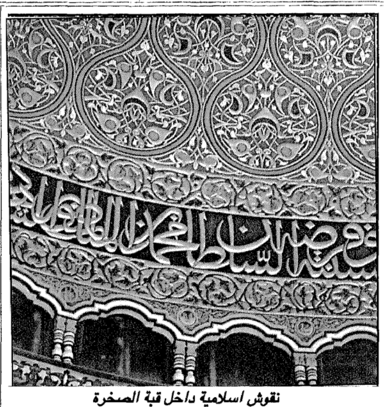
إذاً فالكتب العلمية هي التي ساعدت بدورها على ترسيخ التقاليد الفنية للتصوير الاسلامي كما وساعدت على وضع نهج إبداعي وتقاليد زخرفية راسخة. حتى أنه يمكن لنا أن نأخذ (الواسطي) كممثل لمدرسة بغداد، ذلك الاتجاه التزييني الذي عرف في عاصمة الدولة العباسية إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين متمثلا في تزويق الكتب العلمية والأدبية. والعمل الأكثر شهرة الذي يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي هو كتاب (مقامات الحريري) الذي يتضمن صوراً توضيحية فريدة قام بها الواسطي ممثل المدرسة البغدادية في التزويق كما أسلفنا.

الزخرف العربي جاء نتيجة منطقية للتطور العلمي والرياضي الذى عرفه العرب

○○○

الفنان المسلم أتاح لنا تشبيهاً بالزخرفة وثائقاً بحد ذاته ومشهداً في تشكيلات بديلة

وتعود أهمية هذه الرسومات التي وصفها الواسطي الى كونها تعكس ليس فقط مفهوماً زخرفيا وتزيينياً للكتب والمخطوطات، بل من حيث هي تعكس الحياة الاجتماعية بمظاهرها المختلفة في المجتمع الاسلامي بشكل عام. وهذا ما أكده عيسى سليمان بقوله: أن التصاوير التي رسمها (الواسطى) هى وثائق تاريخية مهمة تلقي الضوء على كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في الفترة الزمنية التي عاش فيها. فهي تقدم فكرة عن العمران وفكرة عن الأزياء والملابس وهي تعكس



نقوش اسلامية داخل قبة الصخرة

مشاهد العادات والتقاليد الاجتماعية (الرقص ، العزف ، العادات ، دفن الموتى ، الولادة ، الختان ، الزواج٠٠)، ليس هذا فحسب، بل يمكننا أن نتبين في رسوم الواسطي خصائص عامة اشتملت عليها وقصرت عنها اللوحة الغربية المعاصرة فهي مثلا:

١ ـ تجاوزت حدود الاطار: فلم تتقيد بما نعرفه من قواعد العمل الفني الواقعية والكلاسيكية فهي لم تتقيد باطار خارجي تقليدي، بل بقيت سابحة في الفراغ المستوي٠

٢ ـ لم تتقيد الرسوم بالأبعاد: (الأهمية في الحجم للشيء الهام) العصفور مثلا قد يحتل حجم شجرة كاملة٠ وهذا ما نجده فى خصائص مدارس الفن الأوروبي المعاصر كالرمزية والتعبيرية والسريالية وغيرها٠

٣ ـ التركيز على الموضوع مباشرة: دون خلفيات مرافقة وعناصر مساعدة كما كان مألوفا في عصر النهضة الأوروبي والتي اعتبرت نماذج للكلاسيك النهضوي (بورتريه على خلفية طبيعية)٠

٤ ـ لا يوجد ربط للعناصر في اللوحة: (كل المدارس الحديثة المعاصرة تنزع نحو هذا الهدف)٠

٥ ـ الألوان طبيعية وذاتية: (وهذا هدف آخر من أهداف الفن في القرن العشرين) إذاً ومن رأي البابا دمي بولو) نستفيد في تلخيص ما رمينا إليه آنفا٠

مفاد هذا الرأي: أن الفنان المسلم أقام فناً تشبيهياً بالغ الخصوصية وقائم بحد ذاته ومعتمداً على تقنيات جديدة تلك التي برأينا لا تبتعد عن تقنيات وأبعاد اللوحة المعاصرة٠ من هذه التقنيات٠

ـ إهمال المظاهر الحسية في العمل الفني (أعمال الزخرف والرقش العربي والخط)٠

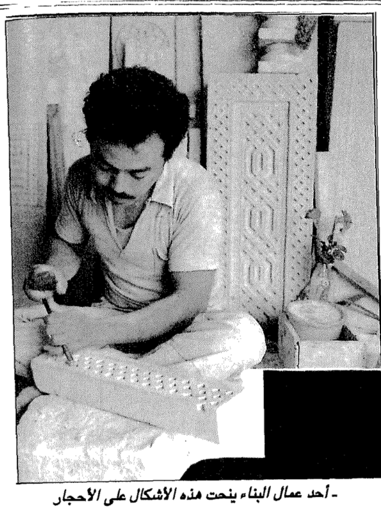
ـ تجنب خداع النظر٠ (كل شيء تشبيهي كما في الطبيعة ومباشر لكن حسب ذات الفنان المؤلف وحسب نظرته للأشياء٠

ـ عدم استعمال الظلال والأضواء٠ (كما هو حال لوحات التجريدي كاندينسكي وغيره)٠

ـ اثبات العناصر بطرق لونية٠ (هذا ما أخذته المدرسة الوحشية في الفن)٠

هذه الخصائص الآنفة للتصوير الاسلامي انطلقت بمجملها من مبدأ الاستمالة الذي فرضه التقليد الاسلامي على التصوير. أي أن تكون الأشياء تشبيهية لكن لا مثيل لها في الواقع. ففي اللوحة مثلا شجرة، كل ما فيها يدل على أنها شجرة، لكنها نفذت بطريقة تجعلنا لا نرى لها مثيلا فهي فريدة ولا مثيل لها في الواقع المحيط لا شكلا ولا لوناً.

انطلاقا من هذا نقول: أن الفن الاسلامي يحاكي الطبيعة رغم كونه تجريدياً إلا أنه يحاكيها بطريقة تختلف عن محاكاة الجوهر. بمعنى آخر أنه يحاكي التأليف وذلك بتجميع عناصر البناء كأي جسم في الطبيعة. ومن ذلك نستدل على:



- أحد عمال البناء ينحت هذه الأشكال على الأحجار

١ - أن الفنان يحاكي الطبيعة بوضعها العام واستناداً إلى فلسفات الحياة والرؤية العميقة لها واعتماداً على ملاحظات نابهة ودقيقة مبنية على تراكيب عالمية ورياضية.

٢ - يحاكي الفنان المسلم الطبيعة - جمالها الكامن - أي أن كل الأجسام والأشكال المرئية ببنائها الغلافي والظاهرى قد لاتشكل بالنسبة للفنان مصدراً لإستلهاماته الفنية ولذلك السبب لم يحاك الواقع بظواهره، بل كان يستلهم منه منهجية التأليف الايقاعي التي به تقوم محتويات الأجسام والأشكال ويبحث عن كيفية تكوينها من حيث نظام بنائها.

٣ - والفنان بناء على ما تقدم يعمل على تحويل كل شيء في عمله الفني إلى مناطق أو مساحات أو ألحان ذات أجزاء متشابهة ومتقاربة وموزعة بايقاع وضمن منهجية محددة.

لذا يمكن لنا أن نخلص للقول: أن الفنون الزخرفية الاسلامية تضعنا في مناخات نشعر من خلالها أن الروابط التي تجمع بين مختلف عناصر العمل الفني هي روابط حسن جوار وألْفَة. وهي ليست علاقة إحتدام وصراع فالعناصر الزخرفية في الرقش أو الخط العربي أو الزخرف الهندسي أو النباتي تضعنا في أجواء المستوى الذى تسبح فيه

هذه العناصر المعروضة أمامنا بوضوح كامل وكأن كل ما على هذا المستوى ذا أهمية كبيرة وكل ذلك في جو سام من الألفة.

* في ما سلف قمنا بتأكيد للفكرة القائلة أن المسلمين استعاضوا عن التصوير التشبيهي الذي لم (يهملوه) تماماً بالزخرفة التي مثلت جهداً تجريديا عاليا فهي تنطلق من وحدات هندسية أو حروفية. أو تتخذ الورقة (توريقاً) والزهرة (تزهيراً) لشغل مساحات واسعة عبر تكرار الوحدات مرات عديدة.

وبأشكال متوازية ومتناسقة. إن الزخرفة التي تطلبت جهداً دقيقاً قد أعطت نتائج مذهلة (زخرفياً). فقد ظهرت عوامل هذه الوحدة في مدينة سامراء من خلال الأشرطة المحفورة والمرسومة على مادة الجص وهي المعروفة لدى علماء الآثار باسم طراز (سامراء). وقد ظهرت هذه الأطرزة في مجال الزخارف الهندسية والنباتية حيث اتسمت الزخارف بالتحوير الشديد (التجريد) والبعد عن الواقع وتجريد العناصر الزخرفية من أصولها الأولي نحو التعقيد والتشابك وكان هذا مقدمة لظهور فن الآرابسك أو الرقش العربي بعد ذلك في القرني الخامس والسادس الهجريين.

من هنا شكل هذا الطراز الجديد وحدة فنية دولية انتشرت في كل بلاد العالم الاسلامي لتطبع الفن الاسلامي بطابع التوحيد الجديد. وفي الاسلام يبرز هذا التوحيد كجوهر لهذا الفكر الديني كله. وجماليات الفنون الاسلامية هذه مثلت إحدى أهم تأملات الحضارة المنتمية إليها (ولا عجب في ذلك) فالحقيقة والاعتقاد لفنون حضارة ما ينبعان في الغالب من المثاليات الفكرية لها. فمثلا بما أن كل حركة في الكون وبالنسبة للإسلام، هي في الحقيقة من إرادة الله. وإرادة الله متواصلة وأكيدة ومستمرة. فهذه الصفات تضفي على الحركة (في الفن الزخرفي الاسلامي) صفات الانسياب والتواصل والإمتداد والتكرار واللانهائية.

كذلك كان للغة العربية والخط العربي أثرهما الكبير القادم مع العربي منذ القرن الأول الهجري، بحيث أصبح الخط العربي مستخدماً على منتجات الفنون الاسلامية مشكلا بحد ذاته أولى لبنات الوحدة الفنية في الفن العربي الاسلامي ومن الناحية الزخرفية.

الفنان المسلم طوّع وبتقنية عالية العمل الابداعي والزخرف لقواعد فلسفية وفكرية وحضارية خاصة به

ولا شك أن بدايات ظهور الخط الكوفي (نسبة الى مدينة الكوفة) بحد ذاته وحدة فنية زخرفية خاصة وهو خط يتميز بزواياه القائمة وجفافه وقد حقق هذا الخط انتشاراً سريعاً منذ البداية على الحجر والرخام وطبق

بسهولة في العمارة فكان قاسماً مشتركاً وعامل وحدة بين جميع أعمال الفنان المسلم.

هذا كله.. إضافة إلى الطابع الزخرفي العام ومزاياه التي سادت كالتقدم التقني والدقة والاتقان. وكذلك في ظواهر التجريد والتحوير والعناية بالخط العربي كما أسلفنا. هذا إضافة إلى التطور الطبيعي في مجال إنتاج التحف الفنية (التطبيقية) التي كانت من جانبها مجالا واضحاً كجانب الروعة والجمال أي بتعبير آخر جانباً أخراً من جوانب الوحدة فى الفن الاسلامي. فهذه التحف رغم أنها اختلفت عبر العصور الاسلامية في مجال صنعها وتقنياتها لكنها حافظت على كونها عنصراً هاماً في وحدة الفن الاسلامي.

الفن الاسلامى يحاكي الطبيعة رغم كونه تجريدياً الا أنه يحاكيها بطريقة تختلف عن محاكاة الجوهر

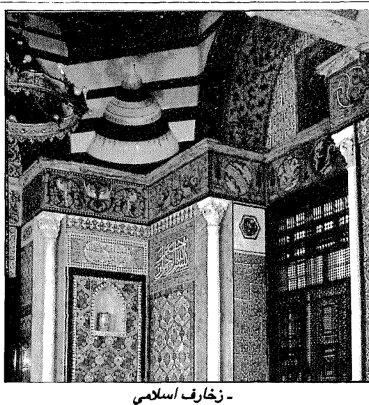
وبقيت المتداولات التطبيقية على اختلاف مشاربها تعكس طابع هذا الفن وتعكس كذلك أصالته واستمراريته.

علينا الآن أن نتطرق إلى بُعد من الأبعاد المعاصرة للفن الاسلامى. إنطلاقاً من التسمية الجديدة التي ضمها كتاب (جمالية الفن العربي) للدكتور: عفيف بهنسي. فهي تذهب/ التسمية/ إلى اعطاء هذا الفن صيغة القومية. ونحن لا نقصد بها مجرد ربط الفن بالدول العربية ـ الحديث للدكتور البهنسي ـ اليوم أو ربطه بالجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده، إنما ربطه بحضارة عريقة مازلنا نكتشف أبعادها فى أعماق التاريخ.

ـ يستدعي هذا الفهم أن نناقش قضية مثارة هى: هل الفن العربي والاسلامي فن زخرفي متخلف عن مفهوم الفن التشكيلي؟ هنا نتعرض للدكتور (استاشى دي لورا) الذي يرجع الفنون الحديثة التي لا تقوم على فكرة المحاكاة أو تقليد موضوعات الطبيعة إلى الفن الاسلامي وهو يوضح: أن فناني العالم المحدثين أمثال بيكاسو تبنوا تعاليم الفن العربي والاسلامي. ويرى (بريون) الذي يدلل على أن الرقش العربي هو فن مجرد وأنه أساس الفن التجريدى المعاصر ليخرج من ذلك إلى القول: بأن هذه التحولات لم تعد تسمح لأى ناقد أو كاتب متسرع أن ينظر للفن العربي الاسلامي من خلال مفاهيم الفن الغربي التقليدية، بل أصبح ينظر إليه من خلال مفاهيم الفن

الأولى فيجد فيها مظهراً إبداعياً سابقاً لكل الفنون.

لابد لنا من التنويه إلى أن الفن العربي يقوم على الحدس (وهذا ما نادت به مدارس الفن الأوروبي في القرن العشرين). إذ عن طريقه (الحدس) يمكن إدراك الجوهر الخالد. لذا اهتم الفنان العربي دائما بالجوهر واندفع وراء المطلق، لكي ينقل بمعرفته القدر الأكبر من الدلالة الوجدانية. فالخصائص الروحية القديمة في الأمة العربية جعلت الفن يحمل طابعاً موحداً في جميع العهود والأمصار.



- زخارف اسلامي

فالرقش العربي مثلا، وهو رسم لا يحمل معنى بيانيا أو لفظياً، بل ينقل الشكل الهيولي والجوهر لأشياء كانت واقعية. وكان الرقش العربي الطريق التي تصاعدت فيها موهبة العربي.

وصار من أهم المظاهر الابداعية عند العرب لما يتضمن من معان وفلسفات جمالية متميزة.

ويلتقي الرقش العربي والفن التجريدي المعاصر في مجال الانطلاق للتعبير عن المطلق. وهكذا يسعى الرقش العربي والفن التجريدي على السواء إلى التعبير عن المجهول وغير المحدود وغير المرئي والغيبي.

وعليه لابد لنا من الاشارة الى الفروق بين الفن العربي وبين التجريدية الأوروبية.. فيما يتعلق بالذاتية، ذلك أن الفنان العربي إنما يبحث في عمله الزخرفي عن القيم الفنية التي تقوم على الاتصال المستمر بالمطلق. أما الفنان التجريدي الغربي فقد قام في أكثر الحالات على قيم شخصية ذاتية وعبثية في أحيان كثيرة، تلك التي صُدِّرت إلينا مع ما صُدِّر من رموز الفراغ والضياع الاجتماعي الأوروبي.

الهوامش :

(١) د. فضل زيادة - في خصائص الارث الفني العربي الاسلامي - مجلة الفكر العربي عدد ٦٧ أذار ١٩٩٢.

(٢) د. راتب الغوثاني - ظاهرة التحريم في الفن الاسلامي - صحيفة الاسبوع الادبي - اتحاد الكتاب العرب عدد ٣١٢ - ١٩٩٢/٥/١٤ دمشق.

(٣) غازي مكداشي - جماليات الفنون الاسلامية - مجلة الفكر العربي عدد ٦٧/ اذار ١٩٩٢.

(٤) د. راتب الغوثاني. الظاهرة الوحشية في الفن - محاضرة في المركز الثقافي العربي بمدينة حماه في ١٩٩٢/٦/٢٢.

الإنسان في حاله ومآله

زعموا أن اسم الإنسان مشتق من الأنْس؛ فإذا كان هذا صحيحاً فلا شيء يمنع من أن يكون العكس صحيحاً أيضاً، بمعنى أن الأنس مُستوحَى من كلمة إنسان، وذلك أن البشر في غالب أحوالهم ميالون بالضرورة إلى الإيناس والمؤانسة، مضطرون إلى الاجتماع والتعارف، مَدعُوّون الى التساكن والتعايش، كارهون للتوحّد والانعزال على قدر ما تُطيقه طباعهم.

هذا ومن عادات الانسان القديمة الانشغال باستئناس الحيوان الأعجم، فإذا لان له وانقاد ألفه واطمأن إليه واتخذه أنيساً ورفيقاً، وهو مع ذلك يستفيد منه ويسخره في شتى أغراضه المعاشية الضرورية والكمالية فيجمع بذلك بين المنفعة والتسلية.

إذا كان الأنس والإيناس من مطالب الإنسان فإن له مع ذلك نزوعاً فطرياً إلى الجفاء والغلظة والأثرة، وهي - كما ترى - صفات يشارك فيها الإنسان الضواري من الوحوش وجوارح الطير، إذ لولا دواعي الاجتماع ومقتضيات العمران لما اطمأن فرد من الناس إلى فرد آخر، وربما آثر الواحد منهم العيش بمعزل عن غيره لو استطاع إلى ذلك سبيلا.

العقل ميزة الإنسان وهو إذا طاوع صاحبه رفعه وأرشده الى أفضل كمالاته، ولكننا نرى كثيراً من الناس يخلدون بإرادتهم إلى الأرض، ويتبعون أهواءهم، فينحرفون عن القصد وعقولهم مع ذلك في مكانها حيث وضعها الخالق بحكمته.

يقول ابن خلدون: «ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع» (المقدمة ٢:٤٢٢).

إن الإنسان منذ كان تتجاذبه غرائزه الكامنة، وتدفعه حاجاته التى لا تنقضي إلى مداومة السعي واتخاذ الحيلة لتحصيل ما يريده، فإذا عجز عن ذلك بسبب عائق يعترض سبيله لجأ إلى العدوان، ومال إلى التطاول على الغير ما لم تسعفه الحكمة المحركة لنوازع الخير، المعينة على إدراك الصواب والعمل بهديه، ولأجل ذلك جاءت الشرائع وانتظمت المعارف، وتبيَّنت مناهج التفكير والعمل.

قد يظن كثير من الناس أن الغرائز منفصلة عن فعل العقل، وأنها مجرد آلة عمياء تتحرك من تلقاء نفسها فلا ينضبط لها سير ولا يستقيم اتجاه. والحقيقة أن العقل في كل الأحوال هو القائد والموجه، يحكم الحواس والغرائز وخلجات النفس، اذ أن الإنسان فى جوهره كل لا يتجزأ، فهو يهتدي بالعقل والرَّوِيّة، ويضل أيضا بالعقل والروية، بزيادة أو نقصان فى كلتا الحالتين. فالهداية ثمرة الحكمة، والحكمة ثمرة طول النظر وصحة التمييز وسلامة البصيرة. وأما الضلالة فهي حصيلة العمه والخَبْط وسوء الاختيار. والغرائز إنما هي بمثابة عقارب الساعة التى لا تدور إلا بقوة محرك داخلي يدفعها ويضبط دورانها، فإذا اختل المحرك اضطربت وتيرة الدوران ، وربما تعطلت العقارب فلا ينضبط بها وقت.

من خصائص الإنسان: الإدراك والفكر والروية والخيال والوهم والبديهة، وهي أفعال منبثقة من جوهر العقل الذي هو مبعث العلم والجهل، واليقين والشك، والكلام والصمت والتفاؤل والتشاؤم، والحب والكره، والرجاء واليأس، والصبر والجزع؛ وهذه كلها أعراض تترجّح بين الإيجاب والسلب، وإنما يصير السالب منها سالباً بغلبة الهوى،

بقلم: محمد العربي الخطابي
- الرباط -

كما يصير الموجب موجباً بمقتضى الحكمة؛ والعقل هو المحرك والرقيب في كلتا الحالتين، له الفصل والحكم فى أفعال البشر وتوجهاتهم، والعقل متى صفا جوهره أرشد وهدى الى الصواب، وإذا فسد كان عنصر اضطراب وضلالة.

إن الإنسان بوصفه كائنا عاقلا مجبول على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والعدل والجور، فهو إذن قادر على الاختيار بمشيئة الخالق الذي {أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى} (طه/٥٠) والحاجة كثيراً ما تحسم اختيارات الإنسان وتُوجه مصيره، فإذا سعى إلى حاجته برشد وتناولها برفق لقي السداد، وأعين بالتوفيق، فكان من السعادة على قاب قوسين أو أدنى.

ينفرد الإنسان من بين الكائنات الحية الأخرى بنزوعه الإرادي إلى توريث أملاكه وأدواته ومعارفه وتجاربه لمن يخلفه ويأتي بعده، وعلة ذلك حُبه للحياة، وحرصه على بقاء ذكره، فهذه النزعة راسخة في نفس الإنسان مرسومة في طينته، ولولاها لما قامت حضارات، ولا تراكمت معارف، ولا اتسع عمران، ولا طاب عيش.

ما من فرد إلا وينطبع في ذهنه تصور خاص به عن حقيقة الإنسانية فى تقلب أحوالها وتشعب مسالكها المؤدية جميعا إلى المصير المحتوم، وهذا التصور يختلف من جيل إلى جيل فالإنسان من هذا الوجه نكرة يمتنع تعريفها لانعدام الحد المشترك بين الأطراف. أما إذا انطلقنا من قاعدة التخصيص وقلنا: إن الانسان مدني بالطبع، إجتماعي بالضرورة، وأن العقل ميزته الكبرى حصل لدينا حد مشترك يشمل النوع البشري بأسره فيصير الإنسان بذلك معرفة.

زعم بعض قدماء الإغريق أن الإنسان معيار كل شيء فهل يعني هذا أنه فى ساحة الوجود بمثابة المركز من محيط الدائرة؟ والبداهة تشير إلى أن كل موجود يمكن أن يكون مقياساً لأي موجود آخر يقابله أو يضاده؛ فالزهرة المفتحة مقياس لعمل النحلة، وضياء الشمس مقياس لحركة القمر، وانسياب النهر مقياس لامتداد الوادي، ودوران الأرض مقياس لتعاقب الليل والنهار، والطاقة مقياس للحركة، والحركة مقياس لتسلسل الزمان، وهكذا دواليك؛ فالنسبية حقيقة ثابتة تشمل الموجودات كلها، والإطلاق إنما هو للخالق الذي لا يقاس وجوده بزمان ولا مكان.

المروءة:

صفة معنوية جامعة، وقوامها التحلي بالعفة والصدق والحياء وكرم النفس.

والرجولة:

خاصة بالرجال، وقوامها كمال الذات مع النجدة والشهامة والصبر على المكاره وخوض الغمرات.

والأنوثة:

خاصة بالإناث وعلاماتها الرقة والخفر وملاحة الحركات مع العفاف وحسن الإقبال والإدبار ولا شيء يمنع من أن تكون الشهامة والنجدة والصبر من صفات النساء.

والفحولة:

صفة مشتركة بين الرجال والبهائم، وعلامتها قوة الانجذاب نحو الإناث، ومتانة البنيان الجسدى مع توافر عناصر الإخصاب ومقومات النسل والإنجاب.

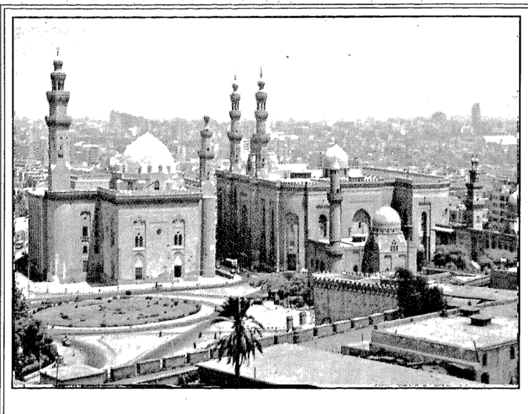
وأما الإنسانية فصفة تعم النوع البشري بكامله، وقوامها الإدراك، والمعرفة، والحرية، ونشدان الحق والخير والعدل والجمال، والتطلع إلى الكمال والسعادة، والاهتمام بتنظيم المعاش وتوزيع العمل مع التفكير في أوائل الأمور وعواقبها، فإذا تهاوت هذه الأركان بَطَلت الإنسانية وكان الناس بالبهائم أشبه.

والنساء شقائق الرجال، والفضائل الإنسانية موزعة بالتساوي بين أولئك وهؤلاء ، فمن حق الجميع نشدانها، وتدبير شؤون الحياة على هديها امتثالا لمشيئة الخالق الذي أبدع الأكوان، ورتّب السنن وأقام الأنظمة، ورسم لكل شيء حدا محدوداً وزمناً موعودا.

الغسيري: الأديب الجزائري الرحالة من (الجزائر) الى القاهرة

بقلم: د. عمر بن قينة
معهد اللغة العربية وآدابها ـ جامعة الجزائر ـ

ولد محمد المنصوري الغسيري (١٩١٢ ـ ١٩٧٤) في (غسيرة) بولاية (باتنة) في الشرق الجزائري، وهو من أقطاب الحركة العلمية والتعليمية والاصلاحية والأدبية في (الجزائر) قبل الثورة المسلحة، وعند اندلاعها انخرط فيها عاملا بصفوف جبهة التحرير الوطني فصار ممثلها في (دمشق) سنة ١٩٥٧، وقد استمر بعد الاستقلال (١٩٦٢) في السلك الدبلوماسي، فكان سفيرا للجزائر في عدة أقطار عربية، بحس حضاري عربي اسلامي، من الدبلوماسيين الجزائريين الشرفاء الذين بقوا بعيدا عن شتى الانحرافات حتى لقي ربه في صمت سنة ١٩٧٤ تاركا آثارا مختلفة، في اللغة والتاريخ، والدين والأدب، من بينها رحلته المشهورة الى (المشرق العربي) التي لم تنشر بعد في كتاب، نتوقف اليوم عند مسارها من (الجزائر) حتى (القاهرة).



جاءت البداية في رحلة (محمد المنصوري الغيسري) الى (مصر) في وفد (الكشافة الاسلامية الجزائرية) استجابة لدعوة (الكشافة المصرية) للمشاركة في احتفالات الذكرى الأولى لثورة ١٩٥٢م وكانت بداية الرحلة في ٢١ جويلية ١٩٥٣ انطلاقا من (قسنطينة) ليلا

انطلقت رحلة الغسيري من قسنطينة الى القاهرة فالسعودية فسوريا فلبنان ثم المغرب

في اتجاه (القاهرة) ثم امتدت بالنسبة للكاتب الى (السعودية) للحج أساسا، واتسعت الى (سوريا) و(لبنان) فجمع ملاحظاته وانطباعاته وكتبها في رحلة حملها مشاعره ومواقفه بعد عودته من هنالك، ونشرها في جريدة (البصائر) تحت عنوان رئيسي عام هو «عُدت من الشرق»(١) في تسع عشرة حلقة(٢) وكان هذا العنوان الرئيسي متبوعا بعناوين فرعية أساسية متبوعة بدورها في بعض الحلقات بعناوين أخرى جزئية فكان العنوان الفرعي في الحلقة الأولى (في طرابلس الغرب) وكان في الحلقة الثانية (في كنانة الله مصر)

وفي الثالثة (في مصر كنانة الله) وفي الرابعة (مظاهر التدين في مصر) وفي الخامسة (الجزائريون في مصر)٠ وابتداء من الحلقة السادسة وانتهاء بالحلقة الثامنة

جمع الفسيري ملاحظاته وانطباعاته وكتبها في رحلة حملها مشاعره ومواقفه

عشرة(٣) كان العنوان الفرعي الدائم هو (في البلاد العربية السعودية) أضيف تحته عنوان جزئي في الحلقة السابعة عشرة ما نصه (الشباب الاسلامي في الجزائر) وأضيف آخر في الحلقة الثامنة عشرة نفسها ما نصه (في المدينة المنورة) وبينما كان العنوان الفرعي في الحلقة التاسعة عشرة (في سوريا ولبنان) فإن العنوان الفرعي في الرقم[٢٠] كان عاما هكذا (خاتمة) ضمت الحديث عن العودة الى مصر ثم الى الجزائر عبر ليبيا وتونس.

وهكذا نلاحظ من البداية أن الرحلة شملت عدة بلدان عربية اسلامية، فبعد المرور بتونس في الذهاب حلّ الوفد بليبيا، حيث يتحدث الكاتب عن الوصول الى (زوارة) ويذكر الاستقبال الحسن لدى الاخوة الليبيين، ويتمعن في آثار الوجود الايطالي المنهزم، ويذكر بالخصوص مدينة (طرابلس) الجميلة التي لم تنل منها الحرب العالمية الثانية، كما يصف مدنا أخرى مثل (سرت) و(دونه) و(بنغازي) التي أصابها الكثير من الحرب، وقد استقبل أهلها وفد الكشافة «أحسن استقبال، وليس في المدينة ما يوصف الا هذه الخربات التي تركتها الحرب، وإلا هذا الموقع الطبيعي الجميل الذي تقع فيه المدينة، ولعل الأجمل من ذلك أن نمرّ الى الجبل الأخضر وكفى، وليس بعد الخضرة من وصف للجبال»(٤).

ونلمس هنا جنوحا الى وصف أدبي للطبيعة ولبقايا الاحتلال الايطالي نفسه وبعض آثاره فيما أصاب الشعب الليبي، كما يبدي في الوقت نفسه ضيقا بالحدود التي رآها شراً لا مفر منه، لكنه يعلن غبطته باستقلال الوطن وبشهامة الليبي المجاهد، فأثنى لذلك على (ليبيا) المجاهدة المنتصرة وعلى رجالها وشبابها من (الكشافة) خاصة، فيقول في الأخير «فسلام على ليبيا، وسلام على شبابها الناهض، وسلام على ولاتها ما عدلوا في الحكم وثأروا لأنفسهم ولبلادهم من العبودية والجهل».

وقد أصاب الكاتب في صياغة تحيته هنا، فان كانت تحية للمواطن والكشاف ورجل الاعلام في ليبيا مطلقة مفعمة وداً وحباً لا حدود لهما فانها بالنسبة للحكام جاءت متأخرة مشروطة بعدلهم في الحكم واخلاصهم في خدمة الوطن بالعمل للتخلص من النفوذ الأجنبي ودفع مسيرة الوطن في طريق التقدم والرفاهية، والأخذ بأسباب العلوم وتجاوز الواقع الذي يطبعه الجهل والتخلف الحضاري والعلمي.

وفي منطقة (السلوم) الحدودية بين ليبيا ومصر في الطريق الى القاهرة يصف الكاتب الحشود غير المنتظمة على المركز الحدودي حيث معاناة شرطة الحدود مع مواطنين يجهلون اجراءات قانونية، فيكلفهم جهلهم بدورهم متاعب شتى، كما يصف حول هذا المركز الحدودي آثار الحرب العالمية الثانية من دبابات مهشمة وطائرات محطمة.

وعند الوصول الى مرسى (مطروح) يشرع يصور جمال المدينة وطيبة الانسان فيها، والسلوك الحسن الذي يطبع حياة المصطافين المصريين «إن مرسى مطروح على صغرها فيها عدة مساجد كبرى، وبها شاطىء رملي خلاب يقصده كثير من المصطافين، وما شاهدنا أية مظاهر مزرية في تلك القرية رغم تجوالنا فيها أمسية كاملة، وفي هذه المدينة لمسنا الظرف المصري في سائر من اتصلنا بهم، وبدأنا نشعر بأن الطبع الجزائري الجاف يجب أن يذوب هنا قبل مغادرة المدينة، حتى اذا انتهينا الى قاهرة المعز كنا أناسا آخرين»(٥) وقد بدأ بعضهم يتدرب على اللهجة المصرية فيتخذ الكاتب من ذلك وسيلة للتنكيب. وعند الوصول الى القاهرة يستقطب

اهتمامه أمران رئيسيان: النظام السياسي الوطني الحازم والمراكز العلمية في مدينة القاهرة حيث «المعاهد العلمية والكليات الاسلامية ما يجعلها قبلة دائمة للعرب والمسلمين في سائر أنحاء العالم، أضف الى ذلك هذا الجمال الطبيعي الذي حباها الله به من مرور النيل المبارك وسطها، واقامة هذه الجسور الجميلة فوقه»(٦)

وفيها الجامعة الحديثة التي «تضارع أكبر الجامعات في العالم» أما النظام السياسي فقد وصف فيه رجال الثورة بالخصوص بالجد والاخلاص يعملون يوميا اكثر من ضعف الدوام اليومي للعامل في مصر، من أجل تقديم «المثل يوميا على أن الدولة وقواها يجب أن تسخر دائما لخدمة المواطن الفرد كيفما كان لونه وكيفما كان مذهبه وشيعته ودينه».

توزع وصفه في القاهرة اذن بين أول معالمها الذي لفت نظره وحظى باعجابه وهو جامعتها بهياكلها وحدائقها الغناء، ووصفه الانضباط السياسي ووطنيته.

عكست التجربة الانسانية لرحلة الفسيرى حسّه القومي بوجهه العربي والاسلامي

وهي أحكام استمدها الكاتب من أول انطباع له عن الوضع في قطر عربي اسلامي، يحكمه أبناؤه وتسود فيه لغته، ولدينه فيه مكانته، ولم يتسع له الوقت للمقارنة والتحليل أكثر، لأنه أولا وقبل كل شيء كاتب رحلة بعين أديب ورجل ثقافة لا محللا

سياسيا أو باحثا في علم اجتماع، فالنظام في رأيه تنهض به «حكومة الحق والعدالة الاجتماعية تسخّر للثقافة والتربية وتمهد في بلادها للوحدة العربية والاسلامية بفتح المعاهد في وجوه بنيها وايفاد العلماء اليها وعلى نفقتها تمهيدا يبوئها مكانا رفيعا بين أمم العالم ويعطيها عن جدارة زعامة العالم الاسلامي في المستقبل».

ويعطي الكاتب في الحلقة الرابعة صورة حية عن القاهرة العامرة بمساجدها الى جانب المؤسسات الثقافية الأخرى فيها، فتبرز من خلال ذلك أيضا صورة مضيئة للانسان المسلم في (مصر) حيث تكتظ المساجد بالمصلين خاصة في يوم الجمعة، حتى إن القطار حين يصل المحطة وقت الصلاة يجدها «مسجدا جامعا» وقد أضحت العيادات والمعامل نفسها تتوفر على أماكن للصلاة، فتبرز هنا روح الايمان وسمات التقوى مختلف المستويات الاجتماعية، حيث نلمس ذلك في الاقبال الشديد على المساجد وخطب الجمعة التي يتولاها علماء مؤهلون فكريا وعلميا، وخطباء المساجد في القاهرة «هم في الغالب من الفئة الصالحة في البلاد ومن مصاقيع خطباء الجمهور المصري، وما أجمل أن يصلي الحجاج المغاربة صلاة الجمعة في الجامع الأزهر، ويستمعوا الى خطيب الاخوان المسلمين الأستاذ عبد المعز عبد الستار في صلاة له بالجامع، فيسمعوا ما يحيى ويعوا ما يبقي ويعودوا بما يجدي»(٧).

وفي حديثه عن الجزائريين في مصر يبرز الانطباع الايجابي الواضح عن مصر البلد العربي المسلم المضياف الذي كان محط رحال لكثير من الجزائريين «في أزمان مختلفة» فصارت وطنا لبعض، كما باتت مورد علم للطلبة وساعدا أيمن للجزائر العربية المسلمة التي تناضل للدفاع عن هويتها الحضارية، حيث رحبت القاهرة بالشيخ الابراهيمي واحتضنت مكتبا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي صار «يعد بمثابة سفارة غاصة دائما بالزوار من رجال العلم والأدب والسياسة كامل اليوم وزلفا من الليل»(٨) فمثلما أعطى الكاتب صورة مضيئة عن مصر قدم صورة جيدة أيضا عن الجزائري في مصر بجديته وأخلاقه وحبّه مصر مثل حبّه بلده الجزائر «ما يجعل الجميع أحيانا يفكر لمصر أكثر مما يفكر للجزائر» وهو عربون وفاء وتقدير وإيمان بالهمّ الواحد والمصير الحضاري المشترك، فشرف هؤلاء الجزائر في مصر ونهض بعضهم بمهمة التعريف بقضية الجزائر

تألم الفسيري للجوانب السلبية التي خلّفها الاستعمار وحروبه على الأرض العربية.

طرب الفسيري في رحلته لمظاهر النهضة العلمية والسياسية والدينية في مصر

المسلمة ولغتها بين أبناء الأمة العربية الاسلامية، فكان من بين أولئك رئيس جمعية العلماء الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) والشيخ (الفضيل الورتلاني) «الذي مهد لأداء مهمة الأستاذ الرئيس في غير ما موطن، وفي غير ما وسط .. ذلك الرجل الذي يمثل النبل والكرامة والشمم في أروع صورها».

هذه الصورة الايجابية للجزائري في مصر بعامة انبثقت من ذلك المحيط الصحي الجديد في مصر بشكل عام، حيث تتراجع بالتدريج الصور الجزئية لمظاهر سلبية في القطر.

تنطلق من انقاض هذه الصور صور أخرى ايجابية لوطن شرع يشجع النضال العربي والاسلامي لمكافحة الاستعمار ويحتضن أبناء الأمة العربية والاسلامية بود، ومن أولهم الجزائريون الذين شرفوا وطنهم وأسهم بعضهم في خدمة مصر بفكرهم وعملهم، كما بدأ يسهم آخرون في التعريف بالجزائر العربية المسلمة، لما يعانيه الاسلام فيها من تضييق والعربية من اضطهاد.

صاغ الكاتب ذلك بمستويات مختلفة من التعبير، تراوحت بين الأسلوب التقريري السردي والوصف الحي الذي عكس كثيرا مما كان ينفعل به الكاتب من مشاعر ود وحب انساني وافتتان بالطبيعة، اضافة الى ذلك الابتهاج بطبيعة الانسان المصري وجامعة القاهرة ومساجدها العامرة ورجالها المخلصين. يضاف الى ذلك دور الجزائري الفاعل في صورة ايجابية لصالح وطنه الجزائر ومصر انطلاقا من حس حضاري يجمع الجزائر ومصر بعمقه العربي وبعده الاسلامي.

وقد عكست هذه التجربة الانسانية حس الكاتب القومي بوجهه: العربي والاسلامي ، فتألم للجوانب السلبية من دمار خلّفه الاستعمار وحروبه على الأرض العربية كما ضاق بمظاهر التخلف وما يشيع فيه من خمول وكسل وسلبية، مثلما طرب لمظاهر النهضة العلمية والسياسية والدينية في مصر.

فكان في كل منعرج يفكر كعربي مسلم، يضيق بالسلبيات فينبه اليها، ويبتهج للايجابيات فيثني مشجعا شاكرا سعيدا، توقا الى مستقبل سعيد لأبناء الأمة العربية كلها.

هوامش :

(١) نشرت في البصائر ابتداء من العدد ٢٥٠ سلسلة ٢، سنة٦، الصادر في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (١١ ديسمبر ١٩٥٣) وانتهاء بالعدد ٢٧٦، سلسلة ٢، سنة:٧ الصادر في ٢٤ شوال ١٣٧٣هـ (٢٥ جوان ١٩٥٤م).

وقد تحدث الكاتب مرتين أخريين عن هذه الرحلة في غير هذا السياق، كان حديثه في احداهما على شكل تغطية صحفية بعنوان: «مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الاسلامية الجزائرية» حيث تحدث عن بعض مظاهر الاستقبال في مصر خاصة تلك الحفلة التي أقامها الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) للوفد. نشر الكاتب هذا في حلقتين من جريدة (البصائر) الأولى في العدد ٢٤٠، الصادر في ٢ المحرم ١٣٧٣هـ (١١ سبتمبر ١٩٥٣) والثانية في العدد ٢٤١ الصادر في ١٢ المحرم ١٣٧٣هـ (٢٥ سيتمبر - هكذا أصلا - ١٩٥٣م).

أما في المرة الثانية فقد كان حديثه مرتبطا بالمسار العام لرحلة وفد الكشافة فانتهى حديثه هنا في (مصر) وتركز الكلام فيه على الكشافة ونشر هذا القسم في مجلة الكشافة الجزائرية (الحياة) رقم [١] من السلسلة الجديدة، عدد مارس - ابريل ١٩٥٤م.

(٢) ترقيم الحلقات في (البصائر) بدأ بالحلقة رقم[١] وأنهي بالحلقة التي أعطيت رقم [٢٠] بينما عدد الحلقات تسع عشرة لا أكثر، ففي تتبعنا لذلك عثرنا على خطأ في الترقيم حيث سها قسم التحرير عن رقم [١٥] من الحلقات، فلم يكن له وجود أصلا، حيث تبعت الحلقة [١٦] التي نشرت في العدد ٢٦٨، الحلقة [١٤] التي نشرت في العدد ٢٦٧، فعدد الحلقات واقعا اذن تسع عشرة حلقة، وان رأينا الترقيم في الجريدة ينتهي بحلقة تحمل رقم [٢٠].

(٣) مع اسقاط الحلقة [١٥] من الاعتبار لعدم وجودها أصلا كما سبقت الاشارة في الهامش السابق هنا.

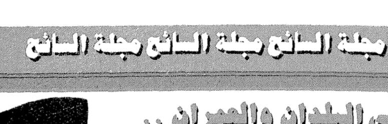
(٤) البصائر، سلسلة: ٢، سنة: ٦، عدد ٢٥٠، في ٥ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (١١ ديسمبر ١٩٥٣م).

(٥) البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٦، عدد ٢٥٢، في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ (يناير ١٩٥٤م).

(٦) البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٦، عدد ٢٥٣، في ٣ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (٨ يناير ١٩٥٤م).

(٧) البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٢، عدد ٢٥٤، في ١٠ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (١٥ يناير ١٩٥٤م).

(٨) البصائر، سلسلة: ٢، سنة ٢، عدد ٢٥٦، في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (٢٩ يناير ١٩٥٤م)



في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقريء الملامح ويرسم اللوحة

مشاهدات في جمهورية السلفادور

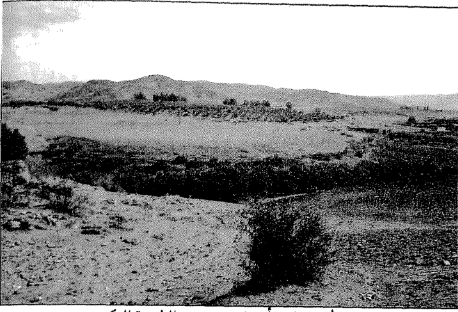
السويد خواطر وتأملات



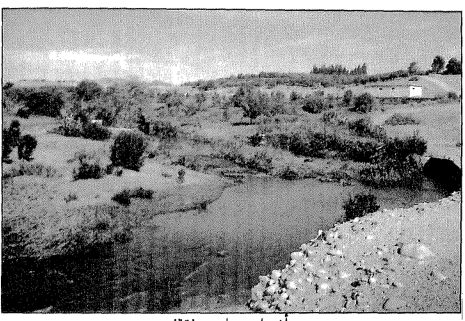
في هذا العدد من

السائح

الهـري .. لوحـة ألوانهـا الطبيعة



- جبال ، مياه ، أشجار تعبير عن الطبيعة البكر



أشجار ومياه متدفقة

جماعة «الهري» الواقعة جنوب مدينة خنيفرة على الطريق الرئيسية التى تربط بين مدينتي فاس ومراكش - تشغل حيزا مكانيا يقدر بحوالى ثلاثمائه كيلومترا مربعا - وتعداد سكانها حاليا يزيد عن ستة عشر ألف نسمة. وجماعة «الهري» هذه - نالت حظا عظيما من عناية المؤرخين سواء المغاربة منهم أو المشارقة..

ذلك لأن هذه البقعة من المغرب الأقصى قد عاشت واحدة من أشرس المقاومات ضد الاستعمار الفرنسي فى التاريخ الحديث.

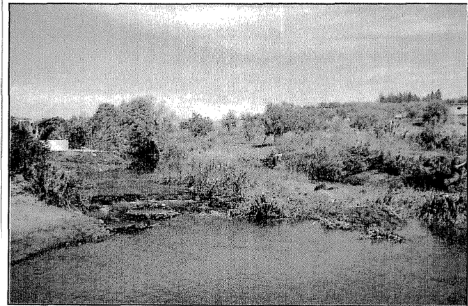
أيضا سجل المؤرخ «الفرنسي» فرانسوا سيرجي فى كتابه «موحى أوحمو الزيانى» الصادر عام ١٩٣٩ تحت عنوان «الحرب المقدسة» قال: أعلن موحى اوحمو الزياني الحرب على الفرنسيين سنة ١٩٠٨ وجر إليها الرجل الصالح علي أمهاوش - المتحكم فى أعلى الجبال وسفوحها - وموحى أو سعيد - فى بنى ملال - وعندما حوصرت خنيفرة من ناحية تادلة، ومريرت، وأزرو ، ومولاى بوعزة، وأكلموس .. وبوصول بعثه «كلورمل» فى ١١/يونيو ١٩١٤ الى الوادى الأعلى لأم

الربيع، قام أوحمو بالاعتصام فى الجبال ـ حاملا معه ما تمكن من حمله ـ ودعا سكان خنيفرة لمصاحبته فتبعوه الى الجبال ـ وفى اليوم الخامس من نوفمبر ١٩١٤ تمركز موحى أوحمو الزياني ورجاله فى الهرى. وعندما هاجم الفرنسيون «الهرى» بقيادة الكولونيل «ليفى ردير» واستولوا على الخيام وسبوا النساء ـ أحاط بهم «الزياني» ومعه الأهالى من كل النواحي وأنزلوا بهم خسائر كبيرة.

كذلك كتب الباحث «ألبير عياش» فى كتابه «المغرب والاستعمار» حصيلة السيطرة الفرنسية، قال ما نصه «فبين ١٩١٤ و١٩٣٠ اخْتُرقتْ كتلة الأطلس المتوسط وتم تجزيئها ـ غير أن ذلك تطلب اولا، تحطيم معارضة الزيانيين ومعارضة قائدهم موحى أوحمو الزياني الذى برز كقائد أسطوري» ثم عرض الباحث فى كتابه الى خسائر الفرنسيين فى الأرواح والمعدات ، والجدير بالذكر أن موحى اوحمو الزياني استشهد ـ وسلاحه فى يده عام ١٩٣١ ». وما ذكرناه جزء ناصع من تاريخ هذه البقعة المناضلة فى وطننا العربي الكبير.. أما عن الطبيعة الخلابة التى تتمتع بها «الهري» فهى تتحدث عن نفسها.



قرية «الهري» وادى شبوكة وغابة «قرقورة» خلف الهضبة



جبال واراض شاسعة وخضرة

احمد هيبه ـ المغرب

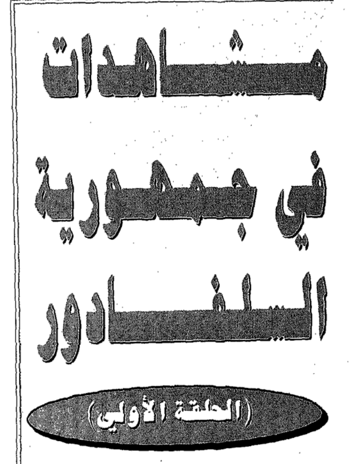
الترحال والتجوال سمة من سمات الحياة الانسانية قديما وحديثا إذ فيهما فوائد جمة. وعليهما دأب الانسان منذ بداية حياته وإلى الآن.

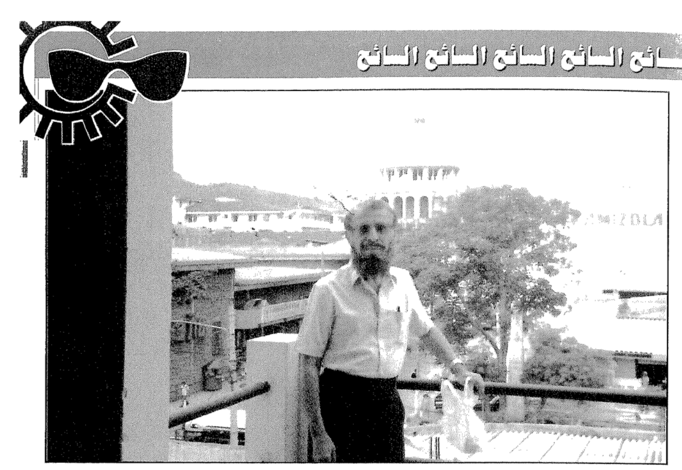
وفضيلة الشيخ/ محمد بن ناصر العبودي يُعرف برحلاته المتنوعة إلى شتى بقاع العالم. وقد أثرى المنهل بحديثه عن عدّة رحلات سابقة كثيرة كان آخرها حديثه عن رحلته في يوغسلافيا السابقة.

وها هو الآن يطل علينا بقلمه السيّال ليشرك قراء المنهل في رحلته إلى جمهورية السلفادور والمنهل ستتولى نشر رحلته في حلقات متوالية متصلة، وهي بدورها تقدم شكرها للشيخ العبودي على تواصله الدائم مع قراء المنهل ومحبيه واطلاعهم على رحلاته الشيقة الممتعة.

▪ المنهل ▪

بقلم:
الشيخ/
محمد بن ناصر العبودي
الأمين العام المساعد لرابطة العالم الاسلامي
- مكة المكرمة -





جانب من المركز الاسلامى فى سان سلفادور

تقع السلفادور في الجزء الغربي من أمريكا الوسطى حيث تحدها من الشمال قواتيمالا، ومن الشرق هندوراس ومن الجنوب نيكاراقوا، كما يحدها من الغرب المحيط الهادىء وكانت جزءاً من المستعمرات الاسبانية في امريكا الوسطى إلا أنها نالت استقلالها فى عام ١٨٢١م.

وتبلغ مساحتها ٣٤٫١٥٥ كيلو متر مربع، أما سكانها فيبلغ عددهم ستة ملايين نسمة ٨٥٪ منهم من المخلطين، أكثرهم من المخلطين ما بين السكان الأصلاء الذين يسمون بالهنود الامريكيين وبين الأوروبيين الجنوبيين المعروفين باللاتينيين، نسبة الى لغاتهم المنتزعة من اللغة اللاتينية.

ويسمى هؤلاء المخلطون فى منطقة امريكا الوسطى وشمال امريكا الجنوبية بالمستيسو. ويؤلفون اكثرية السكان فى تلك المنطقة، اذ غلبوا عليها أهل البلاد الأصلاء من الذين يسمون بالهنود الأمريكيين فى جميع تلك الاقطار ما عدا بريسفيا التى يؤلف السكان الاصلاء من الهنود الامريكيين الأكثرية من سكانها، وقد تكلمت على احوال (بوليسفيا) في كتاب: «بين الارغواى والباراغواي» وهو كتاب مطبوع.

وهناك المخلطون ما بين (المايا) اكبر الطوائف من سكان البلاد القدماء الذين كانوا موجودين فيها قبل وصول المستعمرين

الأوروبيين وهم من الهنود الأمـــريكيين وبين الافريقيين السود الذين جلبهم المستعمرون الاوربيون من افريقية عبيداً من أجل أن يقوموا بالعمل الشاق فى الزراعة والأبنية وغيرها في عصر لم تكن الآلات الضخمة موجودة ولا يستطيع الأوروبيون القيام بتلك الأعمال ويترفعون عنها ويُسمّون هنا (المولاتو) بمعنى المخلطين لأن (مولاتو) بالأسبانية والبرتغالية: مختلط ومولاتا: مخلطة، والمقصود من ذلك أن «الملاتو» ولدوا نتيجة الاختلاط بالزواج ونحوه ما بين الهنود الأمريكيين وبين الأفريقيين.

وهناك جنس قليل العدد مخلط ما بين العرب والهنود الأمريكيين ويعرفون هنا باسم (لادينو): يقول بعض الباحثين: إن أصلها (علاء الدين).

كما توجد في البلاد نسبة من السكان تصل إلى ٥٪ من الهنود الأمـــريكيين الخلّص أغلبهم من بقايا شعب (المايا) العظيم.

اما بقية السكان وهم ١٠٪ فإنهم من البيض الخلّص الذين يعتبر العرب والأوربيون منهم.

هذا ويبلغ سكان العاصمة (سان سلفادور) مليونا ومائتي الف نسمة، والديانة الرسمية للبلاد هى الكاثوليكية وإن كان أكثر السكان لا يلتزمون بها ولا يقومون بالواجبات الدينية فيها. وهى المسيحية التى يتزعمها بابا روما كما هو معروف وهى المذهب الرئيسي فى المسيحية.

وهناك المذهب الانجيلي ويعشقه عدد من أهل البلاد ولكنهم يعتبرون اقلية بين المسيحيين، ويقول كل الذين بحثنا الأمر معهم بحثا عميقا من مفكري البلاد: إن الأهالي هنا يعيشون فراغا روحيا، لأن اكثرهم غير مقتنع بما يلقيه رجال الدين عليهم من أمور دينية، وإنه لو تيسر ووجدو دعاة مسلمين عارفين بكيفية اقناع الناس لانتشر الاسلام بسماحته ونقائه بين عدد كبير من الناس لأنه ـ كما هو معروف ـ يجمع بين تلبية حاجات الجسد بطريقة منتظمة وبين السعادة التى يحتاجها الانسان.

العرب فى سلفادور:

يفاجأ من يصل الى سلفادور ـ ويجرى أى اطلاع على أحوال الناس ـ بما للعرب من نفوذ وقوة فيها يتعدى ذلك الى عددهم الذى سيبدو كثيرا أيضا بالنسبة الى ما هو معروف عند عامة الناس، ذلك بأنهم أصحاب مال وأعمال تجارية واسعة ولهم نفوذ سياسي كبير إلا أنهم غير مجتمعين فى جمعية واحدة، أو متجهين اتجاها واحدا حيث انهم موزعون على الاتجاهات السياسية المختلفة ما بين اتجاه اليسار العالمي الذي كان يقاتل الأثرياء وذوى رأس المال الذين كانت تؤيدهم الولايات المتحدة الأمريكية وبين ملاك الأراضى والمصانع والشركات الذين ظلوا يقاتلون الثوار اليساريين لفترة طويلة من الزمن. وكانت روسيا وكوبا تؤيدان أولئك اليساريين.

والعرب كلهم من المسيحيين فلا يوجد بينهم من المسلمين الا القليل النادر الذين لا حكم لهم، ويبلغ عددهم ثلاثين الف



الكاتب وعلى يمينه ارماندو بقيلة

نسمة ٨٠٪ منهم من الفلسطينيين المسيحيين و٢٠٪ من اللبنانيين المسيحيين. وأكثر المسيحيين الفلسطينيين الموجودين فى السلفادور فى الوقت الحاضر هم من المولودين في تلك البلاد وقد ذابوا فيها من حيث اللغة والدين أو كادوا، وذلك أن هجرة المسيحيين الفلسطينيين الى أمريكا الوسطى كانت قديمة.

ولكنهم بشعورهم بتميزهم عن غيرهم لا يزالون يشعرون بأصلهم العربى ويدافعون عنه ويدفعون الأموال الكثيرة للمؤسسات القومية التى تعمل فى هذا السبيل. وقد يبرز من العرب قادة وزعماء سياسيون واقتصاديون واساتذة جامعات فمنهم على سبيل المثال:

(آرثورو حبله) وهو فلسطينى مولود فى هذه البلاد وقد شغل منصب وزير الاقتصاد فيها. وكان وزيرا فى الحكومة التى سبقت الحكومة القائمة حاليا.

ويقول العرب والمسلمون هنا أنه من المعروفين بمساعدة العرب والوقوف معهم إذا احتاج الأمر الى ذلك.

ويعتبر العرب فى الدرجة الثانية من حيث الثراء والبراعة فى الشئون المالية والاقتصادية، ولا يسبقهم فى ذلك الا اليهود الذين يعتبرون فى الدرجة الأولى فى هذا الشأن مع أن عددهم قليل نسبيا إذ لا يزيد على خمسة آلاف نسمة ولكنهم يقفون متكاتفين متعاونين أمام الفئات

الأخرى، شأنهم في أكثر بلدان العالم. والسفارة اليهودية في السلفادور لها نشاط واسع بين المثقفين حيث تخصص منحا دراسية ودورات تدريبية لهم في فلسطين كما توزع الكتب والنشرات التي تتضمن الدعاية اليهودية الواسعة.

ويرجع ذلك إلى كونهم أقلية ضئيلة كانت مضطهدة في جميع الأماكن المتفرقة التي كان اليهود يوجدون فيها من العالم. ولم تكن أمامهم وسيلة في الأزمات القديمة للبروز في الميادين الوطنية العامة كالقيادة السياسية والحزبية، لذلك حصروا جهودهم في اكتساب المال وكسب النفوذ عن طريقه، واستمروا على ذلك حتى بعد أن حصلوا على الحريات الأساسية للزعامة في الميادين الأخرى.

ويشتهر اليهود هنا بأنهم متعاونون في السياسة خلاف العرب فيقول الناس: ان اليهود لديهم المال والسياسة والعرب لديهم المال دون السياسة ويريدون بذلك النفوذ السياسي بأنه دون نفوذ اليهود.

والعرب محبوبون من عامة الشعب ومتميزون بل محسودون من الآخرين لما ذكرناه.

ويقول العارفون بالأمور المالية والاقتصادية في البلاد أن اليهود يسيطرون على ٥٥٪ من اقتصاد البلاد وأن العرب يسيطرون على ٤٠٪ وأن باقي السكان من السلفادوريين ليس معهم الا ٥٪ من اقتصاد البلاد.

وهناك عنصر جديد نشط دخل الى الحلبة الاقتصادية في السلفادور ، ويتمثل في الصينيين التايوانيين والصينيين الذين قدموا من هونغ كونغ، وأحضروا معهم أموالهم حذرا من أن يقعوا تحت سيطرة الحكومة الشيوعية الصينية عندما تتسلم هونغ كونغ من البريطانيين في عام ١٩٩٧م وعدد الصينيين هؤلاء محدود إلا أن أثرهم في الاقتصاد أكبر من ذلك بكثير.

وقد يتساءل المرء هنا عن (الاسبان) الذين كانوا أول من وصل البلاد من الاوروبيين في وقت مبكر فأعطوها نفسهم وصبغوها بصبغتهم، أين مكانهم من الاقتصاد ومكانتهم من السياسة؟ والجواب الذي يسمعه كل من يسأل عن ذلك مثلما سمعته أن الاسبان الخلّص غير موجودين في البلاد الا بعدد ليس له أهمية لأن الأسبان الذين كانوا فيها قد اختلطوا بأهلها في عصور سابقة، وعهد استقلال السلفادور عن اسبانيا قديم.

المسلمون في السلفادور:

قدمت القول بأن العرب في السلفادور يكادون يكونون كلهم من المسيحيين، إذ لا يوجد فيهم وهم ثلاثون الف نسمة الا عشرة من المسلمين، والمراد بذلك العرب القدماء الذين هاجروا إلى هذه البلاد في وقت مبكر وانقرض

أكثرهم الآن ولكن بقيت ذراريهم الذين ولدوا فى هذه البلاد.

ولكن معظم المسلمين الموجودين الآن فى السلفادور هم من المسلمين الجدد من أهل البلاد الذين أسلموا بأنفسهم ولم يكن آباؤهم من المسلمين. ويبلغ عددهم (٢٩٩) مسلما جلهم اسلموا بعد افتتاح المركز الاسلامي الذى قام بإنشائه فى العاصمة (سان سلفادور) الدكتور المهندس (ارماندو بقيلة) وقد سمى نفسه بعد اسلامه (احمد) وإن كان اسمه الرسمي لا يزال (ارماندو) وبقيلة اسم اسرته وهو اسم عربي أصيل وينطق به الآن (بوكيلو) وقد شرحنا قصة انشائه للمركز فى اليوميات من غير تفصيل كاف عن الكلام على زيارتنا للمركز الاسلامى فى (سان سلفادور) فأحببت أن أذكر ذلك هنا مفصلا. لكون اسلامه آية من آيات الله على أيدى أناس ليسوا من أهله الأصلاء وإنما هداهم الله اليه هداية من عنده (لو انفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم).

إن بقعته ليست بدار إسلام ولا بدار هجرة للمسلمين مثل السلفادور. فالدكتور (ارماندو) كان من أسرة عربية فلسطينية مسيحية عريقة فى مسيحيتها. ونشأ مسيحيا ولكن الله هداه الى الاسلام كما يتضح ذلك فى حديثه الذى رواه لى بنفسه بناء على طلبى ذلك منه، قال:

والدي المرحوم، وصل إلى السلفادور عندما كان عمره إحدى عشرة سنة، وكان دينه أرثوذكسي رومي، ولكنّه طوال حياته كان مشرّباً بالثقافة العربية الإسلامية رغم كونه مسيحياً. ووالدتى هي كاثوليكية.

كان أبى عملياً، بحكم التربية والمطالعة والممارسة، يتمتع بثقافة إسلامية حيث كان رأس العائلة والمسؤول عنها وعن كافة شؤونها. وعلاقاته مع الناس كانت تقوم على أساس هذه الثقافة. كان دائما يمتلك الموسيقى العربية التي كنا دائماً نسمعها في البيت، وعند قدوم مغن عربي كان يدعونا للتمتع والسماع والمشاركة في الحفلات الموسيقية والغنائية التي كان يحييها هؤلاء المغنون العرب.

وكان يسعد جداً عندما يراني أقرأ الكتب التي تتحدث عن العادات والتقاليد والتاريخ والثقافة العربية. وكنت منذ صغري (منذ عمر الثلاثة سنوات) أمتلك طريقتي في كتابة الأحرف العربية، التي لاحقاً أصبحت سرّ كتابتي، حيث كنت أكتب الكلمات الإسبانية بالأحرف العربية: باختصار فمنذ صغري والثقافة العربية تسري في عروقي دون إدراكي لها.

عندما دخلت المدرسة المارستية (أتباع مريم العذراء) كنت أتميّز بالتدين ككاثوليكي. وكنت أشارك في كافة النشاطات الدينية الكاثوليكية في المدرسة، وأحياناً كثيرة كنت أقوم بتقديم دروس عنها. كنت أرى الكاثوليكية شيئاً جميلا

وممتعاً ومريحاً للنفس. كل ذلك حتى أصبح عمري فى الحادية عشرة.

لكني منذ سنّ الثانية عشرة تقريباً تركت كل الحبّ والإيمان في الكاثوليكية وكلّ شعائرها، لأنني لم أعد أقتنع بوجود «ثلاثة آلهة» أو «إله بالتثليث» وهكذا اصبحت بدون ديانة، عدا عن بعض الإرتباطات والمناسبات الاجتماعية التى تفرض عليّ المشاركة في الحضور لقدّاس ما بمناسبة ما لشخص ما.

دخلت الجامعة عندما كان عمري ستة عشر عاما، ولم أكن أمتلك من الدين الكاثوليكي سوى الإرتباط الإجتماعي. نشاطاتي في الجامعة كانت بالأساس علميّة، سياسية وبحثية، وعندما أصبح عمري سبعة عشر عاماً أرسلت لشراء مجموعة الكتب المتعلقة بالفيزياء والكيمياء من اليابان، حيث كانت هذه المجموعة تتألف من ثمانمائة كتاب بأسعار رخيصة.

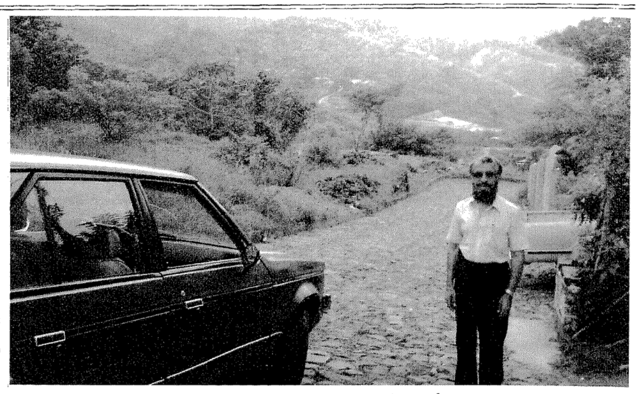
هكذا عشت لفترة، ثقافة، وعادات وتقاليد عربية في البيت.. علم، وبحث وسياسة في الجامعة عشت بلا ديانة سوى الجانب الاجتماعي، شعرت خلال تلك الفترة بأن الأشياء تسير على ما يرام.

لكن شيئا ما كان يدفعني بإتجاه روحي. فأصبحت أطالع الكتب عن الديانات المختلفة منذ السنة الجامعية الثالثة، وقرأت ما يزيد على أربعمائة كتاب تتعلق بأمور مختلف الديانات، تاريخها، تقاليدها، شعائرها... الخ. وتوفي والدي الى رحمة الله تعالى وأنا فى السنة الجامعية الرابعة.

عام ١٩٧٢م ذهبت في كورس بحثي فى البتروكيمياء إلى أفريقيا، حيث ذهبت الى كلّ من المغرب، الجزائر، مالي، موريتانيا والسنغال، وهي أول مرة في حياتي أعيش في بلدان ذات أغلبية إسلامية. وكنت أدخل إلى المساجد كسائح وليس للصلاة.

هناك، في البلدان المذكورة اشتريت كتباً كثيرة تتحدث عن الإسلام بمختلف المعاني، وكانت تلك الكتب باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية، وحتى حينه لم أكن أعرف عن الإسلام شيئا.. بل إنَّ معرفتي عن الإسلام كانت معرفة غير مباشرة، من خلال التربية العائلية التي إكتشفت لاحقاً بأنَّ كافة ممارسات والدي المرحوم وتربيته لنا مأخوذة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة (مثلا: لا تدخلوا البيوت إلا بإذن أهلها، مرافقة الزائر حين خروجه حتى باب البيت، الرجال قوّامون على النساء... الخ).

بعد هذه الزيارة للبلدان المذكورة، وبعد قراءة تلك الكتب الإسلامية أصبحت أقول عن نفسي بأنني مسلم، دون أن أشهر اسلامي، وأجريت عملية الختان وعمري سبعة وعشرين سنة. وهكذا بدأت أدرك بأن عادات وتقاليد عائلتي هي إسلامية وأن الإسلام هو دين لي



أحد الطرق المنحدرة فى جبال السلفادور

وأحمله في قلبي وعقلي، حيث أنني كما ذكرت، كنت قد قرأت ما يزيد عن أربعمائة كتاب عن مختلف الديانات الأخرى، ولم أقتنع ولم أؤمن بأي منها.

كنت على علاقة صداقة مع الأخ «صفوة ابن الخطاب»، سكرتير السفارة المصرية في ذلك الوقت، فطلبت منه أن يعلمني الصلاة. بعدها بدأت أصلي ولكن ليس دائماً الخمسة فروض. كما أقمت علاقات صداقة مع أخوة مسلمين في غواتيمالا وبنما، حيث لم يكن هناك مسلمون في السلفادور.

عام ١٩٧٩ بدأت بصوم شهر رمضان المبارك، لكنني في ذلك العام كنت أصوم عن كلّ شيء إلا عن الماء، حيث لم أتحمل العطش في البدء. أما عام ١٩٨٠ فقد صمت عن كلّ شيء بما فيه الماء، لكنني أفطرت ثلاثة أيام.

ومنذ عام ١٩٨١ وأنا أصوم الشهر كاملا، بل وأحياناً أقوم بالصيام لبضعة أيام في أوقات مختلفة.

وهكذا ، عندما شعرت بأنني مسلم تماماً قمت بالبحث عن مسجد لأعلن إسلامي فذهبت يوم ١٩٨٣/٨/٩م إلى المركز الإسلامى في كاليفورنيا الجنوبية - الولايات المتحدة والتقيت مع الشيخ مصباح الدّريني (وهو مصري الجنسية) وقمت بإعلان إسلامي في ذلك المسجد يوم ١٩٨٣/٨/١٠م على يدي الشيخ المذكور،

ومنذ حينها لازلت أمتلك «شهادة إيمان»، أي شهادة بإعلان إسلامي، ثم طلبت من ذاك الشيخ صحيح البخاري للأحاديث النبوية الشريفة، الذي يتألف من تسعة مجلدات. فأجابني كيف يمكن لمسلم

جديد أن يبدأ بقراءة كلّ هذا، وقام بإهداء كتاب «الأربعون النووية» فتقبلته، ولكنني قمت بشراء ستين كتاباً إسلامياً باللغة الانكليزية التي أجيد قراءتها وفهمها. وهكذا أصبحت أبحث عن المراكز الإسلامية أثناء ترحالي وأزور المساجد المختلفة وأصلي فيها.

أثناء إحدى رحلاتي إلى بنما، زرت فيها مسجداً ممولا من ليبيا وبعض ميسوري الحال وأغلبهم من أصول هندية وباكستانية. وكنت أناقشهم وغيرهم دائماً حول ضرورة القيام بدعوة أهالي البلاد الأصليين إلى الإسلام، ولكن رأيهم كان دائما هو استرداد المسلمين ذوي الأصول الإسلامية، لكن بعضهم عندما لاحظوا تصميمي على رأيي عرضوا عليّ منحة للذهاب إلى الهند لفترة بضعة شهور لمزيد من التعرّف على الإسلام والتحدّث مع الشيوخ هناك لكنني لم أكن أملك الوقت.

كما ذكرت، كنت أقيم علاقات صداقة مع المسلمين خارج السلفادور لعدم وجود مسلمين في حينه، أو على الأدق هم قلة شحيحة وضائعة. فقد زرت مساجد في كلّ من فنزويلا، كولومبيا، كوراسو، الولايات المتحدة، غواتيمالا وبنما.. وكلها والحمد لله قد صليت فيها. وخلال هذه الفترة كنت أصلي في بيتي، حيث أمتلك في كلّ بيت مصلية (سجادة)، ولاحقاً اشتريت سجادتين لمكتبيّ الرئيسيين.

عام ١٩٨٩م زارني إخوة مسلمون من بنما (من أصول هندية وباكستانية)، وهم مجموعة من الإخوة المسلمين يقومون بين الوقت والآخر بجولات (زيارات) دينية في أمريكا الوسطى وغيرها، يخصصونها للتعبد وزيارة الإخوة المسلمين دون القيام بأي عمل تجاري خلال هذه الجولات. صلينا في المعهد (ابنائي نجيب وكريم وأنا) وامدونا بمسابح لكل منا حيث أن ولديّ مسلمان منذ فترة قبيل هذه الزيارة وكنت اشعر بالحرج مع كل اخ مسلم زائر عندما يسألني عن المسلمين هنا في السلفادور كنت اطلق لحيتي بالسنة ولكنني حلقتها بسبب الحساسية والحبوب التي تظهر عليها خلال اطلاقها.

عام ١٩٩٢ سافرت الى الولايات المتحدة للمشاركة فى مؤتمر نادى كيواني العالمي وعند العودة من المؤتمر كنت انتظر الطائرة المتوجهة الى السلفادور فى مطار ميامى فى الولايات المتحدة وكان ذلك يوم ١٩٩٢/٦/٢٦م فتقدم نحوي بضعة اشخاص كانوا ينتظرون نفس الرحلة وسألونى ان كنت اعرف الدكتور «احمد ارمانو بقيلة» في سان سلفادور؟ فسألتهم بلورى لماذا؟ فأجابونى بأنهم يريدون ان يقولوا له بانها اللحظة المناسبة لتدشين عمل اسلامي فتعرفنا على بعضنا وقدمنا معا فى الطائرة وكانوا إخوة مسلمين من أصول هندية وباكستانية.

عند الوصول ذهبوا الى الفندق وسألوني اين المسلمون هنا واين المسجد ، شعرت بحرج شديد تذكرت البناية التى كنت قد اشتريتها حديثا فصممت في داخلى على جعل طابقها الثالث كله مسجداً وذهبت الى النادى العربى السلفادوري علنى اجد مسلماً فوجدت اثنين

احدهما كان فى زيارة للسفادور يبحث عنى فذهبنا نحن الثلاثة وأحضرنا الاخوة الآخرين وكان مجموعنا ثمانية اشخاص وفرشنا قطعة قماش على ارض الطابق الثالث من بنايتى وحددنا القبلة ووضعنا علامتها بشارة قلم احد الاخوة وارتفع صوت الآذان وصلينا أول صلاة جماعية فى السلفادور منذ زمن الاستعمار الاسبانى الذى كان قد انهى وجود المسلمين من خلال القتل والضغط.

يوم ١٩٩٢/٦/٢٨ وضعت اعلاناً فى الجريدة اليومية عن تأسيس المركز الاسلامي العربى السلفادورى في مكانه الحالى ووضعت كل تلفونات تجارتى كى يتيسر على الراغبين الاتصال والتعرف على الاسلام والثقافة الاسلامية وهذا التاريخ نحن تعتبره تاريخ تأسيس العمل الاسلامي فى السلفادور.

يوم الجمعة التالى اعاننا الله على خطوتنا وقدم شخصان حيث اعلنا شهادتهما وهكذا بدأت الناس بالاتصال والقدوم الى المركز وبعون الله ثم بعون بعض الاخوة اصبحنا الآن نمتلك جالية اسلامية للسلفادور فالحمد لله..

وكتب اليّ ما يلي:

فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي - حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أرسل لكم أسماء أعضاء الجالية ذات الأصل العربي الذين ساهموا معنا في تكاليف الملف الصحفي الخاص عن الثقافة العربية والإسلامية، وها هي أسماؤهم:

أ) أسماء الأشخاص الذين ساهموا من خلال الإعلانات التجارية:

«الخريج خورخي سابلاء توتشي - الدكتور أرمانو بقيلة قطان (مسلم) - دون ألفريدو حزبون - الدكتور ڤيكتور سلهي ز - دون سلڤادور إيميليو بندق - دون ريتشارد عصفوره ز».

ب) أسماء الأشخاص الذين ساهموا بالدعم المالي:

«دون أوسكار أنطونيو صافيه ز - دون خورخي إيميليو زيدان ب - المهندس فرانسيسكو ميغيل ز - الدكتور أرمانو بقيلة قطان (مسلم) - دون خورخي إلياس بهايا غ - دون خورخي بهايا هيها - دون ألفونسو سابلاد - الدكتور ڤيكتور خورخي ساكا - دون إيميل غطاس - دون خيمي زيدان ك - الخريج رولا ندوخ سيمان - دون خورخي دورة - الخريج ريكاردو سيمان د - دون علي شلبي (مسلم) - المهندس خورخي حزبون م - دون إيميليو سابلا هـ - دون خيمي دحبورة - دون حسين عبد اللطيف (مسلم) - دون ألخاندرو مهر - دون سمعان خوري - السادة بيهيت إخوان»

ج) أسماء الأشخاص المسؤولين عن التحرير والمعلومات:

«الخريج روي ألفونسو أرتشيلا (مسلم) - حسين عبد اللطيف (مسلم)»

د) المنسّق، الناشر والمسؤول عن الملف الصحفي الدكتور أرماندو بقيلة قطّان - المركز الإسلامي العربي السلڤادوري.

أيها الشيخ الفاضل:

نود أن نحيطكم علماً بأن وقع الملف الصحفي المذكور كان حسناً جداً، حيث أعاد إيقاظ المشاعر العربية لدى الجالية ذات الأصل

العربي، وأصبح الكثير من أعضائها يمتدحون المركز الإسلامي على هذا العمل الرائع ويطالبون بنشر ملفات أخرى. والأهم أنَّ وقع الإسلام لديهم رغم أنهم كلّهم مسيحيّون أصبح وقعاً مستحسناً ومشجعاً.. وكذلك ظهرت الجالية ذات الأصل العربي موحّدة أمام الحكومة والشعب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

هذا وقد اصبح المركز الاسلامي السلفادوري هذا منذ ان نشر الملف الصحفي عنه مرجعا للباحثين عن المعرفة بالاسلام، وساعدت طريقة صاحبه ومنشئه الاخ المهندس (ارماندو بوكيلو) «احمد بقيله» على ذلك، إذ لم يكن يعنف من حضر الى المركز ولم يقتنع بالاسلام، أو بما عرفوه منه، فكان يعرض المعرفة لاول مرة فى جو من الحرية التى ألفها القوم فى هذه المنطقة، ويقول لهم: كما انتم أحرار فى ترك الدين الذي كان عليه آباؤكم، فأنتم بطبيعة الحال أحرار فى اعتناق الدين الذى تطلعون عليه الآن.

بل انه كان يأذن حتى لغير المسلمين بالصلاة مع المسلمين من باب الاطلاع ومعرفة كيف يصلي المسلمون، ويعلل ذلك بأن هذه هي الطريقة المثلى لاجتذاب أمثال هؤلاء القوم الذين عاشوا فى جو لا يذكر فيه الاسلام بخير، لأن اليهود وبعض أصحاب الأهواء من دعاة النصرانية قد ألصقوا بالاسلام أشياء ليست منه، والحقوا به زوراً وبهتاناً نقائص وعيوبا هو منها براء.

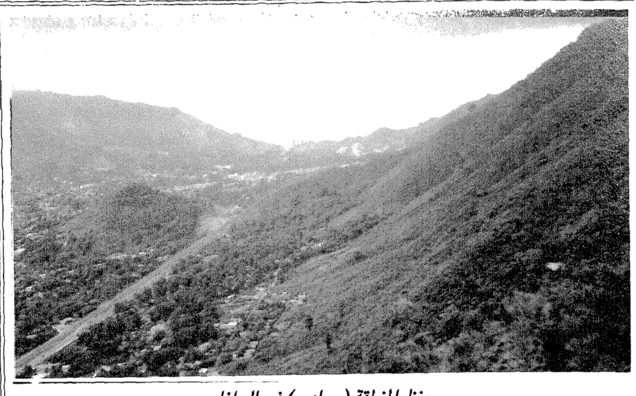
ولم يقتصر الأمر على هذا الذى وفره المهندس (احمد بقيلة) لمن يرتادون المركز يبغون المعرفة بالاسلام، وإنما صار يرصد ما ينشر في الصحف أو حتى فى المنتديات، أو المفتريات التى تلصق بالاسلام فيرد عليها فى الصحف وحتى يتسنى له الكتابة لرئيس الجمهوية فى ذلك.

من بيليز الى سان سلفادور:

غادرنا بيليز مع شركة (تاكا) السلفادورية للطيران فى الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة والأربعين وكان الموعد المذكور لقيام الطائرة هو الثالثة والدقيقة الاربعون فتأخرت الطائرة عنه بثلاث دقائق، ومعنى هذا انها قامت فى موعدها المقرر سلفا على وجه التقريب وحالما نهضت من المطار صارت تطير فوق ضاحية المنطقة الشمالية التى يشقها نهر بيليز بمياهه الصافية التى تبدو سوداء من الطائرة وكأنها هي مياه بحرية ثم اخترقت الطائرة سحابا اسود ثقيلا كان يرين على الأفق.

وقد وصلت الطائرة الى منطقة ملبدة بالسحب الثقيلة، وهي فوق منطقة جبلية لذلك اضطربت الطائرة وصارت تتمايل فى اضطرابها وكأنها السفينة التى تتقاذفها الامواج، ولم يهدأ اضطرابها حتى شمرت عن ساعديها وتخلصت من تلك السحب الثقيلة بأن ارتفعت عنها وصارت تطير بين طبقتين من الغيم تحتها السحب الكثيفة وفوقها غيم شامل خفيف.

ولم يدم ذلك منها طويلا، حتى وصلنا الى قرب (سان سلفادور) فنزلت الطائرة من عليائها، وصارت تتدنى وهى تتدلى



منظر المنطقة (ميرادور) فى السلفادور

فوق ارض سلفادور السندسية العجيبة المنظر وظهرت البحيرة التى تقع الى القرب من العاصمة تحيط بها الجبال الخضر التى لا ترى منها الا اشجارها فكأنها الاشجار الخضر المتراكمة التى يركب بعضها بعضها او التى يتطاول بعضها على بعض.

ثم ساحلت الطائرة بمعنى انها صارت تطير فوق ساحل البحر وهو من المحيط الهادىء العظيم الذي نعرفه فى بلادنا في جهة الشرق وقد صار الآن فى جهة الغرب من السلفادور.

العجب الغريب فى هذا الساحل البحري انك ترى الأرض من الطائرة الملاصقة للشاطيء او القريبة من ان تكون كذلك وهي خضراء خضرة البساتين الريانة، وذلك لكثرة الأمطار التي تغسل أرضها وتذهب بالملوحة فيها الى مياه المحيط.

وقد زاد المنظر روعة أنها الى جانب هذه البُسط الارضية السندسية القريبة من البحر توجد أمواج المحيط التى لا تفتأ تغسل رمال الشاطىء ويثير غسلها ذلك رغوة بيضاء كروغة الصابون ممتدة مع امتداد الساحل.

ثم تياسرت الطائرة وكانت قبل ذلك تطير شمال العاصمة مُوَلِّية وجهها شطر الجنوب وقد زاد انخفاضها قاصدة مطار السلفادور الذي يمكن ان يسمى بذلك كما اسماه اهله حيث اضافوه الى البلد كما يمكن ان نسميه فى عرفنا بمطار (سان سلفادور) اضافة الى العاصمة (سان سلفادور) والعاصمة تبعد عن شاطىء المحيط. كيلو متر واحد.

المطار السلفادوري:

هبطت الطائرة في مطار (إلسلفادور) ولابد من ملاحظة أن الهمزة في اوله مكسورة اذا كنا نحكيه كما يلفظ به اهله وكما هو مكتوب عليه اما اذا كنا نقصد ترجمة اسمه فانه يكون بفتح الهمزة لأن (إل) في أوله هي اداة التعريف بالاسبانية للمفرد المذكر وهي بكسر الهمزة قبل اللام أما اذا ترجمناه وقصدنا بها (أل) التعريفية في العربية فاننا نفتح الهمزة.

وعلى أية حال فان باب القطر السلفادوري قد فتح لنا منذ ان فتحت المضيفات السلفادوريات بابها للخروج.. وكان هبوطها في الرابعة والنصف وخمس دقائق بعد ٥٠ دقيقة من الطيران.. ألقموا الطائرة باب دهليز متحرك جيد ووصلنا بسرعة الى الجوازات وكانت التي على المكتب الذي وقفنا عنده ضابطة أبقت جوازي بين يديها فترة تتأمله وتتفرج برؤيته ثم ختمته، لأنه ليس فيه ما يستدعي التوقف غير غرابته وغرابة الملابس العربية في صورتي فيه إلا أنني احمل سمة دخول سياسية (دبلوماسية) من سفارتهم في مدينة مكسيكو.

وعند ضابط الجمرك رأيتهم يشددون على الناس في التفتيش اي لا يتسامحون في المرور دون تفتيش اما التفتيش نفسه فانني لا ادري عنه شيئاً لاننا لم نقف عندهم وهم ثلاثة رجال وامرأة في متوسط العمر صدف ان مررنا بها فافسحت الطريق بسرعة بسبب جوازي (الدبلوماسي) وكذلك فتحت الجواز عند الخروج من ركن الجمرك لأن فيه موظفين يتسلمون بعض الاوراق والتي كان الركاب قد ملأوها متعلقة بالجمرك او يطلعون عليها.

والجميع يتسم عملهم بالدقة والمرونة وهم مهذبون مع القادم كما رأيتهم.

ومن هناك قبل الخروج من مبنى المطار وقفنا عند مكتب لخدمة السياح لنسأل عن فندق نحجز فيه لأننا ليست لدينا معرفة بالفندق المناسب الذي سنسكن فيه، فوجدنا التنظيم العجيب المريح فقد بسطوا امامنا قائمة مكتوبة بالانكليزية للفنادق وأمام كل واحد منها الأجرة الليلية التي يتقاضاها عن الغرفة.

وقد طلبنا منهم ان يختاروا فندقاً في قلب المدينة التجاري فاشاروا الى اسم واحد هو (فندق ريتز) الذي يقع في قلب المدينة كما اخبرونا واجرة الغرفة فيه ٣٣ دولاراً امريكيا وهذا سعر رخيص لاسيما بالنسبة الى اسعار الفنادق في بيليز

وسألتهم عن اجرة سيارة الأجرة من المطار الى الفندق فذكروا رقما استكثرته وهو (١٤) دولارا امريكيا إلا أنني عرفت بذلك ان هذه الاجرة قليلة لبعد المدينة عن المطار، اذ تبعد عنه ٤٨ كيلو متراً في أرض جبلية غير مستوية بل هي مليئة بالمنخفضات والمرتفعات وان كان الطريق جيداً بحيث لا يحس الراكب بذلك وانما يراه وخرج معنا موظف رسمي يطمئن على ركوبنا في سيارة الأجرة التي وجدنا صاحبها رجلا سمح الوجه، يحمل على صدره بطاقة مدلاة تدل على انه يحمل رخصة العمل ما بين المطار والمدينة وهذا من باب التدقيق إضافة

الى كون الموظف فى مكتب السياحة قد حضر معنا ووقف حتى سرنا بالسيارة من عنده.

من المطار الى العاصمة:

والسبب فى تخصيص عنوان لهذا الموضوع الذى لا يستحق عنوانا فى الاحوال المعتادة هو ما ذكرته عن طول المسافة وللمفاجأة التى سببتها لي مرونة هذا الطريق على غير ما تخيلته أو لم يحدثنى عنه احد من قبل.

انطلق السائق الرسمى بسيارته والمراد برسميته أنه يحمل بطاقة رسمية معلقة على صدره وذلك بطبيعة الحال آمن للراكب وأدعى لاطمئنانه وجعل يتكلم بالاسبانية كلاما معتادا فسألته عما اذا كان يعرف الانكليزية فنفى ذلك فرجعت الى كلمات وجمل قليلة من الاسبانية فصرت اتكلم بها معه.

ومن ذلك أننى سألته عن الأمن هنا، فقال: اللصوص قليل لأن الشرطة كثير وقد سارت السيارة مع طريق غاية فى الجمال بل الروعة، وليس ذلك لطيب حالة الطريق وحدها فهى جيدة ولكن لطيب المنطقة التى تخترقها فهى خضراء غاية فى الخضرة وهى تتألف من رُبَى مجللة بالاخضرار تطل عليها جبال غير بالغة الارتفاع ولكنها بالغة الخضرة.

وينتقل البصر فيها مع انحدار السيارة مع الطريق من ربوة خضراء الى طريق اخضر وقد بنوا الطريق على الانموذج الحديث بحيث سهلوا من الأماكن المرتفعة، ودفنوا بعض الاماكن المخفضة فصار سلسا مريحا.

ويرى المرء المنطقة المحيطة بالطريق تخترقها فى بعض الاحيان وديان او مجارى مياه لا ترى منها الا الأشجار المتسلقة بحيث لا تعرف طبيعة الارض لأنها كلها مكسوة بالخضرة الشاملة. الى جانب جبال ذات شعاب مما جعلنى أعرف سر بقاء الثورة اليسارية سنوات طوالا من دون ان تستطيع الحكومات المتعاقبة القضاء عليها.. وذلك ان الثوار يستطيعون ان يختفوا فى شعاب الجبال واذا اضطروا الى الانتقال منها او التنقل فى غيرها كانت لهم من أشجار الغابات جنات، جمع جنه وهي الستر الكثيفة.

وبينما كنت أمتع بصرى وفكرى بهذه المناظر كان السائق يثرثر بما لا افهمه من الاسبانية حتى اذا فطنت لكلمة يقولها بين كلامه المتلاصق لكلمات اعدتها عليه وظن انني فهمت كل كلامه فزاده ذلك ثرثرة الى ثرثرة.

غير إننى لم اكن اعجز عن ان أتبادل معه فهم بعض الكلمات والجمل لأن اللغة الاسبانية مثل البرتغالية في سهولة تعلم لغة المخاطبة فيها بخلاف لغة الكتابة او اللغة الادبية فانها صعبة.

وقد لاحظت ان الذي لا أعرفه بالاسبانية كنت اعبر عنه بالبرتغالية فيفهم منى ذلك بسرعة مثل (لادرو) بعنى اللص فهو فى اللغتين سواء ولا غرو فى ذلك لان اساس اللغتين الاسبانية والبرتغالية واحد. كما هو معروف.

والحقيقة ان هذه البلاد السلفادورية لم توصف فى بلادنا العربية بما يجب ان توصف به من جمال وهذا ما اتضح لي فيها منذ الآن

كما أنها لم توصف بما يتحلى به شعبها من بساطة وحسن معاملة مع الأجانب وهذا ما اتضح لي بعد ذلك، وانما كان الذي لدينا فى البلدان العربية عنها انها بلاد عشوائية مختلطة الأعراف والألوان كدرة السمات واهلوها مغرمون بالثورات والحروب المتواصلة.

ولقد عجبت وانا الذي زار العالم كله وتجول فى المناطق الاستوائية أن تكون هذه البلاد الاستوائية بمعنى أنها واقعة داخل الدائرة الإستوائية وإن لم تكن واقعة تحت خط الاستواء.

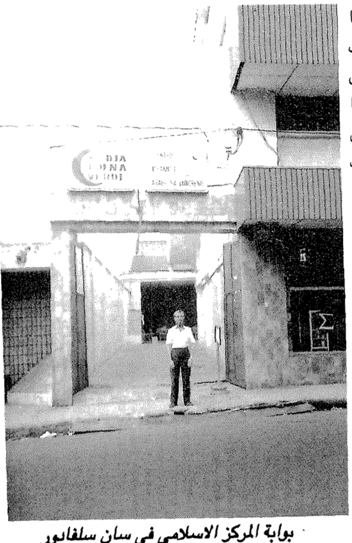
مدينة سان سلفادور:

ومعنى اسمها (القديس المنقذ) لأن سان هو قديس عندهم وسلفادور: المنقذ ويراد به المسيح عليه السلام.

وصلنا طلائع المدينة وقد جللت الافق الغربي سحب سوداء كثيفة فقلت للسائق (منشوشوفا) اى مطر كثير فقال: لا مطر لأن موسم المطر لم يحن بعد.

وقد انحدرنا الى المدينة مع انحدار ثلة من التلال الخضر التى تتألف منها المنطقة وتبين أن هذا الانحدار سيكون الى ارتفاع داخل المدينة وقد تسلقت الأحياء الشعبية غير الوجيهة أقدام التلال الخضر حتى بدا بعضها كأنه الكتب المصفوفة فى رفوف بعضها فوق بعض.

ولاحظت أنه مع وجود هذا الجو الجميل والمناظر الجميلة فان هناك اكواما من القمائم



بوابة المركز الاسلامي في سان سلفادور

فى الاماكن الضيقة فى الشوارع والأرصفة حتى فى شوارع الأحياء المتعلقة باذيال التلال ملقاة على هيئة التجميع كأنما تنتظر من ينقلها ولكن من الواضح انها كانت كذلك فتركت حتى أحرقت من السكان لأن رماد قمائم سابقة يكسو ما حولها.

وبعد الانخفاض الذي أوصلنا الى طلائع المدينة من جهة المطار وهي اطرافها من جهة قلبها التجارى بدأ الارتفاع مرة ثانية وسط بيوت ترتفع ايضا مع ارتفاع الطريق وقد اصبحنا فى المدينة نفسها.

هذا وقد نزل المطر مدرارا واستمر منهمرا مما اضطر معه السائق الى مواصلة مسحه فى زجاج السيارة بالمساحات الكهربائية التى كانت تشوش علينا المناظر لا سيما مع المطر والظلام الذى ملأ الأفق من ظلام السحاب وظلام الغروب.

واستمرت أحياء المدينة المتعددة فى الصعود والهبوط وسائق السيارة يتلوى مع تلوى الطريق بين هذه الأحياء مما جعلنى أشعر بأننا قد غبناه حينما رضى ان ينقلنا باربعة عشر دولارا من المطار الى المدينة.

ووصلنا القلب التجارى للمدينة ذا المتاجر المتراصة والأرصفة الجيدة المزدحم بالناس الذين الجأهم المطر الغزير، إلى الاحتماء بالحيطان التى تظلها شرفات الابنية وكأن المطر الغزيز قد فاجأ سائق سيارتنا لأنه نزل قبل موعده بأيام. ووقفت عند باب الفندق الذي نقصده ولكن المطر كان شديداً الى درجة أننا لم نستطع حتى الانتقال منها وهي واقفة أمام بابه فى موقف خاص به الا بعد أن حضر عامل معه شمسية أو إن شئت قلت: مطرية كبيرة نزلنا فى ظلها الى الفندق.

وتلفتّ ألقي نظرة على هذا القلب التجارى فوجدته جيدا الا ان الظاهرة الموجودة فى بلاد الملايو وبلاد الهنود الامريكيين وهى البيع على الرصيف تبدو هنا بشكل ظاهر وقد انزوى الباعة عن المطر وكوموا بضائعهم عن المطر.

وجدنا فى مكتب الاستقبال فى الفندق فتى سلفادورياً لا يعرف الا الاسبانية فلا يعرف من الانكليزية شيئا رغم كون الفندق كبيرا وواسعا ومشهورا هنا ومستواه مستوى ثلاث نجمات جيدة او اربع غير جيدة.

ولكن تبين ان هذا الفتى على غاية من الرقة وحسن المعاملة والبساطة فى التفكير شأن الكثير من اهل البلاد.

أرانا الفتى قبل ان يسجل نزولنا في الفندق غرفه فوجدناها واسعة جيدة فى كل غرفة سريران وتلفاز ملون وهاتف ومكيف وجميع مرافق الفندق واسعة لأنه قديم الا انها غير مفروشة والأجود من ذلك انه على نظافة الغرف فإن أجرة الغرفة الواحدة هي ٣٢ دولاراً أمريكيا.

ولو قسنا هذه الاجرة بأجرة فندق بيلفيو فى (بيليزستى) لكان هذا يستحق مائة وخمسين دولارا على الأقل.

نزلنا فى الغرف مسرورين والأهم من ذلك اننا شعرنا شعوراً ذاتيا بالأمان الذى كنا نتخوف من الا نجده فى هذه البلاد التى كانت مضطربة فى القديم.

ونزلنا للتمشى حول الفندق ولكن المطر وهجوم الظلام منعنا من ذلك وعدنا الغرف التي لابد فيها للمكيف لأن فتح النوافذ التى وجدناها زجاجية عريضة يخشى ان تدخل منه حشرات لاسعة ولذلك لابد من تشغيل المكيف للتبريد وتبديد الرطوبة.

«للرحلة صلة»

ما أجمل طبيعة الأرض حينما تكون في حلة خضراء زاهرة زاهية، تبهر العيون وتخلب الألباب، ويغوص فيها كل مفكر وأديب، رحت أتأمل الحديقة البديعة الممتدة في الحي الذي أقطن فيه وقد اكتست بالخضرة والأشجار الوارفة والأزهار مختلفة الألوان والمياه الرقراقة تجري في ذلك الجدول الذي تقع عليه الحديقة، ومنذ شهر عندما كنت واقفاً في نفس هذا المكان ألقى بنظرات يشوبها شيء من الأسف والأسى، فقد كان بياض الثلج الناصع يسيطر على الحديقة فتنعدم الألوان فيها مجرَّدة من كل شيء غارقة في حزن وكآبة، مرتدية ثوبها الأبيض مثل بعض الشعوب التي ترتدي اللباس



فتحي
عبد الحميد
المراغي
- مصر -

الأبيض في أحزانها، فالأشجار قد تعرّت تماما من أوراقها وذبلت الورود ودفنت سيقانها تحت الثلوج فاختفت معها ابتسامات زهورها، سبحان الذي يغير ولا يتغير. مضت فترة صمت غير طويلة لم يتناه فيها إلى مسامعي سوى صفير رياح يتسلل بين أوراق الشجر، وزقزقة العصافير فوق الأغصان، وصوت موتور السيارة «الكومبي» المخصصة للرحلات لتأخذنا في رحلة تاريخية كنا قد أعددنا لها منذ اسبوع مضى عندما كنت مع الأصدقاء في قرية «باروم» وجزيرة «ايفا» فزيارة المناطق الأثرية هي فرصة لمثلي كي يتعرف على تاريخ وحضارة السويد فهي الأسلوب الأمثل والطريقة الصحيحة لمعرفة جذور البلاد الأمر الذي ينعكس بدوره على ما بها من ثقافات وهو ما فعله الغرب من زمن لدراسة تاريخ الشرق مما عاد عليهم بالنفع الوفير فأصبحت هذه الدول كما نعرفها الآن قمة في التقدم والرقي.

تحركت السيارة في تمام الثامنة صباحا وكان يقودها «اوستافن» وهو سائق ماهر يعرف خبايا المسالك والدروب، جلست بجانبه لأتمكن من سماع شرحه ومعرفته الواسعة وعلمه الغزير، وفي المقعد الخلفي جلست «سلمى» و«اليزابيث» وإلى جانبها «ايفا» زوجة صديقنا الطبيب التونسي الذي اعتذر بسبب عمله في المستشفى، أخذت السيارة تجوب شوارع المدينة المزدانة بزهور تنمو في أشكال مختلفة من دوائر ومربعات ومثلثات منسقة جميلة تبهر الأنظار، وما أن انحرفت

السـيـارة إلى طريق طويل مـتـسع أرضـيتـه ملسـاء تطويه السيـارة فى سهولة ويسر حتي رأيت على جانبي الطريق منازل أنيقـة يتكون كل منها من طابقين وسـقـوفـهـا جـمـيـعـاً مـخـروطيـة وهى مـتناسـقـة فى لون واحد ومـحـاطة بحدائق غنية بأنواع نادرة من الورود وأشـجـار التـفـاح التى مازالت براعمها لم تتفتح بعد، أخذت السيـارة تنهب الطريق تاركة وراءها تلك الأبنيـة وأسـراب الزهور وانسـابت إلى طريق آخـر ضـيق محفوف على جانبيه بأشجار وارفة الظلال تتـلاقى أغـصـانـهـا وتتعـانق فتـحـجب شـعـا ع الشـمس الخـفـيف وراحت السيارة تواصل سيرها بين مطالع جـمـيلة وربى مـزهرة، وقـرى صـغـيـرة عامـرة بسكانها وطيـورها وحيواناتها، ومـزارع ضـخمة لتربية الأبقـار وسط الحـقـول اللانهـائيـة ويستـخدم الفلاحون فيـها التقنية



احد أحجار الفايكنج القديمة منقوش عليها بلغتهم.

الحـديثـة فى الزراعـة، وبعـد أربعين دقـيـقـة قطعت السيارة خلالها ثلاثين كيلو متر جنوب مـدينة «كـريشـان اسـتـاد» توقـفت السـيـارة بجانب حـديقة متسعـة كبيرة، نزلنا وترجلنا نحوها وسلكنا دروباً حجرية ضيقة ستـصل بنا إلى الربوة العالية الواقـعة فى أعلى قمة الهضبة، وبينما كنا نتسابق صاعدين الطريق المؤدي إلى قـمـة الربوة كـان الهـواء يرسل نسيمـه العليل، فنشـواه قد أخذت منى مأخذا

مما شـجـعنى على الصـعـود فى سـبـاق مع الرفـاق، فـالشـمـس مـشـرقـة فى ذلك اليـوم الصـيـفى الجـمـيل وتقع هذه الربوة فى بلديّة «ديجابرجا» التى تبلغ مـسـاحـتـهـا ١٨٤ كم ويعـيش فـيـهـا حـوالى ٤ آلاف نسـمـة، وإلى الجنوب من كنيـسـتـهـا القـديمة تقع مـدينة (فـوسكار) حيث يقع أعلى مـسـقط مـائى فى جنوب السـويد، الذى يبلغ ارتفـاعـه مـا بين ثمانية وعشرة أمتار، وأرض المنطقة سهلية

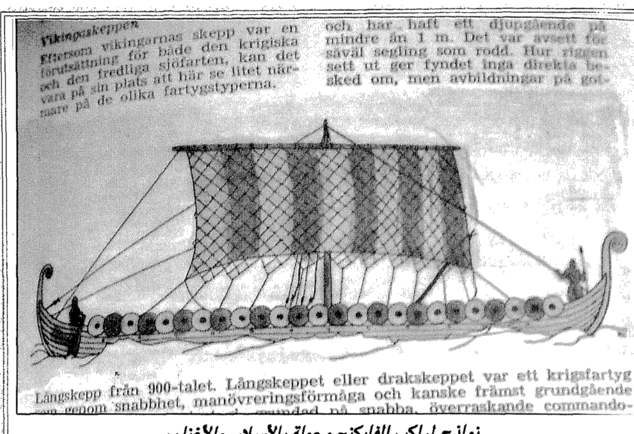
خـصـبـة واسـعـة، وهـى قـريـبـة من مـدينة «كـريشـان اسـتـاد» وتتـبـع المدينة إقليم «اوسـتـرلين» التى تعنى الأرض المشـرقـة، واصلنا الصـعـود حـتى بلغنا قـمـة الربوة، وظهـرت المدينة واضـحـة تطل على بحـر البلطيق.

فوق الربوة لفت نظرى سفينة صنعت من الحجر كان قد صنعها ملوك الفايكنج وهى ترمز لشروق الشمس التى تلقى بأشعتها على المركب الذى صقلت جوانبه فتنعكس عليها أشعـة الشـمس وترسله إلى البـحـر أسـفل الربوة، ومن هذا الضوء المشع للشمس تتضح معـالم خطوط الملاحـة وكانوا يتخذونه كفنار لهـداية السـفن التى ترسـو على الشـاطىء وانعكاس أشـعـة الشـمس من فـوق الحـجارة المصـقولة فكرة فرعونية قديمة استخدمها الفراعنة عندما كسوا قمة الأهرامات بأحجار حجرية كى تعكس أشعة الشمس على المقابر المحيطة بالهرم وكذلك انعكاس الشـمس على قمة المسلة الهرمية المصقولة لتضيء مقدمة المعبد لجذب الناس إليه.

رحنا نطوف المكان فـوق الربوة العـاليـة حتى اقتربنا من ذلك الشلال الذى يسقط منه الماء منحـدراً على التـلال والرُبى ليـصـب فى الجدول أسـفل الربوة ليـروي سـهـولا ووديانـاً كثيـرة تحيط بالمنطقة وكلما اقتربنا من ذلك الشلال أسمع صوت الماء يندفع كالرعد كأنه فى ثورة غضب فالمياه غزيرة وتندفع بسرعة إلى أسـفل حـتى تهـدأ وأسـمـع خـريرها وهديرها وهى تصب فى الجـدول الذى يمتـد فى السهول المنبسطة التى تحيط بالمنطقة.

بدأنا نسلك الطرق الوعـرة بالقـرب من الشـلال حـتى وصلنا إلى مـسـاحـة خـضـراء مـسطحـة، افترشنا مروجها فـالعشب أخضر لامع أملس كالحرير، وكان خرير الماء يسرى فى الفضـاء كأنه نغمـات موسيقـية أصيلة، فتحت سلمى جهاز التسجيل فتصاعدت منه موسيقى غربية راقصة فاندمجت الأصوات وتناغمت وأخذت ترن فى أذنى كخليط تآلف فى انسجام ، أخرجت من حقيبتى «ترمس» فنزعت سـدادته وصـبـبت منه فى الاكـواب خليطا من مشروب الكركديه المصرى وشراب «العليق» السويدي فصنعت منهما - كوكتيل - خليطاً من النوعين فكانت مفاجأة أسـعدت الجـمـيع، فـأحـيـانا عندمـا يبتكر الإنسـان مشروباً كخليط من أشياء كثيرة فهو بلا شك يعطي مذاقاً لذيذاً وكلمة «كوكتيل» تتكون من «كـوك» بمعنى الديك و«تيل» بمعنى الذيل أى ذيل الديك فى شكله الجميل المتعدد الألوان.

تركت الأصدقاء يترعون فى هذا الشراب وتسللت بمفـردى حـتى وصلت إلى شـاطيء الجدول الذى ينساب فيه الماء فى هدوء وفى رشاقة، يحدث خريره نغمة هادئة تعشـقها النفس الحـالمة أو الروح الهـائمـة، وراحت عيناى تحـومـان فى المكان فـالتـقطت صـورة شاملة له، فجذبتنى تلك الصورة الانطباعية للأشجار الباسقة بفروعها المتشابكة المورقة، وأبراج الكهرباء المديدة تأخذ خطوطا متعددة واتجـاهـات مـختلفـة تحـاكي طواحين الـهـواء القـديمة والتى أرى بعـضـاً منهـا على قـمـة الربوة بالقرب من مراكب الفايكنج، ومما زاد اللوحة جمالا تلك الخضـرة المترامية أمامى فوق المرتفعات وفى المنخفضات حـتى غطت الصخور الجرانيتية السوداء التي ينحدر منها



نماذج لمراكب الفايكنج محملة بالأسلاب والأغنام.

الماء وتكتمل الصورة الجميلة بالطيور مختلفة الأنواع والألوان، فالمكان هادىء ساكن جذاب جعل خيالي يسبح بي، وأخذت الخواطر تترى عليّ وأتذكر ما هو بعيد عني، وبالطبع فأنا لست الوحيد الذي جذبه هذا المكان فهو يجذب الكثير من الكتاب والفنانين والرسامين المبدعين يأتون إليه من حين لآخر كي يستوحوا من طبيعة المكان الخلابة الصور الانطباعية التي تساعدهم على الإبداع والإنتاج الفني الغزير ويرجع تاريخ هذه المنطقة إلى عصر ملوك الفايكنج المعروف عنهم أنهم كانوا رعاة وقطاع طرق صعاليك وحكاماً لكل البلاد الاسكندنافية وإذا رجعنا إلى أصل كلمة «فايكنج» نجد أن كلمة «فيك» تعني «فيورد» أو «خليج» بمعنى أن فايكنج هم رجال وملوك الخلجان المعروفة باسم الفيوردات لأن أصل هؤلاء الملوك ونشأتهم كانت وسط الثنايا الضيقة الممتدة التي توجد بكثرة على الشاطىء الاسكندنافي وتعلم هؤلاء الرجال هناك فن ركوب البحر، ونتيجة لطبيعة المكان القاسية خرج هؤلاء الرجال غلاظاً قساة، وقد جاء في الملاحم الإيسلندية المعروفة باسم «ساجا» أن الفايكنج «الفيك انجز» كانوا ينظرون إلى العالم على أنه مسرح للمغامرة والجرأة حتى أنهم كانوا يهاجمون كلب البحر والحوت والدب، وعمل الفايكنج على إنشاء مدينة عظيمة جنوب السويد، وانتسج في خيالهم صورة مليئة بصفات مدينة «ميكلا تجارد» الرومانية البيزنطية وأطلقوا عليها اسم «ميكلاجارت»

أي المدينة العظيمة، وربما يكونون هم أيضا الذين أنشأوا مدينة «ميكلاباير» الإيسلندية والتى تعنى المزرعة العظيمة، ومن هذه المدينة انطلق الفايكنج يغزون العالم كما عرفوا الطريق إلى البحر المتوسط وأبحروا إليه بطريقتين الأولى: جهة الغرب، والثانية عبر روسيا من بحر البلطيق وهو نفس الطريق الذى سلكه بعد ذلك أقرباؤهم من الفيك انجز السويديين الذين أقاموا مدينة «بيركا» بالقرب من شلال «فوسكار» الذى أتمتع برؤيته وكان الفايكنج من قبل قد وصلوا إلى جزيرة «جرين لاند» وهى جزيرة ثلجية شاسعة تحت حكم الدانمرك الآن، وتقع بالقرب من القطب الشمالي، كما وصل الفايكنج قديما إلى امريكا عام ٩٠٠م، كما قاموا بمحاولات للاستقرار هناك فاستقروا بمنطقة فين لاند إلا أنهم لم يتمكنوا من الإقامة فيها سوى سنتين والسبب ظهور قارب من الجليد يحمل جماعة من الهنود الحمر المنقوشى البشرة الأمر الذى أدى إلى خوف أهل الشمال من الفايكنج من هؤلاء الهنود الغرباء عنهم فى اللون واللسان هذا بالإضافة إلى أن أهل الشمال كانوا قليلى العدد وبعيدين عن أوطانهم فجمعوا أمتعتهم وركبوا سفنهم عائدين إلى بلادهم.

ومن الراجح أن الفايكنج بدأوا فترة حكمهم عام ٧٩٣م أى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وفى العصر المسيحى كان هؤلاء الفايكنج تجاراً ناجحين عملوا على الاتصال بالشرق والغرب. ولم يكن تاريخ الفايكنج تاريخاً للسويد فقط بل هو تاريخ لكل الدول الاسكندنافية، وقاموا برحلاتهم المعروفة التي تنقسم إلى أربعة أقسام:

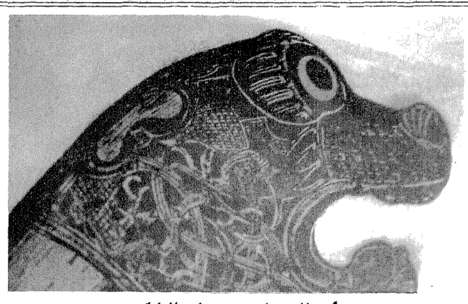
الرحلة الأولى: رحلات بحرية وبدأت عام ٨٠٢م وكان على رأسها ملوك الدانمرك من الفايكنج، ويذكر أن ملك الدانمرك «جود فريد» كوّن أسطولا من ٢٠٠ سفينة حربية عبر بها بحر الشمال للإغارة على الأراضى والبلدان العامرة فأعملوا فيها الهدم والتدمير.

الرحلة الثانية: كانت حملات خاصة لنهب المعابد والكنائس والمناطق الدينية الغنية في انجلترا وغيرها من البلاد المجاورة.

الرحلة الثالثة: حملات استعمارية كان الهدف منها الإقامة وبناء مستوطنات جديدة ومعظم هذه الحملات كانت فى اتجاه الغرب، فغزا الفايكنج شمال فرنسا وانجلترا وايرلندا، وأقاموا فى ايسلندا وفاروس وجزيرة جرين لاند ، أما فايكنج السويد فقد هاجروا ناحية الشرق إلى روسيا والهند والصين.

والرحلة الرابعة: لحملات الفايكنج البحرية كانت عبارة عن رحلات تجارية وصلوا بها إلى بلاد الهند والصين واسطنبول وبغداد فى العراق عن طريق بحر قزوين.

أما عن العبادة والديانة عند الفايكنج فقد تعددت عبادتهم للآلهة - حسب زعمهم - واستمروا فى عبادتها رغم دخول المسيحية إليها على يد الراهب الفرنسى «سنجار» الذى قدم من الامبراطورية الكارلونجية فى أوائل القرن التاسع الميلادى، وظل الحال هكذا إلى أن انتشرت المسيحية فى السويد فى القرن الثانى عشر الميلادى وبدأت المسيحية فى الانتشار داخل الأراضى السويدية رغم وجود



رأس التنين احد معتقدات الفايكنج.

المعتقدات الدينية القديمة إلى أن اتحدت السويد وفلندا فى مملكة صليبية واحدة وفى هذه الفترة قويت المسيحية هناك وبنيت أول كنيسة فى القرن الثانى عشر الميلادى فى منطقة «دولز» ولكن رغم ذلك كان مجتمع الفايكنج مازال مسيطراً على السويد بمعتقداته الدينية القديمة، ويحكى تاريخهم أن الشعب إبان تلك الفترة المضطربة عقائديا كان مطلق الحرية فى اختيار حاكمه وديانته إما فى عبادة الآلهة أو الذهاب إلى الكنائس لأداء الطقوس المسيحية وفى بعض الحالات خلط الكثير من الناس بين العبادة القديمة والديانة الجديدة التى دخلت عليهم فاحتفظ الغالبية منهم بإله الإخصاب الذى كان يرمز له برأس حيوان يعرف باسم «نوجورد» والذى عرف باسم الإله «فرى» وهو الإله الخاص بالزراعة والحصاد وهو نفسه الإله «اوسر» كما كان للإله «اودين» والإله «الثور» ولازالت رسومات هذه الآلهة مسجلة فى المقابر التى اكتشفت هناك، ومن أسماء هذه الآلهة جاءت أسماء بعض أيام الأسبوع فالإله اودين جاء منه «ونيس داي» أي يوم الأربعاء والإله «ثور» جاء منه «ثارت داى» اى يوم الخميس ، أما الإله «فرى» فجاء منه «فراى داى» أى يوم الجمعة.

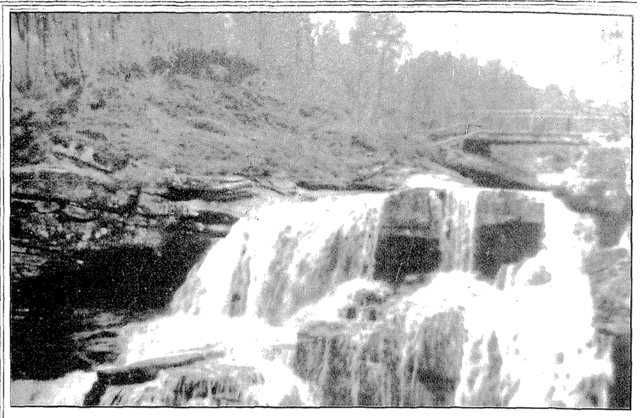
وكان الفايكنج يعتقدون فى التمائم والخرز والأحجبة التى كانت تلف حول العنق وكلها مرتبطة بعقيدة الإله ثور وتعرف باسم «ثورهامر» وظلت هكذا حتى بعد أن دخلت المسيحية السويد عام ٨٢٩م على يد الراهب «سنجار» ذلك الراهب الذى استقر فى مدينة «بيركا» فعبادة تلك الآلهة ظلت قائمة فى السويد حتى القرن الحادى عشر الميلادى أيام الملك السويدى «اودلف شوت» ذلك الملك الذى اهتم بعبادة الآلهة القديمة ورغم أن هذا الملك كان قد عُمِّدَ بواسطة الإله «ثورهامر» فقد اعتنق المسيحية وظهرت صوره على جدران مقبرته يقف أمام صورة المسيح المصلبة - حسب زعمهم - وهذا يعنى أن المسيحية لم تكن حتى ذلك الوقت قد لاقت إقبالا شديدا من الشعب السويدى.

أما عن السويد فقد قسمت إلى مقاطعات أو محافظات فى عصر الفايكنج وكان مركز الحكم فى بادىء الأمر فى الشمال وكان للملك وقتها قوة ولكن غير مسيطر سيطرة كاملة على السكان، فقد كان الشعب السويدى باستطاعته أن يخلع الملك فى أى

وقت شاء وبالتالى فلم يكن للملك السيطرة على إجبار شعبه على اعتناق الدين الجديد أى المسيحية فهذا لم يكن عنده فى المرتبة الأولى ولكن المهم هو إنجاح حملاتهم الحربية والتجارية والتى نجح معظمها بسبب اختراع مراكب متطورة مسطحة سريعة قادرة على المناورة فى البحر كما أنها كانت لا تحتاج إلى بناء أرصفة وموانىء رغم كبر حجمها فكان فى استطاعة هذه المراكب أن ترسو فى أى مكان كما كانت سفنهم تمتاز بطولها ولونها الأسود وكان لها قواديس وتسير بالمجاديف والشراع الذى كان يستخدم استخداماً طفيفاً ولهذا كانت حملاتهم البحرية قوية شرسة كما كانت غاراتهم مدمرة يرتكبون فيها المذابح والسرقات، وكان عداؤهم الأول للمسيحية والصليب ورجال الدين من الرهبان والراهبات فحرقوا الأديرة وذبحوا من فيها من الأحياء أثناء هذه الرحلات كما كانوا يتركون نساءهم كى يعملن فى الحقول بمساعدة الأقنان والعبيد الذين جلبهم ملوك الفايكنج من أسرى الحروب.

ومن المعروف عن فترة الفايكنج أنه مع بداية العصر المسيحى انتعشت الزراعة كما عرف الناس السواحل الشمالية لنورلاند ومن مجموعة المقابر التى اكتشفت هناك والتى ترجع إلى تلك الفترة المسيحية نستدل من الرسومات التى على جدرانها أن الشعب السويدى فى هذه الفترة كان يعيش فى رفاهية ويظهر ذلك من صور صيد الأسماك والسفن والأدوات الذهبية والفضية، وقد وردت كلمة فايكنج بمعان كثيرة يرجع أصلها إلى الكلمة السويدية القديمة ساج فارارا وإذا أخذنا بتشابه حروف الكلمات نجد أن المقطع الأخير من الكلمة وهى فارارا وهى الكلمة التى أطلقت على ملوك الفايكنج والتى تعني فى اللغة الهيروغلوفية القديمة «بر - رع» أى البيت العظيم أو البيت السيد وهى تختلف عن لغة الفايكنج التى أطلق عليها اسم الرون أى لغة الكتابة المدورة وكانت تكتب على الأحجار بالنقش أو النحت.

ولأن المكان هادىء ورومانسى فقد ساعدنى ذلك على أن أتذكر الكثير عن هؤلاء الفايكنج، فقد قرأت وسمعت أن الفايكنج قد أقاموا علاقات تجارية مع العرب وذلك عندما اتجهوا إلى غرب وشرق منطقة البحر المتوسط بواسطة مراكبهم المميزة التى كانت تزين مقدمتها رأس التنين، وهناك دليل على اتصال الفايكنج بالعرب وهو وجود بعض المسكوكات العربية التى تم العثور عليها فى الحفريات الأثرية التى وجدت فى السويد وهذه المجموعة أكبر المجموعات الأثرية العربية التى عثر عليها فى أوربا قاطبة، وقد ذكر الرحالة العربى ابن فضلان الذى عاش وتزامن مع عصر الفايكنج فهو من رحالة القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادي (٣٠٩ - ٩٣١م) وزار البلاد الاسكندنافية فى القرن الثانى عشر الميلادى خاصة فلندا وترك لنا أهم وأكثر الأعمال دقة عن الحياة فى ذلك الوقت وكتب لنا ابن فضلان عن رحلاته إلى بلاد البلغار التى قام بها عام (٣٠٥هـ - ٣١٠هـ) (٩١١م - ٩٢٢م) وقد كانت هذه البلاد التى تقع فى شرق روسيا الاوربية بمحاذاة الفولجا الأوسط وكان ابن فضلان



احدى مساقط المياه في السويد

قد ذهب إلى البلاد استجابة لدعوة ملكها الذى أسلم وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله أن يرسل إليه من يفقهه فى الدين ويعرفه بشرائع الإسلام ويصف له الطريق الصحيح لمعرفة الله ورسوله كما تضمنت رسالته للخليفة أن يرسل له من يساعده فى بناء مسجد وفى هذه الفترة كانت غارات الفايكنج وهدمهم للبلاد المجاورة لدول بحر البلطيق وروسيا والبلدان البعيدة حتى وصلوا إلى البلاد العربية التى تقع على الساحل الشمالى لأفريقيا وكذلك البلاد المطلة على بحر قزوين والبحر الأسود حتى وصلوا إلى العراق ومن جانب آخر حدثت علاقات تجارية بين الفايكنج وتلك البلاد، ولعلاقة الفايكنج بالدولة البيزنطية القريبة من العرب واتصال العرب مع الدولة البيزنطية واتصال بيزنطة بالعرب وتأثير العرب فى صقلية وأسبانيا، كل ذلك أثرى المعرفة الاوربية ووسع من نطاق فكرها، كما كانت كتابات ارسطو فى السياسة والأخلاق معروفة لدى الغرب عن طريق الناقلين العرب واليهود، كما ساهم الأنجلو سكسون الذين يعتبرون من القراصنة الأوائل فى اتباع الحكم المحلى وكذلك الفرنجة الذين يعرفوا باسم «الغال» وهذه الكلمة إغريقية تعنى (اللبن) لشدة بياضه ونتيجة لتلك العلاقات فقد وضع نظاماً اوربيا ساهم فى إنشاء امبراطورية شارلمان المترامية الأطراف، فقد كان ابن فضلان شاهداً على تلك التطورات التى حدثت فى اوربا فوقع على مادة خصبة للتسجيل والكتابة إلى جانب مهمته الأولى

للدعوة الإسلامية والإشراف على بناء مسجد فى بلاد البلغار على الطراز المعمارى الإسلامى وكذلك بناء حصن يدافع عن بلاد البلغار من الأعداء والملوك المحاربين وربما يكونون هم الفايكنج أنفسهم، ومن هنا انتقلت اوربا الغربية من العصور المظلمة وتحددت المعالم الجديدة التى ساهمت فى قيام حضارة اوربا فى العصور الوسطى، فأنشىء نظام جديد لقانون يعرف باسم القانون البحرى الذى لعب فيه الفايكنج دوراً أساسيا ودخلت العادات والتقاليد الاسكندنافية فى تلك الحقبة إلى اوربا الغربية الأمر الذى غيّر الفكر السياسى الاوربى فانتقلت إليها الأنظمة التى كانت سائدة عند الفايكنج فعرفت اوربا كيف كان الفايكنج يعاملون غير المحارب باحتقار شديد كما عرف الغرب منهم عدم الاستبداد أو البيروقراطية، وتحكى لنا إحدى الأساطير السويدية أن شارلمان فى أواخر حياته قد رأى على أحد الشواطىء مراكب الفايكنج الحربية فأعجب بها كما عرف ما لهؤلاء الملوك من قوة وسطوة وقد تحقق ما رآه «شارلمان» فقد أصبح الفايكنج هم السوط المشرع على اوربا طوال قرنين من الزمان، فقد دخلوا اوربا بوثنيتهم المعروفة فهم أسلاف التيتون الوثنيون، وقد ورث عنهم الفايكنج الوثنية بل كانوا أكثر تطرفاً فيها، كما أدخلوا إلى اوربا نظام بناء السفن الحربية، وعلموهم كيف يكون رجل البحر قويا شجاعاً، كما نقل الفايكنج إلى اوربا حضارات البلاد التى حطوا فيها ومنها الحضارة العربية، كما علم الفايكنج الغرب فن قيادة السفن فقد كانت أساطيلهم مؤلفة من مئات السفن التى تتجمع تحت إمرة قائد معين، كما كان للفايكنج أكثر من تسع ملوك ورغم ادعاء كل منهم السيطرة والملك إلا أنه لم يكن هناك نزاع بينهم بل اعتبروا أنفسهم أنهم زعماء الاسكندنافيين، وقد روت أسطورة نورمندية قديمة أن رسول ملك الفرنجة عندما حاول معرفة ملك معين لهؤلاء الاسكندنافية لم يجد الرد القاطع على سؤاله ولكنه وجد أن هناك قراراً واحداً يجتمع عليه هؤلاء الزعماء طالما أنه فى صالحهم وكانوا يحترمون قوانينهم ويبجلونها، فهدفهم الأوحد هو الإبحار وإحراز النصر على ملوك الغرب العظام وسلب ونهب المناطق الغنية.

وقد اشترط القانون البحرى للفايكنج ألا يدخل ضمن القوات البحرية كل من بلغ سنه أكثر من ستين عاماً أو أقل من اثنتي عشرة سنة كما نص القانون بألا تكون هناك عصبية أو وساطة لدخول أحد الأقرباء دون المستوى المطلوب لصفات رجل البحر القوى الذى لا يخاف ثورته أو هياجه ويحتم على كل فرد من أفراد القوة أن يثأر لزميله كما لو كان أخاه وألا يعرفوا الخوف أو الفزع مهما بلغت الأمور غايتها من الخطر، كما نظم القانون عملية تقسيم الغنائم التى كانوا يغتنمونها بعد كل عملية حربية ، فقد كانت تجمع فى مكان خاص يعرف باسم المركز العام وكانت تسجل جميع الغنائم على خشبة كبيرة كانت تتوسط هذا المكان وعلى الجميع احترام ما يقره المجلس بشأن توزيع تلك الغنائم وكل من يعترض على ذلك يشطب من زمرة رجال البحر ولا ينال شيئا من هذه الغنائم ولو حاول أحد إثارة الفتن لتشتيت الجمع وبث

الفرقة فجزاؤه أيضا الطرد.

ولم يكتف الفايكنج بإنشاء السفن والهجوم على البلدان فقط ولكنهم بنوا القلاع والحصون بالقرب من سواحل البحر حيث ترسو سفنهم تحسباً لأى هجوم خارجى وحماية منازلهم وأولادهم ونسائهم، فقد كان محرما على المرأة دخول القلعة والحصن ولكن كان الرجال يذهبون لزيارة أسرهم بشرط ألا يتغيب أكثر من ثلاث ليال متتالية بعيدا عن القلعة.. قانون صعب اعتاد على تنفيذه رجال الفايكنج يذكرنى بقوانين اسبرطة عندما كان يحكم على أى مولود جديد أن يترك فى العراء وعلى قمم الجبال عرضة للبرد والجوع لبضعة أيام فمن يتحمل الحياة فى تلك الظروف الصعبة استحق العيش ويعد من الرجال الاسبرطيين، وقد فعل رجال الفايكنج ما يشبه ذلك ولكن للرجال فعندما كان يصاب أحدهم بجرح فى أحد المعارك لا تضمد جراحه بل كان يترك لليوم التالى وفى نفس الوقت الذى جرح فيه فإذا ما تحمل ذلك يستحق هذا الرجل الجريح أن يعيش ويحتم أن يعالج جرحه. ورغم اهتمام الفايكنج بالبحر والقرصنة فقد اهتموا بنواح كثيرة خاصة بالعادات والتقاليد التى ورثوها عن أسلافهم فقد كانوا عندما يحدث نزاع بين اثنين من أفراد الجماعة يعمل الجميع على الصلح بينهما وفض ذلك النزاع حتى لا يحدث تفكك بين أفراد الجماعة وكانوا يعتمدون فى ذلك على النصوص القديمة التى اهتمت بالصلح ونشر السلام بين أفراد الجماعة.

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى الحرص على التوافق والتعاون بين أفراد الجماعة الواحدة وذلك لتحقيق هدفهم الأول وهو النصر على كل أرض تطؤها أقدامهم، ولم يكن الفايكنج فقط سويديين ولكنهم كانوا من جميع الدول الاسكندنافية: الدانمرك، السويد، النرويج، ايسلندا وفلندا، فلفظ اسكندنافية يطلق على هذه الدول الأربع بالإضافة إلى فلندا، أما عندما نقول اسكندناوة فيقصد بها شبه الجزيرة التى بها السويد والنرويج، فرجال الدانمرك من الفايكنج اتخذوا ذلك الخط ونهجوا ذلك النهج فأغاروا بمراكبهم على غرب اوربا واحتلوا قلعة «ويرام» تلك القلعة التى كانت تحت



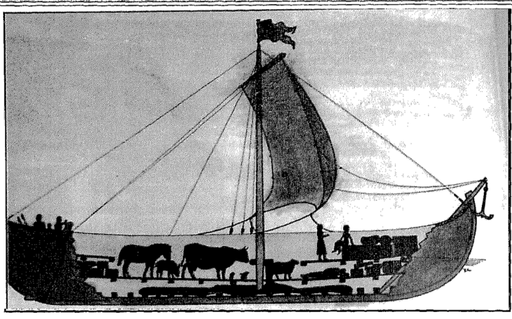
مساكن في منطقة اسكونا يرجع تاريخها الى ٤٠٠ عام.

سيطرة السكسونيين الغربيين، ولم يكن رجال الفايكنج النرويجيين أقل ضراوة وشراسة من فايكنج السويد والدانمرك وثمة قانون نرويجي يقول إن الرجل الذى لم يرع سلامة ميثاق القانون البحرى يعتبر خارجا على القانون فى طول النرويج وعرضها ويترك البحر ويعود إلى البلاد، وينبذ بعد ذلك منها، واحترم رجال الفايكنج الاسكندناڤيين القانون ويظهر ذلك جليًّا عندما نعرف أنه كان هناك مكان للمداولة أو مجلس الأمة الذى كان يحرم على أى فرد أن يدخل إليه وهو مسلح أو مخمور فالمكان كان بمثابة ساحة للقضاء فكل من يدخل بسلاحه يصادر منه فوراً، أما الشراب فكان يأخذ منه ولا يدخل به ساحة القضاء، كما كان يراعى التزام الهدوء أثناء المداولة ويلتزم الجميع بسلوك ملتزم كما كان لا يسمح لأحد بمغادرة المكان قبل أن تفض الجلسة ويغلق باب المداولة، كما كان الحال أيضا بالنسبة لفايكنج ايسلندا فقد ابتدعوا نظاماً اجتماعياً متميزاً وأصيلا.

وفى الأدب الايسلندى القديم نرى صورة لارستقراطية رجال الفايكنج الأمر الذى يثير الدهشة فقد كانت حياتهم جميلة قوية كما كان للفايكنج الوثنيين جوانبهم الإنسانية الطيبة على عكس طبقة العبيد التى كانت تتسم ملامحهم بالقبح والخيانة، فجريمة القتل كانت من الجرائم المنبوذة وهى أسوأ الجرائم على الإطلاق والتى يمكن الكفارة عنها بالطقوس الدينية، أما الخيانة فكانت تأتى فى المرتبة الثانية فيُمزَّقُ مرتكبوها إرباً إرباً ثم يُلقى بهم إلى الأسود المفترسة وكلاب الصيد أما جريمة الزنا بإحدى الزوجات فعقابها الموت تحت سنابك الخيل وجدع الأنف وهو أسلوب قديم لتلك العقوبة.

وأحيانا كانت تحسم المنازعات بين الأفراد التى يفشل فيها الوفاق السلمى بالمبارزة وفى ذلك كانت تنظم مسابقات للمبارزة الحرة بين الخصوم وكانت تحكمها قواعد وقوانين وكانت عادة ما تكون على جزيرة من الجزر ويكون المتعاركون داخل حلبة المصارعة والفائز هو الذى يحرز الضربة الأولى وكان نساء الفايكنج يعقدن المناقشات الكلامية فى ساحة خاصة بهن وتحكى القصص أن نساء الفايكنج كان لهن دور بارز لا يقل شراسة عن الرجال فأثناء الحروب كانت النساء تظل في خيامهن المطلية باللون الأسود ينتظرن عودة أزواجهن.

وقد عادى الفايكنج المسيحية ورجالها فقد كانوا يطلقون الصقور الوحشية على ظهور الرهبان ويغرسون المسامير فى رؤوسهم كما كانوا يقومون بشي ضحاياهم أحياء، ولا يتوانون فى إشعال النار فى خيام أسر بأكملها وهى نائمة فى فراشها بعد أن يباركهم الإله «اودين» - بزعمهم - إله الحرب عندهم وكانوا يفعلون أى شيء فى سبيل تحقيق أهدافهم وأطماعهم كما كان شغلهم الشاغل هو التجارة فاستولوا على مواطن كثيرة على الساحل الأيرلندى واحتكروا مدناً بأكملها كما فعلوا بمدينة «كيف» حيث استغلوها استغلالا سيئا ومدينة «نوفر جرود» واستولوا على طريق روسيا ألمانيا واستغل الفايكنج مدينة «كيف» استغلالا سيئا وحكمها



نماذج لمراكب الفايكنج يعود تاريخها لعام ٩٠٠م.

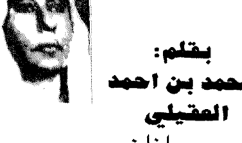
أمـــــــراء سـويديون من الفايكنج ولهذا نجـد أن أسس القـــوانـين الروســـيـــة القديمة كانت سويدية وبينما كنت أسترجع هذا التـــاريخ الـــســـيء للفايكنج فقد عملت على أن أضع كل ذلك جانبا واهتم بشيء واحد يعتبر الحسنة الوحيدة التى تركها الفايكنج للغرب وهى اهتمـامـهم بالتـعرف على العـالم رغم بعدهم عن موطنهم النائى فى أقصى شمال اوربا.

وقد ألقيت جانبا المساوىء التى ارتكبها هؤلاء الفــايكنج من سلب ونهب وتدمــيـر وتخريب للمناطق التى حطوا فيها ووقفت عند بعض النتائج الايجابية لهم من خلال رحلاتهم الطويلة عن طريق البـحـر التى أقـامـوا من خلالها اتصالات مع مختلف أنحاء العالم ونقلوا إلى بلادهم طبائع وعادات وتقاليد تلك البلدان وما لشعوبها من لغات وما فيها من منتجات وما عندهم من إمكانيات حضارية غير موجودة فى بلادهم فحضارة الغرب جاءت من وديان وأنهار الشرق وخاصة الأدنى منها التى انتقلت إلى جزر اليونان، وعلى امتداد الدانوب وشق التجار والمهاجرون طريقهم إلى اوربا وعم البلاد مناخ الأطلنطى المعتدل نسبيا وتراجعت الغابات تجاه الشمال وفى هذا المكان الجديد بدأ أسلوب آخر فى الحياة هناك.

فى هذه اللحظة التى كان «اوستافن» قد اقترب منى كى ينبهنى بأن الرفاق قد عزموا على مغادرة المكان .. لم أسمع إلا صوته الرهيف وكذلك صوت هسيس الشجر وحفيف أوراقه التى كانت تلاعبها الرياح وبدأ هدير الرياح يشتد وسرعان ما تساقطت على إثره الأمطار غزيرة على الصخور السوداء الصلدة فتقفز قطراتها فى الماء فتسيح فيه فأسمع قرقرتها وهى تجرى منحدرة فى الجدول المائى أسفل الشلال، وبعد تمضية فسحة فى هذا المكان الرائع لم تغفُ فيها عينى لحظة ولم يصبنى النوم الذى عادة ما يحدث عن إطالة النظر إلى الشلالات ولكن كانت أحاسيسي يقظة وعقلى فى تمام انتباهه وعيناي تشاهدان وأذنى تسمعان وقلمى لم يكف عن الحركة يسجل كل صغيرة وكبيرة

من قراءاتي في الأدب العالمي

((٢١))



بقلم:
محمد بن احمد العقيلي
- جازان -



الكسندر بوب

ولد «الكسندر بوب» الشاعر المشهور في «لومبارد ستريت» في الحادي والعشرين من شهر مايو عام ١٦٨٨م.

كان والده تاجر أقمشة كتان، عاش ولده في كنفه شأن أمثاله من أبناء الموسرين، وانتقلت الأسرة مع الوالد إلى «رون فيلد». كان «بوب» في طفولته تلميذاً مجداً، أما مواصفاته الجسمية والصحية، فكان قصير القامة لا يتجاوز طوله (١٣٩سم)، ومصابا بتقوس في عموده الفقري، أضفى التقوس الظهري مظهر المسخ الدميم، حتى كان هو نفسه يتوارى خجلا من شكله وقامته، مما جعل ذلك مبعث شقائه الذي أورثه مركب النقص وأضحى بالنسبة له لوناً من التسلط الفكري يتدفق تلقائيا إلى بلوغ الكمال بالتعويض عن ذلك النقص.

والعجيب أن الموهوبين يحاولون التغلب على عاهاتهم بالتفوق العلمي أو الفني، بما يرفع شأنهم، ويعلي مكانتهم وهكذا نجد أبا العلاء المعري تغلب على عماه بعلمه وشعره. و«بتهوفن» تغلب على الصمم بعبقرية ألحانه الخالدة وابداعه الموسيقي، كما نجد «بوب» تغلب على قباحة شكله وتنافر خلقته ليصبح ليس شاعراً فقط، بل أعظم شاعر في عصره، بل قرنه بكامله، إن لم نقل في العصور التي تلته، ونال من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يتهيأ لشاعر انجليزي آخر باستثناء «شكسبير».

لقد تغلب «بوب» على كل المعوقات الجسمانية واعاقة نموه الطبيعي، وقد استهدف إلى جانب معوقاته بمعاناة أخرى بشأن عقيدته المذهبية في عصر كانت الغلبة فيه للمذهب «البروتستانتي» فقد كان محظوراً عليه ممارسة الأعمال الهامة ومضاعفة الضرائب، ومع كل ذلك فقد أتيح له في الوقت الذي بلغ السابعة عشرة أن يحظى بالتعرف إلى كثير من الشخصيات الأدبية من أبناء

مذهبه المقيمين في دائرته أمثال «ترومبول» و«دانكاسل» ، «انجيلفيلد»، وعن طريقهم تم تقديمه الى أبناء الطبقات الاجتماعية من مفكري لندن في ذلك العصر - أي في اوائل القرن الثامن عشر.

كان الأدب - آنذاك - من الترف الاجتماعي وكان الشعر يكتب من أجل جماعات من شخصيات المجتمع المشتغلة بالنقد في نطاقهم المحدود، ويتجلى الكثير من عظمة «بوب» الشعرية في اقتداره الفني واستخدام الشعر بصورة متنوعة للمنظومات الشعرية الملحمية المؤلفة من بيتين The Heroic Couplet التي سار فيها وطورها على منهج الأسس التي وضعها من قبل «دريدن» بعدها أصبح عضواً في جماعة الكتاب التي اشتهرت باسم نادي «لاسكريبلاروس» وقد نشر «بوب» في سنة ١٧٠٩م القصائد الرعوية، التي تصور حياة الريف وأهل الريف والرعاة، ثم اتبعها بديوانه المسمى «رسالة النقد»، ثم جاءت قصيدته «استلاب خصلة شعر»، وكانت قصيدة ساحرة نظمها على نمط الملاحم البطولية مستهدفاً بها عقد صلح بين أسرتين دَبَّ الخصام بينهما بسبب خصلة شعر مسروقة، والواقع أن حدة ذهنه وتوقد قريحته أكسبته كثيرا من المعجبين، ولكن إلى جانبها كذلك بعض أعداء، كالناقد «جون دنيس» الذي تطاول عليه «بوب» في قصيدته «رسالة في النقد»، وقد رد عليه «دنيس» ساخراً من دمامته وضآلة جسمه، وفي عام ١٧١٧م نشر كتابه «الأعمال المجمعة» التي اشتملت قصيدته المسماه «مرثاة لسيدة تعسه» وقصيدته المسماه (Eloise To Abelard).

وفي سنة ١٧٢٥ أتم ترجمته المبدعة «لهومر» وطبعة جديدة من أعمال «شكسبير» وكان في عام ١٧١٩م ابتاع منزلا كبيراً في «تويكنهام» وتحسنت حالته المالية وعاش في يسر ودعة، وكان شديد الاهتمام بأمه التي كان يعيش معها ويغالي في رعايتها والاهتمام بها حتى توفيت سنة ١٧٣٣م.

وما لبث «بوب» أن حول اهتمامه من نظم الشعر الوصفى والملاحم البطولية الى نظم الشعر الهجائي، وقد اضطلع بتوجيه سلسلة من الهجمات على أولئك الكتاب الذين يزدريهم.

كان الشاعر «بوب» أول شاعر استطاع أن يجعل من الكتاب مرتزقاً يجدي على صاحبه ويعود مردود قلمه عليه بالفائدة المادية والجدوى المفيدة.

أشرنا في أول هذا المقال إلى عاهته المستديمة وقباحة الشكل وقصر القامة، مما أضفى عليه مظهر المسخ الدميم، وأما طباعه فكانت مزيجاً من التناقضات وعدم الاستقرار النفسي والاطمئنان الروحي، مما أورثته أن يعيش في متناقضات من القسوة اللاهبة والرقة المفرطة، وإنه ليكون من الغرابة، إذا كان قصوره البدني وشكله الزري لم ينحرف به عن نظرته المتفائلة للحياة، واقدامه على تخطي كل المعوقات ليكون أعظم شاعر في القرن الثامن عشر في انجلترا ، بل ليصبح ثاني شاعر بعد شكسبير، وأن يصبح من أبرز الشخصيات العالمية البارزة في عصره وإلى عصرنا الحاضر.

رجال في الذاكرة ٣٦

الأستاذ ألبير أديب



حين احتجبت مـجـلات الأدب في مصر بدءا من الثـقـافـة فـالرسـالة فـالمقـتطف فـالكتـاب، شعرت بوحشة تملك عليّ أقطار نفسي، وجفت موارد الإلهام في خاطري؛ إذ لا أجد الحافـز الدافع للنتـاج، ما دام النشر موصد الأبواب، وقد بقيت الهـلال تصـدر شـهـرية كعهدها، ولكنها انتقلت من الخاصة الى العامـة، بمعنى أن البحوث الأكاديمية أصبحت ثقيلة الهضم في وضعها الجـديد، وهي لا تـرحـب بالبحث المتسلسل ذي الحلقات المتوالية، كـدأبها في عـهـدها السـالف، وقـد أولاني مدير تحريرها الأستاذ طاهر الطناحي مزيدا من عطفه،

فكان يتكرم بنشر ما أرسله، وهو في أعـمـاقـه يأسف لوضع الهـلال الجديد لأن الطناحي قد عاصره في أخـصـب عـهـوده الزاهرة، ثـم اضطـر إلى مـجـاراة الوضـع الجـديد فـخضع لما جدّ آسـفـا غـيـر سعيد .

وفى إحدى جلسات دار الهلال دار الحديث بينى وبين الأستاذ إبراهيم المصرى على انحسار المجلات الأدبية المتخصصة، فشكوت له غربتى بعد الرسالة، فقال، ان مجلة الأديب بلبنان تحكى مجلة الرسالة فى أمور كثيرة، وهى ترحب بالبحوث المستفيضة، وستسر بها إذا تابعتها، ***وكنت أعرف أن معهد الدراسات العربية يضم مجموعة من مجلة الأديب، فبدا لى أن أقضى يومين فى مراجعتها، وارتحت إلى طابعها الأدبى كثيرا، فصممت على أن أوالى قراءتها شهريا، ودفعت بمقال لى إلى صاحبها الأستاذ ألبير أديب، فما لبث أن نشر المقال، وأهدانى المجلة شهريا، فواصلت الكتابة فى شغف، وبدأت أنشط.***

مميزات الأديب:

ولقد لاحظت أن مجلة الأديب عالمية الذيوع، فهى تنشر لجميع الأدباء شرقا وغربا، وقد أقبل شعراء المهجر وكتابه على النشر بها حين احتجبت مجلاتهم العربية هناك، فكانت صلة وثيقة بين الشرق والغرب، كما رأيت المجلة تفرد أبوابا



بقلم :
أ. د. محمد رجب البيومى
- المنصورة -

للبحوث العلمية الجديدة، والاكتشافات الحديثة، وتعنى بما يجد فى عالم السياسة فتنشر أخبارا موجزة فى خاتمتها عن أهم ما يشغل المسرح السياسى، كما أن ما ينشر تحت عنوان مكتبة الأديب يدل على أمثلة من المؤلفات الحديثة، تعرض عرضا مشجعا فى حين وناقدا فى حين آخر، وهذا غير أبواب القصة والقصيدة والمقالة والبحث العلمى، ***أما باب البريد الأدبى فيشمل ردودا مقتضبة أو مطيلة على أفكار نشرتها الأديب، واتسع المجال لمناقشتها وهذا الباب يذكر (بالبريد الأدبى) بمجلة الرسالة، ولكن مع فارق واضح؛ لأن باب الرسالة كان خاصاً بالنقد والتعقيب المخالف، أما باب مجلة الأديب فقد اتسع كثيرا لما يجب أن يضيق عنه؛ إذ أولع نفر من الأدباء بنشر ما يصلهم من رسائل التقريظ المتبادل، أو التشجيع العاطف،*** وبعض هذه الرسائل مجاملات اضطرارية يكتبها الأديب الكبير حين يفاجأ بكتاب أرسل إليه، فلا يجد من اللائق أن يهمله، بل يكتب رسالة مشجعة لصاحبه، وكان من حق الرسالة أن تطوى ما دامت لا تحمل مضمونا فكريا هاما، ولكن من أرسلت إليه يودّ أن يقرأ الناس ما قيل له، ولا فضاء يتسع غير باب البريد فى مجلة الأديب.

أذكر أنى كتبت للأستاذ ألبير أديب

أعلن له مـا يجب من إهمـال هذه الرسائل، لأنها ليست ذات موضوع، وقد ردّ الأستاذ عليّ قائلا أنه يعتقد أن الصواب فيما أقول، ***ولكنه يجد من الحرج المتواصل ما يدفعه إلى نشر مالا يرغب في بعض الأحيان، ثم قال، إن قارىء الأديب إنسان ناضج وأنه سيدرك لا محالة ما أعانيه من الحرج وسيغفر لي. وهنا نجد الفارق بين الأستاذ الزيات في الرسالة والأستاذ أحمد أمين في الثقافة وبين الأستاذ البير أديب في الأديب، فالأولان متشدّدان لا يعبآن بتشجيع من لا يستحق، والثاني رحيم.***

افتتاحية الأديب:

جعلت أنشر في الأديب على اتصال غير منقطع منذ عرفت طريقها، وقد أبطأت شهراً واحدا وتبعه شهر آخر، فوجدت الأستاذ الكبير صاحب المجلة يرسل إليّ برقية يقول فيها: «حجزت لك افتتاحية العدد القادم» ولا أدرى لماذا هزتني هذه البرقية هزا، لأني أعرف قدر نفسي جيدا، وأعلم أن مقالي ليس من القوة بحيث يسأل عنه صاحب المجلة وينص على أنه حجز الافتتاحية، ولكني من ناحية أخرى صممت على أن أواصل المجلة شهريا دون انقطاع، وإذا كنت أزهريا أحتفل بمسائل التاريخ الإسلامي، فإن الأستاذ قد فسح لي المجال، وقد ذكر في خطاب له أنه يرحب بالبحوث التاريخية، وأن عليّ أن أواصل البحث دون أن أتلكأ، أذكر هذا لأرد على من اتهموه بالطائفية بغيا دون حق، فالأديب الأصيل دائما إنسان لا يعرف التعصب، ومارزئت الأقلام إلا بفئات من الطغام ينتسبون إليها زورا وبهتانا، وهم عن الإخاء الراحم بمكان بعيد.

وقد عانى الأستاذ كثيرا مما يعترضه في هذا الطريق، أذكر أن أستاذي الدكتور عبد الحسيب طه قد أهداني كتابه (أدب الشيعة) وهو رسالة علمية نال بها درجة الأستاذية في الأدب والنقد، فكتبت بحثا تحليليا عنها، وبعثت به إلى مجلة الأديب، ولكني تلقيت رسالة من صاحبها تعلن أن الحديث في مجلة الأديب عن الشيعة يفهم منه بعض الناس أن الثناء عليهم ذم لسواهم، وقد صودرت بعض الأعداد من مجلة الأديب في بعض الأقطار لهذا الفهم البعيد! ثم نصحني أن أنشر هذا البحث بمجلة العرفان اللبنانية لأنها خاصة بالبحث الأدبي بنوع عام، والأدب الشيعي بنوع خاص! وقد عجبت لما ذكر الأستاذ لأننا في مصر بعيدون عن هذه الحساسيات!

هذه واحدة، ولها ثانية تشابهها، فقد أرسل إليّ الشاعر اللبناني الكبير الأستاذ (فارس سعد) ملحمة شعرية

رائعـة تحت عنوان (طوفـان النور) وهي من القـوة تصـويرا وتعـبيرا وفكرا بحيث تضع صـاحـبها في مصـاف الكبار من أعلام الشعر المعاصر، وقد قرأت الملحمة معجبا، وكتبت عنها بعض ما تستحق، وأرسلت مـا كـتـبت إلى مـجلة الأديب لأن الأسـتـاذ فـارس سـعد من كـبار شـعـراء لبنان، ومن أفـذاذ شـعـراء مـجلة الأديب بالذات، ولكن الأسـتـاذ البـير أديب بعث بالمقال مـعـتذرا عن نشـره، ***لأن الملحمة تتضمنّ هجوما على قوم إن لم يذكروا بأسمائهم، فهم معروفون بأوصافهم وملامحهم، وسيؤولون القول كما يشاءون، وفي مقدورهم أن يسيئوا لمجلة الأديب، ولم أجد بداً من نشر المقال بمجلة «المنهل» السعودية؛ لأن الاستاذ الكبير عبد القدوس الأنصاري لا يرى ما يرى صاحب الأديب، فهو يصدع بالحق دون قيد.***

اعتراض وردّ:

ولا أدرى لماذا لـم أسـكـت عـن هـذا الاتجاه، حيث أرسلت إلى الأستـاذ أقـول له: إن كل الناس يعلمون أن مجلة الأديب لا تعبر عن وجهة رئيس التحرير وحده، بل تفـسـح صـدرها للرأى المخـالف، وصاحب المقال هو الذى يتحمل تبعته ما دام منشـورا باسـمـه، وفى هذا الفـهم الواضح ما يمنع مؤاخذة صاحب المجلة، ثم أفضت فى هذه المعانى إفاضة شافية، فجاءنى رد سريـع من الأستـاذ يقول فيه: إن جـمـيـع مـا قلتـه فى خطابى مـسلّم بل بدهـى لا يحـتـمل الشك، ولكن مـا يصـنـع صـاحب المجلة حين يجد الأعـداد تصـادر فى عدة دول؟ وهى فى وضـعـها الراهن لا تغطى نفقـاتها إلا بمجـاهدة جاهدة، إن الذى يحنى رأسـه للعاصـفـة قـد لا يكون شجاعا، ولكنه قد يتلافى الموت ليواصل النضـال، وهذا أحـسنُ من وجـهـة نظرى! هذا بعض ما قال.

رثاء زوجتي:

انتقلت زوجتي إلى رحمة الله، فأرسلت عدة قصائد في رثائها جاوزت العشرين نشرتها تباعا بمجلة الأديب، على مدى عامين، ثم تلقيت من صاحبها كتابا يقول إنه حائر فيما يقول لي، لأن قصائد الرثاء المتوالية تدل على لوعة حارة، وزفرة ملتهبة، وكان الظن أن مرور الوقت سيطفىء قليلا من هذه الجذوات المشبوبة، لذلك يرى مع إعجابه الفنيّ بما يكتب أن أحاول الصبر قليلا، والله معي.

ولا أدرى لماذا فـهـمت من الخطاب فـهـمـا آخر، فـهـمت منه أن القـصـائد قـد فترت فى مضـمـونها الفني، وأن صـاحب الأديب قد عبرّ عن ذلك بلباقة حصيفة، فكتبت أشكره على اهتـمـامـه بحـالتى النفسية، وأعلن أنى فهمت نقده الصائب، ولمحت بوادر الإخـلاص فـيـمـا كـتـب

فـاقـتنعت به، فـجـائنى رد عـاجل من الأستاذ يقسم أنه لم يقصد ما استنتجته إطلاقا، وأن ما أقوله جميعه فى مستوى واحد، بل إن القصائد الأخيرة بها ما يفوق القصائد الأولى فنا وإتقانا، وإن لديه رسائل عدة من القراء تثنى على هذه القصائد، ولم يشأ أن ينشرها لكيلا تدعونى إلى معاناة نفسية فأستمر فى عذاب الألم كما يتصور، ***أما إذا كان الاستمرار مصدر تنفيس عن هذه المعاناة فهو يدعونى إلى الاستمرار مرحبا، وكان خطاب الأستاذ برداً وسلاماً على نفسى.***

حيّ بن يقظان:

جاءني خطاب من الأستاذ يدعونى إلى كتابة فصل عن القصة الأندلسية (حى بن يقظان) لمؤلفها الفيلسوف الشهير ابن طفيل؛ لأن قارئاً عزيزا قد كتب إلى المجلة يسأل عن هذه القصة طالباً أن تنشر الأديب بحثاً تحليليا عنها، ولم يشأ أن يعلن السؤال بالأديب، كيلا تتعدد الأسئلة من هذا الطراز، ولا يجد من يجيب عليها ***بإفاضة شافية فتقع المجلة فى الحرج، وكان من بواعث التوفيق أن مقال (حيّ بن يقظان) مخطوط لديّ، كتبته فى كتابى (الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير) ولم أنشره بعد، فسارعت بإرساله إلى المجلة، وقد تلطف صاحبها فبعث بخطاب شاكر،*** ووعد ألا يرهقنى بمثل هذا الطلب، قائلا إن البحوث المفروضة تكلف الكاتب رهقا؛ لأنه يبدأ من نقطة مجهولة، أما البحوث النابعة من تفكير الكاتب نفسه فتجد طريقها ممهدا من خواطره. وتلك وجهة نظر لها صوابها، ***وأذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد قد ذهب إلى ما يخالفها؛ إذ ذكر فى بعض مقالاته بمجلة الهلال أنه يسرّ بالمقال المقترح سرورا زائدا؛ لأنه يفتح أمامه باب البحث عن موضوع لم يكن يفكر فيه غالبا، فيكسب خبرات جديدة فى اكتشاف عناصر الموضوع، وكثيرا ما تؤدى هذه الخبرات إلى غيرها فتتولد بحوث جديدة هى ثروة للكاتب والقارىء معا، هذا ما قاله العقاد، ولكن من الذى له طاقة العقاد العلمية، ومقدرته النفسية، وشجاعته الرائدة فى اكتشاف المجهول.***

سرقة واضحة:

نشرت مجلة الأديب قصيدة لشاعر عراقى وجدت معانيها جميعها مأخوذة من قصيدة للشاعر الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل يقول فى مطلعها:

مــــرّت على النهـــر وقـــالت له
ومـوجـه فى خـشـعـه السـاجـد:
يا نـهـر، قـاسـمنى الأسى مـرة
وهـات أخــبــارك عن عـــابدى
طـال على الشـــجـــو من بُعـــده
والصـمت من قـيـثـاره الزاهد
نبى أحـــلامـى وشـــادى الهـوى
بمعــــجـــزات النغم الخـــالد
أضــاقت الدنيـــا بتـــفـــريده
فطـار عن مـــوطنه الجـــاحـــد؟
أم راح يلقـيـه فـيـمـضى كـمـا
مــرّ الصـدى بالكفن الهـامـد؟
يا نهـر، أسـمـعنى حـديث الهوى
وهـات عن بلبلى الشـــــارد.

والقـصـيـدة تحكى قـصـة تتـوالى مواقفها مشـهدا خلف مشـهد، ولم يزد الشاعر عن أنه نظم القصة بألفاظ تقرب من ألفاظ الأستاذ محمود إسماعيل، ولم يأت بجديد ما يشفع له فى هذا السطو، وتوقعت أن ينشر الأستاذ ما أراه من نقد هادف، فالمسألة موضوعية لا ذاتية؛ لذلك بادرت بإرسال مقال يكشف هذا الاختلاس الجرىء، ولكن الأستاذ ألبير صاحب القلب الرقيق، كتب إليّ يقول: إنه صُدم صدمة عنيفة من هذا السطو القبيح، ولكنه علم من بعض زائريه أن الشاعر مريض جدا، وقد اعتزل فى مستشفى خاص بحيث لا يزوره إلا قلة من أقاربه، ويخشى حين ينشر نقده أن تصل إليه المجلة بطريق ما، فيتضاعف ألمه فى هذه المحنة، لذلك يؤثر أن يحتفظ بالمقال حتى يعاود المريض شفاءه. ولم تمض أسابيع حتى لحق الشاعر بربه، فحمدت للرجل الكبير رقته الحانية، وطلبتُ منه أن يهمل النشر، مع أنه حق أدبي لا اختلاف عليه، ولكن هذا ما كان.

حرب لبنان:

قامت الحرب الأهلية بلبنان، فحجبت الأديب عن الظهور لمدة عام وأكثر، ثم استطاع صاحبها أن يعيد إصدارها على فترات متقطعة باذلا أقصى الجهود المضنية فى أداء رسالتها، وقد صادف أن توقفت المجلة وأنا بالسعودية، ثم جئت إلى مصر فاستأنفت صدورها، ووصلت أعدادها إليّ بالسعودية تباعا دون أن أعلم، ثم علمت مصادفة باستئناف ظهورها، فأرسلت إليها مقالاتى الجديدة، وأخبرت الرجل بانتهاء بعثتى للسعودية فأرسل ما سلف من الأعداد إليّ ثم صعب الأمر عليه، فكان فوق احتماله أن يوالى الإصدار.. ودهمته العلة، ففارق الحياة تاركا أحسن الذكرى لدى أصدقائه ومريديه؛ إذ كان مثلا نادرا فى صفاء النفس وسعة الصدر، وأداء الواجب.

حوار من طرف واحد «الحلقة الأولى»

قال زهير بن أبى سلمى «لسان الفتى نصف ونصف فؤاده .. فلم يبق إلا صورة اللحم والدم»وقالوا (الشعر مرآة صاحبه).

فمن خلال المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر الأستاذ/ يحيى توفيق حسن نستعرض حوارا مفتوحا من طرف واحد لنتلمس بعضا من آراء وأفكار شاعرنا الذي تناول فى شعره جوانب كثيرة جداً، وأغراضا متعددة فى شتى مناحي الحياة.

وإنى لأقف حائرا أمام هذا الكم الكبير من قصائده الشيّقة الرائعة ولا أملك إلا أن أقطف من كل بستان زهرة رمز حبّ ووفاء وإقدار لهذا الشاعر الرقيق.



غلاف الديوان

** شاعرنا: كلنا فى هذه الحياة (غرباء) فهل ذُقت مرارة الغربة؟ وما توجهكم في الغربة واحساسات المغترب؟

* فقال:

تغـرّبت أعـوامـاً وواجـهتُ غُرْبتي
وحـيداً فلم أجزع وذُو العزم يظفـرُ

ولا أهلٍ حـولي يُسـعـدون ولا أخٌ
أسرُّ لهُ حـالي فـيـأسُو ويجـبرُ

غـريبٌ وأشجـاني يُسـهّدُني النوى
أكـابدُ آلام الفـراقِ وأصـبرُ

يُعـذّبُني شـوقٌ ويقـتُلُني أسى
فـأبكي وجـوفُ الليل للدمع يسـتُرُ

رأيتُ غـريبَ الدَّار أعـمى وإنْ يكنْ
حصيفاً سديد الرأي عيناهُ تُبصـرُ

أحنُّ إلى قـومي وأبكي فـراقـهُمْ
وأهفُو بقلبي نحـوهُمْ وأفكّرُ

فلمَّا رأيتُ الشـوق أودى بمُهْجَتي
وبيـني وبين الأهـل بـرٌ وأبْحرُ

رجعتُ إليهم حـاملا شوق غُرْبتي
أقـدِّمُ قلبي نحـوهُمْ وأؤخّرُ

** فقلت له زعموا ضعف شعرك فبم رددت عليهم؟

* فقال:

هُمُو زعمُو شِعرِي ضعيفاً وليتهُم
يجودون بالشِّعر القوِيِّ فأعذُرُ
كلامٌ بلا فعل، وجهلٌ مُركَّبٌ
وزفرةُ حقد سمُّها يتفجَّرُ
يُريدُون هَدمي لا لذنبٍ جنيتُهُ
سوى أنَّني أجملتُ فعلا وقصَّرُوا

** فقلت: إذا كان الأمر كذلك فلابد من اختيار الصديق وقديما قالوا:

إن أخاك الحقَّ من كان معك
ومن يضُرُّ نفسه لينفعك
وإن عيب الزمان شتتك
فرَّق نفسه ليجمعك

فماذا يقول شاعرنا؟

* فقال:

ولا خير في خلٍّ يسرُّك حاضراً
ويغتابُ إن ولَّيت عنهُ ويسخرُ
يعيب عليَّ البعض صُحبة ماجد
أبيٍّ بلوعات الهوى يتعثرُ
فقلتُ لهم إنَّ الوفاء سجيَّتي
وإن ظلَّ خلِّي في الغواية يخطُرُ
فكم من عفيف ضلَّ بعد رشاده
وأوغل في غيٍّ يُسرُّ ويجهرُ
وكم من غويٍّ تابَ توبة نادم
يقومُ بجوف الليل يدعُو وينكرُ
وكم تُحبط الأيَّامُ عزم ذوي الحجى
وكم هذه الدنيا تُعزُّ وتُصغِرُ
ولكنني أختار صحبي خُلَّصاً
حراصا على ودِّي إذا ضِقتُ يسرُّوا



الشاعر يحي توفيق

وكم من فتى ينساك عند يساره
وكم من أخ في الود لا يتغيرُ
صديقك من يحنُو عليك بقلبه
ويرأفُ إن جار الزمانُ ويؤثرُ
إذا أنت لم تغفرْ لخلِّك هفوة
فمن ذا الذي يحنو عليه ويغفِرُ

** فقلت: لقد قلت آنفا «وكم هذه الدنيا تُعِزُّ وتُصْغِر» فأوجز لي القول في الدنيا؟

* فقال:

فلا خير في الدنيا إذا كان عيشُها
هواناً تضيقُ النفسُ منهُ وتُقْهرُ

** فقلت: إذا كانت الدنيا هكذا والحبّ نبضها فماذا قلت عن الحبّ؟

* فقال:

نحنُ ونهفو للغرامِ وربَّما
طربنا لوهمٍ خادعٍ عادَ يُضنينا
وما الحبُّ إلا الوهم يصنعهُ لنا
خيالٌ مريض إن أطعناه يُشقينا

** فقلتُ: وما إحساسك بالحب؟

* فقال:

فالحبّ لا يأباه إلا خاملٌ
سئم الوجود وضلَّ بين شعابه
والحبُّ إحساسٌ يهزُّ مشاعري
ويذيبُ عمري في شجون عذابه
والحبُّ سهدٌ والدموعُ سلافةٌ
والحبُّ جمرٌ أصطلي بلهابِهِ

** فقلتُ: وهل للحب تأثير على الزّهاد؟

* فقال لي:

ولكم أصاب الحبُّ قلباً زاهداً
فأحالهُ من زاهدٍ لمرفّقٍ
وأعاده دنفاً تطيشُ بلُبِّه
لُجَجُ الهوى فيعيشُ عَيْش الأحمقِ

** فقلت: هذا هو الحبّ فما رأيك في الهوى؟

* فقال لي:

يا سائلي لو كنتَ تعرفُ ما الهوَى
لقضيتَ صفو العمر في محرابِهِ
إنَّ الهوىَ وُدٌّ رقيقٌ ساحرٌ
كتودد العصفور في أفنانه

** فقلت: ما دمنا قد تحدثنا عن الحب والهوى فلابدّ من التحدث عن سحرهما وهي (العيون) وقديما قالوا [إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ولم يحيين قتلانا] فبم وصفت العيون؟* فقال:

عيناك حلمي والمُنى لُقياك
فدعِ الصّدود وصالحي مُضناكِ
عيناك ليلٌ غامضٌ في سحره
نوبُ الشجا ورؤى الفؤاد الباكِ
عيناك ألهمتا فؤادي نبضهُ
فصبا إليكِ وهام في دُنياكِ
كم كنتُ أنعم بالحياة وبالصِّبا
حتّى دعتْني للهوى عيناكِ

** فقلتُ له لقد أمتعتنا بحديثك عن العيون فزدنا من أشعارك؟

* فقال:

وأنت لاهيةٌ عيناكِ ساجيةٌ
تَمشين خالةً فيَ سحرِ دنياكِ
ترميَن باللحظ قلباً لو علمتِ بما
يلقى من الوَجد لم تقتله عيناكِ
كمْ تقتلين بلحظ العين أفئدة
يا طفلة الروح .. هل تبكين قتلاكِ

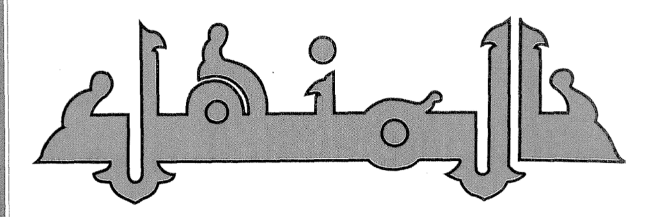
** فقلتُ له حدثتنا عن الحبّ والهوى فحدثنا عن صباك في أرض الحجاز؟

* فقال:

أحنُّ إلى أرض الحجاز وليت لي
جناحٌ فأمضي طائراً صوب وادينا
وأصبو إلى قومٍ كأنَّ نفوسهم
من الحلم نورٌ شعَّ يكسو روابينا
وأذكرُ أيام الصِّبا وعهوده
وساعات لهو قد قضينا بنادينا
فياربِّ صبِّرني فإنِّي على النوى
أحنُّ إلى صحبي وأهفو لماضينا

«للحوار بقية»

حوار/ **عبد الهادى بلاسي**
أسرة التحرير - بالمنهل -



تصدر عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

جدة ـ المملكة العربية السعودية ـ ص . ب / ٢٩٢٥

برقيا : المنهل

هاتف : ٦٤٣٢١٢٤ ـ الاشتراكات

فاكس : ٦٤٢٨٨٥٣

الاشتراك السنوي

☐ مبلغ (٥٠ ريالا) للاشتراك السنوي للافراد تشمل الاعداد الشهرية بالاضافة الى العدد السنوي (الخاص) .

☐ عرض خاص ☐

☐ مبلغ (٤٦٠ ريالا) للاشتراك لمدة (٣) سنوات تشمل الاعداد الشهرية بالاضافة الى العدد السنوي (الخاص)، وكذلك كتاب شذرات الذهب وديوان الانصاريات ورواية (التوأمان).

☐ مبلغ (٦٠٠ ريالا) للاشتراك لمدة (٥) سنوات تشمل الاعداد الشهرية بالاضافة الى العدد السنوي (الخاص)، وكذلك كتاب شذرات الذهب.

«شاملة رسوم البريد»

السادة دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

* بعد إطلاعي على شروط الاشتراك السنوي في مجلتكم (المنهل) والعرض الخاص ، أرغب في الآتى :

اشتراك سنوي [١٥٠] ريالا (٣) سنوات [٤٦٠] ريالا مع الاصدارات

(٥) سنوات [٦٠٠] ريالا وكتاب شذرات الذهب

وأرفق لكم طيه قيمة الاشتراك حسب ما هو موضح بالقسيمة .

« أ » شيك **« ب » حوالة بنكية**

مبلغ .... رقم .... بتاريخ ....

فضلا تعنون الشيكات أو التحويلات باسم (مجلة المنهل)

الاسم :

العنوان **القطر :**

المدينة : .... **المنطقة :** .... **شارع :** ....

بناية رقم : .... **شقة رقم :** ....

ص.ب : .... **رمز بريدي :** .... **تليفون :** ....

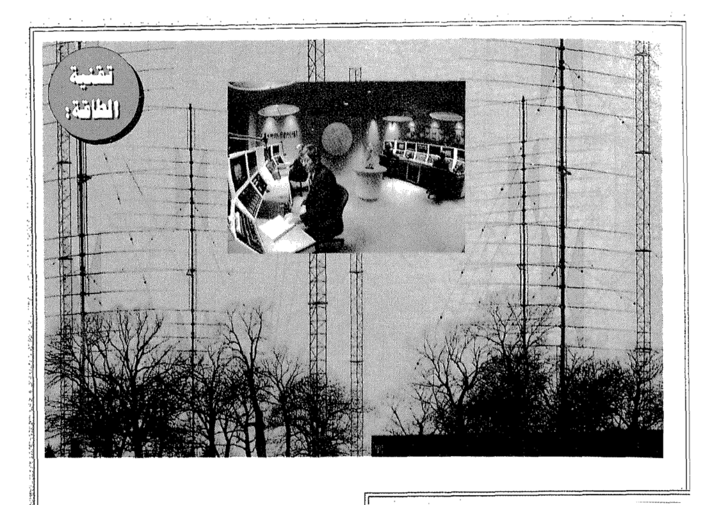
فاكس : .... **تلكس :** ....

(المجموعة الكاملة ١٣٥٥ هـ ـ ١٤١٥ هـ)

(٧٠) مجلداً فاخراً متوفرة في الألوان : « الأزرق - البني - والأسود »

للاستفسار : الاتصال بادارة العلاقات العامة بالمجلة ت / ٦٤٣٢١٢٤

لمحبي الثقافة ولمقتنى المجموعة عرض خاص يمتد حتي نهاية هذا العام



تكنولوجيا الطاقة بين ارهاصات الحاضر وتحديات المستقبل

بقلم: د. سالم عبد الجبار آل عبد الرحمن
دكتوراه هندسة كيميائية
- الأردن -

يمكن اعتبار الطاقة بكل جدارة واستحقاق احد حملة مشعل التقدم التقني، فلم يكن التصنيع على نطاق واسع ممكنا الا بعد التمكن من التحكم بإنتاج الطاقة ووضعها تحت تصرف كل من يحتاج إليها. والطاقة بحد ذاتها لا تعد منتوجا، لكن لا يوجد منتوج واحد على ظهر الأرض دون ان تكون الطاقة هي الوسيلة لإنتاجه. وفي الوقت الذى تبدو لنا فيه الطاقة على اشكال اساسية متعددة: حرارية، ميكانيكية، كهربائية نرى أنها وبأشكالها المتنوعة هذه ما تلبث أن تظهر

بمظاهر واطوار لا حصر لها. غير انها تبقى رغم ذلك خاضعة لمصير القاعدتين:

- يمكن باستخدام الوسائل المناسبة تحويل كل شكل من اشكال الطاقة الى شكل آخر.

- الطاقة لا تفنى ولا تستحدث، بل تتحول من شكل الى آخر فحسب.

واذا ما نظر المرء في ضوء هاتين القاعدتين الى استغلال الطاقة استغلالا صناعيا فإنه لابد واجد من ذلك منطلقا الى المزيد من الافكار الهامة، لعل احدها يتمثل في البحث عن شكل الطاقة الذى يصلح للاستخدام في أى زمان ومكان والذى ربما قد يتمثل في نوع او أنواع من الطاقات الجديدة والمتجددة خاصة، بعد ان تتجاوز المثلبين الرئيسيين: تواجدها غير المنتظم، وارتفاع تكاليف تحويلها.

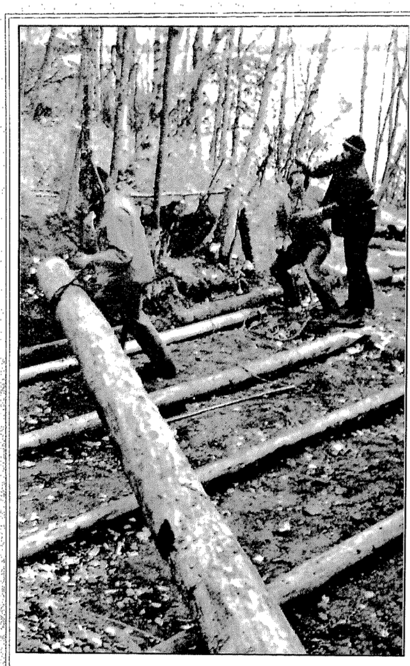
ويبقى الانسان يبحث عن الخيار الامثل للطاقة في ايامه القادمة على الرغم من اننا لا نجده الا وهو أمام خيار مصيرى طبيعي، طبيعي لا غير.

لما كانت البلدان النامية قد بدأت تدخل - وفي كثير من الاحيان تمر فعلا - بتلك المراحل من التوسع الاقتصادى والتحديث التى تقوم على كثافة استهلاك الطاقة بوجه خاص فان احتياجاتها من الطاقة سوف ترتفع ارتفاعا هائلا خلال العشر سنين القادمة خاصة وهي تستشرف مطالع قرن ميلادي جديد. واذ ذاك فانه يقدر بأن استعمالها للطاقة في المجالات التجارية سيرتفع بنسبة تزيد على ٨٥٪ خلال العقد القادم بينما يقدر نمو ناتجها القومي الإجمالى بنسبة ٧٠٪ تقريبا. في ذات الوقت نرى انه اخذ استهلاك الطاقة في الاغراض غير التجارية، والذى يمثل في كثير من البلدان نحو ٨٥٪ من مجموع استهلاك الطاقة في الريف، يعرى الغابات بمعدل ٣٠ مليون فدان في السنة.

وهكذا اخذ البحث عن مصادر للطاقة جديدة ومتجددة يدخل مرحلة خاصة من مراحل الالحاح المتزايد. فمثلا نرى بأن برنامج الامم المتحدة الأنمائي انشغل ايّما انشغال فى هذا الميدان حيث اعد برامجه المساعدة (الى جانب استكشاف النفط والفحم والانشطة التكنولوجية) ودعم نحو اكثر من (٣٨٦) مشروعا من مشاريع الطاقة تبلغ تكلفتها على البرنامج (٤ر١٢٧) مليون دولار. هذا عدا ما يزيد على ٤٥٠ مشروعا من مشاريع الحراج، تقدر تكلفتها بحدود (١٧٧) مليون دولار، سيكون لهأ دون ادنى شك دور فى توسيع قاعدة العمل حيث تساعد عبر ما توفي به من التزامات في احداث ثورة تقنية عصرية في ميادين اهتماماتها التي انيطت بها لتعكس ما يرافقها من آثار كبيرة على المجتمع العالمي المعاصر بأسره.

بدأ التركيز بوجه خاص على اهمية الطاقة كعامل من عوامل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في جميع انحاء العالم منذ عام ١٩٧٣ وذلك لارتفاع اسعار الوقود التقليدى. فبالنسبة الى البلدان النامية احدثت هذه الزيادات ضغوطا اضافية على موازين مدفوعاتها وعلى جهودها الرامية الى تنفيذ برامج للاسراع في تقدمها الاقتصادى والاجتماعي. اما بالنسبة الى البلدان الاخرى فقد كان ثمة اثر رئيسي تمثل في الاسراع في استكشاف واستغلال مصادر جديدة لانواع الوقود الأحفورى التقليدى، والعمل على حفظ

الطاقة، وتنمية مصادر طاقة غير تقليدية متمثلة في اشكال الطاقة الشمسية والكتلة الأحيائية Blomassوالوقود الخشبي والرياح والطاقة المائية الصغيرة والطاقة الحرارية الارضية. وكانت قد تمت هذه الجهود، ولاسيما المعنية بتنمية الطاقة المتجددة وخاصة في البلدان النامية، بطريقة غير منسقة بحيث ظهرت بأنها اكثر اتساما بطابع انتشار المشاريع الفردية منها بوجود برنامج شامل او خطة او سياسة شاملة للبلد الواحد او مشتركة بين البلدان والمنظمات الدولية.



يمكن القول ان كل تكنولوجيا تدرس الآن تتيح تقريبا فرصا لقدر من التطبيق في الوقت الراهن. حيث تشمل هذه التطبيقات القطاع المنزلي والتجارى والريفي والزراعي والصناعي وقطاع النقل. وينتظر بقرب حلول القرن القادم، ان تكون التكنولوجيات الاحدى والثلاثين التي هي الآن في مرحلة البحث والتصميم والتطوير قد بلغت جميعها، ما عدا عددا قليلا منها، درجة الاستعداد للعرض التجارى. وعلى ذلك يكون من المطلوب ليس المبادرة لتطوير تكنولوجيات جديدة بقدر ما هو بذل جهود منسقة ونشطة لادخال هذه التكنولوجيات ونشر استعمالها على نطاق واسع.

ونتيجة لهذا الاهتمام الواسع النطاق بالطاقة في البلدان النامية قام عدد كبير منها بانشاء وزارات او دوائر للطاقة في الوقت الذى نرى ان شؤون الطاقة فى البلدان الاخرى يعهد بها الى وزارات الاقتصاد حيث يوجه التركيز الى النمو الاقتصادى والصناعي وإلى التغلب على العقبات التي تعترض سبيل هذه العملية ـ الا وهي امدادات الطاقة واسعارها.

وكون البلدان النامية قد اعطت اولوية عالية نسبيا للطاقة لا ينطوي على كونها قد طورت منهجاً لحل قضايا امدادات الطاقة واسعارها. ولكنه يعني انها بدأت تعيد تقييم التوزيع الداخلي لأمدادات الطاقة ومصادرها بين المصادر التقليدية وغير التقليدية. فالحكومات نراها لا تزال قلقة على توفير موارد الطاقة لجميع القطاعات في بلدانها، الريفية منها والحضرية/ الصناعية. وهي كمجموعة تسعى الى تنمية الطاقة التقليدية - ولا سيما الطاقة الكهرومائية وانواع الوقود الأحفورى، في الوقت الذى نجد ان انشطة الطاقة المتجددة فيها ما تزال دون مستوى الطموح.

تقييم تكنولوجيا الطاقات المتجددة:

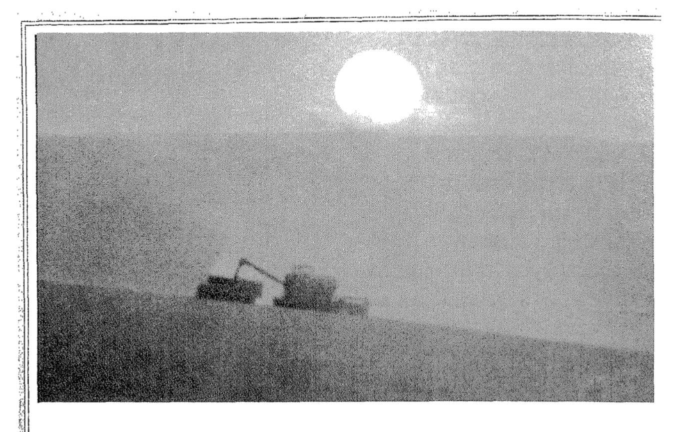
سنحاول هنا اجراء تقييم لتكنولوجيا الطاقات المتجددة (غير التقليدية) من خلال النظر الى احتمالات تطورها الراهنة كبدائل لانواع الوقود التقليدية في البلدان النامية.

نعني بانواع الوقود التقليدية النفط والفحم والغاز الطبيعي ومحطات الطاقة الكهرومائية الكبيرة واليورانيوم - ادرجت محطات الطاقة الكهرومائية في هذه الفئة نظرا الى انتشارها على مر الزمن ، اما اشكال الطاقة غير التقليدية التي سنتعرض لها من خلال هذه الدراسة فتشمل الموارد المتجددة كالطاقة الشمسية، والحطب، وغير ذلك من اشكال الكتلة الاحيائية - اى فضلات النبات والحيوان والانسان - ومحطات الطاقة الكهرومائية الصغيرة، وطاقة الرياح والطاقة الحرارية الارضية وكذلك الطاقة الحيوانية.

ان من المعروف بأن مصادر الطاقة غير التقليدية لا تزال دون الاستعمال على نطاق واسع بالمقارنة مع النظم التقليدية، وثمة سببان رئيسيان لذلك وهما سعر الطاقة التقليدية، ونمط التنمية الاقتصادية الوطنية. حيث نجد انه حتى الوقت الذى بدأت فيه اسعار النفط بالارتفاع في عام ١٩٧٣، كان الناس ينظرون الى انواع الوقود الاحفورى التقليدى على انها متوفرة بمقادير وفيرة ومتاحة في نفس الوقت التي تظهر فيه اسعار ثابتة ومنخفضة نسبياً. ولم تكن الظروف تستدعي فيما يبدو، القيام باعمال البحث والتطوير في اشكال الطاقة التقليدية. اما بالنسبة الى نمط التنمية الاقتصادية في البلدان المتقدمة النمو والنامية على حد سواء فنجد انه كان يميل الى التركيز على نمو الصناعات الكبيرة الحجم المتمركزة في المناطق الحضرية التي تستدعي شبكات طاقة كهربائية مركزية تقوم على المصادر التقليدية. بيد ان هذين العاملين المهمين في معادلة الطاقة اخذا في التغير مؤخرا، حيث لم تعد اسعار الوقود التقليدي ثابتة، فقد ارتفعت اسعار النفط عدة اضعاف منذ عام ١٩٧٣. وبالاضافة الى ذلك، ادى التفاوت في نمط التنمية بين القطاعين الريفي والحضرى الى حدوث نتيجتين وهما:

اولا: ان احتياجات القطاعات الريفية من الطاقة ظلت بوجه عام تسد باجهزة صغيرة الحجم وهي بذلك تلقي مزيدا من الاهتمام لامكانية اعتمادها على نطاق واسع.

ثانيا: ان الاستخدام العشوائي، في بعض الحالات للموارد الطبيعية، كموارد الحراج



مثلا، يقوض نوعية الاراضي الزراعية، مما يهدد القاعدة الاقتصادية للقطاع الريفي نفسه.

ولذلك اعطيت دفعة اقوى الى الامام لتنمية نظم طاقة غير تقليدية بديلة يمكن ان تحل محل أنواع الوقود التقليدى ويمكن استخدامها في اماكن متفرقة.

في هذه الدراسة تم استعراض نحو (٣١) تكنولوجيا من تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية لنقرر من خلال ذلك حالة استعدادها التجارى في مختلف الاستعمالات. وتركز الدراسة للحالة الراهنة لأنواع التكنولوجيات غير التقليدية لاعلى التكنولوجيات ذاتها فحسب، وانما ايضا على مدى ملائمة او مناسبة نظم الطاقة الجديدة هذه في اطار البلدان النامية.

يمكننا تقسيم التكنولوجيات غير التقليدية الى تسع فئات من خلال تحديداتها العامة وهي: حيوانات الجر، الكتلة الاحيائية، الطاقة الشمسية السالبة، الطاقة الشمسية الموجبة، طاقة الرياح، نظم طاقة المحيطات، الطاقة المائية، الطاقة الحرارية الارضية، انواع الوقود الاحفورى. وتوفر هذه التكنولوجيات الطاقة في الاشكال التالية: طاقة ميكانيكية، وطاقة حرارية، وكهرباء، ووقود سائل، اما استعمالاتها فهي: منزلية، وتجارية، وزراعية، وصناعية ، وكذلك تستخدم في النقل. وسنتناول هذه التكنولوجيات بالدراسة عبر مديات توفرها واستخداماتها الحالية، وكذلك على المديات القريبة والبعيدة.

أولا: التكنولوجيات المتوفرة حاليا:

من تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية الاحدى والثلاثين المذكورة توجد اثنتا عشرة

تكنولوجيا متوفرة للاستخدام في الوقت الراهن وهي: حيوانات الجر، الكتلة الاحيائية Bio-mass للحرق المباشر ، التحويل الكيميائي الحيوي، الطاقة الشمسية السالبة، الطاقة الشمسية الموجبة، مصفوفات السيلكون الفولتائية الضوئية، شبكات الطاقة الكهربائية الصغيرة المولدة بطاقة الرياح، نظم المد والجزر في المحيطات، الطاقة المائية الميكانيكية، الطاقة المائية الصغيرة، الطاقة الحرارية الارضية (الحرارة المائية).

حيث يمكن الحصول على الطاقة الميكانيكية في الوقت الحاضر من حيوانات الجر والاجهزة الصغيرة التي تدار بقوة الرياح، والطاقة المائية الميكانيكية، فحيوانات الجر توفر الطاقة لعمليات ميكانيكية كالحراثة ورفع الماء. اما اجهزة الطاقة الصغيرة التي تدار بقوة الرياح والتي تعرف بأنها تنتج ما يصل الى [٢٤] كيلو واط من الكهرباء فتستخدم في عمليات طحن الحبوب وجرشها ورفع الماء. والأجهزة المائية الصغيرة تستخدم في ادارة العجلات والكامات في عمليات الطحن والجرش.

هذا ويلاحظ بأن [٦] من هذه التكنولوجيات توفر منتجات طاقة حرارية. وهذه هي: الكتلة الاحيائية للحرق المباشر، التحويل الكيميائى الحيوى، الطاقة الشمسية السالبة، الطاقة الشمسية الموجبة، الطاقة الحرارية الارضية (الحرارية المائية). ومن بين هذه الانواع هناك نوعان فقط، هما الكتلة الاحيائية للحرق المباشر والطاقة الحرارية الارضية، يمكنها توفير التسخين على درجة عالية (اكثر من ٧٠ درجة مئوية) ومن بين استخداماتها الطبخ والتسخين والتبريد والتجفيف والحرارة اللازمة للعمليات الصناعية.

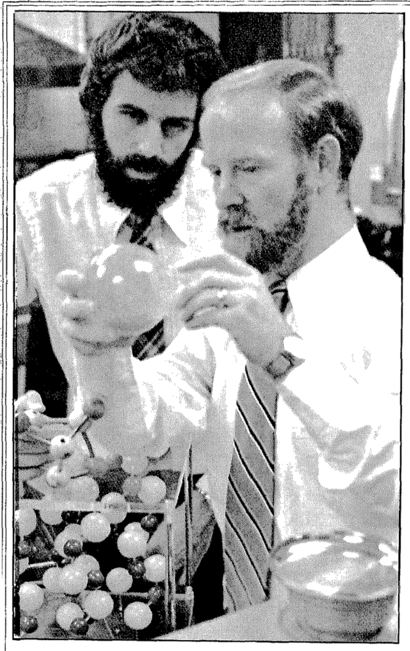
كما ان من بين هذه التكنولوجيات توجد [٧] منها توفر الطاقة الكهربائية وهي: الكتلة الاحيائية للحرق المباشر، التحويل الكيميائى الحيوى، الطاقة الشمسية الموجبة، النظم الفولتائية الضوئية، اجهزة الطاقة الصغيرة التي تدار بقوة الرياح، الاجهزة المائية الصغيرة ، الطاقة الحرارية الارضية.

اما بالنسبة للوقود المستخدم في النقل فيستمد من الكتلة الاحيائية للحرق المباشر ومن التحويل الكيميائي الحيوى ومن فضلات الحيوان والنبات والانسان في الوقت الراهن. والكتلة الاحيائية للحرق المباشر لا تستخدم لهذه الغاية الا في حالات الضرورة القصوى.

ثانيا: التكنولوجيات التي ستتوفر على المدى القريب:

على المدى القريب (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠) يتوقع ان تصل حوالى [١٥] تكنولوجيا من تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية الى حالة القدرة التشغيلية. فمن شأن زيادة التقدم في النظم المتوفرة حاليا ان تمكن من توسيع سلسلة التطبيقات التي يمكن ان تستخدم فيها. فالتحويل الكيميائي الحيوى، مثلا، يمكن استخدامه في الوقت الراهن لتوليد الكهرباء في الشبكات غير المركزية وتجرى الآن ابحاث لتصميم اجهزة لتوفير الطاقة الكهربائية للقوى

المنفردة. اما اجهزة الطاقة الشمسية الموجبة غير المتتبعة فيمكن ان توفر الطاقة الكهربائية في الاستخدامات المتفرقة. وهذه النظم تقترب الآن من حالة الاستعداد التجارى لاستخدامها في شبكة الكهرباء المحلية للقرى، وثمة ابحاث مماثلة تجرى الآن على الاجهزة الفولتائية الضوئية.



علاوة على زيادة عدد فرص استخدام النظم المتاحة حاليا، نجد ان هناك عدة تكنولوجيات لم تصل بعد الى مرحلتها التشغيلية اخذت تقترب الآن من امكانية تطبيقها على المدى القريب. وهذه التكنولوجيات هي: نظم الطاقة الشمسية المتتبعة(١)، نظم الاغشية الرقيقة/ التركيز العالي الفولتائية الضوئية، اجهزة الطاقة الريحية المتوسطة (١٠٠ ـ ١٠٠٠ كيلو واط) والكبيرة (اكثر من ١ميغاواط)، واجهزة طاقة الامواج المحيطية، واجهزة التدرج الحرارى المحيطي(٢)، والطفل النفطي.

ثالثا: التكنولوجيات التي ستتوفر على المدى البعيد:

اما التكنولوجيات الاربع الباقية من تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية فلا تزال إلى الآن في مرحلة ما من مراحل البحث والتى يمكن ان تؤدى بها الى مرحلة من مراحل الاستعداد التجارى على المدى البعيد (٢٠٠٠ ـ ٢٠١٠). ففي قطاع الكتلة الاحيائية تجرى الآن ابحاث في عمليات التحويل الكيميائى الحراري لتوفير الطاقة الكهربائية على الصعيد المحلي للقرى. ويتوقع ان تكون الاستعمالات المتفرقة الصغيرة وانتاج زيت التدفئة من نتاج

الابحاث الجارية الآن في استخلاص انواع الوقود الهيدروكاربوني من النبات. ويتوقع ان تؤدى الابحاث الجارية في مجال الاغشية البيولوجية الى توليد الطاقة الكهربائية للاتصالات ولاحتياجات القرى قرب حلول القرن الجديد بين عامي (١٩٩٥ - ٢٠٠٥) كما ينتظر ان تصبح شبكات الطاقة الكهربائية بجميع احجامها ممكنة التوفير تجاريا بعد عام ٢٠٠٥ باستخدام التحليل الكهربائي الضوئي.

اقتصاديات التطبيق والحواجز التى تعترض سبيل التنفيذ:

يتطلب تسخير مصادر الطاقة المتجددة تنمية تكنولوجيات جديدة، وفي بعض الحالات لا تدعو الحاجة الى تطوير تكنولوجي يذكر، فمواقد حرق الحطب لا تستدعي سوى تغييرات بسيطة في تصميمها لتحسين كفاءتها، كما أن اجهزة هضم الغاز الاحيائي قد تطورت بالفعل على صعيد تجارى في البلدان النامية. وفي حالات اخرى تجاوز البحث الاساسي مرحلة المختبر وانتقل نحو تكييف النتائج مع الظروف المحلية ونحو المشاهدات الميدانية وأخيرا، في حالات اخرى غير هذه بدأ البحث لتوّه في المختبرات العلمية.

ان من العوامل التي يمكن ان تؤدى الى اعاقة امكانية استغلال الطاقة المتجددة في البلدان النامية والمتقدمة النمو ما يمكن ان نجمله من خلال ما يلي:

١ - صعوبة البلوغ بعدة تكنولوجيات مرحلة الاستعداد:

فالاستعداد التشغيلي أو التقني ما هو الا عائق واحد في سبيل استخدام الطاقة المتجددة في البلدان النامية. أما من ناحية الاستعداد التجارى فإنه يتطلب تكنولوجيا للطاقة المتجددة بحيث تتغلب هذه على العوائق الاخرى المتمثلة في فعالية التكلفة وفي التغلغل الى الاسواق. وتتمثل قيود التكلفة في انه اذا اريد تطبيق تكنولوجيا للطاقة المتجددة على نطاق واسع فينبغي ايصالها الى المستهلك بأسعار تنافس في تكلفتها اسعار انواع الوقود التقليدية.

٢ - معادلة الطاقة الاوسع نطاقا:

ففي الوقت الذى نجد ان القيود التقنية وقيود التكلفة قيود حقيقية تحد من عدة اوجه الخيار، فإن معادلة الطاقة الاوسع نطاقا تواجهنا هي الأخرى بمعضلات بل وحتى بعقبات امام التوسع في استخدام الموارد غير التقليدية. فهذا التوسع، مثلا، لا يسير الا بالتناسب مع مجموع قاعدة موارد الطاقة لدى البلدان النامية منفردة - وفي كثير من الاحيان لا يكون معروفا ولا يدرس ولا يمكن حتى التنبؤ به بالقدر الكافي. فالبلدان النامية التى توجد لديها احتياطات كبيرة من أنواع الوقود الاحفورى التقليدى اقل احتمالا من غيرها في اعطاء اولوية عالية للطاقة المتجددة. وكذلك البلدان التى كانت تعتمد على مصادر تقليدية للطاقة كالحطب مثلا، وبدأت ترى ان هذه الموارد اخذت تستنزف بسرعة قد تجد تكنولوجيات اخرى اكثر تقدما من تكنولوجيات الطاقة المتجددة خاصة عندما تظهر امامها بكلفة اقل مقارنة مع كلفة تكنولوجيا الطاقات المتجددة.

٣ - عوائق الحضور التنافسي في الاسواق والقبول الاجتماعي لها:

لو افترضنا اننا استطعنا تجاوز حاجز



الكلفة والتي تعوق لحد كبير العديد من التكنولوجيات للطاقة المتجددة، فاننا سنواجه بعقبة اخرى وهي التي تتمثل بكيفية تغلغل وحضور هذه التكنولوجيات حضوراً تنافسياً مع غيرها من التكنولوجيات ومن ثم مدى تقبل المستهلكين لها حيث أن من المعروف بأن معظم الدراسات التى تجري لتنمية الأسواق تقوم على افتراض تأخر المستهلكين في الاستجابة هذا من ناحية ومن الناحية الاخرى، نرى ان مشكلة الوصول الى المستعملين النهائيين للتكنولوجيا المتجددة تزداد خطورتها بنسب التقاليد الراسخة، ومحدودية الخدمات الارشادية، ورداءة نظم الاتصال، الى أن نصل اخيرا الى مفاهيم غير صحيحة، قد لا يسهل تفسيرها. فقد اشارت العديد من الدراسات الى ان قبول حتى الاجهزة البسيطة كالطباخ الشمسي، يتوقف على اقناع سكان الريف، بالمشاهدة، بأن تخزين الطاقة الشمسية يمكنّ من الطبخ حتى وان كانت الشمس لا تشرق وقت العشاء، هذا زائدا عن توفير قدر ولو ضئيل من نظرية المعرفة والعلم التي تخص هذه الاجهزة.

٤ - العدد المحدود من الاشخاص المدربين على بناء وتشغيل وصيانة اجهزة الطاقة المتجددة:

ثمة عائق آخر يعترض سبيل تنمية الاسواق المستمرة، وهو يتمثل بقلة عدد الكوادر الفنية المدربة ففي الكثير من البلدان نجد عدد المهندسين والفنيين المتخصصين في الطاقة المتجددة محدودا، كما انه لا يتاح لهم سبيل للوصول الى المعلومات المتصلة بالابحاث الجارية في الوقت الذى نجد ان مختبراتهم غير مزودة بما تحتاج اليه من معدات حديثة. وربما تؤدى ندرة الايدى العاملة الماهرة حتى الى الحد من معرفة واضعي السياسة ورجال العلم في البلدان النامية بأوجه التقدم المحرز في

ميدان الطاقة المتجددة.

وربما يتداخل مع هذا العامل عامل آخر وهو الخاص بالقدرة الاستيعابية للبلدان، تلك القدرة التي هي عبارة عن مزيج من اليد العاملة الماهرة والمواد المتوفرة لإنتاج وتركيب وتشغيل وصيانة اجهزة الطاقة المتجددة.

٥ ـ العامل السياسي والمؤسسي:

ان هذا العامل يؤثر الى درجة كبيرة في الحد من تطور تكنولوجيات الطاقة المتجددة. فمن المعروف بان صياغة مجهود منسق لتنمية موارد الطاقة المتجددة تستدعي نظرة شاملة على صورة الطاقة وسياستها. وهذا يتطلب برامج حكومية ومؤسسية تولي هذا الموضوع حقه المطلوب عبر اولويات وبرامج وطنية تعتمد على النظرة الشاملة والبحوث والدراسات العلمية الاصيلة في هذا المجال، وعندما تتمكن هذه المؤسسات من تحديد خطها العلمي الواضح عبر الاهداف المراد الوصول لها يمكنها بعد ذلك تحديد اشكال المساعدة التقنية اللازمة لتحقيق الاهداف الوطنية الخاصة والمتعلقة بتنمية الطاقة.

٦ ـ نوع تكنولوجيا الطاقة المتجددة الملائم:

إن موضوع عملية اختيار التكنولوجيا للتنمية لم يكن من المواضيع الجديدة في النقاش حيث ظهرت بمجموعة من الاعمال التي اهتمت بدراسة هذا الموضوع ابتداءا من مؤتمر الأمم المتحدة للعلم والتكنولوجيا الذى عقد في خريف عام ١٩٧٩.

من المعروف بأن التكنولوجيا بمفهومها الواسع لا تعتمد على المعطيات المحددة بل تلعب في تحديدها ظروف نشأتها واهداف وحاجات الوحدات الانتاجية التي تتعامل معها، وهناك عدة مدارس فكرية متداولة في الأدب التكنولوجي حول انسب التكنولوجيات التي يقترح استخدامها من قبل الدول النامية للتسارع في عملية التصنيع والانماء الداخلية. ولما تمتاز به بعض الدول النامية من كثافة سكانية وشحة في الموارد المالية المتاحة وندرة في اليد العاملة الماهرة يطرح موضوع استخدام التكنولوجيات الوسيطة على اساس انها الحل لمشكلة تلك الدول النامية (التكنولوجيات الوسيطية استخدمت في مراحل معينة في عمليات التصنيع في الدول الصناعية المتقدمة ولا زال قسم منها في طور الاستخدام). ولمعالجة حالات بعض الدول النامية قليلة الموارد البشرية المالكة لموارد معدنية جيدة ولديها وفرة برؤوس الاموال المتاحة يقترح عليها التعامل مع التكنولوجيات المتطورة والتي تحتاج الى كثافة برأس المال ويد عاملة ماهرة محدودة وهذه التكنولوجيات نادرا ما تتكامل حلقاتها داخل البلد النامي الواحد لاعتبارات عديدة اهمها طبيعة التكنولوجيا المتطورة ذاتها.

ولكن الحقيقة هي ان الدول النامية لا تتعامل مع تكنولوجية محددة لصناعة محددة ولانتاج معين ولكن مفهوم التعامل مع التكنولوجيا في الدول النامية يدخل ضمن مفهوم واسع لكلمة تعامل وهو حسن استخدام الموارد المتاحة للحصول على افضل واسرع الانجازات لقطع فجوة التخلف التي تعيشها

البلدان النامية.

ان المفهوم الديناميكي لعملية اختيار تكنولوجيا الطاقة المتجددة الملائم يعد عاملا معيقاً لحركة نمو وتطور تكنولوجيات مناسبة لبعض البلدان النامية لذلك ومن هذا المنطلق نرى انه لا توجد تكنولوجيا محددة جاهزة بالامكان ان نطلق عليها التكنولوجيا الملائمة وكأنها الأداة السحرية التي ستحقق المعجزات. ولكن هناك مجموعة من العوامل حصيلة تفاعلها العلمي والكفوء يؤدى الى اتباع افضل الوسائل لانتقاء التكنولوجيا الاكثر تناسبا للتعامل معها وتكييفها لتكون فيما بعد التكنولوجيا الملائمة والتي يمكن ان تستوعبها الجموع المتعاملة معها لتطويعها وتطورها وفق مقتضيات خطط التنمية الشاملة لكل دولة من الدول النامية (سنتناول بحث مجموعة العوامل المؤثرة في انتقاء واختيار نوع التكنولوجيا الملائم في البلدان العربية تحديدا من خلال احدى دراساتنا القادمة، وسنكتفي هنا بالاشارة الموجزة للعامل البيئي ومدى ملائمته لانواع معينة من تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية) حيث نجد انه في البلدان التي تقع ضمن النطاق الجاف والصحراوى نجد ان تكنولوجيا الكتلة الاحيائية، وتكنولوجيا المياه، لا يمكن ان تقوم فيها مما يؤدى بالتالي الى عدم امكانية تنمية مثل هذه التكنولوجيات في مثل هذه البلدان، وعليه سيترتب على هذا العامل ضرورة التقيد بالبيئة الملائمة والمناسبة لتطوير تكنولوجيات للطاقة المتجددة تعتمد اولا على الامكانيات الذاتية المتوفرة (الطبيعية وغيرها) والتي يجب توفرها حتى يمكن التفكير بعدها بنوع التكنولوجيا الملائم.

كما ان القضايا البيئية، مثل تلوث الهواء والتصحر، تستدعى تقييما لخيارات الطاقة لكل بلد على حده، او على اساس دون الاقليمي، وتحتاج هذه الخيارات الى تقييم ليس فقط من حيث التكنولوجيا ولكن ايضا من حيث الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والبيئية التي تؤثر على اختيار التكنولوجيا ذاتها.

خاتمة:

ونحن نقدم هذا الجهد المتواضع لا يسعنا الا ان نقدم الدعوة الى جميع مؤسساتنا العلمية العاملة داخل وطننا العربي الكبير، الى الشروع باتخاذ كافة التدابير اللازمة التي من شأنها خلق وتوطين بعض من هذه التكنولوجيات في البلاد العربية في محاولة منها لارساء قواعد نهوض علمية وتكنولوجية عربية، ولا سيما ان وطننا العربي وهو موحد - وهنا دعوة للعمل ضمن وحدة علمية عربية متكاملة - يملك اهم المرتكزات الخمس لاقامة الصناعات الاستراتيجية فهو يملك الانسان الملتزم والقادر على التعلم والابداع ويملك من الثروات الطبيعية الشيء الكثير وكذلك يملك من رؤوس الاموال، ما يوفر له في حالة ترشيد استغلالها افضل السبل لإنشاء أى صناعة، هذا بالاضافة الى ان الوطن العربي يملك أسواقا موحدة قادرة على استهلاك أى انتاج من تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية كماً ونوعاً. وما علينا الآن الا أن نوحد الخطى ونحن نقرر جميعا الى المسير باتجاه خلق وتطوير ايديولوجيات علمية تفضي الى توطين بعض التكنولوجيات ضمن عملية مواجهة تحدية تكنولوجية شاملة.

أوراق مطوية

من مجازيات باكثير المجهوله (٥)

تيهي فخاراً حضرموت!

تهنئة الى الصديق النابغة الشاعر عبد الله بن أحمد بن يحيى،

شرح وتقديم:
د. محمد ابو بكر حميد
كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود

* بالرغم من بُعد المسافة بينه وبين اصدقائه في وطنه الا انه كان يتتبع أخبار ذلك الوطن النائي وأهله ويأمل في نهوضه على أيدي النابغين من ابنائه ويستحثهم على السعي للمجد ويحدثهم عنه، وهذه القصيدة نظمها علي أحمد باكثير اثناء إقامته في الطائف التى قدم اليها من مكة المكرمة ـ بعد أن اشتد عليه الحر فيها فخرج منها ينشد النسمة الباردة.

سنة ١٣٥٢هـ وهناك في رحاب «الطائف المأنوس» كما يسميه شاعرنا وصلته الأنباء بأن صديقه الشاعر عبد الله بن احمد بن يحيى الذي توثقت صلته به في زمن الصبا في حضرموت ثم تجددت في عدن قد عاد من مصر وبعد حصوله على شهادة العالمية من الازهر الشريف.

كانت الفكرة التى خرج بها باكثير معه من حضرموت ان لا مُخلص لامة العرب والمسلمين من الادواء التى تعاني منها الا العلم.، إذ لن تستطيع هذه الامة ان تفهم دينها حق فهمه ولن تتمكن ان تعمل به الا بالعلم.. العلم بالدين والعلم بعلوم الكون والدنيا وان الاقتصار على معرفة أحدهما دون الآخر فيه الضياع الكامل لهوية هذه الامة. فقد كانت هذه شكواه طوال حياته وكانت همه الذي حمله معه الى كل مكان. وقد عبّر عن هذا الهم الكبير في قصائده الباكره التى نظمها في حضرموت فنجده مثلا يتطرق الى هذه الفكرة في قصيدة بعنوان «وداع رمضان» نشرت في افتتاحية «مجلة التهذيب» التي اصدرها فى حضرموت عدد رقم ٧ بتاريخ ١٣٤٩/١٠/١هـ يقول فيها:

كيف النهوض لأمة منكودة
مُنيت ديانتها بسوء تفهم

تلكم نوامــيس الرقي صــريحــة
نطقت بهــا آي الكتــاب المحكم!
فــهم النبي وصــحــبــه اســرارها
فــتـقــدمــوا في (المجــد) ايّ تقــدم

فالطريق الى المجد مدخله الفهم الصحيح للدين كما يؤكد باكثير وكما يؤكد تاريخنا العظيم في عصوره الزاهية ثم يقف الشاعر في ضراعة يدعو ويشكو:

شــهــر الهــدى أشكو اليك تـأخــرا
من أهل دينك في الزمــان المعلم
فيه الشعوب استيقظت من نــومها
فــمــتى مبــوب المسلمين النُّوم
جـهلوا حـقــائق دينهم فـتــأخــروا
وجنوا عليــه العــار إذ بهم رُمي

فـلا عـجب إذن ان يسـعـد شـاعـرنا كل هذه السعادة بنيل صديقة ابن يحي لشهادة العالمية ويعتبر ذلك انتصاراً لوطنه على الجهل ومفخرة لحضرموت وليس له وحده فحسب فما أحوج تلك البلاد في ذلك الوقت، وربما الى اليوم إلى أمثال هؤلاء العلماء الذين تجتمع فيهم عدة خصال كما نجد في الابيات من ١٥ الى ١٨. إذ لا يجتمع عشق الغيد وعشق الوطن، فاختار عشق الوطن ووصل الى الحقيقة التى يقررها شاعرنا في البيت التالي:

ولكنهــا نفس أرتـه اشــتــغــالـه
عن المجد ـ باللذات ـ من خبل العقل



باكثير



بخط باكثير

تهنئة لحضرموت!

١- هو المجد صعب دركه ليس بالسهل ... ومن يبتغ الحسناء في مهرها يغل

وفي الابيات من ١٩ الى آخر القصيدة يوجه الشاعر الحديث الى حكومتي حضرموت آنذاك (الدولة القعيطيه الحضرميه والدولة الكثيريه الحضرميه) ويدعوهما الى المحافظة على الحكم الذاتي الذي تتمتعان به وفقاً لاتفاقية الحماية البريطانية معهما التى أبرمت ١٨٨٢م وعدم إعطاء الاستعمار البريطاني فرصة لحكم البلاد فعلياً بمزيد من المعاهدات ويبدو ان الشاعر قد أحس وهو في عدن مركز الثقل الاستعماري الانجليزي ان بريطانيا ستسعى الى وجود فعلي فى حضرموت أو ان حكام حضرموت سيحسنون الظن بلندن وهو ما يمكن ان يكون السرّ في قوله مخاطبا حضرموت:

أراك تلوبين اشتياقاً لـ (لندن)
ومـا (لندن) الا لبـاس من السُلّ

وقد تحقق بالفعل ما حذّر باكثير منه في هذه القصيدة بعد ذلك - بخمس سنوات، إذ عقدت الدولة القعيطيه الحضرميه معاهدة الاستشارة مع بريطانيا سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٧م) وتلتها الدولة الكثيرية الحضرمية بمعاهدة مماثلة بعد ذلك بسنة، وبموجب تلك المعاهدة تحول الاستعمار الشكلي الى استعمار فعلي إذ أصبح المستشار الانجليزى مرجعاً للسلطان في كل الشئون الداخلية والخارجية ما عدا الدين والعبادة(*).

ثم جمعت بريطانيا تحت استشارتها كل المحميات في إتحاد واحد يجمعها تحقق سنة ١٩٦٢ تحت اسم «اتحاد الجنوب العربى»، وهو ما توقعه الشاعر في هذه القصيدة قبل حدوثه بثلاثين سنة وسمى الدولة المستعمره (بريطانيا) جامعة الذُّل حين استحلف حضرموت في آخر القصيدة مذكراً إياها ألا تنسى حلمه في أن يراها حرة مطلقة اليد والرِّجل:

بربك لا تنسي أماني شاعر
يريدك شعبا مطلق اليد والرجل
يضم الى لولات (قحطان) جهده
لتقوى على تحطيم (جامعة الذُّل)

(*) راجع: د. عمر عبد الله بامحسون، التطور السياسي والدستوري في اليمن الديمقراطيه، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩١، ص٦٣ وما بعدها.

تيهي فخاراً حضرموت!

هو المجد صعب دركه ليس بالسهل
ومن يبتغ الحسناء في مهرها يغل
يباعد ما بين الفتى وبلاده
ويقطع ما بين الحبيبين من وصل
إذا أنت لم ترزق فؤاداً فلا ترم
بلادك واقعد تحت ضاف من الظل[١]
وخلِّ العلى للمستهام بحبها
يرى نفسه في جنبها هينة البذل

يقـــبّل ثغـــر الخـــود قُبلة راحل
على عجل من مجده هو في شغل[٢]
يقـصّرها وشكر النوى، غـيـر أنهـا
لشـدتها تشـفي الفـؤاد من التّبل[٣]
وكم قـــبلة باق بفــيك مــذاقــهـــا
وقـد خلت الأعـوام حـولا على حـول
فـــإن لم يكن حُبّ مع المجـد فلتطر
بكابوســه العنقـاء عنى وعن مـثلي
رأيت عـيــون الغــيــد اهدى دلالة
على العدل والتوحيد من كتب العدل

* * *

لَنِهن (العلى) أن (ابن يحي) سما لها
فكان لهـــا بعـــلا وناهيك من بعل!
همـام عـصـامي أجـد لنفـســه
فخاراً على ما نال من شرف الأصل
قَلى الوطن الغـالي لغـيـر ضـرورة
فما عيشة فيه برنق ولا ضحل[٤]
ولكنهـــا نفس أرتـه اشـــتــغـــاله
عن المجـد باللذات من خـبل العـقل
وألقت بيـمناه (الشـهـادة) بعـد مـا
له شـــهـــدت غـر المواهب من قـبل!

* * *

فـتـيـهي فـخـاراً حـضـرموت بعـالم
أديب كـــريم من بنيك أخى نـبل
فــتـى لسن حلو الحــديث كـــأنه
يلير على ندمـــائه عـــسل النحل
لطيف ظريف أريحـيّ مـــهـــذب
خطب بليغ كـــاتب شـــاعـــر فـــحل
صـداقـتـه عـون الصـديق على العلى
وبعض صداقات الرجال من الكل[٥]
أراك تنوبين اشـــتـــيـــاقـــا (للندن)
ومـــا (لندن) إلا لبـــاس من السلّ
أجـــدُك ترجين العـــدالة والهنا
وحسن التضامن كافر نحس نغل[٦]
فـمـا بقي الا صـورة لا حـقـيـقـة
فــيــعــدل فى ظلم ويظلم فى عــدل
ويخــتص أبناء الفــرنجـة بالهــوى
فيعلو بنو اللخناء، فوق بني الفضل[٧]
أتنمين أمـثـال (ابن يحـيى) وتُسلمى
- على رغم أنفي - جيدك الحُرّ للغل[٨]

* * *

بربك لا تنسي أمـــانيَّ شـــاعـــر
يريدك شـعـبـاً مطلق اليـد والرجل
يضم الى دولات قـحطان جـهــده
لتـقـوى على تحـطيم جـامـعـة الذّلِّ!!

الهوامش:

(١) رام مكانه يريمه: برحه ، يقال: ما رام مكانه أو من مكانه، ما فارقه.

(٢) الخود: الشابة الحسنة الخلق ج خود وخودات.

(٣) تبله الحبُ يتبلُه تبْلا: أسقمه.

(٤) الرّنق: الكدر.

(٥) الكلّ: العالة على غيره

(٦) أجدُك: إستحلفك. النغل: الفاسد ابن الزنى.

(٧) لخن الرجل: قبح كلامه فهو ألخن وهي لخناء.

(٨) الغل: طوق من حديد أو جلد يجعل في الأسير أو في يديه.

الحب الماضي



شعر:
مفرج ال
شاعر ال
السعودي

اخرجي من خط سيري لا تعودي
أنا أغلقت على الماضي حدودي
كنت لي في نشوة الماضي غراماً
شغل الدنيا بقلبي ووجودي
واكتشفت الحب هذا ذات يوم
كان حبّاً من سراب ووعود
أين ما حلفتني حين التقينا
وحلفت الألف لي أين عهودي
إنها أضغاث أحلام تلاشت
وانطوت لما سرى عني رقودي
كنت مثل الآلة الصماء أمضي
حبك الموهوم في سيري وقودي
مغمض العينين ما فكرت يوماً
أن يئول الحب هذا الصدود
ففؤادي قد سقى الحب دمائي
واستهلت راحتي تندى بجودي
كم عزفت الحب لحناً عبقرياً
وانتهى لحني وقد حطمت عودي

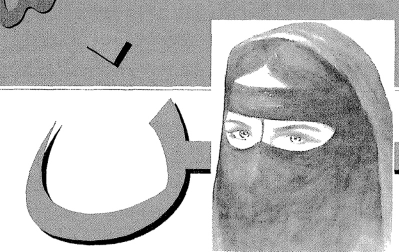
حقوق المرأة في الشريعة الاسلامية

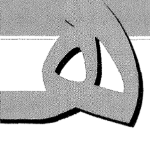
أوراق زوجية

ابو عواد / ام عمرو

رسالة الى السيدة الجميلة

مجلة شهرية ذات
أداء متخصص تخاطب
عقل المرأة ووجدانها





حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية

بقلم: د. نجاة المريني
كلية الآداب - المغرب -

كثرت اللقاءات، وتعددت المؤتمرات، حول وضع المرأة في الشرق والغرب، في العالمين الإسلامي والغربي، لنقاش وتحليل هذا الوضع انطلاقاً مما أقرّته الشريعة الاسلامية أو القوانين الوضعية، أو ممّا ترسب في الذاكرة المجتمعة من عادات وتقاليد وأعراف، مقارنة بواقع الحياة اليومية التي تعيشها المرأة.

وبالرغم من إيمان المجتمع العالمي بحقوق المرأة، وبالرغم من النداءات المتكررة التي تصدر عن المؤتمرات واللقاءات حول تطبيق قرارات بناء المجتمع المتوازن الذي يخوِّلُ للمرأة حقوقا، ويلزمها واجبات، فإن دار لقمان ما تزال على حالها، وما تزال المرأة تعاني من الاضطهاد والظلم والإبعاد.

لكن ماذا عن وضعية المرأة في الشريعة الإسلامية؟

قد يطرح السؤال متحدياً كلّ النعوت والأوصاف التى يتباهى المجتمع الإنساني بإضفائها على المرأة! هل فعلا تعيش المرأة كما أقرت بذلك الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية العالمية؟

- هل أنصفت الشريعة الإسلامية المرأة؟
- ما هي حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية؟.

يصعب أن نجيب عن واحد من هذه الأسئلة في عصر التحديات، بل أكثر من ذلك، لم تستطع المجتمعات أن تلتزم بتطبيق ما آمنت به من إقرار لحقوق المرأة في إطار إنسانية متماسكة، كما أن المرأة نفسها لم تستطع - بالرغم من نضالها وتضحياتها - أن تخترق كلّ الحواجز التي تقف بينها وبين إقرار حقوقها في المجتمع.

سؤال يمكن أن يردده كلّ إنسان عندما يحاول الحديث عن المرأة والدفاع عن حقوقها تبعاً لواقعها ولظروفها المعيشية.

لقد أولى الإسلام المرأة عناية خاصة، وحررها من عبودية الجهل وجبروت الأعراف، وظلم التشريعات، باعتبارها متاعاً حيناً، وشؤماً وعاراً حيناً آخر، ومن ثمَّ كانت محرومة من حق الحياة كإنسان، له كرامته وله حقوقه.

جاء الإسلام ليخلص المرأة مما كانت تعانيه، وليرفع عنها ما لحقها من حيف، ويعيد إليها الاعتبار كإنسان له حقوق وعليه واجبات، منبها إلى تكريم الخالق لها ولشقيقها الرجل من خلال الآية القرآنية {ولقد كرّمنا بني آدم} (الإسراء/٧٠).

كيف انتقلت صورة المرأة أو وضعيتها من الاستلاب والمهانة والاستعباد إلى وضعية أخرى تتمثل في التكريم والتشريف والاعتراف بالحقوق؟

لقد أقر الإسلام للمرأة حقوقها من خلال مبادئه وتشريعاته، وسما بعلاقات الرجل بالمرأة الى أرقى مستوى في التشريع والمعاملة، فهي شقيق الرجل وسكنه، يقول تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة} (الروم/٢١)، والسكينة تحمل أكثر من معنى، فهي مصدر الطمأنينة والنعمة والاستقرار، ومن ثم فالتشريع يؤكد امتداد العلاقة بين الجنسين في المودة والرحمة، وكما يقول تعالى: {هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن} (البقرة/١٨٧) ففي الآية إقرار للمساواة بين الرجل والمرأة، فلا فضل لواحد منهما على الآخر في مختلف مجالات الحياة، بل أكثر من ذلك، فحميمية العلاقة بينهما أكبر دليل على تكريم الإسلام للمرأة ومساواتها للرجل، وكما يقول الرسول عليه السلام: {النساء شقائق الرجال}.

إنّ التوعية بما خوّله الإسلام للمرأةمن حقوق وألزمها من واجبات، يستدعي الوقفة المتأنية عند هذه الحقوق، رغبة في انتشالها مما تعيشه من قهر واضطهاد وظلم، ودعوة الى تمسكها بأهداب التشريع السماوي باعتباره مخلصاً لها من الاحتكار والاستلاب كما تعرف ذلك المجتمعات العالمية ومنها المجتمع الإسلامي.

تستدعي هذه التوعية الإيمان بالفعل كوسيلة للخلاص، والدعوة إلى بناء مجتمع إسلامي متماسك، مقوّماته مبادىء التشريع الإسلامي، وبناؤه لبنات قيم إسلامية رفعت مستوى حياة الإنسان من حياة الغاب والسيطرة إلى حياة الكرامة والتعاون والإخاء.

وسأحاول الحديث باختصار عن بعض هذه الحقوق.

إن تحرير المرأة من القيود السلطوية الجائرة أن تعمل جهدها على تطبيق القوانين الشرعية الاسلامية وإلزام الآخرين بها في عصر التحدّيات، وعصر القهر والعنف، حيث تعيش المرأة المسلمة في مختلف أرجاء المعمورة أوضاعاً مزرية، أوضاعاً مهينة، ضاعت فيها حقوقها، وأهينت كرامتها، وامتهنت فيها شخصيتها، ومن أهم هذه الحقوق:

الحرية:

لقد خلّص الإسلام المرأة من الاستعباد، ووفر لها حياة الأمن والأمان، مع تحمل المسؤولية الملقاة على عاتقها، وقضى على كل أشكال الرق والعبودية، يقول تعالى: {يا أيها الناس، إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} (الحجرات/١٣)، فالمرأة والرجل إذن سواء عند الله تعالى، يسيران في خط واحد، ويعملان وفق التشريع السماوى في العبادات والمعاملات، وينال الجزاء الأوفى من سار في الخط، وتبع النهج، وتمسك بالقانون السماوى.

ويتأكد مبدأ الحرية في الآية: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} (الزلزلة/٨،٧)، فالجزاء من صنف العمل بالنسبة للجنسين دون اعتبار للمفارقات الجنسية أو الاجتماعية، ومن ثم نبذ الإسلام

التنابز بالألقاب، ورفض تدخل السلطة أو تحكمها في نيل الجزاء، وإنما الجزاء رهين بالعمل، فلا خوف إذن من قمط يمكن أن تتعرض له المرأة المسلمة في المعاملة، وان اختلفت الدرجة والمسؤولية (حرية العقيدة، حرية الرأى ، حرية الاختيار... الخ).

المساواة:

إذا كان الرجل هو ربّ الأسرة وحاميها وكافلها، فإن المرأة لا تقل شأناً ومكانة عنه، فهي الأم والزوجة والأخت والبنت، ولحمة الأسرة المرأة الصالحة في تربية الأولاد ورعاية الزوج وخدمة المجتمع.

ولنجاح بناء نواة مجتمع إسلامي متوازن سوّى الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية بكل أنواعها، قال تعالى: {يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا} (الحجرات/١٣)، فالمساواة هنا علنية بصريح العبارة ودقيق الإشارة ، سواء تعلق الأمر بالعبادات أو بالمعاملات (التوحيد، الصلاة، الصيام، الحج، العلاقات الاجتماعية، الاقتصادية).

والرسول عليه السلام يقول: {لا فضل لعربى على أعجمي إلا بالتقوى} والصيغة تشمل الجنسين دون ميز.

حقوق المرأة المسلمة في التعليم:

إذا كان العلم ظاهرة اجتماعية ملزمة في عصرنا الحاضر، فقد كان الأمر كذلك في الشريعة الاسلامية التى انطلقت من مبدأ العلم والتعلم والقراءة، فأول آية قرآنية: {اقرأ باسم ربّك الذي خلق} (العلق/١)، والله تعالى كرّم العلماء فى أكثر من آية، ودعا الى العلم والتعلم: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} (الزمر/٩) ، {إنما يخشى الله من عباده العلماء} (فاطر/٢٨).

فالخطاب للجنسين وإن كانت الصيغة تفيد جمع المذكر فهي تفيد جمع المؤنث، يشرح ذلك قول الرسول عليه السلام: {طلب العلم فريضة على كل مسلم} والمسلم يصدق على الرجل وعلى المرأة على حدّ سواء. فعائشة رضى الله عنها كانت راوية للحديث والشعر، وحفصة رضي الله عنها كانت تحسن القراءة والكتابة ، والرسول عليه السلام يلحّ على تعليم المرأة، يقول: {أيما رجل كانت عنده وليدة (جارية)، فعلمها، فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران}.

وتحفل كتب التاريخ الإسلامي بأسماء أعلام نساء نهضت بالعلم والدرس، وأفدن المجتمع بتخليصه من الجهل (ميزان الاعتدال: قسم النساء، الإصابة في تمييز الصحابة، الطبقات الكبرى، نفح الطيب).

حق المرأة في العمل:

العمل ظاهرة حياتية اجتماعية عن طريقه يكتسب الإنسان قوته، ويضع لبنات حياته بتعاونه مع أخيه باعتباره كائنا اجتماعيا، وكرامة الإنسان في الاعتماد على نفسه، بالعمل والبحث عن مصادر العيش الكريم، وقد دعا القرآن الكريم الى العمل فى كثير من الآيات، من ذلك: {وقل اعملوا، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} (التوبة/١٠)، وكما يعمل الرجل تعمل المرأة، يقول تعالى: {للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما

اكتسبن} (النساء/٣٢) فعمل المرأة مشروع، واسهامها في خدمة المجتمع لا نقاش فيه.

وبالرغم من أن وظيفة المرأة الأولى هي الأمومة، والحفاظ على الأسرة بتهيئ ظروف العيش للزوج والأولاد، فإنها منذ القديم، وهي تشارك الرجل في أعباء الحياة وتعمل الى جانبه، فإذا جاء الإسلام عملت بتفان في ميادين كثيرة في حالتي الحرب والسلم.

وإذا كانت القوانين الوضعية الحديثة أثبتت شرعية عمل المرأة، فقد سبقها الإسلام الى ذلك وحرص على الحفاظ على حقوقها المدنية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتعليم، يقول تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} (التوبة/٧١).

حق المرأة في الزواج:

في الحديث النبوي الشريف: {لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن} فالزواج ميثاق غليظ يجب أن ينبني على رضى الطرفين لتستقيم الحياة الزوجية والأسرية فقد روي أن الخنساء بنت جذام الأنصارية زوجها أبوها، وهي ثيب من غير استئمارها، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وأخبرته، فأبطل نكاحها. فللمرأة الحق في اختيار شريك حياتها لضمان الحياة الهنية، مع ما في الدعوة القرآنية إلى حسن المعاشرة، {وعاشروهن بالمعروف} (النساء/١٩)، فإن تعذرت العشرة: {فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} (البقرة/٢٢٩)، وإحسان معاشرة المرأة إقرار بحق الحياة الكريمة المتمثلة في وضوح شخصية المرأة واستقلالها، والرسول عليه السلام يقول: {خيركم خيركم لنسائه ولبناته} وعليّ كرّم الله وجهه يقول: {ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم}.

وكما أقرت الشريعة الاسلامية للمرأة اختيار شريك حياتها أقرت لها الانفصال عنه إن كرهت عشرته، فالطلاق وإن كان أبغض الحلال إلى الله، هو الحل الأسلم عند استحالة استمرار الحياة بين الزوجين، فلا تجبر المرأة على متابعة الحياة مع من تكره، وفي ذلك يقول تعالى: {وإن يتفرقا يُغن اللهُ كلاًّ من سعته، وكان الله واسعاً حكيما} (النساء/١٣٠).

يتضح من خلال هذه النقط أن وضع المرأة في الشريعة الإسلامية وضع متميز، وأن الشريعة الاسلامية حفظت لها كرامتها، واعترفت بحقوقها، ودافعت عن مصالحها، وكل النصوص القرآنية حول المرأة وكذا الأحاديث النبوية صريحة فيما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة في حياتها الخاصة والعامة، وهي دستور متكامل يضمن للمرأة المسلمة حقوقها ويؤكد فعاليتها في بناء المجتمع على أساس المساواة في الحقوق والواجبات والشريعة الإسلامية أول شريعة نادت بحقوق المرأة، وعملت على إقرارها في الكتاب والسنة، فما على المجتمع المسلم إلا أن يتمسك بأهداب شريعته، وأن يعض عليها بالنواجذ وأن يعمل وفق قوانينها، وينهج سبل تعاليمها، ففي تطبيقها والعمل بمقتضى أحكامها أكبر ضمان لحقوق المرأة في المجتمع الإنساني.

فإلى أي حدّ تطبق قوانين الشريعة الاسلامية بالنسبة للمرأة؟! ذلكم هو السؤال.

أوراق زوجية

أبو عواد / أم عمرو

٨٠٨- أبو عواد:

انني لا أطلب من المرأة أن تكون مخلوقاً من جنس ونوع آخر.. فقط كل الذى نطلبه منها هو أن تبادر إلى عزق الأرض وزراعتها ورعاية زرعها وتعهده.. ثم تنتظر جني المحصول وقطف الثمر.. أو ليس من زرع حصد؟!

٨٠٨- أم عمرو:

من رحمة الله سبحانه وتعالى ان جعل دورة اى محصول لا تطول اكثر من اسابيع قبل ان يجني الزارع ثمرة جهده. لذا لا يفقد الفلاح صبره وهو ينتظر وحتى لو «خابت» الزرعة فهو يعرف ان الزرعة التالية ستنضج عما قريب، لذا يستمر في المحاولة. ولكنه لا ينتظر سنوات طويلة من عمره انتظاراً للمحصول ولم يفاجأ الفلاح ابداً ان زوجته سرقت المحصول واعطته لشخص آخر فى نهاية هذا العمر كما يفعل الكثير من الأزواج مع زوجاتهم.

٨٠٩- أبو عواد:

لا تطلبي منى أن أردد كلمة «أحبك» تلك التى مسخها الناس من حولنا ولم يشفع ترديدها لتعاستهم ولم يمنع افتراق فرسانها وشقاق أبطالها.. ولا بأس لو فهمتيها وتأكدت منها من خلال مواقفى وتصرفاتي.. لكن أرجوك لا تجبريني على امتهان أسمى كلمة فى قاموس الزوجية الكل يرددها والكل يسمعها ولا أحد يفهم ما. تعنيه.

٨٠٩- أم عمرو:

كلمة «أحبك» هذه بالذات لها ألف مرادف بدءا من بشاشة الوجه وانتهاء بهدية بسيطة حتى ولو كانت اسما للزوجة تحب سماعه، ولا يكلف شيئاً إلا النطق به. انا اقول للأزواج ان كل هذا يدخل فى باب «التماحيك».

٨١٠- أبو عواد:

لا يعجبني في المرأة التى لا تنجب تلك الأنانية والنرجسية حين تضع العراقيل أمام زوجها لتحول دون زواجه عليها.. ويغيظنى جهل بعض المحيطين بها ممن يزيدون فى مأساتها حين يعتبرونها مسؤولة عن هذا «العقم»!!

٨١٠- أم عمرو:

من حق الزوج الذى لا تنجب زوجته ان يبحث عن الإنجاب مع زوجة أخرى

على ان يكون هذا قراره هو وحده وليس قراراً ناتجاً عن الحاح الأهل وضغوط المجتمع وتلميحات الرفاق. ان هناك من الأزواج من يفضل البقاء مع زوجة لا تنجب عن الإنفصال عنها او حتى ايلامها ويرضى بأن يترك للدنيا عملا جليلا بدلا من حفنة من الأولاد. اعتقد ان من حق هذا الزوج ايضاً ان نترك له حرية الإختيار.

٨١١ـ أبو عواد:

قال لي: «كلما رأيتها تقف أمام المرآة.. وتقترب من الدولاب.. تزداد قناعتي بأنه لابد أن يكون وراء تلك الشياكة موعد خروج أو زيارة أما ما عداها.. فهي دائماً ترتدي «بزّة الحداد».. أعني: تلك الدشداشة التى أهديتها لنا فى عيد زواجنا من محلات: أبو عزه!!

٨١١ـ أم عمرو:

اقول للزوج الذى يستغرب لماذا تلبس زوجته وتتزين بأفضل ما عندها وهى خارجة ولا تفعل ذلك فى المنزل ان يسترق السمع لما تقوله لها مضيفتها عند استقبالها تعليقاً على ملابسها وزينتها ويستخدم نفس التعليقات كلما ارتدت شيئاً مميزاً فى المنزل وستبهره النتائج.

٨١٢ـ أبو عواد:

أنا مثلك أحب الثناء. وأبحث عن شاعر أغرق فى بحر وخلجان مديحه وثنائه.. أو حتى منافق يوشحني حلة من زيف مشاعره وريائه ولكن الثناء يا سيدتي يوهب ولا يطلب.. ويهبط على مستحقيه.. دون أن يصعدوا السلالم في طلبه.. أو حتى استجدائه!!

٨١٢ـ أم عمرو:

ليس كل من يستجدون معوزين ولكن اغلبهم كذلك.

٨١٣ـ أبو عواد:

لم تعد دموع المرأة هو ذلك السلاح التقليدى المعروف.. فهذا العصر أضاف المرأة إلى قائمة الذين بحوزتهم أسلحة فتاكة تجاوزت موقعها من الدفاع الى الهجوم وتصفية الخصوم فهل لازال نعتها بالجنس اللطيف وصفاً في محله؟!

٨١٣ـ أم عمرو:

اللجوء للدموع مثله مثل اللجوء للأسلحة الفتاكة تماماً لا يزيد عن كونه «لغة العاجز» الذى طال صراخه واستغاثته ولم يسمعه احد. لقد آن الأوان أن نصلح من اخطائنا فى تربية المرأة ومعاملتها واصبحت المصوغات والشواهد اكبر من ان نتجاهلها.

رسالة إلى الحبيبة من ابن زيدون

محمد عبد الواحد حجازى
مصر

** هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي*

** كان وزيراً لآل جهور بقرطبة، ثم آل عباد بأشبيلية*

** كبير شعراء الأندلس.*

** يتميز شعره بالقوة ونضارة المعانى ورقة البيان وعذوبته.*

حبيبتى ولاَّدة:

ودع الصبر محبٌ ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى ... حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك

أحقا ياولادة؟ أحقا يا ابنة المستكفى؟ أحقا أنك تعاهدت مع الزمان على مشاغبتى ومحاربتي؟ تعاهدتما وتقاسمتما على معاندتى وتأليب الخصوم والحسَّاد؟ عجيب أمر ذلك الحلف لو كان موجوداً حقيقة.. أعلمُ يا ولادة أن قد كانت للزمان معى فى فتوّتي ونضارة شبابى صولات وجولات. وكنت وقتها قادراً على مواجهته ومجابهته، وكنت وقتها قادراً على سياسته وترويضه. لأن من لا يعرف الزمان وبطشه من السهل أن يقع تحت طائلته ورحمته.. فحذرتُه وراقبته.

إلا أننى - لحزني العميق - لم أستطع أن أسوسه فى فترة من أحلك فترات حياتى.. أنت تعرفينها يا حبيبتى، إنها الفترة التى انقلب عليَّ فيها الأمير أبو الحزم بن جهور أمير قرطبة.. كنت وقتها رئيساً لوزرائه لا تعلوني سلطة سوى سلطته ولا تأمرنى كلمة سوى كلمته.. سلطانى مرهوب بغير بغى أو عدوان. ولكن للأسف الشديد نجحت بطانة السوء من حوله فى أن توغر صدره عليّ بأراجيف باطلة حتى باتت عيناه تتقدان بالرغبة المتعطشة للانتقام مني على ذلك والله ما فكرت فيه ولا اقترفته ولا سعيت من أجله.

هل أسعى إلى

القضاء على وليِّ نعمتى وهدم عرشه؟ ذلك خاطر شيطانى لم يتلبس بفكرى أبدا. ولكنه صدق الوشاة الحاقدون الذين لم يطيقوا عزة مكانتى ونبالة رفعتى، فماذا صنع بى الأمير بن جهور، وعلم الله كم أخلصت له؟ ألقى بى فى غيابة سجن رهيب لا يأذن حراسه لأى إنسان أن يقترب من حجرتى أو يتكلم معى من خلال نافذتى. ورغم الإذلال الذى ما كنت لأستحقه إلا أن عصابة الأمير أرادت أن تمزق نفسى فى مصطرع من الشكوك والظنون .. لقد سربوا إليّ وأنا فى غيابة السجن خبراً مشؤما فحواه أن ابن عبدوس وزير مولانا ابن جهور يبادلك الهوى وتبادلينه لأنك خدعت بماله وثرائه وزخرف زينته وبهائه. فهل هذا صحيح يا ولادة؟ قولى يا حبيبتي: إنها أضغاث أحلام.. قولى يا حبيبتى: إنها أوهام .. أهكذا يصير حالى؟ الكل صار عدواً لى يناوئنى ويحاربنى؟ أنت والأمير وابن عبدوس.. آه .. متى أخرج من محنتى .. التى لم تصب أحداً قبلي:

متى أبثك ما بى
ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى
فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى
أصبت فيك لمابى

فهل يقع بخاطرك أنك إن فعلت ذلك لا قدر الله يسلوك قلبى.. ينساك عمرى.. تمّحى ذكرياتى معك من سماء وجودى؟ أبداً، أبدا.. ليس لى قلب يجرؤ على ذلك:

فديتك ليس لى قلب فأسلو
ولا نفس فأنف إن جُفيتُ
فإن يكن الهوى داء مميتا
لمن يهوى فإنى مستميت
أسرُّ عليك عتباً ليس يلقى
وأضمر فيك غيظا لا يبيت
وما ردى على الواشين إلا
رضيت بحب قاتلتى رضيت

وأعترف أن قلبى كان يميل أحيانا الى السلو.. بل إلى اليأس فكنت أزجره قائلا:

هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار فى مثلها الصبر
فاعبثى ما شئت أن تعبثى..
وامرحى ما شئت أن تمرحى كأن حبى

لك
عبئا ثقيلا وهمًا شديدا تريدين أن تتخلصى منه:

يا نازحا وضمير القلب مثواه
أنستك دنياك عبداً أنت مولاه
ألهتك عنه فكاهات تلذُّ بها
فليس يجرى ببال منك ذكراه
علَّ الليالى تبقينى إلى أمل
الدهر يعلم والأيام معناه

حبيبتي ولادة:

لا تظنى أننى ممن يركن إلى اليأس فقد بذلت غاية وسعياً لاستعادة رضاء الأمير فبعثت إليه رسالة استغيث فيها بضميره الحى وأخلاقه النبيلة.

وكان مما قلته له: لمن يريبنى من سيدى أن أبطأ سيبه أو تأخر غير ضنين غناؤه فأنفع الحيا ما صادف جدبا وألذ الشراب ما أصاب غليلا.. فمُنَّ عليَّ بعفوك:

فعلام تنكل عن صنيع مثله
ولأنت أمضى فى الخطوب وأشهم
فاجعله قدوتك التى تقتادها
فى كل من يبغى ورأيك أحكم

ولكن الأمير زجر الزمان عنى فحاطنى بحمايته وأسبغ عليَّ فضل رعايته.. فحصننى من أولئك الأوغاد بكلمة منه نزلت على رءوسهم كالصاعقة وكانت على قلبى برداً وسلاما؛ فقال:

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا
الدين أمتن والسجية أكرمُ
خفتم ورمتم أن أخون وإنما
حاولتم أن يستخف يلَمْلَم
وزحفتم بمحالكم لمجرب
مازال يثبت للمحال فيهزم
أنى رجوتم غدر من جربتم
منه الوفاء وظلم من لا يظلم
أنا ذاكم لا البغى يثمر غرسه
عندى ولا مبنى الصنيعة يثلم
كفوا وإلا فارقبوا لى بطشة
يلغى السفيه بمثلها فيحكم

وهكذا يا حبيبتى أمنت مكر الزمان..

حبيبتي ولادة:

فإذا أمنت مكر الزمان .. مكر الحاسدين الذين كانوا يتربصون بى، والذين كان يسعدهم لو ان الأمير المعتمد تخلص منى.

إذا أمنت مكر الزمان تأتي أنت يا

ولادة لتشني عليّ حرباً لا قِبَل لي بها ولا طاقة لي على تحديها؟ فبمن أستنجد، وأستغيث فينجدنى ويغيثنى؟ ولكن كيف وقد:

أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

ما كان أجمل أيامنا الخوالى التى عشناها معا.. هل تذكرينها يا ولادة؟:

إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية
قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا
وردا جلاه الصِّبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها
مُنى ضروباً ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته
فى وشي نُعمى سحبنا ذيلها حينا

وبعد هذا أهون عليك فتتحالفين مع الزمان على تعذيبي:

إن الزمان الذى مازال يضحكنا
أنسا بقربكم قد عاد يبكينا
ما حقُّنا أن تُقرُّوا عين ذى حسد
بنا ولا أن تسروا كاشحاً فينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغصَّ فقال الدهر: آمينا

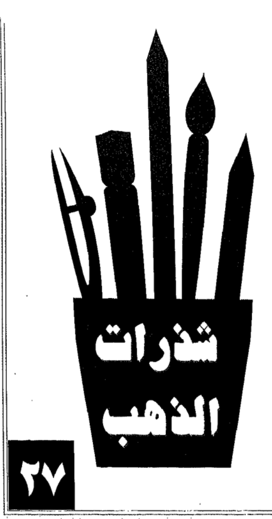
ومع ذلك فلا تظنى أننى ممن يقابل الهجران بالهجران.. أو السلوان بالسلوان :

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ، ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إن طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

حبيبتى ولادة:

ماذا أقول لك فى ختام رسالتى؟ أقول:

أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة
فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا
وفى الجواب اقتناع لو شفعت به
بيض الأيادى التى مازلت تولينا
عليكم منى سلام الله ما بقيت
صبابة منك نُخفيها فتخفينا



١٦٦ - مأزق حرج:

صديقى الأستاذ الكبير (م . ن) أستاذ كبير يشغل منصبا دينيا كبيرا، وهو عالمٌ متواضع النفس جميل الخلق، صريح كل الصراحة فى ذكر ما يحدث له من مواقف يخالفها التوفيق، وقد حدثنى عن مأزق حرج وقع فيه فقال:

دُعيت إلى حفل ديني بإحدى العواصم الكبيرة، وراقنى أن أسمع كلمة دينية فى تفسير نص قرآني كريم ألقاها واعظ فاضل، فذكر من الدقائق البارعة ، والتحليلات الشافية، والاستشهادات المؤيدة ما ملأ نفسى إعجاباً به، وحين انتهى من كلمته حرصت على تزكيته والإشادة به ولكنه قال إنه رجع إلى تفسير عصريٍّ لعالم شهير، نقل عنه كلّ ما ذكر، فشكرت له صدقه وذهبت من فورى إلى مكتبتى لمراجعة ما قال العالم الكبير، فوجدت الواعظ قد التزم بكل ما قال التزاماً يكاد أن يكون حرفيا، فعاودت قراءة ما كتب المفسر الجهير مثنى وثلاث حتى انطبع فى ذاكرتي لا بالمعنى فقط، بل بأكثر الألفاظ والتراكيب، وجعلت أستعيد التفسير فى شغف وإعجاب.

وبعد يومين دعيت لحفل ديني فى بلدة مجاورة، ولم أكن أظن أنى دُعيت للكلام، بل للمشاهدة فحسب ففوجئت بجمهور الحاضرين يطلب أن ألقى كلمة شافية، واضطررت للحديث، وكنت على ذكر مما قرأت من تفسير العالم الكبير، فأجرى الله على لسانى كلَّ ما قال، وتوقعت أن أجد القبول من السامعين لنفاسة ما تحدثت به، ولكنى وجدت من مظاهر الفتور والحيرة، ما لم أتوقع، وقد انتهيت من كلمتى لأجلس جوار زميل فاضل، فسألته عن أثر الحديث فى نفسه فابتسم، فزادت حيرتى، وقلت له تحدث صريحا يا أخى، فقال الزميل الفاضل: لقد كان الأستاذ فلان (وذكر اسم الواعظ الذى سمعت الكلمة الأولى منه) هنا منذ ساعتين، وألقى الكلمة التى تكرمت بإلقائها، والجمهور هو الجمهور والألفاظ متقاربة جدا إلى حد يُدهش، فأدركنى من الحيرة والخجل ما أهمّنى، واستأذنت منصرفا، إذ لم أتحمل البقاء!

د. أبو حسام
المنصورة

قلت له الأمر يسير يا أخي! فقال: لا تجامل، فالأمر عسير، وقد روحت عن نفسي بالحديث عنه إليك، لأتخفف من بعض ثقله! وهيهات!

١٦٧ - مأزق آخر:

حدثني زميل شاعر فقال: نظمت قصيدة باكية في رثاء زوجتي، ونشرتها بالعدد الممتاز من مجلة (العربي) الكويتية، وهي إحدى المجلات الشهيرة، وبخاصة عددها الممتاز الذي يحرص الكثيرون على اقتنائه، ثم فوجئت بعد عامين بصدور مجلة الثقافة القاهرية وبها قصيدتي ممهورة باسم أديبة ناشئة قالت إنها نظمتها في رثاء زوجها!! وبعد يومين رأيت الأديبة الناشئة - ولم أعرفها من قبل - تسرع للقائي باكية شاكية ترجو أن أنقذ سمعتها، لأن رئيس التحرير اتصل بها هاتفيا ليؤنبها أشد التأنيب، فتعجبت مما طلبت، وقلت: وكيف السبيل إلى إنقاذ سمعتك؟ قالت في سذاجة، تقول إننا نظمنا القصيدة معاً، فقلت من المعقول أن نشترك معاً في تأليف كتاب علمي، أما أن نشترك في تأليف قصيدة أو قصة فهذا مما لا يعقل! فازداد بكاؤها وتوسلها، وطال الوقت دون أن تنصرف، فهداني الله إلى ما يشبه الحل، فقلت لها، قولي لرئيس التحرير إنك قرأت قصيدة العربي، ونسختها بخطك لتكون من محفوظاتك، وجاءت إحدى صاحباتك، فقرأت القصيدة بخطك وظنتها من نظمك فأرسلتها للمجلة دون علمك! فقالت: فكرة والله!

ولكن رئيس التحرير - وهو أديب فاضل، وناقد مرموق - لم يقتنع بما كُتب له، لأن الأديبة الناشئة قد حوّلت ضمير المؤنث إلى ضمير المذكر في أكثر الأبيات! فكيف يلتئم هذا مع ما تدعيه، ورفض أن ينشر الاعتذار.. ولازلت أبحث لها عن مخرج.

١٦٨ - مأزق ثالث:

تصدّر أحد الإداريين ممن لا يمتّون إلى الأدب الحقيقي بصلة أكيدة للحكم في بعض مسابقات القصة القصيرة التي تقيمها النوادي الأدبية أحيانا وقد سوّلت له نفسه أن يختار قصة ممتازة وقعها بعض المتسابقين باسمه، لا ليجعلها الفائزة بالمرتبة الأولى كما ينطق واقعها الفني الملحوظ، بل ليدخرها لنفسه ويمهرها بتوقيعه غير الكريم، وقد توهّم أن صاحبها المغمور لا يستطيع أن يدّعي أنه المنشيء ولعله لا يقرؤها في مجموعته التي ينشرها في نطاق محدود، ولكن المفاجأة القاسية قد صدمت المؤلف السارق، حين اتضح لعدد من القراء أن القصة لأديب كبير، قد نشرها في الصحف منذ سنوات ثم جمعها في كتاب تعددت طبعاته! فنقلها المتسابق الناشيء حرفيا، دون أن يقدر تبعة ما صنع، وظن الحكم النزيه أن القصة من تأليف المتسابق الخامل، فسولت له نفسه أن يغتصبها، وقد بعث هذا العمل الشائن شكا قويا في بغية قصص المجموعة، فأخذ القراء يتعقبون أصولها في شتى المجلات، لأن من يقدم على هذا النهب الفاضح، لابد أن يكون ذا سوابق عدة، وهذا ما تحقق للأسف.

١٦٩ ـ سرقات المازني:

الكاتب الكبير الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني، اتّهم بالسطو الأدبى شعراً ونثرا على آثار الكبار من أدباء الغرب، وقد واجهه فى مجال السرقة الشعرية زميله الأستاذ عبد الرحمن شكرى بما اقترف، ودارت معركة بين الصديقين الكبيرين أدت إلى القطيعة والعجيب أن المازني دافع عن نفسه دفاعاً هو الاعتراف بعينه إذ لم يجرؤ على إنكار الاتهام.

ففي مقدمة الجزء الثاني من ديوانه، تعرض إلى اتهامه بالسطو فقال ما ملخصه: أما ما اتهمنا بسرقته مما ورد فى الجزء الأول من ديواننا فقصيدة (فتى فى سياق الموت) وهى ثمانية أبيات، وقد راجعنا قصيدة هود الشاعر فوجدنا فى قصيدتنا أبياتا ليست له، ونحن ننزل عن القصيدة كلها راضين، وقصيدة (قبر الشعر) وهى خمسة أبيات نكلها إلى حظ أختها، وقد راجعنا دواوين الشعراء فلم نعثر على شيء يجوز من أجله اتهامنا بالسرقة إلا أبيات فى (رقية حسناء) وهى «لشليي» والجزء الأخير من قصيدة (أمانى وزكو) وهى «لبييرنز» وأول هذا الجزء (يا ليت حبى وردة) ولو أن ما أخذ علينا فى الجزء الأول وما نبهنا القراء إليه من تلقاء أنفسنا حُذف، لما أنقص ذلك من قيمة شعرنا، فإن فى ديواننا الأول نحو ألف بيت، وليس ما أخذ علينا خيرها!

أما دفاع المازني عن نفسه فى السرقة القصصية فأعجب، فقد ترجم قصته لأديب روسي كانت ذات أثر قوى فى نفسه، وظهرت القصة المترجمة للقراء وتعالم الناس أمرها، ثم كتب المازنى قصة (ابراهيم الكاتب) فجاء فيها خمس صفحات متوالية لم تنقص حرفا واحداً، مما ترجم من قبل، وجعل القارىء يحس أنها مؤلفة لا مترجمة والقراء لا يعيشون فى جحور النمل، إذ فطنوا إلى السرقة الواضحة، وواجهوا المازنى بها، فكتب مقالا طويلا بمجلة الرسالة يقول فيه «إن الصفحات هنا هى بعينها هناك بدون أدنى فرق، لا اختلاف على الإطلاق فى واو أو فاء أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث! ولكن من الذى يصدقنى حين أؤكد له أني لم أر الرواية الأولي (ابن الطبيعة) منذ فرغت من ترجمتها، وأنّي لو كنت أريد اقتباس شيء من معانيها لما عجزت عن صب ذلك فى عبارات أخرى، ولكن الواقع هو أن الصفحات الخمس علقت بذاكرتى، وأنا لا أدرى لعمق الأثر الذى تركته هذه الرواية فى نفسى، فجرى بها القلم وأنا أحسبها لى، ومن شاء أن يصدق فليصدق ومن شاء أن يحسبنى مجنوناً فإن له ذاك، ولست أروى هذه الحادثة لأدافع عن نفسي فما يعنيني هذا، وإنما أرويها على أنها مثال لما يمكن أن تؤدي إليه معايشة الذاكرة للإنسان، وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة، وإنما هى بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو دون ضابط نعرفه، ومن غير أن يكون لنا عليه سلطان، فالمرء يذكر وينسى!

ثم ألحق المازني دفاعه بالإشارة إلى سرقات ارتكبها كبار الأدباء فى الغرب عامدين، أشير إليها بايجاز.

١٧٠ ـ سرقات الكبار:

أشار المازني إلى الشاعر الإغريقي الكبير (هو ميروس) فذكر أنه اعتمد في قصيدتيه (الالياذة والأوديسه) على القصص المصرية القديمة في العهد الفرعوني، وأن الأستاذ عبد القادر حمزه أثبت ذلك بما لا يقبل الشك، وأن كل ما فعله هوميروس هو تغيير الأسماء من مصرية فرعونية إلى إغريقية كما أن المؤرخ الكبير (هيردوت) قال عن هومير أنه منظّم فقط لا مؤلف، لأنه جمع القصص القديمة ووضعها في إطار خاص فحسب، ومعنى هذا أن هومير لم يبتكر قصصه وإنما جمعها ورتبها ونظمها.

وبعد أن أفاض المازني في تسجيل سرقات هومير، انتقل الى الشاعر الانجليزي الكبير (ملتون) فذكر أن ناقداً كبيرا هو الأستاذ نورمان دوجلاس، أثبت بما يقطع الشك أن قصيدة الفردوس المفقود لملتون، مسروقة من رواية أدبية كتبها الأستاذ سرافينو ديللا سالاندرا، لأن محور القصيدتين هو ما أصاب العالم من جراء العصيان، والأشخاص في رواية سالاندر هم الله وملائكته، وآدم، وحواء والجنة وإبليس، وهم أشخاص ملتون، ومجلس الملائكة المتمردين وسقوطهم من السماء في منطقة جرداء نارية وأحاديثهم الغاطبة.. كل ذلك متفق في الروايتين، ووالى المازني نشر وجوه الاتفاق على نحو مسهب!

كما أثبت المازني أن رواية تايس الشهيرة التي كتبها (أناتول فرانس) مأخوذة من رواية (هايبيشا) للكاتب الانجليزي (تشارلز لنرى، فالصور والشخصيات والموضوع متحدة، والمازني مع هذا يفضل رواية (هايبشيا) ويراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس، وأمتع للعقل.

ومن يقرأ هذا الكلام يطمئن الى أن المازني يعتقد أن الخطأ يبرر الخطأ، وأن هؤلاء الكبار قد أخطأوا ولم ينقص من قدرهم هذا الخطأ، فلماذا يهاجم وله نظائر من الكبار! وبمعنى آخر أن المازني يعترف بالسرقة! دون إنكار.

١٧١ ـ ابن الرومي يتهم البحتري:

يقول ابن الرومي عن زميله البحتري من قصيدة هاجية!

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها
من شعره الغثّ بعد الكد والتعب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له
وللأوائل ما فيه من الذهب
سمين ما نحلوه من هنا وهنا
والغث منه صريح غير مجتلب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم
حرّ الكلام بجيش غير ذي لجب
ما إن تزال تراه لابسا حللا
أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب
يسيء عفواً، فإن أكدت وسائله
أجاد لصاً شديد البأس والطلب
يعيب شعري ومازالت بصيرته
عمياء عن كل نور ساطع اللهب

الأعمدة النقدية في صحافتنا: هل أدت دورها؟

مسك الختام

قبل أن أجيب على هذا السؤال لابد لي أن أتساءل: هل هناك نقاد في العالم العربي؟ وهو سؤال مهم للغاية لأنه يرتبط فى الحقيقة بحالة الثقافة فى هذا العالم.

والجواب على هذا السؤال ليس عسيرا .. فلو أردنا أن نعدد أسماء النقاد الجادين في العالم العربي اليوم لعجزنا عن أن نتجاوز عدد أصابع اليدين. وهو أمر محزن حقا .. محزن على نحو الخصوص إذا ما تذكرنا أن نسبة التعليم قد ارتفعت ارتفاعاً ملحوظا في بلداننا في العقود الأخيرة، وأن الجامعات قد تعددت في كل بلد. وهذا يعنى اتساع قاعدة القراء، والمفروض أن يكسب الأدب عدداً أكبر من أولئك المتعلمين. فكيف نفسر تناقص عدد النقاد عما كان عليه في أوائل القرن؟!

هل يعنى ذلك أن عدد قراء الأدب قد تناقص وأن التوسع في التعليم قد اتجه نحو جوانب أخرى من جوانب الثقافة؟ ربما خطر على البال أن ميل القراء في عالمنا العربي قد اتجه فعلا نحو العلم، فعصرنا الحالي هو عصر التقنية والعلم.. عصر الكومبيوتر والفضاء الخارجي. نعم: هذا هو الاتجاه في العالم كله منذ النصف الثاني لهذا القرن، وقد ساير قراؤنا الاتجاه العالمي. ولكن نظرة سريعة الى حال الثقافة العلمية في بلداننا تنفي مثل هذا التصور. فإذن استطيع الزعم بأن توسع التعليم الجامعي في عالمنا العربي لا يعني ارتفاع شأن الثقافة الأدبية أو العلمية وكل ما هنالك أن هذا التعليم، وخصوصا الجامعي، بات وسيلة من وسائل العيش شأنه شأن أي حرفة يتبناها المرء كالتجارة والسباكة وتصليح الأدوات الكهربائية. وأنا إذ أطلق هذا الحكم فلست بعيدا عن الجو الجامعي.

فقد تسنى لي خلال حياتي الأكاديمية الطويلة أن أدرس في جامعات عديدة من جامعات العالم العربي على رأسها جامعة بغداد والرياض وصنعاء، وتوفر لي بذلك أن اختبر أوضاع الطلاب عن كثب. فثمة نسبة من طلابنا في فروع الدراسات الانسانية المتنوعة لم يسمع باسم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد ناهيك عن أدباء الجيل الجديد. فما بالك بطلاب الدراسة العلمية؟ وإذا لم يلق الأدب وتلق الثقافة سوقا لدى طلاب الجامعات ، فأين هو سوقها ياترى؟

إننى حزين إذ أذكر هذه الحقيقة، ولكنها حقيقة لابد من ذكرها وإن كانت مُرّة، لكي أقرر عاملا أساسيا من عوامل ضعف النقد لدينا. فإذا كان متعلمونا لا يقبلون على قراءة المصنفات الأدبية فكيف يقبلون على قراءة الآثار النقدية؟ وإذا لم يلمس الناقد تجاوبا مع كتاباته النقدية فما الذي يدعوه الى بذل الجهد في انتاج لا يحمل له مردوداً مادياً أو معنويا؟!

بقلم:
د. شاكر خصباك
جامعة صنعاء
- اليمن

وثمة عامل آخر يضعف النقد لدينا وهو النظرة الى الناقد بكونه أقل أهمية أو إبداعاً من الكاتب الروائي أو الشاعر. ولعل أكبر شاهد على هذه النظرة المقولة الشائعة (الناقد مبدع فاشل). فاذا كانت النظرة السائدة إلى الناقد تضعه في مثل هذا المقام، فما الذي يدعوه إلى احتراف النقد؟ أليس الأفضل له أن يكون شاعراً أو قصاصا؟! وأذكر أن أحد نقادنا البارعين في القصة والشعر وهو المرحوم أنور المعداوي سئم يوما مثل هذه النظرة الى الناقد فقرر أن يكون قاصا، ونشر قصة في مجلة «الرسالة» أثبت بها امكاناته القصصية لكنها كانت قصة يتيمة!

نخلص إلى القول أن النقد في أدبنا العربي يعد «الوزة القبيحة» ونادرا ما استقطب اهتمام الكتاب فاذا فكر أحدهم في أن ينقد كتاباً فلكي يطري على مؤلفه أو يقدح فيه. وهكذا تحولت «أعمدة» النقد في صحفنا ومجلاتنا الى تحايا عطرة أو شتائم لئيمة أو مجرد استعراض لمحتويات الكتاب لا قيمة له. وهي إما أن يثير غضب المبدع أو رضاه. ونادراً ما ينظر إليها من قبل المبدع أنها عمل تقويمي. وأتذكر حكاية طريفة حدثت بين شاعر وناقد في بلد من بلداننا . فقد تجرأ أحد نقاد الشعر أن ينقد ديوان أحد الشعراء وقسا عليه في النقد. وكان هذا الشاعر يتبوأ منصبا خطيرا، فامتشق مسدسه وراح يبحث عنه في المقاهي، فاضطر الناقد المسكين أن يتوارى عن الأنظار لمدة أسبوع حتى هدأت سورة غضب الشاعر.

وأتذكر حكاية قديمة أخرى حدثت للناقد المرحوم أنور المعداوى فقد علق يوما على القاص أمين يوسف غراب تعليقا لم يرضه فأخذ يفتش عنه ليلقنه درساً في الأدب. وسأل عن مقر عمله فاهتدى إليه. فقصده لكي يلقنه هذا الدرس. ولكنه فوجىء بشخص مبسوط القامة عريض المنكبين ذي جسم رياضي قوي، فتراجع عن قراره لئلا يكون هو متلقي الدرس. فاذا كانت نظرتنا إلى النقد والناقد على هذا النحو، فكيف نتوقع أن يرتفع شأن النقد في عالمنا العربي؟!

ويروي المرحوم الاستاذ عبد الحميد جودة السحار في كتابه «صور وذكريات» هذه الحكاية التي تصور حالة النقد في مصر في أيام عزّه. قال: «ظهرت مجموعة أقاصيص « ع الماشي» للاستاذ المازني. وأراد أحد زملائه الأدباء أن يجامله فكتب نقدا للمجموعة جاء فيه: « ... قصة جديدة ذات روعة نزع فيها المازني كعادته نزعة دراسية تحليلية. إن الاستاذ المازني محلل قدير تسعفه سعة اطلاعه وقوة هضمه وسلامة لغته وبلاغتها في هذا التحليل والتخرج فيه. وإنك لتجد في قصته الجديدة أثرا لكل ذلك.

فالحوار الذي يحدثه بين أبطال قصته في كل حين ، بل في كل مناسبة يغري القارىء الفطن على مشايعة الفكرة العامة في التأليف سواء أكانت مقصودة لذاتها أو غير مقصودة».

واستمر الناقد الصديق في نقد مجموعة الأقاصيص على أنها قصة تحليلية طويلة. وقرأ المازني النقد فثار ثورة عارمة لأن الصديق المجامل كتب ما كتب دون أن يكلّف نفسه مشقة تقليب صفحات الكتاب، وكانت فضيحة).

هذا هو حال النقد لدينا، فكيف نتوقع أن تكون الأعمدة النقدية في صحافتنا قد أدت دورها؟!. ولكن هذه صورة متشائمة وسوداء لحالة النقد في أدبنا العربي، ولا شك أن هناك وجهاً مشرقاً له تولاه أدباؤنا الكبار منذ مقتبل هذا القرن ولا أحد يستطيع أن يتجاهل ما أحدثه طه حسين والعقاد وشكري والمازني من تجديد في الشعر والنثر العربيين بكتاباتهم النقدية الرائعة. وفي الوقت الحاضر يبرز بعض أساتذة الأدب في الجامعات العربية كنقاد ممتازين وإن كانوا يمارسون النقد في غالب الأحيان كجزء من مهامهم التعليمية وليس كرغبة في تقويم الأدب. وكثيرا ما كانوا عالة على الأفكار والنظريات الغربية النقدية





عيد مبارك

بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك تتقدم

أرامكو السعودية

وموظفوها بأخلص التهاني إلى خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

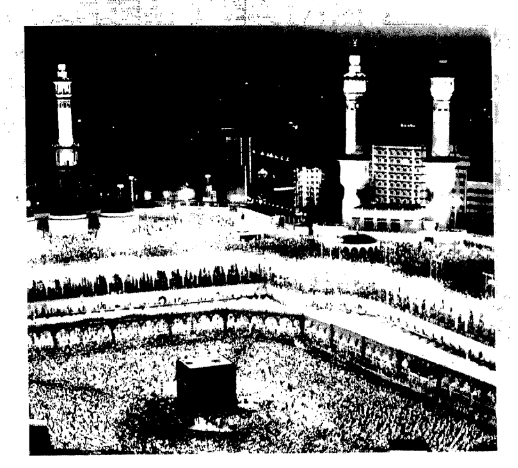
وإلى صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز

ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني

وإلى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز

النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام

وإلى حكومتنا الرشيدة وإلى الشعب السعودي الكريم سائلين المولى أن يعيده على الجميع باليمن والبركات





(PRS - 6 - 96)


أفكار منيرة
للجدل
ثقافتنا الي
أين ؟؟؟
منهج الأصالة
في بناء الأمة
المنهل
AL MANHAL
مجلة العرب الأدبية
العدد (٥٣٣) المجلد (٥٨) العام [٦٢] صفر ١٤١٧ هـ يونيو- يوليو ١٩٩٦ م
الوسطية ومواقعها
في القرآن الكريم
لدلالة بين الغزل والرثاء
ماليات الخط العربي
لربابة أعرق الآلات
لموسيقية العربية
البقرة المجنونة
لوث بيئي جديد



مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٨ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال





جم غفير من رجال شعبنا التليد، اصبح اليوم يدرك أهمية التعليم .. التعليم النظرى بشطريه الديني والدنيوي، والتعليم العملى بقسميه الصناعي والزراعي اذن نحن الآن فى دور انتقال حميد، وفى مستهل مرحلة من مراحل التطور الميمون.. المدارس تُفتتح فى طول البلاد وعرضها؛ فى المدن الكبيرة والصغيرة وفى القرى، والمتعلمون يتدفعون إليها فى إقبال مطرد تدفعهم رغبة نزاعة لإصلاح حالهم ورفع مستواهم، وتسوقهم حكمة أوليائهم الذين مضت بهم سفينة الحياة فى بحر راكد قاتم، فهم يريدون لفلذات اكبادهم نمواً وسمواً، فى جو صحو رائق.

هذه ظاهرة مجيدة تبشر بخير. ومن واجبنا ان نسجلها فى إبانها، لأن لها ما بعدها فأول الغيث قطر ثم ينهمر.

واذا كانت لنا كلمة فى هذه المناسبة السارة فهى ان نهمس فى آذان المعلمين والمتعلمين بأن لابد لهؤلاء - اذا ارادوا النهوض بمستقبلهم - من تعميق الدراسة ومن تسميقها.. التعميق فى مراحلها الأولى والوسطى، والتسميق فى مراحلها العليا.. وإلا فما يجدى فى التعليم اكتفاء بالسطحيات والقشور فى قليل ولا كثير.

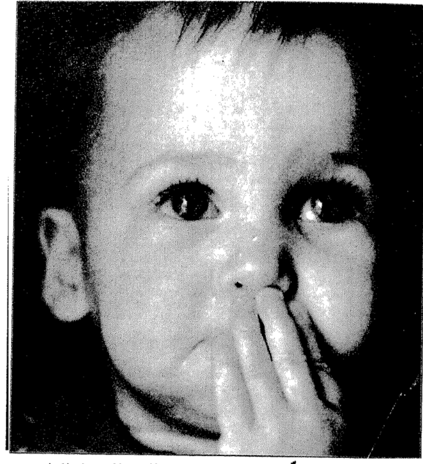
«عبدالقدوس الأنصارى»

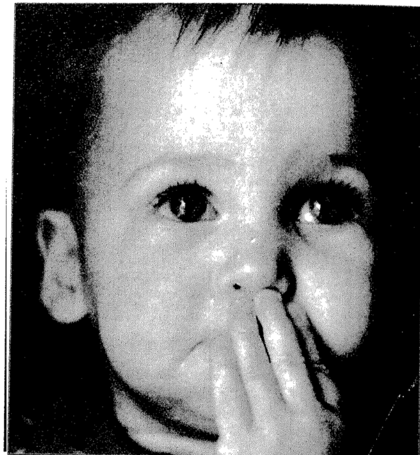
صفر١٣٦٨هـ/ ديسمبر ١٩٤٨م





لقطة الشهر

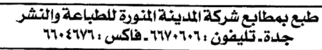




هذه الوداعة من روّعها .. الطفولة هي النغم الجميل الباقي في حياتنا هذه!! صباح مساء، نغمض أعيننا على دمار وحروب وكوارث .. أشياء لا قبَل لهذه الوداعة بها .. هذا الطفل الوادع، لقد روَّعهُ واقعنا المؤلمُ.. وافتقدناه كما افتقدنا كل شيء جميل فى حياتنا ..

الشــــارة

● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر
جدة- تليفون : ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس : ٦٦٠٤٦٧٦

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.

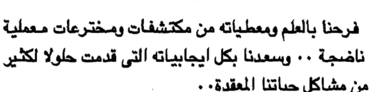


غلاف العدد

المنهل
ALMANHAL
مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

العدد: (٥٣٣)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)

منهل الإيمان



فرحنا بالعلم ومعطياته من مكتشفات ومخترعات معملية ناضجة .. وسعدنا بكل ايجابياته التى قدمت حلولا لكثير من مشاكل حياتنا المعقدة..

لكن ..! يبدو أن عامل التحدي الطموح الذي ركب رؤوس كثير من العلماء قد اركبهم «صهوة الشطط» وذهب بهم مذاهب ماهم ببالغيها .. وكثيرا ما حاولوا رفع الحجاب الحاجز بين (خلق الله) و(صنع البشر) ومَثَلُهم في مذهبهم هذا مَثَلُ ذلك النحات الذي صنع تمثالا ظن معه أنه قد (أبدع خلقاً آخر) حتى رماه بـ (ازميله) آمراً له (انطق).. وما هو بناطق أبدا.

علماء اليوم ذهب بهم الغرور حتى ظنوا أن ليس للكون خالقاً.. لعبوا فى الخلايا والجينات الوراثية جريا وراء (خلق جديد)، وأخبار العلم والعلماء والمكتشفات والمخترعات كل يوم تأتينا بجديد.. جديد من الإخفاق في التطاول على صنع الله. و(تبارك الله أحسن الخالقين) .. وخطأ واحد في مجال الجينات الوراثية قد يدمر البشرية، والعلماء في المقدمة. معامل العلماء بقدر ما ننتظر منها الخير للبشرية، فإنا قد غدونا نخاف منها شراً مباغتا.. ولا مخرج من هذه (الورطة) إلا إذا عرف الإنسان حدّه وقدره، ووقف عندهما.

وحينئذ، فلا ضرر، ولا ضرار..

«رئيس التحرير»





وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات: يراجع بشأنها الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤

فهرس العدد ٥٣٣ المجلد: ٥٨ العام: ٦٢

الفهرس

في هذا العدد

هو الذي أنزل السكينة

أقلام:

(د. محمد عمارة ـ د. سيد رزق الطويل ـ د. مريم البغدادي ـ د. شذى سلمان الدركزلي ـ د. عمر بو قرورة ـ د. راتب الغوثاني ـ د. محمد رجب البيومي ـ أ. أنور الجندي ـ أ. عبد الله بن حمد الحقيل ـ أ. احمد اسماعيل عبد الكريم).



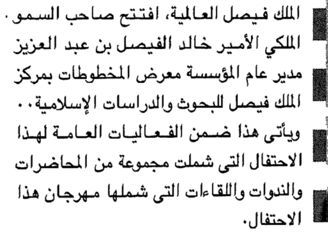
رسالة ناقدة، وأخرى شاكرة، مراجعات وتعليقات، نادرة وطرفة، أخبار ومتابعات، كلها وغيرها تمثل نسيج هذه الصفحات. قارئ المنهل ـ فيما بدا لنا من رسائله ـ قوي الملاحظة، دقيق الرأي ، حسن النية. أحب منهله، وأحببنا نحن ما يصدر منه في إطار ـ حسن النية هذا ـ ويجدنا القارئ اكثر حرصاً وأسعد بالرأي الناصح.

المنهل



مؤسسة الملك فيصل الخيرية .. عشرون عاماً من العطاء:

ضمن فعاليات الاحتفال بمرور عشرين عاماً على إنشاء مؤسسة الملك فيصل العالمية، افتتح صاحب السمو. الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبد العزيز مدير عام المؤسسة معرض المخطوطات بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.. ويأتى هذا ضمن الفعاليات العامة لهذا الاحتفال التى شملت مجموعة من المحاضرات والندوات واللقاءات التى شملها مهرجان هذا الاحتفال.



مكتبة المخطوطات فى المركز تحتوى على ٢٢٨٧٩ مخطوطة أصلية و١٩٦٨٢ فيلما ومكروفيلم.. انشأ هذا المركز مجموعة من القواعد العلمية لخدمة التراث منها: قاعدة المخطوطات المفهرسة، قاعدة خزانة التراث، قاعدة المخطوطات المحققة والمنشوره.

واقام المركز مجموعة من المعارض منها: معرض وحدة الفن الاسلامي، معرض الخط العربي من خلال المخطوطات، معرض زخرفة الفضة والمخطوطات عند المسلمين.

ومعرض هذا العام يحتوي على مجموعة منتخبة من المخطوطات التى تمثل مختلف فنون المعرفة والعلوم من بينها منمنمات ومخطوطات مزخرفة باشكال هندسية ونباتية وزهرية، بالألوان متعددة يغلب عليها ماء الذهب، اضافة الى تفنن النساخ فى كتابة الشروح والحواشي.



الأمير سلطان يتبرع بثلاثة ملايين ريال لطباعة ١٣ كتابا أثريا:

قدم صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع والطيران والمفتش العام تبرعاً سخياً بمبلغ ثلاثة ملايين ريال لاعداد وطباعة ثلاثة عشر كتاباً عن آثار المملكة العربية السعودية بهدف اثراء المعرفة الأثرية لأبناء المملكة العربية السعودية من طلاب وباحثين وابراز تراث المملكة بصورة علمية وهادفة ايماناً منه بأن المملكة لديها مخزون حضاري وآثارى يعود تاريخه الى عشرات القرون.

واشار الدكتور سعد بن عبد العزيز الراشد وكيل وزارة المعارف المساعد للآثار والمتاحف إلى أن الوكالة تقدمت بمشروع للمجلس الأعلى للآثار يتضمن اصدار ثلاثة

عشر مؤلفاً لعدد من مناطق المملكة بحيث يخصص كل مؤلف لواحدة من مناطق المملكة يشتمل على معلومات جغرافية وتاريخية وتوثيق بالصورة والرسوم لأبرز الآثار الباقية٠

وهذا المشروع اضافة الى جانبه التوثيقى والآثاري، فانه يخدم الدارسين من سعوديين وغيرهم في مجال التاريخ والآثار٠٠ كما يثري حركة الوعي العام لدى المواطن وإلمامه بتاريخ وآثار بلاده٠

مكتبة جدة العامة في جدة:

في مدينة جدة، عروس البحر، وعلى شارعي الأندلس وفلسطين، وعلى مساحة تقدر ب(٧٧٠٠م٢) يقع مشروع مكتبة الملك فهد العامة بجدة٠٠ «المكتبة العامة» بجدة، مشروع ثقافي فكري معرفي، تبنته أمانة جدة والغرفة التجارية بجدة، وقام بافتتاحه صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة٠٠ وجاء فى



كلمته: هذا «مشروع جليل لانه يتعلق بالعقل الذي هو مناط التكليف٠ ويؤكد أصالة هذه البلاد وأهلها بالالتزام بالشرع الحنيف٠٠»

وقد تبرع خادم الحرمين الشريفين - يحفظه الله - بمبلغ أربعين مليون ريال لدعم هذه المكتبة التى ستكون فتحاً لانشاء مجموعة من المكتبات الغنية بالمراجع والمصادر والكتب والدوريات وغيرها٠

هذه المكتبة، لا شك تخدم قطاعاً كبيراً من المثقفين والأدباء، والعلماء والمفكرين وطلاب العلم والمعرفة٠٠ وحسب التخطيط العام لمشروع هذه المكتبة فانها ستكون - باذن الله تعالى - إحدى معالم مدينة جدة البارزة٠٠ وسيكون لها دورها الفاعل في دفع وتنشيط الحركة الفكرية والعلمية والادبية فى المنطقة إضافة الى مجموعة الريادات الادبية والفكرية الأخرى٠

حقوق الإنسان: في ٠٠٠ مجمع الفقه الاسلامي:

جمهرة من كبار العلماء والباحثين والدارسين في العالم الإسلامي جمعتهم «ندوة حقوق الانسان» التى عقدت في مدينة جدة في مجمع الفقه الاسلامي، في شهر المحرم ١٤١٧هـ٠٠ ودارت محاور هذه الندوة حول:



الحبيب بالخوجة٠

- الجانب التاريخي لمصادر حقوق الانسان٠
- النظرة التحليلية لحقوق الانسان٠
- تطور النظرة لحقوق الانسان

«موازنات ومعادلات بين المذاهب والاتجاهات الفكرية وبين الشريعة الاسلامية.

- التطلعات المعاصرة والمستقبلية لحقوق الانسان والوسائل الكفيلة بضمانها والالتزام بها رسميا وشعبياً.

ومن الأسماء المشاركة في الندوة: «فضيلة الدكتور/ الحبيب بالخوجة الامين العام لمجمع الفقه الاسلامى بجدة - الدكتور/ بكر بن عبد الله ابو زيد رئيس المجمع الفقهي بجدة - الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان - الدكتور/ صالح المرزوقي - الدكتور/ احمد كمال أبو المجد - الاستاذ فهمي هويدي - الاستاذ/ عبد الهادي بو طالب - المستشار/ على جريشة - الدكتور/ عبد الستار ابو غدة - الدكتور/ مصطفى البارودي».

الندوة العالمية للمخطوطات الاسلامية:

فى مدينة القاهرة، وبالتعاون بين المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم، وبين دار الكتب المصرية عقدت اعمال (الندوة العالمية للمخطوطات الاسلامية) في نهاية شهر مايو ١٩٩٦م ، افتتح الندوة الاستاذ/ فاروق حسنى وزير الثقافة المصري والدكتور/ عبد العزيز بن عثمان التويجرى المدير العام للمنظمة .. وحضر هذه الندوة رؤساء مراكز المخطوطات فى العالم الاسلامي وعدد كبير من الباحثين والدارسين والمهتمين بالتراث العربي الاسلامي من انحاء العالم.


د. عبد العزيز التويجرى.

وتهدف هذه الندوة الى الاطلاع على أوضاع مراكز المخطوطات ومنجزاتها وخطط اعمالها، والتعرف على مشكلات مراكز المخطوطات واحتياجاتها، وإلى تنمية التعاون والتنسيق والتكامل بين مراكز المخطوطات فى العالم الاسلامي، والسبل الرامية إلى تنمية مراكز المخطوطات وتحسين اعمالها وخدماتها، وستدرس خطة مستقبلية لاستجلاب المخطوطات الاسلامية التي نقلت من مواطنها الأصلية في العالم الاسلامي في مراحل سابقة من التاريخ المعاصر الى جهات كثيرة من العالم، وذلك بواسطة تصويرها على الاشرطة، وتناولت الدراسات التى قُدِّمت الى هذه الندوة، موضوعات ذات علاقة بالخلفية التاريخية لوجود المخطوطات فى البلدان المعنية، وأهم الموضوعات التى تعالجها، وظروف نشأة رصيد المخطوطات في البلدان الاسلامية وفهرستها وبحث وضعها الحالي، والامكانات المتاحة المادية والبشرية لاستثمار هذا الرصيد.

العالم الاسلامي والتحدي الحضاري:

رابطة الجامعات الاسلامية تأسست في عام ١٣٨٩هـ .. وهي هيئة مستقلة تعتمد في ميزانيتها على اشتراكات اعضائها، وما قد يأتيها من تبرعات، وهي تضم الآن جميع الجامعات الاسلامية في عضويتها، كما تشاركها معظم المؤسسات الاسلامية الأخرى في انشطتها وتهدف رابطة الجامعات

الاسلامية التي يرأسها الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وزير الشئون الاسلامية والاوقاف والدعوة والارشاد فى المملكة العربية السعودية الى جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع الجامعات في البلدان الاسلامية والعمل على نشرها، مع تنمية التعاون بين مؤسسات التعليم الجامعي والعالي المعنية بالدراسات الاسلامية والعربية، وبخاصة الخطط والمناهج والامتحانات، والامكانات المادية والبشرية ومعادلة الشهادات الممنوحة منها وكذلك تشجع الرابطة على البحث العلمى في العلوم الاسلامية وعلوم اللغة العربية والعمل على انشاء المؤسسات التى تقوم به ودعمها والتنسيق فى ما بينها وايضا انشاء مركز للمعلومات تجمع فيه البيانات عن التعليم الجامعي والعالي وعن اعضاء هيئة التدريس فيه وطلابه وعن البحوث العلمية وكل ما يتعلق بالاسلام والمسلمين من دراسات، وبحوث ووثائق ليكون المركز مصدرا وافيا للباحثين وطلاب العلم.


د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.

وتيسر الرابطة تبادل اعضاء هيئة التدريس والطلاب وتنمية التعاون بين الجامعات الاسلامية والعمل على توافر منح للطلاب في الجامعات الاعضاء لخدمة ابناء المسلمين وبخاصة ابناء الاقليات الاسلامية والتعاون مع مختلف الهيئات والمؤسسات الاسلامية لتنمية هذه المنح ودعم المؤسسات الاسلامية الخاصة بالدعوة والثقافة والاعلام ومؤسسات التعليم المستمر المعنى بالدراسات الاسلامية والعربية، وتنمي الرابطة الاتصال بينها وبين المؤسسات الجامعية والثقافية الأخرى الاقليمية والعالمية، بما يحقق اهداف الرابطة الى تشجيع انشاء جامعات او كليات جديدة متخصصة في الدراسات الاسلامية والعربية في المناطق التي لا تتوافر فيها هذه المؤسسات.

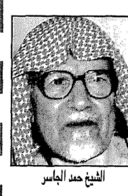
تنظم الرابطة في شهر سبتمبر القادم ندوة بعنوان «العالم الاسلامي والتحدي الحضاري» بالتعاون مع جامعة عين شمس فى القاهرة.

ونظمت الرابطة فى شهر المحرم السابق ندوة عن «حقوق المؤلف .. مدخل اسلامي».

الدكتوراة الفخرية:

تكريم:

الشيخ حمد الجاسر/ المؤرخ الجغرافي، العلامة.. سخَّر علمه ومعارفه لخدمة وطنه.. مؤلفاته أصبحت مراجع في بابها ودراساتها .. من أهم اعماله «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» فى ثلاثة أجزاء تضم (١٥٦٠) صفحة..


الشيخ حمد الجاسر

والشيخ حمد الجاسر، عضو في مجموعة من المجامع العربية في العالم العربي٠٠ وتقديراً لما قدم من علم ومعرفة ـ نال مجموعة من الجوائز، منها جائزة الدولة التقديرية عام ١٤٠٣هـ٠٠ وجائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٦هـ٠٠ وتقديراً لجهوده العلمية فقد منحته جامعة الملك سعود في الرياض «الدكتوراة الفخرية» ٠٠ وفي هذا التكريم قال الدكتور عبد الله بن محمد الفيصل مدير جامعة الملك سعود: «إن هذا القرار يجسد تقدير الجامعة لكل الجهد والانجازات العلمية والثقافية لعلامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر الذي اثرى المكتبة العربية بالعديد من البحوث والكتب والمعاجم العلمية التي تعتبر من المراجع الأولية في الأدب والتاريخ والجغرافيا واللغة، فالشيخ الجاسر يعتبر علامة مميزة في التاريخ العلمي للمملكة العربية السعودية»٠

وكان هذا في يوم الثلاثاء ١٤/مايو ١٩٩٦م٠٠ وأشار الدكتور خالد بن محمد العنقري وزير التعليم العالي إلى أن منح الشيخ العلامة حمد الجاسر لهذه الدكتوراة الفخرية «يُعَدّ جزء من واجب التقدير»٠

نبض الوفاء:

الأخ الفاضل الاستاذ نبيه الأنصارى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته٠٠

اعتدنا أن نستقبل مجلتنا (المنهل) كل شهر بترحيب وإجلال؛ لما تضمه من فكر وأدب متنوع، تغني به القارىء عن عدة كتب٠

فلما كان مطلع شهر فبراير ـ حيث قدمتم العدد السنوى الخاص «النقد والنقاد» ـ وجدنا أنفسنا أمام عمل علمي أدبى متميز، يقرر أن القائمين على أمر المجلة ناس أخلصوا أنفسهم لخدمة العربية، والقيام بأمرها، والحفاظ عليها، غير مبالين بما يتجشمون فى سبيل ذلك من المشقات والمتاعب، فى زمن مال فيه الكثيرون الى الدعة والراحة، متوشحين بمغريات السطحيات والسفاسف، مما يؤكد أنكم تصرون على أن تتفوقوا على أنفسكم دائما٠



د٠ ابراهيم عوضين٠

إن العدد السنوي الخاص الأخير مكتبة نقدية متنوعة المذاهب والاتجاهات، يستطيع متلقيه أن يكون وثيق الصلة بكل الرؤى النقدية، فى تناسق لا يحس معه أحد بأدنى تناقض٠

وقد توَّجه هذا الاستهلال الجامع، الذى استطاع به الدكتور/ عبد المحسن القحطانى أن يجعل منه مرآة تكشف ـ فى صفحتين ـ ما ضمته مئات الصفحات، برؤية بصيرة، واعية مستوعبة٠

وهذا من غير شك أحد مظاهر القوة والروعة التى اتسم بها العدد٠

بارك الله جهودكم، وشكر لكم حبكم الدائم الدائب على لغتنا وآدابها، وأعانكم على تقديم المزيد٠

وكل عام وأنتم وأسرتكم وأسرة المجلة بخير حال٠٠ والسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته.

الدكتور/ ابراهيم عوضين رئيس قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة

** الأستاذ الدكتور/ ابراهيم عوضين من المتواصلين مع مجلتهم المنهل، ومن الأقلام العلمية الموثقة، حفلت المنهل بالعديد من دراساته وبحوثه.. ويظل هو، وكل الأقلام المحبة لمنهلها مكان التقدير والاكبار.

- المنهل -

« أفنان »



«أفنان» مجلة دورية يصدرها النادي الأدبي بمنطقة تبوك صدر منها الآن العدد الأول.. واحتوى على مجموعة من الدراسات والبحوث والمقالات والاشعار.

وضمن موضوعات هذا العدد: النقد وقوالب الشعر في العصر الحديث، مع شوقي فى شعره الاسلامي، الاتجاه التجريدي عند نجيب محفوظ، التخطيط الاقتصادي، ثلاثون ألفاً من الصحابة في تبوك، قراءات فى التربية، الرياضيات عند المسلمين.

هذا العدد لا شك جهد مقدر ونأمل للقائمين على هذه المجلة الوليدة التوفيق.

« البلد الأمين »

«البلد الأمين» مجلة دورية يصدرها نادى مكة الثقافى الأدبي.. وهي فى عامها الثاني، صدر منها العدد الثالث لشهر ذي الحجة



١٤١٦هـ.. هذا العدد خصص بكامله للحج والمناسك - وجاء محلى بالصور التي توضح الجهد الرائع الذي بذل من أجل راحة الحجيج ضيوف الرحمن.

وشمل العدد مقالا بعنوان «الحج من خلال الصور الفوتوغرافية التى نشرها الرحالة هوغرنفي سنوك لحج عام ١٢٩٥هـ وهي صور تاريخية نادرة تبين بوضوح كيف كان الوصول الى المناسك قبل (١٢٢) عاماً.. والمجلة جهد علمي وتاريخي وفنى رائع.

«الجندى المسلم»

صدر العدد (٨٢) من مجلة [الجندي المسلم].. وهي مجلة اسلامية عسكرية ثقافية فصلية تصدرها الشئون الدينية فى وزارة الدفاع والطيران.



وقد احتوى هذا العدد على ملف شامل عن الحج وما يتعلق به من أحكام وآداب وارشادات طبية وخرائط للمشاعر.

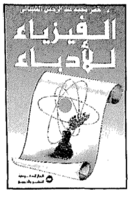
كما احتوى على العديد من المقالات القيمه التى تميزت بالاخراج الفنى الانيق

وطبعت فى مطابع القوات المسلحة.

مقومات الكتاب.

«الفيزياء للأدباء»:

كتاب جديد للدكتور خضر محمد عبد الرحمن الشيباني، ويتمحور الكتاب حول علم الفيزياء الذي تفرض مفاهيمه ومعاييره وأدواته نفسها على العلوم الحديثة والمجالات التطبيقية كافة مما يجعل منه



علما أساسيا ولازما يحتاجه اصحاب الإنتماءات العلمية والتقنية والمهتمون عموما بالفكر العلمي. وبينما يتمتع الأفراد العاديون بإنجازات الفيزياء المتلاحقة ومعطياتها المتدفقة إلا أنها - لسوء حظها - اكتسبت - على المستوى العالمي - سمعة غير مرغوب فيها مما أدى إلى انتصاب حاجز نفسي بينها وبين غالبية الناس، ويتجلى هذا الحاجز في شعور مهيمن بصعوبة الفيزياء وتعقيد مفاهيمها وعسر استيعاب مضامينها. ولعل هذا الكتاب يسهم بجهد المقل في تلطيف تلك المشاعر والتخفيف من حدتها عبر طرح خال من الرموز والمعادلات الرياضية ورؤية مهتمة بعناصر التشويق والتثقيف والربط المنهجي المبسط بين

معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين:

«... لقد مضت سنين طويلة تقطعت بها أواصر الصلة بين أدب العرب المشرقي وأدبهم المغربي وخصوصا مع الأدب العربي في موريتانيا وعلى وجه التحديد الشعر.. ولم تكونوا انتم السبب في ذلك كما لم نكن نحن السبب فيه، بل كان هذا خارجا عن ارادتنا جميعا.. والآن ومع معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين اختلف الحال، فأصبح بإمكان المتلقي المشرقي الاتصال وبسهولة من خلال هذا المعجم بمن يريد من شعراء موريتانيا واصبح بامكان الموريتاني الاتصال بيسر بمن يريد من شعراء العرب اجمع...» هذا جزء من الكلمة التى ألقاها عبد العزيز سعود البابطين - صاحب مؤسسة جائزة البابطين للابداع الشعرى - فى الحفل الذي أقامته الجائزة في جمهورية موريتانيا لتوزيع هذا المعجم على الشعراء الموريتانيين الواردة اسماؤهم فيه.

المعجم يحوي (١٦٤٥) شاعراً اختيروا من بين (٣٢١٥) استمارة.. ويضم المعجم (٤٫٠٠٠) قصيدة مختارة من قبل الشعراء أنفسهم ويُعد هذا المعجم أول انجاز أدبي معاصر يربط العربي بالعربي.

تحقيق مصور:

الربابة أعرق الآلات الموسيقية العربية

ايقاعها ينقلك الى الماضي السحيق ‥ لتسطر على خيالك صورة القافلة وجمالها، السائرة بتمايل منتظم ومتناغم مع الرحلة الطويلة والمشي الرتيب في الصحراء ‥ لذلك سميت القصائد المغناة على انغام الربابة بحداء الابل وارتبطت بغناء القوافل‥ انها اصل الموسيقى العربية‥ واصل الغناء العربي الذى كان مرتجلا شائعا في اوساط عرب الجاهلية وكان حافلا بالطرب والاحاسيس التي يعبر عنها المغنون، جامعا بين الاصالة العربية وروافد الفن الفارسي والرومي.

وقد انتج التزاوج الموسيقي بين العرب والحضارات المجاورة عصرا فنيا عربيا ذهبيا كان من اهم رموزه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق في عصر هارون الرشيد‥ حيث دخلت على الموسيقى العربية آلات جديدة ونغمات مختلفة ورغم ذلك بقيت الربابة محتفظة بمكانتها بين الآلات الموسيقية.



ممدوح الزوبي

ـ سوريا ـ

ـ أبو محمد صانع الربابة



- جلد الماعز الذي تصنع منه الربابة.

بيتين او ثلاثة يطول لساعات احيانا، وقد اتخذ هذا النوع من الغناء لحنين على الربابة وهما (السناد والهزيج) والسناد هو اللحن الثقيل كثير النغمات والنبرات وتدور مواضيعه حول العظمة والشهامة والفخر والمدح، اما الهزيج فهو الخفيف الذي يرقص عليه بمرافقة الدف والمزمار والعود.

لم يعرف تاريخ محدد لصناعة الربابة الا انه من المؤكد ان العود اقدم منها حيث كان الاكثر شيوعا بين الالات الموسيقية في الجاهلية وكان من اهم اسمائه (المزهر والكران والبربط والموتر) وكان على اشكال مختلفة فكل اسم مما سبق يرتبط بشكل معين. فالمزهر مثلا كان ذا بطن جلدي، اما الكران فيشبه العود الحالي، والبربط اسم فارسي ويطلق على العود الخشبي، والموتر تعني آلة بأوتار، وكان الضرب على العود حينها يجرى بإبهام اليد.

واضافة الى العود كان هناك الجنك والطنبور والمعزف، والجنك آله وترية تسمى الهارب ايضا، اما المعزف فهو القيثارة التي لها اثنا عشر وترا، وهذه الآلات جميعها ذوات اصول اجنبية عن العرب، اما آلة الانسان العربي التي استنبطها بنفسه فهي الربابة والمزمار الطبل والدف.

ومما سبق يستدل على ان العرب كانوا في الجاهلية على اتصال بالحضارات الاخرى كاليونانية والفارسية، وقد اخذوا من هذه الحضارات الآلات الموسيقية التي تتناسب مع حضارتهم وثقافتهم وطبيعة حياتهم، ويشار ايضا فى هذا المضمار الى ان العرب في العصر الجاهلي اكتسبوا السلم

اضواء على الموسيقى العربية:

من المعروف ان العرب قد أولوا في جاهليتهم للشعر اهمية قصوى حيث كان يمثل بإيقاعه نوعا من الموسيقى الرقيقة. فكان انشاء الشعر الغنائي بايقاعه الموزون عملا موسيقيا غالبا ما يصاحب الناس في السفر والغزو وحالات التجلي الرومانسي. اما في المدن فقد كان الغناء اكثر تطورا فالاختلاط بالحضارات وانعقاد مجالس القيان وادخال الغناء الجماعي الى الحضارة العربية اوصل المغنين الى فن الترنيم الذى كان يقوم على انشاد مقطوعة من

ايقاعها ينقلك إلى اغوار الماضي

الموسـيـقي الفـيـثـاغـورثي اليـوناني واسـتـعـملوه زمنا امـتـد الى الدولة العباسية.

الربابة والبوادى:

وقد اشـتـهـرت الربابة في البـوادى العربية حيث كانت تصاحب الشعـراء والمنشدين في التغني بالشجاعة والكرم والشـهـامـة والشـرف والمروءة ، وبذلك يسـتـدل على ان الغناء الجـاهلي كـان فـرديا في البـداية الا انه ومع تلاقي الموسيقى العربية بموسيقى الشعوب المجاورة عبر المناذرة الذين خضعوا للحكم الفـارسي والغـسـاسنة الذين خضعوا للحكم البيزنطي واحتكاك العرب الانباط بالحضارة اليونانية والرومانية وتأثر عرب الجنوب بالموسيقى الحبشية، مع هذا التلاقي تولد الغناء الجماعي كما بدأ باستخدام الآلات الاخرى التي كانت تستخدمها الشعوب المجاورة.



- عازف الربابة.

وكان من اشهر موسيقيي الجاهلية الذين برعوا في العزف على الربابة (النضر بن الحرث) حيث كان مغنيا شاعرا تعلم الموسيقى فى بلاط المناذرة، وتعلم فن الترنيم في الحيرة وإليه يعود فضل نقل فن الترنيم الى البادية عبر مكة المكرمة ، كما حمل البطل العـربي والشاعر المعروف دعدي بن ربيعة ابو ليلى المهلهل تسمية المهلهل لحسن صوته وادائه على الربابة. وكذلك اشتهرت هزيلة وعفيرة من قبيلة بنى جديس والخنساء الشاعرة العربية المشهورة بأداء المراثي على انغام الربابة.

كما كان للغناء دوره في حياة القبيلة فالنساء يلعبن دورا مهما في الاعياد والمراثي والاحتفالات، وفي وقت الحرب كن يشجعن الرجال ويبعثن الحماس في نفوسهم، وكانت الشاعرة هند بنت عتبة اشهر الشاعرات المغنيات في الجاهلية وهي صاحبة البيت المشهور:

الغناء على الربابة بدأ فردياً وانتهى جماعياً

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
ان تقبلوا نعانق
وان تدبروا نفارق

اما عن الفرق بين غناء البادية وغناء الحواضر فيكمن في ان غناء البادية كان وسيلة للتغني بالشجاعة والكرم والشهامة والشرف، فيما كان موضوع غناء الحواضر هو الغرام والهيام والتنعم بالحياة وملذاتها ولهذا السبب تمتع المغنون في البادية بمكانة مرموقة فيما اكتسب المغنون

وخاصة النساء منهم في الحواضر والمدن صفة الدونية، خاصة وان الغلمان والقيان في الحواضر كانوا يغنون في الحانات والمراكز التجارية ومع ما يصاحب هذه الاماكن من متعة ومعاقرة الخمور والسكر وما كان عليه لباس المغنين من فخامة ولفت للنظر، كل ذلك جعل الناس ينظرون اليهم بشيء من الدونية خلافا لمغنيي البادية الذين كانوا يصاحبون المقاتلين في المعارك ويجالسون علّية القوم فيتغنون بالشجاعة والتضحية والبطولة.

صانع الربابة:

مع تقدم الموسيقى وتطور الآلات الموسيقية وتنوعها وانتشارها على نطاق واسع مع تطور وسائل الاعلام، شهدت الربابة تراجعا كبيرا حيث احجم معظم الناس في الحواضر والبوادى عن استخدامها كأداة موسيقية تخلق حالة من الطرب والحماس لدى المستمع، الا ان البعض ممن يسعون الى الحفاظ على التراث العربي من الضياع لازالوا يحتفظون بربابات في منازلهم وخاصة في المناطق التي يقطنها البدو كمحيط مدينة تدمر السورية والجزيرة السورية وجنوب الاردن وبعض مناطق العراق والخليج العربي.

وقد سعينا جاهدين للالتقاء بأحد صناع الربابة في سورية الذين تقلصوا الى حد الانقراض الى ان التقينا بالعم (ابو محمد) في مدينة تدمر الذى اكد لنا انه الوحيد الذى لازال يقوم بصناعة الربابة على الطريقة القديمة، كما حدثنا العم ابو محمد عن هذه الصناعة قائلا:

** (يستخدم في صناعة الربابة جلد الماعز الذكر وتحديدا الذكر لانه يتميز بليونة اكبر من جلد الانثى فبعد ذبح الماعز يؤخذ الجلد وينظف ثم يجفف في الشمس بعد ان يشبع بالملح لمنع التعفن والتفسخ، وبعد ان يجف تماما يوضع على قالب خشبي لا يتعدى طوله الثلاثين سنتيمترا وعرضه الخمسة عشر سنتيمترا وارتفاعه الخمسة سنتيمترات حيث يغلف القالب بهذا الجلد ثم يوضع عليه وتر وحيد مأخوذ من شعر الخيل).

- هل هناك نوع محدد من الخشب لصناعة القالب؟

** ليس هناك نوع معين لكن يفضل الخشب اللين الطرى كي لا يؤثر على النغمات كخشب الحور والصفصاف وما شابه.

- كيف يتم تثبيت جلد الماعز على القالب الخشبي؟

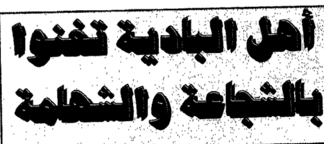
** يتم تثبيته بمسامير صغيرة خاصة وغالبا ما تكون ملونة تسمى (بمسامير كبس) والهدف من استخدام المسامير الملونة هو اضفاء جمالية على الربابة المصنوعة. اما في السابق فكانت عملية التثبيت تتم باستخدام المواد اللاصقة.

- لماذا تصنع الاوتار من شعر الخيل تحديدا؟

** لان شعر الخيل يعطينا صوتا حنونا اكثر من الوتر المصنع من المواد الاخرى. اضافة الى انه قديما لم تكن الاوتار الحالية معروفة، فقد كانت اوتار جميع الالات تصنع من شعر الخيل كما ان شعر الخيل يتحمل اكثر من النايلون.

- بالنسبة لقوس الربابة فمن اي مادة يصنع؟

** ان قوس الربابة يصنع في العادة اما من قضيب الرمان او الجوز، ويجب ان يكون مصقولا بشكل جيد اما الآن فاغلب الاقواس مصنوعة من الخيزران.



- هل هناك رواج لمنتجاتك حاليا؟

** نسبيا نعم هناك رواج للربابة التي اصنعها، الا ان شريحة معينة من الناس هي التي تهتم اكثر من غيرها فتقبل على شراء الربابة وهي

البدو المتواجدين حول مدينة تدمر وحمص، اضافة الى بعض الاخوة العرب القادمين من الخليج العربي، الا اني اقول بأسى ان الربابة سائرة نحو الانقراض حيث نجحت الآلات الحديثة في تهميشها.



- الممثل الدبيسي يعزف على الربابة.

عازف الربابة:

خلف الدبيسي هو احد الذين تمسكوا بالربابة على اعتبارها تراثا يجب الحفاظ عليه.. حيث عرف بربابته التي تصاحبه في العديد من المسلسلات البدوية التي عرضت علي شاشات التلفزيون العربية واهمها مسلسل (حزم الضامي) للمخرج مظهر الحكيم، وقد كان لنا معه وقفة لتسليط بعض الاضواء حول تفاصيل اخرى للربابة تتعلق باللحن والاوزان وما شابه.

- حبذا لو تحدثنا عن علاقتك بالربابة؟

** منذ وعيت على الدنيا وجدت الربابة في منزلنا، كما وجدت فيه شاعرين هما والدى وجدى حيث كانا ينظمان الشعر النبطي والشعر البدوى، وقد تعلمت العزف على الربابة منذ نعومة اظفارى وعندما اتيت الى المدينة اصطحبتها معي ايضا، وقد اختارني العديد من مخرجي المسلسلات البدوية لاداء المقطوعات الشعرية المغناة على الربابة حيث اديت العديد من الادوار في هذه المسلسلات منها (النار والفرقة)، (كهف العفاريت)، (حزم الضامي) و(الدخيلة). كما اشتركت مؤخرا في مسلسل (رحلة العطش) للمخرج اسعد عيد.

- حدثنا عن الحان الربابة؟

** لقد اقتبس العرب الحان الربابة من الطبيعة بحيث تتلاءم مع البيئة والاجواء المحيطة، وهي خمسة الحان رئيسية (صباحية) وهو سريع الايقاع و(ظهيرة) وتتميز ببطء الايقاع نسبيا، و(الاصيل) و(الهجيني) و(الليل) وكلها الحان مرتبطة بالهجين اى الجمل وحركته وتمايله المنتظم في اسفاره.

وهناك لحن آخر معروف في منطقة الجوف في المملكة العربية السعودية يسمى (الجوفي) وله عدة نغمات ويغنى معه الشعر النبطي باللهجة الشروقية، وقد وجدت هذه النغمة اصلا لتأدية هذا النوع من الشعر، كما يغنى على نفس اللحن شعر العتابا الذى يعود فضل ايجاده الى بني طيء.

- هل يعتمد العزف على الربابة على نوتة موسيقية؟

** لا .. انما هو سماعي يعتمد على ذاكرة العازف ومقدرته، فليس للربابة اوزان موسيقية متعارف عليها او سلم موسيقي يتم العزف بموجبه.

- اذن فكيف يتم العزف؟

** المعروف ان الربابة مؤلفة من وتر واحد وأهم عاكس للنغم هو القوس والوتر، اما الانامل فتعطي فواصل النغم فقط، وبذلك يكون الفضل في اداء الربابة عائداً لقوسها ووترها وبراعة العازف وقدرته على جعل صوت الربابة جزءا من صوته ومشاعره.

أفكار مثيرة للجدل (٧)

الشريعة الاسلامية .. ووقتية الأحكام

بقلم المفكر الاسلامي:
أ.د. محمد عمارة



فى موقف المستشار محمد سعيد العشماوى من الشريعة الاسلامية: اتحد المقصد، وهو إلغاؤها وإهدارها، وصرف الناس عن السعى إلى تقنينها والاحتكام إليها.. مع تعدد فى السبل التى سلكها الرجل الى تحقيق هذا المقصد الواحد!..

فمرة: إنها ليس لها إلا المعنى اللغوي للمصطلح .. أي الطريق .. أيَّ طريق!.

ومرة: إنها الفقه - أى الفكر البشرى - الذى لا إلزام فيه!..

ومرة: هى «رحمة» .. وليس فيها قانون!..

ومرة: إن أحكامها ليست مطلقة، لأنها نسبية، استدعتها أسباب، وانقضت بانقضاء هذه الاسباب!..

والآن يصل المستشار عشماوى، على درب مشروعه لإلغاء الشريعة الاسلامية، إلى التصريح بأن أحكام هذه الشريعة - وخاصة فى السياسة والمعاملات والعمران - أى فى غير الشعائر العبادية - هى «أحكام مؤقته»، تجاوزها الزمن .. و«تاريخية» أصبحت فى ذمة التاريخ!..

فبوفاة الرسول {**صلى الله عليه وسلم**}، حكم المستشار عشماوى - وهو الذى عمل لسنوات قاضيا لأمن الدولة - **حكم بعزل الذات الإلهية عن الشرعية فى كل شئون السياسة والحكم والمعاملات.. وانتهاء عهد الشرعية الإلهية فى تشريع الأحكام.. وانتهاء عهد الحكم بما أنزل الله فى المعاملات.. فكل ذلك - عنده - كان موقوتا بحياة الرسول، {صلى الله عليه وسلم}.**

كما قرر - بناء على ذلك - بأن الذين ظلوا متمسكين بالشريعة الإلهية - بعد وفاة الرسول -

كل الأحكام الشرعية فى نظر العشماوي كانت موقوته بحياة الرسول {صلى الله عليه وسلم}

فى الخلافة والإمامة والرياسة والوزارة والتشريع والأوامر والأحكام، سواء من الخلفاء أو الفقهاء، هم جميعا قد غُمّ عليهم الأمر، عندما ظلوا يسندون هذه الشرعية إلى الله زورا وافتراء وبهتانا٠٠ بينما هذه الشرعية ـ فى رأى عشماوي ـ قد انتقلت من الله إلى الناس٠٠ ولم يعد لله، سبحانه وتعالى، شأن فى هذه الشرعية على الإطلاق؟!٠

وبألفاظ المستشار عشماوى: **«فإن قبول المؤمنين للتشريع ـ على عهد الرسول {صلى الله عليه وسلم} ـ انبنى أساسا على الايمان بالله ـ سلطة التشريع ـ وبعد وفاة النبى {صلى الله عليه وسلم} ـ انتهى التنزيل مع انعدام الوحي٠٠ ووقف الحديث الصحيح، فسكتت بذلك السلطة التشريعية التى آمن بها المؤمنون، والتى كانت الأساس فى قبولهم للتشريع٠٠ وبعد ذلك، كان من اللازم أن يفهم الخلفاء ويدرك الفقهاء أن الشرعية انتقلت الى الأمة (الجماعة) الاسلامية، فأصبحت هى أساس الشرعية فى الخلافة والإمامة والرياسة والوزارة والتشريع والأوامر والأحكام٠ وقد بدا من الخلفاء الراشدين، وبخاصة أبى بكر وعمر، ما يفيد أن الأمة (الجماعة) الاسلامية هى الأساس الشرعي لولايتهم أمر المسلمين، وبالتالى للحكم والتشريع٠٠ ثم اضطربت هذه الفكرة٠٠ وغمّ على الخلفاء والفقهاء أمر الشرعية، وظلوا يسندونها إلى الله ـ زورا وافتراء وبهتانا ـ أو ينحلونها ـ (ينسبونها كذبا) ـ إلى النبي {صلى الله عليه وسلم}[١]٠٠»٠**

تلك هى فكرة المستشار عشماوي عن «توقيت» الشرعية الالهية ـ فى الخلافة والإمامة والرياسة والوزارة والتشريع والأوامر والأحكام ـ بحياة الرسول٠٠ وعن انتهاء توقيت هذه الشرعية الالهية بوفاة الرسول، لأن «التنزيل انتهى ٠٠ والوحي انعدم ٠٠ والحديث الصحيح وقف ٠٠ فسكتت بذلك السلطة التشريعية الالهية» وكان من اللازم انتقال الشرعية من الله الى الناس ٠٠ لكن الخلفاء والفقهاء، بعد أبى بكر وعمر، غمّ عليهم فكر المستشار عشماوى، فظلوا متعلقين بالشرعية الالهية، زورا وافتراء وبهتانا؟!٠

وإذا كان الكشف الكامل عن «العورات الفكرية» قد يريح أحيانا من عناء الفضح لخباياها٠٠ فإننا ـ ونحن نستهدف عقل القارىء ـ سنقف وقفات موضوعية مع ما فى آراء العشماوى هذه من ادعاءات٠

إننا نعلم أن المراد، أساسا، بالوحي: هو القرآن الموحى به٠٠ والمراد، أساسا، بالتنزيل: هو القرآن الكريم٠٠ لكن العشماوى، كي يصل إلى الغاء القرآن كمصدر للشرعية والشريعة الإلهية، نراه بدلا من أن يستخدم تعبير **«ختام الوحى»** يقول **«انعدام الوحي»**؟!٠٠ وبدلا من أن يقول **«اكتمال التنزيل»** يقول: **«انتهاء التنزيل»**٠٠ وذلك ليصل إلى قوله **«فسكتت بذلك السلطة التشريعية»**!٠٠

فهل سكتت السلطة التشريعية الالهية بوفاة

الرسول {صلى الله عليه وسلم}؟.. أم اكتمل نطقها، ووضح منطقها؟.. وهل عندما أوحى الله إلى رسوله، وأنزل على أمته: (اليوم أكملت لكم دينكم)[٢] كان يعنى اكتمال الدين، عقيدة وشريعة أم انعدام الدين، وتوقف التدين بهذا الدين؟!.

وهل صحيح ما ادعاه العشماوي من أن أبا بكر الصديق - ومن بعده عمر - قد نقلا الشرعية من الله الى الناس؟.. أم أن الاسلام - الذى طبقه أبو بكر وعمر - هو الذى يجعل السيادة للشريعة الإلهية، وسلطة الخلافة - خلافة الأمة وخلافة الدولة - لها سلطة الاستخلاف عن شارع هذه الشريعة، سبحانه وتعالى، دونما مقابلة ولا تناقض بين الشرعية الالهية وسلطة الأمة وخلافة دولتها؟؟.

إن أبا بكر هو القائل، فى خطاب توليه الخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» فأين، فى حديثه هذا عن حاكمية الشرعية الالهية، استبداله شرعية الأمة بشرعية الله؟!

وابو بكر هو الذى «كان إذا ورد عليه الخصم، نظر فى كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى، وإن لم يكن فى الكتاب، وعلم من رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ، في ذلك الأمر سنة قضى به، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين، وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، قضى فى ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله فيه قضاء، فيقول أبو بكر: الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ على نبينا. فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله، جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به[٣]».

فأين فى هذا الجمع - والترتيب - بين الكتاب، والسنة، وشورى الأمة.. أي بين سيادة الشرعية الإلهية وبين سلطة الأمة - أين فى هذا ما صوره العشماوى استبدالا لشرعية الأمة بالشرعية الالهية، من أبى بكر وعمر (رضي الله عنهما)؟!.

بل ألم تكن هذه هى الحال حتى على عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم}؟ سيادة الحاكمية الالهية والشرعية السماوية، وشورى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} والأمة فى إطار الشرعية الإلهية؟.. ألم يكن هناك قضاة للدولة وعمال على ولاياتها يجتهدون فى إطار حاكمية الشرعية الالهية؟.. وماذا يعنيه حديث رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مع قاضيه على اليمن معاذ بن جبل:

- «كيف تصنع إن عرض لك قضاء»؟
- قال: أقضي بما فى كتاب الله.
- قال: «فإن لم يكن فى كتاب الله»؟
- قال: فبسنة رسول الله {صلى الله عليه وسلم}.
- قال: «فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟»
- قال: أجتهد رأيى لا آلو.
- قال معاذ - فضرب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} صدرى - ثم قال:
- «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يُرضي رسول الله[٤]».

فحتى فى عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} كانت الدولة - الإمارة والولاية والقضاء والسياسة والسلم والحرب - شورى بشرية محكومة بالشرعية الإلهية.. لم تعرف «المقابلة - المتضادة» بين ما هو لله وما هو للناس!..

إنّ حديث العشماوي عن انتقال الشرعية من الله إلى الأمة، هو حديث عن دولة وسلطة كهنوتية، لا سلطان فيها لله.. انتقلت الشرعية منها إلى شرعية بشرية لا سيادة فيها للشريعة الالهية.. وهذا ما لم يعرفه الاسلام ولا دولته ولا خلافته، لا فى العهد النبوي، ولا بعد وفاة

« بلوغ المقصد وان كان مخالفاً للعقل والشرع هو غاية العشماوي »

الرسول، عليه الصلاة والسلام.

لكن العشماوي يبدأ بهذا الادعاء مسعاه على درب «توقيت الشريعة الاسلامية والشرعية الالهية» بعهد النبوة، حاكما على الوحي والتنزيل والسنة بالانتهاء والانعدام والسكوت بعد وفاة الرسول {صلى الله عليه وسلم}.

ومن هذا «التأسيس العشماوى» لنظرية عزل الذات الالهية عن الشرعية فى شئون الدولة والسياسة والعمران الاسلامى، تتوالى الخطوات والوقفات.

١ ـ فهو يرى أن الشريعة كان لابد أن تكون أحكامها وقواعدها ـ فى المعاملات ـ مؤقتة، لا استمرار لها ولا خلود، لأن هذه الأحكام إما أن تكون قد جاءت لتغيير الواقع، فهى مؤقتة بزمن تغييرها له، تطوى صفحتها بعد هذا التغيير؟!.. وإما أن تكون قد جاءت لحكم الوقائع الجارية وتنظيم المعاملات اليومية، وفى هذه الحالة لابد وأن تكون أحكامها مرتبطة بالظروف والمناسبات، تتغير بتغير هذه الظروف والمناسبات.. اى أنها فى كل الحالات مؤقتة لا استمرار لها ولا خلود!..

يعرض العشماوي أفكاره هذه فيقول: «فالقاعدة القانونية ـ سواء كانت حكما للمعاملات او حكما تشريعيا ـ إنما تهدف أساسا إلى أحد أمرين: إما إلى تعديل أوضاع عامة أو تغيير علاقات قانونية أو تبديل روابط اجتماعية. وإما إلى حكم الوقائع الجارية وتنظيم المعاملات اليومية.

فإذا كانت القاعدة تهدف إلى تعديل أوضاع عامة أو تغيير علاقات قانونية أو تبديل روابط اجتماعية فإن كل أثر لها ينتهى بمجرد حدوث التعديل أو تمام التغيير أو اكتمال التبديل، وتصبح من ثم حكما تاريخيا ليست له أية قوة ملزمة أو أى أثر فعّال.. وأوضح مثل لهذه القواعد القاعدة التى نص عليها القرآن بإعطاء نصيب من الصدقات إلى المؤلفة قلوبهم.

وإذا كانت القاعدة ـ من جانب آخر ـ ترمى إلى حكم الوقائع الجارية وتنظيم المعاملات اليومية فإنها عادة ما تكون حكما مناسبا لظروف وضعها وزمان تطبيقها، ثم يحدث بعد ذلك أن تنشأ وقائع جديدة أو تقع ظروف مستحدثة تضيق عنها القاعدة فلا يمكن لها أن تحكم موضوعها أو تضبط إجراءاتها[٥]»!.

هكذا يقرر العشماوى تاريخية القواعد الشرعية، ليعزل الشرعية الالهية، ويطوي صفحة الشريعة الاسلامية، داعيا إلى إحلال شرعية الناس محل شرعية الله!..

ونحن نسأله: لم لا تظل القاعدة القانونية ـ المستهدفة للتغيير ـ قائمة لتحرس التغيير الذى أحدثته ولتغير الارتداد عليه؟ .. وهل حدوث التغيير ـ الذى يحل العدل محل الظلم مثلا ـ هو موقف نهائى، يمنع عودة القديم، أو ما هو مماثل أو أسوأ ـ فى الظلم ـ من القديم؟.. إن مسيرة الاجتماع الانسانى، عبر كل العصور، وفى كل الحضارات هى دورات من التدافع والصراع بين الخير والشر، والحق والباطل،

والعدل والجور.. ورسول الله [صلى الله عليه وسلم] يعلمنا هذه السنة من سنن الله فى الاجتماع والعمران فيقول: «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتي يولد فى الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله، تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره[٦]».

وإذا كانت هذه هى سنة الله فى الاجتماع والمجتمعات، فلابد من بقاء قواعد العدل حارسة للعدل من الانقلاب عليه.. لا أن نقول لها - كما يقول العشماوى - اذهبي إلى «المتحف» فلا حاجة لنا بك، بعد أن تم التغيير!..

ثم هل التغيير الذى تحدثه أى قواعد قانونية، فى أى مجتمع من المجتمعات، يكون كاملا الكمال الذى يجعل هذا المجتمع مستغنيا عن القواعد التى أحدثت هذا التغيير؟ أم أنه يكون نسبيا، تتفاوت نسبيته بتفاوت خيرية الناس؟.. ثم، إذا غيرت القواعد القانونية حياة جيل الآباء، أفلا يكون بقاؤها ضروريا لتغير حياة جيل الأبناء، وهكذا؟.. أم أننا نحيلها إلى «الاستيداع» بعد أول نجاح لها فى التغيير؟!.

والقواعد الخاصة بالحفاظ على «الثوابت» مثل الضرورات التى مثلت المقاصد الكلية للشريعة الاسلامية - الحفاظ على الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال - هل ينقضي أجل القواعد القانونية الحارسة للضرورات والمقاصد الثابتة؟ أم أن ثبات المحفوظ يقتضي ثبات الحافظ له كي لا يضيع؟!.. وهو ضروري لإعادة الحياة إلى هذه الثوابت كلما عدا عليها العادون!.

وهل تطبيق الأمة للدستور والقانون، وتحويلهما الى واقع يعيشه الناس، يؤدي إلى تاريخيتهما وتجاوزهما واستبدالهما؟

وهل إذا أصدرنا قانونا لمحاكمة الوزراء، نلغيه بمجرد محاكمة الوزراء الذين صدر لمحاكمتهم بواسطته؟!.. وهل إذا لم نجد من نعطيهم الزكاة، نلغي فريضة الزكاة؟!.

إن حال «فكر» المستشار عشماوى مع العقل والمنطق حال غريب.. فقط يريد الرجل أن يطوي صفحة القواعد الشرعية الاسلامية، ويحيل الشريعة الاسلامية الى «متحف التاريخ» ويعزل الذات الالهية عن الشرعية والحاكمية التشريعية بوفاة الرسول [**صلى الله عليه وسلم**]، **قائلا: إن هذه القواعد قد أصبحت «حكما تاريخيا ليست له أية قوة ملزمة أو أي أثر فعال».. «وأن أحكام المعاملات ليست دائمة لكنها أحكام مؤقتة ومحلية، تنطبق فى وقت محدد وفى مكان بعينه[٧]»..**

دون أن يميز بين «الشريعة» الوضع الالهى الثابت، والقواعد الخالدة، وبين الاجتهادات الفقهية، المتطورة مع متغيرات الزمان والمكان والعادات والمصالح والأعراف.. بل إن حديثه عن «التاريخية» و«الانتقال» منصب على «الشرعية الإلهية» بوجه خاص!..

٢ - وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد جعل

العشماوي يسعى لإلغاء احكام الميراث

حديث العشماوي عن انتقال الشرعية من الله إلى الأمة، هو حديث عن سلطة كهنوتية.

الشورى صفة من صفات المؤمنين **(والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)[٨]**.. وفريضة حتى على رسوله **[صلى الله عليه وسلم] (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)[٩]**.

وأجمع علماء الأمة على أنها من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، وشرط بقاء الحكام في مناصبهم.. فقالوا: «إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام. ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا مما لا خلاف فيه»[١٠].

فإن العشماوي - جريا على مذهبه في «التاريخية» التي تؤقت وتلغى كل القواعد الشرعية، خرج علينا بدعوى أن الشورى كانت خاصة بالرسول **[صلى الله عليه وسلم]**.. فقال: «هناك نصان عن الشورى، أحدهما نزل في مكة، والثاني (وشاورهم في الأمر) قيل إنه خاص بالنبي وغير ملزم»[١١].

ولم يسأل الرجل نفسه: كيف تكون الشورى خاصة بالنبي، وهي في ذات الوقت، صفة لكل مؤمن؟!.. وألم يطبقها الخلفاء بعد وفاة الرسول؟.. وما وجه اختصاص الشورى بالرسول؟.. هل كان أحوج إليها من غيره من المسلمين؟!.

إن المنطق غير لازم لفكر المستشار عشماوى .. المهم عنده بلوغ المقصد: تاريخية القواعد الشرعية، وتوقيت الشرعية الالهية وتجاوز أحكام الشريعة الاسلامية!.

٣ - والميراث، الذى فصلت فرائضه نصوص قرآنية قطعية الدلالة والثبوت.. يسحب المستشار عشماوى عليه سيف «التاريخية» و«التوقيت» ويراه مناسبا لمجتمعات البداوة القبلية العشائرية البائدة، وغير ملائم لعصرنا الحديث.. فيقول: «فهل كان يستمر حق الأخ في أن يرث أخاه، فيقاسم ابنته التركة - لكل منهما نصفها - مع أن هذا الأخ قد يكون مهاجرا في امريكا أو استراليا لا يعرف ابنة أخيه ولا يلتزم حيالها نفقة أو مراعاة - كما كان الحال في عصر المدينة وفي نظام القبائل والعشائر؟!»[١٢].

فهل نظام وأحكام الميراث الإلهي مؤقت بعصر المدينة، لا يناسب الا النظام القبلي العشائري؟ ولا يلائم العصر الحديث، الذى يسافر فيه ورثة إلى أمريكا واستراليا؟!.

إن الاسلام يربي أسرة متراحمة، لا تقطع الأسفار وشائج الرحمة بين أعضائها.. ثم إن أسفار العصر لا تحول بين التراحم، بل هي تهيء له بأكثر مما كانت أسفار الزمن القديم؟! وكان الناس في العصور الإسلامية الأولى يسافرون، بل ويهاجرون، دون أن تمنع أسفارهم وهجراتهم الوشائج التى تقيمها التربية الاسلامية ودون أن يعترض معترض على توريث المسافرين.

ثم ، إن الدين الذى جعل المسافر إلى استراليا يرث في مصر، هو الذى جعل من

بمصر يرث المسافر إلى استراليا، ويأخذ نصيبه من تركة لم يسهم فى الإنفاق على تاركها!..

وهل علة الميراث هي ما بذله الوارث من جهد فى تربية للمورّث والإنفاق عليه؟!.. إن الإبنة الرضيعة - التى قد لا تميز صورة أبيها - ترث منه أكثر مما يرث أبوه الذى تعب فيه وأنفق عليه ورباه.. ومعايير التفاوت فى أنصبة الوارثين ليست هذه التى يقيس بها المستشار عشماوى.. إنها درجة القرابة.. وموقع جيل الوارث - مضياً.. أو استقبالا (أصولا .. أو فروعا) - والأعباء المادية التى يكلفه بها الاسلام فى الانفاق.. الخ.

لكن المستشار عشماوى، يريد إلغاء أحكام الميراث الاسلامى، لأنها بنظره - تاريخية - ومؤقتة»، كانت تلائم عصر المدينة - وعهد الرسول {صلى الله عليه وسلم} القبلي العشائري.. وشرعيتها الالهية قد زالت بوفاة الرسول، وانتقلت شرعية التشريع إلى الناس - ومن «حق» العشماوى - الاستاذ المحاضر فى أصول الدين والشريعة الاسلامية - كما لقَّب نفسه - أن يطلب إلغاء أحكام المواريث الالهية.. رغم أن غير المسلمين قد ارتضوا عدل شريعتها فاستلهموها من الإسلام!.. من «حقه» ذلك، طالما أنه قد حكم بإلغاء الشرعية الالهية فى المعاملات!.

٤ - ولأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أوقف تنفيذ حد السرقة فى عام الرمادة - أى فى عام واحد.. وحيث كانت الرمادة - المجاعة - قد منعت توفر شروط إعمال الحكم - فإن المستشار عشماوى يقفز من فوق هذه الواقعة طالبا من الفقهاء أن يؤسسوا عليها نظرية «توقيت الأحكام» وهو فى حديثه هذا يدّعي أن عمر «وقف حد السرقة.. وقفا شاملا وعاما.. وأن لذلك دلالة خاصة تتصل بالعقوبة ذاتها، ولا تتعلق بشروط تطبيقها.. فما فعله عمر كان فى الواقع وقفا للعقوبة ذاتها .. ومن بعد عمر، فإن التاريخ الاسلامى لا يقدم وقائع متكررة متواترة عن تطبيق حد السرقة، لأن الفكر الاسلامى عموما تأثر بمبدأ وقف العقوبة وقفا عاما وشاملا».

احكام الشريعة فى نظر العشماوي تاريخية ليست لها أى قوة ملزمة

ثم يمضي المستشار عشماوى، فيعيب على فقهاء الأمة أنهم لم يفقهوا مغزى وقف عمر لحد السرقة وقفا عاما وشاملا «ولو أن الفقهاء ملكوا قدرة التنظير.. لوصلوا إلى نظرية عامة فى وقتية الاحكام .. لكنهم لم يفعلوا .. فافتقد الفقه روح التنظير وملكة التقعيد».

ويستشهد المستشار عشماوى لآرائه بقول الفقيه الحنفى ابن عابدين [١١٩٨ - ١٢٥٢هـ - ١٧٨٤ - ١٨٣٦م]: «كثير من الأحكام يختلف باختلاف الزمان لتغير عرف اهله ولحدوث ضرورة أو فساد الزمان بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه لزم منه المشقة والضرر بالناس ولخالف قواعد الشريعة الاسلامية المبنية على التخفيف ورفع الضرر»[١٣].

ونحن لنا مع هذه الدعوى، التى عرضها المستشار عشماوى وقفات:

الرومان الذين اضطهدوا العالم، جعل العشماوي قوانينهم انسانية عالمية تُتّبع

* فالمروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقف تنفيذ حد السرقة فى واقعة بعينها قام فى واقعها ما يدرأ الحد، فلم تتوافر شروط تنفيذ الحكم، فكان الإيقاف.. ولم يصدر عمر أمرا عاما وشاملا بوقف الحد للسارقين فى كل ديار الاسلام.. وإلا فهل كان الحد موقوفا بمصر، حيث لا مجاعة؟.. لقد كان الحد نافذا، حتى فى عام المجاعة - عندما وأينما توافرت شروط تنفيذه وتطبيق حكمه.. وكان وقف تنفيذه مرهونا بتخلف شروط التنفيذ.. **فلا علاقة لذلك بنظرية العشماوى فى «وقتية الأحكام» النابعة عنده من «وقتية الشرعية الالهية»!.**

* وغريب أن يزعم العشماوى - ليستدل على عموم وشمول وقف حد السرقة - أن هذا الحد لم يطبق بعد عهد عمر، وأن الفقه الاسلامى قد أخذ بنظرية «الوقف العام والشامل للعقوبات».. غريب هذا الادعاء.. فالفقه الاسلامى - الذى تبلور علما مدونا بعد عصر عمر - نصت جميع مذاهبه على إقامة حد السرقة على اللصوص، وامتلأت كتب الفقه بالتفاصيل عن تعريف السرقة.. والسارق.. والمسروق.. وتفاصيل كيفية إقامة الحد ولو كان هذا الحد قد أوقف، منذ عهد عمر، وقفا عاما وشاملا، لما دعت الحاجة إلى أن يكون له مكان، بهذا الحجم والتفصيل، فى مصنفات الفقه ومدونات الفقهاء!..

أما تنفيذ الدولة لأحكام القضاء فى حد السرقة، فشواهده فى صفحات كتب التاريخ لا يماري فيها حتى الأميون، الذين وقف بهم العلم بالتاريخ عند قصص الرواة وملاحم الشعر الشعبي!.. فكيف ينكر العشماوى على الدول الاسلامية أنها طبقت حد السرقة، مع أن الذي ينكره عليها المنكرون أنها ربما أسرفت فى هذا التطبيق، وفى الحالات التى ما كانت هى الأولى بالتطبيق؟!.

ثم، لو كان حد السرقة قد أوقف وقفا عاما وشاملا منذ عهد عمر.. فلمَ ألّف فيه فقهاء البلاد التى فتحت وأسلمت وأصبح من أبنائها فقهاء بعد عهد عمر؟!.. ألا تراود المستشار عشماوى فكرة عرض آرائه، قبل أن يكتبها، على بديهيات المنطق ومنطق البديهيات؟!.

الهوامش :

(١) [معالم الاسلام] ص١١٧ ، ١١٨، وانظر كذلك ص ١٢٠ ، ١٢١.

(٢) المائدة/ ٣٠.

(٣) رواه الدارمي.

(٤) رواه أبو داود والإمام أحمد.

(٥) [الربا والفائدة في الإسلام] ص ٥٥ ، ٥٦، طبعة القاهرة ١٩٨٨م.

(٦) رواه الإمام أحمد.

(٧) [معالم الاسلام] ص ١١٢.

(٨) الشورى : ٣٨.

(٩) آل عمران : ١٥٩.

(١٠) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] جـ٤ ص٢٤٩.

(١١) معالم الاسلام ص٢٩٠.

(١٢) أصول الشريعة ص ١٠٤ ، ١٠٥.

(١٣) الإسلام السياسى ص ٤٨ ، ١٩٠.

الوسطية ومواقعها في القرآن الكريم

بقلم: أ.د. **سيد رزق الطويل** ـ مصر ـ

الاسلام هو الدين الذى اصطفاه الله منهاجا للبشر يهديهم فى دنياهم، ويدلهم على ما يحقق لهم فلاح أخراهم، ولذا كانت الوسطية سمته البارزة، وفضيلته الغالبة، وكلمة الوسطية لا تعنى المعنى الرياضي لها، وانما تعني الخير والعدل والحق والسمو فى كل شيء وعندما نقرأ قول الله تعالى: {قال اوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسَبِّحُون قالوا سبحان ربنا}؟! فهذا الذى استيقظ ضميره ودعا إخوانه الذين اجتمعوا على ضلالة وباءوا بسوء المصير إلى ان يسبحوا الله، هو بلا ريب ازكاهم نفسا وأدناهم الى البصيرة الواعية ومن هنا وصف من بينهم بالوسطية.

والوسطية من الناحية الفكرية والعقلية تعني التنائى عن الغلو والشطط، والتأبي على الإسفاف والتبذل والانحدار إلى الدنايا، وما بقى إذن الا الوسط، وهو القيم العالية والفضائل السامية.

ويبدو أن هذه النظرة العالية للوسطية امر مركوز فى فطرة الإنسان، مغروس فى وجدانه فمن حكم العرب: خير الأمور الوسط، ويمتدح أحد الشعراء أحد الخلفاء فيقول فى مدحه:

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ونسبوا إلى فيلسوف اليونان سقراط قوله فى تعريف الفضيلة إنها الحد الوسط بين رذيلتين

ويأتى الاسلام الدين الحق، ويلقى أضواء على الوسطية، ويتسامى بمعناها ومبناها فنرى السمو فى عقيدته، واليسر فى عبادته، والكمال التام فيما يدعو إليه من قيم ومن سلوكيات، ومظهر ذلك كله مالها من مردود فى حياة الناس الذين آثروا الالتزام بالاسلام عقيدة وعبادة، وأخلاقا وسلوكا.

كانوا عبادا لله وحده فعاشوا أعزاء كرماء، إخوانا متحابين فى ظل هذا المعتقد العظيم لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعبدوا الله بما فرضه عليهم من مناهج العبادة فغرست فيهم سلوكيات صالحة على المجالين الفردى والاجتماعى، والتزموا بما دعا إليه الإسلام من فضائل وأخلاق، وكان من نتيجة ذلك أن اكتسبوا الوسطية صفة لهم بعد أن كانت صفة للقيم المجردة فحسب، أو بعبارة أخرى صارت الوسطية سمة للمسلمين الملتزمين، كما هى سمة للاسلام.

وألمس ذلك فى موضعين من كتاب الله تعالى:

أولهما: قوله تعالى {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} فاكتسبوا الخيرية من خلال الالتزام بهذه الأسس الثلاثة، وفيها تجتمع معالم الصلاح الاجتماعى.

وثانيهما: قوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} وهنا صرحت الآية بوصف الأمة بالوسطية وذكرت لها مفهوما آخر يبرز جانبا من جوانب التميز لهذه الأمة إذا حرصت بالتزامها على هذا الانتماء الكريم، هذا المفهوم يتمثل فى شهادة رسولها عليها فى الوقت الذى يتخذ منها رب العالمين شهداء على الناس.

وهذا المعنى الوسطى ختمت به سورة الحج إذ يقول سبحانه فى مكانة هذه الأمة (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول عليكم شهيدا وتكونوا شهداء على الناس}.

وقد ذكر القرآن الكريم الوسطية بمضمونها الفكرى، وإيثار التوجه اليها فى العبادات والاخلاق والسلوك العام فى عدة مواضع.

أولها: فى سورة البقرة، وذلك فى سياق الحديث عن بقرة بني اسرائيل.. والقضية تتمثل فى كشف صورة من صور الزيف فى حياة بنى اسرائيل، والتستر على المجرمين الذين يستهينون بالدماء، الأمر الذى تطلب لونا من التكليف المرهق، تقويما لنزوات البغي فيهم، والتى تتمثل فى إمعانهم فى اللجاجة والجدل حول أمور ما كلفوا بها لكن ألزِمُوها عندما سألوا عنها.

لقد طلب الله إليهم أن يذبحوا بقرة ولو ذبحوا أي بقرة آخذين الأمر بيسر، وبلا تعنت لكفاهم ذلك وكانوا مستجيبين لأمر ربهم لكنهم ألحوا فى السؤال حول أمور اختلقوها وأول أمر سألوا عنه جاء فى قولهم لنبيهم موسى: {ادع لنا ربك يبين لنا ما هي} وجاءت الاجابة عن السؤال تفيد أن البقرة المطلوبة فى سن وسيط، ليست بالصغيرة التى لم تسبق لها الولادة، ولا بالكبيرة التى انهكها تتابع الحمل والوضع إذ يقول سبحانه: (قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون}.

والوسطية هنا لم تنأ عن معنى الفضل والخير، وان كان فيها لون من التأديب لهؤلاء الذين اعتادوا اللجاج وكثرة السؤال.

ثانيها: فى سورة الاسراء، وذلك فى تناول فضيلة من فضائل الايمان، وهى الاقتصاد فى المعيشة بعيدا عن سفه الإسراف وحماقة الشح، وهو خلق عول عليه الاسلام مما يدل على ما يتسم به سلوك المسلم الملتزم من حكمة وبصيرة فى التعامل مع المال وغيره من زينات الحياة الدنيا، وأن الأمر فى هذا أكبر مما تدعو إليه الحرية الشخصية، وذلك لأن المال فى الاسلام ليس ملكا لفرد، وإنما هو وظيفة اجتماعية، فالإسراف فيه إخلال، والتقتير فيه تعطيل، ولأجل هذا قال رب العالمين {يا بَنِي آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين}. بل ان خطورة هذا السلوك تظهر من خلال المكانة التى وضع فيها القرآن الكريم المبذرين إذ قال سبحانه {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا}. والوسطية فى السلوك الاقتصادي للإنسان المسلم حتمية إذ ينعكس مردودها على المجتمع بأسره يقول عليه الصلاة والسلام {القصد فى الغنى والفقر}. واما الوسطية فى آية الاسراء فقد عرضت القضية الاقتصادية فى صورة مجازية معبرة تستهدف إبراز النمط الوسطى الذى ينبغى أن يتبع فى مثل هذا السلوك اذ يقول سبحانه {ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا} فصورت الآية الشحيح بمن شُدّت يده بقيد إلى عنقه، والمسرف كمن امتدت يده منبسطة بلا رابط، ولا ضابط[١].

ثالثها: فى سورة الاسراء أيضا، وذلك فى مجال الحديث عن عبادة الدعاء، والدعاء كما قال النبي عليه الصلاة والسلام مخ العباده، والآية هنا تحث على الوسطية فى الدعاء والذى عبرت عنه بالصلاة، والصلاة فى لسان العرب معناها الدعاء، إذ قال سبحانه {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا}. ووسطية الدعاء فى الآية تنأى عن الجهر الذى يخرج عن حد الوقار، وعن الأدب المطلوب فى التعامل مع من تدعوه، وتتضرع إليه، كما تسمو عن التخافت الذى يحرم بقية الجوارح من المعايشة الإيجابية لمؤثرات الدعاء النفسية، فلابد أن يكون الدعاء تضرعا، وفى خفية والجمع بينهما إنما يكون بالتوسط كما قال سبحانه {ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين}. وعندما سأل بعض الاصحاب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} هل الله بعيد فنناديه أو قريب فنناجيه، فنزل قوله سبحانه {وإذا سألك عبادي عنِّى فإني قريب أجيب دعوة الدَّاعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون}. وسمع النبى {صلى الله

عليه وسلم} رجالا من أصحابه ارتفعت اصواتهم بدعوات صاخبة فقال لهم: {أربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون أصما ولا غائبا وإنما تدعون سميعا بصيرا وهو معكم}.

رابعها: فى سورة الفرقان والآيات تتحدث عن عباد الرحمن، وما هم عليه من فضائل سامية، كما تصف قدرتهم على التنائى عن السلبيات الوضيعة التى لا تتسق مع الكرامة والانسانية ومنها هذه الآية التى تدعو إلى الوسطية فى الانفاق إذ يقول سبحانه (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}. وهذه الآية مع ما سبق من آيات ذكرناها آنفا تكشف لنا بوضوح عن إلحاح الكتاب العزيز على الوسطية فى الاقتصاد أى المأكل والمشرب والمسكن، والانفاق على الاولاد وإيتاء الحقوق أصحابها وكذا الصدقات، فالذى يحرص على الانتماء للعبودية للرحمن، عليه أن يتجنب الإسراف فى الإنفاق وان ينأى عن التقتير، الذى يلبس صاحبه ثوب الهوان، وأن يلتزم الطريق القويم بين هذا وذاك.

هذه المواضع القرآنية الأربعة تقدم لنا نماذج لتطبيق الوسطية فى مجتمع المسلمين وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على أن هذه الخصيصة التى عرف بها الدين الحق، واصبحت سمة للأمة الملتزمة به ينبغى أن تظل سلوكية تحكم حياة المسلم، ويعتصم بها فى كل ما يأتى وما يدع لأنها كفيلة بتحقيق الخير له من جميع أطرافه سواء فى نفسه أم فى أسرته أم فى المجتمع الذى يعيش فيه. والخلل ينشأ عن التطرف بوجهيه: الإفراط والتفريط.

وأذكر أن حوارا نشأ فى مطلع هذا القرن حول الحجاب والسفور، فمن الناس من اصر على الاسراف فى الحجاب ومنهم من أصر على الإسراف فى السفور، وبهذه المناسبة قال الشاعر حافظ ابراهيم قصيدته العظيمة فى مكارم الاخلاق وفيها يقول:

أنا لا اقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن فى الأسواق
كلا ولا أدعوكمو أن تسرفوا
فى الحجب والتضييق والإرهاق
ربّوا البنات على الفضيلة إنها
فى الموقفين لهن خير وثاق
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا
فالشر فى التضييق والإطلاق

ومن الحكم التى نثرها أمير الشعراء فى كتابه: أسواق الذهب

قوله: اجتنب التفريط والإفراط تستغن عن بقراط.

إن الوسطية سمة الاسلام وهى الخطة السلوكية للمسلمين، وذلك لانها ركيزة الحق والعدل فى هذه الدنيا.

والله سبحانه الهادى الى سواء السبيل.

منهج الأصالة في بناء الأمة

بقلم المفكر الاسلامي:
الاستاذ/ **انور الجندى** - مصر

لقد أصبح من أهم القضايا الاساسية لوحدة الامة الاسلامية حماية القواعد الثلاث فى هذا البناء الضخم الشامخ الذى تجرى قوى الاعداء من دعاة الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى فى العمل على احتوائها وضربها فى صميمها ومقاومة أصالتها وانطلاقها الى الغاية الاساسية للأمة الاسلامية.

وهى الوحدة الجامعة المستمدة من مفهوم التوحيد الخالص والعقيدة النقية القائمة على أساس بناء الانسان المسلم من خلال المسئولية الفردية والجزاء الاخروى.

هذا المفهوم الاصيل الذى جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة إنما استتبع قيام الانسان الذى يحمل لواء العمل والسعي فى سبيل تعمير الكون وبناء المجتمع الربانى الاصيل القادر على حمل الامانة.

ولقد جاء الاسلام ليحقق قيام هذا المجتمع الصالح بعد ان واجهت عقيدة التوحيد مجتمعات مختلفة وحضارات مادية فى مقدمتها حضارة الرومان واليونان والفرس والفراعنه.

ثم جاء الاسلام ليقيم هذا الصرح الربانى الاصيل {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}..

وقد اعطى الله تبارك وتعالى هذه الامة (أمانة القيادة العالية) وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).

هذه الأمانة التى حملتها الامة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرنا تواجه اليوم محاذير كثيرة واخطار شديدة البأس ترمي الى حجب المسلمين عن منهجهم الاصيل وعن شريعتهم فى مجالين رئيسين:

الأول: مجال تقريب مفهوم القرآن والسنة الى المسلمين والكشف عن جوهرهما وتوسيع دائرتهما بما تحتاج اليه العصور المختلفة والبيئات المتباينة.

وكل هذا العطاء تراث قرآني اسلامي مرتبط بالحقائق العليا للاسلام وهو فى هذا يحقق اختلافا واسعا عن التراث فى مفهوم الغرب الذى يقوم على علم الاصنام اليوناني وما يتصل به من ثقافة اليونان والرومان من أساطير وقصص وخرافات ، فإذا قدّم لنا الغرب مفهومه للتراث فلا يستطيع هذا المفهوم أن يحقق لنا تصورا صحيحا حيث نجد الفارق بينه وبين تراثنا واسعا وخطيرا.

وليس الغرب يرمي الى فصلنا عن تراثنا الا لهدف خطير هو ان لا يستطيع المسلمون ان

يربطوا حاضرهم بماضيهم او يتمكنوا من تقديم عطاء جديد فى الحضارة الاسلامية المتجددة.

فـهم يعـملون على تزييف هذا التـراث والتشكيك فيه والعمل على تدميره للحيلولة دون ربط المسلمين أنفسهم بتاريخهم خلال أربعة عشر قرنا فى هذه المرحلة التى استطاع النفوذ الغربى فيها ان يفصل بين المسلمين فى وجودهم اليوم وبين تاريخهم الاصيل، واذا كـان تقـديرنا للتـراث الاسلامى الاصيل المستمد من (الميراث الاصيل: القرآن والسنة) فـاننا يجب ان نكون على حـذر شـديد من التـراث الزائف الذى اخـتلط بالفكر الاسـلامى منذ ترجـمة الفلسـفة اليونانيـة فى الجـولة الاولى ومـا ترجم فى العـصـر الحـديث فـقـد اختلط بالفكر الاسلامى بعض المفاهيم والنظريات والمقولات المنحرفة والخاطئة والزائفه التى استغلها النفوذ الاجنبى فأدخل بها الى الفكر الاسـلامى بعض سـمـوم البـاطنيـة والفكر الوثنى والفلسـفى فى المادية ووحدة الوجود والحلول والاتحاد سواء من الفكر الهلينى او الفكر الغنوصى مما يجب التحرز منه جميعا حتى لا نقع فى مزالق المقولات الجديدة عن الحـداثة والعلمـانيـة وفـتح ابواب الالحـاد والاباحة ومقولات السماح للمحرمات الجنسية وغـيـرهـا من الدخـول الى سـاحـة الاصـالة الاسلامية.

والغـرب يحـاول إبعـادنا عن قـوانين القـرآن الكريم والسنة المطهرة من خلال محاولة خطيرة تقوم بها القوى المعادية منذ هزيمتها فى الحروب الصليبية والتى تشكلت تحت اسماء كثيرة منها:

العلمـانيـة، وحـرية الفكر، والحـداثة، وتحطيم الثوابت، وفـرض مفـهوم التـغـيير على كل القيم الاساسـية التى اسسـهـا القرآن الكريم والسنة المطهـرة، فى مـحـاولة للنيل من ثوابت الاسلام التى اقامها القرآن «تلك حـدود الله ومن يتـعـدَّ حـدود الله فقد ظلم نفسه».

** الغـرب يحاول تفريغ المقومات الاساسية للمسلمين من جوهرها.

** الآن التراث محاولات بائدة للإثراء.

واذا كـان النفـوذ الاجنبى يتـخـفى الآن وراء عبـارات براقـة فإنما هو يهدف منها الى اخفـاء هدفـه الحـقـيـقى تحت كلمـات: التجديد، والعصر ، والتقدم، فى محـاولة خداع خطيرة يحـاول ان يسوق بها الامة الاسلامية سوقا الى الخروج من قـيـمـها وثوابتـها التى هى اسـاس وجودها ودعـامة اسـتـمـرارها من خـلال مـفـاهيم تلمودية وماسونية واباحية ترمى الى الهـدم والتـدمـيـر والخـداع والاغـراء باهـواء النفس واعـلاء الجنس واطلاق الحـريات دون ضـوابط أو حدود فى غفلة من اغراء شبـاب لم تكتمل ثقافته الاسلامية او ترشد فى اصولها حـتى يمكنهـا ان تحـمى الشـبـاب فى عـصـر المراهقة والتحلل.

لقد ذهبت مـحـاولة التـغـريب وجـهـات شـتى وتحركت فى مراحل مـتعددة خـلال هذه الفـترة الطويلة ولكنهـا اليوم تركز على عـملية تفـريغ للمقومات الاساسية لهذه الامة ولدينها وعقيدتها من خلال هدم ثلاث حصون كبرى هى:

التراث + التاريخ + اللغة العربية

حيث تركز الحملة على هذه الحصون تركيزا شديدا من خلال تقديم مفهوم وافر مضلل يختلف عن مفهومنا للتراث والتاريخ واللغة العربية.

(١) التراث الاسلامي:

فالتراث الاسلامي يبدأ من ميراث الاسلام وهو القرآن والسنة وهو يمثل العطاء الذى قدمه علماء الاسلام ونوابغه وعباقرته خلال ثلاثة عشر قرنا.

(٢) التاريخ الاسلامي:

وتأتي قضية التاريخ الاسلامى وهى قضية خطيرة يراد بها هدم الحصانة الكبيرة التى بناها الاسلام فى نفوس ابنائه لحمايتهم من الاختراق والاحتواء والسقوط بين ايدى الاعداء، فهو (اى التاريخ الاسلامى) الذى يحمل لنا مفهوم الجهاد والنضال والمقاومة والمرابطة فى الثغور حتى لا يسقط الوطن الاسلامى فى يد الاعداء وما اكثرهم فى تاريخ الاسلام منذ اليوم الاول لبزوغ الاسلام.

هذا التاريخ الحافل بالمقاومة وحماية الوجود الاسلامى وتقديم الروح والمال لله تبارك وتعالى خالصا {أن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن}.

ولقد واجه المسلمون على مدى حلقات التاريخ الاسلامى تلك المؤامرة الخطيرة التى تقودها قوى أعداء الاسلام من اجل تحطيم وجوده، وما تزال صفحة الحروب الصليبية وجهاد المسلمين بقيادة (نور الدين وصلاح الدين وبيبرس وقلاوون) قائمة فى صفحاتها الغر الميامين يجب الا تنسى ابداً.

وكيف قاوم المسلمون فى سبيل الغزو والفتح وحماية البيضه ومقاومة كل غاصب وما تزال صفحات تاريخ الاسلام الحديث تحفل بصور الجهاد والاستشهاد والمقاومة وكيف انطلق الاسلام الى قلب اوربا واقام اربعمائة سنة ووصل الى اسوار فِيِنًا ووقف عندها مرتين، وكيف حفل تاريخ الاسلام بالفاتحين سواء محمد الفاتح فاتح القسطنطينية ام اسد بن الفرات فاتح صقلية، وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفى، كل هذا فى تاريخ الاسلام الاوسط، اما خالد وسعد وابو عبيدة وهذا الرعيل الاول فحدِّث عنه ولا تَسَل.

*** الإسلام المنهجية الباقية للعالمين ***

ان هناك محاولة خطيرة ترمى الى حجب صفحات الجهاد للتاريخ الاسلامي عن شباب الاجيال الجديدة حتى لا يعرفوا تاريخهم بينما يوجه اعداء الاسلام ابناءهم لدراسة حروبهم مع المسلمين.

(٣) اللغة العربية:

اما الحلقة الثالثة فى هذا العقْد فهى اللغة العربية: التى نزل بها القرآن الكريم فأصبحت لغة العرب أساسا كأمة ولغة المسلمين جميعا من حيث هى ثقافة وعقيدة وقد تميزت عن جميع لغات العالم بأنها حملت رسالة الاسلام ممثلة فى القرآن الكريم فخلدت بخلوده وانتفت عنها محاولات الجحود أو الاختراق ولن يحدث لها من ظواهر ما حدث للغات الامم لارتباطها بآى الذكر الحكيم.

وتحطمت تلك الدعوات التى قام بها ولكوكس

وأتباعه مما حدث للّغة اللاتينية فى اوربا ودخولها المتحف وغلبة عاميات الغرب كلغات، فذلك امر اخر يختلف تماما عما واجه العربية الفصحى لغة القرآن او يواجهها حتى يرث الله الارض ومن عليها.

ومع ذلك فان محاولات التغريب تعمل جاهدة لتسجيل أي نصر فى هذا الميدان ولن تستطيع مهما بلغ بها الامر.

ولقد كان المفروض ان تمتد اللغة العربية الى كل بلد دخله الاسلام ولكن مؤامرات الاستعمار والنفوذ الغربى قد حالت دون تحقيق ذلك وهو عارض مؤقت سوف ينتهى عندما يتأكد المسلمون أن اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة الاسلام وان لها قداستها وان الحفاظ عليها وحمايتها هو جزء من العقيدة حيث فرض كبار فقهاء الاسلام كالامام الشافعى تعلم اللغة العربية على كل مسلم ولم يجز الصلاة الا باللغة العربية وحمل كثير من علماء المسلمين لواء الاهتمام بالفصحى واستخراج كنوزها وكيف اتسعت لرسالة السماء والحديث النبوي وستظل تحفظ هذين الكنزين ما بقي الوجود.

وان كل حرب توجه اليها اليوم من خصوم الاسلام سوف تبوء بالفشل والهزيمة وستبقى العربية الفصحى لغة القرآن قائمة الى يوم الدين.

واذا تصورنا ان هذه القيم الثلاث: اللغة والتاريخ والتراث تمثل الثقافة الاسلامية عرفنا الى اى مدى تشكل هذه القيم ثقافة الأمة الاسلامية وكل ما عاش فى ظلها من اديان وعقائد.

لقد جاءت الأديان لكل امة دينها.. ثم جاء الاسلام ليكون دين الانسانية كلها: الدين الخاتم ومن هنا فإن محاولة اعلاء تاريخ أى أمة أو دينها على الاسلام يتعارض مع الحقيقة التى اثبتها الاسلام حتى اكد ان الانسان جاء للانسانية كلها ثقافة وجاء للمسلمين عقيدة.

وصدق الله العظيم حين يقول فى ثلاث آيات من القرآن (ليُظْهِرَه على الدين كله).

كذلك فقد جاء الاسلام ليؤكد حقيقة لا سبيل الى تجاوزها وهى ان الاسلام هو الدين الخاتم وان هناك انقطاع حضاري بين الامم أوجده الاسلام فقد جاء ليقدم للناس خلاصة المنهج الرباني الاخير والباقى الى يوم الدين وقد جاءت الثقافة الاسلامية القائمة منذ بزوغ الاسلام حتى اليوم لتؤكد ان المفاهيم الاسلامية هى الثقافة العامة لكل من عاش على ارض الاسلام وان دين الاسلام خاص للمسلمين ولكنه ثقافة لكل العالمين.

ومن هنا فان احياء التراث الفرعونى والتراث الفينيقى والتراث الزنجى وغيرها من ثقافات ما قبل الاسلام: كل هذه الدعوات قد انصهرت فى بوتقة الاسلام فبقى خير ما فيها وذهب ما يخالف التوحيد الخالص والوحدة الجامعة.

**** الغرب يعمد لتشويه الصفحات الناصعة في التاريخ الاسلامي**

**** اللغة العربية وحمايتها جزء من العقيدة**

رباعيات

شعر:
يحيى السماوي ـ جده

علـى نُورِ الـهُدى أغْدُو وأمـــــسِي

أضـيىء طـريق روحـي قـبل رمـسـي

إذا لـم أجــــعـل الايمـان دربـاً

فــانـي قــد غـدوتُ عــدُوَّ نفـسـي

ولـستُ بشــارب الا ضـــرامــاً

وإن غـمـر القـراحُ العـذبُ كـأسـي

ولـي منّي عـلـيَّ رقــــيبُ عـين

وقـنـديـل عـلـى أبـواب حــــسّي!

الأصــغـران بذكــر الله قـد كـبُـرا

وبالهُدى صـار ديجُورُ الـفتـى قـمـرا

وهل تُنيـرُ الشـمـوسُ الشُّقْرُ مُظلمـة

إذا دجت روحُ منْ بالحقّ قـدْ كـفـرا؟

أضـىء فؤادك قــبل العين مُنتـــهــلا

نور الـيـقين تجـد رمل الثـرى دُررا

ومـــا ابنُ آدم إن لـم يتــخــذْ لـغــد

زاداً ولـم يتـــخـــذْ منْ راحـل عِبَرا؟

الدلالة بين الغزل والرثاء

عند ابن سناء الملك

الدكتورة مريم البغدادي أستاذة الأدب ، ولها دراساتها وبحوثها في مجال الأدب، وهي من الأقلام العلمية ذات التفرد والتميز في مجالات عطاءاتها الثقافية والفكرية.. هذه الدراسة القيمة آثرت بها الدكتورة مجلتها المنهل وقراءها.. ونحن نسعد بهذا التواصل الفكري والأدبي.

بقلم: أ. د./ **مريم البغدادي**
كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ جدة ـ

معروف ان البنية الرمزية للشعر بنية استاطيقية ترتبط ـ بشكل أو بآخر ـ بالمجاز والأساطير والصور الاستعارية التخييلية المتأملة، ولقد سبق وأن وصف «فوسلر» لغة الرمز الشعرى بأنها «فردية وعالمية» قومية وشائعة، موقوتة وأبدية، ضاربة بجذورها في البيئة ومزودة بأجنحة الروح، مفهومة وعالية على الفهم، منفتحة على اللانهائى والتنوع الرومانسى وتفكك الحياة، ومنغلقة على حدسها وإراداتها المبدعة[1].

وإذا كان الأديب في مرحلة الأدب الأسطورية يرمز، دون وعي بالقيمة الرمزية، فإن الأديب في مراحل الأدب المتطورة يرمز قاصدا وعن وعي.. وهذا ما كان من ابن سناء الملك، فقد اتخذ الرمز وعاء للمعانى والقيم المتنوعة واعيا ما لهذا الرمز من قوة إبداعية وخاصية تأليف بين المتقابلات وتوفيق بين الأضداد بشكل يحفظ لكل منها خصائصه وملحاته.

ولئن أولع شاعرنا بالرمز والأدوات البلاغية المتنوعة ولعا شديدا زركش معظم شعره، إلا أنه كان يعالج بعض النصوص معالجة بسيطة تبدو بديهية ظاهرة ومنها تعبيره عن محاربة الموت إذ يقول باكيا جاريته:

ودافعت عنك الموت بالطب جاهدا
وذا غلط هل يدفع الموت

ابن سناء الملك اتخذ الرمز وعاء للمعاني والقيم

بالطب

** ويؤكد خسرانه فى هذه الحرب بقوله:

أعيى دواء الطب فى سقمه
والموت داء ماله من دوا

* فلما وجد أن الطب لا يجدى فى محاربة الموت والدهر - والأخير يحمل معنى الموت أيضا - اتخذ أسلوبا آخر فى المجابهة وهو العتاب:

أوسعت فيك الدهر عتبا مؤلما
فأجابنى بالبهت والبهتان[٢]

وكأنه هنا يعتذر للمرثى وهو الأسعد بن السديد لفشله فى دفع الموت عنه لتلونه وتلاعبه بالانسان، أليس هو من قال أيضا:

ما اخشن الدهر على لينه
وأخدع المرء بتلوينه
ويفجأ المرء بتحريكه
أوثق ما كان بتسكينه
من ذا الذى أدرك تأميله
من دعة الدهر وتأمينه

فإذا كان الموت أو الدهر قد صمد أمام المجابهة فى قصيدة الرثاء فهجم وبطش وأدمى الأفئدة، فهل جُوبِهَ وصمد فى قصيدة الغزل وبكاء الأحبة؟

إن شاعرنا يؤكد أن الدهر لا يتغير فى موقفه ولا يفقد صموده مهما حاول المرء أن يتسلل إليه بأساليب شتى أولها المواجهة الفعلية وآخرها الأمانى الكاذبة والشاعر بين هذا وذاك يرسم معاناته ودرجات اضطراب أحاسيسه بين الأمل واليأس والرفض والقبول ويغدق عليها من صوره الموحية التى لا تقف عند مجرد التشابه بين المواقف والأشياء المرئية والمسموعة والمدركة، وإنما تربط هذا التشابه بمشاعر الشاعر العامة والمسيطرة عليه لتكون فى النهاية وحدة عضوية ذات عاطفة واحدة قوية وأبعاد إيحائية عميقة الغور، وها هى ذى نصوصه وصوره تجسد حالته أو تجربته الشعورية المسيطرة على كلماته وتعبيراته فى مجال الغزل وفى رصد محاولاته الفنية فى محاربة الدهر الذي يروعه بفراق الأحبة ويساهم في إمداد الفراق بالقوة ليهجم على المرء وينتصر، يقول الشاعر فى هذا:

هجم الفراق ووجهه وصلك ضاحك
ودهى البعاد وغصن قربك ناضر

* ولكنه يحاربه إلى أن يطالب بالصلح والسلام: يقول

ولا كنت إلا من يقارع دهره
قراعا إلى أن يسأل الصلح دهره

* وتستمر الحرب بين شاعرنا والبين فيقول، وإن كان الخوف منه باديا:

ويوم بارزت بينى شاكيا فرقى
منه وذلك يوم بالنوى شاكى

وحينما يفشل يتبع سبيل العتاب عسى «أن يردع البين المشت عتاب» ولكن الدهر يتمسك

بصفته وطبعه، فيتسلل اليأس إلى قلب الشاعر المكلوم بالنوى فيقول مصورا سطوة الدهر هذا:

ابعــــدتنى يا دهر عنه وربما
فــرقت بين الماء والعطشـــان

هذا هو طبع الدهر دائما، يجعل من الفراق أداة لحرب الإنسان وطعنه، ومن هنا يتخذ التشتيت لباسا يضم بين طياته رحلتي الفراق: بالموت والنوى، معا ليجعلهما توأمين يحملان السلاح نفسه فى وجه ابن سناء الملك حتى إذا ما أقر بعجزه أمامهما استجار بالصبر، ولكن الأخير هذا يخذله كما خذله الدهر من قبل، فيسأل سؤال حائر عاجز يبغي الحل فيقول:

كـيف اصطبـارى من فـراق خـالد
وقد افتضحت من الفراق الفانى[٣]

ولئن كان فى موقف فراق آخر لحبيبته يؤكد أن فراقه أبدي وإن لم يمت إذ يقول: «وافترقنا آخر الأبد» وإذن فإن كلا الفراقين حتمي وأبدي أورث الشاعر الحزن وأسلمه للدمع والصبر الجبري الذى وجد له متنفسا بسيطا يخفف عنه بعض ألمه وهو أن يبعث بطيف الميت او المفارق إليه علَّه بذلك يبقى عليه ويصونه من الهلاك وإن لم يقه من السقام إثر الفاجعة فى الموقفين وهذا ما يعبر عنه بقوله:

خـانت جـفـوني لما لم تفض بدمى
لكن وفى الجسم لما فاض بالسقم
ومـا بكى الطرف منى وحـده ألما
لكن بكاك جـمـيع الجـسم بالألم
سـقـمي ومـوتك يا همَّين فى قرن
بل قل إذا شئت ياسهمَيْن فى أمم

* وله فى رثاء صديقه وثاب بن النصير:

وللدهر من بعـد ابن غـاز اليـة
بأن لا يزال السقم للجسم غـازيا

* وفى سقم فراق الأحبة يقول:

ألبـستني سقم الجفون وأنت لي
بالبين مثل الجفن أيضا كـاسر

* وله فيه أيضا قوله:

يحكينى الربع أو أحكيـه بعـدكم
سقما فيا ليت شعرى أينا الحاكي[٤]

وما دام السقم فى كلا الفراقين (فاق الموت وفراق النوى) ينهلان من النبع الحزين نفسه ويصدران الأثر نفسه عليه، أفلا يجد بزيارة الطيف تخفيفا للألم إذا كان الإحساس به مهيمنا كل هذه الهيمنة ومسيطرا على روح الشاعر وصوره؟؟

إن اللحظات الشعورية فى هذا المقام تنبيء عن حاجة الشاعر للطيف وإن كان فى هذا واهما، إذ ما يفتأ الدمع يرافقه حتى تغيم الرؤية ويعود إلى واقعه المحزن وهنا، تظهر القيمة الفنية لتجسيد هذه المواقف الشعورية فيقول مصورا ملامح رجائه ووهمه ورجوعه للواقع فى بكائية يرثي فيها أمه:

والطرف قـد قـال السحـاب له
قـد صـرت بعـدك غـيـر هطال
وغـدا خـيـالك وهو يملأه
وعلى الحقيقة فهو كالخال

* ويعود الرجاء سرابا:

وأعديت منك الطيف صدقا فلم يزر
فلا الطيف طواف ولا الزور زوار[٥]

وينصرف ذهن الشاعر إلى موقف آخر للفراق ويتصارع فى نفسه الرجاء واليأس والحلم والواقع، وتسرح بقلبه الأمانى فى دنيا

خلط فى شعره بين أساطير الحضارات السابقة.. وبعض المعطيات الإسلامية

الحبيب المفارق فيلتقى بطيفه على الدرب فيعاتبه بقوله:

ما زرتني ضيفا وكم زرتنى
طيفا فأهلا بك من زائر

* ويسلم كل منهما على الآخر:

فتهت على الطيف الذى كان زائرى
قبلته خدا وقبلنى يدا

* ويتمكن الوهم من نفسه فيقول متخيلا:

وبت أحسب أن الطيف ضاجعني
حتى رجعت أسيء الظن بالسهر

فإذا كان الطيف زائرا لطيفا فيما سبق من صور واهمة وإن أبدع فيها فنيا، فإنه فى مواقف نفسية أخرى واهمة أكثر عملية وحركة وحيوية إذ يغزوه اقتصاديا:

طيف تخطى الهول حتى يشترى
بيت الحشا فقد اشترى وقد اجترى

* وليغرى البائع فقد:

زارنى طيفها محلى معطر
وتخطى كمثلها وتخطر

* ومن هنا وجد الشاعر نفسه مأخوذا فباع وسجد للمشترى قائلا:

لا تحسبونى ناعسا إنما
سجدت لما مر بى طيفه

وهو فى هذا الموقف مجبر، لأن طيف الحبيب النائي صياد ماهر لا تفتر رغبته فى الامتلاك، ويرسم ابن سناء الملك هذه السطوة بقوله:

كم صاد طيفك طرفى بعد هجعته
فالجفن فخى والأهداب أشراكى

إن تلك الملامح النفسية المتشابهة والمتفقة طبيعة وفنا تتوالى على شاعرنا ولا تنصرف عن ذهنه إلا بزي واحد تزركش جيوبه معاناة باكية ذات بعد شعوري وجداني واحد، تجسد التجربة ووحدة الإحساس بفنية تتلاعب بالألوان اللغوية والبلاغية والموسيقية والعاطفية تلاعبا يميز ابن سناء الملك عن غيره من الشعراء حتى غدا أكبر شاعر فى عصره.

ولا شك فى أن الشاعر بكل لوحاته هنا قد جسد المقولة التى تفيد بأن الفن نشاط استطيقى وخبرة جمالية، وللشعر فى هذا - باعتباره فنا - قدرة على التعبير من خلال رموزه الجمالية التي تنفذ إلى عمق الأشياء وشفافيتها كما له القدرة على إتاحة الفرصة أمامنا لإدراك البنية الجمالية من خلال اللغة.

وإذا كان موضوع الشعر - كما يقول كوليردج - هو الاتصال باللذة، فقد حقق الشاعر لدينا هذا الإيقاع الجمالى التذوقي من خلال قوة التخيل وثبوت العاطفة وتجسيد الأشياء بنشاط داخلي فعال دون الانعزال عن الظروف الخارجية فى وجوده الإنسانى، ذلك الوجود الذى يجد الشعر فيه جذوره والشاعر إبداعاته.

وإذن فإننا نرى وسنرى - فيما بعد - أن ابن سناء الملك فى بنياته الشعرية الاستطيقية

قد وجد بين اللغة العلوية أو لغة الشعر وصوت الجماعة بواسطة الرمز والمجاز والتصوير الاستعارى، تلك الواسطة التى تمكننا من كشف كنه الوجود والموجودات وتقربنا من فهم الكون وما وراءه، وكذلك كشف البعد الإنسانى الأصيل فى هذا الكون بكل ما له من سلبيات وإيجابيات دالة على تفاعله مع الحقيقة والواقع والطموحات المتنوعة.

وتجسيد المعاناة عند ابن سناء الملك فى طرفيها أو مظهريها - الموت والنوى - بأسلوب مجازى تصويرى استعاري، يرصد التشابه فى الطقوس الباكية المتألمة، فهو فى رثائه يلوذ بالبكاء كما يلوذ به فى غزله، وتلك أمثلة على ذلك: يقول فى رثاء أمه متبعا الأسلوب الجاهلي فى استبكاء صحبه:

صح من دهرنا وفاة الحياء
فليطل منكما بكاء الوفاء
واهينا الدموع سكبا وهطلا
وهبا أنهن مثل الهباء

ويضمن بكاءه التراث مستلهما معلقة امرىء القيس وعمرو بن كلثوم فى رثاء جاريته:

قفا نبك من ذكرى حبيبى وقبره
وقل للتى فى القبر حلت ألاهبّي

* ثم يسفك تبر المدامع فيأتى بصورة جديدة رائعة:

وأنفقت من تبر المدامع للأسى
كنوزاً لهذا اليوم كنت ذخرتها

* ثم يندب ويستحث النادبين فيستجيب له نور عينه:

بكى ناظرى بالنور من بعد دمعه
عليك وهذا حسبه فيك لا حسبى

* ثم يبكى القريض والدار والسماء والعلم والمسجد والقرآن والملائكة والمصلى:

بكت دورك اللاتى عليك تسليت
من الحزن لما عوجلت منك بالسلب
ويبكى عليك فمى بالقريض
إذا قل من مقلتي البكاء
ويندب حتى يسمع الخلق ندبه
مصلاك بالتسبيح لا العود بالضرب
تبكي السماء لشمس منك مشرقة
تحت التراب ونجم منك وقاد
عينى ترثيه منثور الدموع بها
كما لسانى يبكيه بأشعار[٦]

* حتى الصحراء أقامت المأتم لتشارك شاعرنا في حزنه وندبه[٧]:

أقامت عليك القفر مأتم حزنها
فقُومى انظرى وسط الفلا مأتم السرب

وهو هنا لا يختلف من حيث المضمون البكائى عن سلفه الجاهلي فى شيء إلا فى تجديد الصورة الفنية ويؤكد هذه النقطة ما جاء عنده فى بقية مراسم الندب من شق الثياب والحداد وطقوس القبر والفداء.

فإذا ما انتقلنا إلى المشابه من بكاء الغزل عنده وقت فراق الأحبة، نجده يؤكد هذا التشابه بقوله:

أنا أبكى لما مضى ولما يأتي
ويا عين لا تنى فى السكب

* حتى إذا ما ذكر الحبيب استجابت عيونه بالدمع دون طلب:

استخدم في شعره مجموعة من الألوان اللغوية والبلاغية والموسيقية والعاطفية

وأنسى سوى ربع الحبيب فإنني
تسيل دموعي حين أذكره حزنا

* وربما قام بمراسم الندب وحده:

سوف أبكى لا بل أنوح فقد أصبح
بين الضلوع داء دفين

ويروى بدموعه أطلال الحبيبة وكأنه يدفع إليها بهمومه من خلالها فلعله يستريح، وقد أبدع فى رسم الصورة إذ يقول:

حططت هموم جفونى بها
لأن الدموع هموم الجفون

ثم يستبكى معه صحبه مستوحيا امرأ القيس أيضا وبالمضمون نفسه وإن كان هنا فى رحاب الغزل:

قفا نبك من ذكرى حبيبى وحده
أأخلط ذكرا للحبيب بمنزل؟[٨]

ولقد أشار ابن سناء الملك إلى الموروث الحضارى فى هذه الدائرة الإنسانية وأكد فى نصوص شعرية أخرى أن هذه المراسم فرض يستوجبه موقفه إزاء الموت الحتمي لأن ذلك - كما سنبين لاحقا - يرتبط براحة الميت فى العالم الآخر، ونراه يقول فى هذا الغرض:

ولا تنه شعرى عن رثاها فإنه
من الفرض عندي ندبها لا من الندب

وأما الحداد وتشييع الجنازة فقد نسج من كل ما احتفظ به منه فى لاوعيه صورا تخلق الحركة في المعنويات فتجسدها أبدع تجسيد زادت الاستعارة والرمز جماله إذ يقول فى رثاء والده:

وشيعه التكبير حتى إذا ثوى
تلقاه إجلال هناك وإكبار

* وبعدها يقرأ على قبره ما يريح روحه فيقول:

واعشار قلبى لا انشعاب لصدعها
وقد تليت من حول قبرك اعشار

ويبرز المفهوم الجاهلي فى كلمة «اعشار» التى تتعلق بميسرهم مختلطا بالمفهوم الإسلامى فى الثانية، ويربط بينهما الموروث الحضارى الذى استغله الشاعر فى كل شعره تقريبا، لينسج فى النهاية صورة مجسدة لوطأة الفاجعة وكآبة الموقف ولزومه فى مراسم الحداد، وقد وردت فى بكائياته مرارا ومنها قوله مخاطبا المرثى والده:

بدارك أقوام كثير رأيتهم
فأعلمتهم أن ليس فى الدار ديار
فتسويدها حيطانها وهو همها
وايقادها نيرانها وهو تنكار

* وإذا كانت الحيطان قد لبست الحداد، فقد لبس هو الليالى ثوب حداد:

أود الليالى أن تطول لأننى
عليك حدادا قد لبست اللياليا

ولكنا نتساءل: لِمَ كل هذه الصور الكئيبة الحزينة الباكية؟؟ ولم كل هذه المراسم

الجنائزية؟؟

ويجيبنا ابن سناء الملك مفسرا ورادًا على التساؤلات واعتراض اللوام بقوله:

يقولون قد أسرفت فى الحزن بعده
فقلت عسى ألقاه فى الحشر راضيا[٩]

ولئن كان شاعرنا يرى فى الحزن رضا وراحة والده، فإننا نؤصل لهذا الرمز والصورة الفنية فنجد أنها آتية من باطن المراسم الجنائزية العربية البابلية قبل الميلاد إذ كان من عقائدهم أن التقصير فى إعداد هذه المراسم كلها من بكاء وندب وحداد وغيرها يحرم الميت من الاستقرار فى العالم الآخر[١٠]، فانظر كيف تسرب الموروث العربى القديم إلى لا وعي الشاعر الذى اختزنه لا شعوريا فتنفس وانساب فى المواقف المشابهة.. أو لم يقل شاعرنا أيضا إن ندبه فرض حتمي؟؟ ها هو ذا إذن يبحر فى عمق الميراث الإنسانى ليقدم تبريرا لرموزه وصوره الفنية التى يزخر بها نشاطه الإبداعى الذى يغرف من التصورات القديمة والمتطورة للكون والوجود والتى تكمن فى لا شعوره ثم تنطلق لتأخذ شكلا فنيا مستحدثا ذا أمل عتيد.

وإذا كان ابن سناء الملك قد استفاد من هذا الموروث واعيا ولا واعيا فى رثائه أفلا يكون فعل الشيء نفسه فى المواقف الحزينة المشابهة فى غزله؟؟ إن نصوصه فى هذه الدائرة الوجدانية تؤكد هذا التشابه وتلك الخبرة الجمالية، يقول فى مقدمة غزلية مشيرا إلى حداده على فراق الحبيب وزيارته لأطلاله التى هى بمثابة الجدث فى حالة الرثاء المماثلة:

كان فى خده مداد عذار
ويقلبى منه مداد حداد
كان قلبى فى مأتم الجهد منه
وهو اليوم فى ثياب الجهاد

* وله فى هذا أيضا قوله:

فإنى لبست ثياب الدجى
حدادا على ربة البرقع

ويقول:

والعاشق المسكين فى أطلالهم
مثل المناطق جلن فى اخصارهم
يأتى ويذهب آسيا أو راجيا
لمزار قريهم وقرب مزارهم
وتجول لوعته عراص بيوتهم
وتجوس دمعته خلال ديارهم

ومازالت الملامح والتضمينات الدينية تزركش صوره المتجددة دائما لتحدد ملامح طقوس الحزن الغزلية ومنها قوله:

أقمت فروض الحب فيه وما أرى
به أبدا غيرى من الناس يندب

وعجيب أمر هذا التشابه فى المواقف الباكية وإن اختلفت الأزياء وتنقلت فى دروب الرثاء والغزل، وعجيب أيضا رصد الملمح الديني الجاهلي - الإسلامي فيهما، ولنقرأ صفحات طقوسه هذه فى قوله:

يا من تجنيه جنايات
حياة عشاقك لو ماتوا
قد عكفوا فيك على جهلهم
كأنك العزى او اللات
لبوا أنينا حين هاجرتهم
كأنما هجرك ميقات[١١]

مزج رائع وتصوير أشد روعة وأكثر جمالا

الشاعر أفاد كثيراً من البنية الجمالية خلال اللغة

يغفر للشاعر جنوحه فى التصوير ذى الملامح التعبدية، ولربما أدرك هو هذا التفرد فى إبداعه فأكمل السير على درب الطقوس الحزينة هذه وقدم ما عليه من فروض فكان الفداء والتضحية التى تفرضها هذه الطقوس الباكية المحبة وها نحن نراه يقول:

أضحى هلالا بدر ذاك النادى

سقما ومن لى أن أكون الغادى

* أو ليس هذا ينتسب إلى التضحية أمام العزّى أو نجمة الصباح؟؟ لعله أدرك هذا فارتد إلى حياض دينه الحنيف فقال:

ضحيت بالعين يوم فرقته

كأنه كان يوم تشريق

* ثم رأى أن يكون الفداء ما هو أبعد فقال:

أوليت لو كان يفدى من كلفت به

در النجوم بما فى العقد من درر[١٢]

ويلح التشابه فى التضحية فى موقف الرثاء ليدفع شاعرنا إلى قوله:

كنت أرجو إنفاق مالى عليها

فغدت أدمعى لها كالفداء

وتتسع دائرة الفداء وينفعل رضوان حتى أنه يتمنى أن يكون هو الفداء لا الشاعر الذى آثر أن يجعل مهجته وأولاده فداء، يقول:

أعطى البشارة رضوان بمقدمه

مع أنه كان يرجو أنه الفادى

بل ليت أنى أنا الفادى لمهجته

بمهجتى وبأموالى وأولادى

وللفداء أو التضحية تاريخ طويل يصل إلى ابني آدم حينما قربا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر الذى سولت له نفسه إثر ذلك قتل أخيه فأصبح من النادمين ثم يبدأ هذا القربان فى الدخول فى دائرة الموروث وإن غمت الرؤية لاحقا حيث أصبح عند عرب بابل وكنعان وفنيقية نوعا من الجزاء كما هو الحال فى ملحمة جلجامش او تقربا إلى الآلهة كما فى غيرها من المعتقدات القديمة وتعترضنا فى الطريق «إنانا» الآلهة العراقية القديمة - حسب اعتقاد أهل سومر وبابل - لتحكى لنا قصة نزول زوجها تموز إلى العالم الآخر بديلا عنها وكأنه فدية أو تضحية مقابل خروجها هى من عالم الأموات، وهى فى هذا على عكس عناة الكنعانية التى تعمل كل ما بوسعها لاسترداد حبيبها «بعل» من العالم الآخر وإن لم تقدم نفسها فدية وبديلا له[١٣].

وبعد، فقد رأينا كيف أن الشاعر قد استغل الموروث الكامن فى الذاكرة ليرصد التشابه فى موقفي الموت والنوى ومن ثم التشابه فى رصد الصور والأحاسيس الحزينة تجاههما.

فإذا انتقلنا إلى فكرة الخلود بالجسد فى الموقفين نجد أن الشاعر يقر باستحالته، فالإنسان فان بالموت، والقرب فان بالبعد، والمكلوم فى كليهما واحد يتجرع مرارة هذه الاستحالة، وإذن، فلم يبق أمامه سوى البحث عن خلود آخر كحلٍّ وسط يهدىء من روعه

ويخفف عنه الوطأة.

ولعل الشاعر - كأسلافه - وجد أسلوبا آخر أو شكلا جديدا للخلود وهو الخلود بالذكر، وهذا يمثل فلسفة قديمة تتعلق بالشعائر الجنائزية فى بابل، والتى كان من بينها شعيرة «ذكر الاسم» إحياء لذكرى الميت وتخليدا له ما دام الخلود بالجسد مستحيلا نتيجة حصار الموت للإنسان[١٤].

وعليه نجد أن الملمح الفني للرمز القديم - الجديد يستقطب الخبرة الجمالية عند الشاعر فى إطارها التاريخي والإبداعى لتنسحب على طبيعة رغبته فى الخلود بالذكر بعد أن يدفع كل شيء إلى مشاركته هذه الرغبة. فهناك ذكر البر والرياض والثناء وهكذا، يقول فى رثاء أمه:

ولقد خلقت أحاديث تغنى الأنف
عن نشر روضة غناء

* وفى رثاء العفيف بن التلمسانى يقول:

سأثنى عليك وما قل ما
يقوم بما يستحق الثناء

* فإذا كان الشريف المرثى قد مضى فقد خلف ما يخلده:

مضى الشريف وأبقى من محاسنه
حدائق ذات أنوار وأزهار
نكر طوى الأرض والأيام تنشره
فلا يزال تراه رهن أسفار

* فإذا ذكرته الرياض فلأنه قد انشأها بمحاسنه:

وأنت الذى لما نأيت تفاوحت
رياض وقالوا إنها عنك أخبار
وأنت الذى آثاره مآثراته
فأنت الذى لا تمحى منه آثار
وهل تمحى الآثار منك وبعضها
من الغيث أنواء وفى الصبح أنوار

وهذا هو الخلود إذن ، ذكر وآثار خالدة تعوض عن وجود فان.

* وفى وفاة جده يقول:

إن افتقدت فذكر غير مفتقد
او انهدمت فشكر غير منهدم
فالخلق يثنى بما أوليت من حسن
والخلق يشكر ما خولت من نعم
مازال برك فيهم ملء كل يد
فصار شكرك فيهم ملء كل فم[١٥]

ومن كان بهذا الثراء المعنوى، فإنه لا شك قد ضمن لذكره الخلود ، ذلك المستحيل الذى تحايل عليه الإنسان فامتلكه فى صورة أخرى.

ويحاول المحاولة نفسها فى ركن آخر من الخلود حينما يستحيل على المحب قرب حبيبه الدائم الذى منى بالنوى الأبدي ذى السطوة النافذة.

ويستخدم قلبه أداة للوصول الى خلود ذكر الحبيب فيقول:

فلئن سلوت فإننى بك والهٌ
ولئن نسيت فإن قلبى ذاكر

* ويتمادى القلب فى تخليد ذكره فيضطر شاعرنا إلى مجاراته:

فصرت أجاري القلب من أجل ذكره
فيقتلنى ذكرا وأقتله صبرا

* ولما أن أصبح الذكر له عادة صار يغزوه هذا الذكر فى نومه، يقول:

** الشاعر استغل الموروث لرصد التشابه بين موقفي الغزل والرثاء.
** أثار في شعره كثيراً من الدلالات الاجتماعية الرمزية.

بأبى وأمى من حلمت بذكرها
لما انتبهت ومذ رقدت تفسرا

ومن هنا يتحدى استحالة خلود القرب كما يتحدى البعد بالتذكر الدائم ونراه فى هذا يقول:

يا نازح الدار والذكرى تقربه
لئن نزحت فإن الذكر يدنيكا[١٦]

أمل ورغبة شديدة فى خلود الوصال والقرب وإن كان الأمل فى الخلود الحقيقى سرابا عاتيا.

ويختزن فن ابن سناء الملك الشعري مضامين إنسانية تتغلغل فى التراث الحضارى وتتضح بالألوان الانفعالية الصادرة عن وجدان مثقل بالهموم والآلام، ولقد أفاد من هذا التراث الغني بالدلالات والرموز التى تشير إلى أقدمية الأشياء وأزليتها وتومىء إلى عالم المثل المنبثق من عالم الوحي والتجربة، ذلك العالم الذى كون القواعد العامة للفكر الإنسانى فى إطار الزمان والمكان وما بينهما من ظواهر متأثرة بهذين الحيزين من الوجود.

والحوار بين الوجود والموجود حوار قديم فتح باب التأمل أمام الإنسان ذلك التأمل الذى دفعه إلى قراءة رموز الكون وإدراك المغزى العميق للوجود الذى رأى فيه وحدة وامتزاجا يرصد العلاقة بين الموجودات.

ولعل ابن سناء الملك حين تكلم عن آثر الموت والنوى كان يتمثل هذه المقولة أمامه يغترف منها صوره وقوالب مشاعره ويرسم الوحدة العضوية بين أركان الكون بما فيها من ماديات ومعنويات.

ومن هنا نستطيع أن نسبر أغوار معانيه ومضامينه الشعرية فيما يتعلق بأثر الموت والنوى على الحياة والأحياء.

ويظهر أثر موت أمه على الزمان كمنطلق لرصد هذه الفلسفة الفكرية عنده يقول:

قد دهاه من فقدها ما غدا
منه قليل البهاء قليل الضياء

* وأما أثر موت جاريته على الربع فهو تصدعه، يقول:

وربعك أضحى خاشعا متصدعا
وساح إلى أن صار أعلاه كالجب

* وفى أثر موت والده يقول:

فلا طلعت من بعد وجهك انجم
ولا هطلت من بعد كفك أمطار
فقدتك فقد الأرض وهى جديبة
لغيث تولى معرضا وهو مدرار
فأصبحت لما مت حيا كميت
وإن كنت امتاح الدموع وأمتار

ولم يقتصر أثر الموت على الحسيات وإنما تعداها إلى المعنويات ففقد عقله وطعم حياته، وفى هذا الأثر يقول باكيا بعض أهله:

فى فقر صوفى وذل ذمى
قد ضاع عقلى بعدهم وحلمى

مـا لحـيـاتي بعـدهم من طعم
فـيا افـتـقـادى بعـدهم وعـدمى[١٧]

ولقـد أثار فـيـمـا سبق من صـور بعض الدلالات الاجـتمـاعـية والرمـزية كـما أعـاد إلى ذاكرتنا بعض الآثار الأدبية القديمة النابعة من فلسـفـة بابليـة ولدت قـبل الميـلاد وانتـقلت إلى فنيقية وكنعان وغيرها من مناطق العالم القديم - وهى فلسفـات فـاسـدة ضـالة - تلك الفلسـفـة الزراعـيـة التى جسـدتهـا المراثي التـموزية او الأدنوسـيـات الحـزينـة التى تربط بين مـوت الطبيعة والموجودات وموت تموز أو أدونيس هذا والتى تسربت إلى شعـرائنا فى الجاهلية ومن تلاهم من شـعـراء العـصـور التـاليـة ومن هؤلاء شـاعـرنا ابن سنـاء الملك[١٨] وكل هـذه الملامح تشـيـر إلى وحـدة حـضـارية بعدت بهـا الأيام فـغامت صورها وتسـرب بعضـهـا ليكون نبعـا للفن والإبداع لاحـقـا، مع تطور فى الرسم والرصد. ولا يبـعـد أثر النوى على شـاعـرنا والوجـود عمـا سبق من أثر، إذ تصـبح الأرض قفرا وكذلك الربع بعد رحيل الأحبة، وينسحب هذا الأثر على الشمس والفـؤاد والروح وها هو ذا يصور ذلك كله بقوله:

لقـد شـقـيت بالبـعـد منه رباعـه
كـمـا سـعـدت بالقـرب منه ركـابه
ومـا القـفـر بالبـيـداء قـفـرا وإنما
أرى كل دار لم يكونوا بهـا قـفـرا

* وفى غيرها يقول:

القلب بعـدك غـيـر مـسـرور
والربع بعـدك غـيـر مـعـمـور

* ويقول:

ولقـد رأيت الشـمـس فـيـهـا كـورت
من بعـد أن ركـبـوا على أكـوارهم

* وفى رابعة:

اننـى مـنـذ نـأيت عنك نـأت رو
حى وراحت من عطفى الأريحـيـة

* ولعل أقل أثر للبـعـد شـيب الرأس وألم الفؤاد[١٩]. وبعد هذا كله يبرز ملمح آخر من هذا التشـابه بين الموت والنوى، تلك التـجـربة الواحدة ذات الوجهين، ونقصد هنا رمز الدعاء بالسقيا.

وللدعـاء بالسـقـيـا خلفيـة حـضـارية عـربيـة الأصـول والملامح تتلخص فى فلسـفـة بابليـة قديمة تعود إلى مـا قبل الميلاد بكثير وتتعلق بشعـيرة باكية تفـترض حـاجة الميت للماء فى العـالم الآخـر ولذا كـانوا يسكبـون الماء على القبور وكذلك الخمر ليستفيد منها الميت بشكل أو بآخـر - حـسب باطل اعـتـقـادهم - ومن هنا يقرب إلى إدراكنا فهم رمز الدعاء بالسقيا فى الشعر الجاهلي[٢٠].

وإفـراز لاوعى الشـاعر بالموروث الحـضـاري القديم ووعيه بالموروث اللاحق بالنسبة للسقيا رسم عـدة صـور فنيـة منهـا مـا جـاء فى بكائيـة يرثى فـيـهـا أمـه وإن كـان الملمح إسـلامـيـا فى الصورة، يقول:

ولازلت بـالقـبـر فى جنـة
لك الرى من ظمـئـهـا والرواء

* وفى رثاء الشريف الحسينى يقول:

وليس كـالقـبـر قـد حللت به
وإنمـا هـو مـشـكـاة لأنـوار
سـحـائب القـدس والرضـوان تمطره
فـلا تمن سـمـوات بـأمـطـار

* وفى بكاء جده دعاؤه:

سـقى ترابك رضـوان ومـغـفـرة
إذا سـقى التـرب هطال من الديم

وهنا نلاحظ تطور الرمز والدلالة ـ رغم تأصيلها ـ إذ بدا الوجه الإسلامى باهرا تضمه الصور الفنية والإبداع الشعرى بحنان وتدثره بغلالة من الجمال الأخاذ ذلك الجمال الذى انسحب على صوره المماثلة فى زى الغزل الذى يلف النوى بين طياته.

ولا يفتأ ابن سناء الملك يتحفنا بصوره ولوحاته التى يدعو فى إحداها بقوله:

سقى الله أيام الشباب مدامعى
على زينب لا وأخذ الله زينبا

* ويقول فى أخرى:

سقى الله أيام الوصال مدامعى
عليها وإن أسرفن فى الهطل والنبع[٢١]

وماذا بعد؟؟

لقد رصدنا العلاقة بين جانبي الظاهرة الواحدة ذات الوجهين: الموت والحب ورأينا أن كليهما ينتهى بالإنسان إلى الفراق حتى وإن كان الحب مظهرا سلوكيا والموت ظاهرة قدرية، إلا أنهما يجتمعان على صعيد اللوعة والأحاسيس المتألمة، نتيجة الحرمان، والحرمان منبع الحزن والأسى، ولقد غرفت ريشة ابن سناء الملك الفنية من ألوانها الكئيبة الدمع الحار والسقم والألم وشحوب الأمل وصور الحياة الباهتة الباردة المتشابهة، تلك المشابهة التى ظهرت بشكل واضح وقوي فى قصائد الغزل والرثاء عند ابن سناء الملك ذلك الشاعر المبدع، لتؤكد أن الحب والموت مظهر واحد لتجربة واحدة ارتدت ثوبين مزركشين يحكيان قصة الوجدان الأزلية التى ينسج أطرافها القضاء والفناء المتناهي، وموقف الإنسان حيالها، ذلك الإنسان الذى شاد الحضارات العريقة العملاقة ولكنه ظل عاجزا يبكى ضعفه أمام عالم المشاعر الطاغي وسيظل يبكيه حتى المراحل الأخيرة من الحياةالإنسانية على وجه الأرض رغم كل فلسفة مضادة.

الهوامش:

(١) الرمز الشعري عند الصوفية، عاطف جودت نصر ١١٣ ـ ١١٤ ط. اولى، دار الاندلس ، بيروت.

(٢) ديوانه ٦٤، ٨١٢، ٨٧٤.

(٣) ديوانه ٤٥، ٣٣٤، ٣٨٧، ٥٣٢، ٧٨٠، ٨١١.

(٤) ديوانه ٦٦٥، ٦٦٦، ٣٣٤ ـ ٥٣٢، ٨٧٨، ٣١٤، ٣٢٢، ٥٧٤.

(٥) ديوانه ٣١٤، ٣٢٢، ٥٧٤.

(٦) ديوانه ٢٤٦، ٢٩٥، ٣٣٧، ٣٥٢، ٣٩٧، ٤٩٠، ٥٣١.

(٧) انظر: ديوان الخنساء ١١، ٦٧، دار التراث ، بيروت ١٩٦٨ وديوان لبيد فى صفحات متفرقة، وملاحم واساطير لانيس فريحه ١٦٧ ـ ١٦٨ وملحمة جلجامش حققها نقلها الى الانجليزية ن.ك. ساندرز ٧٦ ـ ٧٨ ترجمة محمد نبيل نوفل وفاروق القاضى دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

(٨) ديوانه ٢١٥ ، ٦٦.

(٩) ديوانه ٨٦، ٧٥٦، ٧٦٣، ٨٠٧، ٦١٥.

(١٠) ديوانه ٦٩، ٢١٤، ٣٢٣، ٣٢٥، ٨٨٠، ٨٧٨.

(١١) انظر عقائد ما بعد الموت، الفصل الرابع.

(١٢) ديوانه ١٩٤، ١٩٥، ٤٧٤، ٦٨٧، ١١٣، ١١٩، ١٢٠.

(١٣) ديوانه ١٦٣، ٥٠٢، ٣٣٦.

(١٤) ديوانه ٣، ٢١٥، ٨٧٧.

(١٥) انظر فى هذا: عادات وتقاليد الشعوب القديمة لفاضل عبد الواحد وعامر سليمان ١٨٩ دار الكتب للطباعة والنشر بغداد ١٩٧٩.

(١٦) انظر: عقائد ٢٨١.

(١٧) ديوانه ٣، ٧، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٣، ٦٦٨، ٦٦٩.

(١٨) ديوانه ٣٣٣، ٣٠٦، ٣٥٢، ٥٢٥.

(١٩) ديوانه ٥، ٦٣، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٧١٤، ٧١٥.

(٢٠) انظر فى هذا الموضوع: موسوعة الفلكلور ٤٤ وما بعدها، ودراسات فى التاريخ لانيس فريحه ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٥٩، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٠، وطاحوتى بطل مصرى قديم، جورج ماسبيرو و١٣٣ وادونيس او تموز، لجيمس فريزر ١٨ ـ ٢٠ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط. ثانية ١٩٧٩ بيروت، واساطير العالم القديم لعدة مؤلفين ٧٧، ٨٩، ترجمة عبد الحميد يوسف، الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٤.

(٢١) ديوانه ٤١، ١١٤، ٣٠٤، ٤١١، ٦٣٠، ٦٨٦، ٨٧٥.

المياه في الشعر العربي

١ ـ شعر المطر:
سيول .. ومنشآت تحكم:

آثار منازل، مرّعهد أنسها بنازليها لسنوات خلون بأشهرها الحُرُم وغير الحُرُم، نزلت عليها الأمطار غزيرة فأغاثتها، وجرى الماء بوادي الريان، وزال التراب عن الأطلال.. أمطرتها سحائب سرت ليلا، وأخريات سارت بالغداة مصحوبة بقصف الرعد، إلى أن ارتوت الأرض، واستوى الماء إلى اغصان نبت الأيُهمان، وسرت الحياة في كل الكائنات وتزاوجت وأخصبت، وبموضع الجلهتين حيث تعيش الظباء والنعام كان توالدها، أو هي من تكاثف السحب في العشية وازرام الرعود وغشيان الظلمة المكان فاختفت مرتعبة.. يقول لبيد (٥٦٠ ـ ٦٦١م) في معلقته:

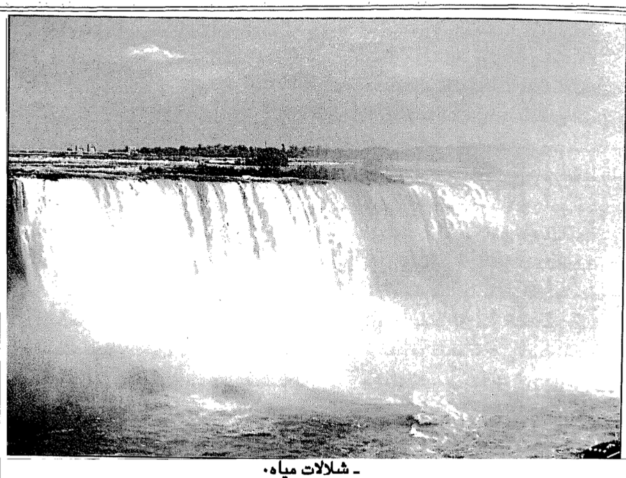


بقلم:
مصطفى بو هلال ـ تونس ـ

عفت الديار محلُها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامُها

فمدافع الرّيّان عُرّي رسمُها
خلقا كما ضمن الوُحيّ سلامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها
زُبُرٌ تجدّ متونها أقلامُها
دمِنٌ تجرم بعد عهد أنيسها
حجج خلون حلالها وحرامها
رُزقت مرابيع النجوم وصابها
ودق الرواعد جوْدُها فرهامها
من كل سارية وغاد مُدجن
وعشية متجاوب إرزامُها
فعلا فروع الأيهقان وأطفلت
بالجلهتين ظباؤها ونعامها[١]

ولمّا تتدافع السيول من هطول الأمطار، وتُحمّل الأودية أكثر من طاقتها المائية فتفيض، عندئذ تحصل الكارثة، حيث يجرف السيل العنيف كل ما يعترض انحداره الهادر.. وظاهرة فيض الجداول والروافد والمنخفضات يتكرر حدوثها المؤثر في التجهيزات العمرانية والتجمعات السكانية ـ في هذا العصر على الخصوص ـ وذلك لانتشار البناء الفوضوي داخل مناطق (البلديات) وللتوسع السريع للمدن المحتل لمواقع الأودية، ولنزوح الريفيين إلى العواصم مع إبدالهم الخيام المحكمة ببناءات هشة أو قصديرية متناثرة في تزاحم،



- شلالات مياه.

وإزاء نكبات فيض السيول العاتية نهض الشعر ليساهم في التسجيل الوصفي، وفي المواساة واللوعة. وهاته قطعة من مرثاة - على ضفة وادي بياش[٢] - لغرق عديد التلاميذ والتلميذات:

* يقول أحمد المختار الهادي:

وبيّاش هذا الذي سار في جبروت وفي خيلاء
وفتح أشداقه، كالتماسيح، يبتلع الأبرياء
وأرغى وأزبد كي يأكل الضعفاء
ويحملهم سيله دون وعي
مع الصخر والرّمل مثل الغثاء
بكل جنون وفي عنجهية
وفي صلف أحمر وغباء
.. وأكبادنا بين أمواجه الصفر تعصر
وأهدابنا شدّها الدّمع حتى تحجر
وأجفاننا تتخر
ومأساتنا.. آه مأساتنا على عرض بياش
تنمو وتكبر.

وللتقليص من تكرر مأساة فيض مياه الأمطار الموسمية، ومعالجة مشاكل الوديان ومحاولة الاستفادة القصوى من ماء المطر، تضافرت الهندسة المعمارية وهندسة الطرقات، والهندسة الفلاحية المائية على اقتراح حلول فكانت منجزات في مجال صيانة المدن من خطر السيل الداهم، منها «السدود» و«الجسور» وتحويل بعض «الروافد والمجاري» فعن سدّ «وادى زرود» هذا الوادي الكبير الذي يكاد أن يروع القيروان كل عام مرّات بمعيّة «وادي مرق الليل» العظيم يقول أديب:

قـد كـفـى القـيـروان من كل شـرّ
كـان قـبـلا يـحـوطـهـا ويـهـدّد
فـلـكـم روّع الـنـفـوس وكـنّا
بـين قـحـط وبـين زرع يُبَدّد
وغـدا ينزل القـضـاء بـ «مـرق الليـ
ل» اذ طالما اسـتطال وعـريد[٣]

* ويتحدث محمد الحلوي - المغرب - عن سد المخازن يوم تدشينه بعاطفة جياشة وتراكيب متينة:

الشـعب زغـرد يوم فـاض الوادي
بالخـصب والبـركـات والإسـعـاد
ضـاقت جـوانحـه عن السّرّ الذي
أخـفـى روائعـه مـدى الآمـاد
حـتى تفـجـر في الجـداول رحـمـة
مـوصـولة النفـحـات والأمـداد
هذي السـهول الجرد سوف يحيلها
خـضـر الحـقـول نـدية الأعـواد
كـانت مـواتا تنعق الغـربان في
أرجـائـهـا فكأنما من عـاد
سـتردد الأطيار في عـرصـاتهـا
لحـنـا طـروبا رائـع الإنـشـاد
لا شيء أثمن في الحـيـاة كـقطرة
من مـائـهـا تشـفـي صـدى الأكـبـاد
لم يجـر مـاء في الحـقـول وإنما
ينسـاب في الأرواح والأجـسـاد[٤]

ولمّا اقترن إنشاء السدود وجسور الطرقات بأسماء المشيّدين من الحكّام مال أكثر الشعراء إلى المدح فأضروا بالإنشاد الشعري لمّا أغرقوا في الإطراء متخلّين عن النظر في الماء ومنشاته الصناعية..

أقيمت قنطرة على وادي مجردة - بتونس - فانشأ الكاتب الأديب محمد الرّعيني القيرواني (ابن دينار) أبياتا منها:

فـردوس قنطرة يـا طـيب الأرج
تبـارك الله عن ذي المنظر البـهـج
إن جـاءها ليسلّي القلب قـاصـدها
يُفـتح لخـاطره باب من الفـرج
ويسـرح الطرف في مـرأى بدائعـهـا
بـزخـرف النقش أو بالماء والمرج
والنهـر يجـري إلى الدولاب منعطفـا
تراه منعـرجـا في إثر منعـرج
وحـافـة النهـر إن مـرّ النسـيم بهـا
كالسّيف منصقلا في كف مختلج[٥]

* ويقول الشاعر محمد الورغي في قنطرة وادي مليان سنة ١١٨٠هـ:

انـظـر لجـسـر ينجلي
بـكـلّ صُنـع أجـمـل
يـزهـو بـه مـلـيـان
عن مـجـردة ويعـتلي
ومن مـعـاني اسـمـيـهـمـا
يـظـهـر فـضـل الأول
وزاد فـضـلا إذ دنـا
لمـن بـنـي بـالـمـنـزل[٦]

ويتـسـابق شـعـراء المدح في تأريخ هاته المنشآت تخليداً لأسـمـاء ملوكـهم، مما دفع بهـؤلاء الى نقش هـذا النظم على رخـامـات التدشين وهذا شاعر - ليس من هؤلاء - يتبختر - مستروحا - فوق جسر بوادي النيل، فهاج فيه الحنين الي مياه عيون رغوان التونسية فقال:

عـبـرت على جـسـر أرى النيل تحـتـه
إلى روضـة فـاشـتـقت منهل زغـوان
صـراط وفـردوس وسلسـالُ كـوثر
ومـا قيظ أشواقي سوى وهج نيران[٧]

من قديم كان أوّل ما يراعى عند إنشاء أي تجمع سكني توفّر الماء أو توفيره. ويعدّ ابن الرّبيع من أوائل المفكرين في التراث الإسلامي في تخطيط البلدان، فهو يحدد شروطا وأهمها سعة المياه المستعذبة، فعلى الحاكم («أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها، ويسهل تناوله من غير عسف» وبعد ذلك بحوالي ستة قرون يعرض ابن خلدون وابن الأزرق أفكارا متطورة مستفيدة من التجربة، تتعلق باختيار مواقع المدن وتخطيطها)[٨].

وللإيفاء بذلك الواجب العمومي أنشئت (القناطر الحاملة لمجرى ينقل الماء، وهي ما يطلق عليها «قناطر الماء» مثل قناطر ابن طولون التي أنشأها لنقل الماء من النيل لقصره.. وقناطر فم الخليج التي أنشئت لكي تغذي قلعة الجبل بالماء، ومازالت باقية على حالها إلى اليوم، وتلك القناطر التي أنشأها الفاطميون لتغذية القيروان بالماء)[٩] وتسمّى هاتيكم القناطر المائية بتونس «الحنايا» وأوّل من بناها الرومان من عيون زغوان إلى مدينتهم - آنذاك - قرطاج، وقد تكلم عنها - بإسهاب - ابن خلدون فذكر أنها في بطن الأرض وأخرى على الأقواس[١٠]، ولما تعطلت بالتداعي للسقوط قام بترميمها وتحويل المصبات محمد المستنصر الحفصي عام ٧٧٧هـ ف (جعل قطعة من الماء إلى سقاية جامع الزيتونة، وباقي الماء الى جنة أبي فهر)[١١] ومن الشعراء الذين تغنوا بمفاتن منتزهات الحنايا محمد الورغي:

ترى الحنايا كسطر النخل مُدّ به
بعض لبعض بمحنيّ العراجين
أو خُرّد نهضت للرّقص فاعتنقت
كي لا تجيء برقص غير موزون[١٢]

* وينبري الشاعر البارع محمد الشعبوني مرحبا بأدباء العرب في مؤتمرهم التاسع عام ١٩٧٣ بتونس، يرشهم - معطرا - بأعذب مياه العرب:

وحنّت للقياكم (حنايا) وأضلع
وفاضت دموع العين من فرح تترى
سلام وسلام يا (دمشق) وقد صفا
إلى (بردى) عبر (الحنايا) هنا المجرى
سلام على أرض (الخليج) وما حوت
سلام به نزداد يا إخوتي فخرا
سلام يا إخوة الحرف بلّغوا
إلى أهلكم عنا هوى (تونس الخضرا)[١٣]

ومن الابتداعات التي واكب تشييدها الشعراء فأشادوا وهللوا: «مصايد مياه الأمطار» كالصهاريج العامة، والسقايات والأسبلة.. وبمدينة صفاقس آثار (الناصرية) وهي سقاية (احتوت على مئات الصهاريج والمواجل.. المتنوعة في هندستها وأشكالها وألوانها المعمارية.. نعم هي سقاية الناصرية التي تقصّ علينا تاريخ أجيال وأجيال... مسافة ثمانية قرون في حياة صفاقس؟)[١٤] وبذا تحقق حلم شاعرها علي بن حبيب التنوخي (ق٥هـ) الذي استهل قطعة شعرية في صفاقس بإهدائها أحبّ الإبتهالات:

سقياً لأرض صفاقس
ذات المصانع والمصلّي

ولا تغيب عنا خزانات «الربذة» العجيبة، وان كنت لم أعثر على أي تنويه شعري بها. و(إذا تجوّلت في شوارع القاهرة.. ستجد أنها مدينة عامرة بأسبلة الماء، وهو نظام اقتضته فلسفة المدينة الإسلامية لتوفير مياه

الشرب للمارة.. في القرن الخامس عشر قال أحد الرّحالة الأوروبيين: «إنّ ما نراه من الأسبلة الكثيرة في أي مدينة إسلامية، دليل على سموّ خلق أهل هذه المدينة»[١٥]، أجل .. وورثناه من القائمين على سقاية زمزم بالحرم المكي.!

وها هو محمد الورغي يمدّك بشربة هنيئة مريئة من سقاية ساعة إحداثها سنة ١١٦٧ هـ ١٧٥٣م مع دعابة شعرية خفيفة لا تخلو من مبالغة الشعراء لمّا يقفوا بين أيدي ممدوحيهم.

هذا سبيل في سبيل مهيمن
أجراه من أولى الجمال جميلُه
فاشرب وقف بإزائه متنعما
فالسعد عبدٌ والنسيم خليله
يُحيي ويُشفي ماؤه ونسيمه
حاز المحاسن أين أين مثيله
(فلقطر مصر الفخر بنيله)
حتى صفا هذا تغيّر نيله
يا ذا الذي يشكو الغليل وحرّه
فهو اللّوا لحشى كواه غليله[١٦]

عام ٣٦٨هـ اختط المنصور محمد بن أبي عامر مدينة الزاهرة ـ شرقي قرطبة ـ فمدح الشاعر صاعد البغدادي صانع الخطّة المعمارية مزينا الدّعاية بذكر سرّ الرّخاء والبهاء: «العين» التي صنع لها مجرى محكما من المرمر:

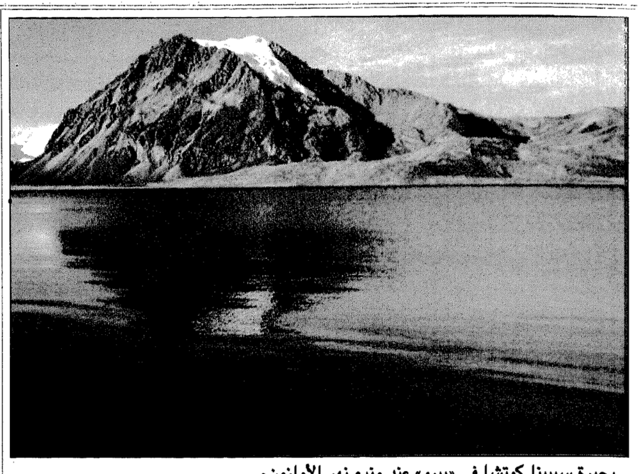
أما ترى العين تجري فوق مرمرها
زهوا فتُجْري على أحفافها الطربا
أجريتها فطما الزاهي بجريتها
كما طموت فسدت العُجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة
مستلئمات تُريك الدّرع واليلبا
تحفها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضة أو أورقت ذهبا[١٧]

ينابيع ..!

وبرفيق المرافقة ، وكريم الاصطحاب، وحلو الهمسات، ورائع الإرسال، يصطحبنا الشاعر المبدع «سليمان العيسى» إلى «الينبوع» فتعال نجد أنسا وشذى ورشفا لذيذا غامرا:

(رضعَ النقاء من السماء، من النجوم الصافيه
ومن الصخور الجاثيه
ربّته أخلاق القمم
يسقي كما شاء الكرم
... يسقي .. وتتكره الضفاف
تعقه حينا .. ويرحل
هو للعطاء .. فليس يسأل
يسقي
لأن حقيقة الينبوع أن يسقي
حقيقته الأصيله..
هو ليس يقوى أن يكون سوى حقيقته الأصيلة
تعتاقه حينا صغار حصى، كبار حصى
رُكامٌ من غثاء..
ويمرّ لا يُلوي.. ويسقيها .. أليست في الظماء؟
.. يا أيها المترقرق الصافي.. سيُتعبك السفر
لكننا سنظل أظمأ ما نكون لقطرتين، لرشفة، نحن البشر...)[١٨]

رائعة من روائع العصر هاته.. صياغة فنية فخمة شفافة مغيثة، ودلالات عميقة رامزة لا ينضب عطاؤها.. فارفق أيها الإنسان بالنبع الذي فيك، ورِوّه بالنقاوة والطهارة وزكّه



بحيرة سيبينا كوتشا في «بيرو» عند منبع نهر الأمازون.

بالصلاح.. كن ينبوعا للخير والعطاء.. كن ينبوعا ثرّا متساميا جوادا.. كن الينبوع المعتز بثرائه وتراثه ولا تكن اليد السفلى.. كن المتبوع الطلعة ولا تكن التابع الذليل العاق.. كن قمة راسخة تشيع الحق والجمال والكلمة العشق ولا تعبأ بـ «حجارة الفلتاء) ولا تُلق بالرّاية من فرط المعاناة، ولا تنتظر (وساما) ولا (صُرّة أميرية) وإن أشقاك السير لإلقاء باقات ورود الحب واطلاق حمامات السلام ونثر بذور القوة والسعادة، وبث أشعة المعرفة وتهذيب الذوق، فعزاؤك أننا ـ كل البشر ـ في ظمأ دائم إلى إضمامة منك أيها الينبوع.. إلى دفقة مداوية منك تُحيي الكيان، وتسدد الإحياء، وتبشر بحسن المصير.!

و «ماء زمزم»!؟

ماء زمزم سبى أرواح المؤمنين، ففاضت قرائح الشعراء، ونضر الشعر الإسلامي أيما نضارة.. فريد قُرني سبّح لخالق العين تعالى الله، بذكر مرهف، وفؤاد دامع، ولسان رطب:

عين قد انبجست من الصخر الذي
قد هشّ للبشرى .. بحس مرهف
.. قرّت بها الصحراء عينا.. وارتدت
بمجيئها المبرور .. أبهج زخرف
فله المكان .. له الزمان .. له الورى
سبحانه يختار منه ويصطفي[١٩]

* ويستحضر أحمد أبو بكر قصة العين للذكرى والتذكير العطرين.. قال من قصيدة: (أمّ القرى):

فهاجر أم إسماعيل ظمأى
فلا ماء ولا شجر يسام
سقاها ربنا ماء فراتا
إذا ما ذقته ذهب السّقام
فقال الله يا جبريل إنزل
فلو شربوا على ظمأ لناموا
ففجّر.. «زمزما» تروي عطاشا
و«جُرهم» من حواليها قيام
فقالت أمّ اسماعيل «زُمي»
مخافة أن يروح بها الرّغام
فلو تركت مياه العين تجري
لكان النّاس قد غرقوا وعاموا[٢٠]

* وسار الشعراء أشواطا مرحة ريّانة في الإنشاد للمناهل، ومنها منابع «المياه المعدنية» فمن قصيدة «جكسو» لأحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢):

تحيّة شاعر يا ماء جكسو
فليس سواك للأرواح أنس
فتلك مياه دجلة وهي سعد
ولا جُعلت فداءك وهي نحس
وكان النيل يعرس كل عام
وأنت على مدى الأيام عُرس[٢١]

ولم تعدم البلاد العربية من «الشلالات» وبالإسكندرية برز تجمّع شاعري فريد وطريف، أثرى حديقة الشعر بلون رائق ممتع: (كان يزورهم في صالونهم الأدبي العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري، وكان صالونهم هذا حديقة خضراء جميلة في الاسكندرية.. كان ذلك منذ خمسين عاما.. على رأسهم الشاعر عبد الرحمن شكري وعبد اللطيف النشار وعبد الحميد السنوسي وحسن فهمي.. فكأن حدائق الشلالات هذه كانت تشهد رأي العين فرسان مدرسة الدّيوان الشعرية وهم يجتمعون تحت أفنانها وحول خضرتها بثالوثها العقاد والمازني وشكري. وقد كان الشاعر عبد الحميد السنوسي المحامي من أغزر هؤلاء الشعراء إنتاجا وأعذبهم شعرا. ومن وحي غدير الشلالات يقول:

جرت عليك دهور
من بعدهن دهور
وأنت للصّبّ ملهى
وللحزين سمير
كم قبلّك شموس
وقبلّتك بدور
وكم عليك تغنت
بشعرهن الطيور[٢٢]

* إنها لمحاورة سلسة، آثرت الإقتصاد في الكلم رفقا بالغدير الهادىء الحالم، وإفساحاً للبلابل - في هدأة - لتغني تلاحين الشعراء..!

وكم هي الأفكار وضاءة لما تُفجّر من الصخر حين يفجأ الشاعر بهدير شلال مزبد، فتهرع المقارنات، وتتدافع التصورات، وتتصقل التخيلات، وتزكو الطموحات، وتنجلى الرؤى، وتتعرى الجراحات، وتتسع الآمال، وتتوارد الخواطر، وتلتئم المحاكمات.. الشاعر الدكتور محمد عبد غانم أتى شلالات «نياغرا» بأمريكا الشمالية فناجى وانتشى وحلّق.. تأمّل فزفر، وراجع فسخط، ليس حسدا ولا يأسا ولا جحودا، وإنما استنهاضا، وعتابا، وتقويما للوضع، ومطالبة بالحق ومقارعه:

ولو تمّ في عهد الشباب لقاؤنا
لأمست «نياجرا» في فم الشعر تلحينا
وأمسى بها الشلال في كل قطرة
له نغمة ترويه لحنا وتروينا

تدفق «سمفونية» كل دفقة
لها رنّة في القلب نشوى تناجينا
روائح يجلوها الجمال جداولا
من الطود في الأعماق تهوي وترمينا
«نياجرا» كأن لا ريّ في الأرض بعدها
تبقّى بما ينصب من فيضها فينا
نكرنا بها الصحراء في كل ذرة
بكثبانها العطشى مُناد ينادينا
إذا ما دوى في القفر هاجت لصوته
عواصف يهوي الطود فيهن مدفونا
وما ضرّ لو كانت «نياجرا» بأرضنا
وكانت بديل الريّ هذا بوادينا
أنُسلبُ حتى في المياه نصيبنا
ألم يكف أنّا قد سُلبنا فلسطينا
أأنعم بالشلال والقفر قد جرى
دماء وقومي في الدّماء يخوضونا[٢٣]

صحيح أن الشاعر العربي اكتشف الشلال وهو شيخ.. كان اكتشافه لأمريكا متأخرا.. فلو تقدم هذا الاكتشاف لكان الوضع مختلفا.. ربما تكون نغمات سيول القطر لحونا عربية تروي الجميع، وتُرضع السلام والعدل غير المزيفين.. غير أنها لا تفيض إلا في نهرها، وترمينا نحن بشرر كالقصر، فتزداد الضفاف ثراء على ثراء لا يزيد صحارينا إلا عطشا وتصحرا.. القوة الغاشمة تلاحقنا في جردائنا وسباسبنا، وجداولنا الناضبة، فتناصر الثعالب في مزّ نزر مياهنا وتغوير نهيراتنا، وتحرك الدمى المشاغبة لتجعل حصباء قفرنا سابحة في دماء قانية هي دماؤنا نحن .. لا .. لا .. من التنكر والعقوق أن يتجاهل العربي تيه أهله في الرمال، والأوحال المخضبة بالدم المسفوك تناحرا ويبقى هناك سائحا يغازل فتنة شلال نياغرا! ولماذا لا نضع - نياغرا - عربيا قُراحاً بفيافينا!؟.. صحراؤنا تنتظر.. تنتظر منا استفاقة مسؤولة، ومصالحة وطيدة وتوحدا متينا واستصلاحا رشيدا للأرض والعباد، وتنقيبا دؤوبا عن المغمور من الثروات لتخضرّ الرّمال الصفراء، ويصبح «صوتنا» المبحوح، فيها دويا مرهبا للعدو.. صاعقة مطيحة بطود الصهيونية.. ماردا جبّارا يجرس «مياهنا» من الاغتيال والتحويل..! لا تقل: مستحيل تحويل «نياغرا» إلى ربعنا الخالي! ولك في السدين «مأرب» و«العالي» أوعى تحدّ وأكمل انعقاد للإرادة.. البحث العلمي يطوع لنا ذلك ويحققه - بلا ريب - إن صح العزم ورُصد المال.. وشمس سمائنا الحارة نعمة أمدّنا الله تعالى بها، والبحار تحيط بربوعنا البكر الشاسعة، فلم لا تتخذ (شلالات أنهار صناعية) من بحارنا!؟ وإنه لـ (يبدو للوهلة الأولى أن الشمس هي المصدر المنشود للطاقة الذي يفي بكل الشروط المطلوبة، فالطاقة الشمسية نظيفة ومتاحة بكميات هائلة بلا ثمن، إذ إن كمية الطاقة التي تصل من الشمس لسطح الأرض في الساعة الواحدة تكفي لإمداد العالم كله بالطاقة اللازمة لاستعمالات البشر جميعا خلال عام كامل.. فإن أمامهم (أي العرب) فرصة في القرن الحادي والعشرين لتعويض ما فاتهم من خلال تحقيق إنجاز علمي يعود بالخير عليهم وعلى الناس أجمعين، يتمثل في تطوير تكنولوجيا تطويع الطاقة الشمسية لتلبية احتياجات الإنسان العربي وأهمها على الإطلاق إعذاب أو تحلية مياه البحر، فالمنطقة العربية - كما

اسلفنا - في حاجة لكميات ضخمة من الماء العذب لكي تحيل صحراءها إلى جنات خضراء.. وتلبي حاجة سكانها المتزايدة من الغذاء،. ومواردها الطبيعية للمياه العذبة محدودة، وغير مستقرة وغير مأمونة في أحيان كثيرة، وليس هناك من سبيل سوى تطوير طرق اقتصادية لتحلية ماء البحر باستخدام الطاقة الشمسية[٢٤].

لقد تعدّدت ضرورات الماء وطلبات العذب منه في العصر الرّاهن بشكل مُلحّ، إيفاء بمساعدات الاستقرار والصحة وتنمية الأوطان والغذاء.. ولا نعجب من البدوية أمّ حسّانة المرّية حنينها إلى الماء العذب الوفير والميسور استهلاكه و(الوطني) أيضا - إن صحت الكلمة:

أقول لأدنى صاحبي أسرّه
وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه
لعمري لنهيٌ باللّوى نازح القذى
نقيّ النواحي غير طرق مشاربه
بأجرع مجراع كان رجاجه
سخّاب من الكافور والمسك شائبه
أحب إلينا من صهاريج ملّئت
للعبّ فلم تملُح لديّ ملاعبه
فيا حبّذا نجد وطيبُ ترابه
إذا هضبته بالعشي هواضبه
فأقسم لا أنساه ما دمت حيّة
وما دام ليل عن نهار يعاقبه[٢٥]

حبيب إلى النفس ارتواؤها من ماء الوطن القراح، فذلك أحب إليها وأمْرأ من أن تمز شربات معلبة مستوردة.. ولا أعتبر من يهزأ بقائل البيتين إلا ظالما:

ألا هل إلى شمّ الخزامى ونظرة
إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فأشرب من ماء الحجيلاء شربة
يُداوَى بها قبل الممات عليل؟!

أرأيت!؟ لقد جمع الشاعر الذواق الأصيل بين الشرب والشم، فكأن للنّسيم المعطر برائحة العشب المسقي بنفس الماء وقع في تنشيط الشهية والتلذذ وإنعاش القوى.. من هنا يجمل بنا ترشيد سلوكنا الجماعي إزاء المياه: تحكما، وتوفيرا، وحفاظا من التلوث.. فهو مصدر ثرائنا إن تعلمنا كيف نستغله ونصنّعه ونصونه، وإن أوليناه أولى اختياراتنا التنموية كان لنا السلاح السلمي الأنفذ من ترسانات القنابل الذرية، والأسلحة الجرثومية لأنه اليوم من أمتلك «الغذاء» فقد ملك كل شيء، وتلك هي بداية «القوة» المرهبة للعدو.. وذاك رجاؤنا: سطوع شمسنا من جديد بالضوء والماء والتوحيد..!

وصدقت فراسة بدر شاكر السّياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤) في قصيدته التي أبدعها وهو يموت: (وصيّة من محتضر):

(أبناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبه
لا تكفروا نِعَمَ العراق..
خير البلاد سكنتموها بين خضراء وماء،
الشمس نور الله تغمرها بصيف أو شتاء
لا تبتغوا عنها سواها
هي جنّة فحذار من أفعى تدب على ثراها
أنا ميت لا يكذب الموتى، وأكفر بالمعاني
إن كان غير القلب منبعها
فيا ألق النهار
أغمر بعسجدك العراق، فإن من طين العراق
جسدي ومن ماء العراق..)[٢٦]

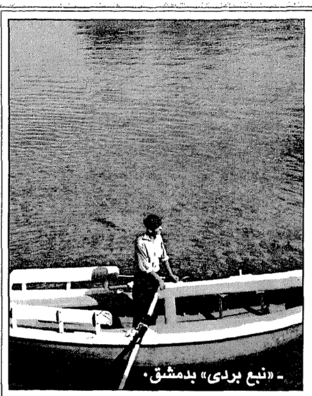
وهاتيكم هي القضايا الجوهرية التي تنتظر شعراءنا للعناق والبوح والتنوير والإهابة، وكما نرى أدبنا غنيا بمغازلة المياه، لكن هذا الغزل تجاوزته هموم العصر إلى تحدّيات مائية أعتى ممّا نتصور، مازال الشعر المعاصر يتهيبها، وسأعرض أطرافا من ذلك في فصل لاحق بإذن الله، ولنبني ثقافة مائية مترشدة قد يستحسن الإبتداء بأدب الطفل الذي كاد يقوم ويرقد ـ في هذا المجال، ومنذ عقود ـ على مثيلات قطعة كرم البستاني:

أنا الماء، أنا الماء
أنا غوث الينابيع
حياة الأرض والناس
ترشّفني الأعلاء
دواء غيرَ مصنوع
فما احتاجوا إلى آس

انحباس .. واستمطار!

وإن لم نتقدم، فالاهوال الداهمة متفاقمة، كما داهمت أفريقيا .. فتناوشها ـ مما يتناوشها ـ الجفاف والتصحر، ونقص التغذية أو فقدانها، وتعاورتها العلل والجهالة ومدُّ اليد استجداء .. لنستمع للشاعر محمد بن بدي يصف وجها من وجوه الطامة:

قد جئت من باطن الصحراء متّشحا
بؤس الصحاري .. وحرب الفقر تحتدم
في قعرفيفاء لا ماء ولا شجر
ولا غذاء ولا إبل ولا غنم
أنّى نظرت، فأكوام ومقبرة
كأن عاداً هنا أو هاهنا إرم
شلو بقايا وعيدان مكسرة
تنعى النبات وموج الرمل يلتطم



ـ «نبع بردى» بدمشق.

نضارة العشب إن زالت وإن نضبت
فلا يجوز هنا أن تنضب القيم
عام الرّمادة في الآذان ضجّتُه
لم يُخف إذ ذاك فيه التّبر والنّعم[٢٧]

أجل، لا يُقبل أن تنضب القيم، كما لا يجوز أن نعادي العلم (العقيدي والتجريبي) .. علينا أن نجمع بين حرارة الصدق الصادق في اقامة (الاستسقاء)[٢٨] وفي الأوبة إلى المنهج القيّم، وبين جدية التوجه للبحوث المائية في صحرائنا تحت شمسها الكاوية وبعلمائنا وأموالنا .. ولا شك أن الله تبارك سيكرمنا بالقطر العذب، من السماء ومن تحت أرجلنا ومن حولنا .. ولنعد إلى الشعر .. فهذا محمد بن علي الضمدي ينشد بعد أن أمّ العطاشى عام ٩٧٣هـ ١٥٦٥م:

إن مسّنا الضّرّ أو ضاقت بنا الحيل
فلن يخيب لنا في ربّنا أمل
وإن أناخت بنا البلوى فإنّ لنا
ربّا يحوّلها عنّا فتنتقل

الله في كل خطب حسبنا وكفى
إليه نرفع شكوانا ونبتهل
فاشمل عبادك بالخيرات إنهم
على الضرورة والشكوى قد اشتملوا
واسق البلاد بغيث مسبل غدق
مبارك مرجحن مزنه هطل[29]

* وهاته أبيات من استغاثة يرددها الصّفاقسيّون عند اشتداد القحط، من قصيدة لمحمد المراكشي (ت/١١٤١هـ)

يا واسع الجود والإحسان والكرم
عجّل بغيث بجاه البيت والحرم
واصرف إلينا سحابا واسعا غدقا
يا من يجيب دعا المضطرفي الظُّلم
اشتدّ الخناق وضاق الذّرع وانهملت
دموع أعيننا من شدّة السقم
إنّ العباد لفي جهد وفي ظمأ
وفي غلاء وفي بؤس وفي نقم[30]

* ويشارك أبو الحسن الغراب الصّفاقسي (ت١١٨٣هـ) شعبه في الألم والتضرّع:

يا من له المشتكى! يا راحم المهج!
عجّل لنا بنزول الغيث والفرج
وأسق البلاد وارو الأرض من ظمأ
بماء مُزن على الآفاق مُنتسج
واكسها حُلل الأنوار ضافية
خضرا مبّجة من نوّر البهج
حتى يُرى وجهها الزاهي بزهرته
في بهجة بدلا من وجهها العسج
ويُصبح البّر من صوب الغمام يُرى
كأنّه البحرُ بالأمواج في لجج[31]

* على أن الاستغاثة على الألسن في كل حين، يؤججها الحب والحنين إلى الديار واستزادة الرحمة والسلام، ومن منّا لا يردد ابتهالة القائل؟

جادك الغيث إذا الغيث همى
وطن الأجداد يا خير الحمى؟

* ويقول محمد بن شرف (ت٤٦٠هـ) في القيروان:

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذي
زكت فيه أغصان وطابت مغارس
تغنّى عليها الطير وهي رطيبة
وغنّى عليها النّاس والعود يابس

* وأفصح أبو الحسن الحصري المتوفّى بعد ابن شرف بعشرين عاما بقوله:

ألا سقى الله أرض القيروان حيًّا
كأنه عبراتي المستهلاتُ
فإنها لدةُ الجنّات، تُربتها
مسكيةَ، وحصاها جوهريات

* وينبري الإمام الشافعي يبلّ الرّحم بالشّوق إلى غزّة مسقط رأسه:

سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها
كحّلت به من شدة الشوق أجفاني

* «سُقيا لمصر» تلك ابتهالة الصّفدي (ق١٤م) لأرض الكنانة:

سقيا لمصر وما حوت
من أنسها وأناسها
ومحاسن في نفسها
تبدو وفي مقياسها[32]

ومن دلالات المطر في الشعر المعاصر:

وردت كلمة «المطر» في القرآن العظيم للدلالة على أكثر من وجه: مطر الغيث، مطر السوْء، مطر العذاب.. وفي السنة: «اللهم جللنا سحابا كثيفا/ قصيفا دلوقا ضحوكا/ تُمطرنا منه رذاذا:/ قطقطاء سجلا/ ياذا الإجلال

والإكرام».

وفي القرآن، قال الله تعالى: {وأمطرنا عليهم مطرا، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} (الأعراف/٨٤) وقال سبحانه: {ولقد أتوا على القرية التي أمطرتْ مطر السَّوْء} (الفرقان/٤٠) ووضع كفّار قريش الحجارة موضع المطر، حكى الله تبارك طلبهم: {فأمْطِر علينا حجارة من السّماء} (الأنفال/٣٢).

لذلك ـ كما أردت أن أقول ـ فتّق الشعر العربي الحديث من قابلية المصطلح للتّوليد، دلالات أضفت على القصيدة رواء مجنحا ابتعد بها عن الخطابية المباشرة، ونبضت المعاني نبضا في قلب الكلمات لتحدث صراعا داخليا يفتضح الزيف، ويمجّ السراب، ويندد بالعوج.. أحيانا يبدو هذا التحليق في خصومة مع المعتاد، غير أنه أضحى «ممارسة» شعرية على الساحة الأدبية.. الشاعرة ملك عبد العزيز في قصيدتها (أغنية للمطر) تعاني من قسوة الحصار وويلات العدوان الصهيوني الأمبريالي، فاستسقت المطر.. استسقت رياح النّصر.. استسقت السلام تأسّيا بمطر بدر:

(نرذر على شفتي الندى
ذاب الظلام..
يا فجر رطّب مقلتيّ!
سكّن التراب...
ونشقت في النسمات ريحا من مطر!
واد بعيد...
قد بلّت الأدواح فيه وغُسّلت سُدُف الزهور..
تاق الفؤاد!
ورفعت وجهي.. لو يبلله المطر!
....
....
روح السلام
رقّت على قلبي بريحك يا مطر!)[٣٣]

ويعود بنا سليمان العيسى إلى القصيدة الخيّرة: «وتتابع المطر» فيستخدم «المطر» بدلالة «الثورة المباركة» وهذا جميل وشجي، فاستفاقة الثائر وحماسته النضالية، وصموده في الكفاح، وإشراقة إرادته الفولاذية.. كل ذلك من ندى سحب الغيث الذي يهز الأرض الخاشعة اليابسة الجامدة المغبرة المدنسة، فيطهرها ويحرّر المحتضرين:

.. ولحت لألأة ابتسامه
كندى غمامه ... كشموخ هامه
وانساب صوت الثائر العربي في مسمعي هديرا
تخفيه أودية سحيقه
وهبته رهبته العميقه
.. وكأن مزنه
غمرت بدفقتها الثرى العطشان
مذ حقب سحيقه
دوّت كذلك صيحة التحرير في الأرض العريقة
وتتابع المطر
وتنفّس السحر..)[٣٤]

هذا الترميز الذي يؤثره (الشاعر المعاصر في تعامله الشعري مع عناصر الطبيعة، إنما يرتفع باللفظة الدالة على العنصر الطبيعي، كلفظة المطر مثلا، من مدلولها المعروف إلى مستوى الرمز، لأنه يحاول من خلال رؤيته الشعورية أن يشحن اللفظ بمدلولات شعرية خاصة وجديدة)[٣٥].

وأكاد أجزم أن بدر شاكر السياب هو أكثر

شعراء العصر وأوفقهم إلى وضع «المطر» مواضع رمزية أعطت نصه الشعري حلة باهرة ومضمونا أبهر.. من ذلك لجوؤه - عن اختيار وقائي له مبرّراته - إلى تضمين دلالة «الثورة» في طيات مصطلح «المطر» فكما كتب الأستاذ عبد الرّضا علي: (في مرحلة الحكم الملكي الإقطاعي في العراق صوّرت قصائد المطر حالة الضير والقهر الذي كانت تعانيه جماهير الشعب العراقي متمثلة في كادحيه وفلاحيه، وربط بين المطر وبين جوع العراق الدّائم..

أكاد أسمع العراق يذّخر الرّعود
ويخزن البروق في السهول والجبال
حتى إذا ما فض عنها ختمها الرجال
لم تترك الرّياح من ثمود
في الواد من أثر،
أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف، وبالقلوع،

عواصف الخليج، والرّعود، منشدين:

« مطر..
مطر...
مطر...

وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول.. حولها بشر
مطر...
مطر...
......

ومنذ أن كنّا صغارا، كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر
وكل عام حين يعشب الثرى - نجوع
ما مرّ عام والعراق ليس فيه جوع
مطر...
مطر...
مطر...
...

سيعشب العراق بالمطر..»[٣٦]

«**للبحث صلة**»

الهوامش:

(١) منى، الغول والرّجام: مواضع، الوّحي: الكتابة، السلام: الحجارة الرقيقة، مرابيع النجوم: الأمطار الأولى.

(٢) مجلة الفكر س ١٩ ع٥ فبراير ١٩٧٤ ص٩٠ ووادي بيّاش يشق مدينة قفصة بوسط تونس، ينبع من الجزائر ويصب بشط الغرسة من صحراء تونس.

(٣) محمد الأغنج - مجلة الفكر س٢٨ ع٣ ديسمبر ١٩٨٢ ص٢٦.

(٤) مجلة «دعوة الحق» المغربية. س٢٠ ع٩ شوال ١٣٩٩ سبتمبر ٧٩ ص٦٢.

(٥) ابن دينار عاش في القرن الحادي عشر الهجري - المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس - له، وتحقيق محمد شمام المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٧.

(٦) ديوان الورغي ص ٢٢٨ تحقيق عبد العزيز الفيزاني الدار التونسية للنشر ١٩٧٥.

(٧) محمد الخضر حسين - ديوانه: خواطر الحياة ط٣ عام ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ص٢٥٤ وبالهامش خطأ: زغوان: نهر بتونس، والصواب أنها مدينة جبلية قريبة من العاصمة بها مياه عذبة وفيرة، يشرب منها أهلها وسكان العاصمة ومنهم الشاعر الذي انتقل منها إلى سوريا فمصر حيث تولى مشيخة الجامع الأزهر. ولد بنفطة - جنوب تونس - عام ١٢٩٣هـ ١٨٧٣م وتوفي بالقاهرة عام ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م

(٨) المدينة الإسلامية ، د/محمد عبد الستار عثمان - سلسلة عالم المعرفة ١٢٨ ذو الحجة ١٤٠٨ أغسطس ١٩٨٨م ص٣٠.

(٩) نفسه ص ٢٧٢ غير أنه أخطأ لمّا نسب للفاطميين قناطر بالقيروان، إذ الأغالبة (٨٤هـ - ٢٩٦م) هم الذين أنشئوا فسقيات عظيمة، يأتيها السوّاح اليوم.

(١٠) العبر لابن خلدون ج٦ ص٦٠.

(١١) المؤنس ص١٣٥ وانظر الفارسية لابن قنفذ ص١٢٧ وتغني الشعراء بهذا الصرف والبستان السلطاني بأريانه يقول صاحب المؤنس ص٢٣ «وهذه الحنايا من أعجوبة الدنيا وإذا افتخر المصريون بالأهرام تفتخر أهل أفريقية (تونس) بهذه الحنايا على مصر٠٠ وكانت من أوّلها إلى آخرها محفوفة بالبساتين والمياه جارية بينها» وبقاياها قائمة إلى اليوم. أما بستان أبي فهر فبه جابية «بحيرة» تسبح بها القوارب، وبإتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف ج١ ص١٦١: (ومدحه حازم على ذلك بقصيدته الشهيرة، وشرحها الشريف الغرناطي بشرحه المعروف) وحازم هو أبو الحسن حازم الغرناطي القرطاجني توفي بتونس سنة ٦٨٤هـ. ومن قصيدته:

أجريت من عين ومن عين بها ... عينين قد عمّا البرايا والبرى

(١٢) الكتاب الباشي للوزير ابن عبد العزيز (ت ١٢٠٢ - ١٧٨٨) ص٣٢٣ ويقول وكأنه عارض بهذه القصيدة قصيدة عامر بن هشام القرطبي ٠٠ وذكر فيها المنتزهات القرطبية وتسمى عند أهل الأندلس «كنز الأدب».

(١٣) مجلة الفكر س١٨ ع٨ مايو ١٩٧٣ قصيد: وحنّت للقياكم حنايا وأضلع، وعوضت الحنايا لجلب ماء زغوان أنابيبُ معدنية.

(١٤) تاريخ صفاقس - أبو بكر عبد الكافي ج١ ص١٩٢ عام ١٩٦٦م والناصرية نسبة لـ (محمد الناصر بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي في سنة ٦٠١هـ٠٠ شاهد ما يعانيه السكان من قلة الماء والعطش وأمر ببناء مصانع لطيفة خارج المدينة لخزن مياه الأمطار) ص١٩٥.

(١٥) مجلة العربي ع٣٠٨ شوال ١٤٠٤هـ يوليو ١٩٨٤ ص١٦١ أسبلة القاهرة - جمال الغيطاني.

(١٦) ديوان الورغي ص٢٩٥.

(١٧) أحفافها: جوانبها. طما: علا وارتفع اليابا: الترس.

(١٨) مجلة العربي ع ٣١٤ ربيع الآخر ١٤٠٥هـ يناير ١٩٨٥ ص٢٢٢.

(١٩) مجلة الوعي الإسلامي ع٣٠٠ ذو الحجة ١٤٠٩ يوليو ١٩٨٩ (ماء زمزم)

(٢٠) مجلة المنهل. ذو القعدة ١٤١٥ أبريل ١٩٩٥ ص١٨

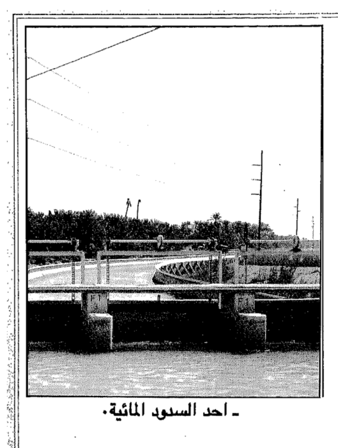
(٢١) مجلة العربي ع١٣٣ شوال ١٣٨٩ ديسمبر ١٩٦٩ ص٦٠ الطبيعة ضاحكة وغاضبة في شعر شوقي، صالح جودت ، وماء جكسو - أي ماء السماء - ماء بالأستانة.

(٢٢) مجلة الهلال ، فبراير ١٩٨٤ ص١٣٠ جماعة شعراء الشلالات السكندرية، شوقي بدر يوسف.

(٢٣) مجلة العربي ع٢٤٥ جمادى الأولى ١٣٩٩ أبريل ١٩٧٩ ص١٣٨.

(٢٤) مجلة العربي ع٤٤٥ ديسمبر ١٩٩٥ ص٣٠ و٣١ ، العرب وأزمة الماء د/ أمين حامد مشعل - مدير مكتب اليونسكو لدى الدول العربية بالخليج.

(٢٥) النهي: الغدير. الطرق: الذي بالت فيه الدّواب، سخاب: قلادة . هضبته: مطرته مطرا شديدا.



- احد السدود المائية.

(٢٦) ديوان بدر شاكر السيّاب ص٢٨٢.

(٢٧) مجلة الأمة ع٧١ س٦ ، ذو القعدة ١٤٠٦ يوليو ١٩٨٦ ص٥٩.

(٢٨) انظر دراستي بمجلة الخيرية - الكويت - س٥ ع٤٥ شعبان ١٤١٤ يناير ١٩٩٤ الإستسقاء بين غائلة الجاهلية واغتيال التحديث.

(٢٩) مجلة الفيصل - ع٢٢٣، المحرم ١٤١٦ يونيو ١٩٩٥ ص٦٢ - من شعر الاستسقاء بتهامة، د/عبد الله أبو داهش.

(٣٠) تاريخ صفاقس ج١ ص١٩٧.

(٣١) ديوان علي الغراب - تحقيق محمد الهادي المطوي وعمر بن سالم ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٣ ص٣٤.

(٣٢) المقس: موقع على النيل، كان يجلس فيه قابض المكوس.

(٣٣) مجلة الفكر س٨ ع٢ نوفمبر ١٩٦٢ ص٤٣.

(٣٤) مجلة العربي ع٤٥ ربيع الأول ١٣٨٢ أغسطس ١٩٦٢ ص٤١ ، يقول بالتقديم «كان ذلك حين التقى الشاعر بممثل جبهة التحرير الجزائرية بحلب في صباح الثالث من يونيه ١٩٦١».

(٣٥) الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، د/ عز الدين إسماعيل ص٢١٩.

(٣٦) مجلة الأقلام ع٣ س١٣ ديسمبر ١٩٧٧ ص٧: المطر والميلاد والموت في شعر السيّاب وهي دراسة وفية ترتب تعامل بدر الرمزي مع المطر هكذا: أ = أصل الحياة... ب = الثورة، ج = صنو الدم٠٠ د = البعث والحياة.

جنيّ آخر أخرج من القمقم:

تلوث بيئي جديد

تزخر الأرض ـ التي منحها الله سبحانه وتعالى للبشر ليعمروها وينعموا فيها ـ بالعديد من المشاكل الكبيرة التي يكاد يخرج قسم منها من سيطرة الانسان بسبب ما سببته يده من تلوث بيئي. وأصبح يطلق على كل مشكلة جديدة تبرز بأنها «جني جديد» أخرجه الانسان من القمقم، ويبرز السؤال المحير: هل سيتمكن الانسان من إعادته بالحيلة أو غيرها قبل فوات الأوان وبعد جهد جهيد؟ فلم تعد مصادر الطاقة والتفجيرات النووية التجريبية هي المسبب الرئيس للتلوث فقد تدخل الانسان باسم العلم في طبيعة الحيوانات،

بقلم: أ.د.
شذى سلمان الدركزلي ـ
بريطانيا



«البقرة المجنونة»

التي سخرها الباريء عز وجل للانسان، فغيرٌ ما تأكل بغية الحصول على المزيد من فوائدها فإذا هذا الجشع ينقلب عليه بخسائر تصل البلايين مالا، ومستقبلا مجهولا لعدد غير معروف من الاصابات بأمراض تظهر لاول مرة في تاريخ البشرية.

في بداية الاسبوع الأخير من شهر آذار (مارس) ١٩٩٦م أعلنت الجهات الصحية في بريطانيا عن وفاة عشر بريطانيين بالمرض المسمى كرويتزفيلد - ياكوب Creutzfeldt - Jakob Disease (CJD) خلال الاشهر الماضية وتوقع وفاة الالاف في السنوات القادمة بهذا المرض الذي يرتبط بمرض يصيب الابقار، ومرض كرويتسفيلد - ياكوب هو مرض مُميت يعتقد انه يصل الى الانسان عن طريق الابقار المريضة بأكله للحومها الملوثة. وسببت حالات الوفيات هذه رعبا شديدا بين السكان وهبطت مبيعات لحوم

مرض الدماغ الاسفنجي البقري تحول للانسان

الابقار ومشتقاتها من الاكل الجاهز في الاسواق المحلية، حتى أن بائعي اللحوم أصبحوا يكتبون على بضاعتهم أما بأن مصدرها من خارج البلاد أو بأنها من مراع تستخدم العلف الطبيعي الذي لا يخلط به أي منتجات حيوانية، والذي يعتقد بأنه سبب المرض، ليضمنوا البيع.

من سخريات القدر ان بريطانيا احتفلت في الاسبوع الأخير من شهر آذار (مارس) باسبوع العِلْم، الذي تميز بآلاف الاحداث والمعارض العلمية، وفي هذا الاسبوع تفتح عادة الجامعات أبوابها لطلبة الثانويات خاصة بالاضافة الى عموم الناس لزيارة مختبراتها ولتبيان أهمية العلم في حياة الناس عموماً وتشجيع الاحداث على الاهتمام بالعلوم واختيارها لمستقبلهم الدراسي. وفي منتصف اسبوع العلم فوجيء الناس باعلان الاصابات العشرة الجديدة بمرض كرتزفيلد - ياكوب الذي هو من انتاج أيدي العلماء! وبعد مرور اسابيع قليلة ظهر خصام علني شديد بين السياسيين البريطانيين والعلماء المختصين بالموضوع، فالسياسيون يدّعون أنهم اتبعوا تقارير العلماء وتوصياتهم، والعلماء ينفون ذلك، يقول «ريتشارد ساوث وود» كبير مستشاري الحكومة، المختص في علم الحيوان في جامعة اوكسفورد ورئيس اللجنة الرسمية التي شُكّلت لدراسة المشكلة في حزيران ١٩٨٨، ان توصيات اللجنة لم تلق الأذن الصاغية وقوبلت بالتجهم من قبل مسؤولي الحكومة في وزارة الزراعة والاسماك والغذاء البريطانية.

إن أول خطأ ارتكبته الحكومة، برأي ساوث وود، هو تأخير تشكيل اللجنة سنتين بعد اكتشاف المرض لاول مرة في عام ١٩٨٦. كما ان تقرير اللجنة، الذي صدر في نهاية عام ١٩٨٩، أصر على المنع الدائم لعرض بعض اعضاء البقر للإستهلاك البشري، مثل المخ والنخاع الشوكي بسبب ارتفاع احتمالية تركز التلوث فيها، بينما كانت الحكومة تريد المنع لمدة سنة واحدة لان المنع الدائم يشكل ثقلا مادياً عليها بسبب تعويضها المزارعين لكل ما يستجد من قوانين تصدرها، واقترحت اللجنة تعويض المزارعين بالكامل عن الحيوانات المصابة التي يتم إتلافها بعد اكتشاف الاصابة، لكي لا يخفي بعض المزارعين حالات الاصابات عندهم ويسوّقوا الحيوانات المصابة بدلا من إتلافها، وهو ما حدث فعلا فقد اعترف وزير حكومي بأن خطة التعويض الشحيحة (٥٠٪ فقط) أدت الى تسرب أبقار مريضة الى الاستهلاك البشري، فقد أدين أحد المزارعين بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٩٦ وغُرّم بعشرة آلاف جنيه استرليني بسبب ارتكابه

«مليار دولار» أنفقته احدى الشركات الكبرى في بحوث التغذية .. وكانت نتيجته جنون البقر

لهذه الجريمة، ولكن ساوث وود يعترف بانهم أخطأوا عندما اعتبروا احتمالية اصابة البشر بالعدوى ضئيلة جدا وهو ما تمسك به السياسيون منذ عام ١٩٨٩ وحتى الضجة الاخيرة. وشكّلت عام ١٩٩٠ لجنة اخرى للمراقبة الدائمة لمرض CJD وتغير أعداد المصابين للتأكد من ترابطه مع المرض البقري، فكان رئيس هذه اللجنة، «روب ويل» في أدنبرة، أول من أطلق صافرة الانذار في أوائل شهر مارس معلناً الحالات العشرة. فاستلمت الانذار الاوساط الصحفية لتملأ به الصفحات والبرامج عارضة الموضوع بطرق عديدة زادت من خوف عموم الناس وهلعهم مما يحدث.

كارثة لحوم البقر:

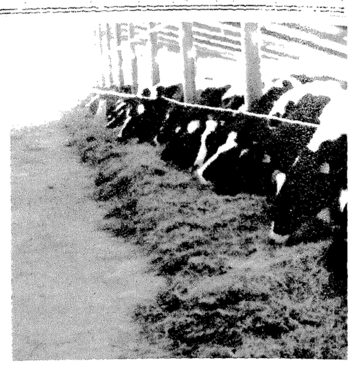
إن سبب كارثة لحوم البقر هذه يعود الى إطعام البقر (الذي يقتات عادة على الحشائش والمواد النباتية) مواداً مفرومة من أحشاء أجسام أبقار وخراف ميتة لغرض زيادة كمية هرمون bovine somatrophin السوماتروفين (النمو الجسدي) البقري فيها، وذلك لكي يزداد إدرار الحليب بنسبة تتراوح بين ١٠ الى ٢٠٪ فقط. لقد صرفت الشركة الامريكية العملاقة Monsato Corporation على بحوث هرمون النمو هذا ما بين بليون (أي ألف مليون) الى بليونين من الدولارات. وبعد استخدامه بسنين ظهرت على الابقار المسكينة أعراض مرض يصيب خلايا جهازها العصبي مسبباً فقدان البقرة قدرتها على الوقوف بثبات، واسم المرض العلمي هو bovine spongiform encyphalopathy (BSE) (مرض الدماغ الاسفنجي البقري) ويطلق عليه في أوساط المزارعين والعامة اسماً آخر هو مرض البقرة المجنونة mad cow disease لان البقرة بالاضافة الى فقدانها القدرة على التوازن والوقوف بثبات على أرجلها، تكتسب تصرفات عدوانية كمهاجمة البشر مثلا قبل قضاء المرض عليها. ولا تظهر أعراض المرض على البقرة إلا بعد مرور مدة طويلة من اكتسابها له حيث تصل فترة حضانة المرض في البقر الى حوالي أربع سنوات. فإذا ذُبحت البقرة قبل تشخيص المرض فيها واستهلك الانسان لحمها، وخصوصا المخ والنخاع، اصيب الانسان بمرض مميت مشابه لما يصيب البقرة، وإن كانت مدة حضانته في الانسان تقارب العشر سنوات قبل ظهور الاعراض المرضية، وسُمي المرض البشري باسم طبيب النفس الالماني هانز غيرهارد كرويتسفيلد Hans Gerh-



٢ مليـــار دولار كلفة اعدام البقر المـريـض في بــريـطـانـيــا

ard Creutzfeldt (١٨٨٥ ـ ١٩٦٤م)، والمريض ياكوب الذي اصيب بالمرض. ولم تُكتشف العلاقة بين المرضين إلا في عام ١٩٨٩م وعند ذاك مُنع في بريطانيا عرض بعض اجزاء الحيوانات للاستهلاك البشري مثل المخ والنخاع الشوكي، ولكن بعد أن انتشر المرض في قطعان البقر وظهر مؤخراً بشكل واضح في زيادة عدد الاصابات بين البشر. والتشابه الاساسي الذي يعتمده العلماء لاثبات العلاقة بين المرضين، بالاضافة الى تشابه الاعراض، هو وجود فراغات في خلايا نسيج الدماغ للبقرات المصابة والبشر المصابين مشابه للفراغات في الاسفنج ومنها جاء اسم المرض البقري.

ولما كانت بريطانيا تصدّر الى معظم دول اوربا والكثير من دول العالم لحوم البقر بالاضافة الى ابقار حية وعجول وبكميات كبيرة، فقد أدى اكتشاف الاصابات الجديدة الى مقاطعة دول العالم كافة استيراد لحوم البقر من بريطانيا، وشكل الاتحاد الاوربي هيئة دولية لتفتيش المزارع الخاصة بتربية أبقار في بريطانيا للتأكد من إتمام عملية اتلاف الابقار المريضة ذبحا وحرقاً ، منعاً لتسرب المرض عن طريق قنوات اخرى الى القطعان السليمة، وقد



تصل كلفة تنظيف قطعان البقر في بريطانيا من هذا المرض بين بليـون وبليـوني دولار أمريكي، وبعد جدال وخصام بين الدول الاوربية وبريطانيا التي تطالب بتعويض من الدول الاوربية لما ستخسره من ثروة هائلة، اعلن في فرنسا عن تشخيص حالة المرض عند رجل يبلغ السابعة والعشرين من عمره مما زاد الطين بلة. ولكن الاتفاق بين بريطانيا والدول الاوربية المشتركة بمعاهدات عديدة، لا يزال بعيد المدى فكل جهة تبحث عن أكبر فائدة وأقل خسارة. كما أن الكثير من العوامل الاقتصادية تلعب دوراً هاماً في القرارات الصادرة.

الوباء وتاريخه بالأرقام:

عند استرجاع تاريخ هذا المرض نجد أنه اكتُشف عام ١٩٨٦ حين سجلت أول سبع عشرة إصابة في البقر في بريطانيا ثم ارتفعت الى ٤٨٦ في العام الذي يليه واستمرت الزيادة السريعة لتصل أقصاها عام ١٩٩٢ ثم بدأت بالانخفاض البطيء، فقد هبط العدد من حوالي ٧٠٠ بقرة في الاسبوع عام ١٩٩٢ الى ٧٠ بقرة في الاسبوع في الربع الاول من عام ١٩٩٦، ويوضح الجدول (١) تغيير أعداد الاصابات في البقر خلال عشر سنوات، وقد وصل مجموع الاصابات الى حوالي ١٦٠٠٠٠ بقرة من حوالي ٣٣٣٠٠ مزرعة في بريطانيا خلال عشر سنوات. ويجري إتلاف البقر المريض، بعد ظهور أعراض المرض عليه، وحرقه لمنع انتقال المرض عن طريق قنوات اخرى الى البشر. ولغرض إتلاف ملايين البقر التي يزيد عمرها على سنة ونصف والمشكوك في اكتسابها للمرض ، يخطط في بريطانيا الآن مشروع تجهيز الوسائل اللازمة لإتلاف ١٥٠٠٠ بقرة اسبوعياً، حتى التي لم تظهر عليها أعراض المرض، لغرض القضاء المبكر على امكانية نقل المرض الى القطعان السليمة. ويواجه هذا المقترح معارضة شديدة من الحكومة البريطانية لما سيسببه ذلك من نزيف مادي يثقل كاهل الحكومة المقبلة على انتخابات عامة فى العام القادم. ومن المعروف أن الحكومات تتفادى أية اضافة للضرائب، عند اقتراب موعد الانتخابات، لكي لا تسبب نفورا بين عموم الناس فيحجموا عن الادلاء باصواتهم لصالحها. وفضلت الحكومة استبدال تعويض المزارعين بتشديد المراقبة على المذابح باتباع القواعد المشددة بفصل الأجزاء الممنوع عرضها للاستهلاك البشري

من الاختـلاط بالمواد الاخرى وغيـر ذلك من وسائل العناية الصحية.

جدول (١): عدد إصابات البقر خلال عشرَ سنوات في بريطانيا:

السنة	عدد اصابات البقر
١٩٨٦	١٧
١٩٨٧	٤٨٦
١٩٨٨	١٥٠٠
١٩٨٩	٦٠٠٠
١٩٩٠	١٥٠٠٠
١٩٩١	٢٢٠٠٠
١٩٩٢	٣٧٠٠٠
١٩٩٣	٣٤٠٠٠
١٩٩٤	٢٥٠٠٠
١٩٩٥	١٣٠٠٠
المجموع	١٥٨٨٨٣

وظهـر مـؤخـراً تغـيـر نوعي وكـمي على المصـابين بمرض كـرويتـسـفـيلد ـ ياكـوب من البشـر، فقد كـان يُعرف عن هذا المرض بأنه يصـيب كبـار العـمر بمعدل عـمر المصـاب ٦٣ سنة. أمـا المجموعة الجديدة التي ظـهرت عليها أعراض المرض مؤخراً فتتراوح أعمـارهم بين ١٨ الى ٤١ وبمعدل ٢٧ سنة، مما يدل على ان اكتسـاب المرض لم يعد مقتصرا على كبـار العمر بل بدأ يشمل الصـغار أيضـاً. وبعكس كبـار السن، الذين تبدأ عليهم أعراض النسيان والتصـرفـات الغـريبـة ثم تتطور الى فـقـدان السـيطرة على الحـركة والمشي، فـان صـغـار العمر تبدأ عليهم أعراض الكآبة والتوتر والقلق قبل فقدان السيطرة على العضلات والحركة. كما ان تقدم المرض يكون بطيئاً عند الصـغار فيستمر بمعدل ١٣ شـهراً، مقارنة مع معدل ستـة أشـهـر عند الكبـار في السن، قـبل وفـاة المريض، وارتفع عـدد الاصـابات من ١٢ (فى عام ١٩٧٨) الى خمسين (في عام ١٩٩٤). ولم تكتـشف العـلاقـة بين مـرض البـقـر ومـرض كرويتسـفيلد ـ ياكوب الا في الثمـانينيات ولا تزال النقاشات مستمرة بين العلماء عن صحة هذه العلاقة. ويعتقد روب ويل وزملاؤه في لجنة متابعة المرض أن المصابين العشرة لهذا العام هم أول مصـابين حقيقيين بالمرض وذلك لتميز خـلايا الدمـا غ عندهم بوجـود عـدد كـبـيـر من الالياف البروتينية المتراكمة في الدما غ.

جـدول (٢): عـدد الوفـيـات بين البـشـر من مرض كرويتسفيلد ـ ياكوب في انجلترا وويلز.

السنة	عدد الوفيات
١٩٧٨	١٢
١٩٨٠	٢١
١٩٨٤	٣١
١٩٨٧	١٨
١٩٩٠	٢٩
١٩٩٢	٤٣
١٩٩٣	٣٢
١٩٩٤	٥٠

ومن غـرائب هذا المرض كـمـا يصـفـه «بروزينر»، أستـاذ علم الاعصـاب والكيـميـاء

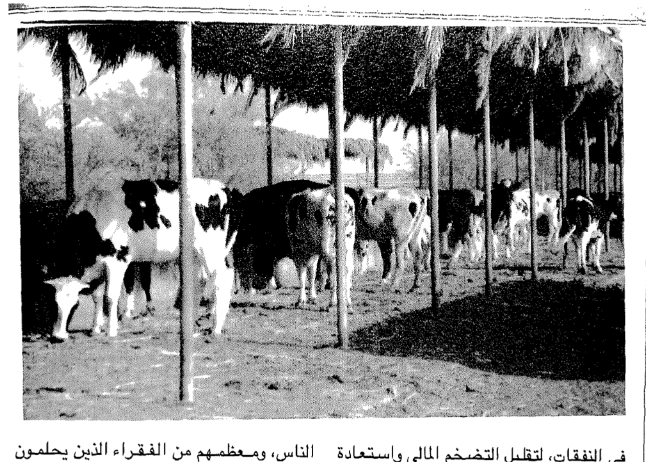
ملايين البقر البريطاني معرض للاعدام

الحيوية في كلية طب جامعة كاليفورنيا في لوس انجلس (في أمريكا) والمهتم بالمرض منذ السبعينيات، هو تشابه اعراضه مع اعراض مرض وراثي يظهر بين قبائل بدائية من آكلي لحوم البشر الذين يعيشون في مرتفعات باباو في غينيا الجديدة وشمال شرق استراليا وشرق اندونسيا ، وقد توقف هؤلاء عن تلك العادة منذ عام ١٩٥٨، وشخصت بينهم ٢٦٠٠ حالة مرضية منذ عام ١٩٥٧، التي تتميز أعراضها بفقدان التوازن ثم الجنون فالموت، وهو مرض لا يسببه فيروس ولا بكتريا ولا فطريات ويصيب بروتين الخلية وينتقل وراثياً، وأسمى بروزاينر مسبب المرض بالبريون والتي تمثل اختصاراً للكلمات (Proteinaceous infectious particles) ويعتقد أن البريون يسبب أمراضاً عديدة اخرى تصيب كبار العمر مثل مرضي التسهايمر ، وباركنسون والتي يستعصي على الطب المعاصر معرفة أسبابها وعلاجها.

ويعتقد غاريث روبرتس ، المختص في التحليل المرضي للاعصاب (neuropathologist) في إحدى شركات الادوية في بريطانيا، أن العديد من الحالات التي شخصت على انها مرض التسهايمر هي في الحقيقة مرض كرويتسفيلد - ياكوب. كما أنه ينتقد الكثير من الأطباء المختصين في الامراض النفسية والذين يوقعون شهادة وفاة المريض دون المطالبة بالتحليلات المرضية اللازمة لمعرفة سبب الوفاة. ولا تزال التخمينات للاصابات القادمة في بريطانيا تتراوح من بضعة إصابات الى وباء يشمل نصف السكان، فمتابعة ظهور الاصابات خلال الاشهر الستة القادمة ستكون المؤشر الحاسم للمستقبل.

أيها الانسان الى أين؟

لن يكون غريباً أن يكتشف بعد حين أن أسباب هذه الأمراض الغريبة والمتنوعة التى ميزت الربع الأخير من القرن العشرين هو التلاعب المستمر بالتوازن الطبيعي في العديد من الأمور الحياتية للانسان مثل مبيدات الحشرات النباتية والمعقمات ومنشطات النمو في الحيوانات والتلاعب الجيني (أي في الجينات - المورثات)، والعواقب الوخيمة لكل ذلك لا تظهر إلا بعد مرور العديد من السنين واستفحال الخلل الذي يصعب علاجه بعد ذلك، وربما يبقى الانسان جاهلا بما فعلت يداه ويبقى يتخبط مثل البقرة المسكينة المصابة بمرض BSE، بسبب الغذاء الملوث الذي قدمته يد الانسان اليها، لا يدري أين يتجه لانقاذ ذريته القادمة من هذه الأمراض الوبيلة المستعصية. خصوصاً وان الذين بيدهم اتخاذ القرار يحكمون على الامر من المنظور المادي والآني بصورة اساسية. فقد أصبح الاقتصاد



تدخَّل الانسان في نسيج التكوين الإلهي للأشياء فأضاع نفسه والآخرين

في النفقات، لتقليل التضخم المالي واستعادة التوازن الاقتصادي ، ينصب بصورة رئيسية على أمور تمس حياة الانسان وصحته.

وفي المقال الافتتاحي لعدد مجلة نيو ساينتست (البريطانية) لمنتصف أبريل ١٩٩٦م تعرضت الحكومة البريطانية لهجوم ساخر من محرز المجلة بسبب تخبطها في اجراءاتها وتقليلها من خطورة الامر، وقورن ذلك مع التشجيع على شراء أوراق اليانصيب. فقد اقرت الحكومة اليانصيب الاسبوعي (اللوتري) لغرض سحب أكبر كمية من الاموال من عموم الناس، ومعظمهم من الفقراء الذين يحلمون بالثروة الموعودة باحتمال الربح بالجائزة الكبرى (جاك بوت). واحتمالية الفوز بالجائزة الكبرى هي واحد من ١٤ مليون، ويتميز الاعلان الدائم لهذا اليانصيب بجملة: ربما ستكون أنت الفائز. ولذلك تتساءل المجلة لماذا تصر الحكومة على ضآلة احتمالية الاصابة بمرض CJD بينما تشجع على اللوتري، مع ان احتمالية الاول هي واحد بالمليون، أي أعلى أربع عشرة مرة من الثاني؟ كما ان المجلة تتهم الحكومة بعدم دراستها المشكلة بصورة جدية حين بدأ

الكآبة والتوتر، النسيان، عدم السيطرة على العضلات والحركة.. اعراض هذا المرض الغريب

ظهورها عام ١٩٨٦م ولم تخطط لأسوأ الاحتمالات استعداداً لما ظهر بعد عشر سنوات من ذلك.

ويبدو أن الحالة الصحية عموماً لم تعد كما يتوقع المرء من تطور وسائل الوقاية والعلاج في العالم المتطور، فقد أثبتت الارقام ارتفاع وفيات مرض السل، الذي قتل ثلاثة ملايين شخص خلال ١٩٩٥ حسب إحصاءات الامم المتحدة، وهذا أعلى عدد مسجل في تاريخ البشرية، وهذه الاصابات ليست في دول العالم الثالث فحسب كما يتوقع المرء ولكن هناك مصابين بالمرض في منطقة شرق لندن أكثر من المصابين في تنزانيا، وأخيرا ارتفاع عدد مرضى كرويتسفيلد ـ ياكوب في بريطانيا.

وعندما ننظر الى الامر من منظور بعيد نجد ان هذه الكارثة التي تعاني منها الجزر البريطانية اليوم لا تقل هولا عن كارثة المفاعل النووي في تشيرنوبل التي حصلت عام ١٩٨٦ في الاتحاد السوفييتي (سابقا). فتأثيرها يشابه تأثير الغيمة الاشعاعية التي دارت حول العالم ولوثت كافة دول اوربا الشمالية بجرع تعرض اشعاعي عالية. فتصدير بريطانيا للابقار الحية ومنتجاتها يشمل العديد من الدول الاوربية والكثير من دول العالم ومنذ عقود عديدة، وذلك يجعل سكان كافة الدول المستوردة في دائرة خطر الاصابة بهذا الوباء الرهيب بالاضافة الى ملايين السياح من كافة أنحاء العالم الذين يصلون الى بريطانيا سنوياً ويستهلكون الانواع العديدة من الاغذية وأكثرها من المطاعم التى توفر الوجبات السريعة (الساندويش) مثل مطاعم مكدونلد والتي يولع بها الصغار. وظهرت حالات قليلة لمرض البقر في بعض الدول الاوربية لم تتجاوز الالف، ولكن الخوف يبقى من القطعان الحية المستوردة من بريطانيا والتي يمكن ان تتخلص منها الدول المستوردة ببيعها الى دول اخرى باعتبارها من منتجاتها وليست مستوردة من بريطانيا كما يروج عن حدوثه في هولندة. فما عادت الكوارث تنحصر في المناطق التي تحصل فيها بل تنتقل الى كافة أنحاء العالم بسبب تشابك الروابط والمصالح بين دول العالم كافة.

فماذا يأمل الانسان في المستقبل من هذا التخبط الصحي وتراكم الكوارث بالاضافة الى الحروب والمشاكل السياسية التي تعم العالم شماله وجنوبه، غنيه وفقيرة؟ فما الذي سنراه في السنوات القادمة؟ لقد وصف القرآن العظيم بدقة إلهية الذي يمكن أن يجري على يد الانسان من سوء يطول كل ما أنعم الله تعالى عليه من الخيرات، ويريه بأم عينيه شر أعماله: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} (الروم/٤٠)

الذات بين السكونية .. وفعل العبور !

قراءة فى قصيدة «دون اسم» للشاعرة د. ثريا العريض.

بقلم: محمد ابراهيم الدبيسي
- المدينة المنورة -

دون اسم

(١)

في انكسار الإماء
وشدو الرقيق
لا تسلَني عن اسمي
حروف النداء
ووهمُ طيوف النساء
إحتفاءاتها بالذي لا تطيق..
حريق!
تهجّى القصائدَ شلالَ
شوق غريق
ليال تطول انهمار شجن
غنِّني باسم حواء
عابرة في العروق
وزائرة في ازدواج الزمن
غنِّني
مثلما أتراءى لوجدك صمتا
تراتيل امرأة غرّبتها حروف النداء
رأت في سراب الصحاري بريق
وجود حنون بوعد وطن
غنِّني
انعتاق صهيل بشوق مدى
لإسم يعيدُ المدى مبتدى
أو صدى لم يكن.

(٢)

إذا اشتقتني ألف أسم
ولست المنادى
فإن النداء سُدى
من ترى
يبادلُ جدران ليلى
بأحلام قيس طليق
يُماري جنونه؟
ويُلبس عفراء رونق
أفراحها
يُعيدُ التماع الخيال لحلم يؤرقها
أن تكونه؟

وبعد اهتراء الوعود
يعيدُ لهند مداها العريق؟
ويرسم منعطفات الطريق
ليترك عند بثينةَ ظلٌ جميل
رهينة؟
من ترى
تسامح للبدر يوماً
عبور مدار الثريا؟
تقاذفه الأفق عبر سماء الأماني
نداء حفيا
وعاد ينزُّ بأحزانها
مثقلا وعصيا
لتنتثر الأنجم المستحيلة
في شهب تستفيق؟
غنّني باسم حواء
نهرَ بكاء
وعمرَ ألم
وغادر مدى الحرف
كي لا تراود ناصية الحلم أفعى
الندم
وتنسابُ في كل ذاك النقاء
ثمالة إثم عتيق
وموجات سمّ

(٣)

أنا امرأة دون إسم..
فلا تدعُني لاحتفال المغنين
بين الصدى والنداء
تجرعت حتى الثمالة حزن الغناء
وما عدت أومن بالحركات
يخاتِلُنا وهمُ أزمانها
علىَ أول الكلمات
على آخر الكلمات.
مضارعها .. والذي كان .. أو
هو آت
كلُّ الحروف عنينة
لافتحة النصب تنصبها
مثل بلقيس سيدة للبهاء
إذ يمنُّ عليها «.....» يعلنُها
في احتشاد المغنين سيدة للغباء
لا تعرف العرش؟
والماء ؟
سيدة للدهاء؟
تعزف في زمن الماء قيثارة
للنقاء..!

في هشاشة عُمْرِ القوارير
مصفوفة في النوافذ
لا تتحطم بالكسر؟
لا تتصاعد مرفوعة الستر
ممدودة الجسر
عبر النوافذ ملهوفة .. وتُضمْ..؟

إمرأة دون إسم
بكُنه الحروف الظنينة

فمن سيعيدُ صياغة أحلامها؟
يُنَمْنِمُها في المكان؟ الزمان؟
ظروف الصدى والوطن؟
ويعربها بعد إعجامها
بعد إحجامها
سيدة للضياء٠٠ الولاء
ترنٌ مواكبها في المدينة
باخضرار الدُمى والدمن٠٠؟

(٤)

إمرأة دون إسم
بين لغو الأغاني وصخب القيان
وتشظّي المنادي
إذا جاء يقفل آفاقها
في مساء الرجاء
دعها تلوذُ بأيامها
تحاور أشواقها أمس
صمتا حنون
ودع همسة اللحن جزم سُكون
وقل: هي امرأة خُذلت بالحداء
فماذا تقول؟
وهي ٠٠ بين الفواصل
مثقلة الخطوات
مرسومة بغبار القوافل
موعودة بفضاء الفصول
موؤدة في التباس اللغات؟

ومن ؟ حين تصرخ
أو تهمس الوجع المستحيل
سيسمعها في اصطخاب الحداة؟
من ٠٠؟
سيمنحها كتفيه حروف أمان
وينقذها من حروف النداء؟
يعيد احتفاءات ألحانها
في زمان انتحار المغنٍّي
وصمت الغناء ؟
في انكسار الإماء
وشدو الرقيق
احتراف الحريق
ارتهان السكون
ليكن إسمها ٠٠ ما يكون!
أيٌ اسم تشاء٠٠!

تبدأ الشاعره بوصف تشريحى للحاله/ النص ٠٠ وتلميح من خلال هذه الحالة الى إطار مفتوح الأركان وهو النص الذى وسمته بـ «بدون اسم» لتضفى دلالة الابهام والاحتمالية على النص ككل مضمونى يعتمد فى تراكيبه على نسق الفعل وحالته الزمنية٠٠ وبدء مقاطعه بترداد لدلالة العنوان أو التصريح بها٠٠ فالمقاطع الاربعة تحتوى على مضمون عنوان النص كالآتى المقطع الأول (غننى باسم حواء)٠ المقطع الثانى(اذا اشتقتنى ألف اسم) المقطع الثالث (انا امرأة دون اسم) المقطع الرابع (امرأة دون اسم) وشبكة العلاقة بين هذه الدلالة تتراوح بين المقاطع وتكثف حضور

دلالة العنوان المفتوح. والشاعرة فى اختطاط سياقات النص من نسيج العنوان تؤكد ارتكازها على هذا المحور الدلالى واعتماده نواة تتفرع منها القصيدة وتؤلف مقاطعها لتؤازر الحركة الدائرية لدلالة العنوان التى تبدأ منه وتنساق من التراكيب فى طول النص وخطوطه واجـــراءاته ومحمولاته الايحائيه ثم تعود مرة أخرى الى العنوان بعد اكتساب علاقات جديدة تدخل تحت مرحلة التأسيس الدلالى لانفعال الشاعرة والقيم التعبيرية التى تكشف هذا الانفعال وتدمجه فى رؤية ابداعية جديدة «دون اسم - عنوان النص/ - النص دون اسم = وتعتمد دون اسم عنوانا لنص بدون عنوان وتترك للقارىء إرادية فعل القراءة واستنباط المعنى من الاحتكاك بالنص والإحتكام إليه!

وتنثر الشاعرة فى أربعة مقاطع طويلة نسبيا لحالة القضية التى تعيشها الحالة الشعرية للموقف الانفعالى لحظة الابداع.. والقضية الوجودية لحواء كجنس بشرى له همومه وخصوصياته.. إضافة الى إشارية النص للمناخ الانسانى وسيطرة الحس الأليم على الشعور الإنسانى كإسقاط جديد فى هذا الوقت.

وفى هذا النص تستند الشاعرة الى حالات وظواهر كونية عديدة، تغمسها بمعادلها الذاتى وآلام نفسها وتجعل الذاتى إسقاطاً شعورياً فى الكون ونلمح ذلك من خلال قراءة عشوائيه لبعض مفردات النص وتراكيبه: «القصائد ، السفن، المحار، الصحارى، السراب، قيس، ليلى، وأساطير الحب فى التراث العربي، السماء، النجوم ، اللغة ، الوطن، الغناء، القوافل..» وتجعل الغناء رمزاً للحرية والانطلاق الى فضاءات المرأة/ الانسان وهذا الغناء المجروح النغم .. ما مدى ارتباطه بواقع تسعى الشاعرة الى ارتياده وعالم لا ممكن تتبغى اكتشافه؟! وتستقى معالمه من الظواهر الكونية من حولها!.

ونلحظ أن التقسيم الرقمى للمقاطع ليس قطعياً بل إن اختلاط الدلالة على صعيد الالفاظ والسياقات سمة بارزة فى هذا النص الذى تلج الشاعرة إليه من خلال أول جملة فيه.. وليس من خلال العنوان الذى يمكننا اعتباره ناتجاً دلالياً للنص:

«فى انكسار الإماء
وشدو الرقيق
لا تسلنى عن اسمى..
حروف النداء
ووهم طيوف النساء..»

ومن خلال الحرف (فى) تلج الشاعرة فى جوف النص إلى «الإنكسار» وتبدأ بفرض صفة «الاسميه» على الجمل الشعرية بحيث تطغى على الفعل كثيراً وبلغ مجموع المصادر التى جاءت على وزن (افتعال) وتصريفاتها.. ثلاثة وعشرين مصدرا من مجموع الاسماء التى تطالعنا فى كل سطر.

كما أن الحوار فى النص يبدأ من الشاعرة فقط دونما حضور ذاتى للمخاطب الآخر.. ويتراوح قانون حوارها بين الأمر والنهي.. وتنص على فعل الغناء كثيراً

مسنداً الى نفسها كما سنرى لأنها ترى فيه منفذاً لكبتها وعذاباتها المحروقه:

«تهجى القصائد شلال شوق
غريق
ليال تطول انهمار شجن
غنني باسم حواء
عابرة فى العروق
وزائرة فى ازدواج الزمن
غنني
انبعاثات كنه بشوق السفن»

تبدأ بالأمر الموجه للآخر فعل الغناء باسم حواء لانها «دون اسم» ثم تتصف بصفة الحال الدائمة: عابرة/ زائرة فى ازدواج الزمن تتخلل ألم الانسان ودقائق الواقع.. ثم هى زائرة فى زمن ليس زمنها وآتية فى غير موعدها. وتتنامى حاجتها الأبدية الى فعل الغناء من الآخر وتكرر الامر «غنني» نافذة الى محيط كونى واسع هو البحر ودلالته الأزلية على السحر والغموض والغدر ليتناسب مع حالتها الفاقدة للهوية.. والمتطلعة الى أن تكون شيئاً ما..؟! «غنني / كنه بشوق السفن / أزرق كالبحار» وهنا تتجلى حالة فقدها لذاتها وشوقها للبحث عن هذه الذات ورغبتها فى ان تكون «كنهاً» معيناً.! وتضع هذه الرغبة فى مكانها من النص وهى تعبر عن حالة عامة لها خصوصية الجنس وإحساس الانسان. وتكرر الأمر «غننى» مرة ثالثة فى هذا المقطع وهى تستحيل الى أغنية فاقدة لإيقاع الزمن الذى يتجاوب مع قناعاتها.. ولا تستطيع أن تمنح نفسها ارادة فعلية للغناء وتستجدى الآخر مسترجعة معه ماضياً حاضراً يراه ذلك الآخر شاخصاً أمامه وإن لم يتحقق من وقوعه.

«غنني
مثلما اتراءى لوجدك صمتاً
تراتيل امرأة غربتها حروف النداء
رأت فى سراب الصحارى بريق
وجود حنون بوعد وطن»

وتتجرد من الذات المخاطبة لتبث الآخر حديثاً عن هذه المرأة وتسند فعل الرؤيه إليها.. وتصل بين بداية المقطع ونهايته بحروف النداء، إحدى اسباب الرفض وضياع الهوية!.. فلم تعد هذه الحروف مسوغا مقبولا للإستجابة.. بل هى إحدى أسباب التيه وفقدان الذات! وتتسلل من خلال سياق الفعل «رأت» ماضياً مندثرا ملغية بذلك فاعليته الحاضرة.. وهى بذلك تؤصل لأحد الركائز الأساسية للنص وهو (ضياع الفعل الإرادى) وذلك واضح من استهلال النص وعنوانه!

ثم يتكرر فعل الأمر «غنني» تمنحه شحنة من الرغبة فى تحقيق الغناء لها ويمثل لها «ماهية» ترضى عنها وكنها ملموساً تحقق فيه فعلها، ولكنها لا تجد ذلك فتتبدى لذاكرتها علامات الإفضاء لآماد جديدة! ونجد دلالة ذلك فى ألفاظ الإتساع والحرية «انعتاق، مدى، صدى».

«غنني
انعتاق صهيل بشوق مدى

لاسم يعيد المدى مبتدى
أو صدى لم يكن»

وبهذه الألفاظ التى تفوح بالسمو والتجاوز - وتحديد الصهيل (بشوق مدى) لتلبسه لون الحميمية وتأكيد البعث الجديد للمشاعر الإنسانية والذات المكبوته - كما يفتح تردد الألف المقصوره فى نهاية كل سطر شعرى آفاق الحرية والانفتاح على العوالم الميتافيزيقية - وبقوة هذا التردد نلمس دلالة النفس المحمومه للشاعرة وهى تنفى وجود صدى لذلك الانعتاق وللاسم الهاجس! الذى ترى أنه يملك فعل التغيير والتجاوز الى آفاقها المأمولة «أو صدى» لم يكن.

وتبدأ فى أول المقطع الثانى فى الخروج بالمخاطب والمتلقى الى حيز الأسطورة وتنقل الدلالة السياقية إليها وتمارس فى هذا الخروج محاورة الاسطورة مستثمرة دلالتها المرجعية تفسيريا مع هذا الكم التعبيرى الهائل الذى تختزنه وهى ترى فى نموذج المرأة (ليلى/ عفراء/ هند/ بثينه) أفقا دلاليا يختزن خصوصية أنثوية متميزه وهى التجاوب مع الآخر! والقدرة على خلق فعل خاص واختطاط مسار معين واكبه العديد من التراكمات التى سجلها الشعر والتاريخ!. كما تعقل أن ذلك خروج عن إطار التقاليد والأعراف المتوارثة.. ويتجاذب هذا البعد الإجتماعى فى دلالة النص مع موقف الشاعرة وموقف النص كحالة انسانية يمثلها.

وتجسد الشاعرة فى فعل الآتى هنا إرادة مسلوبة قرباناً للآخر.. وهو وحده من يمارس الفعل الحر!.. بدليل صيرورة الافعال المضارعة إليه واسنادها إلى نفسه (يبادل، يماري، يلبس، يعيد، يرسم، يترك)

«إذا اشتقتنى ألف اسم
ولست المنادى
فإن النداء سدى
من ترى
يبادل جدران ليلى
بأحلام قيس طليق
يماري جنونه؟
ويلبس عفراء رونق أفراحها
يعيد التماع الخيال لحلم يؤرقها
أن تكونه؟
ويعد اهتراء الوعود
يعيد لهند مداها العريق؟
ويرسم منعطفات الطريق
ليترك عند بثينة ظل جميل
رهينة»

ويتوتر النص بالفعل السابق، فالمرأة هى بؤرة الهم والجرح، الفاقدة لذاتها والمرأة الأسطورية كجدلية متوارثة تتناص مع هذه الدلالة ثم يجبر الفعل الإرادي للآخر كما أسلفنا ويكسب النص بذلك صفة التحويل والإنتقال فى دلالاته ويتقمص الآخر دور الآمر الناهي! ويحرك بذلك المحاور الدلالية التى تحتوى (الإرادة الكونية والوجدانية) للمرأة التى لا تبتغى أن تكون أكثر من حلم نازعة الى عنصر الايحاء فى السعادة ورسم ملامحها فى فضاء غير واقع!!.

وقـد تتـداعى الى ذهن المتلقى إشكالات القصة الأسطورية هنا من ذكر ليلى قيس، وبثينة جميل، وهند الحطيئة وما اعتور هذه الرموز النسائيه من قصص ومغامرات وإنتاج شعرى غزير تتناقله الألسن مؤكداً بذلك دور المرأة فى الحياة وانفلاتها من سطوة الأعراف الى دور المعادل للرجل والمارد فى حياته الذى يمتلك تشكيلها بين السعادة والتعاسة!!

ولكن الغاية الدلالية تترك مضمون العلاقة فى السياق الشعرى وتتجاوزها إلى مقارنة فوقيه بينها وبين واقع النص وجدلها مع الحالة الشعرية لصاحبة النص فى أن الرجل حنان يجاوز بإرادته فعل خصوص المرأة واعترافاً بكينونتها المستقلة. ولكن الشاعرة ترى أن ذلك لم يمنع المرأة دوراً فاعلا فى حياة أولئك؟ ويتصل هذا الإلغاء لدور المرأة بواقع الشاعرة الذى تتضجر وتضيق بممارساته المتناقضة والمرفوضة؟!

وتصل الشاعرة الى دلالة تعبيرية جمالية تكشف من خلالها التصور الخيالى لتجليات النص القضية لديها! عندما تستعير (البدر) كرمز للرجل (والثريا) كاسم للمرأة! وهما مرتبطان بمدار واحد.

«من ترى
تسامح للبدر يوماً
عبور مدار الثريا؟
تقاذفه الأفق عبر سماء الأمانى
نداء حفيا
وعاد ينز بأحزانها
مثقلا وعصيا
لتنتثر الأنجم المستحيلة»

ويطوق السؤال الاستفهامي الحصار على تداعيات الخطاب الشعرى.. وتتساءل الشاعرة بعد أن تحققت من اختراق الرجل لكيان المرأة وإلغائه!.

ولفظة «عبور» بدلالتها على التعدى والتجاوز والاختراق تؤكد هذا المعنى! ومن خلال هذا التجاوز يخرج بالخطيئة والذنب «مثقلا وعصيا».

وانتشار الأنجم واستحالتها استجابة للتركيبة الدلالية للمقطع، ومعطى طبيعى لعلاقة المرأة بالآخر (البدر/ الثريا) وهى دلالة للمكان (المدار) والوحي الأسطورى يتوقف جزئيا عند انتشار الأنجم والأمنيات المنطفئة وفوالج نفسها الحميمة.. وتوطىء اللام للفعل المضارع «لتنتثر» لتكون نتيجة لما سبق.

وليشكل الامتزاج النصي هنا في الأسطورة القصصية انتقالا بالخطاب الشعرى من سكونية الفعل الذاتى الى حركية المخزون الدلالى العام والهائل فى مضامين تلك القصص.. وما تضفيه من خيالات وخيوط ذكروية للمتلقى تقترب وربما تبتعد عن الواقع.

ثم هى صيغة أخرى للخطاب تحاور الشاعرة فيها المشكل الشعرى لديها وبؤرة انفعالها وتمنحه فاعلية جديدة فى نصها وتخلق فيه تناسبا فى الدلالة بين واقع الأسطورة الذى تشكلت فيه وبين واقع الشاعرة التى تكونت القصيدة من خلاله!

والشاعرة لا تنقطع كليا عن المحيط المكانى الدلالى للأسطورة واجوائها وإنما

تسجل موقفا خاصا من هذا الواقع ثم تسترفد الظلال الاسطورية فى فعل وصفي اجرائي تهدف منه الى الدخول فى أبنية الوعي للمتلقى وتتحكم فى رصد حركة النص وإيقاعه.

«غنّني باسم حواء/ نهر بكاء/ وعمر ألم/ وغادر مدى الحرف/ كي لا تراود ناصية الحلم أفعى الندم/ وتنساب فى كل ذاك النقاء/ ثمالة إثم عتيق/ وموجات سُمّ»..

ويتكرر أمرها بالغناء وتمتزج بضمير المتكلم الآمر بالغناء إمعاناً فى اظهار الحاجة لتناسب إيقاعية الزمن الضائع فى نفسها! وتحدد هنا الفضاء المبهم للإسم الذى تأمر الغناء به «اسم حواء» هذا الاسم الذى يطلق على جميع نساء الأرض.. ويتجلى موقفها هنا بأنها تتحدث عن المرأة/ الانسانة وليست المرأة/ الذات الخاصة.

وتحمل هم المرأة على الأرض وتنادى بقضيتها ووجودها و(أناها) الحرة وهى ايضا تخرج من إطار الذات ولا تلجأ إلى الذات إلا للتعبير عن رمز للنساء جميعا وهى الشاعرة تحمل صيغة انسانية تقابل فيها خطاباً جمعياً لهذا العالم.. تمتلك زمام الخطاب الشعرى وتوجهه كما سنطالع فى تحليل النص كيفية ربطها لدلالاته عبر مقطع كامل ثم فى تحليل المقطع اللاحق لما سبقه وتتوالد الدلالات عبر ذلك وتفرز نتائج بعضها وهكذا .. ففى المقطع الأول نجد «غنني دون اسم - باسم حواء اذا اشتقتنى ألف اسم (المقطع الثانى).

ثم تعود لتبنى دائرة العموم فى حديثها عن المرأة «غنني باسم حواء» ثم تفجر ذاتها لتفصح عن هويتها الضائعة وهى تحمل قضية المرأة وهمومها «أنا امرأة دون اسم» وتسند تمييع هويتها الى ذاتها بضمير المتكلم الظاهر «أنا» ثم تبدأ بالمقطع الرابع بدون اسناد «امرأة دون اسم» لتوسع بذلك دائرة الاحتمالية الواردة أصلا فى مخيلة القارىء وتعقد الصلة الوثيقة بين بنى النص الذى تتجاذب دلالاته فيما بينها لتبنى كيانا دلاليا عاما ومرجعية واحدة لتحركاته المتنامية وجزئياته فى مناحيها الكونية والأسطورية الفردية والجماعية.

ولا تتعدى رغبتها فى الغناء وتنوير الواقع وكشف عتماته الى ايقاع يلامس جراحاتها المكبوته سوى «نهر بكاء وعمر ألم» وتعقد بذلك الصلة بين النهر ودلالته على المكان الكونى.. والعمر ودلالته على الجزء من الزمن ولا يمثل إلا الألم ومن محورى الزمان والمكان كثنائية جدلية يفرزان الفعل «غادر مدى الحرف» وتضفى صورة الامر استشعاراً وقتياً لرغبتها فى التغيير ثم تفسر هذا الأمر: «كى لا تراود ناصية الحلم أفعى الندم..».

والآخر كأفعى الندم يغادر لكى لا يراود ناصية حلمها غير المتحقق وتضعه هنا فى اطار الممكن وتضع نفسها فى موقف دفاعى عن هذا الممكن! وهي تدفع بهذه الخاتمة للمقطع الثانى كنهاية لرحلة مضنية من الحوار الصارخ الرافض مع المخاطب الجمعي!!.

«أنا أمرأة دون اسم

فلا تدعني

لاحتفال المغنين بين الصدى والنداء
تجرعت حتى الثمالة حزن الغناء
وما عدت أومن بالحركات
يخاتلنا وهم أزمانها
على أول الكلمات
على آخر الكلمات
مضارعها .. والذى كان أو هو آت
كل الحروف عنينة
لا فتحة النصب تنصبها
مثل بلقيس سيدة للبهاء
اذ يمنٌ عليها « .. .. » يعلنها
فى احتشاد المغنين سيدة للغباء
لا تعرف العرش؟
والماء؟
سيدة للدهاء
تعزف فى زمن الماء قيثارة للنقاء..!

ونصل الى مستوى آخر من مستويات الدلالة فى النص ومحور آخر من محاور الحوار وتمنح الشاعرة نفسها موقعاً آخر فى الخطاب الشعرى وتبدأ بتخصيص الغناء إيقاعاً تستحيل «هي» إلى أغنية وأجراس لترردداته وهي فى إسناد فعل الغناء إلى نفسها عبر ضمير المتكلم الظاهر «أنا» تعبر عن انتفاض لمارد ذاتها الموجوعة وانتصاراً لمكانها فى دائرة الفعل الإنسانى وتحدد الايقاع الغنائى بأهزوجة الحرية لتتماشى مع تقاسيم قناعاتها وموقفها من الوجود.. والآخر الجمعى فى دائرة الوجود ذاتها.

ويتبين من دعوتها للغناء حلقة مفقودة بين الصدى.. والنداء قطبين للأغنية الانسانية «أغنية الحرية» ومحورين جدليين ترفض أن تضيع بينهما وتربأ بنفسها عن تمثيل دور حلقة الوصل بينهما لان ذلك لا يحقق حلمها الممكن غير المتحقق! وجوداً أو أثراً.. لأن حروف النداء ووهم طيوف النساء ماض مرفوض لشخصها.. و«الصدى لم يكن» وتنفى تحقق وقوعه بصيغة الجزم!.

ثم تقدم تبريراً ومرتكزاً لموقفها من الغناء.. كفعل وجودى تسعى إليه ويمثل علاقتها بالواقع.. «تجرعت حتى الثمالة حزن الغناء»وتفيد لفظة التجرع دلالة المرارة والألم فى اختزان بقايا الوجه الآخر من الزمن.. وتواصل تقديم حيثيات موقفها الرافض للموجود والقائم فى حقل دلالي جديد تأخذ فيه اللغة كمحور للرموز المرفوضة من الحركات والكلمات والمصطلحات العربية النظرية التى تحجم اندفاعات النفس وتحجز المد الوجداني وترتكس به الى الوراء.

ولا تعتبرها الشاعرة هنا سوى أوهام متخيلة لهذا الزمن اللا ممكن! لوجود الشاعرة وموقفها من الآني.. كبؤرة تستقطب حركة المستقبل والماضي.. وتحتكرها كموقف مترد تخرج «الشاعرة من أعلاله بالرفض كما تشير دلالات المقطع الثالث».

أول الكلمات + والذى كان = الماضي + ومضارعها + آخر الكلمات + أو هو آت = المستقبل .. ثم تخرج من ذلك بالرفض والحكم على الماضى والمستقبل بالرفض «كل الحروف عنينة!» فاقدة للفعل لا تمنح الإنسان موقفاً جديداً يمثل حضوره ووجوده أو يغير

الثابت من حوله! وتستجدى الشاعرة بلقيس رمزاً اسطورياً آخراً تتجلى فيه القدرة على الفعل ! ويمثل موقفاً إنسانياً وتاريخياً اتخذ صيغة الحدث من الزمان والمكان ٠٠ ثم من عليها « ٠٠٠٠ » هذا التنصيص المفرغ ترمز فيه الى نفى الفعل الجرىء الواعى عن هذا المفرغ وإظهار فقده لإدراك مكانة بلقيس وجهلها لأنه جعلها «سيدة للغباء» ويتصل هذا الوصف للآخر المخاطب بالمحذوف من النص لأنهما يتخذان موقفاً مشابهاً من المرأة ويمثلان قناعة واحدة تجاهها٠

وبلقيس تمنح الشاعرة إرادة الفعل الأقوى فى محيطها إذ أنها «تعزف فى زمن الماء» فالفعل محور الموقف ٠٠ والزمن المسند للماء يعطي دلالة الخصوبة والحياة والتدفق ٠٠ وبلقيس تتحول الى اشكالية جديدة فى المنحى الأسطوري فى هذا النص وتبقى أساساً لموقف الشاعرة ترتبط دلالياً بالاسماء السابقه «ليلى/ هند/ بثينه» ولكن العلاقة الدلالية بينهما لا تتعدى كونهما ينتميان لجنس بشري معين ٠٠ أما على مستوى الفعل فتضفي الشاعرة عليها لوناً آخر من ألوان الخصوصية الانثوية للمرأة والدور التاريخي وما يوحى به من دلالات وما يكتنفه من تفسيرات يضيء جانباً من جوانب موقف الشاعرة باعتبار بلقيس نموذجاً تبتغيه وترضى عن سيرته٠٠ ويكرس لديها وعياً بدور المرأة، عندما تكتنفه المتغيرات والطوارىء وتكون بلقيس موقفاً فاعلا ٠٠ والوجود مجالا للفعل وتكسر الشاعرة سياق النص بتداع قطعي غيرموجه لإحدى محاور النص السابقه ولا يتداخل مع نسيج النص إلا بإشارة العنوان «دون اسم» ٠

فى هشاشة عمر القوارير مصفوفة فى النوافذ٠

لا تتحطَّمُ بالكسرِ
لا تتصاعد مرفوعة الستر
ممدودة الجسر
عبر النوافذ ملهوفة ٠٠ وتُضم٠٠؟
أمرأة دون اسم
بكنه الحروف الظنينه»٠

وترثى واقع المرأة عندما تراها مصفوفة فى النوافذ دمى صماء لا تؤدى دوراً اختياريا فى حياتها وهذا التفريع فى السياق يأتى فى أثناء تداعيات كثيرة تتخذ من ألم الشاعرة مسايرا لنفوذها ويتعاقب إيقاعها فى تدرج عنيف تطرح فيه الشخصية الشاعرة تساؤلاتها العنيفة وتشير بذلك إلى امكانية العبور من وضعية الجمود الى حركية إضافية جديدة تكشف بها عن إمكانات النفس وطاقات اللغة٠

ثم تعيد الإلتحام بين السياق الفرعى والسياق العام عندما تعيد سؤالاتها عن الأحلام المرتقبة المنفلته من تكلسات الراهن المفروض٠٠ وتعلن رفضها للحصار٠

«فمن سيعيد صياغة أحلامها
ينمنمها فى المكان؟ الزمان؟
ظروف الصدى والوطن؟
ويعربها بعد إعجامها
بعد إحجامها
سيدة للضياء ٠٠ الولاء

ترن مواكبها فى المدينة
باخضرار الدمى والدمن؟

وتبرز هنا حركة التفاعل بين الشاعرة واللغة كواقع مستهلك فى الماضى والمستقبل وكبشارة جديدة تشرق من معالمها بعثاً جديداً فى آلية الزمن.. وتتحول الشاعرة الى محور خاص لدلالة الجزء الاخير من المقطع الثالث وهى كمحور فى منظومة سياقات النص تمثل حركة ترددية بين الرؤيا كحلم وبين الواقع كيقين!!

وعندما تجسد موقفها من هذا اليقين فإنما تعتمد على صيرورة اللغة وتحولاتها وتنتقل من الدال فى النص الى مدلوله وتربط بينهما بالمتخيل فى إطار المنظومة الكلية للنص وذلك يعتمد على طاقات اللغة المستخدمة فى الخطاب الشعرى والشاعرة هنا تعلن احتكامها إلى اللغة وتستنفد طاقاتها لتحولها الى ديمومة فى التداعى وإفراز معدلات مطلوبة من التعبير يؤازر قيم النص ونجد ذلك فى رجوعها الى «حويتم النص ونواته» فى المقطع الثالث «إمرأة دون اسم».

ونبدأ بالمقطع الرابع بلحظة استرجاعية (فلاش باك) أو العودة الى الوراء وتشحنها بمخزون العنوان أو اللاعنوان «امرأة دون اسم» وتمكن المخاطب من التحقق من الفعل..

«امرأة دون اسم»
بين لغو الأغانى وصخب القيان

وتشظّى المنادي
اذا جاء يقفل آفاقها
فى مساء الرجاء
دعها تلوذ بأيامها
تحاور أشواقها أمس
صمتا حنون
ودع همسة اللحن جزم سكون
وقل هي امرأة خُذلت بالحداء
فماذا تقول؟

فالفعل الحاضر «يقفل» هو آلية خطابية لدلالة العنوان وليس للمرأة سوى الماضى الظرفي «أمس» تعزى نفسها بأطيافه.. والماضى ذلك بدوره يسير وفق آلية مسارية تتركها جزماً بعدم الأسف عليها لأنها تمثل ماضياً مرفوضاً يفقد أدوات التواصل والاستمرار مع واقعها الآن وتكون جملة «امرأة دون اسم» شبكة علاقات ثنائية تداخل بين مقاطع النص وتؤثر الحركة بين عناصرها وعندما تكمل شحنتها النفسية بهذا المقطع يأتى موعد الانكشاف.. وتحقق الرؤيا:

«وهى .. بين الفواصل
مثقلة الخطوات
مرسومة بغبار القوافل
موعودة بفضاء الفصول
موؤدة فى التباس اللغات؟»

وتضفي صورة اليقين على تموضعها فى تلك الدائرة الضيقة الملغية لإرادتها عندما

تأتي بصيغة اسم المفعول المسند إليها «مثقلة/ مرسومة/ موعود موؤدة» ويتأكد بهذه الصيغة ارتهان الشاعرة لإرادتها.. ويتداخل المعنى مع دلالة النص ويعد رافدا لسياقاته السابقة ويبلغ فيها الضجر والرفض رغبة التحرر من أغلال الوقت ووصف نفسها بالنكره «قل هي امرأة بالحداء» وتنتقل من الاسترسال مع وطأة الألم في صيغة اسم المفعول الى استفهام جديد ويولد ذلك تداعياً دالا تختتم به النص:

« ومن حيث تصرخ ..
أو تهمس الوجع المستحيل
سيسمعها في اصطخاب
الحداة؟..»

وتنساق لا إرادياً مع وطأة الفعل في أكثر اسطر هذا المقطع

«من سيمنحها كتفيه .. حروف
أمان
وينقذها من حروف النداء؟
يعيد احتفاءات ألحانها
في زمان انتحار المغنِّي
وصمت الغناء..؟»

ونجد فعل «يعيد» هو آخر أفعال الاستقبال تختتم به قائمة الأفعال وتشير بذلك الى ما سبق .. وهي لا تريد أكثر من إعادة منحها فعل التغيير والتجاوز وتلبس هذا المقطع الدلالة الكلية للنص.. وتبرز صيغة التحول الافتراضية من ماض مأمول/ وحاضر مرفوض .. وتجعل ذلك في حدود الممكن وذا ارتباط وثيق بالعلاقة المحورية بين الشاعرة.. والواقع المستنكر..!

وتختم المقطع .. والنص بصيغة المصادر ودلالتها على التحقق والشيوع

«في انكسار الإماء
وشدو الرقيق..
.. احتراف الحريق
ارتهان السكون
ليكن اسمها .. ما يكون..!
أيّ اسم تشاء..!»

وتربط نهاية النص ببدايته بل وبعنوانه «أي اسم تشاء - دون اسم لتكتمل دائرة العلاقة الدلالية بين البداية والنهاية لأنها تمثل نواة دلالية تبرعمت عبر مقاطع النص وتوزعت في سياقاته وتحولاته الدلالية سواء جاءت بصفة الشاعرة المرأة «امرأة دون اسم» أو بصفة النص كدلالة عامة.

وتعطي هذه العبارة «دون اسم» دلالة الانفتاح والبعد الحواري الذي يقبل احتمالات كثيرة وتفضي الى احتمالات جديدة تأخذ طابع الاستهلال المضموني.. وتتحرك في فضاء الذاتية مشحونة بطاقة انفعالية تصل الى مزجها بالهم الجمعي .. وتبرز قيمها في اثنائها قيماً شعرية جديدة في قراءة آلام النفس الإنسانية وعذاباتها تدعونا الى دراستها وتأملها..

مزمار الراعي

شعر:
محمد بن احمد العقيلي
- جازان -

من فوق رابية غنّاء خضراء
موشية بزرابي النبت لفّاء
أطل والأفق صاف في تألقه
وهج الضحى زان وجه الكون للرائي
تطلّع الراعي الملتاع في قلق
يطوي الفضاء بعين العاشق النائي
بنظرة مسح الأفق القصي فلم
ير «الحبيبة» بين المعز والشاء
تمكّن الوجد منه في الشغاف فلم
يطق صبراً على وجد وبرحاء

* * *

غير أن يفضي إلى مزماره
ما عيي عنه تعابيرُ البيان
سكب الوجدَ صفيراً وغناء
فى ترانيم يترجمها اللسان
أي صوت يلج القلب بلا أذْ
ن، ينصب خمراً في الآذان
بثّ ما غنّى به مزماره
من تلاحين فيوض وحنان
يملأ الروح غناءً ورضا
وحناناً وسلاماً وأمان
لغة تعرب عمّا نابه
من هيام وغرام وافتتان

إن مزمارك لحن خالد
يشعل الفتنة في قلب الزمان

* * *

ليس همساً في يراع إنما
هو نفخ في شرار وضرام
يشعل الوجد حريقاً لاهباً
في قلوب - من تلظ وغرام
لحنه نفث من السحر على
كل قلب وعلى العقل مدام
نغم ينساب في دنيا الهوى
يطفيء اللّوعة برداً وسلام
شف عن أحلام أيام الصبا
وصدى الإلهام في أشجى مقام
أي صوت هز أعطاف الرّيا
فتمايلن تصاب وانسجام
لحنه الشفاف يستهوي النُّهى
يمتع الأرواح وجداً وهيام
ويحير الماء عن جريانه
حائراً بين انطلاق والتزام
وصغى الوحش بأذن مرهف
مادّاً أعناقه فوق الرّغام
شع في الليل خيوطاً من ضيا
وشذا صبحاً نسيماً وغمامْ
نهلة العطر واكسير الهوى
وأريج الزهر في دنيا الغرام

ثقافتنا إلى أين؟

> **لقد ترددت كثيرا قبل أن أكتب في موضوع كهذا بصيغة سائلة، ذلك لأن البنية المشكلة للثقافة المعاصرة في العالم العربي لا تسمح عادة بالصيغ السائلة التي تثير القلق والاشمئزاز، ورغم التردد فقد سمحت لنفسي أن أسأل في ظل هواجس ثقافية مرعبة تطاردني كما هممت أن أقرأ شيئا فى ثقافتنا، لقد لاحقنى هذا السؤال وأنا طالب فرضت علي مجموعة من المعارف التى غالبا ما كانت متناقضة مع هويتي، أو بالكاد لا تماثلها، كما لاحقنى السؤال وأنا أستاذ فى جامعة لا تملك الكثير من الخصوصيات الحضارية التى تؤهلها للسيادة، ويبدو أن الملاحقة ستستمر إلى آماد بعيدة، ذلك لأن المعطيات الثقافية الحاضرة تؤكد أن العالم العربي سيدخل القرن القادم وفي منظومته الثقافية شيء من حتى!!.**

وبداية أؤكد أن الثقافة التي أسأل عن مصيرها خاصة أساسها البنية الفكرية العامة التي تستمد أصولها الدينية والخلقية والاجتماعية من عمق الأمة العربية الاسلامية، هذا العمق الذى يجب أن يتشكل في ظل مفهوم زماني تواصلي أساسه الإسلام، أو هي على رأي مالك بن نبي «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يُلَقَّنها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.. والمحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الانسان المتحضر»[١]، فبهذا المفهوم نضمن الثقافة الخاصة التي تعمل على تكوين الشخصية العربية الإسلامية التي تستطيع أن تتصرف ايجابيا فى ظل الانفتاح والتداخل والتشارك الثقافي.

وتبعا لهذا المفهوم فإنني أسمح لنفسي أن أذكر أنني لا أتوجه بالسؤال أو المكاشفة إلى أولئك الذين تجذرت فيهم قناعة مفادها أن الغرب أو الآخر هو البديل المنعش الذي لا تكون الثقافة أو الحياة بعامة إلا به، كما لا يهمني أن أسأل أولئك الأساتذة الذين لا يجعلون مقياس الأفضلية بين المثقفين إلا بمقدار ما يحفظونه من الأساطير اليونانية وعلى رأى بعضهم لا يليق لأستاذ جامعي أن يكون كذلك إلا إذا فقه كتاب (الغصن الذهبي) لفريزر، وفي مقام هؤلاء

العالم العربي، سيدخل القرن القادم وفي منظومته الثقافية شيء من حتى..!!

بقلم:
د. عمر بوقرورة
جامعة قسنطينة - الجزائر

يأتي أولئك الذين تجذرت فيهم التواكلية الميتة فحصروا الثقافة العربية الإسلامية في موضوعات لا تتعدى مجالا بنائيا أساسه، أما الاشتغال بالأدب - مثلا - فهو مضيعة للوقت.

لا أسأل هؤلاء جميعا لأنهم التقوا على الهدم حين عملوا على اغتراب الأجيال عن جذورها الثقافية الأصيلة كما أفقدوها هويتها حين رضوا بأن يكونوا مؤطرين في ظل مقاييس ثقافية أجبرتهم على ألا يسألوا أو يراجعوا أو ينقدوا، وكل ما عندهم أن يستقبلوا في ظل ضغوط ثقافية خطيرة، فمع هؤلاء لا فرق بين من يروج (للغصن الذهبي) ومن يدعو لثقافة (الحصن الحصين) الذي تطبع منه ملايين النسخ في الوقت الذي تعزف فيه مطابع كثيرة في العالم العربي عن طبع الأبحاث القيمة المفيدة.

أما مكاشفتي فتكون مع مجموعة من المثقفين الذين يرحلون في أعماق أمتهم بحثا عن صيغ الإيجاب التي تؤهلهم للبناء فى ظل الخصوصية المنفتحة إيجابا على العالم، فهؤلاء هم المؤهلون للبناء ومعهم نسأل الآتي:

هل نصبو لثقافة نربح بها أنفسنا وهل نأمل في أن نؤطر ثقافتنا في ظل الخاص الذي ينفتح على العام وفقا لمبدإ الصيانة والحماية؟ أم أن الهدف هو التداخل مع العام الذي يؤطرنا وفق العالمية والإنسانية والتشارك الثقافي وغيرها من المصطلحات التي أجبرت الأجيال على قبولها قهرا؟ ومع السؤال ندخل إلى الموضوع مختصرين الحديث في عنصرين هامين لهما علاقة بالثقافة الأدبية بخاصة، والعنصران هما المناهج والمذاهب الأدبية، فبهذين الوافدين تشكلت فينا ثقافة عربية ذات سمات غربية، أو لنقل إنها ذات سمات مشوشة، وهي الثقافة التي أثرت في فكر وسلوك الإنسان العربي المسلم ووجهتهما وجهة الآخر كما سنرى.

١ - المناهج:

إن أمة من الأمم لا يكتب لها أن تؤسس لعز أو مجد إلا إذا تمكنت من مناهج البناء ولن تفيد المناهج إلا إذا كانت سليمة قوامها الذات الواعية الخاضعة لخصوصيات حضارية أساسها الدين والاجتماع والسياسة، فنحن لا نعرف أن أمة كتب لها أن تنجز شيئا خاصا دون أن تحتكم إلى خصوصياتها التي تميزها عن غيرها من الأمم.

ونظرة خاطفة إلى البدايات المنهجية للأمم ترشدنا إلى أن المنطلق إنما يكون بالخصوصيات الحضارية، فأرسطو - مثلا - لم يؤسس لمنطقه إلا بمكونات يونانية حين تساءل عن السبل التي تنتج بها الأفكار في مجتمع

ذي سمات علمية فلسفية ورياضية، فكان منطقه الذي أهّله للأستاذية حينا من الدهر. ولم يؤسس فرنسيس بيكون وجاليليو وديكارت وفرويد وكولردج لمناهج حديثة إلا وفق الخصوصية الثقافية الأوروبية التي أجبرتهم على تجاوز أرسطو ذاته، فما إن حان القرن التاسع عشر حتى وجدنا في أوروبا ثلاثة مناهج واضحة يحكمها منطق أوروبي خاص، وهي المنهج الاستقرائي والاستردادي والاستدلالي.

ولو عدنا إلى ماضي الأمة العربية الإسلامية لألفيناها رائدة في مجال المناهج حين لم تكتف بالمنطق الأرسطي، بل تجاوزته إلى المنهج الاستقرائي المعتمد على الملاحظة والتجربة والتقصي الدقيق، وهي لا شك قد استفادت في ذلك من القرآن الكريم الذي علمها التفكر والتدبر والصدق والموضوعية في البحث، لقد وجه القرآن الكريم هذه الأمة إلى «أهمية البحث والنظر، وطلب عدم إلقاء الأذن إلى كل قول، وظهرت آثار هذه الدعوة المنهجية في جميع جوانب الحياة الإسلامية»[٢]، كما استفادت الأمة من السنة النبوية الشريفة لا في الجانب الروحي فحسب، بل وفي التجريب أيضا، وأحسن مثال لذلك موقفه - عليه الصلاة والسلام - من قضية تأبير النخل، فقد أورد ابن ماجة في باب تلقيح النخل عن موسى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه قال: مررت مع رسول الله {صلى الله عليه وسلم} في نخل فرأى قوما يلقحون النخل فقال: {ما يصنع هؤلاء؟} قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى قال: {ما أظن ذلك يغني شيئا} فبلغهم فتركوه فنزلوا عنها، فبلغ النبي فقال: {إنما هو الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله فلن أكذب على الله}[٣].

لا تستطيع أمة انجاز شيء خاص بها إلا إذا احتكمت إلى ميزاتها

ويكفي بعد هذا ما قدمه المحدثون والأصوليون والفقهاء والفلكيون وأهل الطب والصيدلة.. فالدارس الموضوعي لمنهج المحدِّثين - مثلا - «تروعه الدقة الشديدة في روايته والحذر البالغ في الأخذ عن رواته، وكأنهم على مر العصور يشبهون مدينة واحدة يتعارف أهلها جميعا وأي أهل؟ إنهم مئات بل آلاف وكل محدث أو حافظ كبير يعرفهم فردا فردا ويحفظ أسماءهم وأحاديثهم حفظا متقنا»[٤] ومن هؤلاء نجد الإمام المحدث البخاري الذي أضاء بمنهجه العلمي الدقيق العصور التالية فكان نموذجا للمسلمين والأوروبيين على السواء إذ «بعد وفاة البخاري بحوالي عشرة قرون بدأت فكرة تحديد منهج للتاريخ تظهر في أوروبا، وقوبل هذا المنهج بالحفاوة البالغة والتقدير الكبير»[٥].

ونأتي إلى العصر الحديث وندخله وفق حديث ابن عباس الآتي قال: «إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من

الناس إلا بما نعرف»[٦] إن الحديث دال على سلوك منهجي رائع أساسه الحذر المؤيد بالنقد والمراجعة، هذا مع أفراد أمة واحدة فكيف بمن يتعامل مع آخرين لا تربطهم به إلا سيرة طويلة أساسها الصراع الحضاري الذي لم ينته بعد.

ومع هذا الدخول نأتي إلى ثقافتنا المعاصرة التي تأسست في أغلبها على مناهج وافدة صبغتها بمعارف ومدركات كثيرا ما تناقضت مع ذواتنا، ويأتي التناقض من قبيل الأصل الذي ولدت في ظله هذه الوافدات، فالمناهج الغربية قد انطلقت «من تصور منحرف يدعي العلمانية القائمة على فصل الكون عن الخالق، وقد يغرب هذا التصور فينطلق من إنكار الخالق، وهذا أصل الإنحراف والضلال في المناهج الحديثة، وهو الذي يبعدها عن الحقيقة المنهجية»[٧] هذا هو الأساس فى فساد هذه المناهج، وهو الأصل الذي يقودنا إلى القول: إن مشكلتنا مع المناهج الغربية لا تكمن في الوفادة، إذ التأثر والتأثير شرطان لازمان للحياة بل في كيفيتها حين جاءتنا الوفادة نموذجا راقيا لا يناقش ولا يراجع فهو المفضل وهو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ.

إن كثيرا من أساتذة المناهج عندنا لم يقبلوا على المناهج الغربية ناقدين مراجعين بل أخذوها بشغف وحب كبيرين شأنهم في ذلك شأن التلميذ الخاضع لإرادة أستاذه، وإن من التلاميذ لما تتفجر منهم العبقرية فيرفضون ولكنهم أبدا لم يفعلوا، ولعلهم قد مارسوا ذلك وفقا لمبدإ الدونية الذي جعلهم منبهرين بالأخذ عن الآخر دون شروط ذكر بعضها محمد غنيمي هلال حين حصر شروط الأخذ من الآداب الأخرى في اختيار الأدب المتأثر به حسب حاجات الأمة وتوفر الأصالة عند الآخذ، وفرصة الاستقبال الحسن، وقيام الصفوة بهذا التأثر[٨] وأضاف إليها أحمد بسام الساعي شروطا منها: «ضرورة التأثير وضرورة وضوح الشخصية»[٩].

وفيما يلي حديث عن بعض هذه المناهج التي تتجسد فيها سمة الدونية، وبداية مع المنهج التاريخي الذي يسعى فيه أصحابه إلى «دراسة الأدب في ضوء التاريخ بروح نقدية تستنتج النتائج الدقيقة الفعالة لا مجرد سرد للأحداث التاريخية والأدبية، وأن يقرر الحقائق ويتعرف على روح العصر والأدب ويبين أثر كل منهما في الآخر لا أن يورد الأخبار الأدبية والنصوص من دون تدقيق واستنتاج، وأن يرقب الأثر الذي أحدثته الثقافات الأخرى في هذا الأدب وعنصر التفاعل في البناء»[١٠].

الثقافة، المحيط الكلي للشخصية وطابع الفرد

إن المنهج بهذا المعني جيد لكنه مشروط بخصائص علمية معينة أهمها الصدق والأمانة والدقة الموضوعية، يضاف إليها عامل الخصوصية الحضارية التي طبقها علماء المنهج التاريخي في أوروبا وفق معيارين اثنين: أولهما لقراءة تراثهم اليوناني الذي تعرفوا من خلاله «على سقراط باعث

أدباؤنا استدعوا رموز الخطيئة نماذج للحياة

الأفكار وأفلاطون المؤرخ لتلك الأفكار وأرسطو مشترعها»[١١] أما المعيار الثاني فهو خاص بالتراث العربي الإسلامي الذي درسوه وفق أهداف مشبوهة أخطرها «تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري وبث روح الشك في كل ما بين ايديهم من قيم وعقيدة ومثل عليا»[١٢].

ونعود إلى مجموعة من أساتذة المنهج التاريخي عندنا لنجدهم وقد أخذوا المنهج بالمعيار الثاني الذي أجبرهم عليه منطق الأستاذية، ففسدت فيهم موضوعية البحث وضاعت فيهم خصوصية الرجل الشرقي، ولو أنهم طبقوا المنهج بمعيار الخصوصية الشرقية لأفادوا لكنهم لم يفعلوا إلا قليلا، وكانت النتيجة بعد هذا أن ينقل المنهج إلى الأجيال العربية المسلمة حين أخذه المشرفون على برامج التعليم في جامعاتنا على أنه النموذج الأمثل الذي لا يناقش والمفروض في اتصال حضاري قسري كهذا أن يلتفت هؤلاء المشرفون المقررون إلى الأجيال التي هي أمانة بين أيديهم فيلقنوها الأسئلة التي تربي فيها هاجس الحذر، وتنمي فيها ملكة النقد وتحثها على المراجعة، ومن الأسئلة ما يتعلق بظاهرة الاستشراق في علاقتها بالتراث العربي الإسلامي ثم في علاقتها بمعيارية المنهج الذي درسوا وفقه هذا التراث، والذي بدا انشطاريا ذريا مقصودا هدفه ـ في أغلب الأحيان ـ تدمير الكليات والتشكيك في أصولها وقواعدها

والمؤسف بعد هذا أن يتكون فينا مثقفون لا يتوفرون على الكليات التي تؤهلهم لقراءة تراثهم قراءة تواصلية نقدية سليمة، بل كل ما في أذهانهم صور مشوشة مضطربة عن عصور دموية همجية متناقضة أجبرهم المنهج التاريخي الوافد على قراءتها خاضعة للفطرة لا للفكرة، وقد أهلتهم هذه الصور بعد ذلك لأن يكونوا سادة للهدم والإلغاء حين دعوا إلى القطيعة مع التراث بل إلى القطيعة مع جيده في أغلب الأحيان «فالمأساة التي نواجهها الآن أن كاتبين وموجهين يذهبون إلى هذا الماضي ويعودون منه بما يضر ولا ينفع، وربما نقلوا منه أسانيد للاستعمار الداخلي والخلخلة الاجتماعية التي نعاني منها»[١٣].

ولعل من الأضرار مثلا ما فعله مجموعة من أساتذة الشعر العربي المعاصر، فبدلا أن يستحضر أحدهم «الأنبياء عليهم السلام ويمجد الأبطال كخالد وصلاح الدين، يستدعي رموز الخطيئة .. ويستنجد بأولئك الذين أسهموا في الانهيار الحضاري لأمتنا، فنار التحول والتبشير بالمستقبل لا يحملها الأنبياء والصحابة وقادة الإسلام العظام، بل يحملها امرؤ القيس وديك الجن ومهيار وأبو نواس»[١٤].

والمشكلة قد تكررت بخطر أكبر مع المنهج النفسي الذي فتح الباب على مصراعيه لثقافة الباطن التي ضل بها أهلها فحصروها في الكبت واللاشعور والسادية والمازوشية والنرجسية والأوديبية والالكترية ومعطيات

إسقاطية أخرى، إن مجموعة من أساتذة المناهج في العالم العربي قد أقبلوا على هذه الإسقاطات التي فرضتها متغيرات حضارية لا صلة لها بواقعنا الإسلامي فطبقوها وفقا لقانون التلمذة الذي يحتم عليهم أن يقولوا ما قاله فرويد وآدلر ويونغ٠٠ وهكذا صار المبدع العربي المسلم كالمبدع الأوروبي لا فرق ما دام المنهج النفسي قد أراد ذلك، فعبقرية ليوناردو دافينشي التي ظهرت في لوحة (يوحنا المعمدان) لم تأته إلا من قبيل الشذوذ الجنسي، وكذلك فعل ديستوفسكي في (الإخوة كرامازوف) حين تحولت عقدة قتل الأب عنده إلى حالة من الصراع الهستيري، وهكذا حاول فرويد الأستاذ «أن يرد كل فنان وكل آثاره إلى أمراض نفسية سببتها عقد جنسية مكبوتة ترقد، بل تضطرب وتموج في اللاشعور»[١٥]٠

ووفقا لقانون التلمذة فقد جاء الإبداع عند أبي نواس وابن الرومي وأبي الطيب وأبي تمام وعمر بن أبي ربيعة٠٠ وفق ما يمليه المنهج النفسي، إذ راح معظم الدارسين يصفون هؤلاء الشعراء بصفات مرضية مضحكة أحيانا، وهكذا جنت المماثلة والمشابهة الجبرية على البحث عندنا، بل وعلى المكونات الثقافية التي لقنت لأجيالنا، فابن الرومي نشرحه وفق داء الطيرة، وأبو تمام وفق النرجسية، والمتنبي وفق العظمة، أما أبو نواس فنشرحه وفق «الاشتهاء والتوثين»[١٦] ووفق العشق الذي تجسد في ثنائية الأم والخمر، ذلك أن حبه للخمر - كما يعلل أحد الدارسين - «كان حب الاكبار، فهو يعدها شيئا نفيسا، شيئا جليلا مبجلا عزيزا يجد فيه صفة العظمة، بل يعدها أثمن شيء في الوجود»[١٧] والخمرة عنده هي المخلص وهي «تعويض جنسي عن النساء وتعويض عاطفي عن الأم، وتحقيق للنزوع الفاسد وإشباع للارتداد الطفولي»[١٨]٠

وبعد هذا التطرف المنهجي يأتي دارسون آخرون ليؤكدوا للمتلقي العربي المسلم أن الحسن بن هانىء شاعر زاهد مؤمن تقي مستدلين على ذلك ببعض أشعاره التي منها قوله:[١٩]

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة
فقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعا
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

العلمانية تقوم على فصل الكون عن الخالق سبحانه

ونتساءل بعد هذه المفارقات العجيبة كيف ستكون صورة المتلقي العربي المسلم؟ وكيف يكون ميزان الحكم عنده إن استطاع أن يمارس الحكم؟٠

والمشكلة نفسها مع المنهج الاجتماعي أو المنهج الأيديولوجي أو المنهج الواقعي، أو المدرسة الواقعية٠٠ حين لم يأت هؤلاء بجديد سوى الذي أخذوه عن طريق المشابهة والمماثلة فجماعة هذا المنهج قد استجابوا بحميمية لمنهج وافد ولد في ظل ظروف تاريخية خاصة ونقلوا بأمانة ذلك النقاش الحضاري

الطويل الذي أداره أوجيست كونت وإيميل زولا وبالزاك وماكسيم جوركي وجورج لوكاتش.. وبحكم الظرف الاستعماري الذي وجدت فيه معظم الأقطار العربية آنذاك، فقد مالت الكفة في المنهج الاجتماعي لصالح روسيا الشيوعية التي غدت قبلة لمعظم الكتاب والشعراء العرب الذين دعوا إلى تطبيق المنهج الماركسي الذي يعد على حد قول أحدهم «النظرية الوحيدة التي تعترف بالاساس الاجتماعي الطبقي للديمقراطية وتحدد السبيل العلمي لتوفير أرقى مستوى من الديمقراطية للمجتمع البشري»[٢٠]، لقد بذل كثير من المبشرين العرب جهودا مضنية في سبيل نشر هذا المنهج ومن هؤلاء ما فعله سلامة موسى الذي لم ير تقدم مصر إلا بمادية الفكر واشتراكيته، بل بمادية الأدب الذي يجب أن يتحول في رأيه إلى أدب صناعي لم يعرفه العرب بعد، حين قصروا إبداعهم في الأدب الزراعي، إن العرب في رأيه لم ينتهوا من ترجمة حياة معاوية بن أبي سفيان في الوقت الذي كان يجب أن يدرسوا «هنري فورد عبرة الصناعة في العصر الحديث»[٢١] وكذلك فعل محمود أمين العالم الذي تخرج في ظله مجموعة من الشعراء والكتاب العرب ومن هؤلاء نجد مجموعة من الشعراء الجزائريين الذين حاولوا أن يطبقوا هذه الأفكار فضلّوا وأضلوا وبلغ الأمر بأحدهم إلى أن يدعو إلى محو صورة العلم الجزائري واستبدالها بالعلم الروسي، فالمنجل والمطرقة كفيلان بأن يهبا للإنسان الجزائري حياة لا تستطيعها النجمة والهلال:[٢٢]

أعيروني شوارع هذه المدن الجميلة
كي أعيد صياغة الثورات
لا تكتبوا شيئا
لفائدة الفقير
فأجمل الأشعار
لم تكتب
وهاتوا منجلا ومطرقة
لنبدأ ثورة الفقراء

المثقف العربي تحول الى متلق نحيل هزيل أنهكه الجري وراء الوافد

وخلاصة هذا المنهج أنه ترك آثارا فكرية وسلوكية سيئة في معظم الأقطار العربية الإسلامية التي زكته كمنهج بديل، وهكذا ضاعت فرصة الانجازات الخيرة على هؤلاء حين لم يتحملوا مسؤولية السؤال عن هوية الأجيال التي جابهوها بكم هائل من الأفكار الميتة، ومن حق الأجيال بعد هذا أن تحرجهم بأسئلة منها: أين البديل الذي راهنتم عليه؟ وكيف هو حال الثقافة في الأقطار العربية التي ابتليت بهذا البديل؟ وما مصيرها وهي على أبواب القرن القادم؟.

إن الإجابة عن هذا ستكون مرعبة دون شك ذلك لأن الزمن الآتي لا يسود فيه إلا من ملك مفاتيح حضارية خاصة تؤهله للسيادة، أما الشعوب التي لم تدرك بعد هويتها، ولم تملك القرار بشأن ثقافتها التي بقيت تتراوح بين الدائرة العربية والإفريقية والمتوسطية والعالمية فستدخل القرن القادم مكتفية بالدونية التي تجعلها مع الداخلين وكفى!.

ب ـ المذاهب الأدبية:

إن قانون المماثلة والمشابهة الماضي نجده يتكرر في عالم المذاهب الأدبية بشكل أقوى وأوضح حين مارس المثقفون عندنا بشأن المذاهب الأوروبية عادة الترقب والانتظار، إذ لا شيء سوى أنهم وقفوا طيلة عقود من الزمن في طوابير ينتظرون الجديد حتى يقبلوا عليه والمحظوظ من هؤلاء من كان الأول في التأثر، وتبعا لذلك فقد تحول المثقف عندنا ـ في أغلب الأحيان ـ إلى متلق نحيل هزيل أنهكه الجري وراء الوافدات، فإذا جاءها وجدها القدوة والنموذج الذي لا يناقش، ووجد المثقف الأوروبي الذي يتعامل معه وفق قانون الأستاذية.

ويكفي أن نشير هنا إلى بعض المذاهب التي تحكمت في ثقافة أجيال بأكملها، ومنها المذهب الرومانسي هذا المذهب الخطير الذي حاول صانعوه أنفسهم أن يعرفوه فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا ولذلك قال أحدهم «من يحاول تعريف الرومانسية يدخل في مهمة خطيرة راح ضحيتها كثيرون»[٢٣] والخطورة ـ في رأينا ـ لا تكمن في تعريف المصطلح ذاته بقدر ما تكمن في الانسان الذي أوجد هذا المذهب، وهو الانسان الذي تفرقت به السبل حين قطع صلته بالله، وأجهد نفسه في البحث عن البديل المؤله، فكانت الطبيعة والعاطفة والخيال.. هذه هي سمات الانسان الذي أوجد الرومانسية وهو ـ كما نرى ـ ذو سمات حضارية خاصة.

وتبعا لقانون المشابهة فقد أقبل الرومانسيون عندنا على هذا المذهب وأخذوا الجمل بما حمل وأنتجوا وفقه أدبا رومانسيا دون أن يتحملوا مسؤولية الأجيال التي من حقها أن تعرف ـ مثلا ـ أن الرومانسية هذه ليست مذهبا أدبيا فحسب، بل هي سلوك حضاري خاص تحرك في ظله إنسان خاص، فأنتج أدبا خاصا، ومن هذا الأدب ما يتعلق بالهروب إلى الطبيعة التي توهم الرومانسي الغربي في ظلها «رؤية اللامحدود»[٢٤].

هنا يكمن الفرق الحضاري الذي يجب أن يعرفه المتلقي العربي المسلم ذلك لأن الاقبال على الطبيعة والافتتان بجمالها بما فيها من أشجار وأنهار وبحار لا يعد خطرا في ذاته، بل هو المستحب إذا كان المبدع ذا رؤية إسلامية تقوده «إلى الله بالعبادة لأنه هو خالق هذا الكون الجميل ومسخره للإنسان»[٢٥] والواضح أن كثيرا من الرومانسيين العرب لم يقبلوا على الطبيعة إلا كإقبال الرومانسي الأوروبي الذي جعل «الطبيعة إلها بدلا من الله»[٢٦].

لقد كون هذا البديل الهروبي في القصيدة العربية الحديثة ما يمكن أن ننعته بالمعجم الهستيري الغارق في عالم الشك والأوهام المفضية إلى تيه لا قرار له، وبإيجاز نورد الأمثلة الآتية: (وظلت حياتي تجوس الرمم، وتبحث عن أصلها في العدم.. والذات تسأل من أنا، أنا مثلها حيرى.. أنا لغز وذهابي كمجيئي طلسم.. أنا

المشابهة والمماثلة الحضارية للآخر جنت على ثقافتنا

من ضيع في الأوهام عمره.. قد يكون الغيب حلو إنما الحاضر أحلى ...) والواقع أن هذه الأشعار قد أسهمت فى التأسيس لجيل أقبل على دنياه بفردية فوضوية وخيال جامح وعنف عاطفي وضياع روحي، وهي السمات التي تضاعفت بعد ذلك بفعل جملة من المذاهب التي أعقبت الرومانسية والتي تراوحت بين الواقعية والبرناسية والرمزية والوجودية والسريالية، ودخلنا مع هذه المذاهب مجبرين إلى عالم الغثيان والتمرد واللامنتمي واللاجدوى.

البديل العروبي في القصيدة العربية الحديثة شكل المعجم الهستيري الفارق في عالم الشك والأوهام

ووجدنا مرة أخرى هذا المعجم العابث (لست أهوى جنة الله.. أنا الهادم والباني.. أنا الخالق إنساني.. فنحن جميعا أموات أنا ومحمد والله .. رقصت لجثة الإله.. نشارك الله قدرته.. الرب أصابه الخجل والحياء.. أنت يارب في السماء فاترك الأرض للبشر.. كان لي يوما إله .. من كوننا لم يكن تكوينه إلا سقيفة .. النهود .. الزنا .. السفاح .. المزابل .. السبايا).

[مجموعة من السخافات والكفر والإلحاد باسم الادب، والتجديد .. ومن انتقد شيئاً منها انهالت عليه الأقلام بالشتم والاساءة والتقليل من شأنه الفكري والثقافي.. بل رمى بالتخلف والرجعية.. واقلام الغثاثات هذه هى التى سادت حيناً من الزمن ـ وبكل الأسف ـ استقبلتها وسائل الاعلام بكل الترحاب، وما يكون لنا ان نسوِّد هذه الأسطر بهذا العبث الخارج عن كل مقاييس الذوق والأدب، إلا أنه الانموذج الرديء الذى شكل جيلا بأكمله].

المنهل.

وخلاصة هذه الثقافة الوافدة ما يلي:

١ـ التبعية الثقافية التي فصلت الأجيال عن هويتها حين أخضعتها للوافد الذي لا يكون الشرح أو التحليل إلا به «إن الأمة الإسلامية تقع اليوم بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية في منطقة الجاذبية الغربية، فهي مهما تحركت لا تتقلب إلا ضمن التأثر بها والالتفاف حولها»[٢٧]

لقد أجبر هذا الإكراه الحضاري شعوبا مسلمة بأكملها على أن تلقي بمصيرها بين أحضان غيرها، وتبعا لذلك فقد تحول الإنسان عندنا إلى تابع مستهلك ماتت فيه الذات وخمدت فيه روح الشرق.

لقد أمسى هذا الإنسان محطة للاستقبال والتأثر بعد أن كان محطة للتصدير والتأثير، لقد بدا الإنسان العربي في أخريات هذا القرن متأثرا متلهفا مقبلا بشراهة على ماديات أوروبا وأفكارها، وعلى حد قول الشاعر المغربي محمد علي الرباوي[٢٨]:

نحن بخير
فشوارعنا تستقبل كل مساء أحدث أنواع
الدراجات
وأحدث أنواع السيارات، وأحدث أنواع
الأزياء
ندخن أحدث أنواع التبغ
ومن سبتة نستورد
أحدث أنواع الخمر
نحن بخير

ولا نترك عنصر التبعية دون أن نشير إلى ثقافة الجبر والإكراه التي مارسها بعض من تولى شؤون الثقافة في العالم العربي، لا لشيء إلا لإرضاء أيديولوجيات وأفكار غريبة عن أمتهم ويكفي أن أورد الشاهد الآتي الذي وقع لي مع أستاذ جامعي جمعتني به مدرجات جامعة عربية عريقة حين كنت طالبا بقسم الدراسات العليا (آداب) لقد ناقشت الأستاذ في مشكلات حضارية تخص جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وما إن وصلت إلى رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - حتى أمرني بحكم الأستاذية أن أتوقف عن ذكر اسم هذا (العيّل) على حد قوله، وهو الأستاذ الذي هددني بالطرد بعد ذلك لأنني غبت محاضرته وحضرت مناقشة بحث أكاديمي في جامعة الأزهر، وقد أدركت بعد فترة أن الأستاذ يعاني من عقدة المماثلة والمشابهة.

«الطبيعة العاطفة الخيال البديل المؤلّه عند الرومانسيين»

٢ - التأسيس لثقافة عربية ذات أفكار غريبة، أو على حد قول مالك بن نبي «الأفكار الميتة»[٢٩] والأفكار هذه لم تؤسس لجيل حضاري - كما توهم البعض - بل ساعدت على زرع الريبة في عقول المتلقين، وقد حدث هذا حين مارس السيكوسوسيولوجي الشعبي في أحايين كثيرة عزوفا عن ثقافة لم يشارك في صنعها، ومن حق المتلقي أن يفعل ذلك لأنه أحس بأنه قد وقع ضحية لثقافة جنت عليه حين وجهت جهوده الحضارية المبذولة وفسرتها وفق معايير وافدة.

ويمكننا أن نضرب لذلك مثلا بجهاد الشعب الجزائري الذي شارك كثير من الكتاب والشعراء في تزويره فسلموه نصرا حاسما لمجموعات مشبوهة لا علاقة لها بالشعب، فاستغلته سياسيا وثقافيا واجتماعيا، والمؤسف أن يقع هذا لأن هؤلاء المبدعين لم يقرأوا الثورة الجزائرية من الداخل، بل قرأوها وفق معايير أرادها ماركس وميشال عفلق والحزب الشيوعي الفرنسي، بل أساء هؤلاء المبدعون إلى الشعب الجزائري حين أخضعوه في سبعينيات هذا القرن - بخاصة - إلى ثقافة لا علاقة له بها، ولم يكتفوا بذلك بل عادوا في نهاية هذا القرن أو فيما يسمى مجازا بعصر الديمقراطية، وشاهدناهم على شاشات التلفزيون وهم يناقشون وفقا لقانون المشابهة والمماثلة،

هستيريا التبعية ولدت ازدواجية ثقافية خطيرة

وخلاصة المناقشات ان الجزائر لا حظّ لها فى التقدم إلا إذا أدارت ظهرها للعربية والإسلام.

٣ ـ نشوء أجيال ذات سلوك ساخر غير مبال ، وقد تم ذلك مع كل جميل جليل مشرق كالأرض والعرض والتاريخ والوطن والشهيد، فهذه الأسس الحضارية الضامنة للحياة صارت بلا قيمة عند كثير من الناس فالوطن صار أوطانا وأقاليم وجغرافية الأرض أضحت مخيفة والشهيد صار نفاية من نفايات أمس، والتاريخ لم يعد نموذجا للاقتداء، ولنتأمل بعد هذا كيف تكون حياة الشعوب العربية المسلمة، يقول مالك بن نبي في هذا الشأن «وعندما تنمحي النماذج المثالية حينئذٍ لا تسمع أبدا لهجة الروح في تناغم اللحن، فالأفكار الموضوعة حين لا يعود لها جذور في الغلاف الثقافي الأساسي تصمت هي بدورها إذ لم تعد لديها ما تعبر عنه ثم إنها لم تعد تستطيع أن تعبر عن شيء، والمجتمع الذي يصل إلى هذه الدرجة يتفتت لأنه لم تعد لديه دوافع مشتركة»[٣٠].

٤ ـ ضبابية الرؤية المستقبلية وغموضها لدى الأجيال التي لا ترى المستقبل إلا سرابا، أما الحاضر فلم يتوفر فيه إلا البديل الذي يلغي البديل، وبهذا السلوك تكون «المشاريع الثقافية التى قدمت على أنها مشاريع مستقبلية ظلت تنفخ في الرماد لأنها كانت تستنسخ منهجا غريبا صار عواره باديا للعيان»[٣٠].

٥ ـ نشوء ازدواجية ثقافية خطيرة في الفكر وفي اللغة إذ ما معنى أن يحتاج بعضنا إلى الترجمان في بعض العواصم العربية التي تتعامل بلغة لا علاقة لها بلغتها الرسمية، لقد عانى الشاعر المغربي علال الفاسي من هذا الاغتراب الثقافي حين قال:[٣٢].

عار قد استعجمت أقوالنا وغدت
أفكارنا بمعاني الخصم تتحد
نحتاج ما بيننا للترجمان كما
يحتاج إخواننا في الضاد إن وجدوا
يا ويح أمتنا ممن يكيد لها
ومن حليف له من نبعه يرد

وتكون مأساة الشاعر الجزائري محمد بلقاسم خمار أخطر حين تسول بالعربية في شوارع عاصمة الجزائر فلم يطرب له أحد، ذلك لأن هذه الشوارع لا تتعامل إلا بلغة المستعمر الذي عاد بصورته الفكرية والثقافية بعد الاستقلال، وتجاوب بتناغم كبير مع تلك الأصنام التي زرعها ذات يوم[٣٣]:

مددت ذراعي وكفي
تسولت بالعربية
فلم يطربوا لي
تواضعت
حتى غدوت كموطىء خف
فلم يرحموني

وقد أدت هذه الازدواجية الثقافية أخيرا إلى التطرف الفكري بين الأجيال العربية المسلمة التي صارت تميل إلى سلوكات غير حضارية في التعامل مع بعضها.

وخلاصة الرأي أن على أهل الثقافة في العالم العربي - إذا أرادوا أن يوفروا لأمتهم العزة والتمايز - أن يقفوا لحظة ليفكروا في مصير ثقافتهم التي لا تكون إلا إذا زودت بالمناخ الإيماني الذي يمنح هؤلاء «أناهم» المفقودة، ولن يكون ذلك إلا بمؤسسات تضاهي ما مضى فلعلنا نحصل بذلك على جغرافية في القرن القادم تشبه جغرافية الشعوب المحترمة.

الإنسان العربي المعاصر تحول إلى تابع مستهلك ماتت فيه الذات

الهوامش:

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق ١٩٦٩، ص ٨٣.

(٢) الفكر المنهجي عند المحدثين، د. همام عبد الرحيم سعيد، كتاب الأمة، ط١، قطر ١٤٠٨هـ، ص٢٢.

(٣) سنن ابن ماجة، مج٢، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ص٨٢٥.

(٤) البحث الأدبي، د. شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، ص١٥٥.

(٥) الإمام البخاري محدثا وفقيها، د. الحسيني عبد المجيد هاشم، مصر العربية للنشر والتوزيع، ص٢٥٥.

(٦) صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، ص١٣.

(٧) الفكر المنهجي عند المحدثين، ص١٦.

(٨) أنظر الأدب المقارن، د. محمد غنيمي هلال، ط٥، دار العودة، بيروت، ص١٠٦.

(٩) نقد الشعر الحديث، د. أحمد بسام الساعي، المسلم المعاصر، ع٣٧، ص١٦٢.

(١٠) مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، د. عمر الطالب، ط١، دار اليسر للنشر والتوزيع الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨، ص٢١.

(١١) مشكلة الأفكار، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ص٤٢.

(١٢) الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفي السباعي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩، ص٢٥.

(١٣) سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي، دار البعث، قسنطينة ١٩٨٥، ص٥٥.

(١٤) المشكاة، ع١١، س٣، شعبان ١٤٠٩هـ، ص١١.

(١٥) مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، ص٦٠.

(١٦) أبو نواس الحسن بن هانيء، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٨، ص٣٧ - ٣٨.

(١٧) نفسية أبي نواس، محمد النويهي، دار الفكر، ط٢، ص٤٤.

(١٨) نفسه ، ص ١٥٨.

(١٩) ديوان أبي نواس، دار بيروت، ١٤٠٦هـ ، ص٦١٨.

(٢٠) مجلة الهلال، ع٦، جوان ١٩٦٥، ص٧١.

(٢١) البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى، مطبعة سلامة موسى، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤، ص٨.

(٢٢) الثقافة والثورة، ع١١، وزارة التعليم العالي، الجزائر ١٩٨٤، ص٦٧.

(٢٣) موسوعة المصلح النقدي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مج١، دار الرشيد، العراق ص١٦١.

(٢٤) نفسه ، ص ١٦٣.

(٢٥) مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ط٢، دار الشروق، ١٩٨٧، ص٤٨٩.

(٢٦) نفسه، ص ٤٨٩.

(٢٧) منهج الحضارة الانسانية في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق، ص١٦٦.

(٢٨) الولد المر، محمد علي الرباوي، ط١، المطبعة المركزية، وجدة، ١٩٨٨، ص٤٧.

(٢٩) مشكلة الأفكار ، ص١٤٦.

(٣٠) نفسه ، ص٧٤.

(٣١) ثقافتنا المعاصرة بين الكائن والممكن، د. حسن الأمراني، المشكاة، ع١٤، ص١٤.

(٣٢) المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي، د. حسن الوراكلي، ط١، مكتبة المعارف ، الرباط ١٤٠٥هـ ص ١٤٧.

(٣٣) الحرف الضوء، محمد بلقاسم خمار، ش و ن ت ، الجزائر، ص١٦٢.

آفة العصر

فى الوقت الذى اختفت فيه المخدرات من مصر والعالم العربى بعد أن حاربها صلاح الدين وغيره من الملوك والسلاطين على حد قول المقريزى «ثم جاء الأمير سودون الشيخوخي ـ رحمه الله ـ فتتبع الموضع الذى يعرف بالجنينة من أرض الطبالة بباب اللوق وعسكر في بولاق، وأتلف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة وقبض على كل من كان يبتلعها من أطراف الناس ورزائلهم وعاقب على فعلها بخلع الاضراس، فخلع اضراس كثير من الناس[١]٠

وهكذا تخلصت مصر قلب العالم الاسلامي، والأمة العربية من شرور هذه المخدرات قروناً طويلة إلى أن جاء الاستعمار البريطاني إذ أدرك أن خطورة المخدرات اكثر وأشد فتكاً من السلاح.

احمد اسماعيل عبد الكريم
- مصر -

ووعي ولاحظ أن هذه الدول في أشد الحاجة إلى الانتفاع بطاقات ابنائها وعقول شبابها وسواعد رجالها من أجل بناء صرح الأمة وانجاز خطط التنمية واللحاق بركب الحضارة ومواكبة التقدم العلمى الرهيب، وقد استخدمت بريطانيا في ترويج السموم المخدرة الى العالم العربى والاسلامى كل السبل الممكنة بطرق شتى يستنكرها الضمير العالمى وتشجبها الاعراف الدولية وتؤاخذ عليها وتحسب عليها في ميزان السيئات فى حقل السياسة الدولية ومن يقلّب فى صفحات التاريخ يجد الكثير مما ارتكبته بريطانيا وجيوشها من آثام فى سبيل نشر المخدرات.

- شجيرات الكوكا

فقد جعلت بريطانيا من فلسطين مرتعاً خصباً تزرع فيه الحشيش والأفيون كما الحال فى أرض الهند وتصدره إلى الدول العربية والإسلامية ولم تستطع الدول العربية درء أو مواجهة هذا الخطر الجسيم بطريقة حاسمة بسبب تدخل المندوب السامي البريطانى، على أثر ذلك جندت مصر فرقة خاصة من حرس الحدود الوطنيين (الهجانة) لمكافحة المخدرات، أو محاولة تقليص دخولها، عند ذلك أصرت بريطانيا ان يكون رئيس هذه الفرقة ضابطاً بريطانياً، فكان فى الواقع ينظم ويسهل وصول المخدرات إلى طالبيها وتجارها تحت اسم مكافحة المخدرات[٢]

انتهى عهد الملكية فى مصر بقيام ثورة ٢٣ يوليو التى أصدرت أول قانون حاسم يقضى بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة على كل من يتاجر فى المخدرات وكان من المأمول أن يقضى هذا القانون على تجارة المخدرات ولكن الاستعمار الإسرائيلى للمنطقة جعل الوطن العربى يزداد فى تجارة المخدرات وأخذت إسرائيل تمول تجارة المخدرات بأنواع عديدة وتتفنن وتتوسع فى زراعتها فى أرض فلسطين المحتلة، وتصدرها

بشتى الطرق والحيل سواء أكانت عن طريق البر، أو البحر أو الجو[٣]

أهداف الاستعمار:

لقد أعلن الاستعمار وأعوانه الحرب على الشعوب التي لا تدين المسيحية بطريقة سهلة، ومريحة، وغير مكلفة بل تجلب لهم النفع وتحقق لهم غرضهم الخبيث وقد تحقق لهم الربح المادى الوفير، ولكون المخدرات اكثر تدميراً وأشد فتكاً من الأسلحة التقليدية، إذ أن سموم المخدرات تنتشر في أبدان الشعب من قبل أبناء الشعب أنفسهم ـ لأغراض تحقيق الكسب المادي دون النظر للمصلحة القومية ـ دون صخب، أو دوي أو انفجار[٤] من هنا تتجسد الأخطار المتزايدة للمخدرات في عالم اليوم، إذ تحول الأمر إلى معركة شرسة تدور رحاها في بقاع شتى وفى ستر بعيد عن أعين القانون، هذه الحرب الخطيرة تخوضها الانسانية جميعها في مواجهة هذا الخطر الداهم والذى تقف من ورائه منظمات عالمية على قدر بالغ من القوة والثراء، ويرى بعض المحللين أن هناك دولا بعينها وراء هذا التورط المتزايد في عالم المخدرات، وأن هذا التنظيم الدولى يستخدم المخدرات كسلاح من أسلحة الحرب ضد الشعوب المستهدفة، وأنه يرمي إلى زرع الوهن والضعف بين شباب الشعب المستهدف الذى سيفقد مع المخدرات كل ارادته وعنفوانه ويستسلم للاضمحلال والتفكك وهو ما تحققه المخدرات اكثر من أى سلاح آخر.

ويجدر بنا أن نوضح الدور الذى تلعبه الصهيونية في محاولاتها المستميته لهدم القيم الاخلاقية الفاضلة ونشر الفساد والفجور، وتقويض الاخلاقيات وفتح منافذ الفواحش والانحلال وغيرها مما لا يمكن تحقيقه إلا بنشر المخدرات وترويج السموم، وفى هذا الصدد تقول بروتوكولات حكام صهيون «يجب أن نعمل لتنهار الاخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا، ان فرويد منا وسيظل يعرض للعلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكى لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الاكبر هو ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار الأخلاق[٥] وقد ذكرت وكالات أنباء أن يهود أمريكا هم الذين يتحكمون في شبكة تجارة وترويج المخدرات حتى في المجتمع الامريكي نفسه.

ويرى المحللون أن الشعوب العربية خاصة والإسلامية بعامة تأتي على قمة الشعوب المستهدفة وأن الغاية الكبرى لحرب المخدرات في البلاد العربية هي الانهيار الإجتماعى الذى يعقبه الإنهيار الاقتصادى والإستسلام لارادة الدول الخارجية وهي منتهى أى هدف سياسي في أى مكان في العالم على مدى التاريخ[٦] وربما يختلف آخرون مع هذا التحليل ممن يعتقدون في حسن نية الغرب أو أنهم أصدقاء مخلصون يقدمون العون والمساعدات المادية ناسين ما يكنه هؤلاء للشرق الإسلامى وديار الاسلام من حقد وكراهية لا حدود لها، ولذا كان لزاماً عليَّ أن أعرض لما قاله قادة الغرب ، وسوف تبقى على مر التاريخ أقوال قادة الغرب شاهدة شهادة تاريخية أن للغرب والحضارة الغربية بألوانها السياسية ومذاهبها وأيديولوجياتها المختلفة موقفاً عدائياً ضد الاسلام لا يتغير ولن يتغير، وأنها تحاول تدمير الاسلام وانهاء وجوده، كان جنديهم ينادى بأعلى صوته حين كان يلبس بزة الحرب قادماً لاستعمار بلاد الاسلام: «أماه سأحارب الديانة الاسلامية، سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن[٧].

كما يقول أيوجين روستو رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية ومساعد وزير الخارجية الأمريكية ومستشار الرئيس الأمريكى جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧: «يجب أن ندرك تماماً أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول، أو

شعوب، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية[٨].

ولقد قال القرآن العظيم {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتهم}[٩].

ويؤكد «مسيوبيدو» وزير خارجية فرنسا أن الصراع بين الاسلام والمسيحية هو صراع عقائدى لا ينحدر عن هذا الهدف أبداً فيقول «انها معركة بين الهلال والصليب»[١٠].

ان هدف الاستعمار هو تدمير الجنس العربى الاسلامى ودحره من الوجود بأي وسيلة، لِمَ لا وهم يعرفون جيداً أن أسباب النصر للمسلمين هى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله {صلى الله عليه وسلم} وقد روى فى السيرة أن «هرقل» عندما كان فى انطاكية وقدمت الروم منهزمة قال لهم: ويلكم؟ اخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى قال: أأنتم اكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن اكثر منهم اضعافاً فى كل موطن قال: فما بالكم تنهزمون؟ قال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصحون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزنى ونرتكب الحرام وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضي الله ونفسد فى الأرض. فقال: أنت صدقتنى.. إذاً فهم يعرفون أسباب نصر المسلمين وقوتهم لذا فهم يعملون جاهدين على محو هذه الأسباب التى تخيفهم وتزرع الجبن والخوف فى قلوبهم، مما يدفع قادتهم لنصحهم وتذكيرهم بهذه المعلومات من آن لآخر فهذا قول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً «ما دام هذا القرآن موجوداً فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هى نفسها فى أمان». ويقول الحاكم الفرنسي فى الجزائر «اننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربى من ألسنتهم[١١].

وهذا القول يؤكده المستشرق غاردنر «إن القوة التى تكمن فى الاسلام هى التى تخيف أوروبا»[١٢] ويقول انطونى نانتج فى كتابه «العرب» منذ جمع محمد[١٣] انصاره فى مطلع القرن السابع الميلادى، وبدأ أول خطوات الانتشار الاسلامى فان على العالم الغربى أن يحسب حساب الاسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط[١٤] ويقول المستشرق الفرنسى كيمون - اخزاه الله وامثاله - فى كتابه «باثولوجيا الاسلام» اعتقد أنه من الواجب علينا إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد[١٥] فى متحف اللوفر».

فى اعتقادنا أن هذه الأقوال كافية للاستدلال على أن المخدرات سلاح جديد نحارب به فى عقر ديارنا - وبأيدى بعض اخواننا المسلمين المغرر بهم والذين يشتركون معنا فى الهم - وهذا السلاح كفيل ان يحقق الإبادة الشاملة التى ينشدها المستعمر مع الحكم بالاشغال الشاقة وتدمير العقل العربى والمسلم كما يريد المستشرق الفرنسى كيمون وأمثاله.

لقد ثبت بالفعل قيام السلطات الاسرائيلية بتهريب وتوزيع المخدرات بين أوساط الفلسطينيين، وغيرهم من العرب فى المناطق التى يقيمون فيها وفى داخل السجون الاسرائيلية التى يودعون فيها[١٦]. ذلك بقصد تدمير العنصر العربى عامة والفلسطيني خاصة، ولغرض شل حركته فى المقاومة، ومن هنا يظهر لنا الأمر جلياً ان المخدرات سلاح جديد فى هيئته ، متطور يتناسب مع متطلبات العصر وتطوراته المذهلة، فهل يعقل مثلا أن يحاربنا اعداؤنا بأسلحة ثقيلة نتائجها معروفة مع توافر البديل الاجدى والانفع مع تحقيق الغرض نفسه فى سرية تامة وصداقة متينة؟! لأنهم

يعرفون إذا اعلنوا بذلك صراحة وفي ثوب من العدائية فلن يتحقق لهم ما يريدون.

التدخين:

لابد لمتناول موضوع المخدرات أن يطرق باب التدخين، لأن المخدرات هي مدينة الإدمان، والدخان بوابتها الرئيسية، ولذا وجدتني مرغماً أن أتحدث عن التدخين وأضراره المختلفة.

ولما كان التدخين في أيامنا هذه أصبح عادة من العادات التي استشرى خطرها بين الكثير من الناس الصغير والكبير الغني والفقير العالم والجاهل العاقل والسفيه، ولما كان نهي رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن كل شيء ذي ضرر بالجسم والعقل لا يقبل المساومة ولا يحتمل الجدال فيما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها «نهى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن كل مسكر ومفتر» أبو داود، لذا نجد أن من فقهاء الحنفية من حرم شربه وهو نجم الدين الزاهدي؛ لأنه مفتر واستدل بحديث رسول الله السابق ذكره وقال: ليس من الكبائر تناوله المرة أو المرتين، ومع نهي ولي الأمر عنه يحرم قطعاً على أن استعماله ربما أضر بالبدن ويعتبر الإصرار عليه كبيرة كسائر الصغائر إذا أصر عليه». وقال بكراهته العماري شيخ صاحب الدر إلحاقاً بالثوم والبصل وكل ما ينتن الفم.

وعند المالكية والشافعية حرام وسبب ذلك أنه يفتح مجاري البدن ويهيئها لقبول الأمراض المضرة، ولذلك ينشأ عنه الترهل والتساهل الشديدين ونحوهما وربما أدى إلى العمى كما هو محسوس ومشاهد ويحصل منه دوران الرأس أيضاً [١٦] ولا يخفى على أحد أضرار التدخين وخطورته، فقد اعلنت منظمة الصحة العالمية أن التدخين أشد خطراً على الإنسان من امراض السل والجذام والطاعون والجدري مجتمعة[١٧]، وقد وقف العلماء والأطباء ضد التدخين منذ وجوده وأصدروا الفتاوى في تجريمه، وكل مدخن لا يفوته أن يقرأ ما هو مكتوب على علب السجائر «التدخين ضار جداً بالصحة» ولا غرو أن أعرف الناس بأضرار التدخين هم الأطباء وللأسف أن بعضهم مدمن - إن لم يكن الغالبية - التدخين.

وقد جاء في أدب المحلى أن الطنباك والدخان هو نبات سمته العرب الطباق وبتحليله اتضح أنه يحتوي على مادة سامة إذا وضع منها نقطتان في فم كلب مات في الحال، وخمس نقط منها تكفي لقتل جمل، والأمم المتوحشة تمضغه، وهذه اكثر الطرق ضرراً لدخوله في المعدة مع الريق وقد نشأ استعمال الطباق بين الأمم على ما به من ضرر[١٨].

وقد أثبت الأطباء أن الطباق يؤثر في القلب، فيحدث فيه خفقاناً ويؤثر في الرئتين، وفي المعدة، فينشيء فيها ضعفاً في شهوة الأكل ويحدث في العينين رمداً وفي المجموع العصبي فتوراً:

ويقول الدكتور دمرداش احمد بادئاً حديثه.

ولم أر في عيوب الناس عيباً: كنقص القادرين على الكمال، ويستطرد قائلا «لا أظن أن الجنس البشري منذ بدء الخليقة ضعف أو استكان أمام عدو من أعدائه كما فعل أمام التدخين، كما أسرته هذه العادة وأوثقته وأذلت كبرياءه استوى في ذلك صغار العمال الكادحين الذين يقتطعون من أقواتهم وأقوات عيالهم وكبار الأطباء والفلاسفة والمفكرين الذين أضاءت الكون عبقرياتهم وكشفوا هذه الآفاق البعيدة في مختلف الفنون والعلوم[١٩] وقد كان السائد المعروف أن التدخين باعتدال قليل الضرر أو عديمه للشخص السليم، لكن البحوث العلمية المتصلة في السنين الأخيرة اثبتت أن الضرر الذي يحدثه التدخين لم يخطر أبداً على بال مدخن وإليك الحقائق التي اثبتتها هذه البحوث:

قال الاستاذ «ديموند بالمير»[٢٠] بتتبع عشرين ألف حالة منهم مسرفون ومعتدلون وممتنعون أنشأ

كل منهم سجلا خاصاً بجامعة جون «هويكنز» أثبتت فيه كل ما يتعلق بصحتهم وأمراضهم وعوائدهم وبدأت أبحاثه سنة ١٩١٩م وانتهت سنة ١٩٤٠ بالنتيجة الآتية:

يؤثر تدخين التبغ على حياة الإنسان أثراً بالغاً ، فتقصر هذه الحياة قصراً بيناً يتناسب مع كمية التبغ المتعاطاة والممتنعون اطول أعماراً من المعتدلين، والمعتدلون أطول أعماراً من المسرفين، وفي منتصف عام ١٩٦٥ أعلن الدكتور وليم كار الاستاذ بجامعة تورنتوا بكندا أنه أجرى أبحاثاً مع بعض العلماء في معهد بانتنج أظهرت أول دليل على وجود علاقة عضوية كيميائية بين التدخين والإصابة بمرض السرطان وقال: ان جميع نتائج الدراسات السابقة عن العلاقة بين التدخين والسرطان كانت مبنية على أساس احصاءات، وأضاف كار أن البحوث التى قام بها اثبتت وجود بعض المواد التى تسبب الإصابة بالسرطان بكميات غير طبيعية فى بول المدخنين الذين أجريت عليهم البحوث، وقد انخفضت هذه الكميات عندما توقفوا عن التدخين وازدادت ثانية عندما عادوا إليه.

وقد اكد كار أن التدخين يمنع افراز الإنزيمات التى تيسر هضم وامتصاص بعض المواد الكيماوية النافعة الموجودة فى الطعام مما يؤدى إلى تجمع هذه المواد التى يمكن أن تؤدى الى الاصابة بالسرطان فى ظروف معينة[٢١].

رأى الاسلام فى التدخين والمخدرات:

يزاول البعض ـ باستمرار ـ عادة التدخين وبشراهة بحجة أنه لا يدخل فى عموم المحرمات، ولم تثبت حرمته الدينية ويكفى دليلا على حرمته ما جاء فى كتاب الله عز وجل {ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث}[٢٢].

يقول بعض العلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة، فكل ما أحل الله تعالى من المأكل والمشرب فهو طيب نافع فى البدن والدين وكل ما حرمه الله تعالى فهو خبيث ضار فى البدن والدين. وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين واجب[٢٣].

وفى مذهب مالك ان الطيبات هى المحللات فكأنه وصفها بالطيب وهى لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً[٢٤] من ذلك يتضح لنا أن هذه الآية الكريمة تقسم الاشياء الى قسمين: أحدهما طيب نافع فى البدن والدين فهو حلال والآخر خبيث ضار فى البدن والدين ومعروف بآثاره السيئة على جميع مناحى الحياة فهو حرام ولا يوجد بينهما

بين البين ولو تساءلنا: هل الدخان من الطيبات أم من الخبائث؟! في اعتقادنا لا يختلف اثنان - إذا تحاكما إلى العقل - على أنه من الخبائث يهلك الأبدان ويفت في الأجساد ويفتر الأعضاء، يميت النخوه ويقتل الحرث والنسل وذلك كله قد نهى عنه الشرع الحنيف في قوله تعالى {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وانتم تعلمون}[٢٥] وقوله عز وجل: {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً}[٢٦].

فهذه الآيات وما أشبهها حرم الله بها كل خبيث أو ضار.. فكل ما يستخبث أو يضر فانه لا يحل والخبيث والضار يعرف بآثاره وما يترتب عليه من المفاسد وهذا له مفاسد وأضرار كثيرة محسوسة كل واحد يعرفها وأهله من أعرف الناس بها ولكن يرجع عدم الاقلاع عن هذا الداء الخبيث إلى ضعف الارادة وتغلب النفوس على قوة اصحابها مع شعورهم بالضرر الجسيم الواقع عليهم، وهم يعرفون مدى أضراره ويعرفون الفرق بين ان كانوا غير مدخنين وبينهم الآن في حال تدخينهم ويحسون بمدى تدهور صحتهم عن ذي قبل لكنهم لا يستطيعون أن يعلنوا ذلك، لأنه يتنافى مع واقعهم الحالي وقد قال العلماء يحرم كل طعام وشراب فيه مضرة ومن مضاره الدينية أنه يثقل على العبد العبادات والقيام بالمأمورات وخصوصاً الصيام، وما كره العبد للخير، فإنه شر، وكذلك فإنه يدعو الى مخالطة الأرزال ويزهد في مجالسة الأخيار كما هو مشاهد، وهذا من أعظم النقائض أن يكون العبد مؤالفا للأشرار متباعداً عن الأخيار، ويترتب على ذلك العداوة لأهل الخير والبغض لهم والقدح فيهم والزهد في طريقهم ومتى ابتلى به الصغار والشباب سقطوا بالمرة ودخلوا في مداخل قبيحة وكان ذلك عنواناً على سقوط أخلاقهم، فهو مفتاح باب لشرور كثيرة فضلا عن ضرره الذاتي[٢٧] وكل ما يضر فأكله، أو شربه حرام وهنا قاعدة عامة مقررة في شريعة الاسلام، وهي أنه لا يحل للمسلم أن يتناول من الأطعمة، أو الأشربة شيئاً يقتله بسرعة أو ببطء كالسم بأنواعه أو يضره أو يؤذيه ولا أن يكثر من طعام أو شراب يؤدي الإكثار منه الى المرض؛ لأن الانسان ليس ملكاً لنفسه وانما هو ملك لله ودينه وأمته وحياته وصحته ونعم الله كلها عليه وديعة عنده لا يحل له التفريط فيها أو الإفراط فيها[٢٨]، وقد اكد العلماء ضرر التدخين.

الأضرار البدنية:

أما الأضرار البدنية فكثيرة جدا، وأكثر بكثير جداً من أن نلم ببعض منها وتتضح لنا الآثار التي يسببها التدخين إصابة المدخن بالوهن البدني وضعف الإبصار والارهاق وقد لوحظ أن له سريانا ونفوذاً في البدن والعروق، فيوهن القوى ويمنع الانتفاع الكلي بالغذاء، ومتى اجتمع الأمران اشتد الخطر وعظم البلاء ومنها اضعاف القلب واضطراب الأعصاب، فتحدث الأعراض التالية نتيجة تنشيط الجهاز العصبي اللا إرادي: ارتعاش الأطراف وتقلصات وضعف الذاكرة وزيادة إفرازات العرق واضطرابات في النوم وضعف القوى الحسية كما أن معظم حوادث السيارات واصابات العمل واضطرابات الحياة العائلية تكون نسبتها اكبر بين المدخنين والمدمنين.

ولما كان التدخين أول مداخله لجسم الانسان الجهاز التنفسي، فإنه يسبب التهابات الأغشية المخاطية المبطنة للجهاز التنفسي نتيجة استنشاق الهواء الساخن المحمل بالمواد الكيماوية الموجودة في الدخان مما يسبب ضعفاً في مقاومة هذه الأغشية للميكروبات، فتسهل العدوى والإصابة الحادة للجهاز التنفسي هذا بالإضافة الى أنه يساعد في نشر الأمراض وانتقال العدوى بين المدخنين في المقاهي الذين اعتادوا التدخين على النارجيلة. وبالإضافة الى هذا كله يسبب التدخين السعال والنزلات الشديدة التي ربما أدت إلى

الاختناق وضيق التنفس، فكم له من قتيل أو مشرف على الهلاك وقد قرر غير واحد من الاطباء أن لشرب الدخان الأثر الطبى الاكبر فى الإصابة بالامراض الصدرية المزمنة وهى السل وتوابعه وله أثر محسوس فى مرض السرطان وهذه من أخطر الأمراض المزمنة وأصعبها.

وأول مراحل التدخين ينتج ضيقاً فى التنفس وألاماً فى الصدر نتيجة ضيق شديد فى الشعب الهوائية يقلل من المجهود الجسمانى والطاقة الحيوية، كما أنه يزيد من حدة الإصابة بسرطان الرئة والحنجرة وقد اثبتت البحوث أن من بين حالات الوفاة بسرطان الرئة (١١) من المدخنين إلى (١) من غير المدخنين.

وتؤكد الابحاث ان التدخين هو السبب الرئيسى لالتهاب القصبات المزمن وترتفع هذه النسبة فتبلغ ٢٥٪ بين الذين يدخنون باعتدال «اقل من ١٥ سيجارة يوميا» وتبلغ ٤٥٪ بين الذين يدخنون بافراط اكثر من «١٥ سيجارة يوميا» كما يبدو بوضوح من هذه الأرقام فان غير المدخنين قد يصابون بالمرض وأن اكثر من نصف المدخنين قد يصابون بالمرض. ويتسبب التدخين فى تغيرات مرضية خطيرة تقلل من كفاءة الاسناخ الرئوية فى عملية التبادل الغازى وقد خلصت الأبحاث التى قام بها فلتشر فى لندن أن الامتناع عن التدخين ضرورى جداً لوقف التهاب القصبات المزمن.

سلامة القلب فى سلامة الجسد:

يقول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} .. «ألا إنّ فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح سائر الجسد واذا فسدت، فسد سائر الجسد ألا وهي القلب» فأمراض القلب من الأمراض الخطيرة والمعضلة التى لا يمكن شفاؤها وليس علاجها بالشيء السهل أو الأمر اليسير واذا قدر للانسان الشفاء فإنه لا يكون سويا صحيحا كما كان عن ذى قبل، ولكن سرعان ما تنتابه الأمراض وتنوشه المتاعب من كل جنس ولون، فنجد أنه لا يقوى على تحمل أى مجهود عضلى أو جسمانى أو نفسى، فالتدخين يؤدى إلى زيادة اضطرابات سرعة دقات القلب وارتفاع ضغط الدم مع نوبات قلبية حادة خاصة للمصابين بضيق الشريان التاجى والإصابة بالذبحة الصدرية للمدخنين ويبلغ عددهم أكثر من ضعف عدد غير المدخنين بالاضافة إلى أنه يؤدى إلى نقص وصول الدم للجلد والأطراف نتيجة انقباض الأوعية الدموية بها كما يسهل الاصابة بتصلب الشرايين بزيادة الاقبال على التدخين والافراط فيه يزداد معدل الإصابة بالأمراض العضوية والنفسية عند المدخنين مما يسبب عدم تكامل النشاط الجسمانى والى الإصابة بالأمراض المركبة، التهاب الغدد، الغشاء المبطن للأنف والفم، احداث القرح فى المعدة، الامعاء، الاثني عشر، نقص الوزن، التهيجات العصبية.

التدخين ومعدلات الوفاه:

تتناسب معدلات الوفاة عند التدخين تناسباً طردياً، فكلما زادت معدلات التدخين زادت معها معدلات الوفيات وقد اكدت بعض التقارير ان التدخين يزيد من معدل الوفيات بنسبة ٥٠ ـ ٧٠٪ وقد لوحظ وجود علاقة بدرجات متفاوته بين المدخنين والوفاه نتيجة الاصابة بسرطان الرئة والحنجرة والجهاز الهضمى والنزلات الشعبية وغيرها من الأمراض الخطيرة الناجمة عن التدخين.

وقد اكد الدكتور كيث بول على ارتفاع نسبة الوفاة بين المدخنين، إذ خسرت بريطانيا مليون انسان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب تدخين السجائر وستخسر مليوناً آخر قبل نهاية هذا القرن إذا استمر الحال ولم يتغير. وأعلن وكيل وزارة الصحة الأمريكى أن عدد الذين يموتون فى الولايات المتحدة الامريكية سنوياً بسبب التدخين يقدر بحوالى ٣٥٠ ألف

شخص[٢٩].

وثمة دراسة ميدانية دقيقة واسعة النطاق قامت بها منظمة الصحة العالمية والصندوق الملكى لابحاث السرطان فى بريطانيا وجمعية السرطان الامريكية اكدت الدراسة أن التدخين يقتل ستة اشخاص كل دقيقة فى العالم وانه السبب الرئيسى فى الوفيات بين الكبار فى العالم المتقدم وقال التقرير أن ثلاثة ملايين شخص فى العالم يموتون بسبب التدخين كل عام وانه إذا استمر العالم يزاول هذه العادة الاجرامية سيزداد هذا الرقم ويتضاعف ثلاث مرات فى العقدين القادمين وأوضح التقرير أنه فى معظم دول العالم سوف يأتى ما هو أسوأ وذلك مع وصول الجيل الحالى من المدخنين الشباب الى منتصف العمر حيث يبلغ عدد الوفيات نتيجة التدخين ١٠ ملايين شخص كل عام بمعدل حالة وفاة كل ثلاث ثوان أى ٢٠ وفاة فى كل دقيقة أى ١٢٠ حالة وفاة فى الساعة الواحدة وعلينا أن نتدبر هذا الرقم جيداً فهو لا يحدث فى ساحات القتال!

وقد كشف التقرير بعض الأرقام المخيفة والمفزعة، ففى الفترة ما بين ١٩٥٠ حتى عام ٢٠٠٠ سوف يقتل التدخين ٦٠ مليون شخص فى العالم المتقدم وحده من بينهم ٤٠ مليوناً فى السن ما بين ٣٥ و٦٩ عاماً.

وتبرز لنا التقارير من خلال الأرقام ان التدخين يتسبب فى ثلث الوفيات بين الرجال فى منتصف العمر وان الذين يموتون فى هذه السن يفقدون اكثر من عشرين سنة من أعمارهم، أو على الأقل يعيشون هذه الفترة العمرية بأمراض خطيرة تنغص عليهم حياتهم، واكدت الدراسة أيضاً ان الذين يبدأون التدخين فى سن المراهقة ويواصلون هذه العادة حتى منتصف العمر، فان نصفهم يموت بسبب التدخين وحذر التقرير من أن نسبة الوفيات بين المدخنين سوف تتزايد بشكل مخيف فى آسيا خاصة فى الصين خلال القرن القادم وذلك بسبب زيادة مبيعات السجائر واكد التقرير أن هناك ٣٠٠ مليون مدخن فى الصين من بينهم شخص يموت كل دقيقة وسوف يزيد هذا الرقم إلى خمسة. بعد هذا كله أليس التدخين إذاً يمثل خطراً جسيماً يهدد الجنس البشرى.

تأثير النيكوتين فى الدم:

جاء فى تقرير كبير الجراحين الأمريكيين «ايفريت كوب» ان النيكوتين يصل الى مخ المدمن فى غضون ٧ ـ ١٠ ثوان من اشعال السيجارة، وهذه سرعة فائقة تعادل ضعفى السرعة التى تصل بها المخدرات، وثلاثة أضعاف السرعة التى يصل بها الكحول إلى مخ الانسان ولا يكاد النيكوتين يصل إلى المخ حتى يحدث آثاراً تشبه أثار الادرنالين والاستكلولين والأول هرمون بينما الثانى موصل اعصابى قوى (Neuro Transmitter) من شأنه أن يحرض جهاز الانذار فى مخ الانسان، وهكذا يصبح المدخن لدى وصول النيكوتين إلى مخه اكثر يقظة وحضوراً ذهنياً، ولربما أسرع بالتفكير أيضاً، ولعله يصبح أيضاً أهدأ بالا تبعاً لما يحوزه النيكوتين من مادة مخدرة طبيعية تعرف باسم «بيتا اندروفين» من الملاحظ فى هذا التقرير أن النيكوتين يتفاعل كيميائيا مع بعض الهرمونات والانزيمات داخل جسم الانسان فى الدورة الغذائية، أو الدورة الدموية وتتكون نتيجة هذه التفاعلات مادة مخدرة أو منبهة تحدث أثاراً تخديرية للجهاز العصبى والمخ. ويمضى المدخن فى تدخينه ويتزايد النيكوتين فى الدم فيزداد الوجه شحوباً ويتضاعف خفقان القلب ويرتفع ضغط الدم ويترتب على ذلك ضيق فى الأوعية الدموية وضعف فى الدورة الدموية على الأخص، لا سيما فى الاطراف التي لا تلبث أن تشعر ببعض البرودة ويتسبب ذلك فى ارتخاء العضلات والحد من شهية الطعام ويخزن

المدخن النيكوتين فى دمه ويواصل المدخن تدخينه مكرهاً إن لم يكن راغباً فى ذلك، ليحافظ على كمية النيكوتين فى الدم ويضمن بقاءها ثابتة غير منقوصة حيث أن النيكوتين أصبح من مكونات دمه الثانوية إن لم تكن الاساسية. وقد دلت التجارب على أن ٣٠٠ ـ ٤٠٠ شفطة تدخين يومياً تمثل الحد الأدنى الذى لا غنى عنه للإبقاء على محتويات النيكوتين فى الدم، وهذه «الشفطات» هى التى تتحكم فى مزاج وعادات المدخن وأدائه وهذا هو سر الادمان على النيكوتين[٣١].

ويقارب تقرير كبير الجراحين الاميريكيين ايفريت كوب بين موتى ادمان المخدرات وموتى التدخين من حيث العدد، إذ بلغ عدد من يموتون بسبب الهيروين والكوكايين سنوياً (٦٠٠٠) نسمة وبلغ عدد الذين يموتون نتيجة إدمان الكحول (١٢ر٥٠٠) نسمة أما الذين يموتون بسبب أمراض مردها الى التدخين فقد بلغ مجموعهم (٣٠٠ر٠٠٠) نسمة أو اكثر وذلك وفقاً لإحصاءات ١٩٨٦م فى الولايات المتحدة الامريكية.

ويفصل التقرير مجموع موتى التدخين ويبين أن ثلث هذا المجموع (٢٠٠ر٢٠٠) نسمة يموتون نتيجة الإصابة بأمراض القلب و(١٠٨ر٠٠٠) نسمة بالتحديد يلقون حتفهم تبعاً للإصابة بأمراض الرئة وما كان التقرير ليولى هذه الارقام أى اهتمام لولا أن ثبت بالارقام وما كنا لنولى هذه الأرقام أى



النارجيلة اشد خطرا من السجائر

عناية لولا صحتها على أقل تقدير وايماننا العميق بما يسببه التدخين واتباعه وفصائله المختلفه من أضرار جسيمة وآثار شديدة الخطورة فى شتى مناحى الحياة وقد ثبت فى تلك التقارير ان أولئك الموتى البالغ عددهم (٣٠٨ر٠٠٠) نسمة هم من المدمنين على التدخين، وأن هذا التدخين هو سبب اصابتهم بتلك الأمراض وبالتالى سبب وفاتهم[٣٢].

وتكمن خطورة التدخين فيما يسببه من أمراض تؤدى الى تنغيص حياة المدخن ومن ثم تزداد سوءاً وتصبح صحته أسوأ وعلينا أن نتدبر جيداً

أعقاب السجائر ونقارنها قبل وبعد التدخين، ونتخيل ما يحدث جيداً للأجهزة الحساسة فى الجسم البشرى من آثار ناتجة عن التدخين المتكرر والقطران، هذه المادة التى تتراكم فى أعقاب السجائر وتصل إلى ١٧ ـ ٤٠ ملغم فى السيجارة الواحدة، وعلينا أن نتأمل جيداً ما يحتويه جهاز التنفس والقصبة الهوائية من قطران فى صدر مدخن يدخن على أقل تقدير عشرة سجائر يومياً فى مدة شهر واحد فقط لعرفنا جيدا مدى خطورة التدخين.

النارجيلة أشد خطراً من السجائر:

كثير من الناس قد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فنظروا اليها نظرة جانبت الصواب فوجدوها حسنة أو على ما يرام مثل أولئك كمثل الذين يفضلون التبغ على النارجيلة ـ أى الشيشة ـ فيظنون أن ذلك أقل خطورة ـ أو عديم الخطر ـ من تدخين السجائر ولكن ظهر العكس من ذلك من خلال الدراسة العلمية المعملية الموفقة التى أجريت مؤخراً فى جامعة الملك عبد العزيز فى جدة «أن التدخين بالنارجيلة ـ الشيشة ـ له أخطار صحية تفوق اخطار تدخين السجائر، وأجريت الدراسة التى دامت أربع سنوات على ألفين وسبعمائة من مدخنى النارجيلة، فلوحظ أن دمهم يحتوى على نسبة عالية من مركب (Carboxy Hae-moglobin) الذى يتكون من اتحاد أول اكسيد الكربون الناتج عن دخان التبغ من هيموجلوبين الدم، وهذا المركب يحد من مقدرة الدم على نقل الاكسجين إلى اعضاء الجسم مما يضطر القلب الى ضخ الدم بسرعة اكبر وهذا يزيد من ارهاقه وبالتالى من اصابته بالمرض.

وكانت النتائج التى حصلوا عليها من هذه الدراسة أن نسبة (Car-boxyhaemoglobim) فى دم مدخنى النارجيلة التى حصلوا عليها من الرجال بلغت ١٠٪ بينما النسبة فى مدخنى السجائر لم تزد عن ٥ر٦٪ بالمقارنة مع غير المدخنين من الناس حيث النسبة ٥ر١٪ فقط[٣٣].

لقد بلغ هذا الادمان من السيطرة على المدمن أن ذهب الكثيرون إلى التأكد بأنه يفوق ادمان الهيروين طغيانا[٣٤] وان الاقلاع عن التدخين قد يصبح أمراً صعباً واكثر صعوبة من الاقلاع عن تعاطى الهيروين ولعل هذا صحيح إذا أسقطنا من اعتبارنا أو أغفلنا البتة عن مقومات الاقلاع عن الادمان وهى العزيمة وقوة الارادة.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأى أن تترددا

المضار المالية:

أما المضار المالية والاجتماعية الناجمة عن التدخين، وخاصة فى هذه الفترات العصيبة التى يمر بها المجتمع والازمات المالية التى منى بها الأفراد الكادحين، فحدث عنها ولا حرج ولن يسعك الوقت فى الحديث عنها. الطلبة الذين لا يزالون فى كنف التعليم ولا يفتأون يمدون أيديهم من آن لأخر طالبين يد العون من والديهم يجدون أنفسهم مرغمين على الغش، أو السرقة أو خداع الآخرين لتلبية رغبة أنفسهم الملحة فى التدخين وقد يحدوهم ذلك إلى الدخول فى غياهب السجون وأعواد المشانق.

وقد حذرنا الرسول الكريم {صلى الله عليه وسلم} من اضاعة المال والفتك بالشباب فى حديثه الصحيح {لا تزولا قدما عبد حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه}. وعلى المستوى الوطنى تشير التقديرات إلى اننا فى مصر نضيع مليارى جنيه فى العام على شراء التبغ وتصنيعه[٣٥].

وهذا الرقم ضخم جداً إذا ما وضعناه فى كفة الميزان التجارى مع ماندفعه فى مصر من أموال

مقابل شراء الخبز، كما يعتبر هذا الرقم ضخماً إذا ما نظرنا إلى اقتصادنا القومي وحالته، وحالنا هذا في اضاعة المال، وأي إضاعة للمال أبلغ من حرقه، كحرقه في الدخان الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا نفع فيه بوجه من الوجوه، حتى أن كثيراً من المنهمكين فيه يغرمون الأموال الكثيرة وربما تركوا ما يجب عليهم من النفقات الواجبة والضروريات الأسرية الملحة، وهذا انحراف عظيم، وضرر جسيم، فصرف المال في هذه الأمور التي لا نفع فيها ولا طائل تحتها منهي عنه، فكيف بانفاقه في شيء محقق ضرره؟!

ولما كان الدخان بهذه المثابة مضراً بالدين والبدن والمال كانت التجارة فيه محرمة وتجارته بائرة غير رابحة، وقد نلاحظ أن بعض من كان يتاجر فيه، وقد استدرج ونما ماله في وقت ما فإنه يبتلى بالقلة والفاقة في آخر أمره وتكون عواقبه وخيمة، فيتحتم على كل من يريد الحفاظ على صحته الابتعاد عن التدخين، والمدخن يتوب إلى الله توبة نصوحاً ويعزم عزماً جازماً مقروناً بالاستعانة بالله لا تردد فيه، ولا ضعف عزيمة، فإن من فعل ذلك أعانه الله على تركه، وهون عليه ذلك.

ومما يهون عليه الأمر أن يعرف أنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، كما أن ثواب الطاعة الشاقة أعظم مما لا مشقة فيه، فكذلك ثواب تارك معصية إذا شق عليه تركها وصعب أعظم واكثر ثواباً.

وفي الوقت الذي تصرخ فيه التقارير منبهة ومحذرة من خطورة الادمان وتحذيرات منظمة الصحة العالمية المتكررة من خطورة التدخين حيث تشير الى أن التدخين سوف يصبح من المشكلات الصحية الرئيسية في هذا العالم[٣٦].

نجد في ذات الوقت أن شركات السجائر المتعددة الجنسية، وأهمها سبعة في العالم، تسير في الاتجاه المضاد وتروج الدخان بين دول العالم ضاربة بالمصالح البشرية عرض الحائط، فهي تحاول جاهدة، بكل السبل والوسائل زيادة المعدل من الاستهلاك في دول العالم الثالث، ليخفف من حدة تناقص المبيعات في العالم المتقدم، الذي استجاب إلى نصائح الأطباء وتقارير المنظمات المعنية بالصحة ونتيجة الدعاية المضادة للتدخين في دول العالم الأول وقلة الوعي لدى شعوب العالم الثالث، ومن هنا نجد أن الإحصائيات تؤكد أن شركات التبغ تنظر إلى أسواقها الآخذة في التوسع في العالم الثالث نظرة تفاؤل لأن النقص في نسبة المبيعات في الدول المتقدمة يصحبه زيادة مرتفعة في دول العالم الثالث، والأخطر والأنكى من هذا كله أن شركات السجائر المتعددة الجنسية تصدر السجائر التي تحتوي على كم اكبر من القطران والنيكوتين وذلك لاشباع «مزاج» المدخن والهدف الرئيسي من وراء ذلك هو جعل الادمان على السجائر والدخان بأنواعه اكبر وأعمق ومن ثم تأصيل الادمان في نفوس العالم الثالث.

ونتيجة لما يسببه التدخين من أخطار فادحة في الاقتصاد وما يسببه من آثار صحية واجتماعية في شتى بقاع المعمورة فقد تنبه الكونجرس الأمريكي لهذا الأمر وطالب شركات التبغ بتقليل السجائر.

وبناء على طلب الكونجرس الأمريكي أعدت شركات التبغ قائمة سرية طويلة وبثتها عدة وكالات أنباء عالمية وهذا هو نص الوثيقة التي نشرتها جريدة (World)[٣٧] الأمريكية وهي تشتمل على بعض ما تضيفه شركات التبغ في صناعة الدخان من مواد تؤدي إلى الادمان وفي مقدمة هذه المواد التي تدخل في تكوينها الخمر وهذا هو نص الوثيقة.

«واشنطن - أذاعت مؤسسات صناعة التبغ القائمة السرية الطويلة لـ ٥٩٩ مادة مضافة إلى التبغ أثناء صنع السجائر وذلك أثناء جلسة خاصة

بالكونجرس الامريكى وكانت قد وجهت اتهامات الى صنع التبغ بالتلاعب بمستويات النيكوتين لإيجاد حالة من الإدمان عند المدخنين، وقد احتفظت صناعة التبغ بهذه القائمة سراً لفترة طويلة ويقول القائمون على صناعة التبغ: ان هذه المواد لا ضرر منها على صحة المدخنين» وهذا يخالف ما يعلنونه جميعاً على صفحات الصحف والمجلات وكل وسائل الاعلام من ضرر التدخين، ولكن النائب الديمقراطى عن كاليفورنيا «هنرى واكسمان» يشكك كثيراً فى هذا الإدعاء ويطالب بفحص المواد الـ ٥٩٩ بواسطة خبراء السموم، وهم لا يعلمون بشركات التبغ ويعلن أنه لا يثق فى حكم خبراء شركات التبغ بسلامة هذه المواد المضافة إلى التبغ ويضيف السيناتور «ان شركات التبغ ظلت تكذب على المستهلك على مدى السنين مدعية ان السجائر تساعد على الاسترخاء فلماذا نصدقها عندما تدعى أن هذه السموم غير ضارة وأنها لا تتلاعب بمستويات النيكوتين فى السجائر لايجاد حالات ادمان عند المستهلكين.

وقد أعلنت شركة «رينولدز للتبغ» أن ٩٨٪ من هذه المواد موافق عليها من قبل «منظمة الغذاء والدواء» الامريكية وأذاعت بياناً من ستة علماء يشهدون بسلامة المواد المضافة إلى الدخان، يأتى هذا الصراع فى الوقت الذى يحتدم فيه الهجوم على هذه الصناعة بشكل لم يسبق له مثيل، فالأماكن التى يمنع فيها التدخين سواء فى القطاع العام، أو القطاع الخاص فى ازدياد مستمر والكونجرس الامريكى يطالب برفع الضرائب على التبغ لتمويل الخدمات الصحية أمام ضرر التدخين المستفحل بشكل خطير ويأتى السير واكسمان ليطالب بادراج مادة التبغ على قائمة المواد الممنوعة لأنها تسبب الادمان وفيما يلى بعض الأمثلة للمواد السامة والتى تدفع المدمنين لمواصلة التدخين وتؤصل فيهم داء الادمان من القائمة السرية الطويلة:

«ميجا ستيماترينون - ديفيد رومنثو فيولاكتون - ايثيل فيو رووات، وهذا يسبب ضرراً بالغاً بنسيج الكبد - ماليتول - سكار بوليد - خلاصة التبغ وتستعمل لزيادة النكهة وبالطبع تحتوى على كميات أخرى من النيكوتين - النوشادر - الميثوبرين وهو مبيد حشرى يعمل على ايقاف نمو الحشرات - الخميرة - الخمر - الكافيين وشمع العسل - البتياكارونين - الشيكولاته - زيت جوز الهند».

تلك هى بعض الامثلة البسيطة من المواد التى طرحتها القائمة الكبيرة، الطويلة والتى تحرص شركات التبغ على اضافتها للسجائر لتضمن سوقاً من المدمنين يروج هذه السلعة ولو كان على حساب صحة أو حياة الجنس البشرى.

وتجدر الاشارة إلى أن هذه القائمة التى ذكرناها هى أمثلة من المواد التى تسبب الادمان ضمن القائمة التى تحوى الـ ٥٩٩ مادة سامة ومسببة للادمان والتى نشرتها شركات التبغ بناء على طلب الكونجرس الأمريكى، وقد بثت هذه القائمة السرية عدة وكالات أنباء عالمية وها نحن ننقلها هنا كما هى من مجلة (World) الامريكية.

وللحق أن هذه المبادرة تستحق كل شكر وتقدير لما قام به الكونجرس الأمريكى فى محاولته المستميته وتشدد السيناتور واكسمان الذى كان له بالغ الأثر فى فضح ألاعيب شركات التبغ، مما سيكون له أثر كبير فى تقليص هذه الصناعة والحد من انتشارها إذا ما اتخذت تدابير رادعة تقف موقفاً حازماً وصارماً لمجابهة هذه الشركات.

كما أرجو ان تقوم الهيئات الدولية المعنية بالصحة وخاصة منظمة الصحة العالمية بمبادرة مماثلة تتسم بالشجاعة تعضد هذه المبادرة التى قام بها الكونجرس شريطة أن تتخذ الإجراءات

الرادعة لوقف هذه المخططات الرامية إلى خلق مجتمعات مدمنة وزرع الأمراض الشديدة الخطورة في أجساد الشعوب.

«للبحث صلة»



الهوامش:

(١) الخطط المقريزى.
(٢) احمد شوقى الفنجرى - المخدرات فى الطب والدين. الوعى الاسلامى ع ١٢٢.
(٣) السابق ص ٨٢.
(٤) بسيونى الحلوانى - عوامل هدم كيف نقاومها . الوعى الاسلامى ع ٢٥٨، ص ١١٨.
(٥) محمد قطب ، الاسلام والمادية ص ٩٤.
(٦) احذروا المخدرات تصدرها وزارة الاوقاف ع٧ جمادى الثانية ١٤٠٦هـ فبراير ١٩٨٦م.
(٧) القومية والغزو الفكرى لمزيد من التفاصيل، انظر ص٢٠٨.
(٨) التبشير والاستعمار ص ٣٦.
(٩) سورة البقرة/ الآية ١٢٠.
(١٠) التبشير والاستعمار ص٨٤
(١١) الاسلام على مفترق الطريق محمد أسد ص٣٩.
(١٢) التبشير والاستعمار ص ٣٨ والمنار عدد صادر فى ١٩٦٢/١١/٩م.
(١٣) صلى الله عليه وسلم .
(١٤) وليم بولك الولايات المتحدة والعالم الغربى، القومية والغزو الفكرى ص٤٢.
(١٥) المؤتمر الدولى العربى للمخدرات اللواء دكتور/ محمد نيازى حتاتة مجلة الامن العام ع ٦٨ يناير ٧٥ ص ١٢٤.
(١٦) احمد الحصرى الحدود والأشربة فى الفقة الاسلامى ص ٣٦٣ - ٣٦٤.
(١٧) التدخين واثره على الصحة الدكتور محمد على البار.
(١٨) البيان - ابراهيم عبد الباقى ص ١٢٢.
(١٩) عبد الرحمن الناصر السعدى ادارة الشئون الدينية للقوات المسلحة السعودية.
(٢٠) مرجع سابق.
(٢١) C.M. Fpetcher Horvey - Colelena Jeager christopher wood - common Sense about smoking p.p 127 - 128.
(٢٢) الاعراف/ من الآية ١٥٧.
(٢٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ٢/٢٥٤.
(٢٤) القرطبي جـ٧/ ٣٠٠.
(٢٥) البقرة/ ١٩٥.
(٢٦) النساء/٢٩.
نود الاشارة الى أن كثيراً من علمائنا الاجلاء قد افتوا بحرمة التدخين ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحمن بن الناصر السعدى والشيخ عبد العزيز بن باز ، انظر على سبيل المثال كتاب الفتاوى ، مجلة الدعوة لابن باز وقد استند الى عموم الآيات القرآنية.
(٢٧) مرجع سابق.
(٢٨) يوسف القرضاوى ، الحلال والحرام.
(٢٩) من أضرار المخدرات والمسكرات/ عبد الله بن جار الله ابراهيم ص ٨٢.
(٣٠) النيكوتين وأثره فى الدم والمخ، مجلة العربى العدد ٣٦٦، ص ١٣١.
(٣١) المرجع نفسه.
(٣٢) مجلة العربى ع ٣٦٤ تقرير عن التدخين جدير بكل تقدير ص١٣١.
(٣٣) مجلة الناس والطب، العدد الصادر فى ديسمبر ١٩٨٦م.
(٣٤) لمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع انظر على سبيل المثال مجلة العربى ع ٣٦٦، الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى ادارة الشئون الدينية للقوات المسلحة السعودية.
C. M. Fletcher - Horry - Wood - Common Sense about smoking
(٣٥) رسالة مطولة للشيخ مصطفى عبد الإله محمد ، اضرار التدخين.
وتشير بعض التقارير إلى أن الاقتصاد العالمى قد بلغت خسائره مائتى مليار دولار نتيجة التدخين.
(٣٦) د/ مصطفى طلبة وآخرون ، الانسان والبيئة صراع أم توافق كتاب العرب ٢٦٤ ص١١٩.
(٣٧) World - Cigarette makers rea lease in grients

قصة مدمن

رفعت محمد بروبي
- مصر -

ورأيتـــــه يمشي الهـــوينا ســـاهمـــاً
واهي القُوى ، مُتـــعـــثـــر الخطواتِ
ولُعــــابه غطّى الشفـــــاه بزُرقـــة
مثِل الــتي فــي الــعــين والـــوجـنـــاتِ
ووراءه يـجـــــرى الصـــــغـــار بزفّة
ويُشــيّعــوه بأقـــذع الشـــتـــمــاتِ
ثارتْ دمـــائى، واســتـــشـــاطت غـضــبــتى
وهـمـــمـــت أدفـع عنــه - شـــرَّ أذاة
لكنـمـــا صـــــوتٌ رهـيبٌ ردّنــى
فـى غلظة - مُتـــوعّد الـنبــــراتِ
فــوقــفت مُخـتـلج المشــاعـــر حــائراً
وهَمَتْ لإشـــفـــاقٍ بـه عـــبـــراتي

* * *

وســـألتـــهـم عـــمّا به؟ فـــتـــحــــدثوا
وســـمـــعـت مـــالا أرتضى لعـــداتى
قـــد كـــان يومـــاً ســـيـــد الحيِ الذى
يســعى إليـــه - ضُحى - ذوو الحــاجــاتِ
شــهم كـــريم ، فى الكريـهـــة منقـــذ
ولديه مـــا يغنيـــه فى الازمــــاتِ
حـــتى تزوج - عن هيـــام - كـــاعـــبـــا
أســـرتهُ بالنظـرات واللـفـــتـــات
وانكب ينهل من رحــيق شـــبـــابهـــا
وشــــبـــابه - يـنوى مـع النـهـــلات
يُبـــدى الفـــحـــولة فى مـــراهـقـــة ولا
هِى عنهُ تمنـع نفـــســـهـــا بأنـاة
وتُنيله مـن ودهـا مـــا يشـــتـــهـى
فى طاعــــة المغلوب - دون فـــوات
ويـــروحُ لـــلأتـــراب تـــيّاه الخُطـــى
يـحكى لهـم عن عـــــارم - اللـذات

* * *

من بعـــد عــــام ، ثُم شـــهـــر بعـــده
خـــفت الخـــوار، وكـــان قـــبـــلا عـــاتى
وتحـــطـمـــت مـنــه القُوى وتــقـــلــصت
شــفـــتـــاه بعــد البِشرِ والبـــســـمــات

وأثاره أن الفحولة قد وَنَتْ
فمضى لأصحاب له بشكاة
وصفوا له (الأفيون) يرفع ما هوى
ويحيك ما قد رثّ من رغبات
ومضى يلبى نُصحهم ومراده
وهو الشغوف ـ إعادة الصبوات
والزوج مُشفِقة تُحاول ردّه
وتُخيفه من هول يوم آت
لم يُجد فيه النصحُ ليل نهارها
وكأنما هو صرخة بفلاة
وقد استبد بها العناء مُبدِّداً
ألق الشباب وناضر الضحكات
واستعوضت ربّاً لها في زوجها
بل انها احتسبته في الأموات
نضبت موارده وبات على الطوى
ومشى بأسمال له خلقات
قهر التعاطي فيه كل كرامة
وتبدد الإحساسُ في السبحات
مدَّ اليدين لكل صاحب رحمة
كي يشتري (الأفيون) بالصدقات
ما عاد ينكر بيته وعياله
يكفيه ما يعروه من رجفات
والزوجُ جاعت ! ثم باعت حُليها!
ثم المتاع!، ولم تبُح بشكاة
وتعنبت لتعول أطفالا غدوا
في مثل عُمر الزهر ـ كالمومْيات
يوماً به ضاق الرجاء ولم يجد
ثمن المزاج ، وناء باللهثات
فهوى عليها باليدين ورجله
كي تستدين له من الجارات
فأبت، وناحت، واستثارت عطفه
لكن ما يعروه قاس عات
وبكل ذُعر المُعدمين ويأسهم
أخذ الشقي يضاعف اللكمات
حتى هوت ثم استفاضت روحها
وعيونها ترنو لخمس بنات
ومضت لبارئها يُشيِّعها الأذى
وبقى لذُل البؤس واللعنات

جماليات الخط العربي:

بين متغيرات الحداثة والانصات لرموز التراث

بقلم: د. راتب مزيد الغوثاني
عضو جمعية التراث العلمي العربي - سوريا -

التراث العربي مليء بالرموز والصور والأشكال. ومليء بالاحالات الجمالية، والفنانون العرب منذ ما ينيف عن القرن أنتجوا كماً فنياً تشكيلياً يتطلب من المثقف العربي الاعتناء به ومساءلته ومحاورته، بل ودمجه داخل سياق الممارسة الثقافية العربية. ومن ثم فإن أمام الفكر العربي مهام أساسية تتعلق بمواكبة تطور الحاسة العربية ومدى نمو قدراتها على إدراك واستيعاب تغييرات الحداثة الجمالية. سيما وقد اعتاد «الناس» على نعت الثقافة العربية بأنها ثقافة كلمة.

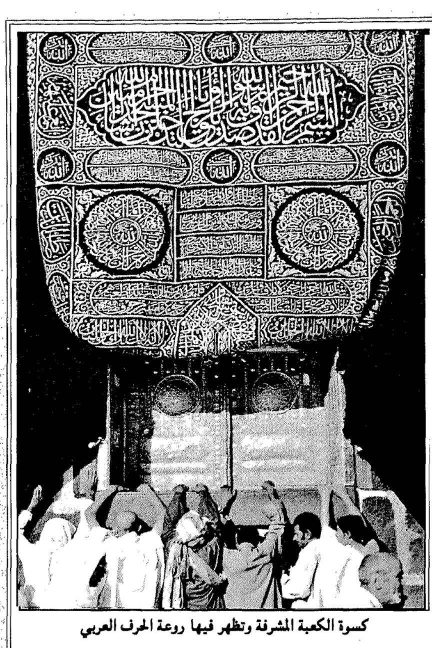
وهذه النعوت يمكن أن تكون صحيحة ويسهل تبرير صدقها في التاريخ الفكري العربي والاسلامي، لكن بالاضافة إلى ذلك يجب أن لا ننسى بأن الثقافة العربية هي ثقافة كتابة وقراءة. وحينما نقر بذلك فإن الأمر يعني أن للثقافة العربية جوانب بصرية أساسية. فالكلمة المكتوبة تستدعي مجهوداً بصريا لادراكها وفهمها، أي أن القراءة عندما تحصل داخل سياق ثقافي تطغى فيه الكلمة المنطوقة، فهي تفترض تدخل العين لتفكيك الرموز أو الكلمات المكتوبة، لا سيما إذا كانت النصوص والكلمات مرصعة بخطوط وحروف عربية ذات أشكال وحركات جميلة[1].

ويوم تنبه العربي لميزات خطوطه وحروفه سعى بها إلى كل ما يصونها في قواعد وثوابت تحد مجرى الحروف وتفترض لكل ضرب من ضروب الخط مقاساته من ناحية، وتتيح من ناحية أخرى المجال واسعاً لكل ما يعزز جهود المتفاضلين فيه بفروق التجويد التي لا تنال من خصائصه الجوهرية منذ أوائل الخطاطين العرب مروراً بأبى علي محمد بن مقلة (توفي ٩٣٩م) وقواعده الهندسية في رسم الخط. وابن البواب (توفي ١٠٣٢م) ونسبه فى النقاط، فجمال الدين ياقوت المستعصمي (توفي ١٢٩٨م) وبحوثه فى العلاقات التناسبية بين أجزاء الأشكال والأطر المحيطة بها ووحدة الفنون العربية والاسلامية. ومن ثم إلى يومنا هذا وهو رأي الخط العربي/ يلج لوحات فنانينا ومبدعينا من رواد الفن وخطاطينا المحدثين برؤية جديدة تتواصل مع ماضيه العريق وتستبطن طموحاً كبيراً للافادة من قدراته الهائلة على التنوع والتشكيل.

وتنوع الخط العربي مثير للدهشة بحيث كان لكل جديد فيه ما يؤكد قديماً له ليس هذا فحسب بل إننا نقول أيضاً بأن ثمة مؤثرات أخرى هامة كان لها دورها المعزز لتطويره، ومن تلك ما اختزنه هذا الحرف من قدرة متميزة على التشكيل والتنوع

باستمرار مع مرونة انسيابية طيبة استجابت لنوازع الخطاطين العرب الابداعية واستحداثاتهم لضروب مختلفة من الأنماط الكتابية، ووفرت لهم الحرية على استخدامه كعنصر تشكيلي بصري بايحاءات تعبيرية مستفيضة. فمن تلك الخطوط ما قد يستدير على نفسه بانحناءات لا تخلو من إيحاءات حسية وعاطفية.

وقد يستضيف الخط الزخارف المتنوعة في أحيان أخرى ضمن ترابط انسجامي تشكيلي ومتكامل[٢]، لذلك وبعد ذلك لابد من القول: بأن الثقافة العربية بقدر ما هي ثقافة كلمة وخطابة فإنها تتضمن حساسية بصرية يتعين الانتباه إلى قيمتها ومكوناتها، وهي واضحة جلية للعيان.



كسوة الكعبة المشرفة وتظهر فيها روعة الحرف العربي

* وما يثير الانتباه في اللوحة التشكيلية العربية المعاصرة هو استلهامها لعدد كبير من العلاقات الثقافية للتراث العربى والاسلامي، سواء ما يتعلق فيه بالخط أو الكتابة أو ما يرجع إلى الثقافة الشعبية. وبالرغم من أن الرسام العربي جرَّب كل تقنيات الغرب وأساليبه فإنه اهتدى في سياق ممارسته إلى توظيف مفاهيم الخط والكتابة والحرف العربي لدرجة أن هذه العناصر أصبحت من المقومات الرمزية والثقافية التي تميز اللوحة العربية بالقياس إلى التجارب العالمية، بل إننا من الصعب العثور على رسام عربي لم يدمج الخط أو الحرف العربي في فضائه التشكيلي والتجريدي بحيث يمكن تطويعه داخل اللوحة بكل الطرق الممكنة، بسبب من قدرته الكبيرة - كما رأينا - على التشكيل وامكاناته الجمالية اللامحدودة[٣].

- ومنذ بدايات الاحتكاك المباشر بالغرب أنتجت الحركة التشكيلية العربية - كما قدمنا - تراكماً هائلا يصعب على الفكر العربي تجاهله. إذ لا شك أن لكل قطر عربي تجربته

الحرف العربي تجسيد بصري شامل للفتنا

الخاصة ومساره المتميز. ولكن إذا نظرنا إلى الانتاج العام سواء في الفترات السابقة أو فيما ينجز الآن فإنه يبدو من الممكن الحديث عن حركة تشكيلية عربية لها روادها واتجاهاتها النازعة نحو العالمية.

- ومهما يكن فإن أغلب الرسامين والنقاد العرب والأجانب يتفقون على أن الاستعمالات المتنوعة للخط العربي والحرف العربي من طرف مختلف التشكيليين العرب أنتجت تياراً هاماً في سياق الرسم المعاصر عربياً ودولياً.

ولقد استعمل الفنانون العرب الحرف العربي بكل الأشكال داخل لوحاتهم، بل إننا نجد منهم من يلجأ إلى الكتابة من خلال تداخل بين النصوص والتخطيطات أو ضمن تشكيلات زخرفية تضفي على اللوحة مضموناً أدبياً وجمالياً في نفس الآن. فضلا عن استلهام مجموعة كبيرة من الرسامين العرب للتراث التصويري من منظور جديد أو ادخال المنمنمات بوصفها تصويراً عربياً يستمد مقوماته من الأشكال الزخرفية والخطية المختلفة.

وإذا كان العرب قد استلهموا أكثر من تجربة وأكثر من اتجاه سواء منطلقين في ذلك من محيطهم الثقافي الخاص أو من التجارب العالمية فان التشكيلات المختلفة التي خضع لها الخط والكتابة العربيين يمثل التيار الأكثر أهمية في الرسم العربي المعاصر.

لذلك ولهذا كله نرى أنه آن الأوان - كما تؤكد رئاسة تحرير مجلة الوحدة في افتتاحية العدد ٧٠ - ٧١ لعام ١٩٩٠: للفكر العربي أن يهتم بالخصائص الفنية والجمالية لأعمال الرسامين العرب وان يسائل مقوماتها الرمزية والفكرية ويعنى بتطورها، بقلقها وانسجامها. لأنه بات من الواضح أن هذا الموضوع يستدعي تناول مسألة النقد الفني وأهميته في مسار الحركة التشكيلية العربية ونوعية علاقة هذه الحركة بالمتلقي العربي الذي لازال مُبعداً عن ساحة التفكير في مثل هذه القضايا الحضارية.

والفنون التشكيلية العربية، في ارتباطها بالجمهور وعلاقتها بالنقد الجمالي، تطرح في هذه المرحلة من تاريخنا مشكلة تردي الوعي الفني في الثقافة العربية الموسوعية والمعاصرة.

- وكناقد ممارس لمسنا قصور النقد الابداعي والتربية الجمالية في رفد القارىء والمتأمل العربي بالأسس الأولى لتنمية القابلية الجمالية عنده. لذا فإننا رأينا البحث مطولا في عنصر حضاري هام بات يدق باب العالمية بثقة وثبات. إنه الخط العربي ، بل لنقل (فن الخط العربي).

وقبل الابتعاد في التعاطي المعاصر لأبعاد الحرف العربي نعود إلى بلند الحيدري في بحث له بعنوان «الحرف العربي في الفن التشكيلى»[٥] نقتبس عنه المقدمة التاريخية التالية لتوضيح تاريخ نشأة هذا النوع من الابداع العربي.



الآية الكريمة قل هو الله أحد

«نون والقلم وما يسطرون» أقسم الله به فكان له ما لم يكن لغيره من حظوة وقدسية وكان له ما لم يكن لغيره من فنون العرب المسلمين من أهمية. وبذلك نشأت ولادته الكبرى. وما قيل في تاريخ نشأته كثير ويذهب أبو اسحق كعب بن ماتع - من أقدم رواة الحديث، توفي في حمص عام ٦٥٢م - ذهب إلى أن أول من كتب بالعربية هو آدم. ويذهب ابن عم النبي [صلى الله عليه وسلم] عبد الله بن عباس، توفي عام ٦٨٧م: إلى أن أول من كتب بها ووضعها هو اسماعيل بن ابراهيم الخليل.

اما عروة بن الزبير أحد فقهاء المدينة، توفي عام ٧١١م. زعم أن أول من كتب بها قوم من الأوائل أسماؤهم (ابجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت) وكانوا ملوك مدين. ويذكر ابن قتيبة أبو محمد عبد الله ويعرف بالدينوري من كبار النحويين، توفي عام ٨٨٩م في كتابه (كتاب المعارف) بأن ولادة الخط العربي كانت على يد كل من (مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة).

وهكذا إلى ما لا نهاية من الأقوال والثوابت في نشأة الخط العربي».

- وتشت الآراء بالمؤرخين والآثاريين إلى اجتهادات متعددة في نشأة الخط العربي، منهم من قال أنه ينحدر عن الخط السرياني للتشابه بينهما. ومنهم من ذهب إلى أنه وليد الكتابة الفينيقية والهولندية. (فان دي براندن) ينسبه إلى الخط المصري الهيروغليفي القائم على ثمانية وعشرين حرفاً والذي يعود تاريخه إلى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد. وأن الكنعانيين المقيمين على سواحل البحر الأبيض المتوسط هم الذين طوروا هذا الخط وأشاعوه في الجزيرة العربية. غير أن ما يقطع به الأثاريون المتأخرون هو أن الخط العربي انحدر



أصلا عن الخط النبطي ثم استقل عنه شيئاً فشيئاً.

- مع الاسلام أصبح الخط العربي من بعض رسالة المسلمين. فسعوا إلى ما يصون قواعده وثوابتـه من كل تحـريف أو تزييف. والخط العربي كان في نظر أمير المؤمنين (علي رضي الله عنه) من أهم الأمـور وأعظم السـرور. وأجمع رجال الدين على اعتباره جهداً مباركاً حتى إن عبد الله بن عباس قال في الخطاطين «إن رجلا كتب بسم الله الرحمن الرحيم فأحسن تمطيطه فغفر الله له» واشتق بعد ذلك من الخط العربي اشتقاقات كثيرة. اعتمدت الكوفة الخط وأولته رعايتها وانتسب إليها نوع منه. ويوم أن عرفته إيران كان لنا منه الخط الفارسي. ويوم أن استقر في تركيا كان لنا منه الديواني الطغرائي. وفي المغرب أوجدوا من الكوفي القديم ضروباً عديدة. وإذا صار إلى الهند ابتكرت لنا كوفياً هندياً. ويوم مرّ بالصين اكسبته من جمال خطها ما أغنت به رحلته الفنية ولك أن تضيف زخارف الأمويين وغنى العباسيين وما أفاده التأثير الساساني والفاطمي والمغولي والمملوكي والسلجوقي، مما فجر في هذا الخط قوة ابداعية لا نظير لها، استقامت فناً متكاملا ما بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين.

* ولما كنا في بحثنا هذا نتحدث عن الخط العربي بصفته فناً عصرياً.. أي كعنصر ابداعي عربي معاصر، فإننا سنولي اهتمامنا لرحلته المعاصرة في طرق باب العالمية والمزاحمة في أجواء الزخم الفني والتشكيلي العالمي المعاصر. لنبين أهميته كمفردة حضارية تغني اللوحة الحامل بعناصر لم يكن لأحد غير العرب خلقها. لذلك سنولي مرحلة احتكاك الفنان العربي بالغرب أهمية موازية لنشأة الخط العربي التاريخية الآنفة وذلك للمقارنة والاطلاع.

- مرت الحركة التشكيلية العربية الحديثة بمراحل متعددة كانت المرحلة الأولى عبارة عن تبعية تامة للغرب بوصفه مرجعاً وتقنية. أما المرحلة الثانية فقد تميزت حسب كثير من الباحثين بابتعاد نسبي عن التجارب الغربية أي أن الرسام العربي في هذه المرحلة انتقل من وضعية التابع المتعلم إلى حالة ابداعية توافقية يحافظ فيها على التقنية الغربية وعلى بعض المرجعيات الأساسية في الرسم والتشكيل. وليدمج فيها بعض رموز التراث العربي الاسلامي وبعض علامات الفن الشعبي التقليدي. وفي مرحلة لاحقة اهتدى الفنان العربي إلى نحت أساليب خاصة تتفادى تكرار مرجعيات الغرب وتتجنب السقوط في أشكال هجينة لا هي بالأصيلة ولا بالمعاصرة، بل خاض مجموعة من الفنانين العرب تجارب ابداعية بالغة التميز والجمال، عبرت عن قدرة كبيرة على الانصات إلى تحولات المجتمع العربي الاجتماعية والسياسية والثقافية

والفنية.

- على كل وبعد ذلك وكما يقول بلند الحيدري: بقي الكثير من فنانينا المحدثين أمناء لأصالتهم التراثية، فانتصروا للخطاط الذي بينهم معترفين ضمنا بأن أي خروج على هذه (التراثية) سيفقده الجلال والرصانة والعمق الروحي لذلك بقيت الكثير من تجارب الفنانين المعاصرين (ومنهم الشباب) تستمد جذورها من التراث العربي لخطاطين فحول قدامى. وبالرغم مما يمكن أن يظهر من تجريد على بعض الاعمال المعاصرة فإنها تكثف كثيراً من علامات الثقافة العربية ومن رموز الذاكرة الشعبية. وتبرز واضحة إضافة إلى ذلك قضايا وهموم الانسان العربي في علاقاته بذاته وبمحيطه وبالآخرين.

- وثمة لوحات لعدد من الزخرفيين العرب المعاصرين سعت لأن تقترب أكثر من مفهوم اللوحة التشكيلية المعاصرة من خلال الافادة من النماذج الشائعة في الخط وبما يجرد الكلمة من معناها ويبقي على إيقاعها التكراري كلازمة زخرفية هندسية تناسب الخطوط كلها كما في أعمال (كمال بلاطه) و(عصام السعيد) و(شاكر آل حسن السعيد) و(وجيه نحله) و(محمود جهاد) و(رشيد القرشى)، إضافة إلى (ضياء العزاوي) و(رافع الناصري) و(محمد غنوم) و(عمر نجدي).. وتطول القائمة. (لأن هذه الأسماء تعود إلى أقطار عربية عديدة).

تجريد الحرف العربي من مدلوله الثقافي والفلسفي يفقده قيمته

- وثمة آخرون من فنانينا سعوا إلى المزاوجة ما بين الصرامة الاتباعية للخط العربي وبين تجريدية الخلفيات التشكيلية له، عبر ما استقام لهم من مقدرة أدائية في الرسم والخط على حد سواء. ومن الاسماء الآنفة عدد ممن يمثلون هذا الاتجاه مثل (عمر النجدي) و(رافع الناصري) و(محمد غنوم).

- وهناك من الفنانين من أعطى جهداً ريادياً كالفنان (نجا المهداوي) وغيره كثيرون، (محمود جهاد) - وذلك في استخدام الخطوط العربية ضمن نمطية مألوفة حيث لا يمكن أن نقع إلا على أشكال للكلمات جردت من خصائصها المعنوية وفرغت من أية دلالة وبذلك هم يسعون - وكل أنصار هذا التوجه - إلى إفراغ الحرف من معناه ليكف عن حمل أي خطاب. وهم بذلك اتفقوا مع من سعوا لأن يتخذ الحرف أبعاداً تجريدية عبر نزوع الكثير منهم إلى الافادة من مقومات الخط العربي اللينة والمنسجمة والرشيقة. ومن أبعاده الفكرية والروحية. أنصار هذا التيار أوجدوا مشاكل على الساحة الابداعية تتمثل بانبثاق من يقول، من المبدعين، أن ليس لدينا خياراً ونكون غير منسجمين مع أنفسنا إن لم نُقر بأننا في كثير من الأحيان نقف مشدوهين أمام الايقاع البصري اللامتناهي للخطوط العربية حتى لو لم تكن هذه الخطوط مقروءة فهي تقدم على الدوام قيماً روحية هائلة من خلال تواصلنا الخفي معها باعتباره خميرة كل

الحرف العربي ليس مجرد تشكيل فنى فحسب، بل هو صياغة ادبية

أفكارنا ومعرفتنا. وهنا بالضبط لا يصبح ضروريا أن نفهم ما كُتب لأن الذى كُتب فعلا هو شيء ذو قيمة. وهذا هو مفتاح توازننا الداخلي في هذه الحالة.

لكن دعاة الحرف العربي المجرد يتناسون عن عمد أن هذا الحرف هو تجسيد بصري شامل للغتنا حفظها من الزوال ورسخها في عقول البشر. ومازال مضطلعاً بهذه المهمة الأزلية. فنحن إذ نقدم هذه الحروف بغض النظر عن قيمتها الأدبية نكون قد وجهنا ضربة صميمية لهذه الحروف ولما تمثله. وبذلك نكون أفقدناها مصداقية وجودها. فإذا كانت (اللوحة الحامل) في الغرب اتجهت فقط هذا الاتجاه على يد (بول كلي) قديماً و(ماثيو - نالارد - هوفر) حديثا، حين اتخذوا من الحروف الشرقية شكلا للصياغة الفنية في أعمالهم وصاغوها بشكلانية متحررة تماماً من الأصول والقواعد الملزمة للكاتب.

وأصبحت فناً تجريدياً خالياً من القيم الأدبية والفلسفية. فهذا شأنهم لأنهم كأوروبيين لا يستطيعون نقل المدلولات الثقافية الأخرى المتعلقة به لأنهم بالأساس لا يبحثون عنها.

وإذا استعرضنا مجموعة من فنانينا الحروفيين نرى كم هى جميلة بعض أعمالهم فعلا، لكنها بدون أية قيمة إنسانية عدا عن جمالها. إذ أنها لا تقدم أية عبرة معرفية ولا ترينا ما لم يُر. وتشوه شكلها تعود الناس أن يروا فيه ما يشبع نهم حبهم للمعرفة والجمال على طريقتهم، وينساق متهمو الفريق الأول - فريق من سعى إلى تجريد الحرف من أبعاده الأدبية والمقروءة - لتأكيد حجتهم - على لسان موريس سنكري[٦] قائلين: إذا كنا قد استشهدنا بأعمال (عبد القادر الارناؤوط) يقصد هنا توجه الأخير إلى التجريد بعد بداياته القواعدية في الخط - والمقروءة - فإننا لن ننسى الفنان اللبنانى (روجيه نحلة) الذي ابتدأ مقروءا وانتهى سرياليا لا ندرك لحروفه معنى ولا قراراً و(حسنى ماضي) الذي أضحى زخرفيا كما (صخر فرزات).. كما لا ننسى أحد أهم منظري هذا الاتجاه (رافع الناصري) الذي يؤكد أن المتأمل للحرف العربي مجرداً من معناه مفصولا عن أيه خدعة لغوية، يراد التعبير عنها، هو بحد ذاته قيمة تشكيلية تعتمد الأسس الفنية من شكل وحركة وفراغ. هذا صحيح من وجهة نظر مبدئية - اللوحة الغربية التجريدية. ويورد (سنكري) تأكيدا لاحتجاجاته واحتجاجات كل من يقف ضد نزوع الحرف العربي نحو التجريد والابتعاد عن الاصول القواعدية واللغوية. يورد السنكري مثالا سلبياً لهذا التوجه ونحن بدورنا نقف معه في هذا المكمن ولا نوافقه على المبدأ العام باطلاق.

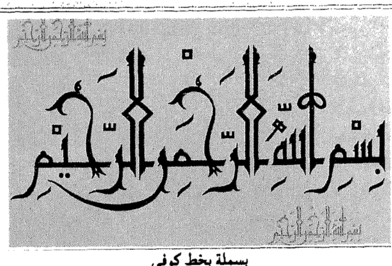
المثال المعني: «ها هو أندريه بارينو رئيس تحرير مجلة الفنون الامريكية يحكي عن الفنان الحروفي العربي اللبناني (وجيه نحله) الذي مرّ ذكره - صحيح أن وجيه نحله - الحديث لـ بارينو - عربي مسلم

غير أنه ممهور بعقلانية الغرب، يؤكد ذلك خطه الذي كان بامكانه أن يستخدمه لابراز اسم الجلالة (الله) والكشف عن جمال الحروف العربية. هذا الخط الذي كان بوسعه أن يجعل منه مصور شعب، وأحد كبار فناني بلاده، لا بل أحد مزخرفي أبجدية فنية حديثة، ويكمل عمل كبار المتصوفين.

لقد رفض وجيه نحله السهولة ورفض أن يستثمر الحروف العربية المتناغمة التي كانت ستعود إلى تجميد[*] الشخص والفردية واختار الفعالية، أعني الاتصال. وبامكاننا أن نتتبع عبر اعماله مراحل يقظته وتحرره وتنبهه إلى تراث الحضارة الاسلامية الهائل الذي كان يضغط علي مخيلته.. هنا كان تأثير الغرب على فنه مفيداً».

- إذن بدون «عقلانية» الغرب و«اتزانه» لم يكن باستطاعة (وجيه نحلة) أن يبدع فناً. هكذا يذهب مارينو في شهادته فوجيه نحلة منح الغرب كل وعائه التراثي المتمثل هنا بالحروف لا ليثبت امكانية تواصل هذا التراث مع الابداعات الحديثة، بل العكس تماماً لاثبات أنه بامكان الفن العربي أن يستوعب الفن العربي ويتكيء عليه لمواصلة رحلة (العدم). هكذا عقَّب السنكري .

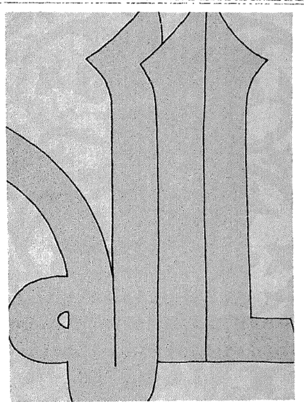
- ليس هذا كل شيء.. وقبل أن نأتي برأينا في هذه القضية سنستمع إلى أنصار التجريد في الحرف وأنصار المدرسة العربية المعاصرة لصناعة اللوحة التراثية الجديدة. وفي كلمات (شاكر حسن آل سعيد) الفنان العراقي وصاحب التجربة الحروفية المعاصرة، ما يفسر موقفه وموقف جماعته «اما بالنسبة لنا كمستلهمين للحرف العربي في الفن، فإن



بسملة بخط كوفي

موقفنا سيعتمد على إدراك هوية التراث العربي الراهن الذي نضعه عبر اقتباس أهم عنصر من عناصرنا الحضارية والفكرية هو الحرف العربي. إذ أن الدور الذي سنلعبه هو وضع اللبنات الأولى لمدرسة معاصرة في الفن تعتمد على استلهام الحرف[٧]. وفي محاولات العديد من الفنانين العرب في أرجاء الوطن العربي ممن يعملون في مجال الخط العربي كلوحة فهو عندهم - أي الخط - لا يعكس ظاهره الشكلي بقدر ما يعكس انطباعات الفنان عنه وانفعاله به فهو يوحي ولا يدل عليه. ويقول (محمود حماد) كفنان له تجربة حروفية معروفة وهامة: «إن الخط العربي عنصر تشكيلي وتجريدي يمكن الاعتماد عليه لانجاز أعمال فنية تستند إلى عنصر تراثنا بدل الاعتماد على الأشكال التجريدية المحضة والمستخدمة في الفنون الغربية.

- هنا نستطيع القول: أن تجارب الفنانين العرب في مجال الحروفية حصراً سعت إلى خلق شيئيات جمالية لا يكون للحرف أو الخط فيهما ما يتمايزان به عن الأشكال الأخرى المطروحة في اللوحة والمتنكرة للبوسها في الواقع الظاهري. حيث يصبح لانعكاس الألوان عليها وتدرج ايقاعاتها الأهمية الأولى



لفظ الجلالة بالخط الكوفي المعماري

التي تخلق منها مناخاً سحرياً يسترجع فيه الحرف بداياته المبهمة.

ولم يبق الأمر محصوراً بين نازع إلى تجريد الحروف وبين محافظ عليها (ضمن قوالبها القواعدية والأصولية والرياضية او لكل منهم طبعاً حججه ومنهجه - نحن نقر بذلك - لكن هناك من فضل التحرك من هذا الاتجاه إلى الآخر وبالعكس كما رأينا فى (وجيه نحلة) الذي بدأ خطاطاً مجيداً للقواعد وانتهى سريالياً على حد تعبير مهاجميه.

وبالمقارنة نجد هناك من كان سريالياً طوال تجربته وتجريدياً.. ونزع بعد عهد طويل مبتعداً إلى القواعدية والأصولية كما في تجربة الفنان (سعيد عقل)، وهو أحد الفنانين الأوائل في لبنان الذين تعاملوا مع الحرف في مثل هذه الصيغ التجريدية الأوروبية. ثم كان أن تحول عنها لايمانه بأن امكانات استخدام الحروف لن توفر له أبعد مما توفر للفنانين الاوروبيين في هذا المجال وأن كل جهد فيه هو انتصار لشكلياته وبذلك يتدنى عملنا فيه عما كان للفنان الاسلامي والعربي الذي سبقنا إليه وأدركه من صميم واقعه اللغوي والزخرفي والاجتماعي والروحي.

- على كل مهما كانت حجج الفريق الأول مقنعة أو غير ذلك. إلا أنني كباحث لا أرى خيرا من أن يجنح حشد من فنانينا نحو التجريد العالمي المعاصر، لأنه بات لغة عالمية تفهمها أقوام كثيرة. وإذا كنا نصبوا لأن نرقى بفننا لطرحه في المحافل الدولية - مقروءاً ، فيجب أن يكون مكتوباً بلغة تفهمها هذه الأقوام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لنترك جانباً الوعظ والارشاد الذي يطالب به أنصار القواعدية، ولنترك الابعاد اللغوية للحرف الممثل فنياً وتشكيلياً على الحامل، لنترك الوعظ والبعد اللغوي للشعر والأدب، لنتركه للمحافل الثقافية اللغوية واللسانية الأخرى. أما بالنسبة للوحة فلا ضير أن يكون هدفها الرئيسي - القابلية الجمالية وتنميتها - فبرأينا أن القيمة الجمالية والتذوقية والسمو بها عند فردنا هي حالة من حالات التربية القومية. السمو بالذوق والتذوق الجمالي العصري مطلب حضاري وثقافي، تربوي وقومي. ومن جهة ثالثة نستطيع القول أنه ما دمنا نسمح للحداثة بالدخول من «النوافذ» كتقنية ومكننة، فلماذا لا نفتح لها الباب - أي للحداثة - ونراقب دخولها ونعطيها بعض تواقيعنا وألواننا، إذاً لا ضير من أن تحمل اللوحة العالمية المعاصرة - اللوحة بالمفهوم الغربي - بعض عناصرنا ومفرداتنا التراثية الخطية والشعبية. بذلك نكون قد بدأنا نؤثر في أناس وشعوب يتحدثون لغة تسمح لهم بقراءة مفرداتنا التي نحب أن يطلع العالم

عليها من حولنا ويتذوقها.

- أخيراً نؤكد: أنه من المستحسن على كل حال أن نستخدم مفرداتنا التراثية هذه بدلا من الاعتماد على الأشكال الغرائبية المجردة والباردة وعلى المتداول الغربي الغريب عن عالمنا خصوصاً وأننا من حيث نريد أو لا نريد قد قبلنا اللوحة في عالمنا ووطنا.. فليكن إذا هذا الحامل الابداعي ملوناً بالمفردة العربية التراثية المحلية والقومية. لا ضير على الاطلاق من أن يكون بين ظهـرانينا من ينزع من الفنانين بالخط العربي نحو التجريد ونحو الاستقلال عن المعنى اللغوي وعن التنظير والتلقين. وكما يقول (الحلاج)" فان التشكيلي العربي بقدر ما يتعين عليه الانصات إلى رموز تراثه لابد له من الاستفادة من عطاءات الآخرين لتجديد مقوماته». ويجب، كما يقول الفنان (محمد شبعة)[٨] على الفنان العربي خلال عملية ابداعه، إذا ما أراد أن يدخل عناصر من تراثه، عليه أن يهضم هذه العناصر ثقافيا لكي يصوغها فنياً بشكل ابداعي. وحتى يحصل إزاءها ذلك الحوار والتفاعل الروحي والحسي الذي يحصل أثناء تواصلنا مع العمل الفني.

أما إذا حاول إقحامها هكذا بدون هضم ولا تَمَثُّل فان ذلك لا يعطي إلا أعمالا توفيقية ومشوهة. ونحن بدورنا نرفض في الاتجاه التجريدي للحرف العربي تفريغه من مضمونه الحسي والجمالي بحجة التجريد والمعاصرة.. فالتجريد والمعاصرة مصطلحان مرنان.. ومما يعنيانه في بعض الأحيان: التفاهة والفراغ والعدمية. يقول الدكتور (بشر فارس) في كتابه (سر الزخرفة الاسلامية) ما يفيدنا في حالتنا هذه «ان الخطاط العربي يوم أن وقع إلى الكلمة المكتوبة، لم يكن مجرد كاتب لها، بل فناناً عالجها برؤية تشكيلية وأنها قامت أمامه صورة ذهنية لشيء ما يمتزج فيه التجريد والتشخيص في الوقت ذاته».

- الخط العربي عموماً حرَّك الفنانين العرب المعاصرين من الفن التجريدي، حتى وإن لم يدَّعوا الانتماء إليه. وأوجد هذا الخط قواسم مشتركة بين متناوليه من المعاصرين العرب. وبين رواد التجريد العالمي. (بول كلي) و(موندريان) و(كاندينسكي) وإن لم يُقروا بذلك، إذ أن العمل المنصب على الحرف لَيس أبداً تزويقاً بسيطاً أو رسماً كما يوحي بذلك البعض. فبهذا العمل على الحرف ينحل الروحي داخل تركيب جديد، حيث العلاقة تبدو كما لو أنها انبثاق من نصها الدينى لتكون تفتحاً رائعا ودنيوياً للرمز.

الخط العربي عنصر تشكيلى وتجريدي يمكن الاعتماد عليه من خلال التراث

علينا أن نجدد روحنا وذاتنا في هذا التلاقي من خلال الخط العربي والحرف، مع التشكيل والتجريد العالمي العابث لنلونه بألوان شرقنا الساطعة والمشمسة. جديدة عليهم، طالعة من روحنا وتقاليدنا وعراقتنا.

- لا مفر إذاً من دراسة التراث بعمق وبطريقة

علمية لكي نلتحم بهذا التراث فكراً لا شكلا. وعلى الفنان العربي أن يؤمن بحريته في خلق الأشياء، ولكن من منظور معرفي ومن بعد روحي. مع الايمان أن البحث في القومية بشكل شكلي وسطحي هو بحث غير جاد ولا مأوى له.

البعد التشكيلي المعاصر للخط العربي:

لقد حفَّز شيوع الخط العربي في الرسم الحديث واندفاع غالبية الرسامين العرب إلى الاستعانة في أعمالهم الابداعية بالخط، وعلى مثل ما انتقل بالأمس من حيز إلى حيز ومن مادة إلى مادة. حتى إن بعض المعماريين بدأت تراودهم فكرة انشاء أضرحة معمارية تقوم على أشكال الكلمات والحروف العربية. لكن رغم كل ما تحقق فعلياً من هذه الجهود المتفرقة فهو ظل محصوراً بنخبة قليلة تبدو على جانب كبير من الضآلة إذا ما قورنت بما شاع منها في مجال التصوير. إلا أنها نخبة تتيح لنا أن نطمع بما يعززها في المستقبل.

- هذه النتاجات الخطية العربية على ضآلتها تدفعنا إلى رؤية الحيز التشكيلي فيها بطريقة مغايرة لما عرفناه في الفن الغربي. ففي الفن الغربي كان الحيز مجالا لتمثيل المكان، أي المحاكاة ونقله من الوجود/ أي المكان/ إلى الحامل المادي عبر مراقبة فيزيائية وعينية ثم أصبح هذا الحيز مع المدرسة التجريدية نظاماً شكلياً - لونيا - محصوراً في إطار الألوان والخطوط والمواد.

- جمالية العمل الفني الخطي لا تقوم فيه إلا بوصفه شاهداً ، أثراً ظاهراً لباطن أجمل ولحقيقة أنصع. يمثل العمل الفني الخطي عملية تدوين أو نقش على حامل أبيض لا خلفية للعمل الفني سوى البياض، سوى الفراغ، سوى المكان الكلي، أي الكون الذي ينتشر ويتمدد تبعاً لأبعاده الهندسية ومواصفاته المادية. فتراه ينبسط مع الجدار المسطح ويدور مع الشكل الدائري حول العمود، ويتزوى مع الزوايا الهندسية. هو يصلح في الجدار، ويصلح في الاناء وأيضاً في العمائر، كما في المتحف وعلى سائر الحوامل المادية من خزف ومعدن وخشب وجص وفسيفساء. وهو فن يملأ الفراغ دون أن يخلق إيهاماً بالمكان أو إيهاماً بالعالم. نقش وحسب، أثار كتابية وزخرفية، احساس بالماضي وانتعاش بالحاضر[٩].

لنذهب إلى العالمية بصحبة مفرداتنا وعناصرنا الخطية التراثية

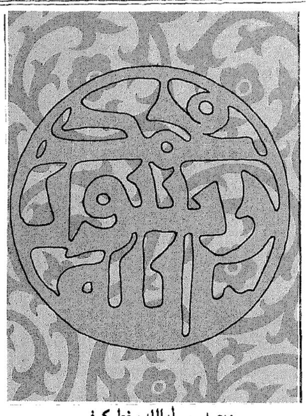
- إن تعدد مجالات استخدام الخط العربي دفعت بالخطاط العربي لأن يزيد من حساسيته التشكيلية وقدرته على الابتكار وضبط إيقاعات الحروف وتوازنها الافقي والعمودي، بحيث تكون لحروفه أن تنعقد في دوائر سقفية أو تستطيل على عمود أو تتخذ لها شكل مخمس ومثمن تتحدد أطرافهما بمجموعة من أحرف الألف أو اللام لتصبح بالتالي ضرباً من الزخرفة الاشعاعية القائمة على المزج بين الاشعاعات النابذة والاشعاعات الجاذبة التي تدور حول

بؤرة مركزية.

*** تبقى هناك المسألة الأكثر إثارة للتساؤل ـ كما يقول د. عادل قديح[١٠] وهي:**

كيف ولماذا استطاع الخط العربي والكتابة أن يمحورا حولهما في هذا العصر حشداً كبيراً من التشكيليين يستلهمونهما ويأخذون منهما عناصر أعمالهم مؤلفين تياراً هاماً، بل الأكثر أهمية في فننا العربي المعاصر. فقد حاول وما يزال الفنانون العرب أن يستنزفوا القدرات الكامنة في الخط العربي التي اكتسبها في مساره التاريخي الطويل عبر الأقنية المتعددة الوجوه من اجتماعية بنيوية وميثولوجية. وكان دافعهم الأساسي (على أغلب الظن) تأكيد الهوية الفنية العربية المتمايزة. فهذا هو الحلاج يقول: هناك نقطة هامة وهي أن الغرب الذي ابتكر اللوحة بمفهومها المحملي وعندما حاول أن يتخلص منها لجأ إلى فنون الشرق - إلى فنوننا - ونعرف كلنا قصة التكعيبية مع (بيكاسو) وتجربة (بول كلي) ومسألة التأثر بالقناع الافريقي ودوره في أعمال (بيكاسو وماتيس). ويضيف الفنان (الحبيب بيده): أن الفن التشكيلي الذي ننعته الآن بالحديث ونعتقد أنه دخل مع الاستعمار في إطار اللوحة، ليس بفن جديد وحديث، والعرب اكتشفوا الفن الحديث منذ سبعة قرون. علينا أن نتخلص من عقدة الأجنبي والغرب والمشكلة تكمن في أننا أهملنا تراثنا. فالخط والزخرفة الهندسية التي تحتوي على كل مقومات الجمال الطبيعي لا سيما التناظر والتناسق والحركة اللونية البصرية موجودة بقوة في التراث العربي.

ـ ونضيف بدورنا: أنه اجتمعت للخط العربي عدة عوامل ساعدت على استلهامه والتفاف



محمد رسول الله بخط كوفي

الفنانين العرب حوله منها ـ من هذه العوامل التي كان لها دورها الرئيسي في تطوره إلى فن:

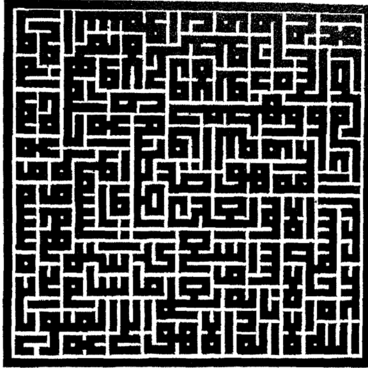
١ ـ شخصية الانسان العربي المتمسك بتراثه وأصالته.

٢ ـ القدرة الذاتية للخط العربي نفسه التي أطلعنا على بعض صفاتها في الشكل والتنوع والتناغم واختلاف المواد والمجالات التي تستوعبه والتي استخدم فيها.

٣ ـ المواءمة بين الكلمة المسموعة والكلمة المنطوقة ليكون للأولى ما للثانية من قيم جمالية عند تجسيدها على الحامل رسماً وتخطيطاً.

٤ ـ ان القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة والحكم العربية انتشرت فيه فكان له منها ما يتفاضل بقدسية مهمته.

ـ وقد كان للاستقلال السياسي والدعوات القومية واشكالية الانتماء في العمل الفني



لوحة جمعت آية الكرسي بأسلوب جميل دقيق

الفعل الآخر والهام. فأثار كل ذلك الانتباه إلى الأهمية الكبيرة للقيم الفنية والتشكيلية للتراث الفني العربي واعادة الاعتبار له. فراح الفنانون العرب يعيدون استقراء التراث والتاريخ الغابر يعثرون من خلاله على مفتاح الهوية لعملهم الفني، مما يعطيهم بعض الخصوصية قياساً على التطور الكبير الذي دخل على المدارس الفنية والتشكيلية العالمية المتنوعة الغني والتصارع خاصة وأن الرعيل الحديث والمعاصر من الفنانين العرب وجد أن فعله في هذه المدارس يكاد يكون مفقوداً. لذا فقد أتاح الانفتاح على فن الخط العربي لهؤلاء الفنانين التعرف من جديد على الامكانات التشكيلية الكبيرة لهذا الفن، مما جعله نبعاً غزيراً يمكن النهل منه في عملية بناء اللوحة العربية الحديثة. لذا فقد اجتهد هؤلاء الفنانون في عملية الاستلهام فراح بعضهم يحاور التقنية والمواد ومنهم من حاول أن يجدد شباب الخط التقليدي نفسه - اطلعنا في بداية هذا البحث وعن كثب على مختلف الاتجاهات التقليدية في استلهام الخط العربي والموقف منه - فاحتفظ بأنواعه المعروفة أو حاول أن يجمع بين هذه الأنواع لابتكار خاصية جديدة.

والغالب ظل أمينا لقضية اللوحة فأدخل رموزاً خطية أو حروفية مضيفاً على تجريديته لمسة خطوطية إذا صح التعبير. وحاول آخرون الارتكاز إلى حركة الخط العربي المتميزة بالقياس إلى بقية الخطوط في إيقاع وترداد ومدات أو بالاستناد إلى تشكيلات خطوطية مثل الثلث والديواني الجلي.

- وحاول آخرون أن يستندوا في بناء لوحتهم إلى العفوية الطفولية الموجودة في تلقائية الكتابات الجدارية الشعبية مع ما تتضمنه هذه الجدارات من تأثيرات طبيعية.

- حاول آخرون - أمانة لوحدة التراث والفنون الاسلامية - أن يوحدوا بين (موتيفات) مختلفة في فنون قديمة امتداداً إلى الزخرفة والخط العربيين.

- وهناك فريق أكد على النص في استعمالاته التشكيلية فمزج بذلك بين دلالة الحرف التجريدية ودلالته النصية (لا مجال في بحثنا هذا الاتيان بأمثلة من تجارب فنانينا، فهي كثيرة وعلى امتداد الوطن العربي كله)[١١].

«رأيهم» بفن الخط العربي:

- كثرت الدراسات والبحوث حول الخط العربي وتنوعت وتشعبت مستفيضة أو مبالغة أحياناً بوصف وتحليل دلالات الخط العربي

وأبعاده مجتمعة أو كل واحدة على حدة، إذ لم يزل الخط العربي حتى يومنا هذا ـ كما يقول د. عادل قديح[١٢]: يستقطب اهتماماً متزايداً من قبل العديد من الباحثين والدارسين الغرب والأجانب لما جمعه الخط العربي إضافة إلى دلالته اللغوية وعلاقته الوثيقة بالعلوم اللسانية من أبعاد فنية غرافيكية وقيم زخرفية لا مجال للنقاش في أهميتها.

ـ لقد حاكمت بعض الدراسات الغربية ـ (والتي لا مجال للتحدث عنها) الخط العربي متهمة إياه بأنه فن غرافيكي صرف مواز في الأهمية للفنون الغرافيكية الأخرى أو يتعداها بقليل. ووصفته كعنصر تزييني دخل من خلال وظيفته هذه في عملية تزيين الفنون الصغرى والكتب. أو أنه زين المساجد والاماكن المقدسة والأضرحة بكتابات قرآنية أو أحاديث نبوية أو شرائع دينية، كل ذلك بهدف تلقي الحشود المؤمنة لهذه التعاليم.

ومهمته إذاً في هذا الاطار لا تخرج عن المهمة التعليمية والتبشيرية الصرفة وضعت في قالب تزييني لتسهيل استيعابها.

ـ في المحصلة رفضت هذه الدراسات الاعتراف بقيمة الخط العربي التصويرية والتجريدية والتشكيلية الصرفة والجمالية. بالقياس إلى المدارس الفنية المعاصرة في التصوير. ومن المدهش حقاً كثرة الدراسات التي تولي أهمية بالغة لشرح وتفصيل دراسة المنمنمات والزخارف بأنواعها (على أهميتها طبعا) من دون إعارة الانتباه والتدقيق الشامل للبنية الجمالية للخط العربي.

ليس هذا فحسب بل نُعت الخط العربي على لسان الغربيين بأنه فن دينِي تنتفي منه السمة الفردية أو المسحة الذاتية على الرغم من بروز خطاطين رائدين وفنانين عظام في هذا المجال في متسع الوطن العربي والعالم الاسلامي.

ـ وكثيرون ذهبوا (قد نوافقهم في هذا بتحفظ) إلى أن الواقع الذي يجب ذكره في هذا السياق أن العرب لم يكونوا السباقين في استلهامهم للخط العربي في لوحاتهم. فالحركة منشؤها الفن الغربي الحديث (نوافق من منطلق اللوحة الغربية المعاصرة). فالخط العربي لم يدخل عنصراً هاماً في لوحة معاصرة تجريدية إلا في مطلع هذا القرن، لكن نتحفظ على مقولة: أن العرب لم يعرفوا الخط العربي كوحدة ابداعية، بل كأساس ابداعي فالتاريخ يحفظ لنا حقنا كأمة استخدمت الخط العربي عنصراً أساسياً في بناء أعمال كثيرة عمرانية وتطبيقية. والفترة الاسلامية حافلة بنتاجات ابداعية تخطاها الحرف والخط العربي بأصوله وقواعده بآيات من الجمال الفني الآخاذ.

بقدر ما يتعين علينا الانصات إلى رموز تراثنا ينبغي الافادة من عطاءات الآخرين

نعود لنتابع: إذاً فالحركة كما يريد المنظرون أن يقولوا منشؤها الفن الغربي الحديث. بدأت مع (براك) الذي أدخل أول علاماته الحروفية في لوحته (البرتغالي) وقد تضمنت هذه اللوحة حروفاً وأرقاماً، فكانت

المدرسة التكعيبية هي أول من أثار الانتباه إلى أهمية الحرف كعنصر تشكيلي وكذلك فعل (بيكاسو) في مرحلته التكعيبية فأدخل تلصيقات كولاج من قصاصات الصحف أو المجلات إلى لوحاته مع ما فيها من حروف طباعية.

والواقع أن المدرسة التجريدية أكدت الاعتبار الهام للكتابة فقد أتاحت هذه المدرسة التعرف على الخط والنقط والشكل الهندسي والرموز المطلقة والاشارات التلقائية والخربشات وبالتالي الحروف كعناصر بصرية[١٣] ذات أبعاد جمالية تدلل على البناء التأليفي للعمل التجريدي أو تشكل العنصر الأساسي فيه.

وقد اشتد الاهتمام بهذه العناصر بعد تجارب كثيرة الأهمية قام بها كل من (كاندينسكي وبول كلي) و(ميرو وجاتيس). وامتدت لتأخذ بعداً خطوطياً خالصاً مع (ماتيو ومارك) عل الرغم من أن بعضهم لم يرغب أو لم يستطع التمييز بين شكلانية الخط العربي والخط الصيني.

- في نفس الوقت كان بعض الفنانين من العرب لازالوا يلهثون وراء الانطباعية والمدارس الأخرى ويعتبرونها سقف الحركة التشكيلية العالمية. لكن هذه الحروفية الجديدة المنطلقة من المدرسة التجريدية دفعت بالفنانين العرب لأن يعيدوا النظر فى صياغة أعمالهم التشكيلية، فقد أتاحت هذه المحاولات وبشكل متسع الحرية للفنان في التعبيرات الفنية والتشكيلية، فأدى ذلك إلى تبديل مباشر في الفهم الجمالي للفنانين العرب.

- لا ضير كما يقول (محمد حيان السمان)[١٤]، من أن ننطلق في السعي لعصرنة فنون العرب الأساسية التي يشكل الخط العربي عمادها، لكن خلال مفهوم نقدي خاص مصدره ذواتنا وأفكارنا متخذاً مصداقيته من تطورنا التاريخي الفعلى وواضعاً بالحسبان أيضاً حاجاتنا الجمالية الفعلية، وأن نقدمه إلي العالم على أنه نحن تماماً لا تلاقيح ذاتنا مع الذات الغربية، ولا أنه مثاقفة حضارية مختلفة مؤمنين إيماناً تاماً بأن الخط العربي والزخرفة الاسلامية يمتلكان قيماً فنية وجمالية تتجاوز القيمة المعطاة لهما تبعاً لمفهوم النقد الغربي السائد، كما رأينا من خلال استعراضنا وجهات النظر الغربية في الخط والزخرفة العربيين.

الاتجاه التجريدي للحرف العربي، افراغ له من مضمونه الحسي والجمالي

- علينا السعي إلى التفكير في التراث الحي
- تراث المرجع التاريخي والتراث الفردي بغض النظر عما يريده (المغرضون). والشيء الذي يجب أن يبحث عنه الفنان من وراء استلهام الخط أو أيَّة مفردة تراثية عربية، هو خلق أرضية صلبة لمرجع تاريخي بالنسبة لنا. وهكذا فان توالد الأشكال العالمية في داخلنا وتلاحمها الأكاديمي قد يولد فناً آخر يملك روحه الخاصة ولا يجهل ما ينجز في جهات أخرى. فن قد يذهب ليغني التراث العالمي من جهة ويعطي من

جـهة أخـرى فـرصـة للتفكير لا للتلقي السلبي والاستهلاك واجترار التاريخ.

نقـول هذا علمـاً أنه لم تـسـتطع الدراسـات على مـختلف أنواعها وأجناسها أن تشير إلى الموقع الكبـيـر الذي احـتله الخط العـربي على الصعيد التشكيلي والجمالي باعتباره أحد أهم الفنون العربية التي أخذت من التـاريخ العربي والاسلامي الموقع الأكثر أهمية بالقياس للفنون الأخرى. وهذا عـائد إلى أن البـاحثين الغربيين أرادوا أن يحـولوا الأذهـان إلى الزخـرف والمنمنمات لاعتبارهـا قاعدة ومنطلقاً للتصوير العـربي والاسـلامي، والتي سـتبـقى من وجـهـة نظرهـم مـقـصـرة عن ركب اللوحـة بمفـهـومـهـا الغربي.

- لكن من وجهة نظرنا نقول: إن الخط العربي وفي سـيـاق دراسـة الفنون الاسـلامـيـة، هو فن مكمل لهـا ولكل الفنون المعـاصـرة. ولا ضـرورة لاعتـبـاره أحد أهـم الأسـس البنائية الدالة على الفهم المميز لمسـألة الفنون التشكيلية، لكنه على أقل تقدير يبقى أحد الأعمدة الأسـاسـيـة التي بُني عليها الفن التشكيلي العربي.

* خاتمة:

على كلٍّ ومـا يثلج الصـدر أن تيـاراً عـربيـاً خـالصـاً. رغم مـا تحـدثناه ومـا يتـحـدثونه عن التـأثيرات الغربية عليه - يتمثل بالحروفية - بدأ يدق أبواب العـالمـيـة فـارضـاً نفـسـه كـانجـاز ابداعي تشكيلي عـربي. وقـد تنبـهت النـاقـدة الالمانيـة (سـيـجـريد كـالا) عـقب مـشـاهدتهـا لمعـرض السنتين في بغـداد عـام ١٩٧٤. إذ قـالت: «لعلني لا أغالي كثيراً.. فمن جميع مـا شـاهدته في البـينالي العـربي لم أجـد نتـاجـاً يفـصـح عن مـصـدره العـربي وينطق به إلا ذلك الانتاج العربي والحروفية مادته».

ويضيف ناقد أوروبي آخر هو (روبير مزنيا) قـوله: «أصبـحت الكتـابة العـربيـة تنبض فـيـها الحـيـاة أو تصبح أكثر طراوة وأكثر صـلابة، تركض في حروفهـا المتساوقة. أو تتشكل في قوالبـهـا الهندسـيـة مما يمكن الخط الكوفي أن يتــخــذ ألف شكل وشكل وأن يعطي دلالات جديدة لأساليب عديدة للوصول إلى أن تصبح ضرباً من القراءة في المستقبل.

الهوامش:

- ننوه إلى أننا رجعنا إلى الابحاث والدراسات التى تقدم بها السادة الباحثون العرب فى إطار محور التأصيل والتحديث في مجلة الوحدة عدد ٧٠ - ٧١ لعام ١٩٩٠م

(١) التشكيل العربي والتحديث الثقافي - رئاسة التحرير - مجلة الوحدة ص٣ عدد ٧٠ - ١٩٩٠/٧١.

(٢) معرض العدد - مجلة فنون عربية - لندن عدد ٢ عام ١٩٨١ ص١٢١.

(٣) نفس معطيات المرجع الأول.

(٤) نفس معطيات المرجع الثاني.

(٥) بلند الحيدري - الحرف العربي في الفن التشكيلي - مجلة الوحدة عدد ٧٠ - ١٩٩٠/٧١ ص٢٤.

(٦) موريس ستكري - لوحة الحروفية العربية - مجلة الوحدة عدد ٧٠ - ٧١ / ١٩٩٠ ص١٠٩.

(*) ننقلها هنا بالحرف، ولا ندرى لماذا لم يستقم المعنى اللغوي لكن على كل حال وصل المضمون الذى أراد بارينو أن يقوله حول التأثير السلبي للغرب على فنانينا.

(٧) نفس معطيات المرجع (٥).

(٨) بدون مؤلف - الفنون التشكيلية العربية - مجلة الوحدة عدد ٧٠ - ١٩٩٠/٧١ ص٩٦.

(٩) د. شربل داغر - الحيز التشكيلي في الفن الاسلامي - الوحدة عدد ٧٠ - ١٩٩٠/٧١ ص٣٢.

(١٠) د. عادل قديح - حول البنية الجمالية للخط العربي - الوحدة عدد ٧٠ - ١٩٩٠/٧١ ص٤٧.

(١١) نفس معطيات المرجع السابق.

(١٢) نفس معطيات المرجع العاشر.

(١٣) نفس معطيات المرجع السابق.

(١٤) محمد حيان السمان - الفنون الاسلامية - مجلة الفيصل - عدد ١٩٨٣/٧٤ ص١٢٨.

(١٥) محمد نور الدين أفاية - التشكيل العربي واسئلة الثقافة - حوار مع محمد القاسمي.



في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقرىء الملامح ويرسم اللوحة

مشاهدات في جمهورية السلفادور

السويد خواطر وتأملات

في هذا العدد من

السائح



على بُعد مئة وعشرين كيلا من مدينة جيزان، وفي منطقة آل علي ببني مالك، يوجد أحد الأودية الضخمة في المملكة العربية السعودية.. ومعلوم ان المملكة تتمتع بأكبر قدر من الأودية التى تنحدر اليها المياه من قمم الجبال لتشكل جانباً من روعة الطبيعة التى وهبها الله سبحانه لعباده.

تستقر في بطن هذا الوادي مياه ستة شلالات كبيرة تنحدر مياهها من ارتفاع عشرين متراً، وتزيد .. والماء عصب الحياة كما يقولون.. انحدار الشلالات في ذاته روعة لا تغيب عن الخاطر، تسعد بها النفس، وينعم بها

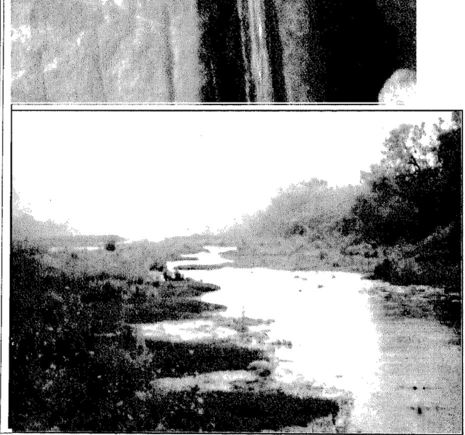


الرائي، ويهش للاستمتاع بها.

أما بطن الوادي ، فأعجوبة من عجائب الخلق .. أشجار الكادي والخزام والبعيثران، طيور الحبارى والصقور، هذه وغيرها، تشكل نسيج لوحة الجمال في هذه المنطقة. المملكة العربية السعودية تنعم بالكثير والعديد من المناطق السياحية التى ينبغي الالتفات إليها والعناية بها.

وادى الاحسبة:

وفى شمال القنفذة، يقع مجرى سيل وادي الأحسبة، وهو من الأودية الكبيرة فى المنطقة.. وله أثره البالغ فى حياة السكان هناك.

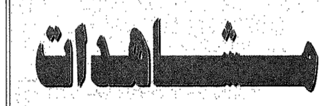


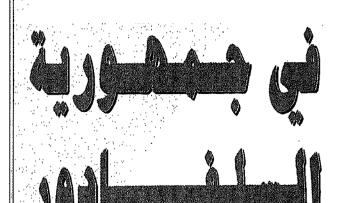
يوم الثلاثاء: ٢١/١٢/١٤١٤هـ ـ ٣١/٥/١٩٩٤م

صباح سلفادور:

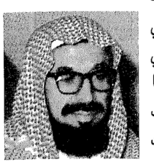
بدأ صباح سلفادور بإزاحة الستارة عن نافذة الغرفة وهي نافذة زجاجية واسعة تغطيها ستارة ضافية، وتطل النافذة على شارع فرعي قد صُفّت فيه اشجار غير كثيفة الفروع، والبيوت في المنطقة متعددة الطبقات ولكنها ليست عالية وذلك بأن منطقة السلفادور تعتبر منطقة غير مستقرة ففيها زلازل وبراكين لذلك لا يرفعون طبقات الأبنية عالية الا بمقدور.

نزلنا الي مطعم الفندق فكان إفطارهم جيدا من البيض والخبز وعصير البرتقال الطازج ثم القهوة أو الشاي وثمنه ٢٢ كولونا ويساوى ذلك ثلاثة دولارات الا قليلا والمطعم نظيف والخدمة فيه جيدة.





(الحلقة الثانية)

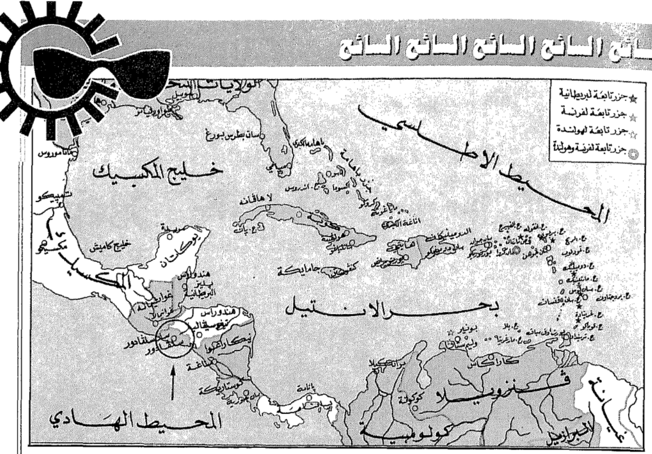


بقلم:
الشيخ/
محمد بن ناصر العبودي
الأمين العام المساعد لرابطة العالم الاسلامي
ـ مكة المكرمة ـ

وبقية الصباح كان فى الخروج الى التمشي على الاقدام فيما حول الفندق فكان اهم ما يسترعى الانتباه كثرة البسطات وهي البضائع القليلة التي يعرضها اصحابها على الرصيف والغريب أنها قد شملت الرصيف كله بدون استثناء وهذا الرصيف تفتح عليه الحوانيت (الدكاكين) والمحلات التجارية، الا ان الذى يريد الوصول الى تلك المحلات يصعب عليه اختراق هذه (البسطات) فيلجأ الى ممر زقاق او شارع متفرع من الشارع العام.

واكثر الباعة هناك من النساء مثلما عليه الحال فى افريقية وأقطار الهند الصينية وما جاورها وهي العادة نفسها الموجودة بكثرة لدى هنود الانديز.

لقد خرجت دون أن آخذ المصوِّرة (الكاميرا) وذلك لكوني لا أعرف مستوى الامن في المدينة وأخاف عليها من الاختطاف. الا أن التأمل فى هؤلاء البائعات يخرج منه المرء بأنهن لسن من الجميلات ولا شك ان جزءا من ذلك يرجع سببه الى موقع البلاد من خط الاستواء، مع أن



ـ خارطة امريكا الوسطى وتظهر فيها (السلفادور) فى الدائرة.

اكثرهن من المخلطات اللاتي ولدن ما بين الهنود الامريكيين من السكان الاصلاء وبين الأوروبيين الجنوبيين من الذين يسمون اللاتينيين ـ نسبة الى لغاتهم التى يتكلمون بها التي يرجع اصلها الى اللغة اللاتينية.

هذا وفيهن طائفة من نساء الهنود الخلّص وهم السكان الاصلاء والغالب عليهن عدم الوجاهة والنضارة.

ولاحظت انه ليس عليهن أي شيء من الخفر أو الحياء الذى يميز المرأة عن الرجل، فالواحدة منهن تتعامل مع الناس ويتعاملون معها كما يتعاملون مع الرجل حتى الاصباغ والتأنق في اللباس اللافت لنظر الرجال لا يوجد عندهن.

وبضائعهن اكثرها الفاكهة والخضروات وأقلها الملابس الجاهزة الرخيصة والأحذية والأدوات المنزلية الصغيرة وهي على وجه العموم بضائع رخيصة وتحتاجها عامة الناس.

واما الفاكهة والخضروات فإنها فى غاية الرخص وكلها مما تنتجه بلادهم، وذلك لوفرة المياه وكثرة الأمطار ورخص الأيدي العاملة فمثلا كيلو الدراف الجيد بأربعة كولونات وتساوى أقل قليلا من نصف دولار وثمرة (ابو كانو) الكبيرة الجيدة بكولونين اي ربع دولار اذ كنا صرفنا الدولار الأمريكي فى البنك بتسعة كولونات .

الأربعاء:

ورأيتهم يُقطِّعون ثمار الباباي والاناناس الطازج قِطَعاً يبيعونه الواحدة التى يأكلها الشخص الواحد مباشرة بكولون واحد.

وفي فاكهتهم أنواع لا نعرفها وبعضها

نعرفه ولكنه من نوع غريب مثل القرع الذى وجدت عندهم منه نوعا صغيرا في حجمه ولاحظنا أن ألواننا ليست موضع استغراب لكثرتها عندهم ولكن التقاسيم العربية غير موجودة على وجوههم.

أما تقاسيم وجوههم فإنها مما لا يرتاح نظر العربى اليها فالوجنات العالية الضخمة والوجوه الغليظة على اجسام صغيرة او متوسطة وعدم التناسب احيانا في حجم التقاسيم مثل العيون الصغيرة في وجه كبير او الأنف الصغير في مثل ذلك الوجه واكثر ما يميز هذا الجنس قلة الرشاقة فيهن جميعا فضلا عن النحالة.ولا يرى المرء بينهن سوداء اللون، سواد الافريقيين ولا ما يقرب من ذلك كما ان بيضاء اللون، بياض الاوربيين قليل، والمراد بذلك هؤلاء الموجودون فى السوق الآن وأما فى سلفادور كلها فإن البيض الخلّص كالاوروبيين موجودون ولكن على قلة بخلاف الذين بياضهم كبياض العرب فانهم موجودون بكثرة.

وأما مظاهر الكفاف فى المعيشة فانها أحسن منها فى (بيليز) فالفقراء المدقعون قليل الا أن الطبقة الفقيرة أو لنقُل غير الغنية هي كثيرة العدد ويتجلى ذلك فى اللباس وفى عدم مظاهر الزينة الغالية لدى النساء.

ولا يسمع المرء هنا أية لغة غير الاسبانية التى هي لغة امريكا الوسطى كلها ما عدا (بليز) ولغة امريكا الجنوبية ما عدا (البرازيل).

الى المركز الاسلامي:

جَهِدنا أمس فى ان نجد من نتصل به من الاخوة المسلمين الذين نحمل عناوينهم هنا فلم نستطع، لذلك ذهبنا الى عنوان المركز الاسلامي السلفادوري وقد تبين انه قريب من فندقنا ويقع على شارع مهم من شوارع العاصمة (سان سلفادور) اسمه شارع اسبانيا.

وجدنا فى المركز الاخ حسين بن عبد العزيز عبد اللطيف وهو فلسطيني متفرغ للعمل فى المركز ويعرف اللغة الاسبانية التي هي لغة هذه البلاد.

ومهمته ان يكون موجودا فى المركز الاسلامي طيلة الوقت لكي يرد على أية استفسارات أو أسئلة يوجهها من يريدون معرفة شيء عن الاسلام او يريدون الحصول على كتيب او نشرة صغيرة عن الاسلام وكثير منهم يكتفي فى اول اتصاله بالمركز بالاستفسار بالهاتف ثم يتبع ذلك الاتصال الشخصي بالمركز، كما وجدنا فى المركز احد الاخوة المسلمين السلفادوريين واسمه الذى سماه ابواه (تيتوباسوتو) اما اسمه الاسلامي فهو (عبد الهادي) ذكر انه أصبح اسما رسميا له يعنى انه أثبته فى الاوراق الرسمية، ويعمل أيضا فى المركز لارشاد بني قومه السلفادوريين الذين يريدون الدخول في الاسلام او الذين اسلموا بالفعل ولكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن الاسلام.

وقد اسلم قبل ثلاث سنوات وذهب الى ماليزيا حيث تلقى شيئا من المعرفة الاسلامية وهو متزوج من سيدة مسلمة من اهل بيرو.

قصة المركز الاسلامي:

للمركز الاسلامي السلفادوري قصة عجيبة هي مثال صادق على ان الله سبحانه وتعالى قد يبعث لدينه ناصراً لم يكن محتسبا ولا معروفا من قبل.. فقد هدى الله الى الاسلام



ـ المنازل الريفية وسط الخضرة.

رجلا عربيا كان مسيحيا فأسلم وحَسُن اسلامه وليس ذلك فحسب بل انه اجتهد وانفق فى سبيل الدعوة الى الله ما لم ينفقه غيره في المنطقة.

ذلك هو الدكتور (ارماندو بطيله) ويسمونه هنا (بوكيلو) وهو فلسطينى مسيحى أبوه من القدس وأمه من بيت لحم وولد في السلفادور مسيحيا عريقا في المسيحية الا أنه ذو عقل نير وتفكير حُرّ فصار يتناقش فى المدرسة مع مدرسي الديانة المسيحية فى أمور الديانة ولا يتقبل ما يقوله المدرسون عنها تقبلا أصم ولم ير فيها ما ينشده من عقيدة فأخذ فى دراسة الأديان الاخرى فكانت أولى الديانات التى درسها بعد المسيحية اليهودية ولم تعجبه فدرس الاسلام دراسة عميقة حتى اقتنع بانه الدين الحق فأسلم وحسن إسلامه، ولم يقتصر على ذلك حتى أخذ يدعو مواطنيه السلفادوريين الى الاسلام بطريقة يفهمونها. فكان أن خصص طابقا واسعا من مبنى يمتلكه على شارع مهم فى العاصمة (سان سلفادور) هو شارع اسبانيا بأن جعله مركزاً اسلاميا هيأ الجزء الاكبر منه مسجداً وجزءاً منه فصولا دراسية لتعليم العربية ومباديء الدين الاسلامى يتعلم فيها المسلمون وغيرهم.

واعلن قبل سنة واشهر فى الجرائد اعلانات بأجور مرتفعة يقول: انه جرى لأول مرة افتتاح مركز اسلامي فى السلفادور وذكر عنوانه، وانه مستعد لاستقبال كل من يريد المعرفة عن الاسلام، وكل من يريد الدخول فى الاسلام حيث يوجد فى المركز من يشرح له الأصول

الاسلامية باللغة الاسبانية او حتى من يريد ان يشاهد كيفية الصلاة فى المسجد.

وقد رسم سياسة المركز بأنها أولا محاربة الجهل بالاسلام عن طريق توفير المعلومات المتاحة من غير ان يتضمن ذلك أى عمل قد يَشْتَمُّ منه القادم للمركز ان هناك محاولة للتأثير عليه وسعياً لجذبه للدخول الى الاسلام قبل اقتناعه به.

فصار الناس يأتون الى هذا المركز مدفوعين بالرغبة فى المعرفة بالاسلام والتعرف على كيفية العبادات فيه. فكان اهل المركز يكرمون وفادتهم بما ارادوه من المعرفة ويرونهم كيف يُصلّون ولا يشدّدون عليهم بالزامهم بكل فرائض الدين دفعة واحدة لأن الأمر فى هذه البلاد ليس فيه الزام بأى دين او مذهب للحرية الدينية المطلقة السائدة فى البلاد ولكنهم يريدون ان يدعوا الناس شيئا فشيئا اعتماداً للسياسة التى سار عليها الدكتور ارماندو بقليه او (بوكيلو) كما يلفظون بها وهو يعرف أهل البلاد معرفة حقيقية لكونه وُلد بينهم ، ويدل على معرفته بهم انهم انتخبوه وكان قد اصبح مسلما رئيسا لاتحاد المهندسين في البلاد وهو الاتحاد الذى يضم ٣٢ الف مهندس من جميع التخصصات والمهن الهندسية مع انه مهندس كيمائي.. وهذا شرف عظيم يدل على مكانته في نفوسهم لانهم انتخبوه انتخابا حراً لهذه الرئاسة، ومن الطبيعى أنهم لم ينتخبوه لكونه مسلماً وإنما أردت أن كونه مسلما لم يمنعهم من تقدير مواهبه وانتخابه رئيسا عليهم.

النتيجة العظيمة:

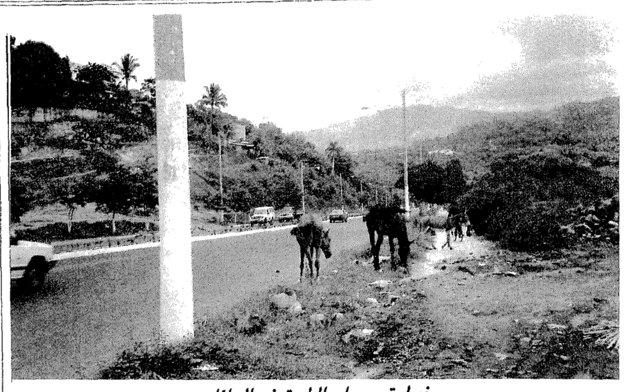
لم يمض على الاعلان عن المركز الاسلامي وافتتاحه الا اقل من سنتين حتى بلغ عدد المسلمين الذين اهتدوا للاسلام على أيدي المسئولين فيه ٣٠٩ منهم ٢٩٩ مسلما سلفادوريا اى من المسلمين الجدد الذين لم يكن آباؤهم ولا اسلافهم من المسلمين بالاضافة الى عدد من العرب الضائعين الذين كانوا من أبناء المسلمين المهاجرين القدماء فى البلاد عادوا الى الاسلام بعد ان أنْسُوه ممن وُلدوا فى هذه البلاد وبعضهم تنصّر وهو صغير على أيدى اناس من اهل البلاد.

قالوا: والمهم فى الأمر أن هؤلاء المسلمين الجدد صاروا يدعون اخوانهم وأصدقاءهم الى الدخول فى الإسلام أو على الأقل المجيء الى المركز لاكتساب المعرفة به.

حتى وجدت فى السلفادور التى لم يكن فيها أي نشاط اسلامي من قبل حركة اسلامية لا يوجد لها مثيل في اقطار امريكا الوسطى كلها، لا سيما فى كون المسلمين هم من ابناء البلاد الاصلاء.

وقد اخبرنا الدكتور (بقيله) - بعد ذلك - ان هدفه القريب يتمثل في بناء مسجد جامع فى العاصمة (سان سلفادور) هو أول مسجد فيها يكون له مظهر المسجد وهندسته الاسلامية المميزة مثل القبة والمآذن، يعرفه البعيد، وان يكون في كل مدينة كبيرة أو صغيرة فى السلفادور مسجد..

وقد اسميته فتحا مبينا نظرا لما تحقق في هذه المدة القصيرة من دخول هذا العدد الكبير نسبيا من اهل البلاد الاصلاء في الاسلام ومن المعروف ان الاسلام إذا خالطت بشاشته القلوب إستسهل صاحبه الصعبة في الدعوة اليه، لا سيما لمن يكونون مثله في اللغة والمنشأ وظروف الحياة. مع العلم بأنه لم تمض على



- خيول ترعى على الطريق في السلفادور.

افتتاح المركز الاسلامي الا سنة وأشهراً كما سبق.

عود الي المشاهدات:

جلسنا على مائدة في مطعم فى الفناء الأرضي من المبنى الذي يقع فيه المركز الذي هو ملك للدكتور (بقيله) وهو تاجر ومالك عقارات وذلك على فنجان من الشاي لأننا تناولنا إفطارنا فى الفندق قبل فترة وهذا المطعم يقدم أطعمه خفيفة ويأكل فيه المسلمون وغيرهم ولا يقدم فيه الا الطعام الحلال.

وبعد ذلك صعدنا الى المسجد أولاء وفى المركز في الطابق الثانى فإن أول ما يلي الداخل منه مكتب استقبال جيد التأثيث يستقبل فيه المسؤول عن المركز الزوار والمستفيدين، ثم مكتبة صغيرة معظمها بالاسبانية وقليل من كتبها بالعربية ثم المدرسة وهي صغيرة فيها قاعة خشبية جيدة وسبورة عليها كتابة بالعربية والاسبانية. ثم المسجد، أو المصلى وهو واسع نسبيا أوسع من كثير من مساحة المراكز الاسلامية التي هي بيوت اتخذت مساجد مؤقتة، وغالباً ما يتطور الأمر بأهلها الى ان يبنوا لهم مساجد كاملة البنيان والمظهر عوضا عنها.

ذكر الاخوة فى المركز ان عدد الذين يؤدون صلاة الجمعة فيه يتراوح بين ٢٥ و٤٠ مصلياً.. وذلك لوقوع صلاة الجمعة فى وقت العمل عندهم ولبعد مساكن المسلمين عن المركز.

ولكن هذا العدد هو جيد بالنسبة الى كون المسلمين اكثرهم ممن اسلموا حديثا ولكونه قبل سنة ونيف من الشهور لم تكن تقام في البلاد كلها صلاة جمعة.

وذكروا انهم يستعملون الكتب الكبيرة الاسلامية عندهم لتعليم الناس الدين وليس للتوزيع وان لديهم اشرطة اسلامية مسجلة تعرض الاحكام العملية للاسلام مثل الصلاة

وانهم يعرضونها كل جمعة فى المسجد ويعطون من يريد منها نسخا في اي وقت.

وبهذه المناسبة ذكروا أن المركز يدخله المسلمون وغيرهم وانهم يجرون فيه النقاش في كل شيء حتى انهم قالوا ان كل كلام مباح فى المسجد الا التجارة. هكذا قالوا.

وبذلك يحرصون على إدخال النصارى الى المسجد ولو لم يسلموا وانما من اجل البحث معهم عن الاسلام واطلاعهم عليه. ويرونهم كيف يصلّون.. ويأتي الى المركز رجال ونساء ولكن دخول الرجال فى الاسلام اكثر من دخول النساء خلاف ما عليه الحال في معظم البلدان الاوروبية.

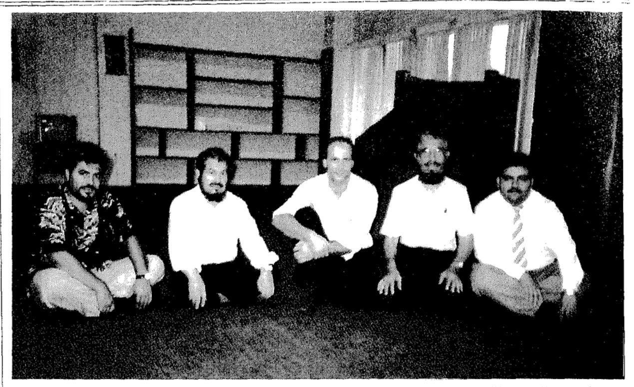
وعلى ذكر أمور اجتهدوا فيها واستعملوها فى دعوة اهل البلاد الى الاسلام ذكروا انهم لا يريدون ان يأتي اليهم دعاة من البلدان العربية يعرفون كثيرا من امور الدين ولكنهم يجهلون لغة البلاد ومناحي تفكير اهلها، وقالوا: نحن نجحنا فى طريقتنا فما من بلد فى بلاد امريكا الوسطى اسلم فى عاصمتها هذا العدد من السكان الاصلاء حتى مع وجود الدعاة من البلدان العربية والاسلامية فيها، وسبب ذلك أنهم لا يطالبون غير المسلم فى بداية حضوره اليهم بأن يترك شرب الخمر، بل يطلبون منه أن يسلم وان يترك شرب الخمر بالتدريج يقتدون فى هذا الامر بعدم نزول تحريم الخمر دفعة واحدة في الاسلام ويقولون: ان حال الناس فى هذه البلاد مثل حال الجاهلية من حيث عدم اعتناقهم الاسلام، ويقولون: ان الناس اعتادوا على شرب الخمر منذ الصغر ولذلك يصعب منعهم عنها دفعة واحدة حتى لا يصدوا عن الاسلام.

قالوا: وقد جربنا أناسا فعلنا معهم هكذا ولما دخل الاسلام فى قلوبهم تركوها بعد أن فهموا انها محرمة ووجدوا من حلاوة الايمان فى قلوبهم ما اغناهم عن طلب النشوة من شرب الخمر.

لا شك ان هذا فهم غير صحيح فيما يتعلق بتحريم الخمر لأن من اهم مزايا الاسلام تحريم الخمر، بل الكحوليات المسكرة لما تسببه من ضرر للجسم والعقل وما تتلفه من مال ولكن هذا اجتهادهم في خطتهم للدعوة بين اهالى البلاد الأصلاء.

ومن الطريف اننا رأيناهم كتبوا على احدى اللافتات الأذان بالعربية والاسبانية واحكاما من أحكام الأذان بالاسبانية فقط مثل عدد المرات التي ينبغى أن يؤذن فيها. واحكام الصلاة مختصرة بالاسبانية أيضا بدون العربية وذلك لكون جميع الذين يأتون للمركز الاسلامي يفهمون الاسبانية حتى ولو كانوا من ابناء المهاجرين العرب.

وهذه البيانات والأحكام موجهة اليهم وإلى أبناء البلاد وليست موجهة الى العرب من الزوار أو المهاجرين الجدد لأنهم يعرفونها وعددهم قليل. كما كتبوا فى لافتة أخرى سورتي الاخلاص والعصر وترجمة معانيهما بالاسبانية، ثم خرجنا من المركز الى الشارع لنصوّر اللافتة التى عليه وهي بالاسبانية (سنترو اسلاميكو أراب سلفادونيو) (اي المركز العربي الاسلامى السلفادوري) وكتبوا بجانبها كلمة (حلال) بالاسبانية اشارة الى المطعم الموجود فى المركز الذي لا يقدم الا الطعام الحلال. ومع ذلك رأيت الذين يأكلون فيه هذه المرة ويعد ذلك اكثرهم من غير المسلمين لكونه



- *يظهر في الصورة الكاتب بالاضافة إلى الشيخ عبد العزيز السند وبعض المسلمين في مسجد سان سلفادور.*

يقدم طعاما عربيا متميزا رخيصا. ومن الطريف ان الأخ عبد الهادي قال: ان اكثر الذين يأكلون فى المطعم هم من غير المسلمين كما نرى ولكننا نُسْمعهم الأذان اذا حان وقته من اجل ان يسألوا عنه فنتحدث معهم عن الاسلام.

جولة في السلفادور:

كانت الجولة مع الاخ السلفادوري المسلم عبد الهادي بازورتو على سيارته التي يسوقها وبصحبته الاخ الكريم (حسين عبد اللطيف) الفلسطيني وهما متطوِّعان للعمل في المركز. ويبلغ عدد سكان العاصمة مليوناً ومائتي الف من مجموع سكان البلاد الذين يصلون الى ستة ملايين نسمة. قالوا لنا ونحن ننطلق من المركز الاسلامي القريب من الفندق الذي نسكنه.

إن هذه المنطقة هي القلب التجاري لمدينة (سان سلفادور) عاصمة جمهورية السلفادور، ويتألف قلب المدينة او مركزها التجاري هذا من أبنية متعددة الطوابق الا ان طوابقها محددة الارتفاع بخلاف الاحياء القريبة منه فان منازلها تتألف في الغالب من طابق او طابقين والسبب فى ذلك هو الخوف من الزلازل التى تعتاد المنطقة، وذلك لكون الأبنية ذات الطوابق المتعددة تحتاج الى نفقات اضافية لكي تكون مقاومة للزلازل ومع ذلك لا تصمد اذا أصاب البلاد زلزلة قوية.

وهذا القلب التجاري ذو شوارع متوسطة السعة او هي ضيقة بالنسبة الى ما اصبحنا نعرفه من الشوارع فى بلادنا ولذلك تكتظ بالسيارات ومنها بعض الحافلات التي تنفث الدخان المؤذي.

حديقة سيمون بوليفار:

سيمون بوليفار له فضل على عدة اقطار فى امريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية لأنه هو الذي قاد بعض أقطارها الى الاستقلال عن

اسبانيا وكان يهدف من وراء ذلك الى انشاء دولة كبرى من هذه الأقطار مجتمعة. ولذلك يسمونه في هذه المناطق بالمحرر، يعرف بذلك، ومن باب الوفاء له سُمّي أحد اقطارها باسمه وهو (بوليفيا) وسمّت فنزويلا عملتها على اسمه وهي (بوليفر)

وقد مات دون ان تتحقق أمنيته في انشاء الدولة الكبرى وان كانت أمنيته في الاستقلال عن اسبانيا قد تحققت وخصصوا له متحفا في بوغوتا عاصمة كولومبيا وقد زرت البيت الذي كان يسكن فيه هناك وذكرته في كتاب: «رحلات في امريكا الوسطى».

وفي هذه العاصمة السلفادورية أنشأوا على اسمه حديقة اسموها (بارتي بوليفر) و(بارتي): منتزه أو حديقة مفتوحة وتقع على شارع روزفلت وهو شارع مهم في وسط المدينة. والمدينة جميلة التنسيق كثيفة الأشجار وينبغي ان نذكر هنا ان الامطار غزيرة ولا تكاد تُخْلفُهم مما ساعد على نشر الخضرة في انحاء البلاد، لذلك تبدو البلاد كلها كأنما هي حديقة كبيرة. ولذلك - أيضا - لا يُحْتَاج الى جهد في انشاء المدينة واستمرارها لأنها تشرب من (ضرع السماء) على حد قول احد الظرفاء.

وفي شارع روزفلت هذا فندق مشهور اسمه فندق (الميداروزفلت) وقصر مهم جدا لانه قديم البناء اسمه (فنتو روسو) ومعناها (قصر الحظ) كما أخبرونا. وهو ذو طلاء أبيض وهندسة خاصة متميزة له ابراج بيض تشبه ابراج الكنائس القديمة.

تمثال السلفادور:

وهو الذي سميت البلاد باسمه ومعناه: المنقذ والمراد به عيسى عليه السلام، وقد كثرت الأسماء التي سميت بسلفادور في امريكا الجنوبية والوسطى فمن الأماكن التي رأيتها وتجولت فيها ماله اسم (سلفادور) هذه الجمهورية التي نحن فيها اسمها (السلفادور) واسم عاصمتها (سان سلفادور) بمعنى سلفادور المقدس. ومدينة مهمة في شرق البرازيل اسمها (سلفادور)، وكانت عاصمة للبرازيل في وقت مضى، وقد تكلمت عليها في كتاب (شرق البرازيل).

وتمثال (السلفادور) هنا يشبه التمثال الذي رفعه البرازيليون له على قمة احدى الجبال الخضر التي تحيط مدينة (ريودي جانيرو) أجمل مدينة في العالم ويسمونه (كوركوفادو) ولا أعرف معناه ولكن اسم الجبل او القمة التي يقع التمثال فوقها (مونت خريستو) ومعناه: جبل عيسى. فالتمثال هنا وهناك جعلوه باسطا ذراعيه كالمرحب بمن يقبل عليه يريد ان يحتضنه. وقد وضعوا التمثال في ميدان صغير غرسوا فيه زروعا خضرا جميلة.

وقد رأيت عجبا أمس في حافات شوارع المدينة خارج قلبها التجارى المزدحم، رأيت بقراً ترعى حشائش الرصيف والمراد بذلك مكان الرصيف العريض من الشوارع لأن تلك الشوارع في الضواحي لا ارصفة لها وإنما جعلتها الحشائش الخضر تبدو كأنما زرعت.

واسترعى انتباهي هنا منظر بعض الواقفين الذين يبدو اكثرهم كأنما هم من القرويين وقد وقفوا في بعض محطات الحافلات وأشكالهم وتقاسيم وجوههم تشبه اشكال المغول وتقاسيم وجوههم وهذا واضح في هنود الانديز، وفي هنود امريكا الوسطى والبحر الكاريبي.

مما عـزز القـول الشـائع بأنهم كـانوا من الآسيويين الذين قدموا الى امريكا الشمالية أول الأمـر عن طريق مـضـيق (بهـرنج) ثم انزاحـوا على مـر السنين - ان لم نقل على مـر القرون - جنوبا إمـا طلبـا للدفء أو فـرارا من مهاجرين جـدد قدموا عن الطريق نفسه وهم أصلب عـودا واحـوج الى القـتال منهم من اجل ان يركزوا وجودهم فى البلاد.

واسـتـمـر هؤلاء الذين يؤلفـون السكان الاصـلاء فى امـريكا الوسطى والجنوبيـة فى الزحف جنوبا حـتى وصلوا الى هذه الامـاكن التى كـانوا يحـتلونهـا عندمـا وصلهم المستكشفون الأوروبيون صحبة كريستوفر كولمبوس.

عندمـا ابديت للاخـوة المرافـقين عـجـبي من ازدحـام الشـوارع بالسـيارات ذكـروا أن هذا بسبب خروج الموظفين وعمال الشركات للغداء لأن العمل عندهم يبدأ من الثامنة حتى الثانية عشرة ثم تحل عطلة الغداء من الثانية عشرة حتى الثانية حيث يستأنف العمل من الثانية حتى الخامسة.

بلاد الثورات:

ظل الناس فى سائر انحاء العالم يستمعون عن قـصـد او غـيـر قـصـد الى انبـاء القـتل والاحتراب في السلفادور مدة عشر سنين حتى ثبتت فى اذهانهم صورة السلفادور بأنها بلاد القتل والحرب وانهـا البـلاد المضطربة التي لا يسلم من مـر بها او عرج عليـها فـضـلا عمن يقيمون فيـها، لأنها كانت شـهدت ثورة يسارية أمدتها الشيوعية العالمية والانظمة الاشتراكية فى العـالم ومن اقـربهـا اليـها جزيزة كـوبا فى الكاريبي وهـي ثورة مـوجـهـة الى رجـال المال والأثرياء الذين أيدتهم الولايات المتحدة ضد هؤلاء الثوار اليساريين وأمدتهم بما يقاومون به تلك الثورة.

الا ان ذلك قد اصبح الآن فى ذمة التاريخ حيث تم الصلح بين الطرفين واتفقا على وضع حد للثورة وساعد على ذلك سقوط الشيوعية فى مهدها وانحسار المد الاشتراكي. ولكن بعد ان حصدت هذه الثورة مئآت الألوف من القتلى من الطرفين المناصر لها والمعادي.

وقد اعلنت حكومة السلفادور أنها احصت عدد القتلى في الثورة فبلغ مائة الف قتيل، إلا أن العـارفين بالأمـور من اهل السلفـادور ومن اهل منطقة امـريكا الوسطى يقولون: العـدد اكـثـر من ذلك وانه يبلغ بدون شك عندهم الى نصف مليون قتيل.

وقد عاد الامن والأمان الى سالف عهده فى السلفادور كلها فلا يُخاف الشر فيها الآن من احـد الا كـمـا يخـاف السـاكن فى بلاد آمنة مطمئنة من لصوص ونحوهم.

وقـد انتـهت الثـورة قـبل سنتين بعـد ان استمرت اثنتي عشرة سنة.

ويجـدر بنا قـبل ان نُنهي الكلام على هذه الثورة ان زعيمها هو من اصل عربي مسيحي ولكنه مولود فى هذه البلاد السلفادورية واسمه شفيق حنظل وقد اصبح الآن زعيم المعارضة للحكومة الحاضرة. وهو مسيحي فلسطيني من أولاد الاغنياء لكن تفكيره اشتراكي كما يقولون ، ومن الغـريب الذي نوّهوا به أن أسـرته غنيـة وأنه قـوي الصلة بهـا رغم كـونه زعـيم الثـوار اليساريين .

للرحلة صلة



ابتعدت السيارة عن ذلك الشلال الهادر، وتلك الربوة العالية التى تقع على جبل «ديجايرجا» المطلة على بحر البلطيق، وانطلقت مسرعة فى طريق مستقيم يمتد على طول المجرى المائي الذي يستمد مياهه من الشلال ويشق طريقه وسط الغابة.

الغابة أمامى عامرة تمور بالحياة بأشجارها الكثيفة العالية ونباتها وطيورها وحيواناتها الكثيرة مختلفة الأنواع والألوان، ورغم سقوط الأمطار الغزيرة إلا أن الهواء العليل كان يرسل نسيمه فواحا يحمل معه عبق الزهور والرياحين التى تنمو بين أشجار الغابة،ولم تمر دقائق محدودة حتى انقلب الجو مصحوباً ببرودة شديدة سببت قشعريرة فى جسدى الأمر الذى جعلنى أغلق زجاج نافذة السيارة.. لم تترك عينى تلك المشاهد الرائعة وتحركت فى نفسى عواطف كانت مكبوتة وتجلجلت الآمال فى صدرى وتملكتنى النشوة لسماع شقشقة العصافير وشدو البلابل، ورؤية سرب من العنادل يقوده عندليب أسمر جميل تصدح جميعها وكأنها فى عرض موسيقي رائع يتناغم مع أصوات كثيرة في الغابة كصوصوة الحشرات وصفير الهواء وصوت قطرات المطر على صفحة الماء فى الجدول وعلى زجاج السيارة الأمامى كأنه أنغام أوتار العود.

الصورة أمامى رائعة جميلة فشعاع الشمس الخفيف كان قد بدأ فى الظهور ينبعث من بين الأغصان المتشابكة والخمائل المتلاحمة ينعكس على الأوراق الخضراء التى تلمع فيها قطرات الماء المتساقطة من السماء .. اللوحة أمامى بها ألوان شتى مخطوطة فى دقة ونظام.. طبيعة انطباعية خلابة تعكس على الوجوه الابتسامات العريضة وقد عمّ الجميع السرور والحبور.. نتمتع بسحر ذلك العالم المتسع الكبير والكل يشعر بالخشوع لجلال الله وعظمته والقدرة على التكوين الجميل فتشجعت النفوس وظهرت على الوجوه إشراقات مضيئة، فالحرية نراها فى الطيور التى تخفق بأجنحتها فى الهواء مرحة طروبة آمنة.

مساحة الرؤية أمامى رحبة واسعة وغنية بكل ما هو خلاب أدخل علينا السرور واطمأنت له القلوب.

وقفت السيارة عند مساحة خضراء تزيد عن ٦٠٠م٢ تقع غرب مدينة «كوسي برج» وترتفع عن سطح البحر بنحو ٤٢ متراً، أرى في تلك المساحة الخضراء أحجاراً مزروعة تشكل دائرة كبيرة كأنها سياج من الحجر يلتف حول كنز مدفون.. أحصيت تلك الأحجار وكان عددها ٥٨ حجراً منقوشة برسومات وكتابات مدورة Run ترجع إلى عهود الفايكنج القديمة.. قرأت على حاملة اللافتات «مقابر السن استينار» كما قرأت عليها جملة «كوسى برج شيبت» التى تعنى مراكب منطقة كوسى برج للملوك الفايكنج فكلمة شيبت بالسويدية تعنى المراكب.



نوع من أزاهير السويد.

شعرت بقلبي يخفق وينبض وراح يهفو لمعرفة سر تلك الأحجار والأطلال المحيطة بالمنطقة، لم يكن في صحبتنا دليل أو كتاب نستدل منه على هذه المعلومات.. لكن كان معنا «اوستافن» ذلك الشاب المثقف الذى سبر غور المنطقة، يعرف تاريخها وما فيها من آثار فتقدم يشرح لنا ما فى المنطقة بشيء من التفصيل.

عرفت منه أن تلك الأحجار الدائرة والمنقوشة بكتابات مدورة هى عبارة عن مقابر كانت للملوك الفايكنج فكل حجر فيها يرقد تحته أحد رجالات الفايكنج من الذين قتلوا أو ماتوا أثناء معاركهم البحرية بعد أن أحرقت أجسامهم وأصبحت رماداً كما كان العُرف سائداً في تلك الحقبة من الزمان فى السويد، وهذه العادة لازالت موجودة فى السويد بشرط أن يكون المتوفى قد كتب وصيته بذلك قبل وفاته.

وهذه الأحجار التى أراها مزروعة أمامى هى من نوع الجرانيت الوردية التى تشتهر بها المنطقة، أما الكتابة المنقوشة عليها فهى تسجل تاريخ المتوفى وأعماله وبطولاته التى خاضها أثناء المعارك والحملات البحرية، وفى مناطق أخرى توجد بها مقابر جماعية لرجال أقل شأناً تغطى بالتراب ويوضع عليها كتل

حجرية كبيرة مدورة يصل وزن كل منها إلى ٢٠ طناً يسجل عليها أسماء المتوفين بها كتلك التى فى منطقة «بوهوس» القديمة، ومقابر أخرى تعرف باسم «هالارستتينج» ويحكى تاريخ الفايكنج أن حروبهم بدأت فى البحر، وهم أول من عرف خليج ايرسوند الذى يفصل الدانمرك عن السويد، وكان فى القديم يعرف باسم خليج «بالتن» وساعد البحر الفايكنج على تعلم صناعة السفن التى برعوا فى صناعتها وخاضوا بها عباب البحار والمحيطات، وتعلموا كيف يقطعون الأحجار والأخشاب لصناعة سفنهم بعد أن صنعوا الأزميل، كما استخدموا النار فى جلي الأحجار وتنعيم صفحاتها لتصبح ملساء يسهل النقش والكتابة عليها.

فى هذه الفترة الزمنية كانت مصر متقدمة تعتمد فى صناعاتها على الحديد والنحاس والبرونز وأدوات أخرى من الذهب والأحجار الكريمة كما كانت قد وصلت إلى مرحلة راقية فى صناعة التماثيل من الأحجار الجرانيتية السوداء والوردية، وهى فترة زمنية ترجع إلى خمسة آلاف سنة، كان فيها أهل الشمال فى اوربا يعيشون بالقرب من البرك والمستنقعات والبحيرات، تطغى على حياتهم البداوة، وقد كان «اوستافن» محايداً فى شرحه للتاريخ دون تعصب فهو يسرد وقائع معروفة للجميع، ثم انتقل بحديثه إلى مقابر الفايكنج الموجودة بمنطقة «باك لاند» وكذلك المقابر الموجودة فى منطقة «هيجبى» فى إقليم اوسترجوتلاند وجميعها مقابر كانت للفايكنج تشبه تلك المقابر التى نراها الآن، ولم تكن كتابات الفايكنج قاصرة على الأحجار فقط بل كانت مكتوبة على الأخشاب وعثر منها على ٢٠٠ لوحة خشبية موجودة الآن فى إقليم لابلاند فى شمال السويد.

فى تصوير رائع جميل انتقل «اوستافن» بحديثه إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لشعوب الفايكنج، فقد اتخذوا من شواطىء البحار وضفاف الأنهار والبحيرات مكانا للإقامة، فأقاموا فيها القرى الصغيرة وبنوا منازلهم من الأخشاب والطين على شكل أكواخ صغيرة يعيش فى كل منها أسرة تعيش فى بساطة أهل الفلاحين، واتحدت تلك الأسر وكونت شعبا واحداً وارتبطوا ببنى جنسهم فى جميع البلدان الاسكندنافية فاتحدت السويد والنرويج والدانمرك فى عهد هؤلاء الفايكنج وأصبحت هناك مناطق ذاعت شهرتها كاسكونا وبليكنج وهالند وبوهوس

نموذج لمراكب الفايكنج.

وجميعها فى السويد.

وتعلم الفايكنج من البحر فن ركوبه وأصبحوا قراصنة مغاوير وتجاراً مهرة ذاعت شهرتهم فى العالم.

ويحكي تاريخ الفايكنج أن أحد رجالهم وكان يدعى «جودمود» امتلك ثروة طائلة من مشغولات ذهبية وفضية والتف حوله رجال أقوياء، ورحل هذا الرجل من شمال البلاد حيث الموطن الأصلى للفايكنج واستقر في الجنوب لأن أرضه أغنى وأخصب من أرض الشمال وبدأ الرجل بماله ورجاله فى تصنيع السفن وأعدّ العدّة لأول رحلاته البحرية، وبعد وفاة هذا الرجل خلفه ابنه الأكبر «اينجفار» فأكمل ما بدأه أبوه وأقام رحلته الأولى التى وصل فيها إلى البحر الأسود، وهناك عرف بلاد اليونان والقسطنطنية وسمع فيها القصص والروايات العجيبة وشاهد هناك مباني كثيرة تختلف عن تلك الموجودة في بلاده.

وأقام اينجفار علاقات تجارية مع تلك البلاد وتبادل مع تجارها السلع والمنتجات فجلب من هناك الأنسجة الجميلة الراقية من الصوف والقطن وكذلك الأوانى الزجاجية والبرونزية التى لم يعرفها أهله من الفايكنج فى مقابل الأخشاب والفراء.. عاد اينجفار إلى بلاده بالبضائع والمنتجات ومعرفة تلك البلاد وراح يحدث أهله عن رحلاته إلى تلك البلدان والفولجا وبحر قزوين الذى يعيش على ساحله الجنوبى قوم من العرب هم العراقيون الذى تبادل مع تجارهم البضائع فأحضر معه منهم الملابس الحريرية الفاخرة كما حدّث أهله عن شبه جزيرة العرب التى سمع عنها



قصر وقلعة جليمنج

الكثير والتى تزيد عن مساحة السويد ست مرات، وتحدث «أوستافن» عن رحلات هذا الرجل الكثيرة وهى مدونة ومنقوشة على ما خلفه الفايكنج من آثار، كما زودنا بمعلومات غزيرة عن رحلات الفايكنج إلى بلاد الشرق والغرب، ففى روسيا التى كان الفايكنج قد وصلوا إليها دلائل تشير إلى تعلمهم اللغة الروسية وتزوجوا من النساء الروسيات وأسسوا امبراطورية واسعة داخل الأراضى الروسية.

وتحكي نقوش الفايكنج أن أحد ملوكها الأقوياء استطاع أن يوحد الممالك الصغيرة فأقام حفلا كبيراً بهذه المناسبة، فأشعل النار فى أحد المنازل وشاركه فى إشعالها باقى الملوك، وإشعال النار إشارة إلى توحيد

الأراضى السويدية، ومنذ ذلك العهد أطلق عليها اسم مملكة سيڤيالاند كما أطلق على شعب السويد اسم سفريا ومنذ ما يزيد عن ألف عام مضت كان قد ظهر فى السويد ملك قوي يدعى «اولف شوت» وكانت قوته تضاهى قوة عظام الملوك فسيطر على كل الأراضى السويدية ومن اسمه اتخذ كثير من ملوك السويد أسماءهم فمعظم ملوكها يدعون «اولف»، وعندما دخلت المسيحية السويد فى القرن الثانى عشر الميلادى اعتنقها هؤلاء الملوك وبنوا مدناً كثيرة منها «مالرين» واتسعت مملكتهم وكونوا امبراطورية واسعة الأطراف امتدت إلى الدانمرك والنرويج، كما اهتم هؤلاء الملوك بالجنوب السويدى فى اسكونا وهالند وبلكبنج حيث تقع معظم الأراضى الخصبة الصالحة للزراعة ووجود الأشجار والغابات الكثيفة بها.

وفى الفترة ما بين عام ١٠٦٠م - ١٥٢٣م كان الضعف قد بدأ يدب فى امبراطورية السويد وتمزقت أوصالها وأصبحت مطمعاً وفريسة سهلة للدانمرك المجاورة لها وظل الحال إلى أن ظهر أحد الملوك الأقوياء وهو: «جوستاف فاسا» ليعيد السويد إلى مجدها وقوتها.

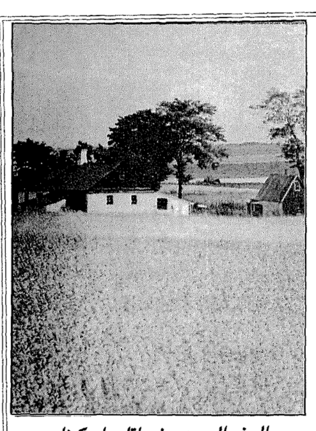
ولقد كانت جولتنا التى أخذنا فيها «اوستافن» فى عمق التاريخ السويدى رائعة وشيقة عرفنا منها الكثير عن حياة الفايكنج الأمر الذى ساعدنا على أن نقف فى هذا المكان الأثرى القديم لفترة طويلة وساعدنا على ذلك النسيم العليل الذى كان يهب علينا من الغابات البعيدة والرياض القريبة وتوقف المطر عن السقوط فاتسعت الصدور لسماع ما يقوله «اوستافن»: كانت السماء قد انقشعت عنها السحب والغيوم وظهرت الشمس من جديد ترسل أشعتها الذهبية التى لم نسعد بها طويلا، فقد ظهرت سحابة خفيفة أخفت وراءها شعاع الشمس ولكن ضوءها ما زال ينفذ منها وفى هذه اللحظة كنا قد قررنا مغادرة المكان المعروف باسم أرض الشروق أو الأرض المشرقة Osterland ذات السهول الواسعة جنوب شرق اسكونا الذى يربطه طريق رئيسي يمتد إلى مدينتى «كريشان استاد» انطلقت السيارة فى طريق طويل تحفه على الجانبين حقول شاسعة تنمو فيها نباتات الشعير والقمح، تتخلله حظائر كبيرة مسورة بسياج خفيض من الخشب مخصص للأبقار وأخرى للخراف التى يقوم بتهذيب وتقليم صوفها عمال متخصصون وصوت مأمأة تلك الخراف يبعد عن أذنى كلما ابتعدت السيارة تقطع الطريق المتعرج المدكوك بالحجارة ويحده على الجانبين أحجار جرانيتية مرصوصة بشكل منظم يحدد معالمه حتى نهايته عند منطقة قديمة أثرية تعرف باسم شيفكس Skiviks وهى منطقة بها مقابر ترجع إلى عهود هؤلاء الفايكنج.

تقع مدينة شفيكس على ساحل بحر البلطيق فى الجنوب الشرقى منه، وتشتهر هذه المدينة بسوقها الكبير الذى عادة ما يقام مع بداية فصل الصيف السويدى من كل عام وينتهى بنهاية شهر يوليو ولهذا وجد قرار الأصدقاء استجابة كبيرة لزيارة ذلك السوق، رحنا نتجول فى السوق حيث ينتشر فيه

الباعة بعرباتهم ناصبين خيامهم وكان أغلبهم من الأجانب المقيمين فى السويد.. لفت انتباهى جماعة من الباعة «الغجر» يحتلون مساحة كبيرة من السوق.. اقتربنا منهم نشاهد ما يعرضونه من أقمشة ومشغولات ذهبية وفضية محملة على عربات مكشوفة خصصت لذلك وكان الغجر يتحدثون بلغة غير مفهومة، ورجالهم يجلسون على كراس صغيرة بالقرب من عرباتهم الفارهة من النوع المرسيدس، وأرى أكفهم مدقوقة بالوشم وتزين أصابعهم خواتم ذهبية كبيرة وأطفالهم يلعبون حولهم.

أما نساؤهم فهن اللائى يقمن بعملية البيع وجذب المشترين، تراهنَّ فى ملابسهن الفضفاضة الواسعة ذات الألوان المتعددة الزاهية وشعرهن الطويل بذوائبه تنوس على ظهورهن، وتتدلى من أذانهن أقراط مدورة كبيرة ويزين أصابع أيديهن الخواتم وفى معاصمهنَّ، وفي كعوبهن الأساور والخلاخيل. كان حديث «سلمى» و«اليزابيث» دائراً حول هؤلاء القوم من الغجر وكان اعتقادهما أنهم قادمون من مصر وأن كلمة «جيبس» التى تطلق على الغجر فى السويد مشتقة من كلمة مصريين ايجيسيا (Egyption) فى اللغات الاوربية الأمر الذى دفع «اوستافن» أن يحدثنا عن هؤلاء الغجر من خلال ثقافته وقراءاته المتعددة.

ففى فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كان يطلق على الغجر اسم سيجرنا Segerna كما هى فى اللغة



الريف السويدي فى اقليم اسكونا.

السويدية والتى تعنى فى مواضع كثيرة رعاة غوغاء، وأثناء الاضطرابات التى سببها المغول بقيادة «تيمورلنك» فى القرن الرابع عشر الميلادى فرّت هذه الجماعة من موطنها الأصلى وتنقلوا فى أماكن عديدة فى بلاد اليونان، ولاتصال اليونان بمصر اعتقد الكثيرون فى القرن الخامس عشر الميلادى أن هؤلاء الغجر قدموا إلى مصر. ولم يستقر هؤلاء القوم من الغجر فى بلاد اليونان بل عبروا الدردنيل وعاشوا فترات زمنية يتنقلون بين تركيا بالقرب من بلادهم الأصلية واستقروا فى سهوب «بلخ» التى نزحوا منها إلى البلاد الآرية فى الشمال وقطنوا المزارع والغابات البرية والبقاع المهملة ورغم تنقلهم الدءوب إلا أنهم احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم

ولغتهم التترية الأصل وأطلق الألمان عليهم اسم «الهنغاريين» أو «التتارى» كما أطلق الفرنسيون عليهم اسم «البوهميين» أما لغة الغجر فيرجع أصلها إلى اللغة الهندية والتتارية ففيها كلمات كثيرة من شمال الهند وبلاد فارس وأرمينيا وهذه الكلمات اكتسبوها نتيجة الاحتكاك المتواصل مع تلك الشعوب.

وعندما وصل الغجر إلى السويد كان القانون السويدى عام ١٦٢٧م يحكم على رجالهم بالشنق، أما نساؤهم وأطفالهم فكانوا يبعدون إلى القسم الشرقى من مملكة السويد وهى فلندا فى ذلك الوقت.

وعندما سمحت السويد لسكان فلندا بالهجرة والعمل داخل الأراضى السويدية هاجرت جماعات كثيرة من هؤلاء الغجر المقيمين فى فلندا إلى السويد ومع بداية عام ١٩١٤م تزايد عددهم فيها وتبعهم بنو جنسهم الذين كانوا يقيمون فى أوربا الشرقية وأسبانيا، وفى عام ١٩٥٤م سمحت السويد لهؤلاء القوم بالدخول فى أراضيها حسب القانون المعمول به هناك، أما فى بريطانيا فقد أطلق على الغجر اسم «لورد» أى سيد أو شريف، كما أطلق الغجر على أنفسهم اسم «مصر الصغرى» التى تعرف بها جغرافيا منطقة الفيوم فى مصر، كما أطلقوا على أنفسهم اسم «آسيا الصغرى» وفى أسبانيا كان الغجر يعيشون فى كهوف منحوتة فى الجبل الذى يطل على غرناطة وكانت حياتهم كلها غناء ورقصاً وكانوا بارعين فى العزف على القيثار التى ترقص الفتيات على إيقاعاتها، وكانوا يعيشون هناك فى عزلة تامة ولا يحترمون أى فتاة تتزوج من غير غجرى، وها هم الآن فى السويد يحرصون على أن يتجمعوا فى مكان واحد ويحرصون على الإقامة فى حي واحد فى جميع أقاليم السويد ونادراً ما تجدهم يمشون فرادى بل يسيرون فى جماعات، وبرع الغجر فى التجارة فهم تجار جائلين فى كل مكان يحطون فيه واهتموا بتجارة الخيول ومنهم أصحاب الملاهى والعرافين ويحذر السويديون من الاختلاط بهم.

تركنا الغجر وابتعدنا عن السوق وضجيجه ورحنا نطوف شوارع المدينة القديمة ومنها إلى الحقول الشاسعة حتى وصلنا الغابة القريبة وكان النهار قد انتصف، وفوق أحد الروابى رحت مع نفسى أتأمل سحر المكان وطبيعته الخلابة وشردت مسحوراً فالرؤية أمامى متسعة رحبة غنية يفوح منها عبق التاريخ القديم والحديث الذى طرأ على المنطقة.

عقد الأصدقاء العزم على الرحيل لزيارة موقع أثرى غير بعيد قطعت السيارة الكومبى ٣٠ كم إلى الجنوب من قرية شيفكس وشلال فوسكار، والمنطقة غنية بآثارها القديمة وكانت تنتشر فيها زهرة عباد الشمس التى كانت منتشرة فى اوربا كلها فى ذلك الوقت والتى كشفت عنها حفائر «ستون هيج» شمال اسكتلندا عند طوائف الدرود، وكانت هذه المنطقة وشمال اسكندنافية منطقة واحدة متصلة تعرف باسم «كالدونيا» وعلى طول الطريق الزراعى أرى الحقول الزراعية الممتدة

على جانبيه وعلى البعد منها أشجار الغابات العالية، وكلما اقتربت السيارة من نهاية الطريق كانت تتكشف أمامى أشجار الغابة الباسقة ممشوقة القد بظلالها الوارفة اخترقت السيارة طريقاً وسط الغابة كان يتلوى بين الأشجار كالثعبان وهو طريق ضيق مدكوك بالحصى والزلط تظلله أغصان متشابكة تتدلى منها أوراق خضراء لامعة تبرق عليها قطرات الماء التى ترخ من السماء ولم أر فيه أية آثار لقاذورات ولم أشم رائحة كريهة تمجها النفس ولم تصادفنى فى الطريق شجرة واحدة عقراء أو عجفاء كتلك التى نراها فى صحراء بلادنا وتمنيت فى تلك اللحظة أن تكسو الخضرة صحراء بلادى وتصبح جنات فسيحة.

هكذا كان طريق الغابة مليئا بالخضرة والماء حتى وصلت السيارة إلى مدينة «سيمرس» القديمة التى تبعد ١٥ كم. عن مدينة «شيفكس» وهناك رددت قول أمير الشعراء أحمد شوقى:

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى
حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا
لروائع الآيات والآثار

ومدينة «سيمرس» صغيرة قديمة لم يتبق من آثارها سوى أطلال تلك المنازل التى كانت للبحارة القدماء وتاريخها يرجع إلى أربعة آلاف سنة فى عمر التاريخ الطويل أما عن آثارها المتبقية من الأحجار نجدها منقوشة

ميناء مدينة سيمرس.

بكتابات وصور تشبه نظيرتها الموجودة فى مقابر «شيفكس» واهتم علماء الآثار فى السويد بالبحث والتنقيب فيها لمعرفة جذور حضارتها. ولم يتوقف علماء الآثار من السويديين عند حد بلادهم بل تجاوزوها إلى بلاد أخرى فكانت السويد ولا تزال تسعى لمعرفة آثار العالم فأسرعت لإنقاذ آثار النوبة فى مصر فدفعوا بخبراتهم لإنقاذ معبدى أبو سمبل وكذلك المعابد الواقعة بين منطقتى أسوان وأبو سمبل واشتركت السويد مع مجموعة الدول الاسكندنافية فأرسلت بعثاتها العلمية للعمل فى المنطقة الشمالية للسودان، ففى شتاء عام ١٩٦١م - ١٩٦٤م نجحت البعثات الاسكندنافية أثناء عملها فى الضفة الشرقية للنيل عند «فرس» الواقعة على الحدود المصرية السودانية وحتى مدينة «جامى» بالقرب من الجندل الثانى فى السودان وفى مساحة يبلغ طولها ٦٠ كم كشفت البعثات الاسكندنافية على حوالى ٩٤٠ موقعاً أثريا جديدا يرجع تاريخها إلى العصور الحجرية والوسيطة منه، ولم تكن

هذه المواقع معروفة من قبل، كما كشفت أعمال التنقيب الاسكندنافية عن ٤٢٠٠ مقبرة وخمس كنائس ومواقع أخرى محصنة كانت مستخدمة كقلاع فى ذات المنطقة، كما صورت هذه البعثات حوالى ٢٦٠٠ رسم منقوش على الأحجار ووضعت لها خرائط تفصيلية، هذا بالإضافة إلى الأوانى وقطع النسيج والهياكل البشرية التى تمثل مختلف العصور، وبهذا تكون السويد ومجموعة الدول الاسكندنافية قد ساهمت فى إنقاذ الآثار العالمية بإيجابية مع منظمة اليونسكو من منطلق عملية التواصل الحضارى بين الشعوب.

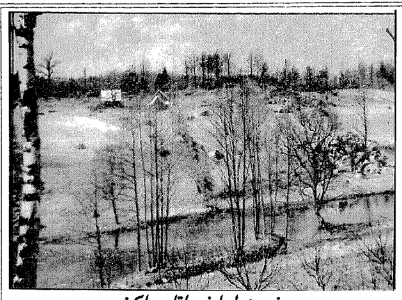
استكملنا جولتنا فى مدينة «سيمرس» بمشاهدة مينائها القديم الذى يقع على حافة بحر البلطيق والمنطقة كان قد خيم عليها سكون رهيب، فالبحر كانت أمواجه هادئة والسفن ترسو على الأرصفة صامتة، فذهبنا إلى ذلك القصر القديم الذى يقع جنوب غرب الميناء وهو من القصور التى بنيت زمن العصور الوسطى، بناه «آدم فان ذورين» وعرف باسم قصر «جليمنج هوس» ويعد القصر قلعة من القلاع القديمة المتبقية من زمن العصور الوسطى التى تهدم معظمها بسبب تلك الحروب التى كانت دائرة بين السويد والدانمرك. يصل ارتفاع القصر إلى ٢٥م ويتكون من ثلاثة طوابق بكل منها فتحات صغيرة عبارة عن نوافذ صغيرة كانت تستخدم للتهوية والبعض الآخر منها كان للمراقبة، أما سقف القصر فيأخذ الشكل المخروطى المعروف درعاً واقياً ضد هطول الأمطار أو سقوط الثلوج كما أن جدران القصر سميكة تصل إلى المترين وهى من الحجر الجيرى الواضح للعين لأنه غير مغطى بطبقة من الجص أو الآجر، كما يأخذ مبناه الشكل المستطيل به حجرات وقاعات متعددة ومطابخ تقع فى بدروم القصر، ويحاط القصر بعدة أبنية صغيرة كانت تستخدم كاسطبلات للخيول ومخازن للمؤن والذخيرة يلفها جميعاً حديقة واسعة وعلى البعد تنمو الأشجار العالية التى تضاهى التلال المرتفعة التى تتميز بها المنطقة مما أضفى على المكان سحراً خاصاً يشد الناظر إليها ويفتن القلوب بها.

ولجنا الباب الرئيسى للقصر وصعدنا منه على سلالم حلزونية ضيقة تناسب حجم المبنى، قادتنا إلى أعلى قمة المبنى حيث برج المراقبة ومنه شاهدنا البحر الذى كانت أمواجه مازالت ساكنة وبدأت السحب تنتشر فى السماء متضجرة باللون القرمزى الذى انعكس على صفحة الماء وتشابكت الألوان والظلال وتداخلت فى لوحات بديعة تتماثل أمام عينى، ومن خلال مشاهدتى للقصر رأيت حجراته وصالاته المظلمة الرطبة والتى توحى بأنها غير مريحة للسكنى فالضوء لا يدخلها إلا من خلال صفوف النوافذ الضيقة، أما البدروم فقد كان أشد ظلاماً وبرودة وكان يستخدم كمخبأ للجنود، ومن أجمل ما شاهدته فى القصر هى قاعته الرئيسية التى تحتل الطابق الأول فهى تعد تحفة معمارية رائعة فسقفها محمول على أعمدة رخامية فقيرة تربطها بواك مطلية بالجص والآجر وبها بعض الأثاث القديم ويزين جدرانها لوحات مرسومة تمثل فترة العصور

الوسطى.

انطلقت السيارة تاركة وراءها القصر يموج وسط فيضانات من الخضرة وخلفية جميلة للتلال والأشجار حتى اختفت من أمام عيني ووصلت السيارة بنا إلى مدينة أخرى قديمة تعرف باسم «بيركا» تقع في منطقة قديمة تعرف باسم «مالرن» كانت تعد من أهم المراكز التجارية في عهد الفايكنج وآثارها تشبه آثار شيفكس والآثار التى اكتشفت في جزيرة جوتلاند التى عثر فيها على أنواع مختلفة من الأسلحة التي كانت تعد من أهم صادرات الفايكنج، ومدينة «بيركا» القديمة هى نفسها التى أنشأها الراهب الفرنسي سنجار وأقام بها أقدم كنيسة في السويد على الإطلاق.

فى صبيحة اليوم التالى من رحلتنا ذهبنا إلى إقليم بلكينج الذى يقع فى الجنوب الشرقى من منطقة اسكونا وتبلغ مساحته ٣٫٠٣٩ كم٢ وهو غنى بمناطقه الزراعية الشاسعة وحدائقه الغنّاء ولهذا أطلقوا عليه اسم «أرض البستان» ويزيد عدد سكانه عن ١٥٠ ألف نسمة وكان من المناطق المحببة للملك «كارل التاسع» فقد كان كثيرا ما يتردد عليه خاصة فى فصل الصيف للتمتع بجوه الجميل وموقعه الفريد وسواحله الممتدة على بحر البلطيق وتقع على بُعد ١٥ كم من عاصمته التى تحمل اسمه «بلكينج» وتعرف المدينة باسم «جيمس هايج» ويسكنها ٤ آلاف نسمة ويجرى فيها نهر «هولجا».



نهر هولجا فى اقليم بلكينج

وعلى شاطئه انطلقت السيارة حتى وصلنا إلى مصبه على بحر البلطيق وهناك رأيت الماء ينساب فى رشاقة وبسرعة كالنغمة الهادئة والنفس الحالمة والروح الهائمة، فهنا قد اختلطت مياهه العذبة بمياه البحر المالحة «هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج».

ومن شاطىء البحر سلكت السيارة طريقاً سريعاً يربط إقليم «بلكينج» ومدينة «كريشان استاد» وانطلقت مسرعة تاركة خلفها أرض الفايكنج وتاريخهم الحافل بالذكريات حلوها ومرّها والتى بدأت عام ٧٢٩م وانتهت عام ١٠٦٠م لتبدأ بعده السويد عهداً جديداً.

بدأت السحب فى تلك الساعة تتجمع فى السماء وتتشابك وسقطت الأمطار غزيرة وبسرعة تفوق سرعة السيارة التى انطلقت تقاوم الأمطار والعواصف والرياح الشديدة، وكان الطريق طويلا مظلماً، لم يكن لنا أنيس فيه سوى تلك العلامات الفوسفورية التى كانت دليلا ومرشداً لنا تمتد على أرضه الممهدة الناعمة التى خلت من المطبات والعثرات الأمر الذى جعل رحلتنا غير شاقة.

الصورة الغالية

شعر/
الأمير كمال فرج - جدة -

بقلب الإطار هنا بادية
من الحسن صورتك الغالية
مؤطرة بعقيق ثمين
يضيءُ على الظلمة الداجية
اطلت عليَّ بوجه صبوح
وسحر تملَّك وجدانيه
ولحظ رنى كابتسام النجوم
بأهدابه فتنة طاغية
وثغرِ انيق كزهرة دفلى
تغنى بصحبتها ناديه
وراحت من الرسم ترنو اليَّ
ببسمتها الغضة الصافية
وطافت على ناظريَّ رؤاها
كنسمة صيف على رابيه
كأنَّ الإطار يحيط شموساً
تسامتْ بأضوائها الزاهية
اهلتْ على القلب طيفاً جميلا
وترنيمة حلوة حانية
فذاب على العمر نهرُ الجليدِ
وهامت على الافق احلاميه
تكلم الى الصبِّ يارسمها
لتزهر فى الدرب افراحيَه

تكلمْ وحاكى الفؤاد المُعنّي
ورِوِّ المنى العذبة الظاميه
حنانيك ياذات احلى عيون
فبحرك امواجُهُ عاليه
فقدتُ بإعصاره زورقى
وضاعت من الأفق شطآنيه
غرامك فى القلبِ لحنٌ شجيٌ
ومعزوفةٌ للهوى شاديه
وطيفكِ حينَ يزورُ الليالى
تغنى العصافيرُ فى الباديه
احبّكِ .. وشمٌ علي الرابياتِ
ويحفظها النهرُ والساقيهْ
وتنسجها الريحُ عقداً فريداً
ويعرفها الحرفُ والقافيهْ
فيا واحة الطيبِ لبِّ النداء
ويازهرة الشمس رفقاً بِيَهْ
حبيبة كلِّ الروابى رحلتِ
لتورق فى القلبِ احزانيهْ
ولكن حسبى منك إطارٌ
أراهُ فتنجابُ آلاميهْ
وحسبى من العشقِ ذكرى غرام
تهادى وغنى بأوتاريهْ
وتمضي الليالي بطيئاً بنا
ويبقى اطاركِ تذكاريهْ

الزمن من سنن الكون

بقلم: محمد العربي الخطابي
- الرباط -

المخلوقات كلُّها تنحدر من رحم الماضي وفي أغلاله تترعرع وتكبر، وكلما همت بمغادرته والإفلات منه أوقفها الحاضر وفاتها المستقبل، وذلك أن لكل وجود بداية ووسطاً ونهاية، وأما العدم فلا صورة له ولا اقتران بزمان أو مكان.

الزمن كمٌّ متصل لا يُرى ولا يتجزأ إلا في الوهم لأن الانقسام تابع للحركة، والحركة الذاتية منعدمة في جوهر الزمن وإنما تتحرك الجواهر المادية من حوله فيبدو متحركاً وهو في الحقيقة ساكن؛ إنه أشبه ما يكون بالصوت الذي يتردد بفعل تموُّجات ناشئة عن اهتزاز جسم متحرك يصدر عنه الصوت بفعل الطاقة الكامنة في الاهتزاز، وأما الصوت فثابت، والتموجات تمضي في طريقها تدور وتتسع، وما تزال كذلك حتى تختفي في الطبيعة وتمتزج بعناصرها.

ربما كان في إمكاننا أن ندرك آثار الزمان وأن نحس بإيقاعاته المتواترة الدائبة، ولكننا عاجزون مع ذلك عن تصوّر حقيقته وجوهره لأنه موجود اعتباري عديم الشكل والحجم والوزن.

زعم بعض القدماء أن الزمن سيال متجدد كالنهر المنساب فى مجراه تتوالى دفقاته ولا تثبت منها دفقة فى مكان واحد. وليس الأمر كما قيل، فالزمن إنما يبدو منساباً لاقترانه بحركات العناصر المادية، وتبدل الحوادث الجارية من حوله؛ فبثبات جوهره تتعين طبائع الأشياء وتتقوم مقاديرها وفقاً لسنن الكون العليا التى بها تنتظم عناصر الحياة.

قد يبدو الزمن فى عين بعض الناظرين كالخط المستقيم ينطلق من نقطة لا يدركها البصر ويمتد فى الوهم فلا تعلم له بداية ولا تُرى له نهاية. وأحياناً يبدو كالدوائر الوهمية، كلّ دائرة تلتف حول نقطة المركز ويتسع محيطها من غير أن يَحْدُثَ بين الدوائر تماسّ.

والزمن أشبه ما يكون بحزمة الضوء تنبعث من مصدرها كالشرار، فما تزال تخترق الفراغ حتى يصدمها فى طريقها عائق فينقطع إشعاعها.

ما من كائن كائن إلا وله مكان يتمكن فيه، وزمان يرسم لوجوده حداً محدوداً. فالأجرام السماوية لها مكانها وزمانها، وكذلك الأهوية والرياح والأضواء والأصوات والأفكار والأخيلة ومظاهر الخير والشر، والحق والباطل والجمال والقبح، وسائر الكائنات المعقولة والمحسوسة؛ حتى النملة الصغيرة، والنسمة الباردة، والآهة المختنقة، والذرَّة التائهة، لها كلها مكانها وزمانها.

والزمان والمكان مقترنان ومتلازمان بحيث لا

يتأتى لأحدهما وجود بدون الآخر، وبينهما مع ذلك فارق؛ فالمكان قوامه الحركة، وهو جوهر ومادّة، وخاصيته قبول الأبعاد؛ والزمن جوهر بلا حركة ولا مادة، والمكان يقاس بنفسه، والزمن يقاس بغيره.

قالوا: الزمن أبو العجائب، وهو قول لا يستقيم وأصله الوهم وميل الإنسان إلى تحميل الزمن مالا يحتمله. والحقيقة أن الانسان هو أبو العجائب، والتعجب انفعال يعتريه بلا انقطاع، فهو يرى العجب في كل شيء، جليلا كان أو حقيراً يراه في الشمس الطالعة والغاربة، والكواكب البازغة والآفلة، والظواهر المنتظمة والطارئة، كما يرى العجب في طبائع الأشياء وخواصِّها، وحركات المواد وسكونها، فإنه لا معرفة بلا تعجب، والمعرفة مطلب الإنسان وضالته لا ترتوي له منها غُلّة.

لا تفاضل بين ماض وحاضر وآت، لأن الزمن واحد في جوهره وحقيقة أمره، وإنما هي أجيال الناس تتلاحق ويخلف بعضها بعضاً، وربما كان بينها تفاوت في الفضل والحظوظ لأسباب طبيعية بادية، أو علل خارجة عن إرادة البشر، يتحكم فيها خالق الأسباب، المتصرف في أقدار المخلوقات كلها، ولا دخل للزمن في كل ذلك.

قال بعض الحكماء: «فأما الزمن الذي هو رسم الفلك بحركته الخاصة فليس فيه جزء أشرف من جزء، وكذلك المكان لأنه رديف الزمان ولا سبيل في هذه المسائل الى معرفة الحقائق إلا بالإضافة التي هي شاملة للعالم، غالبة عليه من محيطه إلى مركزه»(*).

وهذا القول يعني في جملته أن النسبية قانون طبيعي يبسط سلطانه النافذ على الظواهر الكونية ويضبط حركاتها وسكناتها وفقاً لمشيئة الخالق المدبر؛ والزمن مجرد شاهد ودليل، وهو واحد في امتداده الموهوم، لا ماضي فيه على الحقيقة ولا حاضر ولا مستقبل وإنما هي تقسيمات حسابية تقتضيها الحاجة إلى تعهد الذاكرة البشرية ونصب العلامات على مسالك الحياة التي تتعاقب عليها أجيال الكائنات.

قد يتصور الإنسان أن الزمن بمثابة آلة حسابية تختزن الحوادث والوقائع وتحفظها في سجلات تفتح وتطوى ولا يضيع منها حرف ما دام الزمن قائماً بأيامه ولياليه، مقيداً بأغلال بداياته ونهاياته.

يقول الشاعر أبو ذؤيب الهذلي:

هل الدهر إلا ليلة ونهارها
وإلا طلوع الشمس ثم غيارها

غاية ما يصل إليه علمُ أهل اليقين في أمر الزمن أنه آية من آيات البارىء، وسرٌ من أسراره العليا، فهو الذي أبدعه بحكمته، ورتبه بقدرته ودبَّر أمره بمشيئته؛ وهو الذى قدر أبعاده، وضبط مواقيته، وأحكم ربطه بعجلة سائر الكائنات المتعاقبة على فضاء العالم، الكادحة إلى ربّها كدحاً فى سبيل ملاقاته؛ وهو الذي جعل لكل مصنوع أوجده طريقاً ممدوداً، وأجلا محدوداً {والسماوات مَطويَّات بيمينه} (الزمر/٦٧) والأفلاك مُسبِّحات بحمده، ناطقة بتوحيده، وهو - عزّ وعلا - {فالق الإصباح، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم} (الأنعام/٩٦).

(*) كلام منسوب إلى أبي بكر القومسي فى «المقايسات» لأبي حيان التوحيدى ص ٨٤ - ٨٥

رجال في الذاكرة ٣٧

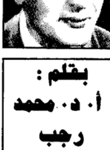
الإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق «١٩١٧م ١٩٩٦م»

عرفت الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق من آثاره الفقهية قبل أن يتولى منصب الإفتاء بأمد واسع إذ كنت أقرأ له فى مجلات القانون والقضاء مقالات فقهية ذات بصر نافذ، وأذكر أنه كتب في الستينيات بحثا قانونيا يعارض فيه حكما أصدرته محكمة النقض مخالفة ما أصدرته محكمة الاستئناف حين حتمت وجود الشاهدين في قضية تطليق، ورأت محكمة النقض الاكتفاء بشاهد واحد، لأمور نقضها الأستاذ جاد الحق، وكان حينئذ قاضيا بمحكمة الأحوال الشخصية في مصر الجديدة، فأبدى آراء الحنفية في ضرورة وجود الشاهدين، وذهب إلى أن حكم النقض المتأثر بالقانون المدنى لا اعتبار له أمام المذهب الحنفى الذى تأخذ به المحاكم في الأحوال الشخصية، قرأت ما كتبه القاضى الشاب مواجهاً حكم الهيئة القضائية العليا فى زمن أكثرت الصحف اليومية من هجومها على المحاكم الشرعية غبَّ إلغائها الجائر، فرأيت شجاعة واثقة تواكب التضلّع الفقهى الرصين، ومنذ قرأت هذا المقال، وأنا اجتهد فى متابعة هذا القلم الأصيل حيث أجد أثره الرصين.

وحين عُيِّن الشيخ مفتيا للديار المصرية، أخذت أتتبع فتاواه الهادئة، إذ كان ينشر آراءه العميقة في غير صخب أو ضجيج، وقد أتيح لى أن أقرأ المجموعة الحافلة لهذه الفتاوى بمجلدات ثلاثة أصدرتها دار الإفتاء فقرأت ما أعهد من غزارة العلم، وأمانة الفتيا، وهدوء النفس،

وسرَّني أن أجد المفتى الأكبر لا يحدّ بصره فى مذهب واحد بل يلم بجميع المذاهب الفقهية من حنفية وشافعية ومالكية وحنبلية وزيدية وإمامية وأباضية، ويعتمد الرأي الصحيح حيث وجده دون تحيز إلى مذهب معين، وهذه الأصالة فى الفتوى امتداد لمنحى الأئمة الفضلاء من أمثال محمد عبده وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت، وهم من أعلام الفتوى في العصر الحديث.

وكان أول لقاء سعدت فيه بمحادثة الإمام الأكبر بكلية اللغة العربية بالمنصورة، حيث كنت عميداً لها. وحضر الإمام لافتتاح مصرف إسلاميّ مع وكيل الأزهر إذ ذاك فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود، ورأيا معاً أن يزورا كلية اللغة، فرحبت بالزائرين الكبيرين، وألقيت كلمة قلت فيها، إن المنصورة فى حاجة إلى كلية للبنات تختص بالدراسات الإسلامية والعربية، وأن الإمام الأكبر من خيرة أبناء الدقهلية، ويسرّه أن ينتشر التعليم الدينى للبنات في محافظته كما ذكرت أن سلفه الكبير الاستاذ الأكبر مأمون الشناوى منذ ثلاثين عاما زار المنصورة وهو شيخ الأزهر فاحتفلت به، وسمع من يرجوه أن يعمل على إنشاء معهد ديني بالمنصورة، فرحَّب بالفكرة، وقال إنها مدينة أهلى وأبنائى، وها هى ذى الفرصة تسنح لتقديم رجاء مماثل للشيخ الأكبر، وهو جدير بتحقيقه، وما انتهيت من كلمتى المتواضعة حتى نهض الإمام شاكراً، وواعدا بالعمل على تحقيق الرجاء، وفى غضون



بقلم : أ. د. محمد رجب البيومى
- المنصورة -

سنوات قليلة أصبحت كلية الدراسات العربية والاسلامية للبنات بالمنصورة حقيقة واقعة، بفضل جهود متضافرة تضاف إلى جهد الشيخ الأكبر وفي قمتها جهد المحافظ النشيط اللواء سعد الشربينى، وأنا هنا أقرر حقيقة ولا أمدح أحدا، وأزيد فأذكر جهد أخى الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود فى هذا المجال الحميد.

وفي ذات صباح دعانى الإمام الأكبر للقائه، وحدثنى عمّا يقابله الأزهر فى الصحف من هجوم ظالم يقوم به أعداء التعليم الدينى من العلمانيين، وأنه يأمل أن ينشط كُتّاب الأزهر لردّ هذه الحملات الظالمة، لأن صوت الحق لابد أن يرتفع، ثم قدّم لى عدداً من جريدة الجمهورية، يتضمن مقالا متجنيا على علماء الدين وقد قرأت المقال فعجبت لمن نشره أكثر من عجبي لمن كتبه، لأنه يتضمن مع هجومه المنكر جهالات لا يمكن أن يقع فيها صاحب قلم يكتب عن كفاءة واقتدار، وحسب القارىء أن يعلم أن هذا الكاتب ذكر فى مقاله أن العلم الديني لا يجب أن يؤخذ فى معهد، وأن أبا حنيفة والشافعى ومالكا وابن حنبل لم يتعلموا فى معهد ديني، وصاروا علماء! مع أن أصغر طلاب الأزهر فى المعاهد الإعدادية يعرفون أن المساجد لعهد الأئمة كانت معاهد دينية تدرس فيها أحكام الشريعة وعلوم اللسان كما كان نظام الأزهر فى مطلع هذا القرن، وأن أبا حنيفة قد درس فى مسجد الكوفة، والشافعى في مسجد مكة المكرمة ثم درَّس فى مسجد الفسطاط، ومالكا قد عكف على المسجد النبوى الشريف فلم يبرحه لغير الحج ليكون موضع تدريسه وروايته الحديث عنه، وابن حنبل قد درس فى مسجد بغداد، وأملّى المسند به، وهكذا يتصدر مثل هذا الكاتب إلى الاقتيات

على العلم والعلماء ويوالى نشر مقالات لا تخرج عن دائرة الجهل الصريح، وما قرأت المقال حتى سارعت بالرد عليه، ونشرت الجمهورية الردَّ في مجموعه لا جميعه، ولكنه كشف العوار، وبيّن الانحدار.

وفى زيارة تالية للإمام الأكبر قدّم لى سلسلة من الكتب التى صدرت باسم (التنوير) وهى تحمل الإظلام لأن التنوير الحقيقي مصدره القرآن العظيم. وقد قال الله عز وجل {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم} أمّا الكتب التى تهاجم الشريعة الاسلامية وتعدها غير صالحة للزمن المعاصر، وأما الكتب التي تتجنى على التراث العربي وتعده حطاما بائداً فات أوانه، فليست من التنوير فى شيء، وقد اخترت من هذه الكتب كتابين هما (الاسلام وأصول الحكم) للأستاذ على عبد الرازق، و(مستقبل الثقافة فى مصر) للدكتور طه حسين، لأقوم بالرد عليهما، وقد نشرت مجلة الأزهر ردودى الصريحة دون إبطاء، والحقّ أنّ الذين قاموا بنشر كُتُب فات أوانها فى هذه الفترة بالذات، لا يجهلون أن الشعب لا يقرأ ما يأفكون، لأنه يعلم أن دعوى التنوير اليوم كدعوى التقدمية بالأمس حين سئمنا ما ادعاه الشيوعيون من تقدميتهم الزائفه، بحيث أصبح كلّ يساريّ تقدميا وكل مؤمن يلتزم بشريعة الله رجعيا! وطال عُواء القوم حتى سقطت الشيوعية وافتضح ما زعمته من التقدم الزائف، وخجل اليساريون أن ينطقوا بالتقدمية، فلجئوا إلى كلمة التنوير، وأنا أسأل: هل الإسلام بشريعته مصدر تنوير أم مصدر إظلام! وإذا كان القائمون بالتنوير الزائف يجهلون كل شيء عن الاسلام فَلِمَ يتحدثون عنه، ثم ألا يخجلون وقد نبذهم القرّاء فبارت كتبهم، وزاد التفاف الجمهور المسلم فى مصر حول ذوى الأقلام المؤمنة، ودُفن التنوير فى لحده السحيق!

ومما يؤسف له، أن الإمام الأكبر يجابه وحده من يسيطرون على الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وأكثرهم ينشرون لأعداء الشريعة كل ما يقولون، فإذا تقدَّم للرد كاتب مخلص وجد الإهمال المتعمد، بل إن مقالات الإمام الأكبر تبتر وتجتزأ، ويكتفى بمقدماتها، فإذا أصدر الشيخ بياناً فى مناسبة كالهجرة أو المولد أو رمضان، وبدأه بذكر المناسبة ثم تطرق سريعاً إلى معالجة مسألة هامة تشغل المسلمين،

فأبدى حكم الإسلام صريحا غير منتقب، فإن القائمين على هذه الصحف يُغفلون ما يقوله الإمام، ويكتفون بذكر المقدمة التى يعرف مضمونها القراء سلفا، وما هى الا تمهيد لما يجب أن يقال! لقد أصدر الشيخ رأيه فى كل ما يعرض فى الساحة المصرية جريئا واضحا، ولكنّ ذوى المرض والغرض ألجئوه إلى الشكوى من هذا الحيف الظالم، ولعل من الأسف القابض للنفس، أن تُصدر الجريدة اليومية صفحتين كبيرتين دائمتين للرياضة، وصفحة أو صفحتين للسينما والمسرح، وصفحة للأدب لا تحمل مقالا توجيهيا بل تضم أخباراً سقيمة حول من يلوذون بالجريدة وان انقطعت صلتهم الحقيقية بالأدب والأدباء! تصدر الصحف كل هذا الهباء فى آفاقه المتسعة الفسيحة وتضيق عن كلمة يصدرها إمام المسلمين فى يوم

كريم!! أليس هذا هو العبث بعينه!!.

لم ينته الإرجاف بالشريعة إلى حد، فقد نشرت جريدة العروبة خلاصة لمحاضرة ألقاها الأستاذ جمال بدوى، جعلت عنوانها ينمّ عن عدم صلاحية القرآن الكريم للتشريع فى العصر الحاضر، وكان من عناصرها أن آيات الأحكام فى القرآن الكريم قليلة وأنها لا تكفى النواحى المتشعبة فى قوانين العصر المختلفة، وأن ما صدر عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لا يُعدُّ وحيا، وأقوال الأسلاف من أئمة التشريع لا تعتبر حجة، والاعتماد على العقل هو أساس التقنين، وعبارة ألا اجتهاد مع النص تتطلب إعادة النظر، والمعتزلة لا يعترفون بالأحكام النصية، هذه هى العناصر المهمة ومنها ما هو مُسَلّم به، وما هو مُشتط جائر لا صواب فيه، وقد زرت الإمام الأكبر بناء على طلبه، ليعرض عليّ خطابات شتى من المسلمين تطلب الرد على محاضرة الأستاذ جمال بدوى، وقد استغربت أن تكون هذه الآراء صادرة عنه لأن مؤلفاته ومقالاته تنم عن اتزان وحصافة، فكتبت ردا على هذه الأقوال، وصرحت فيه بأنى اعتقد أن كلام الأستاذ جمال بدوى قد حُرّف، ونشرته الصحيفة على غير وجهه الصحيح، فالردّ إذن لا يكون على الأستاذ جمال، ولكن على الذى حرّف وبدّل، ثم رأيت من المجاملة الأخوية أن ينشر الرد بجريدة الوفد التى يرأس الأستاذ تحريرها، فأرسلته إليها واثقا من حرية النشر، وبخاصة وأنا من كُتّاب الجريدة ولى بها أكثر من خمسين مقالا، ولكنّي فوجئت بعدم النشر، فلم أجد بُدّا من نشر الرد بمجلة الأزهر، فصادف ارتياح الكثيرين.

وقد تقدّمت إلى الإمام الأكبر بكتاب لي تحت عنوان «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» تحدثت فيه عن جهاد الأزهر السياسى منذ العصر العثمانى حتى الآن، ولم أطل الحديث فى هذا الاتجاه لأن غيرى قد تحدث عنه بإشباع، أما الذى اهتممت به فموقف الأزهر من حرية الفكر التى يدعى بعض الأغرار معاداة الأزهر لها. فعرضت لمواقف العلماء من آراء على عبد الرازق وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم ممن خالفوا المقرّر الصحيح إلى شبهات واهية كانت فى نظرهم جديرة بالاعتبار، وأوضحت بطلان هذه الآراء مُبيّنا رأي الأزهر الصحيح فى أخطاء كتاب الشعر الجاهلي، وكتاب الاسلام وأصول الحكم، وغيرهما ممّا ثار حوله الضجيج فوضح للعيان أن الأزهر يدافع عن الحقائق الأصيلة بلسان المنطق، ومن حقه أن يقول لمن أخطأ فى حق القرآن أو الشريعة أنت مخطىء ويُبين أسباب الخطأ، وإلا فما معنى بقائه حارساً للإسلام، وشارحاً لتراث الأئمة الأعلام، وقد قرأ الإمام جاد الحق كتابى باعتناء، وأمر بطبعه، فتناولته الصحف بالتعليق، كلٌّ حسب اتجاهه، ولكن حقائقه المركزة لم تجد من يقف أمامها مستندا إلى دليل.

لقد كان فى طوقى أن أتحدث عن مسائل معاصرة كثيرة شاهدتها عن عيان، ولست للشيخ الأكبر فيها نضالا مثابرا لا يعرف الكلل، ولكن الزمن لا يواتى كل المواتاة، فيسمح بنشر ما يُغضب قوما يرون أنفسهم أصحاب الحق، ومن خالفهم مخطئا غير مصيب، ولهم شيعة تضرب لهم الطبول دون تعقل، وتملك من وسائل النشر مالا نملك، فسكوتاً حتى يعتدل الميزان.

جفاف القوافى

شعر:
مفرج السيد
شاعر الريف السعودى

شعْر الهوى فى فمى جفَّت قوافيه
كالزرع قد أوقفت عنه سواقيه
قد كنت لي فى الهوى والشعر ملهمة
تكَبرى فى الهوى إن شئت أوتيهى
فذاك قلبى الذى قد كان يسكنه
هواك واليوم قد عاث النوى فيه
يا شاعر الحب قد ناجت بها أذنى
وداعبت قلبى الباكى تناديه
حورية من بنات العصر فاتنة
كأنها الورد لم يمسسه جانيه
تقول ما الهوى ما عاد منطلقاً
للشعر ماذا جرى فى قلب شاديه
هل جَفَّ نبع الهوى فى القلب من كبر
أم ثبت عن حبه أم غاب موحيه
فقلت كلا فما للسن فى أملى
شأن ولا ذنب فى حبي فأنفيه
لكن من يعشقها قلبى لقد رحلت
وغادرتنى هنا فى الحزن والتيه
قالت كما قيل من قد باع صاحبه
- وإن يكن غالياً - بالمثل يجزيه
وإننى ههنا قلبى بلا ثمن
أبيعه فى الهوى إن كنت تشريه

الحياة الجديدة(*)

وداد سكاكيني - سوريا -

كل من يسمع هاتين الكلمتين وهما: الحياة الجديدة لا يلبث أن يجد صداهما فى نفسه بحسب وعيه ومفهومه لهما ، ولا نستطيع أن نحرم الأمي نفسه أن يحرك فكره وخياله في هذا المعنى.

إن الحياة الجديدة تقف أمامنا وفي لحمنا ودمنا وجهاً إلى وجه في مطلع كل عام، ويبدو الإنسان تلقاء ذلك وهو يضع خططاً لعامه الجديد أو ينسخ ما فات منها، وتقف الكلمتان بباب الزواج أفليس هذا الأمر بحياة جديدة للإنسان؟ وللكلمتين مجال وسيع في الآمال والأعمال.

كل هذا ليس فى خاطرتى هذا الصباح، وإنما الذي عنيت هذه الحياة الجديدة التي نستقبلها كل صباح.

إن الليل باب أسود كبير ومهما يَسْعَ الإنسان في حضارته لإغراقه بالنور المتوهج من المصباح حتى الكهرباء فإن هذا الباب يبقى أسود قاتماً، منطبقاً على الإنسان وهو وراءه مطبق الأجفان في ليله الطويل أو القصير.

لكن الصباح الفواح بالنضرة والنور والقوة سر إلهي عميق يدب في العروق كل مطلع شمس ويحظى بنعمته كل من على الأرض من المخلوقات، هذه هي الحياة الجديدة التي ينبغي أن يؤمن الإنسان بنفحاتها كل صباح، ومن شأن الصباح الانطلاق، فالوجه المنطلق بالبشاشة وهو يستقبل نهاره ينظر إليه بمنظار الأمل والخير والإقبال، ومن يسحب هموم اليوم إلى نهار الغد فإنه لا يستطيع أن يحيا راضياً راجيا، ولا ريب في أن الطبيعة نفسها تقلب بيدها السحرية كل ليلة صفحة من الوجود لتبدأ صفحة جديدة، فلماذا لا يكون الإنسان مثلها وهو ابنها البار الذى لا يستطيع أن يستغنى عنها؟ فالصباح ذو صفحة نقية ناصعة فلماذا لا يكتب الإنسان فيها بقلمه أو وعيه وعزمه سطوراً ندايا بالخير والجمال والحق الذى تقوم عليه الحياة المثلى.

هذه هى الحياة الجديدة التى تتكرر فى تاريخ الإنسان كل صباح، وهي على تكرارها طبيعية، وغير مملولة ولا ثقيلة إذا تلقاها الإنسان بالسلام والإيمان، وعرف نفسه وحقيقته فشارك المكافحين من أجل حياة أفضل وغد يضمن له الكرامة والسلام والعيش المقبول.

(*) من كتابات المرحومة الأستاذة «وداد سكاكيني» لدى المجلة.

لا داعي للانبهار

هند أحمد هرساني - جدة

قربت مجهودات العلماء والتطور العلمي بكل وسائله اطراف الأرض المترامية فأصبح العالم قرية صغيرة سهّل لها التقدم العلمي الاتصال والاحتكاك والتأثير فكانت هناك ايجابيات أفدنا منها وسلبيات قد نكون عاجزين عن درءها أو تخفيف ضررها ولكنها القيم والاعتقاد الراسخ نقوى به ونواجه به ما امكن من تحديات تستهدف الخلق الكريم والمبادىء النزيهة فما دامت في اعماقنا هذه القناعة المتأصلة وهذه الجذور الضاربة في اعماقنا بصحة مبادئنا واعتقاداتنا وتميزها بالخير والعدالة للبشر جميعاً فإننا بخير - إن شاء الله تعالى - طالما كانت اعماقنا ثابتة بالإيمان بالله عز وجل مطبّقة لتعاليمه وإرشاداته فلن نضل أبداً. طالما كان في قلوبنا حب الخير والانبهار بالقيم فإننا سنؤثر ذلك على كل ما قد نراه إنجازاً مبهراً لمجتمعات حضارية فائقة التقدم. إن إيماننا بالمعنى الصحيح للتقدم هو الذي يقلل من تأثير مفهوم ومعنى التقدمية عند الشعوب الأخرى التي جعلت من الانحلال حرية ومن الرذيلة حرية شخصية مسميات هي بعيدة كل البعد عن الشرف والكرامة والفطرة السليمة لن تكون الرذيلة بأي حال من الأحوال وتحت أي مسمى من المسميات حرية شخصية للفرد.. طالما كان هذا الفرد يتفاعل في المجتمع ويؤثر فيه ويعمل على إفشاء أمراضه واخطائه فيه بحجة حريته في السلوك. الرذيلة بكل اشكالها القبيحة لم تكن حرية شخصية بل هي سم يفتك بالجميع.. والحرية لم تكن هدماً ولا تعد على الغير انما هي انضباط اجتماعي يُمكّن كل فرد من الإلتزام واحترام حدود الآخرين به فكرياً واجتماعياً ومادياً.

أمور كثيرة تفرض نفسها على مجتمعنا ومفاهيمنا وقد نجد لها من الانبهار بها والإعجاب مدخلا سهلا تفتك بنا من خلاله.

الحضارة الغربية وهذا الوهج العلمي الساطع فيها الخير والشر وانه لتوفيق من الله تعالى أن نستفيد منها بإخضاعها للقيم السليمة أولا وإعادة تشكيلها وتصحيحها بما يوافق ويتناسب مع مجتمعنا وقيمنا، قد ننبهر بهذا التقدم، بهذه الحضارة، فلا نرى إلا الجوانب البراقة، الجوانب التي اخذت اكثر مما أعطت وكانوا هم أول ضحاياها والسباقين في تصحيح الخطأ وتدارك الأمر ووضع القوانين بحيث لا تشذ عن الفطرة السليمة إن لم يحكمها الإيمان الراسخ.. فلا تزال النفوس تحن الى الفطرة الصالحة ولا يزال في النفوس النقية حنين إلى الفضائل لأن هذه هي الفطرة وإن تاهت خطاهم عن الجادة وتوهمت الخير في غير موضعه.

فلا ضرورة ان تكون نفوسنا ومجتمعاتنا إنعكاساً لهم وحقل تجارب لخطاياهم .. ولا داعي لهذا الانبهار المكثف بكل ما عندهم .. يمكننا نحن ايضاً أن نقول كلمتنا الفاصلة ونميّز الغث من السمين، ونقيم الحضارة بميزان صحيح.. والثبات على المبدأ بتوجيه من الإيمان بالله تعالى واخلاقنا ومبادئنا فنحن لسنا أمة طارئة تفتقر الى الخبرة والعلم والهداية، إننا أمة تشربت برسالات التوحيد وهداية الرسل.. ولن نضل أبداً اذا تمسكنا بما هو خير وحق ميزنا به مستجدات الأمور.

طالما احترمنا قيمنا ومبادئنا واقنعناهم بنتائجها السليمة وتأثيرها الواسع في بناء المجتمع من خلال وسائل اتصالنا بهم فلن ننبهر بأفكار جوفاء ونظريات بعيدة كل البعد عن الحقيقة وسلامة المجتمع .. لابد من الثقة بأنفسنا، وبالقدرة على اتخاذ المنهج الصحيح المميز وتطبيقه في واقعنا بشكل ملموس ينتج عنه صلاح الفرد والمجتمع.

لنبادر الى ذلك ولا داعي لأن ننتظر تصحيح نظرياتهم وإعادة صياغة القوانين التي تصحح الكثير من اخطائهم التي يؤكدون صحتها في الوقت الحاضر.

الحرمان

وفاء حصرمه - سوريا -

عندما يحل المساء ضيفاً على الطبيعة، وترسل الشمس خيوطها الذهبية الأخيرة إلى قمة الجبل المشرف على أجمل صورة أبدعتها يد القدرة لضيعتي الصغيرة، وقبل أن يبدأ السهر ويحلو السمر، ترتفع ولساعة من الزمن أصوات الطيور وترتاح الاسماع لحفيف الشجر. ساعة يفيض الإلهام حاملا إلى الشاعر شاعريته وإلى الرسام ابداع خياله، وكأن شيئا ما يهبط من السماء على بساط الطبيعة فيكسبها رونق الحياة وجمالها.

ولئن كنا نسمع ونفهم أحاديث البشر. فما عساها تهتف الطيور، وما عساه يهمس الشجر؟ في قريتي التي تجعل من البر الخالد قطعة من الخلد، اناس عاشوا البساطة والفطرة، توارثوا عن الآباء والأجداد خصال الانسان. صارعوا الدهر فغلبوه، أحبوا الأرض فرووها بدم الأكف وعرق الحياة، واجهوا الجوع برغيف الشعير الأسمر. واليوم بدأنا نحن الخلف الجديد، وأنعم بنا من خلف نبحث عن الافضل وبآمال الغد نتعلل. فقد أصبحت الهجرة إلى المدينة هدفاً يسعى إليه غالبية أبناء ضيعتي سعيا وراء الوظيفة كأسهل مصدر للحفاظ على مستوى لا نحسد عليه لكسب لقمة العيش. أجل لقد هجرنا البيدر والحقل والساقية، وكسرنا الفأس والمعول والمحراث.. وها نحن نتسابق الى المكاتب والادارات، لقد ودعنا الميجانا والعتابا الى حيث الصخب والحن الدباديب، وتركنا الطيور حياة الخميل والنسيم العليل إلى الشقق المفعمة بصراعات الجيل.

قبل عقدين من الزمان ونيف كانت الصحراء في ضيعتي بيدراً شاسعا يضيق بمواسم الحنطة وضفاف بردى فراديس فيها للناس من كل فاكهة ما يشتهون، واليوم فقد أصبحت البيادر قفارا تقام فيها تكنات مسبقة الصنع تباع وتشترى، والضفاف مستنقات ضخمة لقمامات المقاصف، لو رآها السلف لبكوا دماً على مصير الخلف الذي باع الغالي برخيص واشترى بالمعاول أقلاما كتب بها نفسه من الاشقياء.

وهل جزاء الحرمان إلا الحرمان؟!

ذلك هو حديث الطيور وهمس الشجر الذي كنا نسمعه فتطرب له الآذان وترتاح لوقعه النفس واليوم بات يبعث فينا عتابه المؤلم والشجن والحسرة.

نضبت الينابيع وأصفر الشجر واصبحت البيادر قفاراً قاحلة إلى أن يبعث من في القبور.. نعم هكذا تقول الطيور.

إنها دعوة الطبيعة للوجوه التي اشتاقت اليها ليعود أبناء الريف إلى ريفهم وحقولهم التي خلقها الله لتكون رمز محبتهم وعطائهم ولئلا يكون احدنا مثلا لقصة الغراب الذي حاول ان يتعلم مشية الحجل فلم يتقنها ونسي مشيته ورحم الله القائل:

نعيب زماننا ... والعيب فينا
وما لزماننا ... عيب سوانا

دعيني أثرثر .. إذن

ليلي الجهني - المدينة المنورة -

صباح الخير يا ندى..

صباحك، سكر ذاب في الغيم فجاء المطر عذباً. صباح الكتب والطابور المدرسي ونشيد الوطن يعلو حبقاً وحرية.

صباح الخير يا أختي، صباح الاسماء الجديدة: عنود ، ريم ، دعاء. عالم من الدهشة المقيمة وضجيج أثير تبعثه عصافير رمادية صغيرة آسرة أولها: أنت وآخرها صبايا كثيرات أراهن يتناثرن في الدروب حول بيتنا.

هل لي أن اقتحم صباحك. افتش دفاترك القليلة، أبحث عن نجوم هجرت سماواتها فقط من أجل نقش أناملك الرقيقة: قَ رَ أَ، كَ تَ بَ ، رَ كَ زَ. أبحث عن زرافات وطيور وغزلان تاهت من أمهاتها على صفحات كتاب الرياضيات

واختارت ليديك العذبتين أن تقودها في خط مستقيم إلى حيث بيوت تطل من خلف شبابيكها عيون الأمهات!

هل لي أن أقتحم صباح الناس عنوة، آخذهم من فناجين قهوتهم، من أكواب شاي تفوح منها رائحة النعناع، من أوراقهم المبعثرة؛ فقط لأقول: إني أحبك أكثر من أحلامي؟!

صباح الخير يا أختى.

صباح الفروض المدرسية تُكبين عليها مساء، ترتبين حقيبتك وترتبين حديثاً عن صبية لا تتقن الكتابة فتنهرها المعلمة، عن بالونات طارت في سماء كراسك، عن حرف النون السهل وعن حرف السين الهامس، عن الراء التى تخرج من بين شفتيك ثقيلة وجميلة مثل راء طلال وهو يصدح: «أنا راجع أشوفك». راء عذبة وغريبة لم تسمعها العرب وإلا كانت اضافتها للأبجدية واخترعت من أجلها الكلمات!

صباح الخير يا ندى.

صباح الأحلام التى نعست على وسادتك البارحة واستيقظت تواً ، تغسل وجهها، تمشط شعرها وترتديك.

صباح الطفولة البهية تبدأ من قلبك وتنتهي بعنادك الجميل. هل قلت إنك وردة ربيعها قلبي؟ هل قلت إنك غيمة سماؤها أحداقي؟ هل قلت .. ماذا قلت؟ دعيني أثرثر إذن وامضي أنت لأحلامك.

رسالة إلى السيدة من الميكالي

*** هو أبو الفضل عبيد الله الميكالي، بقية آل الميكال أمراء فارس.**

* * *

زوجتى المحزونة المكلومة، أم حسان:

كفي عن بكائك ونحيبك يا أم حسان.. روِّحى عن نفسك، ولا تحمِّلى قلبك مالا طاقة لك به.

فالدهر لا يصفو لأحد دائما وأبداً .. ولا يناصر أحداً دائماً وأبدا، ولا يدفع غدراته عن الناس دائماً وأبدا..

إنما له صولاته وجولاته. فمن يطمئن إلى الدهر فهو يحيا بين الغرارة والغفلة وحسن الظن المهلك.

هكذا الدنيا يا حبيبتى، فلا تشكى فى غير الدهر، ولا تشتكى من سواه..

آه يا رفيقة العمر، يا أم حسان، أى كارثة تلك التى فرقتنا وبددت شملنا فإذا بنا مشتتين في آفاق الأرض: أنتِ فررت إلى بغداد، وولدانا: المهند ، وحسان فرا إلى خراسان، وأنا بأصبهان.. فهل تظنين أن يغمض لى جفن أو يهدأ لى بال ونحن مطاردين مهددين من عيون أعدائنا الذين يتربصون بنا؟

هكذا الدهر فى عناده الخبيث:

جفون قد تملكها السهاد
وجنب لا يلائمه مهاد
وأحداث أصابتنى وقومي
يذل من الحليم لها القياد
فقد شطت بنا وبهم ديار
وفرق جامع الشمل البعاد
أقول وفى فؤادى نار وجد
لها بين أحشاى اتقاد
وللأحزان فى صدرى اعتلاج
وللأفكار في قلبى اطراد
ألا هل بالأحبة من لمام
وهل شمل السرور بهم معاد

محمد عبد الواحد حجازى
مصر

يبقى اللئيم مدى الحياة فلا
يرتاع منه لحادث صدر
تصفو له الدنيا بلا كدر
ويطيعه في عيشه اليسر
فمرامه سهل وكوكبه
سعد وغصن سروره نضرُ

أما الكريم وهو فى حرب مع الدهر:

مرعاه جدب والحظوظ له
حرب وجانب عيشه وعر
وجناه شوك والبحور له
وشل وحشو فؤاده جمر

إيه يا دهر:

يا دهر دع ظلم الكرام فهم
عقد لنحرك لو درى النحر
سالمهم واستبق ودهم
فهم نجوم ظلامك الزهر

زوجتي المحزونة المكلومة أم حسان:

سرِّ عن نفسك وأنت في غربتك في بغداد .. أرجوك ، أرجوك أن تخففى من أحزانك وتروِّحي عن فؤادك .. فالأمل قريب في أن يجتمع شملنا من جديد ولا سيما أن نفراً من أصدقائي قرروا - صادقين - أن يخلصوا ولدينا من أسرهما فنجتمع كلنا فى أصبهان ولسوف ترجعين إليَّ فى أقرب يوم .. وتذكرين يوما قلت لك فيه:

أمتع شبابك من لهو ومن طرب
ولا تُصغ لملام سمع مُكْتَرِثِ
فخير عيش الفتى ريعان جدته
فالعمر من فضة والشيب كالخبث

حبيبتى هل تذكرين: يوم صددت علي وهجرتنى؟ يومها، ناجيت طيفك قائلا:

لقد راعني بدر الدجى بصدوده
ووكل أجفاني برعي كواكبه
فيا جزعي مهلا عساه يعود لى
ويا كبدي صبراً على ما كواك به

حبيبتى هل تذكرين: أنني لا أخشى شيئا سوى دموعي؟ فهي التى تفضح هواي وحبي .. ولقد قلت لك:

إن لى فى الهوى لسانا كتوما
وفؤادا يخفق حريق هواه
غير أني أخاف دمعي عليه
ستراه يفشي الذى ستراه

حبيبتى هل تذكرين: يوم وصفت صورتك التى خلبتني وسحرت عقلي، وجعلتني أهيم فى دنيا الجمال؟لقد قلت:

ومهفهف يهفو بلب
المرء منه شمائل
فالردف دعص هائل
والقد غصن مائل
والخد نور شقائق
تنشق عنه خمائل
والعرف مثل حدائق
نمت بهن شمائل
والطرف سيف ماله
إلا العذار حمائل

حبيبتى، هل تذكرين؟ كانت مواعيدك. هباء .. كنت تأتين بالمعاذير الواهية التى تضاعف من جواي وأساي .. فقلت فى رسالتي إليك أستهدي وصالا فعللتني بوعد فى الجواب:

ألا ليت الجواب يكون خيرا
فيشفي ما أحاط من الجوى بي

حبيبتي، هل تذكرين كيف كان جمالك عندى؟
حبيبتى زوجتى أم حسان:

ثقي أن الله سبحانه سوف يجمع شملنا ونعود كما كنا فى رغد وهناء .. وما ذلك على الله بعزيز.

زميله أبو الوليد الباجى الفقيه الأشهر يقول له، إنه نشأ منعما مرفها فوجد الطريق ذلولا هنيا إلى الرفعة العلمية، أما الباجى فقد نشأ معدما فقيراً فلاقى من المصاعب والأهوال ما أرَّقه وأضناه حتى تصدّر فى دنيا الفضل والعلم، وذلك مما يحسب له، فردّ عليه ابن حزم بأن الفضل له هو، لأن النعمة التى نشأ فيها كان من شأنها الطبيعي أن تشغله عن التحصيل الملحّ، كما شغلت عشرات سواه، فلماذا يكدح ويكد، والمال ميسور، والرغبات دانية القطوف أما الفقر الذى نشأ فيه الباجى وأمثاله، فهو الحافز الملحّ الذى يدفع دون إبطاء، فإذا نبغ الفقير حينئذ فغيرُ مستغرب، إنما المستغربُ أن ينبغ أمثال ابن حزم، وهذا منطق قد يُردّ فى بعض وجوهه، ولكنْ له وجهته السديدة أيضا.



١٧٢ - الفقر مدرسة:

د. أبو حسام
المنصورة

الفقر مدرسة النبوغ، فأكثر من ذاع حديثهم فى عوالم السياسة والأدب والعلم والاقتصاد والصناعة تربوا فى مهاد الحرمان، فكان حافزهم إلى التفوق، ولا أنكر أن كثيرا من ذوى الثراء قد بلغوا مبلغا كبيرا من الفضل، ولم تشغلهم ملذات الرخاء عن التحصيل العلمي، أو الكسب الماديّ من أبوابه المتعددة، ولكنهم قلة بالنسبة إلى الكثرة الكاثرة، وأذكر أن الإمام ابن حزم الفقيه الأندلسي الكبير قد نشأ فى مهاد النعمة والوزارة والحكم. ولكنه بلغ من العلم مبلغاً جعل له الإمامة والتصدير فى ملئه، وقد كان

١٧٣ - (أبو يوسف القاضى):

وقصة أبو يوسف الإمام الفقيه الشهير مع أمه معروفة ذائعة، فقد مات والده وهو طفل صغير، ولاقت أمه المصاعب الهائلة حتى بلغ العاشرة، فدفعت به إلى صابغ ثياب ببغداد ليتمرن لديه، ويأخذ من الأجر اليومي ما يكفيه قوته، لأنها كانت تغزل الصوف طيلة اليوم فلا يسعفها إلا بما يمسك الرمق على ضيق، ولكن الولد كان يرجع إليها خالي الوفاض، فظنت أنّ الصابغ سيعطيه أجر الأسبوع عند نهايته، ومضى الأسبوع ولم يأت الغلام بشيء، فارتابت الأم، ورأت أن تتبع ولدها حين يمضى، فلعله يلهو مع رفقاء السوء دون أن يلمّ بعمله،

واجتاز الغلام محلّ الصابغ دون أن يدخل وتابع المسير، فرأت الفرصة سانحة لأن توالي تتبّعه وتدهمه حيث يلهو، ولكنها وجدته يدخل المسجد الجامع، وليس الوقت وقت صلاة، فتعجبت، ونظرت تتأمل فإذا أناس كثيرون يدخلون منهم الغلام والشاب والرجل والكهل، فتساءلت مندهشة، فقيل لها إن إمام المدينة أبا حنيفة يلقي درسه العلمي وإن ولدك حريص على الاستماع إليه، ولم تدرك أبعاد ما يصنع فتاها، فوقفت متلددة ساخطة، ومكثت ساعات حتى فرغ الشيخ الكبير وهمّ بالخروج، فتقدمت إليه ساخطة، وقالت له أفسدت عليّ ابني، إني فقيرة بائسة، والولد يتيم لا أعوله إلا بشق النفس، وقد دفعت به إلى صابغ الثياب ليعينني على الحياة، فترك كل شيء واتّجه إليك، وكان أبو حنيفه سهلا سمحا فردّ الأم ردًا كريما، ودعا التلميذ فمنحه بعض ما في جيبه، وقال له، فيك استعداد، ولك موهبة، وقد توهمت أنك ستحل المحل الجهير إنك ستأكل بهذا العلم الفالوذج بدهن الفستق، ورجع يعقوب (واسمه هكذا) إلى منزله، فوجد الأم صابرة صامتة إذ أثّر في نفسها حديث الشيخ الكريم.

قال الراوي: ومضت الأيام وذاع صيت أبي يوسف فأصبح فقيه بغداد وقاضيها الكبير وظفر بمحبة الرشيد، وكان لا يصبر عن مجالسته، وفي ليلة دعاه الرشيد الى الطعام معه، ونظر أبو يوسف، فوجد على المائدة الفالوذج غارقا في دهن الفستق، فتأمل كمن يتذكر أمرا، وقال في غبطة: رحم الله أبا حنيفة، وسأل الرشيد عما يقصد القاضي، فروى له الحادث!

١٧٤ ـ أديب انجليزي:

نشأ الدكتور (جنسن) صاحب المعجم اللغوى الأشهر فقيراً معوزا، ولكنه ثابر على التحصيل، حتى بلغ مبلغا كبيرا في الأدب والثقافة، فسار له ذكر حميد، وأصبح إلى جانب الكتابة الأدبية خطيباً مفوها، وقاصا بارعاً، ثم دفعته الهمة إلى أن يؤلف أوّل معجم شامل في اللغة الانجليزية، وواصل البحث المضني في هذا السبيل الشاق حتى أتمه. ولكن طبعه وذيوعه يحتاج إلى مؤازرة كبير من العظماء، ليقدم نفقات الطبع وقد كان الميسورون من علية القوم يدعون حقوق الفقراء من المؤلفين أحيانا، فيكفونهم هموم النشر وبلاياه، فطمح (جونسن) إلى أن يجد في اللورد (تشسترفلْد) هذا النصير إذ كان يتباهى بحبّ العلم والعلماء مع معرفة جيدة بالعلوم والآداب، فأعلن جونسن إهداء معجمه إلى اللورد، وطفق يتردد عليه آملا أن يجد عونه الماديّ، فيطبع المعجم على نفقته مُصدَّرًا بالإهداء المسهب اعترافاً بيده، ولكن اللورد جافاه واستثقل رؤيته، وأوصد بابه دونه، ولم يؤثر ذلك في عزيمة المؤلف العالم، بل صبر سبع سنين مجداً دائبا، ومقتصداً من قوته الضروري حتى استطاع أن يطبع المعجم، وأعلن في الصحف وشك الفراغ من طبعه وهنا تيقظ اللورد من سكرته، وأحب أن يظهر المعجم متوّجاً بالإهداء إليه، فكتب مقالا رنانا يُقرظ المعجم، ويعلن أنه سيبذل ما يساعد على نشره، ولكنه فوجيء في اليوم التالى بردّ للمؤلف يقول

فيه:

لقد كنت يا سيدى ذا أمل فى تشجيعكم من قبل، ولكنى وجدت زياراتى المتتابعة إليكم لا تقابل إلا بترحاب الزاهدين فيها، فلم تسمح كرامتى باستمرارها، بعد أن استنفدت كل ما أقدر عليه من أصول اللياقة والتقرب إليكم دون جدوى!

سبعة أعوام - يا مولاي - قد تولّت منذ اليوم الذى كنت أنتظر فيه فى دهليز داركم، أو أنحّى عن عتباتكم وأنا فى خلال ذلك أدفع بعملى فوق الشوك، وألاقى صعوبات لا جدوى فى سردها الآن، حتى إذا وصلت بعد الصبر المرير إلى حافة النشر من غير كلمة تساعد أو حتى ابتسامة تشجع، أجد من يقرظنى وأنا في غير حاجة إلى تقريظ!

ليس وليّ النعمة - يامولاى - هو الذى ينظر إلى الغريق فى أمواج البحر يصارع المياه طلبا للنجاة من الغرق، فيتجاهله ويزدريه، حتى إذا رآه جوار الشاطىء مد إليه طوق النجاة، وهو فى غير حاجة إليه، إن هذه الرعاية التى تتفضل بها عليّ لو كانت مبكرة لكانت طيبة، ولكنها تأخرت كثيرا حتى أصبحتُ لا أبالها، ولا أستطيع أن استمتع بها، وعسى ألا يكون من نكران الجميل ألا أعترف بيد لم ينَلْني خيرها، أو ألا أعلن للناس أننى مدين لذى جاه بما قمت به بفضل الله وحده لا بفضل أحد سواه، وإذا كنت قد بلغت هذه المرحلة غير مستمد عونا من غيرى، فإنى قد استيقظت منذ زمن طويل من حلم الأمل الذى كنت به فخورا من قبل.

١٧٥ - الوزير المهلبي:

بلغ أبو محمد الحسن المهلبى من الجاه والحظوة مبلغاً ما كان يُتاح لمن نشأ نشأته فى مهاد المسغبة والجوع، ولكنه كان ذا فضل جم، واعتراف بالحق لصاحبه، وله كياسة فى معاملة الرؤساء إذ يكظم الغيظ فيما لا يُحتمل كظمه، ولكنَّ حسن العاقبة التى تلوح لعينه فى وقت الشدة كان يهوّن عليه كلّ صعب، فيبتسم وهو يحزن، ويمدح وهو يبطن القدح.

كان قبل ائتلاق نجمه سائحاً فى البلاد لا يجد المأوى المريح، وقد حدّث عنه زميله أبو على الصوفى فقال: كنت أماشيه فى بعض أوقات الشدة، فسمعته يهمهم ببيتين من نظمه، فطلبت أن يسمعنى إياهما فإذا هما:

ألا موتٌ يباع فأشتريه
فهذا العيش مالا خير فيه؟
ألا رحم المهيمن نفس حرٍّ
تصدّق بالوفاة على أخيه

ثم مضى الدهر، فدخلت البصرة فرأيت مواكب واحتفالات فى البر والبحر فسألت لمن هذا؟ فقيل للوزير المهلبى رجل الدولة ووزير أحمد بن بويه ومستشاره الأول، وبالغوا فى تقدير منزلته فاجتهدت حتى وصلت إليه فسلّمت وانتظرت حتى خلا المجلس فعرض لي بيتان قلتهما على سبيل المداعبة وهما:

ألا قل للوزير بلا احتشام
مقال مذكّر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضيق عيش
ألا موت يباع فأشتريه

فنظر إليّ، وقال نعم، ثم نهض وأنهضني معه إلى مجلس الأنس، وجعل يذاكرنى فيما

مضى ويذكر لي كيف تبدّل حالا بحال، وقدّم من الطعام مالا عهد لي به، ولا أعرف اسمه، فطعمنا، وأقبل ثلاثة من الغلمان على رأس أحدهم ثلاث بدر، ومع الآخر تخوت ثياب، ومع الثالث طيب وبخور، وأقبلت بغلة رائعة بسرج ثقيل، فقال لي: يا أبا علي تفضل بقبول هذا، ولا تتخلف إذا عرضت لك حاجة! فشكرته وانصرفت، فلما هممت بالخروج من الباب استردني وأنشدني قوله:

رقّ الزمـــان لفـــاقـــتي
ورثى لطول تحـــــرّقي
وأنـالنى مــــــا أرتجي
وأجــــــار ممـا أتـقـي
إلا جنـايتـــــــه التى
فـعل المشـيب بمفـرقي

١٧٦ ـ تشارلز دكنز:

كان والده فقيراً لا يجد قوت يومه إلا بشق النفس، وكان يصحب ولده من خلفه الى عمله اليومي الشاق، ويمرّان على قصر فخم لأحد الأثرياء الكبار، تحيطه الحديقة ذات الشجر والزهر والماء، وينظر الطفل منبهرا لما يراه، ويقول لوالده لماذا نسكن بيتنا المظلم، ولا نسكن هذا القصر يا أبي! وابتسم الوالد في مرارة وقال لطفله، ستسكنه حين تكبر يا بني؟ فيقول الطفل ولماذا لا نسكن الآن فيرد الوالد في أسى: لا يسكنه إلا الكبار.

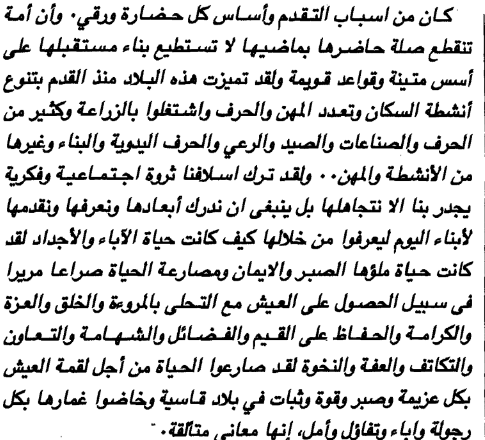
وازدادت حالة الطفل سوءاً لأن أباه قد سجن، وانضم الطفل إلى مسكن امرأة عجوز تحملته على مضض، وأخذ في سنّ العاشرة يعول نفسه، ولا يكسب غير ما يأتى بثمن الخبز والجبن فقط، وأحيانا الخبز فقط، وقد قال عن نفسه لولا رحمة الله لصرت لصا، لأن الجوع كان يعصر أحشائي وأنا أتسكع في الطريق، فأحلم بالسرقة، ثم تدركني رحمة الله فأجبن.

ويخرج والده من السجن، فيلحق الغلام بالمدرسة، ويتعلم بضع سنوات، ولكنه يشتغل ليلا بعمل في إحدى الصحف، فجعل يقرأ ما يقوم بطبعه ويستشعر تقدماً مطردا، ثم ظهر نبوغه، فألف القصص الجميلة، ونشرها تباعا مسلسلة فحازت قبول القراء، وكان تصوير الطبقات الكادحة وما تعاني من إرهاق الجوع، وتشرد الطريق وبؤس المرض سرا من أسرار براعته مع فكاهة مريرة يغتصبها اغتصاباً لترفه عن القارىء، وجمع مقالاته في كتب، وتفرغ للقصة الطويلة، وبعد سنوات صار من أعلام الأدب الانجليزي في عصره.

وحين تدفق المال في يده، جعل من همه أن يشتري القصر الذي وعده والده أن يكون صاحبه، وكان مالكه قد مات، وتنازعت الورثة فأرادت البيع لينجو كل وارث بحقه دون شريك، وكان تشارلز سخيا لأنه لم يُرد أن يفلت الحلم من يده، وبين عشية وضحاها، أصبح القصر ملك يديه، ولكنه كان يعضّ على شفته متألما، فيقول له صديقه لقد تحقق حلمك فلماذا تتأسف؟ فيرد، كنت أوثر أن أجد أبي معي اليوم ليكون صاحبه الأول ثم يتساءل هل يعلم ذلك في ملئه الأعلى؟ لو علم لاسترحت كثيرا كثيرا.

مسك الختام

صور من الماضي



لكل أمة من الأمم عادات وتقاليد تحرص على الاعتزاز بها وتسهم في احيائها ليصل بها الحاضر الماضي والخلف بالسلف. ولذا تهتم الأمم بالمحافظة على تراثها وصيانة ذلك من التمزق والضياع والاندثار واذا تتبعنا تاريخ البشرية منذ نشأتها حتى اليوم لتأكد لدينا بما لا يدع مجالا للشك أن الماضى بما يمثله كان من اسباب التقدم وأساس كل حضارة ورقي. وأن أمة تنقطع صلة حاضرها بماضيها لا تستطيع بناء مستقبلها على أسس متينة وقواعد قويمة ولقد تميزت هذه البلاد منذ القدم بتنوع أنشطة السكان وتعدد المهن والحرف واشتغلوا بالزراعة وكثير من الحرف والصناعات والصيد والرعي والحرف اليدوية والبناء وغيرها من الأنشطة والمهن.. ولقد ترك اسلافنا ثروة اجتماعية وفكرية يجدر بنا الا نتجاهلها بل ينبغى ان ندرك أبعادها ونعرفها ونقدمها لأبناء اليوم ليعرفوا من خلالها كيف كانت حياة الآباء والأجداد لقد كانت حياة ملؤها الصبر والايمان ومصارعة الحياة صراعا مريرا فى سبيل الحصول على العيش مع التحلى بالمروءة والخلق والعزة والكرامة والحفاظ على القيم والفضائل والشهامة والتعاون والتكاتف والعفة والنخوة لقد صارعوا الحياة من أجل لقمة العيش بكل عزيمة وصبر وقوة وثبات في بلاد قاسية وخاضوا غمارها بكل رجولة واباء وتفاؤل وأمل، إنها معانى متألقة.

لقد كان التعاون سمة بارزة فى حياتهم وصفة واضحة لهم في شتى ألوان الحياة ومختلف المجالات فى الزراعة والتجارة وبناء



بقلم:
عبد الله ابن حمد الحقيل
- الرياض -

المنازل والمساجد وحفر الآبار وتوظيف ما في بيئتهم من خيرات للصالح العام فالكل يمد يد العون والمساعدة لجاره وصاحبه ويشارك في بناء مجتمعه فلو سقط منزل أحدهم لبادر الجميع في اليوم الثانى على اعادة بنائه واصلاحه ومتى فاجأهم السيل وهدم الآبار ومجارى السيول خرجوا جميعا لمد يد المساعدة والمشاركة في العمل، لقد كانت المرأة في الماضى تقوم بأعباء الحياة من ادارة لشئون المنزل وتربية الأطفال والغزل والنسيج وتخيط الثياب والعباءات وتنظف المنزل وتطبخ الطعام مهما كان عدد أهل المنزل وضيوفهم وتدق حب القمح وتطحنه وتصنع الحبال من ألياف النخيل الي غير ذلك من المهارات والأعمال الكثيرة التى تحتاج الي سجل حافل يرصدها لتتعرف الأجيال الجديدة عليها ويقلبوا النظر في صفحاته.

حقا ففى غمار تلك العادات تتبدى اصالة الأمة وتتجسد معانيها وتنعكس ملامح شخصيتها بحيث تتسم بخصائص ذاتية طريفة وجميلة بل هي كنز بديع تتضوع فى ثنايا المعانى الكريمة وتتجلى فى حناياه الروعة والأصالة مما ينبىء ويعبر عن مقدرة أولئك الأسلاف فى تلك الحقبة الزمنية القاسية من تاريخنا. لقد كانت تلك العادات والتقاليد علامات متميزة وما نتمناه الآن هو التعريف بتلك الصناعات التراثية وإبرازها حيث نرى الأجانب هم الأكثر اقبالا عليها وعلى اقتناء تلك المصوغات فهي تحتاج الي جهد فكري متخصص فى هذا المجال.

إن ما أريد التأكيد عليه هو إبراز قيم الماضى وصقلها التى تمثل تلك الأيام المشهودة في كل جزء من أجزاء هذه البلاد الكريمة وعلى كل بقعة من جبالها وسهولها وقراها ومازلنا والحمد لله نجد أسمى المعانى تنبعث متوهجة بذلك الماضي العريق التليد. فلنواصل السعي من أجل ذلك والمحافظة على تلك الحِرَف والصناعات وانشاء متاحف تعليمية وأسواق شعبية دائمة للحرفيين تحقيقا وتأكيدا للماضي وتفاعل الأجيال الناشئة مع هذه الحرف والصناعات مع مواكبة واقع الحياة المعاصرة.. ولقد قيل:

وإذا لم تدر ما قوم مضوا

فاسأل الآثار واستنب الديارا

أرامكو السعودية نتيجة المسابقة السنوية

يسر أرامكو السعودية ، ممثلة في إدارة العلاقات العامة ، ان تزف تهانيها الحارة الى جميع الاطفال الفائزين في مسابقتها السنوية السابعة عشر لرسوم الاطفال ، وتتقدم بخالص الشكر والتقدير لجميع الاطفال الذين شاركوا في المسابقة وذويهم ومدرسيهم وكل من شجعهم وحثهم على المشاركة في هذه المسابقة • وكان ما يربوا على أربعة الآف لوحة

أسماء الفائزين

الاسم	المدرسة	المدينة
ابراهيم عويض الزايدي	متوسطة الملك فهد	الطائف
احسان محمد يحيى حاج يحيى	معهد الأمل للبنات الصم	الدمام
احمد علي عبد الرحمن سليمان	ص.ب : ١٠٦٩ خميس مشيط	خميس مشيط
احمد عبد العزيز غانم	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
احمد فاروق كوشن	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
احمد عصام العنزي	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
احمد ابراهيم المحيش	عمار بن ياسر الابتدائية	الاحساء
احمد علي احمد الغامدي	متوسطة الملك فهد	الطائف
احمد خالد الوعيل	متوسطة الملك فهد	الطائف
احمد محمد محجاني	متوسطة منذر العوض	رجال المع
اريج سعد عبدالله الحارثي	مدرسة العشرون الابتدائية	الطائف
اسامة عبدالوهاب محمد الحواج	المدارس النموذجية الاهلية	الدمام
اشواق الحمودي	مدارس "الرياض للبنين والبنات	الرياض
الاء محمد سليمان عبدالله	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
الرازي سيف الدين جعفر بلال	مدرسة منارة الشرقية	الخبر
النوري عبدالله مثيب الجودي	مدرسة اليرموك الابتدائية	الظهران
امل حسن بوسف ال يوسف	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
انور علي مفرح	مدرسة عبدالله بن مسعود الابتدائية	رجال المع
اية محمد يوسف هلال	مدارس الفيصلية الاسلامية	الخبر
ايمن عارف يوسف ذيب	متوسطة الملك فهد	الطائف
باسم عبدالحميد لطفي معوض	مدرسة الملك خالد الابتدائية	ينبع البحر
بتول عبدالرحمن عبدالجبار دهيمش	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
بسمة مجدي عبدالسلام البيطار	مدارس الفيصلية الاسلامية	الخبر
تميم صالح محمد الدواس	المدارس النموذجية الاهلية	الدمام
ثامر سالم عجاج العنزي	مدرسة الملك خالد الابتدائية	العلا
جواهر راغب الشنواني	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
حازم عويض الزايدي	مدرسة الملك فيصل الابتدائية	الطائف
حامد الجامع	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
حسن خالد سعد الحارثي	متوسطة الملك فهد	الطائف
حسين عبدالله الهويدي	مدرسة الحريق الثانية	الحريق
حسين عبدالله اكريمي	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
حمد خليفة الليلي	مدرسة عمار بن ياسر الابتدائية	الاحساء
خالد ابو خمسين	مدارس الظهران الاهلية	الدمام
خالد سعيد حسن العبد الجبار	مدارس الظهران الاهلية	الدمام
خالد وليد حمزة شبشة	مدرسة روضة جدة النموذجية	جدة
خالد سيد بدري	مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب	عرعر
داليا عثمان محمد الصايغ	الطائف النموذجية الاهلية	الطائف
دانا منصور التركي	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
دانية صلاح محمد قريوتي	مدارس الفيصلية الاسلامية	الخبر
دعاء عبدالله العماري	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
دينا فهد الطويرقي	متوسطة الملك فهد بواسطة والدها	الطائف
دينا سعد صالح علي الناصر	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
رشا رمضان	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
ريم محمد حسن ادريس	مركز سعد الصانع لتقويم النطق والسمع	الخبر
ريم سليمان محمد سليمان	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
زياد محمد عبد الجواد عبدالحميد	مدرسة الخبر النموذجية	الخبر
سارة منصور مشعل عبدالعزيز	مدارس دار الفكر	جدة
سارة فهد محمد الطويرقي	متوسطة الملك فهد بواسطة والدها	الطائف
سارة محمد الحصين	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
سارة عبدالله عبدالعزيز المقيرن	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
سامي عويد نهار الشمري	مدرسة روضة هباس الابتدائية	روضة هباس

الاسم	المدرسة	الم
سديم فهد حسن الحسيني	مدارس الرياض للبنين والبنات	الري
سعود عمر عبدالعزيز الشتري	مدارس الرياض للبنين والبنات	الري
سعود راشد سعد الخثلان	مدرسة الحريق الثانية	الحر
سعود دخيل الله الثبيتي	متوسطة الملك فهد	الط
سعيد احمد القحطاني	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظه
سلطان عبدالسلام الصالح	مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الابتدائية	عرع
سلمى حمود محمد العنزي	معهد الامل للبنات الصم	الدما
سماهر خالد محمد العتيبي	مدرسة دار الهدي الحديثة	جدة
سوسن سالم محمد الغامدي	رياض الدوحة الاسلامية	الظهرا
سويكت محمد الهاجري	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهرا
شاهر محمد مسحل البشري	معهد النور للمكفوفين/كف بصري جزئي	مكة المك
صالح سعد صالح الحمودي	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
طلال الطويري	مدرسة حراء الابتدائية	خميس مشيط
عادل نايف عايش النفيعي	متوسطة الملك فهد	الطائف
عبد الرحمن محمد السماعيل	مدرسة عمار بن ياسر الابتدائية	الاحساء
عبد الرحمن حصن بسير الفهمي	معهد النور للمكفوفين/كف بصري جزئي	مكة المكر
عبد العزيز محمد عمر ال مدني	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
عبد العزيز حمد عبد الله العجاجي	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
عبد العزيز عبد الحميد عبدالرحمن البسام	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
عبدالعزيز نبيل عبدالوهاب الدغيثر	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
عبد العزيز سعود الراجح	مدرسة عمار بن ياسر الابتدائية	الاحساء
عبدالعزيز عبد الرحيم المير	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
عبد العزيز منير احمد القاضي	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
عبدالعظيم عبداللطيف سعود	مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الابتدائية	عرعر
عبدالله غسان محمد عجم	مدرسة روضة جدة النموذجية	جدة
عبدالله محمد مختار عبدالرحمن	مدرسة الثنية الابتدائية	بيشة
عبدالله عبدالقادر ال عبدالحي	المدارس النموذجية الاهلية	الدمام
عبدالله فهد جري	مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب	عرعر
عبدالله رضوان الحرز	مدارس الظهران الاهلية	الظهران
عبدالله خالد النجار	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
عبدالله احمد الشهري	متوسطة الملك فهد	الطائف
عبدالله محسن الاحمدي	مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب	عرعر
عبدالمحسن احمد الدايل	مركز سعد الصانع لتقويم النطق والسمع	الخبر
عبده مطهر عبيدة	مدرسة عبدالله بن مسعود	رجال المع
عبير محمد عبدالعزيز النمر	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
عبير عبدالهادي حسن الحيزان	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
علي احمد علي الموسي	مدرسة الادريسي المتوسطة	الدمام
علي رياض الجشي	مدرسة القناتير الابتدائية	خميس مشيط
علي حسين القطري	مدرسة الشاطىء الابتدائية	القطيف
علي حسين احمد الغمري	متوسطة الملك فهد	الطائف
علي محمد علي الحداد	روضة جدة النموذجية	جدة
عمر عادل ابراهيم ملائكة	مدارس دار الفكر	جدة
عمر غسان عبدالفتاح عودة	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
عمرو احمد زبادي	مدرسة السعد الابتدائية	الخبر
عمرو صويلح صالح الثبيتي	متوسطة الملك فهد	الطائف
عنان العناني	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
غدير طاهر عبدالعزيز الصبي	الروضة الحديثة	الدمام
فادي فؤاد الجشي	مدرسة الشاطىء الابتدائية	القطيف
فارس حسين العلوان	مدارس الظهران الاهلية	الدمام

السابعة عشرة لرسوم الأطفال

تلقينها من مختلف انحاء المملكة والشركة إذ تكرر شكرها وتهانيها للفائزين ، يسعدها أن توجه الدعوة مرة
اخرى إلى جميع الاطفال في المملكة للمشاركة في المسابقة القادمة التي سيعلن عنها مع بداية العام الدراسي
القادم ، ان شاء الله وفيما يلي : اسماء الاطفال الفائزين بجوائز المسابقة لهذا العام :

الاســــم	المدرســــة	المدينة
فهد خليفة احمد الليلي	مدرسة عمار بن ياسر الابتدائية	الاحساء
كريم احمد شحته عاشور	مدرسة روضة جدة النموذجية	جدة
لجين كامل محمد علي	مدارس منارات الشرقية	الدمام
لطيفة خالد الرشيد	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
ليلي علي احمد الغامدي	متوسطة الملك فهد بواسطة والدها	الطائف
ماجد عبدالمحسن السنيد	مدارس الظهران الاهلية	الدمام
مازن احمد العتيبي	متوسطة الملك فهد	الطائف
متعب المخضب	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
متعب هادي الرفيدي	متوسطة منذر العوض	رجال المع
محمد جمال اسعد خطاب	مدرسة روضة جدة النموذجية	جدة
محمد يوسف علي شقزون	مدرسة روضة جدة النموذجية	جدة
محمد ابوبكر الصديق الفكهاني	مدارس دار المعرفة الاهلية	جدة
محمد عبداللطيف ال الشيخ	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
محمد سلطان محمد السويلم	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
محمد عبدالقادر الجبيلي	مدرسة الملك خالد الابتدائية	ينبع البحر
محمد سعيد محمد الفقي	مدرسة مصعب بن عمير الابتدائية	الدمام
محمد جواد طلال العناد	المدارس النموذجية الاهلية	الدمام
محمد سليمان العبد العال	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
محمد طارق محمد الزاهد	مدارس الظهران الاهلية	الدمام
محمود علاء الدين	مدرسة مصعب بن عمير الابتدائية	الدمام
محمود خضر الفيومي	متوسطة الملك فهد	الطائف
محمود توفيق ابراهيم درويش	متوسطة الملك فهد	الطائف
مريم خليل ابو قرين	معهد الامل للبنات الصم	الدمام
مشاعل فاروق عباس اسكوبي	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
مشبب يحيى الحارثي	مدرسة حراء الابتدائية	الجبيل الصناعية
مصطفي سعود مصطفى عرقوس	مدرسة روضة جدة النموذجية	الطائف
مصطفى يعقوب العوي	مدرسة الشاطيء الابتدائية	القطيف
معاوية مصطفى بشير	متوسطة الملك فهد	الطائف
ملاك ناصر القعود	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
منير زهير صادق حسونه	مدرسة الملك خالد الابتدائية	ينبع البحر
منيرة محمد النافع	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
مهاب محمد صالح بنتن	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
ناجي الشماسي	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
نادر عبد الرحمن المحياوي	مدرسة الملك خالد الابتدائية	ينبع البحر
ندى رأفت احمد عبدالعزيز	بواسطة والدها / متوسطة دار التوجيه	الطائف
نعيمة دخيل الله عوض الملكي	معهد الامل للبنات الصم	الدمام
نمر محمد نمر جابر	المدرسة العزيزية الاهلية	الخبر
نهى طارق السيد محمود عبده	مدارس الفيصلية الاسلامية	الخبر
نورا خالد عبد الرحمن الرشيد	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
هادي علي هادي	متوسطة المنذر العوض	رجال المع
هيا خالد المطلق	مدارس التربية الاسلامية	الرياض
هيفاء عبدالرحمن سعود العجاص	مدارس الرياض للبنين والبنات	الرياض
وارف محمد رزق الحرثاني	مدرسة روضة جدة النموذجية	جدة
وجدي محمد عباس معوض	مدرسة الملك خالد الابتدائية	ينبع البحر
وسام حسن الكواي	مدرسة الشاطيء الابتدائية	القطيف
ياسر محمد صدقه السليماني	مدرسة عبدالملك بن مروان الابتدائية	الطائف
ياسمين السيد احمد عثمان	مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن	الظهران
يوسف منصور يوسف الحازمي	معهد النور للمكفوفين	مكة المكرمة
يوسف خالد الوعيل	متوسطة الملك فهد	الطائف
يوسف سحيم علي الهذلي	متوسطة الملك فهد	الطائف


صرح طبي متكامل
مستشفى دله
DALLAH HOSPITAL
○ العيادات الخارجية التخصصية يشرف عليها طاقم طبي مؤهل وفرت له أحدث الأجهزة التشخيصية.
○ مختبر متكامل يعمل على مدار الساعة.
○ قسم الأشعة مجهز على أفضل المستويات التقنية.. مزود بجهاز التصوير المقطعي بالكمبيوتر وجاما كميرا للتصوير النووي.
○ جهاز تفتيت حصى الكلى والحالب بدون تخدير وبدون مغطس ماء وبدون إقامة في المستشفى !!
○ مغاطس الطين، المعالجة الكهربائية.. والموجات الصوتية... بعض الأساليب العلاجية بقسم العلاج الطبيعي.
○ مهبط لاستقبال طائرات الإخلاء الطبي.
DALLAH HOSPITAL مستشفى دله
رعاية أشمل لصحة أفضل
ص.ب ٨٧٨٣٣ الرياض ١١٦٥٢ حي النخيل
تليفون ٤٥٤٥٢٧٧ فاكس ٤٥٤٥٢٥٣ تلكس ٤٠٧٣٠٥

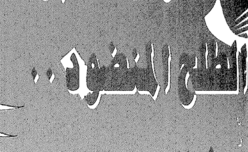
المنهل
AL MANHAL
مجلة العرب الأدبية

الكنوز الفارقة

سلطان المعرفة

المستشرقون

أباطيل ومغالطات



الاستشراق المشبوه

الطلع المنضود..

غذاء ودواء

اللغة.. تخصص واحد

النبات.. وحس التوجه

المنهل

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٢ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٨ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال



مما قل

فتش عن اللسان!

اذا كان من الحكم الرائعة الدقيقة قول المعاصرين: «فتش عن المرأة» فقد يكون احكم منها وادق قولنا: «فتش عن اللسان». فانك اذا قلبت صفحات تاريخ البشرية تجد هذا العضو الصغير المرن هو «المحرك» الجبار الذي يحرك «عواطف» الانسانية في ادق أحوالها وأجلها، وفي اتفهها واخطرها على السواء. من اجل هذا اكبرنا الاقدمين ازاء عنايتهم بامر هذا اللسان وصفا وتهذيبا وتقديراً، حتى كأن لسان حالهم يصيح بأن «فتش عن اللسان» فى كل حادثة تقع للانسان، ومما يدلك على اكبارهم امره والاحتفاء باثره البليغ قول زهير فيه:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقول ابى الطيب المتنبي فيه:

احفظ لسانك ايها الانسان ... لا يلدغنك انه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الشجعان

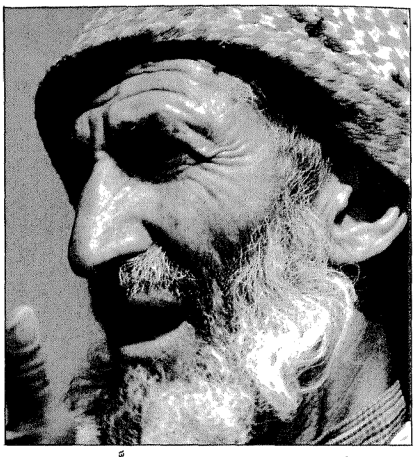
واذا تجاهل المتأخرون قدر هذا اللسان؛ ونسبوا الاثر البالغ الخفى فى خطير الحوادث وحقيرها للمرأة حينما قالوا: «فتش عن المرأة» فما ذلك الا لانهم لم يقدروا الحقيقة قدرها، ولم يتعمقوا في دراسة هذا المحرك العظيم: اللسان. كما تعمق الاقدمون؛ فما يحكم على الانسان الا لسانه، ايا كان.

«عبدالقدوس الأنصاري»

المحرم ١٣٥٧هـ/ مارس ١٩٣٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطة الشهر



أهلا وسهلا بالمشيب فإنّه
سمت العفيف وهيبة المتحرج
كأن شيبي نظم درٍّ زاهرٍ
في تاج ذي ملك أغرَّ متوج

الشارة

• تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة
تليفون : ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس : ٦٦٠٤٦٧٦



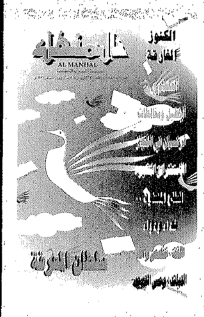
صاحب المجلة
رئيس التحرير
نبيه بن عبدالقدوس الأنصاري

مستشار التحرير
أ.د / عبدالرحمن الأنصاري

نائب رئيس التحرير
المدير العام
زهير بن نبيه الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد

م ن ه ل ي ا ت

سادة الدنيا

في مثل هذا الشهر منذ خمسة عشر قرناً خلت، كان مولد (الهدى والنور) مولد سيد ولد آدم أجمعين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. إنّه الرسول الخاتم والرسالة الخاتمة.. حيث لا رسول بعده ولا رسالة.. بل هو الاتباع المحض لتعاليم الرسالة وهديها، وفق ما جاء به رسول الهدى والنور.. {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} وما ذلك إلا لانه الحق المحض {ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}.

(تركتكم على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)

(تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنتى) إنها رسالة الحق للعالمين.

علينا استيعابها والعمل بها وتطبيقها في أنفسنا .. ثم علينا أيضاً واجب نشرها وتوسيع دائرتها في العالمين، ذلك ، لأنها جاءت للناس كافة ، لتخرجهم من الظلمات إلى النور.. لتخرجهم من ضلالات الهوى وطغيان البشر، إلى قيم الحق ورحمة السماء .. وبهذا كانوا، ويظلون سادة الأرض.

وبهذه الرسالة وحدها، لا غيرها، تتفجر ينابيع الحياة خصبة في أعماق أهل هذه الرسالة، ويستوي ميزان العدل في العالمين.

وبهذه الرسالة وحدها، لا غيرها، نقوم بواجب الخلافة في الأرض.. وهذا هو وعد الحق {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض}.

والآن ..!! والآن ، ونحن على أعتاب القرن الخامس عشر الهجري، نجد المسلمين ـ وبكل أسف ـ أشدّ هواناً على أنفسهم، وأكثر ضعفاً عند الآخرين .. والشواهد على ذلك اكثر من أن تُعَدّ وتحصى .. وقد هزّ أسلافهم الدنيا.. وخلعوا الباطل من عروقه.. وأضاءوا الكون بنور الحق .. وما ذلك إلا لأنهم: آمنوا واهتدوا .. وجاهدوا..{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا..}.



العدد: (٥٣٤)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)





وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات: يراجع بشأنها الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤

فهرس العدد ٥٣٤ المجلد: ٥٨ العام: ٦٣

الفهرس

في هذا العدد

أقلام:

الدكتور احمد شلبي
الدكتور ابو القاسم سعد الله
الاستاذ حمد عبد الله الحقيل
الدكتورة سامية محمد عامر

الدكتور البدراوي زهران.
م/ محمد عبد القادر الفقي
الدكتور محمد عماره
الدكتور محمد رجب البيومي

« سور البلد عالي »

المملكة العربية السعودية .. منذ نشأتها وتأسيسها، قامت على مرتكزات أساسية ثابتة (عقيدة التوحيد ـ ونشر مظلة الأمن) مرتكزان يمثلان كلية التوجه العام في جزئياته وتفاصيله.

العقيدة تمثل التوازن الداخلي للإنسان، تنظف دواخله لاستقبال وافد الخير الآتي من الحنيفية السمحة، وينعكس هذا خيراً على تصرفه تجاه الآخرين..

(ومظلة الأمن) بطبيعة الحال هي الحافظة لأرواح الناس وممتلكاتهم .. وهذا ما حرص عليه القائمون بأمر هذه المملكة.. هذا الكيان الكبير.. وبحفظ الله جلت قدرته تظل محفوظة آمنه.. لا تضرها أحقاد الحمقى والموتورين.

هذه المملكة استطاعت ان تنشر الأمن في ربوعها في وقت كان فيه الناس اشد حاجة له.. وبفضل الله سبحانه أقامت موازين العدل بين الناس.. حتى إن من يحدث نفسه بسوء يتردد في تنفيذه ألف مرة ومرة، لانه يعلم يقيناً أن سهم شره سيرتد إلى نحره..

الناس، فرادى وجماعات، آمنون في ديارهم ومساكنهم وأماكن عملهم .. هكذا علمنا ديننا السمح.

وترويع الآمنين وتقتيلهم جريمة، وغاية لا ينبغي التفكير فيها.. ولا يقوم بها إلا من غشي على عقله، فاصبح لا يدري من الأمر شيئا غير الدمار والتخريب ونشر الرعب بين الناس.

وما انفجار (الخُبر) إلا أحد هذه الاسقاطات النفسية المريضة.. وهذا بطبيعة الحال لا يهز أمن المملكة القائم على ثوابت من مرتكزات الأمن والأمان.. بل هو شر مردود على أصحابه، المخططين له والمنفذين، ومن وراءهم. نعم لقد كان هذا العمل الاجرامي المشين دليلا علي الحقد الدفين لدى البعض تجاه هذا الوطن الآمن المعطاء .. ويقيني ان عملهم التخريبي هذا سيعود مدحورا الى نحور منفذيه من الشرذمة القليلة الضعيفة.. وسيبقى (سور البلد عاليا) لا يستطيع ان يتسلقه المجرمون والحمقى.. وحتما سيكون مصير من قاموا بهذا العمل المشين الحاقد كمصير من سبقهم في انفجار العليا بالرياض وذلك تنفيذا لامر الله عز وجل في من يعثون في الارض فسادا وستبقى هذه الامة السعودية متمسكة بدينها ومليكها ووطنها.

رئيس التحرير



رسالة ناقدة، وأخرى شاكرة، مراجعات وتعليقات، نادرة وطرفة، أخبار ومتابعات، كلها وغيرها تمثل نسيج هذه الصفحات. قارىء المنهل - فيما بدا لنا من رسائله - قوي الملاحظة، دقيق الرأي ، حسن النية. أحب منهله، وأحببنا نحن ما يصدر منه في إطار - حسن النية هذا - ويجدنا القارىء اكثر حرصاً وأسعد بالرأي الناصح.

المنهل

مؤسسة الملك فيصل الخيرية .. العطاء المتجدد

في ٢٤ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ، افتتح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز مبنى مؤسسة الملك فيصل الخيرية.. وكان بداية الانطلاقة.. بداية الانطلاقة لعمل رفيع جاد .. شمل الجوانب العلمية والفكرية والخيرية الانسانية.

المساجد، المراكز العلمية، المراكز الإسلامية ، المعاهد، المدارس، مشروع مكتبات الطلاب، طباعة الكتب الإسلامية، إنشاء دور رعاية الأطفال المعاقين، إقامة المستشفيات والمستوصفات والمراكز الطبية، دعم البحوث الطبية، والمساعدة في إنشاء الجمعيات الخيرية، دعم مؤسسات أعمال البر، وتقديم الهبات والتبرعات للمسلمين عامة.. هذه جوانب من الخدمات العامة التى تقدمها هذه المؤسسة العريقة.



في عام ١٣٩٧هـ، أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل قرار مجلس أمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية بإنشاء جائزة عالمية باسم الملك فيصل.. وكانت تشمل ثلاثة مجالات هي: خدمة الاسلام، والدراسات الإسلامية، والأدب العربي.. وأضيف إليها فيما بعد الطب والعلوم .. وبهذا أصبحت الجائزة تشمل خمسة مسارات..

وتتكون الجائزة من: (شهادة براءة) تحمل اسم الفائز والعمل الذي أهله لنيل الجائزة.

- مسكوكة (ميدالية) ذهبية
- مبلغ ٧٥٠,٠٠٠ ألف ريال

ويأتي ضمن هذا العمل المعرفي والعلمي والانساني الضخم مجموعة من الاعمال الفكرية والثقافية المركزية فى دارة المؤسسة.

ومنها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية.. يعنى هذا المركز بدعم حركة البحث العلمي في مجالات بحوث ودراسات التاريخ والحضارة الاسلامية والفنون الإسلامية .. واستطاع هذا المركز تقديم اعمال ضخمة فى هذا المجال .. حيث اقتنى مجموعة من المخطوطات فى هذا المجال، وقام بمجموعة من الدراسات والبحوث، تعد لها مرجعيتها العلمية والفكرية والفنية في مجالاتها وتخصصاتها.

ومن أجل تيسير الوصول للمعلومات البحثية للدارسين والباحثين انشأ المركز قواعد للمعلومات المتخصصة.. تقدم خدماتها على أيسر الطرق تقنية..

تمتلك مكتبة المركز ٣,٥٠٠ دورية في اكثر من عشر لغات منها مجموعة كبيرة من الدوريات النادرة والمتوقفة عن الصدور، و ٦٠,٠٠٠ كتاب و ٢٦٠,٠٠٠ مقالة وبحث .. جميعها مكشفة ومصورة على مكروفيلم .. ويضم المركز ٤١,٠٠٠ مخطوطة منها ٢٣,٠٠٠ مخطوطة أصلية واكثر من ١٨,٠٠٠ مخطوطة مصورة فى مختلف العلوم والفنون.

وفي اطار المكتبات أنشأ المركز مكتبة سمعية وبصرية للاطفال ويأتى هذا العمل لاهتمام المؤسسة بالطفل وترويضه على القراءة والاطلاع وصحبة الكتاب منذ الصغر.

وتكملة لهذا النشاط الثقافي والفكري والعلمي تأتى المواسم الثقافية لتمثل حلقة متكاملة من العطاء تهتم بجمهور المثقفين الراغبين فى هذا النوع من النشاط..ويشمل الموسم الثقافي مجموعة من المحاضرات والندوات واللقاءات والمعارض..

ومحاضرات وندوات المواسم الثقافية تتناول مجموعة من المجالات المحلية والاقليمية والعالمية.. وتتناول قضايا الساعة التى تهم العالمين العربي والاسلامي ومدارسة الهموم المشتركة والواقع الماثل. عمل المركز على إبراز الجوانب القيادية والإنسانية لجلالة الملك فيصل رائد التضامن الإسلامي - يرحمه الله - وذلك بتخصيص قاعة فيه لهذا الغرض. وقد افتتحها نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - يحفظه الله - صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني، وذلك في ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ (٩ مارس ١٩٨٦م). وتحتوي القاعة على عدة أقسام عن: الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي، الجزيرة العربية وتاريخ آل سعود نشأة الملك فيصل، توليه مهام رجل الدولة، دوره في قضايا فلسطين والتضامن الإسلامي والعلاقات الخارجية للمملكة العربية السعودية، اهتمامه بالمشروعات الإسلامية في العالم، الإنجازات الداخلية في عهده، حياته الخاصة، حياة الصحراء وهواية القنص، اهتمامه بالتراث.

ولا شك ان ما قدمته «مؤسسة الملك فيصل الخيرية» من الأعمال في مجالات عطاءاتها المتعددة تعد بكل المقاييس دفعاً إيجابياً له ناتجه المستمر بإذن الله تعالى.

أما «جائزة الملك فيصل العالمية» التابعة لهذه المؤسسة فقد جاءت لتؤكد على انموذج جديد من العطاء العلمي والفكري لا يعرف الحدود، ولا يعرف التحيز والتشرذم.

ووفق الاحصاءات أصبح البعد الجغرافي للجائزة باتساع العالم كله.. فقد منحت جائزة الملك فيصل العالمية فى فروعها الخمسة منذ تأسيسها الى ١١٠ من العلماء والمفكرين والباحثين الذين ينتمون إلى ثلاثين دولة.

موسوعة عربية شاملة في ثلاثين مجلدا:

بتمويل خاص من صاحب السمو الملكي الامير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام ورئيس مجلس ادارة مشروع الموسوعة العربية العالمية تصدر قريبا اول موسوعة عربية عالمية شاملة كمشروع علمي يستهدف تحقيق المصداقية والشمولية والتوازن في تقديم المعلومات العامة الاساسية في شتى مجالات المعرفة المختلفة عربيا واسلاميا وعالميا. وتأتي الموسوعة في ثلاثين مجلدا تضم اكثر من (١٦) ألف صفحة وقد شارك في انتاجها نحو الف عالم ومؤلف ومترجم ومحرر ومراجع علمي ولغوي واستغرق تنفيذها اربع سنوات ونصف السنة من العمل الجاد والمكثف. وتشتمل الموسوعة على (١٢٠) ألف رأس موضوع ومصطلح واسم موقع وشخص وعمل أدبي وفني ومعاجم عربية وانجليزية.



* صاحب السمو الملكى الأمير سلطان بن عبد العزيز.

جائزة المدينة المنورة للتفوق العلمي والعملي



صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد يسلم الجائزة للأستاذ محمد على مغربي

لا شك أن الجوائز دائما تمثل الحافز الاكبر للجهود العلمية والفكرية والثقافية، ولها دورها الدافع لحركة التنمية في مجالاتها المتعددة.. ولقد اهتمت المملكة العربية السعودية بهذه الجوائز كعامل تحفيزي وتشجيعى لتحسين الاداء.

وجائزة «المدينة المنورة للتفوق العلمي» برعاية صاحب السمو الملكي الأمير عبد

المجيد بن عبد العزيز امير منطقة المدينة المنورة، تأتي لتؤكد هذا المضمون السامي الرفيع.

وقد كان لهذه الجائزة دورها الفاعل في تنشيط الحركة العلمية بين المتفوقين من الطلاب والدارسين، واكسبت محيط الطلاب دفعاً قوياً للإجادة.

كما أنها كان لها دورها الفاعل أيضاً فى المحيط العملي لتشجيعها الكفاءات المتميزة في الجانب العملي.

وقد فاز بالجائزة لهذا العام عدد من المتفوقين علمياً وعمليا.

اليونيسيف .. ودعم المملكة:

«اليونيسيف» منظمة عالمية، تابعة لمنظمة الامم المتحدة، تعنى بالرعاية التعليمية التربوية والصحية والاجتماعية فى العالم.

ومنذ خمسين عاماً كان لها أداؤها المتميز فى انحاء العالم.. وقد كان للمملكة العربية السعودية دورها الفاعل فى دعم هذه المنظمة العالمية.

* صاحب السمو الملكي الامير طلال بن عبد العزيز.

وجاء تأسيس «برنامج الخليج العربى لدعم منظمات الأمم المتحدة الانسانية» برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز، وبدعم سخي من المملكة ليمثل الشريك الاساسي والفاعل للخدمات الانسانية الرفيعة التى تقدمها منظمة اليونيسيف.

وبمناسبة مرور خمسين عاماً على عمل وانجازات هذه المنظمة فقد وجه الاستاذ محمد العظم الممثل المقيم لمنظمة اليونيسيف فى الدول العربية خالص الشكر والتقدير لمقام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظة الله ورعاه للدعم المادي والمعنوي الذي تقدمه المملكة لاطفال العالم والعناية المتواصلة لهذه المنظمة بهم.

اجتماع الأندية الأدبية بالباحة:

عُقد فى منطقة الباحة اجتماع رؤساء الأندية الأدبية الثانى عشر خلال الفترة من ١٥ - ١٤١٧/١/١٩هـ الموافق ١ - ١٩٩٦/٦/٥م وذلك بمقر النادى الأدبى بالباحة

واشتمل هذا الاجتماع على محور أساسي وهو «توثيق الصلات بين الأندية الأدبية والشباب» ومحور فرعي وهو «دور الأندية الأدبية فى المحافظة على قيمنا فى مواجهة التيارات المعاكسة» ومن خلال عدد من الجلسات صباحية ومسائية اتخذت مجموعة من التوصيات منها:

١ - الاستفادة من وسائل الاعلام لاعلان اهداف الاندية الادبية وبرامجها ونشاطاتها لجميع افراد المجتمع وبخاصة للشباب وترغيبهم في الحضور إلى الاندية لتنمية مواهبهم الأدبية والاستفادة من امكانات الاندية.

٢ - قيام الاندية الادبية بعمل استبانات توزع على المدارس والجامعات والكليات والمراكز المختصة لمعرفة مشكلات الشباب وسبل

معالجتها للاستفادة منها ويقوم النادي المضيف بتنظيم هذه الاستبانة بالتعاون مع الادارة العامة للاندية الادبية.

٣ - تشجيع الترجمة والعمل على نشر المترجم منه من خلال الاندية الادبية، وتضمين ذلك خططها حسب امكاناتها.

٤ - التأكيد على الالتزام بالاصالة والتراث الاسلامي الخالد في ضوء المستجدات والمتغيرات والتحذير من التغريب الفكري وضرورة الارتباط بالثقافة الاسلامية عبر وسائل النادي المختلفة التي نصت عليها اللائحة.

٥ - ضرورة اشتراك الاندية الادبية في برامج موجهة عبر وسائل الاعلام الى شباب الامة للتوعية واظهار محاسن القيم والاخلاق الاسلامية ومضار قيم الاخرين ووسائلهم في التسلل الى عقول الشباب.

٦ - ضرورة الاهتمام بالدوريات الثقافية بالاندية وتطويرها شكلا ومضمونا.

٧ - بعد النظر في الورقة المقدمة من نادي جدة الادبي بشأن طبع وتوزيع الكتاب السعودي ونشره خارج المملكة، رأي المجتمعون بأن تتولى الادارة العامة للاندية الادبية ونادي جدة الادبي استكمال الاجراءات من كافة النواحي في هذا الموضوع.

٨ - يوصي المجتمعون بتشكيل مجلس شرف لكل ناد أدبي يرأسه امير المنطقة أو محافظها بغية اعطاء النادي قيمة اجتماعية ودعما ماديا والتنسيق من قبل النادي بهذا الشأن مع الجهات اللازمة بالمنطقة والرئاسة العامة لرعاية الشباب وكذلك يقوم النادي باقتراح لائحة لهذا المجلس وعرضها على الرئاسة «الادارة العامة للاندية الادبية».

سؤال الى علماء اللغة: أسماء الله الحسنى..

الحافظ لأسماء الله الحسنى .. التسعة والتسعين اسما يجد أفعالها الثلاثية يتراوح اشتقاقها بين الفاعلية (فاعل) وصيغة المبالغة (فعيل وفعول وفعّال).. وهنا نسأل علماء اللغة الأجلاء - بعد ان خاب ظني ولم أقف الا على القليل القليل الذى لا يشفي الغليل - ونقول: لِمَ لم يشتق من بعض الأفعال الثلاثية على زنة (فعول وفعّال) مثل الرحيم والعزيز والقابض والباسط والخافض والرافع والبصير واللطيف والخبير والحليم والعظيم والكبير والرقيب والحكيم والمجيد والشهيد والوكيل والرشيد... الخ.

ثم أخيرا وليس آخراً لِمَ لم يشتق من بعض الأفعال الثلاثية على زنة (فعيل) مثل الجبار والخالق والرازق والفتاح والقابض والغفور والشكور والصبور والنافع .. الخ.

ولِمَ لم يشتق من بعض الافعال الثلاثية ايضا على زنة (فاعل) مثل اللطيف والحليم والعظيم والحكيم والوكيل...الخ.

ثم أخيراً وليس آخراً لِمَ لمْ يُشْتق من بعض الأفعال الثلاثية على زنة (فعيل) مثل الجبار والخالق والرازق والفتاح والقابض والغفور والشكور والصبور والنافع.. الخ.

يتضح مما سبق أن بعض الافعال الثلاثية تشتق على فاعل .. وبعضها على فعيل وبعضها على فعول وبعضها الآخر على فعّال.. وهي غير مطردة فى كل الأفعال.

والسؤال الذى نطرحه هنا؟ لِمَ لم يشتق من كل فعل ثلاثي الأوزان الأربعة المشار اليها؟

فيا أهل اللغة أفيدونا أثابكم الله وجزاكم خيراً - فقد كلَّ متني وانقصف يراعي وتهت فى تيهاء يضلُّ فيها السارى ويشلّ فيها الجاري..

هذا، ولا يصحّ الجواب الشافى بحال، ان يقول القائل أنها اشتقاقات وأوزان سماعية لا قياس فيها ولا اطراد.. أو يقال إنها أوزان توقيفية لا يجوز تجاوزها الى غيرها. ومثل هذا الجواب أو ذاك لا يبلّ ظمأ ولا يشفى غليلا. وفوق كل ذي علم عليم، .. والسلام.

(ع ٠ أ/ القاهرة)

إعلان أسماء الفائزين بجائزة علي وعثمان حافظ الصحافية:

اعلنت هيئة امناء جائزة علي وعثمان حافظ الصحافية عن اختيارها للفائزين في فروع الجائزة لعام ١٩٩٥.

واعلن رئيس هيئة الأمناء هشام على حافظ ان الهيئة اختارت بالاجماع الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش لجائزة مفكر العام، وهى عبارة عن ميدالية من الذهب الخالص وجائزة نقدية قيمتها ١٠ آلاف دولار اميركي.

ويتم اختيار الرئيس بيجوفيتش للجائزة بعد استعراض كتابه «الاسلام بين الشرق والغرب» وهو بحث علمي فلسفي، يعد من افضل الكتب التي تعرض الاسلام لغير المسلمين بأسلوب ومنهج قوي الحجة، ويمايز الاسلام تمييزا واضحا عن كل الأديان والأيديولوجيات قديمها وحديثها.

كما اختير ايمن حبيب نائب رئيس تحرير جريدة «عكاظ» السعودية، فائزا بجائزة التحقيقات الصحافية لسلسلة التحقيقات الميدانية المصورة في ٢٠ حلقة عن الحرب في الشيشان والتي نشرت في جريدة «عكاظ» السعودية.

وتم اختيار شيخة الفهد الزعبي، فائزة بجائزة الحوار الصحافي، عن سلسلة اللقاءات التى اجرتها مع سجينات أمن الدولة في الكويت ونشرت في مجلة «سيدتى» اللندنية.

واختير الدكتور جمال بدوي لجائزة المقال الصحافي عن مقالاته عن تطويع السياسة الاميريكية لصالح العرب والتي نشرت في جريدة «الوفد» المصرية.

واختير الدكتور عاصم حمدان لجائزة العمود الصحافي عن عموده الذي ينشر بجريدة «المدينة المنورة» السعودية.

كما اختير جلال الرفاعي لجائزة الكاريكاتير، عن رسومه المنشورة في جريدة «الدستور» الأردنية.

وقد قررت هيئة الأمناء الاعلان عن مجالات الجائزة لعام ١٩٩٦ واضافة مجال جديد يتعلق بـ «الدراسات والبحوث الأكاديمية لنيل رسالتي الماجستير والدكتوراه المقدمة عن الصحافة للجامعات» والتي يقدمها باحثون عرب سواء لجامعات عربية او غير عربية.

جائزة الايسيسكو للإبداع الأدبي النسوي:

أعلنت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، عن إنشاء (جائزة الايسيسكو للإبداع الأدبي النسوي)، تخصص لأحسن عمل أدبي، ويقدم في شكل مقالة أدبية، أو قصة قصيرة، بإحدى اللغات الثلاث: العربية الإنجليزية الفرنسية، التي هي لغات عمل المنظمة الإسلامية.

وتهـدف (جـائزة الايسـيسكو للإبداع الأدبي النسـوي)٠ إلى تمكين المرأة في العـالم الإسـلامى من ممارسـة دورها الأدبي في المجتمع الاسلامي، وتشجيعها على الاهتمام بالإبداع الأدبي، وحثـها على المشاركة في الحياة الأدبية٠

ويشترط ألا يكون النص المرشح قد سبق نشره، وألا يتجاوز عشر صفحات مرقونة٠

وحدّدت المنظمة الإسلامية نهاية شهر أغسطس ١٩٩٦، آخر موعد لقبول الترشيحات٠ وسيتم الإعلان عن أسماء الفائزات الثلاث في يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٩٦ وستقدم لهنّ شهادة ومكافأة مالية٠

وستقوم المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بترجمة النصوص الثلاثة الفائزة ونشرها ٠

وترسل الترشيحات إلى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - ايسيسكو - ص٠ب: ٢٢٧٥ الرمز البريدي ١٠١٠٤ حي الرياض - الرباط - المملكة المغربية٠

الضحك .. يغسل النفس:

منذ القدم صنفت الضحكات الى الوان وانواع كالضحكة الصفراء والضحكة الرنانة والباهتة والمجلجلة، وفي العصر الحديث نصح الاطباء الناس بالابتسام والضحك فالابتسامة تحرك ١٢ عضلة والضحك يغسل القلب من اوجاعه وهمومه ومؤخرا ادخل العلماء البسمة والضحكة الى المختبر فقد بيَّن دكتور كارستن نيميتيز من الجامعة الحرة في برلين ان الضحكة تكون ودودة وصافية اذا توفر فيها شرطان: الأول ان ينفرج الفم بسرعة والثاني ان تغلق العينان لثوان قليلة بمجرد وصول الضحكة الى ذروتها٠

وفعلا قام دكتور نيميتيز ومساعدوه بتصوير الناس في الطرقات وهم يضحكون بطرق مختلفة وبعدها تم تصنيف الضحكات الى ضحكة صادقة جدا وضحكة مصطنعة وضحكة غير صادقة على الاطلاق وخرج الباحث بالنتائج التالية:

* اغماض العينين اثناء الضحك دليل على الضحكة الصادقة٠

* الضحكة الصادقة لا تدوم اكثر من ٧ ثوان وكلما طالت فترة اغماض العينين قلت درجة الصدق٠

رسالة:

سعادة رئيس تحرير مجلة «المنهل» الغرَّاء:

أما بعد:

فإني طالب في «المعهد القومي للغات والحضارات الشرقية» بباريس، وإنِّي أتهيَّأ هذه السنة - إن شاء الله تعالى - لنيل شهادة «الباكالوريوس» في اللغة العربية٠

وقد سبق لي أن اطلعت - عن طريق الإعارة من أحد أساتذتي - على بعض أعداد «المنهل» خصوصا العدد السنوي (١٤١٦هـ) الخاص بالنقد، فلقد استعنت ببعض ما جاء فيه من بحوث ودراسات، فلكم مني سلفا الشكر الجزيل٠

ولهذا، فإني أصارحكم بأن «المنهل» قد وقعت مني موقع الرضا والقبول، وأصبحت لي الساعد الأيمن في ترقية مستواي في مجال اللغة العربية٠

وبالتـالي، فـإني ألتـمس منكم أن ترسلوا لي أعدادها باستمرار متواصل، خدمة منكم لطلاب اللغة العربية في البلاد الأوربية، ووفاء لمحبيها ومنشديها، والله تعالى وحده يجزيكم على خدمة هذه اللغـة العظيـمـة، ونشـرها في كل مكان وزمان.

وفي الختام، إني لفي انتظارها بلهف وشوق شديدين، خصوصا تلك الأعداد التي سبق وأن نشرت فيها المواضيع التالية: (الأثر والآثار/ رمضان - شوال ١٤٠٧هـ)، (الإستشراق والمستشرقون/ رمضان - شوال ١٤٠٩هـ)، (اللغة العربية .. آفاق مستقبلية/ شوال - ذو القعدة ١٤١٣هـ).

حفظكم الله تعالى ورعاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محبكم: عبد الغني بن علي

باريس/١٤١٧/١/١٦هـ

**** بكل التقدير يصلكم المنهل على عنوانكم .. ونحن سعداد بكم وأمثالكم.**

رسالة:

سعادة رئيس تحرير مجلة المنهل..

يسعدني ويشرفني أن أحييكم من كييف عاصمة أوكرانيا وأحيي عن طريقكم كل أعضاء هيئة التحرير والقراء الكرام.

أناشدكم أن تنشروا في ركن بريد القراء ندائي وطلبي التالي إلى القارئات لعلهن يساعدنني في الحصول على مجلتكم لأنني لا أملك ثمن الإشتراك وأتمنى قراءتها باستمرار.

.... طلب من طالبة روسية ....

أيتها القارئات المحترمات:

أنا طالبة روسية عمري ٢٧ سنة أدرس العربية وأعرفها وأحب المطالعة بها لإتقانها. ونظرا للندرة الشديدة للمجلات والجرائد العربية في كييف فإنني أناشدكن أن تتفضلن بإرسال مجلتكن الغراء إليَّ بعد قراءتها ومن جهتي بإمكاني أن أرسل إليكن الطوابع أو البطاقات البريدية أو الأوراق النقدية الروسية أو الأوكرانية أو أية هدايا أخرى.

من جهة ثانية فإنني أدعو القارئات الكريمات إلى المراسلة والتعارف وتبادل الزيارات والكتب والمجلات والآراء. عنواني للمراسلة:

TRAVNIKOVA OXANA,
BOX: 7268, KIEV - 34,
UKRAINE.

ولكم وللقراء الكرام كل الشكر والتقدير والإحترام.

ترافنيكوفا
أوكسانا

**** هذه الرسالة مكان تقديرنا، وبخاصة انها آتية من بلاد كم وددنا أن نكون على اتصال فكري وثقافي بها.**

ونسعد باطلاع هذه القارئة الكريمة على مجلة المنهل وقد أرسلنا لها على عنوانها مجموعة من اعداد مجلة المنهل .. نتمنى ان تكون هذه

المجموعة سبيل تواصل فكري وثقافي.

- المنهل -

رسالة:

سعادة الاستاذ نبيه الأنصاري - الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وصلني العدد السنوي الخاص من مجلة العرب الادبية (المنهل) رقم ٥٣٠ المجلد ٥٧ وهي نسخة قيمة وتبحث عن النقد الفني والفكرى في مجال الثقافة والفنون وهو الجانب المجهول في العالم العربي وخاصة في الوسط الفني المحلي والعربي ومثل هذه المؤلفات الثقافية والتي تحمل آراء النقاد من اهل الفكر والثقافة المعروفين لها اكبر الاثر في نشر الوعي الفني الثقافي وتطوره وتناوله للاهداف العالمية والانسانية والتاريخية من خلال المعرفة والتجربة والخبرة وحيث ان المجال التشكيلي بأمس الحاجة لمثل هذا النقد البناء وخاصة التعريف بالمدارس المتطورة التي لازالت قيد الدراسة والفهم والبحث عن الجواب الشافي للنقد العلمي في العالم العربي.

وحبذا لو وجد باب مخصص للنقد يستعان فيه باصحاب الخبره في مجال النقد الثقافي والفني والعلمي لوضع النقاط على الحروف في المجالات المختلفة.

وختاما اشكركم على هذه الهدية الرائعة واني على اتم الاستعداد معكم اذا رغبتم في التعاون معكم فيما اقدر عليه وما اتمكن من تقديمه.

وتفضلوا بقبول تحياتي وتقديري.

اخوكم/ د. عبد الحليم رضوي

**** هذه الرسالة الكريمة تطرح موضوعاً في غاية الأهمية، وهو موضوع (النقد الفني) نقد الاعمال التشكيلية في كل ميادينها.**
ولقد سبق لمجلة المنهل أن أصدرت عدداً خاصاً عن (الفن) في عام ١٤٠٤هـ ورسم غلافه الفنان البروفيسور عبد الحليم رضوي، تناولت دراساته وبحوثه مجموعة من موضوعات الفنون، وفي مقدمتها الفن التشكيلي.. ونحن نسعد هنا بمقترح الفنان البروفيسور عبد الحليم رضوي.. ونضم جهدنا لجهده في محاولة جادة لاصدار عدد خاص عن (الفن التشكيلي).. ويظل رأى وجهد الاخ البروفيسور رضوي مكان اكبارنا وتقديرنا.

كتب واصدارات:

** صدر مؤخرا كتاب بعنوان «المدخل الى البحث اللغوي» للدكتور/ محمد السيد على بلاسي وفيه يجيب عن تساؤلات محيرة تصادف كثيرا من الباحثين وشداة العربية ومحبيها، تتعلق بـ: مناهج البحث اللغوي والطريقة المثالية فى كتابة البحوث اللغوية وأصول



تحقيق المخطوطات وأهم المصادر فى البحث اللغوي ومؤلفيها، على طول مسيرة الفكر اللغوي.

ويحتوي الكتاب على ثلاثة مباحث:

الأول عنوانه: (بين البحث والتحقيق) وفيه تحدث عن ثلاث قضايا:

١ ـ البحث اللغوي: من حيث مدلوله.

٢ ـ الطريقة المثالية فى كتابة البحوث اللغوية.

٣ ـ أصول تحقيق المخطوطات.

والمبحث الثانى تحت عنوان (مناهج البحث اللغوي)

أما المبحث الثالث بعنوان (عالم .. وكتاب) وبه ختم المؤلف كتابه حيث تناول فيه التعريف ببعض المؤلفات الرائدة عن البحث اللغوي.

ويعتبر هذا الكتاب القيم بهذا التناول الذى اعتمد على الأسلوب السهل الميسر، والعرض الشيق البعيد عن التعقيد والتقعير، إضافة جديدة فى مكتبة الدراسات اللغوية أشد ما نكون فى حاجة إليها فى ظل تراجع العلم بلغتنا العظيمة.



** «عبد العزيز بن ابراهيم الابراهيم» كتاب من تأليف الدكتور عبد الله بن سعيد بن احمد أبو راس.. تحت سلسلة (رجال حول الملك عبد العزيز) الكتاب فى طبعته الاولى ١٤١٦هـ فى مجلد بلغت صفحاته ٥٠٠ صفحة ومعلوم أن الأمير عبد العزيز بن ابراهيم آل ابراهيم كان له دوره البارز في المجالات الإدارية والعملية في المملكة .. وقد تولى مجموعة من الاعمال وكان اميرا لمجموعة من المدن .. وحياته تشكل نمطاً من العطاء رائعا.. في هذا الاطار جاء هذا الكتاب ليسجل جانباً من تاريخ حياته وعطاءاته.والكتاب ـ ايضاً ـ يلقي الضوء على واحد من الرجال الذين حظوا بثقة .. الملك عبد العزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ وعملوا معه فى مراحل توحيد المملكة وتأسيسها من خلال المناصب العديدة التى تقلدها.

** «التاريخ والمؤرخون بمكة» من القرن الثالث الهجري الى القرن الثالث عشر الهجري .. جمع وعرض وتعريف .. الكتاب تصنيف الأستاذ محمد الحبيب الهيلة.. أستاذ الدراسات العليا التاريخية والحضارية بجامعة ام القري بمكة المكرمة.

الكتاب جهد كبير مقدر .. وعمل موثق عظيم يفيد منه الدارسون والباحثون ويسهل عليهم كثيراً من عناء البحث.. وفوق هذا يعد الكتاب تسجيلا رائعا لاعلام مكة المكرمة من

رسالة:

من جمهورية بنين الشعبية في أقصى غرب أفريقيا، تأتينا هذه الرسالة، رسالة إكبار وتقدير للمنهل ورسالتها.. والمنهل يسعدها هذا التواصل الفكري والثقافي.. ونسعد باهداء الشيخ احمد تيجانى هارون عبد الكريم مجموعة من أعداد المنهل مع اهدائه اشتراكاً لمدة عام كامل.. هذا مع خالص الشكر والتقدير.

Ahmed Tidjani Haroune A.Karim
B.P. 126 Djougou Province D, Atacora
République populaire Du Benin
No.
Date:

أحمد تيجاني هارون عبد الكريم
ص ب: ١٢٦ جوغو - محافظة أتاكورا
جمهورية بنين الشعبية
الرقم
التاريخ ١٦ / ١٢ / ١٤١٦هـ.

سعادة الأخ الأستاذ / نبيه بن عبد القدوس الأنصاري صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل للآداب والعلوم والثقافة - حفظه الله ووفقه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحية طيبة مباركة أزفها إليكم من أرض بنين داعيا المولى القدير أن يصلكم هذا الخطاب وأنتم وجميع أسرتكم وأهليكم في أحسن الحال وبعد:

فيسعدني أن أحيطكم علما أنه وقعت بين يدي مجلتكم الغراء «المنهل» العدد ٥١٠ شوال ذو القعدة ١٤١٤هـ ابريل - مايو ١٩٩٤م، والمهداة إلى جمعية الحاج بابا الاسلامية الخيرية في بنين وقد حوت تلك العدد الموضوعات الثقافية والأدبية والفكرية لكبار كتاب العصر وباحثيه ولاشك أنكم بهذه الخدمة من خير الجنود على خير الثغور تحرسون في الساحة الجهاد تسابقون إليه وتسارعون في سبيله. فالله أسأل أن يكتب لهذه المجلة مزيدا من التقدم والازدهار الدائمين لمواصلة عطائها في مجال الأدب والعلوم والثقافة ولتحتل مكانتها اللائقة من بين المجلات العالمية الراقية. انه تعالى سميع مجيب.

وأنتهز هذه الفرصة لأطلب من سعادتكم الموافقة على ادراج عنواني في قائمة المشتركين على نفقتكم الخاصة لمدة سنة أو سنتين أو الى ماشاء الله تتفضلون علي رسوم الاشتراك من بحر كرمكم وعطائكم الخاصة حتى يتسنى لي الحصول على هذه المجلة والاستفادة منها وذلك اعتبارا من العام الهجري الجديد ١٤١٧هـ وهذا غاية طلبي اليكم وأملي كبير في أن ينال هذا الطلب رضاكم وموافقتكم، كلل الله مساعيكم بالنجاح والتوفيق.

ومرة أخرى أقدم لشخصيتكم فائق الاحترام والتقدير والتهاني العاطرين في تطلع المجلة [illegible] والتحيات والله يحفظكم ويرعاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المرسل: الشيخ أحمد تيجاني هارون عبد الكريم
من جمهورية بنين - غرب أفريقيا

العلماء خلال عشرة قرون.. جاء الكتاب في (٥٠٠) صفحة.. وترجم لـ (١٨٧) مؤرخاً وعالماً.. احتوى الكتاب على فهرس اعلام المؤرخين المكيين.. وفهرس المؤلفات التاريخية للمكيين.

** «الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة» فى المملكة العربية السعودية ـ تأليف الدكتور مسعد بن عيد العطيوى، ومن اصدارات نادي القصيم الأدبي ببريدة.. الطبعة الاولى ١٤١٥هـ احتوى الكتاب على اربعة فصول اساسية تناولت: مراحل القصة القصيرة (ثلاثة مراحل).. البناء الفني.. الاتجاهات الفنية .. اما الفصل الرابع فقد تناول دراسات فنية لبعض المجموعات القصصية حيث اختار دراسة (١٧) قصة.

استطلاع مصور:

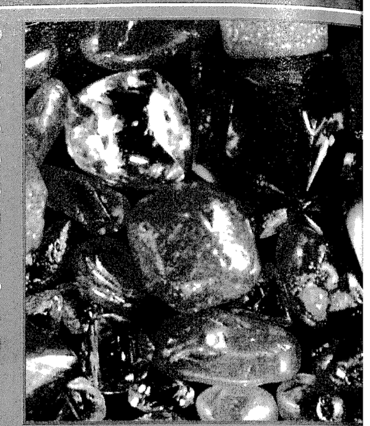


الماس

- ما الفرق بين الرصاص الموجود في قلم الرصاص الذى تضعه على مكتبك وبين الماس الثمين؟

إن الفرق هو بضعة ملايين من الدولارات، رغم أن رصاص قلم الرصاص هو شكل من أشكال الجرافيت، والجرافيت والماس كلاهما كربون نقى، وإليك القصة من البداية.

منذ حوالي ثلاثة بلايين سنة والكربون الموجود تحت سطح الأرض يتعرض لحرارة وضغط هائلين، فإذا حدث وتعرض هذا الكربون لانفجار بركانى يدفع به إلى السطح خلال فتحات صخرية طويلة يتعرض فيها للبرودة السريعة، أى أنه يتعرض لتغيير هائل ومفاجىء فى درجة الحرارة، هذا التغيير يعيد صهر ذرات الكربون فى بلورات رباعية الجوانب وهي بلورات الماس، أما إذا خرج الكربون إلى السطح ببطء فإنه يبرد تدريجيا ويصبح مجرد مادة الجرافيت.



وقيعانها بالآلات الضخمة ويفحص الرمل باليد بحثاً عن الماس، وفي بعض المناجم غير القانونية في انجولا تتم العملية كلها باليد حيث يغربل الرمل والماء بغرابيل يدوية، أما في ناميبيا فهناك آلات ضخمة تدفع بالرمل الموجود قرب أحد شواطئها إلى اليابس حيث يبحث فيه عن الماس، أما على بعد خمسة أميال في البحر، فهناك سفن مزودة بآلات شفط تستخرج الرمل من القاع ثم يغربل بحثاً عن الماس الثمين.

مصطفى غنيم
- الكويت -

والبحث عن الماس يتم في العروق التي اندفع فيها الكربون السابق على عمق قد يصل إلى بضعة مئات من الأقدام، ومن الممكن أن يوجد الماس في الطبقات الطينية التي انجرفت بعيداً عن مكانها الأصلي بفعل مياه المطر أو الأنهار، وفي المناجم الكبرى للماس في سيراليون مثلا تقلب ضفاف الأنهار

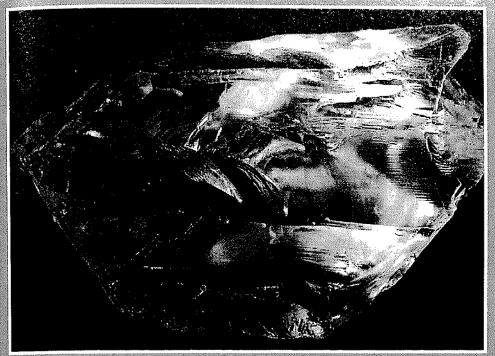


ماسة الأمل [illegible] زرقاء تزن ٤ر٥٢ قيراطاً، أتت من الهند في القرن السابع عشر

صناعة الماس والماس الصناعي:

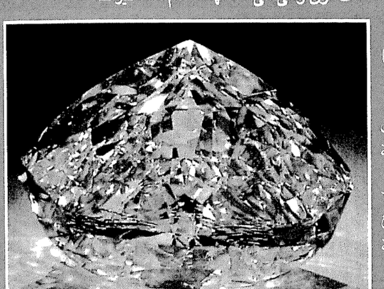
إن الماس لا تستعمله نجمات السينما والثريات المقبلات على الزواج فقط، ففي الواقع نجد أن نصف إنتاج الماس العالمي يستخدم في الصناعة، وهم طبعاً يستخدمون البلورات ذات الخصائص الجمالية القليلة. إن الماس هو أصلب المواد المعروفة في الطبيعة وهو موصل رائع

للحرارة حيث تفوق قدرته قدرة النحاس خمس مرات، ويستخدم الماس فى القطع والثقب والطحن وفى تغطية بعض الأسطح الدقيقة لتقويتها حتى لا تكسر، ولكى نوضح استخدام الماس فى الصناعة، يقال إن كل سيارة فى العالم قد استخدم فى تصنيعها ربع قيراط من الماس الصناعي.



ماسة «العيد المئوى» والتى عثر عليها فى جنوب إفريقيا. كانت تزن وهى فى حالتها الخام ٥٩٩ قيراطاً

وفى الطب يستخدم الماس فى صناعة مشارط الجراحة فائقة الحدة وفى صناعة الكمبيوتر يستخدم فى الإبعاد السريع للحرارة من الشرائح الدقيقة الحساسة.

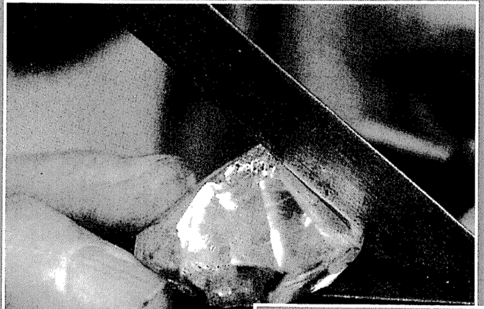


أكبر ماسة فى العالم رغم أنها فقدت نصف وزنها تقريباً فأصبحت ٢٧٣ قيراطاً فقط

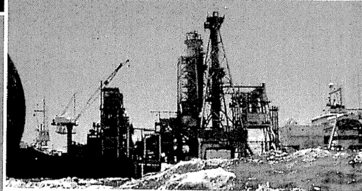
ونتيجة لزيادة الطلب على الماس فى الصناعة، كان لابد من استخدام ماس لا يأتى من المناجم وإنما من المصانع، فقد بدأ انتاج الماس الصناعى منذ الخمسينيات من هذا القرن ويتم تصنيعه بطريقة معقدة توفر الضغط والحرارة التى يحتاجها الماس الطبيعى فى باطن الأرض، وهذا ليس بالأمر السهل فهو يتطلب حرارة تصل إلى ألف درجة مئوية وإلى ضغط رهيب، ومع هذا فالماس الصناعى يصلح فقط فى الصناعة ولا

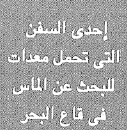


ـ العمل داخل أحد مناجم الماس الذى بدأ استغلاله عام ١٨٩١ ولا يزال ينتج حتى الآن



عملية قطع وصقل الماس ليصبح قطعة مجوهرات رائعة





إحدى السفن التى تحمل معدات للبحث عن الماس فى قاع البحر

يصلح للزينة.

تجارة الماس:

في أحد أطراف مدينة لندن تقع شركة دي بيرز وهي مركز تجارة الماس في العالم حيث تمتد امبراطورية هذه الشركة من جنوب إفريقيا إلى استراليا إلى لندن، وتحتكر تجارة الماس العالمية؛ فهي التي تدير مناجمه وتحدد أسعاره وتسوقه وهذه الشركة عالم مغلق ومعقد له قوانينه وقواعده التي وضعت على مدى يزيد عن ستين عاماً. وفي مقر هذه الشركة توجه الدعوة عشر مرات في العام إلى ١٦٠ تاجراً إلى حضور ما يسمى «الرؤية»، وعندما يصلون إلى مقر الشركة يؤخذون إلى حجرة يقدم لهم فيها صناديق مليئة بالماس الخام، ويقتضي بروتوكول الشركة ألا يرفض هؤلاء التجار أحجاراً معينة مما يعرض أمامهم: فإما أن يشتروا المجموعة كلها أو لا يشترون شيئاً على الإطلاق، وبالتالي يحتمل عدم دعوتهم مرة ثانية إلى هذا الإجتماع، وما إن يشترى هؤلاء التجار الماس، فإنه يرسل لكي يقطّع ويصقل في الهند أو بلجيكا أو امريكا أو اسرائيل، ومن هناك يباع لتجار الجملة ثم ينتهي في محلات المجوهرات حيث تتهافت عليه النساء من عِلْيَة القوم.



عملية تصنيف الماس اعتماداً على القطع واللون والشفافية والوزن



ملكة بريطانيا وهي تتزين بالتاج المرصع بالماس وغيره من القطع الماسية الثمينة


الفيصل

لواعج نفس

شعر:
عبد الله بن سليم الرشيد ـ
الرياض ـ

أأقضي ولم أبلل فؤادي بضحكة
لها حنة في خاطري ورنين؟
إذا ضحكة زلت عن الثغر ساعة
فأقصى صداها أن يُسَرَّ قرين
وما ضحكي للناس إلا توددا
فحشو ضلوعي كربة وشجون
إذا حرك الإيناس أوتار خافقي
عراها ـ فلم يفسح مداه ـ سكون
وإن عرجت بي للسعادة خطرة
وصعّد شوق للسماء هتون
تنبّه في الأحشاء وجد معتّق
وإذ بالمنى بين الضلوع سجين
نهاريَ: وجه ينضح البشر طائعا
وليليْ: أمان جمّة وظنون

* * *

بدأت جنينا في حــيــاتي قــاصــرا

وإنــي غــــدا تحت الـتـــراب جـنـين

فــمــا لي قطعت العـيش ركـضـا لغـاية

بهــا يســتــوي حــاوي العــلاء ودون!

أهيم وأســتــدني غــدي، ولربمـا

غــفــوت، وأحــلامـي لـهنّ طـنـين

فــيــذهلُ ندمــاني، ويـيـأس عــاذلي

ولي عنـهـمُ - لو يشــعــرون - شــؤون

* * *

حـنـانيك يـا ربـاه، مــازلت مــؤمـنـا

بـإيمـانـه - عـن أن يـضـــام - ضـنـين

وإن عكّرت صــفــو اليــقين شكاية

فلي بعــدُ في العــفــو العظيم يـقين

فــهب لي من نعــمــاك يا خــيــر منعم

فــإني بما تقــضي علـيّ رهـين

الشريعة الإسلامية وستر عورات النساء

المستشار محمد سعيد العشماوي، بذل جهداً خارقاً في مشروعه الداعي إلى إقصاء احكام التشريع الإسلامي عن حياة المسلمين.. ولا يهمه في سبيل الوصول الى غايته هذه إن خالف منطق العقل السوي، ومحكم التنزيل.. وذهب في أباطيله هذه مذاهب شتى.. فحينا يقول بروحانية الدين الاسلامي فقط، ليبعد عنه التشريع المنظم لحركة حياة الناس.. وحيناً آخر يقول بتوقيت التشريع، حيث ينتهي منطوقه بوفاة الرسول [صلى الله عليه وسلم].. وحينئذ يشرع البشر لأنفسهم، وحيناً يدعي أن بعض الاحكام جاءت مرتبطة بعلتها، وقد زالت بزوال علتها.

وفي النهاية نجده يطلق مصطلح (تسييس الدين) لينزع عن الدين الإسلامي كل خواصه التشريعية.

هذه النقاط وغيرها أثارت غيرة الأستاذ الدكتور محمد عمارة على دينه، فكان منه هذه السلسلة من الردود العلمية الموثقة على اباطيل العشماوي.. وهي ردود تضع الامور في نصابها.

وهذه الردود القيمة أفدنا منها كثيراً وأفاد منها القارئ..

والمنهل إذ يشكر الاستاذ الدكتور عمارة على جهده الموفق هذا، يتمنى دوام تواصله مع منهله وقراء منهله الذين يترقبون دراساته في كل عدد.

أفكار مثيرة للجدل (٨)

(الحلقة الأخيرة)

بقلم المفكر الاسلامي:

أ.د. محمد عمارة

* إن العامل الفاعل فى استدعاء تغير الأحكام ليس مجرد «مرور الزمن» ، وإنما هو توفر شروط إعمال الحكم فى الواقع .. فالحكم الواحد قد تتوفر شروط إعماله فى واقع، وتنعدم شروط إعماله فى واقع آخر، بذات «الزمن».. وقد تتخلف شروط إعماله فى الواقع بالزمن الجالى، ثم تعود فتتوفر شروط الإعمال بزمن قادم. واعتبار «الزمن» - على نحو ما يقوله عشماوى من جعل زمن وفاة الرسول {صلى الله عليه وسلم} ، حدا فاصلا بين شرعيتين - وجعل عهد عمر حدا فاصلا بين إعمال عام وشامل لحكم، والوقف العام والشامل له - هذا الاعتبار «للزمن» فى تغير الأحكام ، يعنى تجاوز كل الاحكام التى جاءتنا من أزمنة سابقة - إلهية كانت أو وضعية.. وينقض هذا الرأى: اعتبار الاسلام «شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ»، أى ما لم يجدّ واقع تتخلف فيه شروط إعمال أحكامها.. بل لقد تعامل الاسلام بهذه الروح وبهذا المنطق مع شرائع كانت سائدة فى الجاهلية العربية.. فلم توقف «لحظة» انبثاق الوحى وشريعته كل ما قبلها.. ثم لماذا يتخطى الزمن - فى رأى العشماوى - صلاحية القواعد

والأحكام الاسلامية؟٠٠ ولا يتخطى - في رأيه - قوانين الرومان؟!٠٠ والنص الذى استشهد به العشماوى من ابن عابدين - لو فقهه العشماوى - لوجده شاهدا عليه، لا معه!٠

فابن عابدين يتحدث عن تغير «الأحكام» عندما يجعلها الواقع المختلف لا تتسق مع «القواعد الشرعية» ٠٠ بينما العشماوى لا يقف عند طلب تغيير «الأحكام» وإنما يتحدث، أيضا، عن تغيير «القواعد» بل وإلغاء «الشرعية الالهية»!٠٠ فتغيير الأحكام الذى يتحدث عنه ابن عابدين، انما يتغيا إعمال «القواعد» والاتساق معها، لا إلغاءها - كما هو مطلب العشماوي!٠ ثم إن ابن عابدين يتحدث - فى أسباب تغير الأحكام - عن «اختلاف الزمان» وعن «فساد الزمان»، وليس عن مجرد «مرور الزمان»؟!٠٠ ويتحدث عن «تغير العرف» و«حدوث الضرورة»، اى عن متغيرات فى الواقع لا تتوافر معها شروط إعمال وتطبيق الحكم٠٠ ومن ثم فإذا ارتفعت هذه المتغيرات، وتوافرت شروط إعمال الحكم ثانية عاد الأمر إلى حال الإعمال والإقامة والتطبيق للأحكام ٠٠ وليس الأمر امر «مرور زمن» يطوى - مجرد مروره - شرعية إقامة الأحكام الثوابت والحدود التى نص عليها القرآن٠٠ وذلك فضلا عن «القواعد» الحاكمة٠٠ و«الشرعية الإلهية» التى يريد العشماوى عزلها عن عرش الحاكمية فى القواعد والأحكام!٠٠

تطبيق الحكم وإعماله أو العكس مرتبط بمتغيرات الواقع

* ويتقدم العشماوى على درب «توقيت الأحكام القرآنية» و«التشريعات الالهية» ليدعو إلى أن لا تلتزم المرأة المسلمة بما نصّت عليه الآيات القرآنية من ستر عوراتها بالخمار والحجاب٠٠ رابطا هذا التشريع الإلهى بوقت لم تكن فيه منازل المسلمين بالمدينة تحتوى على «الكنف والمراحيض»، فكانت النساء يخرجن لقضاء حاجاتهن فى الخلاء ٠٠ وكان بعض الفجار يتعرضون للإماء أو العاهرات بما تتأذى منه الحرائر، فطلب الاسلام من النساء الحجاب والاختمار ليتميزن عن الإماء، حتى لا يتعرض لهن أحد بما يؤذيهن٠ والمستشار عشماوى يرى أن علة التشريع للحجاب وستر عورات النساء كانت التميز عن الإماء عند الخروج لقضاء الحاجة فى الخلاء٠٠ وأما وقد اصبحت فى البيوت مراحيض، فقد زالت علة التشريع، ولا بأس على النساء المسلمات من سفور يكشف بعض العورات؟!٠٠ يقدم المستشار عشماوى «اجتهاده» هذا فيقول:

«وقد كانت عادة العربيات التبذل، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء والعاهرات، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن٠ وكن يتبرزن فى الصحراء فى عهد التنزيل - [لاحظ ربط التنزيل بالتبرز فى الصحراء!] - قبل أن تُتخذ الكُنُف (دورات المياه)٠ فكان بعض الفجار يتعرضون للمرأة أو الفتاة من المؤمنات على مظنة أنها أمة أو عاهر، فشكوا ذلك إلى النبي {صلى الله عليه وسلم}، ومن ثم نزلت الآية {يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفنَ فلا يؤذَينَ} (الاحزاب/٥٩)٠ فالقصد من الآية ليس فرض زي إسلامي، ولكن التمييز بين الحرائر من جانب والإماء والعاهرات من جانب آخر٠ فالزى - من ثم - كان إجراء مؤقتا لعدم وجود دورات للمياه فى المنازل، واضطرار الحرائر المؤمنات إلى الخروج إلى الصحراء بعيدا عن المدينة لقضاء الحاجة، وتعرض بعض الفجار لهن، مما اقتضى تمييزهن

العشماوي ينحت في الصخر لأجل «توقيت الأحكام القرآنية»

عن الإماء والعاهرات بزي معين (لكي يُعْرفن) فلا يؤذيهن أحد٠

وإذا كان الفقهاء يقولون: إن الحكم يرتبط بالعلة وجودا وسببا، فإن زوال العلة في الحكم السابق - ووجود دورات مياه في المنازل، وعدم التعرض لأنثى بناء على زى أو غير زى - ذلك مما يعني زوال الحكم بزوال سببه، فهو حكم وقتي مرتبط بظروف معينة، ومنوط بوضع خاص، ومتى زال الوضع وتغيرت الظروف تعين وقف الحكم٠٠ وأما ما جاء في الآيات [قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون٠ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرِهنَّ على جيوبهن} (النور/ ٣٠ - ٣١)، من الضرب بالخُمُر على الجيوب، فهو تأكيد لفكرة التمييز بين الحرائر والإماء والعاهرات من جانب آخر»[١]٠

وقبل أن أناقش هذا «الكلام العشماوي» ، أود الاشارة إلى أن هناك من سيعيب علينا الوقوف - بمجرد الوقوف - عند هذا «الكلام» ٠٠ لكن ٠٠ ما حيلتنا ونحن في زمان يجد مثل هذا «الكلام» له «كاتبين» و«ناشرين»، بل وصحفا ومجلات تشيع فحشاءه بين جماهير من القراء - الذين وإن رفضوه بفطرتهم التي لم تفسد ٠٠ فقد لا يملكون مفاتيح وحجج التفنيد العلمي لهذا «الكلام»؟!٠

ثم ، وهل كان لعبادة الاحجار منطق، حتى يهتم بمناقشتها القرآن الكريم؟!٠٠ لقد علمنا المنهج القرآني، أن الصمت والتجاهل كان منهج غير المسلمين [وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون} (فصلت/٢٦) ، بينما كان منهاج المؤمنين [قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} (البقرة/ ١١١) {ائتوني بكتاب من قَبْل هذا أو أثارة من علْم إن كنتم صادقين} (الاحقاف/٤)٠

فالحوار مع هذا «الكلام العشماوي» واجب، بيانا للناس، ودعوة للرجل كي يثوب إلى الرشاد!٠٠ ولذلك نقول: إنه إذا كان المراد بآية الحجاب: هو مجرد «التمييز في الزى» بين الحرائر والإماء٠٠ فهل يصح أن يكون التمييز بأى وسيلة محققة له؟٠٠ ومنها، مثلا، زيادة مساحة العرى عند الحرائر عن الإماء - وفي العرى - عند البعض - مزيد من «الحرية» ربما لاءمت الحرائر وميزتهنَّ أكثر عن الإماء؟! والتمييز، مثلا ببطاقة هوية؟!٠٠ أم أن للأمر والعلة علاقة بالفضيلة، التي تستلزم ستر المفاتن وحجب العورات؟٠٠ فالستر هو الواقي من الأذي، ومن ثم فأحكام الحجاب معللة بعلة دائمة، لا علاقة لها بوجود مؤقت للإماء، ولا بوضع محلي ومرحلي، مثل التغوط خارج البيوت!٠٠ وليست (العلة مجرد «التمييز» بين الحرائر والإماء٠٠

وهل كانت علة الحجاب هي خروج المرأة من منزلها إلى مكان الغائط؟!٠٠ أم الخروج من منزلها الذي لا يقتحمه عليها غريب، إلى حيث غير المحارم؟!٠٠ وألم تؤمر المرأة بالحجاب وستر العورات، حتى وهي ذاهبة إلى المسجد؟ وبالحجاب حتى وهي في منزلها إذا حضر غير محرم؟!٠٠ وألم يضع الاسلام نظاما لهذا الأمر حتى في داخل البيوت٠٠ فالمرأة الانصارية، التي ذهبت إلى رسول الله [صلى الله عليه وسلم} تقول: يارسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف

أصنع؟.. نزلت الآية {يأيهــا الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلك خير لكم لعلكم تَذَكَّرُونَ} (النور/ ٢٧). فالتشريع هو للحجاب وستر عورات النساء، عن غير المحارم - حتى من الأهل - فى داخل البيوت.. فما هذه «العلة المرحاضية» التى «اجتهد» المستشار عشماوى ليربط بها تشريعات القرآن الكريم؟!.. وكيف يتصور عقل عاقل نسخ حكم الحجاب بإقامة دورات المياه فى البيوت؟!.

والسنة النبوية، التى هى البيان النبوي للبلاغ القرآنى، والتى جاء فيها قول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لأسماء بنت أبى بكر، وقد دخلت عليه وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها، وقال لها: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا» - وأشار إلى وجهه وكفيه -[٢].

هذه السنة تتحدث إلى امرأة داخل المنزل.. ولم تقل: إذا لم يكن فى منزل المرأة «كنيف»؟!.

ثم .. هل يُشَرِّع الاســـلام لعرى الإماء، وعرض عوراتهن على الكافة، حتى يكون الحجاب مجرد تمييز فى الزى للحرائر عن الإماء .. إن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يتحدث عن «المرأة» - مطلق المرأة - إذا بلغت المحيض - والآيات القرآنية تتحدث عن [نســاء المؤمنين]، وليس عن الحرائر منهن فقط.. وفرض الخمار على النساء واجب توجه التكليف به إلى (المؤمنات)، وليس إلى الحرائر وحدهن.. والسياق القرآنى لآية الخمار يقطع بأن العلة هى العفاف وحفظ الفروج، وليس تمييز الحرائر فقط، وفى الطريق إلى دورات المياه خارج البيوت على وجه التخصيص!.. فالسياق القرآنى يبدأ بالحديث عن تمييز الطيبين والطيبات عن الخبيثين والخبيثات.. وعن آداب دخول بيوت الآخرين، المأهول منها وغير المأهول.. وعن غض البصر.. وحفظ الفروج، لمطلق المؤمنين والمؤمنات.. وعن فريضة الاختمار، حتى لا تبدو زينة المرأة - مطلق المرأة - إلا لمحارم حددتهم الآية تفصيلا - فالحديث عن الاختمار حتى فى البيوت، إذا حضر غير المحارم.. ثم يواصل السياق القرآنى الحديث عن الإحصان بالنكاح (الزواج).. وبالاستعفاف للذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله {الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم. يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بُيُوتكم حتى تستأنسوا وتُسَلِّموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تَذَكَّرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يُؤْذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم، والله بما تعملون عليم، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم، والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون، قل للمؤمنين يَغُضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من



زينتـهن، وتوبوا إلى الله جـمـيـعـا أيـها المؤمنون لعلكم تفلحون، وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، والله واسع عليم، وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم، ولا تكرهو فَتَيَاتكم على البغـاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرضَ الحياة الدنيا، ومن يُكْرِههن فإن الله من بعد إكراههِنَّ غفور رحيم} (النور/ ٢٥ - ٣٣).

فنحن أمـام نظام إسـلامي، وتشـريع إلهي مفصل، فى العفة وعلاقتها بستر العورات عن غير المحارم.. وهو تشريع عـام، فى كل مكان توجد فيـه المرأة مع غيـر مـحـرم.. ولا عـلاقة له بهذا التخصيص العشماوى بـ «طرقات الكُنُف» خارج البيوت!.

بل إن ذات السورة [النور] تستأنف التشريع لسـتـر العـورات داخل البـيـوت - نصـا وتحـديدا - فـتـقـول آياتهـا الكريمة: {يـأيهـــا الذين آمنوا ليسـتـأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم ثلاث مرات، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء، ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليـهم جناح بعـدهن، طوّافون عليكم بعضكم على بعض ، كـذلك يبين الله لكم الآيات، والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفـال منكم الحلم فليسـتـأذنوا كـمـا اسـتـأذن الذين من قـبلهم، كــذلك يبين الله لكم آياته، والله عليم حكيم. والقواعد من النسـاء اللاتى لا يرجـون نكاحـا فليس عليـهن جناح أن يضـعـن ثيـابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن، والله سميع عليهم} (النور/ ٥٨ - ٦٠).

فنحن أمام تشريع لستر العورات، حتى داخل البيوت، عن غير المحارم - الذين حددتهم الآيات - ومنهم الصبيـان إذا بلغوا الحلم.. وليس الأمر أمـر تمييـز للحرائر أمـام الفـجـار فى طرقـات «مراحيض الخلاء» خاصة، كما ادعى المستشار عشماوى!..

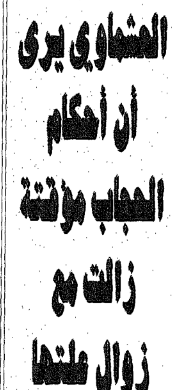
فـهل هناك عـقل عـاقل يقـول إن هذا النظام التشريعى «كان إجراء مؤقتا، لعدم وجود دورات للمـيـاه فى المنازل.. وأن زوال العلة، ووجـود دورات مياه فى المنازل يعنى زوال الحكم.. فـهو حكم وقـتي، مرتبط بظروف معينة، ومنوط بوضع خاص»؟! - كما قال المستشار عشماوي.

أكانت العلة: ستر العورات، وصيانة العفاف - حـتى داخل البيـوت -؟.. أم التـمـيـز فى نظر الفجـار، وخاصـة فى الطريق إلى «مـراحـيض الخلاء»؟!.

وهلا سأل المستشار العشماوى نفسه - وبناء على «منطقه»:

- أيسـتـوى خـروج المرأة إلى الأسواق .. والمساجد .. ودور العلم .. والأسفار - مع خروجها إلى «مـراحـيض الخـلاء - فـيـجب عليها الاختمار وستر العورات؟؟.

- أم أن فكر الرجل مـــعـلق «بمراحـيض الخـلاء»، دون غيـرهـا من المقاصد والغايات؟!.. جواب ذلك عند المستشار العشماوى، دون سواه!.



* إن من «فـضـائل» المسـتـشـار عـشـمـاوى أن الرجل لا يموه على الناس مـقـاصـده.. وذلك رغم تهافت المنطق والسبل والآليات التى يتوسل بها لتبرير هذه المقاصد والغايات.

فالرجل كان واضحا حين دعا

أحكام الرومان سارية المفعول عند العشماوي

إلى الانتقال من «الأساس الالهى للشرعية» - فى الخلافة والإمامة والرياسة والوزارة والتشريع والأوامر والأحكام - إلى «الأساس البشرى للشرعية» فى كل هذه الميادين، بدعوى أن وفاة الرسول، {صلى الله عليه وسلم} قد مثلت انتهاء التنزيل وانعدام الوحى ووقوف الحديث الصحيح وسكوت السلطة التشريعية الالهية..![٣].

وها هو يصارحنا بدعوته إلى رفض الحكم بكتاب الله، لأن الآيات القرآنية التى طلبت من الرسول، {صلى الله عليه وسلم} الحكم بما أنزل الله، هى آيات خاصة بشخص الرسول.. وتخصه شخصيا.. فالحكم بما أنزل الله على رسوله «مؤقت» بحياة الرسول.. ومن ثم فالناس - الذين انتقلت إليهم أسس الشرعية التشريعة بوفاة الرسول - غير مكلفين بالحكم بهذا الذى أنزل الله!..

يصارحنا العشماوى بهذا «المقصد» الذى يمثل الغاية من كل مشروعه الفكرى، فيقول: «إن تيار تسييس الدين يستشهد دائما بآيتين من القرآن الكريم {فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} (النساء/٦٥) و{إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (النساء/ ١٠٥).

ثم يعلق العشماوى، فيعلن عن مقاصده: «وهذا الاستشهاد خطأ وخطر.. فهاتان الآيتان من الآيات التى تخاطب النبي {صلى الله عليه وسلم} وحده، وتختص به دون غيره.

فأولاهما: تنفى صفة الإيمان عمن لا يحكّم النبي فى أى شجار بينه وبين آخر ثم يرتضى حكمه، وهذا أمر واجب بالنسبة للنبي نفسه، حتى تستقر الأمور فى مجتمع المؤمنين، ولما كان له من حفظ بالوحي.. فهى ولاية خص الله بها النبى.

أما الآية الثانية فهى - كذلك - من الآيات التى تخاطب النبي {صلى الله عليه وسلم} وحده، وتختص به دون غيره.. فهى خطاب للنبى، فضلا عن أنها تفيد أن حكمه - «وقضاءه - هو بالرؤية التى وهبها الله له»[٤].

وأمام هذه «الصراحة - العارية» لمقاصد المستشار عشماوى.. نسأل:

* أين، فى الآيتين، أدلة تخصيصهما برسول الله {صلى الله عليه وسلم}، وحده دون غيره من الناس؟.. إن الآيات تطلب من الرسول - بحكم الرسالة - الحكم بين الناس بما أراه الله - أى بما «مَثّله له وأنزله عليه» أي بالوحي الذى أنزله الله عليه ليبلغه للناس، لا ليختص به هو دون غيره من الناس.. وهى تطلب من الناس التحاكم إلى الرسول - كرسالة - والوحى والرسالة خالدان وحاكمان دائما وأبدا، وليسا خصوصية موقوته بحياة الرسول {صلى الله عليه وسلم}.

* وإذا كان على الرسول أن يحكم بالكتاب.. أفلا يكون حكمه بالكتاب - فى كل الحالات - الأسوة التى دعانا القرآن إلى التأسى بها؟.. والمتبوع الذى دعانا القرآن إلى اتباعه؟.. والمطاع الذى دعانا القرآن إلى طاعته؟.. بل وأوجب علينا طاعته، لأنها طاعة لله؟.

* والآيتان تفيدان أن تحكيم النبي هو تحكيم يحكم فيه بالقرآن، فالاحتكام، فى كل الحالات، سواء أكان القضاء للنبي أم لغيره - هو إلى القرآن.. وخلود القرآن، وعموم التكليف به ينفى أية خصوصية للرسول {صلى الله عليه وسلم} فى هذا الأمر.. وبعد النبي، فإن الاحتكام هو إلى

القرآن، يقضي بمرجعيته وأحكامه وشريعته بشر غير معصوم.

* بل إن «قضاء» الرسول {صلى الله عليه وسلم} في المنازعات - وهو قضاء لا يماري العشماوي في أن شرعيته وشريعته كانت القرآن - لم يكن قضاء معصوما، تميزه العصمة عن قضاء غيره من الناس بشرعية وشريعة القرآن.. فالحديث النبوي يقول: «إنما أنا بشر مثلكم، وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض، فأقضي له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من نار»[٥].

والعشماوي نفسه، يعلق على هذا الحديث، فيقول: «إن حكم النبي «أي قضاءه» في المنازعات هو حكم له، ورأى وفتوى لبشر، وليس حكم الله»[٦].

فمن أين جاء العشماوى باختصاص الرسول {صلى الله عليه وسلم} بالقضاء بالقرآن وبما أنزل الله فيه، خصوصية شخصية لا يشاركه فيها أحد سواه، حتى لينتهي وقت الحكم بما أنزل الله بوفاة الرسول؟!.

* وهل لم يحكم بما أنزل الله، وبما أرى الله رسوله - أي «مثله له وأنزله عليه» - أحد غير الرسول، في حياة الرسول، حتى يقول العشماوي إنه ليس لأحد، بعد وفاة الرسول، أن يدعو إلى الحكم بما أنزل الله، مستشهدا بهذه الآيات؟!.

لقد تولى القضاء - إلى جانب الرسول .. وفي حياته - قضاة كثيرون، وتحدد لقضائهم منهاج رضي عنه الرسول {صلى الله عليه وسلم} - وذكرته كتب السنة في حديث معاذ بن جبل: - القضاء بكتاب الله .. فإن لم يوجد فيه.. فبسنة رسول الله .. فإن لم يوجد فيهما فبالاجتهاد - .

«الرسالة» !! من وراء الحجاب عند العشماوي

زيادة مساحة العري، تعني مزيداً من الحرية عند العشماوي

فبكتاب الله كان يقضي قضاة مع رسول الله، وفي حياته .. منهم: معاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، والعلاء ابن الحضرمي، ومعقل بن يسار، وعقبة بن عامر، وحذيفة بن اليمان العبسي، وعتاب بن أسيد، وأبو موسى الاشعري، ودحية الكلبي، وأُبيّ بن كعب.. إلخ[٧].

فما الذي يمنع من قضاء الناس - بعد وفاة الرسول - بما انزل الله، كما كانوا يقضون به في حياة الرسول {صلى الله عليه وسلم}؟!.

* وهل إذا سنّت السلطة التشريعية قانونا، وطلبت من «وزير العدل» ممثل السلطة القضائية - أن يجعل الاحتكام إليه، والقضاء به، نقول إن تحكيم هذا القانون خصوصية لهذا الوزير وحده، دون سواه ممن يلي الوزارة بعده؟!.* وإذا كان هذا الذي أراه الله سبحانه وتعالى، لرسوله {صلى الله عليه وسلم} هو الوحي - الذي «مثّله له وأنزله عليه» فإنه موجّه إلى الأمة، دائما وأبدا - بحكم ختامه للوحي السماوي، وختمه للشرائع الالهية - ومن ثم فليس خاصا بالرسول دون غيره.. فما أراه الله لرسوله - أي «مثّله له وأنزله عليه» - ليس هبة خاصة به، عليه وحده طاعتها، فما جاء الرسول إلا ليُطاع من الناس، لا أن يطيع هو وحده دون الناس؟!..

فالله أراه - إي أنزل عليه الوحي - ليبلّغ ما أُنزل عليه، ليُطاع فيه {وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله} (النساء/ ٦٤).

* وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد جعل استنباط الأحكام من القرآن الكريم - في حياة الرسول، وزمن التنزيل - غير موقوف على الرسول {صلى الله عليه وسلم} ولا خاص به وحده..

وإنما شرع الاستنباط للأحكام من القرآن لعموم ولاة الأمر من المسلمين (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)٠٠ فما هى حكمة استنباط الأحكام - بواسطة أولى الأمر - من القرآن، إذا لم تكن هذه الحكمة هى الحكم بهذه الأحكام؟!٠ وحتى «الإنذار بالدين»٠٠ لم يجعله القرآن «خصوصية نبوية»٠٠ فهو، وإن بدأه الرسول {صلى الله عليه وسلم}، إلا أنه ليس وقفا عليه٠٠ وإنما هو رسالته التى يحملها الفقهاء، بنص القرآن الكريم {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون} (التوبة/ ١٢٢)٠

فالحكم، استنباطا من القرآن٠٠ والإنذار بالدين بواسطة الفقهاء، تكليف قرآني للأمة، وليس وقفا على شخص الرسول، وخاصا بحياته، حتى يقال إن الشرعية تغيرت بوفاته، وانتقلت من الله إلى الناس!٠٠ وأخيرا ٠٠ فما الفرق بين «حكم» الرسول بالكتاب الذى أنزل الله، وبين «دعوته» لذات الكتاب الذى أنزل الله؟!٠

فإذا جعل العشماوى «حكم» الرسول بالكتاب خصوصية له، موقوتة بحياته٠٠ فَلِمَ لا يقول إن «دعوته» إلى الكِتاب هى خصوصية له، وموقوته بحياته، وأننا غير مطالبين بالاستجابة إلى «دعوته» هذه بعد وفاته، فتكون رسالته موقوته - هى الأخرى - برمتها، ومنسوخة بكاملها؟!٠

وهلا ثاب العشماوى إلى الحق، وقال مع أهله: إن الدعوة خالدة٠٠ والشريعة باقية٠٠ والشرعية الالهية - فى المعاملات كالعبادات - مستمرة٠٠ وأن الدعوة إلى الدين كله يحملها العلماء العدول، ورثة الأنبياء «إن العلماء هم ورثة الأنبياء»[٨]٠٠ ورثة علم الدين - بعقيدته وشريعته - «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[٩]٠٠ كما أن الحكم بالشريعة الالهية هو مهمة قضاة الإسلام٠٠ كل ذلك بقيادة الأمة، المستخلفة عن الله، والدولة التى تفوضها الأمة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا بهذا الدين٠ وإذا أبى المستشار عشماوى أن يثوب إلى قول الحق وأهله٠٠ فهل له أن يسترشد بقول المستشرق اليهودى «برناردلويس» الذى يقول فيه:« وعند موت الرسول (سنة ١١هـ/ ٦٣٢م) كانت إرادة الله قد أُوحي بها كاملة إلى البشرية٠ ولن يكون بعد ذلك نبي أو وحي آخر٠

وإذا كانت المهمة الروحية قد انتهت، فلا تزال هناك مهمة دينية أخرى يجب تحقيقها، ألا وهى الحفاظ على الشريعة الالهية والدفاع عنها وإخضاع بقية البشرية إلى الدين٠

ولقد تطلب إنجاز مثل هذا العمل ممارسة قوة سياسية عسكرية، أو باختصار: ممارسة سيادة داخل دولة»[١٠]٠

هذا هو الحق، الذى ندعو إليه المستشار عشماوى ٠٠ وله الحرية فى اختيار الطريق!٠

«تسييس الدين» مصطلح أراد به العشماوى تسويق أباطيله وأراجيفه

الهوامش:

(١) معالم الاسلام ص ١٢٤ ، ١٢٥٠

(٢) رواه أبو داود٠

(٣) معالم الاسلام ص ١١٦ - ١١٨٠

(٤) الاسلام السياسى ص٣٩٠

(٥) رواه البخاري ومسلم٠

(٦) الاسلام السياسى ص ٤١٠

(٧) المالكى، أبو عبد الله محمد بن فرج (أقضية رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ص ٢٣ - ٣٥، تحقيق: د٠ محمد ضياء الرحمن الأعظمي، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨)٠

(٨) رواه البخارى وأبو داود وابن ماجة والدارمى والإمام أحمد٠

(٩) رواه الطبراني٠

(١٠) الإسلام فى الفكر الغربى ص ٤٨ ، ٤٩٠

عطاء الأديان لخدمة الإنسان

قل هذه سبيلي:

بقلم: أ.د. **احمد شلبى**

أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تفضّل الله سبحانه وتعالى فأرسل الرسل للمجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، قال تعال: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} (فاطر/٢٤)، وقال {ولكلّ أمة رسولٌ فإذا جاء رسولُهم قُضِي بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون} (يونس/٤٧) . وهكذا كان مصدر الأديان واحدا هو الله سبحانه وتعالى وكان الهدف الرئيسي للأديان كما أرادها الخالق الأعظم هو إرشاد البشر إلى أصلين رئيسيين هما:

١ - عبادة الله وحده.

٢ - اجتناب الفواحش.

وفى بيان وحدانية الله والالتزام بها يقول تعالى: {ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (النحل/٣٦) والطاغوت هو كل معبود غير الله، وقال أيضا {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (الانبياء/٢٥).

وفى الزجر عن الفواحش قال تعالى: {وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه، قد جاءتكم بيّنَةٌ من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها} (الأعراف/ ٨٥)، وقال أيضا فى الزجر عن الفواحش {ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتُون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر} (العنكبوت/ ٢٨، ٢٩).

وعندما نبحث عطاء الأديان لخدمة الإنسان نجد أن عبادة الله وحده منحة عظيمة قدمها الله تعالى للإنسان فأنقذه بها من عبادة الأحجار والأنهار والإنسان والبقرة والثعبان، وأي نعمة أعظم من رفع شأن الإنسان فى هذا المجال حتى لا ينحت تمثالا ثم يجلس أمامه يعبده ويسجد له وقد سخر الله تعالى ممن فعلوا ذلك حينما قَال: {أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما

الإنسان مسخر لعمارة الأرض لا لتدميرها

تعملون} (الصافات/٩٥ ـ ٩٦) كما سخر من الذين عبدوا العجْل قال تعالى: {إن الذين اتخذوا العجْل سينالهم غضب من ربهم ، وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين} (الاعراف/ ١٥٢).

وهكذا يعتبر عطاء الأديان فى هذا المجال إحدى القمم لرفع شأن الإنسان وإبراز أنه أعظم ما خلق الله تعالى فى هذا الكون، وان كل المخلوقات الأخرى مسخرة إليه قال تعالى: {هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا} (البقرة/ ٢٩).

وقال: {الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار * وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار} (ابراهيم/ ٣٢ ـ ٣٣).

ويرتبط بعبادة الله وحده الإيمان بأنة القوة العليا التى تسيطر على البشر وتدبر أمر هذا الكون وتهدم جماح الطغاة، والإيمان بالله سيعيد الإنسان إلى وضعه الطبيعي الضعيف فى هذا الكون العظيم.

ومع أن الأديان جميعها من عند الله وهو الذى أرسل الأنبياء إلى خلقه، فقد أرادت حكمته أن يرسل فى ختام الرسل رسولا إلى الناس جميعا حتى يلتقى البشر كلهم حول فكر واحد وحتى تتوحد اتجاهاتهم وحتى يخضعوا لتشريع واحد لا تفاضل فيه بين بنى البشر إلى يوم الدين، والرسالة العامة حوت ما فى الرسالات السابقة من مبادىء تناسب ما جدّ من عصور وزادت عليها ما تحتاجه البشرية فى كل جوانب الحياة طوال مسيرتها المديدة إلى يوم الدين قال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى} (الشورى/١٣).

وقال: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه} (المائدة/ ٤٨).

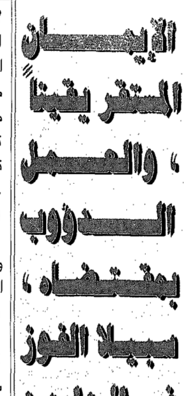
وقال: {هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} (الفتح/٢٨).

ومفسرو القرآن الكريم يوضحون فى شرح هذه الآيات أن الله شرع للبشرية دينا يحوي ما جاء به الأنبياء من نوح إلى عيسى (البيضاوى ٤٨٥).

والرسالة الشاملة يجيء بشأنها اقرار آخر من الله سبحانه وتعالى هو أنها آخر الرسالات قال تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين} (الأحزاب/٤٠) وذلك قرار حكيم من الله عز وجل يوحي بالاستقرار فليس هناك تبديل او تعديل فى أصول الرسالة، تلك الرسالة التى حوت ما تحتاجه البشرية من تشريعات شاملة لأمور الدنيا والدين.

وليس فى هذه الرسالة رجال دين لهم امتيازات خاصة ويقفون وسطاء بين الخالق والمخلوق، وإنما الصلة مباشرة بين الإنسان وربه.

ولهذه الرسالة الخاتمة دستور محكم هو القرآن الكريم جاء بلفظه ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى وتعهّد سبحانه بحفظه قال تعالى: {إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون} (الحجر/٩).



وهذه الرسالة العامة الخاتمة تحتفظ للأنبياء السابقين بأقدارهم وتلزم المسلمين بالاعتراف بهم وإجلالهم قال تعالى: {لا نُفَرِّقُ بين أحد من رسله} (البقرة/ ٢٨٥)،، وقال: {والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما} (النساء/١٥٢)٠

الإيمان والعمل الصالح:

ومع ان الإيمان بالله أساس الصلة بين الإنسان وربه، فإن الإيمان وهو عقيدة داخلية لا تكمل إلا بالعمل الصالح الذى هو مظهر الإنسان ودليل عليه، فالعقيدة الإسلامية تستلزم العمل بما أراد الله، فإذا لم يعمل المؤمن ما كلِّف به فإن إيمانه لا يكون كاملا، وفى ضرورة الارتباط بين الإيمان والعمل الصالح يقول تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنّات الفردوس نزلا} (الكهف/ ١٠٧) ، ويقول: {فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كُفْران لسَعْيه} (الانبياء/ ٩٤) ، ويقول: {إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (الاحقاف/ ١٣)٠

فى مجال خدمة الانسان:

ونعود لموضوعنا بعد أن ذكرنا بعض المقدمات الضرورية فنذكر أن عطاء الأديان لخدمة الإنسان فيض واسع فى جميع النواحى، وقد كان توجيه الإنسان لعبادة الله وحده ورفع قدره عن عبادة المخلوقات قمة هذا العطاء كما ذكرنا من قبل ثم يجيء بعد ذلك تربية نفس الإنسان٠

فالأديان ترمى إلى أن يتطابق فعل الإنسان مع قوله وأن تكون تصرفاته مطابقة لأحاسيسه وشعوره، وذلك يحقق القضاء على الازدواجية فى الإنسان فيكون ظاهره صورة صادقة لباطنه ويكون عمله متفقا مع قوله، وفى ذلك يقول الله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} (الصف/ ٢ ـ ٣)٠

ويقول: {أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون} (البقرة/٤٤)٠

ومن عطاء الأديان لخدمة الانسان موقف الأديان لرعاية سلامة الجسم، وسلامة الجسم موضع إعجاب وتقدير فى القرآن الكريم يقول تعالى: {يا أبَتِ استأجِرهُ إنَّ خير مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ} (القصص/٢٦) ويقول عن طالوت: {إن الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطَةً فى العلم والجسم} (البقرة/ ٢٤٧) وللحفاظ على سلامة الجسم حرّم الإسلام تعاطى الخمور لما بها من أضرار بالغة وحرّم القمار لأنه يهزّ النفس هزا عنيفا، وفى ذلك تقول الآية الكريمة {إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشّيطان فاجتنبوه} (المائدة/٩٠)٠

ومما حرمه الإسلام للحفاظ على بدن الانسان وصحته تحريم وطء الحائض قال تعالى: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ} (البقرة/ ٢٢٢)٠

والذين أهملوا عطاء الإسلام فى مجال الحفاظ على سلامة النفس والجسم خسروا صحتهم وكيانهم٠

ومن عطاء الأديان مما خدم الإنسان تنظيم

العلاقات الأسرية فقد نقلت الأديان بذلك جماعات البشر بعيداً عن العادات القديمة التى كانت تجعل الجانب الحيوانى يطغى على الإنسان، حينما كان يخطف الفتاة التى يريد معاشرتها وحينما كان جمع من الرجال يستعملون امرأة واحدة، وإذا نزلت بهم مجاعة أكلوها.

وفى الإسلام ـ خاتم الديانات ـ فيض واسع عن سماحة العلاقات بين أفراد الأسرة بعضهم البعض، وتشمل دراسات مفصلة عن حق الزوجين كل على الآخر، وحق الوالدين على الأولاد، والأولاد على الوالدين، وحق ذوى الرحم، بل حق الجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، والذين أهملوا عطاء الأديان في العلاقات الأسرية انهارت أسرهم، وانهيار الأسرة انهيارٌ للأركان التى يتكون منها المجتمع.

الأخلاق الطيبة أعظم منحة قدمتها الأديان للبشر:

هناك قاعدة تقرر انه «لا أخلاق بدون دين» فقد عجز البشر بدون الأديان عن الاتفاق على الأخلاق الفاضلة والأخلاق الرديئة، وأباحت المدنيات الغربية الاستعمار والاستيلاء على ثروات الدول الضعيفة، كما تفشى النظام الطبقى، ولم تقبل هذه المدنيات المساواة بين الرجل الأبيض والملون.

وجاءت الأديان فحددت بشكل حازم الفضائل والرذائل، فذكرت أن الأمانة والوفاء بالوعد والعهد والعدل والمساواة والكرم والصبر والعفو أخلاق سامية وأن الظلم والرشوة والحسد والكبر والغيبة والنميمة أخلاق رديئة، وخضع الجميع لما قررته الأديان، وفرضت هذه المبادىء نفسها على الناس، واذا تمرد إنسان على هذه المبادىء قاومه المجتمع وسخر منه.

وبعض الناس الذين ضمرت الاتجاهات الدينية فى نفوسهم ومجتمعاتهم يحسبون أن ما يظهر عندهم من أخلاق طيبة هى نتيجة ما يسمونه الضمير الأخلاقى، ولا يريدون ربط هذه الظواهر الطيبة بالدين.

ونسأل هؤلاء أين الضمير الاخلاقى فيما سلبوه ويسلبونه من الثروات الخاصة بالعالم الثالث.

وأين الضمير الأخلاقى وهم يصطادون الصبيان والشباب من إفريقية لرحلة عبودية قاسية فى البحار.

إن بروز بعض الأخلاق الطيبة عند بعض الناس فى غيبة الأديان معناه أن هذه الأخلاق قد انسابت لهم من الأديان فى عصر من العصور، وعندما اهملوا الأديان كانت هذه الأخلاق قد رسخت فى نفوسهم وأصبحت من طبيعتهم فلم تختف مع اختفاء الأديان.



فى مجال السياسة:

ونواصل رصد عطاء الأديان فى مجال جديد هو السياسة، فماذا كانت السياسة قبل الأديان؟ وما هو عطاء الأديان فيها؟.

قبل الأديان كانت السيادة فى المجتمع البشرى للقوة، وكان الإنسان القوي ينال الرياسة بالسطو والجبروت، وعندما يحصل على الرياسة يصبح الأمر كله فى يده، فهو يملك ويشرع ويقضى، وينفِّذ قضاءه، وإذا استطاع شخص آخر أن يسلب منه السلطة فعل، وهكذا لم يكن للشعب دور فى مجال

الرياسة والحكم.

وجاء الإسلام فتغير كل شيء، فالرئيس اصبح يُختار بواسطة أهل الحل والعقد الذين يمثلون الشعب الإسلامى ويشترط أن يوافق الشعب على هذا الاختيار، وأن توجد فى الرئيس شروط معينة، ويلتزم الرئيس بالشورى فيما لا نص فيه تبعا لقوله تعالى: {وأمرهم شورى بَيْنَهُم} (الشورى/ ٣٨). وقوله {وشاورهم فى الامر} (آل عمران/ ١٥٩).

وفى مجال السياسة أعلن الإسلام مباديء مهمة هى:

أولا: أن الرئيس وأعوانه (الوزراء والولاة) ليس لهم أن يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشترين.

ثانيا: أن الرئيس وأعوانه لا يجوز لهم أن يقبلوا الهدايا، وبيَّن أن ظاهرها الهدية ولكن باطنها الرشوة، ويقول الرسول {صلى الله عليه وسلم} فى ذلك: (هدايا العمَّال غلول، أى فساد وضلال).

ونقل الإسلام النظام السياسى من حال إلى حال، فقد كان الحكم قبل الإسلام يقضى بأن المالك هو الحاكم، وينطبق ذلك على الإقطاع فى أوربا وعلى القبائل فى جزيرة العرب وغيرها، فلما جاء الإسلام قطع الصلة بين السياسة وبين المال، وظهرت طبقة من الحكام الذين هم أقرب إلى الفقر منهم إلى الغنى كأبى بكر وعمر وعلى عليهم رضوان الله أجمعين.

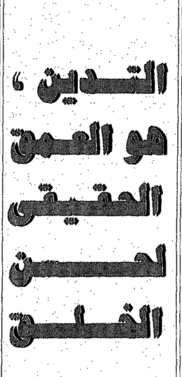
فى مجال الاقتصاد:

إن عطاء الأديان فى مجال الاقتصاد عطاء واسع عريض، ففى غيبة الأديان كان المال للأقوى الذى يستطيع السطو على مصادر الثراء وكان الفقير هو الذى يدفع الضريبة للغني من عرقه وعمله، وكان العاجز عن العمل يُتْرك لنهايته السوداء.

وجاء الاسلام فحدد وسائل الحصول على المال فى الميراث أو العمل والجهد، واعترف بالملكية الفردية، وبالتفاوت فيها، قال تعالى: {والله فضَّل بَعْضَكُمْ على بعض فى الرزق} (النحل/٧١). وذكر علماء الإسلام أن الناس متفاوتون فيما هو أهم من المال كالصحة والذكاء .. فالتفاوت فى المال أمر طبيعي.

وألزم الإسلام الأغنياء أن يدفعوا زكاة أموالهم، وعندما يحس الفقير أن له نصيبا فى مال الغنى فإنه لا يحسده ولا يسرقه، وكانت سياسة الإسلام فى الأموال هى التفتيت بالميراث وعلى كل طموح أن يجتهد ليكون ثراء خاصا به، ومن هنا هاجم الاسلام تجميع الأموال فى أيد قليله، قال تعالى: {كي لا يكون دُولَة بين الأغنياء منكم} (الحشر/٧).

وهاجم الإسلام اكتناز الأموال وألزم الأغنياء أن يُطلقوا أموالهم للاستغلال عن طريق الصناعة والتجارة حتى ينتفع بها الكثيرون وحذَّر الإسلام من الرشوة والاسراف والاحتكار.. وهكذا كان عطاء الاسلام فى مجال الاقتصاد عطاء واسع الاتجاهات.



فى مجال العلوم والمعارف:

لقد مرَّ على البشرية فى زمانها الأول عهد انصرف الناس فيه عن العلم، واعتبروا العلم وسيلة للحصول على لقمة العيش، فإذا توفَّر الغنى والترف عند جماعة زهدوا فى طلب العلم، فليس له عندهم مع المال ضرورة ولا حاجة.

ثم خطا الناس خطوة

فاعترفوا بفضل العلم وحاجتهم إليه ولكنهم جعلوه خاصا بالكهنة فمن هؤلاء كان الأطباء والمهندسون والكتّاب ليقضوا بمعارفهم حاجات السادة والملوك.

ثم جاء الإسلام فجعل العلم للجميع من جانب ومطلوبا لذاته من جانب آخر، وجاءت الآيات الأولى في القرآن الكريم تقول: {اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علّم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم} (العلق/ ١ - ٥).

وهذه الآيات التى افتتح بها القرآن الكريم تتحدث عن القراءة والكتابة وهما عمادا المعرفة، وتتحدث الآيات كذلك عن جانب علميّ رفيع هو «خلق الإنسان من علق» والآية بذلك تفيد أن العلم المطلوب فى الإسلام ليس العلوم الدينية فقط بل كذلك العلوم التجريبية ويحث القرآن الكريم على النظر فيها، وفى ذلك يقول تعالى: {وفى أنفسكم أفلا تُبصرون} (الذاريات/ ٢١)، ويقول: {وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوان يُسقى بماء واحد ونُفضّل بَعضَها على بعض فى الأُكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون} (الرعد/٤).

واهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالتربية الإسلامية، وكان مفهوم التربية عند المسلمين يشمل فلسفة التربية كما يشمل النظم التعليمية، والحضارة الإسلامية واسعة الثراء فى مجال التربية، وهى تهتم بالإنسان فى هذا المجال من المهد الى اللحد، فهناك اخلاق وعلوم تقدّم لكل جيل من الأجيال، وقد توسع

الإسلام كسر شوكة الجبروت والتكبر في نفوس معتنقيه

المسلمون في معاهد العلم فشملت القصور وحوانيت الوراقين، ومنازل العلماء، والصالونات الأدبية بالإضافة إلى المعاهد والجامعات، كما كانت البادية والمسجد معهدين مهمين، ففى البادية ازدهرت علوم اللغة العربية، وفى المسجد ازدهرت شتى الدراسات، واهتمت التربية الإسلامية بالكتاب اهتماما عاليا، فأعلت قدره ورفعت مكانته، كما كانت المكتبات معاهد للعلم فى كثير من البلدان.

وعنيت التربية الاسلامية بأن يتلقى الطلاب العلم من المعلمين، لا من الصحف والكتب فقط، كما اهتمت بضرورة تقديم فنٍّ التربية للمدرسين بحيث لا يكون عالما فحسب بل بحيث يستطيع فى يسر توصيل أفكاره الى مريديه.

وتحدثت التربية الإسلامية أحاديث فياضة عن التعاون بين البيت والمدرسة فى تربية التلميذ، وعن الإجازات العلمية، والعقوبات، والجوائز والمكافآت، وملابس المدرسين، ونقابة المعلمين، وتكافؤ الفرص فى التعليم عند المسلمين، وتوجيه التلاميذ حسب مواهبهم، كما تحدث الفكر الاسلامى عن الأوقاف على التعليم، وعن مراحل التعليم ونظام الداخلية بالمدارس، والرحلات لطلب العلم، وتعليم المرأة، واهتم الفلاسفة المسلمون بالحديث عن رياضة الاطفال، والوسائل التى تتخذ لغرس الخلق الطيب فى قلب الطفل الذى يمثل جوهرة نفيسة ساذجة ينقش عليها الآباء والمعلمون أفكارهم وثقافاتهم، كما اهتموا اهتماما واسعا بالسلوك، وبلغ من اهتمامهم به أن فضّلوه على العلوم، ومن أكثر من اهتم

بذلك من العلماء المسلمين الامام الغزالى فى كتابه «ايها الولد»، و«ابن سينا فى القانون»، وكتاب لا يعرف مؤلفه عنوانه «منهاج المتعلم».

فى مجال العلاقات الدولية:

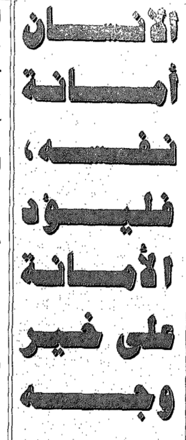
من مفاخر الإسلام أنه قدم للمجتمع البشرى أسس حياة تكفل السلامة لهذا المجتمع وان اختلفت عقائد الدول وأديانها، فقدَّم الإسلام نظما للتعاون بين الأمم مختلفة الأديان، فى مجال السياسة، والاقتصاد، والحياة الاجتماعية، والثقافية، بل قدَّم الإسلام النظم للتخفيف من ويلات الحرب إن قامت الحرب بين أتباع دين وأتباع دين آخر، وكان ما قدمه الإسلام فى مجال العلاقات الدولية أول تعليمات من نوعها تعرفها البشرية.

ففى مجال السياسة ابتكر الفكر الاسلامي نظام المعاهدات والسفراء وتأمين المبعوثين، وكتب الدعوة وكانت الدعوة تمثل الإعلام فى العهد الحاضر.

وفى مجال الاقتصاد سمح الإسلام بالتعامل بالعملة الفارسية والرومية، كما سمح للتجار غير المسلمين أن يدخلوا بتجارتهم للعالم الإسلامى وعليهم أن يدفعوا العشور كما كان المسلمون يدفعون لو ذهبوا بتجارتهم للأرض غير الاسلامية.

وفى مجال الحياة الاجتماعية أُذن للمسلمين أن يأكلوا طعام أهل الكتاب وأن يقدموا لهم من طعامهم، كما أُذن للمسلمين أن يتزوجوا منهم، وأن يتعاملوا معهم ببر وصدق وعدالة.

وفى المجال الثقافي أذن للمسلمين بتبادل الثقافات مع غير المسلمين، وكان ما قدمه



المسلمون لغير المسلمين فى مجال الثقافة واسعا جدا ومفيدا جدا، كما اتجه المسلمون منذ عهد الاسلام المبكر لتعلُّم لغات غير المسلمين. فإذا جئنا للحرب فإننا نذكر ان العالم قبل الاسلام كان يعانى حروبا مستمرة، ومعارك متصلة، وكانت القوة هى دستور الحياة، فكان من حق القوي أن يأكل الضعيف، فجاء الإسلام ووضع للسلم والحرب نظما دقيقة أنقذت البشرية من أهوال الصراع والدمار، ومن الأسس التى وضعها الإسلام أن جعل السلام أساس الحياة، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين} (البقرة/ ٢٠٨). وأوصى بالتعاون والمودة حتى مع المخالفين فى العقيدة ما دام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين، قال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم فى الدين، ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم، ان الله يحب المقسطين} (الممتحنة/٨).

وقال: {فإن اعتزلوكم فلَم يُقاتلوكم وألقوا اليكم السَّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا} (النساء/ ٩٠). وأجاز الإسلام الحرب للدفاع، قال تعالى: {وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يُحب المعتدين} (البقرة/ ١٩٠)، ووضَّح أنه بعد قيام المعركة يمكن التوقف عن الاستمرار فيها لو عاد العدو للسلام، قال تعالى: {وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله} (الانفال/ ٦١).

وقد جاء الاسلام فى نظام الحرب بقواعد لم تعرفها البشرية من قبل، بل لم تستطع أن تأخذ بها حتى الآن، إذ حرم قتل الشيوخ

والنساء والأطفال والعباد والعمال الذين لم يشتركوا فى المعركة، كما حرّم قتل الحيوان او تخريب البيوت أو قطع الاشجار.

فى السلوك:

تميل النفس الإنسانية بطبيعتها إلى ما يغذى أطماعها ويحقّق أهدافها التى تتجه للمادة غالبا، فالظلم الذى يحقق لصاحبه كسبا ولو على حساب الآخرين طبيعة بشرية قال عنها الشاعر القديم:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم

وقد جاء الإسلام ليحارب الظلم والظالمين. قال تعالى: {فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا} (النمل/ ٥٢)، وقال {ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون} (ابراهيم/ ٤٢). وقال الرسول [صلى الله عليه وسلم]: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» متفق عليه.

وهناك سلوك آخر يظهر فيه الصراع بين الطبيعة البشرية وبين الأديان، ذلك هو حب الاستطلاع، وحب الاستطلاع طبيعة انسانية، وغريزه يريد بها الإنسان أن يتعرف على المجهول فى هذا الكون، ولكنها فى كثير من الأحوال تتجه الى التعرف على الأسرار التي كتمها الناس، وذلك انحراف بالغريزة وسوء توجيه لها لميلها للتجسس، ولذلك يقول القرآن الكريم: {ولا تجسسوا} (الحجرات/١٢).

ونهى الرسول [صلى الله عليه وسلم] عن استعمال العين أو الأذن فى التجسس على أسرار الناس المسالمين قال عليه الصلاة والسلام: «من اطّلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه» (رواه البخاري ومسلم). وقال: «من استمع الى حديث قوم وهم لذلك كارهون صُبّ فى أذنيه الآنك يوم القيامة» (رواه البخاري).

وهكذا نجد عطاء الأديان لخدمة الانسان عطاء متنوعا شمل كل جوانب الحياة وما على الإنسان إلا ان ينقب عن هذا العطاء وان يتبناه فينال بذلك الخير كل الخير فى الدنيا والآخرة.

وفي ختام هذا البحث نذكر ان كثيرا من أتباع الرسل الأولين قد هلكوا لطغيانهم ورفضهم عطاء الأديان كما حدث لقوم نوح وهود وثمود ولوط، ولا يزال فى الكون اتباع موسى عليه السلام وأتباع عيسى عليه السلام ثم أتباع الرسالة الأخيرة وهى الإسلام الذى جاء على يد محمد [صلى الله عليه وسلم].

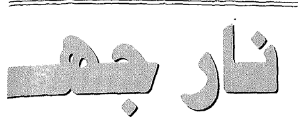
وبمراجعة القرآن الكريم نجد أن كل نبي من هؤلاء الأنبياء جاء رحمة لقومه وذلك هو قمة العطاء، قال تعالى: عن موسى عليه السلام: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدًى ورحمة لعلهم يتذكرون} (القصص /٤٣)، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام {ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منًّا} (مريم/٢١)، وقال عن محمد [صلى الله عليه وسلم] {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الانبياء/ ١٠٧)، وقال ايضا: {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلِّ شيء وهدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين} (النحل/ ٨٩).

ما أسعد البشر لو انتفعوا بعطاء الأديان، فهذا العطاء سيقودهم إلى خير الحال والمآل

المال مال الله والإنسان مستخلف فيه .. فليحسن الخلافة

الحرب فى الإسلام ليست تدميراً، بل إقامة لموازين العدل المعوجة





يرتكز الإيمان على الغيبيات وبها يزداد اليقين، ويأمن من سوء العاقبة والمصير، فالذى يؤمن بغيب الإسلام بدءا من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وناره وجنته، وبالحياة بعد الموت، وصفه الله بأنه (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} وقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى).

وأعظم معلم من معالم الآخرة الإيمان بالجنة والنار؛ لأنهما دارا السعادة أو الشقاوة لمن أطاع الله أو عصاه، وبهما الترغيب والترهيب، والرجاء والخوف.

والإسلام يرسخ فى نفوس أتباعه أن الدنيا هى الدار الشاهدة مطية إلى الآخرة، وليست الدنيا للثواب أو العقاب، وإنما الآخرة هى الميعاد وفيها الحساب، وبعد الحساب إما إلى الجنة أو النار.

جاء فى أول خطبة خطبها رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بمكة حين دعا قومه[١] قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً، أو لنار أبداً».

فذلك يدفع إلى الإيمان بالله مالك يوم الدين، والاستزادة من فعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات، والعاقل هو الذى لا يعيش الحياة الدنيا هملا وعبثا بل يعمل الصالحات ليتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار. وهذا ما يؤكده النبي {صلى الله عليه وسلم} فى أول خطبة خطبها بالمدينة[٢]: «أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا صاحب يحجبه دونه، ألم يأتك رسولى فبلغك، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينا وشمالا، فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار، ولو بشقّ من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله، ورحمة الله وبركاته».

ـــنم وأهوالها (الحلقة الأولى)

ويؤكد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} هذه المعانى بصورة جلية فى خطبة له يقول: «أيها الناس؛ إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن العبد بين مخافتين؛ أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، فوالذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»[٣].

ولا نريد أن نستعرض النصوص فى هذا المجال، فتلك سمة بارزة فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة، ولكن أردنا التمهيد إلى أهمية النار والجنة فى السمعيات التى هى مقدمات لدارى الخلود الأبدى (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد. فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ).

مفهوم النار:

تعرف النار فى حياتنا الدنيوية، بأنها: عنصر طبيعي فعّال، يمثله النور والحرارة المحرقة وتطلق على اللهب الذى يبدو للحاسة، كما تطلق على الحرارة المحرقة[٤].

وجاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم[٥]: النار: اللهب الذى تنبعث منه الحرارة والنور، ويكون عنه الإحراق وانضاج النيء من اللحم والطعام. وأكثر ما ترد النار فى الكتاب مرادا بها نار الآخرة التى يصلاها العصاة. وقد تضاف إلى جهنم، ويكنى بإيقاد نار الحرب عن العزم على الحرب؛ فقد كان من عادة العرب إذا أرادوا حربا أن يوقدوا نارا، إيذانا بالحرب ليستعد القوم لها. وقد يتجوز بالنار عما يفضى إلى العذاب بها فى الآخرة من المعاصى كما جاء فى آكل مال اليتيم أنه يأكل فى بطنه نارا. وهى من مادة النور، وعدادها فى الأسماء المؤنثة، وجمع النار نيران ونيرة وأنوُر.



بقلم:
أ.د. عبد الباسط
احمد على حمودة
- مصر -

وجهنم النار التى يعذب بها فى الآخرة، ولها أسماء وصفات كثيرة مثل سقر، والسعير والجحيم والهاوية وغير ذلك مما يفيد العذاب حتى ولو لم يحرق كالزمهرير وهو البرد الشديد.

أبواب جهنم:

قبل أن نتكلم عن أبواب جهنم نشير إلى ما سبق فى الحديث عن الصراط من قصص يفيد أن لجهنم عنقا يخرج منها يلتقط الكفار والمجرمين، كما جاء فى قوله {صلى الله عليه وسلم}[٦].. «وحين يخرج عنق من النار، فتنطوي عليهم، وتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وُكّلت بثلاثة: وُكّلت بمن دعا مع الله إلها آخر، ووُكّلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووُكّلت بكل جبار عنيد، وترمى بهم فى غمرات...».

فهؤلاء لا تصبر عليهم جهنم حتى يساقوا إليها، بل تلتقطهم كما يلتقط الحمام الحَبَّ لكفرهم بالله واتباعهم الهوى واغراق أنفسهم فى الشهوات والملذات.

جاء فى القصص النبوي - فيما خرّجه الترمذى[٧] - عن أبى هريرة عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: «لما خلق الله الجنة، أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر اليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها قال: فرجع إليه وقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. قال: فأمر بها فحفّت بالمكاره فقال: فارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هى يركب بعضها بعضا، فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خفت ألا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها فرجع إليها، فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها).

فطريق الجنة ممهد بالصبر على مكاره الدنيا، وطريق النار ممهد بالانغماس فى الشهوات: {أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب الهُونِ بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفسقون}.

وقد جاء فى القرآن ما يبين تقسيم جهنم إلى أبواب، وأفاضت السنة النبوية فى توضيح ذلك. قال تعالى: {وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم} (الحجر/ ٤٣ - ٤٤)، وقال أيضا: {حتى إذا جاءوها فُتِحَت أبوابها} (الزمر/ ٧١).

ويقول ابن كثير[٨] كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر فى درك بقدر عمله.

ورُوِي عن علي - رضي الله عنه - قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، حتى تمتلىء كلها. وقال عكرمة: سبعة أبواب، سبعة أطباق. وقال عن الضحاك: (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبدا.

وينقل القرطبي عن أهل العلم[٩] فى قوله الله تعالى: {لكل باب منهم جزء مقسوم} قال من الكفار والمنافقين، والشياطين، وبين الباب والباب خمسمائة عام.

فالباب الأول: يسمى جهنم؛ لأنه يتجهم فى وجوه الرجال والنساء؛ فيأكل لحومهم وهو أهون عذابا من غيره.

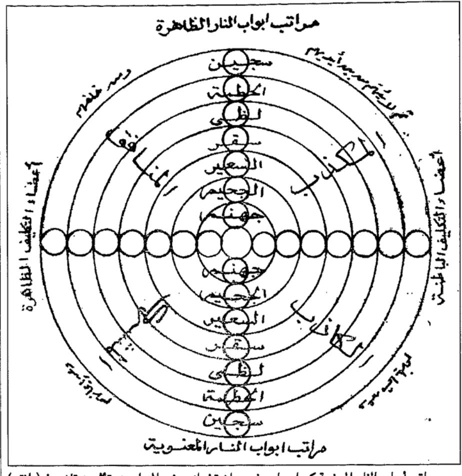
والباب الثانى: يقال له لظى نزاعة للشوى، يقول أكله اليدان والرجلان تدعو من أدبر عن التوحيد، وتولى عما جاء به محمد {صلى الله عليه وسلم}.

والباب الثالث: يقال له سقر، وإنما سُمّي سقر، لأنه يأكل اللحم دون العظم.

والباب الرابع: يقال لها الحُطمة، فقد قال الله تعالى: {وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة} (الهمزة/ ٥ - ٦) تحطم العظام وتحرق الأفئدة، قال تعالى: {التى تَطَّلِعُ على الأفئدة} (الهُمَزَة/٦) تأخذه النار من قدميه وتطّلع على فؤاده، وترمي بشرر كالقصر، كما قال تعالى: {إنها ترمي

بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ} (المرسلات/ ٣٢ ـ ٣٣) يعني سودا فتطلع الشرر إلى السماء، ثم تنزل فتحرق وجوههم وأيديهم وأبدانهم، فيبكون الدمع حتى ينفد، ثم يبكون الدماء، ثم يبكون القيح حتى ينفد القيح، حتى لو أن السفن أرسلت تجرى فيما خرج من أعينهم لجرت.

والباب الخامس: يقال له الجحيم، وإنما سُمّي جحيما، لأنه عظيم الجمرة، الجمرة الواحدة أعظم من الدنيا.



ـ مراتب أبواب النار المعنوية كما جاءت فى بيان تخيله بعض المسلمين وتأثر به تلاميذ (دانتى) ونقله صاحب كتاب «أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية» ص١٠٣.

والباب السادس: يقال له السعير؛ وإنما سُمّي السعير؛ لأنه يسعر بهم، ولم يطف منذ خلق.

والباب السابع: يقال له الهاوية، من وقع فيه لم يخرج منه أبدا، وفيه بئر الهباب، وذلك قوله تعالى: {كلما خبت زدناهم سعيرا} (الاسراء/٩٧) إذا فتح الهباب يخرج منه نار تستعيذ منه النار.

وأبواب النار حديد، فرشها الشوك، وغشاؤها الظلمة، أرضها نحاس ورصاص وزجاج.

وجاء فى القصص النبوى فى رواية عن علي رضي الله عنه، عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن أبواب جهنم سبعة، بعضها فوق بعض، فيملأ الأول ثم الثانى ثم الثالث، ثم الرابع، حتى تملأ كلها».

وعن حطان بن عبد الله قال: قال علي: أتدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا كنحو هذه الأبواب، قال: لا، ولكنها هكذا ـ ووضع يده فوق وبسط يده على يده.

وجاء فى قصة نبوية عن عبد الله بن عمرو أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال:[١١] «إن جهنم تسعر فى كل يوم، وتفتح أبوابها إلا يوم الجمعة، فإنها لا تسعر يوم الجمعة، ولا تفتح أبوابها» و«إذا كان أول ليلة من رمضان، فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم» وفى رواية: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار».

ويبين القصص النبوي أصناف الداخلين فى

أبواب جهنم، فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلّ السيف على أمتي، أو قال: على أمة محمد {صلى الله عليه وسلم} وعن أبيّ بن كعب: «لجهنم سبعة أبواب أشدها غما وكربا وحرا وأنتنها ريحا للزناة الذين ارتكبوا بعد العلم» وروى عن أنس بن مالك عن النبى {صلى الله عليه وسلم} فى قوله تعالى: «لها سبعة أبواب» الآية: (جزء أشركوا بالله، وجزء شكُّوا فى الله، وجزء أغفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفوا غيظهم بغضب الله، وجزء صيروا رغبتهم بحظهم عن الله وجزء عَتَوْا على الله).

وقد نقل القرطبى بعض أقوال السلف فى توضيح الأجزاء التى جاءت فى القصة الأخيرة[١٢] فالمشركون بالله هم الثنوية[١٣] والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلها، أو لا إله لهم، أو يشكون فى شريعته أنها من عنده أولا، والغافلون عن الله، هم الذين يجحدونه أصلا، ولا يثبتونه وهم الدهرية، والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى؛ لتكذيبهم رسل الله، وأمره ونهيه، والشافون غيظهم بغضب الله - تعالى - هم القاتلون أنبياء الله، وسائر الداعين له، المعذبون من ينصح لهم، أو يذهب غير مذهبهم، والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله - تعالى - هم المنكرون للبعث والحساب، منهم من يعبدون أى شيء يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله - تعالى - والعاتون على الله، هم الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون.

ولجهنم رهبة فى قلوب الخلق جميعا، ولا أحد يأمنها إلا برحمة الله، لا فرق فى ذلك بين الملائكة أو الأنبياء والصالحين. فقد قيل إن جهنم لما خلقت فزعت منها الملائكة، وطارت أفئدتهم ، ولم يهدأوا ويسكنوا إلا بعد خلق آدم، بل جاء فى الأخبار: لما خلق الله جهنم أمرها فزفرت زفرة فلم يبق فى السموات السبع ملك إلا خَرّ على وجهه، فقال لهم الجبار - جل جلاله - ارفعوا رءوسكم، أما علمتم أنّي خلقتكم لطاعتي وعبادتي، وخلقت جهنم لأهل معصيتى من خلقى، فقالوا: ربنا لا نأمنها حتى نرى أهلها، فذلك قوله تعالى: {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون}.

ومن القصص النبوي فى الخوف من جهنم ما روي عن ابن وهب عن زيد بن أسلم قال:[١٤] جاء جبريل إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} ومعه اسرافيل، فسلما على النبي {صلى الله عليه وسلم} وإذا اسرافيل منكسر الطرف، متغير اللون، فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} يا جبريل، (مالى أرى اسرافيل منكسر الطرف، متغير اللون؟) قال: لاحت له آنفا حين هبط، لمحة من جهنم فلذلك الذى ترى من كسر طرفه.

ومن ذلك أيضا ما روي أن فتى من الأنصار، دخلته خشية من ذكر النار، فكان يبكى عند ذكر النار حتى حبسه ذلك فى البيت، فذكر ذلك للنبي {صلى الله عليه وسلم} فجاءه فى البيت، فلما دخل النبي {صلى الله عليه وسلم} اعتنقه الفتى، فخرّ ميتا، فقال النبي {صلى الله عليه وسلم}: (جهزوا صاحبكم، فإن الفرق من النار قد فلذ كبده).

ما يبعد عن النار:

والوقاية من النار سهلة لمن يسر الله له ووفقه، فقد جاء فى القصص النبوي ما يدل على ذلك، ففى الترمذي عن أنس بن مالك قال[١٥] قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم أدخله

الجنة، ومن استجار بالله من النار ثلاث مرات، قالت النار: اللهم أجره من النار).

وروى البيهقي عن أبى سعيد الخدرى، أو عن ابن حجيرة الأكبر، عن أبى هريرة أن أحدهما حدثه عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: (إذا كان يوم حار، ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وأهل الأرض، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله، ما أشد حرّ هذا اليوم، اللهم أجرني من حرّ نار جهنم، قال الله لجهنم: إنّ عبدا من عبادي استجار بي منك، وإني أشهدك أني أجرته، وإذا كان يوم شديد البرد، ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وأهل الأرض، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله، ما أشد برد هذا اليوم، اللهم أجرنى من زمهرير جهنم، قال الله لجهنم إن عبدا من عبادى قد استجار بى منك، ومن زمهريرك، أشهدك أنى قد أجرته) قالوا: وما زمهرير جهنم؟ قال: جب يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده بعضه من بعض.

ومن القصص النبوى فى هذا المجال ما ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (ما من عبد يصوم يوما فى سبيل الله، إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا).

وعن أبى هريرة عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (من صام يوما فى سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفا) وعن أبى أمامة عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (من صام يوما فى سبيل الله، جعل الله بينه وبين النار خندقا، كما بين المشرق والمغرب) ويروى: (ما بين السماء والأرض).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (من أطعم أخاه حتى يشبعه، وسقاه من ماء حتى يرويه، بعّده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندق مسيرة مائة عام).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم، بُوعد من جهنم سبعين خريفا).

وهذه نماذج من القصص التى تدعو وترشد إلى الابتعاد عن جهنم وعن أبوابها، والمدار والمعول فى ذلك الإخلاص لله، والثقة فى عظم رحمته، والخوف من مقامه، فذلك مع قليل العمل ينجى من النار، لما روى فى الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول: (من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل).

أدراك جهنم:

الدرك ـ بسكون الراء ـ قعر الشيء ذى العمق، فدرك البئر: أسفله، ويجمع على أدراك، وأدراك جهنم طبقاتها ومنازلها، قال تعالى: (إن المنافقين فى الدرْك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا).

وذكر ابن كثير فى معناها عدة أقوال منها[١٦] الدرك: توابيت ترتج عليهم. ومنها: الدرك بيوت لها أبواب، تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم. ومنها: الدرك: توابيت من حديد مبهمة عليهم.

وقال القرطبي[١٧] فالنار دركات سبعة، أى طبقات ومنازل، وإنما قال: أدراك ولم يقل درجات، لاستعمال العرب لكل ما تسافل درك، ولما تعالى درج. فيقول للجنة درج، وللنار درك، فالمنافقون فى الدرك الأسفل من النار، وهى الهاوية لغلظ كفرهم، وكثرة غوائلهم وتمكنهم من أذى المؤمنين.

قال ابن وهب: حدثنى ابن يزيد قال: قال كعب الأحبار: إن فى النار لبئرا، ما فتحت

أبوابها بعد مغلقة ما جاء على جهنم منذ خلقها الله ـ تعالى ـ إلا تستعيذ بالله من شر ما فى تلك البئر، مخافة إذا فتحت تلك البئر، أن يكون فيها من عذاب الله مالا طاقة لها به، ولا صبر لها عليه، وهى الدرك الأسفل من النار.

وقال معاذ بن جبل ـ وذكر العلماء السوء من العلماء: من إذا وعظ عنف، وإذا وعظ أنف، فذلك فى الدرك الأول من النار، ومن العلماء من يأخذ علمه بأخذ السلطان، فذلك فى الدرك الثانى من النار، ومن العلماء من يخزن علمه، فذلك فى الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من يتخير العلم والكلام لوجوه الناس، ولا يرى سفلة الناس له موضعا، فذلك فى الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يتعلم كلام اليهود والنصارى وأحاديثهم، ليكثر حديثهم، فذلك فى الدرك الخامس من النار، ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا، يقول للناس سلونى فذلك الذى يكتب عند الله متكلف، والله لا يحب المتكلفين، فذلك فى الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة وعقلا، فذلك فى الدرك السابع من النار.

سرادق جهنم:

والسرادق فى اللغة: الخيمة، وكل ما أحاط بالشيء، أو ما يمد فوق صحن البيت. وذكر الله سرادق جهنم فى سورة الكهف فقال: {إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها} قال ابن كثير: أى سورها.

وجاء فى القصص النبوي عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه قال[١٨]: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة».

ونقل القرطبي عن ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قال: قلت: لا، قال: أجل، والله ما تدرى أن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفا،تجرى منها أودية القيح والدم، قلت: لها أنهار؟ قال: لا، بل أودية. ثم قال: أتدرى ما سعة جسر جهنم؟ قلت: لا. قال: قلت أجل، حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} عن قوله تعالى: {والأرض جميعا قبضته يوم القيامة} قلت: فأين الناس يومئذ؟ قال: على جسر جهنم).

ومن هنا يتبين سعة السرادق الذى يحيط بجهنم عند الحديث عن عظمها واتساعها.

سعة جهنم وصفتها:

يتحدث القرآن الكريم عن جهنم وصفتها فى كثير من المواضع، ومما يدل على سعتها ما جاء فى قوله تعالى: {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد}.

ومما يدل على سعة النار وكبر حجمها، ما يصير إليه أهل النار من ضخامة الأجسام وعظمها، ففى قصة عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يقول: «يعظم أهل النار فى النار، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه، مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعا، وإن ضرسه مثل أحد».

وقال القرطبى[١٩]: قال ابن عباس فى قوله تعالى: {وإذا البحار سُجِّرت} قال: أوقدت فصارت نارا، وذكر ابن وهب عن عطاء بن يسار: أنه تلا هذه الآية: {وجُمِعَ الشمس والقمر} قال: يُجمعان يوم القيامة ثم يقذفان فى النار، فتكون نار الله الكبرى، وخرج أبو داود الطيالسى فى مسنده عن يزيد الرقاش، عن أنس يرفعه إلى النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: قال النبي {صلى الله عليه وسلم}: «إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار»[٢٠].

شدة نار جهنم وعظمها وحال أهلها:

قبل أن نسوق النصوص النبوية فى تصوير: نار جهنم وعظمها، نقف أمام بلاغة بيانه {صلى الله عليه وسلم} لعل ذلك يشهد بصدق نبوته فيما يتبين من إخبار عن الغيب وفصاحة النبي الأمي، فالقصص التى نعرضها تبهر ببلاغتها وفصاحتها أساطين البيان فى كل زمان ومكان، وما ميزة محمد {صلى الله عليه وسلم} نبى الإنسانية، إلا أنه تربى وتعلم وتأدب فى مدرسة اللطيف الخبير، فاجتمعت له خاصية الإجادة وحسن البيان، مع الخاصية الإلهية فى استكمال الصفات الأخرى التى تعنى قوله {صلى الله عليه وسلم} (بعثت بجوامع الكلم) و(أنا محمد النبي الأمي - قال ذلك ثلاث مرات - ولا نبي بعدى، أوتيت فواتح الكلم، وخواتمه، وجوامعه) و(إنى أوتيت جوامع الكلم وخواتمه، واختصر لى الكلام اختصارا).

وفى ضوء ذلك يتأمل القارىء ما جاء من قصص مختصر أو عبارات دقيقة، فإنها تحمل فى طياتها المعانى الكثيرة والكبيرة، وذلك - أيضا - مع اليقين بأن ذلك من الغيب الذى لا يتقوله، بل هو مبلغ به من ربه.

فهذه قصص تصور جهنم لترهب الخلق وتنذرهم بعاقبة العصيان فى الآخرة وإن النار فى الآخرة تختلف عن نار الدنيا، وإن جهنم موجودة وحقيقية الآن، وأنها يأكل بعضها بعضا، وإن الله أذن لها بنفسين فى الشتاء والصيف، وبها من صنوف العذاب كالغساق، والحميم، والمهل، ومقامع من حديد وغير ذلك مما سنقف عليه.

يخبر النبي {صلى الله عليه وسلم} عن النار فيقول[٢١]: «ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، قيل: يارسول الله، إن كان لكافية، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلهن مثل حرها» وعن أبى سعيد: (ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم لكل جزء منها حرها) وروى عن أنس: (وإن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها، وإنها لتدعو الله - تعالى - أن لا يعيدها فيها).

وفى رواية عن أبى هريرة - تحكى قصة النار من بدايتها، وعن حالتها قبل يوم القيامة مما يؤكد أن النار موجودة ، يقول: {صلى الله عليه وسلم} «أوقد على النار ألف سنة، حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة، كالليل المظلم» وعنه أيضا: (اشتكت النار إلى ربها فقال: يارب أكل بعضى بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس فى الشتاء، ونفس فى الصيف، فهو أشد ما تجدونه من الحر، وأشد ما تجدونه من الزمهرير) وعنه أيضا: (.. فأما نفسها فى الشتاء فزمهرير، وأما نفسها فى الصيف فسموم).

وجهنم إلى جانب ظلمتها وشدة حرها يحكي عنها القصص النبوي بأنها كريهة الرائحة، وأنها نتنة تؤذى وتعذب بعفونتها، وإن طعامها الزقوم لو قطرت منه قطرة لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، وبها مقامع من حديد يعجز عن حمل الواحد منها الثقلان، وإن الحميم ليصب على رءوس أهل النار حتى يخلص إلى بطونهم، وإن أهون الناس عذابا من يوضع فى اخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه، وإن حالة أهل النار تتغير، فتزيد أجسامهم فى النار، حتى يصير ضرسه كأحد، وغلظ جلده أربعين ذراعا، ويسبحون فى النار على وجوههم بدلا من أرجلهم، نكالا لهم، ويبكون حتى تنقطع الدموع،

ثم يبكون بدل الدمع دمـا، وحين يجـوعـون يستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، يجاءون بطعام ذي غصة وشراب من حميم. هكذا يأتي القصص النبوى مصورا حالة النار وشدتها وأحوال أهلها لحظة بلحظة منذ زلتهم عن الصراط، فلنتأمل الروايات المختلفة يكمل بعضها بعضا.

روي عن أبى سعيد عن النبي {صلى الله عليه وسلم}[٢٢]: قال: «لو أن دلوا من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا» وعن ابن عباس (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه) وعن أبى سعيد: (لو أن مقمعا من حديد وضع فى الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد، كما يضرب أهل النار، لتفتت وعاد غبارا) وعن النعمان بن بشير: (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة، لرجل يوضع فى اخمص قدميه جمرتان، يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل بالقمقم) وفى رواية بها زيادة قوله: (.. ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا) وعن ابن عباس: (أهون أهل النار عذابا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه) وروى ابن عمر: (أن الكافر ليسحب لسانه يوم القيامة وراءه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس) وعن أبى هريرة: (إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان) ولهول عذاب جهنم وشدتها يضخم الله أجساد الكفار ويعظمها لتتجرع أصناف العذاب، وذلك كما فى القصة التى رويت عن أبى سعيد عن النبى {صلى الله عليه وسلم}: (إن الكافر ليعظم، حتى إن ضرسه لأعظم من أحد، وفضيلة جسده على ضرسه، كفضيلة جسد أحدكم على ضرسه) وعن زيد بن أرقم عن النبى {صلى الله عليه وسلم}: (إن الرجل من أهل النار ليعظم فى النار، حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد) وفى قصة عن ابن عمر عن النبى {صلى الله عليه وسلم}: (إن أهل النار يعظمون فى النار، حتى يصير ما بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وغلظ جلد أحدهم أربعين ذراعا، وضرسه أعظم من جبل أحد) وعن أبى هريرة عن النبى {صلى الله عليه وسلم} (إن غلظ جلد الكافر اثنتان وأربعون ذراعا بذراع الجبار، وإن ضرسه مثل أحد وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة) وعنه أيضا: (ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد، وعرض جلده سبعون ذراعا، وعضده مثل البيضاء وفخذه مثل ورقان، ومقعده فى النار ما بينى وبين الربذه(وعن أبى هريرة أيضا: (ما بين منكبي الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع).

ومن العذاب فى نار جهنم، ينكل الله بأهلها فيمشيهم على وجوههم لأنهم كانوا فى الدنيا يقلبون الحق، ويتنكبون الصراط المستقيم، فعن أنس عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن الذى أمشاهم على أرجلهم فى الدنيا، قادر على أن يمشيهم على وجوههم يوم القيامة) وعن سمرة عن النبى {صلى الله عليه وسلم}: (إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته[٢٣]، ومنهم من تأخذه إلى عنقه).

وعن حال أهل النار وألوان العذاب ينقل إلينا القصص النبوي لونا جديدا من العذاب عن طريق الطعام والشراب وما يترتب على ذلك من النكال والتوبيخ، واثارة الحسرة والندامة حين لا

ينفع الندم. فعن أبى الدرداء عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: (يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بطعام ذى غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا، فيستغيثون بالشراب، فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم، فيقولون: دعوا خزنة جهنم، فيقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات، قالوا: بلى، قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال، فيقولون: ادعوا مالكا، فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك، فيجيبهم إنكم ماكثون، فيقولون: ادعوا ربكم، فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنَّا قوما ضالين، ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا فإنا ظالمون، فيجيبهم: اخسئوا فيها ولا تكلمون، فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل) ولأهل النار بكاء يواكب هول مصيبتهم وسعير جهنم، كما جاء عن أنس عن النبى {صلى الله عليه وسلم} أنه قال: (يرسل البكاء على أهل النار، فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير فى وجوههم كهيئة الأخدود، ولو أرسلت فيه السفن لجرت).

ولذلك جاء فى قصة[٢٤] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (لو أن جهنميا من أهل جهنم أخرج كفه إلى أهل الدنيا حتى يبصروها، لأحرقت الدنيا من حرها، ولو أن خازنا من خزنة جهنم أخرج إلى أهل الدنيا حتى يبصروه، لمات أهل الدنيا حين يبصرونه من غضب الله تعالى).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون، ثم تنفس رجل من أهل النار لأحرقهم).

وقال كعب: (لو فتح من نار جهنم قدر منخر ثور بالمشرق، ورجل بالمغرب، لغلى دماغه حتى يسيل من حرها، وإن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا خَرَّ جاثياً على ركبتيه، ويقول: نفسى نفسى) وقال كعب أيضا: (والذى نفس كعب بيده، لو كنت بالمشرق، والنار بالمغرب، ثم كشف عنها لخرج دماغك من منخريك من شدة حرها. يا قوم هل لكم بهذا قرار؟ أم لكم على هذا صبر؟ يا قوم طاعة الله أهون عليكم من هذا العذاب، فأطيعوه).

ـ للموضوع صلة ـ

الهوامش:

(١) أحمد زكى صفوت: جمهرة خطب العرب جـ١ ص١٤٧.
(٢) المرجع السابق جـ١ ص١٤٨.
(٣) المرجع السابق ص١٥٢.
(٤) المعجم الوسيط جـ٢.
(٥) دار الشروق ص ٦٨٦.
(٦) منتخب كنز العمال حاشية مسند الإمام أحمد جـ ٦ ص٧٧. والتذكرة ص ٤٦٤.
(٧) القرطبى: التذكرة ص٤١٦.
(٨) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٥٥١.
(٩) التذكرة ص ٤٤٨.
(١٠) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص١٠٥.
(١١) القرطبى: التذكرة ص ٤٤٦.
(١٢) المرجع السابق ص ٤٤٧.
(١٣) ثني الشيء جعله اثنين.
(١٤) التذكرة ص ٤٤١.
(١٥) المرجع السابق ص ٤٤٢.
(١٦) تفسير القرآن جـ١ ص ٥٧٠.
(١٧) التذكرة ص ٤٤٤.
(١٨) ابن كثير جـ٣ ص٨١ ومنتخب كنز العمال ص٩٩.
(١٩) التذكرة ص ٤٥٧.
(٢٠) سيأتى مزيد من التفصيل عند الكلام عن مكان جهنم.
(٢١) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص١٠٠.
(٢٢) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص١٠٠ والتذكرة ص ٤٥٩ وما بعدها.
(٢٣) الحُجْزة ـ بضم الحاء وسكون الجيم ـ موضع شد الإزار من الوسط والتِّكة من السراويل.
(٢٤) التذكرة ص ٤٦١.

الاستشراق المشبوه ودوره في

تشويه لتاريخ الأمة الإسلامية

الاستشراق والمستشرقون قضية ليست وليدة الساعة بل امتدت جذورها منذ القرن العاشر الميلادي، وبما أن القرن التاسع عشر والقرن العشرين هما فترة الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية وما أسميناه الغزو الثقافي والفكرى فإن عيون علماء العرب - وبخاصة المسلمين منهم - تفتحت على هذا الزخم الوافد، تدرسه وتتفحصه، إذ أن الاستشراق بإيجابياته القليلة وسلبياته الكثيرة أوجب علينا النظر فيه لتبين اهدافه وغاياته.. نفيد بما فيه من خير، ونتصدى لاباطيله وترهاته ندحضها بالحق الدامغ. فى هذه الصفحات نلقي الضوء على هذا الموضوع الشائك من خلال مقال للدكتور البدراوي زهران تحت عنوان (الاستشراق المشبوه ودوره فى تشويه تاريخ الأمة الاسلامية وواجبنا حياله)، وكذا من خلال آراء كل من د. وليد العريض ود. سعد أبو دية والأستاذ اسماعيل أبو البندورة ود. محمد غلاب وتقفي الحوار الذي اجراه محمد السويركي وقد سبق للمنهل ان أصدرت عدداً خاصا بعنوان (الاستشراق والمستشرقون).. ويظل موضوع الاستشراق دائماً موضوعاً خصبا للدراسة والرأي.

= المنهل =

ماهية الاستشراق:

الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى، وكلمة مستشرق تطلق على كل عالم غربى يشتغل بدراسة الشرق من أقصاه إلى أدناه، فى اللغة - والادب - والحضارة - والدين... الخ..

والدراسات الاستشراقية هي: الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام[١].

متى بدأ الاستشراق؟

يشير بعض الباحثين إلى أن الغرب يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمى بصدور قرار مجمع فينا الكنسي فى عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسى اللغة العربية فى عدد من الجامعات الأوروبية[٢].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن البدايات الأولى للاستشراق مطلع القرن الحادى عشر الميلادى. وهناك من يجعلها فى القرن العاشر الميلادى[٣]، ولكن البداية الحقيقية كما أراها وهى بداية الصراع بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى بدء انتشار الاسلام. وذلك لأن رجال اللاهوت النصرانى التفتوا إلى الإسلام بعد انتشاره السريع فى المشرق والمغرب. وبدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته لا من أجل اعتناقه وإنما من أجل حماية إخوانهم النصارى منه[٤].

كما نمّا ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الإسلامى والنصرانى فى الأندلس وصقلية[٥].

كما دفعت إلى ذلك الحروب الصليبية - وتعد الحروب الصليبية وما ترتب عليها من نتائج وما حمله الغربيون فى أثنائها وأعقابها من مخطوطات تحوى علوما هامة هى المذكى الحقيقى للاستشراق، وتاريخ الاستشراق فى مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم النصرانى الغربى والعالم الاسلامى فى القرون الوسطى على الصعيدين الدينى والأيديولوجى[٦].

** تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى، تاريخ للصراع بين العالم النصراني الغربي والعالم الاسلامي.

** الاستشراق أنتج إتجاهاً لاهوتياً متطرفا ضد الإسلام والمسلمين.

بقلم: د. البدراوى زهران
عميد كلية الآداب - جامعة اسيوط



وبدءا من عام ١١٣٠ كان علماء النصارى فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم وكان لرئيس أساقفة طليطلة اتجاهان مختلفان:

١ - اتجاه لاهوتى متطرف فى جدله ينظر إلى الاسلام من خلال ضباب من الخرافات والأساطير الشعبية.

٢ - اتجاه موضوعى ينظر إلى الإسلام من خلال الدراسة والعلوم.

غير أن الثقافة الإسلامية تدخل آخذة طريقها إلى بعض الشخصيات الأوروبية المستنيرة مثل فردريك الثانى حاكم صقلية الذى اصبح إمبراطور ألمانيا عام ١٢١٥م، وقد كان يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى اللبس والعادات ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية وقد أهدى وابنه إلى جامعات بولونيا ترجمات عن العربية.

وفى عام ١٢٢٤ أسس الامبراطور جامعة نابولى وجعل منها أكاديمية لإدخال العلوم العربية إلى العالم الغربي. وقد طرد البابا «جريجورى التاسع» هذا الإمبراطور من الكنيسة عام ١٢٣٩م بتهمة ما يبديه من وُدّ تجاه الإسلام.

ولكن القرن التاسع عشر والقرن العشرين هما عصر الازدهار الحقيقى للحركة الاستشراقية. فقد أنشأت الحكومة الثورية في باريس سنة ١٧٩٥ مدرسة اللغات الشرقية الحية وبدأت حركة الاستشراق فى فرنسا تأخذ الطابع العلمى على يد «سلفستر دى ساس» (ت ١٨٣٨) الذى جعل باريس مركزا للدراسات العربية وأمَّه التلاميذ من جميع أوروبا.

أما فى القرن الثامن عشر فقد انفصل الاستشراق عن اللاهوت فى فرنسا وانجلترا فقط.

وقد اهتم الاستشراق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية وصدرت المجلات والمطبوعات. وفى القرن التاسع عشر كانت بدايات المؤتمرات الدولية للمستشرقين[٧].

وقد اهتم الغرب بدراسة حياة آسيا وإفريقيا وأدبها الشعبى وأساطيرها وخرافاتها وأمثالها وذلك تحت مسميات مختلفة تحمل عناوين جديدة متنوعة ومسميات بعناوين فنون توحى بأنها شيء جديد، والواقع أن مبعث ذلك عندهم هو الرغبة فى فهم الفكر المكون للشخصية الاسيوية والإفريقية ومعرفة مكونات فكر الشخصية الإسلامية وتقاليدها ليصل من خلال ذلك إلى الأحاسيس العميقة التى يريد أن يحقق من خلالها أهدافه.

* ضباب الخُرافات والأساطير الشعبية استغلها بعض المستشرقين لمحاربة الإسلام.

** الاستشراق أسس مجموعة من الجمعيات والمعاهد لمتابعة الدراسات الاستشراقية.

ومن هنا تعد هذه كلها منطلقات تربط الاستشراق بالتنصير من جانب وتربطه بالاستعمار من جانب ثان وبالتبشير من جانب ثالث.

علاقة الاستشراق بالتنصير:

فى هذا الزمن البعيد لم يكن من السهل فصل الاستشراق عن التنصير فالاستشراق يقوم على أساس معرفة اللغات الشرقية التى هى الوسيلة للتعرف على عقائد وحضارات الشرق.

والتنصير يتفق مع الاستشراق فى هذا الهدف بل إنه يحتم معرفة لغات من يراد تنصيرهم. وفى القرن الثالث عشر ظهرت أهمية ضرورة تعلم لغات المسلمين وحوِّل هذا إلى خطة عمل فيما بعد[٨].

ويعد «جيوم بوشتيل» (ت ١٥٨١) أول المستشرقين الحقيقيين الذي جمع مجموعة هامة من المخطوطات وكان يرى أن تعلم اللغة العربية يفيد فى التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس بالإضافة إلى أنها تحتوى على أدب ثرى، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء النصرانية وأن ينقضهم بمعتقداتهم، ويفخر بأنه عن طريق معرفة لغة واحدة يتعلمها يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم[٩].

وفى القرن السابع عشر قام المستشرقون بجمع المخطوطات الإسلامية وأنشئت كراس للغة العربية فى أماكن مختلفة. وكان إنشاء كرسى جامعة كمبردج سنة ١٦٣٦ ونص القرار على هدفين.

١ - الاول: تجاري.

٢ - والثانى: تنصيري[١٠].

بل إن الاستشراق إلى اليوم لم يحرر نفسه من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساسا، والأفكار العتيقة عن الاسلام لم تتغير فيما يتعلق بالقرآن والعقيدة والشريعة الإسلامية والتاريخ الاسلامى[١١].

ومازال الخوف من الإسلام هو القاعدة؛ وحتى نهاية القرن السابع عشر كانوا ينظرون إلى أن الخطر العثمانى مازال رابضا عند حدود أوربا ويمثل فى اعتقادهم تهديدا مستمرا بالنسبة للمدنية النصرانية كلها[١٢].

ويسمون الإسلام بالدين المحمدي ويسمون أتباعه (Mohammedanism) المحمديون نسبة إلى سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} مدعين أنه من صُنْع محمد {صلى الله عليه وسلم}.

وقد وضع الاستشراق أيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام من خلال حملات عدائية ضد الإسلام

والمسلمين من المستشرقين ومن وسائل الاعلام الغربية.

والتبشير المسيحي اليوم هو امتداد لحركة التنصير وهيئات التبشير وعملها قائمة على دراسات الاستشراق وقوة التبشير مستمدة من أعمال المستشرقين ودراساتهم وأغراض التعليم التبشيرى، والخدمات الاجتماعية للإرساليات ودورها فى السياسة العامة كلها مستهدية بدراسات الاستشراق عن تلك المناطق. وكذلك ما يتصل بالعلاقات بينها وبين الدول التى تقوم فيها حركة التبشير والاتجاهات التى تتبعها فى بعض المناطق وإزاء بعض الحكومات وما تقوم به من أعمال تنصر بها بعض أبناء مناطق معينة على آخرين أو على الحكومة. كلها مبنية على دراسات استشراقية متغلغلة فى بواطن الأمور.

علاقة الاستشراق بالاستعمار:

الاستشراق جزء لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربي.

وهو يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، فهو الذى صاغ التصورات الأوربية عن الإسلام للغربيين فهم يستقون معلوماتهم عن الإسلام من كتابات المستشرقين وحتى الفلاسفة والأدباء الغربيين فى كتاباتهم يستقون معلوماتهم من كتابات المستشرقين.

والتراث الاستشراقى كان دليلا للاستعمار فى شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها. معنى ذلك أن هناك حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية، فمعلومات المستشرقين تقود سيطرة المستعمرين وتسهل طريقهم. وتتضح العلاقة الحميمة بين الحروب الصليبية والاستعمار والحروب الصليبية والحركة الصهيونية والاستفادة من أعمال المستشرقين فى الأقوال الثلاثة الآتية.

- وقف غورو أمام قبر صلاح الدين وقال: عُدْنَا ياصلاح الدين.

- وقال اللورد اللنبي: الآن انتهت الحروب الصليبية.

- وقال بن جوريون كلمة هى استراتيجية يتبعونها: «إن ضمان إسرائيل فى البقاء هو اختلاف العرب».

وجاء فى تقرير وزير المستعمرات البريطانى اورمسبى غو لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٨ ما يأتى: «ان الحرب علمتنا أن الوحدة الاسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الامبراطورية أن تحذره وتحاربه وليس الإمبراطورية وحدها، بل فرنسا أيضا - ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة» إن سياستنا الموالية للعرب فى الحرب العظمى لم تكن مجرد نتائج لمتطلبات تكتيكية ضد القوات التركية. بل كانت مخططة أيضا لفصل السيطرة على المدينتين المقدستين: مكة المكرمة - والمدينة المنورة عن الخلافة العثمانية التى كانت قائمة آنذاك.

ولسعادتنا فإن كمال أتاتورك لم يضع تركيا فى مسار قومى علمانى فقط بل أدخل إصلاحات بعيدة الأثر أدت بالفعل إلى نقض معالم تركيا الاسلامية.

الاستعمار امتداد للحرب الصليبية:

وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقى وسيطرة الاستعمار تعد تعزيزا للاستشراق ومن هنا نجد أن مرحلة التقدم فى مؤسسات الاستشراق تسير مع مرحلة التوسع الاوربى فى الشرق (١٨٥٧ استولت انجلترا على الهند - ١٨٥٧ استولت فرنسا على الجزائر - بداية القرن السابع عشر احتلت هولندا جزر الهند الشرقية

اندونسيا ـ ١٨٨١ احتلت مصر وتونس).

بعد الحرب العالمية الأولى كان العالم الاسلامى تقريبا خاضعا للنفوذ الغربي، فى فرنسا عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال افريقيا فمثلا/ دى ساسى من ١٨٠٥ يشغل منصب المستشرق المقيم فى وزارة الخارجية الفرنسية وهو الذي ترجم البيان الموجه للجزائريين عام ١٨٣٠[١٣].

الاستشراق واليهود:

جاءت صلة الاستشراق باليهود من خلال أعمال المستشرقين الغربيين فقد كان الاستشراق منفذا لليهود لينفثوا منه سمومهم ضد الإسلام. ويعد جولدتسهر وهو يهودي زعيم علماء الإسلاميات فى أوربا بلا منازع وقد تمكن من خلال الحركة الأوربية الاستشراقية النصرانية أن يحقق أهدافه ودعا اليهود لأن يندمجوا فيها حتى لا يعزلوا أنفسهم ويقل تأثيرهم ففرضوا أنفسهم عن هذا الطريق وحققوا أهدافهم[١٤].

انواع الاستشراق واصناف المستشرقين:

يصنف الدارسون المستشرقين أصنافا منهم:

١ ـ طلاب أساطير وغرائب وأكاذيب على الاسلام.

٢ ـ فريق المرتزقة وهدفه خدمة الأغراض الاقتصادية والسياسية والاستعمارية.

٣ ـ فريق من المتغطرسين أقلامهم تقطر حقدا وعداوة وطعنا على الإسلام مثل: برويل ، وبريد ، وسيل.

٤ ـ فريق انحرفوا عن البحث العلمى وأخذوا يتلمسون نقاط ضعف فى الإسلام ويشككون فى صحة الإسلام والتوحيد والقرآن، والحديث والفقه الإسلامى وقدرة اللغة العربية... الخ.

٥ ـ فريق التزم الموضوعية فأدى به الأمر الى أن اعتنق بعضهم الإسلام.

٦ ـ فريق عكف على دراسة اللغة وفقه اللغة والأدب واشتغل بالمعاجم.

وهكذا نرى أن فئات المستشرقين متنوعة وان أنواع الاستشراق المشبوه متعددة. وأن ألوان الحقد لا تزال تعيش قوية بينهم وأن فئة منهم تحرص على نشر التحامل القديم على نطاق واسع بأساليب مختلفة وتشويه تاريخ الأمة الإسلامية وأنهم على الرغم من ذلك يشيعون أن أحكامهم وأعمالهم تتسم بالحياد والموضوعية وأن علينا أن نتقبلها وإلا فنحن متخلفون جاهلون قاصرون عن فهم الأمور فهما علميا[١٥].

فدوزى مثلا يقول عن القرآن الكريم: «بأنه كتاب ذو ذوق ردىء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل وفيه إطناب بالغ وممل إلى حد بعيد[١٦].

وجورج سيل وريnan اعتبرا القرآن من صنع محمد {صلى الله عليه وسلم} ويقولان بأن الرسالة المحمدية امتداد للقديم دون اشتمال على أى جديد.

وريتشارد بيل مؤلف كتاب مقدمة القرآن يقول: لقد اعتمد القرآن على الكتاب المقدس وخاصة العهد القديم فى قسم القصص.

والمستشرق الغربى «ألوت» يقول: إن القرآن مدين بفكرة فواتح السور من مثل حم، طس، الم، لتأثير أجنبى ويرجح انه تأثير يهودى ظنا منه بأن هذه السور مدنية ونسي أن عدد السور المبدوءة بأحرف/ ٢٩ سورة منها ٢٧ مكية، وأن اثنتين هما المدنيتان فقط[١٧].

ويقول بارت إن المعلومات الواردة فى القرآن عن عيسى وأمه خاطئة وهذا يؤكد أن القرآن من تأليف (سيدنا) محمد {صلى الله عليه وسلم} وأن محمداً خرج يعلن دينه الجديد الذى لفقه من الدينين الكبيرين النصرانية واليهودية[١٨].

** التنصير والاستعمار هدفان بارزان للاستشراق.
** المخطوطات الإسلامية شكلت المرجعية الأولى للاستشراق.

على حين أنهم فى الواقع يفعلون غير ما يشيعون ضد القرآن والإسلام فهم يسجلون ويقولون فيما بينهم إن «القرآن خطير لأنه اشتمل عل مبادىء تقيم الدنيا وتقعدها إذا تحقق فهمها وتطبيقها ساد أهله العالم كله وتحكموا فى مصيره. فهم لذلك قد عملوا على تطبيقها من ناحية، وبذل المستعمرون جهدا كبيرا ليبقى القرآن مجهولا بين ابنائه وأن تظل مبادؤه مهجورة بعيدة عن التنفيذ، ويهلع الغرب عندما يعلم بوجود تيار إسلامي ويحاربه بكل قوة ويشيع أن سبيل العرب العلمانى هو الطريق الصواب[١٩].

وقد رأى المغرب أن الشرق يمثل كيانا قويا وجدانيا وعقليا وجسميا وروحيا وقوميا ووطنيا وأن الإسلام هو الذى خلق هذه الشخصية المتماسكة الواعية المتكاملة، ورأى أنه لكي يصل إلى هذا الكيان المتماسك القوى عليه أن يدور من حوله وذلك وفق تخطيط مدروس علميا وعمليا عماده الاستشراق المشبوه، وبدأ بإدخال طرز جديدة متطورة على الحياة اليومية الشرقية تزيدها ترفا بل ترهقه بالرفاهيه والمتعة الحسية، فطور حاجات الفرد فى المتعة والطعام واللباس والزينة ونشر القصص والخيال الأوربى الذى يداعب المراهقة الفكرية والنفسية والجنسية حتى بلغ الطوفان الفكرى مداه، ونشر العادات المخالفة للمعتقدات فى الزى والأخلاق والمعاملات وأعان على ذلك أن استعانت المؤسسات والهيئات العلمية ببعضهم، وإرسال أبناء الأمة إلى جامعاتهم يتعلمون ويتثقفون بثقافاتهم ويطبقونها.

وأعان على ذلك أيضا أنه استطاع عَبر تاريخه الطويل أن يصل إلى عقول أبناء الشرق ونجح فى أن يجعلهم من بين المؤمنين به والمنفذين لأهدافه بل والأكثر أن منهم من يصنف نفسه ضمن طوائفه[٢٠].

فاتجاه الأوربيين لدراسة الشرق وإقامة مؤسسات ضخمة لذلك من بينها مؤسسة الاستشراق وراءه أهداف معينة أولها:

١ ـ الهدف الدينى: فهو وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية ـ ومحاربة الاسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه ـ وحماية النصارى بحجب حقائق الإسلام عنهم ـ والتبشير وتنصير المسلمين وقرار فينا الكنسى فى ١٣١٢هـ يؤكد هذا بالاضافة لبقية الأهداف الأخرى ومن بينها:

٢ ـ الأهداف العلمية.

٣ ـ الأهداف التجارية.

٤ ـ الأهداف السياسية.

وأعان على تحقيق هذه الأهداف فى مجموعها أن انفتح الغرب على الحضارة الإسلامية بفضل ما اطلع عليه من مخطوطات إسلامية متنوعة فى العصور الوسطى، فقد أخذ العرب من الشرق ما أقام عليه نهضته دون أن يمس خصوصيته الحضارية والثقافية والفكرية، فأخذوا ما يصلح

** كثير من علماء ومفكري المسلمين تبنوا آراء وأفكار المستشرقين.
** تحت مسمى الحرية الشخصية ، وحقوق الانسان انتهكت كثير من حرمات المسلمين.

أن يكون مشتركا إنسانيا عاما وتركوا ما يمثل خصوصية حضارية للمسلمين بل وقفوا منه موقف العداء والرفض وأكثر من ذلك أنهم شوهوه. فقد أخذوا العلوم الطبيعية: الطب - والصيدلة والجبر والهندسة وغير ذلك من العلوم وقواعد النظافة العامة والخاصة، وأخذوا قواعد المعاملات التى وضعها الإسلام، وأخذوا علوم الزراعة والنبات والحيوان وفنون وعلوم الحرف والصناعات والتجارة والمواصلات ووسائل الاتصال - وفنون القتال واستحكامات الحرب، وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وما يتصل بذلك مما برع فيه علماء المسلمين وعلم المعادن والبصريات وغير ذلك من العلوم المتنوعة التى أقام عليها الأوربيون حضارتهم - وكان سبيلهم إلى ذلك كله المخطوطات حيث أدركوا قيمة هذه المخطوطات وما تحمله من ثروة علمية وفكرية فقرروا الحصول عليها وعملوا على:

- جمع المخطوطات العربية.
- جمع المخطوطات من كل بلاد الشرق الإسلامى.
- وعيهم بما تحمله المخطوطات من تراث غنى فى شتى المجالات والعلوم.
- بعض حكام أوربا فرضوا على كل سفينة تجارية تتعامل معهم أن تحضر معها بعض المخطوطات.
- الحملة الفرنسية ساعد نفوذها على جلب الكثير من المخطوطات.
- الحملات الصليبية حملوا معهم وفرة من المخطوطات.
- الجهات المعنية فى أوربا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق.

مثال «فريدريش فيلهلم الرابع» ملك بروسيا أرسل ريتشارد ليبسيوس إلى مصر عام ١٨٤٢م - «هنيرش بترمان» ١٨٥٢ إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية. وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة ولقيت المخطوطات فى أوربا اهتماما عظيما، وتم العمل على حفظها وصيانتها وفهرستها فهرسة علمية نافعة وصيانتها من التلف، وفهرستها فى وصف دقيق للمخطوط مع إشارة إلى ما يتضمنه من موضوعات وذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته وتاريخ تأليف الكتاب أو نسخه، وبذلك وضعت وتحت تصرف الباحثين الراغبين فى الاطلاع عليها فى مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات وغيرها من الأمور المعوقة.

فقد قام (Ahlwardt) ألوارد مثلا بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة لندن فى عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فنا ودقة وشمولا واشتملت فهرسته نحو عشرة آلاف مخطوط فى نهاية القرن الماضى؛ وفى كل الجامعات والمكتبات عمل المستشرقون فهرسات دقيقة.

قامت السيدة كراتشكوفسكى بتقديم بحث عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم فى القرن السادس عشر الميلادى[٢١].

وهكذا بذل المستشرقون جهودا ضخمة فى مجالات مهجورة وعلوم متعددة خدمت جوانب فى التراث الإسلامى من بينها على سبيل التمثيل ما قاموا به فى مجال:

- التحقيق والنشر[٢٢].
- الترجمة واللغات التى تمت فيها ترجمة القرآن مع التعريف التمهيدى بالإسلام من وجهة نظر خاطئة.
- التأليف حوالي ستين الف كتاب حول الدراسات الإسلامية فى مختلف مجالاتها[٢٣].
- بالاضافة إلى دائرة المعارف الإسلامية فهى من عملهم.
- ولهم كذلك فى مجال المعاجم اعمال دقيقة.
- ومعجم فيشر الذى طبعه مجمع اللغة العربية قضى فيشر فيه أربعين عاما.

فالمستشرقون يتفانون فى أعمالهم ويخدمون أهدافهم بإخلاص تام وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل ولديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة. ويشيد الشيخ مصطفى عبد الرازق بهم ويبدى من الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم[٢٤].

ومكاتبهم عامرة بأحدث ما ينشر عندنا[٢٥] ، وقد كان هذا هو المدخل الذى عن طريقه تمكنوا من أن يشوهوا تاريخ الأمة الإسلامية هذا بالاضافة إلى الدور الذى يقومون به عن طريق ما تسند إليهم من أعمال. فمن بين أعمال المستشرقين:

١ - التدريس الجامعى.
٢ - جمع المخطوطات وفهرستها.
٣ - التحقيق والنشر.
٤ - الترجمة من العربية إلى اللغات الأوربية.
٥ - التأليف فى شتى المجالات والدراسات العربية الاسلامية.

وقد تمكنوا عن طريق هذه الأعمال من تشويه جانب كبير من تاريخ الأمة الإسلامية فمثلا عن طريق التدريس الجامعى. كل جامعة أوربية أو أمريكية بها معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية، وفى بعض الجامعات أكثر من معهد، ويرأس كل معهد أستاذ ويساعده محاضرون ومساعدون وتقوم هذه المعاهد بمهمة تعليم اللغة العربية والثقافة الاسلامية وتخريج الدارسين فى أقسام الماجستير والدكتوراه ليخرجوا فى المجال الاستشراقى فى الجامعات والسلك الدبلوماسى أو الالتحاق بأعمال الاقسام الشرقية لدور الكتب أو مراكز البحوث المهتمة بالدراسات الشرقية وأعمال الشرق.. الخ. ولكل معهد مكتبة وتفتح أبوابها للدارسين. وعن طريق هذه المسالك استطاع أصحاب الأهداف المشبوهه أن يحققوا أهدافهم وأن ينفذوا إلى اغراضهم فى تشويه تاريخ الأمة الاسلامية والشاهد على ذلك أعمال كثيرة متنوعة فى مجالات متعددة نشير إلى بعضها فيما بعد - والأهم من ذلك أنهم استطاعوا أن ينفذوا إلى بعض أبناء الأمة الإسلامية أنفسهم ممن يدرسون على أيديهم سواء فى كتاباتهم أو أعمالهم أو ما يزعمونه من آراء تجاه الاسلام أو ما يدعون إليه من فلسفات نحوه ، رأينا بعض أبناء المسلمين يحملون لواء الدعوة إلى إصلاح الإسلام كما يفهمه المستشرقون[٢٦]. ومازالت إلى اليوم الأحداث والتفاعلات التى تصاحب ما يصدر من الغرب ضد الإسلام تؤكد أن الحرب الصليبية لم تنته وإنما هى المحركة لتفاعلات الغرب مع الشرق

ولكنها تتخفى تحت أردية مختلفة فتارة رداء الاستنارة وتارة رداء حرية الفكر، وتارة رداء التحرر والتفتح.. ولا أدل على ذلك من كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدى فان تعصب الغرب حول هذا الكتاب وطبعه بأكثر من لغة والاعلان الذى صاحب الدعاية لهذا الكتاب ليؤكد ذلك وهو دليل على ما يسلكه الغرب من أساليب متنوعة فى تشويه صورة تاريخ الإسلام من خلال دراسات الاستشراق فعلى الرغم مما حمله هذا الكتاب من تهجم ومخالفة صريحة لكل ما جاء فيه ضد الحقائق الإسلامية الراسخة فقد وقفوا ضد الحق ونزعوا نحو الباطل واختاروا لذلك حججا واهية فتارة دافعوا عنه باسم الحرية وتارة بدعاوى حوار الحضارات والتلاقح الثقافى، والواقع أن الإسلام هو محور الصراع وتشويه تاريخ الإسلام وحقائقه هو هدف الاستشراق المشبوه.

وتعتمد مخططات الاستشراق المشبوه على اختيار الوقت الملائم لتحريك نفر من اتباعها من طرف خفى فيخرجون على العالم بكتابات تشوه صورة الإسلام أمام العالم الغربى بهدف الطعن فى الإسلام والتشكيك فى عقائده وقيمه:

وتقف قوى الاستشراق من خلف هؤلاء النفر تبرزهم وتدافع عنهم وتجعلهم قمما فكرية وأدبية ودينية[٢٧].

واجبنا حيال الاستشراق المشبوه:

أولا: اعادة بناء الشخصية المسلمة ضرورة حتمية وذلك عن طريق: الارتباط بالتراث الاسلامى وبعث العادات والتقاليد والأخلاق الاسلامية.

ثانيا: إعادة مفاهيم التاريخ على أسسه السليمة الدقيقة.

ثالثا: التأكيد على غرس العقيدة السليمة والاخلاص فى تدريسها حتى تصبح منطلقة من اللاشعور فتقوى على المهاجمة.

رابعا: مواجهة ما صنعه الاستعمار فى الشعوب الشرقية فى فترات الاستعمار حيث انه لم يُمكن من قيام قاعدة فكرية قوية لها استراتيجية وتخطيط مستقبلى مما أثر تأثيرا سيئا على تربية الوجدان الاسلامى العميق مما ساعد على ما نراه اليوم بين شبابنا من خلق جيل قلق الروح متناقض الوجدان والفكر مرتاب فى الحاضر شاك فيه خائف من المستقبل بعيد الجذور عن الماضى يعيش التناقضات بين ما يسمعه من قيم خلقية وما يراه من واقع مؤلم.

خامسا: اتخاذ الخطوات المدروسة المضادة لما يقوم به المبشرون وغيرهم ازاء الاقليات العربية يضاف إلى ذلك محاولة القضاء على النعرات الطائفية والبلدانية والاقليمية والشعوبية عن طريق فهم الروح الاسلامية الفهم الصحيح.

الاهتمام بتصحيح الحقائق التاريخية والعقائدية مع اضفاء صبغة الدراسة والموضوعية واتباع المنهج العلمى للقضاء على ما يريده ازاء زلزلة العقائد وتشويه الحقائق العلمية الثابتة.

مناقشة القضايا المثارة مناقشة علمية، مثل ما يشيعه من ان اللغة الفصحى سبب تخلف الأدب والفكر وما يشيعه كذلك عن عقم اللغة العربية عن الانتاج العلمى ومسايرة التقدم وعلوم العصر، كل تلك القضايا يجب أن توضع بين ايدى الدارسين لتجليتها بالحقائق التاريخية الثابتة والتراث العلمى الحي الذى استقى منه المستشرقون أنفسهم مما أقاموا عليه نهضتهم.

سادسا: إذا كانت الأجيال المستهدفة هى أجيال الحاضر والمستقبل فانه يتحتم علينا أن ننير الطريق أمام تلك الأجيال.

سابعا: مسئولية أصحاب الرأى والتوجيه،

**** المستشرقون اهتموا كثيرا بالدراسات الشرقية للوقوف على التركيبة النفسية والاجتماعية لشعوب الشرق.**

**** إن ضمان اسرائيل في البقاء هو اختلاف العرب** «بن جوريون»

والدعاة، والمؤسسات التربوية والعلمية، وأجهزة الاعلام وغيرها مسئولية عظمى فى مواجهة الحجة بالحُجَّة والدراسه الواعية الدقيقة المتأنية التى تواجه أهداف الاستشراق المشبوه ودوره فى تشويه تاريخ الأمة وحقائقها، فالهدف السيطرة الثقافية حتى يأمن الغرب فى ظلها على مصالحه ، فنحن الآن أمام غزو حضاري وسيطرة استعمارية وصهيونية عالمية.

ثامنا: الدراسات الدقيقة فى مواجهة ما صنعه المستشرقون من دراسات متأنية وفحص عميق فى مكونات العقل الشرقى من أفكاره ومعتقداته وعقائده ودياناته وعاداته وتقاليده وأساطيره ولغاته ولهجاته وطوائفه وحضاراته بهدف الاستفادة مما صنعوه فنطور به حاضرنا ونصنع به مستقبلنا مع التركيز على القيم الاسلامية والعادات الحضارية والاخلاق والتقاليد التى زرعها الاسلام فى شعوبه بين معتنقيه من بناء وجدانى ونفسى متوائم يربطنا بأصولنا ويعيد لنا تواؤم شخصيتنا ونفسيتنا ووجداننا من خلال الايمان[٢٨] الذى زرعه فينا الاسلام واذا كان الغرب يعيش على تحقيق اهدافه باعداد علمى منسق وتطور حضارى يصنع كل يوم خطوة نحو التقدم ويقوم على ادارة محكمة وتقنية متطورة فى العمل والسلوك فعلينا ان نستفيد من منهجه فى ذلك وان نستفيد من التراث الاسلامى ومن دراسة حاضر عالمنا الشرقى بما فيه من متناقضات فى الفكر والتقدم العلمى وان نضع الخطط ونحدد الهدف والقصد مع ضرورة الاستفادة من القوة البشرية والطاقات الفكرية والعقلية، وضرورة الاستفادة من الثروات المتعددة والموارد الأولية المتزايدة، والموقع الجغرافى وعلينا أن نتخطى التخلف الحضارى مع الاستفادة بكل الوسائل من رجال التعليم فى كل المراحل ومن الدعاة ورجال الدين ومن الإعلاميين والمفكرين، فإن ضيق ثقافة واحد من هؤلاء وعدم معرفته بتراثه وجهله بجذور حضارته والقيم والتقاليد والأخلاق التى غرسها الإسلام هو الذى أوصلنا إلى ما نحن فيه، ويمكننا أن نحقق ما نريد عن طريق التأهيل الثقافى المدروس.

تاسعا: عمل موسوعة للرد على المستشرقين.

عاشرا: انشاء مؤسسة اسلامية عالمية علمية مثل مؤسسة الاستشراق مع إنشاء دار نشر اسلامية عالمية، وعمل الحوار مع المستشرقين المعتدلين ونشر كل ما يحقق الأهداف التى نسعى لتحقيقها.

حادى عشر: انشاء مؤسسة اسلامية تبشيرية عالمية.

ثانى عشر: عمل دائرة معارف اسلامية جديدة مصححة.

ثالث عشر: عمل ترجمة اسلامية لمعانى القرآن الكريم. بلغات متعددة ولا سيما لأفريقية وآسية

** ان الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي ان نحذره «وزير المستعمرات البريطاني».

** بذل المستعمر جهداً كبيراً في ان يبقى القرآن الكريم مجهولاً بين المسلمين.

بالاضافة للغات الأوربية.

رابع عشر: تنقية التراث الاسلامى مما فيه من اسرائيليات وغيرها.

خامس عشر: الحضور الاسلامى فى الغرب.

سادس عشر: الاستفادة من العلوم التى تمثل المشترك الانسانى العام وهى العلوم التى موضوعها الطبيعة وظواهرها والمادة وخصائصها وهى من قبيل الفكر الانسانى العام فمناهجها محايدة، والتجربة بالحواس المادية سبيلها ومثلها بقية التجارب الانسانية فى الوسائل والنظام والمؤسسات والخبرات مع الاستفادة من المؤسسات النيابية والديمقراطية.

الهوامش:

(١) انظر فى ذلك: الاستشراق، ادوارد سعيد. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، محمود حمدى زقزوق الاستشراق والمستشرقون عبد الجليل شلبى. المستشرقون لنجيب العقيقى - دار المعارف.

(٢) ولكن معناه انه كان هناك استشراق غير كنسى قبل هذا التاريخ انظر: الاستشراق ادوارد سعيد ص٨٠ نقلا عن الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، د. محمود حمدى زقزوق ص١٩.

(٣) ونجيب العقيقى يجعل الاستشراق بدءا من الراهب الفرنسى جرير دى أورالياك (٩٤٠/١٠٠٣م) الذى قصد الاندلس وتتلمذ على أساتذتها فى أشبلية وقرطبه حتى عُدَّ من اوسع علماء عصره ثقافة بالعربية فى أوروبا وتقلد منصب البابوية فى روما باسم سلفستر الثانى ٩٩٩/ ١٠٠٣)، المستشرقون للعقيقى ١١٠/١.

(٤) (يوحنا الدمشقى ٦٧٦/ ٧٤٩م) من مصنفاته فى هذا العدد لإخوانه فى الدين كتاب محاوره مع مسلم، وكتاب: إرشادات النصارى فى جدل المسلمين، يوحنا شرقى وخدم فى القصر الأموى، المستشرقون لنجيب العقيقى جـ١ ص٧٢، دار المعارف.

(٥) وقد كانت هناك أقوال سيئة عن الإسلام وصفت بانها صدرت فى عصور الجهالة حيث روجت بعض الخرافات ضد الإسلام بهدف الصد عنه، ولكنه فيما بعد صدرت فى مقابلها دراسات جادة تبحث فى موضوعية عن الاسلام.

(٦) C.E.Bosworthi Orientalism and Orientalists (in, Arab islamic Bibliography) 1977 greet Britain

(٧) مؤتمر اكسفورد ضم تسعمائة عالم من (٢٥) خمساً وعشرين دولة و٨٥ جامعة و(٦٩) تسعاً وستين جمعية علمية ومجموعات العمل فى كل مؤتمر أربع عشرة مجموعه تختص كل منها ببحث مجال معين من الدراسات الاستشراقية وتنشر بحوثها فى مجلدات للاهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل - صارت أصولا وأمهات وأسانيد للباحثين (العقيقى ٣٦٥/٣ وما بعدها) (ص٤٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى د. محمود حمدى زقزوق.

(٨) روجر بيكون (١٢١٤/ ١٢٩٤م) كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التى يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحى ويفرض توفر شروط ثلاثة هى - معرفة اللغات الضرورية لهذا الغرض - دراسة انواع الكفر وتميز بعضها من بعض - دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها (سادرن ص٧٦) - الاستشراق والخلفية.. السابق ص٢٨ وشاركه فى افكاره رايموندلول (١٢٣٥/ ١٣١٦).

ولد فى جزيرة ميورقه الأسبانية وتعلم العربية على يد عبد عربى وكانت له جهود فى إنشاء كراس لتدريس اللغة العربية فى أماكن مختلفة بهدف إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصرانى وقد صادق مجمع فينا الكنسى فى عام ١٣١٢ على افكار بيكون ولول وأصبحت اللغة العربية تعلم فى خمس جامعات.

(٩، ١٠) المرجع السابق ص٢٩/٣٠.

(١١) والاكثر من ذلك أن اليونسكو وهى هيئة عالمية دولية تشترك فيها الدول الإسلامية ومع ذلك تستكتب المستشرقين بوصفهم متخصصين فى الإسلاميات للكتابة عن الإسلام والمسلمين فى الموسوعة الشاملة التى تصدرها اليونسكو عن «تاريخ الجنس البشرى وتطوره الثقافى والعلمى». ولذلك نجد

الموسوعة بها مجافاة للحقائق التاريخية وتتهجم على النبي محمد [صلى الله عليه وسلم]، الاسلام والمستشرقون للدكتور عبد الجليل شلبي (ص٤١٣) القاهرة ١٩٧٧ ويدعو كيسلنج إلى عدم النظر إلى الإسلام الذى جاء به محمد والموجود فى التراث ويقول إن إسلام الكتاب والسنة إسلام ميت وأن الاسلام المنتشر هو الإسلام الحى الذى يجب الاهتمام به والاستفادة مما فيه من عيوب يرتكبها المسلمون لمحاربة الإسلام والمسلمين.

(١٢) ومن هنا يمكن فهم ما يزعم «مور»: ان سيف محمد والقرآن هما اكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضد الحضارة والحرية والحقيقة. انظر الاستشراق والخلفية الفكرية ص١١٧ - وما يدعيه «فون جرونيبام» عن الدين الإسلامى من أنه: «دين غير إنسانى وغير قادر على التطور والمعرفة والموضوعية وهو دين غير خلاق وغير علمى واستبدادى» ، «إدوارد سعيد» ص٨٩ ، ١٦٨/ ٢٩٦ ، والاستشراق والخلفية (السابق) ص١١٧. وما ينادى به الشاعر الاستعمارى المشهور «كبلنج» من أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون منطقيون قادرون على اكتساب قيم حقيقية أما الشرقيون فليس لهم من ذلك شيء «تراث الاسلام ٩٣/١ وادوارد سعيد ٧٩ - الاستشراق والخلفية (السابق).

(١٣) سلفستردى ساسى - انظر الفكر الاسلامى الحديث لمحمد البهى ص ٥٣٤ وانظر الاستشراق والخلفية الفكرية السابق ص٤٨.

(١٤) لجولد تسيهر كتابات نفث فيها ما أراده من سموم ضد الإسلام. انظر كتابه: دراسات محمدية - وضع الأحاديث ضد الأمويين. وانظر دوزى: مقال فى تاريخ الاسلام. وانظر الفكر الحديث للدكتور البهى ص ٥٩٨. والاسلام فى الفكر الغربي محمد حمدى زقزوق. وانظر تراث الاسلام لبارت. والاسلام والمستشرقين، عبد الجليل شلبى القاهرة ١٩٧٧. والاستشراق والخلفية الفكرية ... الخ.

(١٥) انظر فى ذلك الاستشراق والخلفية الفكرية (السابق). وانظر تقسيم المستشرقين للعفيفى أيضا (السابق).

(١٦) الاسلام فى الفكر الاستشراقى ص١١٨، والاستشراق والخلفية الفكرية (السابق) ص٩٤.

(١٧) نظرات استشراقية فى الإسلام للدكتور غلاب ص٤١/٤٢ و(السابق) ص٨٤.

(١٨) محمد عبد الله دراز - مدخل الى القرآن ص١٦٥ - الاستشراق والخلفية الفكرية (السابق) ص٨٦.

(١٩) د. محمد غلاب، نظرات استشراقية فى الاسلام ص٣٢/٣٣ والسابق ص٩٦.

(٢٠) نجيب العفيفى لبنانى، شرقى مستشرق صنف نفسه ضمن المستشرقين المارونيين، انظر (المستشرقون) لنجيب العفيفى.

(٢١) وإنى أشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها. المستشرقون جـ ٣٥٢/٣ و٥٩٨/٣ و(السابق) ص٦٢.

(٢٢) نماذج لما حققوه ونشروه ص ٦٣/٦٤ السابق عدد لا يحصى وانظر أمثلته.

(٢٣) السابق بالاضافة إلى ما كتبه بروكلمان من مؤلفات خاصة بالتراث الإسلامى وما صنعه التركى سزكين حيث أتم فهرسته الخاصة بالتراث ويكمل بروكلمان فهو تلميذه وعملهم يعد فى هذا المجال من الأعمال الضخمة.

(٢٤) انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص٥٩٠.

(٢٥) انظر: محمد أبو ريان وتاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٩/١٠ اسكندرية ٨٣. تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص١٠/١١ - القاهرة ١٩٦٦. جولتيه، المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ترجمة د. محمد يوسف موسى ص١٧٦ القاهرة ١٩٤٥. تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية وزعماء الاصلاح لاحمد أمين ص٩٢.

(٢٦) مثال ذلك، كتاب صدر فى ألمانيا الغربية عام ١٩٨١ بعنوان أزمة الإسلام الحديث. مؤلفه عربى مسلم يعمل أستاذا فى إحدى الجامعات الألمانية يدعو إلى الأخذ بالنموذج الغربى فى الإسلام المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية، وبذلك يبعد الدين عن التدخل فى شئون الحياة حسب الأنموذج العلمانى الغربى، فالمستشرقون والمنصرون وفروا جهدهم وجندوا أبناء الإسلام الذين اعتنقوا مبادئهم أضف إلى ذلك أنهم عن طريق بعض دعاويهم جعلوا الفكر الإسلامى فى بعض البلاد المسلمة يتعامل معاملة الفكر الماركسى فى محاربته وتعقب الداعين له، وهكذا نجح الاستشراق فى وضع خطط الاستعمار لإضعاف العالم الاسلامى بابعاده عن الدين الاسلامى، كما أراد.

(٢٧) اقرأ فى ذلك قضية سلمان رشدى ملف جديد فى صراع الإسلام والغرب، لجمال سلطان - واقرأ وصف مصر بالعبرى تفاصيل الاختراق الاسرائيلى للعقل المصرى د. رفعت سيد احمد ومن الجدير بالذكر ان بعض الدارسين يعتبرون ما يخرج عليه به بعض المجددين إنما هى مما خطط له المستشرقون لتشويه تاريخ الأمة الاسلامية ومن أمثلة ذلك: على عبد الرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم» فقد أصدره بعد عام من إسقاط الخلافة العثمانية، ليعلن ألا حكم ولا سياسة فى الإسلام - وكان هذا الضجيج الذى خرج من مصر ليمتد فى بقية أرجاء العالم ما بين شرقه وغربه. وطه حسين فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى أصدره فى الجامعة المصرية ليشكك فيه بالقرآن وبوجود بعض الأنبياء والمرسلين ومنهم سيدنا ابراهيم عليه السلام. وخلف الله أحمد الذى خرج علينا ليعلن أمام العالم أن النبي محمداً [صلى الله عليه وسلم] بعث للعرب وأن رسالته عنصريه تحت دعوى «القومية العربية».

(٢٨) ومَن يكفر بالله فكأنما خَرَّ من السماء فَتَخْطَفُه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق.

قضية للمناقشة:

الاستشراق نعمة أم نقمة؟!

حبى الله بلادنا نعما وجمالا.. فحيثما اتجهت في شرق الارض أو غربها.. شمالها أو جنوبها.. استوقفتك عشرات بل مئات المحطات والمشاهد، التي تأسر اللّب، وتسلب الوجدان والقلب.. فمن مضيق مائي كهرمز أو باب المندب أو جبل طارق.. الى نهر كالنيل أو دجلة والفرات والأردن.. الى تنوع في المعادن وتناثر في منابع النفط الذي يمثل حصة الاسد في العالم، الى عيون الماء الباردة والدافئة والشافية.. الى الآبار والبحار.. المفتوحة والمغلقة.. ثم نعرّج الى الأرض التي تدر اللّبن والعسل - كما وصفوها - الى أقدس بقاع الارض، الى تنوع في الاقاليم والمناخات، مما يعني تكاملا في الاقتصاد، الى حضارة شامخة عملاقة.. رأسمالها الانسان.. وسنامها هذا الدين.. كل ذلك جعل هذا الوطن أملا وحلما.. للطامعين والعابثين وعلى رأسهم حفنة من المستشرقين، الذين جابوا البلاد عرضا وطولا.. فعكسوا الواقع الى خيال.. حتى تمزقت الأمة والأجيال.

مفهوم الاستشراق:

الدكتور وليد العريض، استاذ التاريخ العثماني بجامعة اليرموك - الاردن - أوضح مفهوم الاستشراق بقوله «هو ما قام به الغربيون من دراسات وابحاث وتحقيقات، تتناول اللغات والاديان والأفكار وتراث الشعوب في الشرق، وقد شمل الاستشراق، الشرق كله حتى حدود اليابان والصين، كما شمل الشرق الاسلامي العربي».

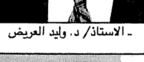
فالمستشرق البريطاني «الاستاذ آربرى» والملقب بـ (ادوارد سعيد) يقول «المستشرق هو كل من يبحر في لغات الشرق وآدابه»، وهو عالم من علماء الغرب تفرغ للبحث في الآثار الشرقية وتقصي آدابها وعاداتها بمعرفة، شأنها شأن أي أمة من الأمم الشرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها وعلومها وآدابها.

ويضيف الدكتور العريض بقوله: «والاستشراق أيضا هو الاطار المعرفي لعلاقة الشرق بالغرب، ومجال الاستشراق لا يقتصر على الخطاب الاكاديمي والاستعمارى

حوار: محمد محمود السويركي - الاردن -

ميدان الاستشراق .. الدين وما يتفرع منه كاللغة والتاريخ والمعارف والحضارة

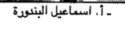
من دوائر الاستشراق .. اتساع المجال والوسائل لدروب الاستشراق



ـ الاستاذ/ د. وليد العريض



ـ الدكتور/ سعد ابو ديه.



ـ أ. اسماعيل البندورة

والانثروبولوجي والتاريخى المتعلق بالشرق بل هو يمتد ليشمل كل المجالات التي يصادفها إلى الافصاح عن أمور شرقية سواء كان هذا الافصاح على هيئة خطاب أو في اطار مجاز ادبي أو كان كاريكاتوراً أو خبراً صحفياً.

ويعني أيضا «هو ذلك الاهتمام الثقافي الذي مصدره الغرب ومقصده الشرق، فهو في السنوات الاخيرة موضوع ونقاش وتقييم ليس فقط من قبل أهل الشرق، بل من المستشرقين أنفسهم».

الخطوط العريضة للاستشراق:

يرى الدكتور العريض أن الاستشراق سار في عدة خطوط يمكن إجمالها فيما يلي:

ـ الدراسات الاسلامية، كفهارس المخطوطات والمؤتمرات وفي الدوريات.

ـ الدين الاسلامي «العقيدة» ومرحلة ما قبل الاسلام وسيرة الرسول عليه السلام، ثم دراسة القرآن الكريم حيث التجريح والنقد من خلال التفسيرات.

ـ الاسلام كشريعة: حيث التركيز على الخلافات الفقهية، أهل الذمة، الموقف الشرعي من الذنوب، هذا عربي وهذا غير عربي، وكذلك الانشغال بجزئيات مندثرة.

ـ التاريخ العربي والاسلامي: مثل كتب الرواية والتدوين، الطبري، ابن الاثير، وكذلك ابن خلدون، تقديم صورة حضارية، اجتماعية، اقتصادية وسياسية.

انقسم المستشرقون بين منصف ومحايد ومتحامل

قيمة الاسلام وسماحته أثبتت بين المستشرقين باستحقاق

- اللغة العربية وآدابها: علاقتها باللغات السامية القديمة، قواعد اللغة، الألفاظ، الأسماء، الخروج بنظريات تهتم بالسكان والانسان ومفهوم علم الانسان.

- علوم الحضارة العربية الاسلامية، الفلسفة، التنجيم، الحساب، الحيوانات، النبات والفلاحة.

دوافع الاستشراق:

يوضح الأستاذ البريطاني «آربرى» كما يرى الدكتور العريض أن دوافع الاستشراق يمكن تلخيصها بما يلي:

- الروح المشبعة بالمغامرات وحب الاستطلاع.. مثال ذلك المستعمرات البريطانية في الشرق.

- اقتحام المجهول للوصول الى دروب المعرفة.

- الأجرة والثمن المرتفع الذي يقدمه الرهبان.

- نيل الجزاء والاجور الباهظة من الكنيسة والدول المشجعة.

أهداف الاستشراق:

تُرى ما هي الأهداف التي سعى اليها المستشرقون؟ الدكتور العريض يجمل أهداف الاستشراق بما يلي:

١ ـ هدف ديني تبشيري، حيث تجلى فى القرون الوسطى عندما تفوق العرب في اللغة والقرآن وما جاء بهما، حيث تعرض القرآن لحملات شنيعة فوصف بأنه غير قابل للتطور.

٢ ـ الهدف السياسي الاستعماري: حيث أصبح المستشرقون أداة طيعة للدول التي تحفز لاستعمار الشرق. فقدّم هذا الهدف معلومات دقيقة عن شعوب الشرق.

٣ ـ الهدف التجاري: مما ترتب على ذلك زيادة المعرفة للجغرافية الطبيعية والبشرية للمنطقة حيث الثروات العديدة.

٤ ـ الهدف العلمي: وهذا ما شجع في البحث عن أسرار الشرق بدافع الرغبة في الاطلاع على ثقافاته وتنوع معارفه.

أقوال في الاستشراق:

الدكتور سعد أبو ديه استاذ العلاقات الدولية بجامعة اليرموك ـ الأردن قال: «إنني أخالف البعض الذين يقولون بأن الاستشراق نعمة ونقمة، خير وشر في آن واحد، حيث فيه الفوائد الكثيرة. إذا ما عرفنا كيف يمكن فهمه والاستفادة منه، إذ صحيح أن المستشرقين قدموا من الغرب، من أوروبا ومن روسيا، ولكن مآسي العالم الصناعي قد تأتي بدون استشراق.

ويضيف الدكتور أبو ديه، فمن خلال مطالعاتي عن أدب الرحلات التي قام بها المستشرقون المهتمون بالشؤون العربية أمثال «بيرك هارت» السويسري الأصل الذي قدم البتراء للأوروبيين وللعالم وكذلك فقد استفدت من «جورج أوكست» الذي اعتنق الاسلام، شأنه شأن «بيرك هارت» ، لقد كتب جورج أوكست عن المنطقة بطريقة غير متعصبة وركّز على الجوانب الايجابية، هذا ما لمسته في كتابه «رحلات في الصحراء العربية» وكلاهما مثل في نظري نمطا غير متعصب من الباحثين..

ويبيّن الدكتور سعد أبو ديه أن من أسباب إعجابه بالمستشرق «موزيل» أنه كان يقوم بتحقيقات علمية مضنية جداً، حيث كتب عن البدو وعن البتراء وعن تدمر وقصر عمرة وعن عشائر الاردن والحجاز.

ويؤكد الدكتور سعد أبو ديه أن سبب رحلات المستشرقين أولا وأخيرا تخدم مصالح دولهم، وخاصة بريطانيا آنذاك، ولكن هذا لا يمنع أحدا من الاعتراف بما تركوه للمكتبة العربية من تراث كبير لا يقل عما تركه العلماء المصاحبين لنابليون في مصر. ويطرح الدكتور أبو ديه سؤالا يقول فيه: «ما مدى الاستفادة التي تمت من عمليات الاستشراق؟ فيرد بقوله: «إن الامر لم ينته بعد، وقد نعود لأدب وتراث الرحلات. حيث مجال الانتاج، كي نأخذ منه العبرة.

ماذا استفاد اليهود من الاستشراق؟

يرى الدكتور سعد أبو دية أن أدب الرحلات خدم اوروبا في مخططاتها في المنطقة، مثال ذلك فقد ساهم في مأساة فلسطين حيث تدفق الكتاب إلى أرض الميعاد - كما هي في نظرهم - وربطوا بينها وبين اليهود حيث لا يدرك المرء حجم هذه الكارثة والمأساة ومن المعلوم أن الفترة الواقعة بين الاعوام (١٨٤٠ - ١٨٨٠)م أي ما مجموعه أربعين سنة صدر فيها (١٦٠٠ كتاب) ربط بين فلسطين واليهود، وبعض هذه الكتب كان من أدب الرحلات.

الاستشراق نعمة أم نقمه؟

الأستاذ اسماعيل أبو البندورة، مدير مجمع النقابات المهنية بمدينة إربد قال: لا يمكن بأي حال طرح مسألة الاستشراق بصيغة الخير المطلق أو الشر المطلق «نعمة أم نقمة» حيث بينهما مسافة معرفية، يختلط فيها الذاتي والموضوعي، لذلك فإننا لا نستطيع الحديث عن الاستشراق بصفته بحثا موجها لاهانة الآخر أو لإلحاق الأذى به، إنه محاولة لدراسة الآخر من أجل فهمه واحتوائه، وتوظيف هذا الفهم لغايات قد تكون من أجل السيطرة عليه، وقد تكون من أجل المعرفة الموضوعية المجردة، أي اعتبار الآخر مجرد موضوع للبحث ، باعتباره يحتوي ما يجوز بحثه وتسليط الأضواء عليه.

الاستشراق بين الماضي والحاضر:

يرى الأستاذ إسماعيل أبو البندورة، أن الاستشراق القديم بصورته الكلاسيكية قد مهد تمهيدا فاعلا لفكرة الاستعمار، فجعل من بلادنا هدفا وطريقا خصبا لتحقيق أهدافه ونزواته اللاعقلانية، ولذلك خدمت المعرفة الاستشراقية القديمة فكرة الاستعمار، ومهدت الطريق لوصول الهجمات الأولى، وفتحت الأعين على أهمية المنطقة حضاريا وجغرافيا واقتصاديا، كل ذلك وُظّف ووضع في خدمة الهدف الاستعماري. أمّا في مراحل متأخرة.. فقد أخذ الاستشراق بعدا ومنطلقا آخر بعد أن تعزز النموذج الأوربي وأصبح

طاغيا ومهيمنا، وظهرت في الأفق مركزية أوروبيـــة، تدرس الآخـــر لكي تدخله في أفق حيازتها المعرفية والسياسية ولا تعترف للآخر بذات تاريخية موازية، أو تطلعات إنسانية ومعرفية بعيدة المدى، ونادرا ما تجرد الاستشراق من صورته وفكرته الاستعلائية والنظر للآخر باعتباره موضوعا لاذاتا.

أنواع المستشرقين:

يقسم الدكتور العريض المستشرقين إلى ثلاثة أنواع فيقول:

أ - موظفون رسميون في دوائر المستعمرات ووزارات المستعمرات مثل المستعمرات البريطانية حيث يقدّمون خدمات لحكوماتهم..، خدمة للأغراض التي وجدوا من أجلها.. وهؤلاء مارسوا وسائل استعمارية مباشرة.. ومن هؤلاء المستشرقين (لورنس في الجزيرة العربية وماسينيون في سوريا ومسل بل) في العراق وكذلك فيلبي وكلوب باشا وغيرهم.

* ميزات هذا النوع: لقد تخرجوا من معاهد اللغة العربية في باريس ولندن، وحصلوا على لقب الباشوية في بلادنا.

* خطورتهم: لعبوا في مقادير السياسة.. ورسموا خطوط السياسة العربية ومستقبلها، وكذلك تمزيق خارطة الوطن العربي - كما نرى هذه الايام.

ب - مستشارون رسميون لدوائر الاستعمار في المخابرات البريطانية والألمانية والفرنسية وهم من المتخصصين في دراسات الشرق والاقطار العربية ومنهم: (كولدزيهر) قدّم الكثير من المعلومات للألمان. (لامانس) قدم المعلومات للفرنسيين. (مارغوليوث) قدّم المعلومات للانجليز.

* ميزات هذا النوع: رسموا صورا عجيبة ومدهشة بل ومتناقضة للتراث العربي، ولذلك يستوجب قراءة متأنية لهم، حتى تتضح هوية دعاويهم لحقوق اليهود والتبشير والتشكيك.

جـ - مستشرقون غير رسميين وغير موظفين في الدوائر الاستعمارية، وهم الأكاديميون الذين وصلوا الى المراكز العلمية المتقدمة في اللاهوت والفكر والفلسفة واللغة.. برزوا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

*** الغاية من معلوماتهم:**

لقد وُظّفت معلومات هؤلاء لأهداف غامضة منها:

- تشجيع الدراسات الطائفية وبلورة القوميات المندثرة وعمل معاجم للّغات الميتة، كذلك إثارة الشعور لدى طوائف من الناس أنستهم عوامل الزمن أصولهم، فانحلوا من أمم أخرى. ووظفت معلوماتهم للاهتمام بموضوعات تافهة والغلو فيها، مثال ذلك تبني المذهبية الدينية أو العنصرية أو العشائرية.. كل ذلك بحجة العلم.. وانحازوا الى أنواع معينة من الحكم في بلدان الشرق وأقطاره.

* ومن هؤلاء المستشرقين:

- نيبرك، الذي تخصص في التراث العربي، والمعتزلة، وابن العربي، وكذلك اهتم بالدراسات الايرانية القديمة، فنمى اللغة البهلوية في أذهان الناس.

- دي بوركي ، حيث تحمل المصاعب من أجل أن يكون في خلوة صوفية مع الانصاري الهروي في هرات.

- كوربن، درس التراث العربي من وجهة نظر ايرانية.

- براون، درس الأدب العربي للتعرف على الفرس.

المستشرقون خلّفوا للمكتبة العربية كنزا من التراث مازال حيا

الاستشراق ليس إدانة أو أذى، وإنما محاولة لدراسة وتتبع الأثر والتراث والسيطرة عليه

من سلبيات الاستشراق:

يرى الدكتور العريض أن من أبرز السلبيات والأضرار التي ألحقها الاستشراق في العالم العربي هي:

أ ـ تحريف الاستشراق من بداية العصور الوسطى في أهدافه ونتائجه التي قام بها ومن أجلها من خلال ما يلي:

١ ـ تصوير الشرق العربي منبعا للخيرات، أصحابه جهلة ولذلك فهو من حق المتسلط الأوربي.

٢ ـ الشرق العربي مليء بالكنوز وجهل حكامه سيقضي على هذه الكنوز، لذا فمن باب أولى نقلها لأوروبا.

٣ ـ الشرق العربي ساحر، أهله لا يتمتعون به وبجماله، فهو منتزه أوروبي يجب البحث في أسراره.

ب ـ النتائج التي وصل اليها المستشرقون:

١ ـ الفكر اليوناني أصيل ومن ابتكار العنصر الأوروبي فقط.

٢ ـ الحضارة العربية لم تؤثر في أوروبا، بل هي أداة نقل فقط للتراث اليوناني القديم.

٣ ـ الحضارة الاوروبية الحديثة، هي من صنع الأوروبي وحده.

٤ ـ الحضارة المعاصرة هي الغرب في ذروة عطائه.

الموقف من الاستشراق والمستشرقين:

حقيقة لقد تنوعت الآراء والمواقف من قضية الاستشراق والمستشرقين، فبعضها وقف معاديا متشككا وبعضها مادحا وبعضها نظر الى الموضوع نظرة علمية جادة.. ويصنف الدكتور العريض هذه الفئات بقوله:

أ ـ الفئة الأولى ـ الفئة المعادية للاستشراق ـ وعلى رأس هذه الفئة الاستاذ أحمد فارس الشدياق، حيث انتقد مستشرقا فرنسيا فقال: (لكنها عادة له ولأسلافه ولأساتذته في أنهم حين يشتبه عليهم المعنى، يعمدون الى الترقيع.. وهم لم يأخذوا العلم عن شيوخه، وإنما تطفلوا عليه تطفلا، وتوثبوا توثباً، ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج عن القسس، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام.. وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها، تراه يخبط فيها خبط عشواء).

أما الأستاذ محمد أسيد فيقول: (تواجهنا صورة مشوهة للإسلام وللأمور الاسلامية في جميع ما كتب مستشرقو أوروبا.. في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو

● من أهداف الاستشراق تحويل العربي إلى مستشرق في فهم قضاياه القومية

الاسلام، ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة حقيقية، أو خيالية ينالون بها من الاسلام عن طريق النقد. ويقف في هذا الصف أيضا، كلٌّ من عبد القادر حاتم والدكتور عبد القادر يوسف ومحسن جمال ومالك بن نبي حيث يقول: (إن أعمال المستشرقين تمثل الشر كل الشر). أما حسين الهواري فيقول: (إن كتب المستشرقين ملؤها الطعن الجارح في الاسلام والحشو بأقذر المثالب، والاستشراق مهنة ضد الشرق وضد الاسلام).

ب - الفئة المدافعة والمادحة للاستشراق:

ومن أبرز هؤلاء، زكي مبارك وعائشة عبد الرحمن - بنت الشاطيء - وغيرهما.. (إننا ندين لهم بجمع ذلك التراث، وصونه من الضياع، ولم يقف جهد المستشرقين على ما جمعوا بل نشروا تراثا يعتمد على أدق منهج للتوثيق والتحقيق).

أما الدكتور محمد غلاب، فقد وقف موقف المنصف حينما قال: «مما لا شك فيه أن الدراسات التي أجراها الغربيون عن الاسلام فيما قبل القرن التاسع عشر، والترجمات القليلة التي قاموا بها للقرآن الكريم في ذلك العهد، كان أكثرها صادرا عن المتعصبين من رجال الدين.. فنرجوا أن يتأمل المسلمون في هذه الحقائق الناصعة، وألا يحملهم التعصب على إساءة الظن بجميع المستشرقين من غير استثناء.. ليروا كيف أن فريقا لا يستهان به من أفذاذ علماء الغرب ومفكريهم يكتبون عن الاسلام والمسلمين، كتابة قيمة تشرف عقلياتهم وتسجل أسماءهم، وتسجل للاسلام عظمته وجلاله). وهنالك نفر من المستشرقين قد اكتحلت عيونهم بتاريخنا أبرزهم: المستشرق «لويس ماسينيون» حيث أبرز المراجع في التصور الاسلامي، وله كتاب عن الحلاج.

ومما قاله عبد الرحمن بدوى بحق ماسينيون: (إن خسارة الدراسات الاسلامية بوفاة المستشرق العظيم لويس ماسينيون لا تعادلها خسارة).

المستشرق الالماني «ثيودور نولدكه» تحدث عن النقوش الحميرية والسبأية. «جولدتسيهر المجري»، تحدث عن ديوان الحطيئه. «بروكلمان» تحدث عن تاريخ الأدب العربي، وكتاب الأغاني، ورسائل إخوان الصفا وكتاب كليلة ودمنة.

ومن المستشرقين المحسنين:

«يوسف هل» الألماني الكاثوليكي حيث سمى ابنته عائشه، تيمنا بزوجة الرسول عليه الصلاة والسلام وله جزء من أشعار الهذليين. و«غوستاف قلوبل» الألماني، فهرس الكتب الشرقية في مكتبة القصر الملكي في فينا. والايطالي «اغناطيوس غويدي» وله فهرس كتاب

الاغاني. و «روزنتال» وله مقدمة ابن خلدون حيث ترجمها الى الفرنسية والانجليزية.

وممن أساء للشرق المستشرق الألماني «نولدكه» حيث قال: (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» وقال مصر لا يوجد فيها مطر - والمقصود النيل). وغيره الكثير الكثير.

أسلحة المستشرق:

يؤكد الدكتور سعد أبو ديه، أن أسلحة المستشرقين هي بمثابة السّم في الدّسم، والبحث في هذا الموضوع يعني الغوص في أساليب الاستشراق والمستشرقين، وكيف سوقوا أنفسهم في الوطن العربي، حيث جاءوا كأطباء، أو مهتمين بالأدب العربي أو الدين الاسلامي، أو على شكل جمعيات.

ويضيف الدكتور أبو ديه ولكننا - وللأسف - لم ندرس هذا الموضوع الدراسة الوافية حتى الآن ولم نبحر في أعماقه.. وأشار الدكتور أبو ديه أيضا أن الاستشراق نظمته الدول الصناعية، ذات المصالح الاقتصادية في المنطقة، والتي أرادت أن توجد لها موطيء قدم، سواء أكانت فرنسا أم بريطانيا أم ألمانيا التي أرسلت «موزيل» وكذلك فإن الاستشراق يعتبر خطوة أولى لخطوات لاحقة، سواء أكانت عسكرية أم سياسية أم اجتماعية أم ثقافية كالغزو الثقافي.

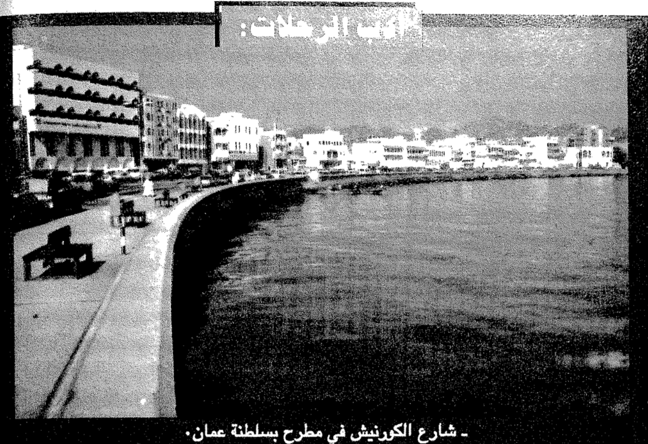
الاستشراق والغزو الثقافي:

الأستاذ اسماعيل أبو البندوره قال: (ربما يستهدف الاستشراق غزو عقولنا ومفاهيمنا، وتسخيرها لاهدافه، بقدر ما تسمح به أوضاعنا، في أن تكون مستلبة ولديها قابليات للالتحاق والاتباع، أما اذا تمت قراءة الاستشراق وفهمه ودراسته دراسة نقدية، وتمت الاستفادة من بعض معطياته الايجابية، وأدركنا مفاهيمه وافرازاته السلبية.. فإننا نبقى بمنأى عن الغرق في متاهاته، ومكائده التي يمكن أن يهدف اليها. ويضيف الأستاذ أبو البندوره بقوله: (إذا كنا نؤمن بالمثاقفة، أو التلاقح الثقافي والاستفادة من معارف الغرب ومناهجه، انطلاقا من ذات تاريخية محضة، تريد أن تؤكد انسانيتها وانفتاحها، فلا بأس أن تنشأ بين عقلنا العربي وطلابنا علاقة ايجابية مع الاستشراق والمستشرقين، علاقة متفاعلة غير منغلقة. أما اذا كان المقصود تحويل العقل العربي باتجاه الاستسلامية العلمية، وتبني مقولات الاستشراق بعموميتها أو أن ننتقل من مواقعنا ورؤانا الذاتية الى مواقعه، فهنا يكمن الخطر وتكون الكارثة.. وذلك بتحول العربي الى مستشرق في فهم قضاياه القومية. ولمقابلة هذا الأمر علينا أن نشجع طلبتنا فى الخارج على فهم الغرب وفكره ومناهجه وتقدمه المعرفى لخدمة حاضرنا وأمتنا وحياتنا القادمة.

ايديولوجية اسلامية تستوعب الاستشراق:

الدكتور أبو ديه، قال: (باستطاعة قسم واحد في جامعة من جامعاتنا العربية، أن يدرس ظاهرة الاستشراق دراسة واعية وجدّية، وأن يقدم لنا نتائج هذه الدراسة.. المهم أن نبدأ الخطوة الأولى، وبخاصة في هذا الظرف الذي وصلنا فيه إلى الحضيض، بسبب الهجمة الأوروبية الصناعية.

وقال الدكتور أبو ديه، يجب التصدى لهذا الموضوع والتركيز على الناحيتين الايجابية والسلبية، علينا أن نخرج بنتيجة علمية لنعرف أين هي الخسائر وإن كثرت، وأين هي المكاسب وإن قلت .. وعلى كافة الأحوال فهناك عبرة كبيرة لابد من اكتشافها.



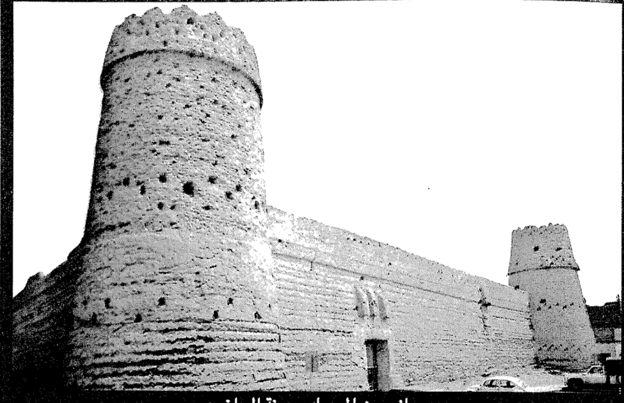
ـ شارع الكورنيش في مطرح بسلطنة عمان.

في أدب الرحلات



بقلم:
عبد الله بن حمد الحقيل
ـ الرياض ـ

** يتساءل كثير من الإخوة القراء والباحثين عن أدب الرحلات ودوره في العصر الحاضر، والواقع أن ادب الرحلات مازال مستمرا ولكنه اقل مما كان عليه سابقا.. فقد كتب الاولون وتركوا تراثا غزيرا في هذا الميدان.. فما اجمل ان نهتم بهذا الجانب ونكتب عن البلدان التى نزورها ونشاهدها ونطلع على آثارها ومعالمها وثقافتها وحضارتها بأسلوب ممتع يزيل السأم عن القارىء ويجدد نشاطه لمواصلة القراءة.. فلقد افاد اسلافنا في كتاباتهم عمن اشرنا الى اسمائهم ولكم انتفع الكثيرون من رحلات ناصر خسرو حيث دوَّن الكثير من المعلومات في كتابه فتوح البلدان وغيره كثير ممن امد الثقافة العربية بثروة فكرية وتاريخية، كذلك في رحلات الاستاذ عبد الوهاب عزام الشيء الكثير من المعارف والآداب والعلوم.. كما لا

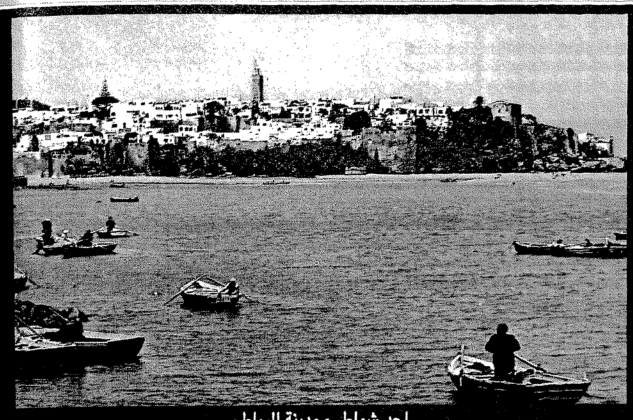


- جانب من المصمك بمدينة الرياض.

ننسى مجموعة من المستشرقين ممن عنوا بالتنقيب والسياحه والتاريخ ودراسة الآثار في المشرق العربي وقاموا برحلات في انحاء مختلفة من البلاد العربية وجمعوا قدرا كبيرا من المعلومات ودرسوها دراسة علمية ونشروا تلك الدراسات وكتبوا الرحلات التى قاموا بها وهي تحوى آراء ومعلومات عن بلادنا على جانب كبير من الاهمية.. ومهما يكن من نقص فيما نكتبه خلال زياراتنا فان في ذلك فائدة للآخرين وخاصة فيما يتصل بالمجالات الاقتصادية والعلمية وغيرها.. فان ذلك يساعد المهتمين فكم ترك الاول للآخر.. فاذا زرت بلدا من البلدان وتحدثت عن جامعاتها ومكتباتها وما تحويه من مخطوطات فان ذلك يعين الباحث والمهتم بذلك.

ان الكثير من العلماء والادباء والمفكرين يزورون بلدانا كثيرة ويحضرون مؤتمرات شتى فما أجمل ان يسجل هؤلاء افكارهم وآراءهم ومشاهداتهم لتلك البلدان عند زيارتهم لها وخلال زياراتهم لمكتباتها ومصانعها ومجامعها العلمية والفكرية ومقابلاتهم للشخصيات العلمية المرموقة فيها.

إن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فانه يظل مخصبا ومفيدا وذا عطاء علمي غزير.. بحيث يبرز فيه الجانب التصويرى والسياق الادبي والتحقيق التاريخي والاجتماعي وتطعيمه بمأثور الشعر والمثل والحكم مما تقتضيه

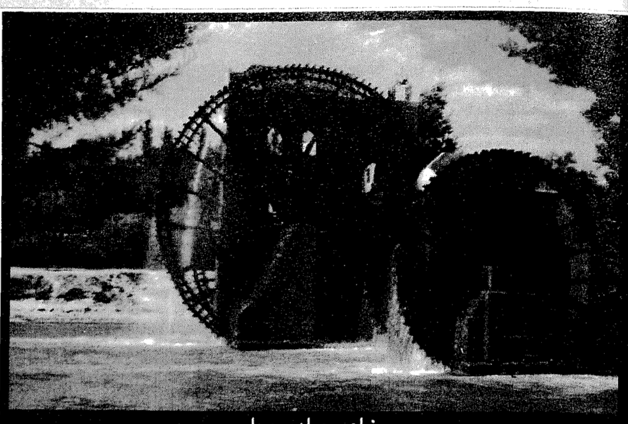


ـ احد شواطىء مدينة الرباط.

المناسبة.

ان الكثير من الناس قد لا تتاح له فرص الاسفار والتجوال ولذا فهو يجد متعة وفائدة فيما يقرأه عن تلك الرحلات وعن بلاد يجهلها.. بقلم كاتب او أديب او مؤرخ خبرها وعرفها وعاش بها وقتا مكنه من معرفتها اكتسبها من رحلاته.. وكم نقرأ في بعض الاحيان عن بلدان نجهلها فنجد في ذلك بعض المعلومات والمشاهدات عن تلك البلدان التى تكاد تكون مجهولة لدى جمهرة القراء كما انها تتضمن معلومات وملاحظات عن الاماكن التاريخية والاوضاع الاسلامية للجاليات المسلمة في تلك الاقطار.. ويجد القارىء والباحث الذى يهمه هذا الامر ما يحسن الاطلاع عليه والاستفادة منه.. وما أكثر المؤلفات للرحالة العلماء الذين رحلوا من الاندلس الى مكة المكرمة فكانوا رسل علم ومعرفة وثقافة وكذلك علماء الشام ومصر والعراق..

ان الرحالة حينما يكتب يجب عليه أن يكون أمينا ومخلصا لفنه وفكره وثقافته وقارئه، لا يقول الا ما يراه حقا يرضي ضميره وتفكيره ويتعمق في مشاهداته وانطباعاته يستلهم كل ذلك فيما يكتب يجمع الى جمال الاسلوب بهاء التصوير لما يكتب، يجيل فكره فيما يشاهده في طيات مقاله فيكون ما يكتبه هادفا، له مقاصد سامية.. ان الكتابة في ادب الرحلات فيها الطرافة والمتعة والفائدة.



ـ نواعير حماه بسوريا.

ان الرحلات انواع فهناك الرحلات العلمية والادبية والصحفية والتاريخية والسياسية ومن يطالع كتابات الاساتذة الرحالة في هذا القرن امثال أنيس منصور.. ويحي حقي.. وحسين فوزى.. وحمد الجاسر.. ومحمد العبودي.. وفؤاد شاكر.. وعبد الكريم الجهيمان.. وعبد القدوس الانصارى.. وعبد العزيز الرفاعي.. ومحمد حسين هيكل .. والمازني.. وعبد الله بن خميس.. ومحمد عمر توفيق، وغيرهم.. ولقد كتب محمد حسين هيكل كتابه في مهبط الوحي لقد وصف الحرمين ومشى في مناطق الحج، كذلك المازني عندما زار هذه البلاد كتب مشاهداته كأديب يصور انطباعاته فقد عبّر عن اشياء كثيرة ذاتية وكذلك عبد الوهاب عزام وغيرهم كثير وكثير من الادباء والصحفيين من عرب واجانب.. ولقد سجل الرحالة ناصر خسرو المتوفى عام ٤٨١هـ في (سفرنامه) اشياء كثيرة من المظاهر الصناعية والتجارية والعمرانية في قلب نجد ونفى الادعاء بتخلف المنطقة في ذلك الوقت حيث تحدث عن قنوات المياه ونظام الري والوان الصناعات وقوافل التجارة.

اننا للاسف لم نهتم بأدب الرحلات مع ان هذا النوع من الادب يكون رصيدا غزيرا من التراث العربي الاسلامي ولقد بلغ الادب العربي في ذلك شأوا كبيرا لأن الرحلات كانت كثيرة جدا سواء من ابناء المشرق العربي او المغرب العربي والرحلات كما يقال شيء ثابت لا يأكله الدهر وتظل

لها طابعها فرحلة بن جبير وبن بطوطة زادها الزمن خلودا ورونقا واعجابا وترجمت الى لغات شتى لان النفس البشرية بطبيعتها تواقة الى المعرفة واستطلاع ما كان عليه العالم قديما وكيف كانت حياته وعاداته وتقاليده ومعيشته.. فالرحلات من اهم مصادر دراسة التاريخ الاسلامي والجغرافيا التاريخية.. ولقد برز علماء المغرب على غيرهم في تدوين الرحلات.. اذ ان الرحلات تتحول الى وثائق علمية وتاريخية والى ذكريات لطيفة وطريفة لها خصائصها وسماتها وتجاربها.. ولقد قيل ان من يسافر كثيرا يتعلم ويعرف كثيرا.

ويروى ان احد تلامذة سقراط شكا اليه بعدم استفادته من الاسفار والرحلات فقال له: من الطبيعي الا يفيدك السفر شيئا لانك سافرت مع نفسك ولعل ذلك عائد الى ان البعض من الناس لا يستفيد كما ينبغى من الرحلات بحيث يشاهد ويطلع ويستقرىء واقع الامم وحياتها ويتعرف على بيئاتها وصفاتها ويحقق ويدقق ويقف ويستوقف ويسجل يراعه ما شد انتباهه واستجلب نظره ويحلق في تلك الارجاء المختلفة.. ونجد الكاتب الانجليزي الشهير «سومرست» والشاعر اليوناني «اودانيس» يحثان الكتاب والادباء على القيام بالرحلات لانها تمدهم بذخيرة تثرى كتاباتهم ورؤيتهم.

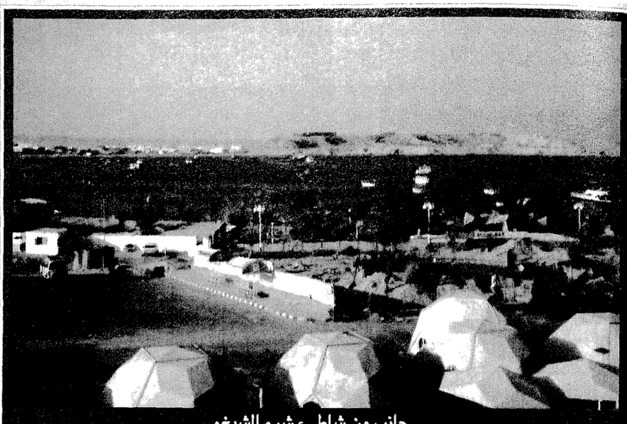
ان المهم ان نستفيد من الرحلات، كل في مجال تخصصه وميوله سواء كان اديبا او مؤرخا او جغرافيا او عالما او رجل ادارة واقتصاد بحيث نكتسب الخبرة والمعرفة وتعميق الرؤية الى جانب ما في ذلك من متعة وطرافة وان نهدف ايضا الى الأسوة والقدوة الحسنة والعبرة وان نترك الاثر الحسن.

يقول الدكتور طه حسين حول كتب الرحلات، تجد فيها المتعة والراحة والسلوى وارضاء حاجتك الى الاستطلاع مع انك لا تبرح مكانك.. فانت مع الكاتب تشهد ما يشهد وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من الم او لذة ومن سخط أو رضى تسافر معه وتقيم معه حين يقيم.. الخ.

حقا ان الرحلات بطبيعتها سبيل من سبل المعرفة ومعين ثر للفائدة والاطلاع على عجائب هذا الكون ومشاهدة الاماكن ورؤيا المناظر.

ان الرحالة يحب ان يكتب مشاهداته ويرصد خواطره ويدون معلوماته ويبرز انطباعاته ويسجل افكاره ليستفيد منها القراء والباحثون. والقارىء يفضل دائما ان يقرأ عن اشياء يجهلها.. فأدب الرحلات ارتياد لمناهل الثقافة والمعرفة والوقوف على كل جديد ومفيد.

ولا ننسى ان المسافر يتعرض لمتاعب كثيرة ومفاجآت عديدة كتقلب المناخ وصدمات البرد ولفح الحر ومواجهة



ـ جانب من شاطىء شرم الشيخ.

المخاطر والامطار والعواصف وسهر الليل.. ولقد واجه اسلافنا تلك المصاعب فياقوت الحموى وقع في الاسر وابن بطوطة هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته وعاد ليروي ما حدث له في عشرين عاما من الذاكرة وكذا الرحالة ابن جبير تعب كثيرا من رحلاته وفي نهاية رحلاته قال:

«فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالاياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذى اولاه والتيسير والتسهيل الذى والاه فكانت مدة مقامنا من موعد خروجنا من غرناطة الى وقت ايابنا هذا عامين كاملين وثلاثة اشهر ونصفا» وهو كغيره من الرحالة المغامرين يتحدثون عن رحلاتهم ومتاعبهم بمتعة ولذة ومضوا رغم المتاعب والمصاعب حتى وصلوا الى نهاية المطاف والرحلة.

وفى العصر الحاضر اصبح السفر بفضل الله ثم بفضل المخترعات الحديثة متعة ووسيلة مريحة لأنه وفَّر على المسافر كثيرا من التعب والجهد والمال والوقت والمهم ان يستفيد المرء من رحلاته بحيث يجسد مشاهداته ويدون انطباعاته ويستفيد مما رآه فالرحلات سبيل من سبل المعرفة كما قيل:

سفر الفتى لممالك وديار

وتجول فى سائر الأمصار

علم ومعرفة وفهم واسع

وتجارب ورواية الأخبار



فرنسيان في الحجاز ١٨٤١ - ١٨٩٤

بقلم: أ.د. أبو القاسم سعد الله
- امريكا -



فى هذا البحث نتناول رحلة ليون روش سنة ١٨٤١ ورحلة جيرفى كورتيلمون سنة ١٨٩٤ الى الحجاز فى مهمة متشابهة، وهى الحصول على موافقة علماء مكة المكرمة على فتوى شرعية احتاجتها فرنسا لوقف حركة الجهاد فى الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر، ثم لوقف حركة الهجرة من الجزائر الى المشرق وتحسين الصورة الفرنسية لدى العرب والمسلمين اثناء حركة الجامعة الاسلامية التى قادها السيد جمال الدين الافغانى ثم السلطان عبد الحميد الثانى. وسننهى البحث بالاشارة الى البعثة الفرنسية الى الشريف حسين سنة ١٩١٦.

على امتداد العصور كانت الدول الكبرى تحاول التعرف على اصغر الشعوب وابعد المناطق لتأمين حدودها وتوسيع مجالها الحيوي وربط مصيرها باطراف العالم. ولنا فى الدول الكبرى المعاصرة اليوم عبرة ومثال. وقد كانت فرنسا من الدول الكبرى اثناء القرن الماضى. ولم يكن الحجاز داخلا فى فلكها ولا قريبا من حدودها، ولكنها مع ذلك اهتمت به لمكانته الدينية ووضعه الاستراتيجى وامكاناته التجارية، ورغم ان الحجاز من الناحية القانونية كان عندئذ تابعا للدولة العثمانية فان المنافس الرئيسى لفرنسا فى المنطقة هو بريطانيا. ومنذ الحملة الفرنسية على مصر (١٨٩٨) ثم على الجزائر (١٨٣٠) ازداد اهتمام الفرنسيين بالبحر الاحمر وبلاد الشام لتوارد المسلمين سنويا على مكة المكرمة والمدينة المنورة، واتساع الحركة التجارية. ورغم ان الفرنسيين قد فشلوا عسكريا فى حملتهم على مصر فانهم استخدموا نفوذهم لدى محمد علي باشا للاستفادة من الحج ومن التجارة مع مصر ومع الحجاز ايضا.

فقد وجدنا بعض المغامرين الفرنسيين يصلون الى الحجاز عن طريق عملهم فى الجيش المصرى او فى المصالح الطبية التابعة لمصر، وغيرها. وكان ذلك قبل الرحلة التى نريد التعرض لها بحوالي عشر سنوات. فمنذ ١٨٣٣ وصل الى مصر فريق من اتباع (سان سيمون) بقيادة (اونفنتان) لنشر مبادئهم العلمية وانجاز مشاريعهم الاقتصادية وكان بعضهم يحلم بربط الشرق بالغرب، وبوحدة الاديان، ونحو ذلك من الشعارات «الانسانية». وكان احدهم، ويدعى براكس، يعمل صيدليا فى الجيش المصرى فوجد نفسه بهذه

الصفة فى الحجاز حوالى سنة ١٨٣٥. وقد اندمج براكس فى حياة الشرق لدرجة أنه تعلم اللغة العربية واعتنق الاسلام وادى فريضة الحج. كما انه زار، بالاضافة الى مصر، سورية والقدس. وكتب رحلته المثيرة. وقد استفادت بلاده من تجربته فعينته فى السلك الدبلوماسى، وانتهى به الأمر قنصلا لفرنسا فى هايتي[١].

وحوالي نفس الفترة زار عدد آخر من المغامرين الفرنسيين الحجاز ايضا. منهم تاميزيير الذى قيل انه كان يعمل طبيبا فى الجيش المصرى، وكان بهذه الصفة يأمل، بايعاز من بلاده فى زيارة مكة المكرمة. وقد تعرف على امين مفتاح الكعبة. وكتب رحلة ونشرها سنة ١٨٤٠ بعنوان (رحلة الى الجزيرة العربية)[٢]. وفى سنة ١٨٣٦ غامر ثلاثة من الفرنسيين السانسيمونيين بدخول جدة. منهم الطبيبان «كانيا» و«لاشيز» والمرأة «كوسيدير» التى قيل انها كانت متنكرة فى زي رجل[٣].

ورغم ان فريق السانسيمونيين قد فشل فى مهمته بمصر ورجع الى بلاده خائبا ثم منها الى الجزائر حيث وجد الفرصة اكثر مواتاة لتطبيق مشاريعه، فإن اهتمام فرنسا بالحجاز لم يتوقف كما ان علاقتها بمحمد علي باشا قد استمرت. ويهمنا الآن ان ندرس رحلة ليون روش من الجزائر الى الحجاز سنة ١٨٤١.

عاش ليون روش فى الجزائر منذ ١٨٨٢. وتعلم فيها العربية وعمل مترجما فى جيش بلاده اثناء الحملات منذ المقاومة الوطنية. وبعد التوقيع على معاهدة الثافنة (١٨٣٧) بين الأمير عبد القادر والفرنسيين قام روش بمهمة تجسسية على الأمير. فقد ادعى اعتناق الاسلام وتسمى باسم (عمر) والتحق بخدمة الأمير منذ نوفمبر ١٨٣٧[٤] واعتقد المسلمون انه صادق فى ايمانه وقرَّبه الأمير حتى اصبح من كتابه الخاصين وعارض رجوعه الى والده عندما الح عليه بعض الفرنسيين، تمويها وخداعا، ان يسمح له بذلك، وكان والده قد توطن فى مدينة الجزائر[٥]، عرف ليون اسرار الأمير واشترك معه فى خططه الأمنية وحملاته العسكرية ضد النافرين عنه من الجزائريين. وكل ذلك كان اثناء الصلح مع فرنسا، ولكن الحرب استؤنفت بين الطرفين سنة ١٨٣٩ فهرب ليون من عند الأمير باسراره الى جيش بلاده. واطلعهم على خطط الأمير وتفكير المسلمين، ومنها فيما يخص موضوعنا، الرأى السائد بينهم وهو ان الجزائر دار حرب ما دام الفرنسيون (الكفار) مسيطرين عليها، وان على المسلمين ان يهاجروا من كل جزء فيها يسيطر عليه العدو.

كتب ليون روش بعد هروبه تقريراً عن وضع الأمير وقدمه الى سلطات بلاده، بمن فيهم رئيس الوزراء. ثم اطلعهم على مشروع فتوى اذا وافق عليها علماء المسلمين ستبطل اعتبار الجزائر دار حرب وتوهن حركة الجهاد. فاعطوه الضوء الاخضر وسهلوا مهمته. فراسل اولا بعض زعماء الطرق الصوفية فى الجزائر وعلى رأسهم الشيخ محمد الصغير وهو ابن احمد التجانى مؤسس الطريقة التجانية. وجمع له الشيخ محمد الصغير آراء بعض المقدمين،

وصاغ له الفتوى صياغة شرعية مقبولة، وعين له المقدمين الذين سيرافقونه فى رحلته، واعد له رسائل التزكية والتوصية فى طريقه. ومن جهة اخرى كان الحاكم العام للجزائر، المارشال بوجو، على علم بالمشروع فشجع عليه وخصصا له مبلغا ماليا كبيرا، قال عنه روش انه «نقود سلطانية ذهبية يسيل لها لعاب جميع العرب» كما ان بوجو قد كتب رسالة عامة الى قناصل فرنسا توصى بتسهيل مهمة ليون روش. واوصاه هو بالحذر الكبير وكتمان سره، فسافر روش دون ان يعلم بمشروعه حتى والده.

سافر روش من الجزائر فى شهر يوليو ١٨٤١، وكان يرافقه مقدم من الطريقة التجانية. وقد قصد القيروان التى وصل اليها بعد حوالى شهر، بمساعدة قنصل فرنسا بتونس. وكانت سمعة القيروان تؤهلها لهذا الدور ولذلك كان حصول الموافقة على الفتوى من علمائها له مغزى كبير عند الجزائريين. كما انه كان سيمهد لموافقة علماء الازهر والحجاز. فقد سافر روش من القيروان الى مالطة ومنها الى مصر. وكان فريسنيل هو القنصل فيها، وهو خريج مدرسة الاستشراق الفرنسية على يد دى ساسي الشهير. وقيل ان فريسنيل كان يتمتع بمكانة لدى محمد علي باشا وشريف مكة معا.

وفى القاهرة قدم القنصل فريسنيل، ليون روش الى محمد علي باشا وتحدث معه عن الحرب في الجزائر. وقارن روش بين ملامح الامير عبد القادر ومحمد علي باشا. وكان روش يلبس اللباس الاسلامى ويتحدث العربية ويتسمى بعمر، كما ذكرنا.

وقدم روش نص الفتوى «الفرنسية» الى علماء الازهر فتداولوها حوالى ثماني ساعات، من السادسة مساء الى منتصف الليل، حسب تعبيره. وفى نهاية الاجتماع وافقوا عليها حسب روش بالرجوع الى نصوص كثيرة. وبالاضافة الى المقدم التجانى تعرف روش فى مصر على شيخ تونسي اسمه موسى بن ابراهيم الذى كان مسافراً للحج بأهله وخدمه، وكان من رجال الدين ايضا فعمل روش على السفر معه. وهكذا غادروا القاهرة الى الحجاز فى ٦ نوفمبر ١٨٤١ فى قافلة كانت تضم ٤٠٠ حاج والف بعير.

وما دام غرضنا هو الحديث عن الفتوى وليس عن الرحلة، فلنسرع الى القول بأن القافلة قد دخلت المدينة المنورة وفيها روش وجماعته. وبعد ثلاثة ايام غادروها الى مكة المكرمة فى ٢٢ ديسمبر. وقام روش حسب روايته، بكل الشعائر اللازمة للحجاج، واقام بمكة خمسة عشر يوما. وفى عرفات اكتشفه كما قال الجزائريون الذين كانوا يعرفونه فى بلادهم فاخبروا القاضى عنه، واخبر هذا شريف مكة (الذى كان يعرف من قبل مهمة روش) فارسل الشرطة فهربته رسميا على اساس انه سيقتل، ولكنهم حملوه الى مكة ثم جدة فى أمان. وهذه الرواية قد تكون صحيحة وقد تكون من اخراج روش نفسه الذى اتهمه علماء بلاده باختلاق امثالها.

ومهما كان الأمر فإن القنصل فريسنيل كان قد راسل شريف مكة الذى كان مقيما بالطائف بشأن مهمة روش وقام الشريف بجمع مجلس العلماء عنده للتداول فى شأن الفتوى. وحضر مفتو المذاهب الاربعة وغيرهم، ومنهم احد العلماء المهاجرين من الجزائر - واسمه محمد بن علي السنوسي، مؤسس الطريقة السنوسية فيما بعد. ودارت مناقشات حول الفتوى، وقال

روش انهم وافقوا عليها فى النهاية عدا الشيخ السنوسى. وكان دور المقدم التجانى مفيداً للغاية فى هذا المجلس لصالح الفتوى والتأثير على الشيوخ، وقارن روش ايضا بين الأمير عبد القادر وشريف مكة وظهر له ان الشريف كان ماديا بينما كان الأمير متقشفا محاربا. وكان القنصل فريسنيل قد نصح روش بالاكثار من اطراء الشريف واظهار قدرته على حل المشاكل السياسية.

وبعد ان حصل ليون روش على مرغوبه رجع الى مصر - وكتب الى القنصل فريسنيل والى المارشال بوجو يعلمهم بنجاحه فى مهمته. ومن الاسكندرية توجه الى روما ثم الى مرسيليا، خلال مارس ١٨٤٢. وفى روما استرجع اعجابه بالمسيحية وبدور رجالها. وتحادث مع البابا، وفكر فى دخول منظمة الجزويت السرية التى كانت ممنوعة فى فرنسا. وفى الثالث من يونيو ١٨٤٢ رجع الى الجزائر، واستقبله بوجو نفسه واثنى على جهده. ووجد روش كتبه وملابسه واسلحته التى تركها فى مكة قد جاء بها الشيخ موسى بن ابراهيم الى القاهرة ومنها وصلت الى الجزائر[٦].

والواقع اننا لا نملك النص الأصلى للفتوى الفرنسية التى قيل ان الذى صاغها هو الشيخ محمد الصغير التجانى وبعض مقدمى الزوايا الموالية لفرنسا. والذى نملكه هو حديث اصحابها عنها، ثم تعليق علماء الفرنسيين عن مفعولها فى الشعب الجزائرى. كان روش يعلم ان الجزائريين على رأيين: رأى يمثله الأمير عبد القادر واتباعه من المقاومين وهو انه لا يمكن لشعب مسلم ان يقبل بحكم الكفار، وأن على المسلمين ان يجاهدوا ما وسعهم الجهد فاذا عجزوا وجبت عليهم الهجرة الى دار الاسلام.

اما الرأى الثانى فيمثله الذين لم يجاهدوا لاسباب مختلفة او جاهدوا ثم تعبوا او اجبروا على الطاعة للعدو، وعلى رأس هذا الرأى بعض الطرق الصوفية. كالتجانية التى تأثرت من هجوم الأمير على عين ماضى، وهى مقر الزاوية والطريقة[٧].

وكان اصحاب هذا الرأى يرون انهم اذا قاوموا الكفار بكل ما لديهم ثم عجزوا عن صدهم فيجب عليهم وقف المقاومة وعدم القاء انفسهم الى التهلكة وان عليهم قبول حكم الكفار اذا سمح لهم هؤلاء بممارسة شعائرهم الدينية. وهذا الرأى كان يتماشى مع مصلحة فرنسا التى عانت ايضا من الحرب.

ولكن إقناع الجزائريين بوقف الجهاد لا يكون الا اذا وافق علماء المسلمين وبالخصوص فى الازهر ومكة المكرمة على فتوى فى هذا المعنى، أي الإذن لسكان الجزائر بالعيش تحت الحكم الفرنسى الذى سمح لهم بممارسة دينهم.

ويذكر يوسف مناصريه نصا جاء به من مراسلات المارشال بوجو، وهو على هذا النحو: «يجب على المسلمين مهادنة الكفار الذين غزوا بلادهم (او أراضيهم) بالقوة، وذلك اذا لم يؤذ هؤلاء نساءهم، واطفالهم، وسمحوا لهم بممارسة دينهم وتركوا لهم حرية ايمانهم»[٨] ويذهب روش الى ان هذا هو رأى الشيخ محمد الصغير التجانى الذى يسميه (صديقى صاحب عين ماضى وعدو الأمير غير المنازع). وهو ايضا رأى عدد من زعماء الزوايا الأخرى وشيوخ القبائل، مثل الشيخ حمزة من زعماء اولاد سيدى الشيخ، ومرابط الطريقة الطيبية وبعض زعماء الزيبان.

وفى سنة ١٩١٢ اوردت (مجلة العالم الاسلامى) مجمل صيغة الفتوى فقالت: «إذا

دافع المسلم عن بلاده وعجز وتغلب عليه النصارى فيها، ولكنهم اباحوا له شؤون دينه واحترموا نساءه ومساجده، وهو يرجو ان يتحرر من غلبتهم عليه ذات يوم: هل يجب عليه الجهاد او يسقط عنه؟»[٩].

وسواء فهم علماء الحجاز والازهر والقيروان الخديعة الفرنسية او لم يتفطنوا اليها فإن الفرنسيين قد هللوا لهذه الفتوى وحسبوها انتصاراً كبيرا لهم على المقاومة الجزائرية. لذلك فانهم بادروا الى نشرها في الصحف وتعليقها في المساجد وقراءتها على المنابر التابعة لهم وتوزيعها على القضاة وشيوخ القبائل المرابطين، لتثبيط العزائم وكسر حركة الجهاد. ومع ذلك فان المقاومة قد استمرت بقيادة الأمير حوالى خمس سنوات اخرى بعد هذه الفتوى المشبوهة التى يبدو ان روش قد اشتراها ببعض النقود الذهبية[١٠]. ولم نقرأ لحكام البلدان المذكورة او لعلمائها استنكاراً لما نسب اليهم الفرنسيون. وقد دخل روش التاريخ على انه، رغم تحفظ الباحثين الفرنسيين من بعض اقواله، خدم بلاده فى مختلف المجالات، ولا سيما فى الجوسسة والدبلوماسية.

وبين رحلة روش ورحلة «جير فى كورتيلمون» سنوات طويلة، فكيف وظف الفرنسيون نفوذهم فى الشرق لصالح سياستهم فى الجزائر وتونس؟ ان الهجرة من الجزائر قد استمرت بل ازدادت بعد ١٨٤٧، واتسعت بعد ١٨٥٧ و ١٨٧١، وكلها تواريخ هامة فى الصراع بين المقاومة والاحتلال[١١]. كما ان احتلال تونس سنة ١٨٨١ وثورة عرابى بمصر وثورة المهدى فى السودان كلها جعلت فرنسا تراجع سياستها نحو العالم الاسلامى. وقد ظهرت كُتُب كثيرة فى هذا المعنى ألفها بعض العسكريين امثال لويس رين (مرابطون واخوان)[١٢] والفريد لوشاتليه (الطرق الصوفية فى الحجاز)[١٣].

وكان على فرنسا ان تواجه حركة الجامعة الاسلامية بقيادة جمال الدين الافغانى ومحمد عبده، وبدعم من السلطان عبد الحميد الثانى. فكانت فرنسا من جهة ترد على هذه الحركة التى تدعو المسلمين الى الهجرة ومن جهة اخرى كانت تقوم فى العالم الاسلامى بتلميع صورتها (فرنسا) والاعلان بانها دولة «اسلامية» لانها تحتل اقاليم شاسعة مسكونة بملايين المسلمين.

ومن خلال قناصلها فى جدة والقاهرة ودمشق، ثم من خلال علاقتها مع خديوات مصر، ولا سيما الخديوي اسماعيل. كانت فرنسا تبث جواسيسها لتنفيذ السياسة المذكورة مستعملة بالخصوص بعض المستشرقين «واصدقاء الشرق» من الفرنسيين وبعض الارساليين الذين استوطنوا بلاد الشام، مثل لافيجرى، وكذلك بعض الحجاج الجزائريين «الرسميين». فرغم ان الحج كان ممنوعا على الجزائريين فى اغلب الاحيان لاسباب مختلفة ومنها عدم الأمن وانتشار الأوبئة، فان بعض الحجاج كانوا محظوظين اذ تسمح لهم السلطات الفرنسية باداء الحج اكثر من مرة من اجل مصالح اخرى، ولعل الحاج اكلى الذى سيأتى الحديث عنه كان من هؤلاء. فقد قيل عنه انه حج حوالى تسع عشرة مرة.

ان سياسة فرنسا نحو العالم الاسلامى قد اخذت فى التغير ابتداء من فاتح التسعينات. ففى هذه الفترة تولى حكومة الجزائر جول كامبون الذى حاول التقرب من الجزائريين باتخاذه ختما بالعربية يحمل العبارة الآتية: (الواثقُ بمنْ أمْرُه بين الكاف والنون، عبدُه جول

كامبون، الوالي العام بالولاية الجزائرية، حفظه الله في السرّ والعلانية) وقد اخذ يغير من سياسة بلاده نحو المسلمين في الجزائر وفي العالم الاسلامي، كما سنرى. وفي نفس الفترة ايضا ارسلت فرنسا بلجنة تحقيق هي الاولى من نوعها الي الجزائر برئاسة جول فيري، احد اقطاب السياسة الفرنسية عندئذ. وكانت القضايا التي تشغل الفرنسيين هي مسألة تجنيس المسلمين الجزائريين بمقتضى قانون ١٨٦٥، وتغيير الحالة المدنية بقانون ١٨٨٢، ثم قانون الخدمة العسكرية الالزامية الذي ظهر الحديث عنه[١٤]، وهذه القوانين قد ادت الى حركة هجرة نحو المشرق جعلت الفرنسيين يحسون منها بالخطر على زعزعة الأمن في البلاد وعلى سمعتهم في الخارج. كما ان فرنسا كانت بنهاية القرن الماضي تعمل على توسيع حدودها نحو الجنوب والجنوب الغربي من الجزائر. ولذلك احتاجت الى فتوى جديدة تؤمن لها الاوضاع في الداخل (بالجزائر) وفي الخارج، سيما في الحجاز حيث يجتمع المسلمون كل سنة للحج والتجارة والاعلام.

سمح جول كامبون للجزائريين بأداء الحج لأول مرة بعد ان كانوا ممنوعين منه منذ ١٨٨٦. فكان عدد الحجاج سنة ١٨٩١ حوالي ١٥٠٠ وفي سنة ١٨٩٢ حوالي ١٧١٧ وفي سنة ١٨٩٣ حوالي ٧٠٠٠ نسمة ولكن كامبون وضع شروطا ضيقة للحجاج، فقد كان عليهم ان يحملوا معهم تذكرة الذهاب والاياب، وان يكون لديهم مبلغ الف فرنك لكل فرد. كما طلب كامبون من الحجاج ان يسافروا على بواخر تابعة لشركات فرنسية (وكانوا قبل ذلك يفضلون السفر على بواخر انكليزية) وتتوفر على طبيب مسلم يرافق بعثة الحج. ونلاحظ ان الحج سنة ١٨٩٣ كان بالجمعة ولذلك وجدنا عدد الحجاج كبيراً وقد قيل ان الفين منهم (من ٧٠٠٠) قد ماتوا بمرض الكوليرا، وان الباقين تعرضوا لهجوم اللصوص والارهاق. غير ان كامبون منع الحج سنتي ١٨٩٤ و ١٨٩٥ لاسباب قيل انها ترجع الى وباء انتشر من الهند. اما سنة ١٨٩٧ فقد منع كامبون الحج لسبب سياسي واضح وهو الحرب بين الدولة العثمانية واليونان كما قرر إبقاء الجزائريين (والتونسيين) بعيدين عما كان يسميه «التعصب» والتأثر بمجريات الحرب[١٥].

وقد قيل عن جيرفي انه اختص بالدراسات الاسلامية. وكان يكتب ويدرس الفن بالجزائر العاصمة، وانه الف كتبا عن تونس والجزائر ومصر والمغرب. وكان قد سافر الى طنجة ومنها الى اسطانبول ونشر رحلته في خمس مجلدات. وكان ينوي نشر الجزء السادس من كتابه عن مكة المكرمة والمدينة المنورة باعتبارهما عاصمتين ثقافيتين - دينيتين. وتكتفي الكتب الفرنسية باشارتها الى ان جيرفي قد حقق هدفه، وزار مكة سنة ١٨٩٤ ونشر عنها كتابا بعنوان (رحلة الى مكة)[١٦]. ويتحدث كاتب غير فرنسي عن اعتناق جيرفي للاسلام وتمكنه من زيارة المدينة المنورة ايضا سنة ١٩٠٨، وكان ذلك بمناسبة افتتاح خط حديد الحجاز بصفته مراسلا لمجلة المناظر (الليسترسيون) الفرنسية[١٧]. وذلك هو عهد شارل جونار، الحاكم العام للجزائر ايضا، ولا ندري الآن حقيقة كل ذلك. فهل كان اعتناقه للاسلام صحيحا او من اجل مغامرته وادائه للمهمة الخاصة التي كلفته بها حكومة بلاده في الشرق؟.

وتهمنا الآن رحلته الأولى للحجاز. فعندما

عزم جيرفى (وعزم ايضا كامبون) على ذلك استعد له جيّد الاستعداد. فقد تذكر رجلا جزائريا كان يتردد على الحجاز للتجارة والعبادة، واسمه الحاج اكلى. وكان هذا الشيخ يتاجر فى البضائع بين الشام والحجاز ومصر والجزائر، وكانت حكومة الجزائر تمنع الحج، كما ذكرنا، ولكن الحاج اكلى خالف هذا المنع لأسباب ربما تجارية، وتوجه الى الحجاز، وعندما رجع الى الجزائر اعتقله الفرنسيون وحاكموه وكادوا يسلطون عليه اشد العقاب لولا تدخل جيرفى لصالحه فاطلق سراحه. وكان ذلك سنة ١٨٩٠[١٨]. وهكذا تمهد القصة لنفسها لنعرف بعد ذلك ان جيرفى لجأ الى «صديقه» الحاج اكلى الذى وصفه بأنه كان ايضا صديقا وفيا لفرنسا. ولعل المخابرات الفرنسية لم تكن غريبة عن كل هذه التحركات.

واعترافا بالفضل لبّى الحاج اكلى دعوة «صديقه» جيرفى ليكون دليلا له فى رحلته الى الحجاز. ومن جهتها اعدت السلطات الفرنسية جواز سفر مزور باسم عربي ليحمله جيرفى كورتيلمون، ووفرت المال اللازم وكلفت جيرفى بمهمة خاصة جدا. واعلمت القناصل الفرنسيين بذلك وبالاستعداد لتقديم التسهيلات لهذا المبعوث المتنكر. واذا كنا نعرف بعض دوافع هذه المهمة، ومنها الحصول على الفتوى المشار اليها، والتقاط المعلومات النادرة عن الوضع السياسى والتجارى فى المنطقة، فاننا لا نعرف كل التفاصيل عنها الآن. وتقول بعض المصادر ان جيرفى نفسه «لم يستطع الكشف عن طبيعة مهمته» وانه حصل بعد انجازها على وسام جوقة الشرف من حكومته. ويتحدث هذا المصدر عن أن جيرفى كان مسحوراً بالشرق وسمائه الزرقاء وابله ورماله وبدوه الذين لم تلطخهم فى نظره الحضارة الغربية، وكانوا ما يزالون على كبريائهم الاصيل والوان لباسهم الزاهية وحركاتهم الرائعة[١٩]. وهكذا فنحن امام شخصية اخرى شبيهة بليون روش، كلاهما احب المغامرة واختلط بالعرب والمسلمين وادعى الاسلام، وقام بالتجسس لصالح بلاده. ومن الفروق ان روش كان عسكريا ولكن كورتيلمون كان مدنيا، وان الأول كان يعرف العربية بينما الثانى كان لا يعرف منها الا القليل.

لكن الرحلة لم تتم كما خطط لها سنة ١٨٩٣ حين حج الناس بالآلاف وكان عليها ان تتأجل عاما كاملا وان تكون فى موسم عمرة وليس حجا. فقد وصل جيرفى الى السويس فى ١٤ يوليو سنة ١٨٩٣، وكان سيلتقى هناك بالحاج اكلى. وبعد البحث عنه بين حجاج افريقية الغربية (وهم غالبا رعايا فرنسيون) عرف من اخت الحاج اكلى ان اخاها قد توجه الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية، وانه كان سيتوجه منها الى الجزائر. وكان الحاج اكلى قد انتظر صاحبه طويلا فى السويس، ولما احس بالمرض قرر العودة الى الجزائر. وقد لحق به جيرفى فى الاسكندرية واقاما بها فترة من الوقت، ونصح الطبيب الحاج اكلى بتأجيل الرحلة عاما. وقد ذكرنا ان الحاج اكلى كان عارفا ببلاد الشام فذهب مع صاحبه الى فلسطين وغيرها. وقيل ان جيرفى عاش زمنا فى يافا بين القراصنة والمهربين، ويبدو ان الحاج اكلى قد تركه هناك ورجع الى الجزائر.

وفى خريف سنة ١٨٩٤، وهى السنة التى منع فيها الفرنسيون الحج على الجزائريين بدعوى انتشار الاوبئة من الهند، غادر الحاج اكلى وجيرفى الجزائر باتجاه جدة مباشرة على

متن باخرة تدعى (قلوكوس) ودامت رحلتهما عشرة ايام· وكانت الباخرة تحمل اشتاتا من الناس، وقد وصفها البعض بانها كانت «متحف أعراق»· وفى جدة شك المسؤولون فى هوية جيرفى لأنهم لم يفهموا لغته العربية، ولكن حضور الحاج اكلى فى الوقت المناسب انقذه منهم· وقد تكرر هذا الحادث فى اماكن اخرى· وكان للحاج اكلى خبرة واصدقاء فى الحجاز· وتفاديا لانكشاف الأمر أجر الحاج اكلى الحمير بدل البعير للتوجه الى مكة· ولا نريد ان نتحدث هنا عن مشاهدات جيرفي فى مكة ومصوراته ومغامراته[٢٠]· وكل ما نريد الإشارة اليه هو انه حقق هدفه، رغم مرض الحاج اكلى فى مكة وقيام شخص آخر يدعى عبد الواحد من غرب افريقية، مقامه· ولاحظ جيرفى غياب البضائع الفرنسية وكثرة البضائع الانكليزية والهولندية، ونقمة المسلمين على فرنسا لاضطهادها مسلمى الجزائر وتونس، وروى جيرفى ان الوجود الانكليزى كان طاغيا وان الناس فى مكة كانوا يقولون ان الانكليز سيعتنقون الاسلام، وانهم اذا فعلوا ذلك فيصبح العالم كله دولة اسلامية[٢١]· ولعل هذه الفكرة كانت من دعاية الانكليز او من انبهار المسلمين بهم، كما ينبهرون اليوم من دولة اخرى هى امريكا·

وفى نهاية رحلته الى مكة توجه جيرفى الى جدة، ومن القنصلية الفرنسية بها أبرق الى اهله· وكان في نية جيرفى زيارة المدينة المنورة بعد ذلك· فركب باخرة الى ينبع البحر· ولكن الحالة الصحية للحاج اكلى جعلته يلغى زيارة المدينة لصعوبة المشي اليها عن طريق البر· وهكذا توجه الى السويس، ومنها الى مرسيليا· وبعد رجوعة القى محاضرة فى بوردو عن رحلته· وكان من ابرز الحاضرين هو ليون روش نفسه، صاحب الرحلة الاولى، وقد اصبح طاعنا فى السن· وقد ذكرنا ان جيرفى قد حقق «حلمه» بزيارة المدينة المنورة سنة ١٩٠٨ تحت غطاء آخر[٢٢]·

اما الفتوى التى تعنينا فهى الصيغة التى اعدها مستشارو الحاكم العام جول كامبون من المستشرقين ورجال الدين المسلمين الرسميين· وكان مرادهم تثبيط حركة الهجرة من الجزائر، ومنع الثورات، ومقاومة دعوة الجامعة الاسلامية، واعتبار الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي دار اسلام وليست دار حرب· ويكاد محتواها الاساسي يكون تكراراً للفتوى التى حملها ليون روش من قبل· واذا كنا نعرف ان الذى حمل الفتوى هو جيرفي، وان الذى كلفه بذلك هو كامبون، فإننا لا ندرى من صاغها، ومن وافقه ايضا من الجزائريين (غير الحاج اكلى الذى لا نعرف هويته بالضبط ويبدو انه لم يكن من رجال الدين)· وربما رافق جيرفى بعض رجال الطرق الصوفية او غيرهم ممن لم يكشف عنهم حتى الآن· والأمر المعلن هو ان الحاكم العام قد كلف جيرفى بهذه المهمة لدى شريف مكة عندئذ·

وقد فهم الفرنسيون ان هؤلاء الشيوخ قد وافقوهم على صيغتهم· وإذا كان ليون روش قد قص فى كتابه كيف اتصل بشريف مكة وكيف جمع هؤلاء العلماء فى مجلس للتداول فى شأن الفتوى، فإننا لا نعرف ان جيرفى قد قص ذلك، ومن ثمة لا نعرف كيف وقع الاتصال بين جيرفى والشريف، ولا بين هذا والعلماء· وما يزال الغموض يحيط بتفاصيل هذا الموضوع[٢٣]·

واليك الصيغة العربية للفتوى كما وردت فى كتاب (نصوص سياسية)، وهى مأخوذة من الوثائق الفرنسية: «ما قولكم فى اهل بلدة

مسلمين قد استولى عليهم الكافر وصار حاكما عليهم، ولم يتعرض لهم فى امور دينهم بل يحثهم على اجراء احكامهم الدينية ووظف عليهم قاضيا من اهل دينهم يجرى عليهم الاحكام الشرعية وجعل له معاشا وافرا يأخذه على رأس كل شهر. فهل مع هذا تجب عليهم الهجرة ام لا؟ وهل تجب عليهم مقاومته ومحاربته مع عدم قدرتهم على ذلك ام لا؟ وهل بلدهم التى استولى عليها يقال لها دار حرب ام دار سلام؟ بينوا لنا بياناً شافيا قاطعا للنزاع، أيد الله بكم الدين».

وليس هنا محل التعليق على صيغة هذه الفتوى ولا على مفعولها، وانما نذكر ان هذه الصيغة مبنية على مقدمات خاطئة، لأن الحاكم (الفرنسى) المتغلب قد فهم الدين الاسلامى بطريقته الخاصة، ولم يترك للمسلمين امور دينهم بل استولى على الاوقاف والمساجد وهدم اكثرها وحول بعضها الى كنائس وثكنات واسطبلات، وسلب القضاة المسلمين من كل الاحكام عن الاحوال الشخصية، الى آخر ما هنالك. ثم ان اجوبة العلماء الثلاثة غير واضحة ولا تجيب مباشرة علي الاستفتاء. ورغم ان الفرنسيين قد اذاعوا هذه الفتوى واعتبروها انتصاراً سياسيا كبيراً فإن الهجرة لم تتوقف، وازداد القلق والتذمر من التوسع الفرنسى نحو الصحراء، غير انهم نجحوا، مع ذلك، فى تجنيد بعض الطرق الصوفية الى جانبهم وجلب ولاء قيادة اولاد سيدى الشيخ الذين انهكتهم الحرب.

ان صلات فرنسا بالحجاز لم تكن هى صلات انكلترا به. ورغم اثبات وجودها فى ظاهر الأمر، مثل حضور جيرفى لفتح سكة حديد الحجاز وزيارته المدينة المنورة سنة ١٩٠٨ ونشر صور الحرمين الشريفين، فإن النفوذ الفرنسى بقى هامشيا الى سنة ١٩١٦. وكان من المفهوم ان تمنع فرنسا الجزائريين من الحج بعد دخول الدولة العثمانية الحرب ضدها. وقد حصلت من بعض علماء الجزائر ومرابطيها (رجال التصوف) على فتاوى ونصائح تعلن للمسلمين ان الدولة العثمانية قد انحرفت عن الاسلام وان السلطان لم يعد خليفة المسلمين لأنه كان واقعا تحت تأثير المانيا[٢٤]. ولكن تفاهم الشريف حسين مع الانكليز على الثورة ضد الدولة العثمانية، واعلان استقلال الحجاز جعل فرنسا تبادر بارسال بعثة اطلق عليها اسم بعثة ادوارد بريمون سنة ١٩١٦.

ويهمنا من هذه البعثة انها ضمّت الى جانب العقيد الفرنسى بريمون بعض المدنيين والعسكريين الجزائريين. وكانت فرنسا تريد بذلك منافسة انكلترا هناك بعرض الاسلحة والمدربين المسلمين (الجزائريين) على الشرف. وكانت البداية هى فتح دار للضيفان فى مكة باسم فرنسا، واقامة بعثة دائمة، وتقديم الهدايا والاسلحة. وكان رئيس البعثة الدينية هو قدور بن غبريط ورئيس البعثة العسكرية هو الشريف بن العربى المعروف بالعقيد، ثم التحق بالبعثة ايضا مصطفى الشرشالى احد اساتذة المدرسة الثعالبية بالجزائر. ولكن المنافسة الانكليزية، رغم التحالف الحربي، والطموح الفرنسى للاستيلاء على سورية، جعل النشاط الفرنسى محدوداً فى الحجاز. بل ان بعثة بريمون قد فشلت ورجعت الى الجزائر بعد حوالى عام[٢٥].

الهوامش:

(١) انظر مارسيل ايمريت فى *مجلة البحر الابيض* R.DELA Medifi المجلد ٣، رقم ١٤، نوفمبر - ديسمبر. ١٩٤٦ - ص٦٨٤ - ٦٩٧.

(٢) لخصها مارسيل ايمريت فى بحثه «اكتشافات السانسيمونيين» فى المجلة الافريقية R.Africaine المجلد ٨٧، سنة ١٩٤٣.

(٣) رشدى فكار (علم الاجتماع..) نوشاتيلى ١٩٦٨. ص ٢١٣ - ٢١٦.

(٤) ولد ليون روش LEon Roche فى قرونوبل (فرنسا) سنة ١٨٠٩، وحصل فيها على الباكلوريا. وسبقه والده الى الجزائر حيث اشترك فى الحملة الفرنسية سنة ١٨٣٠. وفي سنة ١٨٣٢ حل ليون بطلب من ابيه، بالجزائر. ودخل فى خدمة الجيش أيضا وبعد حياة فى الدبلوماسية ايضا، توفى سنة ١٩٥١ فى قرونوبل. وتوجد تفاصيل حياته فى كتاب يوسف مناصرية (مهمة ليون روش فى الجزائر والمغرب)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٩٥.

(٥) انظر رحلة أدريان بيربروجر الى معسكر الأمير بالونوغة، شتاء ١٨٣٧ - ١٨٣٨. وهي مطبوعة فى باريس ١٨٣٩. وقد ترجمناها الى العربية وارسلنا بها الى النشر.

(٦) ساق ليون روش اخبار رحلته فى كتابه (اثنان وثلاثون سنة فى الاسلام) باريس، ١٨٨٤. وهو كتاب فى جزئين.

LEON Roche, Trente deux ans A Travers L,islam, Paris, 1884

(٧) وقع الهجوم والحصار فى صيف ١٨٣٨. وكان الامير قد طلب دخول الشيخ محمد الصغير التجانى فى طاعته لتوحيد كلمة البلاد فأبى، مدعيا انه رجل دين ولا يهتم بالسياسة والحرب. ولكن مخابرات الأمير كشفت عن مراسلات بين التجانى والحاكم العام الفرنسى (المرشال فاليه) تدعو الى التحالف ضد الأمير. وربما كان لروش دور فى تبعيد الشقة بين الأمير والتجانى.

(٩٨ مناصرية، مرجع سابق، ص ٤١. عارض الهجرة ايضا بعض العلماء امثال المفتى مصطفى الكبابطى والشاعر الفقيه محمد بن الشاهد. انظر محمد بن عبد الكريم (حكم الهجرة).

(٩) مجلة العالم الاسلامى R.M.M. فبراير - مارس، ١٩١٢، ص ٨٢.

(١٠) انظر تعليق محب الدين الخطيب فى (الحديقة) جـ ٧، القاهرة ١٣٤٩، ط ٢٠، ص ١٠٤.

(١١) سنة ١٨٤٧ مثلت نهاية مقاومة الامير عبد القادر واخذه اسيراً الى فرنسا. وسنة ١٨٥٧ مثلت ثورة زواوة بقيادة الطريقة الرحمانية، وسنة ١٨٧١ مثلت ثورة شاملة قادها الحاج محمد المقرانى والشيخ محمد امزيان الحداد، وكان للأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر دور فى اشعالها بنهاية ١٨٧٠.

(١٢) لويس رين، ط. الجزائر ١٨٨٤. وكان رين من ضباط المكاتب العربية العسكرية ومسؤولا عن الشؤون الأهلية وله مؤلفات اخرى.

(١٣) الفريد لوشا تليه عمل ضابطا فى المكاتب العربية بالجزائر، ونشر كتابه سنة ١٨٨٧، وقد اصبح بعد ذلك من اساتذة مادة المجتمع الاسلامى فى الكوليج اى فرانس، وهو الذى انشأ مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٠٦، والأرشيف المغربى فى نفس الفترة.

(١٤) عن هذه القوانين انظر كتابنا الحركة الوطنية الجزائرية جـ ١، ٢.

(١٥) روبيرا جرون (الجزائريون المسلمون)، باريس، ١٩٦٨، جـ ١، ص ٥١٨.

(١٦) جيرفى كورتليمون (رحلة الى مكة)، نشرته هاشيت، باريس، ١٨٩٦. وقد راجعته مجلة افريقية الفرنسية، اكتوبر ١٨٩٦، ص ٣٢٦.

(١٧) اوغسطس رالى (مسيحيون فى مكة)، ط١، واشنطن، ١٩٥٩، ط ٢، ١٩٧١، ص ٢٦٠.

(١٨) نفس المصدر. ويقول المؤلف ان الحاج اكلى كان يشترى البضائع من الحجاز ويبيعها فى مصر والجزائر وفرنسا، وانه ركب مع قافلة من بلاد الشام الى الحجاز عندما خالف المنع. وان الذى اعتقله هو والى الجزائر (اي المحافظ) الذى كان صديقا لجيرفى.

(١٩) (مسيحيون فى مكة)، ص ٢٤٦. ويقول آخرون ان جيرفي كورتيلمون كان من ادارة كامبون، انظر (الجزائريون) ٥١٩/١. وكان كورتيلمون قد القى كلمة فى المؤتمر الكولونيالى سنة ١٩٠٨.

(٢٠) قد نكتب وصفا لرحلتي روش وكورتيلمون فى الحجاز من مشاهدات وانطباعات واحكام، في مناسبة اخرى.

(٢١) مجلة (افريقية الفرنسية) يناير ١٨٩٦، ص ٤ - ٥.

(٢٢) فى كتاب (مسيحيون فى مكة) صور للمسجد النبوى وبعض الشوارع فى المدينة المنورة، وكلها من تصوير جيرفي.

(٢٣) جمال قنان (نصوص سياسية جزائرية فى القرن التاسع عشر)، الجزائر ١٩٩٣، ص ٢٦٢ - ٢٦٤. وقد اورد ترجمة الفتوى ايضا ديبون وكوبولانى فى كتابهما (الطرق الدينية الاسلامية)، الجزائر ١٨٩٧. واعتبراها وثيقة هامة ذات مفعول سياسى خطير.

(٢٤) صدرت هذه الفتاوى والنصائح فى مجلة العالم الاسلامى - الفرنسية، عدد ديسمبر ١٩١٤. والنصوص منشورة بالعربية ومعها ترجمة فرنسية. وفيها اسماء شيوخ معظم الطرق الصوفية وبعض رجال الدين الموظفين.

(٢٥) عن بعثة بريمون واعضائها من الجزائريين انظر كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافى) جـ ٤، مخطوط، ودراسة الان كريستلو وهي ايضا ما تزال مخطوطة وعنوانها «الأبعاد الجزائرية للسياسة الفرنسية فى الشرق الأوسط، ١٩١٦». وهي دراسة فى ٤٥ صفحة وقد تفضل بارسال نسخة منها. وكذلك دراسة روبان بيدويل وعنوانها «بعثة بريمون فى الحجاز، ١٩١٦ - ١٩١٧: دراسة فى التعاون بين الحلفاء فى كتاب (دراسات عربية واسلامية) بحوث قدمت الى ر.ب. سيرجان. لندن ١٩٨٣، ص ١٨٢ - ١٩٥.

الكنوز الغارقة:

ذهب من أعماق البحار



- نماذج من القطع الذهبية المستخرجة من أعماق البحار.

عودة إلى الوراء .. إلى صباح الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٧١٥م.

نحن الآن في (هافانا) - عاصمة كوبا اليوم - نراقب مجموعة من السفن التي تستعد للقيام برحلة العودة إلى أسبانيا على متن هذه السفن ألفا مسافر، بالإضافة إلى أطقم البحارة والخدمة وعلى السفن أيضا كل ما يحتاجه مَنْ عليها من طعام وشراب.

أما البضائع التى ستنقلها هذه السفن فهي ثروة كبيرة، إذ تتضمن ١٤ مليون «بيزوس» من الذهب الخالص، ومجموعة من التحف والمشغولات والقطع الذهبية والفضية، وغير ذلك من كنوز وتحف العالم الجديد.

السماء صافية. الريح تنبىء عن رحلة موفقة.. الجميع متلهفون للرحيل.. وانطلق الأسطول الصغير الذي كان يضم ١٢ سفينة نحو جزر الباهاما، ثم سار في اتجاه فلوريدا ليستفيد من تيار الخليج والرياح التي ستساعد على عبور المحيط الأطلنطي. وبدت الرحلة طبيعية. ولكن فجأة واجهت السفن إعصارا مدمرا مزَّق الأشرعة، وحطَّم الصواري، وأهاج الأمواج، فثارت كوحوش أسطورية.. وعبثا حاول

م/ محمد عبد القادر الفقي
- الظهران -



ـ مجموعة من الرجال والنساء يبحثون عن الذهب في أحد الجداول

البحارة أن يسيطروا على السفن، فكانت المأساة، تحطمت إحدى عشرة سفينة من أصل الاثنتي عشرة سفينة على شاطيء فلوريدا، بالقرب مما يعرف اليوم باسم «كاب كانافيرال»، في حين تبعثرت أحمالها الثمينة في قاع المحيط. وغرق نتيجة للكارثة ٧٠٠ مسافر، في الوقت الذي انتشر فيه حطام السفينة على مسافة ١٤ كيلومتر من شاطيء فلوريدا. وقد نجح الأسبان في تلك الفترة في استعادة ٨٠ في المائة من الأحمال التي كانت معروفة لهم. وظلت العشرون في المائة المتبقية ـ بما فيها من كنوز وتحف ـ مفقودة.

وبرغم تعاقب السنوات على هذا الحدث المأساوي إلا أن حُمّى البحث عن الذهب ظلت تداعب أحلام الكثيرين.

وثمة عدد كبير من المغامرين الذين يعنون بالبحث عن الكنوز الغارقة. والموقع الذي غرق فيه الأسطول الأسباني ـ الذي أشرنا إليه ـ كان قد شهد أيضا غرق سفينة أخرى قبل ذلك. ومن الطريف أن هذه السفينة ـ التي كانت تسمى «سانتا مرغريتا» كانت متوجهة من هافانا أيضا إلى اسبانيا، ثم فاجأها إعصار بحري أدى إلى تحطمها وغرقها بالقرب من جزر فلوريدا الجنوبية في عام ١٦٦٢م. وكانت هذه السفينة تحمل على متنها ٦٣٠ طنا من الذهب والفضة والنحاس وصبغ النيلة الأزرق الذي يستخدم في صباغة الأقمشة القطنية.

وقد تم العثور على حطام «سانتا مرغريتا» في شتاء عام ١٩٨٠. وبين هذا الحطام وجد الغواصون المغامرون كميات كبيرة من الثروة التي لا تقدر بثمن. فقد بلغ وزن القطع الذهبية التي استخرجها الغواصون نحو ٥٣ كيلو جراما، عُثِر عليها في مساحة بلغ طولها ١٢٢٠ مترا، وهي تشتمل على عدد كبير من القضبان والاسطوانات والسبائك الذهبية. كما وجد الغواصون عددا من السلاسل المصنوعة من الذهب وصل طولها إلى ٥٥ مترا بالإضافة إلى ٥٦ قطعة نقدية ذهبية و١٥ ألف قطعة فضية،

ومجموعة من السبائك الفضية.

ومثل هذا الاكتشاف يحفز الكثيرين على البحث عن الكنوز الغارقة، برغم ما يحف ذلك من مخاطر. فقد ضحى أناس بأرواحهم بحثا عن تلك الكنوز قبل فترات طويلة من ظهور أجهزة الكشف عن المعادن وأجهزة السونار التي تستخدم حاليا للغرض نفسه. لقد فقد «ميل فيشر» أحد المغامرين الذين حققوا ثروة كبيرة من البحث عن الكنوز الموجودة في قيعان البحار - ابنه وزوج ابنته في اثناء البحث عن سفينة قديمة غرقت في عرض المحيط الأطلنطي، كانت تدعى (نويسترا سنيورا أتوشا). وقد عثر (فيشر) على هذه السفينة في حوض فلوريدا، ووجد في قاعها ألف قضيب من الفضة ومئات من قطع الزمرد غير المصنع، وعددا كبيرا من الأطباق والقضبان الذهبية والمسابح التي قدرت قيمتها جميعا بثلاثمئة مليون دولار. واستغرق البحث عن هذه الثروة الكبيرة ستة أعوام ونصف العام، حتى تكلل الجهد بالنجاح في يولية ١٩٨٥م.

وقد كان عام ١٩٨٥ - كما وصفه تجار الكنوز - عام المعجزات. ففى شهر مايو من ذلك العام عثر الباحث «مايكل هاتشار» وعالم الجيوفيزياء البحري «ماكس دورام» على السفينة التجارية الهولندية الغارقة (دي جولدار مالسين) التابعة لشركة الهند الشرقية والتي اصطدمت بسلسلة صخرية غير مرئية وغرقت في جنوبي بحر الصين في عام ١٧٥٢م. وكانت السفينة تحمل بضائع تتضمن ١٢٠ قالبا من الذهب الخالص وأكثر من ١٦٠ ٠٠٠ قطعة من الزجاج الصيني الأبيض والأزرق. وقد اشترى ثري سويسري مجموعة «سفرة» من تلك القطع بقيمة ٣٢٧ ألف جنيه استرليني.

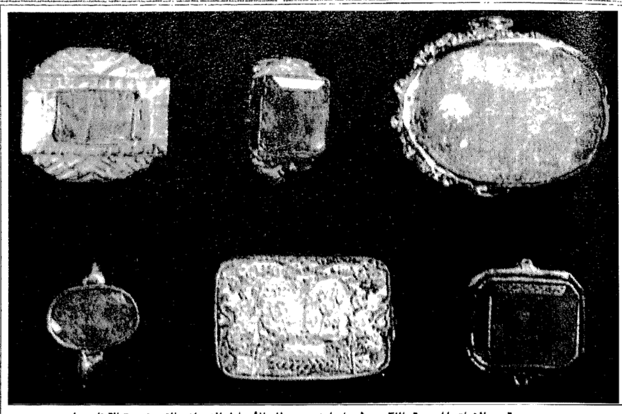
وفي صباح أحد أيام يولية ١٩٩٣ تبسم الحظ للغواص كريستوفر جيمس. فقد كان يمسح قاع



- قطعة ذهبية أثرية ضمن مجموعة عثر عليها في حطام إحدى السفن.

البحر في جنوب منطقة (كاب كانافيرال). وكان كريستوفر قد أمضى - مع غواصين آخرين - ثلاثة أيام في تعقب خط من الخواتم الذهبية لصالح شخص اسمه (بوب ويلاري)، وهو مهندس متقاعد يبلغ من العمر ٦٨ عاما. وفجأة سجل جهاز كشف المعادن الذي كان يحمله كريستوفر وجود شيء ما، فراح هذا الغواص يتحسس المكان بأصابعه. وما لبث أن شاهد لمعان قطعة من الذهب. ولم تكن قطعة الذهب في هذه المرة مجرد خاتم صغير، بل حلية كبيرة على شكل فراشة تمّ ترصيع جناحيها باللآليء. وصعد كريستوفر إلى السطح حاملا ما عثر عليه وهو لا يصدق عينيه. ثم عاد إلى المكان نفسه مع رفاقه الغواصين الذين تمكنوا في النهاية من العثور على قلادة ذهبية وقرطين ذهبيين أيضا في منطقة لا تبعد أكثر من ستين مترا عن المكان الذي عُثر فيه على الفراشة الذهبية. وقد تبين أن القلادة والقرطين كانت مرصعة بـ ٤٤١ لؤلؤة. وقد قدر ثمن هذه الحلي بأكثر من مليوني دولار. ويرجح الباحثون أن تكون هذه الحلي من بقايا الأسطول الاسباني الصغير الذي غرق في موقع (كاب كانافيرال) في عام ١٧١٥م.

وعلى الرغم من الأخطار والمصاعب التي تعترض كل باحث عن الكنوز الذهبية الغارقة فإن الولع بهذا النوع من البحث ينسي المغامرين هذه



ـ مجموعة من الخواتم المرصعة باللآلىء عثر عليها ضمن حطام الأسطول الاسباني الذي غرق قبالة فلوريدا.

الأخطار. وهناك دائما من هم على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل العثور على الذهب.

الذهب في مياه البحار:

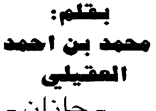
يوجد الذهب في صخور قيعان البحار والمحيطات. كما يوجد ذائبا في مياه البحار والمحيطات بنسبة ستة أجزاء في المليون. وبرغم ضآلة هذه الكميات فقد كان من المستطاع استخراج الذهب من ماء البحر وهو ما حاوله قدماء الكيميائيين، ولكن وُجد أن تكاليف ذلك باهظة جدا، ولا تقارن على الإطلاق بتكاليف استخراجه من المناجم الأرضية الطبيعية، ولذلك تم العدول عن مثل تلك المحاولات.

وفي مجاري الأنهار:

يوجد الذهب في قيعان كثيرة من مجاري الأنهار. ومنذ أقدم العصور كان الباحثون عن الذهب يفتشون عنه في قيعان الأنهار. وما يزال بعض الناس في أيامنا هذه يفعلون ذلك، في الدول الفقيرة والغنية على حد سواء. ومن المألوف جدا أن يشاهد المرء في اسكتلندا مجموعة من الرجال والنساء البالغين، وحتى المسنين، وهم يخوضون في مياه أحد الجداول حاملين قصعان قليلة العمق تملأ بالطمي ثم يغسلون هذا الطمي بالماء، ويهزونه بطريقة غريبة، وهم في أغلب الأحيان ساهمون. وفجأة، ينطلق صوت أحدهم صارخا: «لقد عثرت على الذهب». ويخيل إليك وقتئذ أنه قد وقع على منجم منه، أما الواقع فإن ما عثر عليه ليس إلا ذرة صغيرة من الذهب لا تغني ولا تسمن من الجوع. إن الباحثين عن الذهب يتحدثون عن متعة فريدة في التنقيب عنه، وعن المتعة العظمى في العثور عليه مهما بلغت ضآلته. إنه ذلك الدافع الغريزي للعثور على ذلك المعدن الذي لا يفوقه معدن آخر سحرا وجاذبية.

وليس ذلك بغريب، أليس الذهب ثالث الشهوات التي زُيِّن للناس حُبّها كما جاء في القرآن الكريم؟!.





بقلم:
محمد بن احمد
العقيلي
- جازان -

جون ملتون: الفردوس المفقود

حياة الشاعر:

منذ ثلاثة قرون وثلث قرن تقريباً، لم تكن مدينة لندن التي ولد فيها الشاعر هي هذه المدينة التي تعد في مقدمات عواصم العالم حضارة ورقياً وعمراناً، ولم تكن دورها تحمل أرقاماً ولا شوارعها مسميات، بل كان الناس يميزون بعضها من بعض بتمثال صغير أو علامة منحوته، أو صورة زاهية الألوان، ترمز إلى هوية أو مهنة أو حرفة قاطن البيت، وكانت مدينة محدودة الحجم، وموقعها حيث قلب المدينة الآن، وما كان يعرف بضواحي لندن لم تكن في ذلك الحين إلا أريافاً مترامية بالحقول والمراعي والغياض.

وفي بيت من بيوت لندن في حي أو شارع يعرف بـ «شارع الخبز» وعلى واجهة الباب نسر مبسوط الجناحين هو شعار أسرة قاطن البيت الذي يحترف كتابة العقود الرسمية والوثائق القضائية، وفي يوم قارس البرد عاصف الريح، تتداول سماؤه هزيم الرعد ووميض البرق، في التاسع من سبتمبر سنة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م صار محرر العقود أباً لغلام صغير جميل، قائلا لنفسه ليكون هذا الغلام سمياً لي وهكذا أطلق على الوليد اسم «جون ملتون».

و«جون ملتون» الكبير والد شاعر المستقبل سمح لنفسه أن يخالف أباه في بعض مسائل العقيدة، فتعرض لسخط ذلك الأب بسبب تلك المخالفة، ولعل موهبة أبيه المحدودة في نظم الأهازيج والمقطوعات الشعرية قد ورثها الشاعر ونماها فأصبحت موهبة مزدهرة

تؤتي أكلها من أطايب الشعر وأفانين البيان.
ونمت تلك الموهبة إلى أن أصبحت له الدرجة الرفيعة في عالم الشعر ودنيا الآداب، وترجمت أشعاره على اختلاف اللغات وتباين العصور، وكان لوالده الفضل في تنشئته نشأة كريمة وأن يتيح له تعليماً متيناً راقياً.

إلى أن يقول جون ملتون: (لقد وجهني أبي منذ حداثة صباي الباكر إلى دراسة الآداب الإنسانية التي كنت استوعبها بدافع عظيم).

وفي سن الخامسة عشرة أنشأ «ملتون» ترنيمة دينية أصبح ترتيلها شائعاً حتى اليوم في معابد «البيوريتان» خاصة و«البروتستانت» الأنجليز بصفة عامة، وفي سن السادسة عشرة دخل كلية «هامبورج» وظل بها مدى سبع سنين وحصل فيها على البكالوريوس والماجستير.

وفي سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م قام برحلة في أنحاء أوربا ومنها ايطاليا، وكان أدب «دانتي» و «بتراريك» وغيرهما من فحول أدباء ايطاليا النبع الذي ارتشف من معينه، وكم شدته مناظر مدائنها القديمة المعمورة بآيات الفن وأعلام الفكر وكنوز الثقافة القديمة والحديثة، وبالأخص «جنوه» و«لجهوران» و«بيزا» و«فلورنسا» و«روما» و«البندقية» و«ميلانو».

وفي سنة ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م صدر مؤلفه المحتوي على أشعاره بالإنجليزية واللاتينية التي ضمنها شتى المواضيع.

وفي سنة ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م بلغ الشاعر الرابعة والأربعين من عمره وأصيب بالعمى التام، ولم يعد في مقدوره أن يعمل إلا بمعاونة سواه، وبرغم تلك الآفة القاسية، فقد ظل يمارس التأليف وقد سبق قبل ذلك زواجه الأول على فتاة في السابعة عشرة من عمرها، وكان هو فوق الثلاثين من عمره ورزق منها ثلاث بنات، كن يقدمن له من العون ما استطعن، وفشل ذلك الزواج، وفي سنة ١٦٦٠م تزوج بامرأة أخرى يصفها بأنها قديسة لم تعش طويلا إذ توفيت بعد خمسة عشر شهراً. وفي سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م هجر لندن بسبب مرض الطاعون الذي اجتاحها، وأقام في كوخ بمقاطعة «بكنجهام» بقرية «تشالفونت سانت جايلز»، وقد اشترت الأمة الإنجليزية ذلك الكوخ وأوقفته تخليداً لذكراه. وفي ذلك الكوخ الذي أصبح من المعالم التاريخية وضع الشاعر الكبير اللمسات الأخيرة في رائعته «الفردوس المفقود» ولم تنشر تلك الملحمة الخالدة إلا في سنة ١٦٦٧م.

وكانت نظرته إلى الحياة دقيقة ومرهبة، صارمة ومنتظمة، كان ينهض من فراشه الساعة الرابعة صباحاً في فصل الصيف والخامسة صباحاً في فصل الشتاء، ويأوي إلى فراشه بانتظام الساعة التاسعة مساءاً، وكان شعاره أو دستور حياته: (من يسيطر على نفسه، ويتحكم فى انفعالاته وشهواته ومخاوفه، أقوى من أي سلطان وأقوى من أي متحكم في الحياة، وعلى الانسان الإذعان

للخالق سبحانه وتعالى، وإن عصيانه خطيئة)· ونقول ـ كما جاء في الأثر ـ «لو كان مسلماً لترحمنا عليه»، ويقول مؤلف سيرة حياته: (كانت حياة «جون ملتون» صورة مطابقة لمبادئه في شدته على نفسه وسيطرته على زمامها وشجاعته الأدبية)·

وفي شهر نوفمبر من سنة ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م ، توفي ذلك الشاعر عن عمر يناهز السابعة والستين عاماً·

والواقع أنه في شبابه وقبل مغادرته الجامعة كان قد كتب قصيدته الجميلة «صبيحة يوم الميلاد» فقد كتب في ذلك الحين الى صديق له رداً جوابيا على رسالة منها هذه الجملة التي تنبىء عن ما يشغل نفسه من ذلك الحين إلى دخول التاريخ من أوسع أبوابه، إذ يقول: (أراك تكثر من السؤال عما تشعر به نفسي، وعما أفكر فيه؟ وإني بعون الله تعالى مشغول الفكر بالخلود، وأغفر لي هذه الكلمة فإن هي إلا همسة ألقي بها في مسامعك، أجل أعلم إني أهيىء جناحي إلى التحليق! ـ في سماء المجد ودنيا الخلود)·

إن جون ملتون هو كما يقول من كتب عنه: (الشاعر الوحيد الذي آمن إيماناً حقيقياً وعملياً بـ «البيوريتانية» ـ فرقة من فرق المسيحية ـ فقد كان في الوقت عينه ذا شخصية قوية جداً بحيث لا يجوز أن تعتبره ممثلا لتلك العقيدة، إنما هو يمثل نفسه وطبيعته الخاصة الفذة فهو أعظم شعراء جيله، حتى إزاء من أعلن صراحة إعترافه بفضلهم عليه مثل «سبنسر» و«شكسبير» ثم إن له ميدانه الأوحد على اختلاف أفانين أدبه ألا وهو ميدان المشكلة الخلقية، كما تراءى لعقله ووجدانه، وليس كذلك «شكسبير» بتعدد آفاقه التى يكاد لا يحيط بها الحصر وإنه لمرهف الآذان للإيقاع الموسيقي المنساب في وقار وجلال، وليس كذلك شعر «جونسون» بخشونته وموسيقاه الوعرة·

لقد كان «ملتون» يكتب لروح واحدة يعنيه أمرها، تلك الروح روحه شخصياً، فكان أول شاعر ينشأ عملاقاً روحياً، يجمع بين كمال الفن القديم وحرارة الإنفعال أو الوجدان الخلقي الحميم على نحو ما يتراءى في التوراة بعهديها الجديد والقديم·

ففي وجدانه المرهف نشب الصراع محتدماً بين عشقه لجمال الطبيعة، كما عاشها الرجل العادي، وبين العاشق للروحيات، ومن امتزاج هذين النغمين العميقين قدم لنا «ملتون» معزوفته اللفظية البيانية الرائعة، وقد تفاوتت نِسَبُ هذا الإمتزاج الثنائي على حسب سنوات عمره ومراحل حياته الفنية، إلا أن الإمتزاج موجود دائماً، وما من شاعر سواه في الأدب الإنجليزي كان عميق التدين إلى هذا الحد الكبير، وعظمة الحظ من روح الفنان في آن واحد·

ولعل أهم أعمال ذلك الشاعر النابغة قصيدته السابق ذكرها «صبيحة يوم الميلاد» وهي كذلك من أعذب الشعر وأغناه

بالموسيقى، ثم «أوبراه» على طريق الأقنعة المسماه «كوموس» وموضوعها أخلاقي في المقام الأول، حيث تظل الشخصيات عبارة عن فضائل مجردة وأصوات ناطقة بوجهات النظر وليس لها كيان أو أشخاص آدميين، فكل ما فيها من شعر لا يخاطب إلا الآذان المرهفة والذهن النابه، لكن القارىء لذلك الشعر المترف والبيان السخي بالزينه لا يتمالك نفسه من الإعجاب بتلك الترانيم المتعددة الأصوات والغنية بالفضائل، وسمو الأخلاق في أرقى شعر موسيقي النبرات وثري بالألفاظ، ذلك الشعر العالي والبيان الرفيع، الذي هو متنزه غني بالجنائن والأزهار، ومراد للعقل والروح والنفس، يرجع فيه النظر ويتملى مستأنياً ومستمتعاً بذلك الأسلوب البَلُّوري الشفاف، تلك الشفافية التي يدركها الناظر المتأمل إنها جاءت كنتاج عبقرية شعرية خالدة، يضاف اليها مراجعة وتسجيل وتصفية متكررة، لم يبق بعدها إلا الخلاصة النقية من كل شائبة، فكأنما عناها الشاعر العربي بقوله وهو يصف الماء:

فيا ويح نفسي كلما التحت لوحة
إلى شربة من ماء وأحواض مأربي
بقايا نطاف أودع الغيم صفوها
مصقلة الأرجاء زرق المشارب
تحدر غر المزن فيهن والتقت
عليهن أنفاس الرياح الغرائب

وكأن ذلك الشعر موسيقى تأخذ بالألباب وتطرب القلوب في مقاطعها الرنانة وألفاظها الشفافة وبيانها الساحر، فقد تكون المقارنة بين الشاعرين العملاقين «شكسبير» و«ملتون» فيما سبق وغيرهما من الشعراء أيضاً يرى القارىء أنه حين يندمج «شكسبير» في شخصياته الفنية فلا نراه في حين نجد الشاعر «ملتون» في حقيقة الأمر الكائن الحي بمعنى الكلمة في جميع أعماله الفنية، فهو على لسانها ينطق بكل كلمة من كلمات شعره، ويترجم عن تجاربه النفسية من خلال تجاربها ويعبر عن فتنة الحواس وغوايتها التي عرفها واهتم في مقاومتها في شبابه، على مستوى رفيع متعال ومتواجد.

ملحمة الفردوس المفقود:

في سنة ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م شرع «جون ملتون» في ملحمته العصماء وفريدته الغراء «الفردوس المفقود» تلك الملحمة الخالدة والتحفة الأدبية الساطعة التي تعد من أعظم آيات التصوير الفني والإبداع البياني في الشعر، والتي كانت ولازالت من أروع الملاحم على المستوى العالمي ومن أخلد الآثار الأدبية، وقد ترجمت إلى أكثر اللغات الحية، ولا أخال حسب اطلاعي المتواضع أنها ترجمت للعربية.

إن ملحمة «الفردوس المفقود» هي من طراز «رسالة الغفران» لأبي العلا المعري و«الجحيم» لدانتي وما يصحبها من تخيلات شعرية وشطحات فلسفية ما عدا ما أفرغ عليها الشاعر من إشراقات فنية وسطوعات بيانية.

يوم كان الزمان

شعر: **محمد الحلوي** ـ المغرب ـ

يوم كـان الزمـان أندلسـيـاً
وارف الظل يانع الأغـصـان
حـافلا بالمنى العذاب مليئاً
بالخـيـالات والليـالي الحـسـان
كنت كالطير حيثما شاء يلهو
سـابحـاً عـبـر هذه الأكـوان
تـائهـا فـوق زورق سندبا
دي بلا مـجـدف ولا ربان
مـعـصـمي ليس فـيـه قـيـود
وحـيـاتي شـعـر بلا أوزان!

* * *

يوم كـان الزمـان أندلسـيـا
عـربي السـمـات والأمـجـاد
يتـغنى بلؤلؤ(*) مع مـصـر
ويبـاهي بطارق بن زياد

ويضيء الزمان قومي بما شا
دوا وما خلَّدوه في كل ناد
يزدهي الدهر كلما ذكر الشر
ق اعتزازا بصانع الرُّواد

* * *

يوم كان الزمان أندلسيا
وخيولي تختال في الحمراء
ومثاني زرياب تصدح نشوى
بين ناعورة وجدول ماء
وقلاعي الشماء كالنَّسر تعلو
شامخات الأبراج في كبرياء
كانت العُرْبُ قمة في المعالي
ومنارا يشع في الأرجاء
يا زمان الأمجاد هل لك عَودٌ
أم أراني أهيم كالشعراء!
من بكَى مجد قومه فأنا من
عاش يبكي عليه كالخنساء!

(*) لؤلؤ: قائد الأسطول المصري في حرب الصليبيين.

المياه في الشعر العربي

شعر المطر (الحلقة الاخيرة)

ثلاث حلقات متتاليات كان شعر المطر حبات عقدهنّ جميعا .. انتظمن ما قيل في المطر: تصريحاً، وتلميحاً، وترميزاً .. كلها تدل على سعة اطلاع، وحسن اختيار، وبراعة سبك. فأهلا بالاستاذ (بو هلال) ومرحبا بقلمه الثر.

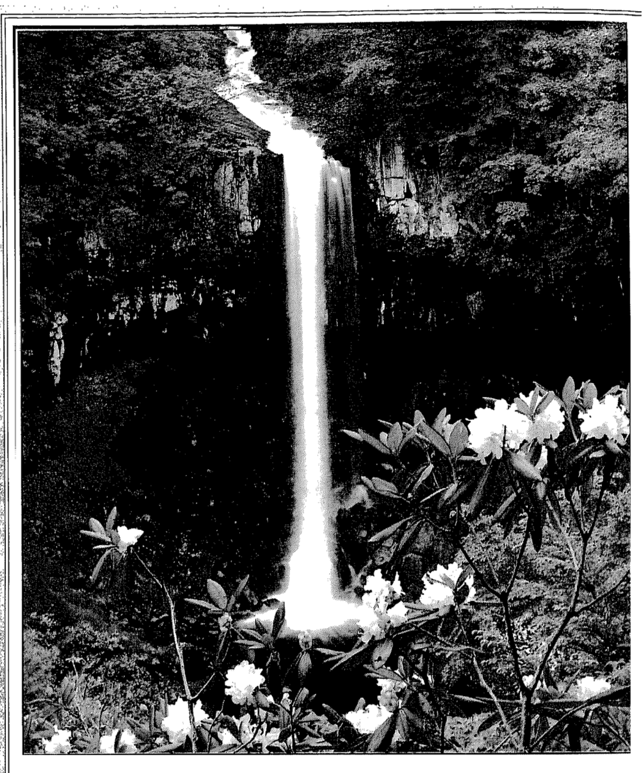
«المنهل»

بقلم:
مصطفى بو هلال ـ تونس ـ

بردُ شرائع .. وامتياح:

لمّا كان الماء اهم العناصر وأول قوى الطبيعة لإقامة الحياة ـ بتسخير الله سبحانه ـ لم يترك الإنسان حيلة لاكتشافه والحصول عليه وخزنه إلا لجأ إليها ودبرها. ولم يكن الرّومان أسبق الشعوب إلى اصطناع الاحفار، وإن عُدّوا من أقدرهم على هذا الصنيع، لتعوّدهم على صلابة أراضيهم الجبلية الصخرية، ومرانهم على نحت الصخر كتابة وتماثيل، وعلى نقره: مخابيء وممرات.. العرب من جهتهم نقّبوا وعالجوا الأرض وصولا إلى المياه الباطنية للاستفادة بها في الشرب أساسا ـ للحيوان والعباد ـ ثم في الرّي الزراعي ثانيا.

يقول الله تعالى: {فكأيِّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد} (الحج/٤٥). فالآية تبيّن أنّ أهل المدن المهلكين كثيرون لشركهم وطغيانهم وتكذيبهم الأنبياء، ذكر منهم القرآن الكريم (ثمود) و(عاد) وممّن لم يذكرهم (جديس) و(طسم) باليمامة.. وفي الآية ذكرٌ لتعطّل الاستقاء والانتفاع الفلاحي بالبئر مع صلاحها وصلاح ما حولها من تربة، لهلاك مواطنيها. وقد مرّ المسلمون ـ في مسيرهم الى تبوك ـ ببئار في ديار ثمود لم يستقوا منها لنهي النبي {صلى الله عليه وسلم} إلا بئرا مستثناة هي



التي شـربت منهـا ناقـة صـالح ـ عليه السـلام ـ وذكر القرطبي أن ذلك بحضـرموت ـ بئر الرّسّ في عـدن ـ وذكر القرآن كذلك مـاء مدين، قـال الله تـعـالى: {ولمّا ورد مـاء مـدين وجـد عليـه أمّة من الـنـاس يسـقـون ووجـد من دونهم امـرأتين تذودان قـال مـا خطبكمـا قـالتـا لا نسـقي حـتى يُصـدر الرِّعاء وأبونـا شيخ كبير * فسقى لهما ثمّ تولى إلى الظل فـقـال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير} (القصص/ ٢٣ ـ ٢٤).

تقدّم موسى ـ عليه السلام ـ (الى البئر ينزع

منها بالدّلو وسقى لهما غنمهما) بصبّ الدّلاء المستخرجة في الحوض، من ماء باطني (ببلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية وشمال الحجاز وجنوب فلسطين)[١]، فالأحفار متواجدة - منذ القدم - في بلاد العرب. قال المخبّل السعديّ:

غَردٌ تـربّع في ربيـع نـدى
بين الصُلّيب وروضة الأحفار[٢]

ويمثل الحفر المائي بالنسبة لأي بطن من بطون العرب الشريان المركزي لوجودهم، ومحل عزتهم وقوتهم وثرائهم، ومن ثمة تشتد حراستهم له وحمايته وافتخارهم به، وكثيرا ما تنشأ النّزاعات عليه. و(إنّ أكثر حروب الجاهلية كانت من أجل الماء، فقد اقتتلت (عبس وكلب) على ماء يقال له: (عراعر).. فقتلت (عبس) من (كلب) جمعا كثيرا، وفي هذا اليوم أنشد عنترة بن شدّاد قصيدته التي مطلعها:

ألا هل أتاها أنّ يوم عـراعـر
شفى سَقَماً لو كانت النفس تشتفي

ويشير (معاوية بن دومان) في شعره الى أسباب حرب (همدان) و(قضاعة) وكانت بسبب الماء، قال:

أراد طفـيل يمنـع الماء زلّة
ولم يك رأيا منعُه الماء لو عـقل
فـفارقت البيضُ الخفافُ غُمودها
ولاحت بأيديهم مصابيح كالشعل
حسبت رجالا أن تجف حُلُوقُها
وأنت على ري وفي راحها الأسل[٣]

وحفظ لنا التاريخ خبر نقل (قصي) ماء سقاية الحجيج من آبار خارج مكة المكرمة منها بئر ميمون الحضرمي؛ ثم احتفر بئرا بمكة في دار أم هانىء بنت أبي طالب تسمى «العجول» وعُدّتْ أوّل بئر بأم القرى قبل احتفار زمزم.. وقد نالت استحسان كلّ من وفد مكة المكرمة من العرب، لذا كانوا يرتجزون:

نروى على العجول ثم ننطلق
إنّ قُصيًّا قد وفى وقد صدق

واختصت كل قبيلة بحفر بئر[٤]: حفر عبد شمس بن عبد مناف بأعلى مكة المكرمة: «الطّوي» ارتجزت فيه سبيعة بنت عبد شمس:

إن الطوي إذا ذكرتم ماءها
صوب السّحاب عنوبة وصفاء

** وحفر هاشم «بذّر» مرتجزا

انبطت بذّرا بماء قلاس
جعلتُ ماءها بلاغا للناس
سقى الله أمواها عرفت مكانها
جُرابا وملكوما وبذّرا والغمرا

** وفي حفر الغمر افتخر شاعرها:

نحن حفرنا الغمر للحجيج
تثج ماء أيّما ثجيج

** وحفر هاشم أو قصي «سجله» فارتجزت خالدة بنت هاشم:

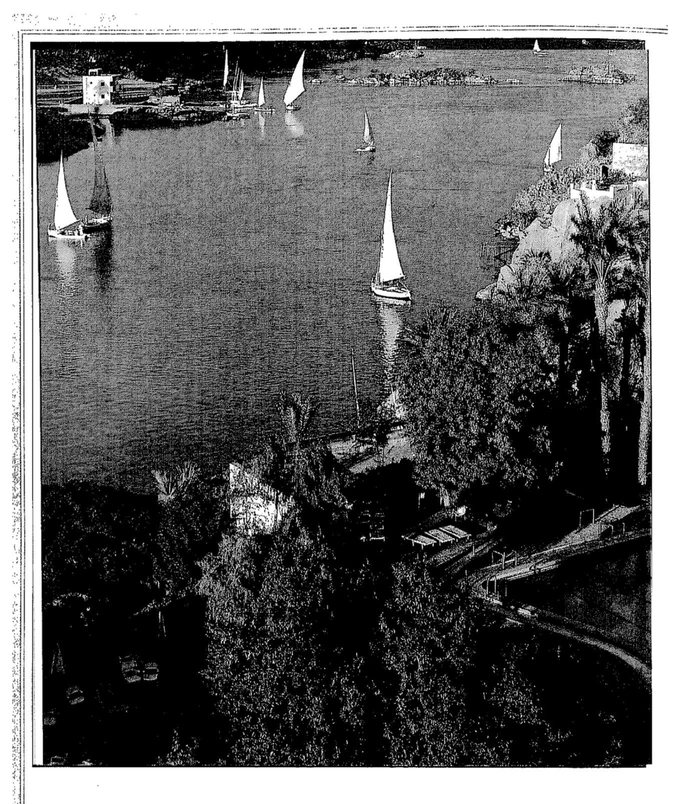
نحن وهبنا لعدي سجلة
تروي الحجيج زغلة فزغلة

* وحفرت بنو أسد بن عبد العزّى «سُقيّة» أو «شفيّة» قال فيها الحويرث بن أسد:

ماء شفيّة كصوب المزن
وليس ماؤها بطرق أجن

وقبل حفائر مكة، كانت بئار خارجها لكبراء قريش منها: «رمّ» و«خمّ» و«الحفر» قال أحد شعرائهم:

وقدْ ما غنّينا قبل ذلك حقبة
ولا نستقي إلا بخُمّ أو الحفر



* ولمّا حفروا زمزم تركت غيرها من الآبار، وتغنّى بنو عبد مناف:

ورثنا المجد من آبا
ـئنا فنما بنا صُعُدا

ألم نسق الحجيج وننحـ
ـر الدّلافة الرُّفدا

ونُلقي عند تصريف المنا
يا شُدّدا رُفدا

فــــإن نـهـلـك فـلـم نُمـلـك
ومـن ذا خـــــالـدٌ أبـدا
وزمـــزم فـي أرومـــتـنـا
ونـفـــقـــأ عَيْنَ مـن حَسَدا

* والملاحظ أن الشّعر في هذا الخصوص كثير، منشأه التنافس والمباهاة بامتلاك عزيز نادر، ويروى عن أمية امرأة العوامّ بن خويلد أنها تباهت بـ «أمّ أحراد» معرّضة بحفر آخر:

نحن حـفـرنـا البـحـر أمّ أحـراد
ليـست كـبـذّر البـرور الجـمـاد

* فأجابتها ضرّتها صفيّة بنت عبد المطلب:

نـحـن حـفـرنـا بـذّر
نسـقـي الحـجـيج الأكـبـرُ
من مـقـبـل ومـدبـر
وأمّ أحـراد شـرُّ

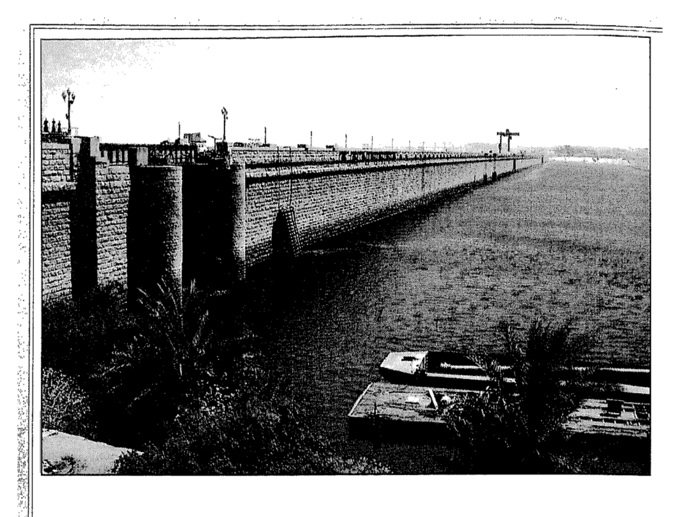
* ويبدو أن عذوبة ماء البئر، والاطمئنان الى وجود الماء دون انتظار كترقب هطول المطر هما اللذان يشدان العربي الى التحنان إليه، كبئر الحجيلاء باليمامة:

ألا هل إلى شمّ الخـزامى ونظرة
إلى قـرقـرى قـبل المـات سـبـيل
فـأشرب من مـاء الحـجـيلاء شـربة
يداوى بهـا قـبل المـات عليل

على أن دوام الأحساء المحتفرة عامرة بأهلها، جائدة بمائها، رهن تساقط الأمطار التي تغذي المائدة المائية بالقاع، لذا فقد يحصل - لانقطاع المطرفي السنوات العجاف - غيض ماء الأحساء، فيهجر الموضع العامر.. أو هي - لالتجاء العربي إلى الانتجاع والرّحيل وتعوّده على عدم الاستقرار أو للخصومات الدّموية التي تترصده دوما - مفرّط فيها وهاجر .. ويبقى الشاعر الجاهلي يندب الأطلال في حسرة مريرة، ويرثي الحفر الذي غاض معينه.. لذا فلم تختص مقدمة القصيدة الجاهلية بماء السحاب، ولم تتوقف عنده فحسب، بل اتسعت إلى فكرة «غيض البئر أو هجره» فهذا يؤجج في الشاعر الجاهلي القلق والتضايق والارتباك وأيضاً التأمل في شؤون الكون.. لكن الدكتور الباحث أنور سويلم أصّل استنتاجاً مفاده: (أعتقد أن «فكرة المطر» هي المحور الأساسي الذي تدور حوله مجمل الأفكار والقضايا والتطلعات في الوقفة الطللية، وأول ما يبكي الشاعر الجاهلي في الوقفة الطللية: عقم الطبيعة وانحباس المطر.. كانت «فكرة المطر» في الوقفة الطللية هي ما يشغل عقل الشاعر الجاهلي)[٥].

ولعل تقديم الأنموذج التالي يزيد الرؤية تأكيدا:

يتوقف النابغة الذبياني (... - ٦٠٤م) - وهو في طريقه إلى النعمان - وقفة طللية مغايرة لفحوى التعميم الذي ارتآه الدكتور الفاضل أنور أبو سويلم.. النابغة الذبياني في قصيدة مدحية يقف - في موضع به حسى كان يتردد عليه - ناظراً كيف تجري الأحداث وينزل القضاء، فقد كان يأتيه وهو ذو الماء القريب، لوصل علاقة مع امرأة معينة تقيم هناك تدعى (فرْتنى) لكنه اليوم خلاء في خلاء موحش لا أنيس به.. كل ما حوله «الفوارع وجنبا أريك» شاغرة من السكان، حتى المرتفعات التي يندفع الماء في منحدراتها



الحجرية ليسيل في منخفض الحسى رافعاً مستوى مائه، أضحى بدون راع أو جائل أو مقيم أو محتطب.. لا إنس فيه ولا خفّ ولا ضرع.. فصول انقضت وفصول على رحيل فرْتنى، أعوام من الفراق المضني والغياب الموحش عن هذا الموضع الجمّ ماؤه الأحباء أهله.. أنظر مسيل الماء .. ماء المطر المنصب من الأعالي، لقد غير آثار مساكن القوم، مما جعلني أفتش متفرّسا علامات أثر بيت فرتنى التي لم أرها منذ أعوام ستة.. وتوصلت ـ بعد تركيز واقتفاء منتبه ـ إلى معرفتها وتحديد معالمها. فماذا وجدت؟ لم يبق من بقايا فرتنى وقومها غيّر رماد كالكحل لكنه غير ظاهر للعيان لتقادمه والرّدم الذي أصابه، وغير نؤي متضائل.. أجل، ولم أر غير ذاك الحفير المحيط بالخيمة، كسد صغير، يمنع عنها تسرّب ماء المطر إلى الداخل.. لقد لقيته وكأنه لا شيء، مثله كمثل أصل حوض الماء تماما، إذ تهدّم البئر وانحط جداره الدائر، وجرت إليه عواصف الصحراء السافيات عجاجا وأتربة فغمرته.. وعادت إليه الرياح فسوّت الغطاء الرّملي والأطلال تسوية نساء يجررن ذيول ثيابهن الطويلة على الثرى، حتى كأنك كنت ترى حي حسى فرْتنى بساطا أتقنته صانعات ماهرات.. خطوط برمال صفراء.. تموّجات بدقيق أغبرة بنية، على أرضية مستوية لا نتوء فيها ولا فجوات..! ذكرت فرْتنى وما آل إليه حالها.. وذكرت حسى فرْتنى والمصير

الذي انتهى إليه، أحتى المعين ينضب ويُدفن! وفاضت مني العبرات فيضا، وجعلت أكفها عن الانهمال، وأكفها وهي لا تطاوعني في الانكفاف.. انصبّت الدموع على النحر دافقات، ولم ينته تقاطر الدمع، وأنا أعاتب نفسي وألومها وأكبح جماحها على فعل التّصابي والتمادي في طيش الصبا والشباب وأنا على عتبات المشيب، فمتى الصحوة يا قلب؟ أفلا تكفين عن إرسال الدمعة يا عين؟ الا تحسين يا نفس بأن لكل شيء نهاية، وبأن بعد كل صبوة توبة؟

ليست القحوط ولا سيول الأمطار ولا قصف الرّعود والصواعق وزمجرة البروق هي المحرّكة للنابغة فيندب رحيل فرْتنى وعفاء مربعها ومشتاها، فالمكان ذو حسى، ولولا دفقه المشهود لما اعتنى بذكره والتنويه به، إنما التنقل المستمرّ للبدوي وتطبعه على الرّحيل دون أن يقرّ له قرار هو ذاك ممّا أهم النابغة وأشجاه، فهذا يمزق علائق المحبة المتوثقة والتواصل الوثيق وألفة التعارف ملقيا بها في سحيق المجهول! ويوقفه همّ داهم عن مواصلة بثّ حرقته بالإطناب في تفاصيل هاته الوقفة الطّللية: ألا وهو وعيد (أبي قابوس):

عفا ذو حَسى من فرتنى فالفوارع
فَجَنْباً أريك فالتلاع الدوافع
فمجتمع الأشراج غير رسمها
مصائف مرّت بعدنا ومرابع
توهمتُ آيات لها فعرفتها
لستة أعوام وذا العام سابع
رماد ككحل العين لأياً أبينه
ونُؤي كجذم الحوض أثلمُ خاشعُ
كأنّ مجرَّ الرّامسات ذيولها
عليه حصير نمقته الصوانعُ
فكفكفت مني عبرة فرددتها
على النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبتُ المشيب على الصبى
وقلتُ ألمّا أصحُ والشيبُ وازع
وقد حال همٌّ دون ذلك داخلٌ
مكان الشغاف تبتغيه الأصابع[٦]

ومن محفوظات التراث العربي في الجاهلية ما أنتجه ذاك الإقدام المتسارع على الحفر لاستخراج ماء الأرض من شعر، أدخله مؤرخو الأدب ونقاده ضمن ما اصطلح عليه بـ (أغاني الآبار) ذلك أنّه (ربّما كان أقدم الأعمال الشاقة التي كدّ فيها العرب واحتاجوا إلى التخفيف من أعبائها أو إلى ما يلهيهم عمّا يبذلون من جهد الميح أو الامتياح.. أي الاستقاء)[٧].

فما هو المتح؟

يقال: متح متحا الماء، إذا نزعه واستخرجه بدلو ونحوه من حفر، أو بئر، فهو ماتح. وإذا اكان البئر أو (الحاسي - بتعبير اليوم) قريب الماء سهل الاستقاء منه، قيل: بئر متوح..

أما الميح، فهو النزول إلى البئر وملء الدّلو منها عندما يقل ماؤها، أو يتعذر السّنويبكرة، فالنازل مائح وبالحديث الذي أخرجه الإمام أحمد: (فنزل ستّة ماحَة، أنا سابعهم..) وعن جابر - رضي الله تعالى عنه - (كنت أميح أصحابي الماء يوم بدر)[٨].

وشاع رجز الماتحين لإدخال البهجة في نفوس الشاربين فيشربون شربات شافيات، وأيضا الشكر للماتحين وتنشيطهم.. وهذا أحدهم يذكر (أنه ليس بالرّجل الخامل المتزين بملابسه العاجز عن الفوز بالمجد:

علقتَ يا حـــارثُ عند الوِرْد
بـجــــــاذل لا رفِل التَّردي
ولا عـــبيّ بابتناء المجـــد[٩]

ويفتخر كبير من الأثرياء بإعداده لإبله الواردة للشرب دلوا واسعا، وحبلا شديدا غير قصير، وبعيرا قويّا للسنو، وأجيرا ماتحا متمرّنا صبورا، يتقن شدّ إزاره فلا يتراخى، مفتول العضلات وكأنها حين تُكبس جرذانا، وأرانب، ويرابيع.!

أعـددت للورد إذ الورد حـفـزْ
غـرباً جـرورا وجـلالا خُزَخـزْ
ومـاتحـا لا ينثني إذا احـتـجـزْ
كـأن جـوف جلده إذا احـتـفـزْ
في كلّ عضو جُرذين أو خُزَزْ

ويظهـر أن هاته المهنة «المتح» و«الميح» لا يمتهنها الكبراء، وغالباً يدفع إليها الأسرى كما سيأتي وأسوق هاته الأقصوصة الحادثة يوم الحديبية: نزل ناجية بن جندب الأسهمي بئرا يميح منها الماء لمن يطلبه، فجاءته جارية أنصارية، قالت:

يا أيهـــا المائح دلوي دونكا
إني رأيت النّاس يحـمـدونكا
يثنـون خــيـــرا ويمجّدونكا

فأراد ناجية أن يُبعد عن نفسه صفة السّقاية ويثبت صفة القتال والفروسية، فأجابها وهو في البئر:

قــد علمت جــارية يمانيــة
أني أنا الماتح واسـمي ناجـيـه
وطعنة ذات رشـــاش واهيـــه
طعنتها عند صدور العاديه[١٠]

ولأن (الشاعر الجاهلي كان يرى في الماء معاني الحياة المختلفة، وأن هذه المعاني جاءت في شعره كلّه)[١١] لذا تراه يستقي صوره الوصفية من كل ماله صلة بالماء، ولقد جذبته مشاهد الامتياح من الأحساء والبئار، فطعم بها «موسوعة» أدواته الوصفية. ومما وصف به النابغة فرسه أنها سريعة خفيفة كإسراع الدّلو في سفوله وارتفاعه رحمة بالمستقين العطاشى فلا يعذبهم الانتظار.. وقد علمها السبق ماهر بالفروسية، سائس حاذق للخيول، لذلك تراها تواصل الرّكض في وقت شدّة تعبها لمّا تفرز على جلدها - من مسامّة - زبد عرق يخرج كما يخرج اللبن من الثدي.!

ثمّ - بعد أن ركز على سرعتها الفائقة - يعود ليؤكد أنها تثب مسرعة - وبنفس النسق - فسواء سرعتها في صعودها المرتفع أو في سفولها المنحدر.. تماماً كتسارع دلو صغيرة أمسك بحبلها أمهر الماتحين يرخيه إلى مجتمع الماء وتجذبه إليه بكفين متوازنتين حسّاستين متمرنتين.. أو هي - إن شئت تشبيها آخر لسرعة الفرس في ركضها - تطوي الأرض كطيران قطاة - ذات اللون الكدْرة، أي الغبرة الشديدة - قصيرة الذنب لتستعين على سرعة التحويم، مندفعة بشهية متناهية وشوق بالغ إلى برد الشرائع.. إلى مواضع المياه التي اعتادتها: حفرا، أو حوضا حول شجرة، أو حسى أو بئرا.

مـاريةٌ مـثل مَرْي الدّلو مـركـضـة
إذا الحـمـيم على الأعطاف ينحلب
تـهْوي هُويَّ دلاة البـئـر أسلمـهـا
بين الأكف وبين الجـمّة الكربُ
أو مـرُّ كُدْريّة حـذّاء هيـجـهـا
بردُ الشرائع من مرّان أو شرب[١٢]

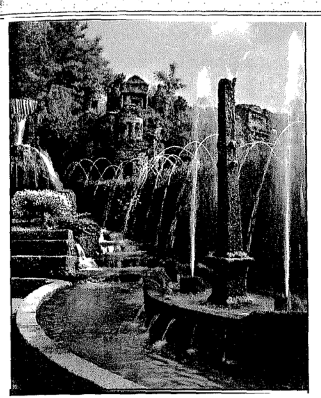
استقطب مرْي الدّلو عند برد الشرائع

الشاعر الذبياني، واستولت على لبّه تلك الحركات المتتابعة المتعلقة بها كل الأنظار وانسكاب ماء صاف بارد من دلاء رافعة خافضة دون تباطؤ، والورّاد بين لاهث ومازّ ومرتو ومختزن .. ولولا التثاقل لتابعنا مع النّابغة صور منظر أوبة ورجعة القطاة ـ بين العش والحوض ـ للاستقاء لها ولفراخها، فإنه لرَسْم يأخذ بالألباب!

هذا، وقد سبق أن ألمحت إلى أن المتح أحيانا تكلّف به الأسرى، لأنه عمل شاق يحبس صاحبه حيث هو ساعات طوال، وقد سجل النابغة هذا السلوك (الحربي) في أبيات مدح فيها النعمان بن الجلاح الكلبي الذي غزا بني مرّة بأمر من النعمان بن الحارث الغساني. ذلك أنه ظفر وسبى، ومن بين من سبى (عقرب) بنت النابغة، ولما علم أنها ابنة الشاعر أطلقها ومن معها، فقال زياد الذبياني:

ولولا أبو الشقراء مازال ماتحٌ
يعالج خُطّافا بإحدى الجرائر
بخالة أو ماء الذُّنابة أو سُوى
مظنة كلب أو مياه المناظر[١٣]

وأتساءل: إن حفل الشعر الجاهلي بالبئار والمتح، فما الشأن في باقي مسيرة الشعر خلال العصور العربية! أكاد أجزم أن التوجه الجديد ـ مع حركة الفتح وبعدها ـ كان نحو إنشاء (الفسقيات) و(القناطر) أكثر منه نحو حفر الآبار الذي بقي في دائرة اهتمام وانجاز الخواص، وذلك إمّا لسهولة الصهاريج والقنوات أو لعمق المياه الجوفية المفرط، أو للوحته، أو لصلابة الأرض وقساوة نقر الصخر إلي جانب تخطيط المدينة الإسلامية غالبا على ضفة النهر.. هناك آبار لها ذكر لامع في



التاريخ، ولها ذكر في الشعر لكن ذلك أتى عرضاً. وفي العصر الراهن بتقدم وسائل التنقيب والحفر وتعصيرها، ظهرت الآبار الارتوازية التي غيرت الحياة ومجرى العيش، غير أن البئر لم تُثر في الشاعر نفس المشاعر والعواطف التي هيجتها في الشاعر الجاهلي، وإن سمعت همسا ـ شعريا، كما سمعت أنا ـ هنا وهناك جانب بئر فهو مخنوق الصورة والفنّ والدلالة بخناق (التدشين السياسي)!

من الشعر الجاهلي الى الشعر المعاصر:

وماذا بقي في جدول الشعر العربي من عهد الجاهلية إلى عصرنا الحاضر من جذور لامّة مؤثرة؟ إنّ استعراضها لعزيز المنال في مثل هاته الإطلالة السريعة إنما يجعل التوقف ـ قبل ذلك ـ عند مسائل بارزة في شعر المطر، منها قضية إفراط الشاعر الجاهلي في الرّهبة من المطر، ولئن كان حديثهم عنها (في صورتين متناقضتين)[١٤] أحلكهما في مخيّلة الشعراء وأرعدهما بألسنتهم: (صورة الدّمار والهلاك

والخراب والانتقام فالمطر ينسكب كأفواه القرب، فيكوّن سيولا عارمة، تجرف الطلل وتغرق ساكنيه، وتمحو الدّيار وتخربها، وتزرع في الأرض أشباح الموت)[١٥] فإن هذا يجْعلنا نفتش عن السرّ الرّهيب الذي جعل (الشعراء كلهم يحسّون القلق والتوتر وهم يترقبون المطر ويسهرون في عتمة الليل ينتظرون البرق والريح، والكُلّ يعذّب من أجل المطر، ويتحفز ويأرق ويقلق ويسهد، وينتظر ويترصّد)[١٦] وبحوصلة موجزة: (كثيرا ما نحسّ هواجس الجاهليّ ورهبته من المطر العذاب في الوقفة الطللية)[١٧].

إنّ هاته الرّهبة المستبدّة، والخوف المحيط من «ولادة المطر» وليس من «انحباسها» لعديد الأبعاد، أغورها ما قرّ في الذاكرة الجماعية من حلول كوارث المطر، مرّات وفي مواقع مختلفة من بلاد العرب وما حولها، كسيل العرم، ومطر الحجارة علٰى أهل سدوم بالأردن وما جاورها من القرى المؤتفكات. قال تعالى: {وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} (الأعراف/ ٨٤) وقال تعالى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} (الحجر/ ٧٤) وقرى اليمامة، وغير ذلك من المواقع التي عصفت بها الصّواعق وجرفها الطّوفان.. لذا فالشاعر الجاهلي يراقب المطر ويستطلعها تحسبا وفرط حساسية وجزعا من أن تكون نقمة ورجاء في أن تجيء غوثا وخيرا.. وإننا (نحسّ ونحن نقرأ الشعر الجاهلي في المطر تلك الحميّا وذلك الوجد المزوج بالأرق وتلك النشوة المتوترة التي تنتاب الشاعر وهو يرصد تحرّكات الحدث العظيم.. ويبدو أن الشاعر الجاهلي - دون شعراء الأمم - تُلقى على كاهله مسؤولية صنع المطر، لأن هذه المهمة هي مهمة الشاعر الساحر: صانع المطر)[١٨].

ولم نحمّله كلّ هذا وإن كان زعيم القوم؟ يكفيه (يقظة الإحساس) والتأزم عند استرجاع ما أصاب (الماضين الضّالين) من أمطار انتقام؟ ثمّ هو لا ينفرد بهذا التوجس المقض، فلقد جاء من الأدعية المأثورة عند رؤية المطر: (اللهم صيّبا نافعا - اللهم سقيا رحمة، ولا سقيا عذاب ولا بلاء ولا هدم ولا غرق - اللهم حوالينا ولا علينا..)

مثل هذا الدّعاء يُبين عن التخوّف من السّحاب والزوابع، ثم هو يشيع فى النفوس هدوءا، ويزيدها استرحاما واطمئنانا وترشدا قول الله تعالى بسورة الرّعد/ آية ١٢، ١٣ {هو الذي يُريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويُسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصّواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديدُ المحال}.

القضية الثانية: قضية المطر والمدافعة - أو «المطر والجيش» كما اختار الباحث الكريم أنور أبو سويلم القائل: (وترتبط صورة المطر بصورة الجيش الذي يهتز ويتحول إلى سيول جارفة تغمر الوديان والسفوح، والخيول في المعركة تنطلق كعارض متفجر أو كسحاب دفعه الرّيح فاندفع يسحق كلّ شيء أمامه..)[١٩]، من مقارنة أخرى: (الماء فيه القوة والتدمير.. وهذا المعنى أراده الشعراء للجيش والمحاربين، ولا معنى لكثرة الجيش وتدافعه إذا لم يكمن فيه قوة الماء وتدميره)[٢٠] وقد مرّ بنا كيف وظّف الشعراء المعاصرون هاتيك المعاني والتداعيات، من وصف المعارك، وهجومات

الغزو والثأر، إلى توليد الثورة والنضال ضد الاستكانة والرّضا بالدّون، والاستعمار الأجنبي، والحكام الطغاة الزّائغين.. أبو القاسم الشابي، كممثل لهؤلاء، ينشد لاستقدام المطر عام ١٩٣٠ ولتكن بروقها وأعصارها وسحبها مزمجرة عاتية هطولة متعبة، فأحيانا لا يزال المرّ إلا بالأمرّ منه:

ليتني كنت كالرّياح، فأطوي
كلّ ما يخنق الزّهور بنحسي
ليت لي قوّة العواصف يا شعبي
فألقي إليك ثورة نفسي
ليت لي قوّة الأعاصير، إن ضجتْ
فأدعوك، للحياة بنبسي
ليت لي قوّة الأعاصير .. ! لكن
أنت حيٌّ ، يقضي الحياة برمس[٢١]

* ويعود عام ١٩٣٣ ليغني لدمدمة العاصفة وزلزلة الرّعد، وندفات الثلج، وجنون السّيل:

ودمدمت الرّيح بين الفجاج
وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت إلى غاية
ركبتُ المنى، ونسيتُ الحذر
وأطرقت أصغي لقصف الرّعود
وعزف الرّياح، ووقع المطر
وقال لي الغاب في رقة محب
بة مثل خفق الوتر
«يجيء الشتاء، شتاء الضباب
شتاء الثلوج، شتاء المطر
وتهوي الغصون وأوراقها
وأزهار عهد حبيب نضر
وتلهو بها الرّيح في كلّ واد
ويدفنها السّيل، أنّى عبرْ
وتبقى البنور التي حُمّلت
ذخيرة عمر جميل ، غبرْ»
ظمئت إلى النبع، بين المروج
يغني ويرقص فوق الزهرْ
ظمئت إلى نغمات الطيور
وهمس النسيم، ولحن المطر[٢٢]

* وبين التوظيفين الجاهلي والمعاصر نلقى ظاهرة أدبيّة قد أينعت وهي جديرة بالتسجيل والاهتمام وهي - من وجهة أخرى - دليل آخر (على أنّ اللغة العربيّة - قديما وحديثا - لم تزل خاضعة، بالرغم من تباين اللهجات، إلى نظام واحد، وخيال واحد، وسجية في الأقوال تربط بينها وبين الفصحى قربا أو بعدا حسب الظروف والأوطان والعصور)[٢٣]، ذلك أنه سطعت - في الشعر الشعبي - أصناف من الشعر (الملحون) نخصّ منها ما يهمنا هنا وهو صنف «البرق» الذي هو - في الغالب - يُعنى بوصف الطبيعة، والحرب. نهض بأ دائه - منذ أكثر من قرنين - بالجنوب التونسي - شعراء شعبيون من بني هلال وبني سليم الزّاحفين من صعيد مصر أيّام الدّولة الفاطمية فمن (قسيم برق) يقول بلقاسم الورشفاني (بداية القرن ١٩):

برق إنْ تبسم باذْنْ ربي خفق
تحت الحجب علّم بنوره تاق
يْشيّرْ ويومي في السما متْفرّقْ
يَسطعْ يجْمعْ غابْ ع الأرماق
هذا سحابَهْ منْ بعيدْ يوهّقْ
والبرق باقي بالضيا خفاق
والرّعد صادي في سماه ينقنقْ
بكّوش عجمي ما يدل أطراق
قولي على البرْق الْ لعجْ في الاغسقْ
من عقب ليله بالمطر دفّاق[٢٤]

* ولن أقدر على اغفال الشعر (الحمينى) المنتشر بين عرب اليمن وحضرموت، فمن قصيد

للأديب الحضرمي «الربيع بن سليم الدّويخي» يصف حربا بين بعض قبائل وطنه خلال القرن التاسع عشر:

بروق الظفر والنصر في الأفق نعنمت
وثجّت على الغنّا خواصب مُزُونها
ورعد الهنا قاصف يزُوعُ الشوامخ
وزلزل ديار الظلم واهدم حصونها
وسالت سيُولا مايلا تملي الفضا
محتْ اثرة الظلمة وخابت ظنُونها[٢٥]

سُقياً للشعراء .. يا مطرْ!

وماذا أنا ـ لشعرائنا ـ قائل؟ سأستعير رثاء النابغة الذبياني للنعمان تمجيداً لمن يستأهل التمجيد بحق ويستحق رشّة ماء وزهر، بدون تمييز، وبلا حدود:

سقى الغيثُ قبراً بين بُصرى وجاسم
بغيث من الوسميّ قطر ووابلُ
ولا زال ريحان ومسك وعنبرٌ
على منتهاه ديمة ثم هاطلُ
وينبتُ حوذاناً وعوفاً منورا
سأتبعه من خير ما قال قائلُ[٢٧]

* وباليد اليمنى يخط القلب ابتهالة الخنساء الدّامعة (ت ٤٤هـ) تكريماً لفرسان أغنية المطر:

سقى الإله ضريحا جنّ أعظمُهُ
وروحهُ بغزير المُزن هطّال

* فالسيول هي غاسلة الأدران، وباعثة الحيوية، وناشرة عطر النضارة، ونسغ الهيج نحو الطموح والتعمير، ورواء السنديان الشامخ، ونضارة الصنوبر المثمر، وتلك هي منزلة الشعراء السامقة. الإنشاد ـ دون ملل ـ للغيث، من أعالي الصنوبر والسنديان:

ثمّ تحت الصنوبر، الناظر، الحلو
تخط السيول حفرة رمسي

الهوامش:

(١) قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار ـ ص ١٦٦، دار الفكر ، بيروت.

(٢) مجلة العرب ج ٥و٦ س١٤ ذو القعدة والحجة سنة١٣٩٩هـ ص ٤٤٩، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ـ حمد الجاسر.

(٣) المطرفي الشعر الجاهلي. د/ أنور أبو سويلم ص ٣٦ دار عمان ـ دار الجيل، بيروت ط ١ عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٥٦: ذكر بئار قبائل قريش بمكة. وانظر هوامش المحققين.

(٥) المطرفي الشعر الجاهلي ص ١٣٣.

(٦) ديوان النابغة الذبياني ـ جمع وشرح وتكميل وتعليق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية للتوزيع. تونس ١٩٨٦م. ص ١٦١.

(٧) الشعر الشعبي العربي. د/ حسين نصار ـ سلسلة المكتبة الثقافية ع٦٠ مايو ١٩٦٠م ص ٥٨.

(٨) سنن أبي داود. ج١ ص ٤٢٩ (كتاب الجهاد).

(٩) الشعر الشعبي العربي ص ٦١.

(١٠) نفسه ص ٦٣.

(١١) المطرفي الشعر الجاهلي ص٥.

(١٢) ديوان النابغة ص ٦٠.

(١٣) ديوان النابغة ص ١١٢ ـ أبو الشقراء: النعمان بن الجلاح (ابن جبلة) يعالج: يعمل بجهد وعناء. خطافا: حديدتان تكتنفان البكرة التي عليها حبل الدّلو. الجرائر جمع جرور: البئر البعيدة القعر. والمعنى: لولا النعمان بن الجلاح أطلق أسرانا لبقوا يمتحون على الماء يستقون للذين أسروهم. مظنة كلب: إسم مكان الظن، أي حيث يظن شيء ومعنى «مظنة كلب» ديار كلب وهم رهط الجلاحي. المناظر: موضع.

(١٤، ١٥) المطرفي الشعر الجاهلي ص ١٣٣.

(١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠) نفسه ص٩٠، ص١٣٤، ص٩١، ص١٨٦، ص١٨٩.

(٢١) ديوان أغاني الحياة. من قصيدة النبي المجهول ص ١٤٥ والنحس: الريح الباردة عند إدبارها.

(٢٢) نفسه. من قصيدة: إرادة الحياة ص ٢٣٦ وما بعدها.

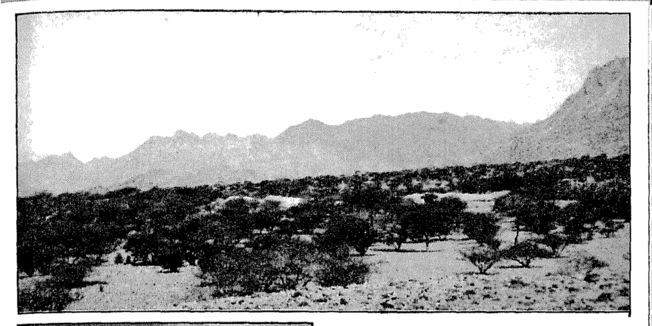
(٢٣) ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ـ قسم ثالث ـ حسن حسني عبد الوهاب. ص ١٣٨ نشر مكتبة المنار ـ تونس ١٩٧٢.

(٢٤) نفسه ص ١١٥ تاق: أشع يشير: يومىء ويومض. الأرماق: الأبصار. يوهق: يخوف ويرعب. بكوش عجمي: أبكم غير عربي. ما يدل اطراق: لا يعرف الطرق فيختار الأسلم.

(٢٥) نفسه ص ١٣٩. والغنا: هي مدينة «تريم».

(٢٦) ديوان النابغة ـ مرجع سابق ص ١٩٠ بغيث من الوسمي: غيث خاص. والوسمي أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات.


مجلة السائح مجلة السائح مجلة السائح السائح
٩٣
في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقرىء الملامح ويرسم اللوحة
مشاهدات
في
جمهورية
السلفادور
السويد
خواطر
وتأملات
السائح
في هذا العدد من





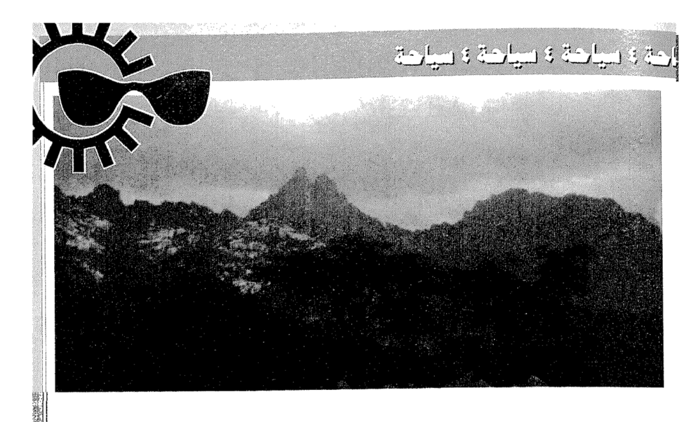
جبال الفقرة.. البيئة البكر

على بعد ٨٠ كيلا من المدينة المنورة في اتجاه الغرب، وفى منتصف سلسلة جبال الحجاز، تقع «جبال الفقرة» مرتفعات شاهقة واخرى متوسطة الإرتفاع.. بين ثناياها تحتضن مجموعة وافرة من الأودية والسهول.. الخضرة فيها لا تغيب عن العين، ولا يغادرها الجمال.. روعة المكان توحي بالراحة والطمأنينة، والهدوء منقطع النظير.

فى السهول تنتشر أنواع الزراعة المعهودة عندهم وعلى مدرجات الجبال، وهذه بحد ذاتها توحي بجمال غير منقطع..

جبال الفقرة يربطها بطريق المدينة المنورة طريق مسفلت يمتد إلى قمة الهضبة الوسطى في المنطقة، وعبر عقبة وعرة يبلغ طولها ستة كيلومترات تتصل بطريق ممهد بمدينة ينبع النخل يبلغ طوله ٤٠ كيلا.. ومن هذا الطريق يمكن مشاهدة المنحدرات الغربية للمرتفعات الشمالية.. وهناك طريق بري يتجه شمالا على حافة المنحدرات الغربية، ومن هذا الطريق يمكنك مشاهدة جبال الأوقع وطور عفجا، الذي يزيد ارتفاعه عن ١٨٠٠ متر عن سطح البحر.

ومن المطلات الموجودة على جوانب الطريق، يمكنك مشاهدة المنحدرات الغربية المواجهة

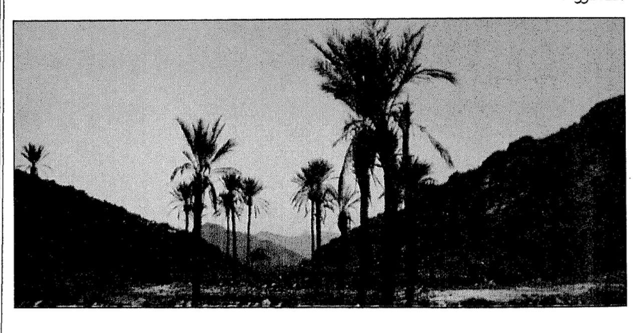


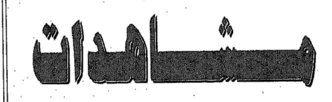
البحـــر٠٠ ونظراً لوعـورة هذه المنحـدرات وندرة النشاط البشري فيها، فانك قد تسعد بمشاهدة الوعول الجبلية على قممـها ٠٠ وفي هذه المنطقة تكثر الوعول بصورة ملاحظة٠٠

وتاريخ وعول الجبل فى هذه المنطقة قديم يمتد الى الفي عـام خلت٠ وعلى حـواف الجبـال يمكنك مـشـاهـدة بعض الرسـوم للوعـول منحـوتة على الصخور المسطحة٠

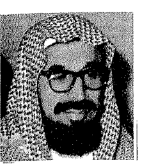
في هذه السلسلة من الجبال تكثر طيور الحجل، وهي من الطيور النادرة رائعة الجمـال ٠٠ وعلى المنحدرات تكثر أشجار العرعر المعمِّرة، واشجار الزيتون واللوز والتين البري٠

فى هذه المنطقة سجلت البعثات ٢٨٠ نوعاً من النباتات، و٣٦ نوعاً من الطيور المقيمة والمهاجرة، ومجموعات من الوعول الجبلية والغزلان والنمور٠





بقلم:
الشيخ/
محمد بن ناصر العبودي
الأمين العام المساعد
لرابطة العالم الاسلامي
- مكة المكرمة -



حي سان فرانسيسكو:

سان معناها قديس كما تقدم. وهذا الحي من الأحياء الراقية فى العاصمة، ويتميز بأرصفة واسعة جدا كلها مكسوة بالخضرة المهذبة، وكل بيت من البيوت فى هذا الحي أمامه حديقة وارفة الأشجار، وفي الشوارع أيضا اشجار من اشجار الظل المعتنى بها.

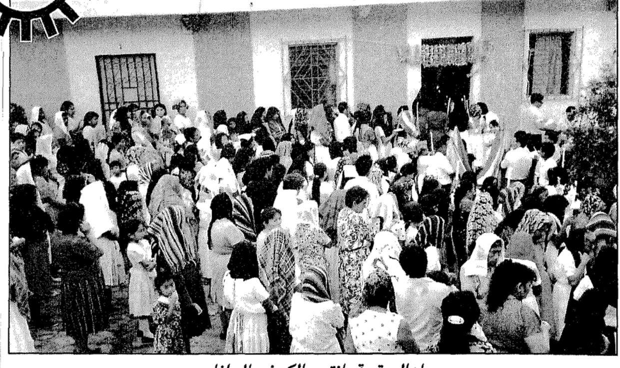
سبب الزحام:

لم نقف فى هذا الحي الراقي الا ريثما التقطنا صورة تذكارية فيه وواصلنا الجولة فى انحاء العاصمة (سان سلفادور) فتحدث القوم عن سبب زحام السيارات فى شوارع المدينة فذكروا ان ذلك لكون هجرة المواطنين من هذه البلاد للعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية متيسرة وفق سياسة كانت الولايات المتحدة قد انتهجتها. ولذلك يوجد اكثر من نصف مليون سلفادوري من العاملين هناك يرسلون نقودا يشترى بها ذووهم ومن يعود منهم للبلاد سيارات أو قد يحضرون سياراتهم معهم.

وإلا فإن الرواتب أو لِنَقُل الدخول التى يحصل عليها الناس هنا لا تكفي تكاليف الحياة.

فالرواتب ما بين ثلاثة الاف الى اربعة آلاف كولون فى المتوسط ويساوي ذلك حوالي ٤٥٠ دولارا امريكيا ولكن أجرة المساكن غالية جدا بالنسبة الى هذه الدخول فهى تأخذ من الموظف المتوسط نصف دخله الشهري تقريبا اذ يبلغ متوسط إيجار البيت المتوسط فى مستواه ما بين الفين الى ثلاثة آلاف كولون.

ومررنا ببوابة اصطناعية معتنى بها فى ميدان غير واسع فيه نافورة وقد كتبوا على اللافتة جملة ترجموها بأن معناها مرحبا بالاخ البعيد والمراد بذلك المواطنون الذين كانوا قد هاجروا من البلاد الى الولايات المتحدة او غيرها من الأقطار الغنية بسبب الاضطرابات وسوء حالة



ـ اهالي قرية بانتى مالكو فى السلفادور.

الأمة في السابق، وقد نحتوا هنا تمثالا غير فاخر للمغترب السلفادوري. وهذه البوابة او القوس والتمثال للترحيب بالعائدين منهم للوطن.

نُصُب السلام:

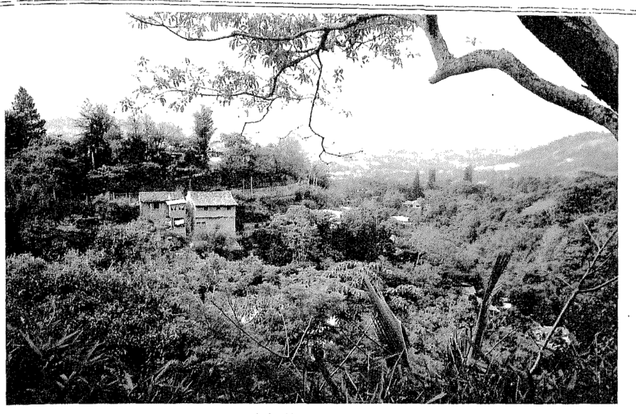
السلام معنى خاص لمن افتقده مثلما أن للصحة معنى خاصا عند من افتقدها كما قيل في الأمثال القديمة: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه الا المرضى»، وقد افتقدت هذه البلاد السلام والأمن لمدة طويلة وعندما ذاقت طعمه سعت الى اظهار سرورها به عن طريق اقامة نُصُب كبير له خارج العاصمة.

فقد خرجنا من المدينة الى الريف الأخضر البالغ الخضرة، وقد رأيت خيلا ترعى فى حاشية الطريق الذي هو شبه الأرض المزروعة فاعجبنى منظرها ثم وصلنا الى نصب قد أقيم حديثا وسط طريق مهم ويسمونه (نصب السلام) او رمز السلام وقد كتبوا عليه بالاسبانية ما يصح ان يترجم بلفظ: السلام عليكم، أو السلام لكم. فهو (لاباز سيياكن قوسو ترس).

وقفنا مليا عند نصب السلام هذا واستمتعنا بمنظر المنطقة الجميلة حوله وقد جعلوا الطريق تغلقه تلة خضراء بالغة الجمال يعنى أن التلة اعترضت الطريق فسدت كأنما هي تغلقه وقد انحرف عنها عندما وصلها.

الصعود للجبال الخضر:

لا تُسْتَغْرَبُ الخضرة هنا ولا تلفت انظار الناس لأنهم ألفوها وانما اعجبنا بها نحن



- جانب من ريف السلفادور.

القادمين من الصحراء الجرداء مع انني سبق أن رأيت جميع مناطق العالم تقريبا وفيها ما هو اخضر وما هو اغبر ولكن خضرة سلفادور هذه شاملة. الخضرة في التلال العالية والجبال الشاهقة لها منظر أنيق لأنها تجعلها تبدو كأنها قطع خضراء شاهقة اذ لا تبين فيها الحجارة ولا التراب وليس فيها فراغ يشعر من يراها بأنها نامية فوق اراض عالية.

وواصلنا الصعود فى هذه التلال مع خط اسفلتي لا بأس به ولا رفيق فيه ونحن نقصد مطعما على تلة جبلية في هذه التلال الحادرة.

وما شبّهت هذه المنطقة الجبلية في جمالها إلا بالمنطقة في الطريق الى أجمل مدينة فى البرازيل الجميلة وهي مدينة قرامادو وقد وصفت أرضها في كتاب «جنوب البرازيل».

المطعم القرطبي:

وصلنا المطعم وقد كتبوا اسمه عليه «الكردوبيز» بمعنى القرطبي بصيغة النسبة الى «قرطبة» التى هي المدينة الاندلسية المشهورة وهو جدير بهذه التسمية لجمال موقعه وحسن طعامه لولا أن الجو فيه حار رطب رغم ارتفاعه وخضرته. وليس كجو قرطبة الاندلسية البارد. الا اذا هبت الهواء فيه فانه يكون باردا خاليا من الجفاف فضلا عن كونه لا سموم فيه.

ويقع المطعم في منطقة تسمى (لوس بلانيس دير رنديرس) فى موقع جميل بشرف على مناطق منخفضة غارقة فى الخضرة، على تلال خضر بعيدة يراها الناظر حيثما اتجه.

وهذا المطعم يخرج الناس للتنزه فيه وأكل الطعام وقد اختار الاخوة من طعامهم ما لذ وطاب ويتميز بكونه محلي الطابع غريبا فى مذاقه علينا وامثالنا الغرباء. فكان من ذلك الروبيان بالعامية او الجمبرى باللهجة المصرية ودجاج مطبوخ بطريقة خاصة وسجق حلال وشواء لحم بقري وأما السلطة فإن نجمها اللامع هو الليمون الصغير الذى لم نكن نعرف ليمونا غيره في القديم وهو المسمى (البنزهير) ويكثر انتاجه في بلادهم ويباع بأسعار رخيصة. وأما الشراب فانه من فاكهة عندهم لا نعرفها وهو شراب طازج.

كانت الجلسة فى المطعم ممتعة بطعامه وموقعه وراحة طويلة فيه.

باب الشيطان:

وكدت أجعل العنوان (الي باب الشيطان) لولا أننى كرهت أن يفهم أننا نريد الذهاب إلى باب الشيطان الحقيقي او المعنوي مع ان الواقع أننا ذاهبون الى مكان جميل المنظر. غريب الشكل يسمونه (باب الشيطان).

ومع ذلك كان الطريق اليه لا يوحي بذلك الشيء المكروه بل هو جميل غاية الجمال فقد انتقلت من مكان الغداء الى منحدر فى هذه الجبال الخضر التى يطالع المرء منها التلال الخضر الرائعة وبطن واد واسع أخضر أسفل ذلك فى تدرج بديع، فمررنا بمنتزه باليوا ويسمونه (باركى باليوا) وهو فى عرض الجبل وسرنا صاعدين في جبل اخضر حتى وصلنا (باب الشيطان).

و(باب الشيطان) فرجة بين جبلين واقفين اشبه ما تكون بالباب المفتوح الذي ليس له سقف وتطل على هاوية جبلية، كان اصل تسميتها أن صخرة عظيمة كانت فى مكان هذا الباب المفتوح انقضت من هذا الارتفاع الشاهق على قرية كانت اسفل الجبل فقتلت عديدا من اهلها حتى تركها سكانها وهجروها ولم يعرف المرافقون متى كان ذلك ولكنهم يقولون إنه كان منذ مئات السنين. والذى يطل على الهاوية السحيقة التى سقطت منها الصخرة الضخمة يدرك أي تدمير احدثته.

هذا اذا كان ما ذكروه عن سبب التسمية صحيحا وهو الذى يعرفونه، وقال بعض الذين كانوا واقفين عندها إنها أشبه بالمنتزه الذي يزوره الناس لغرابة المناظر حوله وجماله، انها سميت (باب الشيطان) لكون الذين يريدون ان ينتحروا يقصدونها فيلقون بأنْفُسِهِم منها فلا يمكن انقاذهم.

ومع جمال هذه المناظر ووجود سيارات عديدة للمتفرجين فيها وما تستثيره تسمية (باب الشيطان) فى النفس من مشاعر تدفع الى رؤية المكان فإننى لم أرهم اعتنوا العناية المناسبة بالمكان فقد رأيت بائع المشروبات الباردة - مثلا - قد نصب له غرفة اشبه بالخيمة وهو يبيع بضاعته. مما جعلنا نقول: انه لو كان ذلك عندنا لكان مليئا بالمتفرجين صاخبا بالسيارات.

وذكرت بهذه المناسبة اسماً شنيعا آخر لمكان

جـميل آخر هـو بلعـوم الشـيطان بمعنى حلْق الشيطان وهو مساقط الشلالات الضخمة لنهر قـواسـو الموجـودة على الحـدود بين البـرازيل والأرجنتين فى امـريكا الجنوبيـة التى سـميت ببلعوم الشيطان لأن من قرب منها تجذبه مياه النهر فتلقيه مع هذه الشلالات التى تعصـره عصرا بل تهرسه هرساً بثقلها قبل ان يصل الى الأرض العـمـيـقـة الخطرة وقـد ذكـرت مشاهداتي فيها فى كتاب: على أرض القهوة البرازيلية (المطبوع).

ثم انتقلنا من المكان الى مكان آخر غير بعيد وفـيـه مـوقف فـوق هوة سـحـيـقـة ولكنه مـوقف مكشـوف ليس فيـه باب مـثل الذي قبله وسررنا برؤية المناطق المنخـفـضـة الخـضـراء. ومن المناظر الطريفـة منظر بيت الحـارس الذي يلاحظ المكان لئلا يأتى إليه جهال فيقعون فى مـغـارة من الجبل ذات صـخـور صلداء، وتظلل بابه شـجـرة من شـجـر الأزهـار تبـدو أوراقـهـا ملونة كأنها الزهور. وبجانبه بائع يبيع لحوما مشوية قد انعقد دخانها فوقها لكثافة الرطوبة وعبق الجو برائحتها.

ولاحظت ان الطابع الهندى وهـو المنســوب للهنود الذين يراد بـهم سكان البـلاد الأصـلاء الذين كـانوا مـوجـودين فـيـهـا قـبل وصـول الاوروبيين.

قال لي الأخ (عبد الهادي بازورت) مرافقنا وهو نفسه هندي امريكي: ان هؤلاء هم (المايا) الذين هم قـبـائل مـعـروفـة فى هذه البـلاد الأمريكية الوسطى وقد خلف أوائلهم حضارة راقيـة بمعزل عن التأثر أو التأثير بحضارات العالم القديم، ولا تزال آثار تلك الحضارة باقية فى المنطقـة وبخـاصـة فى المكسـيك، وتوجـد بقاياهم الآن فى عدة بلدان من اهمها المكسيك وقواتيمالا والسلفادور.

الناظر:

وقـفنا بـعـد ان سـرنا قليـلا على مكان عـال يشـرف على أمـاكن بعـيدة غـاية فى الجـمـال يسـمـونه (مـيـرادور) ومـعناها: (الناظر) لأن (ميرا) بالاسبانية تعنى انظر او ينظر و(دور) تلحق بالكلمة تتخذ صيغة اسم الفاعل ويراد بالناظر هنا: المشرف على أماكن، بعيدة جديرة بالنظر. وقـال لي الاخـوة المرافـقـون: ان من ينظر من هنا ويشاهد هذه المساحات الواسعة كـأنما ينظر الى (السلفـادور) كلهـا، وهذا حق كله او بعـضـه لأننا نظرنا منه الى مـسـاحـات خـضـر عـجـيبـة تجمع بينهـا الخـضـرة، فـهى تتراوح بين جبال خضـر تجللها أشجار الغابات ورُبى جميلة ووديان سحيقة تجرى فى بعضها المياه، ونـهر يتلوى قـاصـدا للمـحيط الهـادىء الذى لا يبعد عن العاصمة سان سلفادور» إلا بـ ٣٢ كيلو متر وحتى البحيرة الجميلة التى رأيناها من الطائرة ووصـفـتـهـا هناك بدت ظاهرة وان تكن بعـيـدة ويسـمـونهـا (ايلو مـانقولاقو). وقد صورتها مع بعدها ولا أدرى ان تكون ظاهرة في الصورة ام لا.

ومـا شـبـهت هذه المناظر الا بالجنة من جنات الدنيـا ومن المعلوم ان (الجنة) فى اللغـة تعنى الحديقة فهى على هذا التفسير مجموعة جنات مـتصلة. ولا يقـتـصـر ذلك منهـا على خـضـرة الاعشـاب والأشـجـار وانما يـتـعـداه إلى تنوع المناظر من جبال ووديان وسهول ضيقة.

ومع ذلك فـاننا عندمـا انـحـدرنا قليـلا من هذا

المكان المرتفع رأينا نساء من نساء الهنود الأمريكيين يسرن فى الطريق حاملات امتعتهن على رؤوسهن وهى فى مظهر غير مريح، بل انه منظر يدل على الشقاء رغم البقاء فى هذه الجنة الأرضية.

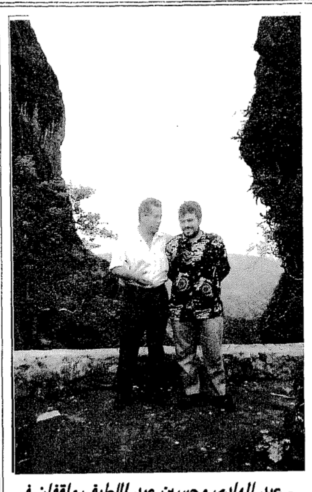
فى مناطق الهنود:

والمراد بهم الهنود الأمريكيون كما سبق وهم سكان القرى فى هذه المناطق الريفية بصفة رئيسية وأما المخلطون الذين يسمونهم ماستيوسنس، فهم ما بين الاوروبيين الجنوبيين وبين الهنود وهم موجودون في الغالب فى المدن والقرى القريبة من العاصمة والعواصم الريفية.

والهدف من سيرنا هنا هو زيارة القرية التى يقع فيها بيت مرافقنا الأخ المسلم (تيتو عبد الهادى بازورتو) اضافة الى الاطلاع على طبيعة هذا الريف البعيد نسبيا عن العاصمة.

سرنا على طريق ازفلتى غير جيد وسط جو بديع فى مكانه وهوائه. وهو طريق جبلي يمتد من قرب العاصمة حتى المحيط الهادى الواقع فيها جهة الغرب.

واستمر انحدارنا مع الطريق فترة حتى قاربنا الوصول الى واد منخفض إلا اننا عدنا من الطريق مرتفعين الى أحد الجبال فمررنا بقرية هندية واقعة داخل الغابة تماما بحيث لا تشعر بها الا اذا وصلتها. وتكاد هذه القرية فى موقعها فى الغابة وانعزالها تشبه القري الافريقية فى الغابات الاستوائية لولا فوارق قليلة، منها ان السكان الهنود هنا سمر سمرة شديدة، وتقاسيم وجوههم تشبه التقاسيم



ـ عبد الهادى وحسين عبد اللطيف واقفان فى (باب الشيطان).

المغولية او تقرب منها، من ارتفاع الوجنتين وضيق العينين. وغلبة القصر على القوام وشيء ظاهر عند بعضهم دون بعض وهو طويل الرجلين مع قصر فقار الظهر. وهناك شيء يكاد يكون القاسم المشترك بين الهنود الأمريكيين فى امريكا الوسطى وأميركا الجنوبية وهو قصر الرقبة. وتسمى هذه المنطقة (روساريو اي سورا).

جبل الأمير:

استمر السير في الارتفاع المتدرج ونحن على طريق معبد غير مزفلت حتى وصلنا ونحن فى المنطقة الجبلية الى تلة عالية خضراء فأوقفنا

السيارات وسرنا على طريق ضيق اصعب ما فيه انه زلق من كثرة المطر والرطوبة حتى ان المرء لا يستطيع السير إلا وهو ممسك بجزع احدى الاشجار الباسقة التى تجلل المنطقة أو سار رويدا رويدا وبحذر شديد وذلك لتكرر نزول المطر والندى عليه.

وصلنا الى بيت الاخ عبد الهادى فوق هذه التلة العالية التى تحيط بها الجبال ولكنها لا تحاصرها بل تدع بينها وبينها وديانا وربى اخرى والبيت مبنى من لبن الاسمنت المزدوج، المسقف من الصفيح القوى.

وعندما سألت عن كيفية حصولهم على الماء فى هذا البيت الذى يقع فوق هذه الربوة قال: انه من المطر، لقد وضعنا خزانا فى مكان مرتفع وسحبنا منه انبوبا الى خزان فوق سقف البيت ونحصل من ذلك على ما يكفينا من الماء. ويسمى الجبل الذى عليه البيت جبل الأمير «سيررو دي برنسبي».

وقفنا مليا عند البيت نستجلى هذه الاماكن الجميلة فى منظر جليل باهر حيث يطل على وديان وربى تجللها الخضرة وعلى نهر قليل المياه يجري فى احد الوديان اسمه النهر الميت او بالاسبانية (ريو مويرتو) وريو: نهر وموريتو الميت.

ولكن موت النهر اذا كان قد مات بالفعل، لم يمنع هذه البلدة من الحياة المزدهرة التي لا تحتاج الى النهر ولو احتاجت اليه لم تستطع الاستفادة من مياهه القليلة الواقعة فى القاع السحيق.

ذلك بأن السحاب المتدفق بالمياه لا يكل عن امدادهم بما يحتاجون وما لا يحتاجون اليه منها.

الى قمة الجبل:

انصرفنا من فوق الهضبة او الربوة الجبلية التى يقع عليها بيت الاخ عبد الهادى قاصدين قمة جبل عال هو اعلى الجبال القريبة وذلك لاستجلاء المنظر البديع منها الذى يجمع بين مناظر اخرى رائعة مثل التى ذكرتها وبين رؤية شاطىء المحيط الهادى الذى هو شاطىء سلفادور من هذه الجهة فانحدرنا من التلة ثم صعدنا وسط غابة مطبقة لا يستطيع المرء ان يبصر فيها شيئا لأن اشجارها العالية وما تحتها من اشجار اقصر منها قد اغلقت النظر.

وبعد ان التقطنا صورا من هذا المكان العالى واستجلينا منظر المنطقة منه عدنا مع طريق آخر الى بيت الأخ عبد الهادى ولحظت ان حجارة الجبال يركبها الطحلب الأخضر من كثرة المطر وتداركه، بمعنى تواصل نزوله. ابتعد رأس الجبل او قمته عن منزله ١٥ دقيقة بسير السيارة او ساعتين للماشي على قدميه.

فواكه الغابة:

اخذنا الأخ عبد الهادى فى جوله على الأقدام داخل الغابة المحيطة ببيته فكان من الأشجار المثمرة فيها الموز والجوافة وقد اثقلت بالثمار بل ان الجوافة قد سقطت بكثرة على الأرض حتى يخيل للمرء الا احد يرغب فيها مع انها تصلح لاطعام الماشية اذا لم يردها الناس الا

أن الماشية تجد فى الأعشاب واوراق الشجر الوفيرة ما يغنيها عنها مع اننا لم نر أعدادا تستحق الذكر من الماشية وربما كان ذلك لكون الغابة تخفيها ، وقد ذكرنا الأخ عبد الهادى ان هذه المناطق ليست من المناطق التى تربى فيها المواشي وانما يكون ذلك فى الاراضي المنبسطة أو القليلة الارتفاع.

وهناك أشجار الكاجو الذي يثمر فاكهة تؤكل حلوة وبجانبها ثمرة (الكاجو) وثمرتها تشبه الكرز الا انها صفراء اللون وقد أكلنا من هذه الفواكه كلها لانها مثمرة بل مثقلة بالثمار.

وهنالك البرتقال وهو نوعان: أحدهما ثمره أصفر وبرتقالي والآخر ثمره اخضر وأكلنا منهما وهناك فاكهة أسميتها عند ما ذقتها لأول مرة (ثمر الاستواء) لأنها من نبات المناطق الاستوائية وهي حلوة صادقة الحلاوة ويسمونها هنا (شبوتي).

ورأينا هنا أشجار القهوة المثمرة التى تعلقت عناقيدها باغصانها حتى خفضتها الى الأرض واخبرنا الأخ عبد الهادي انهم يستفيدون بالبيع من شجرتين هنا هما القهوة والبرتقال أما بقية الفاكهة فانها رخيصة ويحتاج جمعها الى عناية.

ولا شك ان هذه البلاد لو وجدت خبراء يعرفون كيف يستغلونها لانتجت انتاجا ضخما صالحا للتصدير، وقد سألتهم عن حيوان الغابة المتوحش أيوجد منه شيء هنا فأجابوا: نعم، ان الكلب المتوحش موجود والنمر موجود على قلة ويقتله الأهالي لأنه يأكل الحيوان الثمين، اما الصيد فإنه وفير من الأرانب والغزلان.

ومررنا فى الغابة بثمار من أثمار (المانقو) ساقطاً من شجره ولا احد يجمعه لكثرته وهو



- *قرية فى السلفادور.*

ينمو وحشيا فى الغابة دون سقي.

وعدنا ثانية الى بيت الأخ عبد الهادى حيث قدم الينا أولاده وكلهم يحملُ اسماء عربية كما قدم لنا أخاً كبيراً له.

ومما يجدر ذكره ان الأخ عبد الهادى يسكن هنا وحده مع أسرته وليس لهم جيران فوق ظهر هذه التلة، وذكر أنه لا يخشى من اعتداء اللصوص او نحوهم ومع ذلك لديه كلب حراسة قوي.

العودة الى سان سلفادور:

فى الخامسة عصراً تركنا منزل الأخ المسلم (عبد الهادي ....) وأسرته التى تقيم وحدها

دون جيران الا هذه الأشجار ولا أدري أهو مصدر للارتياح والشعور بالأمن هنا ام هي مصدر للخوف والانزعاج.

وقابلنا ونحن نسير فى الغابة بنتا شابة أقدر أن عمرها فى حدود السابعة عشرة وهى هندية بلا شك ظاهر ذلك من شكلها وتقاسيم وجهها وقال الأخ عبد الهادى بعد ذلك إنها هندية من (المايا) وهذه البنت تسير وحدها على الطريق الخالي الذي شق الغابة الكثيفة فسألت الأخ عبد الهادي عما اذا كانت مثل هذه الفتاة تستطيع أن تسير وحدها دون ان يعتدى عليها أحد، فقال: إنها تسير وهي آمنة لأن التقاليد القبلية فى هذه المنطقة الهندية تمنع من الاعتداء على مثلها وليس ذلك خوفاً من الحكومة او ان الحكومة تستطيع أن تمنعه.

ويبعد هذا المكان ٥ كيلومتر من العاصمة ولكنه فى منطقة غابات وعرة كما قدمت وقد عرفت من طبيعة الأرض سر استمرار الثورة اليسارية ضد الحكومة طيلة اثنتي عشرة سنة وان ذلك يرجع بالدرجة الأولى الى طبيعة هذه البلاد التى تكثر فيها الوديان المنخفضة والربى العالية والواطئة وتجللها كلها الغابات الكثيفة.

وذكروا ان هذه الخضرة دائمة لا تقل أو تزوي في وقت من الاوقات وسألته عن حالة المرور مع هذه الطرق للأهالى ابان الاضطرابات في زمن الثورة فأجاب بأنهم لم يكونوا يعانون اي مشكلة في المرور على المناطق التى تسيطر عليها قوات الحكومة أو توجد فيها قوات الثوار لأن الطرفين يحترمان الأهالى ويظهران التودد لهم.

ولم نقف في الطريق الى العاصمة لأننا نود أن نؤدى صلاة المغرب في مسجد المركز الاسلامى وقد حسن الطريق عندما قربنا من العاصمة ولم يكن شيئا قبل ذلك .

وقد اصبح الطريق ينحدر انحدارا الى العاصمة لكونها في منطقة منخفضة تحيط بها الجبال الخضر.

من الجبال التى نشاهدها الآن جبل فى رأسه بركان مهم اسمه (أل بوكى ايروت) ومعناها الفولقة الكبيرة، وهو مرتفع بحيث اننى شاهدت السحاب يقف دون قمته وقد ثار هذا البركان فى عام ١٩٣٠م وهو الآن ساكن ولكنهم يخشون ان يعاود الثوران مرة ثانية.

فى المركز الاسلامي ثانية:

دخلنا المدينة فمررنا بمحل تجارى عليه كتابة بالاسبانية تقول: (هذا محل عمر لتغيير آلات السيارات وهو محل رجل عربى مسيحى اسمه (عمر) لأن التسمى بعمر موجود عند المسيحيين هنا، ذكر المرافقون ان الاسماء العربية التى يستعملها المسيحيون هنا: عمر ، فاطمة ، علي ، وجاسمين (ياسمين).

واخترقنا في الطريق حياً شعبياً غير جيد المظهر ومررنا بحديقة اسمها (هيريوباكو) و(هيرا ريد) وهو احد الابطال الوطنيين الذين ناضلوا ضد الاستعمار الاسباني. كما مررنا بالمسرح الوطنى دون ان نقف عنده.

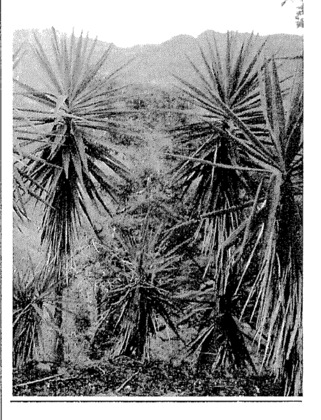
والحدائق هنا كثيرة وهي لا تكلفهم عناءا غير العناية بالاشجار والاعشاب بالتهذيب والتشذيب.

يصلى قبل ان يسلم:

صلينا المغرب فى مسجد المركز الاسلامى وصلى معنا شخصٌ قدموه لنا بان اسمه

(اكنور ارتوزو كـورتيس كـارابانتس) وقـد صـافـحـتـه وشـددت على يده وطلبت منهم ان يترجموا له ما اريد ان اقوله فقال الاخوة ان هذا الرجل لم يسلم بعد.

فـقلت لهم: انه صلى مـعنا وكنت أؤمـه فى الصلاة ولا ادرى ما اذا كان احسن القيام والقعود والركوع والسجود فيها ، فقالوا: هذه عادتنا معهم ان نسمح لمن جاء منهم يريد ان يعرف شيئا عن الاسلام بان نطلعه على ذلك وان يرانا كيف نصلى وان نجيبه على اي استفسار يريده عن الاسلام عامة وعن الصلاة خاصة بل اننا ندعوه الى الصلاة معنا، ونحن نعرف انه لا تقبل صلاته قبل اسلامه ولكننا نريد بذلك ان نقربه من الاسلام عسى ان يقتنع به فيسلم لأن هذه البلاد هى بلاد حرية دينية مطلقة وإذا لم نأخذ الناس بهذه الطريقة من التسامح واللين لم يقبلوا علينا.



ـ نخيل على قمة جبل الأمير فى السلفادور.

وذكروا ان هذا الرجل يتعلم الآن فى الفصل الدراسى الذى افتتحوه فى المسجد لتعليم اللغة العربية للسلفادوريين الذين يقصدون منه تقريب القوم للاسلام، فسألته عن الغرض الذى يتعلم من اجله اللغة العربية هنا؟ فأجاب انه يتعلمها من اجل المعرفة والثقافة وليس من اجل العمل المادى وذكر ذلك لأن بعض الناس تتعلم اللغة بغرض تجاري مثل ان يؤسسوا تجارة مع الاقطار العربية او أن يستطيعوا العمل بها في المستقبل ، وعلق الاخوة على ذلك بقولهم: انه يوجد اناس كثيرون مثله يأتون لتعلم العربية لغرض ثقافي ونحن نحاول ان ندخل في عملنا معهم وسائل ايضاح الدين الاسلامي لعلهم يسلمون.

كان الاخ حسين عبد اللطيف هو الذى أذن لصلاة المغرب أذاناً شجيا يدخل الآذان من دون استئذان واما العصر فإن الذى ادى الأذان له هو الاخ المسلم الهندى السلفادوري (عبد الهادى) ولاحظت انهم قد كتبوا على المحراب جملة (الله اكبر) بالعربية وقالوا إننا اخترنا ذلك على عادة كتابة لفظ الجلالة (الله) واسم النبى (محمد) على المحراب كما يفعل بعض الناس لأن الاسم المجرد وحده لا يؤلف جملة مفيدة.

«للرحلة صلة»

كانت الساعة تدق السابعة صباحاً عندما استيقظت من نومى على رنين المنبه الراقد على خوان بالقرب من سرير نومى يوم اجازة عيد العمال في أول مايو، وكعادتي كل صباح أخذت (حماماً) بارداً أنعشنى وجدَّد نشاطى.

وعلى المائدة المستديرة الراقدة بالقرب من نافذة المطبخ جلست على أحد مقاعدها الأربعة أتناول طعام الإفطار من الجبن والبيض المسلوق وكوب الشاي الساخن مشروبى المفضل فى الصباح، كانت السماء في ذلك الوقت ملتحفة بالغيوم تحجب نور الصباح الأمر الذى جعل الإضاءة الخفيفة من اللمبات الصغيرة التى تزين النافذة تعكس ضوءها الخافت على المائدة.

طال بي الوقت وأنا أقلب جريدة الصباح، بينما كنت أنصت فى انسجام إلى موسيقى بيتهوفن فى سيمفونيته السابعة فقد كانت موسيقاها الهادئة تسبح فى المكان.. الجو هادىء وكل شيء يصبح حلواً حين تصفو حواس المرء فتنطلق النفس فيها مع كل جميل ومفيد فتذكرت أحداث شهرين كاملين كنت قد قضيتهما خارج مدينة «كريشان استاد» بعيداً عن مسكنى الذى وصلت إليه فى ساعة متأخرة ليلة البارحة.



فتحى
عبد الحميد
المراغي
- مصر -



ـ حيوان الآلي حيث يكثر في السويد

لم تكن رحلتي في تلك المرة للنزهة والمتعة فقط، بل كانت رحلة عمل سعيت وراءها عندما قرأت في إحدى الصحف التي يصدرها مكتب العمل السويدي أنه في مدينة «هالم ستاد» يوجد مكانٌ شاغر في مستشفاها العام لمترجم يعمل في قسم الأشعة لمساعدة المرضى الناطقين باللغة العربية.

وكان مسعاي وراء هذه الوظيفة له هدفان: هو مساعدة بني جنسي ومتحدثي اللغة العربية، والثاني كان لتحقيق رغبتي في التعرف على إقليم آخر من أقاليم السويد التي يبلغ عددها أربعة وعشرين إقليماً أو محافظة حتى تتاح لي معرفة أحوال سكانها وتنظيمها ومشاهدة الطبيعة بها والإلمام بالمعلومات اللازمة لأحد دور العلاج فيها.

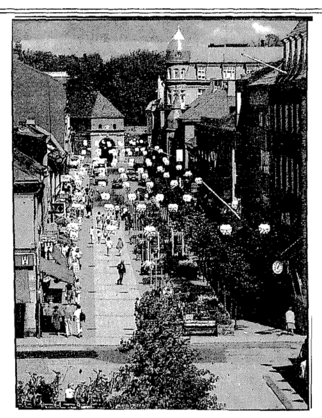
وفي أول يوم ذهبت فيه إلى المستشفى العام في مدينة «هالم استاد» ودخلت مكتب الاستقبال الذي يمثل إدارة العلاقات العامة فيها، هناك استقبلتني رئيسة المكتب وقادتني إلى قاعة خاصة ملحقة بمكتبها شاهدت فيها على شاشة جهاز «الفيديو» الصغير أقسام المستشفى ومبانيها العشرة وسط مساحات خضراء شاسعة وأشجار وارفة الظلال مختلفة الأنواع والأحجام وزهور متفتحة تملأ أحواضاً بديعة منسقة.

تابعت العرض على شاشة الفيديو شرحاً وتوضيحاً وقرأت أرقاما على رسومات بيانية عرفت منها حجم المستشفى الذي يبلغ عدد العاملين فيه ١٥٠٠ عامل ما بين أطباء وهيئة التمريض وموظفين وعمال، لم أندهش لهذا الرقم الكبير أو تلك المباني الضخمة والأثاث الحديث الفخم فقد سمعت عن ذلك المستوى المتقدم في مستشفيات أقيمت في دول عربية كثيرة، لكن الذي أدهشني وشد انتباهي في

نحاسية، نظرت من الشرفة فرأيت في الشارع الرئيسي الذى تقع عليه حديقة الحى طابوراً طويلا من فتيات يعزفن بالآلات النحاسية، وفريقاً من الشباب يحملون الأعلام في عرض جميل منظم يطلق عليه في اللغة السويدية كلمة «تأجيت» التى ترادف عندهم كلمة قطار، فالعرض يشبه القطار في طوله وانتظام مساره، ويعم هذا الاحتفال جميع أنحاء السويد كغيرها من بلدان العالم في أول مايو احتفالا بعيد العمال وتكون فيه إجازة رسمية في مختلف القطاعات السويدية، وهو احتفال عالمى بمناسبة إعلان حقوق العمال الذى صدر عام ١٨٩٠م وعملت به السويد منذ عام ١٩٣٩م.

لازلت أجلس على المنضدة استجلب من عقلى الذكرى لرحلتى التى سافرت فيها إلى إقليم «هالند» الذى أقمت في عاصمته «هالم استاد» ستين يوماً أعمل في مستشفاها العام.

سافرت بسيارتى آخذا الاتجاه الشمالى الغربى في مدينة «كريشان استاد» وكان الشتاء قارساً والريح باردة والثلوج تتساقط بكثافة على قارعة الطريق الطويل المؤدى إلى مدينة «هالم استاد» الذى يبلغ طوله أكثر من مائتى كم، وكان من المفروض أن تقطعه السيارة في أقل من ساعتين، ولكن نظراً لرداءة الطقس فقد قطعته السيارة في أربع ساعات كاملة، فقد واجهتنى في الطريق مصاعب ومتاعب فالجو كان معتما ومخيفاً واختفت معالم الطريق تحت أكوام الثلوج المتساقطة والأرض أمامى صحار من الثلوج، توقفت بالسيارة في محاولة منى لإزاحة



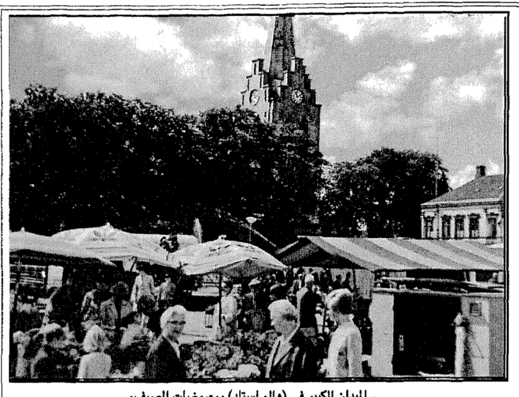
ـ الشارع التجارى الكبير في مدينة هالم استاد.

هذا العرض الذى استغرق ساعة كاملة عبارة تقول «مع مراعاة الالتزام بالسرية التامة» بمعنى أن ما شاهدته وسمعته لا يخرج عن نطاق المستشفى، فمهمتى في عملى الجديد هى نقل ما يقوله المريض بدقة وأمانة للطبيب المعالج ويظل سرًّا كامناً في صدرى فالمريض عادة يسرد ما يشعر به للطبيب دون قيد أو نظام.. فالمريض الذى يدخل المستشفيات هناك ولا يعرف اللغة السويدية من حقه أن يكون له مترجم للغته.

ها أنا ذا قد أصبحت عضواً عاملا من أعضاء المستشفى أرتدى مثلهم الزى الأبيض الأنيق ملتزماً بكل التعليمات التى أملتها علىّ رئيسة مكتب العلاقات العامة.

تناهت إلى مسامعى أصوات موسيقى

الثلوج من فوق زجاج السيارة الذى عجزت مسّاحات السيارة عن إزالتها وتجمد الماء فيها ولم يستطع جهاز التكييف على بعث حرارة تدفىء السيارة ورغم أن السيارة من نوع «الساب» السويدى ، ورغم وجود العجلات الشتوية الأربعة المطعمة بمسامير حديدية تساعد فى مقاومة الجليد إلا أن عجلات السيارة الأمامية قد غاصتا فى كوم من الثلوج فالرؤية أمامى لم تكن واضحة وشبورة كثيفة قد أغلقت الطريق أمامي والدخان يتصاعد عاليا وبكثافة لم أشاهد مثلها من قبل، والسيارات تنير ضوءها الخلفى تمر بجانبى ولم تلق إليّ بالا وأصاب موتور السيارة الصقيع وتوقفت محركاتها فنزلت وأخرجت من الشنطة «شوكرف» كبيراً لإزالة الثلوج وأحسست بأطرافى قد انفصلت عن كفي رغم وجودها داخل القفاز المبطن بالفرو، والمنطقة تبدو موحشة لم أر فيها إلا أشجار الغابات البعيدة مثقلة بما تحمله من ثلوج وشعاع من الضوء يظهر من بعيد من خلف زجاج النوافذ في المنازل البعيدة، فالتمست الدفء من بلادى الصحوة البعيدة



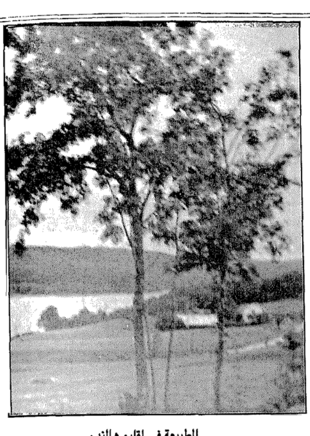
- الميدان الكبير فى (هالم استاد) ومعروضات الصيف.

وتأملت فى شعب السويد ومقدرته على مواجهة ذلك الجو الكئيب وبرودته القارسة، فلم تتوقف حركته على مر الزمان، فحركة الإنسان مستمرة مهما بلغت الصعاب، وعرفت أن الفقر والغنى فى الدول ليس سببه الفروق المناخية بل مردُّه إلى الإنسان نفسه.

فكرت فى هذا الإقليم الشاسع الكبير واختلاف الطبيعة فيه ما بين الشتاء والصيف، فإقليم «هالند» يحتل مساحة من أرض السويد شاسعة تصل إلى ٤ر٩٣٠ كم٢ ، غنى بطبيعته الخلابة يقع فى الجنوب الغربي من مملكة السويد بالقرب من المنطقة المعروفة باسم «كتاجيت»، ففيه أراض زراعية واسعة وبحيرات كثيرة وأنهار متعددة قصيره يقطنه أكثر من ١٧٧ ألف نسمة، يمتاز بوقوعه على بحر البلطيق يخترقه خليج صغير تقع عليه مدينة لاهولم التى تقع على جزيرة صغيرة والتى جاء اسمها منها فكلمة «هولم»

بالسويدية تعني جزيرة صغيرة، وفي فصل الصيف عندما تذوب الثلوج وتكتسى الأرض بالخضرة والمروج وتتفتح الأزاهير وتتدلى الفواكه من أغصانها وتسبح الطيور فى البحيرات ويحيا البحر بعد موات، والجداول تجرى فى الإقليم كنهر كونج باكن ، وڤيسكن، وأتران، ونيسان ، ونهر لاجون. فكلها تجرى من منابعها فى الجبال إلى سهول خصبة ووديان متعددة، وفى منطقة من الإقليم تعرف باسم سيملونج يوجد بها واد صغير لكنه جميل يجرى فيه نهر ڤيلا وبه بحيرة تحمل اسمه يقصدها كل زائر ومقيم.

وفي نهاية العصور المتجمدة في السويد شكل البحر إقليم «هالند» وظهرت الشواطىء الجميلة التى تعتبر الآن من أجمل وأنظف الشواطئ في السويد حيث تمتد الرمال الصفراء النظيفة الخالية من الأتربة والشوائب فاعتبره السويديون «ريڤيرا» جديدة قد أنشئت في السويد. وتحتل الأراضى الزراعية فى هذا الإقليم ٣٠٪ من مساحته الكلية وتمثل الغابات فيه نسبة ٤٣٪ وأهم مدنه «هالم استاد» وهى العاصمة ومدن كثيرة منها كونج باك وفاربرج، فالكن برج، لاهولم، ومدينة تراكوف. وتمتاز هذه المدن بمواقعها الجميلة ومناظرها الخلابة، وبها مناطق أثرية قديمة كالتى فى مدينة فالكن برج، فعلى نهر أرتن الذى يجرى فى أرضها قناطر عتيقة بنيت من الحجر - يرجع تاريخ بنائها إلى عام ١٧٥٦م وتعتبر من أجمل المتشئات النهرية فى كل أنحاء اوربا، وبالقرب منها تقع بلدية المدينة، وآثار القلعة قديمة بنيت زمن العصور الوسطى.



ـ الطبيعة فى اقليم هالند.

وفى مدينة «فاربرج» التى تقع مباشرة على البحر توجد بها مراكز للسياحة والرياضة بها حمام عالمى على شكل فريد تحوطه المدرجات وتقام عليه المسابقات، وفى عام ١٦٤٥م خضع إقليم «هالند» للدانمرك وكان يتبع النظام الدينى الكنسى فى مدينة فيكسى شاة القريبة منه والتى تقع فى غرب السويد، وعلى بعد ثلاثة كم من مدينة «تراكيوف» تقع أهم جزر «إقليم هالند» وهى جزيرة (ڤادر) التى تعد من أجمل الجزر المنشرة فى الإقليم وبها من الطيور والحيوانات النادرة الكثير وفى عام ١٩٥٨ أصبحت من المحميات الطبيعية الهامة فى المنطقة.

وبين مدينتي «لاهولم» و«انجل هولم» تمتد المرتفعات التى تخترقها الوديان والسهول

والتى تصل إلى الجنوب فى منطقة اسكونا وأعلى قمة لجبال «هالند» تصل إلى ٢٢٠م ارتفاعاً.

وعلى طول الطريق المؤدى إلى مدينة «هالم استاد» رأيت المساحات الشاسعة من الغابات التى كانت تغطيها الثلوج، كما شاهدت قطعاناً من حيوان ضخم يشبه فى شكله الجاموس يظهر ويختفى بين جذوع الأشجار الضخمة، ويعرف هذا الحيوان باسم (الألى) وتعيش عادة هذه (الأيالى) فى المناطق الشمالية الباردة فى العالم ويوجد الكثير منها فى امريكا الشمالية، وهذا الحيوان الضخم يبلغ طوله ٢٢٠سم إلى ٣٠٠سم ويصل وزنه إلى ٦٠٠ كيلوجرام، أما لونه فضارب فى البنى والرمادى، وله سيقان كبيرة تلمع فى لونها البنى الفاتح وله قرنان كبيران يختلفان فى الشكل عن قرون حيوان الرنة والبجمور، فقرون الأيالى قصيرة مفلطحة فى النصف يتفرع منها شوك تمثل كفة اليد يستخدمها الحيوان فى الدفاع ومقاومة الطبيعة وتخالها كطبق الحساء تسقط فيه الثلوج مثل الجبن الدانمركى الأبيض المبشور، ويكثر هذا الحيوان فى الغابات وبالقرب من المستنقعات وعدد الأيالى الموجودة فى السويد أقل بكثير عن الموجودة فى امريكا فعددها فى السويد يزيد على المائة ألف رأس ويرجع أصل هذا الحيوان إلى أيالى أمريكا التى تعرف باسم «موسي» وهو من الحيوانات العملاقة ويطلق عليه السويديون «جيتا إلى» أى الألى الكبير.

- نهر نيسان فى مدينة هالم.

وفى مدينة «هالم استاد» رأيت شوارعها وحركة السيارات بها وعمال البلدية يعملون لإزالة أكوام الثلوج وعلى الكوبرى الأسمنتي الحديث على نهر «نيسان» الذى يقسم المدينة إلى نصفين.. رأيت النهر وقد تجمدت مياهه كما توقفت حركة البواخر الصغيرة فيه، ويعد هذا النهر من أهم معالم المدينة الرئيسية، تكثر الحركة فيه فى فصل الصيف حيث ينقل البضائع والسائحين، وعلى ضفتيه رأيت المبانى القديمة التى يرجع تاريخ بنائها إلى

عام ١٢٠٠م تمثل المدينة القديمة التى أنشأها الملك فالديمر عام ١٢٣١م وتوسعت المدينة عام ١٣٠٠م وضمت إليها مدن كثيرة مثل مدينة اوسكارترامز، شيبنج، ايلدزبرجا، سيملونج ديلن، سوندرومز، هاربلنج، جيتنج، كوقيبلا، وينسلاف، وتبلغ مساحة تلك المدن مجتمعة ١٣٠١ر١ كم٢ يعيش فيها حوالى ١٧٢ ألف نسمة.

أما مدينة «هالم استاد» عاصمة إقليم هالند فمساحتها ٢٨ كم٢ وعدد سكانها ٥٠ ألف نسمة، وللمدينة موقع استراتيجى هام يتركز فيها سلاح الطيران السويدى ويوجد بها مدارس وكليات الطيران والدفاع الجوى السويدى، وأصبحت مدينة هالم استاد كبلدية مستقلة عام ١٩٦٧.

أقمت فى الحي الجديد الذى يقع على أطراف المدينة وبالقرب منه تقع مدافن المدينة وسط حديقة متسعة تحوطها أشجار عالية تكسو قمتها الثلوة، وعلى بُعد منها يمكن مشاهدة مبنى المستشفى.

رغم قصر المدة التى عشتها فى مدينة «هالم استاد» إلا أنها قد تركت انطباعاً جميلا فى نفسى، فمكان العمل كان مليئاً بالأحداث والملاحظات والمدينة جميلة هادئة ذات طبيعة خلابة وأهلها طيبون، وأطلق على المدينة اسم مركز الفنون، فمنها خرج فنانون بارعون استوحوا أعمالهم من طبيعتها الخلابة وأسست فيها جماعة «هالم استاد» الفنية عام ١٩٢٩م وعددهم ستة من مشاهير فنانى السويد من الذين اهتموا بالفن السريالى الذى يعتبر من الفنون المعاصرة فى الفن والأدب يذهب فيها الفنان إلى ما فوق الواقع يبرز فيها الأحوال اللاشعورية وينتمى أعضاؤها إلى عصر التنوير وهى طريقة أصبحت منذ عام ١٩٢٠ طريقا جديدا لأولئك الذين يرغبون فى تجاوز الواقع، إلى ما وراء الواقع وأنها التصقت بالرسم بدلا من الموسيقى التى هى ذات ارتباط وثيق بالأدب، حيث أن الرسم يقدم نفسه بوضوح وباستعداد تام كمجال لتطبيق المبادىء التى تقوم عليها السريالية.

وهؤلاء الفنانين الستة من مدينة هالم استاد وهم:

١ - سفنسون جونسون ، ولد عام ١٩٠٢ وعمل بمجلة هالم استاد ومكتبتها العامة وله رسومات وأعمال عظيمة موجودة على جدران صالة الرياضة الرئيسية فى المدينة.

٢ - فلديمر لورنت ذون، ولد عام ١٩٠١.

٣ - ستالين مورنر ، ولد عام ١٨٩٦.

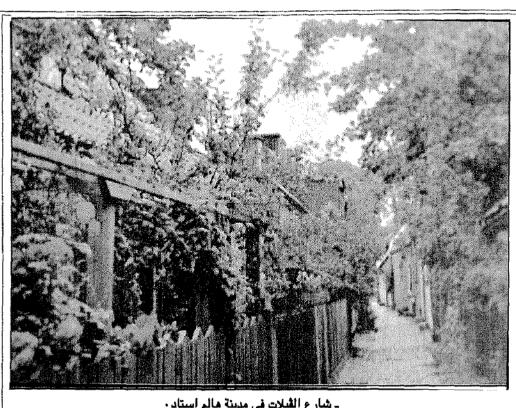
٤ - اكسل اولسن ، ولد عام ١٨٩٩.

٥ - ايرك اولسن ولد عام ١٩٠١ وهو أخو اكسل، درس بباريس اهتم بالسريالية الواقعية (العقلانية) والتى بدأت فى السويد عام ١٩٣٠ - ١٩٤٠ وبعد ذلك انتقل للرسم السريالى الذى ينتمى إلى الحركة الدينية.

٦ - ايساسن ثورين ولد عام ١٩٠١ عمل بالهند وعاد لينضم إلى جماعته فى السويد عام ١٩٣٠.

ونرى لسات هؤلاء جميعا فى جميع أنحاء السويد وزين بها متحف «هالم استاد» الثقافى، وفى ميدان المدينة الكبير المزين بأعمالهم ورسوماتهم العظيمة واتخذ هذا الميدان نموذجاً للطراز الاوربى تتوسطه حديقة صغيرة يقف وسطها تمثال من البرونز

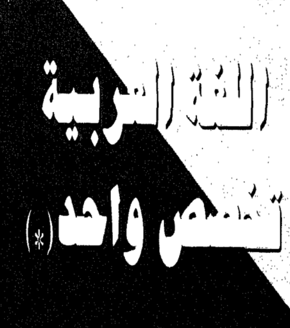
لكارل ميلز وتمثال آخر لثور كبير الحجم وتزين الميدان نافورة بارعة التصميم.



- شارع الڤيلات فى مدينة هالم استاد.

طفت في المدينة متجولا بين ميادينها وشوارعها ومتاجرها الكبيرة والصغيرة ومتاحفها ومكتبتها الكبيرة والتى يرجع تاريخ بنائها إلى عام ١٩٥٨ وفيها عرفت أسماء كتاب وروائيين من السويد كالبرت اولسن الذى ولد عام ١٩٠٤ وهو أحد أبناء اقليم هالند، وتركزت أعماله الروائية والتاريخية على فترة العصور الوسطى وزرت مصنع إطارات السيارات ومدرسة ميكانيكا السيارات وعرفت أن فى المدينة مدارس للطيران والتدريب وشاهدت احتفالات كبيرة أقامتها القوات المسلحة وكانت مهرجانا عظيما ضم المدنيين والعسكريين ورأيت المعدات الحربية الدفاعية التى تشتهر بها السويد، وتجولت فى الشارع التجارى الكبير وسط المدينة فوجدته مزدحماً بالناس ولا تمر فيه السيارات ووقفت أمام ڤاترينات العرض مع الناس لأحد المحلات التجارية الكبيرة التى تبيع الملابس الجاهزة ولعب الأطفال ورأيت دمية كبيرة لفتاة تغمز بعينيها الزرقاوين مبتسمة وترسل بنظرات تحية للمشاهدين وكانت المفاجأة أنها ليست دُمية ولكنها كانت فتاة حقيقية تعمل لمدة ثلاث ساعات يوميا داخل هذه الڤاترينة لجذب الزبائن لدخول المتجر ليشتروا البضاعة منه وهى طريقة استحدثها المحل للشهرة والبيع، كما كانت الأسعار واضحة على المعروضات فأجد بين الأسعار ٩٩٫٢٥ (تسعة وتسعون كرونه وخمسة وعشرون أوره) والأوره أصغر عملة فى السويد لا تمثل شيئا ولكنها فقط للمنافسة وجذب المشترين.

ومن أجمل ما رأيته فى المدينة هو حى الزهور أو شارع الڤيلات وهو طريق طويل ضيق تحفه ڤيلات جميلة بحدائقها الأنيقة المليئة بأنواع مختلفة من الورود والزهور التى تراها متفتحة ناطقة بالجمال فى فصل الصيف.



اللغة العربية فى نص واحد (*)

علوم العربية فى خدمة الكتاب العزيز:

من المعـروف أنّ أرفع نص فى اللغة العربيـة، هو القرآن الكريم، الكتاب العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ومن المعروف كذلك، أن علوم اللغة العربية، إنما انبثقت من الكتاب العزيز، من أجل توظيفها فى خدمته، تبييناً لمبانيه ومعانيه، وكشفاً عن إعجازه ومراميه. وإن رفيع منزلة الكتاب العزيز، جعلت العلماء يميلون إلى جعل الكتاب العزيز، مَيْدان درسهم، بعد أن يكتمل لهم تحصيل علوم اللغة العربية. ومثل هذا الاكتمال، من علوم الآلة إنما يكون فى سن متأخرة. وقد رافق اكتمال العلوم، الرغبة من العلماء، أن يختموا حياتهم، بعمل ذى علاقة بهذا الكتاب العزيز، يتقرّبون به إلى الله تعالى. إنّ أمثال هذه العوامل والبواعث، هي التى جعلت الزمخشري[١] (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ/ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م) يؤلف الكشاف، عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل حينما قارب العَشْر، التى سمتها العرب، دقاقة الرّقاب، ما بين الستين إلى السبعين[٢] وهي كذلك العواملُ والبواعث التى جعلت أبا حيان (٦٥٤ ـ ٧٤٥هـ/ ١٢٥٦ ـ ١٣٤٤م)[٣] يشرع فى تأليف البحر المحيط، فى أوائل سنة سبع وخمسين من عُمُرِه، وكان ذلك فى أواخر سنة عشر وسبعمائة



بقلم:
أ.د. حسن محمد باجودة عميد كلية اللغة العربية جامعة ام القرى - مكة

هجرية[٤] وهكذا.

ودليـــلا على أن دارس القـــرآن الكريم، يحـتـــاج فى دراســتــه، إلى كل علوم اللغـة العربية، مما هو دليل، على أن اللغة العربية تخصص واحد، وبطبيعة الحال، يقاس على القرآن الكريم، سائر النصوص من حديث وحكم، وشعر ونثر، وما إلى ذلك، نود ـ على ســبــيل المثـــال ـ أن نجــعل هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الإسراء الآية/ ٢٣ ـ ٢٤ ميدانا للدرس. قال تعالى: *{وقضى ربك ألا تعبـدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـانا. إما يبلُغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقُلْ لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذُّلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا}*.

المعاجم وكتب اللغة:

ومن البيّن أن أولى خطوات التعامل مع أي نص، تتجلى فى محاولة فهمه. وحينما تكون ثمة ألفاظ تحتاج إلى أن نفهمها نحن نلجأ فى العادة إلى معاجم اللغة وما فى حكمها من مؤلّفات، تتعامل مع هذه اللفظة أو تلك. ويصحُّ أن تكون لفظة «أفّ» إحدى تلك الألفاظ التى نحتـــاج إلى أن نتبـيّن معانيها. و: «أفّ» إسم فعل مضارع، بمعنى أتضجّر، والفاعل أنا[٥] وهي كلمة تَكَرُّه، وأفّف تأفيفاً وتأفف قالها[٦] والأفُّ: وَسَخُ الأذن، والتُّفُّ وسخ الظُّفـــــر[٧] والأفَفُ، محرّكة: الضَّجَر[٨].

ويصح أن يكون معنى الآيتين الكريمتين على النحو التالي: وكتب ربّك أيها الإنسان، وقضى فالقك ومربّيك بنعمه، ألا تعبدوا أيها الناس إلا إيّاه عزّ وجلّ وحده لا شريك له، وبأن تُحسنوا إلى الوالدين إحسانا. إمّا يبلغنّ عندك أيُّها الابنُ الكبر والضّعف، أحدُ والديك أو كلاهما، فلا تتضجر منهما بأن تقول كلمة: أفّ، ولا تنهرهما ولا تزجرهما. وهذا من باب الأحرى والأولى. وقل لهما فى المقابل قولا كريماً وكلاماً حسنا. وألنْ لهما جانبك، واخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة بهما، والرّقة لهما، والعطف عليهما، وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا.

علم النحو:

ويصح أن نطيل تأمُّل مثل هذا القول من الآية الكريمة الأولى {إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما} وكي نقف على بعض ما فى هذا القول من إعجاز، نحن قد نكون بحاجة إلى أن نعربه.

إما : إن حرف شرط جازم. ما زائدة للتوكيد[٩].

يبغلنّ: يبلغ فعل مضارع مبنى على الفتح فى محلّ جزم الشّرط والنون للتوكيد.

عندك : عند ظرف مكان منصوب متعلق بـ: يبلغنّ والكاف مضاف إليه.

الكبر : مفعول به منصوب.

أحدهما: أحد فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة. وهما ضمير مضاف إليه.

أو : حرف عطف.

كلاهما : كلا معطوف على أحدهما، مرفوع، وعلامة الرّفع الألف، فهو ملحق بالمثنى. هما ضمير مضاف إليه.

فلا : الفاء رابطة لجواب الشرط. لا ناهية جازمة.

تقل : مضارع مجزوم بلا، وعلامة جزمه السكون الظاهر على آخره والفاعل أنت.

لهما : اللام حرف جرّ. وهما ضمير متصل فى محل جرّ متعلق بـ: تقل.

أفّ : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر. والفاعل أنا.

ولا : الواو عاطفة. ولا ناهية جازمة.

تنهرهما: تنهر مضارع مجزوم وعلامة جزمه السكون. والفاعل أنت. وهما ضمير مفعول به.

وقل : الواو عاطفة. قل فعل أمر مجزوم، وعلامة جزمه السكون والفاعل أنت.

لهما : مثل الأول، متعلق بـ: قُلْ.

قولا : بمعني كلاماً، فهو مفعول به منصوب. ولو قُصِد به المصدر لكان مفعولا مطلقاً منصوبا.

كريما: نعت لـ: قولا ، منصوب[١٠].

الفصاحة:

من البيّن أننا بصدد جملة فعلية، وأن أصل الكلام: إمّا يبلغن أحدُ والديك أو كلاهما الكبر عندك فلا تقل لهما أفّ وإذا كنا شديدى التفاؤل، بأن يكون بقاء الوالدين آنذاك معاً أكثر من بقاء أحدهما بعد موت الآخر، كان أصل الكلام أو التقدير: إمّا يبلغن كلا والديك أو أحَدُهما الكِبَر عندك فلا تقل لهما أف. ومن البيّن أن صياغة العبارة التى جئنا نحن بها مُفْصِحَةٌ عن المعنى، وبذلك يصح أن يقال عن عبارتنا التى جئنا بها إنها فصيحة، لأنها قادرة على الإفصاح عن المعنى، ولكن عبارتنا ليست بليغة. وتبدو الهوّة سحيقة بالمقارنة بين عبارتنا التى زعمنا أنها فصيحة، وبين الجزئية الكريمة التى بلغت ذروة الإعجاز رغم أنّ الألفاظ تكاد تكون هي الألفاظ، ولكن النظم مختلف، وهنا يكمن الفرق بين أسلوبنا وبين الجزئية من الآية الكريمة، بين الثرى والثريا كما يقولون.

وإليك بيان الفرق بين القول فى الموضعين.

إن قولنا: إمّا يبلغنّ أحدُ والديك أو كلاهما الكبر عندك، وضع الفاعل فى موضعه بعد الفعل مباشرة: إما يبلغنّ أحد والديك. وقد عُطف على الفاعل الملحقُ بالمثنى: أو كلاهما. ثم جاء المفعول به فى موضعه: الكبر. ثم جاء ظرف المكان، وهو فضلة، فى آخر الجملة، حيث لا مكان للتأخير: عندك. وما دام هذا القول قد أفصح عن المعنى المراد التعبيرُ عنه، فإنا نستطيع أن نزعم أن هذا القول الذى طبق قواعد النحو تطبيقاً حرفياً هو قول فصيح.

فإذا تحوّلنا من الثرى، أعنى قولنا، إلى الثريا، أعنى القول فى الآية الكريمة: {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما..} تبيّنا روعة كل من

المبنى والمعنى. ولمّا كان المبنى أقرب تناولا، فإنّا نود أن ننوه بظاهرة تلاؤم الأصوات التى تتجلى أروع ما يمكن، فى كل جزئية من جزئيات القرآن الكريم. فها هي ذى الجزئية الكريمة التى نحن بصددها، تنساب فى تدفقها، وكأنها النهر العميق الذى يترقرق فى انتظام. ويبدو ذلك جلياً لكلّ من رتّل الجزئية الكريمة حتى الختام. قال تعالى: {إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما}.

وبإذن الله تعالى، لنا عودة إلى الحديث في ظاهرة تلاؤم الأصوات فى القرآن الكريم.

علم المعانى:

فإذا تحوّلنا إلى المعنى تبيّنا فى الجزئية الكريمة الإعجاز فى قمته. إن الجملة الفعلية، كما تبين من قولنا، يأتى فيها الفاعل بعد الفعل مباشرة، ثم المفعول، ثم الظرف لأنه فضلة. أمّا فى الجزئية القرآنية الكريمة، فقد قُلب هذا الترتيب رأساً على عقب، لحكمة جليلة. لقد جاء ظرف المكان الفضلة أولا، ثم جاء المفعول به، ثم جاء الفاعل. قال عزّ من قائل: {إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما} وتتجلى هذه الحكمة حينما نتبين أن الآية الكريمة بعد أن تدعو إلى توحيد الله تعالى تدعو إلى برّ الوالدين. ويخلص القول بعد ذلك لبرّ الوالدين.

إنّ حال الضعف التى آل إليها الوالد الشيخ والوالدة العجوز، إلى الحدّ الذى ساءتهما معه نفساهما، فى الوقت الذى سرهما بنوهما، هو الذى جعل ترتيب الألفاظ فى الجزئية الكريمة يتحقق معه روح النحو، بعد أن تحقق فى قولنا الذى جئنا به قواعد النحو. وروح النحو هذه هي التى سمّاها الإمام النحوي والبلاغي الأشهر عبد القاهر الجرجانى المتوفَّى سنة ٤٧١هـ[١١] بنظرية النظم، فى كتابه الذى يُعنى بعلم المعانى فى المقام الأول: دلائل الإعجاز. وممّا قال فى المنظومة فى مقدمة الكتاب[١٢].

وقد علمنا بأنّ النظم ليس سوى
حُكْم من النحو نمضى فى توخيه

ومعنى توخى معانى النحو، تعمُّدُ طلبها دون سواها. وتفسير نظرية النظم أنّ المعاني تكون في النفس، وأنّ النفس ترتب الألفاظ وفق ترتّب المعانى فيها. وبذلك تتعامل نظرية النظم مع الألفاظ المنظومة مع غيرها من الألفاظ، وليس مع اللفظة المفردة. إنّ اللفظة المفردة لها معنى معين، فإذا نظمت مع غيرها اكتسبت من السياق معاني أخرى لم تكن لها حينما كانت مفردة.

وحينما نطبّق هذه القاعدة، أو نظرية النظم، فى حقّ الجزئية الكريمة، نتبين أن المعاني هي جعلت ترتيب الألفاظ فى هذه الصيغة. إن هذا الترتيب بمثابة السحابة التى تكشف قليلا قليلا عن وجه القمر الباسم أو الشمس المشرقة. وحينما ينكشف الوجه الكامل للمعنى، نشعر فى أعماقنا

بالبهجة التى تمتلىء بها نفوسنا، حينما تتبدى الشمس من وراء الغمامة، والقمر من خلف السحاب واللطيف فى الأمر أنّا نأخذ فى الاقتراب من حقيقة المعنى المقصود حينما نمرّ بمرحلتى الحاجب الأوّل لعين المعنى المتمثلين فى الظرف والمفعول به المتقدمين. فإذا تحوّلنا إلى مرحلتي الحاجب الآخر لعين المعنى، المتمثلين فى الفاعل والمعطوف عليه المتأخرين، أدركنا المعنى المقصود على حقيقته. ويتأكد إدراك المعنى حينما تأتى الفاء الواقعة فى جواب الشرط فما بعدها.

إنّنا بصدد من بلغ الغاية ووصل إلى النهاية.. ومن هذا الذى بلغ؟ وأيُّ غاية بلغها؟ إنّا لا نجد الجواب المباشر، ولكنّا نجد ظرف المكان المتصل به ضمير المخاطب: {عندك} وكأننا بصدد شخص عند آخر. وما الباعث على هذه العنديّة؟ إنه الكِبَر: {إمّا يبلغن عندك الكبر} ومَنْ هذا الذى يبلغ عندك الكِبَر؟ إنه أحد والديك: {إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما} ومعروف أن أحد الوالدين يبقى بعد وفاة زوجه، تكون حاجته لابنه أو ابنته أشد، هذا إلى ما يومىء إليه وفاة أحد الوالدين، من كون الآخر الباقى على قيد الحياة كبير السنّ شديد الحاجة للبرّ والإحسان من البنين والبنات. ومن البيّن أنّ فى تقديم القول: {أحدهما}، الذى يشير إلى أحد الوالدين، إيماء إلى الحال الأكثر احتمالا باخترام الموت أحد الوالدين، وبقاء الآخر على قيد الحياة.

ويُعطف على القول: {أحدهما} القول: {أو كلاهما} وقد عرفنا أنّ بقاء الوالدين معاً على قيد الحياة أقلُّ احتمالا، ولهذا تأخرت الإشارة إلى هذا الاحتمال.

وتنهى الجزئية الكريمة كلَّ ابن وكلَّ بنت كذلك، أن يقول لأحد والديه أو كليهما كلمة أفّ أو أن يزجرهما. وفى المقابل عليه أن يقول لهما قولا كريماً لُحْمتُه الرّحمة والشفقة، وسداه البرُّ والإحسان.

ويبدو جمال المبنى والمعنى على الحقيقة حينما تتلى الآية الكريمة. وإذا رغبنا فى أن نعرف الفرق بين الثّرى المتمثل فى قولنا، وبين الثريا المتمثلة فى الآية الكريمة، فى الإمكان أن نعود إلى قولنا كي نتبين أنه وأد كلا من المبنى والمعنى معا.

إن ظاهرة تلاؤم الأصوات لا وجود لها فى قولنا، وإن معانينا بدائية تقريرية. لقد كنّا كرماء حقاً حينما نعتنا قولنا بالفصاحة.

وفى المقابل يتجلى فى الآية الكريمة الإعجاز فى قمته[١٣].

وواضح أن موضوع دراسة الجزئية الكريمة علمُ المعانى، الذى يصح أن نعرّفه بأنه العلم الذى يُعبَّر به عن المعنى بطريق مباشر، وذلك فى مقابل علم البيان، الذى يصح أن نعرّفه بأنه العلم الذى يُعَبَّر به عن المعنى بطريق غير مباشر، لأن ميدانه التشبيه والاستعارة والكناية ويلحق بالاستعارة المجاز.

علم البيان وعلم البديع:

إذا كان ميدان الجزئية الكريمة التى درسناها فى هذه الآية الكريمة التى تحث على الإحسان إلى الوالدين هو علم المعانى، فإنّ ميدان الجزئية الكريمة من الآية الكريمة التالية سيكون بإذن الله تعالى علم البيان. وهذه الجزئية هي صدر هذه الآية الكريمة التى تتحدث فى برّ الوالدين كذلك.

قال تعالى: {واخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّيانى صغيرا} ومن البيّن أننا بصدد استعارة الجناح من الطائر إلى الإنسان وإن الجزئية الكريمة لتأمر كلّ ابن بأن يخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة وبسبب الرّأفة التى ينبغى أن يمتلىء بهما قلب كل ابن وبنت لوالديه.

وإن كل لفظة من الجزئية الكريمة ينبغى الوقوف عندها. قال تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة}[١٤].

وحينما نتأمل لفظة الجناح الذى يطير به الطائر أساساً، نتبين أنه يفيد الجنوح بمعنى الميل بسبب لينه وطواعيته. ولأن الجناح من الطائر هو الوسيلة من الطائر لانخفاضه ونزوله بعد ارتفاعه وصعوده، هذا إلى كون الجناح وسيلة اتزان الطائر فى تحليقه وتحديده وجهته، تمت استعارة الجناح للإنسان، دليلا على جانبه. وهذا الجانب من الإنسان يشمل يده وجانبه. وهذه اليد أو الجانب يتجلى فى كل منهما اللين والطواعية، هذا إلى كونهما وسيلة اتزان الإنسان. إنّ حركة اليدين وارتفاع مستواهما مضبوطات بمقدار حركة الرّجلين. ودليلا على أن اليدين أو الجانبين ميزانا الجسم، أن اليد اليمنى تتقدم مع تقدم الرّجل اليسرى وأن اليد اليسرى تتقدم مع تقدّم الرّجل اليمنى. وحينما تتقدم إحدى اليدين أو الرّجلين تتأخر أخرى اليدين أو الرّجلين، وهكذا دواليك.

ولا يُسْتعار الجناح وحده دليلا على فرط الإحسان إلى الوالدين، إنما يستعار الجناح فى حالة انخفاضه. والمعروف أنّ الطائر حينما يهمّ بالهبوط يخفض جناحه. إن الابن البارّ يؤمر بأن يخفض جانبه لوالديه دليل البرّ بهما والإحسان إليهما.

ولما كان خفض الجناح هنا يتم من قِبَل الإنسان المكلف والابن البار بوالديه أو الابنة البارة بوالديها، فإن الآية الكريمة لا تقف عند استعارة خفض الجناح، تلك الاستعارة التى يشترك فيها كل من الطائر والإنسان، إنما تضيف إلى ذلك صفتين خاصتين بالإنسان المكلف، تصرفان خفض الجناح إلى أدنى الدَّركات شكلا، وإلى أعلى الدّرجات معنى.

إنّ انخفاض جانب الإنسان تواضعاً لوالديه ينبغى أن يكون من حيث الشكل فى أدنى الدركات، بحيث إن الناظر إلى شكل الابن البار فى خطابه والديه ومعاملته لهما يتبين أنه أدل الهيئات من حيث الظاهر على الذل. ولهذا جاء فى الآية الكريمة القول: {واخفض لهما جناح الذّل}.

ولمّا كان لهذه الهيئة من الابن البار

بوالديه معنى يخالف تماماً تلك الهيئة وذلك الشكل، فبقدر دلالة تلك الهيئة من حيث الظاهرُ على الذّل والهوان، دلالتها من حيث الباطن على العزّ والإحسان، كان فى الآية الكريمة تقييد لذلك الذّل بأنه الابنُ الشرعي للرحمة التى امتلأت بها نفس الابن البار بين جنبيه ففاضت فى هيئة خفض الجناح للوالدين، إلى الحدّ الذى يكون معه الابن البارّ في هيئة الذليل، ولكنه العزيز بفضل من الله تعالى ونعمة، لأنّ تلك الهيئة كانت بباعث الرحمة التى امتلأ بها قلب الابن البارّ لوالديه.

وها هو ذا قيد الرّحمة يجيء في الجزئية الكريمة. قال تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة}.

ولما كانت رحمة الابن محدودة بالقياس إلى رحمة البرّ الرحيم مهما يكن الابن باراً ورحيماً بوالديه، فقد كان فى الآية الكريمة حثّ للابن على التحول من رحمة المخلوق المحدودة إلى رحمة البر الرحيم غير المحدودة. قال تعالى: {وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا}.

إن من التحول من الرحمة المحدودة إلى الرحمة غير المحدودة، تنبيهاً للابن البار، إلى أنه مهما يكن برّه بوالديه كبيراً، فإن حق الوالدين أكبر، لذا ينبغى الدّعاء لهما بأن يرحمهما الله تعالى الذى وسعت رحمته كل حيّ وشيء.

ويلفت نظرنا فى القول: {وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا} فائدة معنوية، وأخرى لفظية. أما الفائدة المعنوية فهي النص على تربية الوالدين لولديهما حينما كان صغيرا لا حول له ولا قوة. إن صفة الضعف مشتركة بين الابن حينما كان صغيراً، وبين الوالدين حينما بلغا تلك السّنّ المتأخرة.

وأما الفائدة اللفظية، فهي الجناس غير التام فى القول: {رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا} إن الله تعالى هو مربى خلقه بنعمه وآلائه. وإن الوالدين ربيا بنعمة من الله تعالى وفضل ولدهما. ومن البيّن أن المعنى هو الذى اقتضى هذا الجناس فى القول: {رب ... ربّيانى} وبذلك يتبين أنّ فى القول بشأن الجناس إننا بصدد فائدة لفظية تسامحاً فى التعبير. ولما كان الجناس من باب علم البديع فى البلاغة العربية، فكأننا فى هذه الجزئية الأخيرة أمام باب من أبواب علم البديع، بعد أن كنا من ذى قبل أمام باب من أبواب علم المعانى هو نظرية النظم أو التقديم والتأخير، وأمام باب من أبواب علم البيان، هو الاستعارة أو المجاز.

وبذلك نكون قد تعاملنا مع أنموذج لكل من أبواب علوم البلاغة، المعانى والبيان والبديع.

وهكذا تتبين الحاجة الملحة لعلوم البلاغة فى أثناء دراسة الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ظاهرة تلاؤم الأصوات والفاصلة:

القرآن الكريم كلُّه، جلالُ معنى وجمالُ

مـــبنى. وإن ظاهرة تلاؤم الأصـــوات فى القرآن الكريم تقابل فى الشعر موسيقاه. وإن الفاصلة في القرآن الكريم تقابل فى الشعر قافيته. والمعروف أن القرآن الكريم يجمع خير ما فى كل من الشعر والنثر. أما خير ما فى الشعر من ناحية الشكل فالبحر والقافية. وعيب الشعر بشأنهما أنهما مقيدان وليسا مطلقين. وأما خير ما فى النثر فحرّية التعبير أو النظم، وفق ترتيب المعـــانى فى النفس. إن ظاهرة تلاؤم الأصـــوات والفاصلة فى القرآن الكريم مرسلتان ومطلقتان وليستا مقيدتين وصارمتين.

وإذا كانت ظاهرة تلاؤم الأصوات تتجلى فى القرآن الكريم فى أرفع الصـــور التى يطبقها كلام نثري، والقرآن الكريم ضرب فريد من النثر، فإن القرآن الكريم نسيج وحده، في تحقيق ظاهرة تلاؤم الأصوات هذه، إلى الحدّ الذى نصادف معه، ما يوافق من الوجهة الصوتية البيت من البحر الشعري أو الشطر منه.

وفى هذا المقام نكتفى بضرب مثال واحد من سورة الإسراء التى كان حديثنا متعلقاً بها غالبا.

إن وزن الشطر من البحر الطويل على النحو التالى[١٥]:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ـ ـ ـ ه ـ ه / ـ ه ـ ه ـ ـ ـ ه ـ ه / ـ ـ ـ ه ـ ه ـ ه /

ـ ـ ه ـ ـ ـ ه ـ ه

وقد جاء فى الآية الكريمة الثالثة والثلاثين من سورة الإسراء، مما يوافق من الوجهة الصوتية هذا الشطر، قول الحق جل وعلا: {ولا تقتلوا النفس التى حرّم اللهُ}.

ـ ـ ه ـ ـ ه ـ ـ ه ـ ه ـ ـ ه ـ ـ ه ـ ه ـ ـ ه ـ ه

ـ ه

ونحن لسنا بحاجة إلى التدليل على حرية الفاصلة فى القرآن الكريم لوضوحها.

وإن علماء موسيقى الشعر، الذين أوجدوا نظام المقاطع، تبينوا أن ثمة ثلاثة مقاطع. الصغير، وهو عبارة عن حركة، ويرمز له ـ مثلا ـ بخط أو حركة. والمتوسط، وهو عبارة عن حركة وسكون، ويرمز له بدائرة أو بالرقم خمسة. والطويل، وهو عبارة عن حركة واحدة وسكونين اثنين، ويرمز له بالرقم ٩.

وإليك هذا المثال من آية سورة الإسراء السابقة.

قال تعالى: {ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله} واقفين بالسكون على نهاية الجزئية الكريمة. هذه هي الحروف وَ لَ اْ تَ قْ تُ لُ نْ نَ فْ سَ لْ لَ تِ يْ حَ رْ رَ مَ لْ لَ اْ هـــْ ، وهذه هي العلامات بالحركة والسكون أولا:

ـ ـ ه ـ ـ ه ـ ـ ه ـ ه ـ ـ ه ـ ـ ه ـ ه ـ ـ ه ـ ه

وهذه هي العلامات بالمقاطع ـ ٥ ٥ ـ ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ـ ٥ ٥ ـ ٥ ٩.

ومن البـيّن أن المقطع الطويل يجىء فى نهاية كلام يُسكت عنده. وإن علماء موسيقى

الشعر يعلنون هذا القول ويؤكدونه.

وإن القرآن الكريم يكسر باقتدار هذه القاعدة التى قرّرها علماء موسيقى الشعر، بأن المقطع الصوتي الطويل، لا يأتى إلا فى نهاية الكلام.

إن هذا المقطع الطويل يجيء فى القرآن الكريم فى أثناء الكلام، وذلك فى هيئة المدّ المثقّل الكلمي فى علم التجويد، وذلك فى مثل قول الحقّ جلّ وعلا فى الآية الكريمة الرابعة والثلاثين من سورة النازعات: {فإذا جاءت الطامة الكبرى}.

إنّ علماء موسيقى الشعر ينبغى عليهم أن يدخلوا تعديلا على قولهم بشأن المقطع الصوتي الطويل، فى ضوء مجيئه فى القرآن الكريم فى أثناء الكلام، خلافاً لقاعدتهم التى وضعوها لهذا المقطع.

وهكذا يتبين الحاجة لتوظيف علمي العروض والقافية فى خدمة هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

أمثال العرب وظاهرة الاشتقاق:

حينما نتأمل الآية الكريمة العاشرة من سورة النازعات عن كفار مكة منكرى البعث، وذلك فى قول الحق جل وعلا: {يقولون أئنّا لمردودون فى الحافرة} نصادف لفظة الحافرة، بمعنى الحال الأولى قبل الممات.

إنّ كفّار مكة يسألون فى إنكار: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا وقبل مماتنا][١٦].

وإنه بالنظر إلى لفظة الحافرة وإلى معناها، تبين أنها جزء من مثل عربي قديم، مرّ بأربع مراحل، حتى انتهى إلى هذه اللفظة. وهذه هي المراحل الأربع.

١ـ **المرحلة الأولى:** جاء معها المثل كاملا، وهو: النقد عند الحافر، والنقد عند الحافرة. ويستعمل العربي هذا المثل حينما يضطر لبيع فرسه العزيزة عليه. والمعنى: دفع الثمن على الفورنقداً ضروري عند بيع الفرس ذى الحافر، أو الفرس ذات الحافر، أو الفرس الحافرة فى الأرض.

٢ـ **المرحلة الثانية:** جاء معها المثل كاملا، ولكنه تحوّل من مرحلة الاختصاص ببيع الفرس، إلى عموم الاضطرار لبيع كل عزيز. إنّ العزاء فى بيع أي عزيز، دفع الثمن كاملا على الفور نقدا.

٣ـ **المرحلة الثالثة:** تخلّص معها المثل من ثلثه الأول. وذلك فى مثل قولهم: التقى القوم فاقتتلوا عند الحافر وعند الحافرة وذلك معناه أنهم اقتتلوا على الفور. ويلاحظ أنّ الفورية جاءت من لفظة الحافر، إنّ الأرض الترابية التى تسير فوقها الفرس ينطبع فيها أثر الحافر. وأن هذه الفورية تستفاد من الاستدلال بأثر الحافر، قبل أن تطمسه الرّياح بالتراب الذى تحمله.

٤ـ **المرحلة الرابعة:** تخلّص معها المثل من ثلثيه، وبقيت لفظة الحافرة ـ أو الحافر ـ ومن ذلك قولهم: أتيت فلانا ثم رجعت على حافرى أو حافرتى، بمعنى أنى عدت من ذات الطريق التى جئت منها، مستدلا بأثر

الحافر، قبل أن تمحوه الرّياح، وذلك يعني العودة الفورية إنّ هذه المرحلة الرابعة والأخيرة هي التي أومأت إليها الآية الكريمة: {يقولون أئنا لمردودون في الحافرة}[١٧].

ومن البيّن أن لفظة الحافرة في الآية الكريمة، وهي ذات علاقة بعملية الحفر التي تقوم بها الفرس، هي التي بقيت من المثل، وكانت قادرة على إفادة معنى المثل كاملا، بسبب قدرة ظاهرة الاشتقاق في اللغة العربية، على جعل اللفظ المشتق، قادراً على إفادة المعنى الأصلي، وإن بَعُد العهد باستعمال اللفظ أو النص الذي يجيء فيه ذلك اللفظ. والمعنى الأصلي هنا عملية الحفر.

وبهذا يتبين أن دراسة حياة العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم، ودراسة أمثالهم، ودراسة ظاهرة الاشتقاق، التي تطّرد في اللغة العربية، بأكثر من سائر اللغات الاشتقاقية، بهذا يتبين أن دراسة كلّ هذه العوامل، أمر ضروري في محاولة فهم معنى الكتاب العزيز ومراميه. وما يقال عن النص القرآني، يقال عن سائر النصوص.

الخاتمة:

في الصفحات السابقة، حاولنا أنْ نبين بالتجربة العملية أن اللغة العربية كيان واحد، وأن علومها بمثابة أعضاء الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو واحد، تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمّى، وبمثابة البناء الواحد، يشدّ بعضه بعضا. وقد كانت بعض آي الذكر الحكيم ميداناً لتطبيق هذا المعنى. وإنّ العلوم التي أمكن توظيفها في هذه الدراسة دليل على العلوم الأخرى التي لم يتمّ توظيفها.

وإنّ ما قيل في حق النصوص القرآنية يقال في حق النصوص الأخرى.

والله تعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل وينفع به، إنه عز وجلّ جواد كريم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. والحمد لله ربّ العالمين.

(*) هذه الدراسة قدمت في ندوة (اللغة العربية تخصص واحد) التي عقدتها كلية اللغة العربية في جامعة أم القرى، بتاريخ ٢٩/٥/١٤١٦هـ ـ الموافق ٢٣/١٠/١٩٩٥م ضمن موسمها الثقافي.

الهوامش:

(١) الأعلام ١٧٨/٧ محمود بن عمر بن محمدّ بن أحمد الخوارزمي الزمخشري.

(٢) الكشاف ١٨/١.

(٣) الأعلام ١٥٢/٧ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي الأندلسي.

(٤) البحر المحيط ٣/١.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه، محمود صيافي ٢٨/٨.

(٦، ٧، ٨) القاموس المحيط: «أفّ».

(٩) انظر هنا البحر المحيط ٢٦/٦ والكشّاف ٢٢٨/٢.

(١٠) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٨/٨.

(١١) دلائل الإعجاز و.

(١٢) دلائل الإعجاز ل.

(١٣) انظر هنا تأملات في سورة الإسراء ١٠١ ـ ١٠٨ للمؤلف.

(١٤) انظر هنا تأملات في سورة الإسراء ١٠٨ ـ ١١٥.

(١٥) انظر هنا ـ مثلا ـ موسيقى الشعر ٣٠٧ ـ ٣١٠.

(١٦) انظر ـ مثلا ـ تفسير الطبري ٣٠/ ٢٢

(١٧) انظر هنا تأملات في سورة النازعات ٣٧ ـ ٤٢ للمؤلف.



عثرة لغوية مفتعلة

بدأنا نسمع في المذياع أو نقرأ في الصحف والمجلات بعض الجمل أو العبارات، وقد دخل فيها بعض الألفاظ العربية التي من شأنها أن تغير من المفهوم المراد للجملة أو العبارة. والأصل في اختيار هذه الألفاظ على ما يبدو أنه مقصود، وذلك بحجة التصحيح أو التصويب اللغوي تجنباً للعثرات اللغوية. والبحث في أمهات المعاجم اللغوية يُظهر لنا أن بعض العثرات اللغوية التي يراها بعضنا في ألفاظ عربية معيَّنة إنما هي عثرات مفتعلة.

بقلم:
د. عبد البديع حمزة زللي
جامعة الملك عبد العزيز - المدينة المنورة

ولا نريد أن نسترسل في هذا الموضوع حتى لا نطيل على القارىء. لذا فسنعرض هنا لفظة يرى البعض أن استخدامها يُعَدُّ من العثرات اللغوية التي يجب أن تُصحَّح. وتلك اللفظة هي «رئيسية» ويرى البعض استبدالها بلفظة «رئيسة».

فالرئيس كما نعرفه كلنا هو من يرأس الأشياء ويقودها ويهيمن عليها. والرئيسي هو من فيه نسبة للرئاسة، ولا يلزم أن يكون رئيساً يقود الأشياء.

ومما دعاني أن أبحث في هذا الموضوع بجدية هو أنني بعثت ببحث أكاديمي لينشر في إحدى المجلات العلمية التي تنتهج منهج التحكيم، فقبل هذا البحث[١]، إلا أن هناك ملاحظة رآها أحد المحكمين، إذ جاء في البحث عنوان: الأقسام الرئيسية، وكان رأي المحكم أنه من الأفضل أن يكون العنوان الأقسام الرئيسة. وعلى الرغم من أن هذا ما يراه أيضاً بعض المعاصرين من المتخصصين في اللغة، لكنني فضَّلت أن أرجع إلى أمهات المعاجم اللغوية كي أقف على الحقيقة من جذورها.

وعلى أية حال فبعد البحث في المعاجم اللغوية تبيَّن لنا أن العثرة اللغوية التي يراها بعضنا في استخدام لفظ رئيسية إنما هي عثرة لغوية مفتعلة. يظهر ذلك من خلال أقوال علماء اللغة حول معنى الرئيس، ونوضح ذلك فيما يلي:

معنى رئيس عند علماء اللغة:

تشير المعاجم اللغوية إلى أن معنى رئيس ومرؤس مختلف عن المعنى المعروف لدينا. فقد جاء في كتاب التهذيب للأزهري[٢] أن معنى رجل رئيس ومرؤس هو الرَّجل الذي رأسهُ السِّرْسام(*) فأصاب رأسه. وذكر

الجوهري[٣] في الصحاح: رأستهُ فهو مرؤوس ورئيس يعني إذا أصبت رأسه. كما ذكر ابن منظور[٤] في لسان العرب أن الرئيس هو الذي شج رأسه، ورجُل مرؤس يعني أصابه البرسام[**).

أما المعنى الشائع والمعروف عن الرئيس فهو من المجاز[٥]. جاء في كتاب الألفاظ لابن السكيت[٦]: يقال قد ترأست على القوم، وقد رأستك عليهم، وهو رئيسهم، وهم الرؤساء. والعامَّة تقول: رُيساء. والرَّئيس: سيد القوم، والجمع رؤساء، وهو الرَّأس أيضاً. ويقال رَيِّس مثل قيِّم بمعنى رئيس. وورد في كتاب مجمل اللغة[٧]: سحابة رائسة أي هي التي تقدُمُ السحاب. وفي كتاب الصحاح ذكر الجوهري: رأس فلان القوم يرأس بالفتح، رياسة، وهو رئيسُهُم. ويقال أيضاً: رَيِّس مثل قَيِّم، ورأستُهُ أنا عليه ترئيساً فترأس هو وارتأس عليهم. وذكر الزمخشري في أساس البلاغة رأست القوم رآسة. وترأس عليهم؛ ورأسوه على أنفسهم، نحو تأمَّر وأمَّرُوه. وذكر ابن منظور: رأس عليه كأمر عليهم، وترأس عليهم كتأمَّر عليهم، ورأسوه على أنفسهم كأمَّروه، ورأستُهُ أنا عليهم ترئيساً فترأس هو وارتأس عليهم.

من خلال ما عرضناه من أقوال علماء اللغة ندرك أن معنى الريس هو سيد القوم أو أميرهم أو هو القيِّم عليهم. ومن المجاز استخدام لفظ رئيس أو رئيسة لغير الإنسان. ويذكر الفيروزأبادي[٨] في القاموس المحيط أن الأعضاء الرئيسة هي القلب والدماغ والكبد والأنثيان.

وعلى ما يبدو أن من اعتبر أن لفظ الرئيسية عثرة لغوية قد اعتمد على قول الفيروزأبادي، غير أن الفيروزأبادي عندما أشار إلى هذا القول قد اكتفى ببيان معاني الألفاظ مجرَّدة من الشواهد والنصوص، ولذا نجد أن كلا من الزبيدي[٩] في تاج العروس، والمعجم الوسيط[١٠] قد أدركا النقص. فجاء في تاج العروس أن القلب والدماغ والكبد من الأعضاء الرئيسة من حيث ان حياة الإنسان بدونها أو بدون واحد منها لا تمكن. أما الأنثيان فقد اعتبر رئيساً من حيث النوع على أنه إذا فات فات النوع. أمّا المعجم الوسيط فقد أشار إلي أن مضمون الأعضاء الرئيسة يدل على تلك الأعضاء التي لا يعيش الإنسان بفقد واحد منها، ثم ذكر الأعضاء التي جاء بها الفيروزأبادي.

وبقليل من التدبُّر والتمعن في الأعضاء الرئيسة التي وردت عند الفيروزأبادي، وبناء على أن مضمون الرئيس يدل على من يقود الأشياء ويهيمن عليها، ندرك أن القلب والدماغ والكبد هي فقط من الأعضاء الرئيسة. إذ جعل المولى سبحانه وتعالى القدرة في هذه الأعضاء على أن تهيمن على حياة الإنسان. فلا حياة له بفقد عضو منها. ولا يكون في صحة جيدة متى أصاب أيًا من هذه الأعضاء خللٌ أو ضعف ، غير أن الأنثيين لا يمكن أن نعتبرهما من الأعضاء الرئيسة التي لا يعيش الإنسان بفقدهما. ومع ذلك فإن المولى سبحانه وتعالى قد خصَّها بمميزات مهمة تتدخل في استمرارية نسل الإنسان، وهذه الاستمرارية أو عدمها تؤثر كثيراً في حياة البشر وسلوكياتهم. لذا فهي تتصف بأشياء من مميزات الرئيس الذي يترأس حياة الإنسان بقدرة الله تعالى، ولا تتصف بالرئاسة ذاتها

المتمثلة في القلب والدماغ والكبد. ونجد ما يؤكد ذلك في كتاب تاج العروس إذ قال الزبيدي: «ومن قال أن الأعضاء الرئيسة وهو مرتبط تمام الارتباط بالأنثيين. ومن هنا فاعتبار الأنثيين من الأعضاء الرئيسة غير صحيح، وإنما هي من الأعضاء الرئيسية، أي فيها نسبة إلى الرئيس.

وكي نوضح كيفية الوقوف بسهولة على مدى أهمية أعضاء الجسم المختلفة يمكننا أن نصنفها كما يلي:

١ ـ أعضاء رئيسة: لا يمكن أن يعيش الإنسان بدونها أبداً كالقلب والمخ والرئتين والكبد.

٢ ـ أعضاء رئيسية: وهي تؤثر في حياة الإنسان ولها دور أو أدوار من أدوار الأعضاء الرئيسة ومنها ما يقطع النسل فلا حياة جديدة لإنسان جديد يأتي عندما يفقد الإنسان أحدهما لكنه يستطيع أن يعيش هو بدونها، ومن هذه الأعضاء الذكر والأنثيان والرّحم والمبيضان.

٣ ـ أعضاء مهمة: يحتاجها الإنسان كي يتحرك ويمشي ويتناول بها الأشياء. وهذه تتمثل في الأطراف ويستطيع الإنسان أن يعيش بدونها أو بدون أحدها، كما يستطيع أن يحافظ على نوعه حتى وإن فقدها جميعاً.

وعليه يظهر بوضوح أن الأعضاء الرئيسة شيء والأعضاء الرئيسية شيء آخر.

والمنسوب كما هو معروف في علم اللغة يأخذ ميزة أو عدة مميزات من المنسوب إليه، أو قد يكون له صلة أو علاقة به كأن تقول هذا الشيء برتقالي نسبة إلى البرتقال لأن لونه يبدو كلون البرتقال، ولا يمكننا أبداً أن نقول هذا الشيء برتقال حتى وإن أخذ صفة من صفات البرتقال.

ولقد ذكر الدكتور عباس حسن[١١] عضو مجمع اللغة العربية في كتابه النحو الوافي أن زيادة الياء على الأسماء كمحمدي ومصري ومكي.. تؤدي إلى زيادة معنوية كبيرة، إذ يصير اللفظ بهذه الصورة مركبا من الأسم الذي يدل على مسماه ومن الياء المشدَّدة التي تدل على أن شيئا منسوباً لذلك الاسم. وأوضح الدكتور عباس هذه العبارة بقوله: «أي: مرتبطاً به بنوع من ارتباط يصل بينهما، كقرابة، أو صداقة، أو نشأة، أو صناعة.. أو غيرها من أنواع الروابط والصِّلات» ثم قال: «والمنسوب والمنسوب إليه شيئان بالرغم من الاختصار اللفظي المبين».

ولو تأملنا في آيات القرآن الكريم وضح لنا أن المنسوب يُذكر ويُؤنث كلفظ «شرقي» و«شرقية» مثلا. ففي سورة مريم يقول المولى سبحانه وتعالى: {واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً} ويقول سبحانه في سورة النور: {يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية}.

ومن هنا يظهر لنا أن اللفظ المذكَّر المنسوب إلى رئيس هو رئيسي، وأن اللفظ المؤنث المنسوب إلى رئيس هو رئيسية.

وقبل أن نختم هذا الموضوع نذكر هنا مثلا واحداً يوضح لنا كيف أن استبدال لفظ رئيسية بلفظ رئيسة يؤدي إلى تغيير مضمون الجملة أو العبارة. فالكليات أو المعاهد مثلا تشتمل على أقسام مختلفة كقسم الفنون وقسم الرياضة وقسم العلوم، وغيرها من الأقسام. وقد تبرز

بعض هذه الأقسام في الكلية أو المعهد بنشاطات وأبحاث ودراسات تجعلها تهيمن على بقية النشاطات الأخرى الموجودة في الكلية أو المعهد. ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه الأقسام تُعتبر من الأقسام الرئيسية فهي متميزة عن غيرها من الأقسام ببعض مميزات الريادة. إمَّا إن قلنا إن هذه الأقسام من الأقسام الرئيسة، فهذا الأمر يخالف الواقع. فحسب ما ندركه من أقوال علماء اللغة أن الرئيس هو من قاد الأشياء وهيمن عليها. والأقسام التي برزت بنشاطاتها هي كالأقسام الأخرى، لا تملك الصلاحية التي تجعلها تقود الأقسام الأخرى في كل أمورها. لذا فقولنا إنها من الأقسام الرئيسة يوحي بأنها من الأقسام التي تدير وتهيمن على جميع أمور الكلية أو المعهد، مما يؤدي إلى تغيير المراد من الجملة أو العبارة. غير أن هذه الأقسام بتميزها ببعض صفات الرئاسة استحقت أن تنسب إليها. فيجب علينا إذاً أن ندرك هذا الخطأ لأننا إن لم نفعل ذلك فكأنما نقول على الشيء البرتقالي هذا برتقال، والمكي هذا مكة، وهكذا..

وعلى أية حال فإننا نجد في الغالب أن معظم الأمور والمسائل والقضايا التي تبرز للمجتمعات المختلفة إنما هي أمور ومسائل وقضايا رئيسية وليست رئيسة.

الخلاصة:

مما تقدَّم شرحه ندرك أن لفظ رئيسية لفظٌ صحيحٌ منسوب إلى رئيس. وهو يدل على الاشتمال على شيء أو أشياء من مميزات الرئاسة. ولهذا فإن المقصود من الجملة أو العبارة هو الذي يحدد اختيار اللفظ المناسب كلفظ رئيسية أو رئيسة مثلا. فإن كانت الأشياء التي نريد أن نظهرها ونبرزها تقود غيرها وتهيمن عليه فهي أشياء رئيسة. وإن لم تكن كذلك ولكن تميزت ببعض مميزات الرئاسة فهي أشياء رئيسية.

الهوامش:

(١) زللي، عبد البديع حمزة «مصطلحات عربية لأقسام التلوث البيئي بالأشياء الدخيلة غير المادية» مقبول النشر، مجلة الملك عبد العزيز، كلية التربية، ع٩.

(٢) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (٢٨٢ - ٣٧٠هـ) تهذيب اللغة. تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

(٣) الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٤) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (٦٣٠ - ٧١١هـ) لسان العرب. ط١، بيروت: دار صادر ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

*) السِّرسام: هي العلَّة إذا كانت في الرأس. (انظر لسان العرب، مادة برسم).

(**) البرسام: ذات الجنب. وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة. (انظر المعجم الوسيط مادة برسم).

(٥) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨هـ) أساس البلاغة. تحقيق عبد الرحيم محمود، ط١، القاهرة: مطبعة أولاد أوفاند، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

(٦) ابن سكيت، أبو يوسف يعقوب (ت٢٤٤هـ) كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ. تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، بيروت: المطبعة الكاثوليكيه للآباء اليسوعيين، ١٩٨٥م.

(٧) ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت ٣٩٥هـ). مجمل اللغة. دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٨) الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (٧٢٩ - ٨١٧هـ) القاموس المحيط، ط٢، بيروت: دار المعرفة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

(٩) الزبيدي، محمد مرتضي. تاج العروس. دار مكتبة الحياة، د.ت.

(١٠) مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(١١) حسن، عباس. النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة. ط٢، مج٤، باب النسب، القاهرة: دار المعارف، د.ت

سموم وهموم: [٢]

المخدرات من الناحية العلمية وأنواعها:

لقد اصطلحت الهيئات العلمية على اعتبار أن المخدر هو كل مادة تحتوى على عناصر تحدث تأثيراً فى عقل الانسان وعواطفه سواء أكان هذا التأثير مسكناً أو منبهاً.

وتصنف المخدرات حسب مصادرها إلى صنفين:

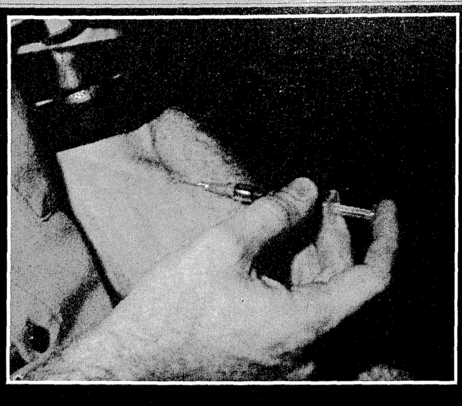
(١) المخدرات الطبيعية: وهى التى تؤخذ من بعض النباتات كالحشيش والخشخاش والقات ونبات الكوكا. والبنج.

(ب) المخدرات التخليقية (الصناعية) وهى التى تحضر بطريقة كيميائية - وهي تصنع فى المعامل. ويمكن للصيادلة أن يبتكروا الكثير فى هذا المجال وهى من أسرار مهنتهم، فليتقوا الله فى خلقه - وتؤثر هذه المواد المخدرة الصناعية على الأجهزة العصبية وتنقسم إلى الآتى[١]:

آفة العصر

احمد اسماعيل عبد الكريم
- مصر -





المواد المنومة ـ المواد المدلفة ـ المواد المنبهة ـ المواد المهلوسة».

كما أن هناك أنواع المسكرات التى يمكننا أن نضعها فى جملة المخدرات التخليقية، وهى تختلف فى طريقة تحضيرها، فمنها الكحول المثيلي ومنها الاثيل، اما المثيل (السبرتو) فهو شديد الخطورة إذ يؤثر تأثيرا شديداً على اطراف الأعصاب ويؤدي إلى التهاباتها المختلفة، ويشعر المدمن بآلام شديدة فى الأعصاب وتصيب هذه الأنواع شبكية العين وتؤدي إلى فقدان النظر، اما الاثيل فأنواعه مختلفه وتركيزاته مختلفه كذلك ولكن كل هذه الأنواع والتركيزات لها تأثيرها الضار على الكبد والجهاز العصبى والجهاز التناسلى.

أولا: المخدرات الطبيعية: وهى كما أسلفنا المخدرات المشتقة من النباتات المخدرة.

الافيون:

ويسمى أيضاً خشخاش منوم وهو نبات مخدر طول شجرته تتراوح بين ٧٠ ـ ١١٠ سم وأوراق الشجرة يتراوح طولها بين ٤ ـ ٥ سم ذات لون اخضر فاتح ذات أطراف مدببة ومتعرجه ولا تحتوى على مواد مخدرة، وحبوب النبات صغيرة ذات لون أبيض مصفر وبعضها رمادى مزرق ومن العجيب أنها تستخدم فى صناعة أرقى أنواع البارفانات وبعض الالوان والزينة المنزلية، كما تستخدم الحبوب فى صناعة الحلويات وهى لا تحتوى على مواد مخدرة ولا يوجد حظر دولى على تداولها، وازهار الخشخاش أو الأفيون بنفسجية اللون ومنها الأحمر القرمزى وهى لا تحتوى على مواد مخدرة وتجدر الاشارة الى أن أوراقها وثمارها غير الناضجة بها سائل ابيض كريه الرائحة[٢] وهو الافيون. والجزء السام منها كما يقول الدكتور امين رويحه.

«فى الاوراق والاثمار الخضراء، غير الناضجة، اما البذور الكاملة النضج فغير سامة ومن العجيب أن يستخرج منها زيت للأكل.

والمواد الفعالة فى نبات الخشخاش: الأفيون والمورفين والكودئين والثيبائين والبابافرين والناركوتين والنارسئين وكلها من المخدرات[٣] وتتركز هذه المواد المخدرة على جوانب أو اطراف الثمرة وفى الجزء الأعلى من الساق[٤] بنسب تتراوح بين واحد فى المائة الى عشر وزنها وهو ما يسمى «بالافيون النقى» ومن الأحرى أن نطلق

عليه خام الأفيون وليس الأفيون النقي لأنه ليس أفيوناً خالصاً بل يتركب من تلك المكونات الاساسية التى يمكن فصلها وتشكل مخدراً آخر بذاته.

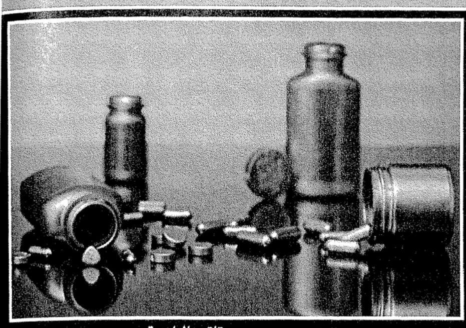
ولون العصارة - خام الافيون - أبيض مصفر وبعضها اخضر داكن ويتراوح طولها بين بوصة وأربع بوصات، وهى ذات شكل دائرى[٥] ولاستخراج الافيون من الثمار تخدش رؤوسها، فتسيل عصارة لبنية لزجة مرة المذاق وهى ذات لون أبيض تتأكسد مع الهواء، فيتحول لونها الى اللون البنى الداكن، وذات رائحة نفاذة ويتم جمع هذه العصارات قبل طلوع الشمس حتى لا يصعب فصلها عن النبات إذا جمعت بعد ذلك.

المورفين:

يشتق المورفين من الأفيون. عصارة الخشخاش - أو مباشرة من كبسولة الخشخاش نفسها وتتركز أهمية استخلاص المورفين فى كونه المادة الأولية للهيروين هذا ويدخن الهيروين، أو يستنشق عن طريق الأنف، أو يبتلع ويؤخذ عن طريق الحقن[٦].

الحشيش:

يتم زراعة نبات القنب الهندى - كما يطلق عليه واسمه العلمى كانابيس ساتينا[٧] ويطلق عليه الماريجوانا ويتم استخراج هذا المخدر من أوراق أزهار النبات، ولون هذا النبات أخضر وليس له رائحة المادة المخدرة إلا إذا تم حرقه،



عقاقير الهلوسة

ويمكن زراعته فى جميع أنواع الأراضى، ويبلغ ارتفاع شجرته حوالى ٨ أقدام والأوراق مركبة طولها من ٦ - ٨ بوصات ذات أحرف مشرشره، وشجيرات القلب نوعان مذكرة ومؤنثة، المذكرة وتنتج حبوب اللقاح والمؤنثة وتنتج الحبوب[٨] ولسهولة التركيب يتم تحويل الحشيش الى مادة زيتية تسمى زيت الحشيش، وهو سائل لزج أخضر اللون ويمكن إذابته فى الماء ويتجمد إذا تعرض للهواء لفترة طويلة.

الكوكايين:

ويستخرج من نبات الكوكا ويقوم بعض المدمنين باستنشاقه فى صورته الفضية البلّورية كما يتم تعاطيه عن طريق الحقن بالوريد وذلك بالاضافة إلى قيام البعض بمضغ أوراق الكوكا[٩].

الكراك:

ومازال صناع الموت، تجار الادمان يتفانون فى تصنيع المخدرات وترويجها لاغراق الاسواق بأصناف وألوان مختلفة وأشد خطورة؛ لجذب اكبر عدد من المدمنين وتؤثر مباشرة على العقل،

وقد تم حديثاً استخلاص مخدر جديد يسمى «الكراك»[١٠]، وهو مخدر منشط قوى المفعول يتم استخلاصه من الكوكايين، وقد بدأ يظهر فى الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٨٤م ثم انتقل إلى كندا وبعض دول أوروبا ثم إلى بعض دول أفريقيا، ويتميز هذا المخدر عن غيره من المخدرات انه رخيص الثمن، لجذب اكبر عدد من المدمنين وأسرهم ولذا يؤكد بعض المحللين أن هذه الخاصية ستنكسر على أرض الواقع حين تزيد قاعدة المدمنين عليه فيقول: «إنه على الرغم من رخص ثمنه فى بداية الأمر إلا أنه يمكن أن يغدو غالى الثمن جداً فيما بعد، وقد قال جان لانجدون[١١] مدير الاعلام العام فى مركز المعالجة من المخدرات فى مدينة نيويورك أن الشعور بالنشاط والخفة شعور قصير العمر وهو يحدث توقاً شديداً إلى المخدر مرة بعد مرة.

وقد وجد عند مقارنة شم خط من مسحوق الكوكايين بتدخين غليون من الكراك أن مستعمل الكراك يتناول أربعة إلى ستة أنفاس فى المدة الزمنية نفسها وسرعان ما يغدو معتاداً ويصرف مئات الدولارات فى اليوم الواحد.

والسمة الثانية التى يتميز بها الكراك وتعد أيضاً أداة جذب وتكوين قاعدة عريضة من المدمنين هى سهولة الاستخدام، ذلك بالاضافة الى أنه يسبب الادمان بدرجة عالية نظراً لاحتوائه على المواد الفعالة المستخلصة من مادة الكوكايين نفسها، فهو خلاصة خلاصة المادة الفعالة للكوكايين، مما يساعد على جعل مادته اكثر جذباً وأسراً لاكبر عدد من المدمنين.

ويؤكد على سهولة استخدامه أحد منتجى الافلام التليفزيونية فى نيويورك ممن عانوا الادمان على الكراك قائلا: «انه كالقهوة الآلية، مسبق الصنع»[١٢].

فتجار المخدرات لا يحتاجون إلى معمل أو مختبر لصنعه، بل إلى مطبخ وموقد وهذا هو السبب فى ان أغلبه ينتج فى شقق صغيرة يستأجرها تجار المخدرات. وبهذا يمكن التمويه والمراوغة لضباط مكافحة المخدرات. ويؤدى إلى صعوبة ضبط هؤلاء التجار.

ويقول مدير البحث من أجل خط الهاتف الخاص المتعلق بالكوكايين ملخصا هذه الفتنة بالكراك «أنه منتج جديد لا فوضى معه ولا ازعاج ولا تأخير[١٣]».

كما يبدو جلياً أن الناس ذوى الخبرة المحدودة بالمخدرات لا يخافون كثيراً عندما يتناولون عدة «شفطات» من الغليون أو السيجارة لانهم يخافون من تناول الحبوب أو خرق إهابهم بالإبر خشية العدوى من الأمراض التى يمكن ان تنتقل من شخص إلى آخر.

كما أن الشائعات التى يروجها صناع المخدرات هى نفسها بمثابة الدعاية والاعلان لجذب اكبر مساحة من المدمنين إليه واغراق السوق به وذلك لأنه شاع أخيراً فى الشوارع أن الكراك يقوى وأنه الأجود من أجل الاسترسال فى الانشراح واثارة الجنس فى حين أنه على العكس من ذلك تماماً؛ لأن النتيجة هى غالباً كغيره من انواع المخدرات يؤدى إلى البرودة الجنسية والعنة.

قاعدة الفضاء :

من مشتقات الكراك ما يطلق عليه البائعون المتجولون اسم قاعدة الفضاء أو سرعة النجوم وفى اعتقادنا ان لاطلاق هذا الاسم دلالة وهى أن مستعمله يعيش فى دنيا الخيال اكثر مما يمكن تصوره، فهو يترك الواقع ويجنح بعيداً بخيالاته نتيجة لتأثيره الشديد فى خلايا المخ، وهذا المشتق مزيج من الكراك والفنسكليدين،

وهو من اكثر المخدرات قوة فى تعطيل الذهن ويقوم مستعملوه غالباً بتصرفات غريبة شاذة ويغدون عنيفين كما أنهم يعانون مرضاً ذهنياً خطيراً[١٤].

طريقة تحضيره:

وعملية تحضيره ليست بالأمر الصعب، فهى كالكراك لا تحتاج إلى معمل أو مختبر ويقوم المحضر بنقع كتل الكراك فى الفنسيكليدين السائل أو يذر مسحوق الفنسيكليدين على الكتل ثم يباع الناتج المميت إلى المستعملين الذين يدخنون الكراك فى سيجارة أو غليون الماء.

وتجدر الإشارة الى أن هذا المخدر أشد خطراً من الكراك الذى هو أشد خطراً من الكوكايين والذي يعود سبباً لكثير من الأمراض المستعصية التى يصعب علاجها.

فهذا المخدر يمكن أن يسبب الجنون ونوبات مرضية ودواراً وهلوسات وسلوكاً ضالا وعنيفاً. وقد اكد أحد ضباط التحرى فى مدينة نيويورك واصفاً قاعدة الفضاء أو سرعة النجوم أن تاجر المخدرات أكد له عندما باعه المخدر: «خذ حذرك منه؛ لأنه يشيع فعله فيك بسرعة فائقة»[١٥].

يقول المدعى العام المتخصص بالمخدرات فى الولايات المتحدة فى نيويورك «يعد الكراك بالنسبة إلى الكوكايين كالقنبلة الذرية بالنسبة الى القنبلة العادية»[١٦].

القات:

نبات مخدر يزرع ويتعاطى بطريقة التخزين - اى المضغ الطويل ولا يلفظونه إلا عندما تذوب مادته[١٧].

البنج :

من جنس النباتات المخدرة وهى عشبة يبلغ ارتفاعها نحو ٣٠ - ٦٠سم معمرة جذرها مخروطى كالجذر وساقها لزجة ومكسوة بشعيرات دقيقة لزجة، وكذلك أوراقها الكبيرة والمجنحة والمسننة والسفلى منها، لها ساق متوسطة الطول، والعليا عديمة الساق أزهارها نجمية مخمسة ، لونها أصفر عكر او بنفسجى فاتح، ومعرقة بخطوط حمراء ومتراصة، اقداحها جرسية الشكل بسوق قصيرة، أثمارها أكياس تحوى بذوراً كلوية الشكل، صغيرة سمراء وللعشبة رائحة كريهة تثير القرف.

والمواد الفعالة فيها هيئوتسوآموس وسكوبول مين، وكلاهما سم زعاف شديد الخطورة[١٨].

تلك هي المخدرات الطبيعية، والمخدرات المشتقة من الأصل الطبيعى فى دنيا المخدرات المعروفة لدى تجار المخدرات ولدى الباحثين فيها من مروجى الموت الذين لن تنتهى بحوثهم فيها عند هذا الحد. بل سيأتون كل يوم بجديد.

ثانيا: المخدرات التخليقية (الصناعية):

وهذا النوع من المخدرات يصنع فى المعامل والمصانع وقد يصنع فى الصيدليات بطريقة كيميائية وقد ثبت بالفعل نجاح بعض الصيادلة فى تصنيع هذه المواد المخدرة وترويجها بين المتعاطين بمساعدة تجار المخدرات دون مراعاة لحرمة المهنة. وتمثل المخدرات ثلاثة انواع:

المهبطات:

«الباربتيورات» وعلى رأسها مشتقات حامض الباربتيورات. ومن بينها السيكونال والدورودين وتكون عادة على شكل أقراص وكبسولات ذات ألوان وأحجام مختلفة ومن هنا جاءت التسمية الشعبية، الأقراص المخدرة أو الحبوب المخدرة وكثيراً ما يصف الأطباء المنومات للمريض لتهدئة أو جلب النوم له على أنه ينبغى أن يقتصر فى

تناول هذه المنومات على الحد الذي يقرره الطبيب من حيث الكمية والمدة(١٩).

المنشطات:

«الامفتيامنيات» ويقصد بها مجموعة المواد المصنعة التى تنتمى كيماوياً وفارماكولوجيا إلى مجموعة كبيرة من الأمينات المنشطة للجهاز السمبتاوى[٢٠] وهذه الامفيتامينات التى شاع تعاطيها وكثر استعمالها تكون فى الغالب على شكل اقراص وكبسولات ذات اشكال مختلفة واحجام متفاوته وألوان متعددة وتستعمل طبياً فى علاج الانهيار العصبى، وكذلك في زيادة الوزن وذلك لدفع المتعاطى منها للاقلال من تناول الطعام. وثمة مخدر جديد تم تخليقه حديثاً يجمع بين المنشطات والمهلوسات وهذا المخدر يسمى «الآيس» وهو مستحضر منشط يشبه دقائق الجليد أو الزجاج المكسور، أو السكر وقد بدأ ظهوره فى دول شرق آسيا ثم انتقل منها عبر هاواى إلى الولايات المتحدة ويتم تعاطيه إما بالحقن أو بالتدخين ويؤدى إلى الهزال والهذيان والهلوسة، ثم إلي الموت[٢١].

اما آخر المنتجات التى خرج بها صناع الموت إلى أسواق الادمان فهو مخدر «الامفيتامين السائل» وقد تم ضبط هذا النوع القاتل فى مدينة سيدنى باستراليا العام الماضى وهذا السائل يشبه الدم إلى حد كبير ويتم تعاطيه عن طريق الحقن ويعد هذا النوع الاكثر فتكاً بين جميع انواع المخدرات الجديدة[٢٢].

المهلوسات:

عقاقير الهلوسة. ومن أشهر هذه العقاقير س.د. وقد ارتبط استعمال هذه العقاقير بحركة الهيبز وهم أولئك الشباب الذين ينادون بالفوضى فى الحب والسلام والاستعمال الطبى للمهلوسات



حقن المخدرات ونقل العدوي

محدود للغاية وقاصر على الابحاث التى تجرى في المصحات والمستشفيات والمعاهد العلمية ومراكز البحوث الطبية على الاضطرابات العقلية ولذا ينبغى مراعاة الاحتياطات التامة والحذر الشديد من هذه المواد والالتزام الصارم بما يقرره الطبيب الاخصائى منها لدواعى العلاج زماناً ومقداراً حتى لا تكون النتائج عكسية.

ولا يزال البحث والابتكار والتفنن فى تصنيع المخدرات شيئا لا يمكن صده أو الحد من التوسع فيه، فقد تم ابتكار عقار جديد «الاكستازى» عقار النشوة.. يؤدى إلى الموت والخلاص من الحياة نتيجة الاضطرابات العقلية بالاضافة إلى مخدر «البيولين» الذى يعد أهم

مستحدثات تجار الموت ويؤكد ذلك اللواء السيد غيث أن هذا العقار أصبح اكثر انتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا، لأن هذا المخدر له تأثير مباشر على القوة العقلية بحيث تؤدي زيادة الجرعات منه إلى الجنون. وهكذا نجد ان التقسيم العلمي يجعل الخمر والمخدرات صنوان لا يفترقان ولا فرق بين أن تكون الخمر واحداً من المخدرات أو العكس لأن النظرية معروفة والاحاديث الشريفة الدالة على ذلك واضحة لا غموض فيها ولهذه الحقيقة العلمية أهمية كبرى وحيوية عندما نتحدث عن رأى الدين في المخدرات.

الأخطر والانكى:

بعض الفلاسفة يقول خير عادة ألا يكون للمرء عادة فخطورة المخدرات تكمن في إدمانها.. اذ لا يستطيع المدمن أن يترك تعاطي المخدرات بسهولة حيث أن لها قدرة سحرية على الانتشار بسرعة رهيبة للوصول بالمدمن إلى حالة الإدمان التي لا يستطيع المدمن الفكاك منها ثمة أسباب كثيرة منها:

- عندما تدخل المخدرات الاوعية الدموية ينتقل تأثيرها إلى موقع الخطر الكامل وهو الجهاز العصبي المركزي والمخ حيث إن المخ أهم عضو في تكوين الانسان.

يقول الاستاذ الدكتور عماد فضلي أستاذ الأمراض العصبية والنفسية بطب عين شمس[٢٣) أن جميع المركبات المستخلصة من الأفيون لها تأثير مباشر على أماكن معينة في الجهاز العصبي تمثل المستقبلات موجودة على جدران الخلية العصبية وهذه المستقبلات تعمل على استقبال المواد الكيمائية التي يصاحبها أثر مباشر وسريع نظراً لسرعة تمثيل الكوكايين في الجسم.

- ان الجهاز العصبي وملحقاته تتأثر بالمسكرات والمخدرات التي تصل إليه عن طريق الفم أو الأنف أو عن طريق الحقن، فعندما تأخذ دورتها ويأتي دورها لتدخل نواة الجهاز العصبي وتعايش مادة الحياة البروتوبلازم نشاهد بالمناظير المكبرة أن هذه المادة الحية تضطرب وتبعاً للمواد السامة التدخل إلى أجسام الخلايا العصبية فمنها ما يسرع بحركة المادة الحية ومنها ما يقلل من الحركة ومنها ما يثير الحركات التشنجية وكل هذه المؤثرات لها محصلة واحدة هي التنبية الشديد أو التهدئة الشديدة أو ما يؤدي الى التوتر أو ما يؤدي إلى الهلوسة واضطراب الأحاسيس وكأن الانسان يرى بالأذنين أو يسمع بالعينين، أو يلمس باللسان والشم نتيجة اضطراب وظائف الانسجة واضطراب التوصيلات الكهربية في هذا الكيان العصبي المنظم والمتناهي في الدقة[٢٤).

ماهية الادمان:

الادمان هو حالة تسمم مزمن أو دوري ينتج عن تكرار تناول العقار بالفم، أو بالحقن، أو الاستنشاق ومن مظاهر الادمان أن تعتري المدمن رغبة عارمة مسيطرة ملحة في تعاطي العقار مع ازدياد تدريجي للجرعة حتى يشعر المدمن بالتأثير المطلوب وهو الانتشاء أو الشعور بالقوة الذي يحسه المدمن مع الجرعة الأولى وعليه إذا امتنع المتعاطي عن تناوله للعقار فإنه تظهر عليه اعراض الانسحاب الرهيبة التي تختلف حسب نوع العقار وقد تصل بالمدمن الى حد الوفاة في كثير من الأحيان ومعنى الادمان-

الاعتماد الطبيعي على المخدر - فالمدمن يصبح أسيراً للمخدر فلا يمكنه أن يستغني عنه أو يعيش بدونه إذا لم يجده أو لم يتعاطاه يتعرض لآلام مبرحة واعراض مفجعة تؤدى إلى الموت[٢٥].



الماريجوانا

سر الادمان:

تقوم خلايا المخ بافراز مواد كيميائية تسمى «الاندروفين» أو أفيونات المخ هذه المواد التى يفرزها المخ ذاتيا لتسكين الآلام الناشئة عن العمليات الحيوية الطبيعية بالجسم، وفى حالة تعاطى أية مواد مخدرة تتوقف هذه الخلايا عن افرازاتها ثم يحدث لها عملية كسل ثم تتوقف عن الافراز تماماً ويعتمد الجسم كلية على المخدرات الخارجية فإذا توقف الشخص عن تناول المواد المخدرة يشعر بألام شديدة وعدم القدرة على القيام بأى أعمال أخرى وفى بعض الاحيان يصاب باسهال وقيء ونقص ولذلك يضطر لتناول جرعة اخرى[٢٦].

(للموضوع صلة)

الهوامش:

(١) الدين والعلم فى مواجهة المخدرات.

(٢) أمين رويحه - التداوى بالأعشاب ص ٤٣٦. قسم الاعشاب السامة.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٣٦.

(٤) مجلة الشاهد عدد ٨٩ ص ٢١٤.

(٥) عبد العزيز محمود مجلة النصر العدد ٥٩٩ ص ٣٧، المستشار عزت حسانين المسكرات والمخدرات بين الشريعة والقانون.

(٦) حامد جامع - عقيد/ محمد فتحى عيد ، المخدرات فى رأى الاسلام ص ١٣.

(٧) نفس المرجع ص ١٤.

(٨) مرجع سابق ص ٣٩.

(٩) مرجع سابق ص ١٤.

(١٠) جريدة اخبار الحوادث عدد صادر فى ١٩٩٣/١٠/٢١م الجديد فى عالم المخدرات اللواء/ السيد غيث.

(١١) الكراك يباع كأنه صابون وخطورته كالقنبلة الذرية، د/ صلاح يحياوى الفيصل ع ٢٠٠.

(١٢) نفسه ص ٨٤.

(١٣، ١٤) مرجع سابق ص ٨٣، ص ٨٤.

(١٥) الكراك د/ صلاح يحياوى الفيصل ع ٢٠٠ ص ٨٤.

(١٦) السابق ص ٨٣.

(١٧) ادوارد الذهبى جرائم المخدرات فى التشريع المصرى ط ١٩٧٨م.

(١٨) دكتور/ أمين رويحه/ التداوى بالاعشاب ص ٤٢٨ فى الجزء الخاص بالأعشاب السامة.

(١٩) المسكرات بين الشريعة والقانون - مرجع سابق.

(٢٠) أنور عبد الحميد - سوء استعمال الامفيتامينات.

(٢١) اخبار الحوادث العدد الصادر فى ٩٣/١٠/٢١ مع اللواء/ السيد غيث.

(٢٢) مرجع سابق/ اللواء سيد غيث.

(٢٣) جريدة الأهرام ١٩٨٥/١٠/٢٩م.

(٢٤) الدين والعلم فى مواجهة المخدرات ص٩٥.

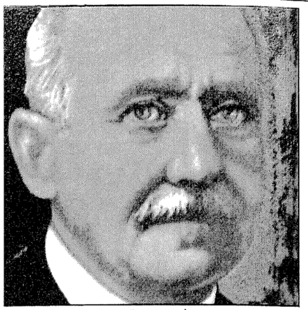
(٢٥) البيان - ابراهيم عبد الباقى ص٤٥.

(٢٦) مرجع سابق.

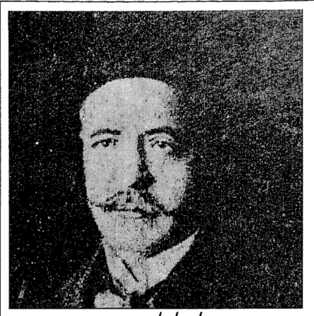
رجال في الذاكرة ٣٨

خليل مطران

كنت فى سنوات القسم الابتدائى بالأزهر أجد أسماء الشعراء الثلاثة شوقى وحافظ ومطران تتردد على الأفواه، وكان لديّ ديوان الشوقيات وديوان حافظ، أما ديوان مطران فقد قيل لى حينئذ إنه طبع فى أوائل هذا القرن، وقد أصبح العثور عليه شاقا، فجعلت أرقب ما ينشر له فى الصحف إذ كان مُمتَّعاً بالحياة، ثم وقعتْ فى يدى مجلة الهلال، فطالعتُ بها قصيدة ممتازة، تحت عنوان (إنّ من البيان لسحرا) تتحدث عن عذارى فى سن العشرين حذرتهن أمهاتهن عن لقاء ساحر بضاعته الشعر، فخالفن النصيحة، وسعين لاستماع شاعر وصف فى شعره معركة حربية بين فتى عربيّ شجاع، وفتى آخر ملثّم، وقد انتهت المعركة بفوز الفتى الملثم، الذى اتضح أنه فتاة جميلة ذات بسالة، ثم انتقل الشاعر الى قصة قيس العامرى فأبدع فى سرد مأساته، ولم يكد ينتهى من حديث قيس حتى ملَك ألباب السامعات وجذبهن إلى حبه بما نفث من سحر، وجاء فى ختام القصيدة عنهن:



احمد شوقي



اسماعيل صبري

فبكين قيساً ترحة
وحَبَبْنَهُ ملء الضمائر
ثم انثنين مكفكفات
دَمْعَهُنّ عن المحاجر
كل تقول بلحظها
يا قيس إنى بنت عامر
تالله أنصفت النوا
صح ليس هذا غير ساحر

قرأت القصيدة فوجدت نمطاً من التصوير الشعرى لا عهد لى به، إذ تحدث الشاعر الكبير عن تأثير الشعر من خلال قصة عاطفية سحرت ألباب الآنسات فَهِمْن به، وكذلك يكون السحر من البيان، والقصائد التقريرية مهما أطالت لن تبلغ مبلغ هذا الإيحاء التأثيرى تدليلا على مكانة البيان وشدة أثره فى النفوس!

(مختارات الزهور):

أخذت بعد استمتاعى بهذه القصيدة أبحث عن آثار الشاعر الكبير ما استطعت، ثم اهتديت إلى كتاب يجمع مختارات لأعيان الشعر المعاصر تحت عنوان (مختارات الزهور) والزهور مجلة كان يصدرها الأستاذ أنطون الجميل، وقد ضمت قصائد ممتازة لكبار المعاصرين من أمثال شوقى وصبرى وحافظ ومطران ومحرم وبشارة الخورى وشبلى ملاط وولي الدين يكن وغيرهم، ثم رأى الأستاذ الجميل أن يختار من شعر هؤلاء قصائد فى مجموعة خاصة سمّاها (مختارات الزهور) وقد جمعت عدة قصائد ممتازة للشاعر الكبير خليل مطران، فأقبلت على استظهار كل ما



بقلم :
أ. د. محمد رجب البيومى
- المنصورة -

جاء في المختارات، ووجدت مطران هو مطران في إبداعه القصصي النادر، وكانت قصيدة (الوردة والزنبقة) مما ملك عليّ إعجابي بالشاعر، حيث أراد أن يتحدث عن حبيبين متجاورين في المسكن، ولكنهما متباعدان في اللقاء، فلم يقل مثل ما قال *الصولي* مثلا:

وإن مقيمات بمنعرج اللوى
لأقرب من ليلى وها هي دارها

* ولا مثل ما قال *أبو العلاء*:

فيادارها بالحزن إنّ مزارها
قريب، ولكن دون ذلك أهوال!

ولكنه جاء بوصف تصويريّ خالب، لوردة جميلة تُجاور غصنا يحمل زنبقة، فكانا يتعانقان إذا هب النسيم، ثم صلب العود فلم يعد يميل الى حبيبته الوردة، وقاسى الجاران من هول الصدّ مقاساة عبَّر عنها والد الفتاة حين خاطب ابنته بقوله على لسان *مطران*.

فقد جاورت هذي الوفية إلفها
إذ الإلف مياس المعاطف أميل
فكان إذا مرت به نسم الصبا
يُسرّ إليها سرَّ من يتغزلُ
يداعبها جُهد الصبابة والهوى
ويعرض عنها لاعباً ثم يُقبل
ويرشف كل من جبين حبيبه
دموع الندى خمرا رحيقا فيمثل
ولكنه لم يلبث الغصن أن جفا
فلم تثن عطفيه جنوب وشمال

وعما قليل يقضيان من الأسى
وإن صح ظني فهي تهلك أوّلُ

* وما سمعت الفتاة قول أبيها حتى قالت في خاطرها الملتاع:

فوارحمتا هذي حقيقة حالنا
رآها أبي في الزهرتين تُمثّل
بكى جزعاً للزهرتين ولو درى
لصان لنا الدمع الذى راح يبذل
هما صورتانا في الهوى وحديثُنا
حديثُهما بين الأزاهر يُنقل

أجل ملكت عليَّ هذه القصيدة منافذ شعوري فأصبحت أرى مطران شاعر العصر الأول، وجعلت أترصد شعره في مظانّه الحقيقيّة، وأقول الحقيقية لأنه اضطر في سنواته الأخيرة أن يلبي دعوات التأبين والتكريم فكان يتكلف في بعض الأحيان، وله عذره، لأن مثله في سماحته كان لا يرفض رجاء راج يأمله، أما المظانّ الحقيقية فهي مجلات الأدب، وديوانه الذى صدر في الأربعينيات في عدّة أجزاء حافلا بروائعه وقد جمع كل ما قال مخلصاً ومجاملا وعلى القارىء أن يختار.

(حفلة التكريم):

حين التحقت بكلية اللغة العربية أقيمت حفلةٌ تكريمية كبرى لمطران تقديراً لجهده الرّيادى في دنيا الشعراء، وجاءت وفود من العراق ولبنان وسوريا تشارك شعراء مصر في هذا الاحتفال، وقد ساعدني الحظ ببطاقة أرسلت للأستاذ الزيات كي



احمد محرم

بشارة الخوري

يحضر الاحتفال وكان متوعكا، فآثرني بالبطاقة وذهبت إلى دار الأوبرا الملكية لأرى الشاعر لأول مرة. وسمعت في كلمات التكريم ما وافق اعتقادي في سبقه التجديدي، كما سعدت برؤية شاعر لبنان الكبير الأستاذ ***شبلي ملاط***، وقد جاء ممثلا لبلده، وكنت أحفظ كثيرا من قصائده، وأرى فيه بطولة عنترية تتجلى في حماسته الدافقه، وقد ألقى قصيدة عن ***مطران*** قال فيها:

أخا الصفحات بيضاً ناصعات
وربَّ النثر والشعر النضيد
أرى سمة الشباب إليك؛ عادت
فيا سمة الشباب اليّ عُودى

* أما الأستاذ ***عباس العقاد*** فقد وفّى الشاعر حقه حين قال:

لما سبقت إلى الجديد
سبقتَ فيه إلى كمال
أتعبت خلفك من سعى
في العدوتين على ضلال
لم يدركوك وإن جروا
من بعد شوطك في المجال
حرّرت أوزان القصيد
فزاد في الميزان وزنا
وتوسعت فيه البحور
فأرسلت دررا ومُزنا
هذي الثلاثيات حقك
من لدنك ومن لدُنّا

* ولا قول بعد العقاد، فقد اعترف بما حاول التغاضي عنه من قبل.

(لقاء الشاعر الكبير)

ظللت أحتال للقاء الشاعر الكبير دون أن أعرف الطريق، لأني محدود الصلات بنابهي العصر وأعلامه، وكان من التوفيق الكبير أن ***الدكتور زكي مبارك*** جلس يتحدث في دار جريدة البلاغ، عن صلته

الوثيقة بمطران، وعن إعجاب مطران به، حتى نظم قصيدة فى تقريظ كتاب (النثر الفنى) وقال مبارك: إنه حين نظم قصيدة (مصر الجديدة) لم يجد جديراً بسماعها قبل النشر غير خليل مطران، وأفاض الدكتور فى هذا المنحى إفاضة شافية، فقلت له: لى رغبة حارة فى لقاء الشاعر الكبير، ولا أجد سواك من يتفضل بتقديمى إليه، فقال إن مطران يستشفى بحلوان حيث يجلس فى المياه المعدنية كل يوم قرابة ساعتين، وأنا على موعد من لقائه فلو أحببت أن تجيء معى غداً، فلا مانع، فانتهزت الفرصة وسارعت، لقيت الشاعر الكبير فى ثوب مرضه، وأشفقت بينى وبين نفسى من لقائه فى وضع لا يسمح بالتبسّط الأدبى، ولكن الدكتور زكى مبارك قد ابتدأ الحديث مقدما إياى فى تشجيع أبويّ هو الى العطف أقرب منه إلى الحيدة، وكان مما قال إننى أحفظ ديوان الشاعر، وأعدّه شاعر العرب منذ أمرىء القيس، فأشرق وجه الشاعر، وكنت حينئذ أرتدى العمامة والكاكولة وقال: الشيخ عريق بين أصحاب العمائم ومن زملائنا الكبار الذين سبقونا إلى رحمة الله الكاظمى وعبد المطلب وعثمان زناتى، وممن لا يزالون بيننا القاياتى والأسمر والأستاذ؛ وأشار إلىّ، قلت - صادقا - إنى لا أرى مثلا أحتذيه غير شاعر الأقطار العربية، لأنه افتتح باب التجديد المعاصر ومن ورائه تتابعت خطوات شكرى والعقاد والمازنى والمهجريين، وهذا تسجيل لواقع لا ينكره أحد، وقد سمعت قصيدة العقاد فى حفل التكريم فسرَّنى حديثه النقدى بها، وكنت قرأت ما قاله عن الشاعر الكبير فى كتاب (شعراء مصر وبيئتهم فى الجيل الماضى) فأدركت غبناً واضحاً سرّنى أن أجد تصحيحه الآن ، فنظر مطران إليّ، وطلب أن يسمع منى بعض ما قلت، فقلت على أن أسمعك بعض ما أحفظ من روائع شعرك، فقال يكفى أن تذكر بعض الأسماء، قلت أن بعض مؤرخى الأدب الحديث، يتناقلون قصيدتك (المساء) ويستشهدون بها وينسون مئات القصائد التى ترتفع عن «المساء» مثل الجنين الشهيد، وفتاة الجبل الأسود، والزنبقة والوردة، والمراثى التاريخية لكبار العظماء مثل سعد زغلول ومحمد فريد ومصطفى كامل، وملحمة نيرون وقصيدة عصفور مغتربة التى أرددها كثيراً لأنعم بترويح نفسى ساعة الضيق، ومضيت أذكر بعض القصائد، فبسط الشاعر يده إلىّ مصافحا وقال: لا أدرى كيف أشكرك، ثم طلب منى أن اسمعه قصيدة من نظمى، فاخترت قصيدة تتحدث عن الصداقة، وكنت معتزاً بها حينئذ، فاستمع إليها الشاعر فى ابتسام، ثم قال لى: إنك شاعر حقاً، وعندك النّول الجيّد الذى تنسج عليه، ولكن الفكرة تطلب امتداداً فى التحليل، وعمقاً فى النظر؛ لا يكفى أن تعبّر عن مشاعرك نحو الصداقة، فهذه مرحلة أولى، والمرحلة الثانية أن تعمق نظرتك إلى



حافظ ابراهيم



د. زكى مبارك

الصداقة وتمتد بها إلى الوجود بأجمعه فتجدها سرّ الانسجام فى الكائنات الحية، وتجد للذرات المتجاذبة فى الجماد شبه صلة بالصداقة فى التواد والتجاذب، وتجد الكون سعيدا بالصداقة، وشقيا بالعداء، لو امتددت بنظرتك إلى هذه الآفاق ستكون مبدعا كبيرا، ولا أدرى لماذا سكت دهشا، فاستدرك الشاعر يقول: أنت تقول مثل كثير من المشتهرين بالشعر، ولكنى أريد أن تحلق وترتفع! ولعلىّ ذكرت اسم الشاعرين الكبيرين الأسمر وغنيم فى حديثى، فقال الخليل هما شاعران، وأنت مثلهما، ولكنك تستطيع أن تمتد إلى مجال أوسع، وسكتُّ ليتفرد الدكتور مبارك بحديث مع الشاعر، دار أكثره عن القدماء لا عن المحدثين، وعن السهولة التى تواتى الدكتور حين يُنظم.

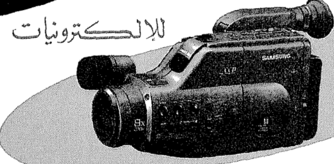
(فى الاسكندرية):

بعد عشر سنوات من رحيل الشاعر الكبير سعدتُ لصداقة الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، وكان من أخلص أصدقاء مطران، وللشاعر صلة ودية بأقاربه إذ كان يزوره فى منزله، وقد يقضى معه أياما، وقد قال لى ذات مرة، إنى كنت أزور مطران بالقاهرة مع أخى الشاعر خليل شيبوب، حين علمنا شدة مرضه، فارتاح لزيارتنا كثيراً، وشعر معنا بنشاط لا يعهده، وكان مما قاله لنا إن الدكتور زكى مبارك قدّم له شاعراً أزهريا يحفظ أكثر ديوانه، وأنه شعر بسرور زائد حين قابل الأزهري الشاب، وأسمعه بعض ما يحفظ من شعره، على حين كان يظن أن قصائده التجديدية لا تجد الترحيب الكبير عند أساتذة الأزهر، فتبدل هذا الظن. قلت للأستاذ شيبوب. أنا ذلك الشاب الأزهرى، وقد صحبت الدكتور زكى مبارك إلى زيارته بحلوان وأنا سعيد كل السعادة إذ أعلم أنه تحدّث عن لقائي معه، وما كنتُ أتوهم أن زيارتى العابرة ستعلق بخاطر هذا الرجل العظيم..

تقنية من أجل حياة أفضل

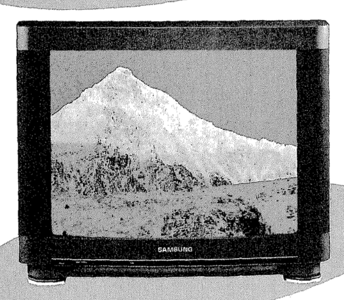
سامسونج

للالكترونيات



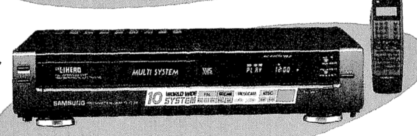
VPE - 807

* حجم صغير ٨مم. * تكبير ٨ مرات. * الحد الأدنى للإ
٣LUX. * إمكانية كتابة رسالة على الشا
والساعة والتاريخ * ريموت كنترول. * توفير بطا
وجهاز شحن. * تثبيت الصورة الممتا



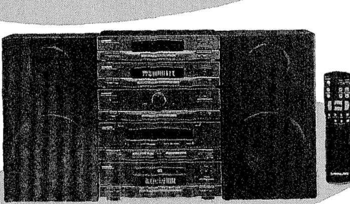
CW - 6330Z

* ٢٦ بوصة/ ٩ نظام ريموت كنترول * تصميم جذا
بسماعتين من الجانبين «إستريو» * البحث الذاتي عن
القنوات * إمكانية برمجة ٤٠ قناة * جميع الوظائف تظهر
بالشاشة * شاشة مسطحة * إستخدام الريموت كآلة حاسبة



VZ - S95

* ٤ رؤوس * متعدد الأنظمة * نظام آلي رقم
لمتابعة المسار * عرض نظام NTSC على نظام بال
برمجة على الشاشة * التحكم في برامج التليفزيون
بدون توقيف الفيديو * سرعة البحث عن الصورة ٢١ مرة



SCM - 9100

* نظام كامل للتحكم عن بعد * سماعات ثلاثية * نسخ
الاسطوانة المصغرة إلى الشريط * عرض واضح أبجدي رقمي
على الشاشة * نظام لإلغاء التشويش * ذاكرة لتخزين الحر
* ساعة للوقت * إستمرارية تشغيل الشريط



شركة الزقزوق والمتبولي

جدة	مكة	المدينة	الرياض	الدمام	خميس مشيط	بريدة
٦٥١٢١١١	٥٥٦٥٨٠٨	٨٣٦٣٥٥٦	٤١١٦٦٠٧	٨٣٤٦٦٢٤	٢٢٢١٥٧٢	٣٢٣٤٨٦٦

الطلع المنضود غذاء الفلاسفة

أأنت لي ؟

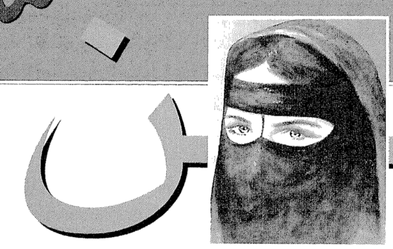
معاناة : مسرحية من فصل واحد

أوراق زوجية

ابو عواد / ام عمرو

رسالة الى السيدة الجميلة

مجلة شهرية ذات أداء متخصص تخاطب عقل المرأة ووجدانها



غذاء ودواء:

الطلع المنضود .. غذاء الفلاسفة

أ.د. سامية محمد مصطفى عامر - مصر -

الموز لغة يسمى الطلح واحدته طلحة، وهو معرب عن الهندية وأصله موزا، وثمرة الواحدة موزة[١]. وهو نبات يشبه النخيل اسمه العلمي موزا سابينتم (Musa sapientum)، من الفصيلة الموزية، موطنه جنوب آسيا ويزرع في المناطق المعتدلة والإستوائية، له أوراق كبيرة يلتف بعضها حول بعض عند قواعدها مكونة ساقا كاذبة يخرج من وسطها حامل زهري طويل، يتدلى إلى أسفل. وتتكون الأزهار الذكرية في طرف الحامل الزهرى، وتليها الأزهار الأنثوية، وهذه تعطى أصابع الموز المعروفة. ويعطى النبات شمراخا واحداً طول حياته، ثم يموت، وتخرج منه «فسائل» تحل محل النبات الأصلى[٢].

وأهم أصنافه المنزرعة بمصر الهندى والمغربى والويليامز والبسراى والبويو الصومالى والبلانتين[٣].

الموز فى القرآن الكريم والطب النبوى:

ورد ذكر الموز فى القرآن الكريم فى موضع واحد، بصيغة الجمع، وقد ذكره الحق تبارك وتعالى فى مقدمة النعم العديدة التى اختص بها أهل اليمين فى الجنة، حيث قال الله تعالى ***{وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، فى سدر مخضود، وطلح منضود}*** الآية ٢٧ - ٢٩ من سورة الواقعة. وقد أجمع أكثر المفسرين على أنه الموز والمنضود هو: «الذى نضد بعضه على بعض كالمشط». فثمره قد نضد بعضه الى بعض فهو مثل الموز.

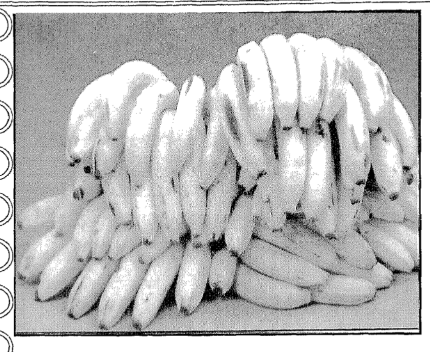
وهو حار رطب. أجوده: النضيج الحلو. ينفع لخشونه الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين والمثانة، ويدر البول ويزيد فى المني، ويحرك شهوة الجماع، ويلين البطن[٤].

الموز فى حياة الشعوب:

إذا كان الموز يتصدر الموائد في مختلف بلاد العالم، كفاكهة مغذية ممتازة، فإنه فى بعض تلك البلاد يعتبر غذاء رئيسيا كما هو الحال فى جزر الأنتيل والفلبين وبعض سواحل أمريكا الوسطى وأواسط إفريقيا، فهو بالنسبة لسكان تلك البلاد كالقمح بالنسبة لنا، والأرز بالنسبة لسكان الصين واليابان.

إذن فهو غذاء ممتاز، أجمع على تقديره كل الناس، سواء أولئك الذين يتناولونه كفاكهة للتحلية، أو أولئك الذين يأكلونه كطعام رئيسي.

ولقد عرف العالم مزايا الموز منذ أقدم الأزمان، ففى كتاب آسيوى قديم، يعود به



العهد إلى سنة (٣٠٣) قبل الميلاد، ورد حديث مطول يشيد بالموز وينوه بفوائده الكثيرة.

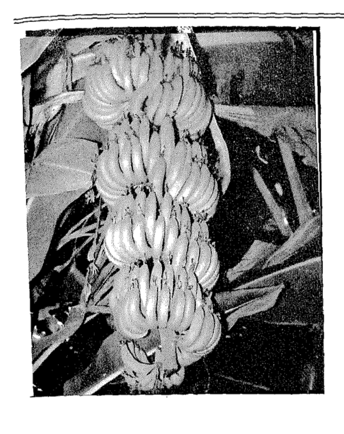
وأسماه الأقدمون «طعام الفلاسفة» عندما شاهدوا حكماء الهند وفلاسفتها يلجؤون إلى أشجاره يستظلون بوارف أوراقها، ويتخذون ثمارها الحلوة غذاء يستعينون به على التأمل والاعتكاف. ويروى لنا التاريخ أن نابليون بونابرت كان يفضل الموز على أي طعام آخر، وهو في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة. على أن الموز لم يصل إلى أوروبا إلا في أواخر القرن الماضي، لأن زراعته تتطلب مناخاً خاصاً، وجوا معينا.

وكان العرب يشبهون ثماره بالأصابع أو البنان ... فلما انتقلت زراعته إلى أسبانيا والغرب انتقل اسم ثماره إليها أيضا فسموه «بنانا». وتختلف عادات الشعوب في أكل الموز فبعضها نجده يأكلها كما هي، أي تقشر باليد وتلتهم، والبعض الآخر يدخلها في إعداد السلطة والحلوى. وتختم المأدبة الصينية بتقديم الموز محمرا بالسمن ومطليا بقطر السكر والسمسم ومغمساً بالماء المثلج الذي يحيل قطر السكر قشرة دبغة. وفي بعض بلدان أمريكا اللاتينية يهرس الموز ويمزج بالأناناس الطازج والسكر والقرفة ثم يخبز ليصبح فطيرة رائعة تقدم مثلجة مع الجبن والقشدة. ويصنع العرب من الموز الحلوى والمعجنات. وفي إفريقيا الشرقية والغربية حيث الموز عماد الحياة، لا يكتفى بسلقه بل يحمص ويشوى ويصنع منه الحساء، حتى إن الأوغنديين والتنزانيين يخمرونه ليستخرجوا منه الكحول[٥].

المكونات الأساسية لثمار الموز والتغيرات التي تحدث لها أثناء النضج:

الموز فاكهة مغذية غنية بالمواد الكربوهيدراتية التي تمنح الجسم الطاقة والحرارة، وينصح بألا يتناول الموز إلا ناضجاً، حيث تكون المواد الكربوهيدراتية في الموز النيء من النشا عسر الهضم قليل الحلاوة.. بينما يتحول جزء كبير من النشا في الموز الناضج إلى مواد سكرية سهلة الهضم طيبة الطعم. وقد أثبتت الدراسات والتحاليل أن نسبة السكر الموجودة في الموز لا توجد في أي فاكهة أخرى، فهي وباقي العناصر الغذائية تجعله قادرا على أن يسد حاجات الطاقة

الإنسانية الأساسية، فإن مائة جرام من الموز الطازج، تعطى سعرات حرارية تعادل نفس السعرات التى تعطيها مائة جرام من اللحم، يضاف إلى ذلك أثر الموز فى متانة الأنسجة وتجديدها بما فيه من ماء وأملاح معدنية وفيتامينات مثال ذلك أن ثلاث موزات تأكلها تعطيك نصف ما تحتاجه من الكالسيوم فى يوم واحد، ونفس القول ينطبق على الفوسفور والحديد[٦].



وتتكون ثمرة الموز من المكونات الأساسية التالية:

١ - **الكربوهيدرات:** الكربوهيدرات السائدة في الثمار الخضراء هى النشا الذى يتحول معظمه إلى سكر فى الثمار تامة النضج. وتنخفض نسبة النشا من ٢٠ - ٢٣٪ من وزن اللب الطازج فى الثمار الخضراء إلى ١ - ٢٪ فقط فى الثمار تامة النضج. وفى نفس الوقت تزيد نسبة السكريات الذائبة من أقل من ١٪ إلى حوالى ٢٪ وأهم السكريات التى توجد فى لب الموز هى الجلوكوز وتبلغ نسبته ٢٠٪ والفراكتوز ونسبته ١٥٪ والسكروز ونسبته ٦٥٪. أما السكريات الأخرى مثل المالتوز وغيرها فلا يوجد منها إلا آثار فقط. هذا وقد وجد ارتباط وثيق بين لون القشرة وبين نسبة النشا إلى السكر.

٢ - **الألياف:** يعطى التحليل بالطرق التقليدية نسبة ألياف فى اللب قدرها ٨٤ر٠٪ فقط لكن نتيجة لما هو معروف عن فوائد الموز فى تصحيح إضطرابات الأمعاء إستخدمت طرق تحليل غير تقليدية إتضح منها أن ٣ر٣٪ من وزن اللب عبارة عن جزء له القدرة على الإحتفاظ بالماء بمقدار ١٧ مرة قدر وزنه الجاف.

وقد أعطى تحليل هذا الجزء النسب الآتية:

لجنين ٢ر١٥٪ - نشا ١٣٪ - بروتين ٨ر٩٪ - سليولوز ٨ر٤٪ - دهون ٧ر٣٪ - بكتين ٣ر١٪ - رماد ٤ر٠٪ ومواد أخرى غير معروفة حالياً يظن أن أغلبها تانينات ٨ر٥١٪.

٣ - **البكتين:** يحتوى اللب الناضج على ٥ر٠ - ٧ر٠٪ بكتين. وبتقدم نضج الثمار يزداد الجزء القابل للذوبان فى الماء بينما ينخفض البكتين الكلى والجزء غير القابل للذوبان فى الماء ويصاحب ذلك ليونة اللب.

٤ - **الأحماض العضوية:** حموضة اللب ترتفع إلى حد أقصى وقت ذروة التنفس أو بعدها مباشرة ثم تنخفض قليلا مع تقدم النضج. وقد أعطت قياسات درجة تركيز أيونات الأيدروجين (P H) مدى يتراوح من ٥ إلى ٨ر٥ بالنسبة للب الثمار الخضراء ومن ٢ر٤ إلى ٨ر٤ للب فى

مرحلة ما بعد ذروة التنفس.

والأحماض العضوية الرئيسية التى توجد فى الموز هى حمض المالك وحمض الستريك وحمض الأوكزاليك. وتوجد مجموعة كبيرة من الأحماض العضوية الأخرى بكميات ضئيلة للغاية.

٥ـ الفينولات والبروتينات والمركبات النيتروجينية الأخرى: أهم الفينولات التى توجد فى الموز هى التانينات وينخفض محتوى التانينات فى الثمار الناضجة الى حوالى ٢ر. من محتواها فى الثمار الخضراء. كذلك تبلغ كميتها فى القشرة من ٣ ـ ٥ أضعاف كميتها فى اللب وهذه أيضاً تنخفض كثيراً عند تمام النضج. ومن أهم الفينولات الأخرى الموجودة هى السيروتونين والدوبامين وهو الذى تعزى إليه بقعة العصارة التى تظهر بلون بني على الأصابع.

أما بروتينات الموز فهى غنية فى عدد من الأحماض الأمينية الهامة مثل الأرجينين والليسين والسيستين لكنها فقيرة فى حمض المثيونين. وأكثر الأحماض الأمينية الحرة وفرة هى الهستيدين والسيرين والفالين والليوسين والأرجينين. هذا ويزيد تكوين البروتين أثناء النضج بينما يظل محتوى حامض الريبوز النووى RNA وتركيبه ثابتا.

٦ـ الدهون: تقدر نسبة المواد الليبيدية فى اللب الطازج بحوالى ١٢ر٠٪ فقط. وأثناء النضج تقل نسبة الأحماض الدهنية غير المشبعة وبالذات اللينولييك والباليتولييك إلى الثلث بينما تزيد نسبة حمض الستياريك إلى الضعف. أما الأحماض الدهنية المشبعة فتقدر نسبتها فى اللب تام النضج بحوالى ٤٥٪ من جملة الأحماض الدهنية.

٧ـ المركبات والمواد الطيارة: تخرج أثناء عملية نضج أو إنضاج الموز مواد طيارة يمكن إدراكها بالرائحة. ويحتوى الموز على حوالى ٣٥٠ مادة طيارة تتكون أساساً من إسترات. لكن يوجد أيضاً بجانبها كحولات وألدهيدات وكيتونات ومركبات عطرية.

وترجع الرائحة والنكهة المميزة للموز إلى الإسترات الأميلية والايزوأميلية لأحماض الخليك والبروبيونيك والبيوتيريك.

٨ـ الأصباغ: تحتوى قشرة ثمار الموز الخضراء على كلوروفل وكاروتين وزانثوفيل ويقل محتوى الكلوروفل فى قشرة الموز من ٥٠ ـ ١٠٠ ملليجرام لكل كيلو فى القشر الأخضر إلى صفر عند تمام النضج. وتحتوى قشرة الثمار الصفراء تماماً على ٥ ـ ٦ ميكروجرام لكل جرام كاروتينويدات أغلبها الفاكاروتين (٧٪) وبيتاكاروتين (١٤٪) وليوتيين (٥٦٪) أما تركيز الكاروتينويدات فى اللب فتبلغ من ٦ر٠ إلى ١ ميكروجرام لكل جرام من الوزن الطازج وهى مكونة من الفاكاروتين (٣١٪) وبيتاكاروتين (٢٨٪) وليوتيين (٣٣٪). كما توجد أيضاً صبغة من نوع الأنثوسيانين.

ويبين الجدول التالى [*] المكونات الأساسية لثمار الموز الطازج ونسبتها فى كل ١٠٠ جرام من الجزء القابل للأكل.

ماء ٥ر٧٢

بروتين ٣ر١

دهون كلية ٤ر.

كربوهيدرات ٠ر٢٤

ألياف ٥ر.

فيتامين A ٤٣٠ وحدة دولية
فيتامين B1 ٠٩ر٠ ملليجرام
فيتامين B2 ٠٦ر٠ ملليجرام
فيتامين B6 ٥٠ر٠ ملليجرام
فيتامين C ١٠ر٠٠ ملليجرام
فيتامين E ٣٧ر٠ ملليجرام
حامض النيكوتنيك ٦٠ر٠ ملليجرام
حامض البانتوثنيك ٢٠ر٠ ملليجرام
حامض ماليك ٥٠٠ ملليجرام
حامض ستريك ١٥٠ ملليجرام
حامض اوكزاليك ٤ر٦ ملليجرام
صوديوم ١ر٠ ملليجرام
بوتاسيوم ٤٢٠ ملليجرام
كالسيوم ٨ ملليجرام
ماغنيسيوم ٣١ ملليجرام
منجنيز ٦٤ر٠ ملليجرام
حديد ٦٠ر٠ ملليجرام
نحاس ٢٠ر٠ ملليجرام
فوسفور ٢٨ر٠ ملليجرام
كبيريت ١٢ر٠ ملليجرام
كلورين ١٢٥ر٠ ملليجرام
سعرات حرارية ٩٤ر٠ كيلو سعر

(*) From scientific Tables, Documents Geigy, 6th Ed.

هذا وقد تعطى مصادر أخرى نسبا تختلف بعض الشيء عن النسب المبينة فى الجدول السابق لكن هذا أمر متوقع حيث تختلف أصناف الموز المختلفة فى نسب بعض المكونات.

استخدامات الموز كدواء:

يحتوى الموز على نسبة عالية من البوتاسيوم ونسبة ضئيلة من الصوديوم وهى خالية تماما من الكوليسترول وكل هذه العوامل تعمل على خفض ضغط الدم المرتفع، لذلك يعتبر الموز من الأغذية المسموح بها بل والمفضلة لدى مرضى ضغط الدم المرتفع[٧] ، [٨].

ويرجع ذلك أيضاً لاحتواء الموز على نسبة عالية من الأملاح القلوية مثل البوتاسيوم التى تعادل حموضة المعدة ونظراً لسهولة هضم الموز وقدرته على معادلة حموضة المعدة فإنه يمكن استخدامه كغذاء وعلاج لمرضى القرحة[٧] ، [٨].

يحتوى الموز على كميات كبيرة من فيتامين (أ) ، (ب) المركب ، (ج) بالإضافة إلى المواد السكرية لذلك يمكن استخدامه فى علاج سوء التغذية عند الأطفال[٧]. ومما هو جدير بالذكر أن غناه فى فيتامين (ج) يجعله مقويا للعضلات. وفيتامين (ب) يحمى الأعصاب، ويكافح فقر الدم، ويحفظ التوازن العام للصحة[٨].

حيث

إن احتواءه على فيتامين (هـ) يجعله مصدراً هاماً لأعضاء الإخصاب[٨].

حيث يصنع من الثمار المجففة دقيق يشبه دقيق الأرز فى تركيبه الكيميائى، يصنع منه خبز للمصابين بالتبول الزلالى[٨].

فقد

أثبتت الأبحاث الحديثة أن فى الموز هرمونات ذات مزايا مقوية عالية، من شأنها تنظيم نشاط الجهاز العصبى .. وتأكد أن تناول الأطفال للموز يعطيهم التوازن النفسي، ويشبع فيهم روح المرح والغبطة[٨].

إحتواء

الموز على الفلور يجعله مصدراً هاماً يعمل على حماية الأسنان من التسوس[٨].

يعتبر الموز

من الفواكه الغنية بفيتامين حمض النيكوتين وهو المعروف باسم نياسين، ويعرف هذا الفيتامين بالفيتامين الواقى من البلاجرا، ويكثر هذا المرض فى الأوساط الفقيرة التى تعتمد فى غذائها على عناصر غذائية محدودة القيمة الغذائية[٨].

ويرجع ذلك إلى

احتوائه على فيتامين (أ) الذى يساعد على النمو ويحمى البصر[٧].

الموز والسمنة:

الموز مكون من مواد نشوية تحولت إلى مواد سكرية. فهو من هذه الناحية لا يلائم الرجال الذين يشكون من البدانة والسمنة، ولكن هناك نوع من البدانة يلائمها الموز.. وهى البدانة التى تدعى (الأسفنجية)، لأن الأنسجة فيها ممتلئة بالماء، فهنا يمد الموز الجسم بالحرارة، ومن ناحية ثانية يكافح زيادة الأملاح ويقضى على هذه الحالات الشبيهة بالاستسقاء[٨].

الموز غذاء ودواء لكل الناس:

يستعمل الموز كغذاء في كل الأعمار، فالشيخ يأخذ منه حرارة وقوة، والطفل يستعين به على النمو، ويجد فيه لذة كبيرة، والمرأة الحامل تأخذ منه أملاحاً معدنية كثيرة تحفظ عليها توازنها خلال حملها، والمريض فى دور النقاهة يستمد منه نشاطاً.

أما مرضى السكر، فهؤلاء لا يلائمهم الموز، لغناه بالمواد السكرية. وكذلك الذين يشكون من حرقة فى المعدة. أما الذين يشكون إرهاقا أو هزالا، والذين يشكون من قلوبهم وكِلاهُم، فهؤلاء يعتبر الموز خير فاكهة ودواء لهم.

وأخيراً فإن الموز يحتوى على الفوسفور، هذه المادة الضرورية للذكاء والعنصر الأساسى لكل نشاط فكرى. وأخيرا ننصح المصابين بالإمساك والسُّكرى بعدم تناوله بكثرة.

الهوامش:

(١) المعجم الوسيط ص٩٢٧ ج٢ ط٣.

(٢) الموسوعة الثقافية ج ١ - ٣ ص ٩٦١ - مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص ٧٩٩. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والسنة.

(٤) الطب النبوي لشمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى ابن قيم الجوزية ص ٢٦١.

(٥) الأطعمة القرآنية غذاء ودواء - د. محمد كمال عبد العزيز ص٥٦:٥٩ - مكتبة القرآن.

(٦) الغذاء .. لا الدواء - د. صبرى القبانى ص ٧٥ : ٨١ ، ط٣ - دار العلم للملايين - بيروت.

(٧) أسرار العلاج بالفواكه والخضروات - د. وفاء عبد العزيز بدوى ص ٤٥ : ٤٧ - مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير.

(٨) التداوي بالأعشاب والنباتات - عبد اللطيف عاشور - ص ٢٠٣ ، ٢٠٤، مكتبة القرآن للطبع والنشر.

مسرحية ذات فصل واحد:

معاناة

أميمه محمد عز الدين -مصر-

المشهد الأول: صيف ١٩٩٤، الوقت ظهرا.

محمد مسعود في حجرة المكتب، مسترخيا على كرسي هزاز، خلفه مكتبة ضخمة تضم أمهات الكتب، ينظر الى كتاب ضخم كتب عليه «***الناصر صلاح الدين***». يغمض عينيه ويبدأ في الحديث الى نفسه.

محمد : ليتني أقابلك في زمني يا صلاح الدين أو حتى أقابلك في زمنك الجميل.

(صمت لحظات)

ثم نرى المكتبة وقد تحركت وظهر من خلفها شخص ممسكا كتاب «الناصر صلاح الدين» وقد لبس ملابس فارس عربي؛ عليه سيماء الفروسية ورباطة الجأش، يفتح محمد مسعود عينيه في ذهول لما يراه.

محمد : ما هذا ؟! أحلما أرى أم واقعا جميلا؟

(يسير الفارس نحو محمد)

[ينهض محمد في ذهول ويفرك عينيه]

محمد : أهذا معقول ؟! أيكون أنت الذي في خاطري؟

[يومىء الفارس بالايجاب]

محمد : هذا غير معقول !! أأنت صلاح الدين ؟!!! آسف أقصد الناصر صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين؟

[صلاح الدين يعيد كتابه الى المكتبه ويلتفت الى محمد وقد امتشق سيفا عربيا]

صلاح الدين : أنا صلاح الدين الأيوبي يا صديقي .. انني الذي أجول في خاطرك وفكرك وأنت الآن تراني في خيالك فقط.

محمد : أتعني أن هذا محض خيال؟

صلاح الدين : لم أقصد هذا بالضبط .. لكن أنا حتى في خيالك أنبض الآن بشحمي ولحمي كما يقول العرب.

محمد : العرب ! أين هم الآن؟ ليتهم يتخيلونك في أعمالهم.

صلاح الدين : أنت واعظ حقيقي.

محمد : لست واعظا يا سيدي الفارس .. لكن دائما تشتاق نفسي الى التحدث معك.

[أحضر محمد علبة الشطرنج وفردها على منضدة صغيرة وسحب كرسيين صغيرين.

محمد : تفضل بالجلوس فأنا في حاجة الى الجلوس معك ولعب الشطرنج.

صلاح الدين (ضاحكا) : لقد تغير الشطرنج عن زماني يا صديقي محمد.

محمد (في ذهول) : أو تعرف اسمي؟

صلاح الدين : أجل أعرفه .. ألم نتفق انني

الآن جزء منك لذلك أعرف عنك كل شيء.

محمد : إذن قل لي لماذا تغير الشطرنج الآن عن زمنك؟

صلاح الدين : لأننا الآن أصبحنا كقطع الشطرنج لا نستطيع أن نتحكم في أنفسنا .. هناك من يرانا عرائس خشبية في يده.

محمد : أتعرف يا سيدي الفارس ان هذا نفس احساسي عندما أنظر لأحوالنا.

صلاح الدين: كل شيء يتغير فما بالك بالانسان، سبحان الذي يغير ولا يتغير.

محمد (باعجاب) : انني احفظ كل تاريخك وأعرف كل شيء عنك.

صلاح الدين : هذا طبيعي .. فأنا الآن مجرد تاريخ .. تداعيات أمامكم.. تجدني في كل المناهج العربية أقف شامخا بفرسي الشهير وسيفي المسلول، لكن لا أعدو الا مجرد ورقات في حياتكم وتسقط كأوراق الخريف، كغيرها من أوراق التاريخ.

محمد : أراك يائسا من أحوالنا وأنت فارسنا!!.

صلاح الدين : في وقت من الأوقات تتصاعد حمأة اليأس في عقولنا ولا ندري أنحن على صواب أم هذه مجرد توهمات رجل متفلسف ومحارب في الحياة.

محمد : انك فيلسوف وحكيم أيضا.

صلاح الدين : لقد ثقفت نفسي بنفسي في مختلف العلوم ولم أشأ أن أحتاج لشخص لا يقدر على تلبية ندائي في أي وقت لذلك تعلمت فصد الجروح وتركيب بعض الأدوية وتذوقت الشعر وتمنيت أن أصبح شاعرا.

محمد : هذا تواضع منك يا سيدي فيكفيك فخرا اسمك ولقبك «الناصر» بين فرسان العرب عامة.

صلاح الدين : للأسف. لم أعد أستحق هذا اللقب بعد أن تصاعدت هجمات الصليبيين الجديدة على الوطن العربي والمسلمين.

محمد : انني أبكي ألما عندما أرى ما يحدث في البوسنة وأتمنى أن يذهب الكل لنجدة المسلمين العزل هناك لكن ....

صلاح الدين: لكن النظام العالمي الجديد لا يسمح بهذا.

محمد : يبدو انك تدرك كل شيء عنا.

صلاح الدين : ألم نتفق انني في خيالك.

(ستار)

المشهد الثاني:

مازال الحديث دائرا في حجرة المكتب يسمع محمد طرقا على الباب ويدخل صديقه عبد الرحمن شعبان ولا يلاحظ وجود صلاح الدين ، يقف صلاح الدين بين محمد ، وبين عبد الرحمن ...

عبد الرحمن : لقد ظللت أطرق الباب مدة .. ألم تسمعني؟

محمد : أعتذر لتأخري عليك يا عبد الرحمن.

عبد الرحمن (ضاحكا): ما هذا يا محمد ؟ أتلاعب نفسك الشطرنج؟

محمد : أرجوك لا تسخر مني، لو علمت بأمري ستلتمس لي ألف عذر.

عبد الرحمن : يكفيك سبعين عذرا.

[صلاح الدين يشير الى محمد بألا يتكلم عن وجوده فلن ينصت اليه أحد وسيصفه الجميع بالجنون]

صلاح الدين : لن ينصت اليك أحد.

محمد : وكيف هذا .. انه صديقي وهو يعاني مثلي مما يحدث للأمة العربية.

عبد الرحمن : ما هذا يا محمد؟ أتحدث نفسك؟ ماذا جرى لك؟

محمد (يهز رأسه) : لا شيء يا عبد الرحمن فقط كنت أفكر بصوت مرتفع.

صلاح الدين: لن يراني أحد غيرك ، سيصفك الجميع بالجنون، لن يصدقك أحد لا زوجتك ولا صديقك ولا حتى ولدك شهاب الدين.

[محمد يضع رأسه بين يديه موتورا وعبد الرحمن يهزه بعنف]

محمد : إذن ماذا أفعل الآن؟

عبد الرحمن : ما الحكاية يا أبا شهاب؟ أتكلم نفسك ؟! أهذه أزمة نفسية جديدة .. قل .. فأنا خلُّك الوحيد.

محمد : قلت لك لا شيء .. لن تفهمني الآن.

عبد الرحمن (معاتبا): اذن ما فائدة الأصدقاء وما معنى صداقتنا اذا كنا لا نفهم بعضنا البعض؟

محمد : أعتذر عن أسلوبي معك .. لكن أنا .. أنا .. لا شيء عندي.

[ينهض عبد الرحمن ويعطي ظهره لمحمد ويحدث نفسه]

عبد الرحمن : ماذا جرى له؟ يبدو انه يعاني مشاكل جديدة مع رئيس التحرير كالعادة.

[محمد يتحدث الى صلاح الدين]

محمد : سأكتب عنك من جديد سوف يدهش الناس عندما أحكي عنك من جديد وعن بطولاتك انني فخور بك وبقلمي.

صلاح الدين: لا داعي لهذا الحماس الآن .. ليتك تُفْهم صديقك انك لا تعاني من أي مشاكل.

[محمد يلتفت الى عبد الرحمن وهو مشغول بنفسه]

محمد : أنا بخير يا صديقي .. فقط أعاني من مشكلة أدبية خالصة.

عبد الرحمن (فرحا): لقد توقعت هذا يا محمد، فأنا أعرفك تريد ان تتخلى عن دور الصحفي لتتفرغ للأديب الذي يعيش في داخلك في ثورة، ويبدو ان رئيس التحرير لن يترك الأديب محمد مسعود في حاله ليكتب روايته الجديدة .. أليس كذلك؟

محمد : ما أصدقك يا عبد الرحمن .. لكن خلافي مع رئيس التحرير مجرد خلاف بسيط لأجل إجازتي السنوية.

عبد الرحمن : إذن قل لي موضوع روايتك الجديدة.

محمد : الفكرة لم تختمر بعد .. انها تراودني وتلح عليّ لكن من الصعب محاصرتها الآن.

عبد الرحمن : هذا شيء عظيم .. يبدو انها سوف تكون رواية عظيمة.

محمد : لا تبالغ يا عبد الرحمن فأنا لم أكتب كلمة واحدة فيها بعد.

عبد الرحمن (ضاحكا): أو تنتظر الالهام.

[عبد الرحمن يعدل من هيئته ويخلع نظارته الطبية ويضعها على منضدة الشطرنج ويتصنع الحزن]

عبد الرحمن (حزينا): ما رأيك في شاب حزين مثلي ينتظر محبوبته التي لن تأتي أبدا .. أو ...

[ثم يعدل وضعه ويجلس في ركن يطأطيء رأسه]

عبد الرحمن : ما رأيك في هذا الشاب المهموم، ينظر الى وطنه العربي بنظرة تشاؤميه.. ما رأيك؟

محمد : دعك من هذا الآن يا عبد الرحمن

كما قلت لك فالفكرة لم تتبلور بعد أرجوك لا تشتتنى بحركاتك هذه.

[عبد الرحمن ينهض ويرتدى نظارته]

عبد الرحمن : كنت أريد المساعدة يا صاح.

[يضحك عبد الرحمن ومحمد معا]

عبد الرحمن: اننى أضحك على نفسى يا محمد، اننى الآن لا أستطيع ان اكتب بيتا واحدا فى قصيدة مستحيلة.

محمد : فرج الله قريب يا صديقى .. لا تستعجل القصيدة .. هى تأتى طواعية يا صديقى.

عبد الرحمن : أشعر بالعجز عندما أرى القتل فى كل مكان دماء .. دماء .. لو أن الأرض تمتص الدماء الساخنة لنبتت غابات من الرجال والأطفال والنساء الذين يقتلون كل يوم بدون سبب.

محمد : دعك من هذا التشاؤم .. لا تكن شوبنهاوري النزعة.

عبد الرحمن : اننى أقتل نفسى فى الصحافة حتى أنسى اننى كنت يوما ما - شاعرا - مجرد شاعر على خارطة الوطن العربي.

محمد : انك شاعر حقيقي يا عبد الرحمن .. لكن ينقصك أن تتفرغ قليلا لنفسك .. اطلب اجازة مثلى وتفرغ قليلا.

[عبد الرحمن تلتمع عيناه]

عبد الرحمن : أجل .. هذا هو الرأي الصواب سأذهب لرئيس التحرير وأطلب اجازة لمدة شهر.. شهر واحد علنى اكتب قصيدة واحدة تشفينى من هذا السقم والاحساس بالعجز والضآلة.

[يخرج عبد الرحمن مودعا صديقه محمد]

عبد الرحمن: الى اللقاء .. أراك غدا ان شاء الله.

محمد : ان شاء الله يا صديقى العزيز.

(ستار)

المشهد الثالث:

يخيم الظلام على حجرة المكتب لحظات يضاء النور بقوة ويظهر صلاح الدين مرة اخرى ، يتحدث الى محمد مسعود.

محمد : كما ترى فجيلنا أصبح يعانى اكثر من اللازم.

صلاح الدين: يبدو اننى سأرجع الى الكتاب مرة أخرى من تلقاء نفسى فاليأس يملأ نفوسكم.. انظروا لأجدادكم المنتصرين انظروا الى قطز والظاهر بيبرس وعبد القادر الجزائرى وأحمد عرابى ومحمد أحمد المهدي وسعد زغلول.. وعبد العزيز آل سعود .. اقرأوا التاريخ بنظرة جديدة حتى تستطيعوا أن تصنعوا المجد من جديد ولا تدعوا الآخرين يرسمون لكم الخُطَى .. أتعرف ماذا أقصد يا محمد؟

محمد : أفهم يا فارسنا العظيم.

صلاح الدين : بقليل من الحكمة ستفهمون أنفسكم وتنظمونها، أين حكمتكم وخبرتكم لقد تنازلتم كثيرا يا محمد .. أصبح عليكم الآن التنازل حتى النهاية.

محمد (بعصبية): أرجوك يكفى هذا فأنا أعرف كل هذا.

[صلاح الدين يحاصره وقد استل سيفه]

صلاح الدين: بهذا السيف المسلول أوقفت هجمات الصليبيين وضمنت القدس للمسلمين تلك المدينة المقدسة مدينة السلام وغصن الزيتون، وأعطيت ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حينذاك درسا قاسيا أما الآن فانتشر

الصليبيون بشكل جديد.. تخفوا فى ثوب براق، يد نظيفة تمدّ لك للمصافحة والأخرى وراء الظهر تحمل كل أسلحتهم ليفتكوا بك فى أى وقت.

محمد : أعرف كل هذا .. كفى.

[محمد يجرى الى الركن]

محمد : أرجوك كفى.

صلاح الدين: اكتب روايتك ودعك من كلمات الحب والغزل فنحن الآن بحاجة لمن يقرأ التاريخ ويكتبه بشكل جديد.

محمد : أنا لن اكتب ما تمليه عليّ فأنا حر فيما أكتب.

صلاح الدين: لكنك كنت تنوى ان تكتب عن ..

محمد (مقاطعا فى غضب): أرجوك أخرج من نفسى وعقلى أريد أن أخلو بنفسى.

صلاح الدين (بعصبية): اذن لماذا استدعيتنى فى خيالك المريض؟

محمد : خيالى ليس مريضا.

صلاح الدين: بل مريض يا حفيدى .. سوف تسمع كلامي للنهاية حتي تقتنع به. دائما الصغار يرون انهم على حق والكبار يملكون سلطة تعسفية ولا يسمحون لهم بالتعبير عن أنفسهم فى وجودهم انكم تعتقدون هكذا أليس كذلك يا حفيدى الصغير؟!

محمد : لست صغيرا فأنا أبلغ من العمر ثلاثين عاما.

صلاح الدين (ضاحكا): اذن مازلت صغيرا يا حفيدى العزيز.

محمد (متألما): كنت أظنك مصدر راحتى النفسية وسلامى النفسى لقد أثرت همومى بشكل مؤلم.

صلاح الدين: أعرف ذلك فأنا قد ألقيت حجرا كبيرا فى بركة تفكيرك الآسن.

محمد : كفى .. كفى يا سيدى الفارس يا جدى العظيم.

[صلاح الدين يختفى ويتراجع للخلف حتى يختفى خلف المكتبة ويطفىء النور لحظة ثم نرى كتاب صلاح الدين فى المكتبة مرة أخرى ويسلط الضوء على محمد وهو يضع رأسه على المنضدة، يحاول أن يخلو لنفسه وقد خيم الصمت على المكان.

(ستار)

المشهد الرابع:

مكتب رئيس التحرير حيث يتصاعد الحوار بين عبد الرحمن وبين رئيس التحرير.

عبد الرحمن (بحدّة): لن اكتب فى باب الفنون مرة اخرى.

رئيس التحرير: اهدأ قبل ان تندم يا عبد الرحمن فأنت صحفى ماهر وأراك متألقا فى صفحة الفن والنجوم فى سماء الفن.

عبد الرحمن : اسمح لى بإجازة وبعدها ستوافق على ان انتقل لباب السياسة أو الأدب.

رئيس التحرير: لا أتلقى أوامر بل أعطيها لتنفذ يا عبد الرحمن أما اجازتك سأسمح لك بها.

[يوقع على ورقة ويتكلم بصوت مرتفع]
رئيس التحرير: موافق على اجازة أسبوع فقط!
عبد الرحمن : اسبوع ؟!!
رئيس التحرير: هذا معقول وعادل يا عبد الرحمن أما مطلبك بخصوص نقلك الى باب السياسة أو الأدب فهذا يحتاج لمراجعة.. ربما يصدر قرار فى العام القادم اما الآن فالمجلة تحتاج الى قلمك الفني.
عبد الرحمن : لن أنتظر يا أستاذ للعام القادم.
[يخرج ورقة من جيبه]
عبد الرحمن : ها هى استقالتى ... فالاستقالة فى جيبى لقد أعددتها لهذه اللحظة.
رئيس التحرير (ضاحكا): بل قل الرصاصة فى جيبي أفضل يا أستاذ.

(**ستار**)

المشهد الخامس:

فى حجرة مكتب محمد مسعود حيث يجلس على المكتب يحاول الكتابة لكن يمزق ما يكتبه فى يأس ويلقى بالورق فى سلة المهملات .. ثم نسمع صدى صوت صلاح الدين وهو يتردد.
الصدى : ما خطبك يا حفيدى العزيز؟
محمد : أما زلت معى ؟!
الصدى : أنا دائما معك .. ما دمت تحتفظ بكتابي فى حجرة مكتبك.
محمد (فرحا) : بشرى يا جدى العظيم لقد بدأت اكتب الآن.
[يمسك محمد بالقلم بجدية تامة ويبدأ فى الكتابة]
محمد : ان الافكار قد اختمرت جيدا وتحتاج لسكبها على الورق وأنا مهيأ للكتابة الآن وكما يقول جوتفريدين:

فى أثناء كل ساعة
ومن خلال كل كلمة
تزهر المعجزة
التى هى حضن الابداع.

صلاح الدين: ما هذا النثر الجميل .. لقد بدأت فعلا تنحو منحى جديدا وهذا شيء مبشر بالخير.
[يختفى الصوت رويدا رويدا]
محمد : أرجوك ابق معى قليلا .. ابق معى.
[يعاود الكتابة مرة أخرى بصوت مرتفع]
محمد : هذا وقد امتد الأمل الى باقى العائلة عندما علموا أن المرض ليس خطيرا بالنسبة لبهي الدين وأن الأطباء الذين حاروا فى أمره .. بدأوا فى التشخيص من جديد ويعتقدون انه مجرد مرض عادى سيزول بزوال الأعراض .. وانه وجب عليه استشارة صديقه الطبيب علاء الدين وان يتخلى عن الخرافات والقيل والقال ولا يتكلم كثيرا دون فعل عملا بالمقولة الراجحة « الرجاء ما قارنه عمل والا فهو أمنية»
(ثم نسمع صوت تصفيق رزين).
(**يسدل الستار**).

أأنت لي؟

ليلى الجهنى ـ المدينة المنورة ـ

في الطرقات المتشعبة جعلته رفيقك، أخذته من غربته، من زحام أيامه، تسكعت معه، تسمرتما امام الواجهات الزجاجية قليلا، ابتعتما جريدة البارحة، شربتما قهوة مُرة، تكلمتما عن «السلام القادم»، عن الحياة والاحباط والأحلام الصغيرة المخبوءة فى الأحداق، قرأتما في سِفْر طرفة بن العبد الذي يروق له، وتجادلتما فى أمر المدن والناس والكتب ولم تتحدثا عن الحب!

كان الليل يفرد عباءته الحالكة على صفحة السماء وكان يجب أن تتركيه وتعودي وكانت السيارات تمرق بجواركما بسرعة. تطلعت إلى عينيه خلف زجاج النظارة وتساءلت: «أأنت لي؟»، وحين استويت على مقعد السيارة، لمت أطراف عباءتك واكتشفت أنه ظل خلف الباب الذي أوصدته ووجهه ينطبع على الزجاج المتسامق أمام عينيك ببطء وهيبة. لم يلوح بوداع ولم ينفلت دفء يديه من يديك

ورأيته وردة غائمة خلف السياج تمرُّها الغيمات واليمامات ولا تلمسها أناملك. ورأيته أمنية، أجل .. أمنية نزقة خفت أن تعبرَك دون سلام أو التفات، وتساءلت بوجل: «أأنتَ لي؟».

والنسمة تشاكس شعره الأسود فتداهمك وخزة صغيرة اسمها: غَيْرة!

وحين تبتعد بك السيارة تمتد المسافات بينكما وتصغر الملامح حتى تغدو نقطة بعيدة، أبعد من أملك وأبعد من بلاد باردة تحتويه وتغدو الأشياء كلها أكاذيب باهتة تفقد بهاءها وألقها أمام حزن القلب وأنت تباغتيه بالاسئلة:أكان يجب أن تبديء بالحب؟ أكان يجب أن تهزي شجرة القلب باعتراف مبكر كي تساقط عليك حُباً جنياً؟ أكان يجب أن تشدي على اليد الأنيقة بأناملها الطويلة النحيلة وتقولي بلا تردد:

ـ أحبّك!

أكان يجب أن تتبادلا الأدوار ولو لدقيقة واحدة تبوحين فيها بالسر العَذْب المعذب الذى يصطفق بجناحيه في قلبك ينتظر أن ينفتح باب أو نافذة كي يحلق في الأعالي؟ أكان يجب أن تتخلي عن حكمة الانتظار وتبادري بطرق الباب والنقر على الشبابيك حتى لا تعودي وحيدة آخر النهار تلوكين الاسئلة وتلوكُك الظنون وأناملك تشد على جريدة كل ما يميزها أن يده حملتها وأن عينيه الصغيرتين العذبتين المتوثبتين خلف زجاج النظارة قد مرقا سريعاً على سطورها كما مرقا سريعاً على قلبك هذا النهار قبل أن ترمياك فى لجة السؤال القلق: «أأنت لي؟!»

أنقذوا سُفُنَ الطفولة من الغرق!!

شيخة عبد الله الهاشل - الاحساء -

الأطفال: عالم غريب بريء. ما أجملها من متعة وزينة حينما ترزق المرأة بالبنين: أبناء وبنات! يعرف ذلك ويُحسّه من حُرم هذه النعمة التى تتطلب الحمد والشكر.

لكن هذه المتعة سرعان ما تذوب وتتحول الى شؤم ونكد بأسبابنا نحنُ (النساء) بمشكلاتنا التى ليس لها حلول! ألسنا نجعلُ من الحبة قبّة حينما يتضارب الأطفال أثناء اللعب، ويعلق كل منهم على الآخر؟!

بلى والله. لكنّ نتيجة هذه المسرحية الاجتماعية الواقعية في (عالم الطفولة البريئة) تنتهي بالمشادّات الكلامية بين الأمهات بالذات. الأطفال في غضون دقائق يتصالحون، وينسون ما حدث، بَيْد أنَّ الأمهات يزيدن النيران اشتعالا! حيث يتسابقن بإيصال الأنباء إلى (الأزواج) بسرد التفاصيل؛ بعد تطعيمها بالمبالغات والافتراءات. بهذا تنمو (الكراهية) على سفوح جبال (القلب)، ويأخذ (الحقد)طريقه الى القمم، ويتطاير غبار الزعل، وفجأة يتحوّل إلى إعصار!! بعدها يستعد (الظلام)لدوره ليحوّل أجواء الجنان (بفتح الجيم) إلى ليل بهيم؛ بعد معارك دامية تخرّ لها جنود النهار صرعى!! فيتحوّل القلب الأبيض النظيف إلى كتلة متحجرة من الفحم!.

من هنا تُصاب (القلوب) بالأمراض المعنوية العويصة المعقدة؛ الى جانب الأمراض الجسدية المنتشرة. وقد تحدّث عن هذه العلل الباطنة الخطيرة مشائخنا الثقاة قديماً وحديثاً.. ابتداء (بابن تيمية) و(ابن القيّم) رحمهما الله، وانتهاء (بابن باز) و(ابن عثيمين) أطال الله في أعمارهما.. وغيرهما.. وهكذا تتفكك الأسرُ، وتتقطع أغصان المحبة؛ التى كانت في يوم ما خضراء مزهرة. وقد يصل الأمر إلى اجتثاث شجرة القرابة من قرار الأمان! ولا شكَّ أنَّ للبعل دوراً كبيرا في هذه المسرحية الاجتماعية؛ عبر حياتنا الواقعية اليومية. على أنَّ النساء هنّ السبب في ذلك. لذا يتحتم على (الزوج) أنْ يكون رزيناً، أو كما يقولون (دبلوماسياً). ومع احترامى لمعشر الرجال أقول:

ما أكثر السذّج في هذا العصر! لاسيما من أضحوا بدون شخصية مميزة تسيطر عليهم زوجاتهم أنّى شئْنَ بطرقهنّ الخاصة.

رأيتُ نساءهم، ياحرَّ قلبى
تسوق رجالهم سَوْقَ البغال!!
إذا قال الرجال فلا سميع
وتنظر قولهم تحت النِّعال

بهذا وذاك اضطربت حياة الكثير من البيوتات في مجتمعاتنا ولا أعمّم. فأصبح الرجالُ نساء والعكس! عياذاً بالله.

نعم أصبحت (المرأة) هي كل شيء، فهي الآمرة والناهية والمحبوبة والمعصومة... الخ. يجب أن تُحترم المرأة.. لكن فى حدود الشرع. والكلام في هذا يطول.

خاتمة:

تعالوا لمحو الجهل والعلل التي
أحاطت بنا كالسيل تغمرُنا غمرا

عندما يكون الإيمان أقوى شيء في الإنسان

بهية بوسبيت - الاحساء -

إن المؤمن الحقيقي يعرف تمام المعرفة، أن مستقبل كل إنسان بيد الله سبحانه وتعالى، كما أن الإنسان العاقل الكامل الإيمان يدرك تمام الإدراك أن كل إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى مهما كان جنسه ولونه قد كتب الله له عمره ورزقه وأجله.. كما جاء في حديث مسلم وصحيحه[١] عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال يدخل الملك في النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمس وأربعين ليلة: فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، ذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم يطوى الصحيفة. فلا يزاد فيها ولا ينقص؟.

ولكننا كبشر نرى كثيراً من الحالات الإنسانية التي يصعب علينا معها الجزم بماهيتها، وإدراك حقيقتها، لأن هناك أموراً تتراءى لنا فنراها بوجهها المعكوس فمثلا نحن نرى أمامنا ثلاثة أنواع من البشر.

النوع الأول: نراه ونعرف انه خلق سعيداً لأنه من بداية حياته وحتى كبره نراه يعيش في رفاهية وصحة وله مكانة إجتماعية كبيرة الخ.

النوع الثاني: نراه ونعرف انه خلق ليعيش شقيا وذلك من بداية حياته وما يتعرض له في صحته وحياته وعمله ورزقه... الخ.

أما النوع الثالث: فهو الذي نراه ونسمع عنه ونتألم من أجله ونرثي له حياته التي سيعيشها شقيا معذبا محروماً وهؤلاء هم الذين يولدون معاقين أو يصابون بإعاقه بعد الولادة بأسابيع أو شهور قليلة نتيجة الإصابة

بأمراض خطيرة أو حوادث مرورية وغيرها ... الخ. ومنهم المصاب خِلْقِياً كالمتخلف عقليا أو المصاب بالعمي.. وكثيرا سمعنا وقرأنا عنهم وعن طفولتهم التى عاشوها فى ألم وشقاء، ولكن عندما كبروا أصبحوا علماء ورسامين مشهورين وأدباء معروفين.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على رحمة الله سبحانه وتعالى وعلى عظمته ورأفته بعباده، لأنه هيّأ لهذا المعاق حياة سعيدة كريمة ومستقبلا مشرقا بعيداً عن اليأس والألم والضياع وعوضه عن إعاقته وحرمانه وصبره بما وصل اليه من العلم والتفوق على غيره من الناس الأسوياء.

كما يدل على أنّ إعاقة الشخص ليس معناها أنه خلق ليكون شقيا ويعيش محروما معذبا والأمثلة كثيرة فكم من إنسان مصاب بإعاقة خدم وطنه وأهله وتبوأ مركزاً اجتماعيا كبيراً وخلد فى الحياة التى عاشها نكره، وكم من صحيح أصبح وبالا على أهله ووطنه ونفسه، المهم أننا لا نجزع ولا نفقد الأمل فى رحمة الله تعالى، ولا نصاب باليأس، عندما يصاب عزيز لدينا بأية إعاقة لا قدر الله لا سيما فى فترة الطفولة فالمستقبل كله بيد الله، وكل شيء بأجر من الله وأقدم للقارىء الكريم وخاصة المصابين بإعاقة أو أحد أقاربهم هذا النموذج المشرف والذي يبعث فى نفس كل انسان الفخر والاعتزاز به، على ما استطاع بارادته وايمانه القويين أن يصل اليه ويحققه بنفسه رغم إصابته بالعمى وعمره سنه ونصف سنه، حرم بسببها نعمة الرؤية ومتعة النظر، ولكنه كان يرى بإيمانه ويستمتع بقوة اتكاله على الله وظنه به وبمجازاته على صبره وتحمله وشكره.

إنه النموذج المشرف الأستاذ/ عبد الرزاق التركي (أول كفيف سعودي) يحصل على الماجستير فى العلاقات الدولية بأمريكا بعد أن درس بالمملكة وبريطانيا وأمريكا، ولم يدع مجالا لليأس أن يتغلب عليه، بل

فتح قلبه للإيمان، وعقله للعلم ووضع نصب عينيه أن يحقق حلمه وهدفه وهو إثبات وجوده وخدمة وطنه وممارسة حياته كإنسان عادي، بل إنه أفضل من كثيرين مبصرين

أوراق زوجية

أبو عواد / أم عمرو

٨١٤ـ أبو عواد:

مشكلة المرأة أنها تريد الحصول على النتائج أولا ثم تسدد فاتورة الأسباب بالتقسيط المريح وهذا أمر غير ممكن. وإن صح في تجارة السيارات لا يصح في متطلبات الحياة الزوجية. إننا للأسف أمام زوجات اعتمدن الكثير من الكلام والقليل من الفعل والالتزام، أسلوباً في حياتهن وهذا يعني الكثير من المشاكل مع الرجال الذين بطبعهم يفضلون رؤية الحقائق على الأرض لا سماعها في تنظيرات جوفاء حول مائدة مستديرة.

٨١٤ـ أم عمرو:

لا يستطيع الإنسان الحصول على قرض بدون ضمانات إلا من مغفل والزوجة كذلك ستقرض أسرتها حياتها لو اطمأنت أن الزوج لن يسرق ثمار هذه الحياة ليعطيها لأخرى. ثم لماذا نغضب من هذا النمط؟ أليست كل الزيجات عندنا تبدأ بهدية يقدمها الزوج لزوجته؟

٨١٥ـ أبو عواد:

لو كان لي من الأمر شيئ لأمرت بأن يحبس الشعراء والمتشاعرون والممثلون والمتمثلون والعاشقون والمنافقون والكذابون الذين ما فتئوا يتذللون في بلاطك حتى أداروا رأسك وأصموا أذنيك التي لم تعد تلتقط من الأثير غير موجات الإطراء والاستحسان حتى أصبحت أضحوكة القرن الحادي والعشرين.

٨١٥ـ أم عمرو:

أرى أن الرجال الذين يتصورون أن المرأة مازالت هذا المخلوق الذي يدير رأسه الإطراء هم كالسلاحف التي أدخلت رأسها في صدفتها منذ القرن التاسع عشر ومازالت خائفة ان تخرجها مرة أخرى.

٨١٦ـ أبو عواد:

انني لا أعوّل كثيراً على نسائنا طالما حرصن على نقل معدات المكياج وأدواته معهن في حقيبة اليد حتى ومن ذاهبات للتعزية في فقيد.

٨١٦ـ أم عمرو:

اذا كنت لا تعوّل كثيرا على نسائنا اللاتي يحملن أدوات المكياج معهن في كل مكان فلماذا تعول كثيرا على رجالك الذين يحملون أدوات قص شعر الذقن والشارب معهم أينما ذهبوا؟

٨١٧ـ أبو عواد:

يا حماتي العزيزة.. المركب الذي به بحارين يغرق.. اتركيني وشأني أنا وزوجتي.. وتأكدي أننا لا نشك في أنك تريدين مصلحتنا وأنك تحبيننا.. فأحياناً من الحب ما قتل.

٨١٧ـ أم عمرو:

اذا امتلأ الإناء فاض بما فيه. والزوجة التي تجد أذنا صاغية من زوجها واهتماماً بما تقول لا تلجأ بشكواها لأحد حتى أمها، وكما قال الشاعر:

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة
ولكن تفيض النفس عند امتلائها

٨١٨ـ أبو عواد:

أبدا لست معقداً كما تدّعي زوجتي ولست ملاكاً كما تدعي أمي أحياناً.. كل ما في الأمر أنني أسعى لإرضاء الثانية فيما تريد الأولى أن يكون الطريق الى قلب أمي مروراً بقلبها هي لكنه طريق يوشك أن يكون مقفلا على الدوام.

٨١٨ـ أم عمرو:

إرضاء الأم وإرضاء الزوجة شيئان مختلفان تماماً وربما يكون أفضل ما يبدأ منه الزوج للنجاح في هاتين المهمتين التمييز بينهما.

٨١٩ـ أبو عواد:

ليست العبرة في مقدار ما صرفت هذا الشهر. ولكن العبرة في مقدار ما وفرت فيه. انها ليست دعوة للبخل والتقتير بل جرعة تدبير قد تنفعك عندما ينقطع التيار.

٨١٩ـ أم عمرو:

يوفر الإنسان عندما يثق أن ما يوفره سيبقى له وكثير من الزوجات ينفقن كثيراً على مبدأ «قصي ريش الطير حتى لا يطير لمكان آخر» وإذا اقتنعت الزوجة أن طول ريش الزوج سيصبح مظلة تحميها وتحمي اسرتها ستنسى هذه الحكمة الازلية وتوفر.

٨٢٠ـ أبو عواد:

لا أقول إنك ذات بصيرة ولكني أقول إن لك عينين لا ترين بهما الا ما كان أمامك أو ما أرشدك اليه.

٨٢٠ـ أم عمرو:

الإنسان يرى بعقله وليس بعينيه فالأطفال لا يتصورون ان ما يختفي من أمام عيونهم مازال موجوداً. واذا توقف عقل الإنسان عند نقطة معينة كما نفعل مع الكثير من فتياتنا فستتحدد رؤيتهن في هذا المدى ولا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى.

٨٢١ـ أبو عواد:

الحب كلمة طالما رددها كل منافق وكل كاذب وكل خائن وكل خائنة حتى تبرأت من ألسنتنا وصار يعف لسان الجادين عن قولها لأن امتيازها صار على ما يبدو قصراً على مجموعة من الساقطين والساقطات فتعالي نقول أقدرك/ أحترمك/ معجب بك .. الخ.

٨٢١ـ أم عمرو:

القضية في الحب ليست قضية كلمات ولكنها قضية معان وسلوكيات وكلمة الحب كلمة جميلة ومؤثرة وإلا ما كان من أدعيتنا المأثورة «اللهم اني اسألك حبّك وحبّ من يُحبّك وحبّ عمل يُقربني إلى حُبّك» فدعونا نستخدم الكلمات في مواضعها ونحسن استخدامها ولسنا بحاجة للتشدق بمزيد من الرموز فقاموسنا كبير والحمد لله ولقد أصبحنا نتفاهم ونعبر بصعوبة لكثرة الكلمات التي تشير إلى معنى واحد في لغتنا العزيزة.

٨٢٢ـ أبو عواد:

الأمهات في هذا العصر للأسف تَخَلَّين عن دورهن الريادي في تأهيل بناتهن للزواج .. لقد أصبحن يركزن على جانب تافه منه .. انهن يتباهين بجمال بناتهن وأن الكل يتمناهن والخطاب يتزاحمون ويفترشون الأرصفة عند الباب .. انهن أمهات تافهات حقاً .. وإلا لما زججن ببناتهن الى ساحة الحياة الزوجية دون عدة أو عتاد غير تلك المسحة من الجمال الموجودة على بعض الدمى في محلات اللعب والهدايا.

٨٢٢ـ أم عمرو:

أعتقد أن مهمة تربية الزوجة الناجحة والأم الصالحة مهمة كبيرة وجسيمة لابد أن تقوم بها المدرسة جنبا إلى جنب مع الأسرة. ولكني أيضاً أعتقد أن الاهتمام بالمواصفات الشكلية للفتاة من جانب أسرتها ومن جانبها سببه الحقيقي ليس تفاهة الأمهات ولكن تفاهة الراغبين في الزواج من الرجال الذين يسألون أول ما يسألون عن شكل العروس.

٨٢٣ـ أبو عواد:

المرأة السوداء هي ليست سوداء البشرة وكذلك البيضاء هي ليست التي تغني فيها المغني واصفاً خدها بـ «قرص الجبنة» كناية عن البياض.. وعليه فالمرأة البيضاء هي بيضاء القلب لا بيضاء البشرة.. فكم من سوداء البشرة هي بيضاء السريرة وكم من البيض من هن أقرب الى السواد منه الى البياض.

٨٢٣ ـ أم عمرو:

لا علاقة بين لون البشرة ولون النفس وكثير ممن افتقدن جمال الشكل يحاولن تعويض ذلك بجمال النفس.

٨٢٤ـ أبو عواد:

كل الزوجات يدعين أمام أزواجهن أن رضاهم أول وآخر همهن. وهذا في الزمن الضائع على شواطىء الأحلام السعيدة أما على بلاط الواقع فهن أول من يرفع ضغطهم.

٨٢٤ـ أم عمرو:

أعتقد أن أهم عامل يساعد على رفع ضغط دم الأزواج (بعد الملح) هو ضيق صدورهم واتساع السنتهم.

٨٢٥ـ أبو عواد:

أنانية الزوجة المتمثلة في نزعتها النرجسية للاستئثار بزوجها لها وحدها على حساب آخرين هو الملزم أساساً برعايتهم لا يجعلها فقط تبوء بكراهيتهم وحدهم وانما كذلك ستؤلب عليها البقية الباقية من «دراهم» محبتها في قلب الزوج نفسه.

٨٢٥ـ أم عمرو:

حب الزوجة ان تستأثر بزوجها غريزة طبيعية وضعها الله في كل مخلوقاته، يخفف من حدتها أن تقنع الزوجة بسلوكنا ـ أنها لا تحتاج لها، وأن نشجعها كلما حاولت أن ترتفع عليها. وبالمناسبة الأزواج يغارون أيضا من أقارب زوجاتهم ويحتاجون لمثل هذه المعاملة.

رسائل إلى السيدة هند

من إيليا أبي ماضي

محمد عبد الواحد حجازى
مصر

* شاعر لبناني معاصر
* من شعراء المهجر.
* يمتاز شعره بالرقة والعذوبة والخطرات النفسية الدقيقه.
* تغلب على شعره مسحة الأسى.

حبيبتى هند:

رسالتى إليك تحمل نبض قلبى .. خفقات روحى .. رواء أحلامى..

رسالتي إليك يرددها أرز لبنان عشقاً ندياً وعطراً فاغما يعبق جباله ووديانه.

رسالتى إليك يا حبيبتى أنشودة حب أرتلها على قيثارة اغترابى عنك، بل اغترابى عن لبنان الحبيب.

إن أشد ما أحرص عليه هو حرصى على حبك لأن فيه حياتى وآمالي وأحلامى..

فيه كيانى ومصيرى، فيه لبنان.

ياحب لبنان، فى عالمى البعيد، هل تظنين أننى أنساك وأنت روحى، وأنجم سعدى؟ .. فى عالم الترف الأخرق المجنون، هل تظنين أننى فتنت به عنك وعن لبنان؟.. لا يفعل ذلك إلا من أثم قلبه:

أنا فى عالم قصي سحيق ... لا أراها لكن روحى تراها
قد نشقت الأزهار فى كل أرض ... يا شذاهن لست مثل شذاها
كيف أنسى وأينما سرت الد ... نيا أرانى أسير فى دنياها
وإذا ما لمحت فى الأرض حسنا ... فكأنى لمحتها إياها
وإذا داعب النسيم ردائى ... قلت: قد علمته هذا يداها
هى أدنى من الأمانى إلى قلـ ... بى وقلبى يصيح ما أقصاها
لست أشكو النوى ملا لا ولكن ... طرب الروح أن تنيخ جواها

حبيبتى هند:

رسالتى تعطيك صورة حية لحياتى ومعيشتى، وكيف يفكر عقلى ويتصور خيالى .. وكيف يفكر بعضنا نحن معشر العرب حين نغترب ونبعد عن أرضنا. لقد علم القوم أننى مشغول بحبك، شغلانه تنسم أخبارك من ذويك وأهلك الذين تراسلينهم، وأن اسمك من طول ترنمى به أمامهم جعلهم يتهكمون عليَّ ثم يسخرون منى. ثم قالوا: والله إنك تفتأ تذكر هندا حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين.. تذكر ابن الملوَّح وقد صار إلى الجنون .. وتذكر عروة بن حزام وكيف فارقه الحزم وانتابه الغم يوم أحب عفراء .. وتذكر قيس بن ذريح وما جرى له من لبنى .. خذ من هؤلاء العاشقين عبرة لك، وعظة حتى لا تفقد عقلك أو تفقد نفسك فتكون من صرعى الهوى. ثم نصحونى بأن أقرأ سيرة عمر بن أبى ربيعة الذى نعم بالعشق وسعد. فقد كان لا يحب إلا ليمتع ناظريه بملاحة الجميلة.. ثم ينتقل منها إلى أخرى. وكذلك نعم بدنياه.. تأس بشعار ابن أبى ربيعة واحفظه جيداً لتسلم من آفة الحب .. لقد قال:

وإننى مغرم بالحسن أتبعه ... لا حظ لى فيه إلا لذة النظر.

أما أن تحب على شاكلة العذريين فذلك هو الإثم المبين.. ذلك ما قاله اللائمون واحتجوا له محتكمين إلى تاريخ العاشقين.

أجل يا حبيبتى:

قال قوم إن المحبة إثم ... ويح بعض النفوس ما أغباها
إن نفسا لم يشرق الحب فيها ... هى نفس لم تدر ما معناها

حبيبتى هند:

ثم جاءني قوم من أصدقائي فيهم القريب وفيهم الحكيم الأريب ليعرفوا حقيقة حبي لك ولهجي باسمك وشغفي بصورتك. قال أحدهم : هل تشتهي الوصول إليها؟ قلت: إني لا أشتهي إلاها.. وقال آخر: ولماذا هجرتها إذن ما دمت لا تصبر على الاغتراب؟ ولماذا هجرتها وقد صرت مدنفاً ضاوياً من الحنين إليها؟ أنت الآن في الدنيا الجديدة فعشها كما هي بترفها وشظفها بأهلها وناسها.

أما أن تغضب عليها وتتأفف منها، فلماذا جئت إذن؟ أي دنيا تريدها؟ هل تريد دنيا غير التي يعرفها الناس وفيها يعيشون وفيها يموتون ومنها يبعثون؟ فقلت صارخاً: يا قوم، بل يا أهلي وأحبابي، أريد دنيا لا تصطرع فيها الأنانية والنزوات والشهوات.. أريد دنيا لا يدنسها الجشع ولا يشوهها الحسد .. أريد دنيا لا يعكر صفوها النفاق والخداع:

أريد دنيا بها شعاع
يبقى إذا غابت النجوم
أريد دنيا تحس نفسي
فيها نفوساً بلا جسوم

وقال صديق، ويا هول ما قال: إذا كنت لا تصبر على فراق هند فلماذا غادرت لبنان .. إن في قلبك سراً يؤرقك ويسهد فؤادك .. فقلت له:

خلت أني إذا بعدت سأنسا
ها ويطوي الزمان ستر هواها
وتوهمت أنني سوف ألقى
ألف ليلى وألف هند سواها
فإذا الحب كالفضاء وقلبي
طائر في الفضاء ضل وتاها

ثم قال صديق آخر: أنت من صنف غريب من الناس لا تصبر على قربها ولا تصبر على فراقها.. أنت تعيش قلقا لم يعانه محب قبلك.. إنه القلق من الحب والقلق على الحب. إن هذه المعاناة البرزخية هي لباب الإحساس الوجودي بالوجود والحياة.. وهنا تبلغ الذات أسمى إدراك لذاتها.. فقلت لذلك الصديق: يا سيدي لست فيلسوفاً.. أنا شاعر .. لست أجهل ذاتي ولا كياني:

أنا قطرة لمعت في الضحى
قليلا على ضفة المشرع
سيأتي عليها المساء فتغدو
كأن لم ترقرق ولم تلمع
سيمشي عليها السكوت فتمسي
كأن لم تمر على مسمع
أنا شبح راكض مسرع
مع الزمن الراكض المسرع
سيرخي عليه الستار ويخفى
كأن لم يجد ولم يهطع
أنا موجة دفعتها الحياة
إلى أوسع فإلى أوسع
ستنحل في الشط عما قليل
كأن لم تدفع ولم تدفع

حبيبتي هند:

أتدرين كيف استقبل القوم كلماتي، بل آهات عذابي وضني روحي وهي تفتر عن همس الأسى؟ نظروا إليّ في إشفاق وفقدان لكل رجاء.. تلاقت نظراتهم وكأنهم أرادوا أن يقولوا: مسكين والله، لقد ذهب عقله. إنهم وقد جمدت مشاعرهم لا يحسون بالحياة ولا يدركون لها معنى أو غاية. هي عندهم: أكل وشرب وقضاء أوطار..

إنما الدنيا روح مفراحة متعابثة في براءة شجية وما دنياي إلا أنت يا هند.. عجيب أمر شعوري الآن وأنا أختم رسالتي إليك .. لقد ترددت طويلا أمام العبارة التي أجعلها مسك ختام لك .. وفجأة رأيتني وقد احتوتني حالة نفسية عجيبة .. رأيتني أبكي صباي الذي لازال نضراً فتيا؛ فيا عجبا لهذا الشعور الذي انتابني إنه من فيض حنيني إليك وخوفي عليك من الدنيا:

بكيت الصبا من قبل أن يذهب الصبا
فيا ليت شعري ما تقول إذا ولى
توهمته يبقى إذا أنت صنته
عن الشفة الحمراء والمقلة الكحلا
وخلت الهوى جهلا فلم يكن الهدى
أخيراً سوى الأمر الذي خلته جهلا
خشيت عليه أن يطوحه الهوى
فألقاك هذا الخوض في الهوة السفلى
أتلجم ماء النهر عن جريانه
مخافة أن يفنى؟ إذن فاشرب الوحلا
سيبلى الصبا مهما حرصت على الصبا
فدعه يذوق الحب من قبل أن يبلى

المعرفة وسلطانها

بقلم:
محمد العربي الخطابي
- الرباط -

النجوم تبزغ وتأفل، والشمس تترددُ بين المشرق والمغرب، والأنوار تشعُّ وتخبو، والسماوات تصفو وتتلبد، والأرض تبدو ثابتة وهي مع ذلك تدور، والعناصر المادية تتفاعل فيحدث من تعانق جواهرها تحولات تنتظم بها قوانين الوجود؛ والضوء والظلام يتداخلان، والحركة والسكون يتعاوران، والزمان والمكان يلتقيان ويفترقان، والكون يبدو ثابتَ الجوهر وهو مع ذلك متغير الأعراض.

وما من شيء إلا ويسبح في فلك معلوم ويلتمس لنفسه سبلا تؤدي به إلى أقصى غاياته، والإنسان يقف أمام هذا الحفل الحاشد موقف الدهشة، والدهشة تثير في نفسه التطلع إلى المعرفة، فإذا نال منها قبساً رغب فى المزيد لجني ما يطيب من ثمارها، وتصحيح ما يتعين تصحيحه من كلياتها وجزئياتها أملا في توجيه المسيرة الإنسانية نحو الأفضل من شؤون الحياة.

قد يعجب المرء أشد العجب وهو يستعرض أشواط المسافة الطويلة التي قطعتها الإنسانية في سبيل تحصيل المعرفة، والغوص فى أسرارها، واستخلاص فوائدها النظرية والعملية لتقويم النفس والبدن وتنظيم شؤون المعاش والتعايش بالتجربة المتكررة، والنظرة المتجددة ومراقبة ما يحدث فى الكون من ظواهر وتغيّرات تقع تحت الحس أو تغيب عن دائرة الإدراك.

لقد تمكن الإنسان من تقسيم الزمان وضبط المواقيت برصده لحركة الأجرام السماوية، وابتكر الكلام والكتابة والرموز من أجل التواصل وتسهيل انتقال المعارف المحصَّلة من جيل إلى جيل، واهتدى إلى معاناة الصيد والقنص والزراعة وتدجين الدواب والطيور من أجل الاستقرار وتنظيم الاجتماع والعمران، واستخرج المعادن من باطن الأرض لاستعمالها فى شتى أغراضه المعاشية، واكتشف مصادر الطاقة من نار وماء وهواء، وادخر الأقوات لوقت الحاجة، واستبدل الفائض منها بالمقايضة والبيع والشراء، ثم بنى الأكنان، ومهّد المسالك فى البرِّ والبحر والسماء، وأرسى قواعد العمران والأخلاق، وتلقى الشرائع عن الأنبياء والرسل وسن الضوابط والقوانين وفق منظوره للخير والشر، والحق والباطل، والعدل والجور فى دنيا تطبعها عوامل الصراع بين القوة والضعف الكامنة في حقيقة الوجود، والمهيمنة على علاقات الموجودات بعضها ببعض.

وهكذا نشأت أنظمة السلام والحرب، واستقرت ضوابط التدبير والسياسة، وانتظم الاجتماع والعمران ، وتشكلت مظاهر الحضارات التى تدفع الإنسان بلا هوادة إلى التمادي في اقتحام آفاق المعرفة لاكتناه حقيقتها واستنباط خفاياها سعياً وراء الكمال الممكن، وطمعاً في نيل السعادة التي لا يدرك الإنسان منها إلا أقل القليل.

المعرفة بابها الإدراك، وأدوات الإدراك الحواسُّ الظاهرة والباطنة كالسمع والبصر والشمّ واللمس والفكر والبديهة والخيال والحافظة.

والمعرفة صنفان: معرفة يسعى بها صاحبها إلى الكمال الممكن، ومعرفة يروم بها التواصل مع غيره؛ فغاية الأولى إدراك الحقائق الكلية التى تنبثق كالنور فى أعماق الباطن وتسري في مسالكه ثم تنفذ إلى العالم الخارجي لتندمج فيه وتضيء جوانبه.

وأما المعرفة الرامية إلى التواصل فغايتها اكتشاف الحقائق البسيطة التى بها تتقوّم أسباب المعاش، وينتظم العمران، وتنتقل أعلام الحضارة من أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل.

الحقيقة الكلية طريقها معرفة النفس ما لها وما عليها، وغايتها معرفة الصانع بتأمل مصنوعاته، وإجالة النظر فى واسع أكوانه وعجيب إبداعه ومُحكم تدبيره. أما الحقائق البسيطة فلا يُحصيها عدّ، ولا يحيط بها بصر، ولا يقدر على استيعابها فؤاد، إذ فيها الجواهر والأعراض، والحركة والسكون، والنور والظلمة، واللون والعتمة، والظهور والخفاء، وهي كلها متناهية تسعى إلى غايتها المحتومة، وتخضع لسنن لا يصيبها وَهَنٌ ولا يعتريها تبديل.

إنك تعرف الطريق والدار والصديق، وتعرف أن النار محرقة وأن الثلج بارد وأن الشمس مضيئة بذاتها، وأن كل كائن، جليلا كان أو حقيراً، محكوم عليه بالفناء والتلاشى، تعرف ذلك وأمثاله بالغريزة والبداهة، ولكنك لا تعرف لماذا كانت الشمس شمساً والقمر قمراً والرياح رياحاً والزهور زهوراً، بل إنك لا تعرف لماذا كان الإنسان إنساناً ولم يكن من جملة الدواب والطيور والزواحف، كما أنك لا تعرف لماذا يدبُّ النمل ويسعى، ولماذا تتفتح الورود ثم يصيبها الذبول ليطلع فى مكانها ورد آخر متفتح ويانع.

فكيف بك إذن أن تعرف لماذا كان الزمان بحسابك فيه الماضي والحاضر والمستقبل ولم يكن امتداداً لا يقبل التجزئة ولا يُصيبه تقسيم؟ «لماذا» هذه هي بابُ العلم والجهل، والعرفان والنكران، والنباهة والغفلة، وكل شيء له ضدٌّ ونقيض، وظاهر وباطن، وعلّة وغاية.

المعرفة تحصل من طرق شتى أهمها: الفطرة والاستدلال العقلي والحَدْس؛ وأقْوَمُ هذه الطرق وأعلاها هو الحَدْس الذى ينبثق من الباطن بقوة الإلهام وصحة الرؤية وصواب التوجه، فإذا صاحبَتْ الحَدْسَ سلامةُ الفطرة وطول التجربة وقدرة العقل على الاستدلال اكتملت المعرفة وانكشفت خباياها واستبانت حقائقها واستقرّ اليقين في ضمير صاحبها.

المعرفة والعلم قريبان في المعنى وبينهما مع ذلك فارق دقيق لا يخفى على البصير. فالعلم يتعلق بمعلوم خفي يراد إظهاره وإثباته وقوامه القياس والتجريب والاستقراء والاستدلال وغير ذلك من أدوات النظر وهذا إذا تعلق الأمر بالعلم المنسوب إلى المخلوقات البشرية، أما علم الله فلا حصر له ولا حدّ، فهو مطلق شامل لا يحجبه زمان ولا يضيق به مكان. وأما المعرفة فتتعلق بمجهول يراد كشفه، وقوامها الحدس ونفاذ البصيرة وإطالة التفكر والتدبر.

والعلم الغريزي قد يكون طريقاً يوصل إلى المعرفة اليقينية التي تؤدي بصاحبها إلى فهم أحوال الموجودات بالنظر الدائم في آثار الصانع والاطمئنان إلى بديع صنعه ومحكم تدبيره، وإشاعة الحق والخير والعدل والحكمة بين خلائقه، فتلك أعلى المقامات ومنتهى المعارف، وغاية الغايات.

علوم:



التوجه عند النباتات

محمد فيض الله
الحامدي
- سوريا -

عندما يشعر الحيوان بالعطش يتحرك بحثاً عن الماء ، فيسترشد بحاسة البصر والشم، وعندما ترتفع درجة الحرارة في يوم قائظ يبحث الحيوان عن مكان يقيل فيه، بظل جدار أو صخرة أو شجرة، ولا يتوقف عن الحركة في بحثه عن الغذاء، فالتوجه نحو الهدف عند الحيوان مألوف، وتلعب الجملة العصبية الراقية دوراً أساسياً في توجيه الحيوان، فهل تمتلك النباتات حساً للتوجه رغم عدم وجود جملة عصبية لها؟

إن النباتات رغم ثباتها في المكان عموماً، تُبدي حركات غريبة، وهي تملك قدرة على التوجه نحو عوامل خارجية، تساعدها على أداء وظائفها الحيوية ونستطيع بشيء من التحفظ أن نقول: يمتلك النبات حساً للتوجه من أجل البقاء على قيد الحياة.

فلماذا يتجه الجذر نحو الأسفل؟ ولماذا يتجه ساق النبات نحو الأعلى؟ ولماذا تلتف بعض السُّوق على الدعامات؟.

لا شك أن ظواهر عديدة في النباتات أثارت انتباه كل إنسان، ولكن معرفة أسرارها وأسبابها لا تتحقق إلا بالملاحظة المستمرة، والتجارب المضنية وهذا ما قام به علماء النبات ويقومون به باستمرار.

وفي هذا البحث سوف نتناول ظاهرة الانتحاءات عند النباتات، في محاولة لتعليل ظاهرة ميل الساق للأعلى ونحو الضوء، واتجاه الجذر دائماً نحو الأسفل أو نحو مواد كيميائية... الخ.

وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع لابد من أخذ فكرة عن أشكال الحركات في النباتات بشكل مختصر، لأن الحركات متداخلة، فكل حركة ظاهرة تتضمن حركات أخرى قد لا يلاحظها الإنسان إلا بالملاحظة الواعية. ويمكن إرجاعها إلى أسباب غير الأسباب الحقيقية.

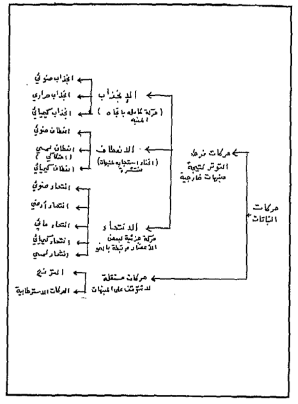
تصنف حركات النباتات في مجموعتين:

أولاً: حركات فرط التوتر: نتيجة عوامل خارجية كالضوء والحرارة والماء والجاذبية الأرضية (الثقالة) والمواد الكيميائية. ويمكن تصنيفها أيضاً إلى ثلاثة أشكال من الحركات هي: الانجذاب Taxis والانعطاف Mastic والانتحاء أو التأود Tro-pisme وكل شكل من هذه الأشكال يأتي كاستجابة لعامل خارجي فيسمى باسم ذلك العامل، فهناك على سبيل المثال انجذاب ضوئي وانعطاف ضوئي

وانتحاء ضوئي.

ثانياً: حركات مستقلة: لا تتوقف على المنبهات، مثل ترنح النبات أثناء النمو وحركات الاسترطاب (الجفاف والرطوبة).

* **والمخطط التالي يوضح أشكال الحركات المختلفة.**



ومن المفيد الإشارة إلى أمثلة من تلك الحركات:

أولاً: الانجذاب: Taxis هو حركات تقتصر على الأحياء النباتية الدقيقة وحيدة الخلية كالجراثيم، أو على الأجزاء المتحركة في النباتات كثيرة الخلايا مثل الصانعات الخضراء وبعض العضيات الخلوية، والخلايا الجنسية (الأعراس).

والحركة هنا كاملة في اتجاه المنطقة المعنية بتأثير المنبه، فإذا كانت الحركة باتجاه المنبه وُصفَت بالايجابية وإذا كانت ابتعاداً عن المنبه وصفت بالسلبية. ومن الانجذابات:

الانجذاب الضوئي Phototaxis وأشهر الأمثلة على ذلك تحرك الصانعات الخضراء فى النسج الدعامية بتأثير الضوء معتدل الشدة وتوضعها بشكل عمودي على اتجاه الاشعة لتشكل أوسع سطح مستقبل للضوء، لذلك تظهر بشرة الأوراق النباتية اكثر اخضراراً في الصباح والمساء، أما في الضوء الشديد فتتحرك الصانعات مبتعدة عن السطح وتتوضع بشكل موازٍ للأشعة. وتتحرك الأوغلينا Eu-glena وهي من وحيدات الخلية لها سوط تستخدمه في الحركة وتحتوي على صانعات خضراء لذلك تصنف مع النباتات غالباً ولها بقعة حساسة للضوء تسمى البقعة العينية، تتحرك باتجاه الضوء لتقوم بالتركيب الضوئي.

الانجذاب الحراري Thermotaxis: يلاحظ في عالم البكتيريا، فإذا وضعنا بعض الجراثيم المتحركة على شريحة زجاجية وسخنا أحد طرفيها وفحصناها بالمجهر نلاحظ حركة الجراثيم باتجاه الجانب الدافيء لأن نشاطها في هذا الوسط أفضل من الناحية الفيزيولوجية.

الإنجذاب الكيميائى Chemotaxis: يحصل للجراثيم، والأعراس المذكرة في النبات فبعض الجراثيم تنجذب للسكريات أو للبروتينات، والأعراس تتحرك بتأثير منبه كيميائي باتجاه البيضة للتلقيح.

ثانيا: الإنعطاف: Nastic: هو حركات تحدث بتأثير عوامل خارجية ولكن ليس بالضرورة أن تكون جهة حركة النبات مرتبطة بجهة المنبه، وهي حركة بعض أعضاء النبات.

فالانعطاف الضوئي Photo nasty يحدث في كثير من أعضاء النباتات، نذكر منها نبات اعجوبة البيرو Marvelofperu ، ينفتح تويج أزهاره في المساء بغياب الضوء وينغلق في الصباح، وأزهار زنبق الماء تسلك عكس ذلك.

وبعض النباتات تطبق أوراقها الخضراء ليلا وتبسطها نهاراً مثل الست المستحية (Mi-mosa) والبرسيم وغيرها. ويرجع السبب إلى انتقال العصارة من نقاط اتصال الأوراق بالساق إلى أماكن أخرى فترتخي الخلايا ولا تقوى على حمل الأوراق. ويمكن أن يتداخل الانعطاف الحراري Thermo nasty مع الانعطاف الضوئي لأن الضوء يحمل قدرة حرارية.

والانعطاف الاحتكاكي: Tigmo nasty يلاحظ في بعض النباتات، فالست المستحية Mimosa إذا لمسنا غصناً منها، يحدث رد فعل فوري يؤدي إلى ذبول الغصن لفترة معينة، وفي نبات الدايونيا Dionaea (صائد الذباب) - توجد على سطح الورقة (المصيدة) ثلاث شعيرات حساسة إذا لمستها الذبابة أو الحشرة تطبق الورقة مصراعيها بسرعة كبيرة لتحتجز الحشرة وتهضمها فيما بعد.

والانعطاف الكيميائي: Chemo nas-ty يلاحظ في نبات الندية Sundew وهو نبات من آكلات الحشرات، توجد على الأوراق شعيرات تنتهي بكتل لزجة فإذا لمست حشرة سطح الورقة تتنبه الشعيرات برائحة أحد البروتينات في الحشرة، فتنحني الشعيرات لتمسك بالحشرة كي تهضمها للحصول على حاجتها من المركبات الأزوتية.

ثالثا: الإنتحاءات Tropismes :

هي حركات بطيئة، تترافق مع النمو، وهي معقدة، تحدث بتأثير عوامل خارجية وسوف نتناولها بشيء من التفصيل، بعد الاشارة إلى الحركات المستقلة في النبات.

إن الساق أثناء نموه يترنح دون أن نلاحظه، وقمّته ترسم مساراً حلزونيا، فإذا صورناه على فيلم سينمائي وأعدنا العرض بسرعة لاحظنا حركة حلزونية لقمّة الساق. وكثير من السوق تستقيم عند الجفاف وتنحني بالرطوبة وهذا ما يسمى بالحركة الإسترطابية.

إن الانتحاء في النبات يشبه الانجذاب ويختلف عنه في أنه جزئي أي الانتقال فيه غير كامل، وكذلك في المدة الزمنية، فالانتحاء بطيء نسبياً يترافق مع النمو.

تصنف الانتحاءات بحسب العامل المسبب لها، ولذلك نجد الانتحاء الضوئي والانتحاء الأرضي والانتحاء المائي والانتحاء الكيميائي والانتحاء الاحتكاكي أو اللمسي.

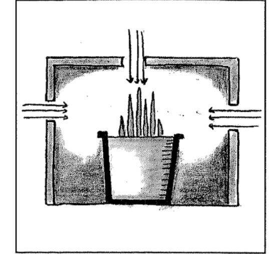
أولا: الانتحاء الضوئي: Phototropisme

يتجه ساق النبات أثناء نموه نحو الضوء إذا كان وارداً من جهة واحدة والتجربة التقليدية على ذلك، إذا زرعنا القمح أو الشعير في أصيص وبعد خروج البادرات نغطي الاصيص

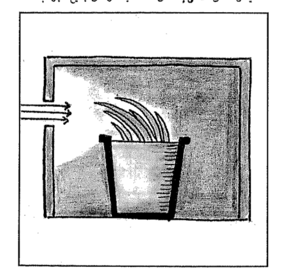
بصندوق خشبي فيه فتحة صغيرة جانبية ينفذ منها الضوء، وبعد عدة أيام نرفع الصندوق فنشاهد أن كافة السوق مائلة باتجاه الفتحة. أي الساق في النبات ينتحي بشكل ايجابي بالنسبة للضوء.

وأجريت تجارب على الجذور لنباتات زرعت في مناخل فتبين أن الجذر يهرب من الضوء أي انتحاؤه سلبي.

والملاحظ أن معظم الأوراق الخضراء للنباتات تتخذ وضعا بحيث تكون أشعة الضوء عمودية على سطحها فهذا الإنتحاء جانبي.



- ينمو الساق للأعلى إذا كان محاطاً بالضوء من جميع الجوانب.

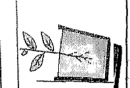
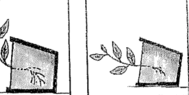
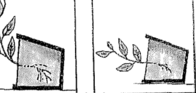


- يميل الساق نحو الضوء إذا ورد من جانب واحد.

ثانيا: الانتحاء الأرضي: gedtrooisme

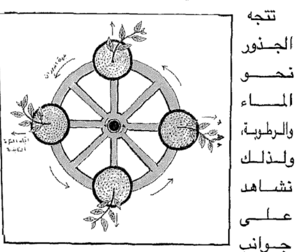
يتجه الساق نحو الأعلى بعكس اتجاه قوة الجاذبية، بينما يتجه الجذر نحو الأسفل باتجاه قوة الجاذبية وكان التعليل سابقاً أن الساق محب للهواء لذلك يرتفع نحو الأعلى بينما طبيعة الجذر تفرض عليه أن ينغرس في التربة لامتصاص الماء والأملاح المعدنية أي لم يفكر أحد بقوة الجاذبية، وبعد اكتشاف قانون الجاذبية من قبل العالم الانكليزي اسحق نيوتن بدأ التفكير في تأثيرات الجاذبية على النبات، فهل انتحاء الجذر نحو مركز الأرض هو بفعل قوة الجاذبية؟

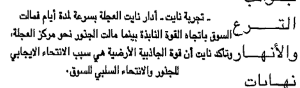
أجرى العالم الانكليزي نايت تجربة بارعة لاثبات تأثير قوة الجاذبية ثبت نايت مجموعة أصص فيها بذور منتشة على محيط عجلة يمكن أن تدور حول محور. فأدارها ببطيء عدة ايام فلم يلاحظ شيئاً، وعندما أدارها بسرعة لمدة أيام أخرى لاحظ أن السوق النامية تتجه نحو مركز العجلة، وعندما نزع البادرات وجد أن الجذور متجهة بعكس اتجاه السوق أي باتجاه خارج محيط العجلة وكما نعلم أن أي جسم يدور بحركة دائرية يولد قوة نابذة جهتها الابتعاد عن مركز الدوران، لذلك علل نايت ميل السوق نحو مركز العجلة، أنها انتحت باتجاه معاكس لجهة القوة النابذة، وانتحت الجذور باتجاه القوة النابذة. وقوة الجاذبية تماثل القوة النابذة من حيث تأثيرها في النبات، لذلك يتجه الجذر نحو الأسفل والساق نحو الأعلى.

ـ يتجه الساق نحو الأعلى بعكس اتجاه الجاذبية الأرضية.

ثالثا: الانتحاء المائي (الرطوبي) Hydrotropisme





ـ تجربة نايت ـ أدار نايت العجلة بسرعة لمدة أيام فمالت السوق باتجاه القوة النابذة بينما مالت الجذور نحو مركز العجلة، وتأكد نايت أن قوة الجاذبية الأرضية هي سبب الانتحاء الايجابي للجذور والانتحاء السلبي للسوق.

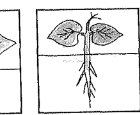
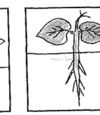
تتجه الجذور نحو الماء والرطوبة، ولذلك نشاهد على جوانب الترع والأنهار نهايات الجذور بارزة تهدف الوصول إلى الماء. ولهذا السبب يتجنب مهندسو المجارى في المدن إمرار التمديد قريباً من الأشجار، خشية أن تتجه الجذور إلى مواسير أو قساطل المجرى في حال تسرب المياه، فتؤدي إلى تخريبها وانسداد المجرى.



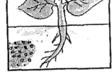
ـ تتجه جذور الفاصوليا نحو الرطوبة (الماء) المترشح من الحوض.

ويمكن اثبات انتحاء الجذور باتجاه الرطوبة بتجربة بسيطة، تزرع عدة بذور فاصولياء في مكان معين ويثبت حوض فخار في جهة واحدة من البذور ويصب فيه الماء باستمرار فيترشح ببطيء وبعد عدة أيام نلاحظ أن جذور الفاصولياء مالت باتجاه الحوض (مصدر الرطوبة) كما في الشكل التالي:

رابعا: الانتحاء الكيميائي: Chimotropisme

ـ الجذر ينمو رأساً.



ـ الجذر يتجه نحو السماد.

ينجذب الجذر نحو بعض المواد الكيميائية ويبتعد عن بعضها إذا كانت ضارة، ويمكن اثبات ذلك بتسميد التربة من طرف واحد بالنسبة لنبات حديث النمو وبعد فترة (عدة أسابيع) سنجد أن الجذور اتجهت نحو السماد.

خامسا: الانتحاء اللمسي: Haptotropism

بعض أجزاء النبات كالمحاليق تلتف على الأعمدة بمجرد أن تلمسها، والتفاف السوق على بعض النباتات أو الدعامات له أسباب عديدة منها الانتحاء باللمس.

إن الظواهر السابقة سببتها عوامل خارجية كالضوء وقوة الجاذبية والماء والمواد الكيميائية والضغط (اللمس) فما الأسباب الداخلية التى توجه النبات؟

قبل أن نبحث عن السبب ونعلل الانتحاءات المختلفة، تجدر الإشارة إلى أن انحناء النبات (الساق أو الجذر) باتجاه ما يفيد أن خلايا العضو في جانبي مكان الانحناء مختلفة في حجومها وسرعة نموها، فالخلايا الواقعة فى الجهة الداخلية للانحناء أصغر حجماً وأبطأ نمواً من الخلايا التي تقع في الجهة الخارجية للانحناء، لماذا؟

إن الانتحاء لا يحدث بدون النمو، لذلك تعليل الانتحاء يرتبط بالضرورة بحادثات النمو، والعوامل التي تساعد على النمو الحيوي قد تساعدنا على تعليل الانتحاءات ومعرفة السبب أو بعض الأسباب.

يحتاج النبات في نموه إلى مركبات محفزة نطلق عليها اسم الهرمونات النباتية (أوكسينات) ونذكر من الهرمونات النباتية:

١ ـ إندول حمض الخل: In-doleaceticacid له دور في الانتحاءات.

٢ ـ الجبرلين: Gibberllin هرمون يساعد البذور على الانبات والخلايا على الاستطالة والانقسام، وكشفت الابحاث أن هناك اكثر من (٣٠) نوعاً من الجبرلينات أهمها حمض الجبرليك Gib-berllicacid.

٣ ـ مجموعة الكاينينات: Kinines وهي تنشط انقسام الخلايا، وسرعة بناء الحموض النووية.

٤ ـ حمض الأبسيسك: Abscisic acid ويطلق عليه أيضا Abscisin أو دورمين Dormin وهذه المادة تثبط عمل الجبرلينات والاندول حمض الخل.

فالهرمونات النباتية لها دور منشط من جهة، وبعضها مثبط، ومن التوازن الكمي بين مختلف الهرمونات يتحقق النمو المتوازن في النبات.

تتكون الهرمونات النباتية في جنين البذرة في وقت مبكر لتوجه نمو الجذر والساق، ونشير هنا إلى رأى فان أوفربيك Van-overbeek نقلا من كتاب «بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية» لمؤلفه الدكتور: محمد مصطفى الفولي.

«تمتص الحبة الماء، فيفرز الجنين الجبرلين، وينتقل إلى الآندوسبرم، ويشجع الجبرلين تكوين انزيمات التحلل المائي اللازمة، ثم تتكون السيتوكاينينات والأوكسينات التي تنقل الجنين فتدفعه إلى الانبات، وتخرج الريشة والجذير، وتعمل الأوكسينات على خروج الريشة فوق سطح التربة، وبمجرد ظهور الريشة خارج سطح التربة تبدأ في الإخضرار، وتكوين ما يلزمها من الغذاء عن طريق التمثيل الضوئي».

وثبت أن منطقة العميد وهي تقع في القمم النامية في مركز القلنسوة تفرز الاوكسينات فتنتشر إلى القمم النامية وتعود إلى منطقة الاستطالة، فتحفز هذه المنطقة على النمو فلابد من وجود القمم النامية ليتابع النبات نموه.

وقد أدرك داروين أهمية القمة النامية (القلنسوة) في توجيه نمو النبات فكتب عام ١٨٨١ «نظراً لأن القلنسوة تملك القدرة على توجيه حركات الأجزاء المجاورة لها، فهي تعمل كالدماغ في حيوان من الحيوانات الدنيا، حيث

يحتل الدماغ مكانه في النهاية الأمامية للجسم فيتلقى الانطباعات من أعضاء الحس، ويوجه الحركات المتعددة».

والآن يمكن تعليل الانتحاءات على ضوء معرفتنا عن نمو النباتات ودور الهرمونات النباتية وعوامل أخرى في تنشيط النمو أو تثبيطه.

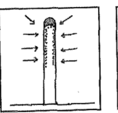
تعليل الانتحاء الضوئي:

عندما يميل الساق باتجاه الضوء، فهذا يفيد أن الخلايا المقابلة للضوء تباطأ نموها، وخلايا الطرف الآخر تسارع نموها، وقد أثبت العلماء أن الطرف المعرض للضوء تقل فيه نسبة الاوكسينات عن الطرف الآخر، والاوكسين ينشط النمو في الساق.

وقد وُضعَ افتراضان لتعليل اختلاف نسبة الاوكسين بين طرفي الساق «الجانب المعرض للضوء والجانب المظلم» وهما:

١ ـ الضوء يتلف الأوكسينات، ويحدث خللا في توزيعه، أو يثبط عمله.

٢ ـ الضوء يحث الأوكسينات على الهجرة إلى الطرف الآخر.



ـ عدم تجانس توزع الأوكسين يجعل الساق يتجه نحو الضوء لأن الطرف الغني بالأوكسين ينمو أسرع.

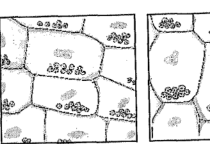
ـ الإضاءة من جميع الجهات تجعل الساق ينمو رأسياً للأعلى والأوكسينات بنسبة واحدة في الانسجة.

والمعروف أن النبات ينمو في الظلام بسرعة اكبر منه في الضوء، فالضوء يثبط نمو الساق. والجدير بالذكر أن تأثير الأوكسين فى خلايا الساق منشط بينما تأثيره مثبط لخلايا الجذر، فزيادة الاوكسين في خلايا الجذر تثبط نموه، وهذا يفيد أن الانتحاء لا يتوقف على العامل الخارجي والأوكسينات فقط، بل لنوعية الأنسجة علاقة بذلك.

والأنسجة تتمايز كيميائياً وفيزيولوجياً عن بعضها، ولذلك تختلف في استجاباتها للمؤثرات الكيميائية والفيزيائية.

تعليل الانجذاب الأرضي:

من تجربة نايت تأكد العلماء أن الجاذبية كقوة لها تأثير في مكونات الساق والجذر ولم يتوقف البحث لمعرفة آلية التأثير، وتفيد المعطيات التي توصل إليها العلماء أن منطقة العميد في قلنسوة الجذر تحتوي خلاياها على صانعات نشوية تدعى حصى التوازن Statoliths وهي تستقر في أسفل الخلايا فتحث على تنشيط جملة من الفعاليات تؤدي بالنتيجة إلي نمو الجذر وانتحائه، وقد ثبت بالتجارب أن الكالسيوم له دور محفز للنمو والانتحاء. فإذا وضعت قطعة من مادة أكاد حاوية على الكالسيوم على جانب من القلنسوة نمت القلنسوة واستطال الجذر باتجاه الكالسيوم وتمكن العلماء من تشكيل منحيات من الجذور بتأثير الكالسيوم.



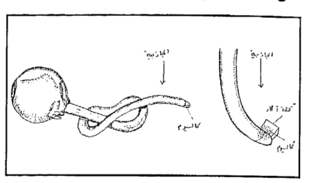
ـ خلايا منطقة العميد في قلنسوة الجذر وتبدو صانعات النشاء في أسفل الخلايا وهي بوضع رأسي (الجذر في نموه الطبيعي)

ـ عندما يقلب الجذر بشكل أفقي تتخذ حبيبات النشاء وضعاً جديداً وتسبب سلسلة من الأحداث تؤدي إلى انحناء الجذر نحو الثقالة (الأسفل).

وثبت أن اختلاف تركيز الأوكسين بين جانبي الجذر يؤدي إلى انحنائه باتجاه الجهة الاكثر تركيزاً. فإذا قطعت قلنسوة جذر بادرة الذرة

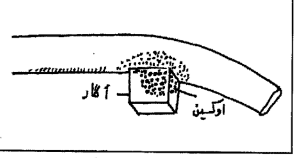
الشامية، ووضعت كتلة أكاد حاوية على الأوكسين في جهة معينة على الجذر، انحناء الجذر باتجاه قطعة الأكاد، أي أنحاء الأوكسين يثبط نمو الجذر (الزيادة تثبط النمو).

ويحدث انتحاء الجذر بتأثير اختلاف توزع الكالسيوم والاوكسين بتأثير الجاذبية على الجذر، ويمكن تلخيص ما يحدث في الجذر بشكل مختصر على النحو التالي:



- ينحني الجذر بجهة الكالسيوم بعكس الجاذبية، وهذا الشكل المنحني للجذر ثم بتأثير الكالسيوم تجريبياً بتغيير موضع كتلة الأكار الحاوية على الكالسيوم بشكل دوري.

١ - تؤثر قوة الثقالة في صانعات النشاء فترسب في الجهة السفلى لخلايا العميد وفي

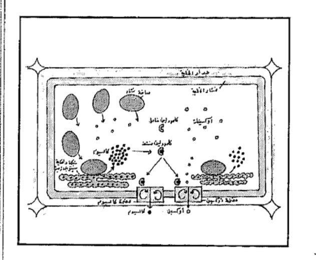


- ينحني الجذر باتجاه تركيز الأوكسين.

هذه الحالة تضغط على الشبكة السيتوبلازمية الداخلية الحاوية على الكالسيوم فيتحرر الكالسيوم إلى السيتوبلازما المجاورة للشبكة.

٢ - عندما يصبح الكالسيوم المحرر بنسبة معينة يرتبط بانزيم منشط لبعض الانزيمات الأخرى وهذا الانزيم يعرف باسم: كلمودلين Calmodulin فالكلمودلين المرتبط بالكالسيوم ينشط انزيمات في غشاء الخلية تساهم في انتقال الكالسيوم والأوكسين من الهيولى إلى الغشاء.

٣ - ينتقل الفائض من الكالسيوم والاكسين عبر غشاء الخلية إلى الخلية المجاورة السفلى وهكذا حتى يصل الاكسين والكالسيوم إلى القلنسوة فيحدث اختلافا في توزع الكمية ويتم الانتحاء بالنمو.



والشكل التالي يوضح ما ذكر أعلاه:

وقد أجريت تجارب كهربائية على سوق وجذور أفقية دلت على وجود فرق في الكمون من رتبة بصفة (ميلي فولطات) بين الجانب السفلي والجانب العلوي، بحيث يكون الوجه السفلي موجباً والعلوي سالباً، والأوكسينات حموض قابلة للتشرد وتلعب الشوارد دوراً فعالا عند انتقالها نحو الأقسام الموجبة للعضو.

وهذا التعليل لا يتناقض مع التعليلات السابقة المتعلقة بصانعات النشاء والاوكسينات والكالسيوم، فالاختلاف في التركيز بين جانبي الساق أو الجذر يخلق مزوقاً كهربائية في الخلايا والأنسجة.

تعليل الانتحاء المائي والكيميائي:

على ضوء التجارب التي أثبتت دور الأوكسينات والكالسيوم وفروقات الشحنات الكهربائية في توجيه الانتحاء في الجذر والساق، يمكن تعليل انتحاء الجذر ايجابياً نحو الماء، أي أن الرطوبة تجعل القسم القريب من الجذر ذا تركيز أعلى بالاوكسينات وشوارد الكالسيوم فيثبط نمو هذا القسم وينمو الجانب الأبعد اكثر فينحني الجذر نحو الرطوبة. ونفس التعليل ينسحب على تأثير المواد الكيميائية (الاسمدة).

وما تجدر الملاحظة إليه هنا أن العوامل الخارجية تؤثر جميعها في الساق والجذر في نفس الوقت، فالضوء والحرارة والجاذبية والرطوبة والمواد الكيميائية تؤثر في النبات فيستجيب لها حسب درجة تأثيرها وحاجته للبقاء على قيد الحياة. ومن هنا ندرك مدى تعقد حس التوجه في النبات.

ويمكن القول إن أول عامل مؤثر فى النبات وهو رشيم في البذرة هو عامل قوة الثقالة (الجاذبية) وبعد ذلك تبدأ العوامل الأخرى تأثيرها.

تعليل الانتحاء اللمسي:

إن التفاف المحاليق على قضيب أو غصن، يفيد أن نمو الخلايا الملامسة للقضيب أو الغصن أبطأ من نمو الخلايا في الجانب الآخر، وأثبتت الدراسات أن هناك خلايا حساسة جداً في بشرة المحاليق تتركز هيولها قرب السطح، وعند لمس الخلية تتكون مادة كيميائية يعتقد أنها من طبيعة هرمونية (اوكسين) تنتقل بسرعة إلى الطرف الآخر من الحالق فتحفز الخلايا على النمو بسرعة والاستطالة، فيحدث الالتفاف بسرعة. وحساسية النبات أو أجزاء منه في آكلات الحشرات معروفة، فالدايونيا تطبق مصراعي المصيدة خلال جزئين من مائة من الثانية. عندما تتنبه شعيراتها الحساسة.

ذاكرة النبات:

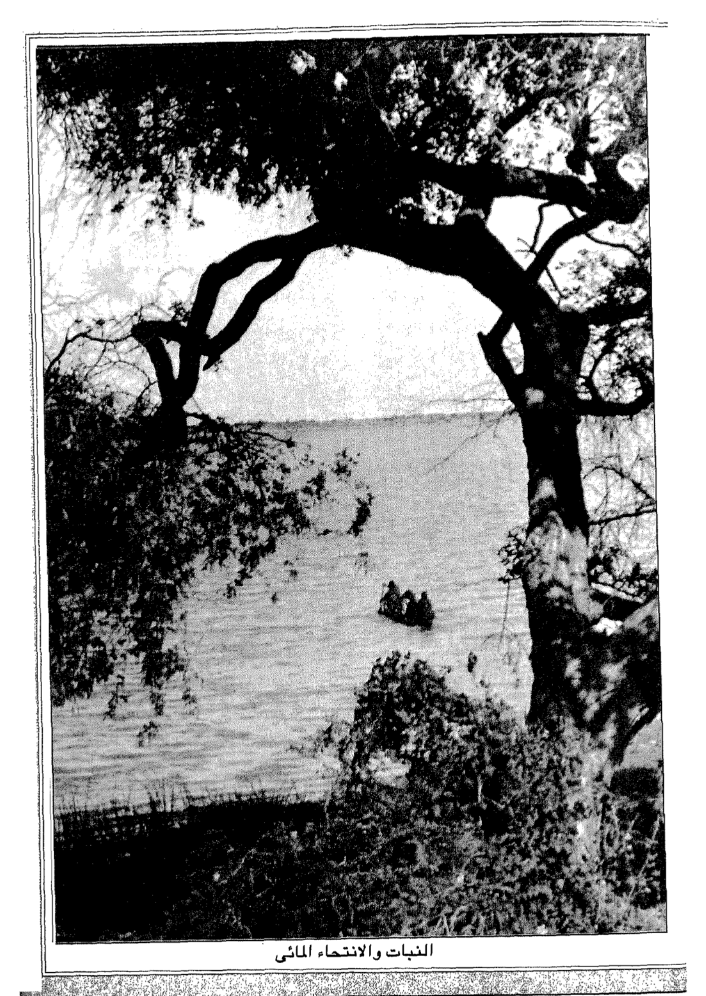
بعض النباتات تطبق أوراقها ليلا بغياب الضوء، وفي النهار تعود لوضعها الطبيعي، فإذا نقلت إلى مكان منار مدة ثلاثة أيام، نجد أن الأوراق تطبق عند حلول المساء رغم وجود الضوء الاصطناعي وهذا يدل على أن النبات يمتلك ما يشبه الذاكرة أو حاسة الوقت. ولا نستطيع تعليل ذلك إلا بافتراض نظام متكامل يشترك في أداء عمله كل أعضاء النبات وحركة الإطباق والانبساط في الأوراق والأزهار لا تعلل بتركيز الأوكسينات، وترجع إلى هجرة العصارة الخلوية من أماكن معينة إلى أخرى بشكل دوري، وفي حال انتباج الخلايا بالعصارة تنشد معاليق الأوراق فتنبسط وفي حال فقدها للعصارة ترتخي وتطبق الأوراق. والآلية معقدة عند البحث في أسبابها الفيزيائية والكيميائية.

تأثير المجال المغناطيسي في النبات:

لاحظ علماء النبات أن بعض النباتات لها جذور تتوجه في نموها بتوافق مع خطوط المجال المغناطيسى الأرضي، فهل تتأثر الجذور في بعض الأنواع بالمجال المغناطيسي؟

إن خلايا النبات تحتوي على أكاسيد معدنية وبعضها يتأثر بالمجال المغناطيسي لذلك لا يستبعد أن تتوجه الأكاسيد الممغنطة داخل الخلايا وفق خطوط المجال المغناطيسي الأرضي وتساهم بشكل معين في توجيه نمو الجذور.

يتأثر النبات بكل العوامل الخارجية الأخرى كالاشعة تحت الحمراء والاشعة فوق البنفسجية والصوت وقد دلت التجارب أن بعض النباتات تنمو بشكل أفضل في أجواء تصدح فيها انغام موسيقية هادئة. لنعزز صداقتنا مع النبات فنحن مدينون له بالبقاء.



النبات والانتحاء المائى

حوار من طرف واحد ((الحلقة الثلاثية))

** الاستاذ الشاعر/ يحيى توفيق حسن امتلك ناصية الكلمة .. فأشاد منها صروحاً تحكي روعة الأداء، وألمحية الصفاء، فجاء شعره منظومة نغم جميل، تصغى إليه السمع ولا تمله.

من خلال مجموعته الكاملة تناولنا فى الحلقة السابقة من هذا الحوار موضوعات متنوعة منها (الغربة واحساس المغترب ، الصداقة واختيار الصديق، نظرته الى الدنيا، توجّهه تجاه الحبِّ والهوى وعن سحر العيون) واختتمنا لقاءنا بسؤاله عن أرض الحجاز وشغفه بها.

ونستهل حوارنا فى حلقته هذه بسؤال شاعرنا عما قاله فى وصف قومه بأرض الحجاز.؟

* فقال:

رعى الله في أرض الحجاز أحبّة
سراعاً إلى المعروف كسلى عن الظّلم



الشاعر يحي توفيق

تراهم إذا أمُّوا المساجد خشَّعا
وإن شمّروا للحرب ناراً على الخصم
لهم شيم تهوى الندى وتقودُهم
نفوسٌ سمتْ فوق الضغينة والشتم
ترى الزهد وجهاً والسماحة منطقاً
وفوق الوجوه البيض تاجاً من الحلم
أولئك قومي عطّر الله ذكرهُم
فهل فى هواهم إن تدلَّهْتُ منْ لوْم

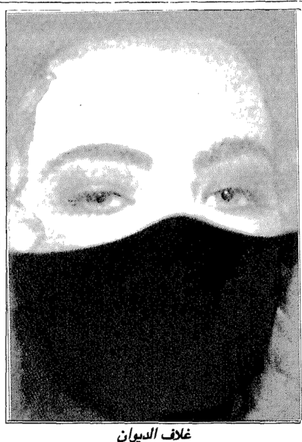
** فقلتُ: صراع الدنيا وصروف الدهر دروس تصقل المرء وتعينه على نوائب الزمن فهل تشاركني الرأي؟

* فقال:

كم تحملتُ من الناس أذى
فوق ما أحملُ حتى شاب رأسي
وأرى الأيام ترمي مُهْجتي
بخطوب بدلت سعْدي بنحْس
عِبَرٌ تمضي فما نَعْبَا لها
وصروفُ الدهر درسٌ أيُّ درس
وتنبهت أخيراً أنَّني
بعْتُ عمري عاجزاً بيعَة بخْس
غير أني صابرٌ فى محْنتي
أحملُ الآلام فى حُزْن وبؤس
كيف ألقى يا زمانى غفلة
منْك تُنْنيني لأفراحي وأنسِي
وتعيدُ النفس في إشراقها
وتزيلُ الكرْب عنْ قلبي وحسِّي
رُبَّ إنسان تمنيْتُ له
كلَّ خير قد غدا يطلبُ رمسي
هكذا الدنيا صراعٌ دائم
وشجونٌ تُحْرقُ القلب وتُقْسي

** فقلتُ: يا شاعرنا لِمَ هذا الشجن؟ فما أكثر المعروف في دنيا البشر وقد سمعتك تقول:

ولا تحسب الدنيا رمتك ببؤسها
إذا بتَّ مغلوبا ولست بغالب
فعند إشتداد الهمّ يبدو انحساره
وكل الخطا مرهونة بالعواقب



غلاف الديوان

وما بي من حقد على الدهر إنَّما
هي النفس أعياها احتمال المصائب

* فقال:

كم أزرعُ الودَّ فى أفياء مُعْشبة
فأحصدَ الحقْد فى صحراء حرماني
ليلي طويلٌ وأفكاري تحيِّرُني
وتسكبُ اليأس فى قلبي ووجداني
ياربُّ أشكو إليك اليوم أفئدة
تقسُو عليَّ ولا أشكو لانسان
الدهرُ خصمٌ كثيرُ الخَتْل عذَّبني
وأنت عوني إذا ضيَّعتُ أعواني
الناسُ بين حسود ليس يُعجبُه
فعْلي ويقْهرُهُ برِّي وإحساني
أو حاقد لا ينامُ الليل يطلبُ لي
عيباً فإن لم يجد نادى ببُهْتان

هم يشتهون سقوطي أو أسايرَهُم
وترفضُ النفسُ بعد الشيب إذعاني
إن الغريب غريبُ الروح في وطن
يلقى الهموم بقلب حائر عان
والظلمُ نارٌ بنفس الحر تصهرُها
حتى تفجِّرها تفجير بُركان
ياربُّ عفوك إن ضاقت مشاعرُنا
بما نقاسي فطولُ الليل أضناني
ونحنُ في هذه الدنيا عبيدُ مُنًى
نسعى إليها بخَطو المرهق الواني

** فقلت: ذكرت آنفا أن الحاقد لا ينام الليل يطلب العيوب للناس فإن لم يجد نادى ببهتان، أفلا يوجد دواء لهذا الداء اللعين؟

* فقال:

فليس سوى المعروف للحقْد بلسماً
ولا ينْزعُ الأحقادَ في الصدر كالظلم
ولا كجبان النَّفس إن ذلَّ حاقدٌ
ولا كذليل عزَّ أقوى على الضيم
أخافُ على عرضي مقالة حاسد
وأمنع نفسي أن تميل الى الهدْم
وإن جاهلٌ يوماً رماني بالخنى
بحلْمي لا بالسَّيف أصدع ما يرمي
وما بي من عجز عن السيف إنَّما
لنا مُهجٌ تصبو إلى العفو والحلم
وتسمُو بنا فوق الخلائق أنفس
تجيرُ ذوي القُرْبى وتصفُو لذى رحم

** فقلت: على المرء أن يتجنب الأشرار ويصنع المعروف بصدق واخلاص نية وعزة نفس مهما تقوَّل عليه الحاقدون فماذا يقول شاعرنا؟

* فقال:

يُعيِّرني صَحْبي بحالي وأنَّني
حريصٌ على الإخلاد للبُؤس والفقر
كفَاحي طويلٌ في الحياة وهمَّتي
على رغْم كلِّ البُؤس أقْوى منَ الدَّهْر
وقد عشتُ وحدي في الحياة وليس لي
وفيٌّ يُواسيني أشُدّ به أزري
وقد عركتني الحادثات بعُنفها
وعلَّمني دهري بما كُنْتُ لا أدْرى
وما ضرَّني إلا سلامة مبْدئي
وصدْقي وإخلاصي وبُعْدي عن الغدْر
ولكنَّني أحيا الحياة بعزَّة
وأسمُو بنفسي أنْ تميل إلى الشَّر

** فقلت: إذن الانسان يعيش ليساعد أخاه الانسان فالحياة تعاون فما رأي شاعرنا؟

* فقال:

وعشْتُ كمنْ يشقى ليُسْعد غيْره
جوادٌ بلا منٍّ كريمٌ بلا لؤم
وكنتُ كمن يحمي حمى الحيِّ وحده
تنام عيون الحيِّ وهو بلا نوم

** فقلت: «الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر» هكذا سمعنا فماذا تقول؟

* فقال:

أرى الدنيا على الأبرار شحَّتْ
وأهلُ الفسْق يُغريهم ثراء

سـيندمُ من رأى الدنيـا مـقـامـاً
يُرام وغـــــرّه مـنـهــــا الرّواء
فــأســرف في المعــاصي لا يُراعي
حـــفـــيظة من له وَجَبَ الولاء
إذا الإنســانُ قــد أعـمــاهُ جـهلٌ
فـــلا عـــقلٌ يُفـــيـدُ ولا ذَكــاء

** فقلت: كثيراً ما تراود المحبين غيرة تصل إلى حدّ الشك فى كل منهما وطالما تناول الشعراء هذه الظاهرة فمنهم من قال على سبيل المثال:

أكـــاد أشك فـى نفـــســي لأنـى
أكـــاد أشك فـــيك وأنت منّي
يقـــول الناس إنك خُنْت عـــهـــدى
ولم تحـــفـظ هواي ولم تصنـي

فماذا يقول شاعر الغراميات تجاه هذه الظاهرة؟

* فقال:

كـــلامُ الناس عنك أثار وجـــدي
وطولُ الشّك فـيك أطال ســهـدي
أحقٌّ مـــا يقـــال عليك عندي
بـأنّك لا تصــونُ قـديم عـــهـدي
وأنّك قلت شـــيــئــا عن هوانا
يكذّبُ فـى الهــوى مـا كنت تبـدي
وأنّك قـــد نســـيت وفـــاء قلبي
وودّعت الـهـــــوى وسلوت ودّي
ومَنْ لي يا رفـــيق الرّوح أشكو
إليــه من الجـوى وعـذاب وجـدي
يعـــزُّ عليَّ لو انســـاك يومـــاً
وتغلو أنت فى هجـــري وصـــدّي

وتُخطىء عـــامـــداً وأغضُّ طرفي
ولا تُغْضي إذا أخطأتُ قـــصـــدي
وكم داريتُ عنك جـــراح نفـــسي
وآثرت الجـــوى فى الحبِّ وحـــدي
ولـــم أعـــلـــم بـــأنّك كُنْت تـــدري
وتُمـــعنُ فى العناد وفى التّحـــدّي
وقـــال الصـــحبُ إنّ هـواك وجـــدُ
وقلبي فى هوَاك قــتـــيلُ وجْدي
وقـــالوا قـــد كلفْتَ بحبِّ غـــيـري
ولم تـأسَفْ ولم تحْزَن لفـــقـــدي
لأن صـــدقُوا لســوف أذيبُ عُمـري
وأقْنـعُ مـنْ هـوَاك بجـــــوف لحْدي

** فقلت: للأعياد فرحة غامرة ينتظرها الصغير قبل الكبير أفتحدثنا عن انطباعاتك تجاه العيد؟

* فقال:

بشـائرُ العـيـد تترى عـنبة الصُّور
وطابع البـشْر يكســو أوجـه البَشَر
ومـوكبُ العـيـد يدنو صـاخـبـا طربا
في عين وامـــقـــة أو قلب مُنْتظر
ياليلة العـيـد والآمـال مُشـرقـة
كم فى دُجَاك تجلّى مـوْكبُ السّمـر
كم فى دجـاك تبـدّت حـولنا مُتع
رُوحـيَّة السّحـر عليـائيـة الأثر

«**للحوار بقية**»

حوار/ **عبد الهادى بلاسي**
أسرة التحرير ـ بالمنهل ـ

مرقد أهل الكهف
تعقيبات متلاحقة:



«٠٠ بلدة الرقيم في عمَّان ٠٠ أفسوس في تركيا ٠٠ بلدة لوشة في غرناطة٠٠ جبل عكران في جنوب السعودية٠٠ في أي مكان من هذه الأماكن الأربعة يوجد مرقد أهل الكهف؟! أم لا يزال حقيقة ضائعة؟!

د٠ صالح بن علي
أبو عراد الشهري
عميد كلية المعلمين
في أبها

اطلعت على ما اهتمت بنشره مؤخراً مجلة المنهل الغراء من تعقيبات متتالية حول تحديد موقع الكهف الذي وردت فيه أحداث قصة أصحاب الكهف القرآنية الخالدة بدء بما كتبه الدكتور/ سعد أبو ديه في العدد ٥٠٦ الصادر في محرم ١٤١٤هـ، ثم تعقيب الاستاذ/ راغب محمد السعيد (من مصر) في العدد ٥١١ الصادر في رجب ١٤١٤هـ، وأخيراً تعقيب الاستاذ/ ابن الريف البخلاخي (من المغرب)، وحيث تعرض بعضهم لذكر المغارة الواقعة أعلى جبل عكران في مدينة تنومة بني شهر وبقايا المسجد القريبة منها، إلا أن ما ذكروه عن تلك المغارة والمسجد نُسب إلى الدكتور/ عبد الله أبي داهش وهو ما يحتاج إلى شيء من الايضاح حيث أن نسبة ذلك القول إلى الدكتور/ أبي داهش غير صحيح لأن ما ذكره الإخوان مأخوذ من تحقيق نشرته مجلة الفيصل في عددها (٩٣) الصادر في شهر ربيع الأول ١٤٠٥هـ الموافق لديسمبر ١٩٨٤م٠ بعنوان: «تنومة بني شهر»، وكنت أنا كاتب هذا التحقيق وليس الدكتور/ أبو داهش٠

كما انني كتبت موضوعاً للمجلة العربية في عددها (١٩٢) الصادر في محرم ١٤١٤هـ بعنوان «هل هذا مسجد الكهف؟!» تعرضت فيه لذكر موقع جبل عُكران في مدينة تنومة بني شهر، مع وصف لبقايا المسجد والمغارة الموجودة أعلى الجبل، ونظراً لأن ما ذكره الاخوة الكتاب من مصر والمغرب يحتاج إلى تصحيح وايضاح، ثم لأنني أحد أبناء تنومة بني شهر الواقع فيها الجبل فقد رأيت أن أقدم للسادة القراء هذا الاستطلاع المصور عن موقع الجبل مع وصف للمسجد وسبب وجوده، إضافة إلى وصف للمغارة وذكر لبعض الآثار الموجودة في جبل عُكران بتنومة بني شهر مؤملا أن يساعد هذا الاستطلاع في كشف بعض جوانب الحقيقة وايضاحها للمحبين والباحثين والله الهادي إلى سواء السبيل٠

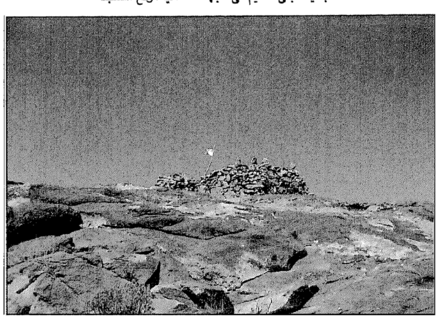
الموقع :

يقع هذا المسجد والكهف على قمة «جبل عُكران» الذي يستحق أن يسمى (جبل الآثار) لكثرتها علي سطحه وفي المنطقة التى حوله، ويأتى فى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة «تنومة بنى شهر» على بعد ١٢٥كم شمال مدينة أبها على الطريق الاقليمى (أبها ـ الطائف) وهذا الجبل الضخم الشاهق الارتفاع يوازي سلسلة

جبال (منعاء) التى تقع فى الجهة الشرقية لتنومة بل إن بعضهم ربما عدوه منها ويبلغ ارتفاع هذا الجبل حوالي ٢٤٨٠ متراً عن سطح البحر. وهو جبل صعب المسلك يشكل فى معظمه كتلة صخرية ضخمة قليلة الأشجار والنباتات على السفوح إلا ما كان متناثرا هنا وهناك وبشكل قليل نسبيا مع ملاحظة أن فى الجهة الشرقية منه مزارع ومساكن لا تزال معمورة ومأهولة بالسكان إلى اليوم، ويتميز هذا الجبل كغيره من الجبال في تنومة بشدة الانحدار نحو البحر فى الجهة الغربية، بينما يكون قليل الانحدار وبشكل تدريجى نحو الهضبة الداخلية في الشرق.



- بقايا المبنى القديم فى الجهة الشمالية لموقع المسجد.



- جزء من بقايا المسجد القديم المبني بالحجارة على قمة جبل عكران.

وقد أورد الدكتور/ عبد الله أبو داهش ذكر هذا المسجد بقوله(١): «وكان يوجد فى قمة جبل منعاء بتنومة بنى شهر مسجد قديم له محرابان، ولا سقف له، ويوجد بالقرب منه كهف يحسبه العامة لاصحاب الكهف».

وهنا أقول: إن هذا المسجد يقع في قمة جبل عُكران وليس منعاء كما ذكر الدكتور/ عبد الله أبو داهش الذى ربما اعتمد فى كلامه ذلك على أن جبل (عُكران) متصل بسلسلة جبال منعاء وربما عُد منها.

وصف المسجد :

يمكن القول بأن ما يوجد حاليا من المسجد ليس إلا بقايا لمبنى حجرى صغير مكون من دور واحد لا سقف له وجدره قصيرة نسبيا، طوله حوالى (٧٫٥م) تقريباً وعرضه (٣٫٥م) تقريباً.

يقوم هذا المسجد على مساحة صخرية مستوية نوعاً ما. وله محرابان يتجهان إلى جهة القبلة أحدهما فى الجهة اليمنى الأمامية للمسجد، والثانى فى الجهة اليسرى منه. والمسافة بينهما قرابة المترين كما أن له فتحة واحدة صغيرة نسبياً تعد مدخلا يؤدى إلى المسجد، تتجه هذه الفتحة

إلى الجهة الجنوبية ولا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط من خلالها وفي الجهة الغربية منه بقايا بناء حجرى على ارتفاع قليل نسبياً. وملاصق للمسجد وكأنه كان مكاناً خاصاً بالوضوء أو نحو ذلك. كما أن في الركن الأيمن الأمامي داخل المسجد بناء مربع الشكل طول ضلعه قرابة ١٢٠ سم تقريبا يشبه المنبر ويلاحظ فى الركن الأمامى الأيسر انهيار جزء من المبنى خارج المسجد، ويبدو أن ذلك حدث منذ زمن قريب وبالقرب من المسجد (فى الجهة الشمالية منه) آثار لمبنى قديم مكوّن من ثلاث حجرات صغيرة وعلى مسافة أمتار قليلة من المسجد.

سبب وجود المسجد:

لا يعرف سبب حقيقى أو مؤكد لوجود المسجد فى هذا المكان سوى ما ذكره الدكتور/ عبد الله ابو داهش حيث قال(٢): «ولعل العزلة التى منيت بها عسير من قبل ذلك قد دعت جماعة من ساكنيها إلى التبتل واقامة المساجد فى رؤوس الجبال والأماكن البعيدة كما يتضح فى مسجدى المصلى بجبل شدا الأعلى بتهامة زهران، ومسجد منعاء بتنومة بني شهر وغيرهما».

وما ورد فى مجلة الفيصل(٣) من أن سبب وجود هذا المسجد مرتبط بقصة أصحاب الكهف القرآنية الخالدة، وأن هذا المسجد هو الذي بني حول الكهف الوارد ذكره فى القصه.

وهنا أقول: إن ما ذكره الدكتور أبو داهش أقرب إلى الصحة إلا أنه ليس قطعياً، حيث إن بعض أبناء المنطقة من كبار السن يؤكدون بالتواتر أن كثيراً من الحجاج القدامى الذين كانوا يمرون بتنومة قادمين من بلاد اليمن كانوا يسألون عن المسجد ويحرصون على الوصول اليه والصلاة عنده وهذا دليل على أن المسجد معروف ليس عند أبناء تنومة فقط، وإنما عند غيرهم من أبناء المناطق الأخرى.

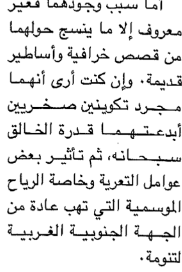
وصف الكهف :

يقع الكهف فى الجهة الغربية للمسجد وعلى بعد قرابة السبعين مترا أو اكثر. وهو عبارة عن مغارة واسعة الفوهة كبيرة المساحة تخترق الجبل بشكل يصعب معه رؤية ما بداخلها إلا بعض الأتربة والفجوات المختلفة الاحجام التى قد يصل عددها إلى عشر فجوات، ويطل هذا الكهف على قريتين من قرى تنومه هما «آل مُجادب» و «الفَجرَه» والطريق إليه عسيرة وخطيرة ولا يمكن الوصول إلى ما بداخله إلا بمجازفة قد تؤدى إلى الهلاك. وعلى الرغم من ذلك فان بعض كبار السن من القرى المحيطة بالجبل الذى يقع فيه الكهف يجزمون بأنهم فى زمن صباهم وهم رعاة للأغنام كانوا يصلون إليه ويدخلون فيه وربما قضوا فيه بعض الوقت ليطلون منه على القرى المتناثرة أسفل الجبل. وقد يكون هذا صحيحاً فى الماضى لمعرفتهم بالمسالك ولحبهم للمغامرة.

اللافت للنظر أن أشعة الشمس، على الرغم من هذا الارتفاع الشاهق للجبل لا تصل إلى داخل هذا الكهف إلا لزمن يسير جداً من ساعات النهار، يعادل زمن صلاة الفريضة أو نحوه قبيل غروب الشمس، حيث إن فتحة هذا الكهف تتجه نحو الغرب فلا تصل أشعة الشمس إلى ما بداخله إلا فى ذلك الوقت ولزمن يسير جداً.

الحنش والحية :

هناك أثر آخر يلفت النظر فى هذا الجبل ويتمثل فى أن من ينظر إلى الجهة الغربية منه يرى تحت فتحة الكهف السابق ذكره وعلى بعد يسير منه علامتين بارزتين تمثلان ما يشبه النحت الصخرى على مساحة صخرية ملساء احداهما على شكل ثعبان ضخم يغلب عليه اللون الاحمر الصخرى، والأخرى على شكل حية ضخمة يغلب عليها اللون الأسود. ويعرف هذان النحتان محلياً



باسم (الحنش والحيَّة) حيث يقصد بالحنش (الثعبان).

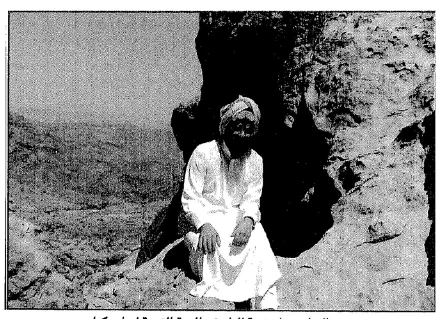
أما سبب وجودهما فغير معروف إلا ما ينسج حولهما من قصص خرافية وأساطير قديمة. وإن كنت أرى أنهما مجرد تكوينين صخريين أبدعتهما قدرة الخالق سبحانه، ثم تأثير بعض عوامل التعرية وخاصة الرياح الموسمية التي تهب عادة من الجهة الجنوبية الغربية لتنومة.



ـ أحد المحرابين داخل المسجد ويظهر في الجهة اليمنى ما يشبه المنبر.

المزارع والبيوت :

ومما يسترعي الانتباه أن الكهف والمسجد يقعان على قمة صخرية صلبة إلا أنه يوجد بالقرب من المسجد وفي الجهة الشرقية منه آثار قديمة لبعض المدرجات الزراعية الصغيرة المساحة، وآثار للبئر مطمورة ـ على ما يبدو ـ تحيط بها الشجيرات الخضراء والنباتات التي توجد غالباً حول الآبار ومصادر المياه.



ـ صالح ابو عراد فوهة الغار في الجهة الغربية لجبل عكران.

وفي الجهة الشرقية للمسجد مزارع وبيوت وحصون (قلاع) لا تزال قائمة ويسكنها أهلها إلى الآن، الا أنها ليست قريبة من المسجد ثم انها تقع في واد منخفض بالنسبة لموقع المسجد والكهف المرتفع.

كما أن هناك آثاراً تدل على ما يسمى في المنطقة «بالجرين» وهو المكان الذي كانت تُدرس فيه الحبوب وتنقى وتصفى بعد فصلها عن سنابلها، وإن كان هذا لا يستغرب حيث إن كل ما حول المسجد والكهف صخري بطبعه.

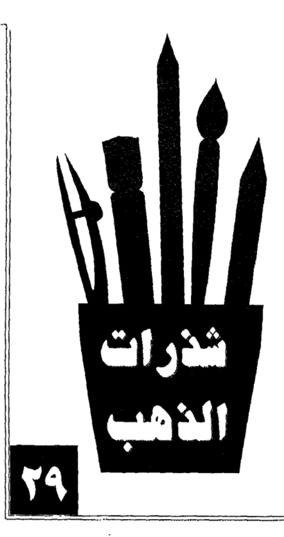
الهوامش :

(١) الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية. عبد الله أبو داهش، ص ٣٨.

(٢) أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والادب بجنوبي الجزيرة العربية، عبد الله أبو داهش ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) مجلة الفيصل العدد ٩٣ ، ربيع الاول ١٤٠٥هـ/ ديسمبر ١٩٨٤.

(٤) المجلة العربية العدد ١٩٢، محرم ١٤١٤هـ.



١٧٧ ـ القبلة المنقذة:

من الواقع ما يُلقي بعظته البالغة لمن يعتبر، وفى أطروفة (القبلة المنقذة) بعض هذه العظات.

مات ثريٌّ من كبار الأثرياء، وترك طفلا صغيراً، وأمًّا شابّة، وكان لأخيه سيطرة باغية. فاستولى على مائة فدان. وهي ميراث أخيه ـ وجعل يدير شئونها الزراعية ـ ولا يعطي للابن والأم من المحصول الوافر غير ما يُمسك الرمق، كما أخذ يعاملُهما معاملة العدُوِّ لا العمّ، والأمُّ صابرة لا تستطيع المقاومة لأنها مقصوصة الجناح، ثم دفع البغي هذا العمّ الشره إلى التفكير فى جريمة تؤدى إلى قتل الطفل، ليكون هو الوارث الرسمي دون اعتراض، مع أنه الوارث الفعلي!

وذهب إلى بعض الأشرار ممن تخصصوا فى هذه المنكرات، فأعطى له ألفاً من الجنيهات. ووعده بألف آخر ورسم له الخطّة: أن يأتى بليل فى موعد محدد، وسيجد المنزل مفتوحاً من الباب الخلفى، وعليه أن يذهب إلى الحجرة الثانية، ليجد الطفل نائماً فى سريره، فيحمله إلى الخارج، ليرميه فى إحدى القنوات المائية البعيدة. بعد أن يقضى علي حياته، وبدأ الأمر فعلا، فجاء الشرير إلى المنزل ليلا، ولكن المفاجأة كانت غريبة، حيث وجد الطفل ساهراً مع أمه فى صالة البيت، وما إن رأته الأم حتى أغمي عليها، إذ توقعت الشر، ولحظته فى عينه، أما الطفل الصغير فرأى فى سحنة الزائر شبهاً من سحنة والده الراحل، فأسرع إليه وهو يقول فى شوق بابا، بابا!! وكان الزائر عزبا لم

د. أبو حسام
المنصورة

يسمع هذه الكلمة الحلوة من قبل، فحمل الطفل إلى صدره، ولكنه رآه يقبله فرحاً، إذ ظنه أباه وهو يقول: بابا بابا! وهنا انهارت عزيمة الرجل، وأحس بشعور إنساني نحو الطفل البرىء فعمل على إيقاظ الأم من إغمائها، وأقسم لها أنه سيكون خادم الطفل وحصنه أمام عمه الغادر، وجلس فى المنزل يطمئن الأم حتى الصباح.

وفوجيء العمُّ بصاحبه يصيح فى الشارع، ويجمع الناس من كلّ صوب ليقول لهم إنّ هذا الغادر أخذ يغرينى بألفين من الجنيهات لأقتل الطفل المسكين، وأنا أقسم بالله لو مسَّ الطفل أيّ شر بمؤامرة أخرى فلابد أن أقتل هذا المجرم علنا بعد أن أخطف ولده وأذيقه مرارة الثكل قبل مماته ! ثم اتجه الى البوليس ليبلغ ضابط الشرطة ما اعتزم عليه العم الغادر، وثار الرأى العام عليه، فانكمش فى منزله لا يستطيع الخروج! وكيف وقد دبّر اغتيال من يأكل من خيره، دون أن يرعى أى زمام!

أما الأم الشابة، فقد رأت حامياً شجاعاً يؤازرها، فرحبت به زوجاً، وقالت له أنت صاحب المنزل من الآن

وجاء الزوج بأقاربه ولهم صيت فى البأس والمكيدة ليزرعوا الأرض، ولم يستطع العمّ الأثيم أن يقاوم جيشاً من أرباب السوابق، فأذعن مقهورا، وعاد الى فقره القديم.

١٧٨ ـ قبلة ثانية:

كان فى أحد السجون الأسبانية سجين شرير صلب الوجه، رصاصىّ النظرة، عملاق القامة، مفتول العضل وقد قضى فى السجون المختلفة ثلاثين عاما حتى انتهى إلى معتقله الأخير. وهو فوق الخمسين، وإذا كان السجن الأسبانيّ يضم ستمائة شريّر من العتاة، فإنه كان أعتاهم جميعا، كانوا يتحامونه قدر المستطاع، إذ لا يشتبك معه أحد فى حوار إلا انتهى بصفعه أو بمعركة يكون فيها هذا العملاق سيد الموقف، وقد اعتاد أن يجلس وحده عاكفا على العمل الذى نيط به دون أن يجرأ أحد على الاقتراب منه، فإذا عزم على التجوال فى ساحة السجن فسرعان ما يخلو الطريق أمامه، حتى حرّاسه كانوا يرتقبون فترة تجواله ليضعوا حصته اليومية من الغذاء والشراب فى زنزانته ليتلافوا لقاءه، ويسرعون وكأنهم فروا من كارثة تتوقع.

وحين جاء الى السجن مدير جديد، رأى المدير المنتقل أن يصحب زميلة الوافد إلى جولة بين السجناء ليلقي عليه توصياته الخاصة بكل سجين على ضوء تجربته المتقدمة، وكان مع المدير الجديد طفلة صغيرة هى ابنته التى لم تتجاوز خمس سنوات! وقد شاهدت مع والدها طوائف السجناء مجتمعين متقاربين، ثم رأت والدها يتجه مع زميله إلى رجل كثيف الشعر، يجلس فى آخر الفناء وحيدا، وحين انتهوا إليه لم يرفع رأسه، فقالت الطفلة الصغيرة: إنه مريض يا أبي؟ لماذا لا يتكلم! ثم دنت منه وقبلت وجهه، فدهش الوالد وزميله، وأنهيا اللقاء سريعا، ولكنّ الشرير تابع الطفلة بعينه، ورأى أباها يحملها إلى صدره فعرف أنها ابنته!

مضى عام، والأمور تسير فى السجن منتظمة، ولكن المدير اشتط فى معاملة السجناء، وقصر تقصيرا منتقدا فيما يقدم لهم من الطعام، وجعل يتناولهم بالسباب دون مبرر، ويذيع أنهم لصوص قتلة لا يستحقون الحياة، ودأب المدير على سلوكه فأشعل ثورة فى الصدور لم تلبث أن وجدت طريقها للتنفيذ.

ففي ظهر يوم عاصف صفع المديرُ سجيناً على وجهه، فذهب إلى زملائه ليقود الثورة العاصفة، وفى فترة قصيرة ساد الهياج المدمر، وزحف الجمع المحتشد إلى مسكن المدير رغبة فى الانتقام، ولم يستطع الحراس أن يقاوموا الجمع الذى ثار على غير انتظار، وخلا الطريق الى حجرة المدير، ولكن السجين العملاق قد حمل مدية غليظة حادّة، ووقف أمام المنزل يُهدد من يريد الاقتحام، ودارت معركة رهيبة كان بطلها المنتصر على زملائه، ولكنه أثخن بالجراح فى كل موضع من جسمه، وهنا تمكن الحراس من معاونته، فضربوا طلقاتهم النارية، وتفرق الجمع غبّ هذه الطلقات.

وخرج المدير متعجبا، وقد لمح العملاق السجين فى ساعاته الأخيرة يجود بنفسه، فأسرع فى مواساته، فقال الرجل، كيف أتركهم يقتلون الطفلة التى قبلتني! ليتني أراها قبل أن أموت! وهنا أسرع المدير باحضار ابنته، فاندفعت من فورها تقبله قبلة الختام!

١٧٩ ـ من تاريخ القبلة :

من مقال مترجم عن الانجليزية قال كاتبه:

ان المعروف عند عامة الناس أن

التقبيل نشأ مع الشهوة الجنسية. وهذا مخالف للحقيقة، لأننا نرى أن عادة التقبيل لم تكن من الغرائز الإنسانية الأولى، لأن كثيرا من الأمم لا تعرفها على الإطلاق، بل إن بعض الأمم ينظر إليها بعين المقت والازدراء.

ومن المحقق أن قبائل الإسكيمو والمورا لا تعرف التقبيل، وقد مضت عدة قرون قبل أن تُعرف القبلة فى الصين واليابان، بل إنّ فى اليابانيين الآن من يحرّمونها ويبالغون فى تحريمها، لدرجة أنهم يستنكرون مظاهر التقبيل حين يرونها فى الأفلام الأوربية التى تعرض فى بلادهم، وفيهم من يحذف هذه المظاهر كيلا يلتفت اليها الشباب، وقد عُرضت رسوم «رودان» فى بعض معارض طوكيو، فظهرت كلّ لوحاته، ما عدا اللوحة التى تصور القبلة إذ أسدل عليها ستار كثيف، وقد اعترض بعض الزائرين الفرنسيين فأجابه رئيس البوليس اليابانى بأن جميع لوحات «رودان» كان من الواجب أن تهمل ولا تعرض لأجل هذه اللوحة.

وتعد القبلة فى بعض أنحاء الولايات المتحدة عملا مخالفا للصحة، وتعريض الإنسان للإصابة المرضية، وهي جريمة يعاقب عليها القانون الأمريكي. أما اغتصاب القبلة من امرأة لا ترحب ببذلها فعمل جنائي يخضع للعقاب الصارم.

وإذا كانت القبلة اليوم هى التعبير الجسدى عن الحب، فقد كانت فى الأزمان الخالية نوعاً من التحية العادية فحسب، كالتلويح بالمناديل عند المسافرين، ثم بعد القرن الخامس عشر أبيح فى أوربا للضيف أن يقبل زوجة مضيفه، وكل فرد من أفراد العائلة، وكأنها مثل المصافحة باليد سواء بسواء.

وكانوا فى روما القديمة يقبلون لأسباب غير التحية والحب، لأن النبيذ كان محظورا على النساء فى بعض البلاد، وهو يمثل جريمة شنيعة، فكان للرجل أن يقبل المرأة ليعلم أشربت النبيذ أم لا، فإذا وجد ما يدل على أنها شربته قدمت للمحاكمة، وقيل إنّ أحد الأطباء الأمريكيين قد صرف أكثر من ثلاثين عاما يحذر من ضرر القبلة الصحي، ويعدها من بواعث العدوى السريعة، ولكن الناس أعرضوا عن تحذيره وهزءوا بما كتب من البحوث والمقالات.

البيعة والخلافة في الاسلام

قال تعالى: {وعد اللهُ الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات ليَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرض، كما اسْتَخْلَفَ الذين من قبلهم، وليُمَكِّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم}.

وقال تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات}.

الاعتبار بخلافة الشعوب بعضها لبعض في الحكم والتمكن في الأرض، أمر ثبت في تاريخ الخليقة، بشهادة كتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما في الآيتين الكريمتين اللتين سقناهما للاستدلال على ذلك، وهكذا نرى أن بعض الشعوب تتصدرها بعض الأفراد، وتمتاز فيها بعض البيوت على بعض، لأنها وقفت مع السنن الاجتماعية والأحكام الشرعية التي هي أقوم وألصق بالعدل والحق عند تدافع الآراء والنظريات، وهم المتقون الذين يسيرون على سنن الهدى، والاستقامة، ويبتعدون عن الطرق المؤدية إلى الخيبة القاتلة.

لذلك عهد الله بالإمامة لسيدنا محمد [صلى الله عليه وسلم] فبينها لنا بقوله وفعله، ومن هنا نجد السياسة الشرعية الاجتماعية مركوزة في أسس الإسلام وما بنى عليه من قواعد قابلة للاجتهاد مع مضي الزمان واختلاف المكان.

بقلم:

احمد بن شقرون

الامين العام لرابطة فقهاء المغرب

ولا غرو فإن أحكام الشرع يستوي فيها جميع الناس، إذ لا فضل لعربي على عجمي إلا بتقوى الله.

قال الشيخ رشيد رضا: «ولما طرأ الضعف على المسلمين قصروا في إقامة القواعد والعمل بالأصول». لذلك وجب أن يكون ترتيب الإصلاح يبتدىء بإصلاح الإنسان، لأنه المنطلق الذي تنبني عليه بقية الإصلاحات الأخرى، المتعلقة بمجريات الأحوال والاجتماع. فالعقول، والأرواح التي سيطرت عليها الكهنة، فأبعدتها عن الفضيلة، وجب أن ترد إلى ما جاء به الخلفاء الراشدون من إقامة العدل، وقمع الرذائل.

لقد توهم بعض الناس أن المدنية الإسلامية تلاشت وانتهت، ولا سبيل إلى بعثها من جديد، ولكن العروق الحيوية الإسلامية التي كانت وما تزال تنبض بالحق أعادت العالم الإسلامي إلى ما كان يرجى له من مناط الأمل، الأمر الذي أشاع إحياء المدنية الإسلامية على أساس تجديد حكومة الخلافة على أسس قويمة، وهذا كله مقرر في كتب الكلام، وكتب الفقه الإسلامي.

قال الشيخ رشيد رضا: إن نهضة الشعب التركي هي التي قضت على السلطنة

العثمانية، لذلك أقول:

إن الإسلام، أعظم قوة معنوية في الأرض، وإنه هو الذي يمكن أن يحيى مدنية الشرق وينقذ مدنية المسلمين، وينهض بتجديد حكومة الخلافة الإسلامية بقصد الجمع بين هداية الدين والحضارة لخدمة الإنسانية.

إن الله سبحانه وتعالى لما أخذ الميثاق على العلماء قال لهم: {لتبيننه للناس ولا تكتمونه}. فعلى كل مسلم أن يلزم جماعة المسلمين، وإمامهم، لأن من مات وليس في عنقه، بيعة، مات ميتة جاهلية، رواه مسلم في حديث لابن عمر مرفوعا.

فالخلافة والإمامة العظمى، وإمارة المسلمين، كلمات بمعنى واحد - كما حقق المؤرخون - قال النبي {صلى الله عليه وسلم} «سألت ربي ألا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها». وفي رواية زيادة ، وهي: «ويد الله مع الجماعة، فمن شذ، شذ في النار».

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}.

قال الماوردي: عقد الإمامة لمن يقوم بها واجب بالإجماع، حتى ذهب قوم إلى أن وجوبها ثابت بالعقل، لما في طباع العقلاء من التسليم، لسلطان يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم عند التنازع، ولولا ذلك لكانوا فوضى مهملين.

قال الأفوه الأودي: «لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم». وقال قوم: إنما وجبت الإمامة بالشرع، لأن الإمام يقوم بأمور شرعية، واحتجوا لذلك بقولهم: لابد للأمة من إمام يقيم الدين وينصر السنة، وينصف المظلومين، ويضع الحقوق في مواضعها، ويحمي بيضة الإسلام، ويحمي الثغور، وينفذ الأحكام، ويقطع الخصومات، ويعين في المهام الأمناء والأكفاء.

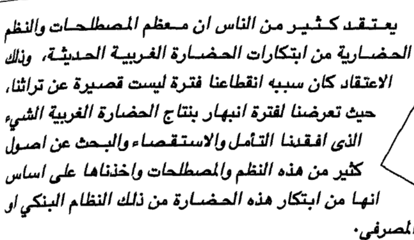
قال تعالى: {يا داوود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحْكُمْ بين الناس بالحق}. وفي القرآن العظيم: {إنَّ الذين يبايعونك، إنما يبايعون اللهَ، يَدُ الله فوق أيديهم، فمن نكث، فإنما يَنْكُثُ على نفسه، ومنْ أوْفَى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيما}.

إن الصحوة الإسلامية التي أخذت طريقها إلى قلوب المسلمين، وحركاتهم هي وحدها التي ترد الأمور إلى نصابها، وتجعل المياه تعود إلى مصابها، لما تمتاز به من إعطاء العالم الإسلامي صورة صحيحة عن الإسلام والمسلمين.

قال الشيخ محمود شاكر في كتابه: الخلافة، والإمارة.

كان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إمام المسلمين في الصلاة، وخطيبهم في المناسبات، وقائدهم في المعارك، والحكم بينهم إن وقع خلاف، والموجه لهم إلى كل خير، وليست هذه من خصوصيات النبوة، وإنما هي مهمة كل خليفة، وبالتالي واجب كل أمير.

وفي الختام نقول: إذا علمنا أن الإسلام يتناول الحياة كلها، اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، علمنا أنه يصلح لكل عصر ومصر إلى قيام الساعة.



يعتقد كثير من الناس ان معظم المصطلحات والنظم الحضارية من ابتكارات الحضارة الغربية الحديثة، وذلك الاعتقاد كان سببه انقطاعنا فترة ليست قصيرة عن تراثنا، حيث تعرضنا لفترة انبهار بنتاج الحضارة الغربية الشيء الذى افقدنا التأمل والاستقصاء والبحث عن اصول كثير من هذه النظم والمصطلحات واخذناها على اساس انها من ابتكار هذه الحضارة من ذلك النظام البنكي او المصرفى.

يحكى ان سيف الدوله لما ورد الى بغداد واجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه وبين يديه عبد له صغير، وقصد الفرجه والا يعرف، فاجتاز شارع الرقيق على دور بنى خاقان وفيها فتيان، فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وخدموه، ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعه وتركها فيها، ثم انصرف ففتحوا الدواة فاذا في الرقعة الف دينار على أحد الصيارفة، فتعجبوا وحملوا الرقعه وهم يظنونها سانجه فاعطاهم الصيرفى الدنانير في الحال والوقت، فسألوه عن الرجل فقال: ذلك هو سيف الدوله بن حمدان، وهذا هو نظام الحوالات[١] او النظام البنكى المتعامل به الآن والذى يعتقد انه من ابتكارات الحضاره الغربية.

وأما المصطلحات التي يظن انها مصطلحات حديثة ومن وضع الحضاره الحديثه فهى كثيرة منها مصطلح الانسانية والنفسية.

فقد ذكر الشيخ محمد بن يوسف البرزالى في شرح كتاب الأربعين الطبيه المستخرجة من سنن ابن ماجة وشرحها في الحديث الأربعين (فان من كان صحيح البدن مقتدراً على الكسب وترك ذلك الى السؤال وطلب ما فى ايدى الناس، كان ساقط الهمه، مهين النفس عديم الانسانية الانفيه، عبداً بالطبع... الخ[٢].

واما كلمة النفس فقد وردت في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة كلها بمعنى النفس وقد وردت بتعريفات كثيره جداً فى كتاب التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني وقال: النفس من الجوهر البخاري

بقلم:
عدنان موسى التمبكتي
- الرياض -

اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة، فهو جوهر مشرق للبدن ثم اورد انوا ع النفس، النفس الامارة والنفس اللوامه والمطمئنه ٠٠الخ[٣]٠

واما صاحب كتاب الاربعين الطبية فقد كان اكثر وضوحاً وتبيانا للاصطلاح حيث قال فى موائد الصلاه [انها امر إلهى حيث كانت عبادة والثانية امر نفسي وذلك ان النفس تلهى بالصلاة عن الالم ويقل احساسها به لاحتفالها بها فتستبطن القوة المحتوية للألم فتطرده، فان قوة العضو المودعة فيه الموكله بمصالحه وحراسته التى يسميها الاطباء طبيعة] يلاحظ استعمال كلمة طبيعة (وهي الشافيه للامراض باذن ربها وخالقها والماهر من الاطباء يعمل كل حيله في تقويتها ان كانت ضعيفة وفى انتباهها ان كانت غافلة، وفى استزادتها ان كانت مقصرة، تارة بتحريك السرور والفرح، وتارة بتحريك الرجاء والامل)٠

وهل اتى الاطباء فى العصر الحديث باكثر مما جاء به هذا الطبيب فى علاج الامراض العضوية بالعلاج النفسى حيث بدأ الطب الحديث فى هذا الاتجاه٠

والطب النفسى معروف عند اسلافنا وقد وصفوه وصفاً غاية فى الدقة واسموه الطب الروحانى، ويقول البرزالى مؤلف كتاب الاربعين الطبية (وكثير من الامراض المزمنة فى النفس والجسد تشفى بالاوهام وفى ذلك كتب مفردة تسمى (الطب الروحانى) وروى ابو سعيد الخدرى عن الرسول صلى الله عليه وسلم «إذا دخلتم على المريض فنسِّئُوا له فى الاجل فإنَّ ذلك لا يرد شيئا وهو يطيب نفس المريض) اى ان اسلافنا قد ادركوا العلاقة بين المرض النفسى والمرض العضوى وهذا التوجيه من سيد الخلق هو اول اشارة إلى هذا المجال٠

ومما لا ريب فيه ان الحضارة الاسلامية لها يد طويلة فى مجال الابتكار فى جميع فنون الحياة كما ان لها اسهامات كثيرة جدا فى مجال التطور والتحسين، ونماذج ذلك اكثر من ان تحصر، ونسأل الله ان يوجهنا الى طريق الرشاد٠

الهوامش:

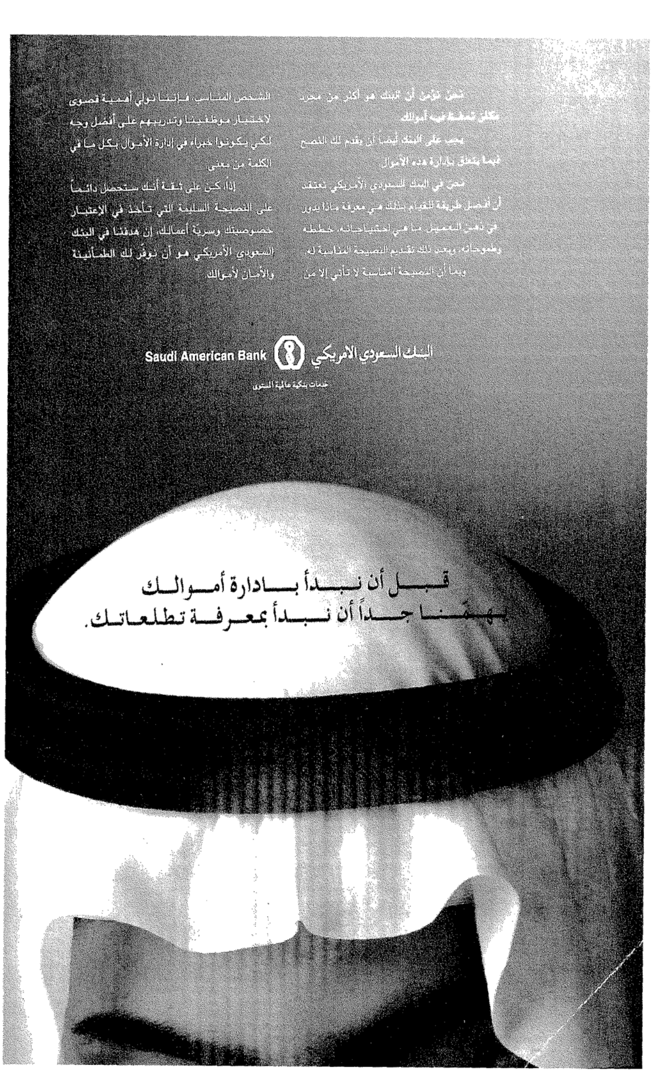
(١) ظهر الاسلام لاحمد أمين ج١ ط٧ ص١٠٨٠

(٢) كتاب الاربعين الطبية المستخرجة من سنن ابن ماجه للشيخ محمد بن يوسف البرزالى تحقيق عبد الله كنون ص١٤١، طبعة معهد المخطوطات العربية٠

(٣) التعريفات للشريف الجرجاني ص١٤٢ ط دار الكتب العالمية ص ٢٤٣٠



صرح طبي متكامل
مستشفى دله
DALLAH HOSPITAL
العيادات الخارجية التخصصية يشرف عليها طاقم طبي مؤهل وفرت له أحدث الأجهزة التشخيصية.
مختبر متكامل يعمل على مدار الساعة.
قسم الأشعة مجهز على أفضل المستويات التقنية.. مزود بجهاز التصوير المقطعي بالكمبيوتر وجاما كميرا للتصوير النووي.
جهاز تفتيت حصى الكلى والحالب بدون تخدير وبدون مغطس ماء وبدون إقامة في المستشفى !!
مغاطس الطين، المعالجة الكهربائية.. والموجات الصوتية... بعض الأساليب العلاجية بقسم العلاج الطبيعي.
مهبط لاستقبال طائرات الإخلاء الطبي.
DALLAH HOSPITAL
رعاية أشمل لصحة أفضل
ص.ب ٨٧٨٣٣ الرياض ١١٦٥٢ حي النخيل
تليفون ٤٥٤٥٢٧٧ فاكس ٤٥٤٥٢٥٣ تلكس ٤٠٧٣٠٥


نحن نؤمن أن البنك هو أكثر من مجرد
مكان تحفظ فيه أموالك.
يجب على البنك أيضاً أن يقدم لك النصح
فيما يتعلق بإدارة هذه الأموال.
نحن في البنك السعودي الأمريكي نعتقد
أن أفضل طريقة للقيام بذلك هي معرفة ماذا يدور
في ذهن العميل مما هي احتياجاته، خططه
وطموحاته، وبعد ذلك تقديم النصيحة المناسبة له.
وبما أن النصيحة المناسبة لا تأتي إلا من
الشخص المناسب فإننا نولي أهمية قصوى
لاختيار موظفينا وتدريبهم على أفضل وجه
لكي يكونوا خبراء في إدارة الأموال بكل ما في
الكلمة من معنى.
إذاً كن على ثقة أنك ستحصل دائماً
على النصيحة السليمة التي تأخذ في الاعتبار
خصوصيتك وسرية أعمالك، إن هدفنا في البنك
السعودي الأمريكي هو أن نوفر لك الطمأنينة
والأمان لأموالك.
البنك السعودي الامريكي
Saudi American Bank
خدمات بنكية عالمية المستوى
قبل أن نبدأ بإدارة أموالك
يهمنا جداً أن نبدأ بمعرفة تطلعاتك.



العواد رائد الرومانسية

لغة ادبية مبكرة لشعرنا العربي

المنصرون قادمون

سرّ الزجاجة

العشق مرآة النفوس

د. عاتكة الخزرجي

التفكير الماركسي للاسلام

د. نصر أبو زيد ..

الأخطاء القاتلة

مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

المركز الرئيسي:

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧ - الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر ١٥٠ قرشا - تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم - البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤

- قيمة الاشتراك السنوي للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
- قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال





مما قيل

صحت الأحلام!..

قبل خمس وعشرين سنة لم تكن بلادنا تعرف معنى للاستقرار، كانت نهباً للفوضى التى تنخر كيانها فتدفع بها دفعا بالغا إلى وراء.. ثم ولى جلالة الملك (عبد العزيز آل سعود) زمام أمرها، فقادها الى الأمام، قيادة ربان ماهر وكان أن ضرب ضربته البتارة الموفقة لعوامل العبث والاخلال بالأمن فذاقت البلاد فى عهده السعيد، طعم الراحة وأنست إلى الهدوء، وشعرت شعوراً خفياً، ثم جليا بكيانها، وأمن العاملون فيها على حيواتهم وأعمالهم وانتاجهم، فكان مبدأ نشاط عام، ومن يومئذ بدأت سفينة الحياة تسير بنا إلى أمام، سيراً لاحظه المراقبون الدبلوماسيون بالداخل وفى الخارج على السواء.

خمس وعشرون سنة؛ أو ربع قرن باختصار - شيء يذكر بالنسبة لحيوات الأفراد؛ ففيها يشب الوليد، ويكهل اليافع، ويشيب الكهل، ولكنها لحظة قصيرة جداً: إذا قيست بحيوات الشعوب والأمم.

«عبدالقدوس الأنصاري»

ذو القعدة والحجة ١٣٦٨/ سبتمبر وأكتوب ١٩٤٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطة الشهر

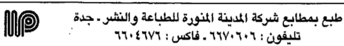


«.. كان موفقا ملهما، محبوباً، عمَّر ما بينه وبين ربه، وما بينه وبين شعبه، شجاعاً بطلا، انتهى به عهد الفروسية في شبه الجزيرة.. كريماً لا يجارى، خطيباً حدِّيثا، لا يبرم أمراً قبل اعمال الرويّة فيه، يستشير ويناقش ويكره الملق والرياء».

الأعلام للزركلي ج٤ ص ٢٥.

الاشــارة

- تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة
تليفون: ٦٦٧٠٦٠٦ - فاكس: ٦٦٠٤٦٧٦

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

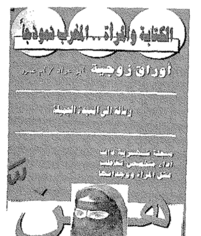
هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد

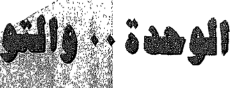


العدد: (٥٣٥)
المجلد: (٥٨)
العام: (٦٢)

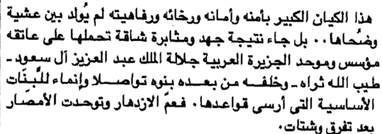




منهليات



الوحدة .. والتوحيد



هذا الكيان الكبير بأمنه وأمانه ورخائه ورفاهيته لم يُولد بين عشية وضُحاها .. بل جاء نتيجة جهد ومثابرة شاقة تحملها على عاتقه مؤسس وموحد الجزيرة العربية جلالة الملك عبد العزيز آل سعود - طيب الله ثراه - وخلفه من بعده بنوه تواصلا وإنماء للبِنَات الأساسية التي أرسى قواعدها. فعمّ الازدهار وتوحدت الأمصار بعد تفرق وشتات.

لم يكن التوحد فقط غاية لموحدّه بقدر ما كان التوحيد أعلى ركيزة في ذلك التوحد.

فيوم أن تحققت وحدة شبه الجزيرة مُذ ٦٤ عاما - على قلب رجل واحد - أصبح منهج التوحيد بكل معانيه حكَما وحاكما.

وأرِّخ الحادي والعشرون من جمادى الأولى ١٣٥١هـ الموافق ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م يوما وطنيا وميلادا للجزيرة العربية في العصر الحديث.

ولئن كان ميلاد المملكة العربية السعودية هو نهاية معركة الوحدة والسيادة والاستقرار فإنه كان كذلك بداية معركة البناء والحضارة ودخول عصر جديد تتفتح فيه بلادنا على العالم الواسع الكبير.

وعلى يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - حفظه الله - يتوالى العطاء الخيِّر وتتسنّم المملكة القمة الشامخة في بناء دولة العلم والإيمان والأمان.. ويمتد عطاؤها الى العالم الاسلامي، عطاء سخياً، ينبع من وحدة العقيدة.. نماء وازدهارا..

رحم الله الملك عبد العزيز وجزاه عن بلاده وأمته خيرا بسيرته وتاريخه وانجازاته.. ورحم الله الرجال المخلصين الذين أسهموا معه في بناء هذا الكيان الكبير.. وبارك الله في ما تبذله حكومتنا الرشيدة من جهد جبار للارتقاء الدائم المستمر بانسان هذه المملكة الغالية، وما بذلته وتبذله من أجل إشاعة الأمن والسلام والاستقرار في عالمنا الاسلامي والعربي.

وكلاء التوزيع

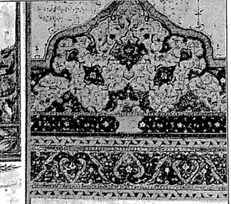
الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ - وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ - الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ - الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ - شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ - دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ - وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ - دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات: يراجع بشأنها الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤

فهرس العدد ٥٣٥ - المجلد : ٥٨ - العام : ٦٢

الفهرس

في هذا العدد



أقلام:

د. عبده بدوي - د. كمال اسماعيل - فيصل أسعد - د. أمين ساعاتي - د. علي القاسمي - د. عبد الرزاق الصاعدي - د. يس الخرشاف - محمد عبد القادر الفقي.

استطلاع مصور:

مدرسة ومكتبة الغازي خسرويك بسرايفو

خالد عزب ـ مصر ـ

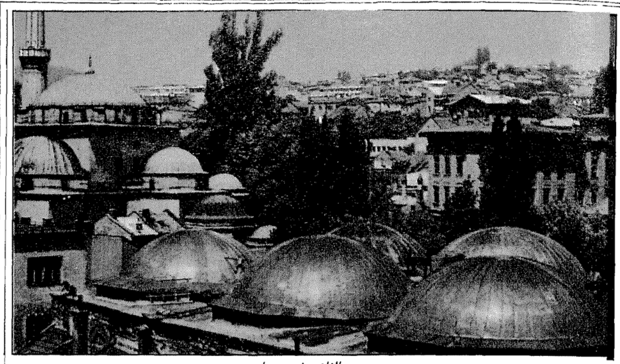
البوسنة والهرسك .. أرض البطولات .. أرض ذات معالم إسلامية بارزة .. اليوم سنرحل اليها رحلة عبر الزمان وعبر المكان لنقف عند ملامح من تاريخها ومعالم من حضاراتها الاسلامية.. فإلى البوسنة نرحل:

فتح البوسنة:

كان فتح بلاد الصرب والمورة سببا لاضطراب عظيم وقلق كبير للنصرانية الأوروبية وكان دافعا للبابا لبث الدعاية المضادة للعثمانيين لما يسببه اتمام هذا الفتح من ترسيخ للوجود الاسلامي بأوروبا، وكان أكثر من استجاب لنداء البابوية، ودعايتها الصليبية فى ذلك الوقت، ملك البوسنة ثم تلاه دوق الهرسك، وكان يسمى سانت ساباس، وكان البابا وقتها هوبيي الثاني.

وقد بدأ فى طلب المساعدات من كل من ماثياس ملك المجر، ومن جمهورية البندقية، وحتى من اسكندر الارناؤوط، خاصة وأن رسل ملك البوسنة قد ذهبوا إلى روما فى ديسمبر عام ١٤٦١م، الموافق ربيع الأول عام ٨٦٦هـ، وطلبوا من مقام البابوية قوات مساعدة لهم ضد العثمانيين.

وبعد مدة من هذا، اتفق نفس الملك مع اسكندر، وفى كل هذه العلاقات السرية، كانت تتوسط جمهورية دوبرفنيك راجواز الصغيرة التى كانت تدفع الخراج للدولة العثمانية، وكان للسلطان محمد الفاتح استخبارات على أعلى درجات التنظيم، وجواسيسه ينتشرون فى كل مكان، وكان من خلال هذا الجهاز يتابع بدقة بالغة استعدادات العدو، وقرر السلطان الفاتح تسوية مسألة هذه الدولة الصغيرة بشكل حاسم، وذلك لكي يتمكن من إتمام فتوحاته فى البلقان، لكن حرب الأفلاق الأخيرة التى حدثت فى أوائل عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م، منعت التطبيق الفورى لقرار الفاتح، وذلك لأن الفاتح كان قد أرسل قبل تلك الحرب إلى ملك البوسنة (ستيفان توما شافيتش) رسلا يطلبون منه الخراج الذى تأخر عنده، لكن ملك البوسنة رفض دفع الخراج ووصل الأمر به أن ألقى برسل الفاتح فى غياهب السجون وبالتالى أخذت العلاقات بين الدولة العثمانية والبوسنة شكل العداء الصريح، والواقع أن ملك البوسنة وهو صهر ملك الصرب كان له ادعاؤه فى قضية وراثة العرش الصربى، وادعى فيها عدة حقوق واتخذ فى المسألة الصربية جبهة ضد العثمانيين[١].



مسجد الغازي خسرو بيك

استعد السلطان محمد الفاتح لحملته على البوسنة بعد فتحه لجزيرة ميديللى - وبعد أن قضى على غائلة الأفلاق - وكانت قوات السلطان لفتح البوسنة مكونة من ١٥٠ ألف شخص ، وسار الى مملكة البوسنة فى شعبان ورمضان ٨٦٧هـ وفتح قلعة (ياى تشا) وكانت هذه عاصمة المملكة البوسنية، ثم قدمت المدن الهامة مفاتيحها للسلطان، وبعضها قاوم مقاومة بسيطة، وتم القاء القبض على ملك البوسنة واعدامه بعد اصدار فتوى بذلك من الشيخ على بسطامي[٢]٠

الغازى خسرويبك:

ارتبط تاريخ مدينة سراييفو ارتباطا وثيقا باسم الغازى خسرويبك المولود فى سيريز (فى اليونان حاليا) فى عام ١٤٨٠م، وكان والده هو الوالى التركى فرهادبك، وأمه سلجوقية بنت السلطان بايزيد الثانى، ويعد الغازى خسرويبك من أشهر حكام منطقة البوسنة والهرسك فقد تولى مقاليد أمورها منذ النصف الأول من القرن السادس عشر (١٥٢١ - ١٥٤١م)٠ وأقام مجموعة من المنشآت التعليمية والدينية والاجتماعية والخيرية، وخلال فترة حكمه نمت مدينة سراييفو وتطورت بحيث أصبحت مدينة كبيرة ومركزا لمنطقة البوسنة والهرسك من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية٠

وأوقف الغازى خسرو بيك جميع أملاكه لمدينة سراييفو، فقد ترك مطبخا ومطعما عموميا وحماما وخانقاه وسوقا كبيرة، وشبكة أنابيب لنقل المياه إلى أربعين صنبوراً عمومياً وكثيرا من المشروعات المرتبطة بالمشروع الأساسي وهو المدرسة والمسجد

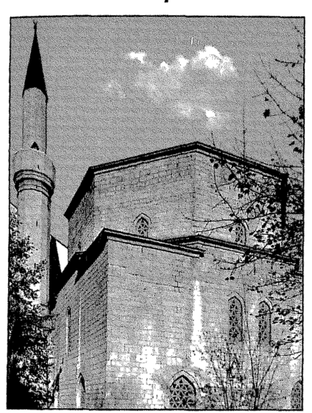
والمكتبة[٣]٠

احد المصاحف المخطوطة في المكتبة

المدرسة:

تشتهر مدرسة الغازي خسروبيك لدى أهالي البوسنة «بالكورشوميليه» نسبة الى كلمة «كورشوم» التى تعني الرصاص الذى كان يغطى به مبنى المدرسة، وأقيمت هذه المدرسة احتفاء بوالدة الغازي خسروبيك، السلطانة السلجوقية، ونسبة لها تسمى المدرسة أيضا «بالسلجوقية» وتم الانتهاء من تشييد هذه المدرسة فى عام ٩٤٤هـ الموافق ١٥٣٧ - ١٥٣٨م، وذلك بعد الانتهاء من بناء «الخانقاه» والمسجد الذى يقع بالقرب منها٠

والمدرسة، من الناحية المعمارية، مشيدة، على نظام المدارس العثمانية التقليدية التى عادة ما تكون مستقلة ومغلقة وتتخذ موقعا لها بجوار أحد المساجد ولها فناء داخلى محاط من جميع الجهات بحجرات الطلبة والأساتذة وحجرة للدرس، وتعد مدرسة الغازى خسرو بيك أبرز نموذج لمدرسة بهذا النظام٠ وهى كذلك أقدم مدرسة تم الحفاظ عليها، وتعد من الناحية المعمارية أهم مدرسة بين جميع المدارس الاسلامية التى تم تشييدها فى البوسنة والهرسك، ولم يتم الكشف عن شخصية مشيد هذه المدرسة إلا أن نظام المبنى نفسه وطريقة تصميمه تشير الى أن مشيدها كان مهندسا معماريا ممتازاً، خبيرا بمهنته عليما بحرفته، فقد ملك ناصية المبادىء الجمالية والهندسية لفن المعمار العثمانى، ومن المرجح أن مهندسها كان تركيا بسبب تطبيقه لنظام المدارس العثمانية التقليدية٠ ومن المحتمل أنه قام



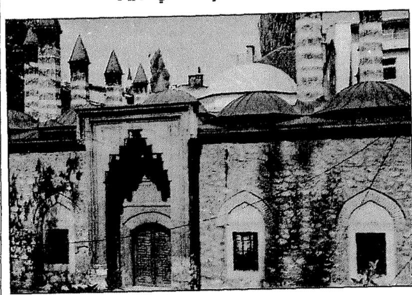
جامع بلجراد

بتشييدها تحت تأثير المدارس الإسلامية وعلى الأخص مدرسة عاتق على باشا.

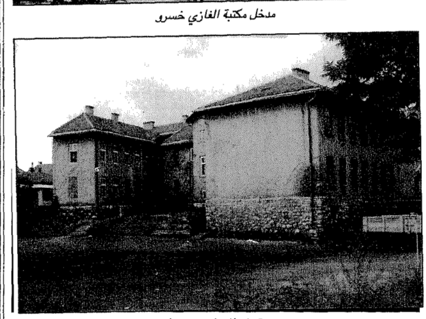
والمدرسة شيدت فى مواجهة مسجد الغازى خسروبيك فى فناء يفصلها عن الشارع، ومن الفناء الخارجى يظهر المنظر الجميل الرائع لواجهة المدرسة التى تتوسطها بوابة ضخمة يتخذ أعلاها شكلا هرميا مدرجاً والبوابة مصنوعة بشكل زخرفى للغاية وكأنما أريد بها التركيز على أهمية المبنى. وتظهر البوابة من خلال تجويف عميق ينتهى بزخرفة فى شكل سواقط. وتحاط فتحة المدخل بإطار حجرى بسيط وتنتهى بقنطرة دائرية، ونقشت فوق الفتحة الكتابة الزخرفية التى تقرأ «شيد هذا المبنى من أجل أولئك الذين يطلبون العلم» وعلاوة على ذلك فالبوابة محاطة بإطار حجرى يرتفع فوق واجهة المبنى، وهذه البوابة فريدة فى شكلها ولا توجد إلا فى هذه المدرسة.



فناء مدرسة الغازي خسرو في سراييفو



مدخل مكتبة الغازي خسرو



جمعية دار الايتام في سراييفو

وتظهر كذلك من الفناء الخارجي مجموعة القباب بأحجامها المختلفة التى تصطف حولها المداخن العالية ذات القمم المدببة، وهى تمنح هذا المبنى العتيق جمالا خاصا وحيوية فريدة ونوعا من السحر الخيالى المتميز. والقبة الكبيرة لحجرة الدرس تربط كل هذا فى تناسق وانسجام.

ويوجد فى عمق المدخل ممر يؤدى إلى فناء المدرسة الداخلى الذى يشكل محور المبنى، وهو محاط برواق مقنطر فوق سبعة أعمدة. والسماء الزرقاء التى تظهر من خلال القناطر تستحث الانسان على التأمل والتفكير إلى مالا نهاية حيث أن كل هذا الجو المحيط والجمال المتناسق يثير لدى الزائر حالة نفسية خاصة وانطباعاً بجدية المكان.

وتتوسط الفناء نافورة صغيرة تبهج الناظرين، وهنا يظهر بوضوح تناسق المكان ويستشعر المرء ألفة غير عادية. وتقع فى المنطقة المحيطة، فى شكل دائرى، اثنتا عشرة حجرة صغيرة مسقفة بالقباب. والحجرات مربعة الشكل وأبعادها ٢ر٩ × ٢ر٩ مترا، ولها مدخل من الرواق. وتتم إنارة الحجرات عن طريق النوافذ المتجهة صوب الفناء. وكل حجرة لها مدفأة وترتفع مدخنتها عالياً فوق المبنى. ولا توجد أية تفصيلات اضافية بداخل الحجرات، وبذلك تثير الاعجاب ببساطتها وتترك انطباعا بالرحابة بالرغم من عدم اتساعها. وفى مواجهة مدخل المدرسة توجد حجرة الدرس، ووفقا لابعادها الداخلية فهى ليست كبيرة (٥ر٦ × ٨ر٦ مترا)، وهى أيضا مسقفة بقبة كبيرة.

ولهذه المدرسة وقفيه حدد فيها الغازى خسروبيك نقاطاً عديدة هامة بالنسبة لهذه المدرسة، وقد صدقت عليها المحكمة الشرعية فى السادس والعشرين من رجب عام ٩٤٣هـ الموافق الثامن من يناير ١٥٣٧م. وفيها أوقف خسروبيك لهذه المدرسة العديد من العقارات بسراييفو وسبعمائة ألف درهم من الفضة من صافي أملاكه. ومن ريع هذه العقارات تم تشييد المدرسة.

وتشتمل الوقفية على تعليمات دقيقة بشأن كل الأمور بدءاً ببرنامج التعليم وبإخلاق المعلمين وانتهاء بالتزامات الطلاب ومستواهم، وتحدد أيضا المواد التى ينبغى دراستها من علوم التفسير والحديث والأصول والمعانى والبيان وتنوه الى امكانية إضافة علوم أخرى، وهذا يشهد بالرؤية الشاملة الحالمة غير المتحجرة لمؤسس هذه المدرسة. وبذلك أصبحت المدرسة منذ بدايتها منفتحة أمام العلوم الحديثة. ومن الواضح أن الغازى خسروبيك كان يهدف إلى جعل هذه المدرسة ذات مستوى عال، وإلى جعلها مؤسسة علمية تساير روح العصر وتجيب على كل مطالب العلم، وهذا ما حققته عبر الأزمان.

المكتبة:

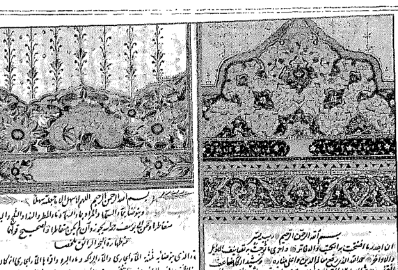
تعتبر مكتبة الغازى خسروبيك فى سراييفو حاليا أكبر مكتبات هذه البلاد، فقد

ازدادت ثروتها من الكتب الموقوفة من جانب أهل الخير والصلاح، وبكتب بعض المكتبات البوسنوية التى انضمت لهذه المكتبة من جانب آخر. ففى سنة ١٩٥٠م نقل الى مكتبة الغازى خسروبيك كثير من المكتبات الخاصة[٤] حتى أصبحت هذه المكتبة من أغنى مكتبات المخطوطات الشرقية فى أوروبا.

فعلى سبيل المثال نقل إليها فى نفس العام ١٩٥٠م مخطوطات مكتبتى قره كوزبيك ومكتبة الشهيد درويش باشا (استشهد سنة ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م).

وبهذه المكتبة مجموعة من المصاحف الرائعة، ومن أروع هذه المصاحف مصحف كتبه حسين البوسنوى سنة ١٧٥٥م ويضم هذا المصحف ٧٣٣ صفحة من الحجم الصغير ١٦ × ١٠سم، بكل صفحة ١٥ سطرا، وبهذا المصحف تذهيب رائع لأوائل الحروف ونهايات الصفحات وأواخر الآيات وبداية كل سورة.

ومن هذه المصاحف مصحف كتبه درويش عبد الحميد لسقويكلى سنة ١٨٤١م/ ١٢٥٧هـ وقد استخدم فى كتابة عناوين السور الحبر الأزرق والأحمر. ومن هذه المصاحف أيضا مصحف كتبه حافظ ابراهيم السرائى وقد انتهى من كتابته سنة



صورة لاح الكتب المخطوطة في المكتبة

١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م ومقاس الصفحة ٢٧ × ٤٣سم وهو مكتوب بالخط النسخ وزخارفه ملونه بالأزرق والأحمر والأبيض والذهبى. وحافظ ابراهيم السرائى كان إماما فى مسجد السلطان بسراييفو. وقد كتب أكثر من ٣٠ مصحفا، وكان ينتهى من كتابة المصحف فى أقل من سنة، ومصاحفه هذه من أروع المصاحف من ناحية التذهيب والزخرفة[٥].

الهوامش:

(١) د. محمد حرب، البوسنة والهرسك من الفتح الى الكارثة، ص ٢٠، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى ١٩٩٣م.

(٢) اسماعيل حامد دانشمند، تقويم التاريخ العثمانى، حـ١، ص ٣٠٠، ٣٠١، استانبول ١٩٧١م.

(٣) جمال الدين سيد محمد، أقدم مدرسة إسلامية فى يوغوسلافيا، ص ٨٥، مجلة الوعي الاسلامى، العدد ٣١١، ذو القعدة ١٤١٠هـ/ يونية ١٩٩٠م.

(٤) حسن قلشى، المخطوطات العربية فى يوغوسلافيا، ص٤ ، ٦، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ١٢، الجزء ٢، شعبان ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٦م.

(٥) د. يوسف راجيتش، مخطوطات القرآن في يوغوسلافيا، كتاب الأصالة، ج٤، ص٥٣، ٥٤. الجزائر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

د. نصر أبو زيد والتفسير الماركسي للإسلام

الفكر المنحرف عن الجادة، القائم على المغالطات وهوى النفس وقلب الحقائق، لابد من الرد عليه وإيقافه عند حده، حتى لا يستشري إفساده بين الناس.. في حلقات سابقة تناول الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة بالدراسة والبحث مجموعة من مغالطات المستشار/ محمد سعيد عشماوي ورد عليه أباطيله ومفترياته في الدين.

وفي هذه الدراسة الدقيقة يعرض لبعض مفتريات الدكتور/ نصر أبي زيد، وقد تجنى الدكتور/ ابو زيد كثيراً على الاسلام والمسلمين.

المنهل

أفكار مثيرة للجدل (١-٨)

بقلم المفكر الاسلامي:
أ.د. محمد عمارة

في ١٤/٦/١٩٩٥م صدر حكم محكمة استئناف القاهرة - دائرة الأحوال الشخصية - بالتفريق بين الاستاذ الدكتور/ نصر حامد أبو زيد وبين زوجته الدكتورة/ ابتهال يونس، تأسيسا على تضمن كتبه ما يجعله مرتدا عن دين الإسلام.

وبعد أيام قليلة، نشر الدكتور/ نصر بيانا للناس، قال فيه: «**أنا مسلم، وفخور بأنني مسلم، أومن بالله سبحانه وتعالى، وبالرسول - عليه الصلاة والسلام، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه، وفخور بانتمائي إلى الاسلام. وأيضا فخور باجتهاداتي العلمية وأبحاثي، ولن أتنازل عن أي اجتهاد فيها إلا إذا ثبت لي بالبرهان والحجة أنني مخطيء**»(١).

وبعد أيام من نشر هذا البيان، قال: «**أعلن استعدادي لتلقي ما أثاره الحكم القضائي من أسئلة واستفسارات في عقول أبناء مصر جميعا للإجابة عنها وشرح ما هو غامض أو ملتبس أو مثير للريبة**»[٢].

وأمام هذه الكلمات الواضحة والمحددة والصريحة نجد أنفسنا بإزاء مجموعة من الحقائق:

أولاها: هذا الإعلان الصريح من الدكتور/ نصر عن أنه مسلم، فخور بإسلامه، وبانتمائه للإسلام، يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.. وهو إعلان صريح عن إسلام الرجل، لا يجوز التشكيك فيه بحال من الأحوال.

والثانية: إعلان الدكتور نصر عن تمسكه بآرائه وأبحاثه و«اجتهاداته العلمية» - وهي التي أثارت ضده العاصفة التي انتهت بحكم التفريق بينه وبين زوجه، تأسيسا على ردته - مع استعداده لمراجعة هذه الآراء والأفكار والأبحاث و«الاجتهادات العلمية» إذا ثبت له بالحجة والبرهان خطؤها».

وهذه روح علمية طيبة، تفتح الباب للآلية الطبيعية والوحيدة الصالحة والقادرة على الفصل في مثل هذه الأمور.. آلية البحث في الآراء، والحوار حول الأفكار، والمناظرة بالحجة والبرهان.

والثالثة: التقدير المسئول من قبل الدكتور نصر لما أثارته آراؤه وأفكاره لدى الناس من «ما هو غامض أو ملتبس أو مثير للريبة».. واستعداده للإجابة عنها والشرح لها.

وانطلاقا من هذه الحقائق، ستكون دراستنا في هذه الصفحات: دعوة منا موجهة إلى الدكتور نصر - الذي لا نشكك فيما أعلن من إسلامه وفخره به وانتمائه إليه - لينظر معنا في مواطن من مؤلفاته ودراساته رأينا فيها ما لا يتسق مع ثوابت الاعتقاد الاسلامي، المعلوم من الدين بالضرورة، والذي لم يختلف فيه أحد من المسلمين على مر تاريخ الإسلام.. فنحن نفتح معه باب الحوار الذي دعا إليه، والمراجعة التي نادى بها، طلبا للإيضاح لما هو «غامض، أو ملتبس، أو مثير للريبة».. لنقتنع نحن بإجاباته التي تزيل ما لدينا من علامات استفهام.. أو ليراجع هو هذه النصوص - التي سنوردها في سياقاتها كاملة - الموحية - وفي كثير من الأحيان القاطعة - بعدم اتساق معانيها ودلالاتها ومقاصدها مع ثوابت الإسلام الذي يؤمن به الدكتور/ نصر.

ذلك هو المقصد الذي تطمح إليه هذه الدراسة، التي نقدمها في هذه الصفحات..

وأولى المشكلات - التي نحاور فيها الدكتور/ نصر - والتي نراها محور وجوهر خلافنا معه، والباب الذي أثار عليه العاصفة.. ***هي نظرته المادية الماركسية للإسلام؟!.***

ونحن نؤمن بأن للدكتور/ نصر الحق كل الحق في أن يتبنى المنهاج المادي الماركسي في تحليل الاسلام.. لكننا نؤمن أيضا بأن هذا الموقف المادي في النظر للدين لا يمكن أن يكون متسقا مع إيمان صاحبه بالدين، ولا مع انتمائه إلى دين الإسلام.

إن الماركسية - كما يعلمها المبتدئون والمتعمقون - وأنا واحد من الذين درسوها وعاشوا تجربتها النظرية والعملية قبل ما يقرب من نصف قرن - هي فلسفة مادية.. ترى - كما يقول واحد من أساتذتها - ***«أن المادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها»[٣].***

وهذا الخالق - الله - الذي تنكره الماركسية، وتجحده المادية الجدلية - وهي الركيزة الأولى للماركسية - هو الذي يتحدث عنه لينين، فيقول: «سواء في أوربا أو في روسيا، ***فإن أي دفاع أو تبرير لفكرة الله*** - مهما كان جيدا ومهما حسنت نواياه - ***هو تبرير للرجعية»[٤].*** فالله - في نظر المادية الماركسية - خرافة .. وشهيرة تلك المأثورة الماركسية التي تقول: «إن الشعوب في لحظات الضعف، اخترعت الآلهة، وفي لحظات القوة حطمتها»!

وإذا كانت المادية الجدلية هي الأساس الذى فسرت به الماركسية «العالم»، و«الخلق»، و«الوجود» ، و«المصير»، و«التاريخ»، و«الدين»، و«الفكر»، و«الاقتصاد» ، و«الاجتماع»، و«السياسة»، و«الآداب» و«الفنون»، وحتى «اللغة» .. الخ... الخ.. بل وحتى أحلام الإنسان وعواطفه وأشواقه.. حتى لقد قطعت - في يقين - «بأن القول بأن العالم مادي، وأنه لا شيء فى العالم بجانب المادة وقوانين حركتها وتغيرها، هو حجر الزاوية فى المادية الجدلية، فهو عدو صارم غير متصالح لكل مفاهيم الماهيات التى تتجاوز الطبيعة، بصرف النظر عن الأردية التى يضعها عليها الدين أو الفلسفة المثالية.. ***فإدراك الطبيعة يؤدى إلى إدراك مادية العالم*** «[٥].

إذا كانت هذه هي النظرة المادية الماركسية للعالم: لا شيء فى الوجود سوى المادة، ولا وجود لماهيات أو مفاهيم أو أفكار مفارقة للمادة والطبيعة.. فإن هذه النظرة قد قدمت - فى نشأة الفكر - ومنه الدين - وفى علاقته بالمادة والواقع، النظرية التى يعرفها كل من قرأ الماركسية - ومنهم الدكتور نصر أبو زيد -. نظرية ***«البناء الفوقى والقاعدة المادية»***.. فالمادة والواقع - الاقتصادى والاجتماعى والفسيولوجى - هما مصدر كل ألوان الفكر - الذى هو البناء الفوقى الذى تصنعه وتشكله المادة والواقع، ليعود ثانية - ***هذا الفكر - كى يؤثر فى الواقع***، فى جدل مستمر، صاعد من الواقع، وعائد للتأثير فى الواقع.. ولا شيء وراء ذلك الواقع.. وبعبارات علماء الماركسية، التى صاغتها موسوعاتها الفلسفية «فالفكر هو النتاج الأعلى للدماغ كمادة ذات تنظيم عضوي خاص. وهو العملية الإيجابية التى بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي فى مفاهيم وأحكام ونظريات.. الخ .. ويظهر الفكر خلال عملية أنشطة الإنسان الاجتماعية والإنتاجية، ***ويضمن انعكاسا وسيطا للواقع*** ويكشف الروابط الطبيعية داخله.. فالفكر نتاج اجتماعي من حيث أسلوب بدايته ومنهج قيامه بوظائفه، ومن حيث نتائجه.. ***والمادية الجدلية تعتبر الفكرة انعكاسا لواقع موضوعي، وهي تؤكد فى الوقت نفسه التأثير العكسي للفكرة على تطور الواقع المادي، بهدف تحويله***.. وتتخذ الماركسية نقطة انطلاقها مما يكمن فى أساس كل مجتمع إنساني، أى طريقة الحصول على وسائل العيش، وتقيم الصلة بين هذه الطريقة والعلاقات التى يدخل فيها الناس فى عملية الانتاج، ***وهى (أى الماركسية) ترى فى نسق هذه العلاقات الانتاجية الأساس والقاعدة الحقيقية لكل مجتمع، عليها يرتفع بناء فوقي سياسي وقانونى واتجاهات مختلفة للفكر الاجتماعي***[٦].

فالمادة والواقع - الاقتصادى والاجتماعى - هي/ القاعدة التى يتشكل فيها ويخرج منها ويصدر عنها الفكر بكل ألوانه - المفاهيم والأحكام والنظريات - والديانات .. وليس هناك مصدر لفكر خارج الواقع أو مفارق للمادة والطبيعة.

تلك هى النظرة المادية الماركسية للفكر والدين والخلق والخالق، وللعلاقة بين البناء التحتي - المادى - والبناء الفوقى - الفكري - والتى يعلمها عوام وخواص الماركسيين والدارسون للماركسية والقارئون لأدبياتها.

ونحن نزعم - وسنقيم على ذلك الأدلة والبينات - أن الاستاذ الدكتور نصر حامد أبو زيد قد نظر بهذا المنظار المادي الماركسي وهو يحلل القرآن الكريم.. والنبوة والوحي .. والعقيدة .. والشريعة .. وتاريخية النصوص.

وقبل أن نقف أمام نصوصه التى عرض فيها بالتحليل لهذه الأسس الخمسة فى الاعتقاد الدينى - القرآن - والنبوة والوحى - والعقيدة - والشريعة - وتاريخية النصوص والأحكام ..

وحتى لا يظن ظان أننا نكتفي فى الاستدلال على تبنى الدكتور/ نصر للمنهاج الماركسى فى التحليل - وتحليل «النص» القرآنى على وجه الخصوص - بشهادة الماركسيين له - على لسان الأستاذ/ محمود أمين العالم - بأنه - أى نصر - «أحسن من يحلل النص» حتى لا يظن ظان أننا نكتفى بهذه الشهادة على انتمائه لهذا المنهاج، فإننا نقدم نماذج من نصوص الدكتور نصر، التى تشهد على تبنيه لهذا المنهاج المادي الماركسي فى النظر والتفسير والتحليل.

١ - فالنظرية الماركسية فى «البناء التحتي والبناء الفوقى» - وهى المفتاح المادى لعلاقة الفكر بالواقع - والمفتاح الوحيد لفهم نظرة الدكتور نصر للإسلام - نجدها عند الدكتور نصر .. الذى يقول: ***«إن الآفاق المعرفية للجماعة التاريخية هى آفاق تحكمها طبيعة البِنَى الاقتصادية لهذه الجماعة[٧] .. وإن البِنَى التحتية والفوقية تتفاعل فى جدلية معقدة»[٨] ..*** فالآفاق المعرفية فى أى مجتمع ولأى جماعة - أى البناء الفوقى - محكومة بالبنى الاقتصادية والاجتماعية - أى بالبناء التحتى -.

وهو يطبق هذه النظرية - إنتاج الواقع الاقتصادى والاجتماع للمعرفة والفكر - لا على الوقائع التاريخية فحسب من مثل قوله عن اتفاق العرب على تحريم القتال فى الأشهر الحرم: «وكان تحديد مجموعة من الشهور يحرم فيها القتال، أقرب إلى الاتفاق للحفاظ على وسائل الانتاج الاقتصادى من الدمار الكامل»[٩]؟! بل ويطبق هذه النظرية على نشأة الدين «فلقد كان البحث عن دين إبراهيم [إبان ظهور الإسلام] فى حقيقته بحثا عن الهوية الخاصة للعرب، وهى هوية كانت تتهددها مخاطر عدة، ***أهم هذه المخاطر هو الخطر الاقتصادى النابع من ضيق الموارد الاقتصادية[١٠]؟!.***

فالبناء التحتى - العوامل والبِنَى الاقتصادية والاجتماعية، والحفاظ على وسائل الانتاج، وعلى الموارد الاقتصادية هى مصدر المعرفة، وصانعة الأحداث التاريخية، وموجهة البحث عن الهوية - الحنيفية .. ودين إبراهيم - عليه السلام؟!.

٢ - وإذا كانت المادية الماركسية قد جعلت الفكر والدين والمفاهيم والأحكام والنظريات - وكل مكونات البناء الفوقى - إفرازا للبِنَى الاقتصادية والاجتماعية والمادية - البناء التحتى - فإن منهاجها الطبقى قد ميز فى أفكار المفكر وفى النسق الفكرى بين ما هو «تقدمى» أو «رجعى» وما هو «إيجابي» أو «سلبى» وما يمثل «تثويرا» للواقع أو «تجميدا وتثبيتا» لهذا الواقع، تبعا للوضع الطبقى للمفكر، ولدور الطبقة التى ينتمى إليها ويعبر عن مصالحها فى صراع الطبقات.

والدكتور/ نصر أبو زيد يتبنى هذا المنهاج الطبقى الماركسى فى تحليل الأفكار وتوصيف المؤسسات .. فـ «الدولة» عنده - كما هى فى الماركسية - «جهاز طبقى».

و«المشروع الاجتماعى» محكوم بانتمائه الطبقى، وهو «يترجرج، غيابا وحضورا طبقا لعلاقة الطبقة بغيرها من الطبقات».

والطبقة الوسطى عندنا يعود ترددها الفكرى إلى «تكوينها الهش والهجينى» .. وتلفيقها الفكرى بين الموروث والوافد «مردود إلى النقص فى وعى الطبقة، الناتج من طبيعة تكوينها الهش والجنينى[١١].

ونحن لا نناقش هنا خطأ أو صواب القول بتأثير الانتماء الطبقى على الأفكار .. وإنما نسوق الأدلة - من نصوص الدكتور نصر - على تَبَنِّيه لهذا المنهاج الماركسى فى النظر والتحليل والتفسير.

٣ - بل إن البينات على تبني الدكتور/ نصر للمنهاج المادى الماركسى والنزعة الطبقية

الماركسية.. هذه البينات تتجاوز نطاق «التبنى» الى ميدان الدفاع الصريح عن الماركسية فى مواجهة ما يسميه «الخطاب الدينى» الذى يقف من الماركسية موقف الرفض والإدانة والعداء.

فهو يتهم «الخطاب الدينى باختزال الماركسية فى الالحاد والمادية»[١٢].. وبأنه يجعل عداء الماركسية «للدين ذاته» بينما هذا العداء - برأى الدكتور نصر - هو «للفكر الدينى والتأويل الرجعى للدين» وليس لذات الدين.

وإذا كنا قد سقنا نصوص فلاسفة وعلماء وأساتذة الماركسية التى تتحدث عن رفض المادية الماركسية للخالق - الله - واعتبارها أن **«أى دفاع أو تبرير لفكرة الله - مهما كان جيدا ومهما حسنت نواياه - هو تبرير للرجعية».. لأن «العالم مادة، والمادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها..»** وهى نصوص شاهدة على أن العداء قائم بين الماركسية والدين ذاته - ومعه كل الفلسفات التى تؤمن بما وراء الطبيعة والمادة.. فإننا ننبه - هنا أيضا - الى مجانبة الدقة والموضوعية للدكتور نصر، عندما يتهم «الخطاب الدينى» باختزال الماركسية فى الإلحاد والمادية».

ذلك ان «الخطاب الدينى» حسب تعبيره - لا يختزل الماركسية فى الإلحاد والمادية وإنما يحاربها على امتداد جبهاتها وأصولها وفروعها جميعا.. فهو يعادى موقفها من الملكية - المسألة الاقتصادية - وموقفها من صراع الطبقات.. وموقفها من الحرية.. وموقفها من ديكتاتورية البروليتاريا.. وموقفها من مصدر القيم والأخلاق، ودرجة الثبات أو التطور فيهما.. ونظريتها فى «الأمة.. والقومية».. الخ.. الخ.

وفى دفاع الدكتور/ نصر عن الماركسية وإبراز محاسنها، ولفت الأنظار إلى إيجابياتها - كما يؤمن بها ويراها - يعيب على «الخطاب الدينى» «إهدار مبدأ الجدل»، الذى يعد من أسس الفكر الماركسى ومن أولياته.. وعدم الاحتفاء بما فى الماركسية من «فكر يهدف إلى تغيير العالم - لا مجرد تفسيره - بتغيير وعي الإنسان.. فالخطاب الديني لا يستهدف الوعي بقدر ما يهدف إلى التشويش الأيديولوجى»[١٣] على الماركسية.

وينسى الدكتور نصر - أو يتناسى - فى خضم حماسه للجدل المادى الماركسى، وتجاوز الماركسية تفسير العالم إلى تغييره - ينسى أن «الخطاب الدينى» لا يهدر «مبدأ الجدل»، وإنما يهدر «الجدل المادى الماركسى» على وجه التحديد، فى ذات الوقت الذى يتبنى «الجدل» الذى يعطى الأولوية للفكر، مع إقامة علاقات الحوار والتفاعل - الجدل - بين الفكر وبين «الواقع».. وفى نظرية «السنن الالهية» فى الخلق.. والأفكار.. والاجتماع الدينى والبشرى.. نظرية كاملة ومتميزة فى «الجدل» يتبناها «الخطاب الديني»، الذى يرفض مادية الجدل الماركسى - أى الانقلاب الماركسي على «الجدل الهيجلى» تحديدا؟!.

كذلك ليس صحيحا إهدار «الخطاب الدينى» لما فى الماركسية من دعوة إلى تغيير العالم - لا مجرد تفسيره - ومن دعوة إلى «تغيير وعى الإنسان» فالذى يرفضه «الخطاب الدينى» هو منهاج التغيير الماركسى للعالم.. وليس مطلق التغيير .. ولهذا «الخطاب الدينى» فى التجديد الاسلامى - الذى هو سنة وقانون لا سبيل إلى تبديلها أو تحويلها - منهاج متميز فى التغيير .. وهو لا يرفض «تغيير وعي الإنسان» بإطلاق، وإنما «الوعى الماركسى» تحديدا، والذى يراه «تزييفا لوعي الانسان» كما أثبتت تجارب الواقع

والتطبيق!..

وإذا كنا فى غير حاجة إلى إعادة التذكير بنصوص علماء الماركسية التى تؤكد على ماديتها وإلحادها.. فإن دفاع الدكتور/ نصر عن الماركسية، ورغبته الغريبة فى «تبييض وجهها» قد دفعته إلى الادعاء بأن تصنيف الشيوعية فى المذاهب الإلحادية هو «فهم عامي مبتذل، بحكم أيديولوجية التشويه للشيوعية[١٤].

ولعل دعوى الدكتور نصر «إيمان الشيوعية» ونفى الإلحاد عنها هى من «نكات» عقد التسعينيات، التى تنافس تلك «النكتة» التى شاعت فى أوساط الشيوعيين المصريين فى عقد الأربعينيات، عندما جلس احد الشيوعيين المصريين فى أحد المقاهي يحاور آخر «ليجنده» فى التنظيم.. فمر بهما بائع أوراق اليانصيب، ينادى عليها بكلمة:

- يانصيب .. يكسب ..

فسأل الذى فى طريقه الى الشيوعية «الكادر القديم»:

- هل فى الاتحاد السوفيتى أوراق يانصيب؟..

ففكر «الكادر الشيوعى» للحظة .. ثم أجاب:

- نعم .. لكن كل الأوراق هناك تكسب؟!..

إنه - فى «النكتة» القديمة والجديدة - تبييض للوجه الكالح بصرف النظر عن «صنف المساحيق»!.

وجدير بالملاحظة أن الدكتور/ نصر أبو زيد الذى تبنى منهاج المادية الماركسية فى تحليل النصوص وتفسير الأنساق الفكرية، منذ ما قبل سقوط الماركسية وطي صفحة أحزابها ودولها ومعسكرها.. قد كتب دفاعه عنها بعد هذا السقوط.. ذلك أن الذى سقط عنده ليس «الماركسية» وإنما «الدولة السوفيتية»، دولة عبادة النصوص وسيطرة الحزب الذى احتكر وحده حق تأويل تلك النصوص[١٥].

فالتبنى للمنهاج المادى الماركسى .. والدفاع عن الماركسية ضد «الخطاب الدينى» موقف دائم وممتد للدكتور نصر، حتى احدث كتبه [التفكير فى زمن التكفير] الصادر فى سنة ١٩٩٥م.

ذلك هو موقع الدكتور نصر من المادية الماركسية.. وبهذه المنهجية المادية حلل وفسر وأوّل ثوابت الدين وأمهات الاعتقاد فى الاسلام.. من القرآن.. إلى النبوة والوحي .. الى العقيدة.. إلى الشريعة.. وحتى الموقف من تاريخية النصوص والأحكام التى تنفى عنها الخلود والثبات بتعميم وإطلاق.

« للدراسة صلة »

الهوامش:

(١) صحيفة (الاهرام) القاهرة، فى ١٩/٦/١٩٩٥م.

(٢) مجلة (روز اليوسف) القاهرة - فى ٢٦/٦/١٩٩٥م.

(٣) د. مراد وهبة (المعجم الفلسفى) مادة «مادى - مذهب» طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.

(٤) الموسوعة الفلسفية - وضع مجموعة من العلماء السوفييت - بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين. ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م - مادة «تشييد الله».

(٥) المصدر السابق - مادة «المادية الجدلية» و«المادية التاريخية الطبيعية».

(٦) المصدر السابق - مادة «الفكر» و«الفكرة» و«المادية التاريخية».

(٧) (مفهوم النص: دراسة فى علوم القرآن ص٧٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م. ومجلة (القاهرة) مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - اكتوبر سنة ١٩٩٢م.

(٨) مفهوم النص ص ٧٣.

(٩) المرجع السابق، ص ٧٢.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) مجلة (القاهرة) مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق - اكتوبر سنة ١٩٩٢م-

(١٢) نقد الخطاب الدينى ص ٣٥، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

(١٣) المرجع السابق ، ص ٣٦.

(١٤) (التفكير فى زمن التكفير) ص ١٣١، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(١٥) مجلة القاهرة - إهدار السياق فى تأويلات الخطاب الدينى - يناير سنة ١٩٩٣م.

كرمة الأنبياء

شعر
د. عبده بدوي
ـ الكويت ـ

أورقَ الفجرُ واستدارت عليه
قطراتٌ رضيعة من ضياء

أيُّها الفجرُ قد حفرت نشيداً
من خلود فى القبة الزرقاء

وبهرتَ العيونَ فى كلِّ أرض
فاستراحت على جبين السماء!

قد رآك الرَّاعى فصفق للخصب
وللدفء فى القرى الخرساء

ورآك الفلاح أغمار قمح
ذهبيٍّ ، متوَّج بالحياء

ورآك الفقير فى بيته الخبز
وهمساً من شمعة شقراء

ورآك اليتيم من سجف الدمع
حناناً، وجنَّة من عطاء

ذلك الفجر قد تدلى على صدر
الدَّياجى من كرمة الأنبياء

فاستفاق الوجود ! واخضرت
الروح! ودبَّ الحنينُ فى الصحراء!

* * *

علَّمَ الناسَ كيف عاشوا كراماً
فالوجوه السمراء كالبيضاء

ورعى الخلق فى حنان رطيب
فاق فيه رعاية الآباء.!

أيَّهـــــا الشــــــرق كم طـلـعت علـى الـدُّنيـــــا

بـــنــور مــــــــــــــورَّد ، وإخـــــــــــاء

أنـــت أهـــديـــتَ لــلــوجــــــــــــود مــنـــاراً

فــــتــــبـــــاهـى، وعــــــشت فى الظلمـــــاء

قـــــــــد ضـلـلـت الـطـريـقَ لـلـنـبـع حـــــــينـاً

فــــــــــــتـلــفَّتْ .. لــعـلــه فـــى الــوراء

إن أردت الســــــــــــلام يمـشـى عــلـــى الأرْ

ض بـزيـتـــــــون أخـــــــضــــــــر ، ونمـاء

فــــــإذا مـــــا شــــــدا على القـــــصــــــر قلبٌ

رجـع الـشــــــدْوَ ســـــاكنٌ فـى الـعـــــــراء

وإذا مـــــــا جـــــــاعـت يدٌ لـيـــــــتـــــيـم

مـــــلأتـهـــــا الأشـــــجـــــار بـالإنـحـنـاء

فــــاقــــبس الـهــــدى من هتـــاف منيــــر

يتـــــعـــــالى من مـــآذن بيـــــضـــــاء!

* * *

يــنـبــع الخــــــــيـــــــر فى حـنــان وديــع

مـن وجــــــوه شــــرقـــــيـــــة ســــمـــــراء

ذلــك الــديــن رقــق الــنــاس حـــــــــتـى

لـــتـــــــــــــــراهُمْ مـــن الـــتُّقـــى فـــى بـــكـــاء

لــكـــأنـــى أحُسُّ مـــن كـــل صـــــــــــوب

بـــوجــــــــــوه مـكـيـــــــــة غــــــــرَّاء

حـــــــمـلتّ رهبـــــــــة التُّقـى فـى الـدّيـاجـى

فــــــهـى لونُ الـسـكـيـنـة الخـــــضــــــراء

إنــــنـــى ســـــــــــامـــع صـلـيــل قـلـــوب

يــغـــــمـــــر الأفـق عـنـد «غــــــار حــــــراء»

أأرانــــــــى أرى عـــــــلــــــى كـــــلِّ أرض

عــــــــــودة لــلــنــبــىِّ .. تـحــت الــلــواء؟!

نظرات :

الحضارة الإسلامية

بقلم
د. ناول
عبد الهادي
كلية الآداب
- المغرب -

الحضارة والتمدن من جهة، والبداوة والتبدي من جهة أخرى ظاهرتان متباينتان - فإذا كانت الأولى ترمز إلى التحكم نسبيا في مظاهر الطبيعة وتعني التنظيم الإجتماعي وتترجم روح القيم والمثل والمباديء والتعقل والتبصر والحكمة، فإن الثانية واقعة في متناقضات شتى، لطغيان الوجدان وسيطرة الإنفعال على كل عمل وَتَحكُّم الأمور الغيبية والروحية إيمانا بأن ذلك هو الصواب، وعندما يصطدم الإنسان مع الواقع تأخذ الحقيقة قدرا من التأمل الطويل، وتلك هي الخطوة الأولي للمتبدي على الطريق نحو المعرفة.

الحضارة تعني الرقي فى مجالات العلوم العلمية والتجريبية، وبالتالي هي الرقي الثقافي في الأفكار والنظريات ومجموع الأخلاق والسلوك، وبعبارة فالحضارة هي مجموعة الاراء والعادات الناشئة عن الجهود التي تبذلها الأمة لتنسلخ عن حالة التبدي التي كانت تتردى فيها، **ولدى قولنا البداوة فالقصد منها الجهل والتخلف الفكرى، وكل ما يشد الإنسان إلى الإستكانة والركود والركون إلى ما تمليه الخرافات والأساطير التى تشد الإنسان شدا إلى الماضي فتتعطل بذلك كل روح للإبتكار والخلق والتجديد** بل يصبح الإنسان ضد كل من يطمح ويتطلع ويتشوف. والحضارة بهذا المفهوم هي تجسيد للنشاط العقلي عند الإنسان.. ومظاهر هذا النشاط تستوعب كل مجالات المعرفة برفع قواعد الإنسان.

إن هذه النظرة لا تختلف عن تعريف ابن خلدون للحضارة وهو يوضح ذلك في مقدمته المشهورة على أنها نمط من الحياة المستقرة فتنشأ عن هذه الحياة الآمنة، الأمصار والصناعات ويطلب العلم، رغبة في التخلص من حياة متقوقعة يلتبس فيها الأمر بين الصواب والخطأ وبين الحق والباطل وبين القبح والجمال. وإذا نحن امعنا النظر في هذه التعريفات للأنماط الحضارية ألفينا **أن العرب عرفوا الحضارة غداة فجر الإسلام في ربوعهم ويفجر الإسلام وينابيعه الثرة أصبح للعرب**

● الحضارات السابقة واللاحقة للإسلام لم يكن للحياة الروحية نصيب في توجيهها.

● الاسلام دعا البشرية للرقي والتسامي في جانبي المادة والروح.

حضارة متميزة فريدة حية متحركة نامية على الدوام، وإن تعرضت عبر مسيرتها التاريخية لطوارىء الضعف، على حين كانت الحضارة الأولى تعيش فترة من الزمن تطول أو تقصر ثم ينتهي عطاؤها وتتوقف حركتها ولا يظل منها سوى أثر قليل، وهناك ما صار أثرا بعد عين. **والسبب في ذلك أن الحضارة العربية الإسلامية متأصلة من عقيدة ملؤها الإيمان والتسامح والتساكن والأخوة والمحبة والتفاهم والحكمة، ترفض كل مظهر من المظاهر التي تدعو إلى العنصرية والتفتت والحسد والكذب والرياء والزور.** ولهذا ظلت واحات في كل ركن وزاوية من الأرض تشع النور وتهدي إلى التي هي أقوم، وما الجامعات الإسلامية العريقة كالقرويين والأزهر والزيتونة إلا برهان على ذلك، وكذا الآثار الباقية في الغرب والشرق.

إن هذه العقيدة شاملة كاملة نظمت المسائل الروحية وعالجت الأمور الدنيوية وأصبحت بذلك النظام الفريد في هذا العالم الذي جمع بين الروحانية والمادية على إطار واحد وبطريقة إعجازية، فقد ظهرت هذه العقيدة العظيمة للسمو بالإنسان في جميع أوجه الحياة الوجدانية والحسية، وقد نزلت أول اية في القرآن الكريم مبشرة بفضائل العلم والمعرفة على الإنسان وبه يثب وهو الجسر الوحيد الذي بفضله يتم الإزدهار، وكل من توسل به نجا، وكل من اعتمده وعانقه سما، ولا سبيل إلى بلوغ أعلى الرتب والدرجات إلا إذا سادت روح التعليم وهيمنت العقلية التي منه تتغذى وسادت الروح التي منه تمتص الرحيق، فالعلم مصدر الحياة والنور.

قد أومأنا بأن الحضارة العربية الإسلامية متميزة، وبهذه الخصوصية امتازت وقاومت شتى ضروب الإستئصال والفناء والتذويب والتشويه والتحريف ونجحت نجاحا باهرا على البغي والظلم وكذا على ضروب المسخ.

اجل انها حضارة تؤمن بحرية العقيدة والفكر، فالإسلام يرفض مبدأ الإكراه في الدين لأنه يعتبر أن صيغة العقيدة تكمن في الإقناع القائم على المنطق والوجدان، **والإسلام لم يرفع السيف لحمل الناس على الإيمان، كما يزعم البعض، وإنما كانت**

● القراءة الواعية للتاريخ تقول أن التقنية وحدها لا تقيم حضارة.

● الحضارة الإسلامية مُسْتَهْدَفَة لما تحمل من مبادىء وقيم.

الحروب في عمقها وجوهرها ترسيخا لروح الحرية والمساواة والديمقراطية كما أن حرية الفكر كانت المبدأ الإسلامي إيمانا بأن العقول الخلاقة هي العقول التي تتمتع بالحرية في الرأي لذا كانت حرية الفكر قائمة على فك أسرها ورفع قيودها وعدم اخضاعها لكل حجر ووصاية، وان كتاب الله وسنة رسوله مليئة بالأدلة والبراهين على ذلك.

والحضارة الإسلامية إنسانية بمعنى أنها تحترم الإنسان لذاته دون النظر إلى جنسيته أو عقيدته او ما يتميز به عن غيره لذا سادت وعانقها الناس كافة وشعروا بالحماية تحت ظلالها الوارفة، إنها حضارة الإنسان تخدم مصالحه وتسمو به وتنأى بقيمها ومثلها عن كل ما يمس كرامة الإنسان باعتبار أن الإنسان جوهر الكائنات الحية ولذلك قامت ضد كل مظاهر النزعات العنصرية التي تتستر تحت ايديولوجيات مختلفة، وضد أنماط أشكال الطائفية التي يستهدف منها نسف الإسلام، إنها حضارة تريد للبشرية حياة طيبة تظللها مبادىء الأخوة والمحبة والتوازن والتكافل والتضامن والفضيلة، فهي حضارة تنشد معالى الأمور وتسير كل خطوة إلى الأمام في طريق التقدم والبناء.

قد نخرج من هذا «البحث» إذا نحن اردنا عرض منجزات الحضارة الإسلامية في ميادين البحث العلمي وفي ميادين الفنون وفي مجال العقيدة والإنسانية لأن العرض سيطول لخصوبة المادة وغناها.. ويكفي أن ننظر إلى ما ألف من كتب وأسفار في هذا الباب،

ولا ننسى أن نذكر أن الإسلام استُهْدفَ مرات عديدة للمسخ والاستئصال من المغول والتتار والصليبية والصهيونية إلا أن روح الإسلام رغم كل ذلك ظلت حية تنبض بالنشاط، ولا ادل على ذلك من استمرارية هذه الروح التي ينتظر منها فى عصرنا هذا والعصور الآتية ما يثلج الصدر وتقرّ به العين إن شاء الله.

إن تاريخ الحضارة الاسلامية يحدثنا عن

● «التوازن» القيمة المثلى التي احتضنها الفكر الإسلامي»

● الحضارات المادية برغم ما وصلت إليه من تقدم تقني» فهي تتآكل من اطرافها.

تلقيح الحضارة الإسلامية للغربية وتطعيمها، وعن هذا الموضوع تحدث كثير من المنصفين الغربيين، وان ذلك تم في لقاءات مهمة رغم تباينها، كان لها أبلغ الأثر على مسار الحضارة الغربية..

إسبانيا المسلمة كانت إحدى الشرايين لتطعيم هذه الحضارة. ناهيك بمراكز أخرى كصقلية وجنوب ايطاليا ثم أتت الحروب الصليبية تدعيما لهذه الروح، إننا نعلم الإفادات التي يكتسبها الإنسان من الإحتكاك بمظاهر الحضارة وكذلك كان، فالغرب وقف أمام الحضارة الإسلامية في الشرق مشدوها لم يكن يعلم أن الشرق الإسلامى على هذا المستوى الرفيع من التقدم والرقي فى كل المجالات ولدى عودة هؤلاء إلى بلادهم نقلوا أمورا كثيرة لم يكن الغرب يحلم بذلك حتى في الخيال إلا أن هؤلاء أصبحوا يتمتعون بفضل ما نقلوه بعيشة سعيدة، وعلى يد هؤلاء عرف الغرب حرية الرأى العلمي، ولا يجهل منصف من الغربيين أن هناك من حوكموا بالإعدام لرأي أدلوا به ولفكرة بدت لهم غير أن هذا الرأي يخالف ما تعارف الناس عليه وألفوه، أو هذه الفكرة تخالف رأى الكنيسة التي لا يهمها بالدرجة الأولى سوى المزيد من الاستنزاف والسطو والهيمنة واستغلال قدرات البشرية وتهميش الحياة الروحية، وأمام هذه القوة الرادعة لهؤلاء وغيرهم من الإقطاعيين المسخرة لإخماد الأنفاس كان لابد من أن يتفجر الخير على يد الحضارة الإسلامية المؤمنة بالحقوق والمؤمنة بالحرية والمؤمنة بالمساواة وبالوقوف ضد العنصرية. إننا لا نجهل عداء شرذمة من الأوباش الذين يقولون بعقم الحضارة الإسلامية وانها عاجزة عن مواكبة العصر. إذ ليس هناك أدنى مجال للشك في فعالية الحضارة الإسلامية. إنها قادرة على مواجهة التطور في كل زمان ومكان وقادرة على التحرك وبسرعة معهودة في ميدان الحضارة وكذا في ميدان العلم وما نعانيه الآن إلا انعكاس للتقليد والتبعية والاستلاب وهيمنة حضارات أخرى لا تتماشى والروح والعقلية الإسلامية العربية.

مخالب التنصير:

المنصرون قادمون

التنصير... الخطة المحكـ

بقلم د. فوزي عبد القادر الفيشاوي
جامعة اسيوط - مصر -

الخوف من العملاق:

إن الناظر منا في مثل هذه الأقوال السقيمة وأشباهها، يلجأ عادة الى التاريخ يستفتيه، ونستفتي التاريخ، فنجد الحقد الغربي على الاسلام والمسلمين يضرب بجذوره إلى عصر الاسلام الأول، ونجد التاريخ يحدثنا عن الزحف الاسلامي الجارف الذي طال أواسط أوروبا، وهو الزحف الذي لا ينسونه، اذ لو قدر له الاستمرار لكان الاسلام اليوم هو دين الغرب بأسره، ثم يحدثنا التاريخ - فيما بعد - عن الحروب الصليبية على العالم الاسلامي، وكيف اندحر الصليبيون - بعناية الله - وارتدوا على أدبارهم مقهورين مهزومين. وخلال تلك الجولات المتعاقبة، عرف الغرب أن التحدي الحقيقي الذي يواجه حضارتهم (البراجماتية) يكمن في الاسلام وحده. وقد أعلنوا ذلك صراحة في كتاباتهم ومؤتمراتهم. أجل لقد أعلنوا أن عدوهم الأول سيبقى هو الاسلام، وأن أكبر غاياتهم هو ضرب هذا الدين وهدم قواعده في الصميم، كما اتفقوا على أن التبشير (التنصير) سيظل أهم وسائلهم لتحقيق تلك الغاية. وهكذا لم يكن غريباً، أن يكون ثالوث (المبشر - الجندي - التاجر) هو أداة الغرب طوال مرحلة استعمارهم لعالمنا العربي والاسلامي. ففي هذه المرحلة البغيضة من التاريخ، نشطت الحركات

يقول المنصر الأمريكي «روبرت ماكس»: «إن العالم الغربي لن يدخر وسعاً في تنصير المسلمين، ولن يطيب نفساً حتى يرتفع الصليب في سماء مكة المكرمة، ويقام قداس الأحد في المدينة المنورة». ويعتقد المسيو كيمون، ذلك المنصر الفرنسي، أن مصلحة الجنس البشرى تقتضى (تطهير!!) الأرض من المسلمين، بحسبانهم مصدر شرور العالم وآثامه، ثم هو يقترح (قبحه الله) تدمير الكعبة المشرفة، ووضع ضريح الرسول [صلى الله عليه وسلم] في متحف اللوفر. ويرى المنصر الكبير «وليم جيفورد» أنه متى توارى القرآن واختفت مكة، فان العرب سوف يتدرجون في مدارج الحضارة، التي لم يبعدهم عنها إلا محمد [صلى الله عليه وسلم] وكتابه. (هكذا يردد لعنه الله). وعند القس «هنرى جيسب» أن المسلمين قوم متأخرون، لا يفهمون الدين الحق (النصرانية!!) ولا يقدرونه حق قدره. وفي رأيه أن التنصير يبقى وحده هو السبيل الأمثل لترقية المسلمين وتحضرهم.. (هكذا!!).

...مة لإحتواء العالم الإسلامي

التنصيرية والارساليات التابعة للكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية. وحتى حينما حمل الاستعمار الغربي عصاه ورحل، فقد خلَّف من ورائه طابوراً من المنصرين، بعدما أمكن لهم في هذه البلاد.

مخطيء ولا شك، من يظن أن حركة التبشير قد انتهت بزوال الحقبة الاستعمارية، فالحق أن هذه الحركة باقية ومتنامية أيضاً، بل انها تشتد ضراوة يوماً بعد يوم. وها هو عالمنا الاسلامي يتعرض اليوم لأضخم عملية اختراق تنصيرى، لم تحدث من قبل. هجمة شرسة مزودة بإمكانات أضخم وبتنظيم أدق، وبأساليب أشد دهاء ومكراً وخديعة. غارتهم الجديدة أكثر حدة وضرواة، بعدما أيقنوا بصلابة الفكرة الاسلامية في أعماق الضمائر، برغم كل محاولات السحق والتطويق والتطبيع طوال السنين الماضية. وبعدما أكدت لهم دراساتهم المستمرة، قابلية هذه الفكرة للتفجر والانبعاث في صورة دفق حضارى جديد وصحوة اسلامية جديدة. واذن فقد رأوا أنه لابد من تعقيم البذور قبل أن تنبت وتؤتى ثمارها، ولابد من وأد الأجنحة وهى لم تزل بعد في الأرحام. وكان الهجوم التنصيرى الجديد واسع الجبهات عالى التكلفة. هجوم تدعمه كل المؤسسات التنصيرية في العالم، ويدعمه مجلس الكنائس العالمى، ويغدق عليه الفاتيكان من أمواله الطائلة وامكاناته الضخمة.

وإن الناظر في الموجة التنصيرية الجديدة ليلحظ بدهشة، أنها تتوجه بكل قوتها وعنفوانها إلى المسلمين وحدهم، وليس الى الوثنيين، ولا إلى الملاحدة، ولا إلى المسيحيين الذين يجهلون دينهم ولا يلتزمون

العالم الإسلامي يواجه الآن اضخم عملية اختراق تنصيرى

بتعاليمه. انها هجمة موجهة الى المسلمين ليس غير، وهى تهدف بالدرجة الأولى الى اخراجهم من الاسلام، حتى يصبحوا تائهين فى صحراء الحياة بغير هدف ولا غاية ولا دين. الهجمة الجديدة لا يحركها غير الخوف من عملاق الاسلام أن يستيقظ من غفوته، والخوف من حضارته أن تتفجر ثانية وتنبعث. وهم يقولون ذلك صراحة في محافلهم وفى كتاباتهم. وها نحن نسمع وكيل ادارة البعثات التبشيرية بروما يعلنها صراحة وبغير مواربة «ان الهدف الأول الذى يتعين على البشر تحقيقه، هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التى يتميز بها الاسلام».

ادفع دولاراً تنصر مسلماً :

لم يعد فى الأمر خفاء، فهاهى آلاف النشرات والمطبوعات التى يصدرونها تتحدث بصفاقة عن آمال الحركة التنصيرية المعاصرة وتوجهاتها، وهم يصفون القضية برمتها بأنها حالة حرب بين المنصرين والمسلمين. خذ هذه النشرة على سبيل المثال. إنها نشرة تحت عنوان «فرصة سانحة» يقولون فيها: «لا شك أن العالم الاسلامى يبقى هو أهم الخطوط الدفاعية الأخيرة التى استعصت على التبشير، ولكن لابد للانجيل أن يخترق هذا الخط الأخير». وثمة نشرة أخرى تحت عنوان: «لابد أن يفتح الباب اذا واصلت قرعه» يقولون فيها: «لقد ساد الاعتقاد طويلا فى استحالة التبشير فى بلاد المسلمين وظننا لوقت طويل أنه لا مجال للبعثات التنصيرية بينهم، وكأن حصوناً قوية قد بنوها من حولهم.. حصون غير قابلة للاختراق، ولكننا نؤكد اليوم أننا أمام فتح مبين، فلقد توصلنا مؤخراً فى اجتماعات مؤتمر الكنائس العالمى الى الطريقة الجريئة التى تدخلنا فى باب المستحيل صارخين.. افتحوا الأبواب، افتحوا الأبواب. وهكذا أن لنا أن نحقق المستحيل، ونفتح الأبواب على مصاريعها، وأن لنا - بفضل جهود المبشرين - أن نكسر قبضة الاسلام الحديدية». هى اذن حرب حقيقية! أم تراك غير عابىء بالموقعة؟ فان كان فى داخلك شك فى جديتها، فانظر وتمعن فى أبحاث مؤتمر «كلورادو» الذى انعقد فى عام ١٩٧٩، حول استراتيجية العمل التنصيرى حتى عام ٢٠٠٠، ألا تلاحظ أنها لا تهتم بغير تنصير المسلمين؟ أجل،

الحملة التنصيرية الجديدة مدعومة بكل وسائل الاستمرارية

فهم يناقشون قضايا من مثل: كيف يصل الانجيل إلى المسلمين عبر وسائل الثقافة المختلفة؟ وما هى أفضل الطرق لتنصيرهم؟ وماذا عن ترجمات الانجيل إلى لغات المسلمين؟ وماذا عن حاضر ومستقبل البث الاذاعى التنصيرى الموجه للعالم الاسلامي؟.

انها ابحاث كثيرة ودراسات تدور فى هذا الفلك، على أن الأهم والأخطر هو

«ادفعِ دولاراً، تنصر مسلماً» تلك خطتهم المعتمدة لتنصير المسلمين

خطة العمل. والحق أن القوم يعملون بهمة ونشاط، بل لعلنا نذكر أنهم اتخذوا لمؤتمرهم شعاراً عملياً خالصاً هو «ادفع دولاراً تنصِّر مسلماً»، ولقد دفعوا وجمعوا مليارات الدولارات. ففى زمن محدود تمكن المنصرون من جمع ٩ مليارات من الدولارات، عن طريق الكنائس الأمريكية وحدها. وفى شتى بلدان الغرب، لا تسل عن التبرعات والاتاوات التى تنهال على الكنائس وجمعيات التبشير. وربما يعرف الكثيرون أنهم فى أوروبا يقتطعون نسبة معينة من مرتبات وأجور العاملين والموظفين لحساب مجلس الكنائس العالمى القائم على أمر التنصير. وقدروا فى ألمانيا قيمة هذه النسبة بنحو ٤٪، ورصدوا فى عام ١٩٨٦ قيمة التبرعات فى الولايات المتحدة وحدها فبلغت نحو ٨٧ مليار دولار. وفى عام ١٩٨٧ وصلت قيمة التبرعات الأمريكية الى ٩٣ مليار دولار. تخيل أنهم يرصدون نصف هذه المبالغ الضخمة للانفاق على النشاط التنصيرى فى عالمنا الاسلامى وحده!

ولابد أن نشير أيضاً الى جيش المنصرين وهيئاته ومنظماته، فقد أحصوا فى الولايات المتحدة وحدها مالا يقل عن ٢١٢ هيئة ومنظمة تنصيرية، ينتظم فى سلكها نحو مليونان وربع المليون فرد. وفى الفاتيكان هيئة تسمى «دائرة تنصير الشعوب»، لديها امكانات هائلة، تتحدث عنها مجلة ايطالية تدعى «لافيدا»، فى يناير ١٩٨٧، على لسان الكاردينال «أوسف تومكو» محافظ دائرة التنصير فى الكنيسة الكاثوليكية، انه يذكر أن عدد المدارس التبشيرية التى تشرف عليها الدائرة يبلغ نحو ٥٨ ألف مدرسة، الى جانب ٢٦ ألف معهد وجامعة. ويذكر أن عدد المدرسين العاملين لديهم يبلغ نحو ٤١٧ ألفاً، وأن مجموع الاعانات التى وزعتها الدائرة خلال عام ١٩٨٦بلغ ١٢٠ مليون دولار. وبشأن نشاطهم فى القارة الأفريقية، يذكر أن حركة التنصير فى القارة تشهد نهضة لم يسبق لها مثيل، وأنهم قد أضافوا الى جيش المنصرين نحو ١٨ ألف منصر فى الفترة الأخيرة، لمقابلة تلك النهضة.

ونقرأ فى دراسات أخرى، أن عدد

المدارس اللاهوتية التي تعنى بتخريج المنصرين والقسس في افريقيا، وصل إلى خمسمائة مدرسة، هذا علاوة على ٢٠ ألف معهد كنسي في انحاء القارة السوداء. ويكفي أن نعلم انهم قد احصوا في عام ١٩٨٦، عدد القسس المتفرغين لأعمال التنصير في افريقيا، فبلغ نحو ١١٥ ألفاً، ويتبع هؤلاء جيش من المبشرين المتطوعين. وفي غير افريقيا، يجوب اكثر من ١٧ مليون منصر أنحاء العالم. هكذا وباختصار شديد، فإن ما تقوله الأرقام هو صورة جادة لحجم الغزوة التنصيرية الجديدة، التي تقول ببساطة ان القضية متفجرة، والأمر جد خطير، واننا في غفلة.

التنصير في ثوب جديد:

أجل، كم نحن في غفلة! ومن غفلتنا، أننا مازلنا نعتقد في وجود تلك الهوة النفسية (القديمة) التي كانت تفصل بين المنصرين الغربيين البيض، وبين الافريقي الأسود. وهي الهوة التي كانت تمثل أهم مشاكل التنصير في افريقيا، حتى الربع الأول من هذا القرن. ومن غفلتنا أننا مازلنا نعول على هذه الهوة، بحسبانها الصخرة التي كانت تتكسر عليها جهود المنصرين. فالحق أن القضية لم تعد هي القضية اذ عرف مخططو التنصير ودهاقينه أن تلك النظرة

اكثر من مئة مليون دولار قيمة التبرعات الامريكية للحركة التنصيرية

العنصرية المتعالية، التي كان ينظر بها المنصر الأبيض إلى الافارقة السود كثيراً ما أضرت بالحركة التنصيرية بل انها نفرت الشعوب من دعوتهم ودينهم ودفعتهم ذاتياً لاعتناق الاسلام السمح الذي لا يفرق بين أبيض وأسود. كان هذا فيما سلف، أما اليوم فقد أعادوا النظر والتخطيط. ومن خطتهم الجديدة، انهم أشاعوا بين الأفارقة انهم يقفون معهم في خندق واحد ضد التمييز العنصري، وأنهم ما جاؤوا اليهم إلا لإعلاء شأنهم. أما دليلهم على صدق دعواهم، فهو واضح باثن أمام الجميع.

فالمنصرون الجدد قوم غير متعالين، يندمجون في حياة البسطاء من أهل الريف والقبائل الفقيرة ويعيشون معهم بعيداً عن المدن ووسائل الراحة والترفيه، وهؤلاء رجال عمليون، منهم الخبير الزراعي والطبيب والمهندس والاخصائي الاجتماعي، ومنهم المحاربون الذين يساندون المستضعفين والفقراء. والمنصرون الجدد أهل خير وبر ومروءة منهم من يمهد الأرض في المناطق الوعرة ومن يعلم الناس أصول الزراعة والري والتسميد، ومن يقيم المدارس والمستشفيات ودور المسنين والعجزة والملاجيء. وهم كذلك قوم متحضرون، فهم يهبطون بطائراتهم الصغيرة في كل مكان.. في القفار والغابات والأحراش

مئات المحطات التلفزيونية التنصيرية يشاهدها الملايين

والوديان ومعهم الأدوية والأطعمة والكساء، ومعهم (النصرانية) أيضا.. هؤلاء اذن هم المنصرون الجدد. شيء آخر، فقد دلت تجاربهم الطويلة، على أن أفضل وسائل التبشير هي ما كان على أيدي رجال من أهل البلاد، فالشجرة يسهل اجتثاثها بواحد من أعضائها.

وهكذا فقد أولوا عناية خاصة بأطفال تلك البلاد، لا سيما الذين تبدو عليهم مظاهر النجابة والفطنة والولاء. انهم يربونهم تربية كنسية خالصة، تغسل من خلالها العقول وتملأ بشيء واحد، هو الولاء للصليب. وينشأ جيل جديد من المنصرين المتعصبين يدينون بالطاعة لأولياء نعمتهم من الغربيين. وانك واجد اليوم معظم المنصرين في افريقيا هم من الافريقيين السود، وليسوا من الجنس الأبيض. وهكذا تجاوزت الحركة التنصيرية كثيراً من المزالق والعقبات، التي طالما عولنا عليها. ليس هذا فحسب، بل لعل من آخطر أساليبهم الجديدة، تلك التي تتخفى في صورة منظمات وهيئات وطنية، تبدو للناظرين في غاية البراءة، فهي لا ترفع شارة الصليب ولا تتسمى باسمه، ولكنها تمارس بثاً خفياً وتطبيعاً مستتراً ذكياً، يلتقي آخر المطاف بأهداف الحركة التنصيرية ومخططاتها. انها شراك خداعية ماكرة، ان لم تفلح في تنصير المسلم الفطن، فيكفيها أن تبث في نفسه القلق والريبة، ويكفيها أن تُعبِّد الطريق نحو اخراجه من اسلامه، وليمض بعد ذلك الى الجحيم. وذلكم هو عين المطلوب في غزوتهم الجديدة.. فهل نفيق؟

اخلع عنك الاسلام يخلع عنك الفقر والحرمان:

الهجمة التنصيرية الجديدة عرفت كيف تستثمر الضعف البشري جيداً. تلك هي الحقيقة التي لا مراء فيها. فكما لا يخفى على أحد، فأغلبية دول العالم الفقيرة هم من المسلمين، لقد أحصوا في عام ١٩٧٧ عدد الدول الفقيرة، فبلغ ستة وثلاثين، معظمها من الدول الاسلامية في قارتي آسيا وأفريقيا. وقدروا في عام ١٩٧٨، أن أربعين بالمائة من سكان الدول الاسلامية يعيشون في فقر مدقع، كما لا تقل أوضاعهم الصحية سوءاً وتخلفاً عن أوضاعهم الاقتصادية والتربوية والتقنية

عشرات المليارات من الدولارات مرصودة لتنصير المسلمين

(١٧ مليون) منصر منتشرون في انحاء العالم

والاجتماعية، والفقر - كما يعرف الناس - هو حليف صدوق للمرض، كما انه حليف للجهل، والفقراء كثيراً ما يمرضون بسبب فقرهم، كما يزيد فقر المرضى حينما يمرضون، وهكذا يعيشون في حلقة جهنمية مفرغة لا نهاية لها. وإن الحلق ليغص بمرارة العلقم، ونحن نشهد مأساة الملايين من اخواننا المسلمين الجائعين والمرضى، في ديار ضربها الجدب والقحط والجفاف والأوبئة. ويغص الحلق بما هو أمر من العلقم، ونحن نرى ونسمع عن الهجمة التنصيرية الجديدة، وهي تتسلل بخبث الى عالمنا الاسلامي، عبر تلك الحلقة الجهنمية، لتستثمر الضعف البشرى في هجمتها. إنها ولا ريب فرصتهم الكبرى (على حد تعبيرهم). ولم لا؟ فحينما كان المرضى والجائعون والمستضعفون واللاجئون المحرومون، ظهر المنصرون المنقذون. انهم يطعمون الجائعين، ويكسون العراة، ويضمدون الجراح، ويغدقون على الفقراء من واسع كرمهم وفيض عطائهم الكثير. ويأتي كل ذلك ممهوراً بشارة الصليب ومصحوباً ببركته وتلك غايتهم.

لقد أتقنوا اللعبة أيما اتقان، وتفننوا في تجويدها، ونجحوا - ويا للأسف - في تحويل أعداد كبيرة من المسلمين المستضعفين عن دينهم.

ولعل من أخبث مفردات لعبتهم الجديدة، تلك الجمعيات التي يسمونها: جمعيات الرحمة، وأطباء بلا حدود، وجمعيات الاغاثة وحقوق الانسان وغيرها كثير. فهذه كلها هيئات وجمعيات تمارس (في الظاهر) أنشطة خيرية متعددة، فهي تقيم المستشفيات ومأوى العجزة وتوزع الغذاء والدواء وتقدم المساعدات العينية والهبات المالية، ولكنها (في الباطن) تمارس نشاطها التنصيري الحقيقي. ومن أفانينهم، السعي الحثيث نحو تبني أطفال المسلمين من ضحايا الحروب والمجاعات. ولهؤلاء الأطفال يقدمون الرعاية والعناية والتعليم والتربية الكنسية. وهكذا - دون حول أو قوة - يعتنق أطفال المسلمين النصرانية، اننا نذكر ما فعلته (جمعية أرض البشر) السويسرية التبشيرية، في بيروت أثناء الحرب الأهلية، حينما تبنت مئات الأطفال من المسلمين اللاجئين واليتامى وقامت من بعد على تنصيرهم. ونتذكر ما قامت به «الأم تيريزا» (الحائزة على جائزة

فى القارة السوداء (٢٠ ألف) معهد كنسي

نوبل للسلام)، حينما نقلت مئات الأطفال المسلمين، من بيروت الغربية الى بيروت الشرقية، لإيوائهم وعلاج المصابين منهم ثم تنصيرهم.

ونذكر جهود الكنيسة الانجيلية فى عام ١٩٨١، حينما تبنت أكثر من ٦٠٠ طفل مسلم فى بيروت وصيدا، وقامت على رعايتهم وتنصيرهم. ونذكر ما قام به أحد المنصرين البلجيكيين فى الصومال، حينما تبنى ٣٠ ألفاً و٩٠٢ من أطفال المسلمين يتامى حرب أوغادين، ثم قام بتنصيرهم. ونذكر أنهم، أقاموا فى القارة السمراء اكثر من ٢٠ ألف معهد تعليمى يشرف عليها المنصرون، ويضم خمسة ملايين من أبناء المسلمين. ولا ننسى أيضاً أنهم افتتحوا فى افريقيا نحو خمسمائة مستشفى، وبعثوا اليها بمئات الارساليات التبشيرية والبعثات الطبية. وهى التى يقررون فى مؤتمراتهم، أنها حققت نتائج مذهلة تفوق ما يفعله القسس أنفسهم. ونذكر أنهم - فى خلال عشرين عاماً ليس غير - أقاموا فى دولة اندونيسيا المسلمة عدداً من المستشفيات يفوق كل ما أنشأته الأغلبية الساحقة من المسلمين. ولابد أن نذكر أيضاً أنهم قد نشروا المدارس التنصيرية فى عموم الباكستان، وأن ما لا يقل عن ٨٠٪ من طلابها هم من المسلمين. ونذكر .. ونذكر .. وقصارى

إذا استطاعوا تنصير المسلم فهذا حسبهم، وإلا فليكن أيَّ شيء آخر غير مسلم

القول، انه حيثما كان الضعف البشرى، وحيثما كان الجوع والمرض والفقر والحرمان، رأيت شعارهم جاهزاً. «اخلع عنك الاسلام، يخلع عنك الجوع والحرمان».

الأقمار الصناعية توزع الصلبان:

للاعلام فى حياة الناس قوة هائلة وتأثير عظيم، وإذن فقد غدا الاعلام أداة تنصيرية جديدة فعالة. وأنت تقرأ للفرنسى المسيوشاتلييه «أن للاعلام الغربى فى بلاد المسلمين قوة هائلة وسلطاناً عظيماً ، وربما أفلحت هذه القوة وهذا السلطان فى زعزعة ايمان المؤمنين وتفريغ هوية المسلمين». ونقرأ أنهم قد نجحوا بالفعل فى تنصير بعض القبائل الافريقية عن طريق الاذاعات التنصيرية. ولقد أغراهم نجاحهم فى تنصير قبائل الفولانى المسلمة فى غرب افريقيا، على التوسع فى نشر تلك الاذاعات.

والبث الاذاعى - كما لا يخفى - عظيم الفعالية، واسع التأثير، لا يعترف بحواجز الأرض الطبيعية أو المصطنعة. وانك تنظر فتجد اذاعات الغرب التنصيرية الموجهة تبث سمومها بشتى لغات العالم ولهجاته المتباينة، على مدى أكثر من ألف ساعة أسبوعياً. اذاعات كثيرة، نذكر منها اذاعة الشرق الأقصى (فيبا)، والتى مقرها جزيرة

سيشل، وتبث برامجها فى اتجاه الشرق الأوسط والساحل الشرقى لأفريقيا والهند وباكستان.

وفى «سوازيلند» محطة اذاعية يدعونها الدولية، تبث رسائلها فى انحاء مختلفة من العالم، ويرسل «راديو الفاتيكان» بتعاليمه التبشيرية - عبر الموجات القصيرة - بخمس وثلاثين لغة عالمية، منها الانجليزية والفرنسية والبرتغالية والعربية ولغات أفريقية كالأمهرية والسواحلية وغيرها. وفى ليبيريا.. ذلك البلد الافريقى المسلم، تعمل اذاعة «الحب الأبدى»، بالقرب من العاصمة منروفيا، وتشرف على أعمالها البعثة الأمريكية النصرانية، وتبث برامجها بخمس وثلاثين لغة عالمية، ويتبعها استديوهات فى لاجوس وأبيدجان وأديس أبابا. وتقدم «اذاعة حول العالم» برامجها على محطة ارسال اذاعة مونت كارلو، ويتبعها محطة ارسال قوية فى جنوب افريقيا، وهى تستهدف الناطقين بالعربية وبعض اللغات واللهجات الأفريقية. وفى أديس أبابا، تبث «اذاعة صوت الانجيل» برامجها التنصيرية الموجهة إلى الأفارقة. وفى بيروت، تبث «اذاعة صوت البشارة» برامجها، كما يتبعها ١٢ استوديو فى مختلف الأقطار العربية. وفى الولايات المتحدة، رصدوا فى حقبة الثمانينيات ٢٢١ محطة للبث

كثير من المنظمات والهيئات الانسانية عباءة جديدة للتنصير

التليفزيونى التنصيرى، يشاهدها بإنتظام نحو ١٤ مليوناً.

ومن جديد ما جاءت به الأنباء عن وسائل التنصير الاعلامية، ذلك المشروع الضخم المسمى (مشروع لومين ٢٠٠٠)، الذى وافق الفاتيكان على تبنيه فى عام ١٩٨٨. وهو يهدف فيما يهدف الى اقامة أكبر محطة تليفزيونية للتبشير بتعاليم الانجيل الى شتى بقاع العالم، ولا سيما افريقيا وآسيا حيث الكثافة الاسلامية العالية. ويعتمد المشروع فى أدائه على ثلاثة أقمار صناعية كبيرة للبث التليفزيونى المباشر.

اخطبوط التنصير وعالمنا الاسلامى:

اخطبوت بألف ذراع وذراع، يمتد فى كل بلاد المسلمين، وفى كل بلد يضم أقلية مسلمة. ثمة ذراع للأخطبوط تمتد بقوة نحو باكستان، ذلك البلد الاسلامى الكبير.. ولابد هنا أن نتذكر مقولة المؤرخ الكنسى «ستيفن نل»، من أن مصر وباكستان يمثلان أهمية خاصة بالنسبة للحركة التنصيرية، وأن سقوط احداهما يفتح الطريق أمام حركة التبشير بكنيسة المسيح. وهكذا نجد باكستان، وهى تتعرض منذ أواخر الأربعينيات لحملات

حزام تنصيري في افريقيا جنوب وغرب الصحراء

تنصيرية شرسة، ونقرأ عن مئات المدارس والهيئات التنصيرية التى تعج بها المدن الباكستانية، كما نقرأ عن اذاعة تنصيرية أقامها المبشرون فى احدى الجزر القريبة من باكستان. واذن لم يكن غريباً أن نعرف أن المنصرين تمكنوا فى شهر ابريل ١٩٨٥، من تنصير نحو ١٨ ألف مسلم باقليم «رجيم بارخان» فى اقليم السند.

وفى اندونيسيا، يتعرض المسلمون لهجمة تنصيرية عاتية، اذ تذكر التقارير أن جمعية الانجيل الثانية باندونيسيا، تمكنت فى عام ١٩٧٦، من تنصير ٤٠٠ ألف شخص، كما ذكرت تقارير وكالة «اليونايتدبرس» أن ثلاثة ملايين ونصف مليون مسلم، قد تنصروا خلال ثلاث سنوات. وفى كوريا، ذكرت الأنباء أن معدل التنصير قد وصل إلى أكثر من مائة ألف شخص. وتعد تايوان مركزا جيداً لانطلاق حركة التنصير فى القارة الآسيوية، كما تعلق الكنيسة الكاثوليكية آمالا كباراً على كل من الصين وفيتنام - فى الفترة القادمة - لزيادة نشاط حركتهم فى تلك المنطقة بأسرها. ويتعرض نحو خمسة ملايين مسلم فى الفلبين، لحملات تنصيرية مسعورة، وبخاصة فى جنوب البلاد، وتشير الأنباء الى حوادث التنصير الجماعية التى جرت فى الفلبين، تحت تأثير الضغوط الاقتصادية وحملات التجويع والارهاب المتصاعد.

وفي ليبيريا المسلمة، مالا يقل عن خمسمائة منظمة تنصيرية تعمل بكل قواها على تنصير أهل هذا البلد الافريقي. وثمة تقارير جاءت من دولة ملاوى، تشير الى حدوث انخفاض فى نسبة المسلمين بفضل حملات التنصير النشطة فى تلك الدولة الافريقية. لقد انخفض عدد المسلمين من ٧٠٪ من مجموع السكان، الى ٣٠٪ ليس غير. والحق اننا نشهد فى السنوات الأخيرة جهوداً جبارة تقوم بها المنظمات التنصيرية ومجلس الكنائس العالمى، لتنصير الأفارقة، مما أدى بالفعل الى زيادة حالات الارتداد الى المسيحية فى القارة الى نحو مليون نسمة سنوياً. ولأجل تحقيق المزيد من الأهداف، رأينا الغرب وهو يصنع حزاماً من الارساليات التبشيرية، يمتد من شرق القارة إلى غربها ماراً بجنوب السودان. ويهدف هذا الحزام التنصيرى إلى مواجهة الحزام الاسلامى الشمالى الذى ينطلق منه الدعاة الى وسط

مئات الاطفال نُصِّروا أثناء الحرب الأهلية في بيروت

مليون نسمة سنوياً في افريقيا من المسلمين الذين اغوتهم الكنيسة

وجنوب القارة.

وتمضى الهجمة التنصيرية فى مخططها المرسوم، ففى السودان يفتعل الغرب أزمة الجنوب، ونسمع زعيم التمرد «جون جارانج» يقول «إن السودان هو بوابة الاسلام والعروبة إلى افريقيا، واذن فلتكن مهمتنا الاحتفاظ بمفتاح هذا الباب، حتى لا يقوم للاسلام قائمة فى جنوب الصحراء الكبرى». وغير السودان وما يتعرض له من هجمة صليبية سافرة، فان الحركة التنصيرية تولى اهتمامها بالمغرب العربي، بحسبانه الأقرب إلى أوروبا، بل انه جسر العبور الى العالم العربي وافريقيا، ثم انهم قد يتوقعون منه الخطر يوماً ما.

واذن فقد كان محور اهتمامهم.. فالإذاعات التنصيرية تبث سمومها ليل نهار، والمطبوعات التنصيرية تأتى - عبر البريد - من أوروبا ومن مراكز التنصير الخاص بالعالم العربي (A.W.M) وجهود المنصرين ماضية فى العمل بين المغاربة المقيمين فى فرنسا. ويوسع المرء أن يعدد كثيراً من المنظمات التبشيرية التى تعمل فى ربوع عالمنا العربى، خذ مثلا جمعية مبشرى الكنيسة، ومنظمة عملية التعبئة، وزمالة الايمان من أجل المسلمين، ولجان لوزان للتنصير العالمى، ومركز الشباب اليافعين، وجمعية الزمالة الطبية للمنصرين، وغيرها الكثير.. انه اخطبوط التنصير ذو الأذرع الطويلة الممتدة فى كل مكان.. ترى هل ننتبه؟.

وماذا نحن فاعلين؟

عالمنا الاسلامى هو أكثر أمم الأرض استهدافاً من الهجمة التنصيرية الشرسة، التى يشنها العالم الغربي. واذن فقد وجب - بداية - وضع هذه القضية فى مقدمة المشاغل الاسلامية المشتركة، ووجب وضع خطة عمل محكمة لمجابهة هذه الهجمة. خطة عمل شاملة يرصد لتنفيذها ميزانية ضخمة فى حجم القضية وخطورتها. وقد يقتضى الأمر انشاء صندوق يساهم فيه كل مسلم طوعاً، كما تفعل أوروبا حينما تقتطع من مرتبات وأجور العاملين نسبة لدعم حركة الكنيسة وأهدافها. إن التعاون والتكافل الاسلامى الذى هو أصلا (فرض) على كل مسلم وعلى أولى الأمر، فى اطار الأمة يصبح اليوم (ضرورة) استراتيجية وسلاحاً فعالا فى المواجهة. ونعود فنؤكد على أن

عشرون ألفاً من يتامى حرب أوغادين تم تنصيرهم

حيثما كانت الحروب، والجوع والمرض والحرمان، كان التنصير

اخواننا المسلمين في دول أفريقيا وآسيا الفقيرة، وفي كل بقاع العالم محاصرون اليوم بأخطبوط تنصيرى شرس، مما يقتضى انشاء هيئة اسلامية عالمية تتولى مهمة الدعوة الاسلامية حيثما وجد مسلمون، ويقتضى كذلك اعداد جيوش من الدعاة (المجاهدين) لا الدعاة (الموظفين). دعاة لا يسترخون في العواصم والمدن الكبرى ويكتفون بإقامة الشعائر في المساجد، ولكن دعاة يجوبون كل مكان .. القرى، الاحراش، الغابات ، ويجلسون في الساحات مع البسطاء ، ويدعون الناس في المزارع والطرقات، وينتشرون بين القبائل والعامة.

هكذا فعل المنصرون الجدد، وبهذا نجحوا في دعوتهم الضالة المضلة. وثمة شيء آخر لا ينبغي تجاهله، وهو ضرورة النهوض بأحوال هؤلاء الاخوة الذين يعانون من ويلات الفقر والجهل والمرض. أجل، ان المطلوب هو النهوض بهم وبأحوالهم الاقتصادية والصحية والاجتماعية، اذ ليس من المنطقى ولا من العدل أن ننتظر من انسان لا يجد أبسط ضرورات العيش والحياة، أن يرقى بروحه وعمق ايمانه إلى مقتضيات الاسلام الصحيح. وتلك هى الثغرة التى تسلل من خلالها المنصرون.

ولعل واجب الصراحة يقتضى أن نقول بأن هؤلاء الاخوة لا شك يعذرون إذا قبلوا من الاخرين بعض ما يداوى مرضاهم ويطعم جائعهم ويكسو عاريهم، اذ ليس من العدل أن نطالبهم بأن يبقوا على جوعهم ومرضهم وبؤسهم المقيم، وانما المُطَالَبُ حقاً باتخاذ موقف هم نحن. أجل لابد من تحرك سريع عاجل، لا يكتفى بإيقاف أنشطة الجمعيات والهيئات التبشيرية فى كل بلاد المسلمين فقط، وانما يسعى جاهداً الى تقديم الخدمات الحياتية البديلة الى هؤلاء الاخوة تحصيناً لهم من كل غاز دخيل.

ويستلزم ذلك معاونة الشعوب الاسلامية الفقيرة فى بناء المستشفيات والمدارس والمشروعات الإنمائية الزراعية والصناعية. وهكذا، فإذا استطعنا أن نوفر لهم وسائل الحياة الضرورية، وتمكنا من الوصول إلى أهداف محققة فى النهوض بحياتهم، فاننا نكون قد حصلنا على نوع من المناعة ضد الأخطار المحدقة بهم، وعندئذ نكون قد نجحنا بالفعل فى غلق تلك الأبواب التى تتسلل من خلالها مؤسسات التنصير، لتبث بينهم ما تشاء من سموم. فهل يا ترى نتحرك قبل فوات الأوان؟ أم أن حالة التقاعس والتخاذل واللامبالاة التى تعيشها أمتنا اليوم لم تعد تهدد دنيانا فحسب، وانما باتت تهدد ديننا أيضاً؟!!

نار جهـ



أزمّة جهنم:

الزمام: هو الخيط الذى يشد به، ويسمى المقود، ويقال زم البعير خطمه[١]٠

وتحدث القرآن الكريم عن مجيء جهنم فقال: **{وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتنكر الإنسان وأنّى له الذكرى}**٠ وبينت السنة كيفية ذلك فى قصص مفصل يجسم ويصور الموقف، وهذا القصص من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، فهو قصص لا يدخل فيه الرأى ولا الخيال، والمقصود منه تعريف المخلوقين باليوم الآخر وما فيه من جنة ونار، وثواب وعقاب {لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين}٠

جاء فى القصص النبوى عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم][٢]: **(يؤتى بجهنم يومئذ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)**٠

والقصة على قصرها توحى بما قبلها من سياق؛ فيوم الآخرة يوم مجموع له، يوم الفصل بين الخلق جميعا برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، يشهده الملائكة المقربون وكل أمة مع رسولها٠٠ هنا يعرض الجبار جهنم **{ونُفِخَ فى الصور فجمعناهم جمعا٠ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا}**٠

نقل القرطبى عن أبى حامد[٣]: (أنهم يأتون بها تمشى على أربع قوائم، وتقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، بيد كل واحد حلقة، لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها بحلقة واحدة، على كل حلقة سبعون ألف زبنى لو أمر زبنى منهم أن يدك الجبال لدكها، وأن يهد الأرض لهدها، وأنها إذا انفلتت من أيديهم لم يقدروا على امساكها لعظم شأنها، فيجثو كل من فى الموقف على الركب حتى المرسلون، ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش هذا قد نسى الذبيح، وهذا قد نسى هارون، وهذا قد نسى مريم ـ عليهم السلام ـ وكل واحد منهم يقول: نفسى نفسى، لا أسألك اليوم غيرها٠ ومحمد [صلى الله

ـــنم وأهوالها (الحلقة الثانية)

عليه وسلم} يقول: (أمتى أمتى ، سلمها يارب، ونجها يارب) وليس فى الموقف من تحمله ركبتاه، وهو قوله تعالى: **{وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون}**، وعند تفلتها تكبو من الغيظ والحنق، وهو قوله تعالى: **{إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا}** أى تعظيما لغيظها وحنقها، يقول الله تعالى: **{تكاد تميز من الغيظ}** أى تكاد تنشق نصفين من شدة غيظها، فيقوم رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بأمر الله - تعالى - ويأخذ بخطامها ويقول: (ارجعى مدحورة إلى خلقك حتى يأتيك أهلك أفواجا) فتقول: خلي سبيلى فإنك يا محمد حرام عليَّ، فينادى مناد من سرادقات العرش: اسمعى منه وأطيعى له، ثم تجذب وتجعل على شمال العرش، ويتحدث أهل الموقف بجذبها، فيخف وجلهم، وهو قوله تعالى: **{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}** وهناك تنصب الموازين على ما تقدم.

ويعلل العلماء سبب ربط جهنم وشدها بالأزمة؛ لكى تساق وتقاد ويكبح جماحها وتمنع من الخروج على أرض المحشر، فلا يخرج منها إلا الأعناق التى أمرت بأخذ من شاء الله بأخذه.

ومما يزيد فى توضيح هذه القصة ما نقله القرطبى فى التذكرة(٤) عن كعب الأحبار قال: إذا كان يوم القيامة، جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، فنزلت الملائكة فصاروا صفوفا، فيقول الله لجبريل: إئت بجهنم، فيجيء بها، تقاد بسبعين ألف زمام، حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام، زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق، ثم زفرت ثانية، فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه، ثم تزفر الثالثة، فتبلغ القلوب الحناجر، وتذهب العقول، فيفزع كل امرىء إلى عمله، حتى إن إبراهيم الخليل يقول: بخلتى لا أسألك إلا نفسى، ويقول موسى: بمناجاتى لا أسألك إلا نفسى، ويقول عيسى: بما أكرمتنى لا أسألك إلا نفسى، لا أسألك مريم التى ولدتنى، ومحمد {صلى الله عليه وسلم} يقول: أمتى أمتى، لا أسألك اليوم نفسى، إنما أسألك أمتى.

قال: فيجيبه الجليل - جل جلاله - إن أوليائى من أمتك ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فوعزتى وجلالى لأقُرَنَّ عينك فى

بقلم:
أ.د. عبد الباسط احمد على حمودة
- مصر -

أمتك. ثم يقف الملائكة بين يدى الله - تعالى - ينتظرون ما يؤمرون به، فيقول لهم - تعالى وتقدس - معاشر الزبانية انطلقوا بالمُصرِّين من أهل الكبائر، من أمة محمد {صلى الله عليه وسلم} إلى النار، فقد اشتد غضبى عليهم بتهاونهم بأمرى فى دار الدنيا، واستخفافهم بحقى وانتهاكهم حرمى، يستخفون من الناس ويبارزوننى، مع كرامتى لهم، وتفضيلى إياهم على الأمم، ولم يعرفوا فضلى، وعظيم نعمتى، فعندها تأخذ الزبانية بلحى الرجال، وذوائب النساء، فينطلق بهم إلى النار، وما من عبد يُساق إلى النار، من غير هذه الأمة، إلا مسود وجهه، قد وضعت الأنكال فى رجليه والأغلال فى عنقه، إلا من كان من هذه الأمة، فإنهم يساقون بألوانهم،

فإذا وردوا على مالك، قال لهم: معاشر الأشقياء، من أى أمة أنتم؟ فما ورد على أحسن وجوها منكم، فيقولون: يا مالك، نحن من أمة القرآن، فيقول لهم: يا معشر الأشقياء، أوليس القران أنزل على محمد {صلى الله عليه وسلم} قال: فيرفعون أصواتهم بالنحيب والبكاء، فيقولون: وامحمداه! وامحمداه! وامحمداه اشفع لمن أمر به إلى النار من أمتك.

قال: فينادى مالك بتهدد وانتهار: يا مالك، من أمرك بمعاتبة أهل الشقاء ومحادثتهم، والتوقف عن ادخالهم العذاب؟ يامالك، لا تسود وجوههم، فقد كانوا يسجدون لى فى دار الدنيا. يا مالك: لا تغلهم بالأغلال، فقد كانوا يغتسلون من الجنابة، يا مالك: لا تعذبهم بالأنكال، فقد طافوا ببيتى الحرام. يا مالك: لا تلبسهم القطران، فقد خلعوا ثيابهم للإحرام. يامالك: مر النار لا تحرق ألسنتهم، فقد كانوا يقرأون القرآن. يامالك: قل للنار تأخذهم على قدر أعمالهم فالنار أعرف بهم وبمقادير استحقاقهم من الوالدة بولدها. فمنهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار الى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار الى سرته، ومنهم من تأخذه إلى صدره، ومنهم دون ذلك

فإذا انتقم الله - عز وجل - منهم على قدر كبائرهم وعتوهم وإصرارهم، فتح بينهم وبين المشركين بابا، فرأوهم فى الطبق الأعلى من النار، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا، يبكون ويقولون: يا محمداه ارحم من أمتك الأشقياء، واشفع لهم فقد أكلت النار لحومهم ودماءهم وعظامهم، ثم ينادون: يا رباه، يا سيداه، ارحم من لم يشرك بك فى دار الدنيا، وإن قد أساء وأخطأ وتعدى؛ فعندها يقول المشركون: ما أغنى عنكم إيمانكم بالله وبمحمد شيئا، فيغضب الله - تعالى - فعندها يقول: يا جبريل انطلق فأخرج من فى النار من أمة محمد، فيخرجهم ضبائر قد امتحشوا فيلقيهم على نهر على باب الجنة، يقال له نهر الحياة، فيمكثون حتى يعودوا أنضر ما كانوا ثم

يأمر بادخالهم الجنة مكتوبا على جباههم: هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن من أمة محمد {صلى الله عليه وسلم} فيعرفون من بين أهل الجنة بذلك، فيتضرعون إلى الله - عز وجل - أن يمحو عنهم تلك السمة، فيمحوها الله - تعالى - عنهم، فلا يعرفون بها بعد ذلك أبدا.

وفى قصة نبوية يدور الحوار فيها بين جبريل، عليه السلام، ومحمد {صلى الله عليه وسلم} وبين الله - تعالى - وجهنم. فعن أنس بن مالك - رضى الله عنه[٥] - قال: نزل جبريل - عليه السلام - على رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يتلو هذه الآية: {يوم **تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار**}. قال النبى {صلى الله عليه وسلم} (أين يكون الناس يوم القيامة يا جبريل؟) قال: يا محمد، يكونون على أرض بيضاء، لم يعمل عليها خطيئة قط، (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) قال: الصوف، تذوب الجبال من مخافة جهنم، يا محمد: إنه ليجاء بجهنم يوم القيامة تزف زفا، عليها سبعون زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك حتى تقف بين يدى الله - تعالى - فيقول لها: يا جهنم تكلمي، فتقول: لا إله إلا الله، وعزتك وعظمتك لأنتقمن اليوم ممن أكل رزقك وعبد غيرك، لا يجوزنى إلا من عنده جواز. فقال النبى {صلى الله عليه وسلم}: (يا جبريل ما الجواز يوم القيامة؟) قال: أبشر وبشر، من شهد أن لا إله إلا الله جاز جسر جهنم. قال: فقال النبي {صلى الله عليه وسلم} (الحمد لله الذى جعل أمتى أهل لا إله إلا الله).

خزنة جهنم:

خزن الشيء حَبْسُهُ والتحكم فيه والسيطرة عليه، فخزن المال جعله فى الخزانة، وخزن السر كتمه وأخفاه. وخزنة جهنم هم الملائكة الغلاظ الشداد، ولا يعلم عددهم إلا الله لقوله تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو}، وذكر أن عدد رؤسائهم تسعة عشر.

وتحدث القصص النبوى عن صفات خزنة جهنم فى عدد من الروايات منها ما جاء عن عبد الرحمن بن زيد قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٦]: (ما بين منكبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب) وقال ابن عباس: (ما بين منكبى الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمعة فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم).

ونقل ابن كثير[٧] عن عكرمة أنه قال (إذا وصل أول أهل النار الى النار، وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم، سود وجوههم، كالحة أنيابهم، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة، ليس فى قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر، ثم يجدون على الباب التسعة عشر، عرض صدر أحدهم سبعون خريفا،

ثم يهوى من باب إلى باب خمسمائة سنة، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهى آخرها).

وجاء فى القصص النبوى[٨] عن جابر بن عبد الله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي {صلى الله عليه وسلم} هل يعلم نبيكم عدة خزنة جهنم؟ قالوا لا ندرى حتى نسأله فجاء رجل إلى النبى {صلى الله عليه وسلم} فقال: يا محمد، غُلِبَ أصحابك اليوم، فقال: (وبماذا غُلِبُوا؟) قال: سألهم اليهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قال: (فماذا قالوا؟) قال: قالوا لا ندرى حتى نسأل نبينا، قال: (لا يُغْلَب قوم سُئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا.. لكنهم سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة، عليَّ بأعداء الله، إنى سائلهم عن تربة الجنة وهى الدرمك، فلما جاءوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال: (هكذا وهكذا فى مرة عشرة وفى مرة تسعة) قالوا: نعم. قال لهم النبى {صلى الله عليه وسلم} (ما تربة الجنة)؟ قال: فسكتوا، ثم قالوا: خبزة يا أبا القاسم، فقال النبى {صلى الله عليه وسلم}: (الخبز من الدرمك).

ويحدثنا القصص النبوى أن مالكا من خزنة النار وأنه هو الذى يوقدها.

فعن سمرة بن جندب عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال:[٩] (رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى، فأخرجانى إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس ورجل قائم على رأسه، بيده كلوب من حديد، فيدخله فى شدقه، فيشقه حتى يبلغ قفاه، ثم يخرجه فيدخله فى شدقه الآخر، ويلتئم هذا الشدق، فهو يفعل ذلك به يعذبه، قلت ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقت معهما، فإذا رجل مستلق على قفاه، ورجل قائم، بيده فهر أو صخرة، فيشدخ بها رأسه، فيتدهده الحجر، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان، فيصنع مثل ذلك، فقلت ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقت معهما، فإذا ببيت مبنى على بناء التنور، أعلاه ضيق، وأسفله واسع، توقد تحته نار، فيه رجال ونساء عراة، فإذا أوقدت ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا أخمدت رجعوا فيها، فقلت ما هذا؟ قالا لى: انطلق، فانطلقت فإذا نهر من دم، فيه رجل، وعلى شاطىء النهر رجل بين يديه حجارة، فيقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا دنا ليخرج رُمِيَ فى فيه حجر فدفع إلى مكانه، فهو يفعل ذلك به، فقلت: ما هذا؟ قالا لى: انطلق، فانطلقت معهما، فإذا روضة خضراء، وإذا فيها شجرة عظيمة، وإذا شيخ فى أصلها، حوله صبيان، وإذا رجل قريب منه، وبين يديه نار، فهو يحشها ويوقدها فصعدا بى فى شجرة فأدخلاني دارا لم أر دارا قط أحسن منها، فإذا فيها رجال شيوخ وشباب، وفيها نساء وصبيان، فأخرجانى منها، فصعدا بى فى الشجرة فأدخلانى دارا هى أحسن وأفضل، فيها

شيوخ وشباب، فقلت لهما: إنكما قد طوفتمانى منذ الليلة فأخبرانى عما رأيت. قالا: نعم، أما الرجل الأول الذى رأيت، فإنه رجل كذاب، يكذب الكذبة فتحمل عنه فى الآفاق، فهو يصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله - تبارك وتعالى به ما يشاء، وأما الرجل الذى رأيت مستلقيا، فرجل آتاه الله القران فنام عنه بالليل، ولم يعمل بما فيه بالنهار، فهو يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيت فى التنور، فهم الزناة وأما الذى رأيت فى النهر، فذلك آكل الربا. وأما الشيخ الذى رأيت فى أصل الشجرة، فذاك إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، وأما الصبيان الذين رأيت، فأولاد الناس. وأما الرجل الذى رأيت يوقد النار، فذاك مالك خازن النار، وتلك النار، وأما الدار الذى دخلت أولا، فدار عامة المؤمنين، وأما الدار الأخرى، فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا مكائيل ثم قالا لي: ارفع رأسك، فرفعت فإذا كهيئة السحاب، فقالا لى: وتلك دارك، فقلت لهما: دعانى أدخل دارى، فقالا لى: إنه قد بقى لك عمر لم تستكمله، فلو استكملته دخلت دارك).

وهكذا يكشف القصص النبوى عن عالم الغيبيات، فيوضح للناس أهوال جهنم، ويزيد من هذه الأهوال كثرة عدد خزنتها، وحقيقة رؤسائهم التسعة عشر، ومالك خازن النار، وكان مما يبعث الخوف والفزع فى النفوس كبر حجم ملائكة العذاب وقوتهم وضربهم بما فى أيديهم من مقامع حديدية، تدفع الضربة الواحدة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم. أما عن قبح وجه خازن النار، ونتن ريحه، وما يحمله من سلاسل النار، فشىء يفزع الملائكة المقربين، وينصدع منه قلوب أولى العزم من المرسلين. جاء فى قصة نبوية عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه[١٠] قال: (جاء جبريل إلى النبى {صلى الله عليه وسلم} فقال: ما جئتك حتى أمر الله بمفاتيح النار، فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يا جبريل، صف لى النار، وانعت لى جهنم، فقال جبريل: إن الله - تبارك وتعالى - أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام، حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة، لا يضىء شررها، ولا يطفأ لهبها، والذى بعثك بالحق، لو أن قدر ثقب أبرة فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعا من حره، والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب النار، علق بين السماء والأرض، لمات من فى الأرض جميعا من حره، والذى بعثك بالحق، لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا فنظروا إليه، لمات من فى الأرض كلهم، من قبح وجهه، ومن نتن ريحه، والذى بعثك بالحق، لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار، التى نعت الله فى كتابه، وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت حتى تنتهى إلى الأرض السفلى. فقال رسول الله {صلى الله عليه

وسلم} حسبى يا جبريل لا ينصدع قلبى فأموت، فنظر رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إلى جبريل، وهو يبكى، فقال: تبكى - يا جبريل - وأنت من الله بالمكان الذى أنت به، فقال ومالى لا أبكى ، أنا أحق بالبكاء، لعلى أكون فى علم الله على غير الحال التى أنا عليها، وما أدرى لعلى ابتلى بما ابتلى به إبليس، فقد كان من الملائكة وما أدرى لعلى ابتلى بما ابتلى به هاروت وماروت، فبكى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وبكى جبريل، فما زالا يبكيان حتى نوديا: أن يا جبريل، ويا محمد، إن الله قد أمنكما أن تعصياه فارتفع جبريل، وخرج رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال: أتضحكون ووراءكم جهنم، فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولما أسغتم الطعام والشراب، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، فنودى يا محمد لا تقنط عبادى، إنما بعثتك ميسرا، ولم أبعثك معسرا. فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: سددوا وقاربوا).

وفى بعض القصص النبوى حديث عن مالك خازن النار، وأن من مهامه ووظائفه يقلب جمر النار، وأنه عابس الوجه، ومغضب يعرف الغضب فى وجهه[١١].

وعن أبى أسامة قال رأيت عبادة بن الصامت - على سور بيت المقدس، وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: من هنا أخبرنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} أنه رأى مالكا يقلب الجمر كالقطف.

ألوان من العذاب فى جهنم:

للقرآن الكريم أحاديث مستفيضة عن نار جهنم وهولها وشدة عذابها وسعة دركاتها وغير ذلك من أوصاف جاءت فى مواطن كثيرة ومتفرقة تتناسب مع دار الخلد التى هى مثوى للكافرين والمتجبرين والعصاة المتمردين؛ ليكون ذلك إنذارا وحجة عليهم (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه).

وقد تولت السنة المطهرة بيان وتوضيح ما جاء فى القرآن الكريم، وتفرد للقصص النبوى لتفصيل ما جاء مجملا، بأسلوب سهل يدركه الخاصة والعامة، ويجذب السامع والقارىء لمتابعته والوقوف على أهدافه ومراميه.

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقائق فإنه لا يستيقنها إلا قلة قليلة ممن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ويرجع ذلك لأسباب عديدة، منها قصر مدارك الخلق فى تصور اليوم الآخر، وأنه آت لا ريب فيه، وأن الحياة الآخرة هى الحياة الأبدية الباقية، ومنها الطمع - بغير حق - فى دخول الجنة، كطمع اليهود والنصارى بأن الله لا يعذبهم، ولا تمسهم النار، وإن مستهم ففى أيام معدودة، وكطمع العصاة بالنجاة برحمة الله أو شفاعة الشافعين، ومن ذلك أيضا - الاشتغال بما يفنى على ما يبقى. ولولا ذلك لكانت حياة الخلق، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (فلو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، ولما

استسغتم الطعام والشراب، ولخرجتم إلى الصعدات، تجأرون إلى الله)٠

وقد جاء فى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تجعل الخلق يغفلون عن نار جهنم ونذكر نماذج منها، من ذلك ما حكاه عن الكافرين الذين ينكرون اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، قال تعالى: {**وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يُحْيى العظام وهى رميم**} (يس/٧٨) وقال تعالى: {**إنّ هؤلاء ليقولون٠ إنْ هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمُنْشَرين، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**} (الدخان/٣٦) **وقوله تعالى**: {**وإذا تتلى عليهم آياتنا بَيِّنَات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**} (الجاثية/٢٥)، ويحكى القرآن مصيرهم فى الآخرة: {**ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون**} (السجدة/١٢) وقوله تعالى: {**ويوم يُحْشَر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون٠ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون**} (فصّلت/٢٠)٠

وحكى القرآن الكريم مزاعم اليهود والنصارى فقال: {**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**} (البقرة/١١١) وقال أيضا: {**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**} (البقرة/٨٠) وقوله تعالى: {**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**} (المائدة/١٨)٠

ولذا كان ارشاد الله للمؤمنين وتحذيرهم من مصير الكافرين فقال تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون٠ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون٠ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون**}، وقال سبحانه وتعالى: {**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**} (التحريم/٦)٠

ومن هنا كان خوف أولى العزم من الرسل، والملائكة المقربين، وكذا النخبة الممتازة من أهل الصلاح، يخافون النار كأنهم يعاينونها ويرونها رأى العين، فيغشى عليهم عند ذكرها٠

ونحاول أن نعرض بعض القصص النبوى الذى يعرض صنوف العذاب فى نار جهنم، وتلك الآلات التى تستخدم فى التعذيب، وجبال جهنم وخنادقها والحيات والعقارب والمطارق والمقامع، وشجر الزقوم، وطعام وشراب أهلها، وغير ذلك مما لا يحيط به العقل البشرى ولا يستوعبه، وإنما يدرك ذلك عن طريق الإيمان والتسليم[١٢]٠

جاء فى قصة نبوية عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} (لو أن رضاضة مثل هذه ـ وأشار الى مثل الجمجمة ـ أرسلت من السماء إلى الأرض، وهى مسيرة خمسمائة

عــام، لبلغت الأرض قــبل الليل، ولو أنهــا أرسلت من رأس السلسلة لســارت أربـعين خريفا، الليل والنهار، قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها).

ونقل القــرطبي صــورا من عــذاب أهل جهنم فقال: وفي الخبر: إن شاء الله تعالى، ينشي لأهل النار سحابة، فإذا رأوها ذكروا سـحـاب الدنيـا، فـتناديهم: يا أهـل النار مـا تشتـهون؟ فـيـقـولون: نشـتـهي الماء البـارد، فتمطرهم أغلالا، تزداد في أغلالهم وسلاسل تزداد في سلاسلهم.

وقـال مـحـمـد بن المنكدر: لو جـمـع حـديد الدنيا كله، ما خلى منها وما بقي، ما عدل حلقـة من حلق السلسلة التي ذكـرها الله - تعالى - في كتابه فقال: **{في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا}**.

وقـــالوا عن هـذه الســلسلة: كل ذراع سبعون باعا، كل باع أبعد ما بينك وبين مكة وهو يؤمئذ في مسجد الكوفة.

وعن أُبَيّ بن كــعب قــال: إن حلقــة من السلسلة التي قـال الله: {ذرعـهـا سـبـعـون ذراعـا} إن حلقـة منهـا مـثـل جـمـيـع حـديد الدنيا.

وقـال سـفـيـان في قـوله (فـاسلكوه): بـلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه.

وقال ابن زيد: ويقال ما يأتي يوم القيامة على أهل النار إلا ورحـــمــة من الله تطلع طائفـة منهم فـيخـرجون. ويقـال: إن الحلقة من غل أهل جهنم لو ألقيت على أعظم جبل في الدنيا لهدته.

وروى عن طاووس: أن الله - تعـالى - خلق ملكا، وخلق له أصـابع على عدد أهـل النار، فـمـا من أهـل النار مـعـذب إلا وملك يعـذبه بأصبع من أصابعه، ولو وضع الملك أصبعا من أصابعه على السماء لأذابها.

وقـال ابن زيد: ولهم مـقـامـع من حـديد يقـمـعـون بهـا هـؤلاء، فـإذا قـال: خـذوه، فـيـأخـذوه كـذا وكـذا ألف ألف ملك، فـلا يضـعـون أيديهم على شيء من عظامـه إلا صـــار تحت أيديهم رفـــاتا، العظام واللحم يصير رفاتا. قال: فتجمع أيديهم وأرجلهم ورقـابهم في الأغــلال، فـيـلقــون في النار مـصـفـودين، فليس لهم شيء يتـقون به إلا الوجوه، فهم عمى قد ذهبت أبصـارهم، ثم قرأ **{أفـمن يتـقي بوجـهـه سـوء العـذاب يوم القيـامة}** (الآية). فـإذا ألقوا فـيـهـا يقـادون يبلغـون قعرهـا، يلقاهم لهبها فـيردهم إلى أعـلاهـا، حـتى إذا كـادوا يـخـرجـون تلقـتـهم الملائكة بمقامع من حديد فيضربونهم بها، فجاء أمر غلب اللهب فهووا كما هم أسفل السـافلين، هكذا دأبهم، وقـرأ: **{كلمـا أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها}** فهم كما قال الله تعـالى: **{عــاملة ناصـبــة، تصلى نارا حامية}**.

وجاء عن ابن كثير[١٣] في تفسير قول الله تعــالى: **{ خـذوه فـغلوه. ثم الجـحـيم صلوه}** أي يأمر الزبانية بأن تأخذه - عنفا -

من المحشر، فتغله ، أى تضع الأغلال فى عنقه، ثم تورده إلى جهنم، فتصليه إياها، أى تغمره فيها.

وعن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى (خذوه) ابتدره سبعون ألف ملك إن الملك منهم ليقول هكذا، فيلقى سبعين ألفا فى النار.

وروى ابن أبى الدنيا: إنه يبتدره أربعمائة ألف، ولا يبقى شيء إلا دقه، فيقول: مالى ولك، فيقول: إن الرب عليك غضبان، فكل شيء غضبان عليك.

وقال الفضيل بن عياض: إذا قال الرب - عز وجل - {خذوه فغلوه} ابتدره سبعون ألف ملك، أيهم يجعل الغل فى عنقه.

وعن ابن عباس (فاسلكوه) تدخل فى استه، ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى.

وفي قصة مطولة فى القصص النبوى عن على[١٤] - رضى الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} الفجر ذات يوم بغلس[١٥]، وكان مما يغلس ويسفر، ويقول ما بين هذين وقت - لكيلا يختلف المؤمنون - فصلى بنا ذات يوم بغلس، فلما قضى الصلاة التفت إلينا - كأن وجهه ورقة مصحف - قال: أفيكم من رأى الليلة شيئا؟ قلنا: لا يارسول الله، قال: ولكنى رأيت ملكين أتيانى الليلة، فأخذا بضبعى[١٦]، فانطلقا بى إلى السماء الدنيا، فمررت بملك وأمامه آدمى، وبيده صخرة، فيضرب بها هامة الآدمى، فيقع دماغه جانبا، وتقع الصخرة جانبا، قلت ما هذا؟ قالا لى: امضه، فمضيت، فإذا أنا بملك وأمامه آدمى وبيد الملك كلوب من حديد، فيضعه فى شدقه الأيمن، فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه، ثم يأخذ فى الأيسر، فيلتئم الأيمن، قلت ما هذا؟ قالا لى: امضه، فمضيت فإذا أنا بنهر من دم، يمور كمور المرجل، على فيه قوم عراة، على حافة النهر ملائكة بأيديهم مدرتان، كلما طلع طالع قذفوه بمدرة، فتقع فى فيه، وينتقل إلى أسفل ذلك النهر، قلت: ما هذا؟ قالا: امضه، فمضيت، فإذا أنا ببيت أسفله أضيق من أعلاه، فيه قوم عراة، توقد من تحتهم النار، أمسكت على أنفى من نتن ما أجد من ريحهم، قلت من هؤلاء؟ قالا لى: امضه، فمضيت، فإذا أنا بتل أسود، عليه قوم مخبلين، تنفخ النار فى أدبارهم ومناخرهم وآذانهم وأعينهم، قلت: ما هذا؟ قالا لى: امضه، فمضيت فإذا أنا بنار مطبقة، موكل بها ملك، لا يخرج منها شيء إلا اتبعه حتى يعيده فيها، قلت: ما هذا؟ قالا لى: امضه، فمضيت، فإذا أنا بروضة، وإذا فيها شيخ جميل، لا أجمل منه، وإذا حوله الولدان، وإذا شجرة ورقها كآذان الفيلة، فصعدت ما شاء الله من تلك الشجرة، وإذا أنا بمنازل لا أحسن منها، من زمردة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، قلت: ما هذا؟ قالا لى: امضه، فمضيت، فإذا أنا بنهر عليه

جسران من ذهب وفضة، على حافتى النهر منازل، لا منازل أحسن منها، من درة جوفاء، وزبرجدة خضراء، وياقوته حمراء، وفيه قدحان وأباريق تطرد، قلت: ما هذا؟ قالالى: انزل، فنزلت فضربت بيدى إلى إناء منها فغرفت ثم شربت، فإذا أحلى من العسل، وأشد بياضا من اللبن، وألين من الزبد، فقالا لى: أما صاحب الصخرة التى رأيت يضرب بها هامة الآدمى، فيقع دماغه جانبا وتقع الصخرة فى جانب، فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة، ويصلون الصلوات لغير مواقيتها، يضربون بها حتى يصيروا إلى النار. وأما صاحب الكلوب الذى رأيت ملكا موكلا بيده كلوب من حديد، يشق شدقه الأيمن حتى ينتهى إلى أذنه، ثم يأخذ فى الأيسر فيلتئم الأيمن، فأولئك الذين يمشون بين المؤمنين بالنميمة، فيفسدون بينهم، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار، وأما ملائكة بأيديهم مدرتان، كلما طلع طالع قذفوه بمدرة، فتقع فى فيه، فينقل إلى أسفل ذلك النهر، فأولئك أكلة الربا، يعذبون حتى يصيروا إلى النار، وأما البيت الذى رأيت أسفله أضيق من أعلاه، فيه قوم عراة توقد تحتهم النار، أمسكت على أنفك من نتن ما تجد من ريحهم، فأولئك الزناة، وذلك نتن فروجهم يعذبون حتى يصيروا إلى النار، وأما التل الأسود الذى رأيت عليه مخبلين تنفخ النار فى أدبارهم، فتخرج من أفواههم ومناخرهم وأعينهم وآذانهم، فأولئك؛ الذين يعملون عمل قوم لوط، والمفعول به، فهم يعذبون حتى يصيروا إلى النار، وأما النار المطبقة التى رأيت ملكا موكلا بها، كلما خرج منها شىء اتبعه حتى يعيده فيها، فتلك جهنم تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الروضة التى رأيتها، فتلك جنة المأوى، وأما الشيخ الذى رأيت ومن حوله من الولدان، فهو إبراهيم وهم بنوه، وأما الشجرة التى رأيت فطلعت إليها ، فيها منازل، لا منازل أحسن منها، من زمردة جوفاء وزبرجدة خضراء، وياقوتة حمراء، فتلك منازل أهل عليين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وأما النهر فهو نهرك الذى أعطاك الله الكوثر، وهذه منازل لك ولأهل بيتك، قال: فنوديت من فوقى: يا محمد يا محمد، سل تعط، فارتعدت فرائصى، ورجف فؤادى، واضطرب كل عضو منى، ولم أستطع أن أجيب شيئا، فأخذ أحد الملكين يده اليمنى فوضعها فى يدى، وأخذ الآخر يده اليمنى فوضعها بين كتفى فسكن ذلك منى، ثم نوديت: يا محمد، سل تعط، قلت: اللهم إنى أسألك أن تثبت شفاعتى، وأن تلحق بى أهل بيتى، وأن ألقاك ولا ذنب لى، ثم ولى بى ونزلت عليَّ هذه الآية: **{إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}** إلى قوله: **{صراطا مستقيما}** فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} فكما أعطيت هذه، كذلك أعطانيها، إن شاء الله تعالى.

ومن ألوان العذاب فى جهنم تناول

الطعام والشراب، فأهل النار يسقون من الصديد ويأكلون من شجر الزقوم، ويلبسون ثيابا من النار ويصب من فوق رءوسهم الحميم الذى يصهر ما فى بطونهم والجلود.

قال ابن كثير[١٧]: فيسقى من صديد، ويتجرعه ولا يكاد يسيغه، وإذا طلب الغوث من العذاب يغاث بماء كالمهل يشوى الوجوه، ويهجم عليه الموت من كل مكان ولكنه لا يموت، ويأكل من شجرة الزقوم، ويشرب على ذلك الأكل شوبا من حميم.

جاء فى القصص النبوى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى {صلى الله عليه وسلم} فى قوله تعالى: **{ويسقى من ماء صديد يتجرعه}** قال: يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، حتى يخرج من دبره) يقول الله تعالى: **{وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم}** ويقول: **{وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا}**.

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت يارسول الله ما طينة الخبال؟ قال: (صديد أهل النار) وفى رواية: (عصارة أهل النار).

وفى قصة عن أبى هريرة[١٨] - رضى الله عنه - عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن الحميم ليصب على رءوسهم، فينفذ إلى الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلب ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان).

وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لفتت، ثم عاد كما كان، ولو أن دلوا من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا).

نقل ابن كثير عن عبد الله بن السرى أنه قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بكليتين من حرارته فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب رأسه فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه. فذلك قوله **(يصهر ما فى بطونهم والجلود)**.

ويقص علينا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} مصير المتكبرين يوم القيامة، ففى رواية ينقلها القرطبي[١٩] عن محمد بن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن فى جهنم - يسمى بولس - تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال).

قال القرطبى: طينة الخبال: عرق أهل النار، أو عصارتهم شراب أيضا لمن شرب المسكر. جاء ذلك فى صحيح البخارى.

وجاء فى القصص النبوى: إن فى جهنم موضعا يقال له **جب الحزن**، أعده الله للقراء المرائين: فعن على بن أبى طالب، أن النبى {صلى الله عليه وسلم} قال: (تعوذوا بالله

من جب الحزن، فقيل - يارسول الله - وما جب الحزن؟ قال: واد فى جهنم، تتعوذ منه جهنم فى كل يوم سبعين مرة، أعده الله للقراء المرائين) وفى رواية: (أعد ه الله للذين يراءون الناس بأعمالهم).

وتأتى رواية أخرى تزيد الأمر وضوحا فى شأن القراء الذين يقصدون بقراءتهم الأمراء الجورة، فيقرأون القرآن رياء وسمعة، ففى حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - قال قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (تعوذوا بالله من جب الحزن، قالوا: يارسول الله، وما جب الحزن؟ قال: واد فى جهنم، تتعوذ منه جهنم فى كل يوم أربعمائة مرة، قيل: يارسول الله، من يدخله؟ قال: أعده للقراء المرائين بأعمالهم، وإن من أبغض القراء إلى الله - تعالى - الذين يزورون الأمراء) قال المحاربى الجورة.

قال مالك بن دينار: القراء ثلاثة: قراء الرحمن، وقراء الدنيا، وقراء الملوك وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن[٢٠].

ونقل الغزالى رواية عن العباس - رضى الله عنه - عن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (يكون قوم يقرأون القران، لا يجاوز حناجرهم، يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا، ومن أعلم منا؟ - ثم التفت إلى أصحابه وقال: (أولئك منكم - أيها الأمة - أولئك هم وقود النار)[٢١].

ومن القصص النبوى الذى يوضح ويكمل الصورة ويزيدها خوفا وفزعا ما نقله صاحب التذكرة[٢٢] عن أسد بن موسى أنه - عليه السلام - قال: (إن فى جهنم لواديا إن جهنم لتتعوذ من شر ذلك الوادى فى كل يوم سبع مرات، وإن فى ذلك الوادى لجبًّا، إن جهنم وذلك الوادى ليتعوذان بالله من شر ذلك الجب، وإن فى الجب لحيّة، إن جهنم والوادى وذلك الجب ليتعوذون بالله من شر ذلك الحية، أعدها الله للأشقياء من حملة القرآن).

وقال أبو هريرة: إن فى جهنم أرجاء، تدور بعلماء السوء، فيشرف عليهم بعض من كان يعرفهم فى الدنيا، فيقول: ما صيَّركم إلى هذا؟ وإنما كنا نتعلم منكم، قالوا: إنا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم إلى غيره[٢٣].

وفى القصص النبوى كثير من الروايات تتحدث عن هوام جهنم من حيات وعقارب وغيرها مما نجد تأثيره فى الآداب الأوربية على النحو الذى سنتحدث عنه إن شاء الله.

وجاء فى كتاب إحياء علوم الدين[٢٤] أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: (إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا، وإن فيها العقارب كالبغال يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا، وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس، ومن وُقِى ذلك وُقى هذه الحيات فلم تمثل له).

قال الغزالى: فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها، وقد سلطت

على اهلها وأغريت بهم، فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة. قال أبو هريرة: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذه بلهازمه - يعنى أشداقه - فيقول: أنا مالك! أنا كنزك) ثم تلا قوله تعالى: {ولا يحسبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله... الآية}.

ومن القصص النبوى فى هذا المجال ما نقله صاحب التذكرة[٢٥] عن ابن المبارك قال: أخبرنا رجل عن منصور، عن مجاهد، عن يزيد بن شجرة قال: وكان معاوية بعثه على الجيوش، فلقى عدوا فرأى أصحابه فشلا، فجمعهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، اذكروا نعمة الله عليكم. وذكر الحديث وفيه: (فإنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسماتكم، فإذا كان يوم القيامة، قيل: يا فلان ها نورك، يا فلان لا نور لك، إن لجهنم ساحلا كساحل البحر، فيه هوام وحيات كالبخت، وعقارب كالبغال الدُّهم، فإذا استغاث أهل النار، قالوا: الساحل، فإذا ألقوا فيه سلطت عليهم تلك الهوام، فتأخذ شغار أعينهم، وشفاههم، وما شاء الله منهم، تكشطها كشطا، فيقولون: النار، النار! فإذا ألقوا فيها سلط الله عليهم الجرب، فيحك أحدهم جسده حتى يبدو عظمه، وإن جلد أحدهم لأربعون ذراعا، قال: يقال: يا فلان، هل تجد هذا يؤذيك؟ فيقول: وأى شىء أشد من هذا؟ فيقال: هذا بما كنت تؤذى المؤمنين).

ويقصّ علينا النبى {صلى الله عليه وسلم} من ألوان العذاب فى جهنم (الصعود جبل من نار، يصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ويهوى فيه كذلك أبدا).

وفى قصة نبوية أخرى يوضح مصير ونهاية من يموت سكران فيقول: (إن مَن مات سكران فإنه يبعث يوم القيامة سكران إلى خندق فى وسط جهنم يسمى السكران).

وينقل ابن كثير رواية طويلة تتحدث عن رحلة المؤمن منذ ارسال ملك الموت ليقبض روحه حتى دخوله القبر وما يراه من عقبات يتصدى لها عمله الصالح، ثم يسأل فى قبره ويثبته الله بالقول الثابت، ويفتح عليه فى قبره باب إلى الجنة ويقال له هذا منزلك.

هذه القصة مروية عن تميم الدارى عن النبى {صلى الله عليه وسلم} تتوالى فتقص حالة الكافر والعاصى لله تعالى عندما يأتى ملك الموت ليقبض روحه[٢٦] (ويقول الله - تعالى - لملك الموت انطلق إلى عدوى فأتني به؛ فإنى قد بسطت له رزقى ويسرت له نعمتى، فأبى إلا معصيتى، فاتنى به لانتقم منه، قال: فينطلق إليه ملك الموت فى اكره صورة رآها أحد من الناس قط له اثنا عشر عينا، ومعه سفود من النار، كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط، وهى نار تأجج، قال:

فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود فى أصل كل شعرة وعرق وظفر، قال: ثم يلويه ليا شديدا، قال: فينزع روحه من أظافر قدميه، قال: فيلقيها فى عقبيه، قال: فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه[٢٧] ملك الموت عنه، قال: وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط، قال: فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من عقبيه، فيلقيها فى ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال: فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من ركبتيه، فيلقيها فى حقويه فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه، قال: فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط، قال: كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه، قال: ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم حتى ذقنه، قال: ويقول ملك الموت اخرجى أيتها الروح اللعينة. الى سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم قال: فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شرا، فقد كنت سريعا بى إلى معصية الله، بطيئا بى عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت، قال: ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار، قال: فإذا وضع فى قبره، ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه حتى تدخل اليمنى فى اليسرى، واليسرى فى اليمنى، قال: ويبعث الله إليه أفاعى دهما، كأعناق الإبل، يأخذن بأذنيه وابهامى قدميه، فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه، قال: ويبعث الله ملكين، أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى[٢٨]، وأنفاسهما كاللهب، يطآن فى أشعارهما، بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة،

لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها قال: فيقولان له: اجلس، فيستوى جالسا، وتقع أكفانه فى حقويه[٢٩]؛ قال: فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدرى، فيقولان له: لا دريت ولا تليت، فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره، ثم يعودان، قال فيقولان: انظر فوقك، فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله. قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا) قال: ويقولان أنظر تحتك.، فينظر، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (والذى نفسى بيده ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا) قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار، يأتيه

حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها) قال ابن كثير هذا حديث غريب جدا، وراويه عن أنس له غرائب ومنكرات.

ولكن هذا المعنى جاء في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بروايات مختلفة وأحاديث مخرجه[٣٠] ومن ذلك قصة مروية عن البراء بن عازب، وجاء فيها: (وأما الكافر ... نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد، معهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران، فيحتوشونه، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض..) ومنها (.. ثم يُقيَّض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد، لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار ترابا، فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم يعود..) وفي قصة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (هل تدرون فيماذا أنزلت (فإن له معيشة ضنكا) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره، يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا..) الخ.

والشاهد في هذه القصص أن عذاب جهنم يصل إلى الكافر قبل يوم القيامة لأن القبر أول منازل الآخرة، وفي القبر من صنوف العذاب والنكال مما هو معروف في جهنم. ومن صور العذاب في نار جهنم ما يقصه رسول الله {صلى الله عليه وسلم}[٣١] (الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار) و:(من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده، يتوجاها في بطنه في نار جهنم، خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن شرب سما، فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردَّى من جبل، فقتل نفسه، فهو يتردَّى في نار جهنم خالد مخلدا فيها أبدا).

«للبحث صلة»

الهوامش:

(١) مختار الصحاح مادة (زم م).
(٢) التذكرة ص٤٥٠ وتفسير ابن كثير جـ٤ ص٥١٠.
(٣، ٤، ٥، ٦) التذكرة ص ٤٥١، ص ٥٠٣، ص ٤٥٤، ص ٤٥١.
(٧) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ٣٩١.
(٨) المرجع السابق جـ٤ ص ٤٤٤ والتذكرة ص ٤٥٥.
(٩) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص٩٥.
(١٠) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص١٠٤.
(١١) نتوقف عن سرد هذه القصة للتشكيك في صحتها (منتخب كنز العمال جـ ٦ ص١٠٥.
(١٢، ١٣) التذكرة ص ٤٦٥، ص ٤١٦.
(١٤) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص ٩٧ وما بعدها.
(١٥) الغلس - بفتحتين - ظلمة آخر الليل.
(١٦) الضَّبع: العضد والجمع أضباع.
(١٧) جـ ٢ ص ٥٢٦.
(١٨) ابن كثير جـ ٣ ص ٢١٢.
(١٩) التذكرة ص ٤٧١.
(٢٠) الغزالي: احياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٩٧.
(٢١) جـ ٣ ص ٣٤٨.
(٢٢) ص ٤٧٢.
(٢٣) يراجع ما جاء في شدة عذاب من أمر بالمعروف ولم يأته في الكتب المتخصصة والتذكرة ص ٤٨٢ وما بعدها.
(٢٤) جـ ٤ ص ٥٣٣ الرواية مخرجة عن الإمام أحمد عن ابن لهيعة.
(٢٥) القرطبي ص ٤٧٣.
(٢٦) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٥٣٧.
(٢٧) رفه عنه: نفّس ووسع وخفف.
(٢٨) الصيصة: شوكة الحائك التي يسوى بها السَّداة واللحمة جمع صياص.
(٢٩) الحقو: الخصر.
(٣٠) طبعة دار المعرفة ببيروت جـ ٤ ص ٤٩٩ وما بعدها.
(٣١) منتخب كنز العمال جـ ٦ ص ١٤١.

فيوضات :

الحديث في القرآن الكريم

الحديث فى القرآن الكريم طريف فى كل وقت، لذيذ فى كل حال، فياض المعين، خصب الجوانب، لا يمكن أن ينتهى حسنه، أو تبلى جدته، أو يذهب بهاؤه، أو يمل جرسه، أو يثقل على السمع رجعه،

أو تلتوى المسالك على من يصاحبه، أو يسير معه، وأنا لم أتردد فى الكتابة فيه، ولا الحديث عنه، إذا خطر لى أن أكتب أو أن أتحدث، وأعتقد اعتقادا جازما أن النواحى العلمية المختلفة، مع ضبط مسائلها، وحصر بحوثها، وسهولة الخوض فيها، أو عدم السهولة، قد يتردد الكاتب قبل الخوض فيها إلى أن يستعين بالمراجع التى تساعده، والمصادر التى تسانده، للاطمئنان إلى أن الذى يكتبه، ويجرى على طرف قلمه، مما يوافق الصواب ويدنو من الحق،

لكن الخواطر التى تعرض لمن يريد الكتابة عن القرآن لا يتردد وهو يجيلها فى ذهنه، ويطوف بها فى خاطره أنها من الفيض الربانى، والقبس الذى يقذف الله به فى قلوب المؤمنين.

ولقد جعله أسلافنا النبراس المضىء، والشعاع الهادى، والناصح الأمين المخلص، والقاضى العادل، والميزان الدقيق، والصديق الوفى، والرفيق المؤنس، والطبيب الحاذق، والطريق المستقيم، والمورد العذب الصافى، والحكم الذى لا يتحيز لغرض أو هوى... وعكفوا على النظر فيه، والاهتمام به، والأخذ منه، والرجوع إليه، وأقبلوا على دراسته، وأخذوا منه ما شاءوا من علم وأدب، وفقه ومعرفة، وذوق وحذق، وكياسة وسياسة فهو كتاب تشريع، ودستور حكومة، ومصدر توجيه، وقاموس ألفاظ، ومع ذلك فهو أستاذ قيادة وريادة، عرفوا به كيف يسودون الناس، وتدين لهم الدنيا، وتثبت الأرض تحت اقدامهم.

ولا أدرى لهذا كله من سبب إلا أن تكون هى البركة التى أودعها الله فيه، وقرنها به، وربط ما بينها وبينه هى التى جعلته هكذا، لا تنفد عجائبه، ولا تنتهى غرائبه، ولا تأفل

كواكبه، ولا تجف زهرته، ولا تذهب نضارته، ولا يخلق جديده، أو ييبس عوده، ولا يفارقه هذا السحر، ولا ذلك العجب، وهو يجود بكل خير، ويسخو بكل نافع، ويأتى بكل نادر، وتتكشف صدفاته عن كل در، أو أن تكون عناصر الحياة التى أودعها الله فيه هى التى صيرته على تلك الحال، وهو يمد كل من يطرق بابه، ويغشى رحابه، ويشق عبابه، ويقرأ كتابه، ليعود منه بزاد من العافية، وقسط من السلامة، ومعنى من السداد، وفيض من الحكمة، ولون من العقل والرأى، والذوق أو الإدراك، والأدب الجم، والقول الفصل، والأسلوب الجيد، والحجة الواضحة، والبرهان القاطع. والدليل الواضح، وربما كان هذا بعض معانى السحر الذى زعمته قريش كامنا فيه، وقد أقام فى وجهها العراقيل، فلم تستطع أن تكيد له أو تنال منه، أو الغض من شأنه، أو الحط من مكانته.

والسحر من الأمور الخفية، والمعانى المجهولة، والأشياء التى لا ترتبط بقانون، ولا تخضع لنظام، ولا تظهر فيها علة ومعلول، وسبب ومسبب، وبخاصة بعد أن آمنوا أنه من جنس كلامهم، وعلى طريقة نسجهم، وسنن تأليفهم، وغرار منطقهم، إلا أن ماءه الذى يترقرق فيه، وغدقه الذى يفيض منه، وبلاغته التى تغزو الضمائر والأفئدة، لا يمكن أن تكون لأحاديث أحد من صناديدهم، وفحول أرباب البيان منهم. ولقد مرّ عليه هذا التاريخ، واعترته تلك الحقب، وتناولته بالدراسة والنقد، والتعليل والتحليل، أجيال وقرون، وفيهم من كان يصدّ عنه، ويحاول هدم بنيانه، وتشويه معالمه، {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً}، ثم كانت هذه كلها أشبه بمحاولات الهازل، أو محاولات المجنون، الذى تنهال عليه الهزيمة من كل جانب، والله الذى كتب النصر لكتابه فى الأولى سيكتب له النصر على طول المدى، وسيظل هو القمة الشامخة التى تتطلع لها القلوب والأفهام، والخواطر والأحلام، والآراء والأحكام، مع عجزها أن ترتفع إلى قمته، أو أن تصعد إلى هامته، وسيكون الشرف العظيم فى كل جيل وقبيل، لمن يقف ديدبانا على بابه، ليزود عنه.



بقلم:
فيصل صالح أسعد
- جدة -

وسترى البشرية مهما تنكبت الطريق، أو ضلت السبيل، أو انحرفت عن القصد، أن القرآن هو القول الفصل، والحكم العدل، والميزان الصادق، والطريق السوى، والمصباح الذى لا يجف له زيت ولا يظلم معه بيت، وأنه الحارس الذى لا ينام، وأن الناس على قدر ما يأخذون منه، تكون سعادتهم، واستقامة أحوالهم، ونجاح مقاصدهم وسيرى الذين ظلموا أن القرآن الذى ينادى بالسلام، ويدعو الى التسامح، ويرغب فى العفو، سيظل أخلد من الدهر، وأبقى من الزمن، وأقوى من الأعاصير، لأن سلاحه المنطق، وحجته البلاغة ، ورائده الخير، وغايته الإصلاح، ودعوته إلى البر

وشعاره الفضل، وجيشه الليل والنهار، وزحفه على أطراف الضمائر، ومثله جدير بالبقاء حقيق بالسلطان، قمين بأن تذعن له القلوب والأفئدة، وسيشهد الزمن الذى رأى مصارع خصومه، ومزاعم أعدائه، أن تلك الحروب التى تقوم حوله، أو تلك الطعنات التى تصوب إليه لا تفل من عزمه، ولاتوهن من قوته، ولا تهدم من بنائه، لأن الحق حق وهو أحق أن يتبع.

وقد كان القرآن العظيم فى أول أمره تهذيبا وتأديبا، وتقويما وإصلاحا، وعبرة واتعاظا، ودعوة إلى وحدانية الله، وتنزيها له عن الصاحبة والولد، والشريك الذى ينازعه السلطان، ويقاسمه الألوهية، ويشاركه الخلق، أو يحاول أن يحتل مكانته فى السماوات والأرض، وهو بارىء الخلق، ومدبر الرزق، ومصرف الكون، ومسخر الأفلاك، وكان هذا وهو فى مكة يصارع الباطل، ويطارد الجهل، ويحارب الكفر، ويحطم الأصنام، ويسفه الآلهة المكذوبة، والأوثان المنصوبة، معلنا أنه النهار المقبل، والشمس التى تحمل الدفء والحرارة، وتكتسح الأوهام والظنون، وتملأ القلوب بالهداية، والافئدة بالنور، والضمائر بالتوحيد، والنفوس بالإيمان، وأنه لا استقرار إلا للحق، وأنه لا دين إلا الإسلام، فلما هاجر من مكة، لم يلق سلاحه، أو ينه كفاحه، أو يقطع أمله، أو يوقف عمله، وإنما ظل فى الميدان، فارس الحلبة، وهنالك فى المدينة المنورة كثر أنصاره، وزاد اتباعه، وتمكن دينه، وارتفعت رايته، وصارت له دولة إسلامية تستطيع أن تفرض سلطانها، وتعلى بنيانها، وتقول كلمتها.

وفى هذه الآونة كان القرآن تشريعا، وكانت آياته سياسة، وكانت أحكامه دستوراً، وكان كل ما ينزل به من الوحى متصلا بالجماعة، داعيا إلى القوة، حاثا على الترابط، موجها للإنسان أن يتحلل من وصاية غيره عليه، وكان وهو ينزل على النبى {صلى الله عليه وسلم} بمكة أو المدينة، متعة لنفسه، وغذاء لروحه، وشفاء لقلبه، وارواء لظمئه ونوراً لبصيرته، لا يحب أن ينقطع عنه، أو يفارق له، أو تطول المسافة بينه وبينه، وكان ذلك كله عنوانا على أنه نداء الحق، وصوت السماء، وحديث الملأ الأعلى، وسيظل على مدى القرون أستاذ الأساتذة من غير شك فى ذلك أو ريب، وما من أحد يتردد فى أن يصفه بأنه هو الكلام المبين، والكنز الثمين، والحبل المتين، والبلاغة النادرة، والآية الظاهرة، الذى نزل به جبريل الأمين عليه السلام، على قلب سيد الأنبياء والمرسلين، منجما على حسب الحوادث والأحوال، وأن نزوله كان عيداً، وصوته كان نغما، ردده كل لسان، واستقبله كل مشوق، يتهادى به المحبون للندى، والمستريحون للبر والمعروف، وما هى إلا فترة قد مضت على نزوله، حتى كانت الأرض به سماء قد أكبرتها السماء، وروضة أهله الأوفياء، بالغة الرواء، عليها النضارة والماء، وقد تحولت به تلك البقعة من الجزيرة العربية الى خصوبة

ونماء، وبسط خضراء، وزروع وثمار، وهنالك تلفتت الدنيا إلى ذلك المكان الذى كان مرعى للشاء والإبل، فصار مرعى للعقول والأفكار، والألباب والأفئدة، والقرائح والأذهان، وحينئذ مدت يدها إليه فى إجلال وإكبار، وذلة وخضوع، وتواضع وأدب، معلنة له ذلك التقدير الذى لم يكن فى حساب الأيام والليالى.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب).

وقد اهتم علماء الفقه الإسلامى بتعريفه تعريفا جامعاً مانعاً، ليتبين ما يكون حجة فى استنباط الأحكام، وما يكفر به جاحده، فقالوا: هو ذلك الكلام الذى نزل به جبريل الأمين على الرسول الكريم محمد بن عبد الله، باللفظ العربى، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، والمتحدى ببلاغته، المبدوء بالفاتحة، والمختوم بسورة الناس، ومن هذا يظهر الفرق بينه وبين الحديث القدسى لأنهما وإن كانا كلام الله إلا أن القدسى لا يتعبد بتلاوته ولا يتحدى ببلاغته، وكذلك يظهر الفرق بينهما وبين الحديث النبوى لأنهما وإن كان مصدرهما من وحى السماء، وطريقهما جبريل عليه السلام {وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى. علمه شديد القوى}. ولكن الحديث النبوى لفظه من نسجه صلى الله عليه وسلم، ومنزلة السنة من القرآن منزلة البيان أو الإيضاح، والشرح أو التفصيل، وليس ذلك كله لقصور كان فيه، ولا لنقص كان فى جوانبه ونواحيه، ولكن كما يتناول الأستاذ أصل مادة الدرس بالبيان والشرح، والبسط والتعليق، لتتمكن عند التلاميذ، وتصادف عندهم قبولا، بجرس صوته الحلو، وعبارته الأخاذة، وموسيقى بيانه العذب {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً}.

وأعجب ما فى القرآن من عجب، وأغرب ما فيه من حديث، وأروع ما فيه من وصف، وأجمل ما فيه من ألفاظ وابداع، أنك تحشد له ما شئت من ألفاظ الثناء والمدح، وتهيىء له ما شئت من النعوت، وتتأنق ما شئت أن تتأنق، وتجهد قلمك فى الكتابة، وبيانك فى الوصف، وفكرك فى التنسيق، وذوقك فى اختيار الكلمات، وتظن الظن الذى يوشك أن يكون يقينا أنك بلغت الغاية، وأشرفت على النهاية، ولكنك لا تلبث أن تسمع من أعماق نفسك صوتا يقول لك: إنك لا تزال فى سفح الجبل، والطريق طويل، والمسافة بعيدة، وذلك لأن قوة بيانه، ومتانة بنيانه، وارتفاع اركانه، وخلابة منطقه، وشدة أسره، تجعلك تسخر مما كتبت، وتحتقر ما اعتززت به من بيان هو إلى جانب بيانه هراء، وقد كان الخطباء لا يجيدون فى كل المواقف، والشعراء لا يبرزون فى كل الأغراض، أما هو فقد لازمه السبق على طول المدى، وتبارك الله أحسن الخالقين.

أدب :



يروى الناقد الفرنسي رولان بارت في رسمه العلاقة بين الشعر والنثر ما درج ان يردده جوردان من معادلة نصها يقول:

إن الشعر إذا كان هو النثر + أ + ب + س

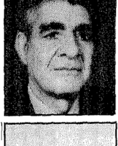
فإن النثر هو الشعر - أ - ب - س[١]

وسنسعى في ضوء هذه المعادلة وغيرها كي نعرف هذه اللغة الأدبية التي احتقبت القصيدة العربية لدى أول قانص لها في قصيدة قديمة وافية، وشاعرنا وارد في إشارة ابن سلام في قوله «وكان أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة في قتل أخيه كليب وائل، قتلته بنوشيبان»[٢].

والأولية المسندة للمهلهل تأتي من تلوّه قدامى العرب في الأبيات الفرادى يقولونها إذا طرأت لهم حادثة، كما نجد في مثالين نلاحظ فيهما روح السخرية واستكشاف خاتمة السعي والكد، بالموت المحتوم. وتحليل للكون تساوى فيه الكلمات المعاني، وتصبح تيجاناً لها بلا زيادة أو نقصان، ودون إدخال للمبالغة في فض مغاليق الطبيعة، بل إبراز نية الشاعر، دون زركشة البنية، أو اجتلاب أدوات غير التي بين يديه، وبين يدي قومه. ونصُّ المهلهل سيوقفنا على ملامح اللغة المقصَّدة لدى الشعراء اللاحقين أيضا، وعلى رأسهم ابن أخت المهلهل، الشاعر امرؤ القيس، الذي يعزى إليه أنه اختار لشعره اللفظ المحبر، والأسلوب المنتخل.

إنه لا يمكن تأصيل لغة النص بردها إلى أصل قبلي بعينه محدود، كأن يكون خاصا بلغة (تغلب) وهي القبيلة التي أعطت الشاعر لسانها، فيما أعطته من عادات أخرى مجتمعية بعينها، كالثأر وقص الأثر، والتفاخر، والانتساب.

إن القول بتغلبية اللغة قول شائك فمعنى هذا أننا سنقول بلغة لا يمكن ضبطها؛ فالعارفون الأوائل من مقنني عهد التدوين من اللغويين والنحاة العرب لم يأخذوا بلهجة تغلب، ورفضوها فيما رفضوا من لهجات قبائل تقع على تخم من الفرس أو الروم أو القبط، أو غيرهم من الأمم المجاورة، فلا مناص إذن من الاحتكام إلى لغة موحدة رآها الباحثون المحدثون نخبة من لهجات شرقيّ شبه الجزيرة، وفيها لغة قريش، على أن نضع في الحسبان ما كان يضعه باحثو اللغة من خلافات لا يزال بعض ظواهرها واضحا في الأسانيد والمعاجم والآثار المشيدة في الأمصار المختلفة، من هذه الخلافات



بقلم: أ.د. **كمال إسماعيل**
- مصر -

على سبيل المثال الهمز والتليين عند تميم دون الحجازيين الذين يبدلونهما بالواو أو الياء ، وكسر هوازن، في بعض منها أوائل أفعال المضارعة فيما يعرف بالتلتلة، التي كانت كذلك عند الأزد، وبعض من هذيل، مما نجد في عاميتنا الآن في مصر في الفعل المضارع الذي لا تكسره قريش. من هذه المظاهر كذلك الإمالة والتفخيم، بمعنى أن تميل قبائل قيس وتميم الألف نحو الياء، والفتحة نحو الكسرة، بما لم يفعل الحجازيون الذين لم يشددوا فعل الأمر كذلك، الذي صودف عند سواهم من القبائل مشددا، كما اختلفوا في حكم كل من (ما ، وليس) مع التميميين، وفي تأنيث بعض الكلمات وتذكيرها، كالطريق والسوق والتمر، فهي مؤنثة في الحجاز ومذكرة في غيره[٣].

واذا رجعنا إلى الظاهر في النص فإننا لا نكاد نظفر بتبيان حاسم يؤكد لنا تفرد مجموعة لغوية بخصائص فارقة، فالطريق «التي ستكون هي التبيان في ضرب البيت الثالث، مستعملة استعمالا نحويا، طامسا يخفي طبيعة ذلك البيان في التذكير أو التأنيث الذي كان ستفسره التاء الملحقة بالفعل الناقص، ليس» لكن الكلمة مفصولة عن الفعل الناسخ بجار ومجرور وحرف جر، بما يجوز إلحاق تاء التأنيث بها أو إلغاءها، فضلا على الجواز الأساسي بإلغائها، لكون الطريق مؤنثة بالمجاز، لو افترضنا أن الشاعر عمد إلى الأخذ بتأنيثها كالحجازيين دون تذكيرها كباقي القبائل: **[في هوة ليس لها من طريق]**.

إن «الأنُوقْ» في ضرب البيت العاشر من النص كان بإمكانها أن تصبح إشارة لميز لغوي ، لولا القول بالضرائر الشعرية. والكلمة المذكورة في أصلها المعجمي في القاموس «الأنوق» بهمزة تسبق القاف. والأنوق جمع ناقة. وعدم إثبات الهمز وابداله بالواو له دلالة قبلية، وفي الحين ذاته تنازع هذه الدلالة ضرورة شعرية توجب إبدال الهمزة بالواو، حتى يبلغ الشاعر القياس الموسيقي الذي شب عليه، قبل أن تطرأ معايير للشبوب بعلم العروض الذي سيهتدي إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما بعد، ويتقيد به الشعراء عن علم.

(وجمْعُ همدان لهم لجْبَةٌ
ورايةٌ تهوى هُوِيَ الأنُوقْ)

ستنقسم اللغة بعد ذلك إلى كلمات هي لغتنا الآن، وكلمات أخرى تباعد عنا استخدامها، ومعظمها مما يقع لأصول في البادية قد انقرضت جسومها، أو تجووزت أو كادت، فهذه بِنَىً من ستة أحرف أو خمسة هي على الترتيب «الخنفنيق» بمعنى السريعة جدا من النوق، و«سيساء» بمعنى (منتظم فقار الظّهر)، و«حذْبِير» وهي الناقة الضامرة، «والشمردل» وهو السريع من الإبل. وهذه الكلمات من خواص الأنعام ومما يمكن ان يكون مُهماً لسكان البراري أو البدو الرحل، لكن هذه الكلمات لا تؤخذ تبيانا لخاصة ما، فهذه الكلمات من صلب مادة القاموس كذلك، أي أنها لغة نموذجية أخذت من القبائل التي اعتدّ بالرواية عنها، وهذه القبائل هي قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، وقريش، دون تغلب:

(قل لبني ذهل يردّونه
أو يصبروا للصيلم الخنفقيقْ)[٤]

فماذا يعني ذلك إلا أن تكون هذه الكلمات مفردات عامة من لغة موحدة هي فصحى

القبائل، وجدها الرواة على ألسنهم جميعا، وقد توحدت هذه اللغة بالطريقة ذاتها التى يجد بعض المفسرين أن اللغتين الأوربيتين الفرنسية والإيطالية تكونتا بها من لهجات:[٥]

لا يرقأ الدهر لها عاتكٌ
إلا على أنفاس نجلا تفوق
ستحمل الراكب منها على
سيساء، حبير من الشرنوقْ)

إننا سنجد أن هنالك ضوابط لاستحداث الشاعرية من خامة اللغة ذاتها، وبآلاتها. وما فعل الشاعر بداية هو أنه كرر البنية الأحدية لمثل البيت الذى أنتجه شعراء الأبيات من قبله، وكان هذا التكرير على هدى من العدالة والقسط، يتيح للمساواة أن تنتحل من بيت الوبر، أو من خواطره، أو من مشاهد فى البيئة سواسية. كما قضى الشاعر بتقفية التتالى للحرف الأخير فى البيت الأول لفائدة الرواية، فذلك هو الرَّوي، ولغاية تقود إلى حكمة، أو تبعث على الحنكة والحبكة والدلالة، وخدعة التطابق.

ولابد أن الشاعر المحاكى لمن قبله وللطبيعة، مطيلا، قد جرب أطرا لإسكان الكلمات بالقواعد، بما يناسب إيكاء انفعاله، وبما يحتقبه، ويماثل سكناها الأولى فى باطنه وفى الطبيعة ليطوى منظومة اللغة الدالة على الموضوع، وليكبح جماح الاستطراد، ويلجم طوفانه، ويثلج نفسه كذلك، إذ إنه لن يعرف الماعون الذى سيضع فيه أسهم ذاته وأسماء الأماكن، ووقائع الانفعال إلا بمعايرة خاطفة سريعة لهذا الماعون أو ذاك، خِطْبَة لأيهما، فى حدود الإلهام والعبقرية والصنعة.

إنه ما من تقليد كتابى مطول موزون يضعه حذوه إلا كتاب ذاته وكتاب البيئة بنظامها ودستورها الوزنى وقابلية الكلام ذاته للانتهاء والوزن، والسجع، والتأليف، أو الإيلاف، واختلاف المصوتات وتعددها، وتقبلها للمسافات المختلفة وللتراص والتناص وللوقف، فضلا على حاجة النفس البشرية فى داخلنا إلى ما هو فى خارجها من أنفس الوجود، لتحقيق الخلافة والحيازة، ولا نستبعد أن يكون الماعون هو الانفعال ذاته ونقشه وتفشيه وتشظيه ثم تجمعه، إضافة إلى جهاز التنفس المحكوم بحُميًّا الزفير المبعثر فى الريح التى تحتوى على الريح وتحييها أيضا خطواتنا، وتخرجها من انطواء إلى سمت يختلف إلى هواء الشعر وفضائه، ولذلك ظهر الأثر الهوائى فى الفراغ بين الشطرين أو فى التدوير والالتحام وفقا للكفاف عن الكلام، أو مواصلة الزوادة منه.

وفى الشأو الحربى صدد هذه القصيدة، نجد الشاعر يعاير انفعاله العسكرى بالبحر السريع، فانفعاله بالضبط هو انفعال سبعة أسباب عروضية، متتالية الأشواط. والسبب العروضى هو تتالى حرفين ثانيهما ساكن، إذا كان هو السبب الخفيف، أو ثانيهما متحرك، إذا كان السبب هو السبب الثقيل، والسبب أسرع من الوتد الذى هو حرفان متحركان، بعدهما حرف ساكن، وهو (الوتد المجموع) أو حرفان متحركان بينهما حرف ساكن وهو (الوتد المفروق). كما أن الوتد المفروق أول لفظه سبب خفيف كذلك. والوتد المفروق قائم فى البحر السريع، وعروض البحر السريع، الأولى الموطأة للاستعمال مطوية مكشوفة نقلت من «مفعولات» إلى فاعلن القائمة فى موسيقى هذه القصيدة[٦].

إن الشاعر بخيار البحر السريع يتخطى البحر الطويل والرجز والكامل والبسيط والوافر،

إلى غير هذه البحور من أوعية القدماء، وكان بإمكانها أن تحتقبه كما تخطى الشاعر حروف الهجاء إلى «القاف» ليجعل حرفها القافية والروى وسريرة انفعاله. مثلما جعل التخطى فى العلامات، ليستقيم مع التسكين النهائى دون الجرّ أو الفتح أو الضم، فهو بعد أن نهض بعبء القالب، واستهلك مطلب الكمية والمدة، يهم بالتنغيم، ليوفره بالتشكيل بالحركات ، وباللوازم الموقوفة على ما يطلق عليه اسم الشعر ليكون شعرا لا نثرا[٧].

وقد تباعد عن تحريك القافية بالكسرة، وإطلاقها بها تباعدا محسوبا هو نحوى المظهر، من طرف، لوجود كلمتين تبطلان التنغيم بالجر أولاهما «تَفُوقْ» فى البيت الثانى والعشرين، والثانية هى «نُوقْ» فى البيت الثالث والعشرين، والأولى خرجت عن التنغيم المشكول بالكسرة فى الحرف المستعلى (القاف) لفعلية الكلمة «فتفوق» هى لمضارع مرفوع حقا، ولقد نأتْ الكلمة الثانية عن التشكيل المنغم بالجر أيضا، لكونها مع اسميتها غير مضاف إليها شىء، أو مسبوقة بأحد أحرف الجر، بل هى فاعل صريح[٨].

على أن الأثر المحسوس للقاف الساكنة فى روى القصيدة، من طرف آخر، استنقذها من عار نطقى مظنون هو طلب الحماية فيما لو أذعن الشاعر إلى الجر، ولم يصوب إلى أمشاج من الحركات جميعا يعقلها التسكين، إذ ان منطوق القافية كان سيرسم هذه الصورة الصوتية «قى قى قى» بمعنى «احمنى» فالانتقال المشرِّف إلى التنغيم سيكون لتخم بديل، هو للوقف وهو للسكون الذى ربما كان عمدته وبؤرته كلمة «الضِّيقْ» ذات المحور المكانى المهم فى فضاء القصيدة، فى نهاية البيت الخامس والعشرين خاصة أن كلمة (ضيقْ) هذه مسبوقة برديف هو كلمة «أزل» الساكنة الوسط بمعنى الضيق أيضا، بما لا يحدث فى سائر القصيدة، وبما يركز التناظر الذى يعد مرتكزا مهما فى الأدبية والإنشاء يساوى ترافقه الفعل ورد الفعل فى الحادثة[٩].

(سَــيِّدٌ سَــادات إذا ضَــمَّهُمْ
مُعْظَمُ أمْرٍ يوْمَ أزْلٍ وضَــيقْ)

ظاهرة الزمانية والمكانية:

لقد اختار الشاعر أن يكون هو الراوى ، ومرسل الخطاب عن غيره أيضا، والمحامى عنه، والمذكر بشوكته، والتزم الرواية بالماضى، كما تقيد للخطاب بالأمر كذلك لكى يترك أثرا لذاته، ذات الشاعر، وإنه لم يغفل عن أن يضارع الحادثة بتبيان المكان والزمان وبالحال كذلك لتتمات الجملة، ولإعاقة الإسناد ودعمه، فهو لا يسبح فى تجريد قطبى ثلجى وهكذا احتوت القصيدة علائق للمكان والزمان، هى ظروف فمن ظرف المكان جلبت العَمَدَيْن («فوق» و«عند» كما اشتملت على أضّاد للزمان نعرض منها (يوما - فى يوم - ليل - ضحى).

ومهادا المكان والزمان الجاحظان فى النص كفيلان باستجلاب الدلالة بسيمائها، فإن الليل، على سبيل المثال، هو ما تكاد تبتدىء به القصيدة، وتنتصف فَهُوَ بها قرين، كما أن الضحى عصب لبيت الختام. وباستغلال ظاهرة التضاد يتاح للشاعر أن يجعل كلا من الميقاتين قرينا لحدث، فإن الظلم وقع على الشاعر وشقيقه فى الليل، وحملات شقيقه وانتصاراته السالفة جرت فى الليل كذلك.

والفأل الحسن، ومستقبل الحياة الحرة الثائرة سيكون فى الضحى. والميقاتان حيزان

لخاصتين بشريتين متناظرتين إن فى تناظرهما تضادا بالقصاص، لا ريب، فالليل ملازم لكراهية وقعت ولمْقت. والضحى منوط بكراهية ستقع، كلتا الكراهيتين ليست مرتعا لظاهرة السكون الكونى، بل الحركة، ولكن أخراهما فى تناظرها مع أولاهما تحمل التضاد، التضاد بالعدالة والقصاص، لا لركود العداية الأولى.

الأدبية والمجاز:

تحشد اللغة لوظيفة ولتبعة ليست إبلاغية محضة، بل هى وسط بين الإبلاغ والتمثيل؛ فهى ستذعن لموسيقى، وستعود القهقرى لتقبض على جناية برهطها وزمانها ثم تعود قدما إلى الأمام أو تتلبث حيث لا مساس. وهكذا دواليك لتستتم منطقية الحصر فى تمثالها الذى قد يختلف قليلا عن شارة القتل، الذى تعرَّض له كليب، وعن بركته الراكدة أو الألفاظ التى حضرت القتل وحاصرته وضاع فى غلوائها كليب، كما ضاع من بعده عمرو بن هند، بحسام ابن كلثوم زوج ليلى ابنة المهلهل، صانع قصيدتنا هذه ومُقَصِّدُها وليس مهلهلها.

وفى تداعى اللغة لقصيدتنا هذه تكثر الأسماء حتى لتكاد تخل بما بدأ به الشاعر القصيدة لكنها لم تصنع مدينة من الموتى، أو ضاحية من العجزة فهى داعية للأفعال، بحاثة عنها، رحَّالة إليها، جنة للتشابيه، خرِّيجة إليها. وأداتها المبدئية الكاف التى يركبها الشاعر الرائد على الشىء الطلسم أو اللغز، أو نصف المضىء حتى تعهده بكفاية، بمثل ما يراه بكفاية وزيادة.

ولنلاحظ فى مضار الإشهاد اعتياد الشاعر على أن تكون مروياته بهالات شعرية مستعارة من غيرها، فإذ نوى أن يحسن المحاضرة للزمان والمكان وأن يلقى درسا بإحصاء ما فات وما عزب، فإنه أسس هذا النحو من الرقى الكلامى الذى لا يتبخر فى الهواء، حين جعل صدور الأبيات وثائق لسجل العرب، ومستودع تاريخهم ومدونتهم فى الذاكرة، وأعجاز الأبيات للمتعة الخالصة وللتسلية، ولمهارة تداعي الصور وإيحائها والتفنن فى ربطها بسلطان الخيال وملكوته.

وعلى هذا النحو يروى عن قتيله:

مَنْ عرفتْ يوم حزازى له
عليا معدٍّ عند جبذ الوثوقْ
إذ أقبلت حميرُ في جمعها
ومذحج، كالعارض المستحيق
وجمع همدان لهم لجبة
وراية تهْوِى هُوِيَّ الأنُوقْ

إن صدور الأبيات، بحق أملية تاريخية وأغنية، لها شنشنة وركيزة، لكن أعجاز الأبيات هى خيال الشاعر ورؤيته الخاصة بعين الجميع الذين ربما شاركوه الرؤية الماضية، لكنها عزت ونسيت، فكان لها خير خازن وخير معوان على التذكرة ولتتابعه فى هذا التحرى الشعرى لاستحصاد الذاكرة:

مضطلعا بالأمر، يسمو له
فى يوم لا يُستَاغ حَلْقٌ بريق

إن هذا لهو التبيان الذى ارتضاه شاعر القوم لهذا اليوم، يوم لم يقدر أحد على أن يسيغ حلقه بريقه من وطأة حر الحرب ووطيسها.

إن الشاعر لم يلجأ إلى «مثل» فى كثير من الأحيان، ليعقد بها طرفى التشبيه وقد فعل ذلك مرة واحدة، ووصل بالمفعول المطلق إلى استحداث التشبيه مرتين ويندر أن ينحو إلى استعارة حاسمة، لكنه أقبل على الكناية إقبالا

غير محدود.

إن ترجمان ذلك يعنى أن التشبيه يظفر بحظ الأسد وهو بحرف الكاف، يليه التشبيه بالمفعول المطلق، فالاستعارة، ثم التشبيه «بمثل» ثم تقع الكناية مواقع واثقة محضرة؛ فهى وسائل للرمز والإيماء والاختصار، مما يميل إليه المقررون الذين يملكون حق التسمية، فهى تجرى على المطلق والكليات وهى تفريع عليها، وإطلاق جديد لألقاب من لوازم الأشياء وحقائقها دون مجازها، يختلف عن المجاز[١٠].

على أن اللغة الأدبية هذه التى توسطت، لتنم على حادثة أليمة حلَّت بالشاعر، ظهرت لها حقا أهداف جانبية ثقافية وسياسية عارمة، بعيدة عن السطح التجميلى أو العلامات الفارغة المتسلطة أحيانا على اللب المنتج، من مثل الشعر للشعر أو للفراغ؛ فهى كانت حرزا محملا بقواعد المعاملات ومعبأ بالوعيد يسمح بقانون العرض والطلب، والكر والفرار، والثواب والعقاب، وفكرة المطايا، فَرَهْن الدّية كان مشطوباً، والشاعر المهان أراد أخاه حيا، لذا كان لابد للغة من زمان جامع للخطاب المنكوء، ومن لغة خاصة هى لغة تكلم وتفاوض، قبل أن تكون لغة كتابة محكومة بمعاهدات الصحيفة وأبعادها، ولذلك نجد مثل هذا التتالى «هفوة» «هبوة» مما يلتزم به المتكلمون فى التلاحق، والملاحاة، والشتائم والشحناء دون الكتابة، كما نجد اسم الإشارة (ذاك) فى البيت الثالث عشر، المفصل الموكىء بينات الكلام، ونشهد اسم الإشارة (ذاك) بين فقرتين طويلتين من فقرات الرواية أو السرد مما نجد له أماثل فى كلامنا المعتاد اليومى ونحن نجيز لأنفسنا المواصلة بعد تجزىء الخطاب، مع الأقربين أو البعداء لالتقاط الأنفاس وتنضيد جهاز التكلم، وإراحته فى مشوار الحديث الطويل الكثير العثار الذى ستفيض منه اللغة أيضا إلى مستقبليَّة، وإلى عيب يحاول أن يقرأ به الشاعر كلام الخصوم وينبىء به عبثاً ويحملهم على أن يعترفوا بمذاق خصيمهم فيه وتلك هى اللغة التى عاجزها القرآن الكريم ببيان للتكلم وللكتابة معا، يحكى عما فى سفر الحاضر، ويقرأ صفحات الغيب حتى قال عنه قائل القدامى اشتباها وارتباكا وعداء: إنه لقول البشر، فلم يكن يريد أن يقرّ لأم الكتاب، وأمّ الألسنة، ولأمين الوحى.

الهوامش :

(١) Roland Barthes, Le degre zero de l, ecriture Editions du seuil paris 1972, P.33.

(٢) محمد بن سلام الجمحى . طبقات الشعراء، دار النهضة العربية، بيروت ص ١٣.

(٣) د. ر بلاشير. تاريخ الأدب العربي. ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلانى ، دار الفكر. دمشق ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م. ص.ص، ٩٣ ـ ١٠٣.

(٤) ابن قتيبة. الشعر والشعراء. دار إحياء العلوم. بيروت ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م ص ١٨٦.

(٥) بلا شير. تاريخ الأدب العربى ص ١٠٠.

(٦) الخطيب التبريزى . الوافى فى العروض والقوافى . دار الفكر دمشق ط٣ سنة ١٣٩٩هـ. ص ١٣٧.

(٧) انظر الفصل القيم الذى كتبته جو لياكر يستيفا عن ميزة النحو العربى فى هذا الشأن:
Julia Kriste Va, Le Langage Cet in Connu. Editions du seuil 1981 Paris La grammaire arabe. P.P 129 - 134.

(٨) يجر ابن قتيبة قاف الروىّ فى شاهدين أوردهما (ليس فى أحدهما فعل) الشعر والشعراء ص ١٨٦.

(٩) فى التناظر والتضاد فى قراءة الدلالة انظر A.J. Greimas - essais de semiotique Poetique. Larouse paris 1972. Claude Zilberberg 141,

(١٠) الخطيب القزوينى الإيضاح فى علوم البلاغة، مكتبة صبيح، القاهرة ١٤٠٢هـ ص١٨٣.

العواد رائد الرومانسية فى الشـ

تابعت الأستاذ محمد حسن عواد فى كتبه وتابعته فيما كان ينشره فى صحفنا المحلية، كما تابعته فيما كان ينشر عنه فى الصحف، وتعرفت شخصيا على الأستاذ محمد حسن عواد وعرفته صاحب رأي وفارس كلمة، وعرفته مغوارا يغالى فى تأييد آرائه وابداعاته.





بقلم:
د. أمين ساعاتي
- جدة -

ولقد ترك الاستاذ العواد رصيدا كبيرا من الانتاج، ولكنه ترك معه رصيدا كبيرا من الضجيج والخلاف، واستطيع أن أقول إنه ما اختلف النقاد السعوديون على شيء اختلافهم على الشاعر المبدع الاستاذ محمد حسن عواد.

فمنهم من اعتبره شاعرا مطبوعا وهم الأكثرية الغالبة من الأدباء والنقاد.. ومنهم من قال إنه «لو تفرغ للشعر لكان شاعرنا الأول، ولو تفرغ للنثر لكان ناثرنا الأول» اما الفرع الثالث فهم الذين أنكروا شاعريته ورموا شعره بالغلاظة والفظاظة.

ومع أننا نحترم كل الآراء التى قالت رأيها بصراحة فى العواد.. إلا أن الرؤية التى يقوم عليها هذا المقال.. هي الاعتراف الكامل بشاعرية العواد، بل الاعتراف بأن العواد ليس شاعرا مطبوعا فحسب، وانما هو رائد الرومانسية فى الشعر السعودى المعاصر.

ولقد قال العواد حينما سألته عن مدرسته فى الشعر: أنا عضو عامل فى مدرسة أبولو، وشعرنا رومانسى الطابع والطالع وفى دواوينى تقرأ الرومانسية الغالبة فى الشعر السعودى.

يقول العواد فى احدى قصائده الرومانسية التى صاغها شعرا حرا:

غانية الأيك - سقاك السحاب
نوحى معى قد راقنى الانتحاب!
وحركى المغرم فى وجده
فالحب أضناه
يا سلوة العاشق يا ذات «آه» !
يا كهرباء الوجد واحسرتاه!
فؤادى العانى على وقده
شدوك أشجاه
بعيشك الغض بظل الأراك
من ذا الذى بالرغم أضنى قواك؟
أشادن أسرف فى صده
قلبك يهواه

وعند العواد الشعر «فن مستوحى من القوة العليا» ويقول فى ذلك:

ـعر السعودى


محمد حسن عواد

من الشعر شعر فى سبيلك عابر
أيا فن تستوحيه فيك المشاعر
من القوة العليا، من النفس،
من لدن خصائصها، من سرها وهو عامر
ترفع عن دنيا المها فهو وحده
حقيق يخلد الفن، والفن قادر
فدونك واسلكه الأولب وحسبه
مقاما تهادى فيه سحر وساحر
وهل تجمل الدنيا اذا جف سحرها
أو اختفت فيها النهى والسرائر؟

ويعد العواد واحداً من شعراء العربية الذين ترجموا «رباعيات» عمر الخيام، بل واحداً من الشعراء القلائل الذين أبلوا بلاء حسنا فيما أنشدوا للخيام، يقول العواد فى الرباعية الخامسة:

حبذا لو كان للراحة فى الدنيا محل
حبذا لو نبلغ الغاية من ذا المرتحل
حبذا لو كان فى العودة للعيش أمل
بعد أن نفنى كما يسترجع العشب التراب!

ولا ننكر ان العواد يتباهى بشعره ويتغنى بشاعريته، ويضع اسمه فى المقدمة على كل الشعراء السعوديين رومانسيين وغير رومانسيين، يقول العواد:

اتطلب أفضل ما قد نظمت؟
أعيذك بالله من شره
فما هو الا لهيب عميق
دفين لدى المرء فى صدره
يحاذره الشاعر المستعز
فيضعف بالصمت من جمره

الى أن يقول:

هناك فضائل منكورة
يمارسها الفكرفى وكره
اذا رامها القول لا تستجيب
الى نظمه أو الى نثره

وفى نفس الموضوع يقول العواد:

بعدما عشت صارم الفكر جبارا على
القائلين، جم الأذاة
أتحدى ألى اليراع وألقى، روعة
الخوف فى القلوب الهفاة
غير ما مفلت أديبا من النقد ، ولا
عاطفا على ذى هناة

وشـديد الحـسـاب للكتـاب المخطىء
والشـاعـر الضـعـيف الاداة

والعواد نفسه يفتخر كثيرا بقصيدته (صلاة نفس) التى ضمها ديوانه «نحو كيان جديد»، واذا ما التف أصدقاؤه حوله، يبدأ حديثه معهم بهذه القصيدة، ثم يقرأها عليهم:

سـبـحـى الله فـالطبـيـعـة يقظى
واسـتـمـدى من المرائى جـلالا
واسـأل الله أن يزيح سـدول الـ
ـفكر، حـتى نرى الخـبىّ اتصـالا
اسـألـيـه مـتى ترى تأذن المجـ
ـهـول الا يؤنبونا اسـتـجـهـالا
أو من حـقنا السـؤال ، أم الأنـ
ـفس للرد مـا تطيق اقـتـبـالا
غـيـر أن الجـواب سلب فـحـومى
حـوله واقنعى وخـافى الضـلالا
ثم قـولى ومـا كـسـبت سـوى الحيـ
ـرة، هيـهـات أن أنال منالا؟!

ومن ديوانه «فى الأفق الملتهب» ينقلنا العواد الشاعر بحسه الوطنى المرهف الى قصيدة يتجاوز بها حدود المملكة العربية السعودية الفتية الى ربوع البلاد العربية، فيقول:

أحب الجزيرة والموطنا
ومستقبل العرب أن يعلنا
أحب الحجاز
أحب السراة مدار العروبة أصل السنا
ونجدا
وأحساءها
والعسير
وحائل
واليمن الأيمنا
أحب العراق
أحب الشام
ومصر
ولبنان
والأردنا
وأهوى فلسطين
أهوى عمان
الى حضرموت، ومن سورنا
وتجذبنى تونس والجزائر تسعى، ومراكش،
للبنا
ولا سيما بقعة حرة
تسيل الدماء بها أعينا
أجابت على الظلم أحرارها
بحد الظبا ، ورؤوس الفنا
«جزائر»
لكنها بالجبال محصنة، جل من حصنا
فمشرقها نبضات الحياة
ومغربها بسمات المنى
وأهوى المهاجر خلف البحار
ومن برر «الضاد» أو برهنا

وفى مقدمة ديوان «أماس وأطلاس» يشرح العواد للقارىء آماسه وأطلاسه فيقول مغردا:

هـذه الآمـاس ! قـد ذهبت
فى ضـمـيـر الغـيب والأبد
كـل أمـس من أوابـدهـا
قطعـة من هذه الكبـد
انهـا آمـاس مـبـتـدر
فى حـيـاة الشـعـر منفـرد
عـاشـهـا طفـلا على أمل
مـبـهـم، فى الطفل ، منعـقـد

ثم وشـــتـــهـــا أناملـه
صـحـفـا مـحـدودة العـدد
أعلنت فـيـهـا الحـيـاة رؤى
ملت الكتـمـان فى الخلد
وأخـيـرا قـد تطلس مـا
قـد حـمـاه الفن من فند
كل طلس راح ملتـمـسـا
أيدى الاهـمـال والـلـد
غـيـر أن الخلد جـاذبه
- للبـقـاء - الحـر - كل يد

والعواد كالرومانسيين يخاطب الطبيعة كثيرا .. يخاطب الليل ويناجيه ، ويناجي البدر ويخاطبه، ومن قصائده المشهورة والطويلة قصيدة «الليل»

هل أنت مـثلى أيهـا الظلام!
تشـعـر بالويل فـتـخـفى العـرام
وتلبس الصـمت، فـتـعلو الأنام
برهبة القانت فى قمة ونظرة الخاشع فى همه
وفكرة الشيخ وروح الصـغير

* * *

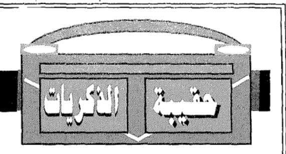
أو أنـت خـلاب خـفـي الخطر؟
أرود لا يعنى بسـر البـشـر
حب أنـانى مـحـاب أشـر
ناء عن الخير كما يزعمون عار عن الروح الذى ينشدون
يعييك أن تطلب مجد الكبير
يا ليل ! انى قـائل، فـاسـمـع:
هـذا «زرادشت» و«مـانى» مـعـى
فـهـل تعى مـا قلت، أو لا تعى
قد شوها حسنك لى يا ظلام فهل ترى يا ليل أن لا أنام
أو لا ترى ؟ - لا ريب أنت الغرير

ولقد قرأت للأستاذ حمد الجاسر فى جريدة البلاد السعودية (البلاد حاليا) تقريظا لشعر العواد واعترافا برومانسيته المجنحة، كما قرأت للأستاذ عبد الحميد مشخص تقديرا كبيرا للرومانسية في شعر محمد حسن عواد .. أما الاستاذ عزيز ضياء فقد أشاد بالعواد شاعرا عملاقا وسلمه راية الريادة فى الشعر السعودى حينما قال: والعواد على حق اذن حين اعتقد أن فى الأدب زعامة وعمادة وقيادة ، وانه هو الزعيم والعميد والقائد.

والشعر الرومانسى عند الأستاذ العواد رائد الرومانسية فى الشعر السعودى .. هو روح متمرد عات، يأبى أن يسكن الخرائب البالية المتحطمة من القوالب والأغراض، والشعر فجر، والفجر يبدد بأشعته الظلمات حين يبزغ.

رحم الله العواد الذى كان أبلغ وأقوى الأصوات التى نادت بالرومانسية والتجديد، ولقد اطلعنى مرة على الخطابات التى كان يتبادلها مع أحمد زكى أبو شادى رئيس مدرسة ابولو الرومانسية.

والخلاصة اذا أردنا أن نختصر حياة الشاعر الكبير محمد حسن عواد .. قلنا إنها حياة خصبة ابداعا واصلاحا وخيالا، فى اطار فكر سعودى عربى نقى وفى بوتقة ضادية مترفعة، وشعره وحده يسلكه بين كبار الشعراء والمبدعين لأن فيه عبير الصحراء ونفحات التحضر الزاهى.



الموضوعات التربوية

تناول أدباؤنا في سيرهم الذاتية موضوعات فكرية شتى، يأتي في مقدمتها: التعليم في الجزيرة العربية وكيف كان. وما أبرز العقبات التي واجهت تطوره واتساعه ونموه؟ وما أهم المراحل التي مرَّ بها في رحلته الطويلة من الكتّاب الى الجامعة؟

ولقد كان التعليم في مراحله المتعددة المحور المهم الذي لم تخل سيرة ذاتية تقريباً من تناوله والتحدث عنه، لكونه الأساس الذي تقوم عليه حضارة الأمة - أي أمة - وقد جاء معظم حديث أدبائنا عن التعليم في صورتين: الأولى تعكس رؤية الكاتب وهو على مقاعد الدرس والتحصيل، والأخرى عندما أصبح مدرساً يُلقن طلابه ما حصَّل من معارف وعلوم.

وكان حديثهم ممزوجاً بالحماسة الشديدة للسير بالوطن إلى مدارج النمو والتقدم، وبخاصة أن المملكة العربية السعودية في الفترة التي تحدثوا عنها كانت في طور التأسيس، وكانت بعد ذلك تخوض معركة التنمية بقوة من خلال نشر التعليم والمرافق العامة والخدمات على أوسع نطاق.

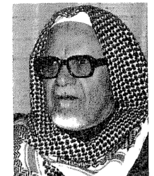
وقد لاحظت من خلال استقرائي للسير الذاتية أن الهموم التي عُني بها الكتّاب في الجانب الفكري متقاربة، حيث تحدثوا عن الكتاتيب، وعن ندرة المكتبات، وعن البدايات الصحفية وعن محدودية التعليم في تلك السنين الماضية التي تمتد إلى حوالي قرن من الزمان.

عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري
- الرياض -

ويطلعنا الكتاب - وهم من مناطق مختلفة من المملكة - على نماذج حية من الحوار الفكري الذي كان سائدا آنذاك، وأهم المسائل الثقافية التي كانت تشغل جمعاً لا بأس به من الرأي العام.

كما نتعرف من خلال ما يرويه أدباؤنا في سيرهم على النواة الأولى للنوادي الأدبية القائمة حالياً، والمتمثلة في منتديات صغيرة محدودة يجتمع فيها المهتمون بالأدب، ويتحاورون في كل ما يعنيهم من القضايا الفكرية.

والثقافية في السير الذاتية السعودية (١-٢)


- حمد الجاسر



- حسن محمد كتبى


- محمد حسين زيدان

- محمد على زينل

وثمة ملامح كثيرة يبسطها أدباؤنا في سيرهم الذاتية تعكس بصدق الحالة الثقافية والتعليمية والتقنية على مدى أكثر من ثمانين عاماً مضت.

ولعل البداية تكون مع حمد الجاسر

الذي أولى الموضوعات الفكرية جل اهتمامه، وبخاصة قضايا التعليم وشؤونه وبداياته في عدد من مناطق المملكة، وبالأخص: نجد، والحجاز والأحساء.

ففي حديثه عن بدايات التعليم في نجد في الثلث الأول من القرن الماضي قدَّم وصفاً لطريقة التعليم، وصورة المعلم آنذاك وكيف كانت صورة «المطوع» تثير في نفسه الرعب[١]، وعرج على أدوات الدراسة وتناول الأساليب التربوية، ووسائل العقاب في كتاتيب نجد في تلك الحقبة من الزمن[٢].

وأشار إلى الجهود الفردية التي كان يقوم بها بعض المتطوعين في ظل غياب المدارس النظامية لتعليم الصغار القراءة والكتابة كما كان يصنع «معلم يدعى (الصقعبي) يُعلم القراءة في الصباح، وبعد العصر يُعَلِّم الكتابة»[٣].

وحين انتقل من قريته إلى الرياض قبيل منتصف القرن الماضي (الرابع عشر الهجرى) عني بوصف الأماكن التي كان المشايخ يلقون فيها دروسهم، وفي مقدمتها المساجد المتعددة في المدينة وبعض الكتاتيب[٤].

ولقد تناول بالحديث أماكن أخرى كان لها دور في الوعي الثقافي في الرياض بما يجري فيها من حديث ونقاش في شتى الموضوعات، وبالأخص القضايا الدينية، أعني ما سماها «الديوانيات»، والتي شرح المقصود بها بقوله: «كلمة (الديوانية) تطلق على المكان المعد لاستقبال الزوار، ويكون واسعاً مستطيلا، قد أعدت أواني القهوة في صدره، وهيئت لتقدم للزائرين»[٥].

وهذه «الديوانيات» التي كانت قائمة في الرياض قبل أكثر من سبعين عاماً ما هي إلا صورة مبسطة من المنتديات الثقافية الحديثة،

أو ما يسمى بـ «الصالونات الأدبية» التي تنتشر الآن في مدينة الرياض وفي غيرها من مدن المملكة، كـ خميسية الرفاعي ـ رحمه الله ـ وأحديَّة المبارك بالأحساء، واثنينية عبد المقصود خوجة بجدة، وسواها من المنتديات الأدبية.

ولا يفوت حمد الجاسر أن يشير إلى محدودية التعليم في المدارس أو الكتاتيب القليلة المحدودة في الرياض، فما «كانت المدارس ـ على قلتها ـ تهتم إلا بتعليم القرآن وأشهرها (مدرسة ابن مفيريج) بقرب مسجد الشيخ، و(مدرسة ابن مضيبيح) في حي دخنة، و(مدرسة الخيال) في (الظهيرة) على مقربة من الصفاة»[٦].

ويقرر شيئاً قد يكون طريفاً جداً الآن، ففي تلك الحقبة (الخمسينيات الهجرية) كان ينتشر في مدينة الرياض مجموعة من النسَّاخ المحترفين في ظل غياب المطابع في نجد كلها. وقد رسم الجاسر صورة عجيبة لأحد هؤلاء النسَّاخ: «كان يتمدد فوق الأرض، ويجعل ما يريد نسخه في كرسيٍّ أمامه، وعلى يمينه الورق الذي يكتب فيه والدواة، وما كان حسن الخط، ولكن سريع الكتابة»[٧].

ويبدو أن هذه المعاناة في النسخ التي رآها حمد الجاسر في شبابه كانت من الحوافز التي دعته للتفكير في إنشاء مطبعة في الرياض تخدم المنطقة كلها، بحيث تطبع فيها الكتب والصحف والمجلات، وهو ما استطاع تحقيقه في السبعينيات الهجرية عندما أنشأ مطابع الرياض عام ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

ويخص المعهد العلمي السعودي الذي أمر بإنشائه الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في مكة المكرمة بحديث مطول، ويروي كيف انبثقت فكرته، وسبب إنشائه، فلقد «أنشيء لنشر العقيدة السلفية» وتصحيح مفهومها لدى من يجهل حقيقتها، وإيضاح حقيقة القائمين على نشرها»[٨].

كما خص حمد الجاسر بالإشادة والذكر بعضاً من أساتذته في المعهد الذين كان لهم دور في تطوير الأداة التربوية وتهذيب المناهج الدراسية؛ لتتلاءم مع فهم الطلاب وإدراكهم، فأستاذه عبد الله المطلق الفهيد كان «من أوائل من حاول السير في تدريس العلوم الدينية على الطرق الحديثة، وألف للطلاب كتباً تتدرج بهم في المعلومات وفق مراحل دراستهم»[٩].

ويبدو أن هذا المعلم بأفكاره المتميزة كان له أبعد الأثر على حمد الجاسر الذي تلقى العلم على يديه في المعهد العلمي السعودي، فقد حاول بعد ذلك ـ ما وسعه ـ أن ينفض الغبار المتراكم على المقررات الدراسية المنقولة بحذافيرها وأخطائها من بعض البلدان العربية. كما حاول أن يصطنع له طريقة جديدة في التدريس تحببه إلى الطلاب، وتحبب الطلاب في التعليم ولكنه لم يجد في بعض القائمين على التعليم آنذاك من يُعينه على تحقيق هذه الرغبات الطموحة في تطوير التعليم والنهوض به[١٠].

ونتعرف في «سوانح الذكريات» على شخصية رجل مصلح متحفز لإشاعة التعليم والقضاء على محدوديته، والمضي ببلده إلى مدارج الرقي والتقدم.. ومن أجل هذا الطموح يروي الجاسر بمرارة وحسرة

الصراع الذي نشأ بينه وبين دعاة التقليد الذين يرون في تطوير طرق التدريس قضاء عليه! وهو صراع طبيعي ينشأ عادة بين الأجيال التي تختلف بيئاتها أو ثقافاتها، وهو ما يطلق عليه «صراع الأجيال»، أو «صراع الشيوخ والشباب»، وهو صراع ينتهي في غالب الأحيان لمصلحة الطرف الأخير (الشباب)، لأنهم بحكم الزمن يخلفون الشيوخ في إدارة المرافق والمصالح العامة، فيتاح لهم - حينئذ - تنفيذ أفكارهم ووجهات نظرهم دون مزاحمة أحد، وبعيداً عن الصراع مع الأجيال السابقة.

وفي نظر الجاسر أن أبرز صفة يتحلى بها المدرس الناجح هي «امتداد صلة الحب والتقدير والذكرى الحسنة بينه وبين طلابه».

ومن أجل ذلك فقد كان من عادته في التدريس أنه كان يتحاشى أن يجلس على كرسيٍّ والطلاب جلوس، فكان يعمد إلى إخراج الكرسي من الغرفة ويجلس وسطهم.

ويرى حمد الجاسر أنه كلما كانت وسائل التعليم مشوقة ومتجددة كانت نفس التلميذ أشد تطلباً وقبولا لها، ولهذا كان يتخذ من دروسه «مادة للترويح عنهم، بصياغتها بأسلوب قصصي يستهوي نفوسهم، ويشدهم إلى تلقيها والاستمتاع بالاستماع إليها»[١١].

وكل هذه النظريات التربوية الثاقبة التي حاول تطبيقها فعلياً أثناء عمله بالتدريس تؤكد محاولاته الجادة لتطوير الأداة التعليمية، وتقريب الصلة بين الأستاذ والتلاميذ، وسعيه الحثيث لإيجاد صلة بين الغاية من المناهج وحياة الطلاب العامة؛ ولذلك لم يكن حمد الجاسر في يوم من الأيام راضياً عن المناهج وطريقة التدريس إذ ذاك، فالدراسة الدينية - على سبيل المثال - في المدارس كانت على درجة من الضعف لا يمكن تصورها - كما يعبِّر - ، «إذ يكتفى من التلميذ بأن يحفظ ما يستطيع حفظه من المقرر في المنهج الدراسي، وعند الاختبار يكتفى منه أن يكون كالببغاء ينطق بما حفظ في الاختبارات الشفوية»[١٢].

وحين أسندت إليه إدارة التعليم في نجد أواخر العقد السابع من القرن الماضي حاول



جهده أن يسير بالتعليم إلى الأمام في فترة وجيزة، غير أن العين كانت بصيرة واليد قصيرة، فموازنة المعارف آنذاك كانت محدودة لا تعين على تحقيق الطموحات؛ ولذلك قال له أحد أصدقائه: ينبغي «أن تسير في جميع أمورك على طريقة (سدّدوا .. وقاربوا) ..»[١٣].

ـ مدرسة العلوم الشرعية في المدينة المنورة

على أن الجاسر لم يستسلم لقسوة الظروف المادية، فبذل جهوداً مضنية في سبيل التغلب عليها، فكان أن كاتب بعضاً من المسؤولين، وفي مقدمتهم: الملك سعود بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ للنظر في وضع التعليم في نجد وضرورة النهوض به[١٤].

وقد أرجع تراجع التعليم في نجد آنذاك بالمقارنة مع التعليم في الحجاز إلى أن الاتجاه العام بين سكان نجد «لم يتأثر بعد بوسائل الحياة الحديثة، ولايزال كثير من ذوي الحل والعقد فيهم يفضل عدم التغيير فيما كان متوارثاً منذ أجيال عديدة في أساليب الحياة العامة»[١٥].

هذا عن الموضوعات الفكرية العامة في سوانح الجاسر، ولكن ماذا عن الموضوعات الخاصة؟.

في «سوانح الذكريات» نجد أمامنا شخصية تحمل رغبة شديدة في المعرفة، وتطلعاً واضحاً إلى الاستزادة من الفكر العربي في شتى عصوره، ورغبة في نشر كنوزه المخطوطة[١٦].

وليس هذا فحسب، بل نتعرف على رغبة شديدة في الاطلاع على الفكر العالمي بلغاته الأصلية، وليس عن طريق الترجمة[١٧].

ويشاركه هذه الرغبة أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري الذي يعترف بأن أمّ العقد التي يحملها في كهولته جهله «الذريع بلغة الخواجات»، وتمنى لو يفرغ لتعلم أبجديات اللغة الإنجليزية[١٨].

وإذا كان تعلم الإنجليزية مما يطمح إليه حمد الجاسر وأبو عبد الرحمن بن عقيل، فإن الدكتور غازي القصيبي يتطلع إلى أبعد من ذلك، فهو يرى أن ثقافته التي حصل عليها من خلال مطالعاته لم تخل من ثغرات، أولها: أنه لا يتقن من اللغات الأجنبية سوى

الإنجليزية[١٩]، مما يجعله عاجزاً عن متابعة الإنتاج الفكري المكتوب باللغات الأجنبية غير الإنجليزية.

وفي مجال الإصلاح التربوي، ومحاولة التجديد في وسائل التعليم نجد كاتباً آخر لا يقل حماسة واهتماماً في هذا الجانب وهو حسن محمد كتبي

الذي يمكن تحديد ثلاثة عوامل كان لها أثر كبير في مسيرته وحياته الفكرية وطريقة تفكيره، وهي:

١ ـ دراسته في الهند على مدى ثلاث سنوات في مدرسة الفلاح هناك.

٢ ـ العهد الذي قطعه على نفسه بالاشتغال بالتعليم تنفيذاً لوصية الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح.

٣ ـ قراءاته المكثفة في كتب التربية وعلم النفس في بعض مراحل حياته[٢٠].

وكل هذه العوامل مجتمعة أسهمت في اصطباغ شخصيته بالاستقلال في التفكير، والتميز في الأفكار، فحاول جهده أن يمارس تطبيق النافع المفيد من النظريات التربوية الحديثة، حيث بدا له أن يضع كتاباً عن «المدرسة الفاضلة» ـ كما كان يتصور آنذاك ـ بدأه من «روضة الأطفال» وحرص على التنبيه «إلى دور الغريزة في التحكم في أخلاق الإنسان، ونشأته واتجاهاته، وأنه لابد أن تقوم رياض الأطفال على أسس صحيحة تشذب من الغرائز، وتقويها، وتوجهها التوجيه السليم الذي يُمكِّن الطفل من النجاح في الاتجاه الذي تتوفر فيه مواهبه الفكرية»[٢١].

وبهذه الرؤية التربوية التي نادى بها حسن كتبي في الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي «يضرب في الصميم، فلو قدِّر لخطته هذه النجاح بالتطبيق الفعلي في حينها، لربما رأينا جيلا أقوى مما هو عليه الآن»[٢٢].

ومما يدلل على سلامة خط التفكير عنده في هذه الفترة أنه بناها على الاهتمام بالطفل أولا؛ «لأن الطفولة هي الأرض البكر الخصبة التي يمكن فيها زرع أشهى الثمار»[٢٣]، وليس هذا فحسب، فلقد حاول حسن كتبي في مسيرته التربوية أن يضع تصورات حديثة للنهوض بالتعليم، وأن يطبقها فعلياً أثناء التدريس، لكنه ما لبث أن اصطدم بمن يرون أن التجديد الذي يطالب به يخل بالأسس التي يجب أن يسير عليها التعليم دون تعديل.

فعند التحاقه بالمعهد العلمي السعودي أستاذاً لقسم التخصص في القضاء الشرعي رأى أن دراسة الأدب العربي تقتصر على حفظ نماذج من شعره ونثره وفهمها ودراسة علم البيان الذي يصفه بأنه «أبعد ما يكون عن إصلاح ذوق الأديب، وتوجيه تفكيره، واستقامة أسلوبه البياني، ولكنه مثل المعادلات الجبرية التي تختبر صحة العمليات ولكن لا تؤثر في وجودها».

ولذلك حرص في تلك الفترة أن يضع شيئاً ـ أي شيء كان ـ يتفاهم فيه مع طلابه لينمي «في نفوسهم الذوق الأدبي وملكة الكتابة، وتعالج على أساسه الموضوعات والأساليب». وقد صنع بالفعل فصولا قصيرة في ذلك سمَّاها «الأدب الفني»[٢٤].

ولم يستطع حسن كتبي أن يواصل مسيرته

التجديدية في المناهج وطرق التدريس؛ لأن ذلك صنع له معارضين لا يرون ما يراه، وأحسّ «أن القائمين على المعهد قد مسخوا أغراضه حتى لم يبق من حقيقته إلا الاسم، لا العلم، والدعاية وليست الغاية»[٢٥].

وهذا النقد القاسي الذي وجهه كتبي إلى المعهد جاء - فيما يظهر - نتيجة موقف انفعالي، وإلا فليس من المقبول أن يهمّش دور المعهد العلمي السعودي بجرة قلم؟ والدليل أننا لا نجد هذا التصور عند الأجيال التي تعلمت فيه ، مما يؤكد أن هذا الرأي الذي أبداه حسن كتبي تجاه المعهد خاص به، ولا يمكن التسليم به على إطلاقه.

وفي موقع اخر حاول كتبي أن يوجد تلاحماً بين الطالب والمادة التي يدرسها؛ بحيث يشعر بالتفاعل والانسجام مع ما يدرس، وهذا لا يتأتى - كما يرى حسن كتبي - إلا بإجراء تعديلات على المناهج الدراسية «فكل قاعدة في اللغة العربية يجب أن يلمس [الطالب] تطبيقها فيما يمارسه من تعبير ليسمو ذوقه وفهمه. وكل صورة من صور السيرة النبوية والتاريخ العربي يجب أن يشعر بها كجزء من تراث آبائه وأجداده ووطنه، وكذلك بالنسبة لجميع العلوم الأخرى»[٢٦].

وفي كل ما تقدّم يتبيّن الصراع الذي خاضه حسن كتبي مع مجتمعه وجيله الذي لم يقبل آنذاك أي تغيير في مناهج التعليم، ولم يسمح بأي نسمة تجديد في طريقة التدريس تأخذ طريقها إلى الظهور.

ولعل من الجور أن نحمل المجتمع والقائمين على العملية التربوية آنذاك تبعات هذا الصراع وأسبابه، فربما أن المجددين كـ (حسن كتبي) نتيجة الحماسة الشديدة والرغبة الصادقة أراد أن يكون النهوض بالعملية التربوية بين عشية وضحاها ومن أقصر الطرق.

ويلاحظ أن الأفكار التربوية السابقة التى نادى بها حسن كتبي تتشابه إلى حدّ بعيد مع ما تقدم من آراء تربوية لحمد الجاسر.. ويظهر أن الجاسر استفاد بعضاً منها من كتبي، حيث كان الأول يوماً من الأيام تلميذاً عند الأخير بقسم القضاء الشرعي بالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة[٢٧]، على الرغم من أن الجاسر يكبره بسنة[٢٨].

وثمة كاتب آخر من جيل الجاسر وكتبي أولى الجانب التعليمي اهتمامه، ألا وهو محمد حسين زيدان

الذي يتلذذ ويطرب حين يطلق عليه «معلم الصبيان»[٢٩]، وما ذلك إلا تعبير منه عن الاعتزاز بمرحلة مهمة في حياته حين كان معلماً، فالتعليم مهنة شريفة يحق للزيدان أن يفاخر بها، وأن يفرح بالانتساب لها.

وتبعاً لذلك أخذت أحاديث التعليم، وتأسيس المدارس، والمناهج الدراسية نصيباً موفوراً من ذكرياته الموسومة بـ «ذكريات العهود الثلاثة» حتى ليقول مفاخراً بما وصلت إليه المدينة المنورة وساكنوها من التعليم: «... وقلت أكثر من مرة: إن الأمية قد انمحت من المدينة قبل أكثر من مائة عام: مدرسة إعدادية، وثماني عشرة مدرسة تحضيرية، وأكثر من خمسة عشر كتاباً، ومدرسة دار المعلمين. كل

هذا الكم مضافاً إلى المسجد محا الأمية فإذا أبناء المدينة يحملون عبء الوظائف في اللاسلكي، ومشروع الخرج، والسكة الحديد، ووزارة الدفاع، وفي مصالح أخرى»[٣٠].

وبوصفه شاهد عيان، فقد تحدث محمد حسين زيدان عن البدايات الصحفية في المملكة وإنشاء الصحف، وبالأخص جريدة المدينة المنورة التي شهد ميلادها عام ١٣٥٦هـ، وأسهم فيها: «ولم أكن أعلم عن طلب الأخوين: علي حافظ وعثمان حافظ السماح لهما بإصدار جريدة المدينة مع أني لا أكاد أفترق عن السيد عثمان، وقد تم لهما قضاء الحاجة بالكتمان»[٣١].

وصدرت الجريدة وكان الزيدان ضمن هيئة التحرير، بل وكان «الأكثر كتابة فيها» - كما يصف نفسه - [٣٢].

وقد أطال الحديث عن تجربته الصحافية في جريدة المدينة والمواقف التي صادفته أثناء ذلك[٣٣].

وينقل الزيدان لقرائه جدلا حدث له مع بعض رفاقه حول كروية الأرض، فقد كان يحمل بيده كتاب جغرافيا فسأله أحدهم:

- وفيه عن الكرة الأرضية؟

- قلت: نعم.

- قال: ليست الأرض كرة.



- مدرسة الفلاح

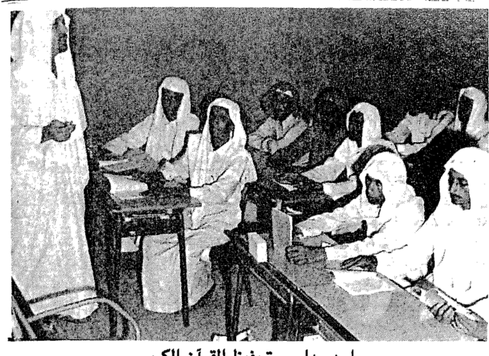
- قلت: هي كوكب من الكواكب وكلها كروية، والأرض مثلها.

ويعلق الزيدان على الحوار فيقول: «.. واتسع الجدل .. وكان جدالا بسيطاً فيه من تواضع الشيخ ومن طاعة التلميذ»[٣٤].

وهذا الجدل يذكرنا بالرفض الشديد لمادة «تقويم البلدان» أو «الجغرافيا» في بعض مناطق المملكة؛ لاعتقادهم أن فيها ما يخل بالدين وبالأخص إثبات كروية الأرض، فيما رأى المعتدلون منهم أن إشغال الطلاب بهذه المادة، و«الهندسة» كذلك، ليس فيه كبير فائدة[٣٥].

ويذكرنا جدل الزيدان أيضاً بحوار طريف جرى للدكتور زاهر الألمعي مع جمع من طلاب العلم حول كروية الأرض، فقد وجهت له الدعوة لتناول القهوة بعد العشاء في نجران في إحدى الليالي مع مجموعة من أساتذة المعهد العلمي، فامتدت السهرة إلى ما بعد الحادية عشرة من الليل، «وسبب ذلك نشوء جدل طويل

حول كروية الأرض». وقد كان المضيف لا يرى كروية الأرض، ويعد هذا من الأفكار الدخيلة، «والمحرج أنه اطلع على مقرر الجغرافيا لطلاب المعهد، وكان أحد ضيوفه المفتشين مؤلف كتاب الجغرافيا.. وقد قال بكروية الأرض،



احد مدارس تحفيظ القرآن الكريم

وأورد الأدلة والبراهين على ذلك»، فتكلم المضيف - وهو لا يعلم من هو مؤلف الكتاب - وقال: إن مثل كتاب الجغرافيا يضلل أبناءنا... الخ.

يقول الألمعي معلقاً على الموقف: «وحاولنا أن نعرض عن الموضوع إلى بحث آخر..»[٣٦].

وفي ظني أن تسجيل الألمعي لمثل هذا الموقف يكشف النقاب عن بعض الموضوعات الفكرية التي كانت تستأثر باهتمام الناس في ذلك الوقت، كما يكشف النقاب عن أسلوب النقاش المتبع في الحوار، إضافة إلى أن هذا الموقف لا يخلو من طرافة ودهشة.

وإذا كان الزيدان وهو من أهالي المدينة يذكر موقف الناس المرتاب آنذاك من كتاب الجغرافيا، وكذلك في نجد والأحساء - كما يروي ذلك حمد الجاسر - [٣٧]، فإن زاهر الألمعي بروايته لهذا الحدث من أقصى الجنوب في نجران يؤكد أن الحديث عن كروية الأرض وكتب الجغرافيا مما كان يشغل بال الأوساط المتعلمة في منتصف القرن الماضي وما بعده، وهو مما يعد مسلماً به الآن[٣٨].

ويدل حديث هؤلاء الكتاب مجتمعين عن موضوع واحد أن اشتغال الناس بهذا الحوار الفكري، وهذا النقاش العلمي كان عاماً تقريباً، ولم يقتصر على منطقة دون أخرى.

«للحديث صلة»

الهوامش:

(١) المجلة العربية، ع ١١٦، رمضان ١٤٠٧هـ، ص٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٨، ٩. وانظر العددين ١١٧، ١١٨، ص ٨ من المجلة العربية.
(٣) المرجع السابق، ع ١٢١، صفر ١٤٠٨هـ، ص ٨.
(٤) المرجع السابق، ع ١٣٩، شعبان ١٤٠٩هـ ص ٢٢.
(٥) المرجع السابق، ع ١٤٠، رمضان ١٤٠٩هـ، ص ٢١.
(٦) المرجع السابق، ع ١٤٢، ذو القعدة ١٤٠٩هـ ص ٢٥.
(٧) المرجع السابق ص ٢٥.
(٨) المرجع السابق ع ١٥٦، المحرم ١٤١١هـ، ص ٢٢.
(٩) المرجع السابق، ع ١٥٦، المحرم ١٤١١هـ، ص ٢٤.
(١٠) المرجع السابق، ع ١٨٠، المحرم ١٤١٣هـ، ص ٢٣.
(١١) المرجع السابق ع ١٦٩، صفر ١٤١٢هـ، ص ٢٣.

(١٢) المرجع السابق، ع ١٨٦، رجب ١٤١٣هـ ص ٢٠.

(١٣) المرجع السابق، ع ١٩٨، رجب ١٤١٤هـ، ص ٢٠، ٢١.

(١٤) المرجع السابق، ص ٢١.

(١٥) المرجع السابق، ع ١٩٩، شعبان ١٤١٤هـ، ص ٢٠ وما بعدها.

(١٦) المرجع السابق، ص ٢٠.

(١٧) المرجع السابق، ع ١٦٧، ذو الحجة ١٤١١هـ، ص ٢٢ - ٢٥، وانظر كذلك العدد الذي يليه ص ٢٠، ٢١.

(١٨) المرجع السابق، ع ١٩٤، ربيع الأول ١٤١٤هـ، ص ٢٢.

(١٩) تباريح التباريح ١٢٨، ١٢٩.

(٢٠) سيرة شعرية ٤١.

(٢١) ينظر هذه حياتي ٦٥، ٧٢، ٨٣.

(٢٢) هذه حياتي ٨٣.

(٢٣) هذه حياتي ١٨ (مقدمة محمد أبو بكر حميد).

(٢٤) هذه حياتي ١٨، ١٩ (مقدمة محمد أبو بكر حميد للكتاب).

(٢٥) المصدر السابق ٨٧.

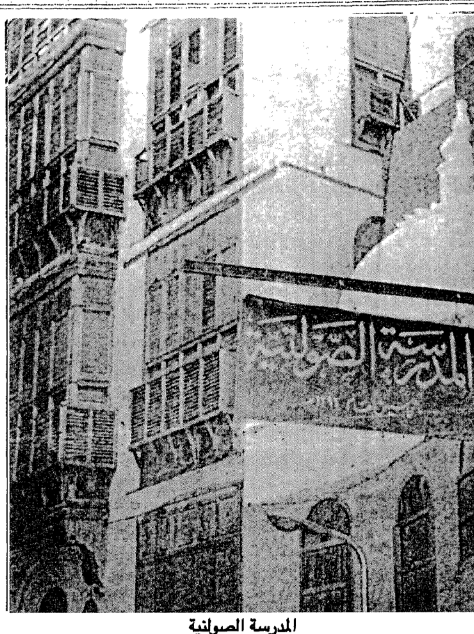
(٢٦) المصدر السابق ٨٨.

(٢٧) هذه حياتي ٨٢، وما بين المعقوفين من إضافة الكاتب اقتضاه السياق.

(٢٨) انظر هذه حياتي ٨٦.

(٢٩) حمد الجاسر من مواليد ١٣٢٨هـ، أما حسن كتبي فقد ولد عام ١٣٢٩هـ. وقد تحدث حمد الجاسر عن أساتذته في المعهد وذكر حسن كتبي، ووصفه بأنه ممن تخرج «في مدارس تسير على أساليب التربية وطرقها الحديثة». وأن له «صلة حسنة بطلابه، فهو لا يكبر أوسطهم سنا».. (المجلة العربية)، ع ١٦٩، صفر ١٤١٢هـ، ص ٢٠).

(٣٠) انظر: ذكريات العهود الثلاثة ص ١٩٤.



المدرسة الصولتية

(٣١) ذكريات العهود الثلاثة ٧٣. وانظر حديثه عن تأسيس المدارس والمناهج الدراسية في الصفحات ١٦٢، ١٦٦، ١٧٠.

(٣٢) ذكريات العهود الثلاثة ١٩٣.

(٣٣) المصدر السابق ١٩٤.

(٣٤) المصدر السابق ١٩٤، ١٩٥.

(٣٥) المصدر السابق ١٦٩.

(٣٦) حمد الجاسر، «من سوانح الذكريات»، المجلة العربية، العددان ١٨٥، ١٩٨، ص٢٠، ٢٢.

(٣٧) الألمعي، رحلة الثلاثين عاماً ١٥٠.

(٣٨) المجلة العربية، العددان: ١٨٥، ١٩٨. وانظر الصفحة ٢٠٨ من هذا البحث.

(٣٩) ينظر: صالح العبيري، البداية كانت (قصص الاختراعات والاكتشافات). بريدة: فرع الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٨هـ، ص٦.

في الشعر :

الغزل المنهجي

في شعر يوسف أبو سعد

بقلم: أ.د/
عبد الرزاق حسين
الاحساء - جامعة الملك فيصل

وقبل أن تتحول هذه التساؤلات إلى اتهامات أعْبُرُ ميدان الإجابة قائلا: إنَّ عاشقاً مثل أبي سعد فى طبيعته النفسية، وتكوينته الثقافية، وبيئته المحافظة، سيكون عاشقاً منضبطاً، تمنعه حدود الدين، والتقاليد، والثقافة، والتكوين النفسي - كما أسلفنا - من تسلقها، والقفز عليها، ولننظر إلي شاب في ريعان شبابه، ماذا يقول في بداية شعره؟ فها هو ذا في بداية العمر والشعر، يقول في ديوانه بقايا الرذاذ الذي يفترض صدوره أولا، فكان حظه أن صدر متأخراً:

لسحر عينيك همس الحب يجذبه
وهل على الهجر من صبر ومن جلد[١]
هذي حشاشته ذابت خوالجها
وما لهُ غير ربِّ الكون من سند

ويقول أيضاً في مقتبل شبابه[٢]:

يقول العاذلون كفاك وجداً
وهل أنا عن جواي بمستطيع؟
شغاف القلب يضطرم اضطراماً
ونار الوجد جاشت في الضلوع

ثم يقول:

نصيبي في الهوى حرمان نفسي
وقهري النفس أهون من خضوعي
وما من شيمتي هتك لعرض
وما أنا بالسفاهة بالولوع
ولكني فتى أحيا كريماً
شريفاً لست بالرجل الوضيع

ولننظر معاً إلى النظرة الأولى، هذه النظرة التائهة الضبابية، التي لا يستطيع الشاب المحب في هذا اللقاء أن ينظم فكره، وضربات قلبه وحركات وجهه ويديه، إن ارتعاشات الفكر واضطرابات الجسد هي التي تعلن عن نفسها، فماذا نسمع من هذا العاشق؟

فيك يا أخت الغزال
صورة تثري الخيال[٣]

وبعد أن يخصها بكل صور الجمال المألوفة حتى غدت أسطورة الحسن والفن، يقول لها:

أنا لا أبغي انغماسي
في مجون وضلال
إنما أبغي ارتشافي
من ينابيع الحلال
نفحة الطهر اجعلي ما
أبتغي سهل المنال

أفترون معي هذه المنهجية؟ إنها تسيطر عليه، وتتلبسه في كل حال، حتى لو كان الحال مثل هذا الحال الذي لا يدعو إلى هذا الأمر، ففتاة تميس في حلل الجمال، كل عضو وكل حركة فيها ينطق بالجمال والدلال والكمال، وفيها من الحياء الموفور ما فيها، ثم يقال لها

لعل هذا العنوان يثير فضولا لدى دارسي الشعر، ومتتبعي غرض الغزل بالذات، وسيتساءلون، هل هناك لون جديد من الوان الغزل، لم نظفر به، أو نطلع عليه؟ بعدما خضنا عباب الغزل، بدءاً بالتقليدي، ومروراً بماجنه، واستقراراً عند عذريِّه، أو مثاليِّه، أو أفلاطونيِّه؟ وما هذا الغزل الذي يضطلع بمنهج أو يسير عليه؟.

هذا القول:

وما قصائده الأخرى، مثل: «إليها بعد الفراق» و«انتهينا» و«تصبَّر فؤادي» التي ينهيها بهذه النهاية المنهجية قائلا[٤]:

تصـبَّر فـمـا لك من حـيلة
لتطفي السـعـار بعـذب القُبَلْ
ومـالـك إلا الإلـه الكـريم
يجـيبُ الدعـاء فـتـخـبـو الشُعَلْ

إلا نموذجاً على الطريقة التي سار بها أبو سعد في دواوينه الأخرى في ميدان الغزل، فهو الحب الذي تدنيه الرياحين، ويقصيه العفاف والإخلاص والمعتقد. وقلب أبي سعد - على الرغم من هذه المنهجية - يمور بالحب، ويعبق بشذاه، ونحن إذا ما عبرنا دواوينه، وجدنا نبض الحب يسري في كيانها، فقصائد الحب تكاد تتفوق على غيرها من الموضوعات عدداً واهتماماً. ونكاد نلمح ثلاثة خطوط رئيسة في غزله، تظهر متتابعة في دواوينه.

ويبدو الخط الأول: الذي ينبع من القلب الشاب المتوهِّج، الذي يرى درب الحب والجمال ممهداً، فيحاول الانطلاق، لكن العوائق تدمي قدميه، فيجلس في ظل نخلة، متأوهاً حزيناً، يزفر آلامه:

أيا غـابتي رأفـة بالحـبـيب
فـقـد هدَّ ركنيـه فـرط السـهـر[٥]

وجلجل فـيـه أوار الزفـيـر
وزاد الأنين لصـرف القـدر
ألا ترحـمـين، ألا ترحـمـين
فـتى في الهـوى عـاش كالمحتضر

وعندما يراها عائدة، يقفز الشاعر من بين سطور شعره مزقزقاً، غرداً بهذا «الحب العائد» الذي يمثل حقيقة الفرح العارم، إني أعدّ هذه القصيدة مهرجان الحب، وموسم الفرح، فيها العطاء بعد المنع، والخصب بعد الجفاف، والوصال بعد الهجر:

عاد حبي يتهادى مثل أحلام الأصيل
ينسج البهجة ثوباً من أسارير الأصيل
عاد حبي يسكب النور على سفح السهول
كي ترفَّ البسمة السكرى على ثغر الطلول

وبهذه العودة تزغرد أغنياته، وأمنياته، فيسكب على قيثاره أحلى النغمات لكنَّ الموانع تبقى أقوى منه، والعقبات من أمامه ومن خلفه تسدّ الطريق، فتصدُّ عنه الحبيبة لهذه الأسباب، التي من أجلها خبت شموعه، ويهده الحزن والوجد، فيكفن أحلام شبابه، ويئدها طيَّ التراب.

ومن هذا المنطلق تحوَّل أبو سعد من عاشق يحقق أمانيه، إلى العاشق المتمني، وتلحظ هذه الخاصية في أغلب شعره الغزلي، فهو دائم التمني والطلب إليها: لتغفر، وتسمح، وترحم، وتعطي، وتقبل كما يقول[٧].

رقّي وعـودي لمن يهـواك وادكـري

خضـر الروابي وأوفي بالمواعـيـد

لا تتـركي الدمع في العـينين مـرتطمـاً

وتجـعلي العـيش مـحـفـوفـاً بتنكيد

وضـمـدي الجـرح ياليـلاي راحـمـة

صبًا يقاسي الضنى من فرط تسهيد

وهذه الظاهرة تتضح في دواوينه: «زفير الناي، وأغاريد من واحة النخيل وشواطىء الحرمان» فالأمر والنهي لازمتان من لوازم عشقه، فهو يطلب منها أن تهدهده، وتمنحه وتلثمه، وتنظره، وتنثر الزهر في دربه وينهاها عن أن تشيح بوجهها وتصدّ عنه، كثيرة هي طلبات أبي سعد من هذه الحبيبة التى تعاني مما يعاني، ومع ذلك يحملها وحدها عبء الوقوف في وجه السدود والعوائق، ويكتفي هو بالانتظار على جمر الغضا، يعاني آلام البعد والسهد والجراح.

أما الخط الثاني: الذي يظهر في غزله: فهو الغزل بالحليلة، الذي يظهر من خلال أسلوب وألفاظ تعرب عن غزل آخر، وتعبِّر عنه، ففي هذا اللون لا نرى فيه القدود والمباسم، والمفاتن، ولا نشعر بالغنج والدلال، والسحر والإغراء، ولنقرأ قوله من قصيدة «عتاب»[٨]

أقبل تجدْ نهر الغرام يفيض وارشف سلسبيله

أقبل تجد في روضنا نعم الوفيـة والحليلة

رفرف بقلبك ولنعد طيرين في حضن الخميلة

ها نحن أولاء نرى تغيُّر النغمة، فهو الذي يهجر ويصد ويبتعد، وهي التي تدعوه وتطلب منه، ويبدو أنه لج في العناد، لكنه يستيقظ من صدمة الفراق، فيحس الظلام يشتد من حوله، وهنا يشعل قلبه قنديلا ليبحث عن الحليلة، عن الإلف الذى غادر عشه، فبعد أن يصف لنا هذا البيت الذي يشمخ بالحب، ويموج بالتعاطف، وتزهر في فنائه المودة، يقول[٩].

أنت التي بالزهر نمنمـتـه

وشـيـاً وأضـفـيت عليـه الدعـه

ومن أريج الدفء أهـديتـه

كـأسـاً بأحلام الهوى مـتـرعـة

* ثم يجتاحه الهجر، ويرين عليه البعد، ويعكر صفوه الخصام:

واليـوم طيف الهـجـر يجـتـاحـه

يغـمـدُ في أحـشـائه مـبـضـعـه

قـد أمـحل الخـصب وسـاد الظلمـا

وعكرت أوضـارُه منبـعـهْ

* وهنا يعود الشاعر ليصحب إلفه إلى عشه، قائلا:

يا غـادتي عـودي لأحـضـانه

وجـددي ريعـانه أجـمـعـهْ

ولملمي مـا بعـثـرته النوى

لتـرقـئي عن طرفـه مـدمـعـهْ

وعـطـري بالحـب أركـانـه

كـفـاه مـا قـاسى ومـا أفـزعـهْ

وانظر قصيدته «لا تصدى»[١٠] فهى تسير في هذا الاطار، وعندما تشتد عليه، ولا تستجيب، يصرخ بكل حرارة شوقه (تعاليْ)[١١] عندها يرق قلبها وتحن، وتعود العصفورة إلى عشها، ولعل قصيدته في بحر عينيك تظهر هذا الاتجاه الغزلي، فليس هناك عاشق يقول إلا لزوجته هذا القول[١٢].

فـإذا مـا هبَّتْ بدربي ريحٌ

صـرصـرٌ أو تلوَّت زفـراتي

وشـراعي كـادت تمزقـه الريحُ

وحـارت لدى الردى عـزمـاتي

واســـتـــغــــاثت في لجـــة الموج روحي
وتعـــالت إلى الســـهى صـــرخــــاتي
هـيــــــا الله مـنـك لـي يدٌ عــــــون
أنقـــــذتني من مــــخلب الأزمـــــات

أما الخط الثالث: فهو عشق الجمال، والمعاني السـامـيـة والفضـائل، وهو عشـق يتـبـدَّى في دواوينه الأخيرة، كقوله[١٣]:

يا ضـــفــاف الجـــمـال رفــقــاً بقلبي
كـــاد قلبي من شـــوقـــه يتـــمـــزق
عـــانقـــيني على الهـــداية إلفـــاً
هوَّم العـــشقُ في حـــشــاهُ وزقـــزقْ

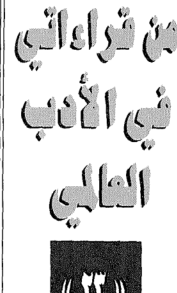
وهذا الخط يحاول الشاعر التأكيد عليه نثراً وشعراً، فهو يقول:[١٤] «وليس كل ما تطرق إليه شعري من ذكر المرأة غزلا، بل إن معظمه جاءت فيه المرأة كرمز لشيء جميل أثر في نفسي، افتقدته أو حرمت منه، وبالأخص ما أطمح لتحقيقه من مجد وسؤدد ورفعة» وهو ينظم هذا القول شعراً، فيقول:[١٥]

ليس بالخـــردِ الحـــســــان هيــــامي
بل هيـــامي بشـــامـــخـــات المعـــالي
فـقـصـيـدي عن مـوطـن اللهـو يسـمـو
وفــــؤادي عن كلِّ عـــــذراء ســــــال
لا تـخـلـنـي أهيمُ حـــــبــــاً بليلى
أو بـدعــــــدٍ وســــــــوسنٍ ونـوال
إنمـا ذكـــرهنَّ في الشـــعـــر رمـــزٌ
لـسـنـاء يـلـوح صـــــــعـب المنـال

فهل هذا القول يمثل حقيقة الغزل، عند الشاعر؟ وإذا كان ذلك كذلك، فكيف نتقبل قوله في قصائده المتتالية: في زفير الناي، وشواطئ الحرمان، هذا الحب الصريح الذي لا يستطيع المواربة، فقد حوَّله هذا الحب من سيِّد أبيٍّ يتسامى بالمجد والعز، إلى عبد خاضع يطلب الرحمة والعطف، إن حبَّ المعاني السامية لا ينزل بالإنسان إلى هذا الدرك.

لعلَّ أبا سعد لم يستطع أن يبوح لنا بحقيقة حبه، فحاول أن يتوارى خجلا من مشيبه، وشباب أبنائه، ونظرة مجتمعه، لأن هذا القول ما كان ليقال في فترة اصطخاب الشباب وموران القلب، وانظر اعترافه من وحي النظرة الأولى في مهاة الحي من بقايا الرذاذ ص ١٢٨ وص ١٤١، وانظر زفير الناي في معظم قصائده الغزلية، وانظر تقاسيم على غور الشجن ٨٣، ٨٤ وقطرات ص ٩٧ وشواطىء الحرمان ٦٠، إن لقاءات أبى سعد، واعترافاته في شعره، تأبى مقولته من أن الغزل في معظمه لم يكن يتوجه إلى الأنثى المحبوبة، وإلا قلنا قولة ابن أبي عتيق لعمر بن أبي ربيعة: «بيتك هذا يحتاج إلى حاضنة»، ونحن نقول لأبي سعد: شعرك الغزلي ـ طبقاً لمقولتك ـ يحتاج إلى حاضنة.

الهوامش:
(١) بقايا الرذاذ ١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) نفسه ١٢٣.
(٣) بقايا الرذاذ ١٢٨.
(٤) بقايا الرذاذ ١٤٠ وانظر غزله المنهجي في شواطئ ١٩، ٣١، ٣٥، ٤١ وزفير الناي.
(٥) زفير الناي ٥٨.
(٦) أغاريد من واحة النخيل ١١٦.
(٧) زفير الناي ٦٢.
(٨) شواطئ الحرمان ٥٣.
(٩) شواطىء الحرمان ٤٣ ـ ٤٥.
(١٠) تقاسيم على غور الشجن ٢٩.
(١١) نفسه ٤١ ـ ٤٢.
(١٢) نفسه ٣٨.
(١٣) نفسه ٨٤.
(١٤) بقايا الرذاذ ١٠٩ ـ ١١٠.
(١٥) تقاسيم على غور الشجن ١١.

بقلم:
محمد بن احمد
العقيلي
- جازان -

فكرة التاريخ لروبين جورج كولنجوود

نعرف من ترجمة حياته أنه قد تسنى له أن يقرأ في صباه عدة كتب في العلوم الطبيعية وخاصة الجيولوجيا والفلك والطبيعة وأن يتعلم الفرنسية والإيطالية علاوة على اللغة الأم الإنجليزية وأن يقرأ وحده دون توجيه من أساتذته في تاريخ ايطاليا في العصور الوسطى وتاريخ شعراء فرنسا وأن يفهم أشعار «دانتي» وغيره من الشعراء، وأن يعزف الكمان ويلم بأهم المؤلفات الموسيقية، ولم ينس في تلك الفترة المشاركة في النشاط الرياضي للمدرسة والبراعة فيه، كما قضى فترة دراسته الأولى بالخير والرضا.

لذلك عند التحاقه بجامعة اكسفورد شعر كأنه خرج من سجن طويل، فقد استطاع في فترة دراسته الجامعية أن يتحرر من القيود الدراسية وأن يقرأ ليلا ونهاراً وأن يتخلص من جميع الفروض الإجتماعية وواجباتها، لأن أصدقاءه كانوا قلائل فقد عين بعد انتهاء دراسته الجامعية مشرفاً في كلية «بنبروك».

وفي أثناء الحرب العظمى الأولى عُين بالمخابرات البحرية البريطانية وأبدى براعة في الإستنتاج، وكتب بحثاً قانونياً خاصاً بالملاحة، وتزوج بعد الحرب بآنسة تدعى «اتيل جراهام» واستأنف نشاطه الجامعي في الفلسفة والآثار واقتصر نشاطه على الدراسة والكتابة، ولم يقم إلا بالأعمال الإدارية الضرورية، وعُرف عنه الحرص على زيارة متحف «اشميلين» وكثرة الإهتمام بقراءة المخطوطات، وبسرعة فائقة. كما أنه كثير الإطلاع على المواد غير المرتبطة بمنهاج

الدراسة.

وفي سنة ١٩٣٤م خلا كرسي الفلسفة الميتافيزقية بجامعة أكسفورد، فشغله كولنجوود.

هذا موجز أو ملخص لسيرته، كما رواها في ترجمته الذاتية، وكما ذكرت عند تأبينه بعد وفاته في المجلة الأكاديمية البريطانية.

أما حياته العملية والعلمية فهي تدور حول فلسفة عُرفت باسمه حول إحداث تقارب بين الفلسفة والتاريخ، وقد لا يحق بأي حال القول أنه هو أول من نادى بهذا الرأي الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر الميلادي عندما بزغت النزعة التاريخية التي نبهت الأذهان إلى قيمة التاريخ والزمن اللذين تجاهلهما الفكر الإنساني من أيام اليونان. وكان لهذه النزعة أثرها الطيب على كل من الدراسات الإنسانية والطبيعية على حد سواء. كما أنها دفعت إلى ضرورة العناية بمنهج الأبحاث التاريخية باعتبار التاريخ علماً لا يقل من ناحية الحقيقة عن باقي العلوم، والباحث المدقق في فلسفة ابن خلدون يستطيع أن يصادف فقرات وجملا توضح أنه كان على علم بالقيمة الفلسفية للتاريخ وضرورة اعتماد المعرفة بأسرها على الفهم التاريخي.

ولكن «كولنجوود» من ناحيته يعتبر أول من وضع مذهباً من هذا النوع للفلسفة البريطانية التقليدية لعناية الفلاسفة بالتاريخ لأن التاريخ للمؤرخين، ثم اقتصرت على موضوعات محددة لا تتعدى المعرفة الحسابية والمسائل الأخلاقية والسياسية بعكس الفلسفة الأوروبية التي لم تعرف قبل هذه الحدود، ولعل اختلاف «كولنجوود» عن فلسفة مواطنيه هو السبب في عدم ترحيب البريطانيين بفلسفته وتسميته بالمثالي والمثالية إهانة بريطانية تعني الخضوع لفلسفات أجنبية مستوردة.

إن ميول «كولنجوود» للتاريخ قد بدأت منذ حداثته حين كان صبياً كما وضح ذلك في ترجمته الذاتية، لقد كان لأبيه - الذي يعمل في التنقيب عن الآثار بعد أن أدرك الأب أنه لن يبرع في التصوير - فضل تعريفه بدروس التاريخ القديم والحديث. كما أن «كولنجوود» قد استطاع أن يقرأ بمفرده في مكتبة أبيه التي كانت تحتوي على أكثر المراجع التي تدرس في جامعة «اكسفورد» عدة كتب تاريخية، وفي هذه المكتبة صادف كتاباً عن «ديكارت» يسمى (Pricipia) وفيه عرف أن للعلوم الطبيعية تاريخاً وأن الوعي بهذه العلوم يقتضي معرفتها تاريخياً، وقد اشترك هو بالتنقيب عن الآثار منذ الصغر أثناء عطلته الدراسية.

لقد ألف «كولنجوود» عدة كتب تعتبر من الكتب الرائدة في الميتافيزيقياء والدين والتاريخ والطبيعة بالإضافة إلى مؤلفاته في التاريخ والآثار وله محاضرات ومقالات متعددة وكلها تدل على البحث والاستقصاء ولا يرضى أو يقتنع بأي أفكار مستخلصة من أفكار الغير، بل يراجع ويعدل ولا يهمه إذا

ذكر النقاد أنه قد تناقض مع نفسه لأن الحقيقة أهم بكثير عنده من أقوال النقاد، فهو يمتاز في كتاباته ومؤلفاته بالدقة وحسن تنظيم المادة. كما يدل على صفاء ذهنه وقدرته على ضبط نفسه، لهذا يعده بعض المفكرين البريطانيين كاتباً كلاسيكياً لإختلافه عنهم وفقاً لمعيار كتابه الفلسفي الذي كتبه ١٩٣٢م لأن كتابه المشار إليه، والذي أسماه (Philosophical Method) والذي يعده البريطانيون كتاباً كلاسيكياً لإختلافه عن باقي كتبه التي ربما لا تخلوا من المقالات العاطفية والنقائض، ولكن في الحقيقة لا يعتبر هذا الكتاب أفضل مدخل لفلسفته.

كان «كولنجوود» ينوي إصدار كتاب سنة ١٩٣٦م يتضمن اثنى عشرة محاضرة تحت عنوان «فلسفة التاريخ» ويقع في جزئين الجزء الأول فيه عرض يبين كيف تقدمت فكرة التاريخ من أيام «هيرودويت»، أما الجزء الثاني ففيه تعقيب «ميتافيزيقى»[*] أو تأملات فلسفية عن طبيعة التاريخ وموضوعه ومنهجه، وقد انتهز «كولنجوود» فرصة استشفائه في جزيرة «جاوه» سنة ١٩٣٩م وأتم الجزء الثاني تحت عنوان «مبادىء التاريخ» وفي هذا الجزء قام «كولنجوود» بمناقشة الخصائص التاريخية للتاريخ وصلة التاريخ ومبادىء العلوم وخاصة العلوم الطبيعية والفلسفية وقيمته في الحياة العملية، وفي سنة ١٩٤٠م راجع المسودة التي كتبها سنة ١٩٣٦م وبصفة خاصة الجزء المتعلق باليونان والرومان، وأعاد تسميتها «فكرة التاريخ» ولكن سوء حالته الصحية وتوقعه الموت قد حال دون إتمام ذلك، ولذا اهتم بكتابة وصيته التي أسماها ترجمة ذاتية وضمنها ردوداً على ناقديه وتوضيحات هامة لجميع آرائه، وبصفة خاصة فلسفة التاريخ التي كان نصيبها ما يقرب من ثلثي الكتاب.

ولقد اعتمد «نوكس» على هذه المحاضرات وأضاف اليها مقالات سبق نشرها في مجلات فلسفية ومحاضرات آخرى وليس من شك أنه قد أصاب عندما اكتفى بكتاب واحد عند النشر بدلا من كتابين، وفقاً لأمنية «كولنجوود» الأولى فلا يمكن في الواقع الفصل بين ما كتبه «كولنجوود» عن تاريخ الكتابة التاريخية ومذهبه في التاريخ، فلم يكتب «كولنجوود» هذا التاريخ إلا ليمهد لنظريته، وفي كل سطر من سطوره يستطيع أن يلمح ملامح هذه النظرية، ويُعَدّ هذا العرض وافياً إلى حد بعيد ـ وإن كنا لا نستطيع أن نبرر على الإطلاق اغفال ذكر التاريخ وفلسفته عند العرب، وبصفة خاصة ابن خلدون الذي تهتم به عادة جميع المؤلفات الخاصة بفلسفة التاريخ.

أما التاريخ العلمي ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك، فقد بدأه اليونان أيام «هيردوت» ولذا فإن تسميته «بأبي التاريخ» حقيقة تماماً، ولقد كان منهجه التاريخي مماثلا لمنهج «سقراط» في الفلسفة، إذ يعتمد على مناقشة

الأدلة التاريخية وبدء البحث بتوجيه أسئلة الى المصادر، والبحث التاريخي عند اليونان كان يدور حول الإنسان، وغايته هي تعريف ما هو الإنسان؟ ومن ثم يبدو أن نقطة التحول الأولى في فلسفة التاريخ قد نمت على أيديهم، وتمتاز كتابتهم التاريخية باعتمادها على مدى زمني قصير، فالمؤرخون لا يذكرون إلا الأحداث المعاصرة لهم، أو التي تستطيع ذاكرتهم أن تعيها، ومعنى هذا أن المؤرخ كاتب سيرة عصره، ولم يسمح المنهج اليوناني بتجميع الكتابات التاريخية المتفرقة في تاريخ واحد، وتدور الأحداث التاريخية حول أفعال الإنسان وغايته ونجاحه واخفاقه، وأهم نقص في كتاباتاتهم هو جهل المؤرخين بسيكولجية الناس وأخلاقهم. ولذلك فإنهم ذهبوا إلى أنَّ الإنسان حيوان عاقل قادر على الفهم والإدراك وله دور هام في الحياة السياسية، يضاف إلى هذا النقص نقص آخر هو ايمانهم «بالجوهرية». أي ظنهم أن الشخصيات التاريخية ذات جوهر أبدي خارج التاريخ، وهذه النظرية معارضة تماما للنظرة التاريخية الصحيحة.

ثم مرت الكتابة في نقاط تحول ثانية عندما ظهرت المسيحية، وتعد نقطة التحول الثالثة رد فعل للنزعة الطبيعية التي ظهرت في آثار عصر النهضة التي كتب عنها «ديكارت» منهجه للفلسفة بأقسامها الثلاثة الطبيعية، والرياضية، والميتافيزيقية، ورأى أن التاريخ لا يستطيع ادعاء الحقيقة بالرغم من قيمته التعليمية الترفيهية وفوائده العلمية، وقد سار على هذه النظرية «فيكو» في ايطاليا الذي هاجم معيار الحقيقة «الديكارتي» القائم على الفكر الواضح المتميز كما بين أن المؤرخ يستطيع إعادة بناء هذه الموضوعات في عقله بالإضافة الى قدرته على بيان كيف ظهرت إلى الوجود في الماضي.

ومن ناحية أخرى عارضت التجريبية الإنجليزية الممثلة في «لوك» و«هيوم» هذه النظرية ووجهت الفكرة تجاه التاريخ دون وعي بمشكلة التفكير التاريخي عندما أنكرت الأفكار الفطرية التي نادى بها «ديكارت».

ويُعَدّ «هيوم» أكثر هؤلاء البريطانيين التجريبيين معرفة بالوسائل التاريخية التي مارسها ممارسة فعلية واعترف بأن المعرفة التاريخية موجودة وربما أكثر من باقي العلوم انجازاً.

هذه النقاط الثلاث التي سبقت المرحلة التي أسماها «كولنجوود» بمرحلة «التاريخ العلمي».

هذا رأيهم قديماً وحديثاً في موضوع كتابة التاريخ من العهد اليوناني إلى عهد «كولنجوود» صاحب النظرية في التاريخ. ونحن نورد هنا نظريات لأقوام من البشر يصيبون ويخطئون بقصد الاطلاع على آراء الآخرين.

(*) الميتافيزيقيا: فرع من علم الفلسفة سماه ارسطو (الفلسفة الأولى).

مساحة للضوء: الروائي موريست ويست بين الزمني والروحي

حياة أدبية حافلة بالنجاح:

لقد حقق الكاتب والروائي «موريس ويست» البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً حياة أدبية اتسمت بالشهرة والنجاح، وذكرت الصحافة أنه بيع لهذا الروائي ستين مليون نسخة من رواياته وكتبه في كافة أنحاء العالم.

وإننا إذ نعمد إلى التعريف بهذا الروائي - المعروف في أوربا وأمريكا ولقلة من المختصين عندنا - ننطلق من أهمية كتاباته، وكذلك نقوم بإبراز أسماء جديرة وهامة.

إن فوز «سونيكا» من «نيجيريا» بجائزة نوبل للآداب، وبعده «نجيب محفوظ» من (مصر) و«أوكتافيوباث» من (المكسيك) والكاتبة السوداء «توني موريسون»؛ إن فوز هؤلاء بأرفع جائزة أدبية في العالم، يؤكد أن ثقافة الأطراف لا تقل شأناً عن ثقافة أهم المراكز الثقافية في العالم.

وبمناسبة صدور رواية «موريس وست» الأخيرة «العشاق» (LES AMANTS) في ٢٦٠ صفحة، عن دار «البان ميشيل» في فرنسا كتب «جان - كلود لوكوفيك» المقالة التالية في مجلة «لوفيغارو ماغزين»



موريس ويست

بقلم: **جان - كلود لوكوفيك**
ترجمة: **محمود زعرور** - سوريا -

في مدرسة «الرهبان النصاري» كانوا يسمونه الراهب «فابر»، كان هذا قبل سنوات من الحرب العالمية الثانية، وفيما بعد عانى كثيراً ليتخلص من آثار الطالب الإكليركي الذي كانه ، لأنه، وبعد الحرب العالمية الكبرى (وكان خلال ذلك يؤدي الخدمة العسكرية في الجيش الاسترالي) لم يوقع قصة سيرته الذاتية التي تصور

صراعه النفسي إلا باسم خجول: جوليان موريس. وحتى الآن، يعطينا «موريس ويست» الانطباع بأنه متأثر جداً بالثقافة الدينية، التي تلقاها في مطلع شبابه. وعندما قابلته منذ ثلاث سنوات كنتُ قد طرحتُ عليه واحداً من الأسئلة العمومية:

- هل من كتاب تفضله أكثر من غيره؟

وأجابني وقتها:

- الكتاب المقدس.

وهذا لم يمنعه من أن ينشد بفرنسية مرهفة قصيدة عابثة للشاعر «فرلين».

لدى بلوغه الثامنة والسبعين قدر «موريس ويست» أنه وصل إلى آخر مطاف في حياته الأدبية، فقرر أن يقدم لجمهور القراء تحية من نوع خاص، فأقدم على نشر روايته الأخيرة: العشاق.

نرى في الرواية شاباً استرالياً من أصل أيرلندي (على الأرجح، هذا مشروع إسقاط ساخر على نفسه وشخصيته)، في مواجهة رجل أمريكي من أصل أيرلندي، في سن الكهولة، فاسد، داهية ومتآمر. كانا في عرض البحر، على يخت، في عام ١٩٥٠، كان الأول قائداً لليخت، والثاني هو المالك.

كان هناك مدعوان بارزان: مستشار الفاتيكان للشؤون المالية الذي يتكلم مثل رجل سياسي صلف، وأميرة إيطالية تقوم بلعب دور بالغ الأهمية لتقديم أوجه السياسة الأمريكية بالمقارنة مع تأثيرات الفاتيكان.

كيف تتم المزاوجة بين البعد الروحي وبين البعد الزمني بهذه الغابات الغامضة؟

إن «موريست ويست» يحب معالجة هذا النوع من الصراع فموضوعه المفضل هو سوء استخدام السلطة، وبالاحرى، تجاوز حدود السلطة.

إنه يمزج بينهما بطريقة زخرفية، وبكثير من التفاصيل الحكائية التي يعالجها بروية كبيرة؛ المغامرات في السفينة.. وإطلاق رشقات المدفعية لحظة الرسو في الميناء.

لقد تنازع الكاتب «موريس وست»، مثل «هنري الثامن» مع الكنيسة البابوية المتطرفة بسبب امرأة، عندما رغب بالطلاق من زوجته الأولي، وهذا ما سبب له عقوبة الحرْم Excommunication:

- «بمقدوركم أنتم إنزال عقوبة الحرْم بحقي، لكنني أطمئنكم بشكل أكيد بأنني سأواظب على حضور قداس الآحاد».

- هكذا أجابهم ويست -.

ويبدو الكاتب «موريس ويست» قوياً بسبب من طبعات كتبه الضخمة - ستين مليون نسخة مباعة في العالم - ويعيش هانئاً في منزله الفخم على ساحل خليج سيدني، ويتطلع إلى ماضيه برضى وهدوء.

إن النقد حائر في أمر «موريس ويست»، فهل يمضي الروائي الكبير نحو الوعظ الأخلاقي؟

الإجابة ستكون في مذكراته التي ستظهر قريباً.

عن مجلة (لوفيغارو ماغازين).

مساحة للضوء:

(أساطير وحكايات شرقية)

مترجمة عن الروسية

ابن المدين

ذات مرة استقرض جحا من أحد جيرانه مبلغا من المال، وماطل في استيفاء دين جاره الذى كان يأتيه كل يوم مطالبا بحقه قائلا:

ـ أعد إلي نقودي ياجحا ..

وفي كل مرة كان جحا يقول للدائن:

ـ تعال اليّ غدا لأسدد لك دينك.

وذات يوم حين جاء اليه الدائن كالعادة كان غائبا عن منزله فوجد الدائن ابن جحا فسأله:

ـ أين أبوك؟

ـ ذهب الى المدينة.

ـ أمهلنا قليلا حتى نشتري بذاراً ثم نزرعه في حقلنا هذا أمام الدار ونسيج الحقل بالأسلاك الشائكة، فستمر به قطعان الأغنام وتحاول أن تتسلل اليه لترعى الزرع، ولكن الأسلاك ستردها فتتعلق بها صوفها، ثم سنجمع الصوف المعلق بالأسلاك الشائكة، ونخبئه ثم سنغزله، ونبيعه خيوطا صوفية في «البازار»، وإذ ذاك سنرد لك نقودك.

افتر ثغر الدائن باسما لمّا سمع كلام ابن جحا الذى بادر اليه قائلا بزهو:

ـ ها انني أرى امارات السرور مرتسمة على محياك، فهذا يعني أنك أيقنت بأننا سنعطيك حقك قريبا حتما؟.

نباهة شاب

يروى أن شابا قرويا كان قد خرج متوجها الى المدينة للبحث عن عمل وبينما هو في الطريق صادف تاجرا فطلب منه أن يشغله لديه، لكن التاجر أحب أن يختبر فطنته أولا فلما بلغا المدينة أعطى التاجرُ الشابَّ عشرة قروش وقال له:

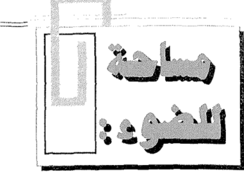
ـ هيا، امض الى السوق واشتر لنا بهذا طعاما نأكله ونطعم منه حصاني ويكون له فائدة في العام القادم.

انطلق الشاب الى السوق فرأى كومة بطيخ أخضر، فاشترى بطيخة بعشرة قروش وعاد بها الى التاجر وقال له:

ـ اشتريت بطيخة بامكاننا أن نأكلها، ونطعم حصانك قشورها، ونبقي البذور لتفيد في العام المقبل.

وهكذا نال الشاب الذكي اعجاب التاجر الذى شغله معه واتخذه صاحبا له.

اعداد: **د. جليلي جليل**
ترجمة: **د. احمد حبش أحمد**
ـ سوريا ـ



من الشعر الانجليزيي المعاصر

مالك الحزين

يقف على غصن مائل وحيدا
صوته أشبه بالعواء
تردد الأجواء صداه
يتساقط لحاء الشجرة حزنا
ولا أليف ...

* * *

تمرق أجنحة بيض في الأفق البعيد
كالسكاكين تقطع المدى
تخترق قوس قزح
ولا تقترب من مالك الحزين

* * *

إلى أى الاتجاهات يصوب عينيه
المطر الأسود في جميع النواحي
والأرض المتشققة تترع بالدموع
زجاج هو الوقت
والبوصلة الشمس محجوبة بالغمام

* * *

هل هذا وقت التأمل؟
الرياح لم تسبق المطر
بل أعقبت الدمدمة
والغصن المائل
يتأرجح بعنف

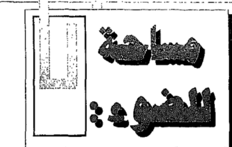
* * *

لطمات الحزن تتدافع
المنقار يخط في الريش الأبيض
بمداد المطر
انتفاضة الألم

* * *

لا يلتفت أحد
البلشون يكف عن الحركة
وتتناثر أوراق الشتاء

شعر: **سين هينز**
ترجمة: **محمد عبد القادر الفقي**
- الظهران -



من غرائب المشاهير

اعداد: **عبد الله ناصر الحديب** ـ الخرج ـ

تستقطب الغرائب القارىء والمستمع على حد سواء ·· وإذا كانت هذه الغرائب سوف تكشف جانباً هاماً من حياة المشاهير فإنها تكون أثيرة لدى القارىء ·· ومن غرائب المشاهير:

■ **تولستوي:** الكاتب القصصي الروسي الذي حاول اصلاح المجتمع بالعدل والمحبة، ومن أشهر رواياته «انا كارنينا» و«الحرب والسلام»·· فشل في دراسته وكان في مطلع حياته ينفق أمواله على الترف والبذخ اما في الشطر الاخير منها فكان يرتدي ثياب الفلاحين ويصنع احذيته بيديه ويكنس غرفته بنفسه ويأكل في طبق من الخشب·



تولستوي

■ **فولتير:** الفيلسوف والأديب لم يكن يستطع الكتابة إلا اذا وضع امامه مجموعة من أقلام الرصاص وبعد أن ينتهي من الكتابة يحطمها ويلفها في الورقة التي كتب فيها ثم يضعها تحت وسادته وينام·



فولتير

■ **فرنسيس بيكون:** السياسي والاديب، اتهم اكثر من مرة بالرشوة، وخان اقرب اصدقائه نظير مبلغ من المال وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمي·· تميزت شخصيته بالتناقض العجيب فبعد ان وضع مؤلفه العظيم «تقدم العلم» رأس غرفة التعذيب الخاصة بالبلاط الملكي·



شوبنهاور



بلزاك

■ **بلزاك:** الكاتب والقصصي الفرنسي الذي درس أحوال عصره دراسة دقيقة، من العادات الغريبة التي عرفت عنه أنه كان يسير في أحد الشوارع ويسجل ارقام المنازل في ورقة ثم يجمع هذه الارقام فاذا كان المجموع مضاعفاً للرقم ثلاثة، شعر بسعادة غامرة لأنه كان يتفاءل بهذا الرقم، اما اذا لم يكن المجموع كذلك فإنه يُغيِّر اتجاهه إلى شارع آخر·

ـ هنري الثامن: كان الملك هنري الثامن البريطاني الذي عاش بين سنة (١١٣٣ و١١٨٩)

عصبياً إلى درجة أنه كان دائماً يتناول وجبات طعامه وهو واقف.

▪ **شيلي:** كرّس كل حياته للشعر الذي استحوذ على كل تفكيره واهتمامه.. كانت حياته عبارة عن فترات متعاقبة من النوم والقراءة كما عرف عنه عدم اهتمامه بتناول الطعام حتى انه كان ينسى ان يتناول شيئاً منه لعدة أيام متوالية.

▪ **شوبنهاور:** الفيلسوف الألماني وصاحب مذهب التشاؤم وتعليله وجود التناقض بين العقل والارادة: كان يعتقد أن الرجل العظيم هو الذي يفضل الموت على البقاء، ورغم ذلك كان شديد الحرص على حياته، فقد فرّ من وباء الكوليرا الذي انتشر في برلين ومن وباء الجدري الذي انتشر في نابولي، وقضى آخر سنوات حياته في خوف مستمر من القتل، كما عرف عنه أنه كان يتحدث إلى نفسه في الطريق بصوت مرتفع.

▪ **نيتشه:** الفليسوف الالماني وصاحب مبدأ.. البقاء للأصلح.. وأحد مؤسسي النزعة القومية الجرمانية، كان منطوياً على نفسه منعزلا عن الناس والمجتمع.. وظل على هذه الحال حتى انتهت حياته بالجنون.

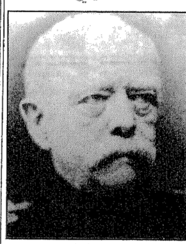
▪ **باستير:** العالم الفرنسي الذي كرّس حياته لدراسة الامراض المنتشرة واكتشف علاج داء الكلب كان مصاباً بداء النسيان وشرود الذهن.. يُرْوى عنه انه في يوم زواجه اجتمع المدعوون وظلوا في انتظاره، ولكنه لم يحضر فأسرع اليه احد اصدقائه يبحث عنه فوجده في معمله يجري احد التجارب.

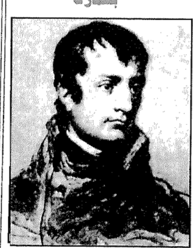
▪ **اديسون:** الفيزيائي الامريكي الذي اخترع المصباح الكهربائي والة التصوير السينمائية والفوتوغرافية، وحفظ عن ظهر قلب كل الحقائق العلمية التي تزخر بها المجلدات الضخمة في مكتبته وهو في المرحلة الابتدائية من دراسته، كان مصاباً بضعف الذاكرة وشرود الذهن. لذا كان يأتي في مؤخرة زملائه وكان كثيراً ما ينسى تناول طعامه ظناً منه انه تناوله.. ويروى عنه أنه ذهب ذات يوم لتأدية ما عليه من ضرائب ووقف في الصف في انتظار دوره فلما جاء دوره لم يتذكر اسمه ولاحظ أحد الواقفين بجواره ارتباكه فذكره بأن اسمه توماس اديسون.

▪ **بسمارك:** السياسي الالماني الشهير وأحد الذين جاهدوا لتحقيق الوحدة الالمانية كان قلقاً دائماً مستبداً برأيه متعالياً على الناس لا يحترمهم ولا يحترم افكارهم.

▪ **نابليون:** امبراطور فرنسا وصاحب الانتصارات المتعددة وصاحب عبقرية عسكرية فذه، كان خطه في الكتابة رديئاً جداً، حتى ان البعض ظن ان رسائله رموز او خرائط حربية. وقال عنه المقربون اليه انه كان غريب الاطوار طيب القلب حتى ان أي انسان يستطيع ان يخدعه.


شيلي


بسمارك


نابليون

تغريب العقل العربي:

د/ طه حسين والفكر اليوناني

ارسطو طاليس في نظر طه حسين

بقلم: د. عباس أرحيلة

كلية الآداب ـ مراكش

أولا:

لطفي السيد وطه حسين:

انجذب د. طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) في بداية حياته الفكرية الى شخصية احمد لطفي السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣)، واعتبره استاذا له واستاذا لجيله كله. وقال في حديث الأربعاء: «وانت تعلم ان الأستاذ لطفي السيد استاذ لي كما انه استاذ للشباب الناهض المفكر كلّه»[١].

ولطفي السيد تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٤، والنفس المصرية يطحنها فشل الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر، فانضم الى ندوة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٨). وكان لطفي السيد على رأس صفوة المثقفين المصريين بل هو «خلاصة الجيل الماضي بأسره، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغاني وعصره، على حد قول أحمد حسن الزيات[٢]، كان يستلهم في تفكيره منطلقات الثورة الفرنسية ويستنير بآراء الفكر الليبرالي الأوربي في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، وتميز فكره بالتفتح على الحضارة الغربية، وآراء لطفي السيد تُشكل القاعدة الأساسية لحزب الأمة، ومن خلال لطفي السيد تسرب الإتجاه الليبرالي الى كثير من المثقفين المصريين، فكان تمجيد العقلانية والحرية والرغبة في التحرر من الاستبداد

من الأفكار المقررة لدى أغلبية المستشرقين أن الثقافة العربية في القديم، كانت واقعة تحت هيمنة الثقافة اليونانية، ومن هذا المنطلق حاولت الدراسات الاستشراقية أن تفتت ظواهر الفكر العربي الى جزئيات بكل وسائلها العلمية، وأن تردّها الى الأصول اليونانية خاصة، وحضارة الآخرين عامة. تمثل جيل من الليبراليين المصريين روح الاستشراق، ورأوا أن النهضة العربية الحديثة لا تتحقق إلا باتباع حضارة الأوربيين. وما الأوربيون إلا حفدة اليونان! وما الحضارة الغربية الحديثة إلا من ثمرات اولئك الفارقة اليونانيين! وإن الحضارة الغربية اليوم لا تقنع بأن نعترف بتبعيتنا لها، وبتأثيرها فينا، بل تريد ان نعترف لها ايضا بالتبعية لأرومتها الأولى (اليونان) في الماضي. كذا أثيرت مسألة التأثير اليوناني في الثقافة العربية في القديم، لتبرير التبعية للثقافة الغربية في العصر الحديث.

وارتبط مشروع طه حسين بالثقافة الغربية عامة وبالفكر اليوناني خاصة، وقد أبدى اهتماما خاصا بالتراث اليوناني عامة وبالتأثير الأرسطي في الفكر العربي على وجه الخصوص.

...ن هو المعلم الأول «للإنسانية الخالدة»

والتخلف والدعوة الى إقامة انظمة ديمقراطية، والتمرد على القيم السائدة، والاحتكاك المباشر بالغرب. لقد وجد لطفي السيد «أن الحل الأساسي لمشكلة مصر هو الأخذ بجوهر الحضارة الغربية وما فيها من علوم وصناعة وألوان مختلفة من الحضارة المادية، ولا بأس أن يكون هذا كله سابقا للاستقلال نفسه[٣].

ولما كانت الثقافة اليونانية أصلا للحضارة الغربية الحديثة، انصرفت جهود لطفي السيد واهتماماته الى مسألتين:

أ ـ تحرير الشخصية المصرية من التقليد والتزمت.

ب ـ التعريف بفلسفة أرسطو.

وقد أبدى لطفي السيد أعجابا خاصا بفلسفة أرسطو، مؤكدا أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر غير فلسفة أرسطو. وبيّن السبب الذي من أجله ينبغي ـ في نظره ـ الرجوع الى أرسطو، فقال «وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت الى درس فلسفة أرسطو من نصوصها الأصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذي أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة، فلا جرم ان نتخذ نحن من فلسفة أرسطو.. رجاء أن ينتج في النهضة الشرقية مثل ما أنتج في النهضة الغربية»[٤].

ولعل استاذ الجيل كان يبحث عن عقلنة المجتمع المصري، من خلال صاحب المنطق الذي يشكل خلفية جوهرية في الثقافة الغربية، وهكذا ترجم لطفي السيد خمسة من كتب أرسطو الى العربية، وهي: كتاب السياسة وكتاب الكون والفساد، وكتاب

الطبيعة، وكتابان في الأخلاق، أشهرهما: الأخلاق الى نيقوماخوس، الذي ترجمه عن الفرنسية، وظهر سنة ١٩٢٤، وقد اعتبر د. طه حسين ترجمة هذا الكتاب الترجمة الحدث «في النهضة العربية واعتبره شيئا استثنائيا عظيم الخطر يقول: «لست من الغلو بحيث أقرن الاستاذ لطفي السيد الى أرسطوطاليس. فأرسطوطاليس هو المعلم الأول للانسانية الخالدة، ولطفي السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذي نحن فيه»[٥].

وهكذا انفجرت الهيلينية في الفكر العربي الحديث، وظهر دعاة الإغريقية، وبدأت الأساطير اليونانية تتسرب الى ادبيات العرب في العصر الحديث.

وهكذا تعلق د. طه حسين باستاذ الجيل باعتباره رسولا للحضارة الغربية في مصر، وناقلا لأرسطو احد مصادر الفكر اليوناني.

ثانيا:
اهتمام د. طه حسين بالفكر اليوناني:

دخل د. طه حسين الجامعة المصرية منذ إنشائها سنة ١٩٠٨، ونهل المعارف من افكار المستشرقين فاعجب غاية الإعجاب بأفكارهم حتى قال: «وكيف تتصور استاذا للادب العربي لا يُلمّ ولا يُنتظر أن يُلمّ، بما انتهى اليه الفرنجة من النتائج العلمية المختلفة، حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟! وإنما يُلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس ولابد من التماسه عندهم»[٦].

وتعود علاقة طه حسين بالفكر اليوناني والروماني الى دراساته بالسربون حيث كان يحضر تاريخ اليونان على جلوتز وتاريخ الأدب الإغريقي على كروازيت واعجابا منه بالثقافة اليونانية قرر منذ عودته من باريس والتحاقه بالجامعة سنة ١٩١٩ أن يقرب أصول الحضارة الغربية من الثقافة العربية، فبدأ يدرس التاريخ اليوناني القديم الى جانب تاريخ الرومان، وتعرض في محاضراته للجذور الحضارية لليونان وما كان لها من أثر في الدول والأمم، وما كان لتاريخ مصر من علاقة بالتاريخ اليوناني. (وقد نشرت هذه المحاضرات في صحيفة الجامعة المصرية حين كان د. طه حسين استاذا للتاريخ القديم والروماني في الجامعة المصرية، ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٥).

وترجم أثناء التدريس بعض الآثار اليونانية في الأدب والفكر والسياسة.

لطفى السيد حاول «عقلنة» المجتمع المصري من خلال «منطق» ارسطو

- ففي سنة ١٩١٩ وضع كتابا عن «آلهة اليونان»، وقد تناول فيه الظاهرة الدينية عند اليونان، وطالب في مقدمة الكتاب ان تتم العناية باليونانيات وأن تدرس الدراسة التي تستحقها.

- وفي سنة ١٩٢٠ نشر «صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان»، وقد عرض فيه الشعراء المسرحيين اليونان بطريقة تقربهم الى قراء العربية.

- وفي سنة ١٩٢١ ترجم «نظام

لطفي السيد وطه حسين كانا البداية لانتشار الفكر الهيليني والاغريقي والأساطير اليونانية في الفكر العربي

الأثينيين» لارسطو، ولاحظ د. علي أومليل أن لهذه الترجمة دلالتين: أولاهما أن مخطوط الكتاب عثر عليه في مصر مكتوبا على ورق البردي، ويستدل بذلك د. طه حسين على وجود صلات قديمة بين مصر واليونان، ومن ثم تتعرف مصر على اصول الحضارة الغربية، وتربط الصلة بماضيها الحقيقي. الدلالة الثانية أن مصر كانت مقبلة على حياة سياسية ديمقراطية، فحاول د. طه حسين أن يعرف المصريين بأصول الديمقراطية السياسية[٧].

- وفي نسة ١٩٢١ نشر مقالا في مجلة الهلال عنوانه «مذهب ارسطو في السياسة والإجتماع».

- وفي سنة ١٩٢٥ نشر كتابه «قادة الفكر» ومعظم هؤلاء القادة من فلاسفة اليونان وساستهم هو ميروس سقراط، افلاطون، ارسطو، الاسكندر المقدوني. وقد اصبح الكتاب مقررا على طلاب المدارس الثانوية توجيها لانظار الشباب الى قادة الفكر البشري.

جاء في كتاب «قادة الفكر» أن «العقل الإنساني ظهر بمظهرين مختلفين: احدهما يوناني خالص، هو الذي انتصر، وهو الذي يسيطر على الحياة الإنسانية الى اليوم. والآخر شرقي انهزم مرات امام المظهر اليوناني، وهو الآن يلقي السلاح ويسلم للمظهر اليوناني تسليما[٨].

- وفي سنة ١٩٢٦ ينقل د. طه حسين من كرسي التاريخ القديم إلى كرسي الادب العربي، وقد اعتبر المستشرق الانجليزي هاملتون جب (١٨٩٥ - ١٩٧١) انتقاله ضربة لمشروعه الهيليني، فقد رأى أن د. طه حسين قد «توقف عن المضي فيما كان مقدما عليه من الدراسات القديمة، وكانت نهاية مبكرة تدعو إلى الاسف..

فالمرجو أن لا يكون المثل الذي ضربه الاستاذ في حماسته وتوفره على الدرس وشجاعته الفكرية، قد ذهب سدى في أوساط الجيل الصاعد»[٩].

ولا مبرر لهذا الاسف اذ ظلت كتابات د. طه حسين تعبر عن افتتانه باليونان، وان انتقل الى تدريس الادب العربي!

ففي سنة ١٩٣٣ صدر كتابه «على هامش السيرة» فلم يسعه الا أن يذكر اليونان والاوديسا، ويتعرض في صميم الكتاب لآلهة اليونان، ابولو، والمريخ وأرتميس وأثينا، ويتحدث عن الوثنية وارتباطها باليهودية والنصرانية[١٠].

وفي سنة ١٩٣٨ نشر كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» وقال ان «التلاميذ يتعلمون في المدارس ان مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جدا، وان المستعمرات اليونانية قد أقرها الفراعنة في مصر قبل الالف الاول قبل المسيح.. وان العقل المصري قد اتصل بالعقل اليوناني منذ عصوره الاولى، اتصال تعاون

وتوافق، وتبادل مستمر منظم للمنافع في الفن والسياسة والاقتصاد»[١١].

فمصر دولة يونانية أو كاليونانية، وهي مصدر من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم. «فلا ينبغي ان يفهم المصري ان بينه وبين الاوربي فرقا عقليا قويا او ضعيفا.. وإنما كانت مصر دائما جزءا من أوربا، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافة على اختلاف فروعها والوانها»[١٢].

ويقرر د. طه حسين في كتابه هذا أن عناصر العقل العربي كلها، شأن العقل الاوربي، ترجع الى أصول ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير»[١٣].

وآمن أشد الايمان وأعمقه بأن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح الا إذا عنيت باللغتين اليونانية واللاتينية.

ثالثا:

د. طه حسين وأرسطو:

لقد ظل الفكر اليوناني تتردد أصداؤه في كتابات د. طه حسين كما ظهر افتتانه بأرسطو بشكل خاص. وقد ذكر في ترحيبه بظهور كتاب الاخلاق لارسطو، الذي ترجمه

انتقال طه حسين من كرسي التاريخ الى كرسي الأدب اعتبره المستشرق الانجليزي هاملتون جب ضربة للمشروع الهيليني

لطفي السيد أنه لا يرى بعض الفرنسيين مبالغا حين قال: «لو أن هذه الحضارة الحديثة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطاطاليس أساسا لهذه الحضارة الحديثة»[١٤].

بل يفصح عن غايته في نهاية الترحيب فيقول: «لقد كانت فلسفة ارسطاطاليس اساس النهضة العربية الاولى، واساس النهضة الاوربية في العصر الحديث، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة»[١٥]. واقترح في نهاية مقاله أن يكون كتاب الاخلاق لأرسطو موضوع درس مفصل دقيق في الازهر الشريف والمدارس العليا غير الفنية.

وفي بحثه «تمهيد في البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر» الذي قدمه للمؤتمر الثاني عشر لجماعة المستشرقين (عقد بليدن في سبتمبر سنة ١٩٣١) قرر ان البيان العربي منذ نشأته الى أوان نضجه، «كان في جميع اطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا، وبالبيان اليوناني أخيرا، وإذا لا يكون أرسطو المعلم الاول للمسلمين في الفلسفة وحدها، ولكنه الى جانب ذلك معلمهم الاول في علم البيان»[١٦].

وفي هذا البحث فجّر قضية التأثير اليوناني في البيان العربي، وجعل هذا

البيان من مرحلة تأسيسه الى أوان نضجه، خاضعا للافكار الارسطية كما جاءت في كتاب الخطابة.

فهو يرى ان المعتزلة بفضل تضلعهم في الفلسفة اليونانية كانوا من مؤسسي البيان العربي، اذ كانوا أهل جدل، اتصلوا بالمنطق كما اتصلوا بالخطابة، بل إن المعتزلة أثروا - في نظره - ايضا في الادب العربي، فظهر تاثير الهيلينية واضحا في نتاج الشعراء ونتاج الكتاب[١٧].

والجاحظ مؤسس البيان العربي من متكلمي المعتزلة! فيكون البيان العربي متاثرا في نشأته الأولى باليونان!

أما عبد القاهر، الذي يمثل مرحلة النضج في البلاغة العربية، فلم يكن في رأي د. طه حسين إلا فيلسوفا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه، واعتبر كتاب «دلائل الإعجاز» جهدا صادقا خصبا في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين أراء ارسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول[١٨].

ونظرا لما لهذا البحث من تأثير في أنظار مؤرخي النقد والبلاغة العربيين، سأعود إليه بالتفصيل في مناسبة قادمة بحول الله.

والخلاصة أن د. طه حسين رسخ مقولة التأثير اليوناني في الثقافة العربية، وجعل البيان العربي منذ نشأته إلى أوان نضجه خاضعاً للتأثير الارسطي وجعل العلم يلتمس من لدن المستشرقين، وقرّر أن العقلية المصرية أقرب الى العقلية الغربية منها الى العقلية الشرقية. وهذه الآراء هيأت النفسية العربية للإحباط، واستلذاذ التبعية، والذوبان في الحضارة الغربية، والاستهانة بالحضارة العربية الإسلامية!

عناصر العقل العربي كلها ترجع الى الحضارة اليونانية والرومانية.. والمسيحية.. هكذا يقرر طه حسين

هوامش:

(١) حديث الأربعاء: د. طه حسين: ٣/٥٧ ط٨ (مصر، دار المعارف، دت).

(٢) وحي الرسالة: احمد حسن الزيات ١/٣١ (ساعة مع لطفي السيد).

(٣) أدباء معاصرون: رجاء النقاش: ١٤ (كتاب الهلال، فبراير ١٩٧١).

(٤) سموم الإستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية: أنور الجندي ٢٠٥ - ٢٠٦ - ط٢ (بيروت، دار الجيل ١٩٨٥).

(٥) حديث الأربعاء: ٣/٤٩.

(٦) في الأدب الجاهلي: ١٦، ط٢ (مصر، دار المعارف ١٩٢٧).

(٧) مشروع طه حسين: د. علي أومليل: ص: ٥٢٦ - ٥٢٧ (اعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية - منشورات كلية الآداب بالرباط، ط ١ - ١٩٨٥).

(٨) قادة الفكر: ١٩٢.

(٩) دراسات في حضارة الإسلام: «جب» ترجمة أ. عباس - يوسف نجم - محمود زايد: ٣٦١، ط٢ (بيروت، دار العلم للملايين،١٩٧٩).

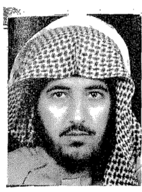
(١٠) خصائص الأدب العربي: أنور الجندي ٢٦٩ - ٢٧٠.

(١١، ١٢، ١٣) مستقبل الثقافة في مصر (المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين المجلد التاسع، ص٢٠، ٣٦، ٣٩).

(١٤) حديث الأربعاء: ٣/٥٣

(١٥) نفسه: ٣/٥٧ (بيروت، المكتبة العلمية ١٩٨٠).

(١٦، ١٧، ١٨) مقدمة نقد النثر ص ٣١، ص ٨ - ٩ ، ص ٣٠



نجوم السماء

شعر: **حفيظ بن عجب آل حفيظ** - السعودية -

يا نجـــوم الســـمــــاء أين الضـــيــــاء
ذهــب الــنــور وانـتــــشــت ظــلـمــــاء
كلمـــــا قلت جــــاء فــــجـــر جـــمـــيل
غـــــاب فـــجـــري وزال عنه الضــيــــاء
كــلـمـــــا قـلـت ذاك عـــــــز لـقـــــومـي
ذهــب الـعـــــــــز وابـتـــــــــدت لأواء
كـلمـــــا قـلـت عـــــاد ســـيـف صـــلاح
عـــاد ســـيـــفـــا وفـي القـلـوب خـــواء
لـيـت شـــعــــــري ولـيل تـلـك المآسـي
حـــــالـك الـظـلـم ايـن مـنـا الـرجـــــاء
ايـن منـا الـجـــهـــاد والـســـيـف مـــاضٍ
ايــن مــنــا الــكــتـــــــاب ايــن الـلّـواء
ليت شـعـــري أســـوف نصـــحـــوا قـــريـبـا
وتـعـــــود الأمـــــجـــــاد والأنــداء؟!
ونـرى المجـــــد بـعـــــــد ان زال عـنـا
مـــجـــــد أجـــدادنـا الـعـظـام رخــــاء
كـــان فـــيـــهـم الـى الجـــهـــاد مـــضــاء
لـيـت فـــيـنـا وفـي الـزمـــان مــــضـــــاء
كـــان فـــيـــهـم الـى المعـــالـي ســـعـــاة

دمـــــروا الظلم، في الســـمـــا أوليـــاء

امــــة كـــان مـــجـــدها في عــــلاها

صـــار فــــيــــهـــا مـع الزمـــان انـزواء

أمــــة لو ســـألت عنهـــا الليـــالي

قـــالت الحق مـــا رواه الـعـــداء

أمــــة ســـيـــد البـــرية منهـــا

كـــيف عـــاشت مع الزمـــان انطواء

أمــــة كل مـــا تأملت فـــيـــهـــا

قلت هـذي يســود فـــيـــهـــا الغـــثـــاء؟!

كـــيف نرجـــوا من النصـــارى مـــعـــينا

وهـم الـغـــدر ليس فـــيـــهـم وفـــاء

مـن رجـــــا المـاء وسـط نـار يـراهـا

فـــاذرف الـدمـع ايـن مـنـه الـرجـــاء!

من ســـعى نحـــو عـــزة يرتجـــيـــهـــا

أدرك المجـــــــــد، لـو دهـــاه الـدهـــاء

مـن رأى المجـــد في اتبـــاع الـغـــواني

ضـــيع المجـــد واســـتـــحل البـــغـــاء

من رأى المجـــد غـــيـــر حـــرب الأعـــادي

كـــان مـــا ظـن في الـزمـــان هـبـــاء

ســـيـــرة الحق في الـزمـــان ســـيـــوف

ســـيـــرة الحق في الـزمـــان بلاء

مـــا المعـــالي اذا أردت خـــفـــافـــا

المـعـــالي طـريـقـــهـن الـعـنـاء

الدكتور محمد حسين الذهبي

حزنت جدا لمصرعه الظالم، فقد كان نبيل الخلق، غزير المادة، طاهر الطوية، يؤدي واجبه العلمي بين طلابه أحسن اداء، فهو يفسح صدره لكل نقاش، ويتقبل النقد مهما قسا، ويعبّر عن وجهة نظره فى هدوء غير متكلف، وكان مع وفرة علمه فى ميدان تخصصه الذى برع فيه، كثير الاستماع لمن يحدثه فى ميدان نبوغه وان كان من تلاميذه الصغار، يستمع وكأنه يفيد مما يسمع، فإذا رأى أن يصحح الخطأ قدمّه فى ابتسام، وكأنه يتساءل، عرف زملاؤه وتلاميذه هذا الصدر الفسيح فى تكوينه، فأجمعوا على حبه، وقلما يجمع المتنافسون على حبّ من يزاملهم فى اتجاههم العلمى، هذا إلى تواضع يكاد يصل الى درجة الانكسار في معاملة قاصديه، وقد كان وزيراً يقف أمام الباب فى وزارة الخيرات ليقرأ بنفسه عريضة يقدمها سائل محتاج، وأراد بعض المنافقين من مرءوسيه أن يبلغه فى تملق أنه أرفع من أن يقف مع طالب حاجة هذا الأمد الطويل، فقال له في هدوء يقرب من الاحتجاج، دعنى فكلنا طلاب حاجات، فإذا قلت إنى حزنت كثيرا كثيرا لمصرعه الظالم فأنا صادق صادق.

اللقاء الأول:

وقد قابلت الدكتور الذهبى ثلاث مرات فحسب! وهي لقاءات علمية لم تخرج عن حدّ السؤال والجواب والرد والاعتراض فى بساطة يعرفها أصدقاء الرجل، فقد كنت أؤلّف كتاباً عن (خطوات التفسير البيانى) أعرض فيه جهود البيانيين من المفسرين الذين تناولوا كتاب الله من الناحية البلاغية، وفى مطالعاتى المتكررة عرفت من بعض الكاتبين أن للزمخشرى نظيراً فى منحاه البيانى هو ابن عطية الاندلسى صاحب التفسير المسمى (بالمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) فرأيت من مستلزمات البحث أن أقرأ هذا التفسير، وأدرس اتجاهه البيانى، وكان لا يزال مخطوطا، وبه أجزاء متفرقة فى دار الكتب

المصرية، فحاولت الاطلاع عليها أكثر من مرة، فلم أجد معينا بالدار إذ تعللوا بتمحلات لا مبرر لها، فتذكرت أن الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبى كتب عن هذا التفسير في مؤلفه الكبير (التفسير والمفسرون) وقد خصّه بباب منفرد، فعلمت موعد حضوره بالكلية، وذهبت إلى لقائه وقلت إنى فى حاجة إلى معرفة اتجاه ابن عطية فى تفسيره القرآنى، وقد اتصلت بدار الكتب دون جدوى، وقرأت ما جاء فى كتابك القيم، فهرعت إلى الاستزادة منك، فسألنى عما أقوم به من تأليف فى هذا المجال، فقلت إنى أضع كتابا أرصد فيه خطوات التفسير البيانى على مدّ العصور، وقد قرأت أن ابن عطية يسهم فى هذا المجال بنصيب وافر، وأنه يقرنُ بالزمخشرى فى اتجاهه البيانى! فصمت الرجل قليلا، وقال: الذى أعرفه من قراءتى لبعض أجزاء التفسير المخطوطة بدار الكتب، أن الناحية البلاغية فيه ضعيفة جدا، وأنه لا يقرن بالزمخشرى فى هذا المجال وقد يكون المفسرٍ موضحاً لآيات التشبيه والاستعارة والمجاز فى النص القرآنى، ولابد أن يفعل، ولكنه لا يزيد في ذلك عما يذكره النيسابورى أو الألوسى، أو الفخر الرازى والذين يقرنونه بالزمخشرى فى هذا المجال قد ظلموه! فإذا كنت قد خصصت كتابك للتفسير البيانى وحده فلن تجد عنده شيئا ذا بال متميزا!.

ورأيت المجال يسمح بالحديث عن كتاب الدكتور عن التفسير والمفسرين بأجزائه الثلاثة الكبار، فقلت ـ وانه أستاذنا ـ قد وضع أول كتاب يؤرخ التفسير القرآنى على نحو جديد معاصر، إذ لم يسبقه فى هذا المجال قدر اطلاعى المحدود من أبناء العربية كاتب معاصر! فنظر الأستاذ متفرساً فى وجهي، ثم قال: أصدقك الرأى يا أخى أنى غير راض عمّا كتبت، فقد كنت أوثر أن أكتب عن عصر واحد من عصور التفسير، لأشبع القول بما يُرضى حاجة نفسى، ولكن الرسالة العلمية التى وافق مجلس الكلية على عنوانها قد شملت تفسير القران جميعه فجعلت أسبح فى محيط لا أعرف أوله من منتهاه، وكان الجهد شاقا فى قراءة المخطوطات المتآكلة، واستيفاء المصادر البعيدة، مما أوقعنى طيلة إعداد الرسالة فى تأزم مستمر، واعتقد أنى قمت بالمستطاع فحسب لا بما يجب أن أقوم به.

وتابع الدكتور الذهبى حديثه قائلا: لقد علمت أن المستشرق المجرى الأستاذ جولد زيمر أصدر بالألمانية كتابا عن تاريخ التفسير، فسعيت حتى عرفت أن نسخة منه بجامعة فؤاد، وهنا أخذت ألح على أساتذتى بالكلية ممن يعرفون الألمانية أن يتكرموا بترجمة الفهرس فقط، لأرى اتجاه المستشرق فى التأليف فقد يفيدنى، فاعتذروا عن هذا العمل الهين، ولو وقع فى يدى هذا الفهرس لنفعنى إمّا متابعة أو معارضة، ثم تُرجم الكتاب بعد أن أعددت الرسالة، وأقبلت على قراءته، فلم استرح لكثير مما جاء به، ولو ترجم الكتاب جميعه وأنا أضع الرسالة لتتبعته بالنقد المنصف.



بقلم : أ. د. محمد رجب البيومى
ـ المنصورة ـ

قلت ولكنى أتذكر أنك عددت الجزء الأول من كتاب (جولد زيمر) من مراجعك، قال: أنت على صواب فقد ظهر هذا الجزء بعد مناقشة الرسالة، وقبل طبع الكتاب، فجعلته مرجعاً لمن يريد الاستفادة، وحاولت أن أضيف إلى الرسالة نقدات تتعلق به فى

موضعين أو ثلاثة من الرسالة بعد مناقشتها، ثم رأيت أن العمل يتطلب كتابا مستقلا، وأذكر أن مترجم الكتاب لأول مرة وهو الدكتور حسن على عبد القادر ومترجمه للمرة الثانية وهو الدكتور عبد الحليم النجار وكلاهما من نابغى الأزهر، قد علقا على الآراء الشاذة بإيجاز والأمر يتطلب الاستيفاء٠٠ وهكذا دار الحديث٠

اللقاء الثاني:

بعد ظهور كتابي «خطوات التفسير البياني» قابلني أخي الأستاذ الدكتور الحسيني هاشم رحمه الله، وقال لي: ان أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبي يبحث عنك٠ وقد طلب مني أن أخبرك بضرورة لقائه، فلا تتأخر٠

وكنت مشوقا للقاء الرجل، ولكني أخذت أسائل نفسي عن رغبة الأستاذ وباعثها، فقلت ربما يكون قد تفضل بقراءة الكتاب، وفيه نقد صادق لبعض ارائه، فأراد أن يناقشني فيما كتبت، وسعيت إلى استيعاب ما نقدت به الأستاذ" وفحواه أن المؤلف أفرد فصلا خاصا عن ما سماه (التفسير الإلحادى ويدور حول آراء في التفسير لأستاذين كبيرين من علماء الأزهر هما الشيخ حامد محيسن شيخ كلية اللغة العربية الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء والشيخ عبد المتعال الصعيدى من كبار علماء الأزهر، وأساتذة كلية اللغة العربية، وقد بدأ حديثه بقوله: «مُنى الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه، بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم، مُنى الاسلام بهذا فى أيامه الأولى، ومُنى بمثيله فى أحدث عصوره، فظهر فى هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه الى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات نفوسهم، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذه»٠

وقد استهولت أن يقال هذا الكلام فى عالمين كبيرين لهما وزنهما العلمى فى الدوائر الأزهرية، وإن كتبا ما يخالف التفسير المتعارف، فالأستاذ حامد محيسن قد اشتط فى تأويل آيات الرجم وفى تأويل قصة أيوب اشتطاطا ظاهر التعسف، والرد عليه لا يكون بجعله بين من يكيدون للإسلام ويعملون على هدمه، والأستاذ الصعيدى قد اشتط حين وقف أمام آيات الأحكام فى الزنا والسَّرقة، فقال الأمر فى الفعل ليس للوجوب الدائم، بل يرجع الى الحاكم، تارة يراه واجبا وتارة يراه مندوبا ينتقل منه إلى عقاب آخر، هذان العالمان مجتهدان وقد أضلا طريق الصواب فيما انتحياه، فكان الأوفق بالدكتور الذهبى ألا يجعلهما ملحدين، وهذا ما عارضت به الأستاذ الذهبي حين قلت فى الصفحة ٣٢٨ من كتاب «خطوات التفسير البيانى»٠ «وليت شعرى إذا جاز لبعض المتشدقين ومن يتعاطون التفسير من غير أبناء الإسلام أن يوهموا بالكيد للإسلام والعمل على هدمه، شفاء لأنفسهم المريضة أيجوز أن يكون شيخ كلية اللغة العربية، ومدير التفتيش بالأزهر وعضو جماعة كبار العلماء أحد هؤلاء! والرجل لم يزد على أن اجتهد، أخطأ أم أصاب، لو صحَّ ما قاله الأستاذ الذهبى ما وجد الأستاذ مكاناً جهيرا له فى أعرق جامعات الإسلام، بل ما وجد كبرى المجلات الإسلامية توسع له من صفحاتها أفسح مكان، إن فضيلة الأستاذ الذهبي رجل غيور دون شك، ولكنه اشتط فاندفع، فضاع من يده الزمام»٠ هذا ما قلته عن الدكتور الذهبي فى كتاب طبعه مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر وتداوله الطلاب والاساتذة، وجاء خبره للأستاذ الذهبى فقرأ ما سطرته، ولابد أنه يريد أن يناقشني فيما كتبت، ففكرت فيما يجب أن أقوله إذا دار النقاش

حول هذه القضية، وسارعت إلى لقاء الشيخ الكبير فرأيته ينهض وافقاً حين وقع نظره عليّ، ويبتسم مادا يده الكريمة ويقول فى مودة: اجلس يا رجب، لقد علّمتنى، لقد علمتنى! قلت: معاذ الله يا سيدى فنحن جميعا تلاميذك، قال قرأت كتابك من ألفه إلى يائه لأنه تحدث عن ناحية فى التفسير لم تكن موضع اهتمامى الأوّل، وحين وصلت إلى ما قلته عن التفسير الإلحادى عرفت أنى أخطأت، لقد كنت مندفعا فى عهد الشباب يا أخى، ولكن ألا تعلم أن معنى الإلحاد هو الميل، وإذن فقد وصفت الرجلين بأنهما مالا ولم يعتدلا! قلت فى عجلة، معنى الإلحاد لغويا هو الميل، ومعناه اصطلاحا المروق والكفر، قال أعلم هذا، ولكنى أردت أن أخفف عن نفسى، فأعترف أن الحق معك! وربت على كتفى فى مودة فكان مجلسه مضرب المثل فى صدق الاعتراف، وفى الإقرار بالحق دون ملاحاة!

اللقاء الثالث:

ذهبت إلى مكتب أستاذى الجليل الدكتور كامل الخولى عميد كلية اللغة العربية ذات صباح، فوجدته يجلس مع الدكتور الذهبى متحاورين، فظننت الحديث خاصاً، وهممت بالرجوع، ولكن الرجلين معاً قد صاحا بدعوتى فى صوت واحد، فأقبلت لأجد الدكتور الذهبى يقول: أنت تفرّ منى، لأنك تعرف أنى سأعاتبك، قلت إن عتاب الدكتور نصح وإرشاد وتوجيه! فقال الدكتور الذهبى موجها الحديث للدكتور الخولى، إن الدكتور رجب متأثر بما قال الدكتور أحمد أمين فى كعب الأحبار فقد قرأت له مقالا ينزل به عن قدره، وكعب فى رأيى مسلم صادق، والذين يتشككون فى إسلامه لا يملكون الدليل، وقد بسطت هذا الموضوع فى كتابى عن التفسير، وقرأه رجب ولكنه لم يقتنع به كما أرى فى اتجاهه!.

قلت يا سيدى: إن صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا لا الدكتور أحمد أمين وحده قد هاجم كعباً ووضعه دون موضعه لديك بكثير! قال أعرف هذا، ولكن كعبا قد روى عنه ابن عباس وأبو هريرة، وروى عنه الامام مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى، ولولا ثقة هؤلاء الكبار من الصحابة والأجلاء من رجال الحديث ورواته ما رووا عنه شيئا! والقصة التى تقول إن كعبا اشترك فى مؤامرة عمر بن الخطاب التى انتهت بمصرع الفاروق لا تثبت أمام النقد، إذ كيف يعقل أن يقول كعب لعمر ستموت بعد ثلاثة أيام، ثم يصرع بيد الغدر فى الوقت الذى حدّده، ولا يتجه الاتهام حينئذ إليه؛ لو صح ذلك لقُدم كعب إلى المحاكمة مع أبى لؤلؤة المجوسى والمرزبان ومن اشتركوا فى التدبير، ولكن أحدا لم يوجه إليه ملاماً، أما السيد رشيد فعلى جلالة علمه فهو رجل يؤخذ منه ويرد، وقد كتب الأستاذ الدجوى رحمه الله تفنيداً لما قال السيد محمد رشيد رضا وان لم يصرّح باسمه! راجع هذه القضية من جديد يارجب! فأصغيت دون اعتراض. وأذكر أن الدكتور الخولى قال للشيخ الذهبى مداعبا: تناقشه فى تاريخ التفسير وهو مجال تخصصك فيسكت، ولكن لو ناقشته فى الأدب والنقد والبلاغة لما سكت!.

قال الذهبى، أعرف أنه سكت تأدبا فقط، وعنده ما يقوله...

ثم تولّى الدكتور وزارة الأوقاف، ولاقى صعوبات شاقة فى الوقوف أمام التيارات الوصولية، وقد اعترف علنا فى مجلس الشعب أنه غير مبتهج بمنصبه، وأنه يتمسك بموقفه مؤثرا أن يرجع إلى مكانه العلمى بجامعة الأزهر، وقد تحقق له ما يرتجيه، ولكنّ أعوان الشر تربصوا به، فنال الشهادة مأجورا مثابا فصار ممن يستبشرون بنعمة من الله وفضل، فرحين بما آتاهم الله من فضله العميم

من وجوه الفكاهة:

الأعمش.. الفقيه الظريف

إياد فرعون - سوريا -

يعتقد كثير من الناس أنّ الفقيه رجل عابس الوجه، جهم المحيا، كئيب الملامح، يحمله زهده في الدنيا وانشغاله بأمور الآخرة على مجانبة المزاح والدعابة، وتكلف الحزن والكآبة، ولا يرى أكثر الناس ضيراً في رسم هذه الصورة المُنفرة للفقيه متذرعين بأنّ المزاح هزل يذهب بهيبة الفقيه ويحط في قدره ومكانته، فهل هذه الصورة صحيحة؟.

إننا نظلم الفقهاء عندما نضع لهم ذلك القناع العابس المتجهم، ونظلم رسولنا عندما ننسب إليه جدية مفرطة لا تعرف الترويح أو المرح، ونظلم ديننا عندما نصوره عدواً لدوداً للضحك والدعابة البريئة فالضحك غريزة فطرية لا سبيل إلى مقاومتها، واستجابة طبيعية يتعذر بل يستحيل كبتها.

والفقيه إنسان كغيره من البشر، يطرب للدعابة، ويضحك من الفكاهة، بل ومن الفقهاء من يكون له حظ من الظرف والدعابة بمالا يخدش قدره أو يذهب بوقاره، وحسبنا في الدفاع عن الفقهاء أن نفتح خزانة التاريخ ونستخرج منها شخصية ظريفة اشتهر صاحبها بالعلم والفقه إلى جانب شهرته بالظرف والدعابة، إنه أبو محمد سليمان بن مهران الملقب بالأعمش.

الأعمش الفقيه:

قال علي بن المديني: «حُفظ العلم على أمة محمد {صلى الله عليه وسلم} ستة: فلأهل مكة عمرو بن دينار، ولأهل المدينة محمد بن مسلم، ولأهل الكوفة أبو إسحاق السبيعي، وسليمان بن مهران الأعمش، ولأهل البصرة يحيى بن كثير وقتادة[١].

هكذا بيّن علي بن المديني منزلة الأعمش ومكانته بين العلماء ولا عجب فهو محدث أهل الكوفة في زمانه (٦١ - ١٤٨هـ) وعالمها الكبير وإمامها الجليل، وقد وصفه الذهبي بقوله: «كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح»[٢].

كما أشاد ابن عيينة بعلمه بقوله: «كان الأعمش أقرأ الناس لكتاب الله، واحفظهم للحديث، واعلمهم بالفرائض»[٣].

هكذا نقرأ الأعمش في كتب التراجم ومصنفات الانساب، فقيهاً ومحدثاً وعالماً فاضلا، ولكن هل هذا هو كل شيء عنه؟ لا، فقد حفظت كتب الأدب الوجه الآخر للأعمش، أو لنقل نفسية الأعمش المرحة الفكهة المحبة للدعابة والمزاح، إذ لم يجد الأعمش - وهذه منزلته قد عرضناها آنفاً - حرجاً في أن يمازح أصحابه ويطرب خلاَّنه بنوادر لطيفة ودعابات بريئة لا تجرح ولا تسَيء إلى أحد، وفي دراسة نوادر الأعمش تلك يتبين لنا أنه كان إلى جانب علمه وفقهه رجلا لطيف الخلق، كثير الدعابة والمرح، حلو الفكاهة والنادرة، يعتمد في مزاحه على خفة الروح وسرعة البديهة.

وأخبار الأعمش ونوادره منثورة في عدد من كتب الأدب مثل عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ونثر الدر للآبي كما لا يخلو منها كتاب من كتب أدب الفكاهة نذكر من تلك الكتب: جمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري، وأخبار الظرّاف والمتماجنين للامام ابن الجوزي، والمُراح في المزاح لمحمد الغزي.

ومن هذه الكتب نقتبس هذه الباقة من النوادر التي تكشف بجلاء عن ظرف الأعمش ونفسيته المرحة الفكهة.

الأعمش الظريف:

قال الأعمش لابنه ذات يوم:

اذهب فاشتر لنا حبلا يكون طوله ثلاثين ذراعاً..

فقال الابن: يا أبت في عرض كم؟.

قال الأعمش: في عرض مصيبتي فيك.

- مرض الأعمش فأبرمه الناس بالسؤال عنه، فكتب قصته في كتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأله أحد قال: عندك القصة في الكتاب فاقرأها.

- قال رجل للأعمش: كيف بت البارحة؟ فدخل الأعمش إلى بيته فجاء بحصير ووسادة، ثم استلقي وقال: كذا.

- مرّ الأعمش يوماً بابن له صغير وهو عريان يلعب في الطين مع الصبيان فلم يثبته، فقال لبعض من كانوا معه: انظر إلى هذا ما أقذره من صبي وأطفه، ويجوز أن يكون أبوه أقذر منه.

فقال له صاحبه: هذا ابنك محمد. ففتح عينيه ومسحهما ونظر إليه وتأمله ثم قال: انظروا بحق الله عليكم كيف يتقلّب في الطين كأنه شبل. عين الله عليه.

- قال الأعمش ذات مرة لجليس له: تشتهي كذا وكذا فى الطعام (ووصف طعاماً لذيذاً) فقال الرجل: نعم. قال الأعمش: فانهض بنا. فدخل به منزله، فقدّم رغيفين يابسين وكامخاً وقال: كُل قال الرجل: أين ما قلت؟ قال: ما قلت لك عندي وإنما قلت تشتهي.

- أراد إبراهيم النخعي أن يماشى الأعمش فقال الأعمش: إنّ الناس إذا رأونا معاً قالوا: أعور وأعمش[٤]. فقال النخعي: وما عليك أن نؤجر ويأثموا؟ فقال الأعمش: وما عليك أن نسلم ويسلموا؟

- أتت ليلة الشك فى رمضان، فكثر الناس عند الأعمش يسألونه عن الصوم، فضجر، ثم أتى برمانة فشقها ووضعها بين يديه، فكلما أقبل رجل يريد أن يسأله تناول حبة فأكلها.

- وقع بين الأعمش وامرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: إنّ أبا محمد شيخ كبير، فلا يزهدنّك فيه عمش عينيه، وقدة ساقيه وضعف ركبتيه، ونتن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه فقال له الأعمش: قم قبّحك الله فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه.

الأعمش والثقلاء:

كان أشدّ ما يكرهه الأعمش الرجل ثقيل الظل، غليظ الطبع سمج الأخلاق، لا شك أن كثيراً منا يشاطر الأعمش في نفوره فى مثل هذا الانسان الثقيل، لكن الأعمش بظرفه حوّل هذا النفور إلى نكتة وفكاهة لا تخلو من طرافة، فهو القائل فى الثقيل إذا حضر مجلسه:

فما الفيلُ تحمله ميتاً
بأثقل من بعض جُلاسنا

ومما يروى عن بغضه للثقلاء هذه النوادر:

- قيل للأعمش يوماً: مما عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء.

- وقال: إذا كان عن يسارك ثقيل وانت في الصلاة فتسليمة عن اليمين تكفيك.

مرض الأعمش، فعاده رجل وأطال الجلوس ثم قال له: يا أبا محمد ما أشد ما مرّ بك في علتك هذه؟ قال: دخولك.

وبعد، هل مازال البعض مصراً على رسم ذلك الوجه العابس للفقهاء؟ ربما كانت الصورة التقليدية المحفوظة فى كتب الأدب للظريف، ذلك الماجن العابث الذي لا يحفظ حدود الله ولا يراعي حرماته هي التي تشجع على مثل هذا التصور، سيّما وأن أكثر الظرفاء الذين حفلت كتب الأدب بأخبارهم ونوادرهم كانوا من الشعراء الذين اشتهروا بالخلاعة والمجون كحال أبي دلامة، وأبي نواس، ومطيع بن إياس، والأقيشر وغيرهم، لكنّ هذا لا ينفي حقيقة ثابتة وهي أنّ المجتمعات الاسلامية عرفت إلى جانب هؤلاء الأدباء العابثين ظرفاء من طراز آخر، فقهاء وعلماء أجلاء اشتهروا بخفة الظل وظرف الطباع وحب الدعابة، وكما حفظت كتب الادب أسماء من قبيل: أبي دلامة والأقيشر وأبي الشبل، فقد خلّدت أيضاً أسماء ظرفاء الفقهاء: الأعمش، والشعبي، والقاضي شريح، ومحمد بن سيرين.

الهوامش:

(١) تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي: ٩/٩

(٢) الأعلام للزركلي: ١٣٥/٣

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي: ١٥٢/١.

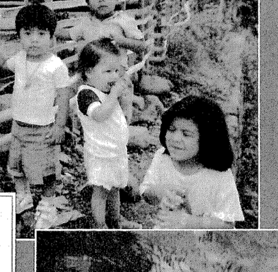
(٤) العمش: هو ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأحيان، فهو أعمش، وهي عمشاء.

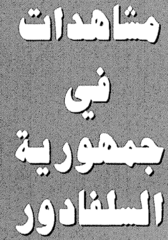
عيادة اسنان



٩٤

في البلدان والعمران ..
في التقاليد والأعراف
في تقاطع وجوه الناس
السائح يستقريء الملامح ويرسم اللوحة





مشاهدات في جمهورية السلفادور



السويد خواطر وتأملات



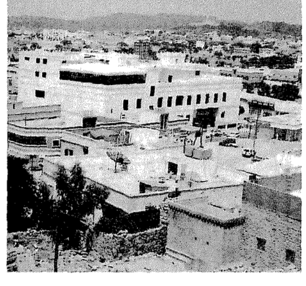
في هذا العدد من السائح



بلجرشي .. والتنشيط السياحي

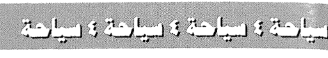
جنوب المملكة العربية السعودية ، يُعدّ من المناطق السياحية الرائعة، بالغة الجمال.. إذ تمتاز تلك المنطقة بجمال الطبيعة وروعتها .. من جبال عالية، وسهول ووديان، وأشجار نادرة.. إضافة إلى الخضرة الدائمة لتلك المنطقة لكثرة أمطارها.

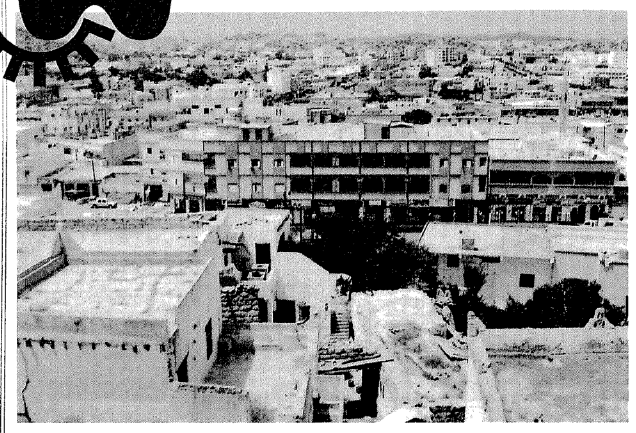
لهذا بذل المسئولون جهدهم لجعل منطقة الجنوب منطقة جذب سياحي يسعد بها المواطن والمقيم.. وبرنامج التنشيط السياحي أدى أداء فريداً وحسنا في تنفيذ البرنامج المقترح. واضافة للعمق السياحي الذي امتازت به منطقة أبها، فان محافظة (بلجرشي) وهي من كبريات مدن منطقة الباحة، قد استضافت فعاليات برنامج التنشيط السياحي لهذا العام ١٤١٧هـ. هذه المحافظة تمتد مساحتها لحوالى ٣٠٣ر٠٠٠كم٢. ويصل عدد سكانها إلى ٦٤ر٠٠٠ نسمة - انشأت خطاً سياحيا بطول ١٦كم. وأقامت مجموعة من



المتنزهات الرائعة منها: (منتزه السكران - الحالة - ماطوة - الملتقى - الفيحاء - موظف - الهيجاء - حزنة - القمع) هذا اضافة الى قرية زبيدة الاثرية.

لا شك ان السياحة الداخلية للمملكة تمثل رافداً جديدا من روافد التعرف على مناطق المملكة، هذا إضافة إلى التمتع بقضاء إجازة طيبة في ربوع الوطن.. وبين الأهل.


سياحة ؛ سياحة ؛ سياحة ؛ سياحة



يوم الخميس: ٢٣/١٢/١٤١٤هـ/ ٢/٦/١٩٩٤م

استئناف الجولة:

تقدم الحديث عن أماكن في العاصمة عند الكلام على الجولة في الدولة وستكون جولتنا هذا اليوم في أماكن من العاصمة إضافة الى اماكن أخرى خارجها لم نزرها امس.

بدأت الجولة في التاسعة من هذا الصباح حيث حملنا امتعتنا بسيارة الاخ المسلم السلفادوري (عبد الهادي ..) بعد ان دفعنا للفندق الذي نسكن فيه اجرته الرخيصه شاكرين لأهله حسن معاملتهم.

ومررنا بالمركز الاسلامي حيث أودعناه أمتعتنا وبدأنا الجولة باختراق القلب التجاري



الذي يقع فيه المركز الاسلامي والفندق، واسترعى انتباهي شطر لافتة لمحل تجاري مهم حيث حملت اسما عربيا فذكروا ان الاسماء العربية كثيرة بين التجار في هذا الحي ومنها على سبيل المثال اسماء (شاهين) وبخيت وناصر وسمعان ودعبوب وصافي.

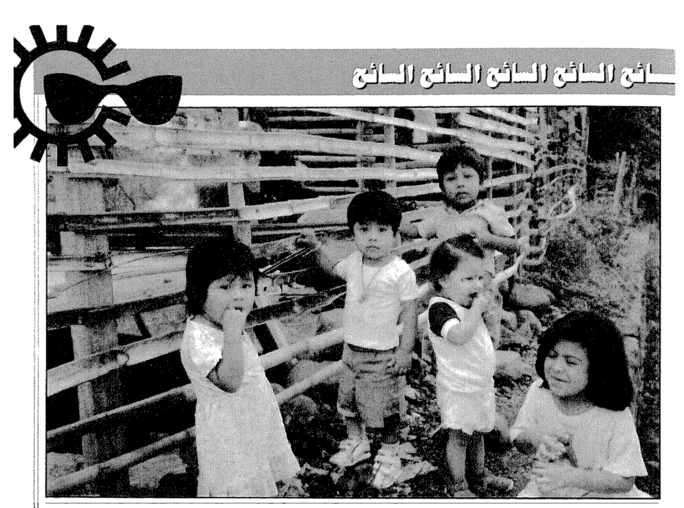
بقلم:
الشيخ/
محمد بن ناصر العبودي
الأمين العام المساعد لرابطة العالم الاسلامي
- مكة المكرمة -

ورأيت بناء كبيرا من عدة طوابق في القلب التجاري اسفله محلات تجارية أخبرنا الاخ عبد الهادي بأنه ملك لأحد ابناء العرب.

ولم نلبث في المركز الا من اجل اكل ثمار من ثمار العمية الجيدة وهو (المانقو) أحضره الاخ حسن عبد اللطيف من شجرة في بيته.

ثم خرجنا من المركز فمررنا بالقصر الجمهوري القديم الذي أصبح الآن متحفا ولم يمكنًا وقتنا من رؤية ما يحتويه فتركناه حيث مررنا بحي اسمه (سان هاتنتو) ذكروا أنه حي فقير، معظم البيوت فيه من طابق واحد وهي ذات سقوف مسنمة من الصفيح وفي حالات قليلة من الآجر.

والتقطنا فيه صورة أمام بيت فقير.. ثم مررنا بحي آخر للفقراء وفيه بيت لأحد الاخوة المسلمين من باكستان ذكروا انه يحضر للصلاة في المسجد ويعمل في



ـ مجموعة من اطفال الهنود

احدى الشركات.

حي الصفيح:

واصلنا البعد عن مركز المدينة وهو قلبها التجاري فوصلنا الى ضاحية تقع على سفح تلة خضراء وقد جعلوا القسم الوعر منها خاليا من المنازل وهذبوا أعشابه حتى صارت كأنها هى جزء من حديقة معتنى بها.. ورأيت بعض البقر سائبة ترعى فى هذه الأعشاب الخضر.

وغير بعيد منه حي للفقراء اكثر بيوته من الصفيح أو الخشب الرديء وهو صغير الا ان الدخول اليه غير آمن بسبب فقر أهله الذى يجعلهم كما يقولون ـ لا يتورعون عن أخذ الذي مع من يدخله من مال او غيره حتى وإن أدى ذلك الى الحاق الضرر الجسمانى به.

ومع ذلك قالوا: ان هؤلاء يعملون ولكن دخولهم متدنية. واكثرهم ينفقون جزءا منها على أشياء تضرهم مثل الخمر والدخان.

الصعود الى الجبال .. أيضا:

وهذه الجبال غير التى صعدناها أمس، فهى فى وجهة أخرى من البلاد وليس فى هذه الجبال منازل وانما هي الغابات المغلقة فى الطريق وفيها جسر واسع، يذهب الى قرى كبيرة أو مدن صغيرة.

وسألتهم بهذه المناسبة عن الغابات التى تجلل الجبال أهى ملك لأفراد من الناس أم هى مملوكة للدولة؟ فقالوا: الدولة فقيرة وإنما يملك الأهالى اراضى الغابات الا الممتلكات العامة وهى قليلة مثل الحدائق والأماكن المحمية.

قرية بانتي مالكو:

وصلنا الى قرية هندية أصيلة اسمها (بانتي مالكو) وكنت طلبت رؤية قرية من قرى الهنود الامريكيين الخلص. ولم يعرف مرافقنا الهندي الأخ عبد الهادي معني تسميتها وإنما عرف ان عدد سكان القرية وما حولها يبلغ ٣٦ الف نسمة.. وهذه القرية يصح ان تسمى بلدة صغيرة لكونها كبيرة نسبيا ومتحررة من العادة الهندية الأمريكية في اتخاذ المنازل وهي أن تكون في وسط الغابة. واهل القرية من جماعات (المايا) الذين لا يصح أن يقال فيهم: انهم من قبيلة (المايا) الا من باب التجوز لأن (المايا) ليسوا من قبيلة واحدة معينة وانما هم بقايا جماعات من السكان الاصلاء في هذه البلاد الذين كانوا موجودين فيها قبل وصول الأوروبيين اليها في القرن الخامس عشر الميلادى. ومع ذلك فان الأمر لا يعد فيها قلة من أهلها الذين هم من الماسيوستس او المخلطين ما بين الأوروبيين والهنود.

الخالدية:

استرعى انتباهنا اسم مركز الادارة في القرية وهو (الـ.. كالدية) مما جعلنا جميعا نتساءل عما اذا كان لهذه التسمية علاقة بكلمة الخالدية العربية من حيث ان نطقها لا يكاد يختلف عنها، ولكننا لم نجد من يعطينا القول الفصل في الموضوع.

وهندسة (الخالدية) عربية الطراز تشبه المسجد الصغير لولا عدم وجود مئذنة عالية فيها مع العلم بأن المآذن في المساجد الاندلسية هي صوامع مربعة وليست مآذن مستديرة مستدقة الا أن فيها برجا يشبه ان يكون صومعة صغيرة ولذلك قال الأخ عبد الهادى: انها قد تكون مسجداً في الأصل ولكنى استبعدت ذلك لعدم وجود اسلامي معروف فيها من القدم وإنما هي بناء على الطراز العربي الأندلسى.

فرصة تنتهز:

أسرعت اغتنم الفرصة.. صورة لبعض النساء والأطفال من الهنود اهل القرية وكأنما خشيت أن تفوتنى فرصة تصوير هؤلاء الهنود ، وبخاصة اننى عرفت من الهنود الأمريكيين الخلص على اختلاف مواطنهم التى رأيتهم فيها فى امريكا الوسطى والجنوبية انهم لا يسمحون بالتقاط الصور لهم الا اذا اعطيتهم مبلغا مجزيا من المال كأنما نشأ ذلك من معرفتهم بحرص السياح الاجانب علي التقاط الصور لهم.

وقد مانعت النسوة بالفعل فى التصوير غير ان الفرصة الكبيرة سنحت لتصوير عشرات منهن من غيرهن من اهل البلدة، اذ رأينا فرقة دينية مسيحية حضرت الى هذه القرية للدعاية لمذهبها المسيحى وقد جذبوا انتباه الأهالي عن طريق موسيقى لهم يعزفونها ومفرقعات يطلقونها فى الجو مع شموع موقدة يسيرون بها فى الشمس. ولباس خاص غريب تميز به اهلها ورئيسهم كاهن عليه لباس الكهان المتميز ومعه طائفة من النساء أشبه بالراهبات لهن زي مميز أهم ما فيه ظهورا (غراف) وهو غطاء أسود للرأس كان نساؤنا فى القديم يستعملن مثله فى بلادنا وهي تشبه المناديل السود الكبيرة وبعضها مخطط بأبيض.

وتابعنا هذا الموكب الدعائي الغريب ورأيته



مجموعة من اهالى قرية بانتى مالكونى

كلما اوغل فى القرية ازداد عدد المنجذبين اليه وإن كان قل كلام الكاهن بعد ذلك حتى صار لا يتكلم فى بعض الأماكن وانما يقف وقوفا. وقد تذكرت بمناسبة الدعاية هذه فكرة أبداها احد الاخوة المسلمين فى البرازيل على سبيل النكتة والمقولة غير العادية عندما تذكرنا كيفية العمل على اعادة الأعداد الكبيرة من الأفارقة الذين كان البرتغاليون جلبوهم من القارة الافريقية إلي البرازيل ليكونوا عبيدا يعملون فى المزارع وبعضهم بلا شك كانوا من أبناء المسلمين ويتركز وجودهم فى شرق البرازيل ومنه ولاية بهبة التي عاصمتها سلفادور قال ذلك الأخ المسلم البرازيلي يمكنني أن آخذ معي شخصا او شخصين من الذين يحسنون ايضاح الأمور باللغة البرتغالية (البرازيلية) فأذهب الى مقهى مزدحم على سبيل المثال وأؤذن فيه بصوت مسموع وإن لم يكن بالغ الارتفاع، ولا شك فى أن ذلك سوف يحمل المجتمعين فى المقهى على التساؤل عن هذا الأمر وهنا يأتي دور الشخصين اللذين معي حيث يجب أن يشرحا لهم ان هذا الآذان هو النداء للصلاة والصلاة هي أحد أركان الدين الاسلامي وسوف يسألون عن الدين الاسلامي وهنا أشرح مع رفيقي ما هو الدين الاسلامي ولا شك ان بعضهم سوف يقتنع به فيسلم، أو على الأقل يحمله ذلك على أن يواصل البحث عن المعرفة بالاسلام فيسلم.

على أن هناك سبلا متعددة وطرقا كثيرة تدعوه الى الاسلام غير هذه ولكنها كلها تحتاج الى دعاة مخلصين بطريقة تفكير القوم

وبلغاتهم وبالطريقة التى يقتنعون بها اكثر من غيرها.

بناء الاندلسيين:

تركنا موكب الداعين الى دينهم وتجولنا فى قرية (بانتى مالكو) الهندية فاسترعى انتباهى منظر عدد من صبيانهم الذين يشبهون صبيان الأعراب عندنا فى اللون فعجبت من ذلك والتقطت صورة لأحدهم تبين ان هؤلاء الصبيان هم من المخلطين وليسوا من الهنود الخلص. ووصلنا فى التجول الى مبنى غير بعيد من مبنى الادارة الذى اسميته الخالدية، فاذا به مدرسة كبيرة فى طرازه ملمح من الطراز الاندلسي بادر الأخ عبد الهادي فقال: ان الأهالى هنا يعتقدون ان الذين بنوه هم الموريسكيون الذين جلبهم الاسبان معهم ليستعينوا بهم على عمارة هذه الأرض التى تملكوها إنه الآن يستعمل مدرسة للقرية.

وبجانب هذه المدرسة كنيسة وبجانبها (حديقة) كبيرة واقعة فوق مرتفع يطل على واد واسع عميق تقع عليه القرية من جهة الغرب.

ومن الجميل فى هذه القرية ان المرء يرى شوارعها تغلفها الخضرة اينما وجه بصره منها الا فى جهة الغرب حيث تطل على واد فسيح بعده جبال عالية خضر. وفى نهاية الجولة جلسنا عند حانوت لبيع المشروبات الباردة فشربنا ماء جوز الهند الأخضر وهو ثمار شجر النارجيل ورأيت الثمرة عندهم كبيرة كثيرة الماء. وقلنا للاخوة المرافقين ونحن نشرب ماء الجوز: الا تطمعون مثلى فى ان يكون فى هذه القرية مسجد فى المستقبل؟ فقال الأخ عبد الهادي وهو من اهل البلاد الاصلاء اذا تأملنا بالنتائج التى تحققت فى المركز الإسلامي من اسلام عدد لا بأس به من أهل السلفادور من الأصلاء مع أنه لم يمض على افتتاحه الا تسعة أشهر فاننا نؤمل أن يوجد من اهل هذه القرية مسلمون يبنون لهم مسجدا. وقال: أنا قبل اسلامي ابن رجل مسيحى بل كنت مبشرا وعندما أسلمت غضب عليّ اهلي وهجروني ثلاث سنين، والآن زال كل ذلك ولله الحمد وقد دعوت والدي الى الاسلام فحضر معنا صلاة الجمعة فى المركز، وان كان لم يسلم بعد.

منتزه الحرية:

عند العودة الى مدينة (سان سلفادور) العاصمة مررنا بحديقة الحرية، ويسمونها (فيرتاد) وهي ميدان واسع فى جانب من المدينة القديمة وأصبح الآن فى وسطها.

والميدان او المدينة لأن جزءا منها مبلط لا أشجار فيه مليء بالناس ومنهم باعة متجولون صغار ولكن على قلة، ويتوسطه نصب هو ذكرى استقلال البلاد فى ١ نوفمبر عام ١٨١١م وكانت قبل ذلك ضمن المستعمرات الاسبانية كما هو معروف.

مثل من الضياع:

عدنا الى المركز الاسلامى فى الساعة الثانية عشرة ظهراً فوجدنا فيه أحد أبناء المسلمين واسمه (ارنستو عبد الله عباس) وهو من قرى رام الله فى فلسطين ومولود فى هذه البلاد السلفادورية حدثنا عن نفسه بأن أمه واباه مسلمان الا ان زوجته وأولاده الثلاثة غير مسلمين. ويتكلم العربية بصعوبة وقال: ابنه حضر الى المركز بعد أن جدد اسلامه وقال: عاد الى الاسلام لأنه وان لم يكن مسيحيا بالولادة فانه لم يكن يعرف من الاسلام شيئا، ولم يكن يؤدى شعائره من قبل. قال: ولكنني

الآن ولله الحمد بدأت اتعلم الاسلام وأؤدي الصلوات واجتنب ما ينهى عنه الإسلام.

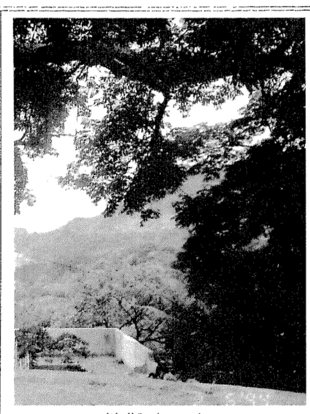
فقلت له ان هذه نعمة يجب ان تحمد الله عليها. فماذا عن اولادك الشباب وَلِمَ لَمْ تدعهم الى الاسلام ما دام أنه وجد مركز اسلامي يمكنهم ان يتعلموا فيه شعائر الدين الاسلامي. فقال: هم كبار الآن ولا سلطان لي عليهم ولا يطيعونني فى أمري.

فقلت: هل قلت: انهم مسيحيون؟ ام انهم مثلك لا يعرفون شيئا عن الاسلام؟ فقال: انهم مسيحيون بالفعل ويمارسون الديانة المسيحية لأن امهم مسيحية من اهل البلاد وانا لا أقوى عليهم فقلت له: انك ينبغى أن توضح لهم ان الاسلام مسلسل فى اسرتكم منذ اكثر من ألف عام وانه لا يجوز لكم أن تقطعوا هذه السلسلة الذهبية الطويلة وان عملكم هذا يعتبر عقوقا لهم وعدم وفاء تجاه تاريخكم الاسلامى الطويل ويجب ان تبين لهم الاسلام وان غير المسلمين من الذين كان آباؤهم مسيحيين قد أسلموا فكيف بهم الذين هم من أصل اسلامي. وهذا بلا شك مثل من أمثلة ضياع أولاد المهاجرين من العرب موجودة بشكل كثيف في كل مهاجرهم فى بلدان العالم الجديد.

ويجب علينا أن نعمل بكل ما نستطيع لحماية ابناء المسلمين الموجودين الآن فى المهاجر عن طريق تشجيع وجود المدارس الاسلامية ونشر المساجد وارسال الدعاة اليهم. وهذا أمر بدأ منذ عشرين سنة فى الاتباع ولا يزال ينمو ويتوسع ولله الحمد.

ومثل من الفتح:

بينما كنا نتحدث مع هذا العربي الذي عاد



جانب من طبيعة السلفادور

الى اسلامه بعد سنوات طويلة دخل علينا في المركز احد السلفادوريين الأصلاء، ظاهر ذلك من مظهره الذى هو يشبه مظهر العرب الشماليين لولا تغير قليل، قدموه لنا بأنه الأخ (كارلوس البرتو نيربو) وانه مسلم جديد من المسلمين الجدد الذين دخلوا الى الاسلام بعد ان افتتح المركز واطلعوا منه على ما كانوا يريدون الاطلاع عليه من احوال الدين الاسلامى وانه يواظب على المجيء الى المركز واداء الصلوات وبخاصة صلاة الجمعة.

المسلم الجديد والمسلم القديم:

ذكروا لنا وهم يقدمون الأخ كارلوس انه مسلم قديم الاسلام اذ مضت سنة كاملة على دخوله فى الإسلام، وعجبت من ذلك لأننا نعتبر من

كان اسلامه منذ عدة سنوات مسلما جديداً بمعنى انه لم يولد مسلماً ولم يكن أبواه مسلمين ولكنهم هنا لهم اصطلاح ليس عندنا لأن إسلام الأخوة المسلمين السلفادوريين بدأ منذ أن فتح المركز الإسلامي تقريبا٠

وقد اتضح ذلك عندهم عندما قدموا لنا مسلما آخر ذكروا انه مسلم جديد وليس كالأخ كارلوس الذى هو قديم الاسلام وهو الأخ (خوسيه ليموس) ذكروا انه أسلم قبل شهر فقط وقد أخذ فى تعلم ما ينبغى له ان يعرفه من أمور دينه٠ وهو تاجر ناجح٠

وقد جلسنا مع هذين الأخوين فى مكان المطعم من الطابق الأرضي فى المركز الاسلامي نتحدث فدخلت امرأة في متوسط العمر يبدو من هيئتها وحديثها أنها مثقفة وأنها من أسرة عالية المستوى فقدموها لنا بأنها السيدة (كونسيوسن بندقس) وأنها مثقفة مقبلة على الاسلام ولكنها لم تسلم بعد وترغب بعد أن تسلم أن تذهب الى مكة المكرمة هكذا قالت٠

وقد حضرت هذه المرأة بعد ذلك صلاة الظهر عندما صليناها ولكنها كانت جالسة على كرسي من كراس عدة كانت موضوعة في المسجد تراقب المصلين ثم زاد عدد الحاضرين من المسلمين الجدد الى المركز، وذلك لقرب صلاة الظهر، إذ انهم يعملون فى قلب المدينة ويحضرون للصلاة٠ وكما حضر الأخ الباكستاني الذي سبق ان أشرت الى بيته وقال: انه هو الباكستانى الوحيد فى هذه المدينة وقد حضر لأداء صلاة الظهر واسمه (أشرف عبد العزيز) وقد تحدثنا فى الحكمة من مشروعية صلاة الجماعة، وقالوا جميعا: انه لولا وجود المسجد في المركز الاسلامي لما اجتمعوا وان هذا من الحكمة فى صلاة الجماعة٠

مع الدكتور أرماندو:

وصل الدكتور ارماندو بوكيلو (بقيلة) الى المركز بناء على موعد سابق فكان بقامته المديدة ومظهره المهيب فى مظهر الزعيم الذي ينتظر ان ينصر الله الاسلام على يديه فيواصل انتشاره فى هذه البلاد السلفادورية٠

بعد التعارف مع الأخ الدكتور أرماندو شكرت له همته العالية فى انشاء اول مركز اسلامى في السلفادور ودعوته مع بني قومه من اهل البلاد الى الاسلام وبينت له فضل من اهتدى على يديه ولو رجلا واحدا الى الاسلام وان ذلك خير له من الدنيا وما فيها، لأن الحياة الدنيا مؤقته، وما فيها فان ولابد من أن يفارقها المرء وانما الباقى للإنسان هو العمل الصالح والذكر الحسن٠

وقلت له: انك يجب ان تحمد الله تعالى وتشكره الذي وفقك لهذا العمل الجليل وهو دعوة الناس الى الاسلام الذي فيه الخير والسعادة لأن من أسلم وحسن إسلامه فإنه يكون قد اكتسب إيمانا يعمر قلبه، ويعينه على صعاب هذه الحياة، بل انه قد يرى الشدائد والمحن منحا ومكاسب اذا صبر واحتسب٠

وقد أبدى الرجل سروره لسماعه هذا الكلام وقال: إنه مصمم على ان يمضى بإذن الله في طريقه فى الدعوة الى الاسلام، حتى وإنه يسأل الله تعالى الا يميته حتى يرى فى كل مدينة او بلدة فى السلفادور مسجداً له مظهر المسجد الخاص وليس مجرد مركز إسلامي وذكر انه يسعى الآن فى بناء أول مسجد في السلفادور

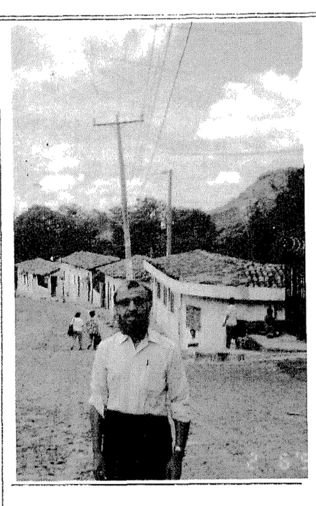
يكون فى العاصمة.

وقال الدكتور ارماندو: أنا متفائل بمستقبل الإسلام فى هذه البلاد والاديان السماوية اصلها واحد ولذلك نبدأ بدعوة المسيحيين بأن نبين لهم ان رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام هي في الأساس رسالة سماوية ومن هنا ندخل إليهم فى الدعوة الى الاسلام. وقال: لنا طريقة خاصة فى الدعوة منها أننا لا نسارع الى أن نقول لهم انه يجب عليكم أن تتركوا الخمر قبل ان تسلموا، بل ننصحهم حتى قبل أن يسلموا بأن يقللوا منها ثم يتركوها، وذلك لكيلا ننفرهم عن الدخول في الاسلام.

وكذلك نقول للذي يسلم ولا يحسن الصلاة إننا مستعدون ان نعلمك الصلاة، وباقى فروض الدين بالتدريج ولا نبدي احتقارا له او استهجانا لعدم معرفته بالدين لأن هذا هو الأساس بالنسبة له ولأمثاله.

وقال: إننى أعرف أن معظم الناس هنا فى العاصمة قد تأثروا بالثقافة اللاتينية نتيجة للحكم الاسباني وبعضهم يرجع لأصول لاتينية ولذلك اقول لهم: إن اسبانيا والبرتغال كانتا من البلدان الاسلامية وبذلك لا يكون الاسلام غريبا عنهم، إذ ربما يكون أصلهم من هناك فيكون إسلامهم بمثابة الرجوع الى الأصل.

وفي ختام الحديث معه، قال: إننا لا نطلب فى هذه المرحلة ان ترسلوا الينا دعاة من البلدان العربية لأن هذه تعتبر بمثابة المرحلة التأسيسية ونحن نعلم بطريقة تفكير مواطني هذه البلاد اكثر من الذين يأتون من البلدان العربية، وإنما نريد المساعدة على إنشاء جامع سان سلفادور كما نريد ارسال الكتب



نموذج من القرية فى السلفادور

وترجمات معاني القرآن الكريم الى الاسبانية.

العناق بعد الصلاة:

أذّن لصلاة الظهر فصعدنا جميعا الى المسجد وكان اكثر الحضور من هؤلاء الاخوة المسلمين الجدد من السلفادوريين فصليت بهم صلاة الظهر واتممت الصلاة مع أننى مسافر يجوز له القصر ولكنني لم أرد أن اعمل ما قد يشوش عليهم فى هذه المرحلة من دخولهم الاسلام.

وبعد انقضاء الصلاة والتسبيح المختصر أقبل بعضهم على بعض بالسلام والعناق مثلما يكون بين المصلين بعد الصلاة في بعض البلدان الاسلامية حيث يصافح بعضهم بعضا بمثابة

التهنئة بأداء الصلاة أو لمجرد تأكيد المحبة والأخوة. ثم القيت فيهم كلمة مختصرة تضمنت التعريف بالفرض وبيان مبادىء الاسلام وما يجب ان يكون عليه المسلم وما ينبغي ان يعمله المسلم الجديد من حرصه على اكتساب المعرفة بأمور دينه وفهمه ودعوة إخوانه في الوطن من غير المسلمين الى الدخول في الإسلام.

وقد ترجم هذه الكلمة الى الاسبانية الأخ حسين عبد اللطيف.

الى النادى العربي السلفادوري:

جرى تعارف وحديث مع هؤلاء الأخوة المسلمين الجدد ثم ركبنا مع الأخ الدكتور أرماندو سيارته التي يقودها بنفسه ذاهبين الى (النادي العربي) لتناول طعام الغذاء فيه وفق ترتيب مسبق.

ومررنا بحي جيد جدا اسمه (مسكوتا) يسكنه الأغنياء وهو يتألف من دارات (فيلات) وقصور تتقدمها الزهور وتحيط بها الجنات فقلت لهم: ان هذا هو حى (مسكوتا) ونرجو انه يكون فيه (مسكيتا) في المستقبل فأمنوا لذلك ودعوا الله أن يحققه و(مسكيتا) هي مسجد بالاسبانية.

وصلنا النادي العربي فوجدنا عليه لافتة واضحة بالعربية (النادي العربي السلفادوري) ومثلها بالاسبانية وهو واسع ضخم ذو بوابة اشبه ببوابات القصور ويعكس كل ما فيه حالة العرب المالية المزدهرة في هذه البلاد.

وقصدنا (مطعم النادي) الذي لا يقل فخامة ونظافة عن المطاعم في فنادق الدرجة الأولى، وتحدثنا على الغداء في أمور منها ما يتعلق بهذا النادي الفخم فاخبرنا الدكتور (ارماندو) وهو عضو فيه أن عدد الأعضاء العرب المشتركين في هذا النادي هم واسرهم اربعة آلاف عضو. وان مجموع العرب الذين لا يزالون يحتفظون بالمظهر العربي من تكلم بالعربية او من غير ذلك يبلغ اثنى عشر الف نسمة أما العرب مع اولادهم الذين ذابوا واصبحوا لا يعرفون العربية فانه لا يقل عن ثلاثين الف نسمة. وكلهم من المسيحيين الا من لا يستحق الذكر في العدد فمثلا لا يوجد من اعضاء النادي الا ثلاثة مسلمين من الأعضاء المؤسسين، وقد اخبرونا ان هذا المطعم انشىء من اجل خدمة اعضاء النادي وضيوفهم وليس من أجل البيع.

أما الطعام نفسه فانه كان عربي الأصل حيث اشتمل على حمص وتبولة ومحشو ورق العنب وملفوف وغير ذلك الى جانب طعام سلفادوري معروف.

وبمناسبة الطعام وكونه عربيا قال الدكتور: ان المسحيين الفلسطينيين قد عاشوا بين المسلمين قرونا متطاولة ولذلك نجد ان تقاليدهم في الطعام واللباس لا تبعد من التقاليد الاسلامية.

بحث الأمور الإسلامية:

عدنا الى بحث الأمور الاسلامية على مائدة الغداء مع الدكتور ارماندو بقيلة، فذكر من بين ما ذكره أنهم لم يتسلموا أية معونة مالية من الخارج الا الف دولار قدمه احدهم دون أن يسأله شيئا وقال: الجميع يعرفون أنني مسلم حتى رئيس الجمهورية يعرف ذلك وعندما انتخبني اعضاء المهن الهندسية في اتحادهم الذي يضم (٣٢) الف مهندس كانوا يعرفون ذلك او يعرف به بعضهم، وانا لا أخفى إسلامي



بعض زوار المركز الاسلامي فى السلفادور

بل اعلنته وقد نشرت الجرائد اعلانات لي عن فتح المركز الاسلامى ولم يعارض أحد فى ذلك وانا لا أجعل لأحد حجة فى المعارضة فدعوتنا دعوة ودية تنشد اقتناع الشخص بالاسلام، ومن يقتنع بالدخول فى الاسلام لا يستطيع أحد ان يرده عن ذلك. كما ان جميع أعمالي داخلة تحت دائرة القانون المعمول به وهو ينص على ان الانسان حر فى اعتقاده واعتناقه الدين الذي يريد.

والدكتور المهندس متحمس وسريع الكلام ولكنه ذو أفكار مرتبة متزنة. وقد قدمت له مساعدة رمزية من رابطة العالم الاسلامي رمزا لاعجابنا بعمله وبأننا نرى تعضيده على هذا العمل المنظم وهى خمسة آلاف دولار امريكى مساعدة للمركز الاسلامي والف دولار للاخوه العاملين فيه فأعجبه ذلك وقال: لن نصرف هذه الآلاف الخمسة من الدولارات للمركز لأنه لا يحتاجها الآن وانما سنضعها في حساب لتأسيس أول مسجد فى العاصمة (سان سلفادور).

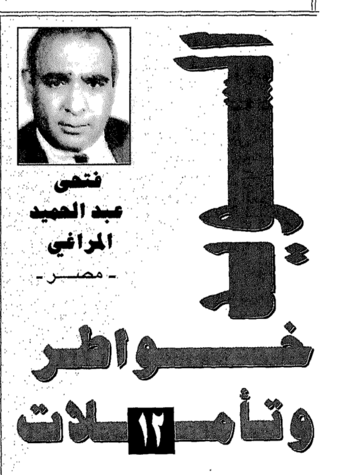
فقلت له: ان هذه مساعدة رمزية قليلة وسوف نرسل لكم ان شاء الله مساعدة مجزية على بناء المسجد عندما تبدؤون العمل فى بنائه ، إننا نرجوا ان تكون زيارتنا هذه فاتحة لتعاون مستمر اوسع بين الرابطة وبينكم واننى أدعوكم باسم رابطة العالم الاسلامى الى زيارة الرابطة فى مكة المكرمة واداء شعائر العمرة أو اداء مناسك الحج ضيفا على الرابطة فشكر ذلك كثيرا.

مغادرة السلفادور:

داهمنا الوقت فأسرعنا بالخروج الى المطار للسفر الى هندوراس يصحبنا اليه الدكتور بقيلة وعدد من الاخوة المسلمين حيث سافرنا فى الساعة الخامسة عصراً الى (هندوراس) والحديث عن هندوراس يطول ويطول ..

تكمن في الذاكرة الكثير من المشاهد والأحداث التي يعتقد المرء أنها قد ضاعت في طي النسيان، ولكن عندما يقع حدث مشابه سرعان ما يسترسل العقل الباطن ما اختزنه ويبدأ سيل الذكريات كموجات الهواء وفي هذه اللحظة كانت المشاهد محركة للخواطر.
تذكرت يوم أن دعاني صديقي «اوستافن» لنشاهد معاً مباراة لكرة القدم بين فريقي «الاتحاد السعودي» وفريق مدينة «كريشان استاد» بالسويد التي أقيمت على ملعب استادها الرياضي الكبير المجهز بمختلف أنواع الأنشطة الرياضية.

مدرجات الملعب كانت مشغولة بجمع غفير من المتفرجين رأيت الغالبية العظمى منهم



فتحي
عبد الحميد
المراغي
- مصر -

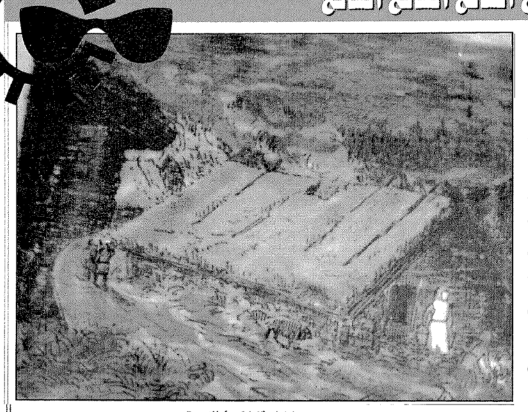
يرفعون إشارات نادي الاتحاد السعودي ذات اللون الأصفر والخطوط السوداء الأمر الذي جعلني أعتقد أن السعودية قد أرسلت جيشاً رياضيا لتشجيع فريقها إلى جنوب السويد.

فوجئت بما لم أتوقعه إن الغالبية العظمى من المشاهدين كانوا سويديين ويشجعون الفريق السعودي الضيف وكان تشجيعهم للعبة الحلوة والتكنيك الجيد واللياقة العالية للاعبين فابتعدوا عن التعصب بروح رياضية عالية.

يمارس الرياضة في السويد أكثر من مليون لاعب من بين عدد سكانها البالغ عددهم ثمانية مليون نسمة يمارسون الرياضة في أكثر من ٣٥ ألف ناد ومؤسسة رياضية، وللسويد تاريخ رياضي معروف في مختلف اللعبات ولمع منها أسماء رياضيين ذاعت شهرتهم على المستوى العالمي مثل اللاعب «انغمار استنمارك» و«بيون بوري» و«كييز فيريفيك» بطل رياضة التزحلق على الجليد لعامي ١٩٦٦ - ١٩٦٧م حقق فيها أرقاماً قياسية.

لم تقتصر ممارسة الرياضة في السويد على النوادي والمراكز الرياضية بل انتشرت لتشمل المصانع ودور العلم والمستفيات، وعلى رأس الرياضة في السويد الاتحاد الرياضي المركزي وهو منظمة رئيسية تقوم بالاشراف الكامل على كل الحركة الرياضية في السويد، وتتكون هذه المنظمة من رئيس وعشر أعضاء منتخبين.

وفي العاصمة استكهولهم توجد أكبر دور



ـ نموذج لمنازل (الفايكنج) القديمة.

للرياضة في السويد ويعرف باسم البيت الأبيض للرياضة نظرا لمبناه الكبير الذى طليت جدرانه باللون الأبيض وبه المركز الرئيسى للاتحاد الرياضى السويدي.

اهتمت السويد بأوقات فراغ مواطنيها فوظفت الحكومة كل الامكانيات اللازمة وعملت على استغلال الطبيعة الاستغلال الأمثل فى الغابات وعلى المرتفعات والهضاب وفى الأنهار والبحيرات وشواطىء البحار حيث يقضى الناس أوقات فراغهم للتمتع بالطبيعة والهواء الطلق النقى وممارسة الرياضة، ونظمت الرحلات وأقامت المهرجانات الرياضية السنوية التى يشترك فيها الآلاف من المتسابقين والمشاهدين مثل سباق الزحافات الكبير الذى يعرف باسم «ڤاسا».

أما مدينة «جيتنبورج» التى تقع غرب العاصمة استكهولم بمسافة ٤٨٠ كم، تعتبر المدينة الثانية فى السويد بعد العاصمة من حيث عدد السكان كما أن للمدينة شهرة رياضية قديمة، كما أن مدينة جيتنبورج تعد من المراكز الصناعية الكبرى فى السويد وتأتى أهميتها من موقعها المتميز على بحر البلطيق غرب جوتلاند الغربية التي يفصلها عنه نهر «جوتا» الشهير الذى أقيم عليه أكبر كوبرى أنشىء على الأنهار فى أوربا وطوله ٩٠٠م وهو كوبرى خرسانى معلق. وتقع مدينة بوهوس على الضفة الأخرى لنهر «جوتا»، وإذا ضم إقليم بوهوس إلى إقليم جيتنبورج تصبح مساحتهما ١٤٠ ألف كم٢، ويقطن جيتنبورة نصف مليون نسمة، وتضم مدينة جيتنبورج عاصمة الإقليم بلديات كثيرة منها «انجريد» سڤا، لونيدباى وكلها مراكز صناعية معروفة بصناعة الورق والنسيج والصناعات الثقيلة كقضبان السكك الحديدية

والقطارات والسيارات، أما المرافق العامة فى المدينة فهى ككل المدن السويدية من حيث تنظيم الشوارع والميادين وطرز المبانى ووسائل المواصلات والخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية، أما جامعة جيتنبورة فقد أنشئت عام ١٩٥٤م وتخصصت معظم كلياتها ومعاهدها ومدارسها العليا فى العلوم التكنيكية والتقنية الحديثة، وكذلك الطب خاصة طب الأسنان وهناك أقسام لتخريج المعلمين والصحفيين، وهناك قسم خاص لعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية، ويرجع إنشاء المدارس العليا فى جيتنبورة إلى عام ١٨٩١م، وتضم الجامعة مكتبة كبيرة وعريقة بها أكبر المراجع والموسوعات العلمية التى يقدر عددها بـ ٨٠٠ ألف موسوعة.

وكلما تتجول فى المدينة تجد المتاحف المتنوعة التى تعرض تاريخ وآثار المنطقة، وأهم هذه المتاحف متحف «جيتنبورج» القديم الذى أنشأ عام ١٨٦١م ويضم قسما خاصاً للفنون الى جانب ما يعرضه من تاريخ وآثار، وفى حي «جوتا» يوجد المسرح الكبير والمكتبة العامة للمدينة، ويتوسط الحى ميدان كبير تزينه نافورة جميلة متدفقة المياه فى فصل الصيف، وتجمل الحى أحواض الزهور والورود المتفتحة متألقة فى ألوانها المختلفة وأشجار زينة منسقة تضفى على المكان جمالا وجاذبية وفي مكان ليس ببعيد عنه وسط المدينة توجد ملاعب كبيرة تعرف باسم الملاعب الملكية وهى تقع شرق الطريق المؤدى إلى ميناء المدينة، أما القاعات الموسيقية فتنتشر فى معظم أحياء المدينة، كما أنجبت المدينة فنانين كثيرين ذاعت شهرتهم فى السويد وخارجها.

وعندما تتجول في مدينة جتينبورج تجد الحداثة فى المبانى والطرق قد طغت على طبيعة المدينة القديمة التى ترجع إلى زمن العصور الوسطى فى الطراز والمعمار الذى يغلب عليه الطراز القوطى الذى كان منتشرا فى تلك الحقبة من الزمن فترى قصر المدينة القديم الذى يعرف باسم قصر «ماجڤالين» وهو من القصور العتيقة رائعة البناء ويطل على نهر «جوتا» الذى يعد من أهم الآثار السويدية وقد بنى القصر عام ١٤٧٣م.

وفى عهد الملك «جوستاف الثانى» ادولف توسعت المدينة وبنيت فيها القصور المنيفة، والكنائس اتخذت من الطراز القوطى شكلا لها فى معمارها، ومنذ عام ١٦٢١م بدت المدينة فى شكلها المتعارف عليه الآن وأضيفت لها الأحياء الجديدة والمبانى الحديثة التى تمتاز بها المدن الكبرى فأتسعت المدينة وامتدت أطرافها.

وللملك جوستاف ڤاسا ذكرى عزيزة فى نفس أهل السويد يحيون ذكراه كل عام بمهرجان رياضى كبير اقترن باسمه، كما أطلقوا اسمه على الكثير من الأحياء والميادين فى الشوارع والمنشآت فى السويد، ففى العاصمة استكهولم قرن اسمه باسم أكبر متحف نوردى عالمى ذلك المتحف الذى أنشىء خصيصاً كي يضم أحد المراكب القديمة وبني عام ١٦٠٠م، طول المركب ٥٥ متراً وعرضه ١٢ مترا يتكون من ثلاثة طوابق وكان مجهزا بـ ٦٤ مدفعا بحريا وغرق المركب فى مياه خليج «استرول» فى استكهولم فى ٢٦ مايو ١٦٢٨م.

وفي عام ١٩٥٩م استطاع الأثري السويدي «اندرش فرانس» انتشال المركب وعمل معه مجموعة كبيرة من علماء الآثار في السويد واستطاعوا انقاذه وإخراجه من عمق مياه الخليج التي تتراوح بين ٣٢ متر و١٦ متر، وتقرر إنشاء متحف خاص له على شاطئ الخليج وافتتح المتحف عام ١٩٦١ وأصبح من أكبر المتاحف الاسكندنافية على الإطلاق يستطيع من يزوره أن يعرف تاريخ البحرية في السويد وتطورها وهناك عدة تماثيل خشبية تمثل الباخرة والجنود القدماء وبه أيضا مجموعة كبيرة من الصور والرسومات القديمة التي تحكي تاريخ إنشاء السفن في السويد.

واهتم ملك السويد جوستاف فاسا الخامس بهذا المتحف وكان من محبي الآثار والتاريخ ليس فقط في السويد ولكن في العالم أجمع وزار هذا الملك مصر عام ١٩٥٤م وأقام بفندق ميناهاوس القديم بالقرب من أهرامات الجيزة كما شاهد آثار مدينة الأقصر القديمة. أشرف الملك جوستاف اودلف الخامس بنفسه على عملية إنقاذ المركب وإنشاء المتحف وكان يرافقه الأثري السويدي المعروف «بيرلويند سترام» كما أطلقت السويد اسم جوستاف فاسا على واحد من أكبر الشوارع في العاصمة استكهولم به متحف قديم افتتح عام ١٨٨٦م ذلك المتحف الذي رأسه أحد المشاهير في السويد وهو «بيرلويندبرج».

أمضيت أسبوعاً كاملا في مدينة «جيتبوري» ثاني أكبر المدن السويدية من حيث عدد السكان بعد العاصمة استكهولم، وتعد من الموانئ الرئيسية والهامة في السويد، أقمت في فندق «أودين» في شارع «اولس كروكس» وسط المدينة وانطباعاتي عن مدينة «جيتبوري» ترجع الى زياراتي الكثيرة لها وارتباط تلك المدينة بالرياضة والرياضيين في السويد وكأس العالم لكرة القدم عام ١٩٩٤م ومن مدينة «جيتبوري» زرت مدينة ابروس القريبة التي سوف نتجول فيها معاً لنتعرف على أهم معالمها ونقف عند بعض التجارب الشخصية التي جعلت المدينة لها ذكرى عزيزة على نفسي.

تعتبر مدينة «جينبوري» كما ينطقها السويديون بلغتهم أو «جتينبورج» كما تنطق بالانجليزية هي من أكبر القلاع الصناعية في السويد حيث يعمل معظم سكانها البالغ عددهم نصف مليون نسمة في مجال الصناعة، والمدينة تقع على الساحل الغربي للسويد مطلة على بحر البلطيق.

توسعت مدينة «جينبوري» وأصبحت من كبريات المدن السويدية وأصبحت منطقة جذب للسويديين أنفسهم وغيرهم من الوافدين للإقامة والعمل فيها وكذلك للسياحة، وتعد المدينة من المراكز التجارية الكبرى في السويد ففيها أكبر خطوط السويد للتجارة الشرقية والتي تربط الدول الاسكندنافية الواقعة على بحر البلطيق والبلاد العربية في شرق البحر الأبيض المتوسط حيث إن ميناءها الشهير يخرج منه ويستقبل السفن العملاقة التي تذهب وتأتي من دول شرق البحر المتوسط فتنشط حركة التجارة العالمية.

وعندما نتجول في مدينة «جيتنبورج»

نشاهد أحياء كاملة تماثل الأحياء الاوروبية تخطيطاً، وأهم تلك الأحياء منطقة تعرف باسم «لندن الصغيرة» حيث ترى فيها المبانى العريقة ذات الطراز الانجليزى، وكذلك المطاعم التى تقدم الوجبات الانجليزية وأخرى هندية كان قد جلبها الانجليز من الهند كالكارى الهندى واللحوم المطبوخة على الطريقة الهندية، كما تنتشر الثقافات الاوروبية فى تلك الأحياء، هذا بالإضافة إلى النمط الاوربى الغالب على شوارعها وميادينها.

أما النمط السويدى القديم حيث الشوارع الضيقة والمنازل الخشبية القديمة فقد شاهدتها فى حي «هاجا» القديم وسط المدينة وشاهدت فى منطقة «ليما» القصور المنيفة والحدائق الجميلة الزاخرة بأشجار الفواكه والتى تقع فى منطقة الغابات الكبرى حيث تقع الحدائق العامة كالحديقة النباتية الشهيرة وحديقة للحيوان خصصت للأطفال، شاهدت الريف هناك والأراضى الخصبة الخضراء تزينها البحيرات والأنهار الصغيرة والتى تجعل من الريف هناك تحفة فنية رائعة تحتاج إلى ريشة فنان مبدع. رأيت سواحل المدينة الممتدة والمتعرجة والرمال الصفراء ومجموعة من الأرخبيل بالقرب من الجزر المنتشرة وسط البحر، وبالقرب من الميناء الكبير رأيت قنوات «زانطة» وهى عبارة عن ممرات بحرية صناعية صغيرة تسير فيها السفن عندما تقترب من الميناء.

على ظهر العبارة اسكندنافية الكبرى ذهبت فى رحلة بحرية جميلة الى جزيرة «اليفس يورج» وهى من أجمل جزر المنطقة شاهدت فيها آثارا رائعة للقلاع الحصينة التى يرجع زمنها إلى فترة القرن السابع عشر الميلادى، بالقرب من محطة القطار العتيقة وسط المدينة ذهبت مترجلا على شاطىء نهر «كوينج الف» أتطلع لمشاهدة بحيرة «مارسيارند» العذبه وهى تقع فى الجهة الشمالية للنهر، رأيت رمال شواطئها الصفراء اللامعة النظيفة وكذلك تلالا من الحجر الرملى ترتفع وتنحدر انحداراً ظاهراً حتى شاطىء البحيرة، وشاهدت فى مدينة جيتبورى المصانع العملاقة والمتنوعة، وزرت المراكز التجارية الكبرى كما شاهدت فى حى «ليزبورج» أكبر المنشآت الرياضية التى تقام عليها أكبر الدورات الرياضية لكرة القدم والتى تعرف باسم كأس «جوتنيا» والتى تقام عادة فى شهر يوليو بدءا من اليوم السابع عشر إلى الثالث والعشرين من نفس الشهر من كل عام.

شاهدت استاد «اوليڤى» الكبير الذي تقام عليه أكبر المهرجانات الرياضية فى السويد فى ٢٧ أغسطس كل عام.

لمست ورأيت بعينى رأس المقومات الرئيسية للجذب السياحى للمدينة من حدائق عامة ومناطق سياحية وأثرية وفنادق وطرق ممهدة ومتاحف ومراكز ثقافية كبرى، ومكتبات، ودار الأوبرا وهى رائعة البناء والتصميم، وهى أصغر من دار الأوبرا فى استكهولم «الاوبرا الملكية» الشهيرة، كما شاهدت فى منطقة جوتا متحف الصناعة الكبير، رأيت فيه عرضا طيبا ومفيداً لتاريخ اختراع وإنتاج الماكينات والأدوات الصناعية، وأهم الصناعات التى تشتهر بها المدينة كصناعة الورق والغزل والنسيج.

وللرسام السويدى الشهير «كارل مليز» لمسات جميلة تجدها فى أعماله العظيمة من تماثيل برونزية ورسومات وأعمال فنية تجريدية رائعة التكوين شاهدتها فى مركز

جتيبورى للفنون كما رأيت المدينة والمكتبة العامة فى حى «جوتا» وهو من الأحياء الجميلة فالخضرة فيه كثيرة والأزهار نادرة وجميلة تتوسط ميدانها نافورة رائعة فى تناسق جميل مع الطبيعة.

فى ميناء «جيتبورى» القديم الذى أسس عام ١٦٠٧م وأحرقه الدانمركيون بعد انتصارهم على السويد وأعادت بناءه الملكة «كريستينا» بعد أن عقدت معاهدة الصلح بين السويد والدانمرك عام ١٦١٣م.

هناك وعلى أحد الأرصفة بالقرب من نهر «جوتا» وقفت أتأمل الطبيعة الجميلة فوق نهر «جوتا» أطول الأنهار فى السويد فطوله ٧٢٠كم ويقام فيه اكبر مهرجان لسباق المسافات الطويلة فى منطقة «كاتاجيت» أرى فرعى النهر تقع بينهما جزيرة «هيسجن» وهى جزيرة خصبة يقع عليها الميناء النهرى القديم ومنذ زمن بعيد كان لنهر «جوتا» أهمية تجارية كبيرة ترجع إلى عام ١٨٠٠م تأتى إليه المراكب محملة بالبضائع ومراكب أخرى تحمل الحاصلات الزراعية التى كانت تحضرها عربات يجرها زوج من الخيول من مناطق الزراعات الشاسعة خارج المدينة.

صباح اليوم التالى ساعدتنى السماء كى أقوم بجولة فى مدينة «بروش» فقد كانت زرقاء صافية والشمس يغمر ضوؤها كل مكان وشعرت بالدفء يسرى فى عروقى فرحت أمتع نفسى بجمال الطبيعة، أمضى سويعات فى شوارعها وميادينها بين مبانيها القديمة التى تحف حواريها النظيفة المزدانة بالأزاهير التى تطل من نوافذ و«ڤارندات» تلك المنازل العتيقة، والمدينة تقع فى إقليم شاسع مساحته ٤٥٠ر٤كم٢، تعداد سكانه ٢٣٣ ألف نسمة ممتد على سواحل بحر البلطيق الطويل تخترق السهول، و٦٠٪ من سكان الإقليم يعملون فى حرفتى الصيد وقطع الأخشاب من الغابات الممتدة فى مساحات شاسعة من الإقليم، كما يعمل بعض السكان فى صناعة النسيج الذى تشتهر به المنطقة منذ عام ١٨٥٠م حيث أنتج أول مصنع فيها عام ١٨٧٠م الملابس القطنية والحريرية والنايلون وهذه المنتجات تصدر إلى دول كثيرة فى بلاد العالم.

ذهبت إلى التل البعيد مارا بطرق مختلفة متعرجة محفوفة بسياج جميل من النباتات والورود أشم معها رائحة طيبة حتي وصلت إلى قلعة المدينة وبنيت عام ١٣٠٨م والتى تعد من أقدم الآثار وأكملها ليس فقط فى «بروس» ولكن فى كل الدول الاسكندنافية.

أتذكر بعد أن تجولنا فى مدينة «بروس» وتعرفنا على أهم معالمها وعلى شاطئ نهر «فيسكن» رأيت المساقط المائية التى أنشئت عليها محطات لتوليد الكهرباء وشاهدت كنيسة «كارلولى» القديمة التى أنشئت عام ١٦٧٠م تعرفت على تاريخ المدينة منذ أن أنشئت عام ١٨٢٢م حتى أصبحت بلدية كبيرة تضم عدة مدن صغيرة منها «توربأس» و«برام هيلبت» وأصبحت مدينة «بروس» عاصمة تلك المدن .. تجولنا فى الميدان الكبير وسط المدينة ورأيت مبنى دار القضاء القديم والذى يرجع تاريخه إلى زمن العصور الوسطى وزرت المكتبة العامة للمدينة التى أنْشئتْ عام ١٩٣٧م، رأيت فيها الكثير من الكتب والمراجع العلمية واطلعت فيها على أنواع مختلفة من الصحف السويدية وغيرها من الصحف الواردة إليها من مختلف أنحاء العالم، وزرت مع صديقى «توماس» متحف المدينة الرئيسى شاهدت فيه آثار المدينة وسمعت تسجيلا كاملا لتاريخها وأهم معالمها.

سموم وهموم: [٤]

الآثار الناجمة عن تعاطى المخدرات

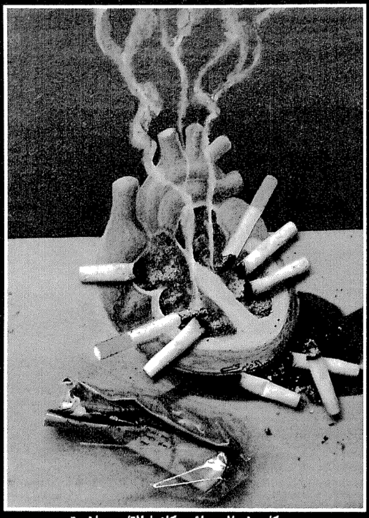
آفة العصر

يختلف الأثر الأول للمخدر من نوع إلى آخر، فالمخدرات المنبهة كالأفيون تحدث نشاطاً فى الجسم وشعوراً بزوال التعب، أما المخدرات المسكنه مثل الحشيش، فإنها تزيل الآلام والتعب عن طريق التسكين، ليحل مكانه الانبساط والمرح وانطلاق اللسان ولكن ما أن يتعود الجهاز العصبى للإنسان على هذه الجرعات الصغيرة، فإنها لا تعود تحدث فيه هذا التأثير الأولي، فيضطر الشخص لأن يتناول جرعات اكبر عن كل مرة حتى يحصل الأثر السابق، فينتهي به الأمر إلى الإدمان مع جميع مضاعفاته

احمد اسماعيل عبد الكريم
- مصر -

وثبت أن المخدر أيا كان نوعه يؤثر فى أجهزة الجسم من حيث القوة الحيوية والنشاط، ويظهر لنا ذلك جليا إذا عرضنا لشريط من الصور لمدمن خلال مراحل تعاطيه المخدرات ونقارنها بصورته قبل الادمان سنجد بلا شك بونا شاسعا!.

كما تؤثر المخدرات على المستوى الوظيفي لأعضاء الجسم وحواسه المختلفة بالاضافة الى الآثار الفسيولوجية التى تتسبب عن عجز المدمن المتعاطي لبعض المخدرات عن الحصول على المخدر فى الأحوال التى اعتاد تناوله فيها، وهذه الآثار تكون من الشده والألم بحيث تعوق المدمن عن الحركة والعمل والتعامل مع الآخرين[١] هذا علاوة على أن المخدرات تؤثر تأثيرا متفاوت الدرجات فى الوظائف العقلية للفرد[٢].



كل هذه السجائر مكانها القلب مباشرة

تأثير المخدرات على المخ:

عندما تدخل المخدرات إلى الأوعية الدموية ينتقل تأثيرها إلى موقع الخطر الكامل وهو الجهاز العصبي المركزى والمخ اذ أن المخ بمثابة العضو المسيطر الرئيسى على تصرفات الانسان وقد فضل الله عز وجل الانسان بعقله على جميع الكائنات الحية وعلى أساسه حمله المسئولية وكلفه حمل الأمانة.

ولا فرق بين الانسان والحيوان بدون عقل، بل ان الحيوان فطر على هذه الطبيعة، والانسان بلا عقل لا يتساوى مع احط الفصائل الحيوانية. وقبل أن نسبق الاحداث علينا أن نسأل اهل الذكر والعلم «فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» يقول الاستاذ عماد فضلي - استاذ الأمراض العصبية والنفسية بطب عين شمس - ان جميع المركبات المستخلصة من الأفيون لها أثر مباشر على أماكن معينة فى الجهاز العصبى تسمى المستقبلات موجودة على جدران الخلية العصبية وهذه المستقبلات تعمل على استقبال المواد الكيميائية، والتى يصاحبها أثر مباشر وسريع ويشرح الدكتور طريقة تفاعل هذه المواد المخدرة وتأثيرها على المخ قائلا: إنه عند استخدام المواد الكيميائية المعالجة تصل

المستقبلات على تصليح مسار المواد الكيميائية التى تسبب عادة الأمراض النفسية عند الانسان وتعالجها[٣] ولذلك فان أثر المخدرات لا يظهر الا بعد فترة والجهاز العصبى لا يحتاج إليها بعد الشفاء، أما الهيروين - كما يؤكد ذلك الدكتور عماد فضلى - فمواده الكيماوية تعمل على المستقبلات العصبية بطريقة مباشرة وتنبهها بطريقة صناعية، فيكون لها الأثر السريع ويحس صاحبها بالانتعاش والنشاط والقدرة الكبيرة على الحركة، وهى الحالة المحببة التى يبحث عنها بعض الشباب ومن أجلها يستمر فى تعاطى السموم البيضاء، وأول جزء يتأثر بالمخدر هو المنطقة التى تربط بين النصفين الكرويين للمخ وهى المنطقة التى تخدم وظائف التفكير والسلوك وبعدها تتأثر ادوات الحركة فى الجسم[٤].

وشمة الهيروين الأولى لا تتعدى الملليجرامات كما يقول الاستاذ الدكتور عبد الله جمعة الاستاذ بطب الازهر: هذه الجرعة هى الوحيدة التى تعطى النشوة والانسجام والسعادة غير الطبيعية ويعزى ذلك الى عدم وقوع المخ تحت تأثير مخدر ولم يسبق الاعتماد عليه. لذا فإن مفعول هذه الكمية البسيطة التى لا تتعدى المليجرامات تحقق النشوة والسعادة ويطول مفعولها من ٦ - ١٢ ساعة، ثم لا يلبث أن ينقلب بعدها المتعاطي إلى انسان شرس يطلب المزيد، وبتكرار الشم تزداد الجرعة التى قد تصل عند بعض المدمنين، الى ٣٠ ملليجرام ليصل بعدها الشام الى ذروة النشوة

يقول الأستاذ الدكتور خيرى السمرة استاذ جراحة المخ والأعصاب بكلية الطب جامعة القاهرة أن المخ يتكون من خلايا، تعد ببلايين الخلايا العصبية التى تعمل ليل نهار بطريقة متجانسة بواسطة اشارات كهروكيميائية وكل مجموعة من خلايا المخ متخصصة فى أداء وظيفة معينة، مجموعة مسئولة عن الكلام وأخرى عن السمع وثالثة عن الابصار.. الخ ومخ الانسان سيمفونية رائعة مازال الطب عاجزاً حتى هذه اللحظة عن كشف طريقة عمل المخ بالضبط، وإدمان المخدرات. بأنواعها المختلفة يربك المخ ويشل وظيفته الطبيعية،

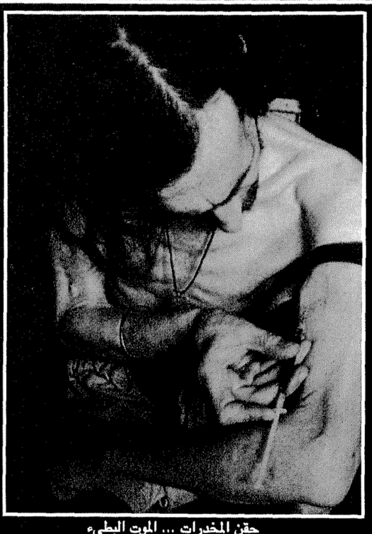
فيصبح الانسان عبداً لهذه المواد المدمرة التى تسبب ضموراً، وتليفاً تدريجياً للخلايا العصبية للمخ، وهذه فترة يضمحل فيها مخ المدمن، فيصبح كالحيوان سليب الإرادة، ضعيف الذاكرة قلقاً مضطرباً لا يتحكم فى عمليات الاخراج ويصير من سيء إلى أسوأ حتى تنتهى حياته بالوفاة.

وهنا يأتي خطر المدمن على المجتمع عندما تأتى اللحظة الحرجة التى تطلب الخلايا العصبية فيها هذه المادة المخدرة، فإذا لم يتناولها المدمن ينقلب من إنسان الى وحش فى حالة تشبه الجنون، يمكن معها أن يقتل أو يسرق فى سبيل الحصول على المال اللازم لشراء هذه المادة المخدرة التى يتعاطاها وهنا سر البلاء.

تأثير المخدرات على الكبد:

الكبد من الاعضاء الرئيسية والهامة فى الجسم التى عليها مدار الحياة ويذكر الأطباء مدى أهمية وظائفها فى الانسان، فهى توزع ما

تحتاج إليه العضلات من الجلوكوز وكذلك ما يحتاج إليه الجسم حسب الحاجة وهى التى تستهلك المادة الحمراء القديمة المتعبة وهى التى تقوم بوظيفة لا غنى عنها وهى حماية الجسم ضد كثير من السموم السابحة فيها وارسالها إلى المرارة الى غير ذلك من الوظائف التى تعمل المسكرات على تعطيلها وتعرض الاجسام للموت السريع والمفاجىء فى كل لحظة خاصة إذا علمنا أن السكر هو مبعث الحرارة فى الجسم وأن الكبد هو الذى يقوم بتوزيع هذه الحرارة وعندئذ يسهل علينا معرفة الخطب العظيم الذى يترتب عليه المرض الذى يصيب الكبد وتقول الدكتورة شرلوك: أشهر أخصائية فى امراض الكبد فى العالم فى كتابها القيم أمراض الكبد (الطبعة الرابعة) لا شك أن تليف الكبد يصيب مدمنى الخمر اكثر من غيرهم، ففى مقابل كل شخص مصاب بتليف الكبد من غير المدمنين ٦ - ٨ أشخاص من المدمنين مصابين بالتليف الكبدى وفى البلاد الغربية نستطيع أن نقول بكل ثقة أن تليف الكبد يعتمد مباشرة على كمية الكحول المتعاطاة ، فالاستمرار فى تعاطي الكحول لمدة عشر سنوات مثلا يؤدي إلى إصابة شديدة بالكبد[٥].



حقن المخدرات ... الموت البطيء

نتيجة الاستمرار وتكرار الشم تزداد لذلك الجرعة لتحقيق النشوة للمدمن، فنتيجة لذلك كله تزداد الجرعة بزيادة تكرار الشم وقد تصل هذه الجرعة إلى ٣ جرامات وتعد هذه الجرعة قاتلة يسقط بعدها المدمن فى بحر المضاعفات ويصاب بالامراض الخبيثة ويصبح عرضة لمرض الايدز لكثرة تناولة لابر الماكسفورت التى يخرق بها اهابه طوال اليوم ومدة ادمانه. هذا غير ما ينتابه من أمراض كالاسهال الشديد والالام المبرحة فى البطن، كما تتساقط الدموع من عينيه بصفة لا إرادية وينكمش جلده وتضيق حدقتا عينيه ويظل يتخبط فى ظلمات الألم حتى يفقد حياته، أو يصاب بالجنون ويشاطرنا الاستاذ الدكتور/ حسن حسني - استاذ الامراض الصدرية بطب عين شمس الحديث قائلا: إن الوفاة تنتج عن هبوط فى التنفس وزرقة فى الوجه واللسان والجسم لعدم وجود الاكسجين وهذا ينتج عنه شلل فى مركز التنفس فى المخ

ويؤدى هذا إلى هبوط العضلات ووظيفة التنفس مما يؤدى إلى نقص حاد للاكسجين فى الدم، وغيبوبة الهيروين سهلة التشخيص كما يؤكد ذلك الدكتور حسن حسني، فيها يعانى المريض من ضيق شديد فى حدقة العين وتراخ فى العضلات وعرق شديد مع وجود ارتفاع فى درجة حرارة الجسم مع الاحساس بالبرودة وهى فى الواقع نفس أعراض التسمم، وفى بعض الأحيان يعانى المدمن من الهرش وتقل كمية البول، اما إذا كان المريض من مرضى الربو الشعبى والنزلات الشعبية المزمنة، فسوف يكون هبوط القلب عنده أسرع ويتابع الدكتور حسن حسني حديثه متناولا مرضى تعاطى الهيروين عن طريق الحقن فيقول: إن كثيراً ما تسبب هذه الحقن فى وجود جلطات تكون غالباً ملوثة بسبب اهمال علاجها وهو طبيعي لهروب المدمنين من عرض حالتهم على الأطباء. هذه الجلطات تسبب التهابات صديدية فى الرئة واهمالها يؤدي الى تجمع صديدي فى الغشاء البلوري ويؤدي فى النهاية الى الفناء[٦].

تأثير المخدرات على الانف والأذن والحنجرة:

فى حالة تعاطى المخدرات والوصول فى تعاطيها إلى حد الادمان فإن الأنف هو أول ما يتأثر، فتأثره بالمخدرات يكون مباشراً بصفته البوابة الرئيسية والمدخل لكثير من هذه المواد المخدرة خاصة الكوكايين والهيروين والمورفين.

الدكتور/ السيد الفولى أستاذ الأنف والاذن والحنجرة بكلية طب القاهرة يقول: إن استخدام الأنف - الشم - كطريقة لتعاطى المخدرات ليس من قبيل المصادفة إذ أن الغشاء المخاطى المبطن للأنف يحتوى على شبكة متشعبة جداً من الشعيرات الدموية مما يسهل الامتصاص عن طريق الأنف لذلك نجد أن المواد المخدرة التى تتعاطى عن طريق الشم تقارب فى مفعولها وتأثيرها المادة التى تعطى بالحقن فى الوريد.

تعاطي الهيروين والكوكايين له آثاره الضارة والمدمرة على الجهاز العصبى والدموى والعضلى والكبد، ويؤدي إلى ضمور وتآكل الغشاء المخاطى المبطن للأنف ، ومع استمرار المدمن فى تعاطى المخدرات يصاب بثقب فى الحاجز الأنفى، وتشوهات بالأنف مما يؤدى إلى تكوين قشور سميكة بالأنف عند محاولة التخلص منها ينتج نزيف متكرر مما يؤدى إلى ضعف وذبول، وهزال المدمن، كما أن جفاف وضمور الأغشية المخاطية يؤدى إلى فقد كامل لحاسة الشم، وينتج عن ذلك احتقان اغشية - دهليز - الأنف وانتفاخ الحاجز الانفى مما يسبب صعوبة واستحالة التنفس عن طريق الأنف وفى كلتا الحالتين يفقد المدمن وظيفة الأنف كصمام أمان، ولوقاية الجهاز التنفسى ولتكييف هواء التنفس من حيث الحرارة والرطوبة مما يعرض المدمن لالتهابات متكررة فى الجهاز التنفسى، فيشعر بجفاف فى الحلق والتهابات بالحنجرة وسعال مستمر وقد يؤدى إلى نزلات شعبية ربوية مع ضيق التنفس وصرير بالاذنين وتتأثر الدورة الدموية لجهاز التوازن بالأذن الداخلية كما يشعر المدمن بالغثيان والدوار وعدم القدرة على الاتزان خاصة اثناء المشى والحركة[٧].

المدمن على تعاطي المخدرات - أياً كانت هذه المخدرات - يصاب جسمه بالوهن والضمور ويصاب ب: شحوب الوجه وضعف الأعصاب

وغالباً ما ينتهى الادمان بصاحبه إلى الجنون[٨].

وقد أثير جدل حول الآثار الصحية لتعاطي المخدرات وزعم البعض أنه غير ضار وقيلت فى هذا المجال أقوال كثيرة وانتهت الدراسات الحديثة إلى أن الحشيش وغيره من المخدرات مواد خطرة يجب اجتناب تعاطيها بالمرة[٩].


عادات الكبار يقلدها الصغار

خطر الحشيش على الشباب:

ثبت من الابحاث العلمية المتواترة والتى تجرى من آن لآخر وفى جامعات علمية مرموقة أن الشباب عندما يبدأون فى استعمال أحد المخدرات، فإنهم كثيراً ما يلجأون الى تجربة أنواع من المخدرات وعندما يبدأون فى استعمال الحشيش بانتظام فانهم يصابون بالتبلد ويعزفون عن تأدية واجباتهم، فالحشيش يعوق عملية التعلم، وذلك لأنه يضعف التفكير والفهم ويؤثر تأثيرا سيئاً على المهارات اللغوية والحسابية ويقتل الملكات فى مهدها فيصبح الشباب مقلداً خالياً من أى نزعة خيالية أو ابتكارية وقد بينت الأبحاث أن الطلاب الذين أدمنوا الحشيش لا يتذكرون ما درسوه عندما يكونوا منتشين[١٠].

كما يؤدى استعمال الحشيش إلى زيادة ضربات القلب بمقدار ٥٠ ٪ وذلك حسب كمية الحشيش المستعملة فى السيجارة وقد يؤدي استعماله إلى حدوث آلام فى الصدر وفى الاشخاص الذين يعانون من ضعف الدورة الدموية، ويرى العلماء أن الحشيش ضار على الرئتين بصفة خاصة؛ لأن المتعاطين يدخنون ويستنشقون فى الرئتين وبذلك يؤثر دخان الحشيش على أنسجة الرئتين مما يثير الرئتين ويؤثر على كفاءتها تأثيراً سيئاً والحشيش يحتوى على نفس المواد التى تحتوى عليها السجائر والتى يمكن أن تحدث التهاباً شُعَبِياً وامراض السرطان كما يتعرض الاشخاص الذين يدخنون الحشيش لأخطار صحية جسيمة يصعب علاجها.

الحشيش يسبب السرطان:

لقد ثبت أخيراً أن الحشيش يحتوى على نسبة كبيرة من المواد التى تسبب السرطان اضعاف الموجودة فى السجائر، وقد ثبت من الفحص المعملى لأنسجة الرئة التى تعرضت لدخان الحشيش لفترة طويلة، وجود تكوينات فى الخلايا تسبق تكوين الخلايا السرطانية وفى الاختبارات المعملية نتج عن القطران المستخرج من دخان الحشيش حدوث أورام عندما حقنت بها جلود الحيوانات وتبين من هذه الدراسات أنه من المحتمل أن يسبب تدخين الحشيش لعدة سنوات مرض السرطان[١١].

التأثير الجنسى للمخدرات:

ثمة افكار خاطئة يروجها البعض بين العامة فى محاولة جذب أكبر قدر من المدمنين، هذه الأفكار مؤداها أن الحشيش يزيد من الطاقة الجنسية للمدخنين، ونريد أن نركز على هذه المعلومة الخاطئة والتى هى أبعد ما تكون عن الصواب، فالحشيش يؤدى إلى تمدد الأوعية الدموية فى أجزاء خاصة من الجسم كالعينين ونرى الحشاشين وقد احمرت عيونهم نتيجة تمدد أوعيتها الدموية.

وكذا تمدد الأوعية الدموية بالخصيتين، وهذا التمدد يؤدي يوماً بعد يوم إلى اختناق الخلايا الجنسية، ومن ثم يضغط على الخلايا الجنسية التى تفقد طاقتها وتذبل يوماً بعد يوم[١٢].

تأثير الهيروين على القلب:

زودتنا تقارير حديثة بكثير من الأدلة على وجود تلازم بين ادمان الهيروين واصابة عضلة القلب، هذه الإصابة القلبية تشمل احتشاء عضلة القلب والتهابها اقفار القلب والتهاب الغشاء المبطن وقد تم تفسير الإصابات بطرق مختلفة فى أبحاث عديدة إلا أن معظم الدراسات السابقة عن تأثير الهيروين على عضلة القلب والجهاز الدورى قد عنيت بالتأثيرات الحادة لهذا العقار ومنها توقف عضلة القلب المفاجىء والتحلل الحاد لعضلة القلب والهبوط الحاد والمفاجىء أثناء تناول العقار، هذا لأن تعاطى الهيروين عن طريق الوريد له علاقة مباشرة بهذه المضاعفات اكثر مما فى تعاطى المخدرات عن طريق الشم والاستنشاق[١٣].

وقد قام عدة أطباء منهم الأستاذة الدكتورة نجلاء أبو العزايم وآخرون، باجراء دراسة اكلينكيه على مجموعة من مدمنى الهيروين وكانت خلاصة هذا البحث أن الهيروين يؤدي إلى حدوث ازمات الشريان التاجى الحادة والمفاجئة التى تسبب الوفاة، أو الهبوط الحاد والمفاجىء.

انعكاس تعاطى المخدرات على الحياة الاجتماعية:

المخدرات شر مستطير وكارثة عظيمة، وخطب جسيم يعكر صفو الأسرة، ويهدم البنيان الاجتماعى ويقوض صرح الأمة ويشتت أمنها ويحيل الحياة الاجتماعية إلى بؤرة عفنة بالمشكلات ملتاثة بالصراعات الإجتماعية، ليس

بين أفراد المجتمع الواحد فحسب بل بين أفراد الأسرة الواحدة بعضهم بعضاً.



المكان الطبيعي للدخان

المخدرات والطفل:

لقد عنى الاسلام بالطفل فى شتى مراحل حياته المختلفه منذ اختيار الزوج لزوجته مروراً بتكوينه جنيناً فى بطن أمه وتنظيم مرحلة حياته من فطام وتربية وخلال مراحل عمره المختلفه كان اهتمام الاسلام بالطفل اهتماماً اكبر من أن ندركه نحن البشر، ذلك لأن الطفل هو بذرة الحياة فهو جدير بهذا الاهتمام، وحقيق به، لأنه رجل الغد وبانى المجد والحافظة التى تصون القيم، وتقيم المبادىء ، وتحمى حمى الأوطان وتذود عنه أيدى العدى، ولن ينتظر منه شيء من ذلك إلا إذا كان قوياً فى بدنه صحيحاً فى فكره.

وقد أثبتت البحوث الحديثة أن نحو ٢٣٪ من جميع الصغار فيما بين ١٢ ـ ١٧ سنة لديهم مشكلات تتعلق بإدمان المخدرات، وهذه النسبة تصل الى حوالى (٣٫٣٠٠٫٠٠٠) طفل وكذلك نجد أن حوالى ٦٪ من طلاب السنة النهائية فى الثانوية العامة هم من المدمنين[١٤]. وبعد ما تفعله المخدرات فى عقل وعواطف شاربيها لا نستغرب قيام امرأة مدمنة على المخدرات تبيع طفلها أو طفلتها وهى تعلم أنها تبيعه لتجار الأعضاء، تلك التجارة التى ظهرت فى الآونة الأخيرة فى جنوب أفريقيا والأمريكتين ولكل عضو من اعضاء الجسم له ثمنه الخاص!! أى أنه سيُقَطَّع إرباً!!

والاحصائيات التى تجرى من آن لآخر عن الابعاد الشاملة لمشكلة اساءة استخدام المخدرات بين الأطفال مازالت قاصرة بالنظر لطبيعتها المستترة، وحديثاً بدأت كثير من الدول فى ادراك هذه المشكلة والنتائج التى أشارت إليها البحوث الأولية مفزعة إذ أن تأثير المخدرات على الاطفال خطير بشكل كبير وحتى الجرعات البسيطة نسبياً قد تسبب ردود فعل قاسية بسبب نقص الوزن وقد تضعف النمو الجسمى والنفسى للطفل بالنظر الى عدم اكتمال النضج[١٥].

وقد جاء فى صحيفة «نيوزويك» الامريكية ان تعاطى المخدرات انتشر بين الاطفال فى مدارس الولايات المتحدة وتبع ذلك موجة من الانحلال الخلقى بين الصغار بطريقة لم تحدث من قبل فى التاريخ، وقد صرح أحد رجال الشرطة فى مدينة لوس انجلوس أنه أصبح من الأمور المألوفة

مشاهدة فتيات في سن ١٣ - ١٥ سنة يتسكعن على نواصي الشوارع مثل بائعات الهوى المحترفات. ونتيجة لتردي الاخلاق وتدنى المستويات الصحية في صفوف الطلاب في اليابان. قامت[١٦] مجموعة من الاطباء اليابانيين والمعلمين الاعضاء في جمعية الابحاث المتعلقة بتأثير العادات السيئة على الصحة فوجدت أن مشاكل التدخين والمسكرات قد دخلت في صفوف طلابها حتى بلغت ٦٦٪ من تلاميذها.

وأطفال الدول المستهلكة للمخدرات ليسو أسعد حالا ولا أحسن حظاً من أطفال الدول المنتجة، فالكل في النتيجة سواء، ففي فلادليفيا على سبيل المثال نجد أن ما بين ٣٠ ألف من مدمني الهيروين عام ١٩٧٠م نجد أن ١٠٪ منهم من النساء وما يزيد عن ١٠٪ من هؤلاء النسوة المدمنات في سن الشباب

حيث تحدث حالات ولادة متعددة الأمر الذى أدى في عام ١٩٧٣م إلى أن كان من بين ٤ أطفال من المولودين في مستشفى فلادليفيا العام يولد طفل أمه تعاني من الادمان على المخدرات ومثل هذه الأم لا تأكل بطريقة سليمة، فالمخدرات تؤثر على شهيتها، والذى يزيد الأمر خطورة أن الأبحاث التى يمولها الصندوق الدولى لمكافحة المخدرات أشارت إلى تزايد عدد الأطفال الذين يولدون وهم مدمنون للمخدرات بسبب تعاطى أمهاتهم للمواد المخدرة[١٧].

كما ثبت أن الأجنة تتأثر في بطون أمهاتها بما تدمنه هؤلاء الأمهات من مسكرات ومخدرات، وهناك حالات من التشوهات الخطيرة والمرعبة لأطفال ولدوا مشوهين لهذا السبب[١٨]. وقد أعلن مركز ابحاث نيويورك للمعوقين ان الأبحاث التى أجريت به حول تأثير الحشيش على الطاقة الجنسية اثبتت أن نواة الخلايا الجنسية تتأثر من مادة كابينول وأن كروموسومات هذه الخلايا تضطرب وتمرض مع أوائل الجرعات التى تؤثر على الأجهزة العصبية، وانتهت هذه الأبحاث إلى أن المخدرات لها تأثير سيء على كروموسومات الخلايا الجنسية وهذا التأثير يؤدى إلى انتشار الأعراض الوراثية المرضية[١٩]. التى تلازم الطفل وتبقى معه خلال حياته المختلفة. ومن ثم فإن الافراط في تناول المواد المخدرة في أوقات الحمل كثيراً ما يكون وخيم العواقب. وقد أكدت أبحاث الدكتور/ جيمس فرياس من جامعة فلوريدا أذيع في اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٩٧٧م أن افراط السيدات في تناول الخمور اثناء الحمل يؤدى في ٥٠٪ من الحالات الى ولادة طفل متخلف عقلياً بينما يؤدي في ٣٠٪ من الحالات إلى ولادة طفل مشوه[٢٠] ويؤكد الطبيب الأمريكي فرياس ان التجارب اثبتت أن هذه التشوهات تنجم عن عامل موجود في المشروبات الكحولية نفسها.

ومن ناحية أخرى أثبتت آخر الإحصائيات أن عدد النساء الأمريكيات اللاتى يدمن الخمر قد بلغ نصف عدد المدمنين عموماً في الولايات المتحدة الذى يبلغ عشرة ملايين شخص[٢١].
هذه الحقائق اثبتها كثير من العلماء منهم ستوكار والانسة كريغ وشاران وقيرة ونيكلو وغيرهم من كبار الباحثين في هذا الموضوع[٢٢].

المخدرات والعقم:

لقد أثبتت الدراسات الطبية أن المواد المخدرة وما يقع فى طائفتها يؤدى إلى انقراض عائلات برمتها فى العقب الأول، أو الثانى أو الثالث، أما الأول فهو قتل الجنين، أو فتكها بالطفل بعد الوضع. أما الثانى فهو انه إذا سلم الابن الأول، فقد يكون عقيماً أو قد تخرج منه اطفال لا تلبث أن تقضي نحبها أو يموتوا أجنة فى أرحام أمهاتهم، اما إذا وُلد أبناء للعقب الثانى، فلا شك أن الثالث يولد عقيماً ولا تعيش ابناؤه وبذلك تنقرض الأسرة، ولقد ثبت ذلك طبياً، وأجريت تجارب كثيرة انتهت كلها بإثبات فعل الخمر وهدمه للاسرة والعمران وذكر «بار توهولبات» أن فى المائة ستة وثمانين من شاربى الخمر تنعدم فيهم الحيوانات المنوية، فلا يعقبون نسلا، وهناك بعض الامراض الأخرى تسببها الخمر يمتنع فيها الزواج مطلقاً للبكر ويحرم فيها طبياً حمل الثيب، وينبغى للمصاب بأحدها أن يمتنع عن الزواج مطلقاً وإلا جنى على نفسه[٢٣]، فالادمان له آثار مدمرة على النساء اللاتى يتعاطين المخدرات بما فى ذلك المرأة الحامل التى يستفحل لديها الخطر حيث أن الضرر لا يستقر عندها فقط بل يمتد أثره الخطير ليلحق بالجنين فيؤثر على تكوينه الخلقى فتنشأ معه الامراض التى تنمو بنموه حيث أن اغلب المخدرات والمسكرات التى تتعاطاها المرأة الحامل تصل إلى الجنين عن طريق المشيمة لذا يحتم على كل امرأة حامل ترغب فى انجاب طفل سليم خال من الأمراض الابتعاد عن طريق الادمان ذلك الطريق الموحش والمليء بالمشقات.

■ للبحث صله ■

الهوامش:

(١) د. حامد جامع - عقيد/ محمد فتحى عيد، المخدرات فى رأى الاسلام.

(٢) بسيونى الحلوانى. عوامل هدم كيف نقاومها - الوعى الاسلامي ع٢٥٨.

(٣) رسالة الامام احذروا المخدرات، ص ٢٧ مرجع سابق.

(٤) مرجع سابق ص٢٨.

(٥) الاستاذ الدكتور عبد الغنى الحماد رسالة دكتوراة فى المسكرات حكمها وعقوبة متعاطيها عن رسالة الامام الأحمدى ابو النور، احذروا المخدرات.

(٦) مرجع سابق، جريدة الاخبار ١٥/١٠/١٩٨٥م.

(٧) التعرف على المواد المخدرة والمواد النفسية اعداد شعبة المخدرات الامم المتحدة ط١ سنة ١٩٧٥م.

(٨) - lowel Hortan Adoloscent Alkohal abuse Phi del Kappa Educational foundation foot baek 217

(٩) التعرف على المواد المخدرة والمواد النفسية الامم المتحدة ولمزيد من التفاصيل فيما سبق انظر على سبيل المثال رسالة الامام - الاحمدى أبو النور وجريدة الأخبار فى ١٥/ ١٠/٨٥

(١٠) رسالة الامام ص ٤١، النفس المطمئنة مجلة الطب النفس ع٦ اكتوبر ٨٥ اعرف عدوك الحشيش خطر داهم يتربص بالشباب اعدها قسم البحوث والدراسات الجمعية المركزية لمكافحة المخدرات ص٢٨.

(١١) النفس المطمئنة مرجع سابق ص٣٠.

(١٢) مرجع سابق ص ٣٠.

(١٣) التاثيرات القلبية عديمة الأعراض لتعاطى الهيروين عن طريق الشم ، مجلة النفس المطمئنة ع٢٥ أجرى هذا البحث وقام به كل من د. كريم عزمى، أ.د/ نجلاء أبو العزايم، أ.د/ احمد ماضى أبو العزايم.

(١٤) انظر هامش رقم (٨).

(١٥) المخدرات فى رأى الاسلام ص٣٣.

(١٦) صحيفة البعث السورية ع ٨٦٦٢.

(١٧) مرجع سابق ص ٣٤.

(١٨) Lowel Horton Adloscent

(١٩) الدين والعلم فى مواجهة المخدرات ص ١١٠.

(٢٠) المستشار عزت حسانين ص ٩١، احذروا المخدرات ص ٣٧ - ٣٨.

(٢١) فكرى عكاظ ، الخمر فى الفقه الاسلامي ص ١٥٤ واحذروا المخدرات ص ٣٨.

(٢٢) مرجع سابق ص ٣٨.

(٢٣) الاستاذ الدكتور عبد الغنى الحماد، رسالة دكتوراه فى المسكرات حكمها وعقوبة متعاطيها.

إشكالية تخطيط السياسة اللغوية في الوطن العربي

بقلم: د. علي القاسمي
المنظمة الاسلامية للتربية والثقافة والعلوم - المغرب

اللغة السياسية والسياسة اللغوية:

للسياسة لغة خاصة بها لصيقة بطبيعتها، إذ تصهر مفردات اللغة في بوتقة السياسة، فتتشكل بشكلها، وتتلون بألوانها، حتى تصبح هذه المفردات العادية مصطلحات سياسية، لها دلالاتها المتميزة عن المعاني المتداولة بين الناس. وهذا أمر يعرفه المشتغلون في السياسة والدبلوماسية والعاملون في الإعلام والصحافة، ويدركه كثير من المدمنين على قراءة الصحف وسماع نشرات الأخبار التي تبثها الإذاعة والتلفزة.

ولكن قليلا منا يدري أن اللغة هي الأخرى لها سياسة تختلف من مكان لآخر وتتباين من زمان إلى زمان. ولعل هذا الأمر يقع ضمن مقولة «إن السياسة هي كل شيء، أو إن كل شيء هو *السياسة في النهاية*» وتسعى الدول المتقدمة إلى تخطيط سياستها اللغوية وإرسائها على أسس صلبة، وتحشد الطاقات والإمكانات البشرية والمادية لتنفيذها بوسائل فعالة تحقق الأهداف المرسومة وتبلغ الغايات المرجوة.

وإذا كانت السياسة هي «علم القوة وتنظيمها في المجتمعات»(١)، فلابد أن تخضع هذه القوة للعقل أو أن توافقه على الأقل. والدولة هي المؤسسة التي تضطلع بإخضاع القوة للعقل أو التوفيق بينهما لصالح المجتمع والأفراد. ووسيلة الدولة في فعل ذلك هي التخطيط.

تخطيط السياسة وسياسة التخطيط:

فبواسطة التخطيط تعمل الدولة على توجيه الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها لتحقيق أهداف محدودة وفق خطة مرسومة وحتى إذا كانت وسائل الاتصال وأجهزة الصحافة والإعلام ومؤسسات التربية والتعليم ملكا للأفراد أو القطاع الخاص، فإن الدولة تستطيع أن تؤثر فيها وتوجهها الوجهة التى تضمن تطبيق خططها واتباع نهجها، وذلك عن طريق ممارسة الدولة لسلطتها في القطاع العام، فالدولة، مثلا، تستطيع تقديم الإعانات المادية أو التقنية للبرامج التعليمية والإعلامية والمنتجات الاقتصادية التي ترغب فيها، وتفرض من جهة أخرى، الضرائب على البرامج والمنتجات غير المرغوب فيها، وتضع العراقيل المختلفة في وجهها[٢].

ووضع الخطط معروف في جميع الدول في الوقت الحاضر، إلا أن الفرق في هذا بين الدول

المتقدمة والدول النامية يكمن في نقطتين: الأولى، أن الدول النامية تعطي الأولوية للخطط الاقتصادية، آملة أن تحقق بذلك التنمية الاقتصادية المرجوة، في حين أن الدول المتقدمة تولي أهمية كبيرة للخطط اللغوية والتربوية والعلمية، مدركة أن لا تنمية اقتصادية بدون لغة متطورة تيسر نشر المعرفة العلمية والتقنية وتؤمن التواصل المشترك الفعال. والثانية، أن الخطط التي تصممها الدول المتقدمة تقوم على أسس علمية وتنتهي إلى التنفيذ وبلوغ الغايات؛ أما خطط الدول النامية فكثيرا ما تبدو جذابة وبراقة ولكن أجهزة الدولة لا تتمكن من تنفيذها، لعدم كفاءة هذه الأجهزة أو لعدم توفرها على الوسائل اللازمة.. إن وضع الخطة الجيدة لا يكفي ما لم يتم تنفيذها واستثمار نتائجها.

وللتخطيط متطلبات لابد من استيفائها، وأهمها: مسح الحاجات الحقيقية للمجتمع، وإجراء البحوث والتجارب العلمية، والاستفادة من تجارب البلاد الأخرى، والاستعانة بالمتخصصين في الميادين المختلفة، ووضع الخطط على أساس ذلك كله، وتوفير الوسائل اللازمة للتنفيذ، وتقييم النتائج التي يفرزها التطبيق، ثم تعديل الخطط في ضوء التقييم لتذليل العقبات التي تعترض التنفيذ أو تقلل من المردودية[٣].

تخطيط السياسة اللغوية:

وتنطبق متطلبات التخطيط هذه على جميع أنواع السياسات سواء أكانت سياسات اقتصادية أو تربوية، أو علمية، أو لغوية، أو غير ذلك. كما أن لكل نوع من هذه السياسات عناصر معينة تنبع من طبيعته وخصوصياته، وتتأثر بالنتائج المتوخاة من تخطيطه، وتختلف طبقا للظروف الزمنية والمكانية. فتخطيط



السياسة اللغوية مثلا يتطلب أولا الاستفادة من حصيلة الدراسات اللسانية والسكانية والاجتماعية في آن واحد، وتسخير نتائجها في وضع الخطط المطلوبة. وفي هذا المجال نتذكر مقولة أوغست كونت الشهيرة: «المعرفة فالتنبؤ فالقدرة» التي تعني التخطيط بطريقة علمية قوامها دراسة الأشياء والظواهر لمعرفة قوانينها بقصد التأثير في مجرى الأحداث في المستقبل وتوجيهها الوجهة المرغوبة.

وأحسب أن السياسة اللغوية في الوطن العربي ينبغي أن تشتمل على العناصر التالية: محو الأمية، وتعميم استعمال العربية الفصيحة خاصة في وسائل الاتصال المسموعة والمرئية، واستكمال التعريب في الإدارة والتعليم بما في ذلك توفير المصطلحات الحضارية والعلمية والتقنية بشكل منتظم، والترجمة من اللغات العالمية وفق خطة تستجيب لمتطلبات التنمية،

وتعليم اللغات الأجنبية في مدارسنا، وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها داخل الوطن العربي وخارجه، وتنمية اللغات الوطنية غير العربية في الوطن العربي.

كتاب فريد في تخطيط السياسة اللغوية:

وعلى الرغم من صدور سيل من الكتب اللغوية عن دور النشر العربية في المشرق والمغرب فإن أغلبيتها الساحقة تدور في فلك النحو والبلاغة واللسانيات، ويندر أن يتناول أحدها قضية تخطيط السياسة اللغوية بالدرس والبحث. غير أن كتاب الأستاذ عبد الكريم غلاب الذي صدر مؤخرا في المغرب بعنوان (من اللغة إلى الفكر) يتعرض في بعض فصوله لقضايا تخطيط السياسة اللغوية. ويكاد يكون كتابا فريدا في موضوعه، رائدا في منهجه، إذ أن المؤلف يتناول في هذا الكتاب عددا من القضايا الحساسة بطريقة تنم على الدراية والتمكن من الموضوع وطرائق البحث العلمي، وتتسم بالموضوعية والنزاهة وبعد النظر، بفضل ما تجمع له من مؤهلات سامية وخبرات معمقة في ميداني الثقافة والسياسة معا. فالأستاذ عبد الكريم غلاب مفكر أكاديمي جليل، وأديب معروف، وروائي وقصصي مرموق، وصحفي بارز، وبرلماني قيادي، وسياسي مناضل مشهود له بالوطنية والنزاهة وإذا كان كتابه يتناول الوضع اللغوي في المغرب أولا وبالذات فإن مقدماته واستنتاجاته تصدق إلى حد كبير على كثير من الدول العربية ثانيا وبالعرض. ولهذا فإن الكتاب يكتسي أهمية خاصة لكل مثقف عربي أينما كان. وفي هذا العرض القصير نتطرق إلى بعض القضايا العديدة والهامة التي يتناولها الكتاب لأن هذا الكتاب لا يعالج قضايا اللغة فحسب وإنما يتناول كذلك إشكاليات الثقافة والحضارة بالدرس والتمحيص. فالمؤلف لا يعد اللغة مستقلة عن الفكر ولا الفكر منفصلا عن اللغة. ولهذا فإن اللغة ليست مسألة لسانية فقط وإنما هي كذلك «قضية وطنية، وقضية فكرية، وقضية دينية، وقضية عرقية، وقضية سياسية، وقضية اقتصادية، وقضية استعمارية، وقضية وحدوية وتعددية»[٤].

ازدواجية اللغة وثنائيتها في الوطن العربي:

ونظرا لهذا الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر، فإن المؤلف يرى أن التعريفات التي يضعها علماء اللسانيات لازدواجية اللغة وثنائيتها لا تنجو من التبسيط، ولا تسلم من التسطيح، لأنها تعتمد على المقاييس اللسانية البحتة وتغفل الجوانب الثقافية والاجتماعية. ولهذا لا يتردد المؤلف - بعد أن يعرض تحليل اللغويين لظاهرتي الازدواجية والثنائية - في القول: «وأعتقد أن في هذا التحليل نوعا من التمحل الذي تصطنعه الدراسات اللغوية، وربما كانت تبتعد فيه عن الواقع»[٥].

على مستوى العالم العربي التعريب ضرورة لغوية وثقافية وقومية ودينية

العربية الفصحى والعامية:

يقصد بالازدواجية اللغوية[٦] استخدام مستويين من مستويات اللغة في مكان واحد، بحيث تستخدم اللغة الفصيحة في الخطاب الرسمي والكتابة، في حين تستخدم اللغة العامية في الحديث اليومي المعتاد. وهذه هي الازدواجية البسيطة. وتكون الازدواجية مركبة إذا كانت العامية تتوفر على أكثر من لهجة

واحدة حسب المناطق الجغرافية أو الطبقات الاجتماعية أو غير ذلك. أما في الوطن العربي فيرى بعض اللغويين أن الازدواجية معقدة لأن العربية الفصيحة قد تختلف شيئا ما من قطر عربي لآخر، إضافة إلى تعدد اللهجات العامية.

ويلفت المؤلف الانتباه إلى حقيقة أن الازدواجية اللغوية ليست مقصورة على اللغة العربية وإنما توجد في جميع اللغات الكبرى الأخرى. فكل من يجيد اللغة الانجليزية أو الفرنسية، مثلا يمكنه ملاحظة هذه الظاهرة لدى زيارته البلاد الناطقة بهذه اللغة أو تلك. ولذا فإن هذه الظاهرة تتصف بالشمولية، أي بوجودها في معظم اللغات الكبرى، ويمكن تصنيفها تحت مصطلح «عالمية اللغة» ولكن إذا كانت هذه الظاهرة واحدة من حيث النوع، فإنها تختلف من حيث الدرجة من لغة إلى أخرى. فالفرق بين مستويات اللغة يتضاءل كلما ازداد التعليم وانخفضت الفروق الاجتماعية والاقتصادية بين شرائح المجتمع والعكس بالعكس.

اللغة الأم واللغة الثانية:

وتعني الثنائية اللغوية تمكن الفرد من استخدام لغتين اثنتين، أو وجود لغتين في القطر الواحد. ولكن اللغويين يختلفون فيما بينهم حول القدر اللازم من المهارات اللغوية الواجب توفرها ليعد الفرد ثنائي اللغة: هل يلزم أن يجيد اللغتين إجادة تامة وبصورة متساوية، أم يكفي أن يجيد إحداهما ويلم بالأخرى بصورة وظيفية، أي يتفاهم بها بدون صعوبة كبيرة؟ كان هذا المصطلح في بداية ظهوره في القرن الماضي يطلق على الشخص المولود لأبوين يتحدثان لغتين مختلفتين، فينشأ وهو يتحدث بهما بصورة طبيعية وكأنهما لغتا أمّ بالنسبة إليه. ونتيجة لتطور وسائط المواصلات ووسائل الاتصال بعد الثورة الصناعية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، انتشر تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها، وازداد عدد الأفراد الذين يتحدثون بلغة ثانية إلى جانب لغتهم الأم، فاتسع مفهوم المصطلح «ثنائي اللغة» ليشمل أولئك الذين يعرفون لغة ثانية بدرجات متفاوتة. ويصبح الفرد أو القطر متعدد اللغات عندما تزيد اللغات المستعملة على لغتين.

الدراسات اللسانية والسكانية والاجتماعية قاعدة أساسية للتخطيط اللغوي

وينطبق مصطلح «ثنائي اللغة» كذلك - كما أشرنا - على القطر الذي تستعمل فيه لغتان وطنيتان، كما هو الحال في كندا - مثلا - التي يتحدث قسم من سكانها الإنجليزية ويتحدث القسم الآخر الفرنسية. وبلجيكا التي تستخدم فيها الفلامنكية والفرنسية. كما يعد القطر متعدد اللغات عندما تستعمل فيه ثلاث لغات وطنية أو أكثر مثل سويسرا التي تتوفر على أربع لغات وطنية حسب المناطق هي: الألمانية والفرنسية والإيطالية والرمانشية. وقد تتخذ الدولة إحدى اللغات لغة رسمية وحيدة أو تسمح باستخدام اللغات الأخرى في مناطق جغرافية محدودة أو في مراحل معينة من مراحل التعليم في تلك المناطق، كما قد تتخذ الدولة جميع لغاتها الوطنية لغات رسمية. ويزداد الأمر تعقيدا عندما تدخل في الصورة لغة أجنبية إلى جانب اللغات

الوطنية في قطر ما بحيث تتحول التعددية اللغوية البسيطة إلى تعددية لغوية مركبة أو معقدة طبقا لاستعمالات اللغات الوطنية واللغة الأجنبية وموقع كل لغة على الخريطة اللغوية والثقافية لتلك البلاد. ففي كثير من بلاد العالم الثالث التي خضعت للاستعمار الأوربي الذي فرض لغته وثقافته عليها، أصبحت لغة المستعمر السابق هي اللغة الرسمية الوحيدة، كما هو الحال في نيجيريا التي يتحدث أهلها، بحسب المناطق، ثلاث لغات رئيسية هي الهوسا، واليوربا، والإبو، ولكن الإنجليزية هي اللغة الرسمية. وفي بلاد أخرى قد تستعمل اللغة الأجنبية وإحدى اللغات الوطنية لغتين رسميتين، كما هو الحال في الهند حيث تستعمل الإنجليزية والهندية لغتين رسميتين مع وجود لغات وطنية عديدة في هذه البلاد.

الاستعمار الغربي عمل على نشر لغته لإضعاف اللغة العربية

إن صاحب القرار في البلاد المتعددة اللغات يواجه - لا شك - صعوبة في تحديد معالم الخريطة اللغوية لبلاده؛ فهو يسعى - من جهة - الى ترصين الوحدة الوطنية التي تقوم على الوحدة الثقافية التي تتطلب بدورها لغة وطنية واحدة، وفي الوقت نفسه يريد أن يفسح المجال للغات الوطنية الأخرى للنمو والتطور. وتعتمد صناعة القرار عادة على ما يقدمه البحث العلمي من معطيات لغوية، واجتماعية - لغوية تتعلق بطبيعة كل لغة وصلاتها باللغات الأخرى ونسبة الناطقين بها ونطاق وظيفتها في التواصل الاجتماعي ودورها في تاريخ الأمة ومسيرة الحضارة الإنسانية عامة. كما تؤثر في صياغة القرار عوامل لا علاقة لها بالبحث اللساني وإنما تتعلق بالسياسة والاقتصاد وغير ذلك.

تنمية اللغات الوطنية غير العربية في الوطن العربي:

كيف - يا ترى - ينبغي أن نخطط السياسة اللغوية في الوطن العربي فيما يتعلق باستعمال اللغات الوطنية غير العربية، في رأي المؤلف؟

يعالج الأستاذ عبد الكريم غلاب في كتابه (من اللغة إلى الفكر) الوضع اللغوي في الوطن العربي بصورة عامة متخذا المغرب نموذجا لتحليله واستنتاجاته. وإذا رجعنا إلى ما يقوله اللسانيون عن الوضع اللغوي في المغرب، نجد أنه يتسم بالازدواجية اللغوية المعقدة والتعددية اللغوية المعقدة كذلك. فالمغرب يتخذ اللغة العربية لغة وطنية رسمية، ولكن للغة العربية مستويين رئيسيين: أحدهما يتمثل بالعربية الفصحى التي تستخدم في الكتابة والمناسبات الرسمية والآخر يتمثل في العربية العامية ولها لهجات جغرافية كما أن لها مستويات اجتماعية. وإضافة إلى العربية توجد اللغة أو اللغات الأمازيغية، حيث تستعمل منها في المغرب ثلاث لغات أو لهجات هي: الريفية، والأطلسية (الشلحة) والسوسية. ولكن المتحدثين بهذه اللغات أو اللهجات لا يفهم بعضهم بعضا، كما أنهم لا يتفاهمون مع الناطقين باللهجات أو اللغات القبائلية المتواجدة في الجزائر، والتي تعد أمازيغية الأصل كذلك.

والأمازيغية - في الغالب الأعم - لغة منطوقة وتتوفر على رصيد غني من «فن قول شفوي

أغلبه مغنى. وهو فن رفيع متعدد الاهتمامات لأنه نبع من الحياة نفسها. وكما تنوع شكله وأسلوبه، والطريقة الفنية والبلاغية للتعبير به .. تنوعت مضامينه»[٧].

وإضافة إلى العربية والأمازيغية بلهجاتهما المختلفة ومستوياتهما المتنوعة، تستخدم في المغرب اللغة الفرنسية بوصفها لغة ثانية تدرس إلى جانب العربية في المدارس، وتستعمل لغة تعليم في تلقين العلوم والهندسة والطب في التعليم العالي، كما أنها متداولة في قطاعات كثيرة في التجارة والسياحة، ومجالات متعددة في الإذاعة والتلفزة، ولهذا فهي تقوم بدور ثقافي يؤهلها لنيل مصطلح «لغة ثانية» لا «لغة أجنبية».

أشرنا سابقا إلى أن المؤلف ملم تمام الإلمام بجميع مصطلحات اللسانيين المتعلقة بازدواجية اللغة وثنائيتها وتعددها، ولكنه يقلل من شأنها ويصفها بالتبسيط والتسطيح لسببين:

أولهما: لأن هذه الظواهر ذات طبيعة شمولية تدخل في باب «عالمية اللغة» ولا تقتصر على اللغة العربية.

وثانيهما: لأن اللغة ليست مسألة لسانية بحتة وإنما هي مسألة اجتماعية واقتصادية وسياسية ووطنية وثقافية. الخ. وانطلاقا من خلفيته الوطنية والفكرية، يرى الأستاذ عبد الكريم غلاب أن الوطن الواحد لابد أن ينبني على ثقافة وطنية واحدة أساسها لغة وطنية واحدة، لأن التمزق اللغوي يؤثر في التمزق الفكري ويودي بالاستقرار والنمو السياسي، ويعرقل التطور الاقتصادي، «ولا يعني ذلك» - يقول المؤلف - «الانقفال على اللغات الأخرى وطنية وأجنبية، ولكن يعني تمكين اللغة الوطنية التي تملك رصيدا علميا، والتى تتطور في أفق أوسع مدى، والتي تبشر بمستقبل أكثر نجاحا، تمكين هذه اللغة من أن تكون لغة العلم والثقافة لتستفيد من التطور الثقافي وتفيده في نفس الآن»[٨].

وبعد أن يؤكد الأستاذ عبد الكريم غلاب ضرورة تعميم استعمال اللغة العربية بوصفها اللغة الوطنية الرسمية في المرافق الإدارية والاقتصادية وبوصفها لغة التعليم الوحيدة في جميع مراحل التعليم، يدعو إلى تعليم اللغات الوطنية فيقول: «إن الأمازيغية يجب أن تكون لغة ثانية في التعليم العام يتعلمها - قبل الفرنسية - جميع المغاربة كلغة وطنية ليتعرفوا على حقيقة بلادهم وعلى تاريخها وأمجادها وآدابها وفنونها»[٩].

التمزق اللغوي يؤدي الى التمزق الفكري والثقافي

وبقدر ما تتسم دعوة الأستاذ غلاب بروح الوطنية والعدالة الاجتماعية والتنمية الثقافية فإنها تثير عددا من القضايا اللسانية والتربوية والعملية. فمن الناحية اللسانية تطرح الأسئلة التالية:

١ - أية أمازيغية ينبغي أن يتعلمها جميع المغاربة لغة ثانية؟ أهي الريفية أو الشلحة أو السوسية؟ وعلى الرغم من أننا لا نجد إجابة مباشرة على هذا السؤال في الكتاب، فإننا نستشف من سياقات المؤلف أن اختيار اللغة أو اللهجة يعتمد على المناطق المختلفة.

٢ - بأي حرف ينبغي كتابة الأمازيغية من أجل تدريسها وتعميمها لغة وطنية ثانية؟ أبالحرف

العربي أو بالحرف اللاتيني أو بحرف تيفناغ، وهو الأبجدية الأصلية التي كتبت بها الأمازيغية قبل اثني عشر قرنا ونيف؟ هنا نجد الإجابة مباشرة على هذا السؤال، إذ يقول المؤلف «وأعتقد أن الاختيار يجب أن يرسو على الخط العربي كما كان الأمر بالنسبة للغات الإسلامية.. حتى يمكن أن تتسع رقعة القارئين بها سواء كانوا مثقفين ومتعلمين بالعربية أو بهما معا»[١٠].

ومن الناحية التربوية والعملية تثار الأسئلة التالية:

١ - ما هو عدد الحصص الأسبوعية والسنوات الدراسية اللازمة لتعلم الأمازيغية؟ لا شك أن الإجابة تعتمد على ما إذا كانت الإمازيغية لغة الأم بالنسبة للتلميذ يستخدمها في المنزل أم لا. ولهذا يتوجب إعداد مناهج متنوعة لتعليم الأمازيغية، واتباع طرائق تدريسيةمختلفة حسب أنواع المتعلمين.

٢ - ما هي الفائدة العملية لتعلم الأمازيغية بالنسبة لتلميذ مغربي ليست الأمازيغية لغته الأم ويعيش في مدينة الدار البيضاء وينوي العمل في القطاع التجاري أو السياحي؟ هل تشكل الأمازيغية - في هذه الحالة - عبئا على المنهج المدرسي؟ ولقد انتقد المستشرق الفرنسي الراحل الأستاذ جاك بيرك اقتراح صديقه الأستاذ عبد الكريم غلاب من هذا المنطق العملي، وأعرب في مقابلة صحفية أجريت معه قبيل وفاته عن اعتقاده بعدم فائدة تعميم الأمازيغية في التعليم العام، واقترح تبني النموذج الفرنسي الذي يجعل اللغات الوطنية في فرنسا - غير اللغة الفرنسية - موادا اختيارية في المناطق التي تنتشر فيها تلك اللغات فقط بحيث يترك للتلميذ حرية تعلمها سواء أكانت لغة أم بالنسبة له أم لا.

ولكن اقتراح الأستاذ غلاب لم يكن في أساسه مبنيا على أسس عملية أو تعليمية وإنما هو نتيجة دوافع وطنية وثقافية ترمي إلى تعزيز الوحدة الوطنية، وتنمية الثقافات الشعبية. وهو عين الموقف الذي تتخذه الحركة الوطنية المغربية منذ فترة طويلة ممثلة في حزب الاستقلال الذي يعد المؤلف من أبرز زعمائه ومنظريه.

٣ - والسؤال الأخير يتعلق بدرجة تعليم اللغة الأمازيغية للأطفال في المناطق التي تسود فيها تلك اللغة. هل تعلم بوصفها مادة في المنهج المدرسي فقط؟ أم أن من الأفضل استخدامها لغة تلقين في بعض مراحل التعليم أو جميعها؟ كما هو الحال في النموذج الإسباني حيث يتيح الدستور الإسباني استخدام الكاتلونية أو الباسكية مثلا لغة للتعليم في المناطق الكاتلونية أو الباسكية بالإضافة إلى تعلم القشتالية (الإسبانية) بوصفها اللغة الوطنية الجامعة. هنا يرى المؤلف ضرورة اختيار لغة وطنية واحدة للتلقين لتمكين الطلاب «من إدراك العلوم بدلا من تمزق الفكر بين لغتين للتلقين»[١١]، وينبغي أن يتوفر للغة التلقين هذه تراث علمي مكتوب، وحاضر علمي يدعمه البحث والدرس، لتحقيق مستقبل زاهر من النماء والتطور.

حركة التعريب متوقفة تماماً

ونستطيع أن نتفهم موقف المؤلف بصورة أفضل إذا ما أدركنا الخلفية السياسية لهذه

المسألة اللغوية البالغة الحساسية. فقد سعت الدول الاستعمارية الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى احتلال المغرب عسكريا وسياسيا واقتصاديا، ونجحت في تمزيقه إلى مناطق نفوذ عديدة: نفوذ إسباني (حمائي) في الشمال، ونفوذ إسباني (إلحاقي) في سبتة ومليلية، ونفوذ إسباني (حمائي إلحاقي) في الصحراء الغربية، ونفوذ فرنسي في الوسط والشرق، ونفوذ دولي في طنجة. ومن ناحية أخرى سعت الدول الاستعمارية إلى تمزيق المغرب عرقيا وقضائيا ولغويا.

فأصدرت سلطات الحماية الفرنسية قانونا - في ١٦ مايو عام ١٩٣٠ - يعرف بالظهير البربري ويهدف في حقيقة الأمر إلى «تكريس تمزيق المغرب إلى مجموعات بشرية وقبلية: مدينية وبدوية، بربرية وعربية، خاضع بعضها (قضائيا) للإسلام وبعضها للأعراف، بعضها يتحدث ويتعلم الفرنسية والبربرية، وبعضها يتحدث ويتعلم الفرنسية والعربية[١٢]. وهذا يندرج تحت سياسة «فرق تسد» التي أتقنها المستعمر الإنجليزي قبل زميله الفرنسي. وقد واجه الظهير البربري معارضة عارمة ورفضا قاطعا من جميع المواطنين المغاربة بربرا وعربا، ناهيك عن النضال الذي شنته الحركة الوطنية ضد هذا القانون وضد سلطات الحماية برمتها. ولهذا نجد اليوم أن الحركة الوطنية المغربية حريصة على صيانة الوحدة الثقافية والوطنية والحذر من كل ما من شأنه المساس بها أو تعريضها للوهن والضعف خاصة أن المغرب ما يزال يواصل الكفاح من أجل وحدته الترابية وتحرير أجزائه السليبة في سبتة ومليلية. وفي ضوء هذه الخلفية السياسية يمكن فهم إصرار الأستاذ عبد الكريم غلاب على استخدام لغة تعليم واحدة هي اللغة العربية الفصيحة، وتعليم الأمازيغية لغة وطنية ثانية لجميع المغاربة عربا وبربرا.

العجز ليس في اللغة العربية، بل في القائمين عليها

التعريب ركن من أركان التحرر الوطني:

للتعريب معان متعددة واستعمالات مختلفة[١٣]. والمقصود به هنا إبدال اللغة الوطنية (العربية) باللغات الأجنبية في الإدارة والتعليم في الوطن العربي. ولا يشكل استعمال اللغة الوطنية في التعليم قضية في الدول الأوربية فهي لم تتعرض لاستعمار أو انتداب يفرض عليها لغة أجنبية. وبالتالي فإن ذلك لا يشكل جزءا من سياستها اللغوية.

يقول الأستاذ عبد الكريم غلاب «لو أن باحثا غربيا مثلا فكر أو بحث في موضوع (الفرنسة) أو (النجلزة) في فرنسا أو انجلترا لدعا تفكيره أو بحثه إلى استغراب، وربما إلى سخرية، لأن أحدا في فرنسا أو انجلترا لا يمكن أن يفكر في فرنسة بلاده أو نجلزتها. ولكننا في الوطن العربي نعتبر البحث في هذه المشكلة من صميم تأكيد الذات العربية، ومن صميم معركة التحرر التي يقودها الوطن العربي للتخلص من التخلف ورواسبه، ومن الاستعمار ورواسبه[١٤].

وبعيدا عن تأكيد الذات والاعتزاز بالنفس والتخلص من الاستعمار الثقافي والفكري، فإن أهمية التعريب في الوطن العربي تكمن في

نقطتين هامتين تؤثران مباشرة على التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي نطمح إليها:

أولاهما: أن الطالب الذي يتلقى دروسه وتعليمه بلغة أجنبية يعاني صعوبة استيعاب المادة التعليمية وتمثلها إلا إذا كان هذا الطالب قد بلغ شأوا عاليا من الثنائية اللغوية وهو أمر ليس في ميسور الأغلبية الساحقة من الطلاب.

وثانيتهما: أن التنمية العلمية والتكنولوجية تحتاج إلى قاعدة شعبية واسعة تتمتع بثقافة علمية تقنية، وهذا ما يطلق عليه بـ «تعميم الثقافة العلمية» ولا يمكن إشاعة الثقافة العلمية ما لم تكن اللغة المستعملة هي اللغة الوطنية التي يفهمها الشعب ويصبح تعلمها في متناول الجميع. أما إذا كان تدريس العلوم والبحث فيها يتمان بلغة أجنبية فإن المعرفة العلمية تبقى منحصرة في يد نخبة محدودة من الشعب مما لا يساعد على توفير العقلية الشعبية العلمية واليد العاملة التقنية اللتين تتطلبهما التنمية الشاملة المرجوة.

ويتطلب تعريب التعليم ثلاثة أمور أساسية: توفير المصطلحات العلمية الموحدة باللغة العربية، وإعداد المناهج الدراسية والكتب المرجعية التي تستخدم تلك المصطلحات العربية الموحدة، وتدريب الأطر التعليمية للتدريس وكتابة البحوث العلمية باللغة العربية. وهناك صلة وثيقة بين هذه المتطلبات الثلاثة. فإذا لم يكن الأستاذ الجامعي مثلا يمارس التدريس باللغة العربية فإنه لا يستطيع عادة أن يكتب بحوثه باللغة العربية، وإذا لم تنشر نتائج البحث العلمي باللغة العربية فإنه لا يمكن توفير الكتب المرجعية العلمية بهذه اللغة.

منذ بضعة عقود أعلنت الدول العربية واحدة واحدة - عند نيلها الاستقلال - عن عزمها على تعريب التعليم والإدارة، بل عمد بعضها إلى النص على أن اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية في الدساتير والقوانين الأساسية.

كثير من الشعوب تستخدم لغتها الوطنية في التعليم ما عدا الشعب العربي

ولكن نظرة خاطفة على التعليم العالي في البلاد العربية تكفي لإقناعها بأن التعريب لم يستكمل، فمازال تدريس العلوم والهندسة والطب في الغالبية العظمى من الجامعات العربية يتم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو أية لغة أخرى ما عدا العربية، ولا يهمنا أن تدرس الجامعات الإسرائيلية بالعبرية أو الجامعات الهولندية بالهولندية، أو الفلندية بالفلندية، مع تبجحنا في نفس الآن بأن العربية هي أطول اللغات قاطبة عمرا وأثراها لفظا وأتمها نحوا. ولقد زادت شكوى الأساتذة الجامعيين العرب من عدم استيعاب طلابهم للمحاضرات التي تلقى عليهم بلغة أجنبية لا يتقنونها دون أن يكون لتلك الاستغاثة من مجيب أو يلوح في الأفق حل لهذه المعضلة، فاضطر الأساتذة إلى خلط اللغة الأجنبية بعبارات عربية عامية بغية التبليغ ومساعدة الطلاب على الفهم، فأمست المحاضرات هجينا لا هو بالعربية الفصيحة ولا هو بالإنجليزية السليمة أو الفرنسية الخالصة.

لقد أهرق مداد غزير وسودت صفحات لا عد لها وقيل كلام كثير في قضية التعريب وضروراته. ولفترة طويلة احتج المناصرون للبقاء على تدريس العلوم والهندسة والطب بلغات

الاستعمار القديم بعدم توفر المصطلحات العلمية والمناهج العلمية باللغة العربية، أو بأن اللحاق بالتطور العلمي يتطلب التدريس بلغة العلم (ولا ندري أية لغة يقصدون الإنجليزية أو الألمانية أو اليابانية).

وواقع الأمر لا هذا ولا ذاك، وإنما يعود الأمر إلى عدم توفر الإرادة الوطنية والقرار السياسي. فمكتب تنسيق التعريب الذي أنشىء عام ١٩٦١ لتوحيد المصطلحات العلمية والتقنية التي تضعها المجامع اللغوية والعلمية والمؤسسات التعليمية قد أصدر عشرات المعاجم الموحدة التي تشتمل على الآلاف المؤلفة من المصطلحات العلمية بعد أن أقرتها مؤتمرات التعريب المتعددة التي عقدت في طول الوطن العربي وعرضه خلال السنوات الأربع والثلاثين الماضية وشارك فيها مئات اللغويين والمصطلحيين والمعجميين والمسئولين عن التعلم في البلاد العربية. هذا بالإضافة إلى أن المنظمات والجمعيات المتخصصة أصدرت معاجم تشتمل على مصطلحاتها التقنية، فأصدر اتحاد الأطباء العرب المعجم الطبي العربي الموحد، وأصدر الاتحاد العربي للسكك الحديدية معجما بالمصطلحات السككية وأصدرت المنظمة العربية للتنمية الزراعية معجما بالمصطلحات الزراعية، وأصدر الاتحاد العربي للألعاب الرياضية معجما بالمصطلحات الرياضية، وهلم جرا. وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وهكذا نرى أن المصطلحات العلمية والتقنية لتعريب التعليم والإدارة والأطر متوفرة، ولكن هذا التعريب مازال عزيز المنال بعيد الملتقى، لأن مشكلة التعريب، كما يقول الأستاذ عبد الكريم غلاب ليست قضية مصطلحية أو قاموسية بقدر ما هي قضية سياسية وطنية «وأن التحرر الفكري عن طريق تحرر اللغة هو جزء مهم من التحرر الوطني والقومي وسبيل من سبل تحقيق الوحدة العربية بالمفهوم الحضاري المعتمد على التقارب الفكري والتعاون الاقتصادي والاجتماعي»[١٥].

إن القضايا التي اخترنا استعراضها من كتاب الأستاذ عبد الكريم غلاب لا تشكل إلا جزءا يسيرا من مجموع المسائل الفكرية والثقافية والسياسية التي يتناولها هذا الكتاب والتي تستحق كل واحدة منها دراسة مستفيضة لما لها من أهمية في مصير الأمة العربية ومستقبلها[١٦].

الهوامش:

(١) د. أميرة حلمي مطر، في فلسفة السياسة (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٥) ص٥.

(٢) د. عبد الله عبد الدائم، التخطيط التربوي (بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٠) ط٤ ، ص ٦ ـ ١٥.

(٣) المصدر السابق ص ص ٤٦ ـ ٤٩.

(٤) من اللغة إلى الفكر، ص ١٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٦) أول من درس ظاهرة الازدواجية اللغوية في القرن العشرين هو اللغوي الأمريكي جارلس فرجسون الذي نشر بحثه عنها عام ١٩٥٩.

(٧) من اللغة إلى الفكر، ص ٥٨.

(٨) المصدر السابق ، ص ٨٦.

(٩) المصدر السابق، ص ٦٠.

(١٠) المصدر السابق، ص ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١١) المصدر السابق ، ص ٦٠.

(١٢) المصدر السابق ، ص ٦٢.

(١٣) أنظر معاني «التعريب» في: علي القاسمي، مقدمة في علم المصطلح (بغداد: الموسوعة الصغيرة، ١٩٨٥).

(١٤) من اللغة إلى الفكر ، ص ١٠١.

(١٥) المرجع السابق، ، ص ١١٧.

(١٦) للإطلاع على قائمة مؤلفات الأستاذ عبد الكريم غلاب، أنظر كتاب د. صالح جواد الطعمة، عبد الكريم غلاب: ببلوغرافية بأعماله وما كتب عنه في مصادر عربية : ١٩٤٧ ـ ١٩٩١ (الرباط: توبقال، ١٩٩٣).

سرّ الزجاجة



بقلم: د/عبد الرزاق فراج الصاعدي
الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة -

مدخل:

الكتابة لمجلة عريقة كالمنهل تضرب بجذور قوية في بطن التاريخ شرف عظيم لأي كاتب، والسير في درب سار فيه كوكبة من الأعلام الرواد كعبد القدوس الأنصاري وأحمد بن ابراهيم الغزاوي وأبي تراب الظاهري، وعاتق البلادي ونبيه الأنصاري يعد مغامرة محفوفة بالمخاطر لولا الصُّوى التي وضعوها على بُنيّات الطريق.

ولقد دعاني إلى ركوب الصعب حُبّي لهذه المجلة الرائدة، واستلذاذي فيها باستكناه المجهول في اللغة والأدب والتاريخ بصحبة الكرام من الكتّاب والقراء، ثم ماذا؟

ثم التمشي في «الرعيل الأول»

مشي الجمال في حياض «المنهل»

وبعد عزيزي القارىء - فهذه نافذة أطل من خلالها عليك سميتها «سرّ الزُّجاجة» لأنها - أي الزجاجة - جوهر شفاف لا يكتم فيه شيء لما في جرمه من الضياء الخالص، فأرجو أن أكون معك كتلك الزجاجة الشفافة لا أكتم عنك ما يختلج في نفسي، مما أرى فيه شيئاً من النفع - والله المستعان

١ - مطّرد وليس مضطرد:

يغلط كثير منا أو يسهو في كلمة مطّرد؛ في قولك مثلا: «هذا أمر مطّرد، أو هي عادة مطّردة. أو هو يفعل ذلك باطّراد، واطّرد الكلام أو الحديث؛ أي: جرى مجرى واحداً متسقاً، ونحو ذلك» فيقولون بدل ذلك: مضطرد (أي بطاء بعد الضاد) واضطرد!

وقد سمعتها وقرأتها كثيراً في صحافتنا ومجلاتنا، ورأيتها في كتابات من يشار إليهم بالبنان، ووقفت عليها في كتب متخصصة في اللغة والأدب، وكم هممت أن أنبّه عليها، فتحول بيني وبين ذلك الأشغال، حتى رأيتها في كتاب أدبي مشهور لأستاذ جامعي كبير، وهو كتاب «المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» للأديب الدكتور عبد الله الطيب؛ إذ وجدته يقول في حديثه عن بحر المتقارب: «وأقل ما يقال عنه إنه بحر بسيط النغم، مضطرد التفاعيل» (المرشد ٣١٢/١)

واطّرد عند الصرفيين على وزن (افتعل) أبدلت تاء الافتعال طاء، وأدغمت في الطاء الأصلية، وأصلها: (اطترد) بالتاء، ومثلها في ذلك (اطلع) أصلها (اطتلع).

أما «مضطرد» بالدال فلا يكون اشتقاقها إلا من (ضرد) فيكون أصلها على هذا التقدير لو صحّ الاشتقاق: (مضترد) والذي يحسم الأمر في هذه المسألة أن الأصل (ض ر د) مهمل في العربية.

ويبدو لي أن سبب الخلط في هذه الكلمة هو قياسها على كلمة «مضطرب» وهي كلمة صحيحة، لأنها من (ض ر ب) ولهذا قل مطّرد ولا تقل مضطرد.

٢ - عروس من الزنج:

ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جمان
هرب النوم عن جفوني فيها
هرب الأمن من فؤاد الجبان

رحم الله رهين المحبسين، وغفر له ذنوبه، فكم أهدى لقارئيه من متعة الأدب ما تعجز عن جلبه

الأموال، فحسبك تأملات خاطفة في «سقط الزند» أو «اللزوميات» ليخفق لها القلب ويهيم بها الوجدان. وهذه مقطوعة من ديوانه «سقط الزند» الذي أنشأه في صباه، وتبرأ منه في شيخوخته، لأمر ما، كما يقول تلميذه التبريزي، قال: لأنه أكثر من مدح نفسه فيه، وهو يكره ذلك في سن نضجه؛ والمقطوعة هذه من نونية محفوظة من البحر الخفيف، عدّها بعض النقاد من درر أشعار العرب في هذا الباب، وقد أكثر فيها المعري من التشبيهات الحسية.

تخيل - أخي القارئ - الشيخ وهو في ميعة الصبا وعنفوان الشباب، وقد لفّه الليل بظلامه، فأبى عليه حسه المرهف وشعوره المتدفق وخياله الخصب إلا أن يبدع هذه القصيدة التي منها تلك الأبيات السابقة، ومطلع القصيدة مطلع جنائزي تخفق له القلوب، وهو:

علّلاني، فإنّ بيض الأماني
فنيت والظلام ليس بفاني

وكأنه يشير بقوله: «والظلام ليس بفاني» إلى ظلام الليل وظلام عينيه اللتين فقدتا نورهما وهو في الرابعة من عمره، ومع ذلك فقد بلغ في الوصف مرتبة رفيعة لا يبلغها المبصرون، فكان قوله:

ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جمان

درة فريدة خلبت ببريقها عيون النقاد؛ إذ شبّه ليلته المظلمة بعروس زنجية سوداء توشحت بعقد من جمان ليلة عرسها، وقلادة الليل كما تعلم هي مجرّة السماء أو درب التبانة المرصعة بالنجوم.

٣ - مشهد:

تمتم الرجل العجوز بكلمات لم أفهمها، وأخرج شيئاً من جيبه، فانكبّ على مقال لأحد الكاتبين المشهورين منشور في جريدة تصدر في جدة، كنت أقف خلفه دون أن يشعر بي، فرأيته بعيني يختار كلمات ويسمها بالفحم، نعم الفحم، غلبني فضولي، فوضعت يدي على كتفه برفق وقلت له: تحمل فحماً في جيبك؟ وما هذا الذي تفعله، إنك تشوّه مقالات الناس.

نظر إلي باستغراب، وقال: هل هو مقالك؟

قلت لا.

قال: هل تعرف صاحبه؟

قلت: لا.

قال: فما شأنك؟

قلت: إنه الفضول، أرجوك ما القصة؟

قال: هل أنت عربي؟

قلت: كما ترى.

قال: هل تغار عليها.

قلت من هي؟

أشاح بوجهه عني، ثم مضى لسبيله!

٤ - ديوان الضب:

من منكم رأى ديوان الضبّ أو قرأ فيه، حقاً لو جمع ما قيل على لسان الضب أو في وصفه وقصصه لكان ديوانا كاملا، ولو كنت من محترفي جمع الدواوين ونشرها لأخرجت هذا الديوان النفيس، ولا أدري كيف غاب عن بال الدكتور إميل يعقوب أن يجمع ديوان الضب.

ومن شعر الضب مما أورده الجاحظ في كتاب «الحيوان» قوله بعد أن نادته الضفدع يوماً: يا ضب؛ وِرْداً وِرْداً، فقال الضب على البديهة:

أصبح قلبي صَرِدا
لا يشتهي أن يردا
إلا عراداً عَرِدا
وصلّياناً بَرِدا

والطبع باد في شعر الضب - كما ترى - وألفاظه من الطبيعة حوله، ليست بعيده عن جحره، ومعانيه سهله ليس فيها تعقيد، وقد ثبت أنه ليس من شعراء الصنعة، وليس من أصحاب الحوليات!!



يادار خير عباد الله قاطبة

شعر: **يحيى السماوي** - جدة -

أتيتُ «طيبة» همي يستبي هممي
سعياً على القلب لا مشياً على قدمي
يُسابقُ القلب أشواقي فيتركُني
ظلا على الدَّرب أو عصفاً بمضطرم
أدار خير عباد الله قاطبةً
تحكمي بفؤاد الصبِّ واحتكمي
بي «للأمين» من الأشواق عاصفة
فهل ألام إذا عانيت من غرمي؟
هو الحبيبُ الذي تُرجى شفاعتهُ
لمنْ توطَّن حبلا غير مُنصرِمِ
أدار خير عباد الله بي عطش
إلى نميرك فالقلبُ المشوقُ ظمي
وها هي «القبةُ الخضراء» في مقلي
وفي دمي حقلُ نور زاخرُ النعم
حتى إذا نطقت من لهفة شفتي
«طه» تدفق نبعُ الطيب فوق فمي!
وصاهرتني العوافي بعد مسغبة
أيقظة؟ أم أنا يادارُ في حلُم؟
وأمس كنت كشحاذ أمدُّ يداً
وأسأل الشعر - لو سطرين - من كلم
نأى القصيد فلم يصدع به «هزج»
ولا «المديد» يمدُّ الروح بالنغم
فكيف جاء نضيداً بعدما عجزت
قريحتي واشتكى من صمته قلمي؟

تزاحمت لغتي لما وقفتُ على
ربيئة لاح منها بارق الحرم!
ومازج الطيبُ أنفاسي فما شهقت
غير العبير، رعاه الله من نسم
نكرتُ قومي وسوط القهر يجلدهم
وقد رأيت صباح الرافدين عمي
دفنت وجهي بكفي وارتميتُ على
جرح تقادم لكن غير ملتئم
فيا صفي الإله الفرد بي قلق
على عراق صريع الذُلِّ والسَّقم
تهدمت يا صفي الله مئذنتي
وصرح «عفلق» فينا غير منهدم
وأرذل العمر أن أضحت عقيدتنا
جريرة .. والمصلى محض متهم
على «الرصافة» أوثان مدنسة
وظبية الكرخ بين الصاب والصنم
عصابة تتزيا كلما غدرت
ثوب «المثنى» وحيناً جُبَّة الحَكَم
وإنما الجهل يا مولاي أفدحه
أن «ابن عفلق» أضحى مَضْرِب الحكم
وما كرامة قوم بات يحكمهم
على مرابعهم رهط من البُهم؟
يسوس قومي منبوذون قام بهم
نذل لغير دروب العار لم يقم
مُرتلون ولكن تحت بُردتهم
نارُ المجوس ورُمحُ الغدر واللؤم
هجرتُ حقلي والأشواكُ في مُقلي
وفي دمي يتشظى خِنْجرُ السأم
أنيمُ جفني على قوم فُجعت بهم
وإن غفوت فجفن الجرح لم ينم
وأنضدُ الجمر لي بيتاً ليسترني
وكيف يُسترُ من يغفو على ضرم؟

علم التفكير

إن المتبصر فى حركة هذا الكون يجد نفسه مضطرا للقيام برحلة فى أعماق الكون المرئي واللامرئى، هذه الرحلة سوف تتطلب منه التحكم - بأداة فعالة - فى تفسير إشارات الطريق المسلوك، بغية الوصول الى فضاء أنتروبولوجى كونى.

كل هذا وذاك، يتعلق بالعقل الذى وهبه رب العالمين للانسان، كي يكون له معينا فى التعامل مع الموضوعات التى تصادفه على مستوى الفضاء الخارجي والمتعلقة بالعلاقات المتعددة المناحى والاعراف، ولقد ساق لنا القرآن الكريم أنماطا متعددة من أجل تصحيح إسقاطاتنا المعرفية. والحقيقة أن المفارقات بين الرؤى المختلفة لقضية من قضايا الفكر سواء أكانت على شكل اسقاطات على مفارقات ذات مشاهد حسية مادية، أم على سلوكات شخصانية، تتمثل كلها فى علاقة نرمز لها بالرمز R تربط الانسان بالفضاء الكوني ونطلق عليها اسم الانتروكونية.

إذا كان مفتاح المعرفة هو التفكير والتدبر والتأمل فيما خلق الله، فإننا بحاجة فى وقتنا الحاضر إلى تعريف الفكر، وطرح الأسئلة الجوهرية التى نقف عندها فى كل مناسبة لتعريفها ودراستها وتقييمها، حتى نستطيع تحمل عبء أمانة أجدادنا الذين أناروا الدنيا بعلومهم، والذين كانوا السبب فى بناء اللبنات الأولى للمدينة المعاصرة.

نوجه خطابنا هذا لأولى العقول، كما نتعرف على لفظة التفكير، ونرفع الحواجز التقليدية بين النظرة المعرفية، ونواة محرك التقنو روحية وهذا لايسير من طريق أحادي الوجهة إلا إذا صاحبته تساؤلات عديدة من بينها:

- **لماذا نفكر؟**
- **ما هى شروط التفكير؟**
- **فيم نفكر؟**

بادىء ذى بدء، لابد لنا من إطلالة ولو متواضعة مع القارىء الكريم على لفظة التفكير.

بقلم: د. **ادريس الخرشاف**
كلية العلوم/ جامعة محمد الخامس - المغرب -

تعريف التفكير:

لقد وردت لفظة التفكر بمشتقاتها فى ثماني عشرة آية، وفى الواقع، ليس لهذه اللفظة مدلول قائم بذاته سوى وجود تلك العناصر

التى نجمعها معا لتشكل لنا مجموعة -Eu)
semble) أو زمره (Groupe)
وندعوها باسم واحد.

وقد حاول الإنسان منذ أبد بعيد سواء فى العصور السابقة - عند الإغريق مثلا - أو فى عهد النظريات الفلسفية الغربية، استنباط مدلول للفظة «التفكير» من خلال صيرورة الاحداث (بالمفهوم الرياضي الاحتمالى) المتوقعة أو المستنتجة، وبالرغم من ذلك كله، فإنه لم يستطع تحديد إطاره المعرفي الإستاتيكى.

وهنا لابد لنا من التنبيه لقضية هامة، ألا وهى أننا لسنا بصدد تحليل مشكلة من مكان بعيد، لأن الخط المستقيم يبدو من مسافة معينة مثل نقطة، فيما إذا كانت نقطتان منه تقعان على استقامة الرؤية الانسانية، كما أن الأجسام ذات الاشكال الهندسية والموجودة على بعد كاف، تبدو لأول وهلة أنها كروية الشكل أو نقطية، ولا تظهر فى شكلها الطبيعي إلا اذا قصرت المسافة وأصبحت فى مجال متري صغير.

كما أن الرؤية - وإن كانت صغيرة الأبعاد - قد ترتبط بالوسائل التى صنعها الإنسان بنفسه.

فالميكروسكوبات العادية لم تكن تسمح لنا برؤية البروتونات، كما أن الميكروسكوب الالكترونى بدوره لم يستطع إظهار الكواركات، وهكذا.

لذلك يمكن القول، إن المجالات التى نحن بصدد العمل فيها هى مجالات مفتوحة من اليمين بالمفهوم الثيولوجي، وكلما تقدم الإنسان بأبحاثه واكتشافاته، إلا وتوصل لحقائق لم يكن يعهدها من قبل.

وهذا يؤدي بنا إلى عدم التسرع فى وضع مسلمات وقوانين عندما نقوم بعملية إسقاط الظواهر الكونية على الفضاء الانسانى المعرفى.

والسؤال الذى نطرحه على أنفسنا هو الآتى:

هل يمكننا أن نعرف التفكير على أنه مجموعة ميكانيزمات المولد النووى للعقل، والتى تعمل على تحريك حواس الإنسان من أجل تحليل إسقاط الفضاءات المدروسة وربطها بالوقائع العلمية على الفضاء المعرفى الانساني؟

ونقصد بذلك تحويل المقادير الكمية (المدروسة) إلى مقادير كيفية أو العكس، وهذا العلم يحتاج بالطبع - لاستراتيجية معرفيةعالية، ثم نرجع لأسئلتنا الجوهرية، ونبدأ بالسؤال الأول.

١ - السؤال الأول: لماذا نفكر؟

لقد خلق الانسان على وجه البسيطة لكي يكون خليفة في الارض، يقيم شرع الله، ولقد منح الله سبحانه وتعالى الانسان العقل ليتميز عن سائر المخلوقات، فبالتفكير نتميز عن الحيوانات لنحافظ على استمرارية الإنسان ومكانته في الكون.

إنها مفاهيم تحتاج لأخلاقيات متعددة المحاور، حتى نستطيع القول أننا نتواجد على وجه البسيطة من جهة، وأننا على استعداد لتحمل مسئولية الحضارة الانسانية من جهة أخرى.

كل ذلك وفق صورة رمزية شاملة للجوانب الأساسية الآتية:

١/أ ـ من أجل تحسين حياة الفرد (لا نتحدث عن معيشة الفرد، لأن الفرق بينهما شاسع وعميق)، مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّه حياة طيبة} (النحل/٩٧)، {ومن أعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكا} (طه/١٢٤).

١/ب ـ من أجل تقدم الانسان ورقيه {وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره} (النحل/١٢).

١/جـ ـ من أجل الرشد والحياء والمداومة على الخير وكراهية الشر، وحتى الرفق بالحيوانات، {والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جَمَالٌ حين تُريحون وحين تسرحون * وتَحْمِلُ أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس} (النحل/ ٥ـ٧).

١/د ـ من اجل تعرف الإنسان على شخصه {وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون} (الذاريات/ ٢٠ـ٢١).

١/هـ ـ من أجل تعرف الانسان على ما خلق الله، {خلق السماوات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبثَّ فيها من كُلِّ دابّة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه} (لقمان/ ١٠ـ١١).

١/و ـ من أجل تعرف الانسان على خالقه: {إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام} (يونس/٣)، {ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق} (النحل/١٩)، كلها معطيات أساسية كان الهدف منها بناء فضاء الانثروبولوجية الكونية.

٢ ـ السؤال الثاني: ما هي شروط التفكير؟

إن الرؤية المستقبلية لغد أفضل، تعتبر من أهم سمات الإنسان المتحضر، الذى يحوّل الفضاء المعاش الراكد، إلى منطقة حيوية ذات حركة متعددة الاتجاهات، ومن أجل تحقيق ذلك، لابد للانسان من التفكير والغوص في أعماق القضايا المطروحة عليه، ولا يتحقق ذلك إلا بتحقق الشروط اللازمة والكافية الآتية.

٢/١ ـ الايمان بالله: ويعتبر المدخل لكل حركة إنسانية حضارية، إذ يعتبر مفتاح التفكير، وعامل صقل المواهب، وأداة ترجمة الكون، به ترتفع درجات الانسان، وبه تسير مركبة البحث العلمي الكوني.

٢/٢ ـ الحرية العقلية: ويتطلب ذلك استقلالية العقل عن كل الايديولوجيات التى لفظت في مواطنها، والتى تعكر صفو مناخ العقل الذى يحتاج لفضاء نقي، وسماء صافية وروافد شفافة.

٢/٣ ـ المعرفة: وهذه لا ترتبط بالمؤهلات الأكاديمية التى يملكها الشخص فحسب ـ لأن هذه المؤهلات قد تكون شرطا لازما وليس كافيا للقيام بتفكير فعّال وناجع، وترجمة الفضاء الانساني ترجمة عقلانية لها مصداقية علمية بل نقصد بالمؤهلات، تلك القدرات الابداعية الخلاقة والقادرة على تفسير المناهج الكونية، وعدم الاقتصار على الثوابت

والمقاييس الزمكانية المعاشة.

كما أننا فى هذه الرقعة الزمكانية، لا نرفض البحث فى أى دلالات ميتافيزيقية بل العكس من ذلك تماما، إننا بصدد البحث عن الرابطة التى تحافظ على تماسك المادة بالروح

.

٢/٤ ـ البلوغ الجسماني والعقلي: حتى يستطيع الفرد التمييز بين عناصر الفضاء الذى يعمل فيه، ويكون فى مستوى مجابهة التحديات الآتية من العالم الخارجي، وعندما نتحدث عن البلوغ الجسمانى والعقلى، فإننا لا نقصد بذلك لسن البلوغ الايستاتيكي.

٢/٥ ـ الراحة النفسية: وهذا الشرط يعتبر من الشروط الأساسية لدراسة أى مشروع عقلاني، إنها القاعدة التحتية لكل الاسقاطات المستقبلية (الإسقاطات هنا لها تركيبة رياضية معلومة).

٢/٦ ـ التسلح بالأدوات الثلاث، ونقصد بذلك المنهجية العلمية المتبعة، والتى تتلخص فى النقاط الآتية:

٢/٦/أ ـ المعرفة العلمية: {وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون} (العنكبوت/٤٣).

٢/٦/ب ـ البراهين المرافقة لكل نظرة إنسانية، والتدرج فى القراءة من أجل الوصول إلى نتائج محمودة، {فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الظالمين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون} (الانعام/ ٧٦ـ٧٧ـ٧٨).

٢/٦/جـ ـ إقامة الدليل على تلك البراهين مع إعطاء امثلة تجريبية على ذلك: {قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا} (الانعام/١٤٨)، وتكون خلاصة المعرفة العلمية، مقدمة فى عبارة واضحة المعالم مصداقا لقوله عز وجل: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن} (النحل/ ١٢٤ـ١٢٥).

٢/٧ ـ الابتعاد عن الشك والظن لأنه لا يمثل قاعدة المعرفة الحقيقية: مصداقا لقول رب العالمين: {وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا} (يونس/٣٦).

٢/٨ ـ البحث فى كل مناحى الحياة، وعدم الاقتصار على جانب الاختصاص الأكاديمى، حتى يطور الانسان قدراته الانتاجية، ويتخلص من الرواسب الايديولوجية {يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان} (الرحمن/٣٣).

٢/٩ ـ نبذ التقليد وإظهار الشخصانية الفردية وصقلها، ثم وضعها فى قالب التكنولوجية الروحية (التقنو روحية) {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} (الزخرف/٢٣)، {ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مَالَكَ مِنَ الله من وليّ ولا نصير} (البقرة/ ١٢٠).

ويقول معلم البشرية/ سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهّل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون

القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده}.

٢/١٠ ـ ***الأخلاق والإحساس بالأمانة العلمية الملقاة على عاتق الباحث المتدبر في أعماق هذا الكون،*** لأن كل نتيجة سيئة قد تؤدي إلى مالا يحمد عقباه، وستعمل على إفساد وتلوث البيئة الفكرية، وهذا من شأنه الانعراج نحو عواقب وخيمة، لذلك كانت دعوات النبي محمد {صلى الله عليه وسلم} ترتكز على العلم النافع: «اللهم ارزقنا علما نافعا».

٢/١١ ـ ***الاعتماد على العالمين:*** العالم المقروء (القرآن الكريم) والعالم المنظور (السماوات والأرض وما بينهما)، واللزوم المنطقي على أن هذين العالمين وحدهما كفيلان لإقامة جميع المشاريع الحضارية الكونية، ويمكن الاصطلاح عليهما بأنهما يمثلان مجموعة المنطلق والمستقر، وهذا معناه أنه توجد دالة معرفية تقوم بمقابلة كل عنصر من عناصر العلم المنظور، بعنصر أو بعناصر العالم المقروء (معنى ذلك أنها تأخذ قيمها في مجموعة المستقر) وكما يقول جل شأنه: {لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون} (الأنعام/٦٧).

٢/١٢ ـ ***الايمان بالغيب:*** وعدم الدخول في قراءته إلا عن طريق المركبتين:

أ ـ المركبة الأولى:

وهي الممثلة بالبراهين عن طريق التراجع (Demonstration Por se-currence) سواء تعلق الأمر بالماضي (قصة بداية الكون أو بداية الحياة على وجه الأرض، أو قصص الأمم السالفة) أو بالمستقبل (مستقبل التكنولوجيا، مستقبل الكون، مستقبل حياة الشمس).

ب ـ المركبة الثانية:

وهي الممثلة بالإيمان الكلي بالقضايا التي تفوق قدرات الانسان الجسمانية والعقلية، مثل حياة البرزخ، موعد قيام الساعة.. وفي ذلك اعتراف ضمني بوجود فضاءات خارج نطاق إمكانيات الإنسان المعرفية، مصداقا لقول رب العالمين: {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} (الاسراء/٨٥)، {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} (فصلت/٥٣).

(٣) السؤال الثالث: فيم نفكر؟

إن هذا السؤال يذهب بنا إلى البحث عن وضعية الإنسان المعرفية، ونمط عيشه وطريقة تفكيره، في كل الأمور التي تصادفه أثناء مسيرته الحياتية (أو المعيشية) حسب أخلاق المرء وتكوينه الشخصي وسيؤدي بنا ملخص الكلام إلى نقط التفكير الآتية:

٣/١ ـ ***التفكير في نفس الإنسان:*** {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا} (المزمل/٢٠)، {جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا} (الشورى/١١).

٣/٢ ـ ***التفكير في الآيات الكونية الكبرى:*** {أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادر على أن يحيي

الموتى} (الأحقاق/٣٣)٠

٣/٣ ـ التفكير في العلاقات الاجتماعية: {فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم} (الشورى/١٥)٠

٤/٣ ـ التفكير في الهداية وكيفية الوصول إلى الطريق الصحيح: {اهدنا الصراط المستقيم} (الفاتحة/٦)، {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} (البقرة/٢٨٦)٠

٥/٣ ـ التفكير في نفس الانسان ومراحل حياته ومعرفة السبل لترويضها لما يحبه الله ويرضاه٠ {ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة} (المؤمنون/١٤)٠

٦/٣ ـ التفكير في بداية الكون ونهايته مرورا بوضعيته الحالية:

البداية: {أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما} (الأنبياء/٣٠)٠

الوضعية الحالية: {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون} (الذاريات/٤٧)٠

نهاية الكون: {يوم نطوى السماء كطي السجل للكُتُب} (الأنبياء/١٠٤)٠

٧/٣ ـ التفكير في الحياة الأخروية: حتى يعمل الإنسان بجد وانتظام لما ينفع الناس٠ {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} (النحل/٩٧)، {من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم} (البقرة/٦٢)٠

٨/٣ ـ التفكير في الله عز وجل والبحث عن السبل الناجعة للحفاظ على العلاقة الحسنة مع رب العزة، وذلك باستخدام المنهجيات العقلانية (الاستدلال ـ القياس ـ الاستنتاج ـ الاستنباط ـ الاستقراء ـ إقامة الدليل) من أجل فهم كتاب الله عز وجل، ثم استخدام الأدوات المتاحة من بيولوجيا وفلك، ورياضيات وميكانيك وغير ذلك ..

{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار} (آل عمران/١٩٠)٠

وهكذا نجد أن العمل على إذابة الحواجز التقليدية والتي تشكل عقبات في طريق الانسان ستندثر لا محالة ـ إن شاء الله ـ بمدى المثابرة وبمدى قدرات الانسان ـ المؤمن ـ الحركية الذي يتوفر على الخصائص التي ذكرناها آنفا٠

فإن استطعنا خلق رابطة تتحكم في دواليب الاتصالات بين عناصر المخلوقات الكونية، الانسان بالانسان، والانسان بالمخلوقات الكونية، والانسان بالطبيعة، نكون بذلك قد ساهمنا في توليد محرك التكنوروحية، وبالتالي عملنا على خلق إنسان العصر، عالما بفضائه، على دراية ولو نسبية بحركة عناصر الكون، يستطيع تحمل مسئولية الخلافة٠

الكتابة والمرأة .. المغرب نموذجاً

أوراق زوجية ابو عواد / ام عمرو

رسالة الى السيدة الجميلة

مجلة شهرية ذات
أداء متخصص تخاطب
عقل المرأة ووجدانها



أقلام ريادية:

الكتابة والمرأة.. المغرب نموذجا

بقلم: د. نجاة المريني كلية الآداب - الرباط جامعة محمد الخامس

هل الكتابة والإبداع مجال خاص بالرجل، لا يمكن للمرأة أن تدخله؟

هل هناك أدب نسوي أو نسائي في مقابل الأدب الذكوري أو الرجالي؟

يقول الاستاذ الزعيم علال الفاسي في كتابه النقد الذاتي، في فصل خصصه لنقاش موضوع الأسرة والمرأة (ص٣٠٤): إن من حق المرأة أن تتساوى مع الرجل المساواة التي لا تتنافى مع طبائع الأشياء ولذلك يمكنها أن تشارك في الصالح العام بالخدمة والفكر والإرشاد، يمكنها أن تشغل مركز العمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى في الجماعة وفي الدولة، وكل ما يدعيه الناس نقصا في المرأة عن مستوى القدرة الموجودة عند الرجل، فليس إلا من آثار ما صنعته أجيال الاضطهاد وعصور الانحطاط، وإن المرأة لقادرة إذا تركت وشأنها أن تصل للقيام بجلائل الأعمال ومهمات الأمور.

ويلخص الاستاذ الطاهر الحداد رأيه فى تعليم المرأة في كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» بعد أن استعرض أنواع التعليم التى يجب أن تأخذ بها (ص٢٠٩) «فإذا ما قدر لنا أن نفهم حقيقة المرأة وواجبها وحقها في الحياة، فذهبنا مذهب الحكمة في تعليمها ما تحتاجه، فقد عملنا خيرا ليس للمرأة فقط بل لسعادة الرجل والأمة جميعا والأجيال القادمة.

إننا في مرحلة يمكن وصفها بأنها الثمرة التي حرص دعاة محرري المرأة في المجتمع العربي على نضجها واستوائها، فتعلمت وعملت في ميادين مختلفة وأسهمت بكتاباتها في الدفاع عن حقوقها وفي إثبات كيانها ووجودها كإنسان فعّال غير منفعل في مجتمع تطلعت كل هياكله إلى التغيير. وعملت على الثورة على الجمود والتخلف والاستعمار بكل أشكاله وألوانه.

الكتابة النسائية أو الخطاب النسائى بكثير من التجاوز في مقابل الكتابة الذكورية أو الخطاب الرجالي، ماذا ننتظر منها؟ أو ما هي الآمال المعلقة عليها؟ هل هناك عداء بين الكتابتين؟

تقول كلمة مجلة الوحدة التي تصدر عن المجلس القومي للثقافة العربية في العدد الخاص «بواقع المرأة العربية»[١] (إن الخطاب النسوي ما يزال يملك قدرته كاملة على التعرية، فهو يتمتع بحيوية ومصداقية لا يتمتع بمثلها أي خطاب عربي آخر).

لا أدري لماذا هذا التصنيف؟ الأدب

النسائي، ما هي مميزاته، ما هي خصائصه؟ لماذا لا يكون أدبا إنسانيا تمحى فيه الفوارق بين الأنوثة والذكورة؟ أليس للمرأة الحق في أن تنتج وتكتب وتنظر وتقعد في مجالات ظن أن للرجل وحده الحق والنصيب الأوفر في الكتابة والتنظير والتقعيد والتسيير؟

لا شك أن المراحل التى قطعتها المرأة في حياتها كانت قاسية ومؤلمة استبد فيها الرجل بسلطات مطلقة، فأخضع المرأة لسلطته، واستبد بها وبحقوقها، وأوعز إليها أنها تابع لا شأن لها في الحياة، ولا دور لها في تحمل المسؤولية غير الخدمة والطاعة والإنجاب.

إن الصراع من أجل إثبات الذات كان عنيفا تارة، وهادئا تارة أخرى، تعددت وسائله وتنوعت أساليبه، وكانت الكتابة إحدى الوسائل التى استعملتها المرأة من أجل إسماع صوتها والدفاع عن حقها، وإثبات وجودها وكيانها كإنسان له حقوق وعليه واجبات، وكانت المتنفس الذي يستطيع أن يبلغ الرسالة في هدوء واتزان إيمانا بخوض معركة الحرية.

وموضوع الأدب النسوي أو الكتابة النسائية ليس بالموضوع الجديد أو البكر في الساحة الأدبية العربية.. فأشعار الخنساء ومجالس السيدة سكينة ومجالس الأميرة ولادة، ورسائل مي زيادة، وكتابات ليلى بعلبكي وكوليت خوري، وخناثة بنونة كلها نماذج صارخة لمشاركة المرأة على عدة مستويات في الحياة الأدبية والعلمية والاجتماعية والسياسية منذ العهود الأولى إلى اليوم.

وحين تفرض المرأة وجودها في ميدان الكتابة الجادة تصطدم بعدة عوائق تعمل على التقليل من شأنها وقيمتها، باعتبار الكتابة من اختصاص الرجل كما يقول الشاعر:

ما للنساء وللكتابة
والعمالة والخطابة
هذا لنا ولهن منا

. . . .

فبالرغم من إيمان الرجل بأن العمل الإبداعي تعبير عن أصوات مكبوتة وخفية، تردد صداها طويلا قبل أن يظهر واضحا جليا في حقل الكتابة، تعبيرا عن كينونة ووجود، وتحقيقا لتحرير فعلي من حصار فرض عليها بقانون القوة، فإنه لا يستسيغ تفوق المرأة في ميدان الكتابة ولعل إسهام المرأة في مجال الكتابة هو إسهام في عدم التمييز بين الكتابة الرجالية والكتابة النسائية.

إن كل كتابة - كيفما كانت - تسعى إلى التغيير وإلى التحرر من كل القيود التي تخنق الفكر وتلغيه.

بالنسبة للمرأة الكاتبة في المغرب فقد استطاعت أن تؤكد حضورها الفعلي في مجالات الكتابة المتعددة، وأن تسهم بكتاباتها في توعية المرأة بواقعها المتخلف، ودعوتها إلى التعلم والتحرر من ربقة الجهل .

وبالرغم من ضعف أو قلة إنتاج المرأة المغربية في ميدان الكتابة لظروف متعددة وأسباب كثيرة فإن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الإنتاج وقيمته بالنسبة لإنتاج الرجل وإسهاماته في ميدان الكتابة والإبداع.

إن في هذه الكتابة عناقا حميميا لطموحات المرأة في تغيير النظرة التقليدية إليها، وفي معالجة الشروخ التى أحدثتها الهيمنة الاجتماعية للتقليص من دورها ومن مردودية عطائها، فخاضت وتخوض معركة تحرير هادفة

وسيلتها القلم الرصين، وغايتها دحض الزعم المترسب في الأعماق بدونية المرأة وعجزها عن مواكبة الكتابة الذكورية، بعيدا عن كل حساسية وضيق تفكير.

ورغبة في التعريف ببعض الكتابات النسائية المغربية، فسأحاول التعرض لنموذجين اثنين لهما مكانتهما في الساحة الأدبية المغربية، مع العلم أن المرأة المغربية اليوم أصبحت تمارس الكتابة على مستويات عديدة، وفي مجالات تخصصية دقيقة وإبداعية متنوعة.

النموذج الأول:

ويمثل الدفقة الأولى لعطاء المرأة بإسهاماتها الفعالة في ميدان الكتابة منذ الخمسينيات.. نحن نعرف أن النهضة الأدبية في المغرب تأخرت بأكثر من قرن عنها في بلاد مصر، وأن بذورها نمت وترعرعت بعد الاتصالات والبعثات العلمية التي كانت توفد إلى بلاد مصر في الشرق وإلى فرنسا وإسبانيا منذ عهد السلطان الحسن الأول.

وبديهي أن يكون بروز المرأة في ميدان الدرس والعلم متخلفا ومتأخرا لأنها لم تحظ بالمشاركة في تلقي العلم - إلا القليلات من النساء اللائي حظين بذلك في المساجد والزوايا وفيما كان يعرف بدار فقيهة - ولا بالقراءة والكتابة إلا في بداية الأربعينيات من هذا القرن.

الحديث عن النموذج الأول للمرأة الكاتبة المتعلمة في المغرب هو ابن المنطقة الشمالية، بل ويكاد يكون رائدا للنهضة الأدبية النسائية في المغرب، وأعني به الأستاذة الباحثة أمينة اللوه، إحدى رائدات التعليم في فترات الاستعمار الإسباني للمنطقة الشمالية وهي بقدراتها العلمية والأدبية تمثل بحق قدرات المرأة المغربية وطموحاتها وتوجهاتها في فترة عصيبة من تاريخ المغرب، وبعدها في فترات الاستقلال إلى اليوم.

الأستاذة أمينة اللوه من مواليد مدينة الحسيمة، تلقت تعليمها الابتدائي والثانوي بمدينة تطوان، والجامعي بمدينة مدريد في إسبانيا. قرأت - كما تذكر ذلك - أمهات الكتب العربية: الأمالي للقالي، الأغاني للأصفهانى، العقد الفريد لابن عبد ربه، نفح الطيب للمقري، وغيرها من الكتب التي أثرت رصيدها المعرفي، وحببت إليها اللغة العربية، لأنها كانت تدرس اللغة الإسبانية كلغة أولى.

عملت الأستاذة اللوه في سلك التعليم سنوات طويلة في الابتدائي والثانوي والمهني، وأعتقد أنها من النساء الأوليات اللائي حظين بتحمل المسؤولية في الميدان التربوي التعليمي كمديرة لمدرسة المعلمات، وكمفتشة للتعليم الثانوي ثم كأستاذة جامعية باحثة بالمعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط.

ولعل أهم قضية حاولت الأستاذة اللوه الدفاع عنها في كتاباتها هي قضية المرأة: الانتصار لها ولجلائل أعمالها كان يشغل فكرها منذ الخمسينيات، فكان أول إنتاجها أقصوصة قصيرة عن الملكة خناثة زوج المولى إسماعيل ملك المغرب (١٦٤٢م - ١٧٢٧م) وفيها تتحدث عن شخصية هذه المرأة المغربية القوية، وعن دورها في القصر الملكي باعتبارها المرأة المتعلمة الصائبة الرأى، وقد نالت الأستاذة اللوه بهذه الاقصوصة جائزة المغرب للآداب سنة ١٩٥٤م وقرظتها الصحف الوطنية وغيرها، ثم نشرت تباعا في جريدة «الصحراء» التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ علال

الفاسي.

هذه الأقصوصة طبعت سنة ١٩٥٤م في تطوان، معهد مولاي الحسن، بإشراف نيابة وزارة التربية والثقافة، والإقامة الإسبانية في المغرب.

والكاتبة أمينة اللوه، وهي تمثل في تلك الفترة حمية الشباب وتيقظه بالنسبة لقضايا بلاده كالتعليم والحرية والدفاع عن مكانة ودور المرأة في المجتمع، كانت تسعى في كتابها الأقصوصة «الأميرة خناثة» إلى تمزيق ستار الخرافة الذي يفرق بين المرأة والرجل في الدفاع عن الوطن وكرامته، وفي المشاركة في تحمل المسؤولية، بل إن في كتابتها دعوة إلى العمل المشترك من أجل الوطن ومن أجل الحرية والكرامة.

كما أن السيدة اللوه كانت تهتم بالكتابة عن هموم تعليم المرأة، وعن واقع هذا التعليم، مدافعة عن أهدافه وطموحاته، داعية الى تشجيع تعليم البنات كظاهرة صحية في مجتمع الخمسينيات في تطوان شمال المملكة.

ولا شك أن موضوعي الماجستير والدكتوراه يجسم هذا الاهتمام ويؤكده فموضوع الماجستير كان عن الطفولة المغربية وقد نوقش بجامعة مدريد سنة ١٩٦٥م، أما اطروحة الدكتوراه فكانت عن «المدرسة العربية في شمال المغرب في النصف الأول من القرن العشرين، ونوقشت سنة ١٩٦٨م بجامعة مدريد أيضا . والموضوعان معا كتبا باللغة الإسبانية، نأمل أن تعمل الاستاذة اللوه على ترجمتهم إلى اللغة العربية وإلى نشرهما لتعميم الفائدة.

ويندرج اهتمام الكاتبة اللوه بالتاريخ الإسلامي من خلال مسرحية تمثيلية تهدف إلى التعريف بنضال المرأة من أجل حريتها وكرامتها عنوان المسرحية «كتاب محمد أو إلى دار الأرقم» وقد نشرت هذه المسرحية بمجلة دعوة الحق، العدد الرابع فبراير ١٩٦٨ وفيها نبهت الكاتبة إلى دور القرآن الكريم في تحرير المرأة من عبودية الشرك والجاهلية ومع الأسف فهذه المسرحية غير مطبوعة.

وللأستاذة اللوه مجموعة مقالات موزعة بين الخواطر والرعشات الإبداعية وبين الكتابة عن شخصيات كثيرة أغلبها كان له دور تاريخي وسياسي وذلك في أسلوب قصصي مشوق.

من هذه المقالات خواطر كانت تكتبها في مجلة «المعتمد» التي كانت تصدر بمدينة تطوان في الخمسينيات، وفي مجلة «الأنيس» التي كانت تصدر أيضا بتطوان في نفس الفترة من موضوعات هذه الخواطر: «المحبة، من أعماقي، في ربوع الأندلس، إلى غير ذلك».

وفي ميدان التربية والتعليم نجد للكاتبة اللوه مقالات كثيرة في مجلات متعددة، منها دعوة الحق، والإيمان والفنون والمغرب، وغيرها من المجلات. ،

وللكاتبة مقالات أخرى تصب في التربية والتعليم لم تنشر بعد - كما أخبرتني شخصيا بذلك - سمتها «من الملف المدرسي».

هذه المقالات كانت عبارة عن إسهامات الكاتبة في ندوات مختلفة ، وفيها اهتمت بالحديث عن تطور تعليم البنات في منتصف الأربعينيات والخمسينيات الى عهد الاستقلال، حيث كان التعليم محرما ومحظورا على المرأة وفي هذه المقالات أبرزت دور بعض الرجال الأفذاذ الذين كانوا يشجعون على تعليم المرأة، وعلى تطوير ذهنية أفراد المجتمع الذين كانوا

يرون في تعليمها سلوكا مشينا لهم ولذويهم.

كما أن الكاتبة سجلت لقطات مفيدة من هذا النوع من المقالات عن المجتمع التطواني في الخمسينيات، وعن واقع النهضة الثقافية والفكرية التي كان يعرفها أهل تطوان في تلك الفترة.

كما أن الأستاذة اللوه تُعنى بالترجمة كميدان حيوي لتعميق التواصل بين الثقافتين والحضارتين العربية والإسبانية ويشغلها الآن هم الكتابة عن الموريسكيين في جنوب الأندلس منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م إلى أن تم امتزاجهم بالعنصر المغربي في مناطق المغرب المختلفة تطوان، فاس، الرباط وسلا، آسفي. وفي هذا الموضوع تعنى الباحثة بالكتابة عن الثقافة الموريسكية بصفة عامة.

تتميز كتابات الأستاذة أمينة اللوه بالهدوء والروية، والاتزان في أكثر الأحيان، فهي تعالج موضوعات ساخنة دون جلبة أو ضوضاء، ومن ثم فهي تنقل القارىء بالنظر إلى الموضوع من التسرع إلى التحلي بنوع من الصبر والتأني لعلاج كل المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع بأسلوب رصين واضح.

النموذج الثاني:

وهو نموذج له إشعاعه في عالم الكتابة الإبداعية النسائية، إنها الأديبة خناثة بنونة صاحبة الصوت النسوي الصارخ ضد الجور والتبعية والاستبداد.

الأستاذة بنونة من مواليد مدينة فاس، تربت تربية دينية نضالية، ولم تنتظم في دراستها انتظاما يتيح لها الإحراز على شهادات جامعية، وإنما حصلت على شهادة الباكلوريا بمجهود شخصي، وكان يشجعها على ذلك الأستاذ علال الفاسي، وكما تقول: فقد كانت دراستها فوضوية وشاملة، أهلتها فيما بعد لخوض معركتي السلاح والقلم.

عملت الأستاذة بنونة في التعليم الثانوي كأستاذة، ثم هي تشغل الآن مديرة لثانوية ولادة بمدينة الدار البيضاء.

والأستاذة بنونة صاحبة صوت متميز في الثورة على الظلم والقهر، وعلى أنصاف الحلول وتشكل كتاباتها الكثيرة المجال الخصب لتصوير الواقع المهزوم الذي تعيشه المرأة العربية، بل والمجتمع العربي على السواء.

يقول الأستاذ علال الفاسي عن كتابات خناثة بنونة: «لقد مضى عصر القول، والهروب من المسؤولية والاعتذار المزيف، وأصبح كل شيء يجب أن يؤول بالفعل، نحن نعيش في عصر لا مكان فيه لمن لا يترجم القول إلى العمل «مقدمة النار والاختيار» ص١٢.

والكاتبة تقول: «الثقافة فعل، والفكر فعل، والكلمة جهاده، ذلك لمن لا يريد أن يسحقه عصره»».

من مؤلفاتها القصصية المنشورة:

١ - ليسقط الصمت:

وهي أول مجموعة قصصية لها صدرت سنة ١٩٦٧م وفيها أسمعت صوتها النسائي بعفوية وصدق، معبرة عن معاناة العربي في مجتمع متخلف، ممزقة صمت الزمان والمكان كما جاء في أول أقصوصة في المجموعة: «الصمت الممزق» ناعية ما كانت ترى عليه المجتمع العربي إثر نكبة ١٩٦٧ فهي تقول: «هكذا علمت الظروف أهلي أن يتخاذلوا أن يسلموا بكل قيد مشروط، أن يتناولوا نتائج الاتفاقات جاهزة فهي تطبخ في قارة غير قارتهم، وبأدمغة غير أدمغتهم ولغرض لا يحقق العدل لهم، وهم يقولون بخنوع مطواع: الظروف

(ص٨).

وعن معاناتها كأنثى تقول في ثورة: «ما أفظع أن أكون أنثى بين قوم لم تتجدد قيمهم بعد، لكأنني أريد أن أختصر كل النساء في واحدة، لأحطم قيدا جررناه من دهور.. ومع ذلك فما أعذب أن أكون أنثى بقضية، ثم تضيف قائلة: «هم لا يحسون أن تحت أطباق صمتي عراكا آخر: بين ما استتر فيّ من أهواء الأرض وتطلعات السماء.. بين ذلك الماضي البشري المغلف بأسطورة جرح امرأة، وبين هذا التطلع إلى الإنسان الأكمل .. الإنسان، الإنسان، المرأة الإنسان «رب إني وضعتها أنثى» (ص٨٩).

٢ ـ النار والاختيار:

مجموعة قصصية ثانية تعالج قضايا شائكة في عالم اصطلح على تسميته بعالم المرأة، فهي تقول في مقدمة قصة النار والاختيار: «تمنيت لو أنني لم أنفتح على غير عالم الأعماق، حيث كان وجودي مشروعا مشكوكا فيه.

وتتميز هذه المجموعة القصصية بالمقدمة التي كتبها الأستاذ المرحوم علال الفاسي حيث قال: «بهذا التمزق تبتدئ خناثة بنونة فقراتها الأولى من قصة النار والاختيار فتطل بنا على كيانها الأزلي الذي لم ينبثق بعد في هذا العالم الذي نحياه، تهرب بنا من الوجود المظلم الذي صنعه ٥ يونيو إلى مشروع وجود لم ينكشف بعد عن شكله، ومن يدري، فربما لو عادت الحياة إلى طريقها لتحول مشروع الوجود إلى كيان مندفع لا كبت فيه ولا هزيمة».

تشكل المجموعة القصصية التزام الكاتبة بقضية العرب والمسلمين، هزيمة يونيو ١٩٦٧، هي هزيمة العرب جميعا يتحملون جميعا مسؤوليتها، وقضية النصر هي قضية وجود وبقاء بل هي قضية كينونة واستمرار، لذا فالعمل من أجل المستقبل، من أجل الخلاص، من أجل الغد، هو ما تدعو إليه الكاتبة بثقة ومرارة وثورة ولن يتحقق النصر إلا بالعمل أيا كان نوعه ثقافة وجهادا وفعلا.

وعندما تعمل الكاتبة بنونة على تصوير واقع المرأة المؤلم، بالرغم من كل الاشواط التي قطعتها، فإنما تسعى إلى تصوير واقع المجتمع ككل، بسلبياته ونقائصه بالحرية المستلبة، وبالوعي الزائف، وبالتحرر المفتعل.

علاقة المرأة بالرجل علاقة الرئيس بالمرؤوس، علاقة التابع الذي لا يحق له أن يبدي رأيا أو يعترض على رأي، عليها مهما كانت ثقافتها ونضجها، ودرجة وعيها أن تقبل كل ما يسطر لها دون نقاش، لأنه ـ أي الرجل ـ أنضج فكرا وأبعد رؤية، وكما جاء على لسان الأم وقد تقدم لابنتها عريس: «لكنه سيريد فيها الزوجة لا ذات الخلوات، ولو كيفما كانت هذه الخلوات: فمحرم على المرأة أن تبدي رأيا أو حتى أن تحاور نفسها في خلوة، فتبحث عن الإنسان في الرجل هل فعلا تجد فيه تلك الشخصية المتوازية التي تؤمن بالمرأة وعطائها ومكانتها، أم أنه كغيره يتسلط على أبسط حقوقها فى مجتمع يدعي التحرر وفى حوار ليلى (بطلة قصة النار والاختيار) لنفسها تدلي برأيها بصدق: «إننا نسير في خطين لا يلتقيان، ولن تتمكن الإغراءات الاجتماعية أن تنطلي على بصيرتي» (ص١٢٥).

إنها الخدعة التي يمارسها المجتمع على المرأة وينتصب الرجل لتنفيذها بكل شجاعة فبعد عناء وتضحية كبيرين تعمل المرأة وتكسر

قيود الحجر، لكن لتعود إليها ثانية عندما يريدها الرجل زوجة أنثى فلنستمع إلى الأم تقول عن مصير عمل ابنتها بعد الزواج: أمثلة يتركها تعمل! ٠٠ ثري ومتأنق، ويريد لزوجته أن تظهر، أيرضى بالعمل!!٠

إن الاستعباد ما يزال يشكل النبض الحقيقي للمجتمع المتخلف والمرأة الأنثى هي الوجه الحقيقي الذي يسعى الزوج أو الرجل إلى امتلاكه، وتطلق الكاتبة في ثنايا القصة صرخات مدوية تعبر من خلالها عن المسكوت عنه تقول: «في البدء كانت الكلمة، لكن الآن، ماذا أقول؟ إنني أنتظر، وأنا أيضا ماذا علي أن أقول، لو تدري أي جحيم وسط الجنان، في جنتك يقبع جدار دون النعيم، دون النسيم، دون الحرية» (ص٢٠٢)٠

وترهق الحقيقة المرأة فكر المرأة وتتقاذفها أمواج الحيرة والغضب في آن واحد بين المظاهر الخادعة والواقع المهزوز، فتطلقها زفرات: «كل شيء تسأله٠٠ يا ناس، يا بحر، يا أشياء، يا ما أفهمه، وما لا أفهمه قلب أم قلوب، وغاية الإنسان في القريب أو البعيد؟ ليجبني أي أحد وليحدثني عن نيران اللهب وجنانه، وكيف التنصل؟

هكذا كانت تتسكع في التسكع، وترمي الخطوات وتبعثرها٠٠ المدينة ضاجة والدروب تصب في بعضها، ولعل كل هؤلاء لم يكن لهم ما فقدوه، فهم راضون بالقليل الذي كان لهم ولا يزال، بينما لا يضيع غير من أثقل حاضره بمستقبله فباغتته رجة وضاعفت من عدم توازنه ورمت له كل شيء في اللاشيء» (ص٢٠٤)٠

فهل المرأة لم تخلق إلا لتفي بحاجات المجتمع، وتنتقل من ملكية إلى أخرى، ومن وصاية إلى وصاية؟ أين تطلعاتها وأحلامها؟ أين كيانها؟ أين وجودها؟ أين الإنسان في داخلها؟ في أعماقها؟ ما يراد لها أن تنفي ذاتها وتلغي فكرها، وتضحي بكل شيء من أجل الآخر في تسامح ورضى وقناعة، تعلو محياها ابتسامة رقيقة هادئة فلِمَ الثورة والتمرد والغضب؟

وقد حصلت الكاتبة بهذه المجموعة القصصية على الجائزة الأدبية الأولى في المغرب، وجعلت مبيعاتها هدية لمنظمة التحرير الفلسطينية٠

٣ ـ الصورة والصوت:

حاولت الكاتبة في هذه المجموعة القصصية التعبير عن واقع مهزوز في عالم طغت فيه المادة على القيم، مبرزة مساوىء الاحتكار والظلم، من ذلك قولها مخاطبة نفسها كبطلة لقصة «نهاية موكب» وقد ساومها أحدهم: «لن أمد له يدي بأجر، لن أواكبه بعطاء لن أتركه يعيش فساد العصر٠٠ العطاء لكل من صعد فوق» (ص٤٥)٠

والكاتبة في هذه المجموعة القصصية ملتهبة المشاعر، متقدة الأحاسيس لما ترى عليه الناس في حياتهم اليومية ولها تتطلع إليه من تغيير يجب أن يعم المجتمع ليتحرر من القيود التي تشل حركته وتطوره، تقول في مقدمة قصتها «في اليقظة، في الحلم» (ص٥١): «إن الدم هو الذي يتكلم، يهدر في سيلانه ليصعق الصمت الذي ران على الحياة من قرون، فولد الهزيمة في الفكر والسواعد والشعور والأنظمة، مع أن لغة التاريخ هي هي: من لم يشتر الحياة بالموت لن يحيا أبدا٠

إن الأزمة الخانقة التي تعيشها المرأة هي أزمة المجتمع ككل٠ تشل حركته وفاعليته،

وتسلب عنصري الرجل والمرأة ذاتهما وإرادتهما، وتحول أحدهما إلى قاهر والثاني إلى مقهور، وتنعدم بذلك أبسط شروط الحرية التى يطالب بها المجتمع، وتنتفي القيم المثالية التي يحاول أن يتمسك بها الجميع.

إن القهر الذي تعاني منه المرأة هو قهر للرجل في نفس الآن، إذ أنه لا يتمتع بحريته بوعي واستقلال كما يعتقد، فالعلاقة مع الآخر (وهو المرأة) يشوبها التوتر والاستغلال، ويستحيل معها قيام علاقة اجتماعية ناضجة تسهم في بناء كيان فاعل غير منفعل، تتحطم فيه صورة الرجل التقليدي والمرأة التقليدية، إذ أن تحرير المجتمع مرتبط بتحرير المرأة، ولا يمكن فصلهما أبدا، فالنخاسة في الأبدان أو الأفكار أو المبادىء أو العواطف يجب أن تموت (ص٦٥).

وتعبر الكاتبة عن تذمرها من كل ما يحيط بها، تقول في قصة في المنفي: «من استيقظ مات، قتلته يقظته بيده أو بيد الحاكم أو الفهم .. إنني أرفض الهوامش: حتى من أحبهم الذين دخلوا تاريخ القطيع العالمي بواسطة الدم والنار، ليقولوا إننا نوجد .. قد رفضوا بعملهم هوامش حياتهم ليحققوا عبر تمام الموت تمام الحياة من الغاصب المغتصب القوي والمكافح، القاهر والمقهور.. كل شيء ولا شيء وأنا، كلنا، وأنت، وحتى هم: المناضلون: أي خليط إن العالم خليط (ص٦٥) ويهزنا السؤال الملح: «وهل سيظل خليطا؟ لأن الكلمة لا تفعل شيئا، وكيف أقترب والقرب دائما ليس غير تعبير، التعبير كان على الصعيد التاريخي مستوى حضاريا، وهو الآن قافلة للزيف نسمعه، تسمعه، تسمعونه، دون أن يبلغ أي أذن، الانفجار لازلنا ننتظره حيث الآذان والقلوب وبعض الحقائق والقربى توجد مليون، ملايين كلمة، وموقف وتجربة أخبرت أن المرأة للرجل، بطن الأرض معبأ بعويل عميق سحيق هامس صخاب لامرأة أولى كانت على سطح هذه الأرض، تذرف الدمع والزفرات بحثا عن آدم، الأرض لا تربح أو تنفرج إلا في أهة أولية.

ومن مجموعات الكاتبة بنونة كذلك «العاصفة» صدرت سنة ١٩٧٩ وهي أيضا تتناول بالنقد نظرة الرجل إلى المرأة كجنس، وصراع هذه الأخيرة من أجل إثبات ذاتها وثورتها على التنميط الذي يعرفه الواقع المتردي في المجتمع المتخلف، وترى بأن السكوت عن تناول هذا الواقع ومحاولة إصلاحه خيانة.

٤ - الصمت الناطق:

مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٨٧، وفيها حاولت الكاتبة طرح مشاكل اجتماعية وسياسية كانت المرأة فيها بطلة الأحداث في إطارين وطني وعربي، مؤكدة ما استطاعت أن تحققه بوعي والتزام في الدفاع عن قضاياها ومشاكلها الاجتماعية والسياسية.

٥ - الغد والغضب: رواية صدرت سنة ١٩٨٧.

إن إسهامات المرأة المغربية في مجال الكتابة على تنوع ميادينها كثيرة، إذ طرقت أكثر من باب: في الاجتماع والسياسة والقانون والاقتصاد والأدب، والتراث، وتناولت في كتاباتها ومؤلفاتها موضوعات شائكة ودقيقة بمنهج علمي وتصور واضح رصين، ورصد مثل هذه الكتابات يتطلب أكثر من دراسة عميقة متأنية ينصب فيها الاهتمام على الكتابة باعتبارها رافدا من روافد العطاء الفكري الناضج دون تفريق بين الكتابة النسائية والرجالية.

أوراق زوجية

أبو عواد / أم عمرو

٨٢٦ ـ أبو عواد:

لا بأس. اعتبريني مقصراً في حق أهلك. وأنا كذلك رغم الذى أسببه لك من جرح مشاعر، إلا أنني أشعر أن مواقفي سليمه وأن أفضل ما عملت هو هذه القطيعة والجفوه بيني وبينهم. لكن كل شيء في النهاية قابل للتغيير.. فهل حاولت ولو لمرّة أن تنسي معاملتي لأهلك وتعاملي أهلي بكل ما يفترض أن تكون عليه معاملتك معهم من احترام وتقدير بما يشعر أني في النهاية بأخطائي وحملاني على اعادة النظر فى تعاملي الخاطىء مع أهلك؟!

أنك حينما تعملين فيها زعيمة وتضعي رأسك برأسي فإن الهوّة لن تزداد إلا اتساعا..!!

٨٢٦ ـ أم عمرو:

أقول للزوج ـ الذى يرى أنه فى حالة إساءته لأهل زوجته ـ إن من واجب الزوجة الإحسان لأسرته مقابل ذلك حتى لا تصير زعيمة وتضع رأسها برأسه، وربما.. ربما.. يتنازل هو ويغير من موقفه! أقول العظمة لله وحده وسبحان العاطي الوهاب. كما اقول للزوجة كوني الكبيرة واحسني معاملة اهل زوجك بصرف النظر عن سلوكه تجاه اهلك فربما تلين عضلات عنقه وتسقط رأسه الشامخة قليلا ليرى أن الزوج هو رب الأسرة وان سلوكه هو القدوة لكل افرادها.

٨٢٧ ـ أبو عواد:

لا تسألين لماذا.. إنني على طول الخط مع الزواج المبكر للفتاة متى بلغت أو تعدت الثامنة عشرة.. وكل الأمور الأخرى من تعليم ودراسة وخلافه تستكمل بالتفاهم والتنسيق مع الزوج فى ضوء متطلبات واحتياجات المرحلة.

إني لأعجب إذا كان التعليم الجامعي وخلافه للفتاة وسيلة لغاية فى حشد عناصر ومتطلبات السعادة فى الحياة والتي غايتها بطبيعة الحال تكوين أسرة.. أقول اني لأعجب كيف تصبح الوسيلة غاية وتصرف عن الغايه ذاتها والأهم.

٨٢٧ ـ أم عمرو:

التعليم الجامعي مرحلة ضرورية لبناء الإنسان ذكراً كان او أنثى، لا اعتقد أنه مازال يعيش بيننا من يطالب بإلغاء التعليم الجامعى للفتاة وقصره على ما يجود به تنازل زوج قد يكون شاباً غريراً تنازعه الأهواء والآراء وإلا فنحن نتخبط ثقافيا وحضاريا بصورة مفزعه! انه من الأفضل أن نطلب من التعليم الجامعى ان يقدم للفتاة برنامجاً متكاملا يساعدها فى حياتها كزوجة وأم كما يساعدها كمواطنه وانسانة مسئولة وواعية قادرة على ان تختار لنفسها ولأسرتها ما يناسبها ويناسب ظروفها.

٨٢٨ ـ أبو عواد:

أحبّ الصراحة وأعشقها رغم أشواكها ورغم ما تسببه لي غالبا من متاعب. لكنني معك بالذات أتحاشى أن اكون صريحا كما يفترض ويجب أن اكون عليه.

لا لشيء يشعرني بالذنب أمامك أو أمام غيرك. وانما لأنني أرى في تعليقك المستمر على أيٍّ موقف ما يشعرني أن ثمة وصايه جديدة ومرجعية أخرى أنا معني بأخذ موافقتها على ما يجوز ومالا يجوز لي عمله في حدود الممكن والمقبول!!

٨٢٨ ـ أم عمرو:

ومن الذى يحدد الممكن والمقبول؟ اعتقد انه لو شارك الزوجان معا فى تحديده لما كانت هناك وصاية ولا تعليقات من واحد منهما تجاه مواقف الآخر.

٨٢٩ ـ أبو عواد:

بفارغ الصبر أتطلع إلى ذلك اليوم الذي نودع فيه المشاكل لنهنأ بما أنعم الله علينا من نعم يحسدنا عليها الكثيرون ممن يعيشون سعداء ويفتقرون إليها.. ونحن تعساء أو نبدو كذلك وقد حبانا الله منها الكثير

٨٢٩ ـ أم عمرو:

الحياة والمشاكل قرينان ولم توجد حياة من قبل بدون مشاكل إلا فى احلام الصبية وعقول

المراهقات المهم هو ان نتعلم ونعلم ابناءنا وبناتنا كيف يواجهون المشاكل ويتغلبون عليها بصورة منطقية وعملية فنحن لا نفتقد الحلول ولكن نفتقد غالبا القدره على تحديد المشكلات وتحجيمها.

٨٣٠ ـ أبو عواد:

الأهل يحرصون على تعليم الفتاه حرصهم على تعليم الفتى أملا في أن تفهم الحياة أكثر.. لكن معظم المتعلمات للأسف يفهمن الحياة بطريقة معكوسة وبدلا من أن تساعدهن الشهادة على الاقتراب من الواقع إذا بهن يعشن فى عالم خيالي حالم تزيد من عزلتهن رغم العلم والشهادة.

٨٣٠ ـ أم عمرو:

من أين جاءت وأين توجد هذه الإحصائية التى تقول بأن معظم المتعلمات يفهمن الحياة بطريقة معكوسة وأنهن يعشن فى عالم خيالى وهل سنطلق لأنفسنا العنان لإصدار تعميمات بناء على وجهات نظر شخصية. اذا كانت القضية كذلك فأنا أرى حولي الكثير من الأزواج الذين يتزوجون للمرة الثانية لا لشيء إلا لكون الزوجة الأولى غير متعلمة مما جعلها غير قادرة على تفهم حياة الزوج المتعلم ومطالبه وكيف نتصور عقلان متفاهمان لزوج وزوجه احدهما نال من التعليم حظاً وافراً والثانى عوقه الجهل عن النمو والتقدم

٨٣١ ـ أبو عواد:

لقد تعبت كلمة الحب من كثرة الادعياء.. وعندما يحين الوقت لترجمتها الى أفعال عملية على أرض الواقع الكل يتذرع بالحجج

٨٣١ ـ أم عمرو:

الحب عاطفة نبيله نرمز لها بالكلمات ونعبر عنها بالسلوك تبدأ بحب الله سبحانه وتعالى إلى حب الوطن والأهل والزوج والولد والناس جميعا ولا مكان فيها لنقص أو ناقص.

٨٣٢ ـ أبو عواد:

«الشرف» كلمه كبيرة ووسام رفيع وتاج لطالما تباهت حواء وتشدقت بحروفه وموسيقاه.. لكن الأقل شرفاً منها هم الذين يعرفون قيمة هذا الشرف ويعرفون تماماً أي الرؤوس تشمخ بتاجها وأيها تتباهي به تحت دائرة الضوء والضوء فقط.

٨٣٢ ـ أم عمرو:

لم اعرف ابداً ان هناك الأقل شرفاً والأكثر شرفاً ولكنى اعرف ان الشرف كلٌ لا يتجزأ أو هو سلوك ومنهج حياة للشرفاء لا يقل او يكثر أو تغنى عنه الكلمات وبالمناسبة الشرفاء يسلكون نفس السلوك تحت دائرة الضوء وفي أحلك الظلمات.

٨٣٣ ـ أبو عواد:

أيتها الزميلة.. لا أقول لك إلا كما قال ذلك المزارع لتلك النحله.. «يا نحله بـ «عسلك» .. دعينا نتبادل الاحترام والتقدير عن بعد.. إنّ الذي يبالغ فى تقديره لحوّاء سوف يثير من حوله ضوضاء تمسه وتمسها وفى نهاية المطاف أفضل أن يقال عليّ مُعقّد أو متحامل أو «شايف نفسه حبتين».. على أن أسمع كلمتين توقظ بمرارتها فرحتي التى يفزعها الضغط النفسي والزّعل اكثر مما يؤلها الحامض.

٨٣٣ ـ أم عمرو:

الاحترام والتقدير بين الرجل والمرأة اللذان يعملان فى مجال عمل واحد لا يثير الضوضاء عن بعد أو قرب. ما يثير الضوضاء هو كلمات او سلوكيات ينبع اغلبها عن عدم احترام او تقدير.

٨٣٤ ـ أبو عواد:

ارتباطي بك وحبي لك لا يعنى أن تصادري مني حق التعبير عن اعجابي بما يستحسنه عقلي وحواسي من عمل أو قول معتقدة أنك وحدك الأفضل دائما فى كل هذا على الأقل بالنسبة لي أنا.

٨٣٤ ـ أم عمرو:

قالوا له متى تزوجت يا صديقنا؟ قال لم اتزوج، زوجتي هى التى تزوجت فقط. وماذا لو استحسنت الزوجه اولاد الآخرين؟ هل هذا مقبول لعنتر؟

٨٣٥ ـ أبو عواد:

على الذين ضاقوا ذرعاً بزوجاتهم اللواتي أحلن حياتهم هماً وغماً وأجهدوا أنفسهم في تقويم اعوجاجهن أن يوفروا عليهم وقتهم وراحتهم ويرضوا بنصيبهم وحظهم فالأعوج يبقى أعوجاً .

٨٣٥ ـ أم عمرو:

لا مانع من ان يمضى كل فى طريقه اذا كان ما يبدو اعوجاجاً فى سلوك الزوجه ليس ناتجاً طبيعياً ، الحول فى عيني الزوج يحتاج نظارة طبية لإصلاحه.

رسالة إلى الحبيبة النائية

من محمد بن صالح العلوي

محمد عبد الواحد حجازي
مصر

* هو محمد بن صالح بن عبد الله.
* يكنى أبا عبد الله.
* شاعر حجازي ظريف جيد الشعر.
* من شعراء الدولة العباسية.
* عاصر المتوكل.

حبيبتي حمدونة:

وصلت مكة منذ سويعات فلا تذهلنك رسالتي إليك ولا تدهشي لها، ولا تحاولي أن تقصى ما وقع لأحد من جيرانك، أو أحد أصدقائى. فإن سألوك عنى فلا تخبرى بمكانى وكل ما عليك هو أن تقولي: علمه عند علام الغيوب، وعساه بالسلامة يؤوب. ذلك أننى لم أطق صبراً على تحديد إقامتي بمدينتكم، سامرا فأمير المؤمنين المتوكل أصدر أمره بذلك لاعتقاده أننى خطر على القوافل التى تجوب الصحراء، وخطر أيضا على القرى النائية.. وحاولت كثيرا، كما تعلمين أن أعتق روحى وإرادتى من هذا الاعتقال فما أفلحت.. ولما وجدت أن قد حيل بينى وبين أهلى فى مكة وأننى لن أراهم أبد الدهر فقد أحببت أن أتزود منهم بالنظرة الأخيرة.. بالكلمة الأخيرة.. بالبسمة الأخيرة وإن كنت قد أضمرت فى نفس الوقت ألا أعود إلى «سامرا» إذ أحكمت الاختفاء عن أعين رجال أمير المؤمنين فربما استطعت خلال اختفائي أن أوسط من يستصدر منه أمراً بالعفو عني.

ومن ثم يعود إلى نفسى أمنها وأمانها، وإلى روحى اطمئنانها وراحتها.

لم أحاول ليلة هروبى من بيتى أو هروبى من معتقلى الكبير «سامرا» أن أطلعك على ما نويته لأننى أعلم أنك تخافين من أقل همسة وتفزعين من أى طارق على بابنا.

كما كنت فى نفس الوقت أخشى فلتات لسانك والرقباء علي لا يهمدون ولا يكلون.

كانت ليلة هروبى مخاطرة محفوفة بالكوارث فقد كانت شديدة الحلكة مدلهمة الظلمات .. أطلقت لناقتى العنان تلقاء مكة في طريق مجهول .. وبعد أن توغلت وأمنت على نفسى نطقت بغير شعور قائلا: ما أشبه الليلة بالبارحة .. فى تلك اللحظات ازدحم خاطرى بصور الماضى.. صور الأيام الخوالى ولا سيما تلك التى التقيت فيها بك.

حبيبتي حمدونة:

نعم ، كانت الليلة التى شهدت لقاءنا الأول أروع جسارة وأجمل مخاطرة.. هل تذكرينها؟ لا ريب فى أنها أهم حدث فى حياتك وإننى إذ أذكرك بها فلعلها تسرى عنك، ولتعلمى أننى قاسيت من أجلك الكثير.. كنت وقتها مع جماعة من الصعاليك نهاجم القوافل وننهب ما بها من أموال وبضائع.. ووقعت قافلتك فى الكمين الذى نصبناه لها فقاتلنا من كان فيها فهزمناهم وملكنا القافلة، فبينا أنا أحوزها وأنيخ الجمال.. ماذا أقول يا حبيبتى .. ذكريات، كانت نعم سلواى فى ليلي الكئيب الرهيب:

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه
وتفرقا فرقا به أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى
برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه
صعب الذرى متمنع أركانه
فدنا لينظر كيف لاح فلم يطق
نظراً إليه وصده سجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
والماء ما سمحت به أجفانه

نعم، ملكنا القافلة فبينا أنا أحوزها وأنيخ الجمال إذ طلعت عليّ امرأة من العمارية ما رأيت قط أحسن منها وجهاً ولا أحلى منها منطقاً وإنها لأنت يا حمدونة. لقد قلتِ لي: يافتى، إن رأيتَ أن تدعو لى بالشريف المتولي أمر هذا الجيش. فقلت: قد رأيته وسمع كلامك. فقلتِ: سألتك بحق الله وبحقِ رسوله أنت هو؟ قلت: نعم، وحق الله وحق رسوله إني لهو. فقلت: أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحَربى. ولأبى محل من سلطانه ولنا نعمة إن كنت ممن سمعت بها فقد كفاك ما سمعت وإن كنت لم تسمع بها فاسأل عنها غيرى. ووالله لا

استأثرت عنك بشيء أملكه ولك بذلك عهد الله وميثاقه عليّ وما أسألك إلا أن تصونني وتسترني.

وهذه ألف دينار معي لنفقتي فخذها الآن حلالا، وهذا حلي علي من خمسمائه دينار فخذهن وضمني ما شئت بعده آخذ لك من تجار مكة والمدينة ومن أهل الموسم فليس أحد منهم يمنعنى شيئا. وادفع عني واحمني من أصحابك ومن عار يلحقني.. فوقع قولك من قلبي موقعا عظيما. فقلت لك: قد وهب الله لك مالك وجاهك وحليك، ووهب لك القافلة بجميع ما فيها.. ثم خرجت فناديت في أصحابي فاجتمعوا فناديت فيهم: إني قد أجرت هذه القافلة وأهلها وخفرتها وحميتها ولها ذمة الله ورسوله وذمتي فمن أخذ منها خيطا أو مخيطا أو عقالا فقد آذنته بحرب.. فانصرفوا معي، وانصرفت أنت.

حبيبتي حمدونة:

ثم عدت إلى مهاجمة القوافل وأطراف القرى، أفتك وأخرب وأنهب ثم أقسم المغانم بين أصحابي الصعاليك وعلى الفقراء البائسين.. ثم وقعت في يد رجال أمير المؤمنين فزجوا بي في السجن. وفي هذه المرة أيقنت أنني لن أرى الدنيا أبدا..

آه يا حمدونة يا حبيبتي يا أوفى زوجة وأخلص خليلة.. الذكريات تتوالى على خاطري: أخذت وحبست، وذات يوم وبينا أنا في محبسي - ولعلك لا تنسين أن هذه الواقعة من عملك وتدبيرك - إذ جاءني السجان فقال لي: إن بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك وقد حظر عليّ أن يدخل عليك أحد إلا أنهما أعطياني دُمْلجَ ذهب وجعلتاه لي إن أنا أوصلتهما إليك وقد أذنت لهما وهما في الدهليز فاخرج إليهما إن شئت. ففكرت فيمن يجيئني في هذا البلد وأنا به غريب لا يعرفني أحد. ثم قلت: لعلهما من ولد أمي أو بعض نساء أهلي. فخرجت إليكما فإذا بك وصاحبتك. فلما رأيتني بكيت من تغير حالي وخلقي وأقبلت صاحبتك عليك وقالت: أهو هو؟ فقلت: إنه والله هو. ثم رأيتك تتهادين نحوي وتقولين: فداك أبي وأمي، والله لو استطعت أن أقيك مما أنت فيه بنفسي وأهلي لفعلت وكنت مني بذلك حقيقا. ووالله لا تركت المعاونة لك والسعي معك في حاجتك وخلاصك بكل حيلة ومال وشفاعة.. ثم من الله علي بالحرية.

حبيبتي حمدونه:

هل تذكرين يوم راسلتك ثم جئت فخطبتك؟ هل تذكرين ماذا كان ردّك؟ لقد قلت لي: أما من جهتي أنا، فأنالك متابعة ولك مطيعة والأمر إلى أبي فأته.

فخطبتك إلى أبيك فردني قائلا: ما كنت لأحقق عليها ما شاع في الناس من أمرها وقد صيرتنا فضيحة، فقمت منكسا مستحيياً وقلت في ذلك:

رموني وإياها بشنعاء هم بها
أحق أدال الله منهم معجلا
بأمر تركناه ورب محمد
عيانا فإما عفة أو تجملا

وبقيت حائراً محزونا لا أدري ماذا أصنع.. ألا ما أصعب الجمود وأشقاه لنفوس المحبين.. ثم هداني تفكيري إلى أن أوسط صديقي الشاعر إبراهيم بن المدبر فذهب الى أبيك وقال له: قد جئتك في حاجة. فقال أبوك: مقضية.

فقال ابن المدبر: جئتك خاطبا إليك ابنتك.

فقال أبوك: هي لك أمة وأنا لك عبد وقد أجبتك. فقال ابن المدبر: إني خطبتها على من هو خير مني أبا وأما، وأشرف صهرا ومتصلا محمد بن صالح العلوي. فقال أبوك: يا سيدي، هذا قد لحقتنا به ظنة وقيلت فينا أقوال. فقال ابن المدبر: أفليست باطلة؟ فقال أبوك: بلى والحمد لله. فقال ابن المدبر: فكأنها لم تُقلْ، وإذا وقع النكاح أزال كل قول. ولم يزل به حتى أجاب .. ثم بعثوا إليّ فأحضرت وساق ابن المدبر الصداق عني ثم تزوجتك.

ذكريات .. ذكريات تنير طريقي في الليالي الحالكات..

ماذا أقول لك يا حمدونة وأنا في محنتي هذه.. قلبك معي يبعث فيّ الأمل وإنني لمستبشر به.. فلسوف يمن الله على بحريّتي.

لعمر حمدونة إني بها
لمغرم القلب طويل السقام
مجاوز للقدر في حبها
مباين فيها لأهل الملام
مشايعي قلبي يخاف الخنى
وصارم يقطع صم العظام
جشمني ذلك وجدي بها
وفضلها بين النساء الوسام
ساجية الطرف نؤوم الضحى
منيرة الوجه كبرق الغمام
زينها الله وما شانها
وأعطيت منيتها من تمام

العشق مرآة النفوس

شعر: د. عاتكة الخزرجي

أدرك أيا ملك المدينة
الريح تعصف بالسفينة
ربانها ساه وقد
كاد الهوى يلوي يمينه..!
قل لي بربك يافتى:
أبوسع مثلك أن يعينه؟
دع جامحات الحبّ
والزم شرعة الحبّ الرصينه
فالدين أمر بالتقى
وتقى الفتى شرف وزينه
والعشق مرآة النفوس
يريكها صوراً أمينه
والعشق جذب في النفوس
قرينها لاقى قرينه
والعشق في العشاق أمن
فلتكن أبدا أمينه!

* * *

هذي فتاتك يا فتى
شرف فحاذر أن تخونه
هذي فتاتك للتقى
هبة فهل لك ان تكونه؟
وفؤادها وقف عليك
أما بوسعك أن تصونه؟!

* * *

فكن الفتى كل الفتى
دنيا من المثل الرزينه
دنيا من الحب العفيف
ومن سرائره الدفينه
دنيا من الحب المقدس
يصهر الروح الأمينه
وكن الفتى .. إن سار
يمحق نوره سدف المدينه
وكن الامين على العهود
ولا تخن عهد الأمينه
لا تشركن بالحب إنّ
القلب يرفض ان تهينه
فلأنتَ من قلب مناه
وكنت دنياه ودينه

* * *

قل لي بربك يافتاي
ألأنت من ماء وطينه..؟
أم أنت من نور عصرت
ومن شذى سبكتك جينه؟
قل لي: ألأنت الطل نثاثا
أم أنك «ورد ميسينه»
ام «رازقي» أنت «جوري»
أم انك «يا سمينه»؟
بل أنت من روْح وراح
أنت من روح أمينه..!
قل لي: أتعرف يافتى

ما العشق أو تدري فنونه..؟
أأتاك عن صرعى الهوى
ورويت عن «قيس» جنونه..؟
أعلمت ماجر الغرام
ونال ممن يتبعونه..؟
كم هد صرحاً مرلوه
وثل عرشاً يحرسونه!!

* * *

أعشقت قل لي يا فتى!
أم أنت .. تعبث فى رعونه؟!
لا تعرف القلب اللهيف
ولاجوى الروح الحرونه..!
بل أنت تجهل ما يطيف
بجنة الحب الحنونه..!
لم تَحْبُ فى أفيائها
بل لم تحُطك الزيزفونه..!
قل لي أمسَّك للهوى
سحر عرفت به فتونه
ورقيت لم تجد الرقى
والطب لم يُعمل فنونه!
أعرفت ما التسهيد إذ
ينبو الوساد على ليونه!
وعرفت ما الحسرات والآ
هات والعين الهتونه!
وذهاب عقل المرء أو
إبداله منه جنونه..!

* * *

أعرفت قل لي يافتى
من بعض ما قد يعرفونه..؟
أم أنت تجهل كل ما
في الحب يلقى المغرمونه..؟

قدك اتئد لا تمض
في الدعوى لدى من يعشقون..!
أخشى عليك جريرة
تزري بملك يعبلونه..!
أفكافر بالحب لا بل..
عابث عشق الرعونه!
تتصيد الحسناء باسْم ا
لحب تصليها أتونه.
وتزجها رهن الشباك ك
أنها بعض المؤونه..!
تلهو بها.. كالمستبيح لحرمة
الفضلى المصونه..!
أفمارق ألِفَ الخروجَ على
المحبة فى مرونه..؟
ينصاع للشهوات وحشا
كاسراً إذ يطلقونه..!
ينقض يلتهم الفرائس
ثم يسقيها منونه..
ليسلمها لفم المزابل
عبر أنياب طحونه..!!
يا مارقاً عد للمحبة
إنها الدرب الحصينه
وصن الجمال إذا عشقت
فإنه نور وزينه
وكن الفتى كل الفتى
أجدر بمثلك ان يكونه
فلأنت من نور عُصرت
ومن شذى سبكتك جينه
بل أنت من رَوْح وراح
أنت من رُوح أمينه

قول وتعقيب :

بل نحن مغزوون

بقلم:
عدنان موسى التمبكتي
- الرياض -

اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة
وان كنت تدري فالمصيبة اعظم

بنهاية شهر محرم ١٤١٧هـ ينتهي عام كامل على المقابله التى أجرتها مجلة المنهل مع الأستاذ/ ثروت اباظه، والتي يقول فيها بعدم وجود غزو فكري تتعرض له امتنا الاسلامية. ونظرا لخطورة ما ذهب اليه الكاتب الكبير فانني رأيت أن ابدي وجهة نظري فيما ذهب اليه، وبعد ان قرأت المقابلة ايقنت اكثر اننا وصلنا الى درجة تقرب من الاحتلال الفكري لاسباب منها:

١ - ان الأستاذ/ ثروت اباظه ليس بالشخصية الهامشية بصرف النظر عن رأيها في القضايا الفكرية والوطنية.

٢ - ان وظيفتي ثروت اباظه تؤهلانه لأن يكون ذا تأثير في المجتمع فوظيفته الرسمية تؤهله لان يكون في موقع توجيه المجتمع، والوظيفة الثانية كونه كاتباً كبيراً تؤهله لأن يعرف موطن الخلل بالتدقيق والتحليل.

يقول الاستاذ/ ثروت اباظه في رده على سؤال مجلة المنهل عن الغزو الفكري خطر يتربص بعقولنا وقلوبنا وهويتنا ألست معي في هذا التصور؟ يجيب الاستاذ/ ثروت اباظة انا ضدك على طول خط مستقيم ليس هناك شيء اسمه (غزو فكري) وهو مرفوض [لم يوضح الأستاذ/ ثروت الشيء المرفوض أهو الغزو ام وقوعه] ولكن سياق المقابلة يوضح ان المرفوض هو وقوع الغزو جملة وتفصيلا والمثل امامنا مصر غزيت بالفرنسيين [يقصد من الفرنسيين] الباء تعتبر للمصاحبة[١] والاتراك والانجليز واليهود ولم تستطع قوة من هذه القوى ومنها القوى الكبرى - ان تغزو الفكر المصري (المراد تغيير الفكر المصري لان الغزو وقع بقيام هذه القوى به) فماذا تقصد بالغزو الفكري ولابد ان نكون على إلمام بكل لغات العالم وادابه ونستخلص منها ما نحب.. انتهي.

ليته قال لم تستطع ان تؤثر فى الفكر المصري، لان وقوع الغزو غير تأثيره، فالغزو وقع باعترافه، وتأثيره هو المفروض ان يكون مجالا للشك، ولكن يا أستاذ ما رأيك فيما نقله التلفزيون المصري على قناته الفضائيه، حيث قدم مقدم احد البرامج الشعبية جائزة من ذهب لمن يرتب الشهور العربية حسب تسلسلها فلم يستطع أحد ممن قابلهم ترتيب هذه الشهور، ثم طرح السؤال على شكل آخر وهو تسمية الشهر الثاني والسابع والثامن من الشهور العربية فلم يستطع احد ممن قابلهم تسميتها ومنهم طلبة جامعات ومدرسين، وحجبت الجائزة، بينما يحفظون عن ظهر قلب الشهور الميلادية (الافرنجية) وهي اشهر لا تمت بصلة الى تاريخنا. اليس هذا من الغزو؟ واقول للاستاذ ان الغزو قد وقع وأدى كثيرا من اهدافه والبقية تأتي. وهل يذكر الاستاذ كيف كان التقويم في مصر قبل ٢٩ رجب ١٢٩٢ هجرية؟ وهل كان المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي يؤرخ للحوادث التى ارخ لها بالتاريخ الافرنجي في كتابه تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار.

ومن امثلة الغزو استبدال التقويم الهجري الذي يرتبط بامور دينية وثقافية وحضارية بالتقويم الميلادي الذي انتشر في عالمنا الاسلامي حتى يكاد ينسينا تقويمنا الهجري وهذا ينطوي على امور خطيرة لان التقويم الهجري يرتبط بكثير من الامور الدينية والثقافية لحضارتنا مثل الصيام والزكاة.

وثاني مثال على الغزو الرقم المعرب الذي نستعمله الآن الذي يعاني من الغزو حيث اصبحت وسائل الاعلام مثل الصحافة تُحلُّ محله الرقم الغربي بحجة انه هو الرقم العربي الاصلي مع أنه ليس للعرب في فجر تاريخهم رقماً وكان العرب يكتبون الارقام بالحروف.

لذلك فقد ادخل علماء النحو في قواعده باباً خاصاً في اعراب الاعداد. واما الارقام الموجودة الآن المعربه منها والمغربه فهي هندية الاصل[٢] وقد ادخل العرب الاسهل من هذه الاعداد تسهيلا لمعاملاتهم الحسابية منذ قرون واستمروا عليها حتى جاءت هذه الغزوة التي سرت في معظم نواحي الحياة.

وثالث هذه الامثلة الزي، لقد اصبح الزي الافرنجي الزي السائد في معظم البلاد الاسلامية حتى لا تكاد تجد من يلبس اللباس الوطني الا ما ندر حتى عندنا فى المملكة العربية السعودية البلد الذي لا يزال حتى الآن يتمسك بتراثه وقيمه ودينه لا تجد من يلبس اللبس الوطني خارج المملكة حتى لو كان ممثلا رسمياً للدولة الا ما ندر.

في الثقافة:

تعتبر السينما والتلفزيون من اهم الوسائل الثقافية الحديثة لذا فان تأثيرها على الرأي العام كبير جداً، وقد توجهت هاتان الوسيلتان الى افساد المجتمع بترك الفضيلة واتجهت الى افساد الاخلاق لما تروجه من سموم في الرأي العام. فقلما تجد فيها ما يجسد الفضيلة بل اتجهت الى اظهار الانسان العربي في مظهر الانسان الاناني الذي لا يسعى الا الى مصلحته، كما اتجهت الى اظهار مساوىء الاخلاق على انها ديدن الانسان العربي المسلم. ليس له هم سوى التزود بكل ما هو سيء واهمل التطلع الى معالي الاخلاق مثل التضحية والمروءه والكرم.

وأما التعليم فقد نبذنا ما وجدنا عليه تراثنا واستوردنا من الغرب اشياء لا يتفق الكثير منها مع مفاهيمنا. مثل تأديب الاولاد في المدارس حيث ألغيت وسائل العقاب المعروفة ومعروف انه اذا غاب العقاب أسيء الادب فالطالب مثلا لا يمكن ان يؤدب بالضرب في المدارس مهما كان خطؤه ليس هذا من موروثنا في التربية بل من وسائل التربية الوافدة. كما ان تطبيق نظريات علم النفس والاجتماع التي بنيت على تجارب الغرب على المجتمع الغربي لا على مجتمعنا بكل ما تحمل من سلبيات وايجابيات فيه الكثير من الخطأ ولقد دعا احد اساطين التغريب والغزو فى عالمنا العربي الى الاخذ بكل ما هو غربي لنتمكن من اللحاق بالغرب[٣].

ثم يعود الاستاذ ثروت في الصفحة التالية من المقابلة ليعترف بالغزو الفكري وليضع له تسمية اخرى وهي [الهجوم الفكري] ثم يفرق بين الغزو والهجوم معرفاً الغزو بانه التسليم والضعف وهو تعريف غريب لم يرد في معاجم اللغة ولا في اساليب اللغة العربية وكلمة الغزو لم يرد لها معنى بهذا الفهم.

فلسان العرب يقول في مادة غزا:

غزا الشيء غزواً اراده وطلبه ومغزى الكلام مقصده. والغزو القصد..

مختار الصحاح: غزوت العدو من باب عدا والاسم غزاه...

المصباح المنير: لخصه في أن يكون [غزو العدو في بلاده].

المعجم الوسيط: غزا العدو غزواً سار الى قتالهم وانتهى بهم في ديارهم.

وقال الله عز وجل في محكم التنزيل {وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض او كانوا غُزّى} (آل عمران/١٥٦).

اي كانوا في الغزو تفسير ابن كثير ص ٣٩٦ المجلد الاول طبعة الرياض.

وفي القرطبي [كانوا غزى] غزاة قتلوا.

واورد الشيخ محمد الامين الشنقيطي في تفسير اضواء البيان نفس المعنى الجزء الاول ص ٣٥٨ طبعة دار الافتاء.

في المعاجم التي اوردنا نصوصاً من تفسيرها لكلمة الغزو يتضح فساد فهم الاستاذ لمعنى الغزو والآن يجدر بنا ايضاح المعنى الحقيقي للغزو الفكري.. الغزو الفكري هو توجيه الوسائل الفكرية للأمة الغازية إلى الأمة المغزوة للسيطرة عليها بدون استعمال الوسائل العسكرية وهو أخطر من الغزو العسكري.

واسلحته تلويث فكر الأمة المغزوة وتوهين مبادئها والاستخفاف بآرائها وتقاليدها وتراثها ومعتقداتها الاصلية لتتقبل بسهولة الافكار والثقافة والمبادىء الوافدة اليها والغازية لها لاذابتها في اطار مفاهيم الامة الغازية واعتبارها أفضل من مفاهيم ومعتقدات الامة المغزوة، وقد انتهج هذا الغزو اساليب مختلفة في مختلف النواحي الثقافية والفكرية لامتنا.

ويختلف الغزو عن الاقتباس فالاقتباس ان يؤخذ من الحضارة ما لا يتعارض مع حضارتنا وقيمنا وثقافتنا من الامور العلمية والحضارية كأن نستبدل التداوي بالوسائل الطبية الحديثة كالتشخيص والتحليل بدلا من الوسائل البدائية كالتداوي بالأعشاب وما إلى ذلك من الوسائل البدائية.

في الدين:

الدين هو رأس الامر كله به تستقيم الحياة والاخلاق وبه صلاح الدنيا والآخرة وقد دعا بعض دعاة التغريب المصفقين للغزو الى نبذه لانه نظام لا يصلح للتطبيق في القرن العشرين لان احكامه اضحت قديمة الآن ولا تتناسب مع القرن العشرين ومن الميزات التي ميز الله بها حكومتنا الرشيدة انها تمسكت بأهداب الدين الاسلامي وجعلت دستورها القرآن الكريم وامرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وقائمة الغزو طويلة لا يمكن حصرها في مقالة بل لا يمكن حصرها البتة، فهناك العلمانية وما يتفرع منها والاخذ من وسائل الحضارة الغربية وما ينتج عنها وتقليد المغلوب للغالب.

---

(١) لأن الباء تفيد المصاحبة.

(٢) مجلة الازهر عدد شوال ١٤١٣هـ ص ١٥٦٦

(٣) ثقافتنا الاسلامية بين الغزو والاستفزاز للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٩٢ طبعة دار المعرفة.

راجع جامع الدروس العربية للشيخ مصطفى القلاييني الجزء الثالث ص ١٦٩ ط٧، واللالىء الكمينة في شرح الدره الثمينة ص ٢٣٨ للشيخ محمد الطيب الانصاري الطبعة الاولى.



د. أبو حسام
المنصورة

١٨٠ ـ الغريبة الأولى:

من غرائب الحياة ما ذكره الدكتور أحمد أمين ص ٢٧٠ في قاموس العادات والتقاليد نقلا عن علي مبارك باشا حول إقامة مسجد كبير لقاطع طريق مجرم، حيث قال ما نصّه:

إن الشيخ صالح كان في مبدأ أمره قاطع طريق، وكان له صاحبان ملازمان له، أحدهما الشيخ يوسف المدفون في شارع قصر العيني، والثاني لم أقف على اسمه، وإنما كان يجلس بحارة درب سعادة على مصطبة بيت متخرب، ويتزيّى بزيِّ الدراويش، وللناس فيه اعتقاد كبير، ويزعمون أنه من الأولياء فيتبركون به ويقبلون يده، وكان يستمر جالساً إلى الليل، وكلما مرَّ عليه رجل بمفرده، يقول: يا واحد، فيخرج في الحال من البيت جملة رجال يحتاطون به، ويدخلونه البيت قهرا عنه فيقتلونه ويسلبون ما معه، واستمروا على ذلك الفعل القبيح طويلا، إلى أن شعر الضابط المراقب بذلك، فأكمن كمينا، وحرّض على المرور رجلا كالعادة، فنادى الشيخ كعادته: يا واحد، فخرجت الرجال واحتاطت به، وإذا بالكمين يخرج عليهم ويضبطهم، فعوقبوا عقابا شديدا، حتى اعترف الشيخ على صاحبيه وأقر بالواقع، ولكن الشيخ صالح احتمى بمغنية شهيرة كانت لها صلة ببعض الحكام فادعت أنه مجنون ووضعت في يده قيدا من الحديد، وظلت تواصل حمايتها حتى أفرج عنه بدعوى الجنون، وللأسف شاع بين الناس أن له كرامات وأنه يخبر بالمغيبات، فقصده كثير من العامة، واعتقدوا فيه اعتقادا كبيرا، وازدحم بيته بالزوار، وتكاثرت عليه الهدايا الثمينة، كل ذلك وهو صامت لا يتكلم بل يجلس على الفراش، وعليه حِرَامٌ صوفي أبيض، وفي رجليه قيود الحديد، وحوله الخدم، وعند رأسه امرأة تروّح عليه بمروحة، وهو يحرك رأسه، ويلعب بشفتيه مصدراً حروفا لا معنى لها، فعند ذلك تقول المرأة للحاضرين، فلانة ستتزوج، فلانة سيصلح حالها مع زوجها، فلان سيعود من السفر، إلى غير ذلك من الخرافات، فيتفاءل صاحب الطلب ويسر.

وبسبب ذلك صارت له ثروة كبيرة، ومات فانتقل صيته الكاذب الى الخديوي اسماعيل

فبنى له مسجدا كبيرا يعرف باسمه للآن (مسجد الشيخ صالح أبي حديد).

يقول الدكتور أحمد أمين نقلا عن على مبارك: وهو مسجد عظيم لم يبن لغيره من الأفاضل ذوي المعارف والفنون، ولكن هذه عادة قديمة ألفها المصريون من قديم الزمان، وطالما نبَّه عليها كثير من المؤلفين فى كتبهم فلا حول ولا قوة إلا بالله!

والسؤال الحائر إلى اليوم، لماذا يُسمَّى المسجد للآن باسم هذا المجرم قاطع الطريق، وقد عُرف جرمه الفادح وسُجل فى كتب موثوق بها مثل الخطط التوفيقية لعلي مبارك، وقاموس العادات والتقاليد لأحمد أمين؟! وهما من هما بين المؤلفين!

١٨١ - الغريبة الثانية:

قال الدكتور توفيق الطويل في كتاب (التصوف فى مصر إبان العصر العثماني) ص ١٤٢ تحت عنوان «نفوذهم أمواتاً» بعد مقدمة تاريخية ذات دلالة اجتماعية أليمة:

وقد كان في طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثماني فى مصر من يسمَّى بعلى البكرى، وكان رجلا مخبولا يمشى فى الأسواق والشوارع عارياً مكشوف الرأس والسوأتين فى أغلب حالاته، أو يلبس قميصاً وطاقية، ويسير حافي القدمين، يخلط فى أحاديثه، فيتبعه الأطفال والصغار وطغام الناس ويسيرون وراءه بين منكر عليه ومصدق لولايته، ولكن أكثر الناس قد مالوا إليه وصحت عندهم ولايته، كما هي عادة أهل مصر فى أمثاله - كما يقول الجبرتي - وكان له أخ صاحب دهاء ومكر، فبدا له أن يستغل إيمان الناس بولاية أخيه عسى أن يكسب من ورائه، فحجر عليه ، وحرَّم عليه مغادرة البيت وألبسه ثيابا، وأظهر للناس أنه أذن له بذلك، وأنه تولى القطبانية، إلى غير ذلك من وسائل التضليل، فأقبل الرجال والنساء على زيارته، والتيمن به، وسماع ألفاظه، والإنصات إليها وتأويلها بما فى نفوسهم، وأفاضوا عليه الهدايا والنذور، وخصه بذلك كثير من السيدات ذوات الثراء، حتى أثرى أخوه واغتنى، ونفقت سلعته وصادت شبكته، وسمن من كثرة الأكل والدسم والراحة وفراغ البال حتى صار مثل (البوّ) العظيم، ولبث على هذا الحال حتى مات سنة سبع بعد المائتين والألف، فدفنوه بمعرفة أخيه فى مسجد الشرايبي من غير مبالاة ولا اكتراث، وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاما، ورتب له المقرئين والمداحين، وأرباب الأشاير والمنشدين يذكرون كراماته ويمدحونه بأحسن المدائح، وكانوا فى إنشادهم يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شبّاكه وأعتابه، ويغترفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى عبابهم وجيوبهم وهرع إلى زيارة مقامه النساء والرجال حاملين النذور، والشموع وضروب المأكولات، وصار مسجده مجمعا لهؤلاء.

هذا ما قاله الدكتور الطويل نقلا عن الجبرتى مؤرخ العصر، والحق أن الجبرتى لم يذكر هذه النوادر المضحكة إلا ليعيبها ويحرّمها، ويدعو إلى اجتنابها، وفى كل عصر ينهض المصلحون من ذوي الرأي فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن جند الباطل له قوته الكاسحة من العامة والهمج، ومن جهلاء الأغنياء الذين يصدقون الخرافات عن غباء!

ولئن راج هذا الرجل منذ ثلاثة قرون فأكثر، فإننا نحمد الله أن انجلت الغشاوة عن العيون، فجاء الحق وزهق الباطل، وقد كان البدر الحجازي من شعراء هذا العصر فأرسل قصائده الاصلاحية مستنكرا، وروى الجبرتي قصيدته الرائعة التى بدأها بقوله:

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا
كل ذى جنّة لدى الناس قطبا

١٨٢ - الغريبة الثالثة:

ذكر الأستاذ الكبير نقولا يوسف فى مجموعة (مواكب الناس) هذه الطرفه!

كان بإحدى بلاد المغول ضريح لوليّ عظيم اسمه (بهويار) وهو ضريح فخم موشّى بالذهب، ومزدان بأعمدة المرمر، والقباب العالية، ووفود الناس لا تنقطع عن زيارته، وقد توالت السنون عليه فتصدع بناؤه وزحف العمران عليه من كل جانب، وضاقت رحبته بالجماهير المحتشدة كل يوم. فرأى حاكم المدينة أن يقوم بتجديد الضريح، وترميمه، ولكن المهندسين أجمعوا على أن الترميم علاج وقتي وما يلبث أن يتصدع البناء ثانية فلابد من بناء ضريح جديد في مكان جديد يتسع لآلاف الزائرين، ولابد أن يقام احتفال مهيب بمناسبة نقل الرفات فى حفل دينى باهر يشترك فيه الشعب عن بكرة أبيه، ويبدأ الموكب برياسة الحاكم ومن حوله الوزراء والعلماء وكبار رجال الدولة! وتمت الموافقة على هذا الاقتراح، فشرع المهندسون على الفور فى تشييد الضريح الجديد وأحضروا مئات الرسّامين ليملئوا الجدران بالنقوش والزخارف، ثم طُليت القبة بماء الذهب، وحُليت أسوار الضريح بالعاج والجوهر، وسار الحاكم مع فريق من مستشاريه ليروا روعة البناء قبل أن ينقل تابوت الضريح فى الاحتفال العام عن قريب.

ولم يبق إلا أن يستخرج التابوت من الضريح القديم، ليكون صاحبه مستريحا فى تابوت آخر من الأبنوس الثمين، فذهب ثلاثة من الكبار إلى الضريح وبدأوا فى الحفر المتريث على رهبة وإجلال وخشوع، حتى إذا تم لهم استخراج التابوت هالهم أن يجدوا بقية من عظام حصان تآكل لحمه وبقي هيكله، فجعلوا يحدقون النظر مدهوشين. وقد اكفهرت الوجوه، وألجمت الألسنة، وضربت الأكف بالأكف فى عجب! وما أفاق الثلاثة من دهشتهم بعد أمد قصر أو طال حتى أسرعوا إلى الحاكم ليقولوا له فى حيرة: أطال الله عمرك يامولانا، لقد صدعنا بالأمر، ونزلنا إلى القبر ورفعنا الغطاء، فوجدنا فى التابوت هيكلا نظنه لحصان الملك شندار، وعليه اسمه وشعاره، فأسرعنا لنعلم ما يكون من أمركم الكريم فى هذا الموقف الخطير، فأطرق الحاكم ساعة، ثم قال: اكتموا هذا الأمر عن كل إنسان، كيلا تثور الخواطر ويحدث الشغب فى كل مكان، ويفترى بعض الناس بأن فى الأمر مكيدة مدبرة. وجاء بالكتاب، فحلفوا عليه أن يكتموا ما يعلمون.

وفى اليوم التالى سار أهل المدينة جميعا وراء التابوت المكسو بالمخمل، الموشّى بالذهب، يتقدمهم الحاكم والوزراء والوجهاء والولاة يحملون المشاعل والبيارق والأعلام، حتى بلغوا الضريح الجديد، فأودعوا التابوت فى خشوع وإجلال، وأمر الحاكم بأن تظل الحفلات الرسمية والمظاهرات الشعبية سبعة أيام، وفى

الليلة الأخيرة، تقرأ سيرة الوليّ، وتوزع الرتب والهدايا والنياشين ويشعر الشعب ببهجته واغتباطه بهذا التكريم الجليل.

١٨٣ - الغريبة الرابعة:

أما هذه الرابعة فمن الأناضول عن قصة تركية ترجمتها السيدة نازك جعفر بمجلة الثقافة، وفحوى هذه القصة أن ناصر الدين خوجه - وهو المعروف بجحا التركي - كان يشتغل مريدا طائعاً لشيخ جليل هو حاجى بكير، وحاجى بكير شيخ لمسجد كبير يشمل ضريحاً لأحد أولياء الله الكبار، وقد أصبح مزاره مهبطا لذوى الحاجات، فالمريض يؤم الضريح ليشفى والعاقر لتحمل، والمتهم ليبرئه القاضى، والمذنب ليتوب، وكل هؤلاء يحملون من الهدايا لحاجي بكير ما جعله فى صفوف الأغنياء. فاشترى حديقة كبيرة تؤتي أكلها الطيب كل حين وألحقها بالمسجد وبنى الدور واشترى المتاجر.. وخادمه المطيع (جحا) طوع أمره فى كل ما يأمر فهو وكيله فى البيع والشراء، ونائبه فى الإمامة والتسابيح وقراءة الأوراد.. وفي بعض الأيام أراد نصر الدين أن يسافر لأهله بضعة أيام، فسمح حاجى بكير له بالسفر لمدة معلومة، وأعطاه (أتاناً) يركبها، وقد اختار لها اسم «ظريفه» وبدأ المسافر رحلته ولكن الأتان مرضت فى الطريق ووافاها الموت سريعا، فتحير جحا، وخاف أن يرجع إلى حاجى بكير بدونها فلا يصدق موتها، ويطرده من ساحته، ثم بدا له أن يدفنها فى لحد، يضع عليه بعض الآجر، وما تمَّ البناء حتى رآه فريق من المارة، فأخذوا يتساءلون عن الدفين، فقال لهم جحا إنه أحد كبار الأولياء، وقد اوصاه أن يهتم بأمره حين يجيء الموت ففعل، فأخذ المارة يذكرون ويتمايلون، وهرع إليهم من حاكاهم، وانتهز جحا (نصر الدين خوجه) الموقف فأعلن أنه سيبني زاوية للميت الولي، فتتابعت الجموع لزيارة الشيخ الدفين، ووفد طلاب الحاجات من مرضى وأرامل وفقراء ومتهمين، يلتمسون الشفاعة، وبذلك صار نصر الدين مثل شيخه حاجى وطابت له المقام الهنيء ، ونظر حاجى بكير فوجد أن الناس قد انصرفوا عنه إلى الولي الجديد، فاغتاظ غيظا شديدا، وسارع بزيارة الضريح الجديد ففوجيء بتابعه نصر الدين يؤم الناس ويتناول النذور، فانتظر حتى صليت العشاء وانصرف الناس، وقال له: أصدقنى القول؟ من هذا الشيخ؟ فقال جحا إنها الأتان ظريفه مرضت فتطورت إلى صاحبة ضريح! فسكت حاجى بكير مذهولا، وظن جحا أن الشيخ سيفضح السرّ، فأخذ يرجوه فى الكتمان، فقال: على أن أكون شريكك هنا، حيث انصرف الناس عن مسجدى، فقال جحا، وماذا نفعل مع وليّ الضريح هناك؟ أخشى من انتقامه، فقال حاجى بكير: إن الوليّ هو والد ظريفة كان حمارا قويا، فدفنته حين مات، وشدت له الضريح، وها هى ذى كريمته ولية عهده تقوم مقامه الكريم.

١٨٤ - من شعر السيد حسن القاياتي:

عصر تزار به الموتى لخشيتها
وربك الحيِّ فيه غير مخشيّ
لا أكذب الحق كم سحتوت أرملة
لدى الإمامين والقبر الحسيني
صار الرفاعي ثعباناً فعظمه
يا آل موسى هنيئنا بالرفاعيّ



التجدد في لغة الخلود

بقلم:
د. محمد فؤاد الذاكري
- سوريا -

للقرآن والاسلام فضل كبير على اللغة العربية، فلقد دعا العرب للتعصب للغتهم والمحافظة عليها، كما دعا من اجاب الدعوة الاسلامية للتعصب مع العرب، في المحافظة على هذا اللسان القويم ورفع شأنه والسعي لنشره وتعليمه وعدّ ذلك عبادة وديناً، فاسرع المسلمون على اختلاف السنتهم ولهجاتهم الى حفظ كتاب الله وهدي رسول الله {صلى الله عليه وسلم}.

والقرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حكيم بلسان عربي مبين والذي أجمعت العقلاء على انه خير كتاب اخرجته يد العناية الالهية، وهو الكفيل بحياة اللغة العربية وخلودها وان تتفجر من بحره علومها وفنونها، وقد نزل بافضل لغة على أفضل الخلق المرسل، من افضل الناس الى الناس كافة.

وكان لزاما على المسلمين ان تكون تلك اللغة لسانهم الذى به يتخاطبون ويتعاهدون ويتحاببون ويتوادون لانها لغة الوحي المعجز والتشريع الخالد ولغة الرسول الكريم والصحابة اجمعين، ولغة العبادات الصلاة والأذان والحج، فالدين الاسلامي قد انزل للناس كافة، وجعلت اللغة العربية لسانه، فعروبة القرآن، قد تكفلت بخلود اللغة العربية، رغم تآمر اعداء العروبة والاسلام وتسليط سهامهم على كيان اللغة وامتها، ويندرج في ذلك الدعوة الى العامية..

فاللسان العربي، هو اللسان الطبيعي الموافق لكل اهواء النفس والجاري على سنن النواميس الطبيعية، وهو اوسع اللغات وأقومها بالأود وأملكها لأعنّة البلاغة، حتى كأنه هو اللسان الذى خُلق مع الانسان وخُلق للانسان، وارتقى بارتقائه وصار ينشأ وينمو بنشوئه ونموه في ميدان البلاغة وتفنن الاساليب.

واللغة العربية ذات مناطق سماعية ومناطق قياسية، فانقسام الكلمات الى اسم وفعل وحرف وكيفية كل من حيث الحركات، مرجعه السماع عن العرب، وليس لنا فيه أى رأي او اختيار، وقد تكفلت بذلك كتب اللغة فهي تعرب عنها وتضبطها، وهناك مقاييس استنبطها العلماء بالاستقراء والتتبع، وقد تجلي لهم كيف تأتي العرب باسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم الزمان والمكان والآلة والتصغير والمصدر من كل باب من ابواب المجرد والمزيد من الافعال مع بيان ما شذ من قواعدهم، وهو دليل جلي على انهم اتباع السماع، امناء في الاستقصاء وتأسيس القواعد وقد عرف ذلك بفن (التصريف).

وبعد ان تجتمع لك الكلمات بجوهرها الصافي ووزنها السليم وتريد ان تركب منها جملة مفيدة، لابد لك من عرضها على قواعد النحو، وليس العرض قاصرا على الاعراب والبناء والحركات، بل لابد من سابق معرفة، الى المفردات من حيث الافراد والتثنية والجمع ومن حيث التنكير والتعريف والتذكير والتأنيث، فلا يصح ان تأتي بمبتدأ نكرة الا اذا استوفى الشروط ولا بصفة نكرة لموصوف معرفة، ولا بصفة مثناة لموصوف مفرد، وهكذا كما هو مقرر عند النحاة.

ثم يأتي دور التقديم والتأخير في التركيب كما هو مقرر عندهم ايضا، فليس في التجديد تقديم ما اوجبوا تأخيره، ولا تأخير ما اوجبوا تقديمه، ولنضرب مثلا على ذلك، وهو ان خبر المبتدأ قد اوجبوا تأخيره في أربع مسائل واوجبوا تقديمه في اربع مسائل ايضا، وجوزوا الحالتين فيما فقد فيه موجبهما، فأوجبوا تأخيره:

١ ـ وان خيف التباسه بالمبتدأ.

٢ ـ وان خيف التباس المبتدأ بالفاعل.

٣ ـ وان اقترن بالا معنى او لفظا.

٤ ـ وان كان المبتدأ مستحقا التصدير.

ثم ننتقل الى الدقة والبلاغة والاحكام في الكلام مثل فصاحة الكلمة، فتكون بخلوها من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، ومثل فصاحة الكلام فيكون بعد فصاحة الكلمة ببعده من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات والتعقيد. ثم يأتي النظر في احوال المسند اليه من حذفه وتعريفه وتنكيره وتقديمه وتأخيره حسب مقتضيات الاحوال وكذلك احوال المسند والقصر والفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة وكل هذا وفق قواعد مقررة وضوابط محكمة قد اخذت عن بلغاء العرب وفرسان الفصاحة والبيان وقد جاء القرآن العظيم بالمُعجز منها، فيجب ان نُحسن المراعاة والتطبيق، وهذا العلم يعرف بعلم (المعاني). ثم يأتي بعده علم (البيان)، وفيه يظهر التجدد والابداع في التبيان، فهو علم التشبيه البليغ والاستعارات اللطيفة والكنايات الظريفة والخيال المتوقد، واقتباس المجاز من الأفكار السابحة في مختلف الأبحار، ويجد القارىء في كتب التراث العربي، أجمل الجمُل وأحلى المجاز واشهى التشبيه واسمى الاستعارات وبهذا تتجدد اللغة الخالدة، في هذا الفصل الذي يتلون بتلون الزمان والمكان والحضارة والتقدم والعلم واطوار الحياة ومخالطة الامم والانتفاع من افكارها وتشبيهاتها وخيالها، وقد كان في العرب كتاب قد ألموا بآداب بعض الامم، فاحسنوا الأخذ والاقتباس، وكذلك فعل (علي بن الجهم) عندما تغيرت البيئة عليه فاحسن التشبيه والخيال، وقال ابن الاثير: واما المكاتبات فانها بحر لا ساحل له، لان المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الايام وهي متجددة على عدد الانفاس.

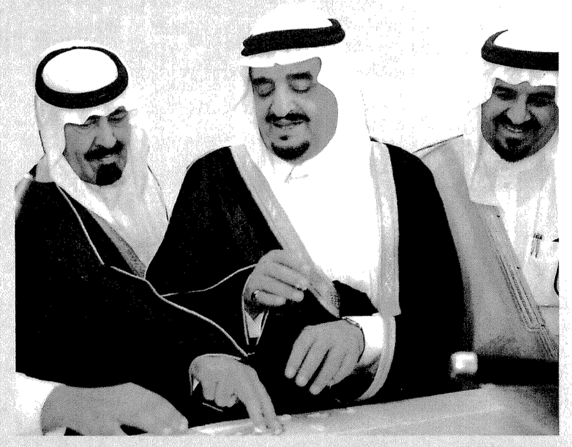
واما تقدير قيمة الاسلوب وتحبيذه او نبذه، فالواقع الحالي عائد الى الانواق وترى انه كالطعوم والروائح العطرية، فهناك كاتب هو في الاوج عند قوم وفي الحضيض عند آخرين.

غير ان قوانين اللغة الخالدة، تأبى ذلك وتجعل للتفاضل مستندات تحتكم اليها، وعلى قانون المستندات وجدت المعلقات وبه ردت الخنساء على حسان، وللعسل حلاوته، وان فقدها مريض الفم والقرآن العظيم اعجازه.. ولن ننسى اساليب الكتاب، ومميزات كل كاتب والفرق بين الكتابة الادبية والكتابة العلمية ثم اسلوب الكاتب اللغوي (كمقامات الهمزاني والحريري والزمخشري وابن الوردي والسيوطي) والكاتب الخيالي والكاتب الهزلي والكاتب التهكمي والكاتب الديني والسياسي والاجتماعي والاخلاقي، والكاتب الرمزي والكاتب الروائي والقصص وانواع المحسنات اللفظية والمعنوية.

ان الامة العربية: قد اصطفاها الله من ذرية آدم، قد اختارها الله من ضئضىء ابراهيم، قد حباها الله خير المكارم وافضل الشمائل، قد برأها الله من مساوىء الاخلاق ليختار منها افضل الرسل. قد تفضل الله عليها، فجعلها خير امة أخرجت للناس واختار منها خاتم النبيين، قد جعلها الله دعاة لكتابه، قد حفظها الله حفظه لشرعه، قد اصطفاها الله ناشرة لعدله داعية الى الله على بصيرة وهدى وما عرف التاريخ ارحم من العرب.



لا إله إلا الله محمد رسول الله
بمناسبة ذكرى اليوم الوطني
للمملكة العربية السعودية
تقدم
الرامكو السعودية
أسمى آيات التهاني وأجمل الأماني إلى
خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود
وإلى صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني
وإلى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود
النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام
وإلى حكومة المملكة العربية السعودية
وإلى الشعب السعودي الكريم



بمناسبة اليوم الوطني

صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل ومنسوبوها يتشرفون
برفع أسمى آيات التهاني وأجمل عبارات الأماني إلى مقام

خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود

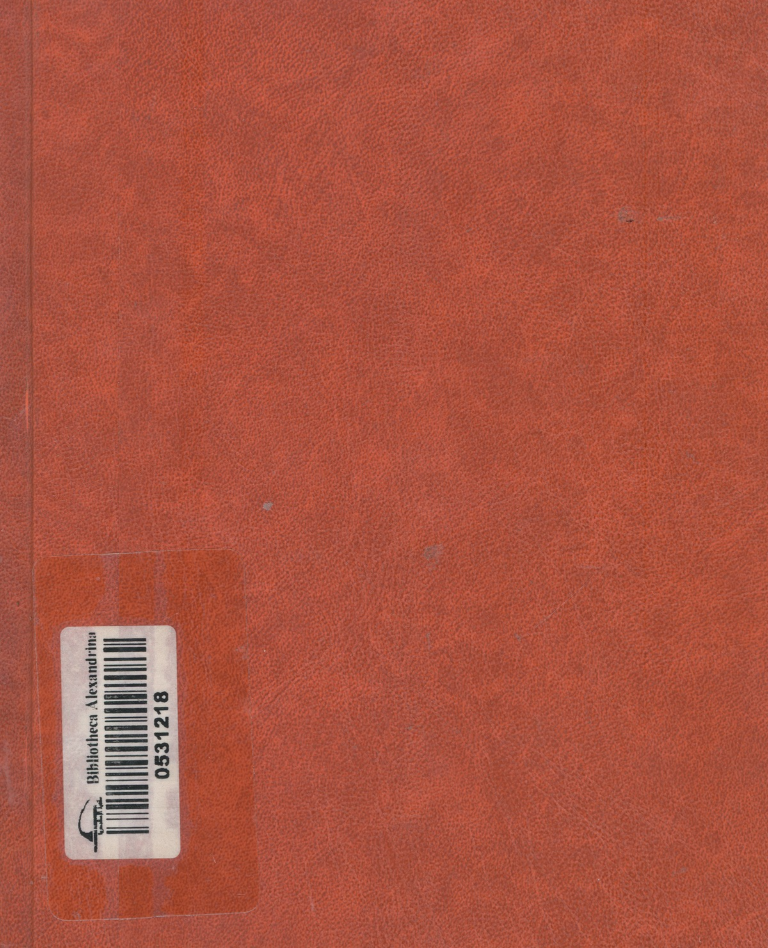
وصاحب السمو الملكي
الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني

وصاحب السمو الملكي
الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود

النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام

وبهذه المناسبة العزيزة نبتهل إلى المولى سبحانه أن يحفظ لبلادنا الغالية دينها وعزها وأمنها في ظل قيادة خادم الحرمين الشريفين ورعاية حكومته الرشيدة وأن تعود هذه الذكرى العاطرة عاما بعد عام وبلادنا في تقدم وازدهار.


Bibliotheca Alexandrina
0531218